جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

حقيقة الإسلام في عالم متغير

أبحاث ووقائع

المؤتمر العام الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

المنعقد بالقاهرة فى الفترة من:
٨ - ١١ ربيع الأول ١٤٢٣هـ / ٢٠ - ٢٣ مايو ٢٠٠٢م

تحت رعاية السيد الرئيس
محمد حسنى مبارك
رئيس جمهورية مصر العربية

إشراف وتقديم
أ. د. محمود حمدى زقزوق
وزير الأوقاف

القاهرة
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

حقيقة الإسلام في عالم متغير

أبحاث ووقائع

المؤتمر العام الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

المنعقد بالقاهرة فى الفترة من:
٨ ـ ١١ ربيع الأول ١٤٢٣هـ / ٢٠ ـ ٢٣ مايو ٢٠٠٢م

تحت رعاية السيد الرئيس

محمد حسني مبارك
رئيس جمهورية مصر العربية

إشراف وتقديم

أ. د. محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف

القاهرة
١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م



السيد الرئيس / محمد حسني مبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الأستاذ الدكتور / محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف

لم يتعرض الإسلام على مدى تاريخه كله لمثل هذه الحملة الضارية التى يتعرض لها اليوم ، وبصفة خاصة عن طريق الآلة الإعلامية الهائلة التى تتحكم فى توجيهها جهات مغرضة وعناصر مشبوهة تتعمد تشويه صورة الإسلام والمسلمين ، وغرس الكراهية فى نفوس المواطنين فى الغرب تجاه كل ما هو عربى وإسلامى.

ويتخذ هؤلاء من أحداث الحادى عشر من سبتمبر من العام الماضى ذريعة؛ لنشر سمومهم ضد الإسلام والمسلمين . ولسنا هنا فى موقف الدفاع عن الإسلام؛ لأن الإسلام قد أعلن منذ اللحظة الأولى أنه جاء رحمة للعالمين. ويؤكد القرآن الكريم ذلك بوضوح تام فى خطابه لمحمد ﷺ بقوله : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾(١)، كما جاء الإسلام ليقيم موازين الحق والعدل، ويرسى دعائم الأخلاق . وهذا ما أكده نبى الرحمة فى قوله ﷺ: «إنما

(١) الأنبياء : ١٠٧.

بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1]. فالإسلام إذن ليس فى حاجة إلى من يدافع عنه .

ولكن أبواق الشر صاخبة ، وظلمات الباطل طاغية ، وأصوات الكراهية والحقد عالية ، الأمر الذى تسبب فى حجب ضوء الحق عن الوصول إلى العقول والأفهام . ومن هنا راجت فى الخارج مفاهيم خاطئة وأفكار مغلوطة عن الإسلام ، واستقرت فى أذهان الكثيرين فى عالمنا المعاصر على نطاق لم يسبق له مثيل . وقد ساعد على ذلك ما شهده عالمنا المعاصر من ثورات وتطورات هائلة فى عالم الاتصالات والمعلومات والأقمار الصناعية والقنوات الفضائية والإنترنت . وأصبح دين الرحمة يقترن فى أذهان عامة الناس فى الغرب بالإرهاب والتطرف والتعصب والانغلاق ورفض الآخر ومعاداة الحضارة والتقدم .

وهذا أمر لا يجوز السكوت عليه . فالساكت عن الحق شيطان أخرس . ولا يجوز أن يقف المسلمون إزاء ذلك كله عاجزين عن فعل أى شىء لمواجهة هذه الهجمة الشرسة . وإذا كنا قد قلنا إن الإسلام ليس فى حاجة إلى من يدافع عنه، فإننا من جهة أخرى نقول : إن الإسلام فى حاجة إلى من يُعَرِّف به؛ مبرزًا الوجه الحضارى والإنسانى فى هذا الدين . فالواجب الإسلامى يتطلب منا أن نظهر تعاليم الإسلام الواضحة لكل الناس فى كل بلاد العالم وبلغات تلك البلاد ، حتى يعرف القاصى والدانى ما هو الإسلام على حقيقته من واقع مصادره الأصلية ، وليس من واقع بعض تصرفات حمقاء هنا وهناك تصدر من بعض أتباع الإسلام ،

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد .

ويحدث مثلها كثير من بعض أتباع الديانات والحضارات الأخرى ولا تنسب للأديان التى يدين بها هؤلاء مثلما يحدث ذلك مع الإسلام.

إن موقفنا مع الإسلام للأسف الشديد . والقياس مع الفارق الكبير بطبيعة الحال . مثل موقف صاحب متجر لديه بضاعة جيدة بجوار تاجر آخر لديه بضاعة رديئة، وهذا الأخير يعرف من فنون العرض والإعلان عن بضاعته ما لا يعرفه الآخر، فيقبل الناس على صاحب البضاعة الرديئة، وينصرفون عن صاحب البضاعة الجيدة الذى قصَّر فى حُسن عرض بضاعته والإعلان عنها . ونحن المسلمين مقصرون كل التقصير فى عرض تعاليم الإسلام على الآخرين بأسلوب جذاب ومحبب للنفوس . وكثير ممن يتصدون لعرض الإسلام فى الخارج يُنفِّرون الناس من الإسلام ويُركِّزون على أمور شكلية لا صلة لها بجوهر الإسلام، وبذلك يساعد هؤلاء خصوم الإسلام ـ دون قصد منهم بطبيعة الحال ـ فى تشويه صورة هذا الدين .

لكل ذلك وغيره كثير كان لابد لنا من أن نجعل موضوع المؤتمر السنوى للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية هذا العام مُنصباً على إبراز حقيقة الإسلام فى هذا العالم الذى يموج بالمتغيرات المتلاحقة والتطورات السريعة . وقد أسهم فى توضيح الصورة الحقيقية للإسلام فى هذا المؤتمر عدد من علماء الأمة الإسلامية من داخل مصر وخارجها . والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية حريص على إذاعة ما دار فى المؤتمر من مناقشات، وما طرح فيه من أفكار، وما قدم فيه من بحوث على نطاق واسع عن طريق النشر الطباعى أو النشر الإلكترونى .

ويسرنا أن نقدم اليوم للقارئ الكريم فى مصر والعالم العربى والإسلامى هذا السفر الكبير الذى يحوى بين دفتيه أبحاث ووقائع المؤتمر الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والذى عقد تحت رعاية كريمة من السيد الرئيس/ محمد حسنى مبارك - رئيس الجمهورية - حول موضوع: «حقيقة الإسلام فى عالم متغير».

ونرجو أن يكون فى نشر هذا الكتاب فائدة لقارئ، أو نفع لباحث، أو تنبيه لغافل، أو تصحيح لفكر خاطئ، أو دفع لاتهام باطل.

والله من وراء القصد ..

أ . د . محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف

٢٤ من المحرم ١٤٢٤هـ

٢٧ من مارس ٢٠٠٣م

كلمة السيد الرئيس

محمد حسنى مبارك

رئيس الجمهورية

في حفل افتتاح المؤتمر

ألقاها نيابة عن سيادته

أ. د. عاطف محمد عبيد

رئيس مجلس الوزراء

كلمة

السيد الرئيس محمد حسنى مبارك*

رئيس الجمهورية

الإخوة الكرام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

أود فى البداية أن أرحب بكم ضيوفًا أعزاء على أرض مصر التى يسعدها استقبالكم؛ للمشاركة فى المؤتمر السنوى للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، والذى ينعقد هذا العام فى ظل ظروف دولية وإقليمية بالغة الدقة ، خلفتها الأحداث المأساوية التى شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية فى شهر سبتمبر من العام الماضى ، والتى تركت آثارًا سلبية واضحة على صورة الإسلام فى العالم؛ لمجرد أن مرتكبيها من المسلمين ، فى تجاهل واضح لإدانة العالم الإسلامى لها ، ولمخالفة هذه الأفعال لتعاليم الديانة الإسلامية السمحة .

فعلى الرغم من أن الإسلام - الذى مضى عليه الآن أربعة عشر قرنًا من الزمان - قد أُنزل رحمة للعالمين؛ فقد نجحت بعض أبواق الدعاية الإعلامية فى التركيز على ما بدر من بعض أبناء المسلمين من تصرفات فى الفترة الأخيرة، وربطت بشكل أو بآخر بين الإسلام والإرهاب ، متجاهلة المسببات الأساسية لهذه الأحداث، والناجمة عن تزايد مشاعر اليأس والإحباط نتيجة لاعتبارات سياسية واقتصادية واجتماعية لا دخل للإسلام فيها من قريب أو بعيد.

ومؤتمركم اليوم يُعد حلقة فى سلسلة جهود ينبغى أن تتواصل وتتدعم من أجل الكشف عن الصورة الحقيقية السمحة للإسلام ، بوصفه دين سلام ومحبة

---

* ألقاها نيابة عن سيادته السيد الأستاذ الدكتور عاطف محمد عبيد رئيس مجلس الوزراء.

وتعايش إيجابى وتعاون مثمر بين البشر من كل الأجناس والأعراق والحضارات ، فى إطار يقوم على الحقائق التى حكمت وستحكم علاقة المسلمين بغيرهم من الشعوب ـ بغض النظر عن دياناتها ومذاهبها ـ وأهم تلك الحقائق:

أولاً : إن الأديان جميعها ـ بما فيها الإسلام ـ هى فى جوهرها دعوة إلى المحبة والسلام والخير ، ومن هنا لا يتصور أن تكون هذه الأديان مصدر شر لأى من شعوب العالم ، أو أن يستخدم الوازع الدينى لارتكاب أعمال عنف أو أعمال إرهابية .. إلا أن الفارق ينبغى أن يظل واضحًا بين من يستخدم حقه المشروع فى المقاومة لتخليص أرضه من الاحتلال الأجنبى المنافى لكافة القواعد الشرعية ـ بغض النظر عن ديانته ـ وبين من يرتكب أعمال عنف بهدف إرهاب شعب، والاستمرار فى احتلال أراضيه بالقوة، والسيطرة على مقدراته.

ثانيًا: إن الإسلام إذ يقر ويؤكد التعددية الدينية والحضارية بين شعوب العالم، فإنه يجعل من ذلك منطلقًا إلى التعارف والتآلف بين البشر ، وليس سببًا موجبًا للنزاع والصدام أو محركًا لنوازع الكراهية بين الناس. وذلك واضح كل الوضوح فى قوله تعالى :**﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا﴾**[1]. مما يعنى أن التعددية هى الأمر الطبيعى للتفاعل بين البشر، والتكامل بين الحضارات، والتعاون بين الشعوب؛ بهدف إثراء التجربة الإنسانية على مر العصور.

ثالثًا: إن تعرف الشعوب والحضارات والأديان على بعضها بعضًا من شأنه أن يزيل الجهل بالآخرين ، ويقضى على الكثير من الأحكام المسبقة والأفكار الخاطئة لدى كل طرف عن الطرف الآخر. فلكل منا تراثه الدينى والتاريخى القائم على العديد من القيم والعادات والتقاليد المتوارثة التى يحرص على الحفاظ عليها باعتبارها تشكل هويته

---

(١) الحجرات : ١٣.

القومية ، والتى قد لا تتعارض بالضرورة مع الهوية القومية للآخرين وإن كانت قد تختلف معها بشكل أو بآخر يسهم فى حد ذاته فى تشكيل التعددية الداعية للحوار وليس للصدام.

رابعًا: إن الإسلام إذ يؤكد على الدعوة إلى الحوار، فإنه يرفض دعوى صدام الحضارات؛ لأن الحضارات لا تتصادم ، وإنما تتفاعل وتتكامل ، ويأخذ بعضها من بعض، ويكمل بعضها بعضًا ، باعتبارها ثمرة عطاء الشعوب وحصاد أحداث التاريخ الذى تشارك الشعوب جميعها فى صناعته . وقد نبع فهمنا لهذه العلاقة بين الحضارات من المبادئ الأساسية للدين الإسلامى الذى يعتبر الإيمان بالديانات السماوية السابقة عليه شرطًا من شروط صحة الإسلام ، فقال الله تعالى فى كتابه الحكيم : **﴿آمنَ الرسولُ بما أُنزِلَ إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نُفرِّق بين أحدٍ من رُسلِه .. ﴾**[1]. وهكذا فإن إيمان المسلمين بعالمية الإسلام لا يعنى انفراد الحضارة الإسلامية بالعالم وتفوقها على الحضارات الأخرى التى سبقتها أو تلتها ، ولا يعنى فى نفس الوقت أن هناك أى حضارة أخرى تتفوق على الحضارة الإسلامية ، وإنما يعنى أن التعددية الحضارية والتنوع الثقافى هو الوضع الطبيعى ، وأن التفاعل مع الحضارات الأخرى هو الموقف الصحيح بين العزلة والتبعية .

الإخوة والأخوات :

إن المعرفة الحقيقية بالإسلام تبين أنه دين داعم لكل الجهود الخيرة من أجل صلاح هذا العالم الذى هو عالمنا جميعًا . وقد أثبتت دروس التاريخ أن الحروب لن تستطيع أن تحل مشاكل العالم ، بل تزيدها تعقيدًا، وأن طريق السلام القائم على الحوار والشرعية واحترام حقوق الغير هو الخيار الحقيقى أمام عالمنا إذا ما صدقت النية فى التخلص من كافة النوازع الشريرة ودوافعها.

---

(١) البقرة : ٢٨٥ .

وإننا لعلى يقين من أن القواسم المشتركة ونقاط الالتقاء بين الحضارات والأديان أكثر من الاختلافات فيما بينها ، والمطلوب فى هذا العصر - بل وفى كل عصر - هو البحث بصدق عن هذه القواسم المشتركة ، وإبرازها أمام الأجيال القادمة ، وتوعية الشعوب والمجتمعات فى كافة بقاع الأرض بها ؛ لترسيخ ثقافة السلام فى العالم.

ومن هنا يكتسب مؤتمركم أهميته الخاصة فى الإسهام فى تصحيح صورة الإسلام فى الأذهان فى داخل العالم الإسلامى وفى خارجه ، مما سيسهم بدوره فى التوصل إلى تعارف أفضل، وتفاهم أعمق، وتعاون أوثق بين البشر جميعًا - بغض النظر عن دياناتهم وحضاراتهم ومستوى تقدمهم - من أجل خدمة قضايا السلام والعدل والإخاء فى عالمنا المعاصر .

أتمنى لمؤتمركم التوفيق والنجاح ، ولضيوفنا الأعزاء إقامة طيبة فى القاهرة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

كلمــة

فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور

محمـد سيد طنطاوى

شيخ الأزهـر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا وشفيعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى أصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

الأستاذ الدكتور/ **عاطف عبيد** رئيس مجلس الوزراء

الإخوة العلماء ..

أحييكم جميعاً كل واحد باسمه، وألفاظ اللغة العربية ـ على اتساعها وغناها ـ لا تكفى للتعبير عما نشعر به من سرور عميق، ومن محبة خالصة، عندما نجد أنفسنا مع صفوة من العلماء، وندعو الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعلنا كلنا نتعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان، وفى مجالس العلماء ينبغى أن يكون الكلام محدداً، وعنوان هذا المؤتمر المبارك «**حقيقة الإسلام فى عالم متغير**» وهناك حقائق لا تختلف باختلاف الزمان أو المكان أو الأشخاص، وهى حقائق ثابتة لا تتغير .

أولى هذه الحقائق: أن حقيقة الإسلام هى حقيقة كل دين . فالإسلام معناه إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، هذه حقيقة جميع الرسل التى جاءوا بها ، وكل نبى أرسله الله

تعالى إلى الناس كانت الكلمة الأولى التى يقولها لقومه: ﴿**يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾[1]، ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾[2]، ﴿**وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾[3]، ﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾[4].

ويُجمل القرآن هذا المعنى فى آية كريمة هى قوله تعالى ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾[5].

الحقيقة الثانية: أن الناس جميعاً قد أوجدهم الله - عز وجل - من أب واحد ومن أم واحدة ، وأول آية من سورة النساء يقول الله فيها: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً**﴾[6].

الحقيقة الثالثة: أن من مقاصد الأديان أن الله أوجد الناس من أجل أن يتعارفوا، ونجد هذه الحقيقة فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم**﴾[7].

الحقيقة الرابعة: أن هذا التعارف يستلزم الحوار والمناقشة وتبادل المنافع بين الناس ، وتبادل الأفكار؛ لأن هذا التعارف يفيد الناس جميعا، فعندما أتعرف عليك وأنت تتعرف علىَّ فى هذه الحالة تتضح الأمور، ولذلك كان من المقاصد الأساسية التى أوجد الله ـ سبحانه وتعالى ـ الناس من أجلها أن يتعارفوا، وهذا التعارف ما دام يصدر عن قلب سليم، وعن عقل مستنير، وعن نية طيبة، لابد أن يولد الخير الذى يتمثل فى قوله عز وجل: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾[8].

---

(١) الأعراف : ٥٩.
(٢) المؤمنون : ٢٣.
(٣) الأعراف : ٦٥.
(٤) الأعراف : ٧٣
(٥) الأنبياء : ٢٥ .
(٦) النساء : ١ .
(٧) الحجرات : ١٣ .
(٨) المائدة: ٢.

ونحن نقرأ القرآن الكريم نجد أنه ساق لنا ألوانا من المحاورات التى دارت بين الرسل وأقوامهم، وبين أهل الجنة وأهل النار ، بل بين الخالق - عز وجل - وبين ملائكته وبين مخلوقاته بصفة عامة **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾**(١).

إذن الحوار من المقاصد التى من أجلها أوجد الله ـ سبحانه وتعالى ـ الناس .

الحقيقة الخامسة: أن الخلاف بين الناس فى عقائدهم لا يمنع من التعاون فيما بينهم؛ لأن العقائد لا تباع ولا تشترى .

الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرسل الرسل لكى يخرجوا الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وبين لنا القرآن الكريم فى آيات متعددة أنه لا إكراه فى الدين ، قال تعالى: **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾**(٢) .

الحقيقة السادسة: إن هذه الحياة معركة بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل ، وبين الفضائل وبين الرذائل، والقرآن الكريم بيَّن لنا ذلك فى آيات كثيرة **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾**(٣) يعنى أنه لولا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يسلط على الظالمين من يرد عليهم، ومن يوقفهم عند حدودهم، لفسدت الأرض .

وفى آية أخرى **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾**(٤). وهذه المعركة فى هذه الحياة العاقبة فيها لأهل الحق ، وقد بين لنا القرآن الكريم أن الدين الإسلامى يمد يده بالسلام وهناك آيتان كريمتان رسمتا العلاقة بين المسلمين ومن يخالفهم وهما:

---

(١) البقرة : ٣٠ .
(٢) البقرة : ٢٥٦ .
(٣) البقرة: ٢٥١.
(٤) الحج : ٤٠ .

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[1].

﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾[2].

هذه الحقائق لا تختلف باختلاف الزمان والمكان والأشخاص .

أقول لكم مرة أخرى نرحب بهذا الجمع الكريم من صفوة العلماء، وندعو الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل هذه اللقاءات فى ميزان حسناتنا يوم نلقاه **﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾**[3] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

---

(١) الممتحنة: ٨.   (٢) الممتحنة: ٩.   (٣) الانفطار: ١٩.

كلمة

قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

بسم الإله الواحد الذى نؤمن به جميعا، أحييكم جميعا: أحيى الأستاذ الدكتور عاطف عبيد رئيس مجلس الوزراء نائبا عن السيد الرئيس/ **محمد حسنى مبارك**، وأحيى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وأحيى الأستاذ الدكتور/ محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وأشكره على دعوته لى بالحضور، وأحيى الأستاذ الدكتور/ عبد الله التركى الأمين العام لرابطة العالم الإسلامى، والأستاذ الداعية الدكتور/ عبد الصبور مرزوق، وأحييكم جميعًا.

إننى أعجب للذين يهاجمون الإسلام ويربطونه بالإرهاب بينما هناك آية فى القرآن تقول إن السلام هو اسم من أسماء الله تبارك اسمه **﴿الملك القدوس السلام﴾**[١]، والقرآن أيضًا فى آية أخرى يقول : **﴿لا إكراه فى الدين﴾**[٢]، ونحن لا نوافق على تلك الحملة التى تهاجم الإسلام بسبب حادث معين .

إن أخطاء فرد أو أفراد أو جماعات لا تسىء إلى الدين ذاته، إنما حقيقة الدين تعرف منكم أنتم علماء الإسلام وفقهاؤه، ويجب أن نفرق بين المسلم الحقيقى وبين المسلم، الذى هو مجرد اسم إسلامى، وهو بعيد عن المفهوم السليم لحقيقة دين المسلم الذى يسلم الناس من يديه ولسانه ، والمسلم الحقيقى هو الذى لا يجادل أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن .

والمسلم الحقيقى هو الذى يعطى صورة مشرقة عن دينه، ويحبب الناس فيه، ولذلك نحن وإن كنا نؤمن تماما بأن التمسك بالدين والدفاع عنه ، هو من حق كل إنسان ومن طبيعته ، إلا أننا فى الحملة التى أثيرت ضد الإسلام ينبغى ـ وقبل أن نناقش النتائج ـ أن نناقش الأسباب ، والأسباب وهى أن جماعة أخطأوا، أو هناك من ارتكب حادثاً معيناً، ودائماً الذى يرتكب الحادث له شركاء على نوعين: الذين ضللوا، والذين شاركوا فى تنفيذ العمل .

ومع أن ذلك الحادث مشكوك تمامًا فى حقيقة من الذى قام به على وجه الدقة، إلا أنه كانت له نتائج فى موت أشخاص كثيرين أبرياء ، أريد أن أقول لكم أيها الإخوة الأحباب : إن هناك أناسا اندسوا على منابر التعليم، ونصبوا أنفسهم قوامين على تفسير الدين، واعتمدوا على مراجع من أوراق صفراء تحتاج إلى تحقيق ، هؤلاء يشرعون ويصدرون أحكاما وينفذونها، ويحكمون بالكفر على من يشاءون، ويهدرون دم من يشاءون، وينفذون الحكم .

وعلى علماء الإسلام أن يتخذوا موقفًا من هؤلاء، ليقدموا للناس صحيح الدين، والمفهوم السليم للدين ؛ لأنه ليس لكل إنسان يحمل اسم مسلم الحق فى التفسير ، والحق فى الإفتاء ، وفى التعليم الدينى ، وإنما هذا الحق لكم أنتم يا علماء المسلمين وفقهاءهم .

نحن نرجو لمؤتمركم هذا كل النجاح وكل التوفيق، لإعطاء الصورة الحقيقية للإسلام التى حاول البعض أن يشوهها، علما بأن تلك القلة الخارجة على تعاليم الإسلام والتى لها أخطاء تعلم وتشرع، وتذيع وتطبع، ويكون لكل ما تفعله ردود فعل عند الآخرين، وهجوم مضاد يقابله. ولذلك نحن نرجو التوفيق لهذا المؤتمر ونشكر على عقده وخصوصا فى هذه الظروف ، ونرجو أن يخرج على الناس بمعلومات قوية تعيد الأمور إلى مجراها السليم، وليكن الرب معكم فى اجتماعكم وشكرا.

---

(١) سورة الحشر، آية ٢٣.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٥٦.

كلمة

الأستاذ الدكتور/ محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف - رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الإخوة الأعزاء ضيوف مصر:

يسرنى أن أرحب بحضراتكم فى القاهرة ، شاكرًا لكم استجابتكم الكريمة لدعوة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية للمشاركة فى هذا المؤتمر، لكى نتدارس معًا - على نحو موضوعى - الصورة الحقيقية للإسلام إزاء ما يتعرض له هذا الدين فى عالمنا المعاصر من تشويه لتعاليمه ومبادئه ، ولنتعرف على الأسباب التى أدت وتؤدى إلى هذا الفهم الخاطئ . ويتصل بذلك - بطبيعة الحال - مناقشة العلاقة المستقبلية بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى فى العالم من منطلق أن مستقبل الأمة الإسلامية مرتبط ارتباطًا لا ينفصم بمستقبل هذا العالم الذى هو عالمنا جميعًا .

وهدفنا أن يكون هناك حوار حقيقى مثمر ، فقضايا عصرنا تهم كل إنسان فى هذا العالم الذى شهد فى الفترة الأخيرة تطورات متلاحقة فى مختلف المجالات، ولم يقتصر الأمر على التطورات الإيجابية فى مجالات العلم والتكنولوجيا والمعلومات والاتصالات، وإنما امتد ليشمل أحداثًا سلبية خطيرة وقعت فى العام الأول من القرن الحادى والعشرين - الذى كان من المفترض أن يكون عام الحوار بين الحضارات - وقد تمثل ذلك فى الأحداث المؤسفة التى وقعت فى سبتمبر من العام الماضى .

وليس هناك من شك فى أن هذه الأحداث سيكون لها آثار عميقة فى مسار التاريخ البشرى لفترة طويلة، ولم يكن العالم الإسلامى بعيداً عن ذلك كله، فقد وجد نفسه رغماً عنه فى قلب الأحداث، فحينما ترددت بعض الأسماء العربية للمشاركين فى أحداث سبتمبر، انعكس أثر ذلك بالسلب على الإسلام والمسلمين ، وعلى الحضارة الإسلامية بصفة عامة ، ووجدنا خلطاً للأوراق ، وربطاً ظالماً بين الإسلام والإرهاب ، واتهاماً للعرب والمسلمين بمعاداة الحضارة وتشجيع الإرهاب.

السيدات والسادة:

إنه على الرغم من أن العالم ليس حديث عهد بالإسلام الذى قدم للإنسانية على مدى قرون عديدة حضارة مزدهرة، أثّرتْ الحضارة الإنسانية بصفة عامة والحضارة الغربية بصفة خاصة ، فإن محاولات طمس هذا التاريخ الحضارى المشرق لم تتوقف ، وازدادت حدتها فى الآونة الأخيرة بصورة لم يشهدها العالم من قبل .

والواجب يحتم علينا أن نواجه ذلك كله على كافة الأصعدة لتوضيح الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين . فالعالم فى حاجة إلى المسلمين الذين يشكلون خُمس سُكَّانه ، والمسلمون بدورهم فى حاجة إلى العالم ، فالانعزال لم يعد خياراً وارداً بل أصبح من المستحيلات فى عالم اليوم .

وإذا أراد العالم السلام والاستقرار والأمن، فلابد من تعاون الجميع فى كل المجالات، لتحقيق الأهداف المرجوة للبشرية فى حياة حرة كريمة لكل البشر فى كل مكان فى العالم . ومن هنا فإن الحوار الموضوعى بين الأديان والحضارات والشعوب هو السبيل الوحيد لتحقيق السلام المنشود .

الإخوة الأعزاء:

إن مؤتمر هذا العام له أهمية خاصة تتعدى حدود العالم الإسلامى . وإن إلقاء نظرة على محاور هذا المؤتمر تبين لنا أن الأمر يهم المسلمين، كما يهم بنفس القدر غير المسلمين فى كل مكان فى العالم . فغير المسلمين يهمهم أن يتعرفوا على حقيقة

الإسلام، وعلاقة المسلمين بغيرهم من شعوب العالم ، كما يهمهم أيضًا التعرف على حقيقة الجهاد، وصلته بظاهرة الإرهاب التى تهدد عالم اليوم ، كما يهمهم على وجه الخصوص التعرف على رؤية المسلمين لمستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى بصفة عامة ، والحضارة الغربية بصفة خاصة.

وهذه الموضوعات وما تشتمل عليه من تفاصيل تشكل المحاور الأساسية التى سيتكفل هذا المؤتمر ببحثها .

ولعله من نافلة القول أن نؤكد أن المسلمين جادون فى المشاركة فى بناء جسور متينة بين العالم الإسلامى وبقية دول العالم ، جسور لا تقتصر على المصالح الاقتصادية والمنافع الوقتية فحسب ، بل تتأسس بصفة خاصة على تعرف حقيقى لكل طرف على الطرف الآخر ، هذا التعرف الذى من شأنه أن يؤدى إلى تفاعل ثقافى حقيقى وتواصل حضارى .

ولم تكن الحضارة الإسلامية فى السابق إلا نموذجًا لهذا التواصل ، الأمر الذى جعل أعظم فلاسفة المسلمين ـ وهو ابن رشد ـ يجعل من الاطلاع على ثقافات الآخرين أحد الواجبات الدينية التى لا يجوز للمسلمين التخلى عنها .

الإخوة الأعزاء:

إن الكثيرين فى مصر وفى مختلف دول العالم الممثلة فى هذا المؤتمر يعلقون الكثير من الآمال على هذا المؤتمر الهام ، وعلى ما سوف يدور فى أروقته من مناقشات بناءة ، وحوارات مثمرة ، ورؤى مستنيرة ، من شأنها أن تزيل الكثير من الضباب الذى غطى على الصورة الحقيقية للإسلام ، حتى نسهم جميعًا فى تصحيح صورة الإسلام ، ليعرف العالم أننا نحن المسلمين ـ كما كنا دائمًا ـ طلاب سلام وأمن واستقرار لأنفسنا وللعالم الذى نعيش فيه .

ويأتى اهتمام مصر بكل هذه القضايا من مسئوليتها التاريخية بوصفها بلد الأزهر الشريف الذى أثبت على مدى أكثر من ألف عام أنه موطن الاعتدال والوسطية والتسامح فى فهم الإسلام .

ومن منطلق اهتمام مصر رئيسًا وحكومة وشعبًا بقضايا الأمة الإسلامية يُعقد هذا المؤتمر تحت رعاية كريمة من السيد الرئيس **محمد حسنى مبارك** رئيس الجمهورية الذى نقدم لسيادته خالص الشكر وعظيم التقدير على رعايته الدائمة لكل ما فيه خير الإسلام والمسلمين ، ولكل ما يؤدى إلى ترسيخ مبادئ التعاون والسلام والاستقرار فى العالم من أجل خير البشرية جمعاء .

كما نقدم خالص الشكر للسيد الأستاذ الدكتور **عاطف محمد عبيد** رئيس مجلس الوزراء على تفضله بالحضور لافتتاح هذا المؤتمر وإلقاء كلمة السيد رئيس الجمهورية .

مرة أخرى نرحب بحضراتكم متمنين لكم طيب الإقامة فى القاهرة .

مع أصدق التمنيات لمؤتمركم بالنجاح والتوفيق ...،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...،

كلمة
الأستاذ الدكتور/ عبدالصبور مرزوق

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ومقرر عام المؤتمر

معالى الأستاذ الدكتور / **عاطف عبيد** رئيس مجلس الوزراء، ونائبًا عن السيد الرئيس **محمد حسنى مبارك** رئيس الجمهورية، شيخنا الجليل فضيلة **الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى** شيخ الأزهر، قداسة **البابا شنودة الثالث** بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازةالمرقسية، معالى الأخ الكبير **الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق** وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

الإخوة الأعزاء .. ضيوف مصر الكرام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...،

أهلا بكم فى مؤتمركم العالمى الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والذى أحسبه من أهم مؤتمراتنا وأخطرها فى نطاق المسئولية التى سيتحملها كل من حضراتكم دفاعًا عن الحق، وانتصارًا للخير والعدل، فى مواجهة الهجمة التى تعرض لها الإسلام ولا يزال، بعد أحداث سبتمبر والتى تم فيها الخلط الظالم بين الإسلام والإرهاب، مما يجب التصدى له والرد عليه بكل صراحة ووضوح، ليقف العالم كله على حقيقة الإسلام التى شوهها الإعلام الدولى.

والحقيقة أن الإرهاب لم يكن فى يوم من الأيام صناعة إسلامية، ولن يكون؛ لأن الإسلام والإرهاب ضدان لا يجتمعان، وقد عانى العالم العربى الإسلامى من

هذه الظاهرة المخربة على يد الاستعمار، الذى اعتدى على الأوطان، وخرب الديار، ونهب الثروات.

إن الإسلام كما يتضح لكل منصف هو دين الرفق والرحمة بكل البشر بصفة عامة والمستضعفين فى الأرض بصفة خاصة ، وهو الذى لا يبيح فى ميادين القتال أن تقتل المرأة أو الطفل أو الشيخ الفانى أو الشاب الذى لا يحمل السلاح.

إن شريعة الإسلام لا تبيح بأى حال من الأحوال ترويع عابد فى محرابه ولا راهب فى صومعته ، ولا تبيح الإجهاز على الجريح، ولا التمثيل بجثة القتيل، اعترافًا للإنسان بحقوق إنسانيته حتى وإن كان ميتاً . بل الإسلام هو الدين المتحضر الذى يعنى بشئون البيئة، ويطالب أتباعه عند القتال ألا يقطعوا شجرة مثمرة ولا مظلة، وألا يردموا بئرا يكون فيه الماء، ليكون الانتفاع به متاحاً لهم ولأعدائهم .

الإخوة الأعزاء ضيوف مصر الكرام ..

إن الظروف التى يعيشها عالم اليوم تفرض على المسلمين مسئولية مضاعفة، فى الكشف عن تعاليم الإسلام السمحة، ومبادئه السامية، التى تضمن حقوق الإنسان وتصون كرامته، بصرف النظر عن عقيدته أو جنسه أو لونه . فالناس جميعًا ـ كما يؤكد القرآن الكريم ـ قد خلقوا من نفس واحدة .

ومن هنا يعد الاعتداء على فرد واحد من بنى الإنسان بمثابة اعتداء على البشرية كلها .

الإخوة الأعزاء:

إن مؤتمركم هذا لا يُقصد منه أن يكون مجرد تظاهرة إعلامية، وإنما هو فى المقام الأول يهدف إلى تصحيح الصورة المشوهة عن الإسلام، وتلك هى مهمة العلماء ومسئوليتهم التى لا يجوز التخلى عنها، وأنتم أقدر من يتحمل هذه المسئولية ويتصدى لهذه المهمة . فسيروا على بركة الله .

وفقكم الله وسدد خطاكم ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..»

كلمــــة الوفود المشاركة

الأستاذ الدكتور/ عبد الله بن عبد المحسن التركى

الأمين العام لرابطة العالم الإسلامى

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلَّم وبارك على سيد الخلق وخاتم الأنبياء، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين.. وبعد:

فأجدها فرصة للتعبير عن شكر رابطة العالم الإسلامى، المنظمة الشعبية الإسلامية العالمية، لفخامة الرئيس محمد حسنى مبارك، رئيس جمهورية مصر العربية على رعايته لهذا المؤتمر، وشكرها لمعالى الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق، وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، على دعوته الكريمة، وحرصه على مشاركة الرابطة فى هذا المؤتمر المبارك، والشكر للأخ الفاضل الدكتور عبد الصبور مرزوق، الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ولكل من أسهم فى إعداد هذا المؤتمر المبارك.

ولا يخفى ما لأرض الكنانة من السبق وحسن البلاء فى الدفاع عن الإسلام ونصرة قضايا المسلمين، بمعرفة وتبصر، وعاطفة إيمانية قوية صادقة.

إن مؤتمر المجلس ينعقد هذا العام تحت عنوان: «**حقيقة الإسلام فى عالم متغير**»، وللعنوان دلالته، وللمؤتمر أهميته، ولا ريب أن هذا العنوان قد تم اختياره استجابة لمقتضيات وضع نعيشه، ومرحلة متميزة نمر بها، وعنوان المؤتمر يدعونا للتأكيد على الأمور التالية:

الأمر الأول:

أهمية البحث عن الحقيقة فى الحياة الإنسانية، وصيانتها من الالتباس بالباطل والضياع فى ظلماته، فإن الحق نور والباطل ظلام، والإيمان معرفة الحق والتصديق به، والإذعان له، كما أن الكفر إنكار الحق والتكذيب به، والتمرد عليه، وما خاض الناس قديمًا وحديثًا فى فلسفة الوجود والمعرفة إلا بحثًا عن الحقيقة الكونية، واستجابة لمطالب النفس فى إدراكها، وإذا صح هذا فإن حقيقة الإسلام تحتل القمة فى تلك الأهمية.

الأمر الثانى:

أهمية الإسلام عقيدة فى القلوب، وعملاً بالجوارح، وشريعة فى الحياة، باعتباره الدين الخاتم الذى ارتضاه الله لعباده، وتعبدهم به، وأودع رسالته فى الأمة المحمدية تكريمًا لها وابتلاءً باستحفاظها عليه، وتكليفها بتبليغه لكل إنسان، حيث يبلغ الليل والنهار.

الأمر الثالث:

أهمية التعرف على العالم الذى يحيط بنا، فهذا العالم يتسابق رواد المعرفة وقادة الأمم إلى اكتشافه، ومعرفة ما فيه من الخصائص فى الثقافات والحضارات والعوائد، ولكل وجهة هو موليها فى القصد من ذلك، ونحن المسلمين يجب أن يكون قصدنا الرئيسى من معرفة هذا العالم واكتشاف ما فيه: هو كيفية إيصال دعوة الحق إليه، وتبليغ رسالة الإسلام صافية مشرقة إلى كل إنسان لينعم بها فى الدنيا ويسعد بها فى الآخرة.

الأمر الرابع:

أهمية معرفة التغير، والحاجة إلى الفقه فيه، والتغير سنة المخلوقات كلها، حتى إن البعض درج على صياغة الدليل على وجود الله بالتأليف القياسى التالى: كل متغير حادث، وكل حادث مخلوق، والعالم متغير، فهو إذن حادث، وبالتالى هو مخلوق يفتقر بالضرورة إلى خالق.

ونرجع إلى حقيقة الإسلام وما لها من أهمية فى هذا العصر، بل وفى كل عصر، وكيف تجب المحافظة عليها من دون زيادة ولا نقصان فى هذا العالم المتغير فى كثير من عناصره.

إن الإسلام منذ نزوله، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، محفوظ بحفظ الله له: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ [سورة الحجر: ٩]

ليس توجهًا سياسيًا يتغير بتغير المصالح والموازين الدولية، بل منظومة من الأحكام الإلهية، تنتظم حياة المسلم وعلاقاته بغيره، وعلاقات مجتمعه بالمجتمعات الأخرى فى مختلف الظروف والبيئات.

والإسلام فى أسسه ومنطلقاته يدعو المسلمين إلى تطوير مناهجهم، ومواجهة الحركة المتسارعة فى حياة الإنسان فى ظل الاكتشافات الجديدة، وتجاوز الحواجز من قبل الإعلام والثقافات المتناقضة مع الإسلام.

بل يوجب على المسلمين استغلال تقدم الاتصالات وفتح الحدود، ليس لتلقى ثقافات الآخرين، ونقل عاداتهم ومفاهيمهم، بل للاستفادة مما لديهم من إيجابيات، وللتأثير فيهم وإطلاعهم على مخزوننا الحضارى الإنسانى الراقى.

أيها الإخوة:

يجب علينا أولاً أن نعزز الإيمان فى نفوسنا: بأن ديننا محفوظ بأسباب، ليس لنا فيها من دخل ولا حظ، إلا معرفتها والتمسك بأهدابها، وأذكر فى هذا السياق كلامًا بليغًا لشيخ الإسلام العلامة ابن تيمية ـ رحمه الله ـ حيث قال: " إن الدين كان محفوظًا فى الأمم من قبلنا بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، فبذلك يحفظ الدين من التحريف، وتصان معالمه من الطمس. ولما انقطعت النبوة والوحى بهذه الرسالة الخاتمة، فلا نبى بعد محمد ﷺ، ولا كتاب بعد القرآن، أودع الله فى هذه الأمة من الخصائص ما يكون عوضًا لها عما انقطع فيها من الوحى، فعوَّضها عن إرسال الأنبياء بالإجماع، وهو عبارة عن عصمة كلمتها الموحدة، وعوضها عن إنزال الكتب بحفظ كتابها من التحريف، وجعل حجته بالغة إلى يوم القيامة ".

ولا يخفى أن حركة التغيير فى العالم لم تقتصر على الجوانب المادية، ولكنها تجاوزتها إلى التأثير فى معتقدات الإنسان، وفصله عن حضارته وقيمه، أى إن مجالات التغيير اتجهت إلى قضايا الدين والثقافة والقيم.

والعالم الإسلامى على وجه الخصوص مستهدف من القوى المعادية، وفى مقدمتها المؤسسات الصهيونية، لإحداث التغيير فيه، وإحداث التأثير فى حياة المسلمين، تحت شعارات هلامية، أحيانًا باسم مكافحة التطرف، وأحيانًا باسم محاربة الإرهاب، وغير ذلك من المخترعات الاصطلاحية.

فما الواجب المحتم علينا ـ نحن المسلمين ـ تجاه ذلك ؟

إن إيماننا لا يتزعزع بأن الإسلام خاتم الأديان، وأنه سبيل إنقاذ البشرية، وإقامة العدل فيها، وردُّها إلى المحبة والسلام والتعاون، وأنه يمقتُ التمييز العنصرى، والظلم والعدوان، ولكن المشكلة تكمن فى عدم معرفة العالم الآخر بذلك، وصعوبته، فى ظل تراكمات مئات السنين، ومؤسسات متخمة بالصور المشوهة، وتأجيج الحقد والكراهية ضد الإسلام وأمته.

إن علينا ـ باعتبارنا أصحاب رسالة ـ أن نصبر ونصابر، ونسعى بكل ما أوتينا من قوة للحفاظ على هذا الدين فى دياره، وبين أبنائه، وفى عرضه على الآخرين، كما جاء من رب العالمين، وأن لا يتطرق إلينا ـ حكامًا ومحكومين ـ شك بأن النيل من إسلامنا، وضعفنا فى الدفاع عنه ونشره، هو التخلف الحقيقى لعالمنا وانهزامنا أمام أعدائنا.

لقد أصبحنا نقف من إسلامنا فى العديد من المؤتمرات والمناسبات موقف الدفاع عنه، وذبِّ الشبهات عن معينه الصافى، وذلك جزء من الواجب، وليس هو الواجب كله، إذ هناك واجب آخر، هو القيام بنشر حقائق هذا الدين بين جميع الناس، بما يكافئ العصر من الوسائل والأساليب، وتقصيرنا فى هذا الجانب بالغ وكبير، ونحن معذورون فى أسبابه الموضوعية التى لا يد لنا فيها، ولكننا مسئولون عن الأسباب الذاتية التى تنشأ من داخل الأمة وكيانها. ومع ذلك لا تُنكر الجهود التى تبذلها جهات عديدة فى مستوياتها الرسمية والشعبية، سواء فى الدعوة إلى

الإسلام، أم فى الدفاع عن حقيقته، ولكن النقد الذاتى واجب إذا كان يحقق معنى النصيحة والإرشاد إلى ما هو أفضل.

أيها الإخوة:

إن رابطة العالم الإسلامى عقدت مؤخراً مؤتمرها الإسلامى العام الرابع فى رحاب مكة المكرمة ـ أقدس بقعة فى الأرض ـ شارك فيه أكثر من خمسمائة من علماء المسلمين ودعاتهم ومسئوليهم، وخلص إلى نتائج من أهمها ضرورة تنسيق الجهود الإسلامية الرسمية والشعبية، وتكوين هيئة عليا لذلك، وتكوين ملتقى عالمى لعلماء المسلمين، لتدارس القضايا ذات الاهتمام الكبير فى حياة الأمة الإسلامية، وفى مقدمتها إفرازات عصر العولمة وتوجهاتها تجاه المسلمين.

وإنى باسم الرابطة أشكر لمصر العربية جهودها فى هذه المجالات، وأدعو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فيها، وأزهرها وعلماءها إلى مزيد من التنسيق والتعاون المثمر، وهى دعوة مخلصة لكل المؤسسات والجهات الإسلامية الرسمية والشعبية فى العالم الإسلامى والأقليات المسلمة.

إن الواجب كبير، والمهمة عظيمة، ولابد من معالجة ما تواجهه الأمة بالحكمة الإسلامية، وببصيرة وافية من العلم، والإحسان فى مخاطبة الآخرين، والسعى الصادق لإيصال رسالة الإسلام إليهم: **﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾** [سورة يوسف: ١٠٨].

وأدعو الله العلى القدير أن يوفق المشاركين فى هذا المؤتمر إلى تحقيق أهدافه فى التعريف بمقاصد الإسلام، وقدرته على مواجهة الأحداث، والتأثير فى حياة البشر، فقد جاء رحمة لهم: **﴿وما أرسلناك إلى رحمة للعالمين﴾** [سورة الأنبياء: ١٠٧].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..»

المحور الأول

حقيقة الإسلام

حقيقة الإسلام فى عالم متغير

الأستاذ / محمد عبد الرؤوف زيادة
وزير الأوقاف
الجمهورية العربية السورية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾** (المائدة : ٢).

الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق رئيس المؤتمر، أصحاب المعالى والسماحة والسعادة والفضيلة أيها الإخوة والأخوات.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

وبعد، فإنه ليسعدنى ويشرفنى أن أنقل إليكم تحيات سيادة الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية إلى أخيه فخامة الرئيس محمد حسنى مبارك رئيس جمهورية مصر العربية، وتمنياته الطيبة إلى الشعب المصرى الشقيق بالعزة والمجد والانتصار، ولمؤتمركم الموقر بالتوفيق والنجاح. وأن يخرج بقررات وتوصيات هى محط آمال العرب والمسلمين، وتحقيق وحدتهم وتضامنهم لبلوغ أهدافهم فى التحرير والتقدم والانتصار، وإنها لجهود مخلصة بناءة تناول بها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية على مدى ثلاثة عشر مؤتمرا خلت،

موضوعات ومحاورَ تهم العالم الإسلامى تدخل فى دائرة العمل الإسلامى المشترك، مواكبة للأحداث والتطورات العالمية، ومواجهة للتحديات والمؤامرات التى تستهدف تشويه صورة الإسلام وزعزعة الثقة فى تعاليمه السامية، متصدِّين فى الوقت ذاته للغزوات الفكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية التى تستهدف عقيدتنا ووجودنا وقيمنا وتراثنا.

إن المجتمعات العربية والإسلامية تتعرض لمحاربة عنيفة، لئلا تتقدم بشكل سليم وفق تعاليم الإسلام السامية، لتبقى مزقا تعالج الجراح، وأفرادا تلهث للبحث عن لقمة تسد الرمق، ضعيفة فى قدرتها على التكيف والابتكار ومسايرة ركب الحضارة، والخطوات الواسعة فى مجال التقدم العلمى المتعدد الوجوه.

وإزاء ذلك يجب على الفكر الإسلامى أن يقف موقفا داعيا ومسئولا وحذرا من المتغيرات العصرية وخطر العولمة والأزمات التى تعيشها البشرية، والتى تعدت بشراستها كل حد، فما تركت شيئا إلا ووصله من شظايا لهيبها، ومن ذلك وصف المسلمين بالإرهاب لتشويه صورة الإسلام والمسلمين فى العالم، فالإرهاب مولود خرج من رحم الغطرسة والظلم والاستخفاف بكرامة الشعوب، وثمرة مُرَّة غرسها الأقوياء المستكبرون فى نفوس الضعفاء المقهورين. تعلمنا الأحداث التى نشهدها كل يوم فى الأرض المحتلة أن القوة البشرية مهما عظمت فهى محدودة، وأن العلم مهما اتسع فهو قاصر، وأن الإنسان الظالم المعتدى مصيره الهلاك. وما لم تحل مشكلات المظلومين والمضطهدين فى العالم فإن المشكلة تبقى قائمة، بل ربما تفاقمت، فالقوة لا تصنع الحق، ولكن الحق يصنع القوة، والقوة من دون حكمة تدمر صاحبها ﴿**فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب**﴾ (الحشر : ٢).

ولو حددنا مفهوم الإرهاب عندئذ تستفيد الشعوب المظلومة من هذا التحديد، بحيث يصبح كل من هو خارج عن إطار مفهوم الإرهاب المتفق عليه لا يدرج اسمه، ولا يلاحق على أنه من الإرهابيين، ولو حددنا مفهوم الإرهاب لانتعشت حركات التحرر فى العالم وما أكثرها، وهى تجاهد وتناضل للتحرر من هيمنة

المستعمر وطغيانه واحتلاله، فنحن نتحدى أعدائنا الصهاينة فى أن يخرجوا لنا تعريفا للإرهاب من دون أن يكونوا هم أول المتلبسين به قبل غيرهم، ومن دون أن يكونوا قد اقترفوه ومارسوه فى أقبح صوره وأشكاله قبل غيرهم.

إن تحديد مفهوم الإرهاب يُظهر بجلاء جهاد ومقاومة الشعب الفلسطينى ضد الصهاينة المعتدين على أنه جهاد مشروع، لا يندرج تحت مفهوم الإرهاب الممنوع، تقره الشرائع والأديان السماوية.

إن نتائج الظلم لا يمكن ضبط حساباتها، ولا تقدير ردود أفعالها، وذلك أن ردود فعل المقهورين كشظايا القنابل تطيش فى كل اتجاه، وتصيب من غير تصويب، وإن أحرص الناس على حياة - وهم الصهاينة - سيظلون فى حيرة عندما يتعاملون مع من يلغى حياته من حساب الأرباح، ويسجل نفسه كأول رقم فى قائمة الضحايا.

إن أعظم ما يملكه القوى أن ينهى حياة الضعيف، فإذا أراد الضعيف أن يقدم أسمى ما يملك ـ وهى حياته ـ لزلزلة كيان القوى صار هذا الضعيف أقوى منه، وقد قيل: بدأت الحرب بالإنسان، ثم أصبحت بين آلتين، ثم بين عقلين، ثم انتهت بالإنسان.

إن للمشاعر حقها فى أن تغلى وتفور وهى ترى أعتى الأدوات الإرهابية فى العالم وأكثرها بطشا ودموية وهى تقتحم المدن والقرى الفلسطينية، والبيوت والمزارع، ودور العبادة من مساجد وكنائس وهى تحاصرها وتعيث فيها بغيا وقتلا وفسادا مستهرة، بالشرائع السماوية والقوانين الدولية وبحقوق الإنسان.

أما الأفعال فلا بد أن تكون مضبوطة بهدى المنهج الربانى، ووحدة الصف وحشد الطاقات والقدرات، والتعاون بين الدول العربية والإسلامية سياسة وثقافة واقتصاداً، مع المقاومة بكل الوسائل المتاحة، ودعم صادق وفعال لانتفاضة شعبنا فى الأراضى العربية المحتلة، وهنا يبرز معنى الجهاد بمفهومه الواسع، الذى يعنى بذل أقصى الوسع والجهد، واستفراغ الطاقة فى تحصيل الغاية المنشودة. ولا بد أن يسبق هذا المجهود تفكير مشترك لوعى مشترك، فالأزمات الإنسانية وكذلك المصائب الكوارثية التى لحقت بهذه الأمة فى مثال أهلنا فى فلسطين لا ترفع

بجهود فردية، بل لا بد من فقه العمل الجماعى، والتضحية الجماعية والتعاون الجماعى على مستوى الأمة جميعها، إذ أن الله - عز وجل - هو وحده القادر على رفع المعاناة كلها، وهو ـ عز وجل ـ ينتصر لهذه الأمة، إذا صدقت هذه الأمة فى عملها الجماعى لنصرة قضايا الحق والعدل، ولم تدخر وسعا من تضحية وإيثار وفداء.

ويؤثر فى هذا الصدد - وفى ضوء ما سبق - قول السيد الرئيس بشار الأسد فى قمة بيروت: «من لا يمتلك الفكر المضاد للإرهاب لا يستطيع أن يكافح الإرهاب ولا أن يتحدث عنه، ولا نستطيع أن نرى الإرهاب الأصغر ونتعامى عن الإرهاب الأكبر، وأى طرح للإرهاب فى العالم، ولا تكون إسرائيل هى محوره، فهو طرح ناقص غير موضوعى».

أيها الإخوة.. ومع كل فجر صرخة مؤرقة، ونكبة تكاد تنسى التى سبقتها تشدنا إلى الذى دعانا إليه القرآن، وبينه الرسول الكريم محمد ﷺ لنحث الخطى بقوة وإصرار نحو الحقائق التى جاء بها من عند الله تعالى.

غير أنه وقد طال الأمد، واضطرب حبل الصلة بيننا وبين تلك الحقائق كثيرا، وكأننا فقدنا وسائل التذكر أو كأنها ليست لنا، فتعين أن يستدعى الدور الإيمانى الكامن للإفادة من كل المشاعر الصادقة التى نحث بها صورة طبيعية لانعكاس الإيمان على النفوس، فنستروح على إثرها نسمات الإيمان المتسع لصالح البشرية كلها فتهون من ثم المشقة، ويندب الجهاد العينى، وتحلو التضحية بالنفس والمال وتتفتح منافذ الأمل والرجاء فى أن يعود لأمتنا العربية والإسلامية وجهها الحضارى، لحضارة إنسانية ثرية راقية ومتطورة تصمد بقوة أمام التحديات وفى وجه الأعداء، وتحقق أمتنا النصر على الأعداء، وتعيد الأراضى والمقدسات.

وأخيرا كل الشكر والتقدير للسيد الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف فى جمهورية مصر العربية، رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لدعوته الكريمة للمشاركة فى أعمال هذا المؤتمر، وتمنياتنا له بالنجاح والتوفيق.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ (التوبة: ١٠٥).

حقيقة الإسلام فى عالم متغير

الأستاذ الدكتور/ السيد عقيل بن حسين المنور

وزير الشئون الدينية - إندونيسيا

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

تمهيد :

فى البداية أود أن أتقدم بالشكر العميق إلى معالى وزير الأوقاف الدكتور / محمود حمدى زقزوق، باعتباره رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية المنظم لهذا اللقاء، الذى يجمع نخبة فاضلة من علماء الأمة الإسلامية تحت رعاية فخامة الرئيس / **محمد حسنى مبارك**، رئيس جمهورية مصر العربية، وذلك لتقديم بحوثهم التى تهدف إلى إظهار صورة صحيحة عن الإسلام كما أراده الله وكما بلغه الرسول الكريم محمد ﷺ، وسأتحدث هنا فى موضوع حقيقة الإسلام بإيجاز شديد.

جاء سيدنا محمد ﷺ بخاتم الرسالات رحمة للعالمين وإنقاذا للبشرية مما كانت تعانى منه، حيث أحاط بالبشرية ظلام حالك قبيل بعثة محمد ﷺ، وانتشرت الخرافات ودب الجهل وانكمش العلم وعم اليأس وأوشكت الإنسانية أن تتردى فى هوة سحيقة هى إلى عالم الحيوان أقرب.

أما بالنسبة لجزيزة العرب بصفة خاصة وما كان يسودها من عادات سيئة؛ مثل وأد البنات وسبى النساء وعبادة الأصنام وحروب لا تنقطع، وغارات لا تهدأ، كانت تلك حياة العرب قبل الإسلام(١).

ولعل أدق تصوير لحالة العرب فى الجاهلية ذلك الذى قرره جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى ملك الحبشة، حينما سأله عن دين الإسلام وعن الرسول محمد ﷺ، قال جعفر : «أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف»[٢].

لم يكن طريق الدعوة ممهدًا سهلاً. عندما بعث محمد ﷺ تبعه بعض الناس وعاداه آخرون، ولكن أعداءه لم يستطيعوا أن يجدوا فى أخلاقه مطعنًا، أو يزعموا فيه نقيصة. فكان لثبات رسول الله ﷺ وصحبه الأبرار أكبر الأثر فى عظم شأن الإسلام وانتشاره، وفى نفس الوقت، كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى والقدوة للمسلمين فى التواضع وحسن الخلق والذكاء الخارق التى أجمع عليها حتى خصومه والحاقدون على الإسلام.

أ - خصوصية الإسلام : دين رحمة وسلام:

ولكن ما هى حقيقة هذا الدين الذى جاء به محمد ﷺ؟ وما هو الإسلام؟ الإسلام يمكن أن يوصف بأوصاف كثيرة كلها حق - فهو - فى غير حصر لأوصافه - دين الحق ودين العدل ودين الإحسان ودين الإخلاص ودين التوبة ودين العمل ودين الجهاد ودين الرخاء ودين التعاون، بجانب ذلك فإنه أيضًا دين العزة، عزة الفرد وعزة المجموع وعزة الشرع، وكلها يتوقف بعضها على بعض[٣].

الإسلام دين الوحدانية دعا إلى عبادة الله الواحد الأحد، فليس فى الإسلام تعدد آلهة. والتوحيد يجمع البشر حول إله واحد وفى ذلك توحيد اتجاههم وغرس نظام الأخوة بينهم. ومن خصائص عبادة الله أيضا أنها عبادة مباشرة دون وساطة ودون زلفى، وفى هذا تحرير الفكر البشرى من الخضوع لغير الله من إنسان أو حيوان أو جماد أو أجرام سماوية.

وتوحيد الله وعبادته دون سواه تكسب المسلم الأنفة والعزة والشجاعة مادام يدرك أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له **﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾**[٤]، ومادام يدرك أن موته وحياته بيد الله لا سلطان لمخلوق على ذلك

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾[٥]، وأن الرزق منحه الله لا غيره **﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾**[٦]، والإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد هو حسن الصلة بالله - تبارك وتعالى - والسعى إلى مرضاته وحسن عبادته. فهذه هى غاية الإسلام، بالتالى غاية الإنسان ومنتهى أمله وسعيه فى الحياة **﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾**[٧]، **﴿وأنَّ إلى ربك المنتهى﴾**[٨].

إن الإسلام كدين رحمة وسلام وضع أصول الثقافة الإسلامية بالوحى الذى يتمثل فى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، لأنه يدعو الإنسان إلى تحديد الوجهة والتصور العقائدى السليم عند الأمة الإسلامية، وحدد معالم الطريق وبين النظم والتشريعات. الإسلام يدعو أن يكف المسلم يده عن الشر ولسانه عن الأذى، ولا يقابل السيئة بالسيئة، بل يدفع بالتى هى أحسن، لا خشية من أحد، بل من خشية الله جل جلاله.

وفى قصة ابن آدم المؤمن حين هدده أخوه بالقتل لم يرد عليه السوء بمثله، بل قال فى أدب وكرم: **﴿لئن بسطت إلىَّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين﴾**[٩].

إن الإسلام يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويصلح بين الناس، ويميط الأذى عن الطريق، هكذا يفعل المسلم المؤمن كما علمه رسوله الكريم ﷺ، كل هذا التراث من القيم الجميلة يشكل ثقافة الأمة الإسلامية وبهذا تشكل أسلوبها فى الحياة.

فعقيدة الأمة وتاريخها ونظرتها إلى الحياة والأفكار والنظريات التى تدور فى عقول أبنائها ومفكريها، تشترك جميعًا فى تحديد الأسلوب الذى يحكم حياة الأمة، ويضبط مسارها، ولذلك عرف بعض الباحثين الثقافة بقوله: «أسلوب الحياة السائد فى مجتمع من المجتمعات»[١٠].

وعادة ما يتأصل أسلوب الحياة السليم حسب الشريعة عن طريق تعهد الصغار من الطفولة، وتنشئتهم النشأة الإسلامية الصحيحة، قال ﷺ: **«ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه**

أو يمجسانه». رواه البخارى ومسلم. إن كانت النشأة سوية صالحة مبنية على الإيمان بالله والتوجه إليه، والتحاكم إلى شريعته والتصديق بما جاء من عنده، ستكون لديه ثقافة سوية صالحة، وهذا ما نرجو فى أى مجتمع مسلم، وهذه من خصوصية الإسلام، لأنه دين رحمة وسلام.

ب - تكريم الإسلام للإنسان:

١- لقد أعلن الإسلام كرامة الإنسان، فاعتبره خليفة الله فى الأرض، وهى منزلة تمنتها الملائكة وتشوقت إليها أنفسهم، فلم يعطوها ومنحها الله للإنسان: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون • وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنت صادقين • قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم • قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾**(١١).

لقد كرم الله الإنسان بالخلافة فى الأرض، وهيأه لها بالعقل والعلم الذى تفوق به على الملائكة.

٢- خلقه فى أحسن تقويم حيث أعلن الإسلام أن الله كرم الإنسان بالصورة الحسنة وبالخلقة الحسنة كما قال تعالى : **﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾**(١٢). وقال أيضا : **﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾**(١٣). وقد كان النبى ﷺ يكرر هذا الدعاء فى سجوده «**سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين**».

٣- تمييزه بالعنصر الروحى، إذ كرمه الله بالروح العلوى الذى أودعه الله بين جنبيه، فهو قبس من نور الله، ونفخة من روح الله، استحق به أن تنحنى له الملائكة إجلالاً وإكباراً لمقدمه بأمر الله، كما قال تعالى للملائكة : **﴿إنى خالق بشراً من طين • فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾**(١٤).

ويقول د. يوسف القرضاوى: «إن هذه النفخة الروحية الإلهية ليست خاصة بآدم أبى البشر، كما قد يتوهم بعض الناس، وإنما كان تكريمًا للنوع الإنسانى فى شخصه، فإن الله ميزهم بما ميزه من مواهب العقل والعلم والروح واستخلفهم كما استخلفه فى الأرض، ولهذا أعلن القرآن كرامة البشر كافة حين قال : **﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾**»(١٥).

٤- تسخير الكون لخدمة الإنسان، وكان من تكريم الله للإنسان فى نظر الإسلام أنه جعل الكون كله فى خدمته، وسخر لمنفعته العوالم كلها: السماء والأرض، الشمس والقمر والنجوم، والليل والنهار، ،الماء واليابس، والبحار والأنهار، النبات والحيوان والجماد، كلها مسخرة لمصلحة الإنسان وسعادته، كرامة من الله له ونعمة منه عليه.

يقول تعالى مخاطبا بنى آدم : **﴿الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ● وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ● وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾**(١٦). ويتضمن تسخير الكون للإنسان معنيين كبيرين :

أولهما : أن الطاقات الكونية كلها مهيأة ومبذولة نلإنسان، فعليه أن يبذل جهده ويعمل فكره فى فتح مغاليقها واكتشافها لاستخدامها فيما يعود بالخير والسعادة.

وثانيهما : أن الإنسان هو واسطة العقد فى هذا العالم، وعليه أن يفهم جيداً أن خالق هذا الكون العظيم وهذا الرب الأعلى هو وحده الذى يستحق العبادة والطاعة(١٧).

٥- حق الكرامة وحماية العرض : أكد الإسلام على حرمة العرض والكرامة مع حرمة الدماء والأموال. أعلن رسول الله ﷺ ذلك فى حجة الوداع أمام الجموع المحتشدة فى البلد الحرام والشهر الحرام واليوم الحرام :«**إن الله حرم**

عليكم دماءكم وأعراضكم وأموالكم»[١٨]. فلا يجوز أن يؤذى إنسان فى حضرته ولا أن يهان فى غيبته، سواء أكان هذا الإيذاء للجسم بالفعل أم للنفس بالقول، فربما كان جرح القلب بالكلام أشد من جرح الأبدان بالسياط.

وكذلك حرم الإسلام الإيذاء الأدبى من الهمز واللمز والتنابز بالألقاب والسخرية والغيبة وسوء الظن بالناس، ونزلت فى ذلك آيات فى سورة الحجرات[١٩]، وبذلك حمى نفس الإنسان من الإهانة، ولم يكتف الإسلام بحماية الإنسان فى حياته، بل كفل له الاحترام بعد مماته. فجاء الأمر بغسله وتكفينه ودفنه، ونهى عن كسر عظامه أو الاعتداء على جثته، خلافًا للأمم التى تحرق جثث موتاها.

٦- الإخاء والمساواة والحرية من الثمرات الإنسانية فى الإسلام، هذه المبادئ الثلاث التى نادى بها الإسلام وهى الإخاء البشرى، حيث قرر الإسلام أن البشر جميعًا أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، ضمنهم هذه البنوة المشتركة الواحدة والرحم الإنسانية العامة، وهذا كما جاء فى قوله تعالى : ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً**﴾[٢٠].

ويزداد هذا الإخاء البشرى بصفة عامة إذا أضيف إليه عنصر الإيمان، فتجتمع الأخوة الدينية إلى الأخوة الإنسانية وتزيدها قوة. إذن فليس هناك تنافر بين الإخاء البشرى العام وبين الإخاء الدينى، الذى نلمسه فى قوله تعالى : ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ وفى قوله ﷺ : «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله**». وبتطبيق مبدأ الإخاء الرفيع، أقام رسول الله ﷺ على أساسه مجتمعًا ربانيًا إنسانيًا فريدًا، شعاره «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**». وجد هذا المجتمع فى المدينة بعد الهجرة فى ظل العقيدة. وما سجله التاريخ لموقف الأنصار من إخوانهم المهاجرين حتى كانوا يفضلونهم على أنفسهم.

أما مبدأ المساواة الإنسانية، فأساسه أن الإسلام يحترم الإنسان ويكرمه من حيث هو إنسان. لا يفرق بين قوم وقوم ولا بين عنصر وعنصر، الإنسان من أى وطن كان، من أى بلد، من أى إقليم، فالبلاد كلها أرض الله والناس كلهم عباد الله، وبهذا تسقط كل ألوان العصبية الإقليمية والوطنية.

٧- الأخلاق والفضائل : من مظاهر تكريم الإسلام للإنسان أن جعل الأخلاق والفضائل جزءًا أصيلاً من كيان المجتمع، فهو مجتمع العدل والإحسان والبر والرحمة، والصدق والأمانة، والصبر والوفاء، والحياء والعفاف، والعزة والتواضع، والسخاء والشجاعة، والإباء والشرف، والبذل والتضحية، والمروءة والنجدة، والنظافة والتجمل، والقصد والاعتدال، والسماحة والحلم، والنصيحة والتعاون، والغيرة على الحرمات، والاستعلاء على الشهوات، والغضب للحق، والرغبة فى الخير، والإيثار للغير، والإحسان إلى الخلق كافة وغيرها. وهو فى الجانب الآخر يحرم كل الرذائل، والأخلاق الرديئة، ويشتد فى تحريم بعضها، فيجعلها فى حكم الكبائر. فيحرم الخمر والميسر، ويعدهما رجسًا من عمل الشيطان، ويحرم الزنا وكل ما يقرب أو يعين عليه. وكل رذيلة تنكرها الفطر السليمة، والعقول الراشدة، جاء الإسلام فأنكرها وألح فى إنكارها.

ج - حقوق الإنسان وحقوق العباد:

وهو موضوع جدير بالاهتمام، ومشكلة إنسانية، وربما مشكلة دينية أيضًا، تختف فيها وجهات النظر، فهناك من يمنع حقوق الإنسان، وهناك من يدافع عن حقوق الإنسان، فما أصل هذه القصة؟ من أين جاءت كلمة حقوق الإنسان؟ ولماذا نضيف بعد ذلك كلمة (فى الإسلام)؟ هل هذه الكلمة قرآنية، أم نبوية، أم فقهية؟ يقول الأستاذ جودت سعيد : «إن كلمة «حقوق الإنسان» ليست إسلامية وليست دينية، وإنما هى كلمة إنسانية بشرية، وإن الكلمة الإسلامية فى هذا الموضوع هى «حقوق العباد».

وإن المناخ والجو الذى ولدت فيه الكلمة (حقوق الإنسان) غير المناخ والجو الذى ولدت فيه كلمة (حقوق العباد)».

إذ أن كلمة «حقوق الإنسان» غربية، وجدت قبل قرنين من الزمان أى منذ قيام الثورة الفرنسية، أما كلمة «حقوق العباد» فهى كلمة إسلامية وجدت منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا مع وجود التشريع الإسلامى، حيث ذكر الفقهاء حقوق العباد مفصلة، معتمدين بذلك على القرآن والسنة. واختلاف المنشأ لهاتين الكلمتين يشير إلى اختلاف معنييهما والمنطلق الذى تنطلقان منه، والهدف الذى ترميان إليه، والأسلوب الذى تتبعانه.

إن كلمة «حق العباد» حين تطلق فى المناخ الإسلامى توحى بالحق الذى ينبغى أن يؤدى وليس الحق الذى يؤخذ، أى البحث فى الحق الذى علينا نحو الآخرين، لا الحق الذى لنا نحن من الآخرين.

فحقوق العباد فى الإسلام تبدأ من الواجبات التى علينا وليس من الحقوق التى لنا. إن كلمة «حق» لها وجهان : إما حق لى، وإما حق علىّ، فالإسلام والأنبياء ومنطلق الإسلام. وأما منطلق حقوق الإنسان، فهو من الحق الذى لنا، وليس من الحق الذى علينا، فالطريقان مختلفان فى مسارهما.

وهذا الموضوع أرجو أن ينتبه إليه الإنسان، لأن الإنسان عليه أن يرجع إلى ربه، وليس عليه شىء من حقوق العباد، ويخشى من حقوق العباد كثيراً، لأنها موطن المشاحنة وعدم التسامح، كما فى حديث مفلس، الذى قال فيه النبى ﷺ لأصحابه: «**أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس من لا درهم له ولا متاع، فقال رسول الله ﷺ: ليس ذلك، المفلس من أمتى، من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وحج ،ويأتى وقد ضرب هذا، وشتم هذا، وقتل هذا، وأكل مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار**»[٢١].

لهذا كانت إشعاعات «حقوق العباد» منطلقها من الشعور بالواجبات التى على الإنسان أن يعملها تجاه الآخرين، وليس الحقوق التى له على الآخرين.

ولكن الاتجاه الغربى، ينطلق من الحق الذى لك والواجب على الآخرين تجاهك، ووجوب أخذ هذه الحقوق سواء باللين أو بالعنف، ولكن الغالب فى

المطالبة بالحقوق يعتمد على سلوك سبيل العنف، وبالتالى فحقوق الإنسان بنيت على الدماء.

من هنا يمكن القول إن هناك أسلوبان فى الحصول على الحقوق:

١- الأسلوب الذى يعلم الناس واجباتهم، وهو أسلوب الأنبياء.

٢- الأسلوب الذى يعلم الناس حقوقهم والمطالبة بها، وهو أسلوب الحضارة الحديثة.

فالأنبياء علموا الناس كيف يؤدون واجباتهم وأنهم سيصلون بهذا الطريق إلى حقوقهم، وعلموا الناس أن من لم يصل إلى حقه فى الدنيا، فإن حقه لا يضيع فى الآخرة، مادام قد أدى واجباته على النحو الذى أمره الله به. ولكن الذين يطالبون بالحقوق، لا يبالون باليوم الآخر، فهم كما قال تعالى عنهم: **﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾**[٢٢].

ومن الفروق بين الطريقتين حسب ما يعرضه الإسلام أن الاهتمام يتوجه إلى تعليم الناس أن يؤدوا واجباتهم لا أن يطالبوا بحقوقهم، فلكى يكون الحق حقاً ينبغى أن يبدأ إنسان من أداء الواجب لا من المطالبة بالحقوق، لذلك قال ﷺ: **«اعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»**، فصاحب العمل يؤدى واجبه نحو العامل، ويعطيه أجره ولا يحمله عبء المطالبة بحقه.

أما فى العالم الغربى فإنهم يبحثون عن المطالبة بالحقوق: حق العمل، حق المرأة، حق الإنسان... إلخ، وليس هناك واجبات، إذا لم يكن هناك من يؤدى الواجبات فمن أين يأتى حقك؟ الحق لا يصل إليك إلا إذا أدى الآخر واجبه، فإذا بدأنا بطريق أداء الواجبات فستتحقق حقوقنا، أما إذا لم نؤد واجباتنا وانتظرنا حقوقنا فإنها ستبتعد عنا كثيراً.

ومن جهة أخرى فإن طريق المطالبة بالحقوق يؤدى إلى التنازع، أما طريق أداء الواجبات فإنه يؤدى إلى التقارب، حيث يؤثر بعضهم بعضًا ويتسابقون فى فعل الخيرات. وفى هذا المجال يقول مالك بن نبى: (نحن حينما نؤدى واجباتنا فإن حقوقنا ستأتى إلينا، إن لم تكن فى الأرض فستنزل من السماء).

ويقال عن غاندى إنه لما دُعى إلى مؤتمر حقوق الإنسان لم يذهب، وإنما أجابهم بقوله: إذا دعوتم إلى مؤتمر لبحث واجبات الإنسان ادعونى فسأحضر، وأضاف (إن الناس إذا تعلموا أداء واجباتهم فستصل الحقوق إلى الناس). فإذا لم يتعلم الناس أداء واجباتهم، فمن أين سيحصل الآخرون على حقوقهم؟ من الذى سيؤدى الحقوق إذا لم يتعلم الناس أداء الواجبات؟.

لو دققنا النظر فى منهج الأنبياء فى القرآن، فإننا نجد أنهم لم يطالبوا بحرية الرأى وحرية الدعوى، ولو قدموا طلبًا بحقهم فى ذلك لما سُمح لهم به، ولكنهم بدل أن يطالبوا بهذا الحق قاموا بأداء واجب التبليغ، وواجب الدعوى، وتحملوا نتيجة عملهم وأدائهم للواجبات.

د- انتشار الإسلام:

يعتقد بعض المستشرقين وبعض من لم تتح لهم الفرصة للتعمق فى الدراسات الإسلامية، أن القوة كانت عاملاً مهما فى انتشار الإسلام، ويتخذون من الحروب التى حدثت فى حياة الرسول ﷺ وبعد وفاته دليلا على ذلك، ورداً لهذا الادعاء نبدأ بسؤالين هامين:

١- هل انتشر الإسلام بالدعوة أم بالقوة؟ وما الدليل على ذلك؟

٢- وإذا كان قد انتشر بالدعوة فلماذا وقعت الحروب بين المسلمين وغيرهم؟

للإجابة عن **السؤال الأول** يقول أحمد شلبى : إن الإسلام لم ينتشر بالسيف وإنما انتشر بالدعوة، ونضع البراهين الواحد بعد الآخر فى سلسلة من آيات القرآن، ثم فى سلسلة من أحداث التاريخ بحيث لا يبقى للشك مجال[٢٣].

فأما القرآن الكريم وهو دستور المسلمين الواجب الاتباع، قد وضح فى عدة آيات أن الدعوة هى الطريق إلى الإسلام، وأنه لا يجوز إجبار أحد على تغيير دينه، قال تعالى:

﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾[٢٤]، ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾[٢٥]، ﴿لكم دينكم ولى دين﴾[٢٦]، ﴿فإنما

عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾(٢٧)، **﴿فذكّر إنما أنت مذكر • لست عليهم بمصيطر﴾**(٢٨).

وأما سلسلة التاريخ فترينا بوضوح أن الإسلام سلك طريقه بالدعوة، متبعًا هذه الآيات البينات، مبتعدًا كل البعد عن القسوة. وإلى القارئ بيان ذلك:

١- حينما كان الرسول ﷺ فى مكة، وحين بدأ دعوته وحيداً لا سلاح معه ولا مال، دخلها مجموعة من عظماء الرجال من أمثال أبى بكر وعثمان وسعد بن أبى وقاص وطلحة والزبير ثم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبدالمطلب. فهل يمكن أن نقول إن هؤلاء دخلوا بالقوة؟ وأين القوة فى ذلك الوقت؟

٢- واضطهدت قريش المسلمين اضطهادًا قاسيًا، وأنزلت بمحمد وأتباعه ألوانا من العذاب، وفى وسط هذا العناء حينما كان محمد والمسلمون معه بمكة مغلوبين على أمرهم مستضعفين، كان أهل المدينة يسعون للإسلام، هل انتشر الإسلام بالقوة بين سكان المدينة؟

٣- جاء الصليبيون إلى الشرق حين ضعفت الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية لمحاولة القضاء على الإسلام، وإذا بالإسلام يجذب جموعًا منهم فيدخلون ويحاربون فى صفوف المسلمين.

ويقول أرنولد : لقد اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عددًا مذكورًا حتى فى العهد الأول، أى فى القرن الثانى عشر، ولم يقتصر ذلك على عامة النصارى بل إن بعض أمرائهم وقاداتهم انضموا أيضا إلى المسلمين فى ساعات انتصارات المسيحيين، فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين الصليبيين بالقوة؟

٤- فى القرن التاسع الهجرى هجم المغول على العالم الإسلامى هجوما وحشيًا قاسيا مدمرا لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من خطوب وويلات، خطبا أعنف قسوة من غزوات المغول، فلقد انسابت جيوش جنكيز خان، واكتسحت فى طريقها العواصم الإسلامية وقضت على ما كان بها من مدنية وحضارة، على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته وظهر من بين الأطلال،

واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه. فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين المغول بالقوة؟

٥- يحدثنا التاريخ بصراحة ووضوح أن أهم فترة انتشر فيها الإسلام هى فترة السلم الذى تلا صلح الحديبية بين قريش والمسلمين، وكانت فترة السلم سنتين، ويقول المؤرخون إن من دخل الإسلام فى خلال هاتين السنتين أكثر ممن دخلوه فى المدة التى تقترب من عشرين عامًا منذ ظهور الإسلام حتى ذلك الصلح. وهذا يدلنا على أن انتشار الإسلام تبع السلام ولم يتبع الحرب.

وانتشر الإسلام انتشارا واسعا فى الشرق الأقصى بماليزيا وإندونيسيا والفلبين وتايلاند حيث انتشر الإسلام بين الإندونيسيين بيسر وبساطة. تمكن الإسلام من هزيمة الديانات الأخرى والأفكار المتعددة وتقدم إلى الطليعة بسبب مبادئه السمحة وتعاليمه المعقولة الهادئة.

أما **السؤال الثانى** : لماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم؟ والإجابة عن هذا السؤال سهلة فيمكن أن نقول بإيجاز:

١- الدفاع عن النفس:

ففى تاريخ المسلمين قبل الهجرة لم يؤذن لهم بالقتال، ولكن المشركين أسرفوا فى عدوانهم ووصلوا إلى حد اتخاذ القرار بقتل محمد ووضعوا خطتهم لتنفيذها قبل أن يهاجر إلى المدينة؛ حتى تتخلص الجزيرة العربية من الإسلام والمسلمين. فكان من الضرورى أن يدافع المسلمون عن أنفسهم، وقد أذن الله لهم بالدفاع بقوله : ﴿**أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير**﴾(٢٩).

٢- تأمين الدعوة:

إن تأمين الدعوة أتاح الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها، فقد كانت الدعوة الإسلامية محددة، وكانت قريش تسلك كل السبل للقضاء عليها، بينما هناك كثير من العرب يميلون للإسلام ولكنهم يخافون أن ينزل بهم العذاب والإيذاء. فأذن الله لرسوله وللمؤمنين أن يقاتلوا من قاتلهم، قال تعالى :

﴿ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء﴾(٢٠)، فالحرب هنا كانت لضمان حرية التدين للمسلمين، وكان نداء الإسلام بحرية التدين أول نداء عرفه التاريخ.

٣- المحافظة على الأمة الإسلامية من جيوش الروم والفرس:

فكلنا يعرف أنه قبل الإسلام لم تكن هناك أمة عربية، وإنما كانت هناك قبائل عربية متحاربة، ولذلك لم يكن الفرس والروم يقيمون حسابا للعرب، ولم يهتموا بالدين الجديد بالجزيرة، وظنوا أن ما يحدث بين العرب نوع من الصراع الداخلى. وقد فوجئ كسرى وقيصر بحقيقة خطيرة هى أن رسول الله ﷺ أرسل لهما يدعوهما للإسلام فى العام السابع الهجرى ويدعو قومهما كذلك. واعتقد الحاكمان أن محمدا لم يقنع بتأسيس دولة عربية، وإنما أخذ يطمع فى مد سلطانه إلى أرضهما. كل هذا أدخل الذعر والخوف فى نفوس الفرس والروم، ومن أجل هذا دخل الفرس والروم المعركة التى بدأت فى حياة الرسول ﷺ. حيث وقعت فى عهده ﷺ غزوة مؤتة بين المسلمين والروم، كما خرج الرسول ﷺ لمواجهة الروم فى غزوة تبوك.

وقد دخلت أكثر الشعوب الإسلام بالدعوة، وهذا يقطع بأن انتشار الإسلام لم يرتبط بالحروب. وفى العصر الحاضر يزحف الإسلام بقوته الذاتية وعن طريق جهود فردية غير منظمة، يزحف فى أمريكا وينتشر بين الزنوج. ويزحف فى أوروبا وأفريقيا، بدون أى قسر أو إرهاب.

الختام :

وختاما نرجو الله جميعًا أن يبارك فى هذا اللقاء وأن ينجح فى تحقيق غايته وهى تقديم صورة صحيحة عن الإسلام للمسلمين وغير المسلمين.

والله نسأل أن يرفع راية الإسلام عالية وأن يحفظ الأمة الإسلامية من كل شر، وأن يهزم أعداءها، أعداء الدين الكفرة والملحدين. آمين يا رب العالمين.

الهوامش :

(١) أحمد شلبى، الإسلام (٣) من سلسلة مقارنة الأديان، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة ٦.

(٢) سيرة ابن هشام – ص : ٢١٣.

(٣) محمد أحمد الغمراوى، الإسلام عصر العلم، القاهرة، دار الإنسان، ط ٢ ، ص : ١٠.

(٤) سورة التوبة : ١٥.

(٥) سورة آل عمران : ١٤٥.

(٦) سورة الرعد : ٢٦. انظر أحمد شلبى، الإسلام، ص : ٩٨.

(٧) سورة الانشقاق : ٦.

(٨) سورة النجم : ٤٢.

(٩) سورة المائدة : ٢٨.

(١٠) شفيق غربال ورفاقه ، الموسوعة العربية الميسرة، ص : ٣٩ وانظر ايضا د. عمر سليمان الأشقر، نحو ثقافة إسلامية أصيلة، الأردن ، دار النفائس ٢٠٠٠، ط ١٠، ص : ٢١.

(١١) سورة البقرة: ٣٠ – ٣٣، وانظر يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام . ص : ٧٤.

(١٢) سورة التين : ٤.

(١٣) سورة التغابن : ٣.

(١٤) سورة ص : ٧١ – ٧٢.

(١٥) سورة الإسراء : ٧٠، وانظر أيضا سورة الجاثية : ١٢ – ١٣، وسورة لقمان : ٢٠.

(١٦) سورة إبراهيم : ٣٢ – ٣٤، وانظر أيضا سورة الجاثية : ١٢ – ١٣، وسورة لقمان : ٢٠.

(١٧) يوسف القرضاوى، ملامح المجتمع المسلم، ص : ١١.

(١٨) رواه الشيخان وغيرهما من حديث جابر.

(١٩) سورة الحجرات : ١٠ – ١٢.

(٢٠) سورة النساء : ١.

(٢١) أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة.

(٢٢) سورة الروم : ٧.

(٢٣) انظر أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٧، ج ١.

(٢٤) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٢٥) سورة النحل : ١٢٥.

(٢٦) سورة الكافرون : ٦.

(٢٧) سورة الرعد : ٤٢.

(٢٨) سورة الغاشية : ٢١ – ٢٢.

(٢٩) سورة الحج : ٣٩ – ٤٠.

(٣٠) سورة النساء : ٧٥.

حقيقة الإسلام

الحاج / بشير داود عبد القادر

عضو البرلمان الأثيوبى

الإسلام حقا هو دين عمل يتناول شئون الحياة جميعا، قصد به أولا تحويل، الناس من عبادة غير الله إلى عبادة الله الخالق الواحد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. والإسلام بهذا المعنى جاء به الأنبياء والرسل أجمعين من لدن آدم إلى سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام – لأنهم كانوا يدعون قومهم قائلين ياقوم: ﴿**اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾ وقائلين: ﴿**اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ ولكن الإسلام الذى أتى به سيدنا محمداً؛ وأكمله لنا الله ـ عز وجل ـ ورضيه لنا ديناً يتميز بأنه يشمل الحياة والكون مكانا وزمانا.

والمسلم الحق لا يعبد الله ببدنه وأعضائه، أو بلسانه وقلبه، أو بعقله فحسب، وإنما يعبد الله بكل ذلك، داعيا وذاكرا ومصليا وصائما ومجاهدا ومقاتلا بكل بدنه، ومؤمنا بقلبه، وخائفا بعقله وفكره. وبعبارة أدق وأشمل: يعبد الله مستعملا جميع جوارحه وحواسه فى طاعته، وهذا هو معنى ما تعنيه هذه الآية الكريمة حيث قال جل شأنه : ﴿**وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ والعبادة بهذا المعنى فى الإسلام بيَّنها رسول الهدى والرحمة للسائل الذى سأله معلما للحاضرين فى حضرة الرسول ﷺ **فقال: حدثنى يا محمد عن الإسلام، فقال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتصوم رمضان، وتؤتى الزكاة، والحج لمن استطاع إليه سبيلا»**. ثم سأله عن الإيمان فقال : «**الإيمان بالله واليوم الآخر، والملائكة، والنبيين، والكتب، والقضاء، والقدر**» ثم قال عن الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه**

فإن لم تكن تراه فإنه يراك». والإسلام بشعبه الثلاث يستوعب الأجيال والأزمنة والأمكنة، وكل ما فيه سعادة الأفراد ومصلحة المجتمع والسلوك المتعلقة بالحلال والحرام، والأحوال الشخصية والاجتماعية من أموال وتجارة وزواج وطلاق وشؤون الجرائم والعقوبات والعلاقات الدولية سلما أو حربا، لأن الشارع وضع لهذا كله قواعد ومنهاجا بوحى نزل من عند الله الذى أحاط بكل شىء علما، وأحصى كل شىء عددا، نصا بكتاب الله وسنة رسول الله قولا أو فعلا أو إقرارا، وإذا ثبت أنها شرع من الله أو من رسوله فهى عبادة لا يصح أن يأخذ بعضها ويترك البعض عمداً أو إهمالا؛ لأن شرع الله كل لا يتجزأ، مثله مثل الإنسان لا يمكن أن تكون له حياة ونصفه قد مات. ويقول تعالى معاتبا بنى إسرائيل : **﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾** (البقرة: ٨٥) فهل تنطبق علينا نحن المسلمين اليوم؛ فإنى أخاف ذلك؛ لأن كثيرا من الناس فى عصرنا اليوم يظنون أنهم إذا قاموا بالصلاة أو صاموا شهر رمضان أو سموا أنفسهم بأسماء الإسلام ثم تركوا الأعمال التى طلبها الشرع أمرا أو نهيا، تحريما أو حلا، أو معاملة وأخلاقا، يظنون أنه لا تضرهم المعاصى ومخالفة شرع الله، ولكن الله يقول فى المنافقين الذين كانوا يصلون مع رسول الله ﷺ ويصومون معه ويخرجون إلى الجهاد معه ثم يقولون آمنا فيرد الله عليهم قائلا: **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾** (الحجرات: ١٤) وقال أيضا: **﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾** (المنافقون: ١)، بل إن رسول الله ﷺ أراد أن يصلى على موتاهم لأنهم مسلمون ظاهرا ولكن الله نهاه عن ذلك فقال: **﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله وبرسوله وماتوا وهم فاسقون﴾** (التوبة: ٨٤) فعلى هذا ليس كل مسلم مؤمنا وبالعكس، بينهما عموم من وجه وخصوص من وجه كما يقول أهل المنطق.

والإسلام وإن كان يأمر بالامتثال ينهى عن المنكر، ويشدد على المؤمن فى الاستقامة فى كل سلوك الحياة، فهو دين عمل لا رهبانية فيه ولا يقرها، بل يترك العقل يجول ويرقى فى آفاق الكون الفسيح صاعدا فوق الأفلاك بفكره، أو

بواسطة آلات سخرها له من بيده كل القوة، أو هابطا إلى الأرض مكتشفا فى الكون الفسيح ما قدر له لنفعه فى الدنيا أو لما فيه مصلحة آخرته، يذكر دائما قول الله سبحانه : **﴿الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ● وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ● وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾** (إبراهيم: ٣٢ - ٣٤).

ورب العزة يطلب من هذا الإنسان المركب من نوعين أن يمشى فى مناكب الأرض، فيطلب الرزق الحلال وعمارة الأرض ومنفعة الناس والإحسان إليهم، ويعمل الصالحات التى تعود عليه منافعها فى الدنيا والآخرة، ولكن الله يحكّم أن يكون ذلك مقرونا بالإيمان، وبعيدا عن الفساد، وفى هذا يقول سبحانه : **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾** (القصص: ٧٧).

والله العزيز الرحيم لم يجعل هذا الإنسان المركب من الطين والروح معصوما من كل ذنب أو خطيئة، ويائسا من الرحمة، بل أكد له العفو والغفران إذا عاد وندم وتاب فقال: **﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾** (الزمر: ٥٣).

وبما أن الإسلام جاء لكل الناس الذين يعيشون فوق الأرض ويوجدون فى كل الأزمان، فإنه بُنِىَ على التيسير والرحمة ورفع الحرج، ورُوعى فيه ضعف الإنسان أمام هواه ومتطلباته، وتعدد أعبائه فى الدنيا، لا رهق فيه بل رحمة يلمسها ويراها كل من عرف حقيقة الإسلام ومقاصد وغاية هذا الدين، فيه رخص التيمم إذا فقد الماء، وقصر الصلوات الرباعية إلى ركعتين وجمعها فى السفر. يقول الرسول ﷺ لأبى موسى الأشعرى ومعاذ حين أرسلهما إلى اليمن : «**يسرا ولا تنفرا**» ويقول أيضا : «بعثت بالحنيفية السمحة» (رواه أحمد). وفى الصوم رخص الإفطار للحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما، ورخص الصلاة قاعدا ومضطجعا

ومستلقيا لمن فيهم الأمراض، يختلف الحال باختلاف شدة المرض. وفى الحديث : **(إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته)**.

وهناك رخص متعددة فى العبادات والمعاملات ليس هنا مجال سردها.

والإسلام يطبق نظمه الاجتماعية فى الحياة كلها، فى القيادة يجعلها فى يد أهل الحل والعقد من العلماء والصالحين ومن وجهاء القوم فيقول واصفا لهم: وأمرهم شورى، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويدعون بالحكمة والموعظة الحسنة، ويحتم أن تكون الإمامة والقضاء بالبيعة والشورى، ويجب أن يكون القاضى فقيها مجتهدا يستطيع الاستنباط وإخراج الأحكام من أدلتها الأصلية القرآن والسنة والقياس والإجماع وغيرها من الأدلة التى أقرها علماء أهل السنة من الخلف والسلف.

والإسلام يشدد على كل حاكم وعلى كل فرد الأخذ بمبدأ العدالة والأمانة والمساواة والحرية، وألا تشترى آياته بثمن قليل، فلا تمييز أمام حكم الله بين الحاكم والوضيع، يقوم الكل أمام الله فى صف واحد فى المسجد قيامهم وسجودهم وقبلتهم وربهم واحد، يقفون جميعا خلف إمام واحد، فالحلال والحرام والفرائض والقصاص تطبق على الجميع سواء بسواء. طلبت إحدى القبائل من رسول الله ﷺ إعفائها من الصلاة مقابل دخولها الإسلام فأبى، وقال عليه الصلاة والسلام، «**لا خير فى دين لا صلاة فيه**». حاول حِبُّ وابن حِبِّ رسول الله ﷺ أسامة بن زيد الشفاعة لامرأة شريفة من قريش سرقت، فغضب رسول الله ﷺ على الحب أسامة وقال الكلمة الخالدة خلود التاريخ : «**إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها**».

والإسلام بخلاف الأمم الأخرى يسوى بين الملك والسوقة فى حكم الله قائلا: «الناس بنو آدم، وآدم من تراب» ويقول أيضا : «**ياأيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ألا هل بلغت اللهم فاشهد**».

وهو بعد كل هذا دين حق ورحمة ووحدة ومحبة، لا يفرض بالقوة بل بالتعليم وإعلان الحق والإقناع، فمن آمن فله عند الله الجنة، ومن كفر فله سعير جهنم، ويقول الله فى هذا الشأن آمرا نبيه: ﴿**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً**﴾ (الكهف: ٢٩). وقال الله أيضا: ﴿**لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾ الآية (البقرة: ٢٥٦).

وحتى الجهاد فى الإسلام لم يفرض إلا دفاعا عن النفس أو الأموال والأعراض والعقيدة، فيقول - سبحانه - فى هذا الشأن: ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله**﴾ (الحج: ٣٩، ٤٠). وليس الإسلام دين العنف والإرهاب كما يحلو لبعض الناس أن يحاول إلصاق تلك التهمة بالإسلام وحتى فى الحالة التى أذن فيه بالقتال يأمر بالعدالة، ويفضل العفو، والصبر على المعتدين، فيقول : ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين**﴾ (البقرة: ١٩٤). وفى سورة النحل يقول: ﴿**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين**﴾ (الآية ١٢٦).

والإسلام انتشر بالأخلاق الحسنة والمساواة والحرية، لا إرهابا ولا عنفا، وفى الحديث: «أن يهوديا يدعى زيد كان له دَيْنٌ على رسول الله ﷺ فأخذ بقميص رسول الله فأخذ يجره قائلا: أنتم بنى عبد المطلب قوم مطل، اقض دينك. فكان هناك عمر بن الخطاب وباقى الصحابة فاستل عمر سيفه ليضرب عنق اليهودى فقال رسول الله لعمر غاضبا عليه واضعا يده الشريفة على كتف اليهودى: «**على رسلك يا عمر أنا وهذا كنا أحوج منك إلى خير من هذا، تأمرنى بالقضاء وتأمره بحسن التقاضى**». فاندهش اليهودى من هذه الأخلاق فأخذ بها فلم يسعه إلا أن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

والإسلام لا يقر الأنانية والكبر والتميز والاستعلاء، فقد كان رسول الله ﷺ مع الصحابة فى غزوة فأمر أن تذبح شاة، فقال أحد الصحابة: علىَّ ذبحها

يا رسول الله، فقال غيره: علىَّ بسلخها، فقال غيره: علىَّ بطبخها يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ «**علىَّ إذاً بجمع الحطب**» فاندهش الصحابة فقالوا له: نحن نكفيك العمل يا رسول الله. فقال قولته المشهورة: «إننى أعلم أنكم تكفوننى العمل، ولكنى لا أحب أن أتميز بينكم، لأن الله يكره من عبده أن يكون متميزا من بين عباده». هذا هو الإسلام كله رحمة وهدى وشفاء، يقول الله معلنا لعباده هذه الحقائق: ﴿**يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين**﴾ (يونس: ٥٧).

ثم إن الله - سبحانه - بعد أن خلق هذا الإنسان من الطين والروح، وسخر له الكائنات، وفضَّله على كثير من خلقه اقتضت حكمته أن يقوم هذا الإنسان نفسه بمهمة تنفيذ هذه الشريعة التى أرسل لأجلها الرسل، فاختاره خليفة فقال جل شأنه: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ (البقرة: ٣٠) ثم أفاض عليه نعمه فعلمه الأسماء كلها بما فيها المسميات وحقائقها، وسخر له الكائنات، يرسل الرياح فتثير سحابا يبسط فى السماء ثم يجعله ركاما يخرج منه الودق فينزل ماءً فيشرب منه الإنسان والحيوان وتحيا به الأرض الميتة وسخر له السماوات والشموس والأقمار ضياء ودفئا فى النهار يبغى فيه خليفةُ الله فَضْلَ الله، ونورا فى ظلمات الليل وزينة للناظرين، والأرض يمشى فى مناكبها فيطلب فيها الرزق وعليها يسيم أنعامه فيها جمال ودفء ومنافع وأكل، ومن بطنها تستخرج المعادن للزينة وصالح الحياة، وفيها البحار المسخرة تستخرج منها الحلية للباس وتؤخذ منها اللحوم الطرية، والفلك والبواخر وخلفاء الأرض الشاكرون يبتغون فيها فضل الله، كل هذه النعم تساعد على تأدية مهمة الخلافة التى هى العبادة قال تعالى ﴿**ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير**﴾ (لقمان: ٢٠)

تم البحث بإيجاز، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حقيقة الإسلام

الشيخ الحاج / إبراهيم سورى فاديقا

الأمين العام للرابطة الإسلامية

كوناكرى - غينيا

تمهيد:

إن من الأمور التى ينبغى ملاحظتها على الأمة الإسلامية فى حاضرها أنه قد كثرت ملتقيات ومؤتمرات ودراسات عن الإسلام، وهذا من علامات الصحوة الإسلامية، وشعور الأمة بالخطر الذى يهدد كيانها، إلا أنه ينبغى لنا أن نعرف أن كل تلك الملتقيات والمؤتمرات لا تزال غير كافية، بل وربما تعد ضئيلة أمام جسامة المسؤولية وتضخم القضايا المطروحة، وخاصة بعد حادثة الحادى عشر من سبتمبر من العام الماضى.

فيجب أن نؤمن بأن قضايا هذا العصر لا تخص المسلمين وحدهم، وإنما تهم الإنسانية قاطبة؛ لأن سعادة الإنسان ـ بالرغم من أنه قد ظن عندما اندهش أمام تطورات العلم أنه قد ضمن لنفسه السعادة الحقيقية ـ ولم تزل تشكل مطلبا رئيسيا وقيمة من القيم التى ينشدها، وهذا يتناسب مع كون الإسلام يتجاوز بطبيعته المسلمين ليكون خطابا للناس كافة، قال تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾** (الحجرات - ١٣).

ومن الغريب أن نرى اليوم بعض المسلمين ينظرون إلى الإسلام كأركان تعبدية فقط! فيجب أن نسأل أنفسنا هل الإسلام كذلك؟

إن الذين يحسبون الإسلام أركانا تعبدية فقط، إنما تأثروا تأثيرا بالغا بدعايات أعداء الإسلام، والتى جعلتهم يريدون أن يجمدوا الإسلام، وأن يجعلوا أركانه هى كل الإسلام.

لكن الإسلام قبل كل شىء عقيدة ومنهج حياة يرتفع فوق هذه الأركان ليعمر حركة الحياة وينظمها. إن خصوم الدين الإسلامى تتركز أمانيهم فى أن يقتنع المسلمون بأن الإسلام أركان تعبدية فقط، ويحاولون عزل الأركان التعبدية عن صناعة حركة الحياة ليزيفوا هذه الحركة على أهوائهم.

والحق أننا لن نفلح فى بناء حضارة توفر الحياة وتبوىء الإنسان مكانته اللائقة به فى هذا الكون إلا إذا تشبثنا بالقيم التى أرسى الإسلام قواعدها، والتى تشكل نظريته الكونية وتحدد العلاقة بين عالم الزمان وعالم الأبد، والتى ينطلق الإنسان على ضوئها فى بناء حضارته، فإن كل تقدم إنسانى يتسم بالإيجاب يتوقف على مدى وعى الإنسان وتطبيعه لهذه القيم التى أناط الإسلام بها لتحقيق معنى الخلافة فى الأرض، تلك المتمثلة فى الأمانة التى عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان - بحكم مازوده الله من قوى الإدراك وباعتباره حامل القيم - هو وحده القادر على أدائها.

فلا يمكن أن تكون هذه الأمانة سوى تحقيق معنى العبادة التى من أجلها خلق الله الإنس والجن، قال تعالى: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون • ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون • إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾** (الذاريات ٥٦ - ٥٨)، ولا يمكن أن تكون هذه العبادة سوى مجموعة التكاليف التى دعى الإنسان إلى القيام بها، من أجل الصلاح والإصلاح لتكميل النوع الإنسانى، وتحقيق التقدم بشقيه المادى والروحى، وتحصيل السعادة فى الدارين، ولايمكن أن تكون الحضارة سوى بذل الجهود فى إسعاد الإنسان. ونحن فى منظورنا الإسلامى نرى أن مصدر بذل الجهود الذى يدفع الإنسان إلى العمل الإيجابى يكمن فى قيم الإسلام، وعلى رأسها العقائد التى بها صلاح الأعمال، إذ التصور الإسلامى ليس نظرية تجريدية فحسب بل هو أيضا تطبيقية وسلوكية.

إن عنوان البحث الذى أتناوله (حقيقة الإسلام) يقتضى بدايةً أن أطرح إشكالية ذات صلة بالموضوع، ألا وهى: هل يجهل إنسان هذا العصر حقيقة الإسلام؟

لا، ولكن نحن دخلنا فى عصر أصبح المسلمون يجرون وراء المنافع لاهثين حتى إن كثيراً منهم يرون الحق فيما ينفعهم لا فيما يطابق الواقع الإسلامى أو تقوم البراهين الشرعية على صحته، وهذا مذهب «البراجماتية» الذى ينادى بأن «المنفعة مقياس الحقيقة»، ويصر على أن المهم من كل شىء هو نتائجه الحاضرة ومايترتب عليه من آثار فى حياتنا العملية، وعلى أن الصدق ليس هو مطابقة الخبر للواقع، بل انسجامه مع ما ينفع وهكذا، فكل شىء يحكم عليه بما يتبعه من نتائج، فإن كانت هذه النتائج متناسبة مع أغراضنا ومع مانريد من مقدماتها كانت خيرا وصدقا وحقا، وإن كانت غير ذلك كانت شرا وباطلا، ولا يوصف الفعل بحسن ولاقُبْح، ولايوصف القول بالصدق والكذب حتى نعرف ثمرته، فمن هذا المنطق نعلم أن العالم فى هذا العصر لايجهل حقيقة الإسلام ولكن إنما يسعون وراء عَرَض هذه الحياة، ونحن نؤمن بأن أنفع شىء للناس هو الحق، وأن أضر شىء بالناس هو الباطل، لأن الحق باق على حقيقته، والباطل زاهق لا محالة وإن طال الأمد به، قال تعالى: ﴿**قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب • قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد • قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب**﴾ (سبأ ٤٨-٥٠)، فحقيقة الإسلام هى إثبات الحق لمنفعة الناس، إنها منفعة مادية وروحية تنفعهم فى الدنيا والآخرة، منفعة أعدت للإنسان، وأعد لها الإنسان.

الإسلام دين رحمة وسلام

إن عقيدة الإسلام عقيدة تتسع للروح والمادة، والحق والقوة، والدين والعلم، والدنيا والآخرة، إنها عقيدة التوحيد التى تغرس فى النفس الكرامة والحرية، وتجعل الخضوع لغير الله كفرا وفسقا وظلما، وتأبى على الناس أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، قال سبحانه وتعالى: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾

(آل عمران - ٦٤). وبهذه العقيدة انطلق المسلمون يخرجون العالم من الظلمات إلى النور، ويؤدبون الأكاسرة والقياصرة وكل من صعر خده من الجبابرة، وينقلون الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الخالق، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان والظلام إلى عدل الإسلام.

فأثبت للعالم فى كل معترك بأنه الدين الوحيد الذى سوى بين معتنقيه، فلم تقم دولته على أساس عرقى أو لغوى أو لونى، بل أرسى قواعد الأخوة الإسلامية تحت سقف واحد، منذ آخى الرسول ﷺ بين الأنصار والمهاجرين تنفيذا لقوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون**﴾ (الحجرات - ١٠) فقامت أخوة المؤاخاة مقام أخوة النسب والدم، وذابت الفروق الإقليمية والنسبية، وانمحت الفوارق الطبقية والمهنية، فلا أغنياء وفقراء، ولاتجار وزراع، إنها أخوة إيمانية صادقة، وهى الحب والإخلاص والإيثار، كما قال الله تعالى: ﴿**والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ (الحشر - ٩) فشعور المسلم بأخوته لبنى جنسه جميعا ليس أمرا ثانويا عنده ولانافلة فى دينه، إنما هو عقيدة يدين الله بها؛ ويلقاه يوم القيامة، ويرطب بها لسانه ذاكرا الله، يرجو به عند الله القربة والمثوبة، فقد كان الرسول ﷺ يقول فى دبر كل صلاة: «**اللهم ربنا ورب كل شىء أنا شهيد أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك اللهم ربنا ورب كلى شىء أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك اللهم ربنا ورب كل شىء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة**»، وبهذه الأخوة سادت الرحمة والمحبة والسلام فى ربوع المدينة فقضت على العداوة والبغضاء التى كانت بين الأوس والخزرج، ثم إن الرسول ﷺ أرسى قواعد الرحمة والسلام يوم فتح مكة بعد أن ظفر بقريش فى عقر دارها حين قال ﷺ: «**ماتظنون أنى فاعل بكم**»؟ **قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»**.

تكريم الإسلام للإنسان

لقد عرف العالم فيما عرف من اتجاهات، اتجاهين فكريين يناقض أحدهما الآخر: اتجاه يؤله الإنسان، أى يجعله إله نفسه لا رب خلقه، ولا إله يدبر أمره ولاحساب ينتظره، فهو يفعل مايشاء وكيف يشاء، ويحكم مايريد.

واتجاه آخر ينظر إلى الإنسان على أنه مجرد حيوان متطور منتج، أو حيوان اجتماعى.

أما الإسلام فلا يرفع الإنسان إلى مقام الألوهية، ولا يهبط به إلى البهيمية، فالإنسان ليس إلها، ومن وجد من العدم، ويموت بعد عمر يقصر أو يطول، يعيش. بين الولادة والموت، تحكمه سنن كونية لا يملك لها دفعا، فهو رغم ما منح له من عقل وإرادة ووسائل، عاجز ومقهور أمام كثير من الأشياء والأحداث والمواقف، والعاجز المقهور كيف يكون إلها؟ وصفة الإله أنه القادر القهار.

والإنسان ليس إلها وليس بهيما. إن نفى الألوهية عن الإنسان لايعنى إثبات البهيمية له، فالإنسان فى نظر الإسلام مخلوق متميز كرمه الله بالعقل وبالإرادة وبالروح، وفضله على كثير من خلقه، ومن مظاهر التكريم الإلهى للإنسان خلقه فى أحسن تقويم، كما قال سبحانه وتعالى: **﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾** (التين - ٤)، وقد كان النبى المصطفى ﷺ يكرر هذا الدعاء فى سجوده **«سجد وجهى للذى خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين»**.

استخلافه فى الأرض

هذه المنزلة اشرأبت إليها أعناق الملائكة، وتشوقت إليها أنفسهم فلم يعطوها، ومنحها الله للإنسان، والشاهد على ذلك قوله تبارك وتعالى فى سورة البقرة: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾** (آية ٣٠) تميزه بالعنصر الروحى الذى جعل الملائكة تنحنى له إجلالا وإكبارا لمقدمه بأمر من الله، قال تعالى: **﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين • فإذا سويته ونفخت فيه من روحى**

فقعوا له ساجدين﴾ (ص: ٧١ - ٧٢) وليس الأمر خاصا بأبى البشر ولكن يتعداه ليشمل بنيه ونسله، كما قال تعالى: **﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين • ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾** (السجدة ٨-٩) فلم يكن هذا التكريم والاحتفال لشخص آدم ـ عليه السلام ـ وإنما كان تكريما للنوع الإنسانى فى شخصه، فإن الله ميزهم بما ميز به آدم من مواهب العقل والعلم والروح، واستخلفهم كما استخلفه فى الأرض، ولهذا أعلن القرآن كرامة البشر حين قال سبحانه وتعالى: **﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾** (الإسراء - ٧٠).

وقد سخر الله لخدمة الإنسان ولمنفعته العوالم كلها - السماء والأرض وما فيهما وغيره ـ يقول جل وعلا مخاطبا الإنسان هذه الآيات التالية: **﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار • وءاتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفّار﴾** (ابراهيم: ٣٣ ـ ٣٤)، **﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾** (لقمان: ٢٠)، **﴿الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون • وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾** (الجاثية ١٢ - ١٣).

تميز الإنسانية فى الإسلام:

لقد تميز الإسلام عن غيره من الأديان والفلسفات بنظرته الشاملة المحيطة لماهية الإنسان، والنفاذ إلى أغوار طبيعته، والاعتراف بكل جوانبه وفضائله دون ميل وشطط، أو إهمال لناحية لحساب أخرى.

فالأديان السماوية كلها قد جاءت لتحرير الإنسان وإسعاده والسمو به، لكن أصابها الغلو أو التحريف والتزييف بما بدل جوهرها وأخرجها عن رسالتها.

ونظرا لأنها كانت رسالات مرحلية موقوتة لم يكتب الله لها الخلود، ولم يتكفل بحفظها كما تكفل بحفظ القرآن، بل استحفظها أهلها فضيعوا وبدلوا.

وأكبر دليل على هذه العبارة مايلى: لقد اعتبرت المسيحية الإيمان ضد العقل فكان شعارها اعتقد وأنت أعمى، والجسم عدو للروح فأهملت الأجسام إبقاء على الأرواح، والعمل للحياة منافيا للتعبد لله فابتدعت نظام الرهبنة والانقطاع عن الحياة، وكما اعتبرت الإنسان ملوثا بالخطيئة من يوم يولد، لأنها لازمة لوجوده ورثها من أبيه الأول، وحجرت على الإنسان أن يتصل بربه إلا بوساطة كاهن بيده مفتاح الجنة وملكوت السماء، فذلكم هو إنسان المسيحية فى صورتها التاريخية المراوغة، أما إنسان الإسلام فهو شىء آخر. لقد كان فى دلائل تكريم الله له فى نظر الإسلام أنه فتح له باب التقرب إليه - سبحانه وتعالى - أنى شاء ومتى شاء وكيف شاء، ولم يحوجه إلى وسطاء يتحكمون فى ضميره ويقفون حجابا بينه وبين ربه، قال تعالى:**﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾** (البقرة ١٨٦)، **﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾** (البقرة ٥٢)، **﴿والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير﴾** (غافر ٢٠)، وقد جاء فى الحديث القدسى معلنا أن «من يتقرب إلى الله شبرا تقرب الله إليه ذراعا».

هذه مسؤولية الإنسان عن نفسه، فلايجوز فى منطق العدل الإلهى أن يحمل الابن وزر أبيه، أو الحفيد وزر جده، لقوله تعالى فى سورة الأنعام: **﴿ قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾** (الأنعام ١٦٤).

حقوق الإنسان فى الإسلام

وقبل أن تتحدث الدنيا عن حقوق الإنسان بقرون، ويوم كان العالم كله لا ينظر للإنسان إلا من جهة ما عليه من واجبات يطالب بأدائها، وإلا كان عليه من العقاب ما يستحق، جاء الإسلام ليقرر جهرا أن للإنسان حقوقا ينبغى أن تراعى، كما أن عليه واجبات ينبغى أن تؤدى.

فهو كما يُسأل عما عليه، يجب أن يُعطى ما له ، فكل واجب يقابله حق، كما أن كل حق يقابله واجب، وهذه الحقوق ليست منحة له من مخلوق مثله، يمن بها عليه إن شاء ويسلبها منه متى شاء، إنما هى حقوق قررها الله له بمقتضى فطرته الإنسانية، فهى حقوق ثابتة دائمة بحكم الطبيعة والشريعة جميعا .

ومن هذه الحقوق: حق الحياة، حق الكرامة، حق التفكير، حق التدين والاعتقاد، حق التعبير، حق التعلم، حق الكفاية من العيش، وحق الأمن. ثم إننا نجد الإسلام قد قدس بعض الحقوق وفضلها عن بعض من حيث الأولوية، فحق الحياة مقدم على باقى الحقوق، فالرسول ﷺ قال: «**لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاثٍ زنا بعد إحصان، أو ارتداد بعد إسلام، أو قتل نفس بغير حق فقتل به**» رواه الترمذى. فحماه بالتربية والتوجيه وبالتشريع، وبكل المؤيدات النفسية والفكرية والاجتماعية، واعتبر الحياة هبة من الله لا يجوز لأحد أن يسلبها غيره، فقد أنكر القرآن الكريم على أهل الجاهلية من العرب الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم، ووأدوا البنات خاصة مخافة العار، وقتلوا البنين والبنات خشية الإملاق المتوقع أو من أجل الواقع، وجعل القرآن كل ذلك من أكبر الكبائر، قال تعالى: ﴿**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون**﴾ (الأنعام ١٦٤). ﴿**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً**﴾ (الإسراء ٣١)، ﴿**وإذا الموءودة سئلت • بأى ذنب قتلت**﴾ (التكوير ٨ – ٩). لم يفرق الإسلام فى حق الحياة بين أبيض وأسود، ولا بين شريف ووضيع، وحتى الجنين فى بطن أمه له حرمة لايجوز المساس بها، حتى إن كان ثمرة حرام فلايجوز لأمه أو لغيرها أن تسقطه، لأنه نفس محترمة لايحل الاعتداء عليها لأن لها حقاً وفى عهد الرسول ﷺ جاءت امرأة إليه وأقرت عنده أنها زنت وأنها حبلى من الزنا وطلبت أن يطهرها بإقامة حد الله عليها، قال لها المصطفى ﷺ: «**اذهبى حتى تلدى**».. فلما ولدت جاءت بطفلها مطالبة بإقامة الحد مرة أخرى فقال ﷺ: لها : «**اذهبى حتى تفطميه**» ولم ينفذ فيها العقوبة إلا بعد أن جاءت

به بعد أن أصبح يأكل الطعام، وكل هذا رعاية لحق الجنين ثم المولود الرضيع، لأنه لا ذنب له فيما جنته أمه أو اقترفه أبوه **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾**. وكيف لا يحمى الإسلام حق الحياة للإنسان وقد حمى حياة الحيوان إذا لم يكن منه أذى للناس، وفى الحديث الصحيح «**أن امرأة دخلت النار فى هرة ربطتها فلم تدعها تصيب من خشاش الأرض ولم تطعمها ولم تسقها حتى ماتت**» سنن أحمد، وفى حديث آخر لرسول الله ﷺ قال: «**لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها الأسود البهيم**». مشيرا إلى قوله تعالى: **﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحية إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون﴾**، (الأنعام: ١٥)، إذا كان هذا فى شأن القطط والكلاب واحترام حياتها واعتبارها أمما أمثالنا، فكيف تكون منزلة الإنسان المكرم وخليفة الله فى الأرض؟

والرسول ﷺ أكد هذه المعانى، وأعلن ذلك صراحة فى حجة الوداع أمام الجموع المحتشدة فى البلد الحرام والشهر الحرام واليوم الحرام: «**أتدرون أى يوم هذا**»؟ **قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال «فإن هذا يوم حرام، أفتدرون أى بلد هذا قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:» بلد حرام، أفتدرون أى شهر هذا ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهر حرام، فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا»**.

فلا يجوز أن يؤذى إنسان فى حضرته ولا أن يهان فى غيبته، سواء كان هذا الإيذاء للجسم بالفعل أم للنفس بالقول، وقد حرم الإسلام أشد التحريم أن يضرب إنسان بغير حق، وأن يجلد ظهره بغير حد، وأنذر باللعنة من ضرب إنسانا ظلما، ومن شهده يضرب ولم يدفع عنه. وكما حرم الإيذاء الأدبى للإنسان وهو اللمز والهمز والتنابز بالألقاب والسخرية والغيبة وسوء الظن بالناس. وأنزل الله فى ذلك آيات تتلى مدى الدهر.

فحقوق الإنسان فى الإسلام محفوظة حيا كان أو ميتا، وجاء فى الحديث النبوى: «**كسر عظم الميت ككسر عظم الحى فى الإثم**»، وكما حمى عرضه حيا حماه كذلك ميتا، فقال ﷺ «**لاتذكروا هلكاكم إلا بخير**».

كيف انتشر الإسلام ؟

نظرة سريعة فى تاريخ الإسلام:

إن قول بعض المستشرقين أن الإسلام قد انتشر بالسيف، ولم يكن للناس آن ذاك بد إلا الاختيار بين الإسلام والقتل؛ وأن الفتوحات الإسلامية دليل على انتشار هذا الدين الحنيف بالسيف؛ هذا القول مناف للحقيقة وعداوة للإسلام، إننا نلاحظ فى انتشار الإسلام مايلى:

أولا: إن وجود غير المسلمين فى الدول الإسلامية، من يهود ونصارى وغيرهما بكامل الحرية والعبادات مع أمن الحياة، لدليل على تكذيب ذلك القول.

ثانيا: إن تاريخ البشرية يقرر بأن كل نظام أنشأه السيف يزول بزوال السيف.

ثالثا: رغم ما أصاب المسلمين فى يومنا هذا من ضعف فى الإيمان والجهاد، مازال الإسلام ينتشر ويزدهر يوما بعد يوم فى دول لم يطأ المسلمون الأوائل أراضيها.

ومن هنا فإن القول بأن الإسلام قد انتشر بالسيف قول باطل، والإسلام منذ الفجر الأول دين تسامح وتعايش بين بنى البشر، ولم يستخدم السيف إلا عند لزوم الأمر للدفاع عن حرية الاعتقاد والفكر للبشرية جمعاء، فقد كان دعاة الإسلام الأوائل يعرضون الإسلام على الأمم من منطلق قوله تعالى: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن**﴾ (النحل ١٢٥)، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فكم من دعاة قُتلوا ظلما وطغيانا فى سبيل الدعوة فى عهد الرسول ﷺ عندما يعلن بعض القبائل إسلامهم، فيرسل الرسول معهم من يعلمهم دين الله فيقتلون.

وما الفتوحات إلا نتاج عمل بعض القبائل والملوك، لما صادروا حرية الناس فى الاعتقاد وقتل بعض الدعاة.

إن قضية انتشار الإسلام بالسيف قضية قديمة أحدثت جدالا طويلا عبر التاريخ الإسلامى، ولكن الحقيقة التى نؤمن بها كمسلمين هو أن انتشار الإسلام كان كما يأتى:

١ ـ الصبر وتحمل الأذى: فقد أوذى المسلمون فى مكة مع رسول الله ﷺ أذى شديدا، حتى توجه الرسول ﷺ إلى الطائف، وما كان من أهلها إلا أن قاموا فى وجهه ورموه بالحجارة كما جاء فى الحديث: «أن عائشة زوج النبى ﷺ حدثت أنها قالت لرسول الله ﷺ: **يارسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وماردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فنادانى ملك الجبال وسلم علىّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً**».

٢ ـ التأنى وعدم التسرع: إن الذين جاهدوا فى غزوة بدر الكبرى هم الذين كانوا فى مكة فكانوا يطالبون الرسول بالرد بالمثل، إلا أن الرسول ﷺ كان يأمرهم بكف الأيدى حتى أذن لهم بالقتال، والقرآن يصدق ذلك الموقف بقوله تعالى: ﴿**أُذن للذين يُقَاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير • الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق**﴾ (الحج: ٣٩-٤٠).

٣ ـ الحكمة فى الدعوة وحسن الجوار مع غير المسلمين دون لجوء إلى السيف: فنرى الرسول ﷺ يقبل فى صلح الحديبية من الشروط فى المعايشة مع الكفار مالم يقبله أحد سواه، وكذلك المسلمون عند فتح بيت المقدس، مما يؤكد سماحة الإسلام وسبب انتشاره.

٤ ـ العفو عند المقدرة: إن فى قضية أسرى بدر التى لام القرآن المسلمين عليها؛ ورد الرسول ﷺ على أهل مكة يوم الفتح لدليلا على اقتناع الخصوم بسماحة الإسلام.

٥ ـ المعاملة الحسنة: إن الدول التى دخلها الفاتحون لم يفرضوا الإسلام على أهلها قهرا، بل خيروهم بعد إعلانهم لمبدئهم ألا وهو إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، أو الجزية، أو القتال لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى لقوله تعالى: **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾** (الأنفال ٦١). وقال أيضا: **﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾** (البقرة ١٩٠).

٦ ـ قوة الإسلام نفسه: إن الله تعالى قد تكفل بحفظ القرآن وشريعته ونصر الرسول والصدّيق إذ هما فى الغار، ونصر جنده يوم الأحزاب وحده.

٧ ـ اعتراف أعداء الإسلام بقوة ومبادىء الإسلام وصراحته فى معالجة الأمور وموقفه الواضح تجاه أمر القتال أو الاستعداد له، قال تعالى: **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾** (الأنفال ٦٠).

٨ ـ معالجة الأمور بالمثل قال تعالى: **﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾** (البقرة ١٩٤).

٩ ـ ونحن فى أفريقيا فيما وراء الصحراء لم يسجل فى تاريخنا قتال ولا معارك إسلامية استعان بها التابعون فى حمل الرسالة إلى ناحيتنا، ومع ذلك فنسبة المسلمين فى هذه القارة تنوف اليوم على ٦٢٪.

حقيقة الإسلام

الأستاذ/ سمان مالى بهان
عضو المجلس المركزى للشئون الإسلامية
ومدير عام المعهد العلمى الدينى ـ تايلاند

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم.

من هذا المكان الطيب من كنانة الله فى الأرض (مصر) أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى فخامة الرئيس/ **محمد حسنى مبارك** رئيس جمهورية مصر العربية والراعى لهذا المؤتمر، وهو أول من تنبأ بخطر الإرهاب الحقيقى فى هذا العصر، ودعا لعقد مؤتمر دولى لمناقشة هذا الخطر الزاحف على العالم أجمع، الذى لا يفرق بين مسلم وكافر، أو غنى وفقير، أو متحضر ومتخلف.

كما أتقدم بخالص التحية وكامل الاحترام إلى الدكتور/ **محمود حمدى زقزوق** وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والذى أتاح لنا فرصة الحضور والمشاركة فيما يهم الإسلام والمسلمين.

كما أتوجه بخالص التحية إلى الإمام الأكبر الدكتور/ **محمد سيد طنطاوى** شيخ الأزهر الشريف.

كما أتوجه بوافر التحية إلى كل السادة العلماء المشاركين فى المؤتمر.

أيها الأخوة العلماء: نجتمع اليوم للبحث فى موضوع: حقيقة الإسلام فى عالم متغير، والذى تناولت فى بحثى هذا المحور الأول منه (حقيقة الإسلام).

أيها الأخوة العلماء: إن للأمة الإسلامية رسالة، هى رسالة الله إلى العالم ـ وهى آخر الرسالات ـ التى طابعها الرحمة لكل خلق الله فى الأرض والسماء.

ومنهجها الرقى بالمجتمع. وقد بينت فى بحثى أن الإسلام دين رحمة وسلام، فالسلام مبدأ من المبادئ التى عمق الإسلام جذورها فى نفوس المسلمين فأصبحت جزءًا من كيانهم وعقيدة من عقائدهم، لقد صاح الإسلام منذ طلع فجره وأشرق نوره صيحة مدوية فى آفاق الدنيا، يدعو إلى السلام، ويضع الخطة الرشيدة التى تبلغ بالإنسانية إليه، إن الإسلام يحب الحياة ويقدسها، ويحبب الناس فيها، وهو لذلك يحررهم من الخوف، ويرسم الطريقة المثلى لتعيش الإنسانية متجهة إلى غايتها من الرقى والتقدم، وهى مظللة بظلال الأمن.

ولقد كرم الإسلام الإنسان، وبينت أن التكريم على ضربين:

(أ) تكريم جسدى : ويستوى فيه المسلم والكافر.

(ب) تكريم روحانى: بأن نفخ فيه من روحه وعلَّمه الأسماء كلها.

كما أظهرت حقوق الإنسان فى الإسلام: فالأصل الثابت الذى تقوم عليه التعاليم الإسلامية هو الاحترام الكامل للكرامة الإنسانية التى يتسم المفهوم الإسلامى لها بخاصتى الشمول والعموم.

فيكتسب بذلك هذا المفهوم عمقا ورحابة وامتداداً فى الزمان والمكان، وكما هو مقرر شرعاً فإن المفهوم الإسلامى للكرامة الإنسانية يرتقى إلى قمة عالية من العدل المطلق ومن المساواة الكاملة ومن الحق والإنصاف اللذين لا تشوبهما شائبة، يقول الله تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**﴾ (الإسراء: ٧٠) والإسلام انتشر بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لأن أساس الدعوة إلى الله لم يترك سدى، بل إن الله تعالى وضع لنا الأساس، وهو قوله تعالى: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ (النحل: ١٢٥).

أيها الأخوة العلماء: الإسلام هو النعمة الكبرى والمنة العظمى والدين الوحيد الذى ارتضاه الله ـ عز وجل ـ لأهل الأرض والسماء يقول تعالى: ﴿**إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾ (البقرة: ١٣٢).

والإسلام برىء من الإرهاب، ومن الظلم الفادح أن يتهم هذا الإسلام بالإرهاب، ومن الجهل المدقع أن يُتَّهَم الإسلام بالتطرف والوحشية والهمجية والرجعية والتخلف ... إلى آخر هذه التهم التى تكال للإسلام عبر وسائل الإعلام الغربية التى يديرها اليهود.

اليهود الذين وظَّفُوا الأحداث الأخيرة فى أمريكا توظيفاً خبيثاً لخدمة أغراضهم الدنيئة، واليهود قبل غيرهم يعلمون علم اليقين أن الإسلام دين لا يقر الإرهاب فوق أى أرض وتحت أى سماء.

الإسلام دين تسامح : ليقرأ اليهود وغيرهم التاريخ ليعلموا عظمة الإسلام لأنه دين الله ـ سبحانه ـ وهو اللطيف الخبير.

فقد عاش اليهود فى ظلال الإسلام فى أمن وأمان ورخاء واستقرار، ولم يتعرضوا لأى أذى إلا عندما نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ فى أشد الأوقات وأحلكها، حين حاصرت الأحزاب المدينة، ونقض يهود بنى قريظة العهد مع رسول الله ﷺ وقد ترك بينهم النساء والصبيان والأطفال والأموال، واليهود متخصصون فى نقض العهود فقال الله تعالى: ﴿**أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون**﴾ (البقرة: ١٠٠)، لكنهم قبل ذلك كانوا يعيشون فى أمن وسلام واستقرار ورخاء.

والإسلام فى عقيدة المسلم، فكل يوم يقف المسلم أمام ربه عدة مرات ويذكر فى صلاته: السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، كما أنه يخرج من صلاته بالسلام، كما أنه تحيته السلام.

وإذا كنا اليوم مطالبين ببيان حقيقة الإسلام فنقول: إن حقيقته ظاهرة واضحة وهى أن الدين الإسلامى دين أمن وسلام وصالح لكل زمان ومكان.

ولكن أقول لغير المسلمين وخاصة دول أوروبا وأمريكا بالاسم: صححوا أفكاركم عن الإسلام والمسلمين فقد أضلكم اليهود والمستشرقون بكتاباتهم الزائفة المضللة عن الإسلام والمسلمين، وإذا أردتم معرفة الإسلام ومبادئه الحسنة فخذوه عن علمائه ومشايخه وهم موجودون فى كل مكان وزمان.

أيها الأخوة العلماء: نحن فى تايلاند أقلية مسلمة، ولكن تعاملنا مع أحداث سبتمبر من أول لحظة بكل حزم، فقد عَبَّرْنَا للسفارة الأمريكية فى تايلاند بقولنا: «لا للحرب»، وقمنا بتقديم كافة المساعدات للشعبين الأفغانى والفلسطينى، وعندما قامت الحرب كتبنا كشوفاً بأسماء البضائع الأمريكية واليهودية والبريطانية وأسماء الشركات التايلاندية التى تحصل على توكيل من هذه الدول مثل: شركة الكوكاكولا، وقمنا بمقاطعة هذه البضائع جمعاء إلى أن تقف هذه الحرب سواء فى أفغانستان أو فلسطين، ولا أطيل عليكم وأذكركم وأذكر نفسى بقوله تعالى: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**﴾ (آل عمران: ١٠٣).

حقيقة الإسلام

١- خصوصية الإسلام : دين رحمة وسلام

إن السلام من المبادئ التى عمّق الإسلام جذورها فى نفوس المسلمين فأصبحت جزءاً من كيانهم وعقيدة من عقائدهم.

لقد صاح الإسلام منذ طلع فجره وأشرق نوره صيحته المدوية فى آفاق الدنيا يدعو إلى السلام ويضع الخطة الرشيدة التى تبلغ بالإنسانية إليه. إن الإسلام يحب الحياة ويقدسها ويحبب الناس فيها وهو لذلك يحررهم من الخوف ويرسم الطريقة المثلى لتعيش الإنسانية متجهة إلى غاياتها من الرقى والتقدم وهى مظللة بظلال الأمن والسلام.

ولفظ الإسلام الذى هو عنوان هذا الدين مأخوذ من مادة السلام؛ لأن السلام والإسلام يلتقيان فى توفير الطمأنينة والأمن والسكينة، ورب هذا الدين من أسمائه (السلام) لأنه يؤمّن الناس بما شرع من مبادئ وبما رسم من خطط ومناهج.

وحامل هذه الرسالة هو حامل راية السلام؛ لأنه يحمل إلى البشرية الهدى والنور والخير والرشاد، وهو يحدث عن نفسه فيقول «**إنما أنا رحمة مهداة**» ويحدث القرآن عن رسالته فيقول: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وتحية المسلمين التى تؤلف القلوب وتقوى الصلات وتربط الإنسان بأخيه الإنسان هى السلام.

وأولى الناس بالله وأقربهم إليه من بدأهم بالسلام، وبذل السلام للعالم وإفشاؤه جزء من الإيمان. وقد جعل الله تحية المسلمين بهذا اللفظ للإشعار بأن دينهم دين السلام والأمان وهم أهل السلم ومحبوا السلام.

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله جعل السلام تحية لأمتنا وأماناً لأهل ذمتنا**» وما ينبغى للإنسان أن يتكلم مع إنسان قبل أن يبدأه بكلمة السلام، يقول رسول الله ﷺ: «**السلام قبل الكلام**» وسبب ذلك: أن السلام أمان، ولا كلام إلا بعد الأمان. والمسلم مكلف وهو يناجى ربه بأن يُسلّم على نبيه

وعلى نفسه وعلى عباد الله الصالحين، فإذا فرغ من مناجاته لله وأقبل على الدنيا أقبل عليها من جانب السلام والرحمة والبركة، وفى ميدان الحرب والقتال إذا أجرى المقاتل كلمة السلام على لسانه وجب الكف عن قتاله، يقول الله تعالى : **﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾** (النساء:٩٤) وتحية الله للمؤمنين تحية سلام **﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾** (الأحزاب:٤٤) وتحية الملائكة للبشر فى الآخرة سلام قال تعالى: **﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب • سلام عليكم﴾** (الرعد: ٢٣-٢٤) ومستقر الصالحين دار الأمن والسلام.

اتجاه الإسلام نحو المثالية : بل إن الإسلام يوجب العدل ويحرم الظلم ويجعل من تعاليمه السامية وقيمه الرفيعة: المودة والرحمة والتعاون والإيثار والتضحية وإنكار الذات ما يلطف الحياة ويُعَطِّف القلوب ويؤاخى بين الإنسان وأخيه الإنسان وهو بعد ذلك كله يحترم العقل الإنسانى ويقدر الفكر البشرى ويجعل العقل والفكر وسيلتين من وسائل التفاهم والإقناع، فهو لا يرغم أحداً على عقيدة معينة، ولا يكره إنساناً على نظرية خالصة بالكون أو الطبيعة أو الإنسان، وحتى فى قضايا الدين يقرر أنه لا إكراه فى الدين، وأن وسيلته هى استعمال العقل والفكر والنظر فيما خلق الله من أشياء، يقول الله تعالى: **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾** (البقرة:٢٥٦) دين رحمة وتسامح وعطف فكل سورة من القرآن تبدأ بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم، وإذا كان الله هو الرحمن الرحيم فالمسلم يتخلق بهذه الصفة دائماً فى صلواته وفى حياته: طعامه وشرابه ومشيه ونومه، وحينما مدح الله تعالى رسوله ﷺ قال: **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾** (آل عمران:١٥٩).

علاقة المسلمين بغيرهم: هى علاقة تعارف وتعاون وبر وعدل يقول الله سبحانه فى التعارف المفضى إلى التعاون: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾** (الحجرات: ١٣).

ومن مقتضايات هذه العلاقة تبادل المصالح واطراد المنافع وتقوية الصلات الإنسانية.

٢- تكريم الإسلام للإنسان

يقول الله تعالى: **﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾** (الإسراء: ٧٠) تفسير هذه الآية الكريمة فى كتاب روح البيان؛ بأن التكريم للإنسان يكون على ضربين:

١- تكريم جسدى:

فالكرامة الجسدية عامة يستوى فيها المؤمن والكافر، وهى تخمير طينته بيده أربعين صباحاً، وتصويره فى الرحم بنفسه، وأنه تعالى صوره فأحسن صورته وسوَّاه فعدَّله فى أى صورة ما شاء ركبه، ومشَّاه سويا على صراط مستقيم القامة.

٢- الكرامة الروحانية وهى على ضربين أيضاً:

(أ) **عامة:** وهى يستوى فيها المؤمن والكافر، وهى وإن كرمه بنفخه فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلها، وكلَّمه قبل خلقه بقوله: **(ألست بربكم)** فأسمعه خطابه وأنطقه بجوابه بقوله: **(بلى)**، وعاهده على العبودية وأولده على الفطرة وأرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، ودعاه إلى الحضرة، ووعده بالجنة وخوَّفه من النار وأظهر له الآيات والدلالات والمعجزات.

(ب) **خاصة** : ما كَرَّم به أنبياءه ورسله وأولياءه الصالحين وعباده المؤمنين من النبوة والرسالة والولاية والإيمان والإسلام والهداية إلى صراط مستقيم، وهو صراط الله، والسير إلى الله، وفى الله وبالله.

ولقد كرم الإسلام الإنسان فحرَّم دمه وأمواله وأعراضه إلا بالحق، بل إن الله سبحانه اصطفاه دون سائر المخلوقات فقال تعالى: **﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾** (آل عمران: ٣٣).

واصطفاه: هو أخذ ما صفا من الشيء أى اختار آدم بالنفس القدسية وما يليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية المستتبعة للرسالة فى نفس المصطفى كما من كافة الرسل ـ عليهم السلام ـ أو اصطفاه: أى خلقه فى أحسن تقويم، لهذا يكون الإسلام كرَّم الإنسان على العالمين وجعله خليفة له فى الأرض للعبادة ولعمار الدنيا وليس للكفر والإرهاب.

٣- حقوق الإنسان فى الإسلام

إن الأصل الثابت الذى تقوم عليه التعاليم الإسلامية هو الاحترام الكامل والوافر للكرامة الإنسانية التى يتسم المفهوم الإسلامى لها بخاصتى الشمول والعموم. فيكتسب بذلك هذا المفهوم عمقاً ورحابةً وامتداداً فى الزمان والمكان، وكما هو مقرر شرعاً فإن المفهوم الإسلامى للكرامة الإنسانية يرتقى إلى قمة عالية من العدل المطلق ومن المساواة الكاملة ومن الحق والإنصاف اللذين لا تشوبهما شائبة يقول الله تعالى: **﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾** (الإسراء: ٧٠) ويدل سياق الآية على أن التكريم هو التفضيل للترابط والتكامل بين بدء الآية وختامها (**ولقد كرمنا بنى آدم**) وبهذا التكريم والتفضيل تأصلت الكرامة من الأصل الإنسانى تأصيلاً فتكريم الله لعباده هو تشريف لهم ما بعده تشريف، ومن تكريم الله لعباده كفالة الحقوق فى شريعته التى شرعها للناس كافة.

فالإسلام أكد المساواة بين البشر بقوله تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** (الحجرات:١٣) وهذه المساواة تنفى التمييز القائم على العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين كما نادى الإسلام بوحدة الأسرة الإنسانية، قال رسول الله ﷺ: «**كلكم لآدم وآدم من تراب**» وقال أيضاً: «**لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى**».

حفظ حقوق الإنسان من مقاصد الشريعة الإسلامية : وفى التعاليم نصوص كثيرة تبين حق الإنسان فى التنقل بحرية، وحقه فى حصانة سكنه وعدم تحريمه دون بينة ظاهرة، قال تعالى: **﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾** (الملك:١٥) ودعا الإسلام إلى التكامل بين أبناء المجتمع لتحقيق الحياة الإنسانية الكريمة، والتحرر من الفقر والحاجة قال تعالى: **﴿والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم﴾** (المعارج: ٢٤-٢٥) وإذا كان من مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ الدين والنفس

والعقل والنسل والمال فإن جماع ذلك كله هو حفظ كيان الإنسان والحقوق المقررة للإنسان فطرة وشرعاً وهى أساس كيانه كما قال رسول الله ﷺ: «**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم**» كما أن التعاليم الإسلامية تؤكد المساواة التامة فى كفالة حقوق الإنسان بين الرجل والمرأة لقوله تعالى: ﴿**ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة**﴾ (غافر:٤٠).

حقوق غير المسلمين : كما حفظ الإسلام حقوق غير المسلمين، الذين يعيشون فى المجتمعات الإسلامية بما فى ذلك حقهم فى حرية الاعتقاد والتحاكم إلى شرعهم، وإقامة العدل لهم، وحفظ دمائهم وأموالهم وأعراضهم ومعاملتهم بالحسنى، فهو مواطنون لهم حقوقهم وعليهم واجباتهم فى جوار الله وذمة نبيه محمد ﷺ. قال سبحانه وتعالى خالق الخلق أجمعين: ﴿**إنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى**﴾ (آل عمران: ١٩٥) وفى ذلك العدل كله والرحمة كلها والمساواة بالمعنى الحقيقى والعميق. ومن العدل الإلهى تنبثق حقوق الإنسان فى الإسلام لأنها حقوق الله تنفع الإنسان، وتصلح أحواله، ويمكث أثرها فى الأرض، وهى ليست حقوقا للرجل دون المرأة وإنما هى للإنسان عموماً أيا كان أصله وجنسه وعرقه ودينه، وهذه المساواة لم تعرفها الإنسانية إلا فى المجتمع الإسلامى ولم تدركها البشرية إلى بعد خمسة عشر قرناً من بزوغ الإسلام.

لقد وضع الإسلام القواعد الثابتة والمبادئ الراسخة لكرامة الإنسان، ولمبدأ المساواة وعدم التمييز، ولوحدة الأسرة الإنسانية، وللدعوة إلى التعاون بين الشعوب ولحرية الإنسان فى العبادة، ولحق الحياة ولحق الحرية وحرمة العدوان على مال الإنسان هو البراءة والمبدأ والتكافل الاجتماعى، وهذه هى المبادئ العامة للإعلان العالمى لحقوق الإنسان التى كان الإسلام سبَّاقاً إلى إقرارها وكان المجتمع الإسلامى سبَّاقا إلى ممارستها والحياة فى كنفها.

رؤية إسلامية متميزة:

وإذا كان الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة ١٠ من ديسمبر ١٩٤٨م، قد أحاط بأغلب ما للإنسان المعاصر من حقوق، فإن للرؤية الإسلامية لهذه الحقوق تميزاً يتجاوز الأسبقية الزمنية التى جاء بها الإسلام فى حقوق الإنسان قبل هذا الإعلان بنحو أربعة عشر قرناً، عندما

ترتفع هذه الرؤية الإسلامية بهذه الحقوق إلى مرتبة (الضرورات) ودرجة (الفرائض والواجبات)، فالتطور الذى عرفته الحضارة الغربية فى منتصف القرن العشرين فى مجال (حقوق الإنسان)، قد عرفته الحضارة الإسلامية بل مارسته قديماً لا كمجرد (حقوق) للإنسان وإنما (كفرائض إلهية وتكاليف وواجبات شرعية) لا يجوز لصاحبها الإنسان أن يتنازل عنها أو يهملها حتى بمحض إرادته إن هو أراد. وتلك زاوية لرؤية القضية، ودرجة فى تناولها تمثلان إضافة (نوعية... وكيفية) تزيد الرؤية الإسلامية غنى وأصالة وعمقاً وتوفر المزيد من الفاعلية والتأثير لهذه (الحقوق) كى تحقق المزيد من الأمن الاجتماعى للإنسان.

تفصيل الشيخ سيد سابق : فى كتابه فقه السنة فصّل حقوق الإنسان فى الإسلام تفصيلاً دقيقاً، استوفى فيه المقومات الرئيسية والمرتكزات الأساس لهذه الحقوق. فى وقت متزامن مع صدور الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، وفى خطوة رائدة تستحق منا كل التقدير حيث بين أن من الحقوق التى كفلها الإسلام للإنسان:

– **حق الحياة :** لكل فرد حق صيانة نفسه وحماية ذاته، فلا يحق الاعتداء عليها إلا إذا قتل أو أفسد فى الأرض فساداً يستوجب القتل.

– **حق صيانة المال :** فكما أن النفس معصومة فكذلك المال فلا يحل أخذ المال بأى وسيلة من الوسائل غير المشروعة.

– **حق العرض :** ولا يحل انتهاك العرض حتى ولو بكلمة نابية.

– **حق الحرية :** ولم يكتف الإسلام بتقرير صيانة الأنفس وحماية الأعراض والأموال، بل أقر حرية العبادة وحرية الفكر وحرية اختيار المهنة التى يمارسها الإنسان لكسب عيشه، وحرية الاستفادة من جميع مؤسسات الدولة، وأوجب الإسلام على الدولة المحافظة على هذه الحقوق جميعها، ولا تنتهى حقوق الإنسان عند هذا الحد بل إن هناك حقوق أخرى منها:

– **حق المأوى :** فالإنسان له الحق فى أن يأوى إلى أى مكان، وأن يسكن فى أى جهة، وأن ينتقل فى الأرض دون حجر عليه، أو وضع عقبات فى طريقه، ولا يجوز نفى أى فرد أو إبعاده أو سجنه إلا فى حالة ما إذا اعتدى على حق غيره، ورأى القانون أن يعاقبه بالطرد أو الحبس، ويكون ذلك فى حالة الاعتداء على الغير.

حقوق الإنسان وازدواجية المعايير : هناك تعارض كبير بين الشرعية الدولية لحقوق الإنسان وبين التفسير والتطبيق الغربيين لهذه الشرعية ولتلك

الحقوق، وهذا من التناقضات الصارخة التى تطبع الحياة السياسية الدولية فى هذا العصر، وهو الأمر الذى يمثل تحديا ضاريا يفرض على الشعوب والأمم الدخول فى مواجهة غير متكافئة مع القوة الكبرى الساعية إلى الهيمنة والسيطرة على مقدرات العالم، تحت دعاوى عديدة بعضها يكتسى صبغة العولمة، التى هى اليوم التوجه العام للنظام الجديد الذى فُرض على العالم، والذى فى ظله تُنْتَهك حقوق الإنسان بدرجة أو بأخرى وبأسلوب أو بآخر وفى ذلك من المفارقة الغذر الذى يجعلنا نتردد فى التسليم بعالمية حقوق الإنسان وحق التفسير الغربى لها، إذ أن اعتراف الدول بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان لا ينفى الحرص على أن تراعى الخصوصيات الثقافية التى تقرها المواثيق الدولية فى تفسير مواد هذا الإعلان العالمى، ولا يجيز تطبيق تلك الحقوق غير عادل وشامل يميز فيه شعب وآخر تأسيساً على ذلك فإننا نؤكد ضرورة تعامل المجتمع الدولى مع حقوق الإنسان منصفاً ورشيدا دون تمييز، مع احترام الخصوصيات التى جاءت بها الأديان السماوية والتى تقرها المواثيق الدولية.

إن حقوق الإنسان بعد ثقافى يتركز فى طبيعة المرجعية التى تنبع منها حقوق الإنسان، وهل هى حقوق غربية المنبع أم أنها عالمية الأبعاد، ومن الطبيعى أن لا يكون قبولا مطلقا لعولمة حقوق الإنسان وتطبيقه وفق منظور أحادى وذلك بحكم الطبيعة الإنسانية التى من مظاهرها التنوع الثقافى بين شعوب العالم. وإن العديد من المفكرين والحكماء أخذوا يعارضون التوجه الغربى، الهادف إلى فرض التفسير والتطبيق الغربيين للإعلان العالمى لحقوق الإنسان على العالم، ومن هؤلاء صامويل هنتنغتون الذى دعا فى دراسة له نشرها بعد مقاله الذى أثار جدالاً واسعاً حول (صدام الحضارات) الولايات المتحدة لتخفيف ضغطها على دول (الثقافات الأخرى)، وتركها تمارس شؤونها كما تشاء، وهذا نقد صريح للأسس التى تقوم عليها عولمة حقوق الإنسان التى تعتمد ازدواجية المعايير، وفى التعاليم الإسلامية فإن هذه الازدواجية غير مقبولة بأى وجه من الوجوه؛ لأنها افتراءات على الحق ولأنها تتنافى مع مبدأ العدل الذى هو أساس التعامل الإنسانى السليم، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو على مستوى العلاقات الدولية.

٤- كيف انتشر الإسلام

لقد وضع الله ـ سبحانه وتعالى ـ للدعاة المسلمين قواعد ثابتة فى كتابه العزيز للدعوة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال تعالى: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾** (النحل: ١٢٥) ومعناها (ادع) الناس يا محمد (إلى سبيل ربك) دينه (بالحكمة) بالقرآن (والموعظة الحسنة)، بالقول الرقيق الطيب (وجادلهم بالتى) أى المجادلة (هى أحسن) بالدعاء إلى الله مبيناً آياته والدعاء إلى حججه (إن ربك هو أعلم) أى عالم (بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) فيجازيهم، وهذا قبل الأمر بالقتال.

ولقد بدأت الدعوة إلى الله جهرا بعد أن كانت سرا عندما نزل قوله تعالى: **﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾** (الحجر: ٩٤) ولقد بدأ انتشار الإسلام فى المدينة عن طريق بيعتا العقبة الأولى والثانية. فلقد كان فى الأولى اثنا عشر رجلاً فبايعوا رسول الله ﷺ على ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصونه فى معروف، فإن وافقوا فلهم الجنة، وإن غشوا من ذلك شيئا فأمرهم إلى الله عز وجل، إن شاء غفر وإن شاء عذَّب، وهذه بيعة العقبة الأولى.

ولما كان العام التالى قَدم الحُجاج يثرب ووعدوا الرسول ﷺ بالمقابلة عند العقبة سرا عن مشركى مكة، فكانوا يتسللون الرجل والرجلين حتى تم عددهم ٧٣ رجلاً وامرأتان، فقالوا لرسول الله ﷺ : «**خذ لنفسك ولربك ما أحببت فقال: أشترط لربى أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قَدِمتُ عليكم، فقال الهيثم بن التيهان: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال عقوداً وإن قاطعوا فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسم ﷺ وقال: بل الدم بالدم والهدم بالهدم**». أى إن طالبتم بدم طالبت به وإن أهدرتموه أهدرته، وهذه هى بيعة العقبة الثانية، وبذلك رجع هؤلاء الأنصار لدعوة قومهم، هذه بادية الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة

الحسنة، ثم بعد ذلك فرض الجهاد فى سبيل الله، ولقد انتشر الإسلام فى القلوب قبل السيف فلذلك دخل الناس فى دين الله أفواجاً.

أما أسباب انتشار الإسلام فأذكر منها على سبيل المثال:

انتشار الإسلام فى أفريقيا:

١- الجوار الجغرافى واتصال الرقعة الأرضية : تلتحم أفريقيا بآسيا عند برزخ السويس ويمثل هذا الالتحام المعبر البرى الوحيد بين القارتين، ولضيق شاطئه عند باب المندب اتخذت الهجرات معبراً إلى أفريقيا. ولعبت دوراً هاماً فى نقل الإسلام والتجارة بين القارتين.

٢- بساطة تعاليم الإسلام : من أهم أسباب انتشار الإسلام عبر ربوع أفريقيا بساطة تعاليمه وسهولة فهمه ويسر الدعوة إليه، فكان كل مسلم يعتبر داعية، فلا توجد تعقيدات المسيحية وما يكتنفها من غموض.

٣- ارتبطت المسيحية بالاستعمار الغربى وتجارة الرقيق وممارسة جميع ألوان القسوة فى نقل ملايين الأفريقيين إلى العالم الجديد.

٤- عدالة الإسلام : ومساواته بين الناس وبغضه للتفرقة العنصرية وهى عقدة الأفارقة حيث مارسها البيض تحت ظلال المسيحية.

٥- انتشار الدعوة الإسلامية لا يسخر لمصالح فئة معينة أو يحقق مكاسب لكتل سياسية متصارعة، وليست للدعوة الإسلامية أهداف غير انتشار الإسلام، وهذا يخالف تماماً بعثات التنصير من حماية للمصالح الاستعمارية.

المصادر التى اعتمد عليها البحث:

١- كتاب الله (القرآن الكريم).

٢- فقه السنة للشيخ سيد سابق جـ ١١.

٣- تفسير روح البيان أ/ إسماعيل حقى: جـ ٥ .

٤- مجلة الفرقان (الكويت) العدد ١٦٧ د. عبدالعزيز بن عثمان التويجرى.

٥- كتاب الأقليات المسلمة فى أفريقيا أ/ سيد عبدالمجيد بكر جـ ٢.

٦- كتاب نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين الشيخ / محمد الخضرى بك، مصر.

حقيقة الإسلام وكيف انتشر؟

الأستاذ الدكتور/ عبدالرحمن أحمد سالم
كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة
مصـــر

لم يمض على ظهور الإسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى غير بضعة عقود، حتى كان قد بسط نفوذه السياسى والفكرى على مناطق شاسعة فى قارات آسيا وإفريقيا وأوروبا. فقبيل وفاة الرسول ﷺ كان الإسلام قد انتشر فى شبه الجزيرة العربية كلها، وخلال عهد الراشدين نجح المسلمون فى السيطرة على كل أراضى الإمبراطورية الفارسية، وعلى جانب مهم من أراضى الإمبراطورية البيزنطية، وهو ما يتمثل فى بلاد الشام ومصر. ثم جاءت موجة الفتوحات الكبرى فى العصر الأموى لتضيف إلى أرض الخلافة الإسلامية بلاد المغرب كلها (الشمال الإفريقى)، وكذلك بلاد الأندلس وجنوب فرنسا. واتسعت فتوحات الأمويين فى المشرق لتمتد إلى الهند وآسيا الوسطى وتصل إلى حدود الصين. ولم تنته موجة الفتوحات بنهاية العصر الأموى بل وجدت فى العصر العباسى بعض القوى التى دفعت بها إلى الأمام، فوسع الغزنويون نطاق الوجود الإسلامى فى الهند، ومد الأتراك السلاجقة نفوذهم إلى آسيا الصغرى. وأخيراً جاءت حركة الفتوحات الهائلة التى قادها الأتراك العثمانيون فى شرق أوروبا بصفة خاصة، بل إنهم استطاعوا أن يصلوا إلى أسوار مدينة فيينا فى قلب أوروبا.

وقد انتشر الإسلام انتشاراً سريعاً بعد هذه الفتوحات العظيمة، مما أدى إلى ربط الكثيرين - خاصة فى الغرب - بين قوة المسلمين العسكرية وبين اعتناق

الإسلام. ومَنْ منا لم يسمع تلك العبارة الشائعة، وهى أن المسلمين كانوا يحملون المصحف فى يد والسيف فى اليد الأخرى، فإما هذا وإما ذاك؟!.

على أن الرد على مثل هذه المقولة لا يكون إلا بالبحث الموضوعى المحايد فى الأساليب التى انتشر بها الإسلام. ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بالبحث أولاً - وباختصار - فى الأسس النظرية التى قامت عليها الدعوة الإسلامية وانتشر فى ضوئها الإسلام فى عصر الرسول ﷺ. ثم نحاول بعد ذلك - وفى ضوء هذه الفترة المعيارية - أن نبحث كيف انتشر الإسلام فى أهم بقاع العالم على قدر ما يسمح به الحيز المحدود لهذا البحث.

ويضيق بنا المقام لو ذهبنا نتقصى الآيات القرآنية التى تضع أمام الرسول ﷺ والمسلمين أصول منهج الدعوة إلى الإسلام، فلنجتزىء من ذلك بالقدر الذى يكفى لتوضيح ما نريد أن نقول.

فمن الآيات المكية قوله تعالى: **﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾**(١)، وقوله سبحانه: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾**(٢)، وقوله عز من قائل: **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾**(٣).

ومن الآيات المدنية قوله عز وجل: **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾**(٤)، وقوله سبحانه: **﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء﴾**(٥)، وقوله تعالى: **﴿وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾**(٦).

هذه الآيات وغيرها توضح منهج الدعوة إلى دين الله، وهو منهج قائم على الحكمة والكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، بعيد عن الشطط فى القول أو فى الفعل. ولم يفرِّق هذا المنهج بين وضع المسلمين فى مكة ـ وهم قليل مستضعفون فى الأرض ـ وبين وضعهم فى المدينة حين أصبحوا قوة مرهوبة الجانب مسموعة

الكلمة. فليس من المستغرب - إذن - أن يكون انتشار الإسلام فى الفترة المكية من عصر النبوة انتشاراً ضئيلاً محدوداً. وقد أراد الرسول ﷺ أن يرتاد أرضاً جديدة للدعوة فى السنة العاشرة من البعثة، حين ذهب الرسول ﷺ إلى مدينة الطائف ولكنه لم يجد من أهلها ـ ثقيف ـ إلا الصد والإعراض(٧).

وإذا كان انتشار الإسلام فى مكة فى تلك الفترة محدوداً، فقد أتيح للرسول ﷺ فى أواخر العهد المكى أن يمهد الطريق لنشر الإسلام فى أرض جديدة وهى يثرب (أو المدينة بعد ذلك). وقد كانت البداية الأولى لهذا التحول الكبير فى مسار الدعوة هى لقاء الرسول ﷺ بالنفر الستة من الخزرج فى موسم الحج من العام الحادى عشر للبعثة، حين عرض عليهم الإسلام فأسلموا، ثم رجعوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإسلام، فمهدوا الطريق بذلك لبيعة العقبة الأولى التى تمت فى موسم الحج من العام الثانى عشر للبعثة بين الرسول ﷺ وبين اثنى عشر رجلاً من يثرب. وقد أعلن هؤلاء فى تلك البيعة دخولهم فى الإسلام والتزامهم بمبادئه وطاعتهم لرسوله على ما هو مبسوط فى مصادر السيرة(٨).

تُعد هذه البيعة نقطة تحول كبرى فى سبيل نشر الإسلام خارج حدود مكة، فعندما رجع أصحاب هذه البيعة إلى يثرب أرسل معهم الرسول ﷺ مصعب بن عمير(٩)، ذلك الداعية الموهوب، ليعلم أهل يثرب الإسلام ويدعو غير المسلمين منهم إلى اعتناقه. ومن هنا عرف مصعب بـ «المقرىء» أى المعلم، وكانت إقامته فى دار «أسعد بن زرارة» أحد شهود بيعة العقبة الأولى ومن وجهاء الخزرج. إن الجهد العظيم الذى قام به مصعب بن عمير فى سبيل نشر الإسلام فى يثرب يستحق إبرازه هنا، وهو يصلح مثالاً يحتذى أمام كل داعية يريد أن يدعو إلى دين الله على بصيرة. ويكفى دليلاً على ذلك أن سعد بن معاذ وأسيد بن حضير - وهما سيدا قبيلة الأوس فى يثرب - توجها إليه لقتله بعد أن هالهما ما لمساه من سرعة انتشار الإسلام على يديه، فإذا بهما يتحولان إلى الإسلام عندما استمعا إلى أسلوبه الهادىء ومنطقه الرصين فى عرض هذا الدين فيسلم قومهما بإسلامهما(١٠). وخلال الفترة الفاصلة بين بيعة العقبة الأولى والثانية، ونتيجة

لهذا الجهد المخلص من مصعب ومن وقفوا بجانبه، انتشر الإسلام بين أهل يثرب حتى لم يتبق دار من دورهم تقريبا إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ومسلمات[١١]، وقد كان ذلك تمهيدا لبيعة العقبة الثانية وما تلاها من هجرة الرسول وأصحابه إلى المدينة وقيام الدولة والإسلامية هناك. وهكذا أصبحت المدينة مركز الدولة ومنطلق الدعوة الإسلامية إلى مختلف بقاع الأرض طوال ما يقرب من أربعة عقود بعد ذلك.

تكون مجتمع المدينة عند الهجرة من المسلمين (من مهاجرين وأنصار) ومن اليهود ومن بقايا الوثنيين. ورغم أن السلطة العليا فى هذا المجتمع كانت فى يد الرسول ﷺ فإنه ترك لغير المسلمين حرية العقيدة، وضمن لهم حق المواطنة الكاملة ما داموا ملتزمين بقوانين الدولة الجديدة وبمسئولياتهم نحوها، وذلك تطبيقاً للمبادىء الإسلامية الواضحة فى هذا الشأن، وهى التى أشرنا إليها فى صدر هذا البحث. وقد عبر الرسول ﷺ عن هذه المعانى بوضوح فى الوثيقة التى افتتح بها عهده فى المدينة وهى التى تعرفها مصادر السيرة باسم «صحيفة المدينة» ومما جاء من بنودها المختلفة أنه **«من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولامتناصر عليهم، وأن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»**[١٢]. هكذا لم يمارس الرسول ﷺ وهو فى مركز القوة فى المدينة ومنذ مطلع عهده بها أى ضغط على غير المسلمين لتحويلهم إلى الإسلام.

ولم يكن الهدف من المواجهات العسكرية المتكررة التى اضطر الرسول ﷺ إلى خوضها فى العصر المدنى مع قريش وغيرها؛ فرض دينه على غير المسلمين بل الدفاع عن دولة الإسلام ضد المتربصين بها. لقد كانت فترة السنوات الست الأولى من العصر المدنى - منذ الهجرة حتى صلح الحديبية - فترة صراع متواصل ضد أعداء الإسلام من قريش واليهود ومن تحالف معهم. وكان انتشار الإسلام خارج حدود المدينة فى هذه الفترة محدوداً، فلما عُقد صلح الحديبية بين الرسول ﷺ وبين قريش وتوقفت الحرب بين الجانبين؛ دخل فى الإسلام

خلال أقل من عامين أضعاف من كانوا قد دخلوا فيه منذ ظهوره حتى عقد هذا الصلح. وليس ذلك مستغرباً، فالإسلام لم يعرف الانتشار الحقيقى إلا فى جو من السلام والأمن. وقد أكد غير مصدر من مصادر السيرة المبكرة هذا المعنى؛ فمن ذلك ما يرويه الواقدى فى تعليقه على سرعة انتشار الإسلام فى هدنة الحديبية حيث يقول: «كانت الحرب قد حجزت بين الناس وانقطع الكلام، وإنما كان القتال حيث التقوا، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضاً، فلم يكن أحد يُكَلَّم بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فى الإسلام، حتى دخل فى تلك الهدنة صناديد المشركين الذين يقومون بالشرك وبالحرب: عمرو ابن العاص وخالد بن الوليد وأشباه لهم. وإنما كانت الهدنة حتى نقضوا العهد اثنين وعشرين شهراً، دخل فيها مثل ما دخل فى الإسلام قبل ذلك وأكثر، وفشا الإسلام فى كل ناحية من نواحى العرب»(١٣). والبرهان التاريخى الناصع على صحة هذا القول أن الرسول ﷺ خرج إلى الحديبية فى العام السادس للهجرة على رأس ألف وخمسمائة من أصحابه تقريباً، ثم خرج لفتح مكة فى العام الثامن على رأس عشرة آلاف(١٤).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا تلك الكتب التى أرسلها الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها يدعوهم فيها إلى الإسلام بعد صلح الحديبية، فمن هؤلاء إمبراطور الروم وامبراطور الفرس ونجاشى الحبشة والمقوقس حاكم مصر، ومنهم أيضا أمراء عمان والبحرين واليمامة وأمراء الغساسنة بالشام. وهذا نص الكتاب الموجه إلى هرقل إمبراطور الروم، وهو يمثل نموذجاً تقريبياً لمضمون غيره من الكتب: «**بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمد بن عبدالله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**»(١٥).

ولنا هنا ملاحظات ثلاث:

أولها: أن فترة السلم التى أعقبت صلح الحديبية أتاحت للرسول ﷺ أن يدعو إلى الإسلام فى جو يسوده الأمن والطمأنينة.

وثانيها: أن هذه الكتب - كما يتضح من الكتاب الذى ذكرنا نصه - لم تتضمن إلا دعوة إلى دين الله بالحسنى.

وثالثها: أن بعض من أرسلت إليهم هذه الكتب استقبلوا سفراء الرسول ﷺ استقبالاً حسنا رغم عدم استجابتهم لدعوة الإسلام، ومن هؤلاء نجاشى الحبشة والمقوقس بمصر، ولكن بعضهم الآخر أساء استقبال السفراء كإمبراطور الفرس الذى مزق الكتاب وهدد بإرسال بعض نوابه لمهاجمة المدينة واعتقال الرسول ﷺ(١٦). بل إن أحد أمراء الغساسنة - وهو شرحبيل بن عمرو - قتل الحارث بن عمير الأزدى مبعوث رسول الله إلى الحاكم الغسانى لمدينة بصرى بالشام(١٧). ومن هنا كانت سرية مؤتة ضد الغساسنة فى العام الثامن للهجرة (٦٢٩م)، فهذه السرية لم تكن تهدف إلى فرض الإسلام على الغساسنة، بل إلى تأديبهم لما ارتكبوه من جريمة فى حق مبعوث رسول الله ﷺ.

والذى يهمنا أن نبرزه فى هذا السياق أنه إذا كانت بيعة العقبة الأولى - كما سبق أن أشرنا - تمثل نقطة تحول أساسية فى تاريخ انتشار الإسلام فى المدينة فإن صلح الحديبية يمثل نقطة تحول أخرى فى تاريخ انتشار الإسلام خارج حدود المدينة.

أما النقطة الثالثة الكبرى فى تاريخ انتشار الإسلام فى عصر النبوة فقد تمثلت فى فتح مكة فى العام الثامن للهجرة (يناير ٦٣٠م). فقد تم فتح مكة - كما هو معروف - دون إراقة دماء بعد استسلام قريش. ورغم أن الرسول ﷺ كان يستطيع فى هذه المناسبة أن ينتقم من هؤلاء الذين حاربوا دعوته وبسطوا إليه وإلى المسلمين أيديهم وألسنتهم بالسوء والأذى طوال أكثر من عشرين عاما؛ فإنه آثر العفو، وقابل الإساءة بالإحسان؛ مما دفع هؤلاء إلى الدخول طواعية فى

دين الله. وأهمية هذا الحادث فى تاريخ نشر الإسلام فى عصر النبوة هى أن إسلام أهل مكة فتح الطريق أمام انتشار الإسلام فى شبه الجزيرة العربية كلها، فقد توالت الوفود على المدينة منذ العام التاسع للهجرة معلنة إسلامها. وعندما ذهب الرسول لأداء حجته التى عرفت باسم (حجة الوداع) فى العام العاشر للهجرة – وقد مضى على فتح مكة عامان وبضعة أشهر – كان الإسلام قد بسط ظلاله على مختلف أرجاء شبه الجزيرة العربية. وإذا كان الرسول قد ذهب معتمراً عام الحديبية وهو على رأس ألف وخمسمائة من أصحابه تقريباً، ثم ذهب لفتح مكة بعد حوالى عامين وهو على رأس عشرة آلاف من أصحابه، فإنه ذهب إلى الحج فى العام العاشر فى أضعاف هذا العدد من المسلمين، ولهذا كان مما قاله فى خطبته التى ألقاها فيهم فى هذه المناسبة: «أيها الناس، إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً»(١٨).

ولا يفوتنا ـ قبل أن نختم حديثنا عن انتشار الإسلام فى شبه الجزيرة العربية فى عصر النبوة ـ أن نقدم نموذجاً واحداً للمعاهدات التى كان الرسول ﷺ يعقدها مع أهل الكتاب ومن لحق بهم(١٩). والنموذج الذى نختاره هنا هو معاهدته مع وفد نصارى نجران الذى قدم المدينة فى العام العاشر للهجرة. فبعد أن حدد الرسول ﷺ مقدار الجزية التى يدفعها نصارى نجران. قال: «**ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يُغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم دنية ولا دم جاهلية.. ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النَّصَفُ غير ظالمين ولا مظلومين**»(٢٠).

يتضح من هذه المعاهدة كيف تعامل الإسلام مع غير المسلمين من أهل الكتاب منذ بداية ظهوره، فقد أفسح لهم مكاناً فى ظل دولته وضمن لهم حماية أنفسهم وممتلكاتهم ودور عبادتهم، وضمن لهم كذلك حرية العقيدة دون أى محاولة من

جانب الدولة الإسلامية لإرغامهم على اعتناق الإسلام. ولم يطلب منهم إلا دفع مبلغ سنوى لايدفعه إلا القادر منهم، وتعفى منه النساء والصبيان(٢١)، وذلك فى مقابل كل تلك الحقوق التى تمتعوا بها جميعاً لا القادرون منهم فقط. وقد كانت معاهدات الرسول ﷺ مع غير المسلمين - وخاصة أهل الكتاب - مثلاً سار على نهجه خلفاؤه فى مختلف العصور.

وقد بدأت صفحة جديدة فى تاريخ انتشار الإسلام بعد عصر النبوة، فقد أخذ الإسلام يتجاوز حدود شبه الجزيرة العربية ليمتد إلى بلاد العراق وفارس والشام ومصر، وليواصل فتوحاته العسكرية بعد ذلك على يد عدد من القوى يأتى فى طليعتها الأمويون والغزنويون والسلاجقة والعثمانيون، على ماسنوضحه فى موضعه. غير أننا نلاحظ أن الإسلام لم يتوقف انتشاره عند البلاد التى فتحها المسلمون بل امتد إلى بقاع لم تصل إليها جيوش الفتح الإسلامى مثل ماليزيا وإندونيسيا والكثير من بلاد إفريقيا السوداء. ومن هنا ينبغى أن نقسم حديثنا عن كيفية انتشار الإسلام بعد عصر النبوة إلى قسمين عريضين: أما أولهما فيتناول البلاد التى فتحها المسلمون عسكريا، وأما الثانى فيتناول البلاد التى لم تخضع لمثل ذلك الفتح. وسوف نضطر فى كلا القسمين إلى تقديم أبرز النماذج فى الحدود التى يتسع لها المجال فيما تبقى من صفحات.

بدأت موجة الفتوحات الإسلامية خارج حدود شبه الجزيرة العربية فى سنة ١٢هـ (٦٣٣م)، أى بعد حوالى عام من وفاة الرسول ﷺ، وذلك حين توجهت الجيوش الإسلامية لفتح العراق والشام بأمر الخليفة أبى بكر الصديق (١١ - ١٣هـ/٦٣٢-٦٣٤م). على أن وفاة أبى بكر بعد بدء الحملات العسكرية الإسلامية بوقت قصير لم تتح له أن يشهد ثمارها المرجوة. ولهذا كان لابد لهذه الحملات من أن تستمر على يد الخليفة عمر بن الخطاب طوال مدة خلافته (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٣م)، واستمرت كذلك ست سنوات أخرى فى خلافة عثمان بن عفان (٢٤-٣٥هـ/٦٤٣-٦٥٥م)، ثم توقفت نتيجة الفتنة الكبرى حتى استؤنفت فى مطالع العصر الأموى. وقد كان حصاد هذه الحملات فتح العراق وبقية أقاليم الإمبراطورية الفارسية، وفتح الشام ومصر من أقاليم الامبراطورية البيزنطية، بالإضافة إلى برقة وطرابلس فى الشمال الإفريقى على الحدود الغربية لمصر.

قد يتصور البعض أن هذه الفتوح الإسلامية الهائلة فى عصر الراشدين كان الهدف منها نشر الإسلام، ولكن ما أبعد هذا التصور عن الصواب! ذلك أن الهدف الأساسى من هذه الفتوح الأولى كان تأمين الدولة الإسلامية الناشئة ضد المتربصين بها من كل جانب. فقد ذكرنا أن إمبراطور الفرس هدد بالهجوم على المدينة بعد لقائه بمبعوث الرسول ﷺ، كما مضى الغساسنة ـ أحلاف البيزنطيين ـ خطوة أبعد حين قتلوا مبعوث الرسول إليهم وهددوا كذلك بغزو المدينة[٢٢]. وقد كان عرب الشام بصفة عامة يتحرشون بدولة المدينة، ويجدون من أحلافهم الروم (البيزنطيين) كل عون وتشجيع. وتجربة المسلمين فى مؤتة خير شاهد على ذلك، فقد ذهب المسلمون إلى مؤته ليؤدبوا الغساسنة على قتلهم لمبعوث الرسول ﷺ إليهم، فإذا بهم يواجهون جموع الروم الحاشدة هناك، ويتعرضون لمحنة قاسية فقدوا خلالها قادتهم الثلاثة[٢٣]. ولولا الانسحاب البارع الذى أحكم خطته خالد ابن الوليد ـ بعد أن آلت إليه القيادة ـ لأنزل الروم بالمسلمين خسائر فادحة. ومن الأمور الدالة فى هذا السياق أن هرقل إمبراطور الروم أمر بوضع رابطة فى البلقاء بالشام على الحدود مع شبه الجزيرة العربية[٢٤]، وذلك بعد الحملة التى أعدها الرسول ﷺ قبيل وفاته ونفذها أبو بكر فى صدر خلافته، وهى الحملة التى كانت تهدف إلى تأديب عرب الشام ـ أتباع الروم ـ لاستفزازهم المستمر للمسلمين، وهذا ما جعل الرسول يختار لقيادتها أسامة بن زيد الذى كان والده ـ زيد بن حارثة ـ أحد القادة الثلاثة الذين استشهدوا فى مؤتة.

من هنا يتبين لنا أن الموقف على الجبهتين الفارسية والبيزنطية فى صدر الخلافة الراشدة كان يحمل فى طياته عوامل الانفجار فى أية لحظة. وفى هذا الإطار التاريخى ينبغى أن ينظر إلى بدء المصادمات بين المسلمين والقوتين العظميين بعد وفاة الرسول ﷺ. والواضح أن الجانب الإسلامى كان ينظر إلى دوره فى هذه المصادمات على أنه تأمين لجبهته، ودرء للخطر المحدق بها من كل جانب. على أن ما ينبغى أن نؤكده فى هذا السياق أن الخلفاء الراشدين - بعد أن حققوا انتصاراتهم الباهرة ضد أعدائهم من الفرس والروم - لم يحاولوا على الإطلاق أن يفرضوا دينهم على الشعوب التى خضعت لحكمهم، أو يمارسوا أى

ضغط معنوى عليهم لتحقيق هذه الغاية، بل كان التزامهم كاملاً بالمبادىء التى أشرنا إليها فى صدر هذا البحث، وهى التى تقوم فى جوهرها على حرية العقيدة والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يستطيع باحث منصف أن يقدم دليلاً واحداً يشكك فى صحة هذه الحقيقة التاريخية، وهذا ما يعترف به الكثير من الباحثين الغربيين[٢٥].

وتقدم لنا المصادر التاريخية المبكرة نصوص المعاهدات المختلفة التى كان يعقدها قادة الفتح الإسلامى أو الخلفاء أنفسهم أحياناً مع أهل البلاد المفتوحة، والأساس الذى ترتكز عليه هذه المعاهدات جميعها هو منح أهل هذه البلاد حرية العقيدة مع توفير الحماية لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومعابدهم، وهم فى مقابل ذلك يُلْزَمون بدفع الجزية عن رؤوسهم بحيث لايدفعها إلا القادرون منهم، كما يدفعون الخراج عن الأرض التى يزرعونها.

والمعاهدة التالية ـ التى عقدها حبيب بن مسلمة الفهرى مع أهل دبيل فى أرمينيا فى خلافة عثمان بن عفان ـ تلخص هذه المعانى، فقد جاء فيها: «هذا كتاب من حبيب بن مسلمة الفهرى لنصارى أهل دبيل ومجوسها ويهودها شاهدهم وغائبهم: إنى أمّنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم، فأنتم آمنون، وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأدّيتم الجزية والخراج. شهد الله وكفى بالله شهيداً»[٢٦].

والملاحظ هنا أن المجوس عُوملوا معاملة أهل الكتاب، فكفلت لهم الدولة الإسلامية الحماية وحرية العقيدة ما قام القادرون منهم بأداء الجزية[٢٧].

على أن المعاهدة التى ينبغى أن نتوقف عندها قليلاً فى هذا السياق هى تلك التى عقدها عمر بن الخطاب مع أهل إيلياء (بيت المقدس) بعد فتح تلك المدينة[٢٨]، فنحن نجد فى مصادرنا نصين مختلفين لهذه المعاهدة: أحدهما يتفق فى فحواه مع المعاهدات التى عقدت فى عصر الخلفاء الراشدين مع أهل البلاد المفتوحة، حيث يعطيهم الخليفة «**أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم .. أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُنتقص منها ولا من**

حـيِّـزها ولا مـن صليـبـهم ولا من شىء من أمـوالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ... وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن..»[٢٩]. أما النص الثانى لهذه المعاهدة فيورده ابن عساكر بصورة أقل تحديداً حيث يجعلها بين عمر ونصارى الشام بصفة عامة لا أهل بيت المقدس بصفة خاصة. ويلفت النظر فى هذه المعاهدة أن أهل الشام هم الذين وضعوا على أنفسهم ما بها من شروط، فبعد أن طلبوا من عمر الأمان لهم ولذراريهم وأموالهم وأهل ملتهم اشترطوا على أنفسهم شروطاً من بينها ألا يعلِّموا أولادهم القرآن وأن يقوموا للمسلمين من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس وألا يتشبهوا بهم فى شىء من لباسهم «فى قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، وألا يتكلموا بكلامهم ولا يتكنّوا بكناهم ولايركبوا السُّرُج ولا يتقلدوا السيوف وأن يشدوا الزنانير على أوساطهم..» إلى غير ذلك من الشروط[٣٠].

إن ما نميل إليه هو التشكيك فى صحة نسبة هذه المعاهدة إلى عمر؛ فبالإضافة إلى ماذكره تريتون Tritton من أنه من غير المألوف «أن يشترط المغلوبون الشروط التى يرتضونها ليوادعهم الغالب»[٣١] وما ذكره توماس أرنولد من توافر الأدلة التى تؤكد ما كان ينعم به أهل الكتاب من تسامح فى صدر الإسلام[٣٢] ـ بالإضافة إلى ذلك نذكر أنه من الغرابة بمكان أن يوافق عمر على ما اشترطه هؤلاء على أنفسهم من ألا يتشبهوا بالمسلمين فى شىء من لباسهم، حتى فى النعلين! وألا يتكلموا بكلامهم وألا يركبوا السرج، إلى غير ذلك من الشروط التى تثير الدهشة ولم تؤثر عن الرسول ﷺ. ونضيف إلى ذلك أيضاً أن العهود الأخرى التى صدرت فى عهد الخلفاء الراشدين لم تتضمن شروطاً غريبة كهذه الشروط. ومن هنا نجد أنفسنا على اتفاق مع الرأى القائل بترجيح أن تكون تلك المعاهدة من وضع بعض الفقهاء فى مرحلة لاحقة[٣٣].

والجدير بالذكر هنا أن عمر بن الخطاب بعد أن وضع ديوان الخراج (وهو الخاص بتحصيل موارد الدولة) وديوان الجند أو العطاء (وهو الخاص بإنفاق هذه الموارد) لم يجد مانعاً من أن يحتفظ بالموظفين الذين كانوا يديرون أعمال الخراج فى ظل الدولتين الفارسية والبيزنطية - وكانوا فى جملتهم من غير

المسلمين - كما أبقى على اللغات التى كانت تدار بها أعمال هذا الديوان، وهى الفارسية واليونانية ثم القبطية بدرجة أقل[٣٤] والمهم هنا أن عمر لم يجد فى عدم إسلام القائمين على أعمال هذا الديوان ما يحول دون أدائهم لهذه الأمانة، كما لم يحاول أن يمارس عليهم أى ضغوط لاعتناق الإسلام، وقد اقتفى أثره فى هذه السياسة عثمان وعلى.

فى ظل هذه الروح التى تمثل غاية التسامح الدينى فى عصر الخلفاء الراشدين أقبل على الإسلام من أقبل بدوافع لا تشوبها شائبة من إكراه حسى أو معنوى. ومن المفهوم - فى ضوء ذلك - أن يظل معظم أبناء البلاد المفتوحة على أديانهم فى ذلك العصر المبكر، لأن التحول من عقيدة إلى عقيدة ليس قرارا يتخذ على عجل، بل تسبقه فى العادة مراحل طويلة من النظر والفحص والمراجعة. على أن ذلك لا ينفى اعتناق البعض للإسلام فى وقت متزامن مع حركة الفتوح الأولى[٣٥]، مع ضرورة الاعتراف بأن مثل هذا التحول كان ذا طابع محدود ولم يمثل إلا البواكير الأولى لانتشار الإسلام خارج حدود شبه الجزيرة العربية فى العصور اللاحقة.

ويمثل العصر الأموى (٤٠ - ١٣٢هـ/ ٦٦٠-٧٥٠م) مرحلة مهمة من مراحل انتشار الإسلام خارج شبه الجزيرة، ويمكننا أن نرد ذلك إلى ثلاثة أسباب رئيسية يتمثل أولها فى اتساع حركة الفتوح الإسلامية ووصولها إلى مدى غير مسبوق أو ملحوق، ويتمثل الثانى فى ظهور أجيال جديدة من أبناء البلاد المفتوحة أتيح لها أن تمتزج بالمسلمين وتتأثر بأفكارهم ونُظُم حياتهم. أما السبب الثالث فيتمثل فى حركة التعريب التى قاد خطواتها الأولى عبد الملك بن مروان، ولكنها حققت غايتها المرجوة بعد وفاته.

لن نطيل كثيراً فى الحديث عن السبب الأول فى انتشار الإسلام فى ذلك العصر، وهو اتساع حركة الفتوحات، ولكن يكفى أن نشير هنا إلى أن الأمويين نجحوا فى إتمام فتح الشمال الإفريقى، ثم عبروا من المغرب الأقصى إلى أسبانيا ففتحوها، ثم اجتازوا جبال البرنيه إلى جنوب فرنسا وكانوا يخططون لاجتياح أوروبا بأكملها لولا أن استطاع شارل مارتل أن يُحْبِط مخططهم فى الموقعة

الفاصلة المعروفة باسم «تور - بواتييه» أو «بلاط الشهداء»، وذلك فى سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م[٣٦]. أما فى المشرق فقد غزا الأمويون بلاد ما وراء النهر Trans-oxania التى تعرف الآن بآسيا الوسطى، واستولوا على عدد من المدن أهمها بلخ (فى شمال أفغانستان) وبخارى وسمرقند، ووصلوا إلى حدود الصين فاستولوا على «كاشْغَر»، كما تقدموا فى اتجاه الهند وبسطوا نفوذهم على بعض أقاليمها المهمة مثل المُلْتان[٣٧]. ونحن لا نستطيع أن نجعل فتح هذه البلاد وغيرها فى العصر الأموى سبباً مباشراً لانتشار الإسلام فيها، فمن مجافاة الواقع - كما أشرنا آنفاً - أن نربط بين الفتوح العسكرية وبين انتشار الإسلام، فما انتشر الإسلام من خلال القسر والعنف كما أكدنا قبل ذلك، ولكن يمكن القول إن هذه الفتوح العسكرية كانت سبباً غير مباشر لانتشار الإسلام، فقد أتاحت لسكان تلك البلاد - وكان معظمهم من غير أصحاب الديانات الكتابية - أن يطلعوا على أساليب غير أساليبهم، وقيم غير قيمهم؛ مما هيأ نفوسهم بعد ذلك للدخول فى الدين الذى يغرس فى نفوس أتباعه أمثال هذه الأساليب والقيم، ونكتفى هنا بإيراد ثلاثة أمثلة توضح ما نريد أن نقول، ونقدم المثال الأول من تاريخ الأسرة السامانية التى أسست دولة مزدهرة فى بلاد ما وراء النهر من سنة ٢٧٩ إلى ٣٨٩هـ (٨٩٢-٩٩٩م)، وكانت هذه الدولة شديدة الإخلاص لمذهب أهل السنة والحرص على نشره فى تلك البقاع، فالجد الأعلى لهذه الأسرة هو «سامان خداة»، وهو الذى ينتسب إليه السامانيون، وقد عرف بذلك لأنه بنى قرية بالقرب من سمرقند أسماها سامان. فهذا الاسم «سامان خداة» معناه صاحب أو كبير قرية سامان[٣٨]. وسامان خداة فارسى الأصل عاش فى أواخر الدولة الأموية وكان يدين بالزرادشتية ثم تحول إلى الإسلام إعجاباً بشخصية أسد بن عبدالله القسرى أمير خراسان فى خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ). وتصف المصادر الفارسية أسداً هذا بأنه «كان رجلاً صالحاً كريماً، وكان يتطلع إلى مواساة الأسرات الكبيرة القديمة ويحسن رعاية الأصلاء»[٣٩]. وقد استعان سامان خداة بأسد ضد بعض أعدائه فقدّم له العون والحماية اللازمة مما ترك أثراً عميقاً من الامتنان والتقدير فى نفس سامان خداة الذى أراد أن يعبر عن

مشاعره بصورة عملية فأسمى ابنه أسداً(٤٠). هذه هى قصة إسلام الجد الأعلى للأسرة السامانية التى سوف تقوم بدور بارز على مسرح الحياة السياسية والدينية والحضارية فى المشرق فى العصر العباسى.

والمثال الثانى يتعلق بانتشار الإسلام بين أهل بخارى، وكانت بخارى قد فتحت على يد عبيد الله بن زياد فى خلافة معاوية بن أبى سفيان سنة ٥٣هـ (٦٧٣م) ولكن الحكم الإسلامى فيها لم يستقر بصورة نهائية إلا على يد قتيبة بن مسلم الباهلى فاتح بلاد ما وراء النهر، حيث أسند الحجاج بن يوسف والى العراق مهمة فتح تلك البلاد إلى قتيبة سنة ٨٧هـ (٧٠٥م)(٤١). وقد أخطأ قتيبة مع أهل بخارى فى البداية حين حاول أن يفرض الإسلام عليهم بالقوة، لكن هذا الأسلوب لم يُجْد نفعاً، لأنهم كانوا يرتدون عن الإسلام إذا واتتهم الفرصة. ثم اهتدى قتيبة إلى أسلوب أكثر حكمة يستطيع من خلاله نشر الإسلام وهو أنه أمر أهل بخارى «بأن يعطوا نصف بيوتهم للعرب ليقيموا معهم ويطلعوا على أحوالهم»(٤٢)، ونحن لا نتفق مع النرشخى مؤرخ بخارى فى تفسيره لهذا الأمر بأن الغاية منه عدم إتاحة الفرصة أمام أهل بخارى لأن يكتفوا بإسلامهم الظاهرى ويعبدوا الأصنام فى الباطن حيث سيكونون تحت مراقبة المسلمين: إننا نرجح أن قتيبة أراد من هذه المخالطة أن يُعين أهل بخارى على أن يلمسوا عن كثب أسلوب حياة المسلمين وأن يتأثروا بذلك فيدخلوا فى هذا الدين، وهذا هو ما حدث فعلاً. فقد أقبل أهل بخارى على اعتناق الإسلام وأصبحوا من أكثر المتحمسين له، وأصبحت بخارى من أهم مراكز الدراسات الإسلامية فى المشرق، ولا أدل على ذلك من أنها سوف تقدم للعالم الإسلامى فى غضون القرن الثالث الهجرى أكبر حجة فى الحديث النبوى الشريف وهو الإمام محمد بن إسماعيل البخارى (١٩٤ - ٢٥٦هـ/ ٨١٠-٨٧٠م).

أما المثال الثالث لانتشار الإسلام بين أهل البلاد التى فتحت على يد الأمويين فيتعلق بسكان الشمال الإفريقى وهم البربر، ومن اللافت للنظر أن الشمال الإفريقى كان من أكثر البلاد التى صمدت أمام المسلمين زمناً طويلاً، وقاومت

الفتح الإسلامى بشراسة، وهذا يرجع إلى طبيعة السكان العنيدة من ناحية، وطبيعة المنطقة الوعرة التى يعيشون فيها من ناحية أخرى، وقد كان هذا الإقليم تحت سيطرة الروم. والجدير بالملاحظة أن أول حملة عسكرية إسلامية ضد بلاد المغرب (أو الشمال الإفريقى) حدثت فى سنة ٢١هـ (٦٤٢م)، فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب، بقيادة والى مصر عمرو بن العاص، الذى استولى على برقة فى العام المذكور، ثم استولى على طرابلس فى العام التالى(٤٣). على أن أولى المحاولات الجادة التى قام بها المسلمون بعد ذلك لضم بلاد المغرب إلى دولة الخلافة لم تحدث إلا فى عهد معاوية بن أبى سفيان وذلك حين قام واليه على مصر مسلمة بن مُخَلَّد بإسناد هذه المهمة إلى القائد المشهور عقبة بن نافع الفهرى وذلك فى سنة ٥٠هـ (٦٨٠م)، وقد نجح عقبة فى التوغل فى بلاد المغرب حتى وصل إلى تونس (التى كانت تعرف باسم إفريقية حينذاك) وقام بتأسيس مدينة القيروان؛ لتكون قاعدة لامتداد الفتوحات، ومركزاً لنشر الإسلام فى بلاد المغرب(٤٤). ورغم أن عقبة واصل تقدمه بعد ذلك حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسى؛ فقد تمكنت قوة من الروم والبربر من أن تحيط به وتقتله أثناء عودته، وذلك فى سنة ٦٣هـ(٤٥). وبعد استشهاد هذا القائد الكبير شُغل الأمويون عن الاهتمام بشئون المغرب بعض الوقت نتيجة الحرب الأهلية، فلما أحكم عبدالملك ابن مروان قبضته على مقاليد الخلافة قرر أن يصرف جزءاً من عنايته إلى بلاد المغرب فعين فى سنة ٦٩هـ (٦٨٨م) زهير بن قيس البلوى والياً عليها، وكان زهير قائداً مجربا، وقد نجح فى قتل «كُسَيلة» أحد كبار قادة البربر الذى كان مصدراً من أخطر مصادر التهديد ضد الوجود الإسلامى فى المغرب، وهو الذى كان وراء استشهاد عقبة بن نافع، ومع ذلك فإن الروم أرسلوا قوة بحرية عظيمة لنجدة البربر والقضاء على زهير، وقد نجحوا فى هذه المهمة واستشهد زهير بعد أن أبلى بلاءً حسناً، وعادت الأوضاع فى بلاد المغرب إلى الاضطراب، حتى قرر عبد الملك فى سنة ٧٤هـ (٦٩٣م) أن يعيّن على تلك البلاد والياً استطاع أن يقضى على مصادر القلاقل بها، وأن يخطو خطوات شاسعة فى سبيل نشر الإسلام فى تلك البلاد وهو حسان بن النعمان الغسانى(٤٦). ولابد لمن يدرس

تاريخ انتشار الإسلام بين البربر من أن يتوقف طويلاً عند شخصية حسان، فبعد أن تمكن حسان من كسر شوكة الروم بالاستيلاء على قاعدتهم البحرية الكبرى فى قرطاجنة، وجه عنايته إلى القضاء على ثورة من أخطر ثورات البربر بقيادة «الكاهنة»، وقد نجح حسان فى إخماد هذه الثورة إخماداً تاماً وقتل الكاهنة، ثم كان أعظم ما قام به من إنجاز بعد ذلك أنه تألف قلوب البربر، ومنحهم الأمان التام، وخفف عنهم عبء الضرائب، وبسط عليهم عدل الإسلام، بل إنه - إمعاناً فى حسن معاملتهم - طلب «أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألفاً يجاهدون العدو فأجابوه إلى ذلك»[٤٧]. وكانت النتيجة المنطقية لذلك أن «فشا الإسلام فى البربر»[٤٧] وأصبحوا يشكلون منذ ذلك الوقت عنصراً أساسياً من عناصر تكوين الجيش الإسلامى فى المغرب، وعندما حل موسى بن نصير محل حسان بن النعمان فى ولاية تلك البلاد سنة ٨٩هـ (٧٠٨م) - فى خلافة الوليد بن عبد الملك[٤٨] - سار موسى على نهج سلفه العظيم، فبعد أن أتم فتح بلاد المغرب عين على طنجة مولاه طارق بن زياد، وهو بربرى الأصل، «وجعل معه جيشاً كثيفاً كلهم من البربر وجعل معهم من يعلمهم الإسلام والفرائض»[٤٩]، وقد قام البربر - بقيادة طارق بن زياد - بدور أساسى فى الفتح الإسلامى للأندلس سنة ٩٢هـ (٧١١م) وأصبحوا منذ ذلك الحين قلعة منيعة من قلاع الإسلام، ولعله من المناسب أن نشير هنا إشارة عابرة إلى ما سوف يقوم به المرابطون ثم الموحدون - وكلاهما من البربر - من دفاع عن الإسلام وإعلاء لكلمته فى بلاد المغرب والأندلس طوال أكثر من قرنين من الزمان (من حوالى منتصف القرن الخامس إلى مطالع النصف الثانى من القرن السابع الهجرى).

نناقش الآن - باختصار - السبب الثانى الأساسى وراء انتشار الإسلام فى العصر الأموى، وهو المتمثل فى ظهور أجيال جديدة من أبناء البلاد المفتوحة أتيح لها أن تمتزج بالمسلمين وتتأثر بأفكارهم. إن ما نعنيه هنا هو البلاد التى فتحت فى عصر الخلافة الراشدة وهى العراق وغيره من أقاليم الإمبراطورية الفارسية. والشام ومصر من أقاليم الإمبراطورية البيزنطية، وقد وضحنا عند تناولنا لعصر الراشدين أن دولة الخلافة لم تمارس أى ضغط على أبناء تلك البلاد من أجل اعتناق الإسلام، وذكرنا

أن التحول إلى الإسلام خلال ذلك العصر كان محدوداً، ثم جاء العصر الأموى فشهد تحولاً كبيراً إلى الإسلام بين هؤلاء، وبدأت قضية «الموالى» فى ذلك العصر تفرض نفسها بشدة، والمقصود بالموالى فى هذا السياق هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام من غير العرب وعاشوا فى ظل الدولة الإسلامية[٥٠] ، والسبب فى بروز قضية الموالى فى العصر الأموى هو تزايد أعداد الذين دخلوا فى الإسلام من أبناء البلاد المفتوحة، وخاصة تلك التى فتحت فى عهد الراشدين وأتيح لأهلها الامتزاج مع العرب، وكان هؤلاء يمثلون أغلبية فى بعض البلاد كالكوفة، وكانوا يمثلون نسبة ملحوظة فى فارس والشام ومصر وغيرها[٥١]، وتؤكد كل الدلائل أنهم اعتنقوا الإسلام طوعاً لا كرهاً فى العصر الأموى، ومن الأمور ذات الدلالة فى هذا السياق أن بعض ولاة الأمويين لم يرحبوا كثيراً باعتناق هؤلاء للإسلام حين لمسوا ما ترتب على ذلك من انخفاض مقدار الجزية التى كانوا يحصلونها منهم بوصفهم ذميين. والجزية تسقط بالإسلام كما هو معروف، ومن ثم اتخذ بعض ولاة الأمويين قراراً خطيراً وهو الاستمرار فى فرض الجزية على من أسلم، وهو قرار يتصادم تماما مع تعاليم الإسلام، فلا عجب أن يكون مثار شكوى مريرة من الموالى، ومما يسجله التاريخ لعمر بن عبد العزيز فى هذا الصدد أنه أمر ولاته بإيقاف هذا الإجراء، ومن هؤلاء عبد الحميد بن عبد الرحمن الذى أرسل إليه عمر كتاباً يقول فيه: «**كتبت إلىَّ تسألنى عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة، وتستأذننى فى أخذ الجزية منهم، وإن الله - جل ثناؤه - بعث محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه جابياً، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه فى ماله الصدقة ولا جزية عليه..**»[٥٢]. ويروى أيضاً أن واليه على البصرة عدى بن أرطاة كتب إليه: «أما بعد، فإن الناس قد كثروا فى الإسلام وخفت أن يقل الخراج»[٥٣]، فكتب إليه عمر: «**فهمت كتابك، والله لوددتُ أنَّ الناس كلهم أسلموا حتى نكون انا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا**»[٥٤] ، ومن هنا ركز عمر بن عبدالعزيز جهوده على الدعوة إلى الإسلام بالحكمة واللين وحثَّ ولاته على اتباع هذا الأسلوب، فيروى أن واليه على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى أسلم على يديه أربعة آلاف من أهل خراسان[٥٥].

يبقى السبب الثالث الأساسى وراء سرعة انتشار الإسلام فى العصر الأموى وهو حركة التعريب، ولعل من المناسب هنا أن نتذكر ما سبقت الإشارة إليه من أن عمر بن الخطاب بعد أن وضع ديوان الخراج آثر أن يحتفظ باللغات التى كانت تدار بها أعمال هذا الديوان، وهى الفارسية واليونانية والقبطية، وقد ترتب على ذلك أنه استبقى الإداريين غير العرب، الذين كانوا يعملون فى هذا الديوان وهم فى جملتهم من أهل الذمة، ولم يجد عمر - بسعة أفقه - مانعاً فى الإسلام يحول بينه وبين اتخاذ هذا الإجراء، ولم تكن قد وجدت بعدُ من بين المسلمين الناطقين بالعربية كوادر تستطيع القيام بهذه المهمة، ولكن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٥-٧٠٥م) وجد الظروف سانحة لتحويل لغة ديوان الخراج إلى العربية، وهذا هو ما اشتهر لدى المؤرخين باسم «تعريب الدواوين»، وقد خطا عبد الملك خطوته الأولى فى هذا الاتجاه سنة ٨١هـ حين أمر بتحويل ديوان الشام من اليونانية إلى العربية، وبعد ذلك بقليل أمر بتحويل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية[٥٦]. وفى سنة ٨٧هـ تم تحويل ديوان مصر من القبطية إلى العربية على يد عبد الله بن عبد الملك والى مصر من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م)[٥٧]. وفى سنة ١٢٤هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م) قام نصر بن سيار والى خراسان بتحويل الديوان فيها من الفارسية إلى العربية[٥٨].

كانت حركة التعريب فى الواقع أوسع مغزى من مجرد نقل ديوان الخراج من لغات غير العربية إلى العربية، فقد تجاوزت هذه الحركة مفهوم تعريب الدواوين فى إطاره الضيق لتصبح تعريباً للثقافة بصفة عامة فى دولة الخلافة، وأصبح على كل من يتطلع إلى منصب رفيع فى أجهزة الدولة المختلفة أن يتقن اللغة العربية. وقد كانت اللغة العربية وعاءً لفكر الإسلام وثقافته، وإتقانها كان إحدى الوسائل المهمة لنشر الإسلام، وهذه وسيلة لم يقتصر مفعولها على العصر الأموى بالطبع، بل امتد ليشمل العصور اللاحقة وليصبح خلالها أكثر وضوحاً وتأثيراً.

عندما اختفى الأمويون من مسرح الحياة السياسية الإسلامية فى المشرق حل محلهم العباسيون، وإذا كانت الدولة الأموية دولة إنجازات عسكرية فإن الدولة العباسية دولة إنجازات ثقافية وحضارية، ومع ذلك فقد ظهرت فى العصر العباسى دول أو دويلات كان لها دور بارز فى مجال الفتوحات العسكرية وعلى رأسها دولة الغزنويين والسلاجقة، وكانت كلتاهما تدين بالولاء الروحى للخلافة العباسية.

وقبل أن نتناول هاتين الدولتين من حيث إسهامهما فى نشر الإسلام فى بقاع جديدة نود أن نشير هنا إلى أن حركة انتشار الإسلام فى البلاد التى سبق فتحها فى عصر الراشدين أو الأمويين لم تتوقف فى العصر العباسى، بل زادت قوة واتساعاً، نتيجة لتزايد الامتزاج بين الفاتحين وأبناء البلاد المفتوحة، ونتيجة - فى الوقت نفسه - للآثار الإيجابية التى ترتبت على حركة التعريب بعد أن استوت على عودها وراحت تؤتى أكلها. ويضاف إلى هذين السببين سبب ثالث ظهر فى أواخر العصر العباسى الأول فى عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م) حيث اتخذ ذلك الخليفة قراراً بالاعتماد فى تكوين جيشه على الترك واستبعاد الفرس والعرب من مجال الجندية، وكتب إلى ولاته فى الأقاليم المختلفة لتنفيذ ذلك القرار، فمن ذلك ما كتبه إلى واليه على مصر كيدر نصر بن عبد الله[٥٩] «يأمره بإسقاط من فى ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم ففعل ذلك»[٦٠]. والمقصود بالديوان هنا هو ديوان الجند أو العطاء، وإنما خص العرب فى هذا السياق لأنه لم يكن هناك فرس فى ديوان مصر، ومغزى هذا القرار فيما يتصل بانتشار الإسلام - سواء فى مصر أم فى غيرها من أقاليم الخلافة - أن العرب عندما فقدوا مصدر رزقهم من الجندية انتشروا فى القرى واختلطوا بأبناء البلاد وتزوجوا منهم واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة، وقد كان لذلك مردوده الإيجابى على انتشار الإسلام واللغة العربية فى مصر[٦١] وغيرها من أقاليم دولة الخلافة.

وينبغى هنا أن نتوقف قليلاً لنتحدث حديثاً موجزاً عن انتشار الإسلام فى العصر العباسى فى بلد لم يكن ينتمى إلى دولة الخلافة العباسية وهو الأندلس،

فمن المفهوم أن الفترة التى مرت بالأندلس منذ فتحها سنة ٩٢هـ حتى سقوط دولة الخلافة الأموية فى المشرق سنة ١٣٢هـ لم تكن كافية لانتشار الإسلام بصورة كبيرة، وعندما قامت الخلافة العباسية كانت الأندلس أول إقليم يستقل عن دولة الخلافة، حين نجح عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (عبد الرحمن الداخل) فى تأسيس إمارة أموية فى الأندلس سنة ١٣٨هـ (٧٥٥م)، تحولت بعد ذلك إلى خلافة على يد عبد الرحمن الناصر أو الثالث (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م). لقد شهدت الأندلس فى ظل الإمارة ثم الخلافة الأموية حضارة مزدهرة، وانتشرت اللغة العربية انتشاراً كبيراً بين أبناء البلاد الأصليين، ومع انتشار اللغة العربية انتشرت ثقافة العرب وتقاليدهم بين الأسبان الذين عرفوا باسم المستعربين (Muzarabes)[٦٢] وارتبط بذلك انتشار الإسلام بصورة ملموسة بين أبناء البلاد الأصليين، وكان لروح التسامح التى صبغت الحكم الإسلامى فى الأندلس أثر كبير فى إقبال غير المسلمين على الإسلام، ولكن الوجه الآخر لهذه الصورة سوف يظهر بعد نهاية الحكم الإسلامى فى الأندلس سنة ١٤٩٢م (٨٩٨هـ) حين يتعرض المسلمون هناك للقتل أو الطرد أو يرغمون على التنصر، وهم الذين عرفوا باسم «الموريسكيين» Moriscoes الذين خضعوا لمحاكم التفتيش ثم طردوا نهائياً من إسبانيا سنة ١٦١٠م[٦٣].

وقد شهد العصر العباسى امتداداً إقليمياً ملحوظاً للإسلام على يد الدولة الغزنوية، التى اتخذت من مدينة «غزنة» فى أفغانستان الحالية مقراً لها فنسبت إليها، وقد استمرت الدولة الغزنوية أكثر من قرنين (٣٦٦-٥٨٢هـ/٩٧٧-١١٨٦م)، ويعد ناصر الدين سبكتكين هو المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية، وهو من أصل تركى، ولكن هذه الدولة بلغت قمة مجدها واتساعها فى عهد ابنه محمود بن سكتكين الذى اشتهر باسم السلطان محمود الغزنوى (٣٨٧-٤٢١هـ/ ٩٩٧-١٠٣٠م)، وقد استطاع محمود الغزنوى أن يوسع حدود دولته على حساب أعدائه المناوئين له فى الداخل، ولكن إنجازه الأعظم تمثل فى فتوحاته العظيمة فى شبه القارة الهندية، فقد فتح مدينة بهاطيه بجوار إقليم الملتان، واستخلف بها دعاة ينشرون الإسلام ويُعلّمون المسلمين الجدد أصوله وأحكامه، وقد استمرت غزواته

المنتظمة فى بلاد الهند أكثر من عشرين عاماً (٣٩٢-٤١٦هـ)، وتمكن خلال تلك الغزوات من الاستيلاء على قلعة ناردين الحصينة وإخضاع المناطق المجاورة لها، وأقبل الهنود فى تلك المناطق على اعتناق الإسلام؛ فأرسل إليهم السلطان من يبصرهم بأحكامه، كما نجح محمود الغزنوى فى الاستيلاء على مدينة قنوج الحصينة على نهر الجانج - الذى يقدسه الهنود - واعتنق أهلها الإسلام، وكانت آخر الغزوات المظفرة للسلطان محمود فى بلاد الهند هى غزوة «سُومَنات»، وكان بقلعة سومنات الحصينة معبد يوجد به صنم البراهمة الأعظم الذى يحج إليه الهنود من كل مكان، وقد اقتحم السلطان هذه القلعة بعد قتال مرير وحطم بنفسه هذا الصنم، ويعترف التاريخ لمحمود الغزنوى بأنه كان إدارياً من طراز فريد، فقد استطاع بعد هذه الفتوحات المجيدة أن يتألف الهندوس وأن يجعلهم جزءاً من نسيج دولته وأن يستعين بهم فى جهازه الإدارى وأن يجندهم فى جيشه، ومن هنا أقبلوا على اعتناق الإسلام بأعداد وفيرة[٦٤].

لقد كان للسلطان محمود الغزنوى وخلفائه من الغزنويين الفضل الأكبر فى تمهيد الطريق أمام دول إسلامية أخرى للمضى قدماً فى توطيد الوجود الإسلامى فى الهند وتوسيع دائرته، ومن أبرز الأمثلة على ذلك دولة الغور التى تأسست فى المنطقة بين هراة وغزنة فى أفغانستان الحالية، وقد كان الغور لا يدينون بالإسلام فغزاهم محمود الغزنوى سنة ٤٠١هـ (١٠١٠م) وضمهم إلى مملكته ونشر الإسلام بينهم. ثم استطاع الغور أن يستقلوا عن الدولة الغزنوية بعد ضعف هذه الدولة وتمكنوا من الاستيلاء على غزنة وطرد الغزنويين منها واتخذوها مقراً لحكمهم، ثم وسّعوا حدود دولتهم على حساب الغزنويين الذين اتخذوا من لاهور (فى باكستان الحالية) عاصمة لدولتهم فتمكن الغور من الاستيلاء عليها ووضعوا حداً لنفوذ الغزنويين فى الهند، والذى يهمنا فى هذا المقام أن ملوك الغور وجهوا جانباً كبيراً من اهتمامهم إلى الهند، فبسطوا النفوذ الإسلامى على أماكن جديدة وأكملوا سيطرتهم على إقليم السند والبنجاب واستولوا على مدينة بيشاور وعلى أجزاء مهمة من شمال الهند، وقد قام بالدور الأكبر فى هذه الفتوحات السلطان شهاب الدين محمد الذى يعدّ بحق أعظم

سلاطين الغور، وكانت وفاته فى سنة ٦٠٢هـ (١٢٠٥م)، وقد اهتم سلاطين الغور بنشر الإسلام فى بلاد الهند فبنوا المساجد والمدارس الإسلامية، وساروا فى الرعية سيرة حسنة، وطبّقوا مبدأ العدل على الجميع، وقد ضرب السلطان شهاب الدين محمد - بصفة خاصة - أروع الأمثلة فى هذا المجال(٦٥).

هذا، ومما لا ينبغى إغفاله فى الحديث عن انتشار الإسلام فى الهند دور التجار المسلمين فى هذا الميدان، وقد كانت الهند مقصداً للعديد من هؤلاء التجار الذين كانوا يحملون معهم بضائعهم للتجارة، كما يحملون دينهم لنشره بين الهندوس، وقد صادفوا كثيراً من النجاح فى هذه المهمة الجليلة(٦٦).

أشرنا قبل ذلك إلى أن دولة السلاجقة كانت - كدولة الغزنويين - ذات دور بارز فى مجال الفتوحات العسكرية فى العصر العباسى. والسلاحقة ينتمون إلى أصل تركى، وهم ينتسبون إلى جدهم الأعلى سلجوق، وموطنهم الأصلى بلاد ما وراء النهر، وقد أسلم سلجوق وأتباعه، ثم هاجر السلاجقة فى وقت لاحق إلى خراسان التى كانت خاضعة لسلطة الغزنويين، ولكن السلاجقة دخلوا فى صراع معهم وتمكنوا من السيطرة على خراسان والقضاء على نفوذ الغزنويين هناك، وهكذا أسس السلاجقة فى البداية دولتهم فى خراسان فى سنة ٤٢٩هـ بزعامة طغرل بك، ثم أخذوا يوسعون حدودهم فى المشرق على حساب الدويلات الإسلامية المجاورة ثم سيطروا على بغداد عاصمة الخلافة العباسية سنة ٤٤٧هـ وقضوا على النفوذ البويهى هناك(٦٧).

ويهمنا فى هذا السياق أن نتحدث ـ بإيجاز ـ عن التوسع الخارجى للسلاجقة على حساب دولة الروم. فهذا التوسع هو الذى سيفتح الطريق بعد ذلك أمام الأتراك العثمانيين لفتح القسطنطينية والسيطرة على آسيا الصغرى والتوغل فى أوروبا ونشر الإسلام هناك. وقد قام السلطان ألب أرسلان (٤٥٥ـ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣ـ١٠٧٣م) وابنه وخليفته ملكشاه (٤٦٥ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٧٣ـ ١٠٩٢م) بالجهد الأكبر فى هذا التوسع، وكانت موقعة (ملازكرد) التى دارت رحاها فى أرمينيا بين ألب أرسلان والإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع فى سنة ٤٦٣هـ (١٠٧١م) ذات

تأثير حاسم فى هذا الصدد، فقد انتصر فيها السلاجقة انتصاراً ساحقاً كان من بين أهم نتائجه القضاء بصورة نهائية على نفوذ الروم فى أرمينيا وإخضاع هذا الإقليم المهم للسيطرة الإسلامية[٦٨]، ومن بين نتائج هذه الموقعة كذلك فتح المجال أمام تغلغل النفوذ الإسلامى فى آسيا الصغرى، وقد ارتبط بهذا النفوذ قيام إمارة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، وهى الإمارة التى استمرت أكثر من قرنين (٤٧٠ ـ ٧٠٠هـ/١٠٧٧ ـ ١٣٠١م) ثم سيطر عليها الأتراك العثمانيون الذين خرجوا من معطف السلاجقة وتبنوا سياستهم تجاه الروم.

وينتسب العثمانيون إلى جدهم الأعلى عثمان بن أرطغرل الذى استطاع أن يوسع نفوذه فى آسيا الصغرى، وهاجم الروم وضم بعض الأراضى التابعة لهم، وعندما توفى سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) خلفه ابنه أورخان فسار على سياسة أبيه فى مهاجمة الروم فى آسيا الصغرى وتوسيع نفوذه على حسابهم، ثم جاء مراد بن أورخان (وهو مراد الأول) فى سنة ٧٦١هـ (١٣٦٠م) فخطا خطوات شاسعة فى سبيل المزيد من التوسع العثمانى، وخاصة فى اتجاه الممتلكات البيزنطية فى أوروبا، واستولى على مدينة أدرنة واتخذها عاصمة لدولته، واستمر خلفاء مراد الأول يسيرون على نفس النهج. وفى عهد السلطان محمد الفاتح (٨٥٥ – ٨٨٦هـ / ١٤٥١ ـ ١٤٨١م) تمكن العثمانيون من الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وذلك فى سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) واتخذوها قاعدة حكمهم وأنهوا بذلك حقبة طويلة من الصراع بين الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم[٦٩].

وقد مثل سقوط القسطنطينية نقطة انطلاق جديدة نحو مزيد من التوسع العثمانى فى أوروبا، فقد أحكم العثمانيون سيطرتهم على الأماكن التى كانوا قد بسطوا نفوذهم عليها فى البلقان، كما سيطروا على اليونان والبوسنة والهرسك وألبانيا ورومانيا والمجر وواصلوا تقدمهم إلى وسط أوروبا حتى توقفوا عند أسوار فيينا فى سنة ١٦٨٣م[٧٠].

وقد ارتبطت الانتصارات العسكرية الهائلة للعثمانيين بانتشار الإسلام فى العديد من الأماكن التى سيطروا عليها فى أوروبا أو فى غيرها، ولعل هذا

الارتباط يغرى بالقفز إلى استنتاج خاطىء وهو أن الإسلام لم ينتشر فى تلك الأماكن إلا بالإكراه، ولكن هذا الاستنتاج تهدمه الحقائق التاريخية الثابتة التى أقر بها غير واحد من المؤرخين الغربيين، ومن هؤلاء بول كولز paul Coles الذى يقول: «نادراً ما كان العثمانيون استبداديين طغاة .. إذا ما قارناهم بأوروبا المعاصرة لهم حيث كان الهوس الدينى والتعصب المذهبى، بينما كان الرعايا العثمانيون فى أوروبا يتمتعون بأقصى درجات التسامح الدينى»(٧١)، ويقول توماس أرنولد: «إن التسامح الدينى الذى تمتع به اليونانيون (فى ظل الحكم العثمانى) وما نعموا به من حماية للأنفس والأموال جعلهم يتقبلون بسرعة تحول السلطة من سيد إلى آخر بل جعلهم يفضلون سيادة السلطان (العثمانى) على سيادة أى قوة مسيحية»(٧٢)، ويضيف أرنولد أن الدولة العثمانية فى عهد قوتها وفتوتها فى القرون الأولى كانت أكثر تسامحاً فى النواحى الدينية منها فى عصر ضعفها وتدهورها، ثم يلاحظ أن التحول إلى الإسلام فى فترات التسامح الدينى كان أوسع بكثير منه فى فترات التعصب والاضطهاد، وهو فى الوقت نفسه يشير إلى أن هذا الاضطهاد لم يكن اضطهاداً دينياً بل كان اضطهاداً عاماً لأنه شمل الرعايا جميعاً، مسلمين وغير مسلمين(٧٣). ويذكر بعض المؤرخين أن العثمانيين كانوا حريصين على كسب التأييد السياسى من الشعوب التى كانت خاضعة للإمبراطورية البيزنطية، فأحسنوا معاملة الموظفين الذين كانوا يعملون فى خدمة البيزنطيين ورفعوا من شأن النبلاء المسيحيين وأدمجوهم فى الجيش والإدارة العثمانية، كما أسبغوا حمايتهم على الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية فى محاولة لكسب شعوب البلقان(٧٤).

فى ظل هذا التسامح الدينى ـ الذى اتخذه العثمانيون سياسة لهم ـ انتشر الإسلام انتشاراً واسعاً فى ألبانيا والبوسنة والهرسك وآسيا الصغرى (الأناضول) وغيرها، وفى ظل هذا التسامح أيضاً تمسكت بعض الشعوب بدينها كالأرمن واليونانيين وغيرهم دون التعرض لأى ضغط من جانب العثمانيين لاعتناق الإسلام.

على أن الإسلام انتشر – ومازال ينتشر – فى بقاع لم تتعرض قط لفتح عسكرى إسلامى، فقد انتشر – على سبيل المثال لا الحصر – فى إندونيسيا وماليزيا وكثير من بلدان إفريقيا السوداء، فكيف انتشر؟

لابد لنا هنا من أن نشير إلى حقيقة معروفة وهى أن الإسلام دين دعوة، وهذه الدعوة ليست موجهة إلى جنس دون جنس بل هى موجهة إلى الناس كافة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[٧٥]. ومن هنا أحس كثير من أفراد المسلمين العاديين بمسئوليتهم تجاه نشر الإسلام وترجموا هذا الإحساس إلى عمل له أعظم النتائج.

والحق أن التجار المسلمين كان لهم دور كبير فى نشر الإسلام فى أرخبيل الملايو الذى يضم عدداً من الدول من أبرزها إندونيسيا وماليزيا والفلبين وسنغافورة، وقد سيطر الإسلام على إندونيسيا وماليزيا وأصبح لهاتين الدولتين دور لا ينكر فى عالمنا الإسلامى المعاصر، كما توجد أقليات إسلامية لها وزنها فى دول أخرى تنتمى إلى أرخبيل الملايو كالفلبين وسنغافورة وغيرهما.

وعندما نقول إن التجار المسلمين كان لهم دور أساسى فى نشر الإسلام فى جزر الملايو فإننا لا نقصر هذا الدور على التجار العرب وحدهم - رغم أهمية دورهم - ولكننا نوسع إطاره ليشمل التجار الهنود الذين كان دورهم لا يقل تأثيراً عن دور التجار العرب إن لم يزد.

والجدير بالذكر أن نشاط الدعوة إلى الإسلام فى أرخبيل الملايو لم يصبح ملموساً ومؤثراً إلا منذ القرن الثالث عشر الميلادى، وذلك بعد أن توطدت قواعد الإسلام فى الهند[٧٦]. وقد كان من أبرز الوسائل التى استعان بها الدعاة من التجار المسلمين محاولة اندماجهم فى المجتمع الذى يمارسون فيه نشاطهم، ولا شك أن أهم ما أعانهم على هذا الاندماج إتقان لغة هذا المجتمع والتزوج من نسائه[٧٧]. وإذا كان الإسلام قد وصل إلى تلك البلاد فى غضون القرن الثالث عشر الميلادى فإنه واصل فيها تقدمه باطراد خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر وذلك على حساب الأديان غير الكتابية التى كانت سائدة هناك، وعلى رأسها الهندوكية والبوذية، وهى الديانات التى شكلت الثقافات المحلية عنصراً واضحاً فى تكوينها.

والملاحظ أن نشاط بعض التجار لنشر الإسلام فى أرخبيل الملايو كانت تختلط به نزعة تصوفية واضحة، ومعنى هذا أن الصوفية الذين أرادوا أن يكون لهم دور فى نشر الإسلام فى تلك البلاد لم يذهبوا إليها بوصفهم أصحاب طرق، بل ذهبوا إليها فى ثياب التجار العاديين، ومارسوا الدعوة إلى الإسلام ونشر فكرهم الصوفى من خلال نشاطهم التجارى(٧٨).

وقد وطد الإسلام أقدامه فى البداية فى المناطق الساحلية من أرخبيل الملايو حيث كان التجار المسلمون يمارسون نشاطهم فى التجارة والدعوة معا. ومن تلك المناطق الساحلية انتشر الإسلام بعد ذلك فى المناطق الداخلية، وكان للمسلمين المحليين دورهم المؤثر فى هذا الانتشار.

على أن الظاهرة التى تلفت النظر فى تحول تلك البلاد إلى الإسلام أن الحكام - فى أحيان كثيرة - كانوا هم الذين يسبقون إلى اعتناق الإسلام ثم تتبعهم الرعية(٧٩)، ويبدو أن ذلك كان تخطيطاً محكماً من دعاة الإسلام هناك لأن الرعية فى العادة تميل إلى اقتفاء آثار حكامها، وهناك أمثلة عديدة لذلك، ومن بينها ما حدث فى مدينة (سمودرة) وهى على الساحل الشمالى لجزيرة سومطرة، فقد كان عليها حاكم من أهل البلاد يدين بالهندوكية اسمه (ماراسيلو) ثم تحول إلى الإسلام فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى على يد أحد الدعاة العرب، وسمى نفسه باسم «الملك الصالح» فأسلمت رعيته بإسلامه، وقد أراد الملك الصالح أن يزيد دائرة النفوذ الإسلامى فى مملكته اتساعاً فاستولى على إحدى الممالك الأخرى على الساحل الشمالى لسومطرة وهى مملكة (باساى) ونشر بها الإسلام، ثم واصل ابناه من بعده رسالته فى هاتين المملكتين اللتين أصبحتا من أهم مراكز الدعوة إلى الإسلام فى جزيرة سومطرة(٨٠).

ومن بين الأمثلة الأخرى أيضاً ما حدث فى شبه جزيرة (ملقا) فى ماليزيا الحالية، حيث اعتنق حكام تلك المنطقة الإسلام فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى وحولوها إلى مركز للدعوة الإسلامية، ومن شبه جزيرة (ملقا) دخل الإسلام (جاوة) التى تحولت بدورها إلى مركز من أهم مراكز الدعوة فى أرخبيل الملايو(٨١).

وقد امتد الإسلام من سومطرة وملقا وجاوة إلى داخل البلاد، كما وصل إلى

الفلبين وكون له قاعدة عريضة من الأتباع فى عدد من الأماكن هناك ومن أبرزها لوزون وسولو وميندناو(٨٢).

وإذا كان الإسلام قد انتشر فى أرخبيل الملايو بوسائل سليمة وبجهود المخلصين من دعاته؛ فإن انتشاره فى إفريقيا السوداء بصفة عامة لم يختلف عن ذلك كثيراً. لقد انتشر الإسلام فى مناطق عديدة فى إفريقيا غير العربية: فى شرقها وغربها بصفة خاصة، وما زال ينتشر فى هذه المناطق وفى غيرها، ولا مجال هنا إلا للحديث الموجز عن العوامل التى ساعدت على دخول الإسلام وانتشاره فى إفريقيا، ويمكننا أن نلخص هذه العوامل فى النقاط التالية:

أولاً: الدور الذى قام به البربر فى الشمال الإفريقى فى الدعوة إلى الإسلام فى غرب أفريقيا بصفة خاصة: فى السنغال وغانا والنيجر ونيجيريا ومالى وغيرها. وكان المرابطون أول من اضطلعوا بهذا الجهد، وخاصة على يد الداعية الإسلامى الكبير عبد الله بن ياسين ويوسف بن تاشفين فى القرن الحادى عشر الميلادى، ثم سارت على دربهم دولة الموحدين فى القرن الثانى عشر الميلادى، وكان محمد بن تومرت من أبرز من قاموا بجهد مؤثر فى هذا الميدان(٨٣).

ثانياً: إسهام بعض القبائل الإفريقية التى اعتنقت الإسلام فى النهوض بمسئولية الدعوة إليه بعزيمة وإخلاص، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك قبائل (الهوسا) فى غرب إفريقيا (نيجيريا)، وقد بدأت هذه القبائل تتحول إلى الإسلام فى مطالع القرن السادس عشر على يد داعية من تلمسان يعرف باسم محمود ابن عبد الكريم المجيلى، واشتهرت الهوسا ببراعتها فى التجارة، فأصبحت تمارس الدعوة إلى الإسلام فى كل مكان تمارس فيه نشاطها التجارى، وحققت فى هذا الصدد نجاحاً مؤكداً(٨٤). وتحتاج جهود (الهوسا) فى هذا الميدان إلى مزيد من اهتمام الباحثين فى تاريخ انتشار الإسلام فى غرب إفريقيا.

ثالثاً: لا يمكن إغفال الدور المتميز الذى قام به المهاجرون العرب (والمسلمون بصفة عامة) عند الحديث عن انتشار الإسلام فى إفريقيا، وقد برز هذا الدور بروزاً خاصاً فى شرق إفريقيا التى شهدت هجرات عربية وإسلامية فى مراحل مختلفة من تاريخها، ومن بينها هجرة الشيرازيين من شيراز فى فارس إلى جزيرة (كلوة)(٨٥) فى حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)

بقيادة حسن بن على الشيرازى، ولم يكن هؤلاء الشيرازيون من الشيعة رغم أن المذهب الشيعى كان قوى النفوذ فى فارس، ويرجح بعض المؤرخين أن الشيرازيين كانوا يحكمون كلوة كسوانى باسم العباسيين(٨٦)، وقد اشتغل الشيرازيون بالتجارة والدعوة، وقاموا بجهد فى نشر الإسلام فى شرق إفريقيا(٨٧).

على أن ما يستحق وقفة خاصة فى هذا السياق هو الدور الذى قام به العرب العُمانيون فى نشر الإسلام فى شرق إفريقيا، ابتداءً من اليعاربة ومروراً بالمزاريع ثم البوسعيديين. وكان للسلطان (سعيد بن سلطان بن أحمد بن سعيد) اليد الطولى فى هذا الجانب، وقد حوّل هذا السلطان ديوان الحكومة من عُمان إلى زنجبار فى سنة ١٨٤٣م. وأرسى قواعد الوجود الإسلامى فى تلك البقاع، وشهد عهده ازدهار التجارة فى زنجبار بصورة غير مسبوقة، واتخذها العرب مركزا ينطلقون منه لاختراق مجاهل القارة الإفريقية(٨٨).

رابعاً: كان للطرق الصوفية نشاط ملحوظ فى نشر الإسلام فى إفريقيا، ومن أشهر الطرق: الطريقة القادرية والتيجانية والسنوسية، على أن أجدرها بالإشارة إليه هنا هى الطريقة القادرية التى ظهرت فى القرن الثانى عشر الميلادى، وقد أخذت هذه الطريقة اسمها من مؤسسها عبد القادر الجيلانى، ودخلت إلى غرب إفريقيا فى غضون القرن الخامس عشر الميلادى، وكان لها نشاط واسع فى نشر الإسلام هناك، ومن أبرز مايميز أتباع هذه الطريقة روح الحب والتسامح التى حكمت علاقتهم بالآخرين ولو كانوا من المخالفين لهم فى العقيدة أو المذهب(٨٩).

خامساً: قامت المؤسسات التعليمية الدينية فى العالم العربى بجهد بارز فى سبيل تثقيف الدعاة الأفارقة وتزويدهم بالمعرفة الصحيحة التى تعينهم على نشر الإسلام بين الجماهير العريضة من أبناء القارة السوداء، فقد أقبل طلاب العلم المسلمون من مختلف أنحاء إفريقيا على الجامع الأزهر وجامعات الزيتونة وفاس وغيرها لينهلوا من منابع الإسلام الصافية، ولينشروا ـ بين قومهم إذا رجعوا إليهم ـ قيم الإسلام ومبادئه(٩٠).

فهذه هى أهم العوامل التى حقق بها الإسلام انتشاره فى أفريقيا، ومازالت أمامه الفرصة لمزيد من الانتشار.

والخلاصة أن الإسلام منذ بدء ظهوره لم يعترف بأسلوب غير أسلوب الإقناع وسيلة إلى الانتماء إليه، وقد أرسى القرآن الكريم بصورة قاطعة مبادىء الدعوة إلى هذا الدين، وليس من بينها إكراه الناس على اعتناقه. وقد عكس منهج الرسول ﷺ فى الدعوة هذه المبادىء بكل الأمانة والصدق، ولم تهدف المواجهات العسكرية التى حدثت بين الرسول وبين أعدائه إلى فرض الإسلام عليهم بل إلى الدفاع عن الدولة الإسلامية ضد المتربصين بها، ولا يستطيع منصف أن يجحد منهج التسامح الذى سار عليه الإسلام فى معاملة أهل الذمة حين منحهم حق المواطنة الكاملة كما منحهم الحماية وحرية العقيدة ماداموا قد التزموا باحترام القوانين العامة للدولة، وقد اتضح لنا أن حروب الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين لم يكن هدفها نشر الإسلام، فالإسلام لم ينتشر فى ظل الحرب بل فى ظل السلام، وإنما كان هدف هذه الحروب هو نفس هدف الحروب فى عصر النبوة: تأمين الدولة الإسلامية والدفاع عنها ضد أعدائها، ولو كانت هذه الحروب تهدف إلى نشر الإسلام لألزم الخلفاء الراشدون غير المسلمين بالدخول فى هذا الدين، ولكن ذلك لم يحدث. وقد بدأ الإسلام ينتشر انتشاراً ملحوظاً فى العصر الأموى نتيجة عدد من العوامل ليس من بينها الإكراه على اعتناقه، فقد تأثر أبناء الشعوب المفتوحة بأسلوب الفاتحين ونظم حياتهم. وانتشرت بينهم اللغة العربية والثقافة الإسلامية فأقبلوا على الإسلام طوعاً لا كرهاً، وقد تحول هؤلاء الداخلون فى الإسلام من غير العرب إلى دعاة له، وقامت بينهم أسر حاكمة جعلت نشر الإسلام إحدى غاياتها، وهناك أمثلة عديدة لهذه الدول فى العصر العباسى، من بينها الدولة السامانية والدولة الغزنوية والغورية فى بلاد ما وراء النهر، ودولة المرابطين والموحدين فى الشمال الإفريقى. وإذا استطاع البعض أن يقدم من التاريخ الإسلامى أمثلة لإرغام غير المسلمين على الإسلام فهى من نوع ذلك الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ولا يهدمها، بل إن الدولة العثمانية التى كانت من أكبر الدول الفاتحة فى تاريخ الإسلام سارت فى معاملة غير المسلمين على منهج العدل والتسامح والبعد عن الإكراه، وفى ظل التسامح انتشر الإسلام، فقد أقبلت الشعوب غير المسلمة من رعايا الدولة العثمانية على

اعتناقه، وخاصة فى أوروبا كشعوب البوسنة والهرسك وألبانيا.

وقد اتضح لنا كذلك أن الإسلام لا يحتاج إلى سلطة رسمية لتقوم بمهمة الدعوة إليه ونشره بين الشعوب المختلفة؛ بل هو يحتاج إلى دعاة مخلصين ولو كان ذلك على المستوى الفردى. لقد انتشر الإسلام بهذه الطريقة فى أكبر دولة إسلامية فى عالمنا المعاصر وهى إندونيسيا، كما انتشر فى ماليزيا بالأسلوب نفسه، وفى كثير من بلاد إفريقيا السوداء، وهذه الجهود الفردية قامت - فى كثير من الأحيان - على أكتاف التجار، كما قامت على أكتاف رجال الطرق الصوفية، واضطلعت بها أيضاً مجتمعات إسلامية هاجرت إلى بقاع غير إسلامية فنشرت بها الإسلام، ونهض بها أيضاً كثير من أبناء البلاد الذين أسلموا فتحوّلوا إلى دعاة مخلصين تحدوهم الرغبة فى نشر الإسلام حيث قُدِّر لهم فى مختلف بقاع الأرض.

قائمة المصادر والمراجع

١ . بالعربية:

- ابو عبيد (القاسم بن سلام):

كتاب الأموال. تحقيق محمد خليل هراس. دار الكتب العلمية - بيروت. لبنان: ١٩٨٦.

- أبوالمحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى):

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية. وزارة الثقافة. القاهرة: ١٩٦٣.

- أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم):

كتاب الخراج. دار المعرفة. بيروت. لبنان (بدون تاريخ).

- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على):

الكامل فى التاريخ. دار صادر. بيروت: ١٩٨٢.

- أحمد أمين:

فجر الإسلام . مكتبة النهضة المصرية. القاهرة: ١٩٥٩.

- أشتيانى (عباس إقبال):

تاريخ إيران بعد الإسلام. ترجمه عن الفارسية الدكتور محمد علاء الدين منصور. دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة: ١٩٨٩م.

- البخارى (محمد بن إسماعيل):

صحيح البخارى. دار الشعب. القاهرة (بدون تاريخ).

- البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر):
أنساب الأشراف. الجزء الأول (تحقيق الدكتور محمد حميد الله). دار المعارف. القاهرة: ١٩٨٧م.
فتوح البلدان. دار الكتب العلمية. بيروت: ١٩٩١م.
- تريتون (أ. س):
أهل الذمة فى الإسلام. ترجمة الدكتور حسن حبشى. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة: ١٩٩٤م.
- ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن):
سيرة عمر بن عبد العزيز. تحقيق طه عبد الرءوف سعد. دار ابن خلدون. القاهرة: ١٩٩٦.
- حسين مؤنس (الدكتور):
أطلس تاريخ الإسلام. الزهراء للإعلام العربى. القاهرة: ١٩٨٧م.
- خليفة بن خياط:
تاريخ خليفة بن خياط. تحقيق الدكتور سهيل زكار. دار الفكر. بيروت: ١٩٩٣م.
- الريس (الدكتور محمد ضياء الدين):
الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة ١٩٦١م.
عبد الملك بن مروان والدولة الأموية. مطابع سجل العرب. القاهرة ١٩٦٩م.
- ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع البصرى):
الطبقات الكبرى. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر. بيروت (بدون تاريخ).
- سيدة إسماعيل كاشف (الدكتورة):
مصر فى فجر الإسلام. دار الفكر العربى. القاهرة: ١٩٤٧م.
- الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير):
تاريخ الرسل والملوك (الشهير بتاريخ الطبرى). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة: ١٩٧٩م.
- ابن عبدالحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله):
فتوح مصر وأخبارها. طبعة تورى. نيوهافن: ١٩٢٢م.
- عبد الله محمد جمال الدين (الدكتور):
المسلمون المنصرون (الموريسكيون). دار الصحوة. القاهرة: ١٩٩١م.
- ابن عساكر (الحافظ على بن الحسن):
تاريخ مدينة دمشق. المجلد الأول. تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد. دمشق: ١٩٥١م.
- عصام الدين عبدالرءوف الفقى:
بلاد الهند فى العصر الإسلامى. دار الفكر العربى. القاهرة: ١٩٩٦م.
- فامبرى (أرمنيوس):
تاريخ بخارى. ترجمة الدكتور أحمد محمود الساداتى. القاهرة (بدون تاريخ).
- ابن كثير (الحافظ إسماعيل بن عمر):
البداية والنهاية. تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحم وآخرين. دار الكتب العلمية. بيروت: ١٩٨٥م.
- كولز (بول):
العثمانيون فى أوروبا. ترجمة الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة: ١٩٩٣م.
- لوبون (غوستاف):
حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر. مكتبة عيسى البابى الحلبى. القاهرة: ١٩٦٩م.

- الماوردى (أبو الحسن):
الأحكام السلطانية. مكتبة مصطفى الحلبى. القاهرة: ١٩٧٣م.
- محمد حميد الله الحيدر آبادى:
مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة: ١٩٤١م.
- محمد فريد:
تاريخ الدولة العلية العثمانية. مكتبة الآداب. القاهرة: ١٩٩٧م.
- المغيرى (سعيد بن على):
جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار. تحقيق محمد على الصليبى. وزارة التراث القومى والثقافة. سلطنة عمان: ١٩٨٦م.
- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على):
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريزية). بولاق. القاهرة: ١٢٧٠هـ.
- النرشخى (أبو بكر محمد بن جعفر):
تاريخ بخارى. ترجمه عن الفارسية أمين عبد المجيد بدوى ونصر الله الطرازى. دار المعارف. القاهرة: ١٩٩٣م.
- النقيوسى (يوحنا):
تاريخ مصر. ترجمة الدكتور عمر صابر عبد الجليل. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. القاهرة: ٢٠٠٠م.
- ابن هشام (عبد الملك):
سيرة النبى ﷺ (المعروفة بسيرة ابن هشام). تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. دار الهداية. القاهرة (بدون تاريخ).
- الواقدى (محمد بن عمر بن واقد):
المغازى. تحقيق الدكتور مارسدن جونس. عالم الكتب. بيروت: ١٩٨٤م.
- ياقوت (شهاب الدين الحموى):
معجم البلدان. تحقيق فريد عبد العزيز الجندى. دار الكتب العلمية بيروت: ١٩٩٠م.
- اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر):
تاريخ اليعقوبى. دار صادر. بيروت: ١٩٩٢م.

٢ . بالإنجليزية:

-- **Ahmed (S.M.):**
Islam in India and the Middle East. Abbas Manzil library, Allahabad (No date.)
-- **Arnold (Thomas):**
The Preaching of Islam. London, 1913.
-- **Davis (R.HC.):**
History of Medieval Europe. London, 1988.
-- **Lapidus (I.m.):**
A Histories of Islamic Societies. Cambridge, 1999.
-- **mazhar - ul - Haq:**
A Short History of Islam. Lahore, 1990.

الهوامش

(١) سورة يونس: ٩٩.

(٢) سورة النحل: ١٢٥.

(٣) سورة العنكبوت: ٤٦.

(٤) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٥) سورة البقرة: ٢٧٢.

(٦) سورة آل عمران: ٢٠.

(٧) البلاذرى: أنساب الأشراف: ج١، ص٢٣٧.

(٨) سيرة ابن هشام: ج٢، ص ٤١.

(٩) هو مصعب بن عمير بن هاشم، قرشى من بنى عبدالدار بن قصى. كان أحد السابقين إلى الإسلام وممن هاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وكان حامل لواء رسول الله ﷺ فى بدر وأحد، واستشهد يوم أحد عن أربعين عاماً. راجع ترجمته فى الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٣، ص ١١٦ - ١١٧ وأنساب الأشراف للبلاذرى: ج١، ص٢٠٢ - ٢٠٣.

(١٠) تاريخ الطبرى: ج٢، ص٣٥٧ - ٣٥٩.

(١١) نفس المصدر، ص٣٥٩.

(١٢) سيرة ابن هشام: ج٢، ص١٢١. والمقصود بالأسوة (أو الإسوة) المساواة. انظر مادة «أسا» فى لسان العرب لابن منظور.

(١٣) الواقدى : المغازى، ج٢، ص٦٢٤. وانظر أيضاً: سيرة ابن هشام، ج٣، ص٢٧٢، وتاريخ الطبرى، ج٢، ص٦٣٨.

(١٤) سيرة ابن هشام: ج٣، ص٢٧٢.

(١٥) صحيح البخارى، ج٤، ص٥٧.. ومن معانى كلمة «الأريسيين» الأكارون والفلاحون أو الأتباع، فالمعنى هنا: إن توليت فعليك إثم أتباعك ورعيتك. وهذا المعنى يشبه ماجاء فى ختام كتابه ﷺ إلى امبراطور الفرس: «فإن توليت فإن عليك أثام المجوس».

(١٦) ابن كثير: البداية والنهاية ج٤، ص٢٦٨-٢٦٩. وقد اتصل الامبراطور الفارسى كسرى بباذان نائبه على اليمن - وكانت اليمن تحت الحكم الفارسى فى ذلك الوقت - يأمره بالإشراف على تنفيذ هذه المهمة!.

(١٧) الواقدى: المغازى، ج٢، ص٧٥٥.

(١٨) تاريخ الطبرى، ج٣، ص١٥٠.

(١٩) وخاصة المجوس. انظر كتاب الخراج لأبى يوسف، ص١٢٨ - ١٢٩، والأموال لأبى عبيد، ص ٣٦ - ٣٧.

(٢٠) تاريخ الطبرى، ج٣، ص١٣٩. وانظر أيضاً: تاريخ اليعقوبى، ج٢، ص٨٢ - ٨٣. وحول النص الكامل للمعاهدة. ارجع إلى : محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية فى العصر النبوى والخلافة الراشدة ص ٩٢-٩٥.

(٢١) أبو يوسف : كتاب الخراج، ص ١٢٢

(٢٢) تاريخ الطبرى، ج٢، ص ٦٥٢.

(٢٣) هم على الترتيب: زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبدالله بن رواحة. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٢٩.

(٢٤) الواقدى: المغازى، ج٣، ص١١٢٤، وانظر أيضا: مادة «البلقاء» فى دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة العربية، ج٨، ص ١٩-٢١.

(٢٥) انظر على سبيل المثال: غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص ١٢٧ - ١٢٨، وانظر أيضا: Thomas Arnold, the Preaching of Islam, 51- 52; R. Davis, A History of Medieval Eurape, 63.

(٢٦) ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٢، ص ٥٠٠.

(٢٧) أبو عبيد: الأموال، ص ٣٦ - ٣٧، أبو يوسف: الخراج، ص ١٢٨.

(٢٨) فى سنة ١٦هـ (٦٣٧م) على أرجح الروايات. انظر تاريخ خليفة بن خياط، ص٩٣. وفى تاريخ الطبرى (ج٣، ص٦٠٧) ورد ذكر فتح بيت المقدس فى أحداث سنة ١٥هـ أما البلاذرى (فتوح البلدان، ص ١٤٤) فيضع ذلك فى سنة ١٧هـ.

(٢٩) انظر النص الكامل لهذه المعاهدة فى تاريخ الطبرى، ج٣، ص٦٠٩. وانظر أيضاً: الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٣٠) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج١، ص٥٦٤ـ ٥٦٥.

(٣١) ترتون: أهل الذمة فى الإسلام، ص٤.

(٣٢) Thomas Arnold: The Preaching of Islam, p.57 .

(٣٣) Ibid., P.57 .

(٣٤) ترتون: أهل الذمة فى الإسلام، ص١٤.

(٣٥) من ذلك مثلا مايذكره المؤرخ المصرى يوحنا النقيوسى - وقد عاصر فتح المسلمين لمصر - من قوله إن عدداً من المصريين أسلموا وانضموا إلى عمرو بن العاص لتقديم العون له. انظر: تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى، ص ١٩٧.

(٣٦) راجع مادة «بلاط الشهداء» فى دائرة المعارف الإسلامية بقلم بيريز (الطبعة العربية)، جـ٧، ص٥٢٤ - ٥٢٧.

(٣٧) Mazhar-ul-Haq, A Short History of Islam,pp. 442-445.

(٣٨) ـ عباس إقبال أشتيانى: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٣٣.

(٣٩) أبو بكر النرشخى: تاريخ بخارى (ترجمه عن الفارسية الدكتور أمين عبدالمجيد بدوى ونصر الله الطرازى) ص ٩٠.

(٤٠) نفس المصدر، ص ٩١. وانظر أيضاً: تاريخ إيران بعد الإسلام لعباس إقبال أشتيانى، ص ١٣٢.

(٤١) حول المحاولات المتكررة للأمويين من أجل السيطرة النهائية على بخارى ارجع إلى فامبرى: تاريخ بخارى، ص ٥٧-٦٧.

(٤٢) النرشخى: تاريخ بخارى، ص ٧٧.

(٤٣) ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٧٠-١٧١، تاريخ الطبرى، جـ٤، ص ١٤٤.

(٤٤) ابن الأثير: الكامل، جـ٣، ص ٤٦٥، د. محمد ضياء الدين الريس:عبدالملك بن مروان والدولة الأموية ص ١٩٧.

(٤٥) ابن عبدالحكم: المرجع السابق، ص١٩٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ١، ص١٦٠.

(٤٦) ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص٣٦٩.

(٤٧) نفس المصدر ص ٣٧٢. وللمزيد حول دور حسان بن النعمان فى نشر الإسلام بين البربر راجع: د. محمد ضياء الدين الريس: عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٤٨) ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص ٢٠٥.

(٤٩) نفس المصدر: ص ٥٤٠.

(٥٠) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٨٩ وهامش ٢ فى نفس الصفحة.

(٥١) نفس المرجع، ص ٩٢ ـ ٩٣.

(٥٢) أبو يوسف : كتاب الخراج، ص ١٣١.

(٥٣) المقصود بالخراج هنا ـ كما يفهم من السياق ـ هو الجزية.

(٥٤) ابن الجوزى: سيرة عمر بن العزيز، ص ٩١.

(٥٥) Thomas Amold, The Preaching of Islam, pp. 82-83.

(٥٦) للمزيد من التفاصيل ارجع إلى الماوردى: الأحكام السلطانية ص٢٠٢-٢٠٣.

(٥٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ١، ص ٢١٠.

(٥٨) د. محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية، ص٢١٩.

(٥٩) كيدر نصر بن عبد الله أبو مالك الصغدى من أصل تركى. وقد ولى إمرة مصر من سنة ٢١٧ إلى سنة ٢١٩هـ. انظر ترجمته فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن، جـ٢، ص٢١٨.

(٦٠) المقريزى: الخطط، جـ١، ص٩٤.

(٦١) د. سيد كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص ٢٥٨.

Thomas Arnold, The Preaching of Islam, 137(٦٢)

.Ibid., 144 (٦٣)

وللمزيد حول مأساة هؤلاء الموريسكيين راجع: د. عبد الله جمال الدين: المسلمون المنصرون (الموريسكيون)، (دار الصحوة بالقاهرة: ١٩٩١م)، ص ٢٠٥ ومابعدها.

(٦٤) حول السلطان محمود الغزنوى وفتوحاته فى شبه القارة الهندية وسياسته الإدارية وجهوده فى نشر الإسلام ارجع إلى: عباس إقبال أشتيانى: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٧٧ـ ١٧٩، وانظر أيضاً: د. عصام الدين عبدالرءوف الفقى: بلاد الهند فى العصر الإسلامى، ص٢٤-٣٣.

(٦٥) لمزيد من التفاصيل حول الغوريين وفتوحاتهم فى الهند وجهودهم فى نشر الإسلام هناك ارجع إلى: أشتيانى: مرجع سابق، ص ٢٠٩ – ٢٢٦، ود. عصام الدين عبدالرءوف: مرجع سابق، ص٣٨-٥٥.

S.M Ahmed, Islam in India and the Meddle East, pp. 50- 51. (٦٦)

(٦٧) لمزيد من التفاصيل حول التاريخ المبكر للسلاجقة راجع: فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٢٧ ـ ١٢٥؛ عباس إقبال اشتيانى: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٦٨) اشتيانى: المرجع السابق، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨.

(٦٩) لمزيد من التفاصيل حول التاريخ العثمانى منذ بدايته حتى سقوط القسطنطينية راجع: محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٣٩-٦١.

I.M.Lapidus, A History of Islamic Societies, 307-314.(٧٠)

(٧١) بول كولز: العثمانيون فى أوروبا، ص ١١٨.

Thomas Arnold, The Preaching of Islam, p. 147.(٧٢)

Ibid., p. 154. (٧٣)

I.M. Lapidus, A History of Islamic societies, p.308. (٧٤)

(٧٥) سورة سبأ: الآية ٢٨.

Lapidus, op.cit., 468f (٧٦)

(٧٧) Arnold, op. cit., 364f.

(٧٨) Lapidus, op.cit., 469.

(٧٩) Thomas Arnold, op. cit., 367-368.

وانظر أيضا : د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٣٨٠.

(٨٠) Thomas Arnold, op. cit., 367-368.

وانظر أيضا : د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٣٨٠.

(٨١) Lapidus, op. cit., 470.

وانظر أيضا : د. حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٣٨١.

(٨٢) Lapidus, Loc. cit.

(٨٣) For more details see: Arnold, op. cit.,314-316.

(٨٤) Loc. cit., 320-321.

(٨٥) المقصود بها (كلوة كسوانى)، وهى المدينة القديمة التى تقع على بعد ٢٢٠ ميلاً جنوبى دار السلام. وكانت كلوة حتى وصول البرتغاليين إلى إفريقيا فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى عاصمة المستوطنات الإسلامية العربية والشيرازية فى سواحل شرق إفريقيا، وهناك بلدة مواجهة لبلدة كلوة كسوانى تعرف باسم «كلوة كفنجة» وهى أحدث عهداً فى عمرانها من «كلوة كسوانى» حيث عمرت فى أوائل دولة البوسعيديين. انظر: سعيد بن على المغيرى: جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار، ص ١٣٢.

(٨٦) نفس المرجع، ص ١٣٥، ١٤٤.

(٨٧) د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٣٨٠.

(٨٨) سعيد المغيرى: المرجع السابق، ص ٢٢٣-٢٢٨.

(٨٩) Thomas Arnold: The Preaching of Islam, 328-329.

(٩٠) Loc. cit., 355.

الإسلام دين الرحمة والسلام

الأستاذ الدكتور/ عبدالرحمن عباد

دار الفتوى والبحوث الإسلامية

فلسطين - القدس الشريف

مهـاد :

الإسلام هو دين الله الأوحد الذى ارتضاه للناس كافة منذ آدم ومروراً بأبى الأنبياء إبراهيم، وانتهاء بخاتمهم محمد عليهم الصلاة والسلام جميعاً.

والإسلام مشتق من الفعل «سلم» وهو الجذر لكلمة «السلام» أيضًا، وبهذا كان الإسلام فى معناه اللغوى التسليم والقبول والإذعان لإرادة الخالق سبحانه، ولهذا ارتضاه الخالق لعباده؛ كل عباده، «فمشرّع أحكامه هو الله سبحانه، وهو دين الشمول الجامع بين مصالح الدنيا والدين، وهو دين الوسطية الذى يوازن بين الطرفين المتقابلين بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف الآخر، ودين الواقعية الذى يراعى واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعة ووجود مشاهد، ولكنه يدل على حقيقة أكبر منه ووجود أسبق من وجوده، هو وجود الواجد بذاته وهو الله تعالى... ومراعاة واقع الإنسان من حيث ازدواج طبيعته واشتمالها على الجانب الروحى والجانب المادى، وهو الدين الذى يجمع بين الثبات والمرونة فى أحكامه وتعاليمه ونظمه»(١)، ولهذا كان الدين الأوحد، لله الأوحد، القائل: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾**(٢).

فالإسلام دين آدم، وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، والأنبياء كافة، لم يبشروا بغيره ولم يتنزّل عليهم سواه - بغض النظر عن الاختلاف فى التسميات - فما زابور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى وقرآن محمد سوى رسائل خرجت من مشكاة واحدة، تدعو إلى عبادة الله الواحد ، وهذه هى حقيقة الإسلام من قبل ومن بعد.

السلام خصوصية إسلامية :

مفردات السلام كثيرة ومتعددة، سواء فى القرآن الكريم أو الحديث الشريف وهى تنساح على الأسماء والمعانى الآتية:

(أ) **السلام اسم من أسماء الله عز وجل،** وفى هذا يقول القرآن الكريم: **﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون﴾**(٣).

فقد أراد الله - سبحانه - أن يجعل من اسمه عنوانًا لرسالته، ومهمة لأنبيائه ورسله يبشرون بها ويعملون بوحيها.

(ب) **الجنة دار السلام،** سماها الله سبحانه وتعالى حين قال : **﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾**(٤) وهى دار المتقين التى فيها مستراحهم ومستقرهم، والتى تهفو إليها أرواح المؤمنين كافة.

جـ - السلام دعوة إسلامية : فقد خاطب الله المؤمنين كافة بقوله : **﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾**(٥) إذ عد الامتناع عن الدخول فى السلم اتباعاً لخطوات الشيطان الذى هو العدو الواضح العداوة للمؤمنين.

(د) **السلام تحية المسلمين الدائمة :** ورد عن أبى هريرة رضي الله عنه، عن الرسول ﷺ أنه قال : «**لما خلق الله آدم قال: اذهب فسلّم على أولئك نفر من الملائكة جلوس - فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم. فقالوا : السلام عليك ورحمة الله، فزادوه رحمة الله**»(٦).

فالله تعالى يُعلِّم أبا البشرية كيف تكون التحية وما هى ألفاظها، وكأن السلام تحية الله - سبحانه - لعباده المؤمنين، وعليهم أن يردوا بما يليق بها.

نتعلم من هذا الحديث أن (السلام) تحية الملائكة أيضاً قبل نزول آدم إلى الأرض، وأنه الأمانة التى حملها معه إلى ذريته، وعليهم أن يتعاملوا بها إلى يوم الدين.

١- السلام نهاية كل صلاة : فالمسلم الذى يؤدى خمس فرائض فى اليوم بواقع سبع عشرة ركعة، ينهى كل صلاة بقوله : السلام عليكم ورحمة الله، مرة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال، أى عشر مرات فى الصلاة المكتوبة واثنتى عشرة مرة فى صلاة السُنة، مما يجعل المسلم العابد فى صلاته يستشعر السلام حقيقة فى سلوكه ومعاملاته كافة، وهى تربية يحرص الإسلام على غرسها فى النفوس لتكون متصالحة مع ذاتها أولاً وسواها من المخلوقات ثانيًا؛ وبهذا كان لفظ السلام جزءا من عبادة المؤمن فى الصلاة، وجزءاً من ترتيله لكتاب الله سبحانه.

٢- السلام تحية الإسلام الخاصة : لكل أُمة من الأمم تحيتها الخاصة مثل صباح الخير، ومساء الخير، وتصبحون على خير، ونهار سعيد، وليلة سعيدة إلى ما هناك من ألفاظ التحية التى تتعامل بها الأمم والشعوب على اختلاف لغاتها.. ولكن المسلمين يمتازون عن سواهم من الأمم بتحية الإسلام المعروفة وهى «السلام عليكم» يقولها الراكب للماشى، والواقف للجالس، والصغير للكبير والقادم للماكث، والراحل للمقيم، يقولونها فى الأسواق والبيوت والمتاجر والمكاتب والمصانع والمعامل وفى كل موقع من مواقع الحياة. فعن أبى يوسف عبدالله بن سلام قال : سمعت الرسول ﷺ يقول : «**يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وَصِلُوا الأرحام وصَلّوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام**».(٧) فقد قدم الرسول ﷺ إفشاء السلام على ما عداه من القضايا مثل، إطعام الطعام وصلة الأرحام، وربطه بدخول الجنة.

ويكون إفشاء السلام على من تعرف ومن لا تعرف، فقد ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رجلاً سأل الرسول ﷺ: **أى الإسلام خير؟** قال : **(تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف)**(٨)، ولهذا

ينصح الرسول ﷺ المسلمين بإفشاء السلام إن أرادوا دخول الجنة، فعن أبى هريرة رضي الله عنه، عن الرسول ﷺ قال: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**».(٩) لأن إفشاء السلام هو المقدمة الطبيعية للإيمان والمحبة وهما السبب فى دخول الجنة.

٣- **السلام مفتاح الدخول إلى البيوت** : قال تعالى : ﴿**فإذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركةً طيبةً**﴾(١٠) ، وقال ﷺ فيما يرويه أنس رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله : «**يا بنى، إذا دخلت على أهلك، فسلّم؛ يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك**»(١١). وهذا أدب رفيع يؤدب به الرسول ﷺ أمته ويعلمها كيف تتصرف مع الذات والآخرين سواء كانوا من الأقارب أم الأجانب.

٤- **السلام علامة توقير واحترام** : فعن شيبة الحجبى عن عمه، قال: قال ﷺ : «**ثلاث يصفين لك ود أخيك : تُسلّم عليه إذا لقيته، وتوسع له فى المجلس، وتدعوه بأحبّ الأسماء إليه**».(١٢) فقد جعل الرسول من إفشاء السلام مدخلا للوصول إلى مودة الأخ وكسب صداقته.

٥- **السلام تحية الله لعباده يوم القيامة** : فالله - سبحانه - يستقبل عباده المؤمنين الداخلين جنته بالسلام يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿**تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعدّ لهم أجراً كريماً**﴾(١٣).

٦- **السلام على جميع الناس** : فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : (من سلّم عليك من خلق الله فاردد عليه، وإن كان مجوسياً، ذلك بأن الله - تعالى - يقول: ﴿**فحيوا بأحسن منها أو ردوها**﴾)(١٤).

ولقد حرص المسلمون على هذه التحية العبادية، وعَدُّوها من القربات، فعن الطفيل بن أُبي بن كعب أنه كان يأتى عبدالله بن عمر فيغدو معه إلى السوق، قال: فإذا غدونا إلى السوق لم يمرّ عبدالله على سقاط ولا صاحب بيعة ولا مسكن ولا أحد إلا سَلّم عليه، قال الطفيل: فجئت عبد الله بن عمر يومًا

فاستتبعنى إلى السوق، فقلت له : ما تصنع بالسوق وأنت لا تقف على البيع، ولا تسأل عن السلع، ولا تسوم بها، ولا تجلس فى مجالس السوق؟ فقال : إنما نغدو إلى السوق من أجل السلام، نسلّم على من لقيناه[١٥].

رد السلام : إذا كان السلام أمرًا محبباً فإن الجواب عليه واجب يصل إلى مرتبة الفريضة، ويكون رد التحية بأحسن منها عملاً بقوله تعالى : **﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شىء حسيباً﴾**[١٦] فإذا قال لك أحدهم: السلام عليكم، (فقل: وعليكم السلام ورحمة الله، فإن قال لك أحدهم: السلام عليكم، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وبهذا يكون رد التحية بأفضل منها، أما ردها فيكون بالتماثل دون زيادة، ولا يجوز اتهام الشخص الذى يلقى السلام بعدم الإيمان، فقد قال تعالى فى هذا الصدد : **﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾**[١٧].

نصل بهذا إلى القول أن السلام مفردة رئيسة من مفردات الإسلام وقاعدة أصيلة من قواعده، سلوكًا وتربية وعبادة، ولهذا وجدنا كثيرًا من المسلمين الذكور يتسمون بـ «عبدالسلام»، وكثيرًا من النساء يحملن اسم «سلام» تيمناً بهذا الشعار الإسلامى الخالد.

الإسلام تاريخ سلام:

فى مناهجنا التعليمية كثير من التجنى على تاريخنا الإسلامى وبخاصة كتب التربية الدينية والتاريخ، فقد صممت هذه المناهج فى عهد الاستعمار: البريطانى والفرنسى والإيطالى.... لتخدم أهداف الغرب التوسعية، وتهمه الباطلة ضد الإسلام والمسلمين، وذلك حين جعلت من التاريخ الإسلامى سلسلة ممتدة من الغزوات والمعارك المتتابعة التى لم تهدأ؛ لتصل إلى القول بأن الإسلام قد قام بحد السيف، شأنه شأن غيره من الديانات السابقة[١٨].

ولدفع هذه التهمة لابد من قراءة تاريخ الإسلام ابتداء من نزول الوحى، وحتى وفاة صاحب الرسالة.

(ب) **بداية الدعوة :** كانت الدعوة الإسلامية منذ بدايتها سلمية قائمة على العقل، وليس أدل على ذلك من مخاطبة الوحى للرسول بقوله **﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الإنسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الإنسان ما لم يعلم﴾**[١٩] فلم تكن الدعوة عُنفيّة، بل دعوة حكيمة تستند إلى الفكر والإقناع، قال تعالى : **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾**[٢٠] فالدعوة موصوفة بالحكمة، والموعظة موصوفة بالحسنة، وهكذا كانت طوال ثلاثة عشر عاما فى مكة قبل الهجرة، وعشرة بعدها.

ولقد تَحَمَّل المسلمون من صنوف العذاب الشىء الكثير، مما ألجأهم إلى الهجرة مرتين، فراراً من عذاب قريش. ولم يسلم صاحب الدعوة من هذا العذاب، وتذكر كتب السيرة أنه ذهب إلى الطائف فتلقته ثقيف بالسخرية والاستهزاء، وجعل الصبية يحصبون الرسول ويسبّونه مما اضطره إلى الاحتماء ببستان، جلس فيه وأخذ ينادى ربه بهذا الدعاء : «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى، أم عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بى غضبك، أو يحلّ علىّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك**»[٢١].

لقد كان فى إمكان الرسول ﷺ أن يدعو عليهم، ولكنه لم يفعل، بل كان دعاؤه دائماً : «**اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون**».

(ب) **الهجرة :** عندما نزل الرسول بالمدينة وقَّع مع أهلها معاهدة سميت صحيفة المدينة، وهى أول وثيقة «دستورية» تحدد العلاقات بين الناس على أساس متساو، فقد ورد فيها : «**بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم**

فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أُمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين... وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ظلم أو أثم، أن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم... وأن يهود بنى عوف أُمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف... وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم... وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس، غير مضار ولا آثم»(٢٢).

فقد عَدَّت هذه الصحيفة الناس (أمة واحدة) داخل المدينة بغض النظر عن كل اعتبارات اللغة واللون والدين، وهذه الوثيقة تسبق إعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان بأربعة عشر قرنا، وتدل على ما للإنسان من كرامة عند هذا الدين الذى أرسله الله رحمة للإنسان وسلاما.

(جـ) **صلح الحديبية** : أراد الرسول ﷺ أن يحج إلى الكعبة قبل فتح مكة فمنعته قريش، وكان هناك صلح بين الطرفين، وردت فيه عبارات عَدَّها بعض المسلمين مذلة، وكان عمر بن الخطاب ضمن المنتقدين لهذا الصلح، فقد نصت إحدى فقراته على أنه من جاء من المسلمين إلى قريش فلا ترده قريش إلى المسلمين، بينما يرد المسلمون من يأتيهم من قريش مسلما، فقد أقر الرسول المعاهدة واحترمها وعمل بما فيها؛ حَقْنًا لدماء القرشيين والمسلمين معا؛ ولأن صون حياة الإنسان مقدمة فى الإسلام على ما سواها من الأمور(٢٣).

(د) **فتح مكة** : عندما نقض القرشيون صلح الحديبية، قرر الرسول أن يفتحها... ولكن سلما بدون قتال، وهكذا كان، فعندما فوجئ القرشيون بالجيش الإسلامى ورأوا ما فعلوه بالمسلمين من قتل وحرق وتعذيب وتجويع ومصادرة أموال، ظنوا أنهم هالكون، وبخاصة عندما سمعوا سعد بن عبادة «حامل راية

الأنصار» يقول : (اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذلّ الله قريشًا)[٢٤] فى هذا الموقف الرهيب لم يشأ الرسول أن يتركهم طويلاً تحت وطأة هذه المشاعر المذلة، فاستقبل وجوههم فى تسامح وأناة وقال لهم : «**يا معشر قريش ماذا ترون أنى فاعل بكم؟**» فتقدم خصم الإسلام بالأمس (سهيل بن عمرو) وقال : خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم، فرد النبى قائلاً : «**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لى ولكم، اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[٢٥] وكان الرسول قد قال لسعد عندما سمعه يقول: اليوم يوم الملحمة : «**لا يا سعد بل هو يوم المرحمة واليوم أعز الله قريشا**». أى بالإسلام، وقد ترتب على هذا العفو إسلام أهل مكة وخروجهم مع الرسول ﷺ لحرب هوازن فى غزوة حنين[٢٦]. إن الانتقام ليس من سلوك المسلمين، بل العفو، وهذا ما أراد الرسول القائد أن يعلم أصحابه وأمته فى حياته، ومن بعده حتى يقتدوا به، وهذا ما حصل فى فتح القدس أيام عمر بن الخطاب حين دخلها سلما، ووقّع مع أهلها ما عُرف بالعُهدة العمرية التى مازالت بنودها محترمة حتى يومنا هذا بين المسلمين والمسيحيين من مختلف الطوائف.

(هـ) **فتح سمرقند** : فى ولاية عمر بن عبدالعزيز وفد عليه قوم من أهل سمرقند، ورفعوا إليه أن قائده قتيبة بن مسلم الباهلى قد دخل مدينتهم وأسكن المسلمين فيها بغير حق - أى بغتة دون إنذار - فكتب عمر إلى عامله هناك أن ينصّب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا، فنصّب لهم القاضى (جميع بن حاضر الباجى) يحكم بينهم، فحكم القاضى (المسلم) بإخراج المسلمين من سمرقند[٢٧].

وإن المرء ليتساءل، هل يمكن لجيش أن يغادر مدينة قد احتلها بقرار من القاضى، وهل حدث هذا فى التاريخ؟ والجواب موثق عندنا، فى تاريخنا، ليدل على أن هذا الدين يبتغى سلام الناس جميعاً، ولا يحب العدوان والمعتدين، ولعل هذه الحادثة هى الوحيدة التى حدثت فى تاريخ البشرية كله.

(و) **فتح القدس الصلاحى** : حين احتل الفرنجة القدس أعملوا فى أهلها السيف، فقتلوا ما يزيد على سبعين ألف شخص، وحين استعادها صلاح الدين من

أيديهم، لم يشأ أن يعاملهم بالمثل، ورفض أن يذبحهم مثلما فعلوا، بل اكتفى بفدية لمن قدر على دفعها، وعامل الضعفاء من الشيوخ والنساء والأطفال معاملة كريمة: أعطى الأمان لمن بقى منهم فى القدس، وكانوا يزيدون على ألف شخص، وسمح للباقين أن يخرجوا بأموالهم وجواهرهم دون أن يلحق بهم أذى، وحماهم طوال طريقهم من أى عدوان عليهم حتي من قطّاع الطرق(٢٨).

فالإسلام لا يعرف لغة الدم، ولا لغة الانتقام، وما صلاح الدين الأيوبى وعمر ابن عبدالعزيز وعمر بن الخطاب سوى تلامذة مقلدين يسيرون على هدى رسولنا الكريم محمد ﷺ فى هذا الطريق.

الإسلام وسلام الزمان : اقتطع الإسلام ثلث الدهر ليجعل منه وقت سلام يأمن فيه الناس على أموالهم وأنفسهم، فكانت الأشهر الحرم الأربعة من كل عام وهي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، قال تعالى : **﴿إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾**(٢٩).

الإسلام وسلام المكان : كما منع الإسلام القتال فى أشهر معينة من الزمن (السنة) فقد عين مكانين لا يجوز القتال فيهما، ولا يجوز حمل السلاح لثأر أو سواه، ولا يقطع فيهما شجر ولا يروع صيد، وهذان المكانان هما : مكة المكرمة والمدينة بدائرة يصل قطرها إلى ثمانية وعشرين ميلاً، إذ اعتبر الإسلام الحرم المكى والحرم المدنى مكانين للعبادة مُخصصّين لها لا يجوز فيهما قتال أو إحداث شرّ مهما كان نوعه، وفى هذا يقول الرسول ﷺ : **«إنى حرَمت ما بين لابتى المدينة كما حرم إبراهيم مكة، فكان أحدنا يجد الطير فى يده فيفكه ويرسله»**(٣٠).

هذا هو الإسلام، يعتنى بالإنسان؛ فيوفر له المكان الآمن الذى يحرّم فيه القتال، ويوفر له الزمان الآمن الذى لا يجوز فيه قتال، فأين نجد سلاماً إن لم نجده فى دين الله!

الإسلام دين الرحمة :

الرحمة هى إرادة إيصال الخير، وهى اللطف والإحسان؛ أى التخلص من كل آفة أو نزعة تدفع الإنسان إلى الشر فمساعدة الضعيف رحمة ومد يد العون إلى المحتاج رحمة وتخفيف آلام الناس رحمة[٣١] وقد ذكرت كلمة الرحمة تسعا وسبعين مرة فى القرآن الكريم[٣٢] وقد توزعت مفردات الرحمة على العناوين الآتية:

(أ) **الرسول رحمة** : قال تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**[٣٣] وليس هناك أبلغ من جعل الصفة علماً للرسول بحيث يصبح الموصوف والصفة واحداً.

(ب) **الرسالة رحمة** : فالقرآن الكريم رحمة أيضا، يقول تعالى: **﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾**[٣٤] فالتشريع الإسلامى تشريع رحيم.

(جـ) **الله سبحانه هو الرحمن الرحيم** : والرحمن والرحيم صفتان من صفات الله أو اسمان من أسمائه الحسنى، وكلمة الرحمن والرحيم تذكران فى بداية كل سورة من سور القرآن الكريم بواقع ١١٣ مرة عند البسملة، حيث إن عدد سور القرآن الكريم (١١٤) سورة تبدأ كل واحدة منها ببسم الله الرحمن الرحيم باستثناء سورة (التوبة)، والمسلم يسمّى باسم الله الرحمن الرحيم عندما يأكل وعندما يشرب، وعندما يقوم بأى عمل من أعمال الحياة اليومية؛ لتظل الرحمة جزءاً من سلوكه ومن وعيه.

(د) **الرحمة فى العلاقة بين الزوجين** : فقد جعل القرآن الكريم العلاقة القائمة بين قطبى الأسرة: الرجل والمرأة قائمة على الرحمة، لا على أى شىء آخر، قال تعالى : **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾**[٣٥].

(هـ) **الرحمة فى العبادات** : الرحمة هى وصية عباد الله - سبحانه - بعضهم لبعض؛ حيث مدحهم الله بقوله : **﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾**[٣٦] وقد خفف الله - سبحانه - على الناس فى عباداتهم، كل حسب

طاقته، قال تعالى: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾[٣٧]، فالمريض له ألا يصوم ويباح له أن يصلى جالساً حسب مقدرته، والمسافر يقصر الصلاة وهكذا، والإمام فى المسجد عليه أن يحسب حساب الكبير والضعيف. فعن قتادة بن الحارث قال: قال رسول الله ﷺ : «**إنى لأقوم إلى الصلاة وأُريد أن أطيل فيها فأسمع بكاء الصبى فأتجوّز (أتخفف) فى صلاتى كراهية أن أشق على أمّه**».[٣٨]، وقد روى الإمام أحمد بسنده إلى عبدالرحمن بن جبير عن عمرو بن العاص أنه قال لما بعثه النبى ﷺ عام ذات السلاسل قال: «احتلمت فى ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابى صلاة الصبح، قال: فلما قدمنا على الرسول ﷺ ذكرت ذلك له. قال : يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب!؟ قلت : يا رسول الله إنى احتلمت فى ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله تعالى : ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً**﴾، فتيممت ثم صليت بأصحابى. فضحك الرسول ﷺ ولم يقل شيئا»[٣٩]، وقد شكا رجل للرسول معاذَ بن جبل وقال: إنه يطيل فى الصلاة، فقال النبى لمعاذ: «يا معاذ أفتان أنت؟ (أو أفاتن أنت؟) ثلاث مرات... فإنه يصلى وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة»[٤٠].

(و) **الرحمة بالمشرك** : الرحمة عامة لا خاصة، فهى ليست مقصورة على المسلمين بل تتعداهم إلى غير المسلمين، وفى هذا يقول الله سبحانه : ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه**﴾[٤١] فإجارة المشرك من باب الرحمة، وإبلاغه مأمنه من أبواب الإحسان، وهى قضية تستوقف الإنسان طويلاً، إذ لا يكفى أن تجير المشرك، بل عليك أن تساعده حتى يصل إلى مكان آمن، فأية رحمة أوسع من هذه؟ وقد روت أسماء بنت أبى بكر (رضى الله عنهما) قالت : قدمت أمى (وهى مشركة) فى عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت الرسول ﷺ فقلت: «**يا رسول الله، إن أمى قد قدمت وهى راغبة، أفأصلها؟ قال: نعم صلى أمك**»[٤٢] فالإسلام الذى اعتبر الانتساب إليه هو النسب الصحيح، لم يلغ حق الوالدين فى الصلة حتى ولو كانا على الشرك.

(ز) **الرحمة بالحيوان :** إن رحمة الإسلام شاملة تنساح على الكون كله بحيث تشمل البر والجو والبحر، فكل من تعدّى على هذه المخلوقات كان من المفسدين المخربين، فقد خلق الله - سبحانه - هذا الكون متوازناً، ودعانا إلى إعماره لا إلى تخريبه، فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : «**إن رجلاً أضجع شاة وهو يحدّ شفرته، فقال له النبى ﷺ: أتريد أن تميتها مرتين؟! هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها**»(٤٣)؟! فقد احتج الرسول على فعلة الرجل؛ لأنه آذى الشاة بإضجاعها وحد شفرته (مع أنها حيوان لا يعقل، ومع أن ذبحها حلال)، ولكنه الإسلام الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا عالجها.

وعن ابن مسعود قال : «**كنا مع رسول الله ﷺ فانطلق لحاجته، فرأينا حُمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمّرة تعرش، فجاء النبى ﷺ فقال : من فجع هذه بولديها؟! ردّوا إليها ولديها... ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال : من حرق هذه؟ قلنا : نحن، قال : إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار**»(٤٤).

وما يقال عن الحيوان يقال عن النبات وكل ما ينتفع الإنسان به، فعن يحيى ابن سعيد أن أبا بكر رضي الله عنه بعث جيوشاً إلى الشام فخرج يمشى مع يزيد بن أبى سفيان، فقال له يوصيه : «إنى موصيك بعشر خلال، لا تقتل امرأة ولا صبيا ولا كبيراً هرماً، ولا تقطع شجرا مثمراً، ولا تخرّب عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكله، ولا تعقرن نخلاً ولا تحرقه، ولا تغلل (تسرق) ولا تأخذ غير حقك»(٤٥).

من هنا يمكن الاطمئنان إلى القول، بأن الذين يلوّثون البحار، ويقطعون الأشجار، ويلوّثون الجو، ويتسببون فى كل ما يلحق كوكبنا الأرضى من خراب، إنما هم مفسدون مخرّبون آثمون، وأن الإسلام يقف ضد هذاالتخريب المبرمج الذى لايأتى من ورائه إلا الدمار لكل الجنس البشرى الذى كرّمه الله، وجعل كل هذه المخلوقات من أجله.

(حـ) **الرحمة بالرعية :** من استرعاه الله رعية وجب عليه أن يكون لها كالأبوين فى الأسرة يقدمان للأبناء كل ما يحتاجون، من عطف وحنان وتربية،

وكلما ارتفعت مرتبة الراعى كلما زادت مسئولياته، فالحاكم هو أعلى الناس وأكثرهم حملاً فى الوقت نفسه، وقد عرفنا من سيرة الرسول ﷺ ومن سيرة سلفه الصالح أنهم كانوا دائمى البحث عن الفقراء وذوى الحاجات، وأنهم كانوا رحماء بالرعية رحمتهم بأطفالهم وأبناء أسرهم، لأن رابطة الإسلام فوق كل الروابط، فعن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - عن الرسول ﷺ أنه قال : **«اللهم من ولى من أمر أمتى شيئًا فشَقَّ عليهم، فشُقَّ عليه، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به»**(٤٦) فالله سبحانه وتعالى **«رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يعطى على سواه»**(٤٧) كما ورد فى الحديث الذى رواه مسلم عن عائشة.

ومن رحمة الراعى بالرعية أن يعدل، ولو كان بين ذى قرابة وخصم، ومن رحمة الراعى بالرعية ألا يميز بين عربى وعجمى، فالناس جميعهم أبناء أب واحد وأم واحدة، ولهذا يقف الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ونيف ضد التمييز العنصرى الذى ما زال متبعاً حتى الآن وبخاصة فى فلسطين والولايات المتحدة وكثير من بلدان العالم الفقيرة، ولا شك أن الصهيونية واليهودية تقف على رأس مؤسسى العنصرية بزعمهم أن الله تدخل لأجلهم دون غيرهم من البشر، ليكونوا شعب الله المختار، أما الآخرون الذين يختلفون عنهم فى الدم واللغة، فهم مرفوضون من الله عز وجل.(٤٨) وقد تناول الغرب هذه الفكرة وحوّرها إلى ما عُرف بالدم النقى أو الجنس الأبيض المتفوق، الذى تحدث عنه (فريزر) وعزاه إلى التفوق التكنولوجى، وعصر الاختراع المتزامن مع عصر الاكتشافات والاستعمار الأوروبى لأمريكا وآسيا وآفريقيا، حيث شعروا بأن تفوقهم التكنولوجى يفترض فيه أن يكون نتاجًا لتفوقهم الفكرى.(٤٩).. وإننا لا نعجب حين نجد زعيم الولايات المتحدة الأمريكية البارز (أبراهام لنكولن) الموصوف بأنه محرر العبيد يقول فى سبتمبر عام ١٩٥٨ فى شارلستون بالينوى ما نصه : إننى لا أدعم، ولم أكن أدعم يوماً إحداث مساواة اجتماعية وسياسية بين الجنسين: الأبيض والأسود، كما إننى لا أدعم ولن أدعم فكرة وجود ناخبين أو قضاة من السود، ولا أدعم التزاوج بين السود والبيض. وسأقول إضافة إلى هذا، إنه يوجد

فرق طبيعى Physical بين الجنسين الأبيض والأسود، ولن تنجح (كما اعتُقِدَ) فكرة عيش الجنسين معاً على أساس المساواة الاجتماعية والسياسية، وبما أنهما لا يستطيعان العيش فى ظروف المساواة (مع أنهما يلتقيان معاً) فلابد من وجود الأعلى والأدنى، وإنى كأى إنسان آخر، أقف مع اعتبارات تَفَوُّق الجنس الأبيض»[٥٠] فقد اعتبر لنكولن البشر جنسين : أبيض وأسود، مع أنهما يعيشان فى مجتمع أمريكى واحد. فى الوقت الذى قال القرآن فيه قبل أربعة عشر قرنًا: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[٥١] فاعتبر البشرية كلها جنساً واحداً يتفاضلون بالتقوى. وفى مقابل هذا المثال الغربى يذكر (ابن سويد) أنه دخل مع جماعة من أصحابه على أبى ذر الغفارى رضي الله عنه فى الربذة، فإذا عليه برد وعلى خادمه مثله، فقيل له : يا أبا ذر، لو أخذت برد غلامك إلى بردك كانت حلّة، وكسوته ثوبًا غيره؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليكسه مما يكتسى، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه**»[٥٢].

فأين هذا الكلام من كلام لنكولن؟ وأين هو مما نشاهد اليوم من ابتعاد الشقة بين الولاة وشعوبهم؟ وأين هو الخطاب الرسمى الحكومى الذى يردّ عن الإسلام التهم والأباطيل، ويقدمه للناس كما خرج من منابعه الأصلية؟ مطلوب من الخطاب الرسمى العربى والإسلامى أن يرقى وأن يصل على الأقل إلى مستوى من الإعداد والعناية اللذين تقوم بهما هذه الدول فى إعداد السياسيين والدبلوماسيين من اختيار الصفوة من المفكرين أصحاب الرأى حتى نكون جديرين بقول الله: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾**[٥٣] صدق الله العظيم

الهامش :

(١) أ. د. عبدالصبور مرزوق، الإسلام، موسوعة المفاهيم الإسلامية القاهرة ٢٠٠٠ ص : ٥٢، ٥٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٨٥.

(٣) سورة الحشر، الآية ٢٣.

(٤) سورة يونس، الآية ٢٥.

(٥) سورة البقرة، الآية ٢٠٨.

(٦) متفق عليه، رياض الصالحين، ص : ٣٥٦.

(٧) رواه الترمذى، وقال: حديث حسن صحيح. رياض الصالحين، ص: ٣٥٦.

(٨) صفوة صحيح البخارى جـ ٤ ، ص : ١٩٦.

(٩) رياض الصالحين، ص : ٣٥٦.

(١٠) سورة النور، آية ٦١.

(١١) رياض الصالحين، ص ٣٦.

(١٢) رواه الطبرانى، الترغيب والترهيب، جـ ٢، ص ١٧٦.

(١٣) سورة الأحزاب، الآية ٤٤.

(١٤) تفسير ابن كثير، جـ ١ ، ص ٥٣١، ٥٣٢.

(١٥) رواه مالك فى الموطأ، رياض الصالحين ص : ٣٥٧.

(١٦) سورة النساء آية ٨٦.

(١٧) سورة النساء آية ٩٤.

(١٨) انظر : د. عبدالرحمن عبّاد، اللا عنف فى الإسلام، القدس (١٩٩٦).

(١٩) سورة العلق الآيات ١-٥.

(٢٠) سورة النحل الآية ١٢٥.

(٢١) السيرة النبوية لابن هشام، جـ ٢ دار الجيل، بيروت، ص : ٤٨.

(٢٢) سيرة ابن هشام جـ ٢، ص : ١٠٦ - ١٠٨.

(٢٣) د. خلفى خنفر، تاريخ الدعوة فى حياة الرسول ط : ١ ١٩٨٥ ص ٢٧٩، ٣١٠

(٢٤) أ. د. براهيم أحمد العدوى، فتح مكة، موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة القاهرة ٢٠٠٠، ص ٤٢١، ٤٢٢.

(٢٥) خالد محمد خالد، رجال حول الرسول ص : ٢١٨ ، ٢١٩.

(٢٦) السيرة لابن هشام جـ ٤ ص : ٨٧٠.

(٢٧) د. عبدالرؤوف شلبى، الإسلام وخرافة السيف، مؤسسة الخليج العربى القاهرة ط : ٢، ١٩٩٠ ص : ١٣٠.

(٢٨) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص : ٣٢٩.

(٢٩) سورة التوبة، الآية ٣٦.

(٣٠) الإمام المبارك محمد بن الأثير الجرزى، جامع الأصول فى أحاديث الرسول، جـ ٩ مكتبة الحلوانى، القاهرة ١٩٧٢ ص ٣١٢.

(٣١) لسان العرب لابن منظور مادة (رحم).

(٣٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضع محمد فؤاد عبدالباقى مادة (رحم).

(٣٣) سورة الأنبياء آية ١٠٧.

(٣٤) سورة النحل آية ٨٩.

(٣٥) سورة الروم آية ٢١ .

(٣٦) سورة البلد آية ١٧ .

(٣٧) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٣٨) رياض الصالحين ص ١٢٣ .

(٣٩) تفسير ابن كثير جـ ١ ص : ٤٨٠ .

(٤٠) الكرماني على البخاري جـ ٥ ص : ٨٤.

(٤١) سورة التوبة الآية ٦.

(٤٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ، ص ٣٤٩.

(٤٣) الترغيب والترهيب جـ ٣ ، ص ٤٨٧ .

(٤٤) المصدر السابق ص : ٤٨٨ .

(٤٥) نيل الأوطار للشوكاني جـ ٧ ص : ٢٦٣ .

(٤٦) رياض الصالحين ص ٢٩١.

(٤٧) المصدر نفسه ص ٢٨٢ .

(٤٨) د. دياب عبوش، مشكلات التمييز العنصري، المؤتمر السادس للتراث العربي، القدس، آب ١٩٨٨ ص ١٢٦ .

(٤٩) المصدر السابق، ص ١٢٩ .

(٥٠) A.B. Lapsly (Ed) The Writing of Abraham lincolin Vol, 4 pp 1. 3. A. P. Plaustein And .L. Zangrando (Ed) Civil Rights.

(٥١) سورة الحجرات آية ١٣.

(٥٢) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٤٩٦ .

(٥٣) سورة آل عمران آية ١٠٤ .

الإسلام دين رحمة وسلام

الأستاذ الدكتور / أبو بكر دكوري

المشرف العام للاتحاد الإسلامي

بوركينا فاسو

إن الأديان فى العادة تنسب إلى أسماء الأشخاص، كالمسيحية مثلا نسبة إلى المسيح عليه السلام، وكالبوذية نسبة إلى اسم مؤسسها بوذا، أو تنسب إلى أمة معينة ظهرت وترعرعت بين ظهرانيها، كاليهودية مثلا فإنها ـ فى أحد الآراء ـ ظهرت وترعرعت بين قبيلة تعرف بيهوذا فسميت باليهودية(١).

أما الإسلام فإنه لا ينسب إلى رجل خاص، ولا أمة بعينها، أو منطقة من المناطق وإنما يدل اسمه على صفة خاصة تضمنها هذا الدين، لأن الإسلام مشتق من مادة (سَلَم) ومن معانيه فى اللغة العربية الصلح والأمان(٢). مما يدل على أن الإسلام يعتمد على الصلح فى حل جميع المشكلات لا على الحرب يؤيده قوله تعالى: **﴿وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾**(٣).

يرى الإسلام أن السلم هو الأصل فى العلاقة بين الناس، وأن الحرب ليست إلا علاجا لمشكلة لم ينفع فى حلها كل الوسائل الأخرى، وأنها إذا وقعت وجنح أحد الطرفين إلى السلم وجبت تلبيته حقنا للدماء.

ولم يكتف الإسلام باشتقاق اسمه من السلام للدلالة على اهتمامه بالسلام وحرصه على تحقيقه لجميع أفراد المجتمع البشرى، بل إنه دعا الناس إليه حيث قال تعالى: **﴿يا أيها الناس ادخلوا فِى السلمِ كافة﴾**(٤).

فهذا أمر إلزامى بوجوب دخول الجميع فى السلم والتزام تحقيقه فى المجتمع، ومن النصوص الشرعية فى هذا الموضوع:

١ - الإسلام قد حرم الظلم بجميع أنواعه، فقال تعالى: **﴿ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيراً﴾**[٥]. ويقول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : **«يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا»**[٦]. ويقول ﷺ فى حديث آخر: **«إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام»**[٧]. والأدلة التى تدل على تحريم الظلم بجميع أنواعه وأشكاله كثيرة جدا، ولا شك أن الفتنة بين الناس - أفرادا وجماعات ودولا - مصدرها الأساسى البغى والعدوان من طرف ما فإذا امتنع كل واحد من الظلم وكف أذاه عن غيره ساد السلام وحل الأمان.

٢ - المساواة بين الناس وعدم التمييز فى الكرامة وفى الحقوق الأساسية ما بين إنسان وآخر بسبب الجنس أو اللون أو المال، يقول الله تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[٨]. ويقول تعالى فى آية أخرى: **﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾**.[٩] ويقول ﷺ : **«كلكم من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى»**[١٠].

ويقول فى حديث آخر: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**[١١]. ويقول فى حديث آخر: **«إنما النساء شقائق الرجال»**[١٢].

فكل هذه الأدلة من نصوص القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف تدل على أن التفاضل لا يكون على أساس من الجنس أو اللون أو المال أو النسب، فلا يجوز لأحد أن يترفع على غيره بسبب واحد من هذه الأمور، بل يجب أن يكون أساس العلاقة بين الناس الاحترام المتبادل الذى يستند إلى الكرامة الإنسانية التى أثبتها الله تعالى فى قوله: **﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾**[١٣].

٣ - العدل فى التعامل مع الغير وإن كان عدوا، فينبغى ألا يحملنا الحقد والعداوة على عدم إنصافه، يقول الله تعالى: **﴿يا أيها الناس كونوا قوَّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾**[١٤].

٤ - حق كل إنسان فى حرية الاعتقاد والتدين وعدم جواز الإكراه على الدخول فى الدين، وأن ذلك يعتبر اعتداء على حرية العقيدة يقول تعالى: **﴿لا إكراه فى الدين**

قد تبين الرشد من الغى﴾[١٥]. وقال تعالى فى آية أخرى: **﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾**[١٦]. وقال فى آية أخرى: **﴿فذكر إنما أنت مذكر • لست عليهم بمصيطر﴾**[١٧].

فهذه الآيات القرآنية رسمت منهج الإسلام فى الدعوة إلى عقيدته، وبينت وظيفة الرسول ﷺ - وكل الدعاة من بعده - بأنها التبليغ والتذكير والبيان دون الإكراه والسيطرة والتجبر، ويؤيده ما رواه أئمة التفسير فى سبب نزول قوله تعالى: **﴿لا إكراه فى الدين﴾** فقد رووا أنه كان لبنى النضير - وهم طائفة من يهود المدينة - أولاد من أبناء الصحابة ربوهم وهودوهم فلما تقرر هجرتهم من المدينة أراد المسلمون أن يأخذوا أبناءهم ويكرهونهم على الدخول فى الإسلام فنزل قوله تعالى: **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾** فقال النبى ﷺ: **«قد خير أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم وإن اختاروهم فهم منهم»**[١٨].

وهذا رد على من يزعم بأن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف وقوة السلاح، وهذا الزعم لا دليل عليه؛ لأن التاريخ الإسلامى لم يذكر لنا واقعة واحدة أكره المسلمون فيها أحدا على الدخول فى الإسلام، بل إن هذا الإكراه ضد طبيعة الإسلام الذى لا يقبل القول باللسان فقط بل يشترط الاعتقاد بالقلب كذلك حتى يكون الإسلام مقبولا قال تعالى: **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾**[١٩].

ومعلوم أن غاية ما يفيده الإكراه هو النطق بالشهادة، والإقرار باللسان مع رفضه بالقلب، وهذا لا يكفى فى دخول الإنسان فى الدين، لذلك كان منهج الإسلام فى دعوة للناس يعتمد على الاقتناع القائم على الحجة والدليل دون الإكراه على قبول العقيدة، قال تعالى: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾**[٢٠] وقال فى آية أخرى : **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن﴾**[٢١] وقال تعالى أيضا : **﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾**[٢٢].

٥ - إن الإسلام يأمر أتباعه ببر المخالفين لهم فى العقيدة، والعدل معهم ماداموا لا يشهرون السلاح فى وجوههم ولا يحملون السيف عليهم، قال تعالى: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾**[٢٣].

٦ ـ الدعوة إلى التعاون بين جميع الشعوب على ما فيه الخير والمصلحة العامة وتقديم جميع أنواع البر إلى جميع بنى الإنسان، وكذلك التعاون على كف الأذى ودفع الشر عنهم يقول الله تعالى: **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾**(٢٤).

٧ ـ حث الإسلام على التسامح والتجاوز، والتنازل عن الحق؛ لنزع فتيل الفتنة والخلاف، لأن الانتقام كثيرا ما يؤدى إلى استمرار الأحقاد والضغائن وتوسيع شقة الخلاف والنزاع لتشمل الآخرين من الأقارب والأصدقاء يقول الله تعالى: **﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم • وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾**(٢٥).

وقوله تعالى: **﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم﴾**(٢٦). وقوله تعالى: **﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾**(٢٧). وقوله تعالى فى آية أخرى: **﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾**(٢٨). وقوله ﷺ: **«ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»**(٢٩).

٨ ـ التكافل فيما بين أبناء المجتمع فى حق كل إنسان بالحياة الكريمة، وتخليصه من الفقر والجهل والمرض، وذلك بفرض حق معلوم فى أموال القادرين ليصرف لذوى الحاجات على اختلاف حاجاتهم عملا بقوله تعالى فى المؤمنين: **﴿والذين فى أموالهم حق معلوم • للسائل والمحروم﴾**(٣٠). وقوله فى آية أخرى: **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾**(٣١). وقوله تعالى: **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾**(٣٢).

وقوله ﷺ فى وصيته لمعاذ عندما بعثه إلى اليمن: **«فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم»**(٣٣).

ولا شك أن فى الاهتمام بالمحرومين ومواساة المحتاجين إسهاماً فى استتباب الأمن والسلام فى المجتمع؛ إذ بدون ذلك فإن هؤلاء البؤساء والمحرومين سيحسدون الأغنياء ويحقدون عليهم، ويتآمرون للقضاء عليهم وعلى مصالحهم فتحصل الفوضى ويستمر النزاع الطبقى بين الناس.

٩ ـ عدم نقل عدوى المرض من الأماكن الموبوءة إلى الأماكن الأخرى الخالية من المرض، وكذلك عدم تعريض الإنسان نفسه لعدوى المرض، وذلك بالسفر إلى المناطق الموبوءة يقول رسول الله ﷺ: **«إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليها، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها فرارا منه»**(٣٤).

ومن هنا نعلم أن الإسلام قد سبق إلى فرض الحجر الصحى منذ أربعة عشر قرنا، وقبل أن تتنبه أية دولة حينذاك لإدخاله فى تشريعها وذلك مبالغة من الإسلام فى حماية الصحة العامة التى لا سعادة ولا سلام إلا بها.

ومن هنا نعلم أن مبدأ السلام فى الإسلام ينطلق مباشرة من عقيدة الإنسان بالإيمان بالله، ومن وجوب استسلامه لشريعة الله ضمانا للسلام على الأرض، فإن السلام فى الإسلام ملازم لعقيدة الإيمان بالله، فواجب دينى على كل من اعتنق الإسلام أن يعلم أن عليه مسؤولية ضمان السلام على الأرض؛ لأن إسلام المرء معناه خضوعه واستسلامه لشريعة الإسلام.

ونصوص الشريعة من القرآن والسنة النبوية الشريفة دعت إلى السلام مباشرة وشرعت أحكاما يلزم الامتثال بها والعمل بموجبها تحقيق السلام للناس أفرادا وجماعات ودولا.

ولم يكتف الإسلام بتلك التشريعات والأحكام ـ التى قلنا آنفا بأنها تحقق السلام والأمان للمجتمع وللعالم أجمع ـ بل إنه أشاع كلمة السلام بأن جعلها تحية خاصة به، يرددها المسلمون عدة مرات فى اليوم بقولهم لمن يعرفونه ولمن لا يعرفونه: (السلام عليكم) امتثالا لقوله ﷺ: **«أفشوا السلام بينكم»**(٣٥) وقوله حينما سئل أى الإسلام خير؟ فقال: (تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف)(٣٦).

وقد جعل الله تحية المسلمين التى تؤلف القلوب وتقوى الصلات وتربط الإنسان بأخيه الإنسان بلفظ (السلام) للإشعار بأن دينهم دين السلام والأمان وهم أهل السلم ومحبوا السلام وفى حديث أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله جعل السلام تحية لأمتنا وأمانا لأهل ذمتنا»**(٣٧).

ولا ينبغى للإنسان أن يتكلم مع إنسان قبل أن يبدأه بكلمة السلام، يقول رسول الله ﷺ: **«السلام قبل الكلام»**(٣٨). وحكمة ذلك أن السلام أمان ولا كلام إلا بعد الأمان. وكذلك تحية الله للمؤمنين عند دخول الجنة تحية سلام، يقول تعالى: **﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً﴾**(٣٩).

وكذلك تحية الملائكة للبشر فى الآخرة سلام، قال تعالى: **﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾**(٤٠). وقال تعالى: **﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾**(٤١).

وكذلك خروج المسلمين من الصلاة وانصرافهم عنها إنما يكون بقول: (السلام عليكم) ويقولون بعد ذلك: (اللهم أنت السلام ومنك السلام).

وكذلك أخبر الله بأن نزول القرآن إنما كان فى ليلة وصفها بأنها سلام، وكذلك أخبر تعالى بأن أهل الجنة لا يسمعون من القول ولا يتحدثون بلغة غير لغة السلام، يقول تعالى : **﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً • إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾**(٤٢).

وكذلك ورد فى القرآن الكريم تسمية الله باسم: (السلام) فى قوله تعالى: **﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾**(٤٣). بينما نرى بعض الديانات تنعت بعض آلهتها بأنها (آلهة حرب).

وكذلك أطلق القرآن الكريم دعوته إلى الإسلام بأنها دعوة إلى دار السلام، قال تعالى: **﴿والله يدعو إلى دار السلام)﴾**(٤٤).

وكثرة تكرار هذا اللفظ ـ السلام ـ على هذا النحو مع إحاطته بهذا الجو الدينى النفسى من شأنه أن يوقظ الحواس جميعها ويوجه الأفكار والأنظار ويشعر المسلمين بأن شريعة الإسلام إنما هى ملازمة للسلام وأنه ضرورى فى حياة الإنسان فلا يجوز أن يغيب ذلك عن بالهم لحظة واحدة، وكذلك الدعاء للناس بالسلام كما هو الحال فى التحية بكلمة (السلام) وتكرار هذه الكلمة عدة مرات فى الصلوات اليومية.

هذا ولا يمكن للباحث أن يدرك عمق ما أعطاه الإسلام لمبدأ السلام من اهتمام إلا بالرجوع إلى حالة العالم فى العصر الذى ظهر فيه الإسلام من قتال دائم على حساب حياة الإنسان وسلامه فى كل مكان كما هو الحال بين قبائل العرب فى شبه الجزيرة العربية. وكذلك الحال بين أكبر دول العالم فى ذلك الوقت بين الرومان فى الغرب والفرس فى الشرق؛ لذلك اعتبر الإسلام فقدان حالة السلام مشكلة يجب أن يعالجها؛ ليمكن بعد ذلك التفرغ لقضايا الدعوة وبناء المجتمع، فآخى بين المهاجرين والأنصار لإزالة كل الفوارق والحزازات التى تنجم بسبب اختلاف الوطن، وآخى بين الأوس والخزرج لإزالة كل المشكلات والعصبيات التى قد تنجم بسبب القبلية حتى اطمأن الرسول ﷺ إلى وحدة المسلمين بهذه المؤاخاة، وهى لاشك حكمة سياسية تدل على سلامة تقدير وبعد نظر نتبين مقدارهما حين نقف على ما كان من محاولة المنافقين الوقيعة بين

الأوس والخزرج - قبيلتين فى المدينة - وبين المهاجرين والأنصار من المسلمين لإفساد أمرهم لكن العمل السياسى الجليل حقا، والذى يدل على أعظم الاقتدار ذلك ما وصل إليه محمد ﷺ فى تحقيق وحدة يثرب - المدينة.

وكذلك وقع على اتفاقية التعاون والدفاع المشترك مع اليهود؛ حتى لا يحصل التنافر والتباغض بسبب اختلاف الدين، فتمكن بذلك من وضع نظامها السياسى والاجتماعى والدينى بالاتفاق معهم على أساس متين من الحرية والاحترام المتبادل، فقد أحسن اليهود استقباله أملا فى استدراجه إلى صفوفهم، وقد بادر هو إلى رد تحيتهم بمثلها وفى توثيق صلاته بهم فتحدث إلى رؤسائهم، وتقرب إليه كبراؤهم وربط بينه وبينهم برابطة المودة باعتبار أنهم أهل كتاب موحدون، كما أن سيرته، وعظيم تواضعه، وجميل عطفه، وحسن وفائه، وفيض بره بالفقير والبائس والمحروم، وما أورثه ذلك من قوة السلطان على أتباعه من أهل المدينة، كل ذلك وصل بالأمر بينه وبينهم إلى عقد معاهدة صداقة وتحالف، وتقرير لحرية الاعتقاد.

وهذه المعاهدة تعتبر من الوثائق السياسية الجديرة بالإعجاب على مر التاريخ، وهذا التطور من تاريخ الرسول ﷺ لم يسبقه إليه نبى أو رسول، فقد كان من سبقه من الأنبياء يقف عند الدعوة الدينية، يبلغها للناس من طريق الحوار ومن طريق المعجزة، ثم يترك لمن بعده من الأتباع والأنصار مهمة نشر الدعوة بالوسائل المتاحة، أما محمد ﷺ فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يديه، وأن يكمل ما بدأه إخوانه الرسل قبله من توحيد الله تعالى، وإخلاص العبودية له، وتنزيه ذاته المقدسة من كل العيوب والنقائص، فكان طبيعيا أن تشتمل رسالته على كل ما فيه سعادة البشرية، لذلك كان السلم هو العلاقة الأصلية بين الناس فى الإسلام؛ لأنه هو الذى يهيئ للتعاون والتعارف وإشاعة الخير بين الناس عامة وهو بهذا الأصل لا يطلب من غير المسلمين إلا أن يكفوا شرهم عن دعوته وأهله وألا يثيروا عليه الفتن والمشاكل، ويرفض رفضا باتا أن يتخذ الإكراه طريقا للدعوة إليه ونشر تعاليمه: ﴿**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾(٤٥).

وإذا احتفظ غير المسلمين بحالة السلم فهم والمسلمون فى نظر الإسلام إخوان فى الإنسانية، يتعاونون على خيرها العام. ولكل دينه يدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة دون إضرار بأحد ودون انتقاص لحق أحد، وبذلك ينعم الجميع بالخير والسعادة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مصادر البحث:

(١) القرآن الكريم
(٢) صحيح البخارى.
(٣) صحيح الإمام مسلم.
(٤) سنن أبى داود.
(٥) سنن الترمذى.
(٦) مسند الإمام أحمد.
(٧) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث.
(٨) فقه السنة للسيد سابق.
(٩) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى.
(١٠) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه لعباس محمود العقاد.
(١١) روح الدين الإسلامى لعفيف طبارة.
(١٢) الإسلام عقيدة وشريعة لشيخ الأزهر محمود شلتوت.
(١٣) الحرية الدينية فى الإسلام للدكتور حامد حسان.
(١٤) ندوات علمية حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان فى الإسلام لرابطة العالم الإسلامى.

الهوامش:

(١) راجع دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى ١٠/٥٦٧.
(٢) لسان العرب ٢/١٩٢.
(٣) الآية ٦١ من سورة الانفطار.
(٤) الآية ٢٠٨ من سورة البقرة.
(٥) الآية ١٩ من سورة الفرقان.
(٦) رواه مسلم فى كتاب البر ٥، وأحمد فى المسند ٥/١٩٠.
(٧) رواه كل من البخارى ومسلم والجماعة.
(٨) الآية ١٣ من سورة الحجرات
(٩) الآية ٢٢ من سورة الروم.
(١٠) رواه الإمام أحمد فى المسند ٥/٤١١.
(١١) مسند الإمام أحمد ٢/٢٨٥ و ٥٣٩.
(١٢) رواه الترمذى فى الطهارة ٨٢، وأبو داود فى كتاب الطهارة ٩٤.
(١٣) الآية ٧٠ من سورة الإسراء.
(١٤) الآية ٨ من سورة المائدة.
(١٥) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.
(١٦) الآية ٩٩ من سورة يونس.
(١٧) الآية ٢١ و ٢٢ من سورة الغاشية.
(١٨) راجع جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام الطبرى ٣/١٠.
(١٩) الآية ١٤ من سورة الحجرات.
(٢٠) الآية ١٢٥ من سورة النحل.
(٢١) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت.
(٢٢) الآية ٢٩ من سورة الكهف.
(٢٣) الآية ٨ من سورة الممتحنة.
(٢٤) الآية ٨ من سورة المائدة.
(٢٥) الآية ٣٤ و ٣٥ من سورة فصلت.
(٢٦) الآية ٢٣٧ من سورة البقرة.
(٢٧) الآية ٤٣ من سورة الشورى.
(٢٨) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.
(٢٩) متفق عليه.
(٣٠) الآية ٢٤ و ٢٥ من سورة المعارج.
(٣١) الآية ١٠٣ من سورة التوبة.
(٣٢) الآية ٦٠ من سورة التوبة.
(٣٣) متفق عليه.
(٣٤) رواه الإمام أحمد فى مسنده ١/١٧٨.
(٣٥) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه.
(٣٦) رواه البخارى فى باب الاستئذان ٩/١٩.
(٣٧) راجع فقه السنة ٢/٥٩٦.
(٣٨) رواه أبو داود والدارمى.
(٣٩) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب.
(٤٠) الآية ٢٣ من سورة الرعد.
(٤١) الآية ٧٣ من سورة الزمر.
(٤٢) الآية ٢٦ من سورة الواقعة.
(٤٣) الآية ٢٣ من سورة الحشر.
(٤٤) الآية ٢٥ من سورة يونس.
(٤٥) الآية ٩٩ من سورة يونس.

الإسلام رحمة الله للعالمين

الأستاذ الدكتور/ عصام أحمد البشير

وزير الإرشاد والأوقاف

السـودان

مدخـل :

الإسلام خاتم الرسالات.. أنزله الله رحمة للناس.. مسلمهم وكافرهم.. برهم وفاجرهم ﴿**هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن**﴾[١].. ورسوله محمد ﷺ رسول الرحمة ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾[٢].. بعثه الله ليشيع التسامح والود والتراحم بين بنى البشر، ويخلص العالم من التحاسد الفردى والتطاحن العنصرى والتعصب الديني.. فأدى الأمانة .. وبلغ الرسالة.. ووسع العالم ـ تابعاً مؤيداً.. ومسالماً مهادنا..وعدواً مخالفا.. وحيوانا أعجما.. ونباتا أخضرا.. وجمادا أصما ـ رحمة ورفقا ورعاية.

أولا : مظاهر القسوة في حضارة اليوم :

حضارة اليوم تفتقر إلى رحمة الإسلام؛ لأنها تقوم على ركيزة العنف الذى اتخذ وما زال يتخذ الأولوية فى ثقافتها وفكرها، والذى تبدى فى مظاهر عديدة أهمها:

اقتصاديا: إرتفاع المبالغ المرصودة لتطوير العلوم الحربية، وتكنولوجيا التسلح، وإعداد الجيوش، إذ بينت إحدى الدراسات[٣] حول الإنفاق على التسلح فى العالم حقائق مذهلة :

- أنفق العالم فى الفترة ما بين عام ١٩٦٠ - ١٩٨٥ ما مجموعه (١١٤) ألف مليار دولار على الشؤون العسكرية.

- بلغ إنفاق العالم فى عام ١٩٨٦وحده (٩٠٠) مليار دولار أى ما يعادل مليونى دولار كل دقيقة.

- العالم ينتج قنبلتين نوويتين فى اليوم الواحد، ويصنع صاروخاً نووياً فى كل شهر من شهور السنة.

- امتلك العالم مخزوناً من السلاح يقدر بحوالى (١٦) مليار طن من الـ (تى إن تى) شديدة الانفجار، وهذا المعدل يساوى خمسة أضعاف القدرة التدميرية التى استخدمت فى الحرب العالمية الثانية.

يحدث هذا فى الوقت الذى يوجد فيه:

- (٢٠٠٠) مليون نسمة من سكان الأرض مصنفون فى عداد الفقراء منهم (٤٥٠) مليون نسمة يعانون مجاعة مزمنة، ومخمصة فاجعة.

- (٨٠٠) مليون شخص مصابون بمرض الملاريا، وتكفى النفقات العسكرية لنصف يوم واحد فقط لعلاجهم جميعاً. بينما تكفى نسبة (٠,٠٠١٪) من النفقات العسكرية للقضاء على المرض قضاء مبرماً فى العالم كله.

- يموت أحد عشر طفلاً بعد الولادة مباشرة بسبب غياب الرعاية الطبية.

- يوجد (٦٠٠) مليون شخصاً عاطلاً عن العمل.

- (٨٠٠) مليون يعانون من الأمية المطلقة، بينما يساوى ثمن غواصة نووية واحدة إجمالى ما يطلبه العالم من أجل توفير التعليم لمائة وعشرين مليون طفل لا يحصلون على فرصة فى التعليم.

سياسياً: قامت الدول الكبرى باستعمار الدول الأفريقية والآسيوية، واستولت على أموالها وما تزخر به من مواد خام، الأمر الذى وفر الإمكانات المادية للصناعة وتنمية القدرات التقنية، فظهرت الرأسمالية الغربية ووسعت من سيطرتها على العالم، واحتاجت للحفاظ على هذه السيطرة أن تضاعف من استعمال العنف أضعافا كثيرة، تتناسب

طرديا مع تقدم سيطرتها حتى وصل هذا القرن إلى مستويات لا يتصورها عقل، من حيث التقنية الهائلة والقدرات التدميرية المروعة.

ثقافياً: رتبت الحضارة المادية قيمها ونظمها وأفكارها، بل ومعاييرها وأخلاقها لتلائم واقع العنف الذى أوجدته، فاعتبرت العنف أمراً حتمياً لا مناص منه، فى سياق التطور والسيادة والهيمنة فأوجدت بؤرا للصراع لا تهدأ.. وأحدثت تغييراً كبيراً فى مجال القيم والأخلاق والمعايير والعلاقات الإنسانية، فنمت ثقافة العنف التى تبدت فى الاتجاهات العنصرية والمظالم الاجتماعية وصراع الطبقات، وتحكم رؤوس الأموال واستبداد الدولة واستكبارها ..

اجتماعياً: شهد العالم تدهوراً مريعاً فى العلاقات الإنسانية على المستويات كافة فرداً وأسرة وجماعة.

فعلى المستوى الفردي: غاب التراحم بين الإنسان وأخيه الإنسان، بين القوى والضعيف، بين الغنى والفقير.. وسادت علاقة المنفعة والمصلحة .. وغلبت الحسابات المادية من ربح وخسارة على العلاقات الإنسانية، فارتفعت نسبة الجريمة، وفشى جنوح الأحداث وإدمان الخمر، وشاعت المخدرات والشذوذ الجنسى والكثير من الانحرافات الاجتماعية والخلقية.

وعلى المستوى الأسرى: اضطربت علائق الأزواج، و روابط الآباء والأبناء وأدت الأنانية وغياب هداية الروح ـ التى تخرج الإنسان من سجن الذات وتوسع آفاقه وتضاعف فعاليته ـ إلى الانطلاق وراء شهوات الجسد، وإهمال كيان الأسرة وما تحققه من سكينة نفسية واجتماعية دائمة متجددة، نتيجة المودة والرحمة والتشاور والرضى المتبادل بين الآباء والأبناء، ولم تعد العفة الجنسية والأمانة الزوجية قاعدة لحياة الأسرة والمجتمع[٤].

وعلى المستوى الجماعى: ساد الظلم وغاب التراحم بين الجماعات والشعوب، وقامت مؤسسات دولية تكرس لهذا الظلم فى دساتيرها- كما فى حق النقض" الفيتو" فى الأمم المتحدة ـ كما ظهرت التفرقة العنصرية فى ثوب جديد

ومالت كفة المعايير الدولية لصالح الشمال الغنى والغرب المتحضر على حساب الإسلام والدول الفقيرة، وساد قانون الغاب رغم دعاوى التحضر الزائف والتمدن الكذّاب.

هذا كله يوجب على المسلمين أن يقدموا ما عندهم من صبغة ربانية وهداية أخلاقية.. وقيم إنسانية.. ومبادئ عالمية.. وحلول شافية لمشاكل العالم حتى تسود قيم الرحمة والإنسانية والعدل شعوب العالم والمجتمع الإنسانى العريض.

ثانياً: تجليات رحمة الله على عباده :

إن رحمة الخالق بعباده لا تحد أبعادها حدود، ولا تحيط معالمها كلمات، غير أننا يمكن أن نقتطف من قبسها الرحيب وقطوفها المذللة ما يلى:

١ - الرحمة بالنفس:

إذ أن الإسلام جاء رحمة بالنفس البشرية، حيث عرفها سبحانه وتعالى بذاته العلية، فهو الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي عمت الخلائق جميعا ووسعتهم فى أرزاقهم ومعاشهم، والرحيم بالمؤمنين خاصة[٥] **﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾**[٦].

- كما تبدت معالمها فى التوحيد الخالص الذى وقى النفس شر أمراض الخوف والقلق وغياب الوجهة وفقدان الاتزان، والشعور بالعجز، عقيدة تسعفها من أخطاء ما سلف، وتبين لها أن ما قدره الله لابد أن يكون، وأن العبرة بإعمار الباقي من العمر لا بإهداره قلقاً على الماضى، عقيدة توضح لها إلى أين تصير وماذا بعد الموت.. عقيدة توفر لها الأمن والسلام إذا ادلهمت الخطوب واشرأبت الفتن بأعناقها، فتوقن أنه لن يصيبها إلا ما كتب الله لها، وأن البشرية جميعها عاجزة عن أن تنفعها أو تضرها إلا بما كُتِب لها. عقيدة توفر لها الدافع للعمل والحافز للبذل والباعث للعطاء **﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾**[٧].

- ومن رحمته جل فى علاه بالنفس البشرية أن اختصها من بين خلقه بأن كرمها وفضلها،وشرفها وخلقها لنفسه،وخلق كل شىء لها، وخصها بمعرفته ومحبته

وقربه وإكرامه، وسخر لها ما فى سماواته وأرضه وما بينهما حتى ملائكته **﴿وسخر لكم ما فى السماوات و ما فى الأرض جميعاً منه﴾**(٨).

- ومن ثمرات رحمة المولى – عز وجل – أنه يقبل التوبة ويفرح لها، كما ثبت فى الصحيحين، قال رسول الله ﷺ **«لله أفرح بتوبة عبده ـ حين يتوب إليه ـ من أحدكم، كان على راحلة بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال: ـ من شدة الفرح ـ اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»**.

- ومن رحمته أن أنزل كتبه على أنبيائه لتكون نوراً وضياء للأنفس الحائرة.. فهداها من الضلال و أرشدها من الغى، وبصرها من العمى، و أمرها أن تفرح بفضله **﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون﴾**(٩) إذ تتقلب فى نور هداه، وتمشى فى ألق ضيائه، وترى غيرها متحيرا فى الظلمات، ضارباً فى الضلال، قد جمع الهمّ والغمّ والبلاء والألم والقلق والأرق مع الضلال المستعر والحيرة المستمرة.

- ومن رحمته سبحانه أن أرسل الرسل للأمم كلاً بلسان قومه ليكتمل البيان وتقوم الحجة **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾**(١٠) فبشروا وأنذروا، وقدموا القدوة، وأظهروا الأسوة وأقاموا الحجة بالبرهان النظرى والبيان العملى، وتوالى إرسالهم أرسالا، حتى ختموا بسيد الخلق، الناطق بالحق والموشح بالرحمة، والملثم بالعفاف، البشير النذير، والسراج المنير، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد ﷺ الذى غدا رقة على الصغير ورحمة للكبير كما فى حديث شق الصدر « ... **قال أحدهما لصاحبه افلق صدره، فهوى إلى صدرى ففلقها فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة و الرحمة، فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة، ثم هز إبهام رجلى اليمنى فقال: اغد واسلَم، فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير**"(١١)، وتوالت رحمات الله تعالى بتسخير

الصالحين ليحملوا راية الأنبياء، ويقوموا بواجب البلاغ وإقامة الحجة، ولم يخل عصر من صالحين مستمسكين بهدى الأنبياء.. داعين إلى سنتهم.. آخذين بمناسكهم «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة» كما ثبت فى الصحيح.

■ ومن رحمته بها أن أمر بتزكيتها وتهذيبها، وشرع لها من العبادات ما يكسر سورتها ويلطف شهوتها، ويبلغ بها درجة الاطمئنان لتكون راضية مرضية، ونهى عن تدسيتها وتعريضها للهلاك **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾**(١٢). كما دعا إلى تلبية احتياجات النفس الحسية، وعدم مخالفة الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وشدد فى النكير على دعاة تعذيب النفس بدعوى العبادة والزهادة، روى أنس بن مالك رضي الله عنه قائلاً: "**جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبى ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم:أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا، وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى**»(١٣). وقرر لها حقوقا بقوله ﷺ: «**فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا**"(١٤). وصدّق قول سلمان الفارسى لأبى الدرداء، وقد رأى أم الدرداء شعثة فسألها، فقالت: **أخوك أبو الدرداء يقوم الليل ويصوم النهار فقال له : " إن لنفسك عليك حقا، ولربك عليك حقا، ولضيفك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، فأعط كل ذى حق حقه. فأتيا النبى ﷺ فذكرا ذلك فقال له: صدق سلمان** "(١٥).

■ ومن رحمته بها أن ابتلاها بالأوامر والنواهى.. رحمة بها وحمية لها .. وابتلاها بتنغيص الدنيا وتكديرها، لئلا تسكن إليها أوتطمئن بها وترغب عن النعيم المقيم فى داره وجواره، فساقها بسياط الابتلاء والامتحان، ومنعها ليعطيها،

وابتلاها ليعافيها، وأماتها ليحييها **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحْيِيكُم﴾**[١٦].

٢ - الرحمة بالإنسان :

إذ شملت رحمته سبحانه الإنسان فرداً وجماعة.. بدءاً بأسرته وانتهاء بعلاقته بالآخرين مسلمين أو غير مسلمين، مؤيدين أو مخالفين.

أ - الرحمة بالأسرة :

- **الرحمة بالوالدين:** إذ أمر الإسلام ببرهما، وحسن صحبتهما،وخفض الجناح لهما، والقيام على خدمتهما، والإحسان إليهما وإن كانا مشركين **﴿وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به عِلْم فلا تُطِعْهَما وصاحبهما فى الدنيا معروفًا﴾**[١٧]، كما أمر بالدعاء لهما: **﴿وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا﴾**[١٨].

- **الرحمة بين الزوجين:** إذ أمر الإسلام كلاً من الزوجين بحسن معاشرة الآخر، وجعل ذلك مقياساً للصلاح والخيرية، "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى"، وأراد للبيت المسلم أن يكون سكناً ومودة ورحمة **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفُسِكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مَوَدَّةً ورحمة﴾**[١٩]. وهو بهذا دوحة يفئ إلى ظلالها الأطفال، ولبنة تؤسس مجتمع العدل والفضيلة.

- **الرحمة مع الأطفال:** وذلك ببذل نبيل الود وفائق العناية، وجميل التعهد لهم، وشديد التأنيب وعظيم التقريع لمن استنكر تقبيلهم، جاء أعرابى إلى النبي ﷺ، **فقال: تقبلون الصبيان فما نقبلهم، فقال النبى ﷺ «لا أمَلك أن نزع الله من قلبك الرحمة»** فأى تأنيب وأى تقريع وأى استنكار! لقد امتلأ قلب النبى ﷺ رحمة بالأطفال فكان يقعدهم على فخذه، ويضمهم إليه ويدعو لهم؛ قال أسامة بن زيد: «**كان رسول الله ﷺ يأخذنى فيقعدنى على فخذه ويقعد الحسن بن علي على فخذه الآخر ثم يقول:** «**اللهم ارحمهما** فإني أرحمها»، بل كان يلاعبهم ويمازحهم: «**يا أبا**

عمير ما فعل النغير» وذلك أن أنساً مات له عصفور كان يتلعب به فحزن عليه فقال رسول الله ﷺ ما قال مواسياً وانظر التكنية للصغير (يا أبا عمير) وهو من باب التكريم:

أكنيه حين أناديه لأكرمه … ولا أُلقبه والسوءة اللقبا

ومن حسن خلقه ولطفه بالأطفال ما انحفر فى ذاكرة رافع بن خديج إذ يقول: (عقلت وأنا ابن خمس مجةً مجها رسول الله ﷺ من فيه فى وجهى)، ويحزن قلبه الرحيم، وتدمع عينه الشريفة لفقدهم فيقول **«إن العين تدمع، والقلب يحزن ،ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»**[٢٠].

ب - الرحمة بأمة الإجابة:

ومن رحمته سبحانه بأمة الإجابة أن شرع لها من الدين مالا يكلفها شططا، ولا يرهقها من أمرها عسرا، ولا يحمل عليها إصرا ولا غلا، قال سبحانه: **﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حَرَج﴾**[٢١]، فالتشريع كله رحمة، قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى - رحمه الله تعالى -: "إن الشريعة كلها مبنية على الرحمة فى أصولها وفروعها وفى الأمر بأداء الحقوق سواء كانت لله أو للخلق، فإن الله لم يكلف نفسا إلا وسعها، واذا تدبرت ما شرعه الله - عز وجل - فى المعاملات والحقوق الزوجية وحقوق الوالدين والأقربين والجيران وسائر ما شرع وجدت ذلك كله مبنيا على الرحمة، ثم قال: لقد وسعت هذه الشريعة برحمتها وعدلها العدوّ والصديق، ولقد لجأ إلى حصنها الحصين الموفقون من الخلق"[٢٢]. وقد تبدت مظاهر الرحمة فى التشريع فى أمور عديدة أهمها:

- القواعد الفقهية.. مثل لا تكليف إلا بمقدور، والضرر يزال، والمشقة تجلب التيسير، وعموم البلوى من موجبات التيسير، وما أسكر كثيره فقليله حرام، والضرورات تبيح المحظورات، والأصل فى الأشياء الإباحة، ونحو ذلك.

ومن قواعد الشريعةش التيسير … فى كل أمر نابه تعسير

وليس واجب بلا اقتدار … ولا محرم مع اضطرار

وكل محظور مع الضرورة … بقدر ما تحتاجه الضرورة

- تشريع الرخصة: وفى ذلك مراعاة للحالات الاستثنائية التى يشق فيها التكليف على المكلف رحمة به، ومراعاة لحاله.

- تشريع الحدود رحمة: كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿**ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون**﴾[٢٣] فالحدود رحمة للمجتمع حتى لا تكثر الجرائم وتشيع الفواحش، كما أنها رحمة بالجانى إذ تطهره من إثمه، وترفع عنه عقاب الآخرة.

- تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال والعواقب: فالفتوى كما تتغير بتغير الزمان والمكان كذلك تتغير بتغير حال المكلف، فحال العجز ليس كحال الاقتدار، وحال المرض ليس كحال الصحة، وحال الاستضعاف ليس كحال التمكين، وحال السفر ليس كحال الإقامة، وحال الحرب ليس كحال السلم، وحال الطمأنينة ليس كحال الخوف.

- مراعاة المرحلية والتدرج والأسبقيات في أحكام المجتمع المسلم: فالحفاظ على الضروريات مقدم على الحاجيات، والحاجيات مقدمة على التحسينيات، وهكذا.

و من رحمته سبحانه وتعالى بأمة الإجابة أن جعل الرحمة صفة للنبي ﷺ وأتباعه فقال: ﴿**رحماء بينهم**﴾[٢٤]، فالمسلمون يوقر صغيرُهم كبيرَهم، ويرحم كبيرُهم صغيرَهم، لا يتبايعون ولا يتقاضون إلا بهذه الرحمة، يشيعونها بينهم.. ويعيشون فى كنفها.

جـ. الرحمة بأمة الدعوة:

من رحمة الإسلام أنه يشيع الرحمة على كل الناس.. لا يفرق بين قريب وبعيد، بين صاحب وعدو، بين مسلم وكافر، بل رحمة عامة شاملة، قال ﷺ : «**لن تؤمنوا حتى ترحموا» قالوا: كلنا رحيم يا رسول الله، قال: «إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة الناس، رحمة عامة**»[٢٥].

من رحمة الإسلام فى التعامل مع أهل الكتاب أنه يقرر مبادئ راقية للتعامل معهم منها:

١ - الاعتراف أن الاختلاف بين بنى البشر فى الدين واقع بمشيئة الله تعالى فقد منح الله الإنسان الحرية والاختيار فى أن يفعل ويدع، أن يؤمن أو يكفر: **﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾**(٢٦).

والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب، كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة ،علم الناس ذلك أو جهلوه، ولهذا ينحصر دوره فى مهمة البلاغ المبين قولاً وعملاً دون إجبار أو إكراه **﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تُكْره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾**(٢٧).

٢ - وحدة الأصل الإنسانى و الكرامة الآدمية: انطلاقاً من قوله سبحانه وتعالى **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**(٢٨)، وقوله **﴿ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات﴾**(٢٩). فالناس أكرمهم عند الله أتقاهم، أبوهم واحد، والرابطة الإنسانية بينهم قائمة شاءوا أم أبوا، هذه الرابطة تترتب عليها واجبات شرعية كالقيام للجنازة أياً كانت عقيدة صاحبها .. **روى البخارى أن النبى ﷺ مرت به جنازة فقام فقيل له: إنها جنازة يهودى ،فقال: «أليست نَفْساً»**(٣٠).

٣ - التعارف: لقوله سبحانه وتعالى **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**(٣١). وكما ورد فى الحديث : **«وأشهد أن العباد ـ كلهم ـ إخوة»**، فالتعارف أساس دعا إليه القرآن، وضرورة أملتها ظروف المشاركة فى الدار أو الوطن بالتعبير العصرى، وإعمال لروح الأخوة الإنسانية بدلاً من إهمالها.

والروابط الاجتماعية بين البشر كثيرة، عبرت عنها الآية الكريمة **﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقتَرَفْتُمُوها وتجارةٌ تخشَون كسادها ومساكنُ تَرْضَونها أَحَبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾**(٣٢) ،إذ حوت: الرابطة العائلية، والرابطة القومية، ورابطة الإقامة (الوطن)، ورابطة المصلحة، والرابطة الإسلامية.

٤ – التعايش: إذ أن حياة المتشاركين لا تقوم بغير تعايش سمح: بيعاً وشراء.. قضاء واقتضاء.. «**رحم الله امرءا سمحا إذا باع ،وسمحاً إذا اشترى وإذا قضى وإذا اقتضى**».. وتاريخ المسلمين حافل بصور التعامل الراقى مع غير المسلمين. وقد حدّد الله سبحانه وتعالى أساس هذا التعايش بقوله **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحب المقسطين﴾**(٣٣).

إن غير المسلم إذا لم يبدأ بحرب، ولم يظاهر على إخراج، فما من سبيل معه غير التعايش الجميل الملتزم بالبرّ وهو جماع حسن الخلق، والقسط هو العدل والفضل والإحسان والمجادلة بالتى هى أحسن.

٥ – التعاون: كثير من القضايا العامة تشكل قاسماً مشتركاً بين المسلمين وأهل الكتاب ويمكن التعاون فيها مثل :

• الإعلاء من شأن القيم الإنسانية والأخلاق الأساسية، فالعدل والحرية والمساواة والصدق والعفة كلها قيم حضارية تشترك فيها الأديان والحضارات وترسيخها فى المجتمعات هدف مشترك يمكن التعاون عليه.

• مناصرة المستضعفين فى الأرض وقضايا العدل والحرية ومحاربة الظلم ومن ذلك اضطهاد السود والملونين فى أميركا، واضطهاد الأقليات الدينية، وسائر الشعوب المقهورة فى فلسطين وكوسوفا والشيشان ونحوه، فالإسلام يناصر المظلومين من أي جنس ودين، والرسول ﷺ قال عن حلف الفضول: "**لو دعيت إلى مثله فى الإسلام لأجبت**".

• التعاون لمواجهة دعاة المادية الذين ينكرون الغيب، ودعاة الإلحاد الذين يجحدون وجود الله، ودعاة الإباحية الذين يروجون للعرى والتحلل الجنسى والشذوذ والإجهاض.

غير أن أهل الكتاب منهم المسالمون والمحاربون، وكلاً جاء الإسلام بالرحمة لهم:

أولاً - الرحمة بالمسالمين:

من مظاهر رحمة الإسلام بالمسالمين ما يلى :

توفير الحماية لهم من العدوان الخارجى :

.. أورد الإمام القرافى فى "الفروق" نقلاً عن ابن حزم ": "أن من كان فى الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صونا لمن هو فى ذمة الله وذمة رسوله ﷺ" وحكى فى ذلك إجماع الأمة.. وعلق القرافى على ذلك بقوله: "فعقد يؤدى إلى إتلاف النفوس والأموال صونا لمقتضاه عن الضياع إنه لعظيم"[٣٤].

وإذا وقع الذمى فى الأسر، وجب على الدولة المسلمة أن تبذل قصارى جهدها فى تخليصه من أيدى الأعداء،ولو بدفع الفداء عنه من بيت المال، وهذا ما أفتى به الإمام الليث بن سعد[٣٥] الفقيه المصرى المجتهد الذى قيل فيه "الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه أضاعوه".

ومن جميل تطبيق ذلك ما فعله الإمام ابن تيمية، عندما ذهب إلى قائد التتار "قطلو شاه" ـ الذى استولى على الشام ـ لإطلاق سراح الأسرى، فوافق القائد على إطلاق سراح الأسرى من المسلمين فقط، ولكن شيخ الإسلام قال له:"لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى، فهم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيراً، لا من أهل الذمة ولا من أهل الملة"، وتم فعلا إطلاق سراح جميع الأسرى[٣٦].

وإذا لم تستطع الدولة المسلمة توفير الحماية لأهل الذمة فإنها تلتزم برد الجزية التى قامت بتحصيلها منهم.. وقد فعل هذا الصحابى الجليل أبوعبيدة بن الجراح ـ رضى الله عنه ـ أثناء فتح الشام، فعندما بلغه أن الروم قد جمعوا جموعا عظيمة لملاقاة المسلمين،أمر برد المبالغ المالية التى قام المسلمون بتحصيلها من أهل هذه المناطق، كما أمر بأن يتلى عليهم البيان التالى (إنما رددنا

عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع من الجموع، وأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم (أى نحميكم) وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذ منكم ونحن لكم على الشروط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم"[٣٧].

توفير الحماية لهم من العدوان الداخلي :

كذلك تتكفل الدولة بحمايتهم من أى اعتداء أو ظلم داخلى، فدماؤهم وأموالهم وأعراضهم حرام، وكرامتهم مصونة من الاعتداء، محفوظة من الانتقاص. يقول النبى ﷺ : «**من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً**» . وقد ذهب بعض فقهاء المسلمين ـ الشعبي والنخعى وابن ابى ليلى وأبو حنيفة وأصحابه ـ إلى أن المسلم يقتل بالذمي، لعموم النصوص الموجبة للقصاص فى الكتاب والسنة كقوله تعالى ﴿**النفس بالنفس**﴾[٣٨] ولاستوائهما فى عصمة الدم المؤبد، ولما روى أن النبى ﷺ قتل مسلما بمعاهد وقال: «**أنا أكرم من وفى بذمته**»[٣٩].

توفير كفالة الدولة لهم عند العجز عن الكسب :

من رحمة الإسلام أن الكتابى إذا عجز عن الكسب لمرض أو شيخوخة أو آفة أصابته فإن الدولة ملزمة بكفالته، وقول الفاروق – رضى الله عنه ـ لما رأى يهودياً يسأل الناس ـ لخازن بيت المال: "انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**﴾[٤٠] . وهذا من مساكين أهل الكتاب".

ثانيا – الرحمة بالمحاربين :

من رحمة الإسلام بالمحاربين أنه لا يبدأ القتال إلا بعد الدعوة للإسلام ثم الجزية، وفى ذلك إشارة إلى أن القتال ليس هدفاً لذاته، أما إذا وقع القتال فرحمة الإسلام تدعو إلى تضييق نطاقه إلى أقصى مدى لذلك جاءت بـ:

- النهى عن قتل النساء والأطفال والشيوخ لقوله ﷺ: "**انطلقوا باسم الله وبالله وعلى بركة رسول الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم،وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**"[٤١].

- **النهى عن قتل الرهبان المنقطعين للعبادة:** قال ابن عباس رضى الله عنهما: كان النبى ﷺ إذا بعث جيوشه قال: «**لا تقتلوا أصحاب الصوامع**»[٤٢].
- **النهى عن قتل الفلاحين والعمال وغيرهم من المدنيين** الذين لا علاقة لهم بالقتال لقول الرسول ﷺ لرباح بن الربيع: «**قل لخالد: لا يقتلن امرأة ولا عسيفا**» والعسيف هو الأجير.
- **الابتعاد عن التخريب المتعمد للثروات الزراعية والحيوانية ونحوها:** لقول أبى بكر الصديق رضي الله عنه ليزيد بن أبى سفيان: ".. وإنى موصيك بعشر.. لا تقتلن امرأة، ولا صبياً، ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا نخلاً، ولا تحرقنها، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بقرة إلا لمأكله، ولا تجبن، ولا تغلل"[٤٣].
- **الابتعاد عن وسائل القتل الوحشية والتعذيب والمثلة:** لحديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية فقال: «**إن لقيتم فلاناً وفلانا - لرجلين من قريش سماهما - فحرقوهما بالنار**» قال: **ثم ذهبنا نودعه حين أردنا الخروج فقال: " إنى كنت أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً بالنار، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما"**[٤٤]، ولقول عبد الله بن يزيد الأنصارى رضي الله عنه "**نهى النبى ﷺ عن النهبة والمثلة**"[٤٥]، والمثلة محرمة حتى بالكلب العقور.

وإذا انتهى القتال بنصر المسلمين فلا انتقام،، ولا تشفى ولا إساءة لمعاملة الأسرى أو المسالمين، أو سلب ممتلكات الدولة المهزومة ﴿**فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها**﴾[٤٦] ، ﴿**ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً**﴾[٤٧].

٣ - الرحمة في التعامل مع الكون :

لقد أبدعت الحضارة الغربية الحديثة أيما إبداع فى ميادين العلوم والتكنولوجيا، لكنها تخلفت فى ميادين الروح والأخلاق والقيم الإنسانية.

فلم تك يوماً والحوادث جمة   حمىً لضعيف أو صلاحاً لفاسد

وبالقدر الذى ساهمت به هذه الحضارة فى خدمة الإنسان ـ خصوصا الغربى ـ فإنها ونتيجة لطبيعتها المادية التى استقتها من جذورها الرومانية واليونانية، ألحقت أضرارا بمرافق أخرى من بينها البيئة.

لقد تعاملت هذه الحضارة مع البيئة والطبيعة بخلفية الصراع والهيمنة Domination of nature، وليس التسخير، فكان الإسراف والتبذير وعدم احترام السنن التى أودعها الله سبحانه وتعالى فى الطبيعة كى تحافظ على توازنها، مما أدى إلى انقراض العديد من الكائنات الحية، وتراجع الغابات التى هى رئة الأرض فى العديد من البقاع، إما بسبب القطع للحصول على الخشب أو للحصول على المزيد من الأراضى الزراعية، أو بسبب التلوث الناتج عن الأمطار الحمضية. أما الجو فقد أصبح يضيق بالغازات والنفايات السامة التى تطلقها الصناعات والآليات الملوثة، وارتفعت درجة الحرارة على سطح الأرض نتيجة لزيادة نسبة ثانى أكسيد الكربون الذى يعكس الحرارة، فيما يعرف علميا بعامل "البيوت الزجاجية" أو "Green House Effect" ـ الأمر الذى يهدد بطوفان عارم قد يصيب الأرض فى حالة ذوبان جليد القطبين، وإذا أضفنا لكل هذا التجارب النووية والبحوث المكروبيولوجية والكيماوية العسكرية؛ وحوادث المحطات النووية؛ (تشرنوبيل) والنفايات السامة التى تجوب البحار على أمل أن يوجد لها مكان تدفن فيه ؛وثقب طبقة الأوزون الذى يشهد المزيد من التوسع مما يسمح بتسرب أشعة شمسية قاتلة إلى سطح الأرض ،وكل ذلك يصدق عليه منطوق الآية الكريمة ﴿**ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس**﴾[٤٨] .. ولا مخرج من هذا إلا بالإسلام ،الذى يمتلك نظرة إلى الكون والحياة والإنسان أرقى وأنبل وأكرم وأكثر تحضرا وكفاءة من نظرة الحضارة المادية، نظرة تقوم على شُعب منها:

- الكون هو كتاب الله المنظور، وهو مصدر من مصادر المعرفة، ومطلوب من الإنسان أن يتأمل الآيات الكونية مثلما يتأمل الآيات القرآنية:

تأمل فى رياض الأرض وانظر — إلى آثار ماصنع المليك

عيون من لجين شاخصات — بأبصار هى الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات — بأن الله ليس له شريك

• صلة المسلم بالكون صلة عاطفية فيها الحب و حسن الرعاية، قال ﷺ: " **أحد جبل يحبنا ونحبه.** " فليست البيئة جمادات لا يبالى الناس بها بالاً، بل هى موجودات لها نصيبها من حسن الرعاية وجميل التعهد.

• الكون مسخر للإنسان ليستغله من غير تبديد ولا إسراف، وليحافظ عليه وليحمى زينته وزخرفه، ويعمل على عمارة أرضه وإصلاح ما فسد من أمرها، وذلك بـ:

الحفاظ على مصادر المياه: رأى رسول الله ﷺ بعضهم يسرف فى وضوئه فنهاه، فقال:أو فى الماء سرف يارسول الله؟ «قال: **نعم، ولو كنت على نهر جار».**

واتباع العادات الصحية: عن عبد الله بن سرجس أن رسول الله ﷺ **نهى أن يبال فى الجحر**[٤٩]، وبوّب مسلم فى صحيحه باب النهى عن التخلى فى الطرق والظلال، وعن جابر أن رسول الله ﷺ نهى عن البول فى الماء الراكد[٥٠].

المحافظة على الغطاء النباتى وإعمار البيئة: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل**»[٥]، هذا المعنى صار بعيدا عن واقعنا اليوم، إذ استبدلنا الغابات الغناء والبساتين الفيحاء بغابات الأسمنت المسلح فى مدن تطوقها أحياء الصفيح التى يقطنها الفقراء، استبدلنا شذى الياسمين وأريج الورود بروائح المواسير، والمغلفات البلاستيكية، ومزابل القازورات و "إنا لله وإنا إليه راجعون"!.

المحافظة على الحيوان والنهى عن قتله: فقد صح فى السنة المطهرة «**أن بغياً دخلت الجنة لكلب سقته**»، كما صح «**أن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض**»،كما ثبت النهى عن حرق النمل ،وقتل النحل والضفدع والهدهد والصرد، وعن قتل عموم الحيوان إلا لمأكله[٥٣]، «بل إن العصفور إذا قتل عبثاً جأر إلى الله يوم القيامة:يا رب إن عبدك فلاناً قتلنى عبثاً لا منفعة "، كما قال ﷺ " **ولولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها**" كما ورد فى الصحيح وفيه دليل على مشروعية حفظ الأجناس من الانقراض.

- الكون مصدر للجمال والإلهام :إذ أن مظاهر الجلال والزينة مبثوثة فى أرجائه .. منتشرة فى أنحائه.. من سماء ذات أبراج **﴿بنيناها وزيناها﴾**[٥٣]، **﴿وزيناها للناظرين﴾**[٥٤].. وأرض ذات فجاج **﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾**[٥٥].. وحيوانات ذات جمال **﴿ولكم فيها جمال حين تُريحون وحين تسرحون﴾**[٥٦] ... ونباتات ذات بهجة **﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بَهيج﴾**[٥٧]، **﴿حدائق ذات بَهْجَة﴾**[٥٨].. ذلك أن خالق الكون جميل.. خلق فأحسن.. وصور فأبدع.. وقدر فهدى.
- حماية البيئة وتنميتها، والاهتمام بالنظافة، وعدم التبذير رمز للحضارة والتمدن الإسلامى، ودليل على الارتباط بالله سبحانه وتعالى فـ «الله نظيف يحب النظافة..»[٦٠].

ثالثاً: العصر الإسلامى وتمام الرحمة :

كانت بعثة النبى ﷺ رحمة شاملة للعالمين، ومحوا لأوضاع الجاهلية المتناقضة، أخرجت الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، ومن جور السلطان إلى عدل الديان، ومن قسوة أهل المال والثراء إلى رحمة أهل الإيمان والصفاء، فتنسمت البشرية العافية، ورجعت للفطرة، فتشكلت ـ من أكداس الذخائر البشرية الخام التى ما كان أحد يعرف غناءها ـ خير أمة أخرجت للناس، سرى فيها الإيمان فأشعل مواهبها، وأطلق طاقاتها، وأشاع رحماتها وأحيا مواتها، فإذا بالذي يئد ابنته وهى تزيل التراب عن وجهه.. سفير رحمة ومشعل هداية، ومنارة هدى، وينبوع حنان "لقد أدار نبينا محمد ﷺ مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب.. وقوى ومواهب. أصاب الجاهلية فى مقتلها أو صميمها، فأصمى رميته. وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحوا نحواً جديداً، ويفتح عهداً سعيداً، ذلك هو العهد الإسلامى الذى لا يزال غرة فى جبين التاريخ"[٦٠] وعلى مرِّ الأيام، وتطاول السنين لم يخبأ قبس الرحمة الذى أناره رسول الهداية فكان الملاذ للبشرية الحائرة، والمروض للأنفس النافرة، والسراج لليلة المظلمة والدليل للمفازة المهلكة، والبوصلة للبحر الخضم،

فوضع عن البشرية إصرها وأزال الأغلال التى كانت عليها، وحلق بها فى سماوات الرفق والتراحم.

واليوم - فى ظل ظلم النظام العالمى السافر لكل ذى عينين - تتعاظم الحاجة لرحمة الإسلام أن تسود العالم .. لتشيع الأمن والطمأنينة، والسكينة والاستقرار.. ولتخلص البشرية من ازدواجية المعايير، وانحياز المنظمات العالمية وسطوة التجمعات الاقتصادية، وغلبة القيم الرأسمالية الغربية، وعولمة الثقافة المادية، وسيطرة اليهود الغاصبين.

خاتمة :

وأختم كلمتى، أيها الإخوة المؤتمرون، بكلمات ناطقة مسمعة مضيئة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب، يوصى مالك بن الأشتر حين ولاه ولاية مصر تلك الوصية المفصحة التى تتجلى فيها معانى لا تخرج إلا من قلب سليم، قال رضى الله عنه وأرضاه " اعلم يا مالك أنى قد وجهتك إلى بلاد قامت فيها دول من قبلك بالجور والعدل، وإن الناس سينظرون فى أمرك فى مثل ما كنت تنظر إليه من أمور الولاة قبلك، فلتكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، وأشعر قلبك الرحمة بالرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكن عليهم سيفاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخوك فى الإسلام وإما نظيرك فى الخلق..يفرط منهم الزلل، وتغلب عليهم العلل، ويؤتى على ايديهم من العمد والخطأ .. فأعطهم من عفوك وصفحك مثلما تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووال الأمر عليك فوقك ،والله من فوق من ولاك»، وبمثل هذه المعانى المصقولة والمضامين المحبوكة، والمبادئ المرغوبة تسعد الإنسانية وتنعم، وعلى مثلها تنهض الشعوب وتصعد.. اللهم صل وبارك على نبيك وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامـــش

(١) التغابن ٢ .
(٢) الأنبياء ١٠٧ .
(٣) العالم المعاصر والصراعات الدولية، سلسلة عالم المعرفة، ص٩٣-٩٤ .
(٤) البعد الإنسانى المفقود فى الحياة المعاصرة - د. محمد فتحى عثمان - ص (٧-٨).
(٥) بصائر ذوى التمييز للفيروزآبادى (٣/٣٥،٥٤,).
(٦) الأحزاب ٤٣.
(٧) الملك ١٥ .
(٨) الجاثية ١٣ .
(٩) يونس ٥٨.
(١٠) إبراهيم ٤.
(١١) مسند الإمام أحمد، ج ٥، ص٢٢٣، رجاله ثقات وثقهم ابن حبان.
(١٢) البقرة ١٩٥ .
(١٣) صحيح البخارى، كتاب النكاح، باب الترغيب فى النكاح، ح رقم ٤٦٧٥ .
(١٤) صحيح البخارى، كتاب النكاح، باب لزوجك عليك حقاً، ح رقم ٤٨٠٠ .
(١٥) سنن الترمذى، كتاب الزهد، ج رقم ٢٣٣٧ .
(١٦) الأنفال ٢٤ .
(١٧) لقمان ١٥ .
(١٨) الإسراء ٢٤.
(١٩) الروم ٢١ .
(٢٠) متفق عليه، واللفظ للبخارى، الفتح، ج ٦، ص ١٣٠٣ .
(٢١) الحج ٧٨ .
(٢٢) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة فى العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة (٦١-٦٥) بتصرف.
(٢٣) البقرة ١٧٩.
(٢٤) الفتح ٢٩.
(٢٥) البيهقى، كتاب الأدب، حديث رقم ١٦٧، وصححه الحافظ ابن حجر بقوله: أخرجه الطبرانى ورجاله ثقات.
(٢٦) الكهف ١٨٢٩, .
(٢٧) يونس ٩٩ .
(٢٨) الحجرات ١٣ .
(٢٩) الإسراء ٧٠ .
(٣٠) البخارى كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودى - ح رقم ١٢٢٩.
(٣١) الحجرات ١٣.
(٣٢) التوبة ٢٤ .

(٣٣) المتحنة ٨.

(٣٤) ينظر: غير المسلمين فى المجتمع الإسلامي - ص (٩-١٠).

(٣٥) مجموعة بحوث فقهية - ص (٧١-٧٢) بتصرف.

(٣٦) ينظر: غير المسلمين فى المجتمع المسلم - ص ١٠.

(٣٧) ينظر: المرجع السابق - ص ٣٥ - العلاقات الدولية فى الإسلام على ضوء الإعجاز البيانى فى سورة التوبة - د. كامل سلامة الدقس ص ٣٠٠.

(٣٨) المائدة ٤٥ .

(٣٩) عبد الرزاق فى المصنف ١٠١/١٠، والبيهقى فى السنن الكبرى: ك الجنايات ب بيان ضعف الخبر الذى روى فى قتل المؤمن بالكافر وما جاء فى ذلك عن الصحابة ٣٠/٨ وإسنادهما ضعيف.

(٤٠) التوبة ٦٠ .

(٦١) سنن أبى داوود، كتاب الجهاد، باب فى دعاء المشركين ج٣، ص ٣٧، ح رقم ٢٦١٤ .

(٤٢) مسند أحمد، ج ١، ص ٣٠٠ .

(٤٣) البداية والنهاية لابن كثير .

(٤٤) صحيح البخارى، كتاب الجهاد، باب التوديع ح رقم ٢٩٥٤ .

(٤٥) صحيح البخارى، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة، ح رقم ٥٥١٦ .

(٤٦) محمد ٤ .

(٤٧) الإنسان ٨ .

(٤٨) الروم: ٤١.

(٤٩) سنن أبى داوود،كتاب الطهارة، باب النهى عن البول فى الجحر، ح رقم ٢٧ .

(٥٠) سنن النسائى، كتاب الطهارة، ح رقم ٣٥ .

(٥١) مسند أحمد حديث كتاب باقى مسند المكثرين، باب باقى المسند السابق رقم ١٢٥١٢ .

(٥٢) انظر عون المعبود شرح سنن أبى داوود، ص ٤٥٨٣ .

(٥٣) ق ٦ .

(٥٤) الحجر ١٦ .

(٥٥) الكهف ٧ .

(٥٦) النحل ٦ .

(٥٧) ق ٧ .

(٥٨) النمل ٦٠ .

(٥٩) رواه مسلم.

(٦٠) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ابو الحسن الندوى، ص ١٥٩ .

الإسلام دين الإنسانية والضامن لحقوقها

الأستاذ/ أحمد جنتى
الجمهورية الإسلامية الإيرانية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، وصحبه المنتجبين.. وبعد:

السلام عليكم أيها المشاركون فى هذا المؤتمر الكبير، الذى يعقد فى كل عام للتركيز على قضية تهم الأمة الإسلامية جمعاء، أحييكم وأحيى من خلالكم مصر العزيزة، وأرجو للقائمين على هذا المؤتمر كل توفيق ونجاح، وأرجو لهم التسديد للوصول إلى أهدافه المرجوة. أركز فى بحثى هذا على نظرة الإسلام للإنسان وتأكيده على علاء الإنسان ورقيه وتطوره؛ وبالتالى أركز على ضمان الإسلام لحقوق الإنسان.. الأمر الذى يستطيع المسلم أن يتباهى به وهو فى القرن الحادى والعشرين، إذ استطاع الإسلام أن يأتى بنظرية حقوقية واسعة، فى زمان لم يعرف الإنسان أى معنى لهذه الحقوق. ولكنى قبل كل شىء أود أن أشير إلى الظروف الحساسة التى تمر بها أمتنا الإسلامية اليوم، حيث تواجه تحدياً كبيراً يبسط آثاره على مختلف المجالات. هذا التحدى اليوم يتخذ شعاراً براقاً، هذا الشعار هو العولمة، التى لا أراها اليوم إلا مرحلة متقدمة للرأسمالية بكل مضارها وكل رؤاها التسلطية والمادية، التى اكتوت البشرية بآثارها خلال سنين طويلة من العولمة.

إن العولمة - أيها الأخوة والأخوات - اليوم لا تعنى إلا أمركة العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية فى العالم، وإلا بسط هيمنة أميركا على كل جوانب الحياة الإنسانية، ومنها هيمنة أميركا على المنظمات الدولية، واستغلالها لصالح أهدافها التوسعية. إن هذه العولمة هى التى طرحت اليوم فكرة أن تقوم الولايات المتحدة بقيادة حملة أسمتها بالحملة ضد الإرهاب العالمى، وهى لا تهدف من ذلك إلا بسط نفوذها، وإلا ضرب كل ما يقف فى طريقها من عقبات، وإلا خنق صوت العالم المتحرر من ربقة أميركا، وسيطرة أميركا على مقدرات الأمور.

إننى أعتقد أن إعطاء الضوء الأخضر لشارون لكى يبسط قبضته الحديدية على الشعب الفلسطينى وليصنع ما صنع من مجازر، تشيب لها الأطفال، ويقضى على كل تصور لحقوق الإنسان، ويسحق شعباً بأكمله؛ إن الذى دفع أميركا لإعطائه الضوء الأخضر إنما هو رغبتها بالتسلط على العالم، واعتبارها الانتفاضة الفلسطينية ناقضة لأحلامها، ومعرقلة لخططها التسلطية. إن ما يحدث فى فلسطين اليوم يُقرح قلوبنا وقلوب كل المخلصين فى أنحاء العالم، ويبعث فينا من جديد الدواعى لإعادة النظر فى وضعنا الإسلامى العام وملاحظة نقاط الخلل فى هذا الوضع.

لماذا بلغنا إلى هذا الحد؟ ولماذا عدنا أمة غير فاعلة، لا تملك أن توقف هذا الإرهاب الشارونى عند حده؟ هذا الإرهابى يدنس كل مقدساتنا ويقتل أطفالنا ونساءنا ونحن نقف عاجزين أمام إجرامه وأمام جبروته؟!

إنها مسألة يجب أن نركز عليها، ويجب أن نخطط لتلافيها.

بعد هذا نود أن نقول: إن الإسلام ركز على إنسانية الإنسان، وجعل كل مخططه أن يعمق هذه الإنسانية فى الإنسان، وإذا تصفحنا كل النظام التربوى وكل النظام العبادى فى الإسلام، وكل النظام الأخلاقى فى الإسلام، فإننا سنجد أن الهدف الأول والأخير هو تعميق إنسانية الإنسان وجعلها إنسانية فاعلة توجه السلوك الإنسانى إلى الأهداف المطلوبة، ولا أدل على ذلك من تركيز الإسلام

على الفطرة، وطرح موضوع الفطرة بشكل قوى واضح، وتركيزه على أن الفطرة تقود الإنسان نحو التكامل، وهذا يعنى الدفع نحو التغيير المتواصل وعدم الجمود على مرحلة خاصة، والذى يضمن السير نحو هذا الكمال هو غريزة تدين الإنسان المتأصلة فى النفس الإنسانية، والموجودة فى كل مراحل التاريخ وعند كل المجتمعات التى لم تلوثها الشبهات، وإن كانت تطبيقات هذه المجتمعات خاطئة فى بعض الأحايين، تأثرًا بموارد الخطأ فى العقل، وتعمل هذه الغريزة بتناسق مع الغرائز الأخرى لتحقيق الهدف الإنسانى العام. إن التركيز على الفطرة يوضح تمامًا الهدف الإنسانى لكل التعاليم الإسلامية، ذلك أن نظرية الفطرة هى الحد الفاصل بين الإنسان وغيره من المخلوقات، وهى التى تشخص المسيرة الصحيحة للإنسان نحو أهدافه المطلوبة، وعندما يركز الإسلام أيضًا على أن منبع الحقوق ليس هو المصلحة، وليس هو المنافع الذاتية المشتركة، وليس هو التشريع الإنسانى الناقص، وليس هو العناصر القومية مثلا، أو العناصر الجغرافية مثلا، وإنما هو «الله» تعالى، الله البعيد عن الهوى، الله الرحيم بالإنسان، العالِم بما يصلحه، الله الذى هو اللطف بعينه، عندما يركز على أن منبع الحقوق هو الله تعالى، فهو بذلك يركز على أهم منبع لهذه الحقوق، لا يتأثر بالضعف والنقص والعواطف والميول وما إلى ذلك، وحينئذ فلا نتوقع من هذا التخطيط الحقوقى أو من هذا المنبع الحقوقى إلا كل ما فيه خير الإنسان وصلاحه، من هنا نجد أن الإسلام يؤطر كل نظمه بإطار إنسانى أخلاقى فلا يشذ عن هذا النظام مطلقًا.

إن الإسلام حينما يضمن العامل مثلا، فلا ينطلق من عنصر ضمان الإنتاج، وإنما ينطلق فى ذلك من عنصر ضمان الإنسان نفسه وكرامته، وهكذا تحدث عن باقى النظم الإسلامية الأخرى، فالنظام الحقوقى فى الإسلام يسعى مثلاً ليضمن الحقوق الفطرية الإنسانية ويعكسها على الصعيد التشريعى، معادلاً بين الحقوق والواجبات، وهذا ما نشهده فى مواضع عديدة، منها قوله تعالى: **﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾** البقرة : ٢٢٨.

والنظام الجنائى فى الإسلام أيضاً يمتاز بهذه الصفة الأخلاقية، التى تميزه تماماً عن باقى النظم الأخرى. إن الإسلام ينظر إلى كل ما يخالف التكامل

الروحى للإنسان باعتباره جريمة يعاقِب عليها عقاباً دنيوياً، كالحنث باليمين والخيانة، أو يوكِّل أمر العقاب إلى الآخرة، كما فى الغيبة والنميمة والحسد والحقد، بالإضافة إلى إمكان تصور التعذيب الدنيوى على هذه المعاصى، هذا بالإضافة إلى اعتباره الجرائم التى تمس المسيرة الاجتماعية الصحيحة جرائم أخلاقية، حتى فى حالة عدم الضرر الاجتماعى بها ظاهراً، كما فى مسائل شرب الخمر، هذا فى حين تعجز القوانين الوضعية عن علاج هذه الأمراض الأخلاقية ؛لأنها لا تقع تحت سلطتها بل ربما لأنها لا تأبه بها، وكثيراً ما تقع هذه القوانين فريسة الضعف البشرى والذوق العام، وهى غالباً ما تخدم الطبقات الحاكمة فتبشر بأخلاقها، وهو ما وجدناه من التدنى الأخلاقى فى المجتمعات ا وضعية القائمة.

إن أخلاقياتنا لا تتعامل مع الخيال المفرط، وليست طوبائية النظرة، وإنما هى واقعية قائمة على أساس من علم إلهى بالواقع الإنسانى والواقع الكونى والعلاقة بينهما، وتقدير دقيق لهدف الخلقة الإنسانية، ولذا فهى تتجنب أى تقدير كاذب، وتسعى للرقى المعنوى. إن الأخلاقية الإسلامية لم تطرح أهدافاً ومبادئ عليا تاركة إياها بدون تفصيل لها، ولكيفية تحقيقها، وإنما هى إذ تطرح مفهوم العدالة مثلاً تعطى التخطيط الكامل لها، والأساليب العملية التى يتم تحقيقها بها وعندما تطرح فكرة تزكية النفس، تعطى البرنامج العملى الدقيق الذى يحققها لئلا ينحرف السبيل بالإنسان عن الهدف الأسمى. إن أخلاقياتنا ليست أخلاقية مصلحية، وإنما أخلاقية إنسانية، ترمق الهدف العام كله، وتحاول أن تنسق كل أجزاء المسيرة مع هذا الهدف. إن الإسلام يعتبر كل خدمة فى سبيل الإنسانية هى خدمة فى سبيل الله، وهذا الربط الرائع بين سبيل الإنسانية وسبيل الله لا نجده فى أى تصور آخر، بعد هذا نقول: إن الدارس أو الباحث فى مجال الحقوق الإنسانية يعترضه هذا السؤال: ماهى الوسيلة التى نستطيع من خلالها الوصول إلى المصاديق التفصيلية الحقيقية للحقوق؟

وفى مجال الإجابة على هذا السؤال لا نجد أمامنا إلا سبيلين لا ثالث لهما:

السبيل الأول: سبيل الاستقراء الكامل للسلوكيات الإنسانية، وطرح كل الطوارىء واكتشاف المشتركات رغم اختلاف الظروف، مستندين فيه إلى وجداننا وإلى ضمائرنا وهو مقياس ناقص، ربما لا يمكن تحققه كما ربما لا يمكن الوصول لو أمكن تطبيقه إلى نتائج كثيرة.

السبيل الثانى: هو الدين باعتبار الوجدان دليلاً على أسسه التصورية من خلال القدرة العقلية التى تقود الإنسان إلى اكتشاف السر لهذا النظام الكونى الرائع، والوجود المطلق الكامل الذى خلق هذا الكون، هذا الوجود الغنى بذاته والعليم الحى اللطيف... إنه يوضح للبشرية الصورة التفصيلية لحقوقها الفردية والاجتماعية، ويكشف المنهج الأفضل للسير على طريق التكامل، فإما الاعتماد على الوجدان أو الإيمان بالدين، الذى هو بدوره وليد الإيمان بنظرية الفطرة الإنسانية فإذا أنكره أحد لم يكن من المنطقى له أن يتحدث عن حق وخلق إنسانى.

وهنا نذكر بأن مؤرخى الحقوق وتطورها يعبرون المرحلة الإسلامية فى خطوة طويلة حتى يبلغوا القرن الثامن عشر، حيث صدر الإعلان العالمى لحقوق الإنسان فى عام ١٧٨٩م، والذى عاد جزءًا من الدستور الفرنسى فى عام ١٧٩١م، غافلين أو متغافلين عن أن الإسلام بإشراقه على العالم قدم أروع لائحة تفصيلية لحقوق الإنسان، من خلال تعليمات القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وهو ما يشكِّل إلى الآن أساساً قانونياً لكل أنماط الممارسات الإنسانية للمسلمين عبر التاريخ، أما الإعلان الإسلامى الذى صدر مؤخرًا، فما هو فى رأيى إلا محاولة جيدة لكتابة هذه الحقوق المعلنة بالشكل المتعارف عليه اليوم، وإلا فإن الآيات التالية مثلاِ هى إعلان قانونى تاريخى لحقوق إنسانية ثابتة، يقول القرآن الكريم: **﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾** الإسراء: ٧٠.

ويقول تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** الحجرات: ١٣.

ويقول تعالى: **﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا﴾** المائدة: ٣٢.

وهكذا النصوص الشريفة الواردة عن الرسول الكريم ﷺ.

إننا نعتقد أن الإعلان الإسلامى لحقوق الإنسان، والذى وافق عليه المؤتمر الإسلامى التاسع عشر لوزراء الخارجية فى القاهرة، إعلان جيد وإن لم يكن قد استوعب كل الحقوق التى جاء بها الإسلام للإنسان، وتكفى مقارنة سريعة بين اللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان وبين رسالة الحقوق التى طرحها الإمام على ابن الحسين، زين العابدين رضي الله عنه فى القرن الأول الهجرى، تكفى لملاحظة عدم استيعاب اللائحة الإنسانية الإسلامية لحقوق الإنسان لكل هذه الحقوق، ولكنها - على أى حال - لائحة جيدة، وأعتقد أنها فاقت اللائحة العالمية أو المشروع العالمى لحقوق الإنسان بما طرحته من حقوق.

وأعتقد أيضًا أن الدستور الإسلامى فى إيران، والذى جاء بعد نجاح الثورة الإسلامية الكبرى التى قادها الإمام الخمينى ضد نظام الشاه الطاغوتى، هذا الدستور جاء بحقوق ربما فاقت ما جاء فى اللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان. لقد ركز هذا الدستور على الحق الإعلامى، والحق الأخلاقى، والحق التربوى والتعليمى، والحق فى حرية التحقيق، والحق فى الصراع ضد الاستعمار وضد الاستبداد، وركز كذلك على الحريات السياسية والاجتماعية، وحق تقرير المصير، وحق المساواة، وحق النظام الإدارى، وحق الدفاع عن النفس، وحق الرفاهية ومنع الحرمان، وحق الاكتفاء الذاتى على الصعيد الفردى والاجتماعى، وضمن الحقوق القضائية للجميع نساءً ورجالاً، وضمن حق العمل على تحقيق الأخوة الإسلامية، والتعهد بحماية المسلمين والمستضعفين، كما ضمن حق الشعب فى الانتخاب وتشكيل مجالس الشورى، وحق الدعوة إلى المعروف والنهى عن المنكر، وحق الاستقلال والحرية، ووحدة الأراضى، وحق الأسرة وتشكيلها كوحدة أساسية، ولزوم تشريع القوانين التى تيسر قيامها، وكذلك ضمن حقوق الحرية الدينية،

وحق التعامل مع غير المسلمين، وحق المساواة ونبذ التمييز، وحقوق المرأة التكاملية فى كل مراحل حياتها، وحق الحماية المعنوية للأشخاص، والحماية الفكرية والحماية الصحفية، وحماية الاتصالات، وحق تشكيل الجمعيات، وحق الاجتماعات والمسيرات، وحق المهنة، وحق الضمان الاجتماعى، وحق التربية والتعليم، وحق المسكن، وحق حماية الإنسان من الاعتقال، وحماية الإنسان من التبعية، وحق التحاكم، وحق المرافعة، والحماية من التعذيب، وحماية الكرامة الإسلامية وحماية المصالح العامة، وحق التجنس، والحقوق الاقتصادية، وحرية اختيار نوع العمل، ومنع الإضرار بالغير، ومنع الإسراف، وحق الاستفادة من مختلف المحصول العلمى، وحق زيادة الإنتاج، وحق الملكية الفردية والاجتماعية والتعاونية، وحق الأموال العامة، وحق الامتلاك والكسب المشروع، وحق احترام الملكية الخاصة، وحق المساواة فى الانتفاع من مصادر الثروة، ونفى الربا والرشوة والغصب، وحق حماية البيئة، وحق اطلاع الشعب على سير عمل النواب، وحق النواب فى إبداء رأيهم، وحق استماع المجلس النيابى إلى شكاوى المواطنين، وحق تشكيل مجالس شورى المدن والمحافظات.

وقد أكد هذا الدستور على أن القائد يتساوى مع كل الأفراد أمام القانون، كما أكد فى مادته ٥٤ على سعادة الإنسان والاستقلال والحرية، ودعم المستضعفين وأعطى الإنسان حق اللجوء، وإلى ما هنالك من الحقوق التى طرحها الدستور الإسلامى، والتى أعتقد أنها جاءت بأعم مما جاء فى اللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان، والتى هى بدورها ذكرت حقوقاً هى أكثر وأشمل من الحقوق التى طرحتها اللائحة العالمية، أو الإعلان العالمى لحقوق الإنسان.

وختامًا

أود أن أشير إلى نقطة مهمة، هذه النقطة هى: أن اللائحة العالمية لحقوق الإنسان مثلها مثل اللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان لا تملك أية صفة إلزامية، ولذلك فهما متصفتان بنقطة ضعف رئيسية هى صفة عدم الإلزام، لذا نحن بحاجة لأن نلزم أنفسنا، والبشرية بحاجة إلى أن تلزم نفسها برعاية حقوق الإنسان.

ولعل تكوين لجنة غير منحازة وغير متأثرة بأهواء الدول الكبرى والعظمى للإشراف على تنفيذ هذه الحقوق؛ هو أفضل وسيلة للوصول إلى المطلوب. أسأل الله - تبارك وتعالى - أن يوفق البشرية للاستهداء بهدى الدين الحنيف، والسير بخطىً ثابتة نحو تحقيق كل الحقوق الإنسانية الثابتة والصحيحة، وبالتالى السير الطبيعى نحو الهدف الإنسانى المنشود، والمجتمع الإنسانى العادل الكامل الذى تقوده السماء نحو الأهداف المنشودة.

حقوق الإنسان فى الإسلام

الأستاذ/ قاسم أحمد الأعجم

وزير الأوقاف والإرشاد الجمهورية اليمنية.

مقدمة :

الحمد لله الذى أنعم علينا بالإيمان، وهدانا صراطه المستقيم **﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾**.

والصلاة والسلام، على المنقذ من الضلال، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذى أخرج الناس من عبادة العباد، إلى عبادة الله، حرر العبودية ـ التى هى نزعة فطرية فى الإنسان ـ من التسليط والاستعباد، واسترد إنسانية الإنسانية، ووضع عن البشرية إصرها والأغلال التى كانت عليها.. وكانت النبوة، بكل المفاهيم والاعتبارات، والواقع الميدانى، والسياق التاريخى، ثورة تحرير، وانعتاق، ونسخ لألوهية الإنسان على الإنسان، التى تمارس تحت شتى العناوين والشعارات والادعاءات، لإخلاص الوجهة لله سبحانه وتعالى. ذلك أن الشر والظلم، تاريخياً، ناشئ من تسلط الإنسان على الإنسان، وتعدد الآلهة المتخذة من دون الله، والانحراف عن التوحيد، الذى يعنى فيما يعنيه. مساواة الخلق أمام الخالق، وبعد:

قد لا نأتى بجديد عندما نقول: إن الإسلام دين الفطرة، وإن الحضارة الإسلامية هى عطاء الفطرة، وإن خلود هذا الدين وامتداده، وقدرته على الإنتاج، والعطاء، مستمد من خلود الفطرة التى تتأبى على التشويه، والتبديل، وتمتلك إمكانية التجاوز، والتصويت، قال تعالى: **﴿فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾** (الروم : ٣٠).

غير أن هنالك صراعاً، وتدافعاً، بين الفطرة، التى فطر الله الناس عليها، وبين محاولات التشويه، والتبديل، والتضليل والاغتيال لهذه الفطرة.

كما أن هنالك الكثير من القواعد والأفكار والتوجهات الإسلامية التى لم تسلط عليها الأضواء، بل ومازالت مجهولة من الكثيرين، مع أنها قواعد تقع فى بؤرة النظام الإسلامى، وتحتل مكان الصدارة فيه.

من ذلك تكريم الإسلام للإنسان، والحقوق التى كفلها الإسلام له، فى سبيل بناء الحياة وإقامة كيان الأمة، تلك القواعد والأفكار التى أمرنا الله تعالى بتنفيذها والعمل بها، ولقد وضع المسلمون الأوائل تلك الأفكار والقواعد فى مواضعها، فازدهرت على أيديهم الحضارة، وتحققت بجهودهم عمارة الأرض، ولكنها فى أيامنا هذه غيبت بين ما غيب من توجهات الإسلام وتعاليمه، مما دفع الكثيرين من خارج الإسلام إلى استغلال ذلك الغياب، والمناداة بالكثير من القواعد والتعليمات والأفكار التى هى من أصل الإسلام، والادعاء بأنهم أصحاب فضل على البشرية، ووجدوا من يتقبل تلك الادعاءات ويدعمها، ومن ذلك ما يتعلق بكرامة الإنسان وحقوقه.

وسنتناول فى هذه العجالة تكريم الإسلام للإنسان، وكذلك حقوق الإنسان فى الإسلام كما يلى:

الإنسان:

الإنسان مخلوق فريد صاحب عقل جوال، وإرادة قوية، وقابلية عظيمة للتعليم والارتفاع، والجهل والسقوط، يرتفع إلى مستوى الملائكة، ويهبط إلى مستوى الشيطان، دائم التذبذب، مشوب العاطفة، يملك روحاً تشده إلى خالقه، وجسماً وشهوات تهبط به إلى الأرض.. صانع الحضارة، القادر على هدمها وتدميرها.. يولد ولا علم له، ثم لا يموت حتى يكدس جبالاً من العلم والمعرفة.. انتدبه خالقه لعمارة الأرض، وعبادة الخالق.

كرمه وقدمه على سائر المخلوقات.. حمله الأمانة، وأمره أن يكون صالحاً مصلحاً، وأن لا يفسد فى الأرض، وأن لا ينازع الخالق ربوبيته، وأن لا ينصب نفسه معبوداً من دون الله سبحانه.

تكريم الإسلام للإنسان:

لقد منحت كافة الأديان السماوية الأهمية الكبرى للإنسان الذى هو أفضل وأشرف المخلوقات، وقد وصل هذا الأمر فى خاتمة الأديان وهو الإسلام إلى القمة، وقد ارتأى الدين الإسلامى حماية الحقوق المادية والمعنوية للإنسان بما نظمه الفقه، وأن حماية النفس التى تعتبر من الضروريات الأساسية فى كل الأديان.

كما أن الدعوة الإسلامية عالمية، موجهة للناس كافة، تقوم على الكرامة والحرية والعدل والمساواة. وفى إطار من هذه الشمولية كفل الإسلام للإنسان الحق فى الحياة، والكرامة، والعدل، وحق العمل، والأمان، وحق الهجرة. كما كفل للإنسان حرية العقيدة، والتفكير، والضمير، والرأى، والمسكن، والتنقل وغير ذلك من الحقوق الأساسية.

وصرح الخالق العظيم - سبحانه - بهذا التكريم فقال تعالى: **﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾**. (الإسراء : ٧٠).

وإن هذا التكريم ـ كما تدل الآيات والأحاديث ـ ليس خاصاً بعنصر دون عنصر، ولا بجنس دون جنس، بل الجميع سواء فى التكريم وقد قال النبى ﷺ: **«كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى»**.

فالكرامة الإنسانية يقدرها القرآن والسنة لكل من يتحقق فيه معنى الإنسانية.

كما أن الأسس التى قامت عليها دعوة الإسلام تعتبر الناس أمة واحدة لا تفرق بينهم الأجناس والألوان واللغات والعصور، وأنهم خلقوا ليتعارفوا ويتعاونوا **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾** (الحجرات : ١٣).

كما يسعى الإسلام لتوحيد البشرية على ما فيه صلاحها، وتدعو تعاليمه وتشريعاته إلى الخير بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل المخالفين بالتى هى أحسن، فلا ضغط على الحريات، ولا إكراه فى الدين، ولا فرض للأفكار والمعتقدات.

لقد ضمن الإسلام حقوق جميع الناس، ودعا إلى السلام العام بين جميع البشر فقال جل جلاله: **﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾** (البقرة : ٢٠٨).

فالإسلام مبنى على روحانية مفتوحة لكل الناس، وعلى الحرية والتسامح والعدل والمساواة، كما أن الإسلام يأمر بالعمل من أجل السلم فى العلاقات الدولية.

لقد اعتبر الإسلام الناس جميعاً أمة واحدة - الإنسانية تجمعها وإن فرقت الأهواء، فالأصل واحد فالواحدة شاملة **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة﴾**(النساء :١).

وقد جاء فى سورة البقرة التصريح بأن الإنسانية أمة واحدة **﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين...﴾**(البقرة : ٢١٣).

وكما حارب الإسلام فكرة التمييز بالألوان حارب التمييز بالعنصر والجنس، فالناس جميعاً لآدم، كما حارب الإسلام العصبية القومية والإقليمية ليكون العدل هو السائد، ولكى تكون المودة بين الناس وفى كل بقاع المعمورة.

المقصود بحقوق الإنسان:

كلنا يعرف - اليوم - المقصود بحقوق الإنسان أنها مجموعة من الحقوق المتأصلة واللصيقة بطبيعتنا البشرية، والتى لا يتسنى لنا بغيرها أن نعيش حياتنا بكرامة واحترام.

حقوق الإنسان والثورة الفرنسية:

فى ١٠ ديسمبر الماضى، احتفلت الأمم المتحدة بالذكرى الثالثة والخمسين لإعلان حقوق الإنسان، أى أنه تم إعلانها فى مثل ذلك اليوم من عام ١٩٤٨.

ولإعلان حقوق الإنسان فى العالم الحديث قصة تقوم على الجرأة والمغالطة، ذلك أن مؤرخى الغرب نسبوا إعلانها إلى الثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩م، فقد كان من نتائجها وما تمخض عنها إعلان حقوق الإنسان، والتى يتلخص مضمونها فى أن الناس يولدون أحراراً متساوين فى الحقوق، وأنه يمكن للإنسان أن يفعل ما لا يضر بغيره، ومن حق الناس أن يفكروا ويكتبوا، ويطبعوا فى حرية، ولأفراد

الأمة الحق المطلق فى إدارتها، والعمل على ضمان حقوق الأفراد مع عدم الإخلال بالمصلحة العامة.

وكان الشعار لمضمون هذه الحقوق ثلاث كلمات «الإخاء والحرية والمساواة».

وبذلك قيل إن الثورة الفرنسية كان لها الفضل فى إعلان حقوق الإنسان، وأنه قبل هذه الثورة كانت حقوق الإنسان مضيعة فأعلنتها هذه الثورة فى ميثاقها.

ومع مرور الأيام، ظل هذا يردده كبار المؤرخين الغربيين، ويتناقله عنهم غيرهم، وفرض فى مناهج التعليم فى مدارس الشرق والبلاد الإسلامية.

الأمم المتحدة وإعلان حقوق الإنسان:

ثم انتقل هذا الأمر فى العصر الحديث إلى مرحلة أخرى كانت رهناً بإنشاء الأمم المتحدة والتى رأت أن ما أعلنته الثورة الفرنسية من حقوق الإنسان يحتاج إلى إعادة النظر فيها لإضافة مبادئ جديدة إليها توائم التطور الاجتماعى، ومن ثم ألف لهذا الغرض لجنة انتهت إلى ميثاق جديد لحقوق الإنسان أعلنته فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٤٨م فى قصر شايو بفرنسا.

ويتكون هذا الميثاق الجديد من ٣٠ مادة، نصت المادتان الأولى والثانية منه على ما يأتى:

«يولد البشر جميعاً أحراراً متساوين فى الكرامة والحقوق، وأن لهم التمتع بكافة الحريات المعلنة فى الميثاق، دون التمييز بسبب العرق، أو اللون، أو الدين، أو الرأى السياسى، أو الثروة، أو النسب أو غير ذلك من الأسباب».

وتناولت المواد من الثالثة إلى الثانية والعشرين تقرير الحقوق المدنية والسياسية للإنسان، فنصت على حقه فى الحياة والأمن على شخصه، والتحرر من الاسترقاق والاستعباد والتعذيب، ومن المعاملات والعقوبات القاسية أو الوحشية أو المحطة بالكرامة، مع الاعتراف له بشخصه أمام القانون، وحقه فى الانتصاف أمام المحاكم، والتحرر من القبض ومن الاعتقال والنفى قسراً.. ومن ذلك أيضاً التحرر من التعرض التحكمى فى حياته الخاصة أو أسرته أو منزله أو مراسلاته، وحريته فى التنقل، وله الحق فى اللجوء والتملك، مع ضمان حريته فى الفكر والعقيدة والتدين وحرية الرأى والاجتماع أو تكوين الجماعات، وله الحق فى حكم بلده، والحق فى المساواة فى تقلد الوظائف العامة.

وتناولت المواد من الثالثة والعشرين إلى الثلاثين، الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بما فى ذلك الضمان الاجتماعى، والحق فى مستوى معيشى كاف للصحة والرفاهية، والحق فى التعليم، والحق فى الاشتراك فى حياة المجتمع الثقافية، كما نص أيضاً على أن لكل إنسان الحق فى نظام اجتماعى ونظام دولى يتحقق فيهما ما سبق إيضاحه من الحقوق والحريات تحقيقاً كاملاً مع تأكيد واجبات الفرد ومسئولياته فى المجتمع.

هذه خلاصة شاملة لما تضمنه إعلان حقوق الإنسان فى الأمم المتحدة وما سبق أن أعلنته الثورة الفرنسية فى هذا الشأن.

المساواة بين الناس:

فمن ذلك مثلاً أن الإسلام أعلن المساواة بين الناس فى الإنسانية، وفى الحقوق والواجبات.

وهذه قضية قررها الإسلام وأكدها فى أكثر من مناسبة، فلا مفاضلة عنده بين جنس وجنس، ولا بين لون ولون، ولا بين غنى وفقير. وميزان المفاضلة عنده هو التقوى والعمل الصالح لخدمة الجماعة الإنسانية، قال تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** (الحجرات: ٦٣).

وبهذا أصبح بلال الأسود أخاً لأبى بكر المنسب القرشى، كما أصبح صهيب الرومى وسلمان الفارسى أخوين لجميع المسلمين، ولم تعد هناك نعرة الأصل والحسب.

وجرى العلماء فى الإسلام على استعمال تعبير العدل للدلالة على المساواة، اشتقاقاً من المعنى اللغوى لكلمة العدل التى تعنى التسوية فى المعاملة، ويتحدثون عن العدل بمعانيه العديدة: سياسية، واجتماعية، واقتصادية.

وقد تقرر مبدأ المساواة فى عديد من الآيات القرآنية والسنة النبوية؛ لأنها شريعة سماوية تخاطب البشر أجمعين دونما تمييز بسبب الدين أو اللغة أو الأصل أو الحرفة أو الطبقة الاجتماعية، ولذلك أمرت بالعدل ونهت عن نقيضه وهو الظلم. من ذلك قوله تعالى: **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾** (النساء : ٥٨).

والحديث الشريف يقول: «**أحب الخلق إلى الله إمام عادل، وأبغضهم إليه إمام جائر**».

وإعمالاً لهذا المبدأ أجمع العلماء على أن جور الحاكم من بين أسباب عزله، بل إن بعض المذاهب تجيز الخروج عليه والثورة ضده بسبب جوره، والأمر بالعدل والنهى عن الظلم خطاب عام للمسلمين وغيرهم؛ ولذلك حرص الإسلام على أن يفرد بالذكر العدل مع الأعداء، من ذلك قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾** (المائدة: ٨).

حق التعليم:

وكما أعلن الإسلام حق المساواة أعلن أيضاً أن التعليم حق لكل مواطن، بل انفرد بجعله فرضاً من الفروض، ولم يُسبق فى جعل التعليم فرضاً وضرورة. قال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**».

هذا إلى جوار ما أرشد إليه من مكانة العلماء وفضلهم على غيرهم؛ وذلك حثا للناس على التسابق فى ميدانه، قال تعالى: **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾** (المجادلة: ١٣).

وربما ظن بعض الناس أن الإنسانية مدينة لهذه أو تلك بإعلان حقوقها، وهذا هو عين المغالطة والافتراء على الحق.

الإسلام وحقوق الإنسان:

الحقيقة التى ينبغى أن يعرفها كل إنسان، هى أن الإسلام أعلن حقوق الإنسان كاملة مكتملة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، أعلنها الإسلام فى وقت كان مجرد تشوف الإنسان إلى أن يعرف بعض حقه، وأن يعتز بكيانه، وأن يصبح حراً فى مجتمعه، قبل أن تعلن فرنسا بعضها منذ أكثر من اثنى عشر قرناً، وقبل أن تعلنها الأمم المتحدة بنحو ألف وثلاثمائة وثمانين عاماً.

وأعلنها لا لشعب بعينه، ولا لأمة دون أمة، ولكنه أعلنها للناس جميعاً.

وحين رغب ياسر وسمية وبلال وغيرهم من الضعفاء فى المجتمع المكى المتمتع بحرية العقيدة فى الانضمام إلى الإسلام لقوا من ضروب النكال الشىء الكثير لمجرد أنهم أبوا أن يطيعوا سادات مكة بالبقاء على عبادة الأصنام.

أما الإسلام فلم يحمل أحداً بالقوة على اعتناقه، وأعلن أن حرية العقيدة مكفولة فى ظله وتحت رايته، ولم يستجب رسول الله ﷺ إلى دعوة طفيل بن عمرو الدوسى حين رغب إليه أن يرسل معه قوة محاربة على حمل قومه على الإسلام بالقوة وقال: «**عد إلى قومك فادعهم وارفق بهم**».

وجاءه - عليه الصلاة والسلام - صحابى من أهل المدينة يسأله أن يحمل ولديه على الإسلام بالقوة. فنزل قول الله تعالى: ﴿**لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾ (البقرة : ٢٥٦).

ولم تكن حرية العقيدة وحدها هى التى عنى الإسلام بتحقيقها، فهناك الحريات الأخرى التى أعلنها، وعلى سبيل المثال أعلن حرية العبادة، والحرية الشخصية، وحرية القول والنقد والمراقبة مما نسمية الحرية السياسية، والحرية المدنية للمتمتع بأهلية التصرف.

وهناك أبعد من ذلك حرية محاسبة الحكام، فقد جاء رجل إلى عمر بن الخطاب وقال فى معرض حديثه: «**اتق الله يا عمر**» فغضب بعض الجالسين من قوله واستنكروا أن يقول هذا لأمير المؤمنين، فرد عليهم عمر بقوله: «**دعوه فليقلها، فلا خير فيكم إن لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إن لم نسمعها منكم**».

إلى غير هذا مما كان يجرى على رؤوس الأشهاد فى معرض التمتع بالحريات فى ظل الإسلام.

ولا يتسع المقام للحديث هنا عن حقوق الإنسان التى أعلنها الإسلام ولذا فإنى أكتفى بذكر بعضها والإشارة إلى باقيها:

حق الملكية:

أما حق الملكية فكان له من رعاية الإسلام ما يشعر بضمانه لهذا الحق، فالتملك بالطرق المشروعة والكسب الشريف من أسمى الغايات عنده، وحمى هذا الحق بسياج قوى متين طالما لم يقم على استغلال الناس أو بأسباب غير مشروعة.

حق الحياة:

وأعلن الإسلام حق الحياة، وأمَّن الناس على حياتهم كما أمَّنهم على أموالهم، قال تعالى: ﴿**ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق**﴾ (الإسراء : ٣٣).

ولما كان الأمن يدور على الحفاظ على هذين الحقين: حق الحياة، وحق المال، نرى رسول الله ﷺ يؤكدهما فى خطبة الوداع فيقول: «**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب**».

حقوق أخرى :

وهناك من الحقوق الأخرى التى أعلنها الإسلام وأكدها: حق حفظ العرض وصيانته، ولذا نراه يفرض أشد العقوبة على المستهين والمجترئ على حرماته كما بين حقوق الأسرة والوالدين، حتى من يعملون فى الأسرة أمر بالاهتمام بهم والعناية بأمرهم.

حق العمل :

يهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بقيمة العمل، ويدعو الناس إلى أن يعملوا بكل جهدهم لتعمير الأرض، واستغلالها إلى أقصى مدى لمصلحة الإنسان، يقول سبحانه وتعالى: ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾ (هود:٦١)، وقوله: استعمركم فيها. أى جعلكم عمارها وسكانها تنتفعون بخيراتها أو فوض إليكم عمارتها كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾ (التوبة: ١٠٥).

وقال تعالى: ﴿**ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون**﴾ (الأعراف : ١٠).

وقال رسول الله ﷺ : «**إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فليغرسها**». وواضح أن الحديث يدعو إلى العمل الدائب المستمر والذى لا يتوقف حتى فى حالة انتهاء عمر الأرض وقيام الساعة. وحتى لا يكون فى الإسلام مكان لمتخلف أو مهمل أو كسلان. فهذا كله يتعارض مع الإسلام.

كما نجد فى العديد من النصوص التى وردت فى مصادر الشريعة ما يفيد أن العمل حق لكل شخص، ويضمن الإسلام لكل أفراد المجتمع: العدالة فى ممارسة العمل الشريف، والأجر المناسب، لأن ذلك كله من أداء الأمانات، والوفاء بالحقوق، والقيام بالعدل والإحسان كما فى قوله تعالى: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾ (النساء: ٥٨)، وقوله عز وجل: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان**﴾

(النحل الآية ٩٠)، ثم إن العمل فى الإسلام ضرورى لسد حاجة المجتمع، وعمران الكون، وفى حماية الشريعة الإسلامية للعاملين وضمان الأجر العادل لهم، ورد قوله ﷺ : «**أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه**». رواه ابن ماجه.

حق الإنسان فى التكافل الاجتماعى:

أما موقف الإسلام من التكافل الاجتماعى وحق الإنسان فى أن يعيش فى مستوى لائق فإنه يعتبر بحق ثورة محطمة للأنظمة الاجتماعية التى سبقته، ومهما تقدم الإنسان وتطور فى مختلف العصور فلن يجد خيراً مما أعلنه الإسلام فى هذا الشأن.

فقد جعل على الدولة رعاية كل فرد فيها، وفى سبيل ذلك جعل للفقراء والمساكين ريعاً مما تحصله الدولة من أموال الزكاة.

ليس هذا فحسب بل إن هذا النصيب إذا لم يف بحاجة الفقراء والمساكين فيجعل حقاً آخر على الأغنياء يستوفى منهم لحاجة هؤلاء، وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «**إن الله فرض على الأغنياء من أموالهم بقدر ما يسع فقراءهم**»، ويقول: «**إن فى المال حقاً سوى الزكاة**».

وهكذا نجد أن ما أعلنته الثورة الفرنسية، وما أعلنته المنظمة الدولية من حقوق الإنسان ليس جديداً على الإنسانية، وأن الإسلام سبق بقرون بإعلان هذه الحقوق والحفاظ عليها.

وأى حق فى حقوق الإنسانية يقال إنه جديد فى هذين الإعلانين قد أغفله الإسلام ولم يوجه إليه؟

الحق أنى لا أجد فى هذا المقام شيئاً جديداً يمكن أن يقال إنهما تفردتا أو امتازتا به عما أعلنه الإسلام.

وربما قيل: إن ميثاق الأمم المتحدة نص على إلغاء الرق بينما لم يعلن الإسلام هذا ضمن حقوق الإنسان.

وما أيسر الرد على هذا فميثاق الأمم المتحدة حين أعلن إلغاء الرق نص على إلغاء شىء لا وجود له فى معظم أنحاء العالم، أما الإسلام حين جاء كان الرق ظاهرة اجتماعية فى كل مكان، فاقتضت حكمته ألا ينص على إلغائه دفعة

واحدة، وإنما اتخذ مما سنه فى هذا المضمار وسائل حكيمة للقضاء عليه رويداً رويداً ومن هذا:

أولاً: أنه ضيق فى سببه وكان له أكثر من سبب، فقصره على أسرى الحرب من أعداء الإسلام الذين يرى الإمام عقابهم بهذا، وليس ضرورة أن يعامل به كل الأسرى فهناك المن وهناك الفداء وهناك أيضاً هذا الاسترقاق.

ثانيا: حبب فى عتق الرقبة قربة يتقرب بها العبد إلى الله.

ثالثاً: جعل العتق كفارة لبعض الذنوب.

رابعاً: جعل ثمن حصيلة الزكاة كل عام لشراء أرقاء وإعتاقهم باسم الدولة فى سبيل الله.

خامساً: أباح مكاتبة الرقيق على مال ليحصل به على حريته يؤديه على أقساط لمالكه، وهكذا نجد أن الإسلام وضع الوسائل التى تؤدى إلى اضمحلال الرق مع الأيام لينهى أمره بهذه السياسة الحكيمة التى سنها.

ومن خلال الجوانب المختلفة التى تطرق إليها البحث باختصار، يتأكد أن أحكام وحقوق الإنسان التى جاء بها الإسلام لا يضاهيها أحكام وتشريعات أى تنظيم اجتماعى آخر.

وصدق الله العظيم القائل فى محكم كتابه: ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾ (الإسراء : ٧٠).

ختاماً: علينا أن ندرك أن الإسلام جاء ديناً مشتملاً على كل مطالب الإنسان الروحية والمادية والعاطفية.. إلخ، فعلينا أن نترجم هذه المعانى إلى أرض الواقع.

كما لا يفوتنى أن أشكر القائمين بتنظيم هذا المؤتمر، وأحيى الحاضرين.

وفقكم الله، وسدد على طريق الحق والخير والعلم خطاكم،

والسلام عليكم وورحمة الله وبركاته.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

- تفسير القرآن.

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبدالباقى.

- السيرة النبوية - ابن هشام.

- المستقبل للإسلام - الدكتور أحمد على الإمام.

- أنفاق العفو فى الإسلام - الدكتور يوسف إبراهيم يوسف.

- نحن والحضارة والشهود - الدكتور نعمان عبدالرازق السامرائى.

- الإسلام وحقوق الإنسان - الدكتور محمد حمد خضر.

- النظرية السياسية الإسلامية فى حقوق الإنسان الشرعية - الدكتور محمد أحمد مفتى والدكتور سامى صالح الوكيل.

- القيم الأساسية والأصلية التى تشكل الشخصية الإسلامية - الأستاذ/ محمد نورى يلماظ، بحث مقدم إلى المؤتمر العام الثانى عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - يونيو ٢٠٠٠م.

- أسس الحوار الإسلامى بين الأديان - الأستاذ الدكتور/ إدريس العلوى العبدلاوى، بحث مقدم إلى المؤتمر الثامن للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - يوليو ١٩٩٦م.

- مكان الإعلان العالمى لحقوق الإنسان - الدكتور ياسين الشيبانى، بحث منشور فى مجلة الثوابت العدد ٢٣ (يناير - مارس ٢٠٠١م).

- حقوق الإنسان - الدكتور عبدالمنعم البهى، بحث منشور فى مجلة العربى الكويتية عدد ١٣٦ (مارس ١٩٧٠م).

- الحوار بين الأديان - الأستاذ الدكتور صوفى أبو طالب، بحث مقدم إلى المؤتمر العام الثامن للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة - يوليو ١٩٩٦م.

- القيم المتصلة بالعمل من المنظور الإسلامى - الأستاذ الدكتور جعفر عبدالسلام، بحث مقدم إلى المؤتمر الثانى عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية (القاهرة - يونيو ٢٠٠٠م).

حقوق الإنسان فى الإسلام

الأستاذ / أفلح بن أحمد الخليلى

سلطنة عمان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعـد :

فقد تلاعبت الأهواء بحقوق الإنسان بعد أن رسخت شريعة الغاب فى حياة البشر فلا شريعة تطبق ولا عقل يستضاء بنوره بعد أن تطايرت زبالته بأعاصير الأهواء.

لذا كان لزاماً على المسلمين أن يرفعوا عقيرتهم لينادوا العالم أجمع بنداء الإسلام فى حقوق الإنسان المضاعة حتى يعود للكون صلاحه وتعود للإنسانية سعادتها.

ولا يخفى على أحد كيفية رعاية الشريعة الإسلامية لحقوق الإنسان إذ هو القطب الذى تدور عليه رحى الكون ، فلذا كرمه الله تعالى ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**﴾ [الإسراء (٧٠)]

كرمه بأن جعله خليفة فى أرضه ونفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء وأسجد له الملائكة وسخر له منافع الكون الظاهرة والباطنة وغير ذلك .

وحقوق الإنسان كثيرة والنصوص فيها متعددة ، بل ما جاءت الشرائع إلا لمصلحة الإنسان ولتحقيق حقوقه ، ولطول الموضوع وكثرة الكتابات حوله اخترت أن تكون سطورى حول حق الجانى وأن أضع صورة بسيطة عنه إذ بإثبات حق الجانى يثبت حق غيره من باب أولى.

وقسمته إلى ثلاثة محاور:

- **المحور الأول :** حقه فى إبعاده عن الجريمة.
- **المحور الثانى:** حقه قبل ثبوت الجـريمة.
- **المحور الثالث:** حقه بـعـد ثـبـوتـهـا.

المحور الأول : (حقه فى إبعاده عن الجريمة)

الشريعة الغراء لكونها ربانية المصدر تقطع حبال الشيطان وتجتث سمومه من جذورها وتسد فى وجهه المنافذ فلذا راعت الأسباب التى توقع فى الجنايات بأسرها فألقت بعضها بسديد توجيهاتها وهذبت البعض الآخر ووجهته الوجهة المرضية.

فأحاطت المجتمع بالكثير من القيود الأدبية للرجال والنساء تحول دون الوقوع فى الزنا كوجوب الستر وغض البصر عن جميع المحرمات - أكانت مباشرة أم غير مباشرة - كوسائل الإعلام، ونهت النساء عن التغنج فى الكلام أو أن يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، ومنعت كل ما يؤدى إلى الفاحشة من الاختلاط والمصافحة وغيرها.

وحثت على الزواج وأمرت بتيسير مؤنه، وأرشدت إلى الصيام عند عدم التمكن من النكاح.

وأمرت بالزكاة ورعاية الفقراء والمحتاجين حتى لا تدفعهم النفس الأمارة بالسوء إلى السرقة والاحتيال بأنواعه، وأمرت الأمة أفراداً وجماعات بالتعاون فيما يكفل العيش لجميع أفرادهم ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾ [المائدة: ٣].

وبالنظام الاقتصادى الإسلامى الذى يحرم الغرر والغش وتلقى الركبان والربا وغيرها تتوزع الأموال ، ولا تكون دولة بين الأغنياء.

كما حرم الإسلام الظلم والاعتداء والازدراء والسب والإهانة وهى أمور تجر إلى ردة فعل عكسية تُودى بالأخضر واليابس فتؤدى إلى إزهاق الأرواح وسائر الاعتداءات الأخرى ، ومنع الحقد والحسد والحمية حذرًا من الوقوع فيما لا تحمد عقباه.

ولم يكتف الإسلام بالحل الجزئى للقضايا بل كسى المجتمع الحلل العامة التى تحـول دون الحـرام لأنه جـاء لحـفظ الضـرورات الخـمس وهى أجل مـقـاصـد الشـريعة ، حفظ الدين ، والنفس ، والعقل ، والعرض ، أو النسل ، والمال، فشغل النفوس بعبادته حتى تقطع وساوس الشيطان ، إذ هى تأخذ قسطاً من وقته كما أنها فى الوقت نفسه تذكى روح التقوى كما دلت عليه الآيات الكثيرة، فالله تعالى يقول **﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾** [البقرة (٢١)] (١)

وربط الإنسان بأخراه وبالوعد والوعيد فيها حتى تتطلع نفسه إلى نعيمها وتفرق من هول جحيمها فيبقى معلقاً بالخوف والرجاء فيجنبه ذلك المعاصى بأسرها ، ونبهه على القضاء والقدر فتستقر بذلك نفسه مع ما تلاقيه من الشدائد ولا تطغى إن أسبغت عليها النعم.

كما أن شعوره الدائم بوحدة المنعم يجعله مرتبطاً بشكره ، وجعل الإسلام المفاضلة بين المؤمنين والكافرين بالحب فى الله تعالى وبالبغض فيه حائلاً عن التبعية ، وبيَّن حقيقة الدنيا وحث على الزهد فيها ، وأظهر أهمية العلم، وهو بدوره يقى من المزالق لمعرفته بمغبتها ، وبالإضافة إلى ذلك فالله قص علينا فى كتابه أخبار الصالحين والطالحين وأنبأنا بعاقبتهم المتباينة لتشتاق نفوسنا أن تكون مع الأولين، إذ هم نماذج للاقتداء، وتربأ أن تكون مع الآخرين حتى لا تؤول إلى ما آلوا إليه .

هذا مع سمو فى العلاقات الاجتماعية ، فهو يحكم العلاقة بين الأب وأولاده والعكس، وبين الزوجين، وبين الإخوة وغيرهم من الأقارب ، مع أمره بحسن التربية التى من شأنها تطهير النفس وإذكاء الروح ، كما حذر من مغبة مرافقة صاحب السوء حتى لا يجره إلى اتباع سلوكه .(٢)

كما أن الشريعة اتخذت خط دفاع فى وجوه المفسدين بسد الذرائع ، فسدها يقطع المشكلة قبل استفحالها بل ويضعفها حتى بعد قوتها .(٣)

وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة من الكتاب والسنة .

ولذا قال صلوات الله وسلامه عليه: «**لا يرث القاتل المقتول، عمداً كان القتل أو خطأ**» [٤].

ومن هذا المنطلق قال الإباضية بحرمة نكاح الزانى بمزنيته حتى لا يوقع السفهاءُ النساءَ فى حبالهم بأمانى الزواج بعد ذلك .[٥]

ولا بد أن يتعامل به الساسة والعلماء - بشروطه طبعاً- حتى يصلوا إلى تطهير المجتمع بالعلاج الوقائى ، وهو ضرورى للإنسان مع نفسه ومع مجتمعه.

المحور الثانى: (حقه قبل ثبوت الجريمة)

١- أصلية براءة الذمة :

الأصل فى الشرع عدم ثبوت الجريمة وعلى مدعيها الإثبات لقوله ﷺ: «**البينة على من ادعى واليمين على من أنكر**»[٦].

فالأصل براءة الذمة كما يقررها الحديث الشريف ولابد لمدعيها من دليل يدعم قوله ، فإن لم يكن عنده الدليل توجهت اليمين على المدعى عليه ولا يثبت عليه الحق إلا باعتراف صريح أو ضمنى إن لم توجد بيِّنة .

وأحياناً يستحق المحاول لانتهاك البراءة الأصلية للعقوبة الصارمة التى تقطع لسان المتطاول ما لم يتبع دعواه بالبرهان الساطع، فالله تعالى يقول: ﴿**والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون**﴾ [النور (٤)] .

بل حتى لو ثبتت الجريمة ووُجِدَتْ شبهة فإنها تمنع الحد ، لأن الحدود تُدْرَأ بالشبهات على خلاف بين العلماء فى تحديد الشبهات المعتبرة .

إلا أن أصلية براءة الذمة لا تعنى أن المتهم لا تتخذ معه الإجراءات التى تكشف حقيقة القضية فلذا «**حَبَس النبىُّ ﷺ فى تهمة**»[٧] حتى لا تضيع الحقوق الأخرى ، وذلك عند وجود القرائن المؤكدة لتهمته خصوصاً إذا كان المتهم من غير ذوى الصلاح ، إذ التهمة فيه أقوى.

٢- التعامل معه بالظاهر :

وهو من حقوقه فلا يصح التفتيش عما تكنه القلوب، إذ نحن غير متعبدين إلا بما ظهر، وما خفى فحسابه على من لا تخفى عليه خافية، ولذا اشتد إنكار النبى عندما قتل صحابىٌّ أحد المشركين بعد النطق بالشهادتين مدعياً أنه قالها فرقا من الموت فقال النبى ﷺ: «**هل فتشت عن قلبه**».[٨]

٣- حرمة التجسس عليه :

كما أن الإسلام حرم التجسس عليه بقوله تعالى: ﴿**ولا تجسسوا**﴾ الحجرات (١٢).

فـ (تجسسوا) فعل منفى فهو للعموم ، فحرمة التجسس على الكافر والمسلم على السواء إلا عند وجود تهمة قوية وضرورة لا محيص عنها .

وقد ضرب السلف الصالح أروع الأمثلة فى ذلك، فعمر بن الخطاب - عندما ذكر له عبدالرحمن بن عوف أن قوماً فى بيت ربيعة بن أمية بن خلف مجتمعون على شرب ، والقرائن تدل على ذلك لعلو أصواتهم - قال عمر : (أرى أنَّا قد آتينا ما نهى الله عنه !! قال تعالى: ﴿**ولا تجسسوا**﴾ وقد تجسسنا). فانصرف عنهم وتركهم .

وقد اختلف الفقهاء فى ذلك .[٩]

٤- حسن الظن به:

وهو أيضاً من حقوق جميع المسلمين فلا يمكن إغفاله ، وإساءته أكذب الحديث إلا فى حالات شاذة؛ لذا قيد الله الإثم ببعضه دون جميعه .

٥- الاختيار وعدم الإكراه فى الاعتراف:

ولا يمكن أيضاً إجباره على الاعتراف؛ لأن المكره لا يترتب على كلامه آثر لفقد شرط الرضا فيه لحديث النبى ﷺ «**رُفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما لم يستطيعوا وما أكْرِهوا عليه**»[١٠] إلا عند قوة القرائن، فالنبى صلوات الله وسلامه عليه حبس فى تهمة ، وذلك لا يخلو من إكراهه.

٦- تمكينه من الدفاع عن نفسه:

وذلك من مقتضيات براءته الأصلية، ولذلك لا يسوغ الحكم عليه إلا بعد السماع منه إذ قد يقدح فى الشهود بالفسق ويبرهن على ذلك بدليل معتبر، أو بقاربة من المشهود له -عند من لا يجيز شهادة القريب لقريبه - أو بحقد عليه.

كما أنه قد يستند إلى بينة معاكسة تبطل الدعوى من أساسها، ولم يكتف الشارع بتمكين المتهم من الدفاع بل القاضى أحيانا- فيما يتعلق بالحدود- يبحث للمتهم عن المخارج، لذا ورد فى الحديث للمعترف بالسرقة «**ما أراك سرقت**»(١١).

والنبي ﷺ كان يلتمس العذر لماعز حتى يدفع عنه الحد، وهذا الحق ليس قبل ثبوت الجناية فقط ، بل هو حتى بعد ثبوتها ، فالحديث الأول اعترف فيه الرجل بالسرقة ، وماعز مُقِرٌ بذاته ، ومع ذلك فالنبى صلوات الله وسلامه عليه بحث عن عذر لهما.

المحور الثالث: حقوقه بعد ثبوت الجناية :

حتى لو قامت البراهين القطعية ضد الجانى بتورطه فى شىء من القاذورات لم يحرمه الشارع حقه قال تعالى :﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾ المائدة (٨)

فلذا أوجب له بعض الحقوق منها ما يلى:

١- **النصح له:** الدين النصيحة ومن أحق الناس بها المخطئون الذين ارتكسوا فى حمأة الرذيلة. بل رسل الله- عليهم وعلى نبينا أطيب الصلاة والسلام- بعثهم الله بعد فساد قيم الناس ونزولهم إلى الحضيض فى كل شىء ، لأن أولئك الأشخاص فى ذلك الوقت كانوا أشد حاجة إلى الأنبياء ليخلصوهم مما هم واقعون فيه.

والنبى ﷺ كان موجهاً للجناة وغيرهم فعندما ترافع عنده شخصان وعظهما بقوله: «**إنكم تختصمون لدى ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ..**»(١٢). إلخ، فهذا قبل ثبوت الجناية.

وبعدها أيضاً وعظ النبى - صلوات ربي وسلامه عليه - فعن أبى أمية المخزومى «**أن النبى ﷺ أُتى بلص فاعترف اعترافاً ولم يوجد عنده المتاع .. فأمر به فقطع ، فقال النبى ﷺ : قل: أستغفر الله وأتوب إليه، قال: أستغفر الله وأتوب إليه ، قال: اللهم تب عليه**»[١٣].

وهذا يعم أصحاب السجون وغيرهم فلا بد أن ننظر إليهم نظرتين :

الأولى: أنهم مجرمون يستحقون العقوبة.

الثانية: الرحمة والإشفاق فلا يصح أن تنسينا النظرة الأولى النظرة الثانية.

٢- فتح باب التوبة له:

فالله تعالى يقول : ﴿**إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً**﴾ النساء (١٧).

وهذه الآية تلت ذكر اللاتى يأتين الفاحشة واللذان يأتيانها ليحثهما على التوبة.

بل الله تعالى كثيراً ما أتبع المعصية العظيمة بذكر التوبة والتشجيع عليها ، فالله - جل ذكره - بعد أن ذكر عاقبة المشرك والزانى والقاتل فى سورة الفرقان قال: ﴿**إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ الفرقان (٧٠).

وقال أيضاً بعد ذكر عقوبة القاذف إلى غير ذلك من النصوص الصريحة الكثيرة.

وينبغى بعد توبة الجانى أن لا يُعَيَّر بما صدر منه قبل ذلك ، حتى أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - فتحت صدرها لامرأة قطعت يدها لسرقتها ، وكانت ترفع حاجتها للنبى ﷺ وحسنت توبة تلك المرأة[١٤]. فلا يليق بالمؤمن أن يكون عوناً للشيطان على أخيه المؤمن .

ولا يقتصر فتح باب التوبة على رفع حكم الفسق والعقاب الأخروى عنه ، بل تطول حتى تشمل قبول شهادته فى جناية من أعظم الجنايات اللسانية ألا وهى جريمة القذف، فالله تعالى يقول بعد ذكر عقابها : **﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾** النور (٥)، وهو مذهب الجمهور. [١٥]

٣- تلافى الجريمة عند إمكان ذلك:

عند إمكان إزالة المجرم أثر جريمته لا يكون هناك داعٍ لإنزال العقوبة الصارمة به ، وذلك يختلف باختلاف الجرائم ، وقد بين الله تعالى لنا ما يمكن تلافيه فقال تعالى بعد ذكر آية الحرابة: **﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾** المائدة (٣٤). فمن تاب وأقلع قبل القدرة عليه والتمكن منه لا يقام عليه الحد المتقدم ، وفى ذلك ترغيب عظيم للإقلاع عن هذه الجريمة الشنعاء.[١٦]

وذلك أيضاً حتى فى الشرك - وهو من أعظم الكبائر - فالله تعالى يقول حاثاً على الإسلام: **﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين﴾** الأنفال (٣٨) ، فلا يطالب بما أفسده فى كفره ، فيرخى بذلك الستار على مشاهد الماضى البغيضة لمحو آثارها ، وكذلك المرتد لا يقتل إن عاد إلى دينه .

٤- تمكينه من الدفاع عن نفسه:

وقد سبق بيانه فى المحور الثانى فلا داعى لتكراره.

٥- أن لا يتحمل العقوبة مع عدم أهليته لها:

دفع الله - سبحانه - العقوبة الصارمة عن من ارتكب ما يوجب الحد إن لم يكن أهلاً لتحملها ، وذلك لطف منه -جل وعلا - فلا يقام الحد على مجنون ولا على طفل ، لقوله ﷺ : «**رُفع القلم عن ثلاث: عن الصبى حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ**»[١٧].

والمكره كذلك لا يقام عليه الحد ، لحديث (رُفِعَ عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه). وهو قول جماعة من أهل العلم.[١٨]

والعبد خُفِّفَتْ فيه الحدود [١٩] كما دل عليه قوله تعالى فى الإماء: **﴿فإذا أُحْصِنَّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾** سورة النساء (٢٥).

وعند شدة المرض يؤخر إقامة الحد حتى لا يُودِى الحد بحياته .

وغيرها من عوارض الأهلية على خلاف فى بعضها.[٢٠]

وفى بعض الحدود ترد عوارض أخرى كالحاجة الملحة ، فى حد السرقة ، لذا أسقطها عمر فى عام الرمادة للشدة التى مرت بها الأمة جميعاً ، والعطش الشديد يحول دون تطبيق حد الخمر. وهكذا.

٦- ألا تؤثر العقوبة على غيره :

وهو حكم غالبى يتضح فى جانبين:

الأول: أن الحد لا يقام على الحامل حتى لا يتضرر جنينها البرئ بذلك ، حتى لو كان تكونه من زنا ، لأنه لا ذنب له فى ذلك لقوله تعالى: **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** الأنعام (١٦٤)، وكذلك لا يطبق على المرضع للسبب ذاته .

فلذا عندما قدمت الغامدية معترفة بزناها قائلةً: (إنى حبلى من الزنى) أمرها أن تذهب حتى تضع حملها لئلا يتضرر ، ثم أمرها بإرضاعه حتى يفطم ، وبعده أقام عليها الحد.[٢١] كل ذلك حفاظاً على الجنين ومراعاةً له.

الثانى: قصر وقت العقوبة ، وذلك لأن الجانى أحياناً كثيرة يكون راعياً لأسرة وله روابطه الاجتماعية، فلو منع من المكث مع أهله لطول حبسه لأضر بهم، فلذا كانت العقوبة الشرعية جامعة بين الفاعلية والسرعة حتى لا يقع ضرر.

فشارب الخمر والقاذف يجلدان ثم يعودان ليعملا لأهلهما ، بخلاف القوانين الأخرى فلا تضع يدها على الجراح الذى بعلاجه تزول المشكلات .

فكم نسمع عن أشخاص حكم عليهم بالسجن المؤبد أو بعشرين سنة وبذلك تتفرق أسرهم ويفقدون الراعى الذى يرعاهم ، مع أن السجن يضر بأهل المسجون إضراراً بالغاً فييتم أولاده مع حياة أبيهم ، ويرمل زوجته مع بقاء زوجها .

وصعوبة هذه العقوبة تزداد ضراوة فى أيامنا هذه لأمرين:

أولهما: كثرة المغريات التى تنتزع الشباب حتى مع يقظة المربى ، فكيف يمكنه مراعاتهم وهو فى غياهب السجون.

ثانيهما: قلة الروابط الاجتماعية ، فلا راعى يكفل اليتامى فضلاً عن أبناء المساجين ، ولا يجدون من يمد لهم يد العون ، وهو خلاف الواقع سابقاً إذ الرباط القبلى فضلا عن قوة العلاقة الأسرية يبعث على الحفاظ على ذوى ذلك الرباط مادياً ومعنويا، فلا شعور باليتم ولا بغيره .

والذى يبصر الواقع ويمعن النظر فيه يتبين له بوضوح أن أبناء المساجين من أكثر الناس فساداً وذلك لما قدمناه .

وهى أيضاً تدفع المجرم لمواصلة درب الشر عندما يلتقى بالمتقدمين له فى نفس مضماره ، ويتسقى من توجيهاتهم !! ولربما تلقى طريقاً جديدة للمكر والخديعة لنمو فكره عند امتزاجه بأصحابه المساجين.(٢٢)

٧- اعتبار رجوعه عن اعترافه:

إذا اعترف الجانى بارتكاب ما يستوجب العقوبة حال تعلقها بحق الله تعالى فتراجع عن إقراره فالجمهور على سقوط الحد عنه (٢٣)، لأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال عندما أخبر عن فرار ماعز: «**هلا تركتموه لعله أن يتوب فيتوب الله عليه**»(٢٤)، وقد يعزر بما يتناسب مع تلاعبه .

وهذا لا يشمل حقوق الآدميين، فالمقر بها مطالب بأداء الحق الذى اعترف به، ولا ينفعه الرجوع عنه.

٨- عدم الحكم عليه فى حالة غيابه:

فلا بد أن يسمع القاضى كلامه ليتسنى له الحكم عليه بمقتضى ما قاله، وذلك الحد فى حق الله تعالى لأنها كما قيل قامت على التسامح .(٢٥)

ولأنها لا تفوت فحقه - تعالى - لا يمكن أن يفر منه الشاردون ، ولا معنى أيضاً للحكم عليه من غير تنفيذ ، ولا يتأتى التنفيذ إلا بوجوده ، فلذا قال بذلك الجمهور.

بينما أكثر أهل العلم على جوازه فى حقوق الآدميين، وإن منعه بعض الفقهاء أيضاً.

وعند الإمكان لا بد من حضوره ـ أو حضور نائبه ووكيله ـ حتى يسمع كلامه فيكون حجة له أو عليه.

٩- حرمة الاعتداء فى العقوبة:

قرر الله تعالى للمسلمين نظاماً دقيقاً حتى مع ملاقاة أعدائهم فالله يقول: **﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾** البقرة (١٩٠).

وذلك يشمل حتى حال الاعتداء فالصائل - على قول بعض العلماء- لا يدفع بما يزهق روحه مادامت توجد سبيل أخف منها .

والاعتداء ممنوع فى جميع الصور ومنها ما يلى:-

أ- الزيادة على العقوبة المقررة:

ففى الحدود لا يمكن أن يزاد فيها أبداً ، وفى العقوبات التعزيرية لا يتجاوز ما تدعو له الحاجة ، فلذا جاء فى الحديث عن النبى ﷺ: **«لا يجلد أحد فوق عشرة أسواط إلا فى حد من حدود الله»**(٢٦).

ب- العقوبة بعد العفو:

وإليها أشار قوله تعالى فى ذيل آية القصاص: **﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾** البقرة (١٧٨) ، فمن اقتص من المعتدى بعد عفو عنه جنى مغبة فعله بنيله العذاب الأليم.

جـ- أن يعجل بالعقوبة قبل ثبوت التهمة:

إذ الأصل براءة الذمة ما لم تثبت الإدانة ، وقد سبق بيانها .

د - أن لا تطول العقوبة أحداً من أقربائه :

لقوله تعالى : **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** الأنعام (١٦٤)، ما لم يكن ردأً له فى الجريمة أو حامياً له بعدها فهنا يستحق أسوأ الجزاء لفعله بنفسه.

١٠- أن لا يفجع بشىء من ماله:

وقد دلت لذلك عموم النصوص المحرمة لأموال الآخرين إلا برضى نفوسهم ، وبالحقوق الشرعية المعتبرة ، فالله تعالى يقول: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾** النساء (٢٩)

ويقول ﷺ: «**لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه**» إضافة إلى اعتضاده بمقصد الشريعة فى حفظ المال .

ويستثنى من ذلك التغريق[٢٧] - بشروطه - لأن المال فى حقيقته ليس للمسلوب منه ، وإنما هو مال جهل أربابه، وعند عدم معرفة الدولة بصاحب المال الأصلى فدولة المسلمين تتولى صرفه بحسب المصلحة .

وإن كان بعض الفقهاء استساغوا العقوبة المالية كابن القيم.[٢٨]

١١- تعويض الجانى عند الخطأ:

من مقاصد الشريعة رفع الضرر ودفعه ، وهى من القواعد الفقهية المعتبرة لتأيدها بالنصوص الكثيرة من القرآن والسنة ويكفى منها الحديث الذى كثر تداوله «**لا ضرر ولا ضرار**»[٢٩].

فأى خطأ يهضم به حق الجانى لابد أن يرفع ، بل يعوض مقدار ما أصابه .

وصور الخطأ متعددة فمنها:-

أ- ما سبق ذكره فى الاعتداء.

ب - تغيير الحد إلى آخر سواء كان أخف منه أو أشد: لأن الحد لا يسقط

بذلك ما لم يكن الجزاء فيهما متشابها كالحد فإنه يسقط به إن أتمه، ويسقط الجزء الذى أداه إن لم يتمه.

قد جسد عمر بن الخطاب هذه التعاليم الربانية عندما استدعى امرأة تجالس الرجال فى غيبة زوجها فأسقطت حملها لهيبته فاستشار المسلمين فأشار إليه علىّ بأداء الغرة فقال عمر: (أنت صدقتنى يا علىّ)(٣٠).

١٢ - حسن المراعاة حتى مع العقوبة:

راعى الإسلام حسن تنفيذ العقوبة وإن كانت صارمة؛ لأن مقصدها الأساسى هو التهذيب حتى فى أشدها ، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه «**إذا قتلتم فأحسنوا القتلة...**»(٣١).

فإذا من ألفاظ العموم وهى تعم قتل الحدود والقصاص ، ولا تقتصر على الذكاة ، ويتأكد ذلك بعطف الذبح عليها ، والعطف قرينة التباين بين المعطوف والمعطوف عليه، على أن لو قلنا بعدم دخول قتل الحدود والقصاص فى لفظ الحديث لقلنا بدخوله فى معناه بالقياس الجلى ، بل قد يقال بقياس الأولى.

حتى قال بعض الفقهاء بأن القاتل وإن تفنن باستعمال أبشع الصور فإنه يقتل بأسهل الطرق.

وهذا عن تحقق المقصد -التهذيب- للجانى والمجتمع ، وإلا فأحياناً يتطلب الأمر حزماً وإشهاراً لقذف الرعب فى قلوب الذين تحدثهم أنفسهم بانتهاك الحرم ، وذلك كحد الحرابة وحد الزنى فالله تعالى يقول: ﴿**ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين**﴾النور (٢).

وهذا يعكس لنا البون الشاسع بين الإسلام وغيره من المبادئ ، فما نشاهده فى وسائل الإعلام بين الفينة والأخرى - من البشاعة التى ينفر منها أصحاب

الفطر السليمة- يجلّى لنا الفارق بوضوح .

١٣- العـقـوبـة:

وإن كانت تضمنت الإيلام النفسى والجسدى إلا أنها تحمل فى طياتها بعداً تربوياً عظيماً، إذ هى من وسائل التربية الأساسية ، فالمستمرئ للشهوات والمُصِرُّ على الفواحش إن نزلت به العقوبة أنسته وساوس الشيطان وقطعت حباله .

والردع بها ليس مقتصراً على المعاقب بها بل تشمل الناظر لها والسامع منها، فلذا أمر الله بالإشهاد فى عقوبة الزنى ، وللمنفعة الظاهرة بالعقوبات قال الله تعالى: **﴿ولكم فى القصاص حياة﴾** البقرة (١٧٩).

وبعض أعداء الإسلام سلطوا سهامهم المسمومة للنيل منه بأنه لا رحمة فيه حسب تصورهم، ولو نظروا إلى القضية من جوانبها وسلمت نفوسهم من الحقد لتخلصوا من هذا التصور.

وذلك لأن الحد الشرعى يزيل المشكلة من جذورها بخلاف القوانين الأخرى، فلربما استمر المجرم فيها فى غيه واستمراء الفساد لعدم الرادع الذى يوقفه عند حده ، وهذا ما نجده واضحاً فى المجرمين الذين لا يقام عليهم الحد يترددون على السجون دون أن تحدثهم نفوسهم عن الوقوف عن الإجرام ، فأولئك أشفقوا على مجرمين معدودين ، ولم يراعوا الأبرياء الذين تسفك دماؤهم أو تسلب أموالهم أو تنتهك أعراضهم لطيش المجرمين ، بل لم يلتفتوا إلى المخطئين الذين ربما ثابوا إلى ربهم لو أقيم عليهم الحد أو أقيم على غيرهم.

مع أن عدم الثأر لحق الأبرياء يدفعهم للانتقام الذى يصعب ضبطه بحدود الفضيلة.

وهؤلاء المنتقدون يقيسون بمقياسين فهم عندما أرادوا الانتقام من المسلمين فى فلسطين وغيرها لم يعتبروا القتل جريمة ، بل اعتبروه دفاعاً عن النفس وحماية لها فسفكوا الدماء التى يدعون تحريم مثلها والله المستعان.

التوصيات:-

١- الوعظ والإرشاد بالكلمة والسلوك الطيب للمساجين مع رفع معنوياتهم وإبعاد نفس الإجرام عنهم بإتاحة فرص ممارسات الشعائر والتعليم ، كما فى بعض السجون التى تتيح فرص مواصلة الدراسات العليا بالسجن ، وكذلك تفتح أمامهم وسائل تعلم الحرف والصناعات وغيرها من الأنشطة والبرامج التى تصب فى النهاية إلى نزع الروح الإجرامية وإعادة الثقة إلى النفس وإشعارها بقيمتها ونتاجها الحسن الطيب فى المجتمع.

٢- الإكثار من البرامج الوقائية التى تبث الوعى فى المجتمع وتوضح له مدى خطورة الإجرام وعاقبة المجرمين من ضياع فى الحياة وبعد الممات .

٣- تضمين المناهج الدراسية بشاعة الإجرام على الإنسانية والمجتمع والنفس.

٤- إبراز الجوانب الوقائية فى الإسلام فى شتى جوانب الحياة وبثها عبر وسائل الإعلام ومناهج الدراسة.

٥- إنشاء جمعيات لمكافحة الإجرام وكفالة أسر المجرمين.

٦- إقامة الحدود الشرعية والعقوبات التعزيرية .

٧- إنشاء مجلة وموقع فى الشبكة العالمية (الإنترنت) تصب عنايتها بهذه الجوانب.

٨- تشكيل لجنة تقوم بعملية التخطيط والمتابعة لما قد تم التأكد فيه ولما يتم القيام به من خطوات عملية أدرجتها التوصيات المقدمة .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الهوامش

(١) ينظر الارتباط بين العبادة والتقوى جواهر التفسير (٢/١٢٠) الناشر مكتبة الاستقامة عام ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

(٢) ذكرت هذه الأشياء مع أن الرابط بينها وبين الجاني بعيد نوعاً ما لكون الله تعالى جعل هذه الأشياء وقاية وجنة للمجتمع من الانزلاق في المتاهات، فهي تماثل الحقوق من هذه الناحية .

(٣) ينظر بتوسع الموافقات للشاطبي (٤/١٩٨) دار المعرفة، مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر بن عاشور (ص ١١٠) ط الشركة التونسية للتوزيع.

(٤) الجامع الصحيح للإمام الربيع بن حبيب برقم (٦٦٨).

(٥) ينظر المدونة الكبرى لأبي غانم الخراساني (٢/٢٢)، فتاوى النكاح ص (١٥٠) ط الأجيال (١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م)

(٦) الجامع الصحيح للإمام الربيع بن حبيب برقم (٥٩٢)

(٧) رواه أبو داود كتاب الأقضية باب الحبس في الدين وغيره برقم (٣٦٣٠)

(٨) روه أبو داود كتاب الجهاد باب على ما يقاتل المشركون برقم (٣٦٤٣)

(٩) أنظر تفصيل المسألة حقوق المتهم في مرحلة التحقيق (ص٣٢/١) للدكتور طه جابر العلواني ضمن المتهم وحقوقه في الشريعة الإسلامية ط المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض. (١٠) زوائد الإمام الربيع برقم (٧٩٤) .

(١١) سيأتي تخريجه عند ذكر أغلب الحديث. (١٢) الربيع كتاب الأحكام رقم (٥٨٨)، مسلم باب الحكم بالظاهر رقم (١٧١٣)

(١٣) أبو داود باب التلقين في الحدود برقم (٤٣٨٠) (١٤) انظر القصة البخاري باب توبة السارق (٦٨٠٠)

(١٥) شرح النيل للقطب الشيخ محمد بن يوسف (١٣/١٢٨)، أعلام الموقعين لابن القيم (١/١٢٢)

(١٦) في ذلك تفصيل وخلافات تنظر في كتب التفسير والفقه .

(١٧) معالم السنن لأبي داود (٦/٢٢٩) رقم (٤٢٣٦)، المدونة الكبرى (٢/٢٤٩)

(١٨) ينظر ما قاله الإمام السالمي في المكره (مشارق أنوار العقول) ص (٥٧٨) ط دار الحكمة (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م)

(١٩) ينظر التخفيف عن العبد شرح الجامع الصحيح للإمام السالمي (٣/٢٨٢، ٣/٢١١، ٣/٢١٨)، تيسير التفسير للعلامة القطب محمد أطفيش (٢/٣٠٥) ط وزارة التراث القومي والثقافة.

(٢٠) ينظر طلعة الشمس باب عوارض الأهلية (٢/٢٤٣، ٢٧٣) ط وزارة التراث القومي والثقافة، زاد المعاد لابن القيم (٥/٣) في الجهل.

(٢١) باب رجم الثيب في الزنا (١٣٢٢) برقم (١٦٦٥)

(٢٢) لا أعني بذلك أن عقوبة السجن غير ناجحة بل أقول هي طريقة لها إيجابياتها وسلبياتها والإشكالية أكثر عندما تطول مدة الحبس، مع أنه غير مهيأ لردع المجرمين بل لصقل مواهبهم فيما هم فيه للالتقاء بأصحاب الخبرات فمن الافضل استبدالهم بطريقة أخرى عند الإمكان وكما قيل آخر العلاج الكي.

(٢٣) المتهم معاملته وحقوقه في الفقه الإسلامي للأستاذ بندر بن فهم السويلم، دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض (١٤٠٨هـ)

(٢٤) رواه أبو داود كتاب الحدود باب رجم ماعز . (٢٥) المتهم معاملته وحقوقه ص (٣٢٧).

(٢٦) رواه البخاري في باب التعازير والأدب رقم (٦٨٤٨)، ومسلم باب قدر أسواط التعزير رقم (١٧٠٨)

(٢٧) هو استرداد الأموال من الظالم الذي جمع جميع أمواله من غير طريق مشروع، وانظر تفاصيل أحكامه أرجوزة غاية التحقيق في أحكام الانتصار والتغريق للعلامة المالكي طبع بذيل العقود الفضية ص (٣٠٥) وما بعدها .

(٢٨) زاد المعاد (٥/٥٤).

(٢٩) ابن ماجه كتاب الأحكام (٢٣٤٠) الدارقطني (٤٤٩٣)، وانظر كلام العلماء في سنده جامع العلوم الحكم لابن رجب الحنبلي ص (٣٠١) وما بعدها ط دار الفكر بيروت لبنان ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

(٣٠) انظر صفحات رائدة في مسيرة العدالة نذير محمد ص (٨٧) مكتبة دار البشائر الإسلامية ط١ (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، والميسر في أصول الفقه للدكتور إبراهيم محمد سلقيني ص (٩٦) دار الفكر المعاصر + دار الفكر نقلا عن البخاري ومسلم ولم أجده فيهما

(٣١) رواه مسلم كتاب العيد باب الأمر بإحسان الذبح والقتل (١٩٥٥)، أبو داود كتاب الأضاحي باب النهي عن تصبر البهائم، ابن حبان كتاب الذبائح باب ذكر الأمر بحد الشفار.

حقوق الإنسان فى الإسلام

الأستاذ الدكتور/ جعفر عبد السلام

أستاذ القانون الدولى بجامعة الأزهر

مصـــر

تمهيــد :

مرت دولة الإسلام بمراحل تاريخية عديدة منذ وجودها فى المدينة فى القرن السابع الميلادى، وحتى اليوم. ودون دخول فى تفاصيل مراحل الاتحاد ومراحل الفرقة فى هذا التاريخ الطويل الذى زاد الآن على أربعة عشر قرنا، فإننا يمكننا أن نقول: إن دول الإسلام كانت دولة واحدة حتى العصر العباسى الأول، ولكنها بدأت منذ ذلك الحين تتشتت، خرجت عنها منذ البداية، الدولة الأموية فى الأندلس، ثم خرج الكثير من الولاة على الخليفة العباسى وحكموا بلادهم بشكل منفصل عنه ثم انتقل مركز الثقل فى القوة والنفوذ إلى العثمانيين فى تركيا وأصبح الخليفة العثمانى هو الممثل للخلافة الإسلامية منذ عام ١٥٢٠م لتضعف دولة الخلافة بعد ذلك وتتفكك أوصالها إلى أن رأينا الدولة الإسلامية تتحول إلى دول مستقلة تماماً عن دولة الخلافة وتأخذ الشكل القومى الحديث بفعل أوروبا حيث دأبت القوى الأوروبية الرئيسية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين على مهاجمة الدولة العثمانية ـ دولة الخلافة الإسلامية ـ وتوجيه ضربات حاسمة لها استهدفت تقطيع أوصالها، وإجهاض انتصاراتها داخل أوروبا فى البداية، والعمل على إخراجها من ديار الغرب بأى شكل "المسألة الشرقية"، كما

أدى انتصار الدول الأوروبية على ألمانيا وتركيا فى الحرب العالمية الأولى إلى الانقضاض النهائى على الدولة العثمانية وتفكيك ما بقى منها إلى أن أعلن كمال أتاتورك إنهاء دولة الخلافة فى مارس عام ١٩٢٤ . وكان المنتصرون فى الحرب خلال مؤتمر فرساى قد قرروا وضع الدول العربية التى كانت أجزاء من الدولة العثمانية فى الإطار القومى المستقل أسوة بما اتبعوه بالنسبة للممالك الألمانية، وقريب مما تم بعد معاهدة وستفاليا التى أقرت استقلال الدول الأوروبية عن الإمبراطوريات القديمة وبداية الشكل القومى للدول فى العصور الحديثة والتى بدأت من القرن السادس عشر واستمرت حتى اليوم.

أقول: إنه مهما كانت الانتقادات التى كانت توجه إلى دولة الخلافة العثمانية، إلا أنها كانت تمثل مرجعية للقيادة للدول الإسلامية، وبعد الاستقلال بدأت الدول العربية والإسلامية تبحث عن مرجعية للقيادة وللتنظيم. وكان الاستعمار الأوروبى هو البديل عن الدولة العثمانية، وبالتالى كان من الطبيعى أن يضع نماذج مختلفة للعمل فى هذه الدول، تتفق فى الأساس الأوروبى لها، قوانين وثقافة وأصول حكم، وتختلف بحسب ما إذا كانت المرجعية الأنجلو سكسونية هى السائدة فى البلاد التى حكمتها بريطانيا، أو اللاتينية فى البلاد التى حكمتها فرنسا، وإن كانت الغلبة فى الحقب الأخيرة للنظام الأمريكى الذى ورث النظام الأنجلو سكسونى، معدلاً لأصول كثيرة فيه بالحذف والإضافة.

والنتيجة فى إطار النظم والقوانين هى ما نجده الآن، اقتباس من الأنظمة الأوروبية وتطبيق لقوانين غريبة على بلادنا بعد أن نُحّت القوانين والأنظمة الإسلامية.، والأسباب معروفة لكننا الآن بصدد معرفة النتائج دون خوض واسع فى الأسباب: إن الدساتير الحديثة فى الدول العربية والإسلامية تتضمن نظرية للحقوق والحريات العامة مقتبسة بشكل أو بآخر من الدساتير الغربية، وخاصة الدساتير الفرنسية.

كذلك تقرر هذه الدساتير سلطات الحكم، التشريعية والتنفيذية والقضائية، وهى بدورها تتبنى أسساً غربية. أما القوانين المفصلة للدستور فهى تستند كذلك على ما هو مقرر فى الأنظمة الغربية.

إذن القانون الوضعى فى البلاد الإسلامية يتنسم خطى الغرب، وهو ضيف على المائدة الفرنسية فى معظم بلادنا. والانبهار بفكر الغالب وقوانينه وأنظمته ليس بدعة، بل هو حكم التاريخ. ولكن هذا يدعونا إلى التساؤل عن الأسباب التى تدعونا إلى إجراء دراسات ومقارنات للقوانين وللأنظمة الإسلامية الآن؟

لقد صارت دولنا أعضاء فى الأمم المتحدة، وأصبحنا نشارك فى صناعة القوانين الدولية عن طريق لجنة القانون الدولى، ومن خلال المؤتمرات الدولية العديدة التى تقوم بوضع الاتفاقيات الشارعة التى تنظم شئون المجتمع الدولى الآن. ومن هنا فقد وافقت الدول الإسلامية على الوثيقة الدولية لحقوق الإنسان بأجزائها الثلاثة: الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٨ ، والعهد الدولى للحقوق المدنية والسياسية الصادر عام ١٩٦٦، والعهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية الصادر فى نفس العام، بل اشتركت العديد من الدول الإسلامية فى صياغتها وكان دور هذه الدول أكبر فى صياغة اتفاقية حقوق الطفل عام ١٩٨٨ حيث ظهر دور الأحكام الإسلامية فيها بشكل واضح، وكذا العديد من الاتفاقيات الأخرى الخاصة بعدم التحيز ضد المرأة وحماية ضحايا الحرب"اتفاقيات جنيف" عام ١٩٤٩م وكان الدور الإسلامى فى صياغة ملحقين لهذه الاتفاقيات عام ١٩٧٧ واضحاً كذلك.

من هنا نجد أن دور الدول الإسلامية فى صياغة قواعد للسلوك لحماية حقوق الإنسان وحرياته أكبر فى الوقت الحاضر، فلماذا إذن يثار الآن موقف حقوق الإنسان فى الإسلام؟ الواقع أننا نتناول قضية حقوق الإنسان فى الإسلام لأكثر من سبب:

أولاً : لتعميق الدراسات الحديثة التى تهتم بحقوق الإنسان وحرياته، وبيان الأسانيد الشرعية التى تقوم عليها، حتى تكتسب قوة أكبر فمن المعروف أن الأساس الدينى للقواعد والجزاء الدينى المقرر على مخالفتها وهو

جزاء أخروى أساساً إلى جانب أنه يحتوى على جزاء دنيوى، يتفاعل مع عقيدة الإنسان ويمس جوارحه، من ثم أكثر فاعلية، وأنجع فى التأثير عن الجزاء الدنيوى فقط.

ثانياً : إضافة أبعاد أخرى إلى الحقوق الإنسانية لم تتناولها الوثائق الحديثة، يجدها الباحث فى الدراسات الإسلامية مما قد يتيح حقوقاً جديدة أو يزيد فاعلية الحقوق القائمة، أو يوضح جوانب للواجبات إلى جانب الحقوق فى هذه القضايا.

ثالثاً : إضافة الجوانب المعنوية والأخلاقية والأدبية فى مدونات الحقوق حتى تزيد مساحتها، وحتى تلحق بها الجوانب المادية التى تهتم بها أساسا المواثيق القانونية.

رابعاً : تغذية جوانب الحرية فى الصراع الدائم بينها وبين السلطة مما يدعم حقوق الإنسان ويعطي ضمانات واضحة لها، ولابد أن نعترف من الآن أن قيادات لدول إسلامية وعربية عديدة لا تحترم الكثير من حقوق الإنسان الآن وتميل إلى إساءة استخدام السلطة فى مواجهتها، وتقوم بأعمال ضد ممارسة معارضيها لحرياتهم ولحقوقهم السياسية، وتعصف بهذه الحقوق بأعمال الاعتقال والقبض التعسفى وتقيد حريات السفر والتنقل وهى ممارسات تتم ضد قواعد دينية وأخلاقية وقانونية.

خامساً : الرد على من يمارسون الضغط باسم حقوق الإنسان لتحقيق أغراض أخرى، وممارسة ازدواجية المعايير فى التعامل مع الدول والشعوب على أساس احترام حقوق الإنسان وحرياته، واستغلال ثغرات تتمثل فى أقوال أو أفعال تأتى من حاكم لدولة إسلامية لوصم الإسلام بأنه ضد حقوق الإنسان وحرياته، مثل موجات السخط والهجوم التى وجهت إلى الإمام الخمينى عقب إصدار فتواه بإهدار دم سلمان رشدى بعد أن أساء إلى نبى الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، وكذا محاكمة القضاء المصرى

كله بسبب إصدار محكمة واحدة حكما بالتفريق بين حامد أبو زيد وزجته، بعد كتابة مجموعة دراسات ضد الإسلام اعتبرتها المحكمة من قبيل الارتداد عن الإسلام.

سادساً : التعريف بوثائق قديمة وحديثة تظهر الوجه الصحيح للإسلام وأسس الحقوق والحريات الإنسانية كما وردت فيها. ونذكر من ذلك: كلمة جعفر ابن أبى طالب إلى النجاشى ملك الحبشة عندما أراد أن يتعرف على الإسلام منه، ليرد على وفد قريش بقيادة عمرو بن العاص الذى جاء ليسترد مهاجرى الحبشة من المسلمين الأوائل، ثم وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية فى المدينة، ثم حجة الوداع، ثم العهدة العمرية، ثم خطاب على ابن أبى طالب للأشتر النخعى واليه على مصر والذى وُضِعَ فيه دستور للحكم وفقاً لأحدث مبادئ حقوق الإنسان وحرياته.

وفى العصور الحديثة نذكر معاهدات الامتيازات الأجنبية التى منحتها الدولة العثمانية للأجانب على إقليمها، والتى بلورت قواعد التعامل مع الآخر فى الإسلام، وتبنت وجهة نظر نبى الإسلام عندما أوصى المسلمين بأهل الكتاب خيراً، والقاعدة الفقهية التى تقول بترك أهل الذمة وما يدينون به، وكذلك فى الفرمان العثمانى الصادر عام ١٨٦٥م بشأن تقرير حرية العقيدة فى القدس الشريف، والذى أخذت المبادئ التى وردت فيه من الإسلام.

ولا بأس أن نشير هنا إلى أحداث فى التاريخ الإسلامى تظهر إلى أى مدى أعطى الإسلام حق مقاومة الحاكم إن أساء استخدام السلطة، ويطول بنا البحث إذا ما أردنا أن نتناول بالبحث هذه القضية الشائكة، قضية حق الأمة الإسلامية فى مقاومة السلطان الجائر، وكيف مارس المسلمون ذلك فى العمل.

سابعاً : وكذلك فإن دراسة حقوق الإنسان وحرياته من المنظور الإسلامى يحتاج إلى طرح جديد يتفق مع المنهج الإسلامى فى البحث وأسلوب الاستدلال

والاستنباط فيه، وهو منهج يعتمد على النقل أولاً، أى يعتمد على الوحى وتفسير المسلمين له، هذا الوحى الذى يتبدى بشكل صريح فى القرآن الكريم، وفى شكل ضمنى فى سيرة الرسول القولية والفعلية والتقريرية، ويحتاج إلى دراسة متعمقة للمبادئ التى جاء بها الإسلام، وهو طرح يتعمق فى معرفة مركز الإنسان فى الإسلام وكيف كرمه الله سبحانه وتعالى على سائر مخلوقاته، ويعتمد هذا الطرح كذلك على أفكار ومبادئ الإسلام العامة والأسس التى قام عليها النظام الإسلامى، وفى حماية حقوق الإنسان وحرياته باعتبارها رأس هذا القانون والمحور الذى يقوم عليه.

إن الإسلام يعرف نظاماً يقوم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويرى أنها مهمة يجب أن تقوم بها فئة هامة من المسلمين، كذلك يقيم الإسلام القضاء وهيئات للنظر فى المظالم وتحقيق العدالة.

إن هذا الطرح الجديد لأفكار حقوق الإنسان وحرياته فى الإسلام يمكن أن تستفيد به الدول الإسلامية فى العصر الحاضر.

إننا نعيش صحوة إسلامية منذ أوائل القرن الماضى تنادى بالعودة إلى الجذور، وتنادى فى نفس الوقت بتطبيق الإسلام فى حياة المسلمين، عقيدة وشريعة وهى دعوة تتناقض فى أحيان كثيرة مع دعاوى أمريكية وأوروبية تريد للعالم كله أن يتبعها، وتحاول جاهدة أن تقتلع أى أفكار أو ثقافات تناوئها، لذا أقامت من نفسها قيمة على العالم، وأقامت مما أطلقت عليه الإسلام الأصولى عدواً لها، لا لشىء إلا لأنه يقاوم محاولات الهيمنة، وأعمال التسلط والابتلاع.

إن التعامل مع الآخر مسألة هامة فى النظرة الإسلامية وفى التفكير الإسلامى بشكل عام، والقرآن الكريم نفسه يأمر المسلمين فى أكثر من موضع بحسن معاملة الغير وبالتسامح معه.. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمْ

اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ • إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

لكن هذا التسامح والبر والقسط والعدل مع الآخر أو المخالف لنا فى الدين، لا يعنى أن نمسخ وأن نخرج من عقائدنا وأصول شريعتنا، بل لا يعنى على الإطلاق أن نتبع هؤلاء الناس فى كل ما يفعلوه، إننا نحتاج إلى الحفاظ على أنفسنا، على ديننا، عقيدة وشريعة، على تراثنا وحضارتنا، فإن انسلاخنا عنها يعنى موتنا ويعنى أيضا خسارة للإنسانية من مبادئ وتجارب وقيم خصبة تخاطب ضمائر العالم، وتقف ضد الأنانية والسوء، تحق الحق وتبطل الباطل وتقى الإنسان من شر نفسه ومن غرائز ضارة أصبحت كالوحوش التى تهاجم الإنسان وتحاول القضاء عليه. إن الإسلام لا يبيح عبادة العبد أيا كان، ولا يقبل الشذوذ عن سنن الفطرة التى خلقه الله عليها، ولا يبيح لأهله أن يأكلوا مال الغير، ولا يتسامح فى مصادرة حق أو سيادة باطل وهى مبادئ وقيم سامية هدى الله الإنسان ليتبعها.

خطة البحث :

سنتناول فى القسم الأول المفهوم العام لحقوق الإنسان فى الإسلام، أما القسم الثانى فسوف نخصصه لدراسة قيمة العدالة فى المفهوم الإسلامى والحقوق والحريات العامة التى تترتب عليها، أما القسم الثالث فسوف نخصصه لتناول فكرة المصالح فى الشريعة الإسلامية ومجموعة الحقوق والحريات التى تتصل بها، وسنخصص القسم الرابع لمبدأ الحرية، ونناقش كذلك الحقوق والحريات التى تتصل به، كل ذلك من المفهوم الإسلامى، وسنولى اهتماما خاصاً بحرية العقيدة كأساس هام من أسس هذه الحرية.

القسم الأول

طرح قضية حقوق الإنسان وحرياته

من المنظور الإسلامى

منذ أن خلق الله الإنسان على هذه الأرض، وقد أنزل إليه ما يهديه من الرسل الذين حملوا دائماً معهم كُتُباً منزلة من الله - سبحانه وتعالى - تكفلت بهذه المهمة السامية دائماً. نقول ذلك مع إيماننا الكامل بأن الله قد خلق الإنسان وأودع فيه عقلاً وحكمة وميّزه على سائر الخلق بالعلم والفهم وبالكرامة التى تجلت فى أمر الملائكة بالسجود له، وكذلك فى تسخير كل ما فى الأرض له ولخدمته.

نصوص القرآن الكريم واضحة تماما فى تقرير هذه الحقائق.

يقول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ • وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ • قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ • قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ • وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ • وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ • فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ • قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢].

هذا هو المدخل لحقوق الإنسان فى الإسلام، فنحن نتبع ما جاء فى مصدر التشريع الإسلامى الأول حول الإنسان وكرامته ودوره فى الحياة.

يكمل هذا المدخل الأولى لدور الإنسان ولحقوقه فى الإسلام الكثير من المعانى المتصلة بكون الإنسان خليفة الله فى الأرض خلقه فيها ليعمرها ويستفيد بها فى مختلف شئون حياته، وإعطاءه من القدرات ما يكفل له السيادة عليها والتحكم فيها.

فمن صور التكريم، حمل الله - سبحانه وتعالى - الإنسان فى البر والبحر - إشارة إلى أهمية النقل وتعليم الله الإنسان إياه بوسائل مختلفة، والرزق الموصول من الطيبات التى أودعها الله الأرض لخدمته، وإشارات أخرى إلى أهمية ما خلقه الله للإنسان من خيرات فى الأرض.

نردد هنا آية وردت فى سورة الإسراء يقول فيها سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(٣).

كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى • كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِى النُّهَى﴾(٤).

كذلك نجد إشارات فى القرآن الكريم إلى أهمية المكونات الرئيسية التى أعطاها الله للإنسان ليقدر على الحياة، ويقوم بتعميرها. من ذلك ما ورد فى سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٥).

كذلك أعطانا الله قدرة كبيرة على التأمل فى ملكوت الله بالعقل والحكمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ • الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(٦).

من هنا نخلص إلى أن القرآن الكريم قد بوأ الإنسان فى الأرض مكانة خاصة إذ هو خليفة الله فى الأرض خلقه ليعمرها وليقيم الحياة فيها، ومن أجل القيام بواجب الخلافة أعطاه قدرات عقلية وخلقية أخرى، العقل، اللسان، السمع ،البصر، ثم سخر الله الكون كله من ماء وهواء ويابس ونبات وشجر وحيوان، وعلم للاستفادة من كل هذا الكون بأفضل ما يكون.

ويعد الطرح الإسلامى لقيمة الإنسان فى هذا الكون وكونه خليفة لله فيه، يستعمر الأرض، ويبنيها، ويتجنب الإفساد وسفك الدماء نجد أن مصادر الشريعة تأمر الإنسان بأن يقيم العدالة والمساواة بين البشر باعتبارهما قيما رئيسية للإسلام بشكل عام، كما نجد هذه الشريعة تقوم على دعائم رئيسية هى الحرية، حرية الإنسان، ورفع الحرج، والتيسير على الناس فى مختلف أمور التشريع،على فكرة بناء الأحكام على مصالح العباد، وعلى حسن الخلق وسنرى الآن العلاقة بين قيم الإسلام وفكرة الحقوق والواجبات بشكل عام.

القسم الثانى
العدالة وحقوق الإنسان

قيمة العدالة فى التشريع الإسلامى :

تعتبر العدالة مقصداً عامًا لكافة التشريعات التى يضعها الإنسان لحكم العلاقات الاجتماعية، وحكمة رئيسية تدور حولها مختلف القوانين.

لذا يقال بأن أى قانون لا بد أن يعتمد على شىء من العدالة، ونجد أن أجهزة تطبيق القانون تسمى بأجهزة العدالة فيقال عن المحاكم أنها دور العدالة، ويقال وزير العدل ولا يقال وزير القانون، وإذا كانت المحاكم تطبق القانون إلا أن هدفها هو تحقيق العدالة ومن هنا فإن القانون ليس فى النهاية إلا وسيلة لتحقيق العدالة، وإذا حدث أن التطبيق القانونى قد تجافى مع العدالة لسبب أو لآخر، فيجب أن يقوم القاضى بالتدخل لتخفيف وطأة الحكم القانونى أو لتكملة النقص فيه أو لطرحه فى بعض الأحيان، ووضع الحل الذى يتفق مع العدالة(٧).

وسبب سيطرة فكرة العدالة على النظام القانونى هى أنها تهدف إلى تحقيق المساواة التامة بين الناس فى كل شىء.

وإذا كانت العدالة ليست مصدرا أصليا للتشريع فى مختلف الدول، إلا أنها ـ بلا أدنى شك ـ مصدر مادى يسمح بأن تتولد عنه أسس مباشرة تدخل فيه، وهو ما يفعله المشرع العاقل عندما يستنبط قواعد قانونية من فكرة العدالة أو من الإحساس بها.

وهكذا فمن الضرورى أن يتطابق القانون الوضعى مع قواعد مثالية ـ قواعد القانون الطبيعى ـ والتى نسميها هنا قواعد الشريعة وأهمها ـ بالطبع ـ العدالة، فكيف توجد العدالة فى التشريعات الإسلامية، وإلى أى مدى تطابق الحلول فى القانون من هذه الناحية؟

الإعجاز القرآنى فى مجال العدالة :

يختلف الأمر في الشريعة الإسلامية عنه فى التشريعات الوضعية فيما يتصل بوضع العدالة كهدف لا تؤثر فيه السياسة، ولا المنافع أو الأهواء الشخصية للحكام، لأن الله – سبحانه وتعالى – ألزم نفسه بالعدالة مع خلقه، وألزمهم بها فى تعاملهم بعضهم مع بعض لذا يتجلى الإعجاز القرآنى فى الآيات الكريمة التى تحدثت عن العدالة فجعلتها قيمة مقدسة يجب دائماً الوصول إليها أياً كان الضرر الذى يظن تحققه منها.

ويقول أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة فى هذا المعنى: " إن سمة الإسلام العداله. وكل تنسيق اجتماعى لا يقوم على العدالة منهار ـ مهما تكن قوة التنظيم فيه ـ لأن العدالة هى الدعامة، وهى النظام، وهى التنسيق السليم لكل بناء»(٨).

فالله – سبحانه وتعالى – سيعامل الناس يوم القيامة بعدالة كاملة ولن يترك شيئا لا يحاسب عليه، فيجازى المحسن ويعاقب المسىء، بالقسط. بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ

كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[٩] ويقول سبحانه وتعالى: **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ • وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَهُ﴾**[١٠].

وأوصى - سبحانه وتعالى - رسله وعباده بأن يقيموا العدالة فى الأرض، فيقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾**[١١].

ويقول جل جلاله: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْى يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾**[١٢].

كما يقول: **﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾**[١٣].

وهكذا تظهر الآيات السابقة العدل كقيمة أخلاقية سامية يجب اتباعها فى الحياة وفى المعاملات وفى استنباط الأحكام بشكل عام.

وينبهنا الله - جل جلاله - إلى ضرورة الحكم بالعدل فى الخصومات والأقضية فى العديد من الآيات الأخرى، مثال ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾**[١٤].

ويقول أيضا: **﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾**[١٥].

وفى مجال العلاقة بين الدولة الإسلامية والدول الأخرى يقول سبحانه وتعالى: **﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾**[١٦].

والواقع أن حصر ما ورد فى القرآن الكريم بشأن العدالة وضرورة الوصول إليها فى أى نظام تشريعى، من الصعوبة بمكان، ولا أكون مبالغاً إن قلت :إن كافة

الآيات الكريمة التى رسمت أسلوب الحياة للناس ووضعت مناهج للسعى فى الأرض ترتبط بالعدالة وتجعلها مقصداً رئيسياً لها، لذلك اكتفينا بذكر أمثلة من هذه الآيات وردت بالنسبة لبعض صور المعاملات.

العدالة الاجتماعية :

يعتبر تقسيم العدالة إلى عدالة التوزيع ـ عدالة القسمة[١٧] ـ وعدالة تعويضية أو تبادلية[١٨]، هو أهم التقسيمات المقررة للعدالة وتتجلى الصورة الأولى فى توزيع الجاه والمال وكل ما يمكن قسمته بين هؤلاء الذين يعترف بهم الدستور، فيجب أن يقوم نوع من التوزيع النسبى للمزايا الاجتماعية وللأعباء كذلك على كافة المواطنين بحسب قدراتهم وإمكاناتهم ودرجة مساهمتهم فى تحمل أعباء المجتمع[١٩].

ونجد القرآن الكريم يعبر عن هذه الصورة من صور العدالة فى العديد من الآيات الكريمة، من ذلك قوله تعالى: **﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَي لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾**[٢٠]. وعلى أساس هذه الآية قام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بمنع توزيع الأراضى المفتوحة على الفاتحين، وتفصيل ذلك أنه عندما توسعت الدولة الإسلامية وانضمت إليها العديد من الأقاليم الجديدة بالفتح، اختلف عمر مع الصحابة فى طريقة التصرف فى الأرض، وبينما مال الغالبية إلى قسمتها بين الفاتحين وفقا لآية الغنائم، اعتمد هو على الآيات الكريمة التى ذكرناها، ورفض التقسيم ووضع قاعدة مؤداها ترك الأرض لأهلها وفرض خراج عليها حتى يمكن الاستفادة منه فى الصرف على المرافق العامة للمسلمين كافة، فقد فهم هذا النص على أنه يعنى ترجيح مصلحة الأمة الإسلامية التى تقضى بعدم استئثار فئة من الناس بتملك الأراضى؛ لأن ذلك مخالف للعدالة وللنص القرآنى، الذى أكمل الآية التى ذكرها عندما عدد فئات من يستحقون وذكر فى آخرهم **﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾**[٢١].

وأخذ عمر بن الخطاب يدافع عن وجهة نظره بقوله: "أرأيتم هذه الثغور لا بد من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام كالشام ومصر والكوفة، لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يعطى هؤلاء إن قسمت الأرضين؟".

وهكذا أعمل عمر بن الخطاب قاعدة العدالة التوزيعية أو ما يطلق عليها حديثاً "العدالة الاجتماعية" فقد رأى ضرورة حصول جماعة المسلمين على موارد تنفق على المحتاج منهم وعلى رعاية المصالح العامة وإدارة المرافق فى الدولة الإسلامية، ورجح هذه المصلحة على مصلحة قلة من الغزاة والفاتحين وأبنائهم كان ريع هذه الأرض كلها سيذهب إليهم(٢٢).

وبالنسبة للصورة الأخرى من صور العدالة، أى العدالة التعويضية أو التبادلية، فهى تلعب دوراً تصحيحياً فى العلاقات التى تتم بين الأفراد، وتتطلب ألا يأخذ أحد فى العقود والمعاوضات أكثر مما يستحق وعليها تم بلورة ضرورة قيام توازن مالى واقتصادى فى العقود والصفقات.

ونرى هذا المقصد واضحاً أيضاً بشكل معجز فى القرآن الكريم والسنة الشريفة، فالقرآن الكريم يمنع أى استغلال فى التعامل ويوجب أن تقوم العقود على أسس متوازنة.

ولا شك أن حرص القرآن الكريم على سلامة التعامل والتوازن بين أطرافه، لا يواتيه أى حرص لأى مشرع آخر فى أى قانون. ولن ننظر طويلاً فى التشريعات الإسلامية فى هذا الشأن وإنما سأكتفى بما ورد بشأن الربا فى القرآن، يقول سبحانه وتعالى: **﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**(٢٣).

ويشدد الله - سبحانه وتعالى - النكير على من يأكلون الربا فيقول: **﴿يَا**

أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ • فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾(٢٤).

ويصل القرآن الكريم بالناس إلى قمة المسئولية فى هذا المجال، فلا يجعل المال ينتج مالاً فى حالة التأخر فى السداد لعذر فيقول: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ•وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(٢٥).

ويتضح من هذا العرض مجموعة الحقوق والواجبات التى ترتبط بقيمة العدالة وفقاً للتصور الإسلامى.

فإذا أمر الله رسوله بأن يحكم بين الناس بالعدالة، وإذ أعلن فى هذه الآيات بوضوح أنه يأمر بالعدل، وينهى عن البغى والظلم، فإنه يترتب على ذلك مجموعة الحقوق المدنية واللصيقة بالإنسان بالمدلول الحديث فله الحق أن يكون له قاض يقضى بينه وبين الناس بالعدل، وله الحق فى أن يمنع القاضى أى ظلم أو حيف يقع عليه مهما كان صغيراً ولو مثقال حبة كما يقول القرآن الكريم. ومهما كان هناك من عداء أو خلاف بين المسلمين وغيرهم، فإن المسلمين ملزمين بإعطاء العدو حقه.

لذلك كانت رسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى والتى عرفت تاريخيا بدستور القضاء فى الإسلام، إحدى الوثائق التى عبرت عن رسالة العدالة فى المجال القضائى كما فهمها المسلمون. يقول عمر فى بداية الرسالة: "إن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك، فلا ينفع كلام بحق لا نفاذ فيه".

فهنا يعبر عمر عن أن القضاء مرفق عام فى دولة الإسلام بل من الفروض التى يجب أن تؤتى ويؤدى إقامتها إلى تحقيق ثواب الله، وعدم إقامتها يؤدى إلى توقيع العقاب من الله فى الدنيا والآخرة. ولننظر إلى استخدام عمر لكلمة (حق) وأنه لا ينفع التعبير عن الحقوق إلا إذا تم تنفيذها، وعلى رأسها حق التقاضى.

تتحدث الرسالة عن واجبات القاضى فى التسوية بين الناس فى المجلس، وفى تعبير الوجه، فلا تنفرج أساريره لواحد بينما يتجهم فى وجه الآخر، تقول الرسالة: (آسِ بين الناس فى مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك)(٢٦).

وفى مجال الحقوق الاقتصادية نجد الإسلام يسبق الوثائق الحديثة لحقوق الإنسان إلى حد كبير، بتقريره حق كل فرد فى الحصول على أقسام من المنافع العامة، واتخاذ ولى الأمر ما يلزم من تدابير لمنع تداول الثروة بين الأغنياء فقط. كذلك يتضح من الآيات التى ذكرناها أن الإسلام يقيم النظام الاقتصادى على أن لفئات معينة يجمع بينها الفقر، حقوقا ثابتة فى أموال المجتمع يلزم الحاكم بأخذ مقدار ثابت من ثروات الأغنياء وإعادة توزيعها على هؤلاء الفقراء.

كذلك يتجلى الطابع الأخلاقى الواضح لشريعة الإسلام فى منع استغلال الغنى للفقير ماديا عن طريق الربا، ولا يعترف الإسلام فى هذه الحالة للغنى بحقوق مالية أكثر مما دفعه للفقير، كمقابل الزمن فحسب، وهذا موقف لا نراه يتحقق فى أى شريعة أخرى(٢٧).

القسم الثالث
قيام الحكم الشرعى على المصلحة

المصلحة والتشريعات الإسلامية :

إن وجود مصلحة واضحة فى كل تشريع، أمر ضرورى لإمكان الاقتناع به والإقبال على تنفيذه لذا كانت فكرة المصلحة، هدفاً رئيسياً لكل تشريع.

وفى الشريعة الإسلامية تقوم المصلحة بدور هام فى المجال التشريعى، ربما لا تقوم به فى أى نظام آخر، فهى ليست هدفاً عاماً للشريعة، ومقصداً كلياً من مقاصدها فحسب بل هى حكمة واضحة وجلية من سننها وتقريرها، لذا يوجد الحكم الشرعى حيث توجد المصلحة، وينتهى الحكم حيث لا توجد المصلحة.

كذلك فإن استخلاص الأصوليين لفكرة بناء الأحكام على المصالح جعلهم يضعون "المصالح المرسلة" أساساً آخر لتشريع الأحكام فى الإسلام، مما أعطى لولى الأمر فى النظام الإسلامى سلطة واسعة فى استخلاص أحكام جديدة لم يتعرض لها الفقهاء من قبل إذا ما استبان فيها مصلحة المسلمين.

ويقول الأصوليون إن هذه المصلحة تتحقق، إما بجلب النفع للإنسان، أو بدفع الضرر عنه فكان من رحمة الله بالناس فى التشريع أنه قصد حفظ التوازن بين مصالح الفرد ومصالح الجماعة لذا فإن ما جعله الشرع مباحاً مأذوناً أو واجباً مفروضاً على الإنسان، فهو إما نافع له نفعاً محضاً أو نفعه أكثر من ضرره أو أنه محقق المنفعة لأكبر مجموعة من الناس. وما جعله الشرع حراما أو مكروها فهو لأنه محض ضرر أو لأن ضرره أكثر من نفعه. وهكذا شرع الله كل ما يحقق النفع للإنسان ويدفع الضرر عنه لكى يتحقق له ما خلق من أجله من الخلافة فى الأرض وإخلاص العبادة له سبحانه وتعالى.

وهكذا يمكن أن نقول أن كافة الأحكام الشرعية ترتبط بالمصلحة؛ أى تستهدف خير الناس ونفعهم أو منع الضرر عنهم، وهذه الحقيقة محل إجماع الأصوليين والفقهاء على اختلاف مدارسهم.

وقد توسع الأصوليون فى هذا المنهج توسعاً كبيراً، وانتهوا إلى نتائج بالغة الأهمية تأسيساً على قيام الأحكام الشرعية جميعها على حِكَم، إن لم تكن واضحة دائماً فمن الضرورى الوصول إليها.

ثم أخذ الأصوليون بفكرة المصلحة المرسلة كما وضحنا واعتبروها من مصادر الشريعة. والمصالح المرسلة هى مصالح سكت عنها الشارع، فلم يشهد لها بالاعتبار، أو الإلغاء بنص معين، فلا دليل يدل على الإذن بتحصيلها وبناء الأحكام عليها، بل تركها لأولى الأمر من المجتهدين يأخذون بها إذا اقتضى حالها الأخذ بها ويتركونها إذا ترتب عليها مغبة أو أدت إلى ضرر، لأن شأنهم الإمعان فى تحديد وتجلية النصوص وسبر مدلولاتها لاستخراج علة الحكم أو ضبط هذه المدلولات أو الترجيح بين احتمالاتها أو الكشف عن عمومه أو مخصصاته أو الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص(٢٨).

والواقع أن الفقهاء قد اتفقوا على أن المصالح المرسلة تعتبر أحد الأدلة التى يمكن استخدامها لوضع أحكام جديدة بشرط ألا تخرج على النصوص أو الأحكام المجمع عليها من جماعة المسلمين.

أنواع المصالح :

وتبدو العبقرية الفقهية الشاملة لدى علماء المسلمين فى وقت مبكر، عندما توصلوا إلى مقصود الشارع من وضع مختلف الأحكام والأنظمة التى يقوم عليها الناس فى الأرض وهو تحقيق المصلحة. هذا حجة الإسلام الإمام الغزالى يوضحها لنا بجلاء فى كتابه "المستصفى" فيقول:

"إن مقصود الشارع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة".

فأى تتبع واضح لمختلف الأحكام القانونية يجعلنا نقرر أنها تدور حول حفظ الشخص والمال والجماعة، ثم الدين فى التشريعات ذات الطابع الأخلاقى، ولا

يخلو تشريع لأى دولة من الدول غير العلمانية من حماية الدين بأحكام عديدة فى التشريعات.

فكافة التشريعات تحمى الفرد وتقرر له العديد من صور الحماية لجسمه وعقله وحريته كما تحمى المال بصور شتى من صور الحماية وتعاقب من يعتدى عليه، كما تحمى حق الإنسان فى تكوين أسرة وتحمى استمرار الجنس البشرى واحترام تناسله، وهكذا على تفصيلات يتبينها كل من يطالع أحكام القانون المدنى وأحكام قانون العقوبات فى أى تشريع من التشريعات.

المصالح والحقوق الإنسانية :

ولا شك أن لفكرة المصلحة ارتباطها الوثيق بحقوق الإنسان وحرياته، إذ هى تقرر حقوقاً واضحة تنبنى على المصلحة كما أنها تتيح المجال للتوسع فى أى حقوق لم تتقرر فى المصادر الأولية للتشريع الإسلامى.

ولنأتى لبعض التفاصيل فيما يتعلق بحماية حق الحياة فى الإسلام مثلاً، وهو رأس الحقوق التى يحميها لما فيها من مصلحة للناس.

فهناك العديد من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية أوردت حق الحياة، كما أن العديد من الآيات والأحاديث شددت النكير على كل من يعتدى على هذا الحق. وهكذا يوجب الإسلام القصاص على كل من يعتدى على حق الحياة، أو على حق الإنسان فى سلامة جسده، وهناك من يعتبر القصاص عقوبة قاسية، مع أننا إذا تعمقنا فى الأمر لا نجده عقوبة، وإنما هى مقابلة للشر الذى وقع بشر مثله، وهذا أمر ضرورى لتحقيق الأمن الجماعى فى المجتمع ولقيام التجمع البشرى بشكل عام. ولأهمية الحق فى الحياة - باعتباره رأس الحقوق - نسوق هذه الأدلة على حمايته وعلى تشديد العقوبة عليه.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ﴾[٢٩] كما يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى﴾[٣٠].

ويقول: ﴿وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الأَلْبَابِ﴾[٣١] و يقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾[٣٢].

بل نجد القرآن الكريم يشدد النكير على من يقتل غيره.

ويعتبر جريمة القتل واقعة على النظام الاجتماعى والسياسى يقول سبحانه وتعالى: **﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾**[٣٣]، وإن كان هذا لا يبرر أن يوقع بالجانى عقاباً أشد مما عاقب به، فلا يجوز المثلة مثلاً إلا إذا كان القاتل قد مثّل بجسم المقتول.

وجاء النبى ﷺ فى حجة الوداع ليعلن بوضوح: **"أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا. اللهم قد بلغت، اللهم فاشهد»**[٣٤]. أما حفظ النسل فيأتى بدوره على رأس الحقوق الأساسية التى يقررها الإسلام.

حق الإنسان فى حفظ نسله :

وقد حبب الإسلام فى تكوين الأسر بالإنجاب وفى تعمير الأرض بالنسل يقول القرآن الكريم: **﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[٣٥]. كما أن الرسول الكريم يقول: **"يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج.."** ويقول: **" تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة"**.

ولا شك أن الإسلام بحفظه النسل يتفوق على الحضارات الحديثة إذ مما يؤسف له، أن دولاً أوروبية كبرى مثل إيطاليا وفرنسا لا تزيد نسب الخصوبة فيها عن ١٪[٣٦].

ونجد أن الشريعة تضع عقوبات قاسية على من يقوم بإجهاض المرأة المتزوجة، وكذا تضع عقوبات شديدة على الزنا، لأنه يؤدى إلى اختلاط الأنساب يقول تعالى: **﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[٣٧].

وكثيرة هى الأحكام التى تقررها الشريعة الإسلامية لممارسة هذا الحق، وكثيرة هى الأحكام التى تتصل بواجبات الأبوين فى تربية الطفل وتعليمه وتنشئته تنشئة حسنة، وهى أحكام اعتمدت عليها كثيراً اتفاقية حقوق الطفل حسبما اعترف به الكثيرون من منظمة اليونيسيف والتى لا يتسع المقام هنا للإفاضة فيه.

هذا وقد قررت الوثيقة الدولية لحقوق الإنسان هذا الحق فى أكثر من موضع. من ذلك ما جاء بالعهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية من أنه: تقر الدول الأطراف فى هذا العهد "بوجوب منح الأسر التى تشكل الوحدة الجماعية الطبيعية والأساسية فى المجتمع، أكبر قدر ممكن من الحماية والمساعدة وخصوصاً لتكوين هذه الأسرة.. ويجب أن ينعقد الزواج برضا الطرفين رضاء لا إكراه فيه"(٣٨).

حرمة المال :

اعتبرت الشريعة الإسلامية من بين الحقوق الرئيسية التى تقوم على المصالح: حق الملكية، والشريعة تعترف للإنسان بأن يتملك مختلف أنواع الحقوق، وتحدد مصادر الملكية المشروعة وتحميها. ويقول سبحانه وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾**(٣٩). ويقول: **﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**(٤٠).

أما السنة فقد ورد فيها الكثير الذى يؤكد حق الملكية(٤١) ويقرر حصانتها من أى عدوان عليها. فقد قرن الرسول صلى الله عليه وسلم حرمة المال بحرمة النفس فى خطبته يوم حجة الوداع ـ كما يقول صلى الله عليه وسلم: "**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**" ويقول:"**لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه**".

ومع ذلك فحق الملكية يتقرر فى الإسلام وفقا لضوابط معينة تكفل تحقق النفع منه وإخراج زكاته وتنميته بالاستثمار وتحرم أنواعا منها يتحقق فيها الضرر بالإنسان مثل ملكية الخمر ولحم الخنزير، والأموال التى تحصل من ربا أو ما كان حقا للفقير ولم يعطه الغنى له، وهذا كله وفقا لتفصيلات واسعة ليس هنا مجالها.

القسم الرابع
مبدأ الحرية

يعتبر مبدأ الحرية من المبادئ الرئيسية التى يقوم عليها التشريع الإسلامى بشكل عام.

وسنكتفى هنا بذكر بعض آيات القرآن الكريم والسنة النبوية ثم نعرض بعد ذلك لهذه الحرية كما رآها السلف الصالح.

أولاً : القرآن الكريم :

يحتوى القرآن الكريم كما هو معلوم على القواعد الكلية التى تحكم سلوك الإنسان، لذا لا نجده يتناول التفصيلات وإنما يكتفى بالعموم، وسنتناول فيما يلى من الفقرات بعض المبادئ العامة فى شأن حرية الرأى والتعبير.

دعوة المسلمين إلى إبداء الرأى والتعبير عنه :

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى أول آيات من القرآن الكريم بالقراءة وبالدعوة إلى الله، وبنشر الرسالة على كل الناس فيقول تعالى ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ • خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ • اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم • الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[٤٢]. كما أمر - سبحانه وتعالى - الرسول بأن يذيع ما يوحى إليه فيقول تعالى : ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾[٤٣]. كما يقول - سبحانه وتعالى - مخاطباً رسوله: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِى أَحْسَنُ**﴾[٤٤].

كذلك ينعى القرآن الكريم على ما يخفى آيات الله ورسالته فيقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ**﴾[٤٥].

كما يقول سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.(٤٦)

كما يوضح أهمية نشر الرسالات وهداية الناس بها منذ القدم فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾(٤٧).

ويأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله بأن يشاور المسلمين فى مختلف الأمور فيقول: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ﴾(٤٨).

كما يصف جماعة المسلمين بأن أمرهم شورى بينهم ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾(٤٩).

ونستخلص من هذه الآيات المبادئ الآتية :

١ - أن الإسلام يقرر للإنسان حرية الرأى بما تعنيه من حقه فى اعتناق الآراء والعقائد التى تصلح حاله فى الدنيا والآخرة، ويقرر له أيضاً حقه فى البحث عن المعلومات والأفكار من أى نوع واستلامها ونقلها بغض النظر عن الحدود.

٢ - أن الإنسان عليه واجب أن يوضح ما يعرفه من علوم ومعارف وعقائد لغيره من بنى الإنسان أياً كان المكان الذى يوجدون فيه، وإلا لتحمل الإثم، واستحق العذاب فى الدنيا والآخرة.

٣ - أن سبل التعبير عن الرأى لا يجب أن تتوقف عن حد الإعلام والتبليغ، وإنما يجب أن تشمل سماع آراء الآخرين ومحاورتهم والتشاور معهم فى مختلف الأمور حتى لا يكون الرأى وقفاً على شخص أو مجموعة.

٤ - أن الإعلان عن الرأى والدعوة إلى الحق يجب أن تتبع وسيلة سليمة وأن تتفنن فى اختيار أنسب الوسائل لعقول من يستمع إلى الرأى حتى يؤتى الرأى ثماره ـ الحكمة والموعظة الحسنة.

ثانياً : السنــة :

ترينا السنة القولية والسنة العملية كيف فهم رسول الله ﷺ حرية الرأى والتعبير عنه. نكتفى هنا بذكر بعض الواقع ودلالاتها فى هذا الشأن. فمعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد غير المكان الذى اتخذه فى غزوة بدر عندما عرض عليه أصحابه أن هناك مكاناً أفضل، وعندما سأله الصحابى عما إذا كان المكان الأول هو مكان أمره الله بالنزول فيه أم هى الحرب والرأى والمشورة، وهذا أيضاً أسلوب صحابى يدل على الأدب والقوة فى نفس الوقت، وحدث ذلك أيضاً فى غزوة أحد، هل يمكث داخل المدينة يدافع عنها انصياعاً لرأى الأغلبية رغم عدم اطمئنانه إلى سلامة القرار أم لا ؟ هذا عن السنة الفعلية، أما السنة القولية، ففيها أيضاً العديد من الأحكام التى تعبر عن ذلك : يقول رسول الله ﷺ: **" من سنّ فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء"**.

ويقول أيضاًﷺ: **" الدين النصيحة قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"**. وقال: **" والله لتأمرُنّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنّ عن المنكر ولتأخذُنّ على يد الظالم. أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض"**.

وفى سيرة السلف الصالح ما يفيد أنهم كانوا يشجعون إبداء الرأى ولو خالف رأيهم. فلقد طالب أبو بكر الصديق المسلمين ـ عندما تولى عليهم ـ بأن يُعينوه إذا أحسن، وأن يُقَوِّمُوه إذا أساء، وسعد عندما قام إليه من يقول:"والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا". كذلك عندما أوشك عمر بن الخطاب على تحديد المهور، عدل عن موقفه عندما بصّرته امرأة بدلالة آية من القرآن الكريم على عدم جواز ذلك، وهى الآية التى يقول فيها سبحانه وتعالى: **﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾**(٥٠).

القسم الخامس

حرية العقيدة

حرية العقيدة تتمثل فى التشريعات الوضعية الحديثة فى حق الإنسان فى اعتناق الدين الذى يريده وحقه كذلك فى تبديل دينه واعتناق دين آخر.

وقد وجهت سهام عديدة إلى حرية العقيدة فى الإسلام من عدة وجوه:

الوجه الأول، هو أن الإسلام لا يعرف حرية العقيدة وأنه أشهر السيف فى وجه كافة العقائد الأخرى لكى يتركوا عقائدهم ويدخلوا فى رحابه، وأنه لم يقم إلا على حد السيف.

الوجه الثانى، أنه لا يعطى حرية مناقشة العقائد الأخرى، لكى يختار الناس ما يناسبهم من العقائد.

الوجه الثالث، أنه لا يجوز للمسلم أن يترك دينه، وإذا حدث وتركه، وقعت عليه عقوبة قاسية، هى عقوبة القتل.

والواقع أن كل هذه الوجوه غير صحيحة، ولا تثبت أمام الحجج الواضحة التى تواترت عن العلماء فى هذا الخصوص على ما نرى الآن.

العقائد لا تقوم إلا على الإقناع :

فالعقيدة تتصل بعلاقة الإنسان بربه وبالتالى فهى تفترض الاقتناع الكامل بها والتسليم المطلق من الإنسان لخالقه، وهو أمر لا يتم بالإكراه ونجد القرآن الكريم يتلمس هذه الحقيقة ويعبر عنها فى أكثر من آية من ذلك قوله تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾(٥١) وقوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾(٥٢).

كذلك نجد أن القرآن الكريم يدفع الناس إلى النظر فى ملكوت السماوات والأرض وتكوين عقيدتهم بالعقل والفكر وليس بمجرد الميراث. نذكر هنا قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(٥٣). وقوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾(٥٤). بل إن الأنبياء أنفسهم ناقشوا العقيدة مع الله – سبحانه وتعالى

– وورد ذكر ذلك فى العديد من آيات القرآن الكريم، إبراهيم أبو الأنبياء طلب من الله أن يريه كيف يحيى الموتى، وأخذ يتفكر طوال الليل فيمن يكون الخالق، كوكبا رآه، أم القمر، أم الشمس إلى أن هداه الله إلى حقيقة الإيمان بالله.

ونجد شهادات للعديد من المستشرقين ورجال الفكر الغربى تثبت كذب دعوى أن الإسلام لم يقم إلا على حد السيف.

من ذلك ما قررته الكاتبة "لوارفيشيا فاغليرى"[٥٥] من أن الإسلام يحرم العدوان فى نصوص صريحة وردت فى القرآن والسنة، وهو ينظر إلى الحرب بوصفها حريقاً يجب أن يطفأ بأسرع ما يمكن كلما اندلعت آثارها، وهو يستنكر جميع الأعمال الحربية والوحشية، وقد سن مجموعة من القواعد والعادات ابتغاء جعل الحرب إنسانية، وأجاز الله للمسلمين أن يقاتلوا دفاعا عن حرية الضمير لإقرار السلم والنظام.. لقد جعل الإسلام الحرب تلك الضرورة الرهيبة فى تلك الحياة أقل وحشية. واستدلت الكاتبة بانتشار الإسلام دون أن يدخل أى جيش يتبعه في أكبر بلاد الإسلام الآن وهى إندونيسيا ويصدق ذلك على ماليزيا والصين كذلك. وذهبت إلى أن أحداً لا يستطيع أن يزعم أن سيف الفاتح هو الذي يمهد السبيل أمام الإسلام، بل على العكس، ففى بلاد إسلامية عديدة تولت السلطة حكومات غير إسلامية، وسمحت لمنظمات تبشيرية عديدة بأن تنشر المسيحية في بلاد المسلمين، ولكنها لم تنجح فى زحزحة الإسلام خطوة عن حياة شعوب هذه البلاد.

وهو نفس ما يقرره توماس كارليل في كتابه الشهير «الأبطال وعبادة البطولة» من أن اتهام الإسلام بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم، إذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها[٥٦].

ويبدى جوستاف لوبون[٥٧] وهنرى دوكاسترى[٥٨] نفس الملاحظات ويردون على دعوى انتشار الإسلام بحد السيف اعتمادا على القوة الداخلية لعقيدة الإسلام وارتباطها بالعقل والقلب معا[٥٩].

ونكتفى بنقل هذه الفقرات ذات الدلالة الفائقة على كذب الادعاء بانتشار الإسلام بحد السيف "لجوستاف لوبون" فهو يقول: "إن القوة لم تكن عاملاً حاسماً فى انتشار الإسلام، وأن العرب تركوا المغلوبين أحراراً فى دينهم، فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام، واتخذ العربية لغة له، فذلك لما كان يتصف به العرب من ضروب العدل الذى لم يكن للناس عهد لمثله، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التى لم تعرفها الأديان الأخرى. إنه كان يمكن أن تعمى فتوح العرب الأولى أبصارهم فيقترفون من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئون معاملة المغلوبين ويكرهونهم على اعتناق دينهم الذى كانوا يرغبون فى نشره فى أنحاء العالم، ولو فعلوا لتألبت عليهم جميع الأمم التى كانت بعد غير خاضعة لهم، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا سوريا، ولكن الخلفاء أدركوا بعبقريتهم أن النظم والأديان ليست مما يفرض قهراً، فعاملوا أهالى كل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة مقابل حمايتهم لهم، وحفظ الأمن بينهم. والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء ومتسامحين مثل العرب»(٦٠).

الخاتمة

عرضنا فى هذه الدراسة للأهمية الفائقة التى تحتلها دراسة حقوق الإنسان فى الإسلام، ورأينا كيف كرم القرآن الكريم الإنسان فى آيات كثيرة واعتبره محور الحياة وخليفة الله فى الأرض، وسخر له الكون كله يجرى خلفه وأمامه حيث أراد.

كما طرحنا نظرية الإسلام فى تناول الحقوق والحريات العامة من خلال القيم الرئيسية التى تقوم عليها الشريعة الإسلامية، واكتفينا فى هذه الدراسة بعرض قيم العدالة والحرية والمصالح، وما ارتبط بها من حقوق وواجبات كما عرضنا لحرية العقيدة وما يحيط بها من تأويلات ضد الإسلام وقمنا بالرد عليها على ما يسمح له الحيز المحدود لهذا البحث.

إننا ونحن نقدم هذه الدراسة وجهنا اهتمامنا لهذه القضايا الرئيسية من خلال تفسير النصوص الأصلية ولم نُلْقِ بالاً لأية تأويلات أعطيت لمعانى الحقوق والحريات العامة بفضل بعض الظروف والاجتهادات التى أملتها ظروف الزمان والمكان فى بعض الفترات المضطربة.

وأهم النتائج التى يمكن أن نتوصل إليها من هذه الدراسة هى :

١ - أن الإسلام يعامل الناس جميعاً دون تمييز بحسب الجنس أو اللون أو الدين فيما يتعلق باكتساب الحقوق وممارستها فعلاً.

٢ - أن الحقوق والحريات التى يقررها الإسلام حقوق وحريات مسئولة تمارس من خلال النظام الاجتماعى والوظائف التى يقررها الإسلام للفرد من خلال الجماعة.

٣ - أن الإسلام يكفل حماية وافية لحق الحياة وحرية الرأى والتعبير، ولحق الإنسان فى حفظ النسل والعقل والدين، ويجب الاهتمام بالأسس التي يقدمها فى هذا المجال لفائدة الإنسانية بشكل عام.

٤ - أن الإسلام يقدم الكثير فى مجال الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، ويضع أسساً للتكافل الاجتماعى بين الناس، ويمنع استغلال الغنى القادر للفقير ولغير القادر كما يضع الإسلام الأسس التى تكفل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء فقط، ويجب أن يستفاد بها فى تنظيم العلاقات بين من يملكون ومن لا يملكون وقد أعطى الإسلام للفقير والمحتاج ـ حقّا مالياً ـ تكفله له الدولة من بيت مال المسلمين، يكفى حاجاته وحاجات أولاده ويدفعه للعمل والإنتاج.

٥ - أنه فى مجال حرية التعبير يضع الإسلام الضوابط الكفيلة بحماية المجتمع من الآراء الضارة، ويقيم أمة، أى مجموعة من العلماء مهمتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى تقيم نوعا من الحراسة مع ممارسة الحقوق وتأدية الواجبات والنهى عن كل ما يخالف الدين والأخلاق فى المجتمع.

٦ - أن الإسلام يقر حرية العقيدة ويعطى لكل شخص الحق فى أن يعتنق من الأديان ما يشاء.

٧ - وأخيراً فإن الإسلام يعترف بغير المسلمين، ولا يعاديهم ويعتبرهم أعضاء فى المجتمع الإسلامى طالما قبلوا أحكام الدستور الإسلامى.

الهوامـــش

(١) سورة الممتحنة الآيتان رقم ٨، ٩.
(٢) سورة البقرة، الآيات من ٣٠ – ٣٨.
(٣) سورة الإسراء، الآية رقم ٧٠.
(٤) سورة طه، الآيتان رقم ٥٣ – ٥٤.
(٥) سورة النحل، الآية رقم ٧٨
(٦) سورة آل عمران، الآيتان رقم ١٩٠، ١٩١.
(٧) راجع دراسات واسعة عن العدالة فى بحث لنا بعنوان: "العدالة والإنصاف فى القانون الدولى"، منشور فى مجلة الاقتصاد والإدارة التى تصدر عن جامعة الملك عبد العزيز بالسعودية العدد الثانى محرم ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص٥٥، وما بعدها.
(٨) يطبق القاضى العدالة من تلقاء نفسه فى حالة عدم وجود نص يحكم الحالة التى أمامه، أو وجود نقص فى القاعدة (مشكلة الثغرات)، أو عندما تعرض عليه حالة شاذة يؤدى انطباق القاعدة عليها إلى المساس بالعدالة "مشكلة الملاءمة" وله فى بعض المذاهب أن يطرح القاعدة القانونية جانباً ويطبق قاعدة العدالة بدلاً منها، مع تحفظات واسعة على هذا الحل. راجع للمؤلف المدخل إلى دراسة التشريع السعودى بالاشتراك مع الدكتور/ عبد الناصر العطار.
(٩) سورة الأنبياء، الآية رقم٤٧.
(١٠) سورة الزلزلة، الآيتان رقم ٨،٧.
(١١) سورة المائدة، الآية رقم ٨.
(١٢) سورة النحل، الآية رقم ٩٠.
(١٣) سورة الأنعام، الآية رقم ١٥٢.
(١٤) سورة النساء، الآية رقم ٥٨.
(١٥) سورة المائدة، الآية رقم ٤٢.
(١٦) سورة الممتحنة، الآية رقم ٨.
(١٧) وهى إعطاء كل ذى حق حقه فى قسمة المشاع أو المال العام.
(١٨) وهى إعطاء عوض معادل للعوض الآخر المراد مبادلته بعقود المعاوضات.
(١٩) راجع : دبنيس لويد، فكرة القانون، ترجمة سليم العديس، عالم المعرفة، الكويت، ص١٦٢، وصوفى أبو طالب، مبادئ تاريخ القانون، طبعة ١٩٦٩، ص٢٥٠.
(٢٠) سورة الحشر، الآية رقم٧.
(٢١) سورة الحشر: الآية رقم ١٠.
(٢٢) راجع الخراج لأبى يوسف، محمد يوسف موسى، فقه الصحابة والتابعين، القاهرة ١٩٥٤ ص ٦٥. محمد مدكور، المصالح المرسلة وموقف الفقهاء منها، مجلة مصر المعاصرة – يوليو ١٩٦٨،ص١٦٠ .
(٢٣) سورة البقرة، الآية رقم ٢٧٥.
(٢٤) سورة البقرة، الآيتان رقم ٢٧٨ -٢٧٩ .
(٢٥) سورة البقرة ، الآيتان رقم ٢٨٠ – ٢٨١ .
(٢٦) تم التعبير عن ذلك الحق فى المادة ١٤ من العهد الدولى للحقوق المدنية والسياسية بالقول :" الناس جميعاً سواء أمام القضاء، ومن حق كل فرد لدى الفصل من أية تهمة جزائية توجه إليه أو فى حقوقه فى أية تهمة جزائية توجه إليه .. أن تكون قضية محل نظر منصف ومن قبل محكمة مختصة مستقلة حيادية..".
ونريد أن نذكر هنا أن المثول أمام القاضى فى الدولة الإسلامية والحقوق المفصلة بالمساواة بين الخصوم، وردت بالنسبة للمسلمين وغير المسلمين دون أى تمييز ولم يستكف أى مسئول فى دولة الإسلام أن يقف مع خصمه أمام القاضى وأن يقبل حكمه وأن ينفذه حتى لو كان ضده.
(٢٧) تقرر المادة (١١) من العهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية " حق كل شخص فى مستوى معيشة كاف له ولأسرته يوفر ما يفى بحاجتهم من الغذاء والكساء والمأوى وبحقه فى تحسين متواصل لظروفه المعيشية، وتتعهد الدول الأطراف باتخاذ التدابير اللازمة لإنفاذ هذا الحق، معترفة فى هذا الصدد بالأهمية الأساسية للتعاون الدولى العام مع الارتضاء الحر".
(٢٨) راجع عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، طبعة ١٩٢٤، ص ٨٨. زكريا البرى الأدلة الشرعية، دار النهضة العربية.
(٢٩) سورة الإسراء، الآية ٣٣.

(٣٠) سورة البقرة، الآية ١٧٨.
(٣١) سورة البقرة، الآية رقم ١٧٩.
(٣٢) سورة النحل، الآية رقم ١٢٦.
(٣٣) سورة المائدة، الآية رقم ٣٢.
(٣٤) دون الحق فى الحياة فى وثيقة حقوق الإنسان بشكل واضح، فبعد إعادة التأكيد على ما ورد بشأنه فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان نجد نصها واضحاً يقول: " لكل فرد حق فى الحياة وفى الحرية وفى الأمان على شخصه. وفى العهد الدولى للحقوق المدنية والسياسية نجد تفصيلا عن الحياة حيث جاءت المادة (٦) تقول: الحق فى الحياة حق ملازم لكل إنسان وعلى القانون أن يحمى هذا الحق ولا يجوز حرمان أحد من حياته تعسفاً" كما تقرر أنه لا يجوز أن يحكم بهذه العقوبة إلا جزاء على أشد الجرائم خطورة وفقاً للتشريع النافذ وقت ارتكاب الجريمة، وغير المخالف لأحكام هذا العهد واتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها. ولا يجوز تطبيق هذه العقوبة إلا بمقتضى حكم نهائى صادر من محكمة مختصة، والواقع أن الشريعة الإسلامية لا تجيز توقيع عقوبة القتل إلا قصاصاً، أى لمقابلة قتل عمدى، وبالتالى فهى تقرر حماية أكبر لحق الحياة.
(٣٥) سورة الروم، الآية رقم ٢١.
(٣٦) نشرت صحيفة الأهرام يوم السبت ١٥ إبريل ٢٠٠٠ أن أوروبا تحتاج إلى ٧٠٠ مليون شخص خلال السنوات القليلة القادمة بسبب الشيخوخة التى تعيش فيها، ولقلة الزواج وضعف نسبة الخصوبة.
(٣٧) سورة النور، الآية رقم٢.
(٣٨) قررت نصوص العهد حماية خاصة للأمهات وضرورة منحها إجازة مأجورة خلال فترة معقولة قبل الوضع وبعده. وتتسع دائرة حماية النسل وتربية الأطفال فى الشريعة عن ذلك بكثير.
(٣٩) سورة النساء، الآية رقم ٢٩.
(٤٠) سورة المائدة، الآية رقم ٣٨.
(٤١) دور حق الملكية فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، وفى العهدين الدوليين للحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية من ذلك ما جاء فى المادة(١٧) من الإعلان من أنه لكل فرد حق فى التملك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره. ولا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفاً.
(٤٢) سورة العلق من الآية ١ إلى ٥.
(٤٣) سورة الحجر الآية رقم ٩٤.
(٤٤) سورة النحل، الآية رقم ١٢٥.
(٤٥) سورة البقرة، الآية رقم ١٥٩.
(٤٦) سورة البقرة، الآية رقم ١٧٤.
(٤٧) سورة آل عمران، الآية رقم ١٨٧.
(٤٨) سورة آل عمران، الآية رقم ١٥٩.
(٤٩) سورة الشورى، الآية رقم ٣٨.
(٥٠) سورة النساء، الآية رقم ٢٠.
(٥١) سورة البقرة الآية رقم ٢٥٦.
(٥٢) سورة النحل، الآية رقم ١٢٥.
(٥٣) سورة الجاثية الآية رقم ١٣.
(٥٤) سورة محمد الآية رقم ٢٤.
(٥٥) راجع مؤلفها: دفاع عن الإسلام، مترجم إلى العربية، منير البعلبكى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٠، ص١٢.
(٥٦) توماس كارليل "الأبطال وعبادة البطولة"، دار الكتاب العربى بيروت ١٩٦٦ ص٢٢٩.
(٥٧) كتاب حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ص ١٢٦.
(٥٨) الإسلام تأثرات ومباحث.
(٥٩) راجع تفصيلات واسعة عن هذه القضية فى كتاب الأستاذ العقاد، «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، «دار الكتاب العربى، بيروت ١٩٦٦ ص٣٠٠ وما بعدها، وراجع رسالة عبد الوهاب عبد العزيز الشيشانى، حقوق الإنسان وحرياته الأساسية فى الإسلام، جامعة الأزهر ١٩٨٠ ص٥٤١ وما بعدها.
(٦٠) راجع حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، المرجع السابق ص١٤٥.

حقوق الإنسان فى الإسلام
مقارنة بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان

الأستاذة الدكتورة/ فوزية العشماوى

قسم الدراسات العربية والإسلامية

كلية الآداب بجامعة جنيف

سويســرا

مقدمــــة :

اختـرت أن يكون مـوضـوع مـداخلتى عن حـقـوق الإنسـان فى المنظور الإسلامى مقارنة بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان وذلك لسببين، السبب الأول: أن قضية حقوق الإنسان أصبحت من أهم القضايا التى تستحوذ على اهتمام المجتمع الدولى والسبب الثانى: أن حقوق الإنسان أصبحت وسيلة من وسائل تشوية صورة الإسلام فى الغرب والإدعاء بأن المجتمعات الإسلامية مجتمعات يسود فيها التعصب الدينى وعدم احترام الحريات وعدم المساواة بين الرجال والنساء. لذا وجب دحض هذه الافتراءات بالرد المنطقى العقلانى وبالمقارنة بين حقوق الإنسان فى المنظور الإسلامى وبين الإعلان العالمى لحقوق الإنسان.

إذا رجعنا إلى أصل مصطلح حقوق الإنسان لوجدنا أنه غير متداول فى

الخطاب القـرآنى، ولا فى السنة النبـوية الشـريفـة، ولا فى الفكر الإسـلامى الكلاسيكى القديم ، إنما نجد بدلاً من الجمع "حقوق" المفرد "حق "، وبدلاً من مصطلح "الإنسان" نجد مصطلح " المرء" أى الجنس البشرى ذكرا كان أم أنثى، إلى جانب مصطلح " الناس" جمع " إنسان" مثلما جاء فى كثير من الآيات التى يتوجه فيها الخطاب القرآنى إلى البشرية جمعاء والتى غالبا ما تبدأ بـ "يا أيها الناس " . كذلك ذكر القرآن الكريم مصطلح " بنى آدم" لتعميم الخطاب إلى جميع البشر، كما جاء فى بعض الآيات الكريمة. كما نجد أن الرسول الكريم محمد ﷺ قد استخدم مصطلحى " حق" و" ناس " فى كثير من أحاديثه، ونذكر هنا هذا الحديث الشريف الذى يكرر فيه عدة مرات كلمة «حقا» تأكيداً على أهمية الحقوق :" **إن لنفسك عليك حقا، ولبدنك عليك حقاً، ولزوجك عليك حقا، فأعط لكل ذى حق حقه**"، وفى الشطر الثانى من الحديث "**أعط لكل ذى حق حقه**" يؤكد الرسول ﷺ على مبدأ هام من مبادئ حقوق الإنسان فى الإسلام؛ وهو إعطاء الحقوق لأصحابها ولمن يستحقها بدون قيد أو شرط.

وبالرغم من أن تعبير "حقوق الإنسان" غير موجود لفظا فى الخطاب القرآنى ولا فى الأحاديث النبوية الشريفة إلا أن أغلبية مبادئ حقوق الإنسان المتعارف عليها عالميا اليوم، والمذكورة فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان موجودة وثابتة فى النصوص الإسلامية (القرآن الكريم والأحاديث) وفى الفكر الإسلامى، بل إن بعض المصطلحات المذكورة فى هذه النصوص الإسلامية الثابتة موجودة حرفيا.

وأود أن أؤكد هنا أن الهدف من وراء عقد هذه المقارنة ليس الدفاع عن الإسلام، فالإسلام غنى عن الدفاع عنه، وإنما الهدف هو مسايرة العالم المتغير الذى نعيش فيه فى بداية القرن الواحد والعشرين، لأن المجتمع الدولى يسير بخطى متسارعة نحو العولمة، ويسعى إلى جمع العناصر المشتركة فى جميع الثقافات لدمجها فى نظام أخلاقيات عالمية يصلح لمجتمع العولمة Global Ethics for a Global Society ، لذا يجب على المسلمين أن يشتركوا فى وضع صيغة للتعايش السلمى Modus Vivendi فى مجتمع العولمة، هذا ،مع ضرورة التركيز على الخصوصية الثقافية الإسلامية، والثبات على الأسس الجوهرية لديننا

الإسلامى الحنيف، مع التطلع إلى التطور والتجديد بما يتناسب مع المتغيرات الاقتصادية والاكتشافات العلمية الحديثة المتطورة. إن الغربيين يجهلون حقائق الإسلام؛ لأننا نحن المسلمون عندما نتحاور معهم لا نجيد لغة الحوار معهم، ولا نخاطبهم بأسلوبهم العلمانى، بل نخاطبهم وكأنهم مؤمنون بالله ووحدانيته، وننسى تماما أن الغربيين قد فصلوا الدين والإيمان عن العقل والفكر، وأنهم لم يعودوا يعترفون بقدسية النصوص الدينية ولا بشرعيتها، سواء أكانت النصوص اليهودية أو المسيحية أو الإسلامية، بل إنهم يتناولون تلك النصوص المقدسة بشىء من الاستخفاف إن لم يكن بالاستهزاء. لذا وجب التعامل معهم بأسلوبهم، وعقد المقارنات العقلانية، بالرغم من إيماننا العميق بأن نصوص الإسلام الثابتة، القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، فوق كل مقارنة، لاختلاف طبيعتها السامية الميتافيزيقية عن طبيعة نصوص المواثيق الدولية الوضعية.

أولا : أهداف الإعلان العالمى لحقوق الإنسان :

إذا بحثنا عن الأهداف الرئيسية من وراء الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، لوجدناه فى الديباجة التى تسبق مواد هذه الوثيقة حيث جاء فيها: " **لما كان الاعتراف بالكرامة المتأصلة فى جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعدل والسلام فى العالم ... فإن الجمعية العامة تنادى بهذا الإعلان العالمى لحقوق الإنسان على أنه المستوى المشترك الذى ينبغى أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم، حتى يسعى كل فرد وهيئة فى المجتمع إلى توطيد احترام هذه الحقوق والحريات، عن طريق التعليم والتربية واتخاذ إجراءات مطردة، قومية وعالمية، لضمان الاعتراف بها، ومراعاتها بصورة عالمية فعالة بين الدول الأعضاء ذاتها...**"

ويتضح لنا من هذه الديباجة أن الأهداف الرئيسية التى يسعى إليها الإعلان العالمى لحقوق الإنسان هى :

١ - الاعتراف بالكرامة المتأصلة فى جميع أعضاء الأسرة البشرية.

٢ - احترام حقوق الإنسان وتحقيقها عن طريق التربية والتعليم.

٣ - المساواة فى الحقوق أساس الحرية والعدل والسلام فى العالم.

١ - **كرامة الإنسان:** من مبادئ حقوق الإنسان الراسخة فى الفكر الإسلامى مبدأ كرامة الإنسان وتكريمه من الله - عز وجل - فقد كرم الله الإنسان وفضله على كثير من مخلوقاته، وأن هذا التكريم عم البشر جميعا لأنهم من أصل واحد. فالخطاب القرآنى يركز على أن الناس جميعا خلقوا من نفس واحدة، أى أنهم مشتركون فى الأصل الواحد : ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفسٍ واحدة**﴾ (النساء:١) كذلك أكد الرسول الكريم محمد ﷺ فى الحديث الشريف " **كلكم لآدم، وآدم من تراب** " على أن كل بنى آدم يتساوون فى التراب الذى أتوا منه، وسيعودون إليه حتما بلا تفرقة، وقد استخدم الخطاب القرآنى تعبير "بنى آدم" فى آية تكريم الإنسان: ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾ (الإسراء:٧٠) ولم يقل "كرمنا الناس" أو " كرمنا المؤمنين أو المسلمين" بل بنى آدم للتركيز على أن التكريم شمل الإنسان منذ بدء الخليقة، ومنذ أول إنسان خلقه الله سبحانه وتعالى؛ وهو آدم عليه السلام، أى أن التكريم مرتبط بإنسانية الإنسان فقط، وليس بانتمائه إلى دين أو عرق أو لون أو جنس دون آخر. وهذه الآية من أهم المصادر المرجعية التى يُرتكز عليها لتحديد تكريم الإسلام للإنسان مهما كانت ديانته، لأن التكريم والتفضيل اقترنا بأبى البشرية آدم - عليه السلام - قبل نزول الأديان والأنبياء جميعا.

٢ - **تحقيق حقوق الإنسان بالتربية والتعليم:** لقد حث الرسول الكريم المسلمين على طلب العلم مهما كان صعب المنال، كما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة " **اطلبوا العلم ولو في الصين** " و "**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**". ولقد بلغ من اهتمام الرسول الكريم بالعلم أنه وضع شرطا أساسيا لإطلاق سراح الأسرى المشركين فى غزوة بدر، وهو أن يعلّم كلُ واحد

منهم عشرةً من المسلمين القراءة والكتابة. ولقد رفع القرآن الكريم من شأن العلم والعلماء، فجاءت الآية الكريمة : ﴿**هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾ (الزمر: ٩) بل إن الرسول الكريم قد فضل العلماء على سائر الناس بقوله : "**العالم والمتعلم شريكان فى الخير، ولا خير فى سائر الناس**" وهذا ما أثار إعجاب المستشرق الفرنسى (جوستاف لوبون) الذى أخذ هذا الحديث الشريف كمرجع ليشيد باهتمام الإسلام بالعلم والعلماء، فكتب يقول فى كتابه (حضارة العرب): " **إن العلم الذى قد استخفت به أديان أخرى قد رفع المسلمون من شأنه عاليا، وإليهم ترجع هذه الملاحظة الصائبة التى تقول باسم الدين: إنما الناس هم الذين يتعلمون ويُعلِّمون ،واما ما عداهم فمضر ولا خير فيه** ".

٣ - المساواة فى الحقوق أساس الحرية والعدل والسلام فى العالم:
لقد أقر الإسلام المساواة بين الناس أجمعين كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (الحجرات: ١٣) "وهذه المساواة تنفى ادعاءات التفرقة بين الرجل والمرأة، فقد أكدت الآيات على أن معيار التفاضل هو التقوى والعمل الصالح: ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة**﴾ (النحل: ٩٧). ولقد أكد الإسلام على أن المساواة بين الناس لا تسود إلا فى ظل الحرية والعدل والسلام لأنها المعايير الأساسية للحياة فى المجتمع.

فالإسلام يدعو الناس جميعا للدخول فى السلم: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السِّلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان**﴾ (البقرة: ٢٠٨) ولا يستقر السلام إلا على أساس من العدل بين الناس جميعا، واعتبار الناس جميعا سواسية: "**الناس سواسية كأسنان المشط**" (حديث شريف صحيح) وإعطاء الحقوق إلى أصحابها، أى إقرار العدل بين الناس، كما جاء فى الحديث الشريف

"أعط كل ذى حق حقه".

ثانيا: مواد الإعلان العالمى لحقوق الإنسان مقارنة بالتعاليم الإسلامية :

إن الإسلام يقر معظم مبادئ حقوق الإنسان كما جاءت فى المواد الثلاثين لوثيقة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، والتى يؤكد الغربيون أنهم اشتقوها من مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى التى أطاحت بالملكية والإقطاع فى فرنسا عام ١٧٨٩ وهى (الحرية، المساواة والإخاء Liberté - Egalité - Fratermité) المشتقة من كتابات وأفكار فلاسفة عصر التنوير فى فرنسا فى القرن الثامن عشر وأهمهم مونتسكيو، وجان جاك روسو، وفولتير. وقد تجاهل الغربيون تماما أن أغلبية مفاهيم حقوق الإنسان كما صاغوها موجودة فى التعاليم الإسلامية المشتقة من القرآن الكريم والتى نادى بها الرسول الأمى محمدﷺ منذ القرن السابع الميلادى، أى قبل ١١ قرناً من عصر التنوير فى فرنسا.

ولن يتسع المجال هنا لمقارنة المواد الثلاثين لوثيقة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان بندا بندا بالتعاليم الإسلامية المؤيدة بالآيات القرآنية والأحاديث التى تحتوى على نفس المبادئ والمعايير الإنسانية ولكننا سنكتفى بالمواد التى استخدمت فيها نفس المصطلحات التى جاء ذكرها فى الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.

المادة الأولى : "يولد جميع الناس أحرارا متساوين فى الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلا وضميرا، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الإخاء" إن هذه المادة الأولى تذكرنا بمقولة الصحابي الجليل صهر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضى الله عنه -: **"متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ".**

المادة الثانية: "لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أى تمييز كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى السياسى أو أى رأى آخر، أو الأصل

الوطنى أو الاجتماعى أو الثروة أو الميلاد، أو أى وضع آخر دون أية تفرقة بين الرجال والنساء". إن هذه المادة تكاد تكون ترجمة أو نقلا عن الحديث الشريف الذى يؤكد فيه الرسول الكريم ﷺ على المساواة التامة بين الناس وعلى أن معيار التفضيل عند الله يرتكز على دعامة التقوى: **"يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمى ولا لأعجمى على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم"**. وهذا الحديث الشريف يعتبر ركيزة أساسية فى إثبات أسبقية الإسلام فى إقرار مبادئ حقوق الإنسان وعدم التمييز بين إنسان وآخر طالما أن الرسول يوجه الخطاب إلى الناس جميعا وليس للمسلمين فقط بقوله "أيها الناس" ولا يميز بينهم بسبب العنصر (عربى/عجمى)، أو اللون (أبيض/أحمر/أسود)، أو اللغة (عربى/عجمى). كما أن بعض الآيات تؤكد على عدم التفاضل بين الناس بسبب الجنس أو اللون أو العنصر مثل **﴿ومن آياته خَلْق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾** (الروم:٢٢) وهنا يؤكد الخطاب القرآنى على أن الاختلاف من آيات الله، وليس أساسا للتفاضل بين الناس، أى أن الاختلاف فى لون البشرة وفى اللغة من نعم الله على الناس، وهذا ما يردده حاليا علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا فى أوروبا وأمريكا من أن اختلاف الجنسيات والثقافات واللغات والأجناس إنما هو إثراء للمجتمعات، خاصة فى الدول التى تكثر فيها نسبة المهاجرين، مثلما الحال فى سويسرا حيث ترفع شعار" الاختلاف ثراء ثقافى "وخاصة فى مدينة جنيف حيث المقر الأوروبى للأمم المتحدة وحيث يتعايش أقوام من أكثر من ١٥٥ دولة هم أعضاء منظمة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الأخرى، ويعتبر مجتمع مدينة جنيف من أكثر المجتمعات الأوروبية تقدما ومدنية وارتقاء بفضل اختلاف الأديان والألوان والألسنة، لأن هذا الاختلاف نعمة مثلما جاء فى الآية الكريمة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفقرة الأخيرة من هذه المادة التى تنص على: **"دون أية تفرقة بين الرجال والنساء"** قد أثارت جدلا كثيرا بين الباحثين

المسلمين والعاملين فى مجال حقوق الإنسان من المسلمين وغير المسلمين حيث يجد المؤيدون أنها لا تتعارض مع التعاليم الإسلامية على ضوء بعض الآية الكريمة: **﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾** والحديث الشريف: **"النساء شقائق الرجال"**، وهذا إقرار بالمساواة وعدم التفرقة بين الرجال والنساء، بينما المعترضون يجدون أن الإسلام أوجد تفرقة بين الرجال والنساء فيما يتعلق بالميراث والشهادة، حيث إن ميراث المرأة نصف نصيب الرجل، وشهادة المرأة تعادل نصف شهادة الرجل. وليس المجال متسعا هنا لتوضيح حكمة الإسلام فى إقرار تلك التفرقة بين الرجال والنساء.

المادة السابعة: " كل الناس سواسية أمام القانون، ولهم الحق فى التمتع بحماية متكافئة منه دون أية تفرقة" نلفت الانتباه فى هذه المادة إلى كلمة "سواسيه،" وهى نفس الكلمة التى استخدمها الرسول الكريم ﷺ فى حديثه الشريف **"الناس سواسية كأسنان المشط"**، والحديث الشريف يركز على المساواة بتشبيه الناس بأسنان المشط التى وإن اختلفت فى الأطوال والسُمْك إلا أنها كلها سواسية، أى من نفس الخامة، و تكمل بعضها بعضا، ولها نفس الحقوق داخل المشط الذى يمثل المجتمع. وهذا تأكيد على المساواة المطلقة بين البشر بدون تفرقة أو عنصرية أو تمييز، بسبب الجنس أو اللون أو العرقية أو اللغة أو حتى الدين، طالما أن المصطلح المستخدم هو "الناس" وليس "المسلمين" أو "المؤمنين".

المواد ١٢ و١٣ و١٤ تنص على حرية تنقل الأفراد، واختيار محل الإقامة ومغادرة أى بلد والعودة إليه، وحق اللجوء إلى بلاد أخرى فى حالة الاضطهاد.

ونجد كل هذه الحريات مكفولة ومنصوص عليها فى بعض الآيات الكريمة مثل: **﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها﴾** (الملك : ١٥) والآية الكريمة التي تحث على الهجرة في حالة الاضطهاد: **﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾** (النساء:٩٧).

وهكذا نجد أن لكل مادة من مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مقابل لها

من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة تقرر نفس المبادئ الأساسية بنفس المصطلحات بل أحيانا نفس اللفظ. هناك مادتان فقط في وثيقة الإعلان بهما فقرة أو فقرتان تحتويان على بعض المعايير التى تتنافى مع المعايير الإسلامية وهما المادة ١٦ والمادة ١٨ من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، وقد تحفظت بعض الدول الإسلامية عام ١٩٤٨ على تلك الفقرات خلال المناقشات العامة في الجمعية العامة للأمم المتحدة.

المادة السادسة عشرة: الفقرة (١) "**للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج وتأسيس أسرة دون أى قيد بسبب الجنس أو الدين**". فالإسلام أقر حق الرجل والمرأة فى الزواج، ولكنه وضع قيدا بسبب الدين على زواج المرأة المسلمة من غير المسلم، بينما أقر زواج المسلم من امرأة كتابية.

المادة الثامنة عشرة: "**لكل شخص الحق فى حرية التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته ...**" فالإسلام لا يقر تغيير الدين ويعتبر ذلك ارتدادا عن دين الله ﴿**ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة**﴾ (البقرة: ٢١٧).

ونحن نؤكد هنا أنه فيما عدا الفقرات التى ذكرناها فى المواد الثانية والسادسة عشرة والثامنة عشرة؛ فإن جميع المواد الأخرى للإعلان العالمى لحقوق الإنسان تتوافق مع المبادئ والتعاليم الأساسية التى أقرها الإسلام للناس أجمعين وليس فقط للمسلمين.

الخلاصــة :

إن الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ليس إلا وثيقة دولية صاغها بعض البشر عام ١٩٤٨، وأغلبهم من غير المسلمين أرادوا بها أن يتفادوا جرائم الحرب البشعة التي سجلها التاريخ أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية في النصف الأول من القرن العشرين، مثلما ذكروا ذلك فى ديباجة الإعلان: "**ولما كان تناسى حقوق**

الإنسان وازدراؤها قد أفضى إلى أعمال همجية آذت الضمير الإنساني، وكان غاية ما يرنو إليه عامة البشر انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول والعقيدة ويتحرر من الفزع والفاقة". لقد أرادوا أن يضعوا لدول العالم مبادئ ومواثيق ونظماً عالمية يتم تطبيقها فى جميع الدول والبلدان فى حالة نشوب خلافات أو نزاعات أو حروب تجعل الإنسان ينسى أنه إنسان، وأن العدو الذى يحاربه أو يتنازع معه هو أيضا إنسان مثله له نفس الحقوق، ويجب عليه أن يحترمه ويحترم حقوقه، حتى وإن كان مهزوما أو أسيرا أو معتقلا. كانت النية صادقة ولكن للأسف الشديد لم يتم تطبيق هذا الإعلان العالمى لحقوق الإنسان فى النزاعات والحروب التى عصفت بالبشرية فى النصف الثانى من القرن العشرين ولا فى بداية القرن الواحد والعشرين والدليل على ذلك ما حدث من مجازر وخرق وانتهاك لجميع حقوق الإنسان فى البوسنة والهرسك فى التسعينيات من القرن العشرين، وما جرى فى أفغانستان من فظائع باسم القضاء على الإرهاب والشر، وما تلا ذلك من انتهاكات لحقوق الإنسان فى معتقلات جوانتانمو، وما يجرى حاليا فى فلسطين المحتلة من أعمال همجية ووحشية وإبادة للشعب الفلسطينى الأعزل تتنافى مع جميع المواثيق الدولية، وأولها الإعلان العالمى لحقوق الإنسان.

ولكن ذلك لا يمنع الباحثين وخاصة الباحثين المسلمين من أن يتعمقوا فى الدراسة والبحث، آملين فى أن تستفيد الأجيال القادمة بما يخلص إليه البحث المتعمق، وبنتائج المقارنة بين المواثيق الدولية فى مجال حقوق الإنسان وبين التعاليم الإسلامية التى تحدد حقوق الإنسان المسلم وغير المسلم أيضا.

وعلينا أن نجدد فى أسلوب التحاور مع الغربيين ونخاطبهم بنفس أسلوبهم العلمانى البراجماتى، ولكن يجب أن نضع نصب أعيننا وأن نعلن للعالم أن الأسس و المبادئ والقيم التى أقرها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان؛ والمرتكزة على كرامة الفرد وإنسانيته، وعلى المساواة بين الناس؛ وعدم المفاضلة بينهم بسبب الجنس أو اللون أو العرقية أو اللغة أو الدين؛ وعلى إقرار العدل والسلم؛ وعلى التعاون والتعارف بين الناس؛ وعلى الإلتزام بالعهود؛ وعلى المجادلة مع أهل

الكتـاب بالتـى هـى أحسـن بدون تعـصب، كل هذه القـيم الثـابتـة والراسـخـة فى الضمير المسلم يجب أن تستمر راسخة فى عالمنا المتغير الذى نعيشه فى القرن الواحـد والعشـرين لأن هذه الأسس الإسـلامية الراسـخـة تصلح لكل زمـان ولكل مكان، لأن الله سبحانه وتعالى أنزلها للبشرية جمعاء على يد خاتم الأنبياء محمد رسول الله ﷺ الذى بعثـه مبشـرا وهاديا للناس أجمعين ورحمة للعالمين، وهذه الأسس الراسخة هى التى تحدد معالم الأمة الإسلامية التى تسود فيها مبادئ حقوق الإنسان والتى أراد الله - سبحانه وتعالى - أن تكون "**خير أمة أخرجت للناس**".

وأود أن أختم مداخلتى بالإشارة إلى ما دار فى جلسات وأعمال الدورة الـ ٥٨ للجنة حقوق الإنسان التى عقدت فى جنيف فى الشهر الماضى والتى كنت أتابع أعمالها باهتمام وبإعجاب شديد بشجاعة المفوضة العليا لحقوق الإنسان السيدة الفـاضلة مـارى روبنسـون Mary Robinson التى أحـييـهـا من فـوق هذا المنبـر وأشكرها على الجهود التى بذلتها طوال فترة رئاستها للمفوضية العليا لحقوق الإنسان فى الدفاع عن حقوق الإنسان فى البلدان التى تعانى فيها الشعوب من القـهـر ومن قـمـع الحـريات، وأرجـو أن تتـضـمـن توصـيـات مـؤتمرنا هذا توصـيـة بإرسال خطاب شكر إلى هذه السيدة الفاضلة ذات الفكر المتفتح التى نظمت فى جنيف فى نوفمبر عام ١٩٩٨ - ولأول مرة فى تاريخ الأمم المتحدة مؤتمرا عالميا بعنوان "إثراء عالمية حقوق الإنسان وجهة نظر الإسلام بشأن الإعلان العالمى لحقـوق الإنسـان". كذلك دافـعت السيـدة مـارى روبنسـون عن حـقـوق الإنسـان الفلسطينى خلال الدورة الأخيرة للجنة حقوق الإنسان فى جنيف، ونددت بانتهاكات حقوق الإنسان فى الأراضى المحتلة، وأصرت على الذهاب بنفسها إلى الأراضى الفلسطينية المحتلة بالرغم من ضراوة القصف المكثف على الأراضى الفلسطينية فى تلك الفترة لترصد بنفسها أحوال الشعب الفلسطينى، وتعد تقريرا عن مدى تطبيق حقوق الإنسان فى الأراضى الفلسطينية المحتلة.

وفقنا الله جميعا لما فيه الخير للناس أجمعين

المراجع :

- وثيقة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، مطبوعات منظمة الأمم المتحدة، الترجمة العربية طبعة ١٩٨٨ .
- الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان فى الإسلام، ندوة الرياض، دار الكتاب اللبنانى، بيروت ١٩٧٣ .
- حقوق الإنسان ووحدة الأسرة البشرية فى الإسلام، ندوة المجلس الأوروبى، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٧٤ .
- حقوق الإنسان فى الوطن العربى، تقرير المنظمة العربية لحقوق الإنسان، القاهرة ١٩٩٨ .
- إعلان القاهرة حول حقوق الإنسان فى الإسلام، مطبوعات المؤتمر الإسلامى التاسع عشر لوزراء الخارجية، القاهرة ١٩٩٠ .
- إعلان روما حول حقوق الإنسان فى الإسلام، ندوة حقوق الإنسان فى الإسلام، روما ٢٠٠٠ .
- د. محمد سعيد الدقاق، حقوق الإنسان، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٩ .
- د. محمد عمارة، الإسلام والأمن الاجتماعى، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٨ .
- د. عبد العزيز التويجرى، حقوق الإنسان فى التعاليم الإسلامية، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط ٢٠٠١ .

خصوصية الإسلام
دين رحمة وسلام

سماحة الشيخ/ الأمين عثمان الأمين

مفتى دولة أريتريا

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه، أما بعد: فإن عالمنا المعاصر اليوم يمر بأحداث متلاحقة، وتطورات متتالية، قد تلعب دوراً خطيرا فى تشكيل وجدانيات البشر ومشاعرهم نحو بعضهم، بما يؤدى فى النهاية إلى تحديد مسار العلاقات بين جميع الشعوب والأمم، باختلاف أعراقها ومعتقداتها، فى هذا الكون الذى نعيش فيه.

وسط هذه الأمواج المتلاطمة، والبلبلة العاتية، التى اختلط فيها الحابل بالنابل، والحق بالباطل، والصدق بالكذب، وسط كل هذا يجد الإسلام نفسه محاصرا من جهتين يريدان الإساءة إليه: جانب: هو الصديق الجهول المتطرف، الذى يسىء إلى الإسلام بفهمه السقيم باسم الإسلام، وأما الجانب الآخر: هو العدو الحقود الذى له أحكام مسبقة على الإسلام، ينتهز الأحوال، ويستغل الظروف، فيتلقف تصرفات هؤلاء المتطرفين ويضخم أعمالهم ويبرزها على أوسع نطاق مستخدما كل وسائل الاتصالات - خاصة ونحن نعيش عصر ثورة المعلومات - ليجعل أخطاء هؤلاء دليلا على هذا الدين، وبرهانا على تعاليمه، وحجة على أحكامه،

وبين أولاء وأولئك يعيش السواد الأعظم من هذه الأمة والغالبية العظمى من شعوبها نجدها ثابتة راسخة شامخة لا تزعزعها الخطوب، ولا تهزها العواصف، تتشبث بأهداب تعاليم دينها الحنيف، وتتمسك بأحكام شريعتها الغراء، وتقتدى بسلوك وأخلاقيات وآداب هذا الدين القويم دين السماحة والرحمة والسلام، تحاول جاهدة فى حدود إمكاناتها تصحيح تلك المفاهيم المغلوطة، وتقويم اعوجاج تلك المزاعم المفترية والتصدى للحملات المسعورة بالحكمة والموعظة والمجادلة الحسنة كما يأمرها كتاب ربها سبحانه: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾[1].

ومن هذا المنطلق وإبرازاً لحقيقة الإسلام، وتوضيحاً لسماحته، اخترت من المحور الأول: حقيقة الإسلام.

خصوصية الإسلام: دين رحمة وسلام:

وقسمت البحث إلى قسمين: الأول فى الرحمة، والثانى فى السلام، وسطرت فيه كلمات متواضعة لا ترقى وجلال الموضوع راجيا المولى - عز وجل - أن يوفق الإسلام والمسلمين لما فيه الخير ورفع رايته خفاقة فى العالمين.

الرحمة

الرحمة من صفات الله تعالى وأسمائه

إن الله - جل جلاله وتعالت عظمته - الملك الجبار المتكبر الواحد الذى لا يشاركه أحد فى ملكه، والفرد الذى لا ينازعه أحد فى ربوبيته وألوهيته، قد تفضل - سبحانه - بمنه وكرمه وإحسانه بأن كتب على نفسه الرحمة، كتبها بإرادته ومشيئته، لا يوجبها عليه موجب، وتفضل بإخبار عباده بما كتبه على نفسه من رحمة تعمهم، فقال عز من قائل حكيم: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾[2] فالكون كله مغمور برحمته، محفوف بعطفه وحنانه. وإن الكثير من

أسماء الله الحسنى نابعة من معانى الرحمة والشفقة والعفو والفضل، فإذا نظرنا إلى ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ وهما اسمان من أسمائه الحسنى، وصفتان من صفاته العليا، نجدهما مبثوثين فى كل سور القرآن الكريم، علاوة على افتتاح كل سورة بهما ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ والاسمان مشتقان من الرحمة وهى الرقة والعطف والشفقة والمغفرة، والرحمن أخص من الرحيم، يقول ابن منظور: (فأما الرحيم فإنما ذكر بعد الرحمن لأن الرحمن مقصور على الله ـ عز وجل ـ والرحيم قد يكون لغيره)[٣] وذلك كما وصف الله ـ تعالى ـ نبيه الخاتم ﷺ بقوله سبحانه: ﴿**وكان بالمؤمنين رحيما**﴾[٤].

ولاسمى (الرحمن الرحيم) تأثير عميق فى نفس المسلم تعظيما وتمجيدا لله تعالى ثم بما ينعكس فى سلوكه من التحلى بصفة الرحمة دائما، والتعامل مع جميع عباد الله المحتاجين، وكل من لجأ إليه طالبا المعروف، وأن يسعى فى إنقاذ من وقع فى المعصية بأخذ يده إلى طريق الهداية، وترغيبه إلى الطاعة بالرحمة والرفق والشفقة.

والعباد برحمة بعضهم بعضا يستمطرون رحمات الله وعفوه وغفرانه، يقول النبى ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء**»[٥] ومن رحمة الله الواسعة بعباده أن الخلق يتراحمون فى الدنيا بجزء من مائة رحمة، وادخر لهم الباقى ليوم أحوج ما يكون فيه إلى الرحمات يقول رسول الله ﷺ: «**إن لله مائة رحمة أنزل رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والعوام فبها يتعاطفون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخّر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة**»[٦].

رحمة الله الواسعة

إن رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ الواسعة الشاملة الكاملة قد عمت الكائنات، وأحاطت المخلوقات جميعها، المسلم والكافر، والبر والفاجر، والإنسان والحيوان فما من موجود ولا كائن إلا برحمة الله يحيا، وفى ظلالها يعيش، قال تعالى: ﴿**ورحمتى وسعت كل شىء**﴾[٧] ، ﴿**ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما**﴾[٨]

فإذا كانت رحمة واسعة تشمل الجميع فهى رحمة واسعة لا تدانيها رحمة، ولا تفوقها شفقة، يبين النبى ﷺ هذا المعنى لأصحابه فى درس عملى، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**قدم على النبى] سبى فإذا امرأة من السبى قد تحلب ثديها تسقى، إذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال النبى]: أترون هذه طارحة ولدها فى النار؟ قلنا: لا، وهى تقدر على أن لا تطرحه، فقال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها**»(٩).

آثار رحمة الله تعالى فى نعمه التى لا تعد ولا تحصى

وتتجلى مظاهر رحمه الله - تعالى- على عباده أعظم التجلى أنْ خَلَقَهُم ولم يكونوا شيئا، ويسر لهم سُبل الحياة، وسخر لهم قوى الكون وطاقاته، وكرمهم وفضلهم على العالمين، يقول تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾(١٠) أجرى الأنهار، وأنبت لهم الزروع والثمار، وجعل الليل والنهار، والأرض والسماء، وأفاض عليهم من النعم والخيرات التى لا تعد ولا تحصى، قال عز وجل: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله غفور رحيم**﴾(١١) وأمرهم بالتأمل فى آثار رحمته ـ سبحانه ـ ليتفكروا ويتدبروا وليزيدوا شكرا على شكرهم فقال تعالى: ﴿**فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير**﴾(١٢) وقال سبحانه: ﴿**ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾(١٣).

مظـــاهر رحمة الله تعالى فى إرسال الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم

وتتجلى رحمة الله ـ تعالى ـ بهذا الإنسان أن وهبه العقل والفهم والاستعداد للمعرفة، ثم لم يتركه هملا لأهوائه، وإنما أرسل إليه الرسل لهدايته كلما نسى أو

ضل، ولا يحاسبه دون بلاغ وإنذار وتذكير، قال تعالى: **﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾**[١٤] ولا يؤاخذه دون أن يقيم عليه الحجة بإرسال الرسل، قال تعالى: **﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾**[١٥].

بعثة خاتم النبيين ﷺ رحمة للعالمين

لما أراد الله ـ تبارك وتعالى ـ الرحمة والهداية والنجاة للعالم أجمع ـ والذى كان يموج فى جاهلية وشرك وظلم وعداوة وحروب ـ أرسل خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وجعل محور بعثته وحصر منطلق رسالته ونبوته فى: «الرحمة» فقال عز من قائل حكيم: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**[١٦] فرحمته غير محصورة بمن آمن به فحسب، وإنما تشمل غير المؤمنين به، بل تسع أعداءه وخصومه، روى أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾** قال: (من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة فى الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفى مما أصاب الأمم من الخسف والقذف)[١٧]. ولقد مَنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ على البشرية بخاتم النبيين ﷺ وأدبه ورباه وعلمه وزانه بخلق الكمال والرحمة ووجهه إليها فقال سبحانه: **﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾**[١٨] وبسبب تلك الرحمة التى أودعها رب العزة ـ سبحانه ـ فى قلبه ﷺ صار أزكى عباد الله رحمة وأوسعهم عطفا وأرحبهم صدرا ، يقول عز وجل: **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾**[١٩] بل لقد وصف الله تعالى نبيه الخاتم ﷺ دون غيره من الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ واختصه باسمين من أسمائه وصفتين من صفاته: الرحمة، والرأفة؛ تزكية لرسالته وتعظيما لنبوته ليشع نورها فى العالمين قال تعالى: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾**[٢٠].

قال القاضى عياض ـ رحمه الله ـ : (قال بعضهم: من فضله ﷺ أن الله أعطاه اسمين من أسمائه وصفتين من صفاته فقال: **﴿بالمؤمنين رءوف**

رحيم﴾).[٢١] فلم تفارقه تلك الرحمة حتى وهو فى أحلك الظروف والمحن ومع أعتى أعدائه وخصومه الذين أذاقوه صنوف الأذى بل حاولوا اغتياله، بالرغم من كل ذلك كان يلتمس لهم العذر ويعتذر عما بدر منهم، بل ويدعو لهم راجيا إياه قائلا: «**اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**»[٢٢] ولما كذبه قومه وأسرفوا فى التصدى لدعوته وفى الاعتداء عليه أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: «**إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمر بما شئت فيهم، فنادانى ملك الجبال فسلم علىَّ ثم قال: يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبى ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا**»[٢٣].

قال شوقى ـ رحمه الله:

وإذا عفوت فقادراً ومُقَدَّراً لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان فى الدنيا هما الرحماء[٢٤]

قال الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق ـ رحمه الله ـ معلقا: (هذا مثل من رحمة الرسول ﷺ بهؤلاء الذين انفضوا عن قبول دعوته وآذوه وعذبوا من اتبعه، وقد وسعهم قلبه الرؤوف الرحيم، فرأف بهم، وأبى أن يهلكوا، معاقبة على سوء ردهم، ونظر نظرة إلى الغد مشرقة بالأمل، ولم يقف عند حاضرهم المظلم بل تجاوزه إلى الغد فى أن يهدى الله قلوبا تنبثق من أصلابهم.. وقد حقق الله هذا الأمل)[٢٥].

الإسلام دين رحمة حيث رفع إصر وأغلال الشرائع السابقة وجاء باليسر والتخفيف

ولقد جاء وصف ونعت ورسالة خاتم النبيين ﷺ فى الكتب السابقة: التوراة والإنجيل التى بشروا بها أممهم ببعثته وأمروهم باتباعه، إن الرحمة تشع فى كليات وجزئيات التكاليف المنزلة عليه ﷺ قال تعالى: ﴿**ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت**

عليهم﴾[٢٦] (أى يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التى تشبه الأغلال كقتل النفس فى التوبة، وقطع موضع النجاسة من الثوب، والقصاص من القاتل عمدا)[٢٧].

ومن مظاهر الرحمة واليسر ورفع الحرج فى التكاليف الشرعية ورود آيات عديدة ـ وفى مناسبات مختلفة، وبأساليب متنوعة ـ تبين بوضوح أن الإسلام عقيدة وشريعة جاء رحيماً بالعباد، ميسرا فى التكاليف، رافعا للحرج، مخففا للأعمال، يقول تعالى: **﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾**[٢٨] وقال سبحانه: **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾**[٢٩] وقال عز وجل: **﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾**[٣٠].

وقال جل شأنه: **﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم﴾**[٣١]، وجاء من ضمن ما أرشد الله – تعالى – به عباده المؤمنين قولهم فى دعائهم: **﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾**[٣٢] وقال النبى ﷺ فى وصف الإسلام: (إن هذا الدين يسر)[٣٣].

وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت: (ما خُيرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما)[٣٤]، وقال النبى ﷺ « **يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا**»[٣٥]، قال القاضى عياض ـ رحمه الله: (ومن شفقته على أمته ﷺ تخفيفه وتسهيله عليهم ،وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم، كقوله ﷺ: «**لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء**»[٣٦] وخير صلاة الليل، ونهيهم عن الوصال، وكراهته دخول الكعبة لئلا يعنت أمته، وأنه كان يسمع بكاء الطفل فيتجوز فى صلاته»[٣٧]. إلى غير ذلك من معانى العطف والرحمة.

من معانى الرحمة وآثارها فى المجتمع الإسلامى

إن الرحمة من صفات المؤمنين البارزة التى وردت فى كتاب الله العزيز حيث أمر الله - سبحانه - المؤمنين بها فقال: ﴿**وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة**﴾[٣٨] ووصف النبى ﷺ المؤمنين وتراحمهم بأبلغ مثال فقال ﷺ: «**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[٣٩]. ورحمة الإنسان بالآخرين إنما هو خلق يبدأ تدريجيا من بيته وأولاده وأرحامه حتى يعم المجتمع بأسره، هذا نبينا المصطفى ﷺ - وهو القدوة الحسنة والمثل الأعلى للمؤمنين - كان رحيما عطوفا فى بيته إلى أقصى الحدود عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «**قبَّل رسول الله ﷺ الحسن والحسين بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالساً فقال الأقرع: إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا. فنظر إليه رسول الله [ثم قال: «من لا يرحم لا يُرحم**» (٤٠) وفى رواية: «**لا أمَّ لك لك أنزع الله من قلبك الرحمة؟**»[٤١] إن القاسى بقساوته مخالف لفطرته وإنسانيته، بعيد عن ربه، يقول النبى ﷺ: «**إن أبعد الناس من الله القلب القاسى**»[٤٢].

وإن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما رآه أحد عماله وهو يُقبل ولده بحنان ورقة تساءل - العامل - مستنكرا فعله؛ فأقاله من عمله، معتبراً عدم رقته لأولاده دليل قسوة قد يكتوى المجتمع بنارها. عن أبى عثمان قال: (استعمل عمر - رضوان الله عليه - رجلا من بنى أسد على عمل، فدخل ليسلم عليه، فأتى عمر ببعض ولده فقبله فقال الأسدى: أتقبل هذا يا أمير المؤمنين؟ فو الله ما قبلت ولدا، فقال عمر: «فأنت والله بأولاد الناس أقل رحمة لا تعمل لى عملا أبدا. فرد عهده»)[٤٣].

ونبه الإسلام بوجه الخصوص الاهتمام والرعاية بصنف معين من الناس ومعاملتهم بالرحمة والشفقة إما لقرابتهم، وإما لعجزهم وحاجتهم. فقد أوصى الله بالرحمة ورفع منزلتها وحض على الإحسان إليها، يقول تعالى: ﴿**واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام**﴾[٤٤] وقد أعلى الله من شأن الرحمة إذ جعلها شجنة من اسمه - الرحمن - وكرمها إذ اشتق اسمها من اسمه، عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول قال الله عز وجل: «**أنا الرحمن، وأنا خلقت الرحم واشتققت لها من اسمى، فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها**

بتته»(٤٥). ومنهم اليتامى والمساكين والمحتاجين، فبالإحسان إليهم يستجلب القاسى رحمة الله ويكتسب الرحمة. عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: (إن رجلا شكا إلى النبى ﷺ قسوة قلبه، فقال ﷺ: «**امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين**».(٤٦) وحض النبى ﷺ على كفالة اليتيم وأنها ترفع منزلة المؤمن فى الجنة ليكون قرين النبى ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا**».(٤٧) بل إن دائرة الرحمة فى الإسلام تتجاوز إلى الحيوانات العجماوات، فيجب على الإنسان أن يرحمها ويشفق عليها ولا يعاملها بالقسوة ولا يحملها ما لا تطيق ويتقى الله فيها، فبالإحسان إليها ترتفع درجته عند الله، وبالإساءة إليها يهبط إلى الدركات. الإحسان إلى الحيوان الأعجم يكفر الله به المعاصى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال: لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب فشكر الله تعالى له فغفر له - قالوا: يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجرا؟ قال: فى كل ذات كبد رطبة أجر**»(٤٨). يعنى فى الإحسان إلى كل ذى روح وحياة أجر. وبسبب الإساءة إلى حيوان أعجم أيضا دخلت امرأة النار، عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض**»(٤٩).

وهكذا نجد الرحمة متغلغلة فى الإسلام عقيدة وشريعة، معاملة وأحكاما، سلوكا وأخلاقا، تشمل الجميع وتتسع للكل: مؤمنا وكافرا، صديقا وعدوا، إنسانا وحيوانا، مجتمعا وأفرادا، فهو دين التراحم والتعاطف والتآزر واليسر واللين.

السـلام

بعثة خاتم النبيين والمرسلين ﷺ
إيذان ببزوغ فجر الإسلام

لقد غطى سماء البشرية ظلام حالك وارتفع فيه أنين البشرية مما حل فى الكون من سفك الدماء ظلما وعدوانا وإيقاد الحروب لأتفه الأسباب واستمرارها متقدة لعقود وأجيال تأكل الأخضر واليابس، ظلم النساء فاش لا حق ولا ميراث ولا كرامة لها فهى كالمتاع أو أقل، بل ووأد البنات وفيهن روح تنبض خشية العار، الجميع غرقى فى عبادة الأوثان والأصنام، وأسرى للشهوات والملذات، أعداء لكل فضيلة، حتى ضجت الأرض بما تنوء به من شرورهم، وقد عبر عن هذا المعنى النبى الخاتم ﷺ مبينا حال العالم قبل بعثته ﷺ فقال: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»(٥٠). وكانت البشرية تتطلع إلى منقذ ينشلها مما هى فيه، وتترقب بفارغ الصبر لهذا الهادى الذى يرشدها إلى سبيل النجاة، كيف لا، وما من نبى أو رسول إلا وبشر قومه ببعثة خاتم النبيين ﷺ كبشارة نبى الله عيسى عليه السلام بمبعثه ﷺ وهو آخر أنبياء بنى إسرائيل قال تعالى: ﴿**وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد**﴾(٥١) حتى لطف الله بعباده فاصطفاه واجتباه ليكون خاتما للأنبياء والمرسلين، وأنزل عليه القرآن الكريم وهو آخر الكتب المنزلة، وأرسله للناس كافة رحمة للعالمين قال تعالى: ﴿**يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا • وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً**﴾(٥٢).

فكان الضوء للضالين الحيارى بصَّرهم طريق النجاة، فاسترد البشر إنسانيتهم وكرامتهم؛ إذ عبدوا الخالق الأحد، وتحرروا من رق الشهوات والعمى، وشاعت بينهم معانى العدالة والتسامح والإيثار، فأصبحوا بنعمة الله تعالى إخوانا، وفشا بينهم السلام والوئام والأمان، وترسخت فيهم أواصر المحبة والتعاطف والتآلف.

إنه حقا رسول السلام، ورسالته سلام، حولت تلك القلوب القاسية المتحجرة المتشبعة بالإحن والضغائن إلى قلوب رحيمة عطوفة صافية، ولقد امتن الله - تعالى - على المؤمنين بهذه النعمة وأمرهم أن يذكروا ما كانوا عليه قبل الإسلام ليعظموا تلك النعمة ويرعوها ويشكروا ربهم عليها فقال: **﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾**[٥٣].

الإسلام هو السلام

لقد عنى الإسلام بالسلام كما لم تعنِ به شريعة ولا رسالة قط، وقد تكرر السلم والسلام فى القرآن الكريم عشرات المرات، والسلام نفسه مشتق من الإسلام ومنبثق منه، ولا يكون المسلم مسلما حقا إلا إذا تخلق بخلق الإسلام وانعكس ذلك فى تعامله مع الآخرين، يقول النبى ﷺ معرفا حقيقة المسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٥٤]، والسلام اسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته العليا يقول تعالى: **﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾**[٥٥] أى الذى تسلم ذاته عن العيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر، وما فى الوجود من سلامة فهى صادرة منه، يقول سيد قطب: (السلام وهو اسم كذلك يشيع السلام والأمن والطمأنينة فى جنبات الوجود، وفى قلب المؤمن تجاه ربه. فهو آمن فى جواره، سالم فى كنفه، وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء. ويؤوب القلب من هذا الاسم بالسلام والراحة والاطمئنان. وقد هدأت شرته وسكن باله وجنح إلى الموادعة والسلام)[٥٦]. وإن الله تعالى لم يرسل رسولا ولم يبعث نبيا إلا ومنحه السلام، ليكون مبدأ ثابتا ونهجا راسخا يتعامل به مع جميع الكائنات قال - تعالى -: **﴿وتركنا عليه فى الآخرين* سلام على إبراهيم﴾**[٥٧] وقال عز وجل: **﴿وتركنا عليهما فى الآخرين*سلام على موسى وهارون﴾**[٥٨] وقال جل شأنه: **﴿سلام على نوح فى العالمين﴾**[٥٩] وقال سبحانه: **﴿وسلام على المرسلين* والحمد لله رب العالمين﴾**[٦٠] وأمر الله - تعالى - به نبيه الخاتم ﷺ فقال تعالى: **﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾**[٦١].

السلام هو محور حياة المسلم فى الدنيا والآخرة

إن المسلم يعيش فى جو سلمى يحيطه من كل نواحيه، ليعيش فى سلام مع ربه وخالقه، وفى سلام مع نفسه، وفى سلام مع الآخرين، ولقد جعل الله - تعالى - السلام تحيته إلى عباده، وأمرهم بأن يجعلوه تحيتهم يلقيه المسلم على أخيه كلما لقيه وكلما انصرف عنه، وأخبر النبى ﷺ عن ما أعده الله ـ سبحانه ـ لهم من الثواب الجزيل، فكلما جاءوا بالصيغة الكاملة لتحية السلام كلما ارتفع الثواب تدريجيا، عن عمران بن حصين «**أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: السلام عليكم قال النبى : عشر، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله فقال النبى ﷺ: عشرون. ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال النبى ﷺ: ثلاثون**»[٦٢] ويربط المصطفى ﷺ الإيمان بالحب لينشئا معاً سلاماً وأمنا، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم**»[٦٣]. والسلام يلقيه المسلم خمس مرات فى اليوم الواحد على أقل تقدير حين يصلى ويختتم صلاته (السلام عليكم ورحمة الله) مرة ذات اليمين ومرة ذات الشمال، وتحية أهل الجنة السلام قال تعالى: ﴿**دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام**﴾[٦٤] بل الجنة ذاتها سميت بالسلام، يقول تعالى: ﴿**والله يدعوا إلى دار السلام**﴾[٦٥].

الحرب فى الإسلام استثناء لضرورة رد العدوان والدفاع عن النفس

على الرغم من أن السلام هو الهدف الأسمى الذى يعمل الإسلام على إرساء قواعده وترسيخ مبادئه، فإن تشريع القتال فى الإسلام إنما جاء لدفع الاعتداء ورد العدوان ليس إلا. ولقد كان الجهاد القتالى فى أول الإسلام وقبل الهجرة ممنوعا إذ كان النبى ﷺ مأمورا بالصفح والعفو وكذلك من تبعه، قال تعالى: ﴿**لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من**

قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾(٦٦) وأما بعد الهجرة إلى المدينة المنورة أمر النبى ﷺ بالجهاد القتالى إذا ابتدئ به، قال تعالى: **﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾**(٦٧).

(وهى أول آية نزلت فى المدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه..)(٦٨) وعليه كانت كل حروب النبى ﷺ دفاعية محضة بأجمعها يقول محمد رشيد رضا: (إن حروب الرسول ﷺ للكفار كانت كلها دفاعا ليس فيها شيء من العدوان... ثم يقول: إن قتال مشركى العرب ونبذ عهودهم بعد فتح مكة كان جاريا على هذه القاعدة... ثم يقول: وإنما اشتبه على الغافلين الأمر بما كان فى بعض الغزوات والسرايا من بدء المسلمين بها، ذاهلين عن حالة الحرب بينهم وبين المشركين الأول واستمراره، فالدفاع لا يشترط أن يكون فى كل معركة وكل حركة)(٦٩).

ويقول الإمام الأكبر الشيخ/ محمود شلتوت: (سبب القتال فى الإسلام ينحصر فى رد العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين)(٧٠) وإذا كان الأصل هو السلم، فإن الحرب فرضتها ضرورة رد العدوان والدفاع عن النفس، ولذا فالله تعالى يأمر نبيه وخاتم رسله ﷺ بالسلم إذا مال إليه الخصوم رجوعا إلى الأصل فقال تعالى: **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾**(٧١) إذن الإسلام دائما يميل إلى السلم والصلح ما دام ممكنا، يدعوا إليه ويقبله حين التفاوض ولو لم تكن بعض الشروط والبنود مرضية، وذلك لما فى الحروب من ويلات وما تخلفه من آثار مؤلمة، وقد حفل التاريخ بالشواهد، وكفى مثالا صلح الحديبية، وهو حدث هام فى تاريخ هذه الأمة، فلما بدا من قريش رغبة فى الصلح أعد النبى ﷺ نفسه للصلح وأعلن ذلك صراحة بقوله: **«والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»**(٧٢) وبالرغم من عدم رضا الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وجهالة الأعداء، بالرغم من كل ذلك مضى رسول السماحة والرحمة والسلام إلى هدفه المنشود، وتجاهل الكلام النابى والخلق الجاف من المفاوض، وتقبل كل

إساءته وعناده بصدر رحب حتى تم الاتفاق وظهرت نتائجه، وبرزت ثمراته، وبه وضعت الحرب أوزارها بين المسلمين وقريش التى كانت منبع كل الشرور.

وعليه فإن إيثار الرحمة المهداة إلى خلقه ﷺ وكرهه سفك الدماء جعله لا يرغب فى لقاء عدو ولا يتمناه، بل يسأل الله تعالى مناجيا أن يباعد بينه وبين اللقاء، وكان ﷺ يقول لأصحابه: «**أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**».(٧٣) ولكن إذا اضطره واجب الدفاع عن الحق وتأديب الباطل فسينهض من فوره ويصبر على مشقات القتال، كما يلجأ الإنسان إلى إجراء بعض الجراحات المؤلمة لاستئصال ضرر أكبر، قال شوقى:

الحرب فى حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء

فحب النبى ﷺ السلام إذن لا يعنى الخوف والاستسلام بقدر ما يعنى حفظ الأرواح وحقن الدماء، وأما فى الجسارة وأما فى البسالة، فقد كان ﷺ مثلا أعلى فى البطولة والشجاعة، حضر المواقف كلها ثابتا لا يبرح، مقبلا غير مدبر، عن على رضي الله عنه قال: «**كنا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه**»(٧٤).

وهكذا فإن الإسلام هو السلام: سلام فى رسالته ومبادئه وفكره، سلام فى أحكامه وتشريعاته ومعاملاته، وسلام فى آدابه وأخلاقياته وسلوكياته، سلام لأتباعه بنفس القدر الذى هو سلام لغير أتباعه، تحت ظلاله الوارفة تجد البشرية كلها الأمن والسكينة والاطمئنان، فبه ختمت رسالات السماء، وجاء رحمة للعالمين وهداية للناس أجمعين.

النتائج

- الرحمة والسلام هما من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، فما من رحمة ولا سلام إلا ومصدرها الله - سبحانه - ومنبعها البارى تباركت أسماؤه وتنزهت أوصافه.
- الإسلام مشتق من السلام كما جاء خاتما لرسالات السماء رحمة للعالمين.

- بعث الله نبيه الخاتم رحمة للعالمين، ووصفه بأنه رؤوف رحيم، وأمره بأن يكون السلام مبدأ له مع العالمين.
- السلام والرحمة هما تحية المسلمين يلقونها على بعضهم، ويختمون بها صلواتهم: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته).
- جاء الإسلام بشريعة وأحكام رفعت الإصر والأغلال التى كانت فى الأمم السابقة، وفتحت باب الرخصة ورسخت مبادئ التيسير والتخفيف ورفع الحرج، فشاعت الرحمة فى جزئياتها وكلياتها، حرمت سفك الدماء بغير حق أشد التحريم، وحصرت شرور القتال فى أضيق نطاق فيما إذا دعت إليه ضرورة الدفاع عن النفس ورد العدوان، وجعلت السلم هو الأصل، والحرب استثناء، ومن ثم حثت على الصلح والسلم كلما وجد إليهما السبيل عودة للأصل.
- حض الإسلام إلى أخلاقيات وسلوكيات وآداب كريمة فاضلة تحيطها الرحمة والسلام من جميع جوانبها، ليعيش المجتمع متراحما مسالما كالجسد الواحد، وخصت بعض أفراد المجتمع بأن يحظوا بأضعاف الرحمة والرعاية؛ لضعفهم وفاقتهم.

التوصيات

- العمل على تصحيح المفاهيم المغلوطة عن الإسلام، وإبراز حقيقة تعاليمه السمحاء فى جميع أنحاء العالم، بكل اللغات عبر وسائل الإعلام الثلاثة، وتسخير شبكات المعلومات واسعة الانتشار وغيرها من وسائل الاتصالات.
- أن تخصص كل دولة ميزانية لهذا الغرض، وتنسق جميع الدول جهودها وتوحد أفكارها.
- الاهتمام برعاية وإعداد الدعاة المتخصصين، والعلماء المستنيرين، ودعمهم ليعايشوا عصرهم ويتسلحوا بكل ما يعينهم فى أداء واجبهم من العلوم والتقنيات الحديثة. ويتقنوا لغات أخرى تعينهم فى التواصل مع الآخرين دوليا لنشر تعاليم الإسلام الصحيحة.

• مواجهة فكر المتطرفين بالفكر والعلم الصحيح، وبذلك الجهد لتصحيح مفاهيمهم، وإزالة ما علقت بأذهانهم من معلومات مبتورة ومفاهيم مغلوطة بالدليل والحجة والبرهان إنقاذاً لهم.

المراجع والمصادر:

١ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقى.

٢ ـ مختصر تفسير ابن كثير للشيخ/ محمد على الصابونى.

٣ ـ تفسير القرآن الكريم ـ الأجزاء العشرة ـ للإمام الأكبر الشيخ/ محمود شلتوت.

٤ ـ فى ظلال القرآن لسيد قطب.

٥ ـ صفوة التفاسير للشيخ محمد على الصابونى.

٦ ـ صحيح البخارى.

٧ ـ الأدب المفرد للبخارى.

٨ ـ صحيح مسلم.

٩ ـ سنن أبى داود

١٠ ـ سنن الترمذى.

١١ ـ سنن ابن ماجه.

١٢ ـ سنن النسائى.

١٣ ـ سنن الدارمى.

١٤ ـ الموطأ للإمام مالك بن أنس.

١٥ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل.

١٦ ـ صحيح ابن حبان.

١٧ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضى عياض.

١٨ ـ الوحى المحمدى لرشيد رضا.

١٩ ـ النبى ﷺ فى القرآن الكريم للإمام الأكبر الشيخ/ جاد الحق على جاد الحق.

٢٠ ـ مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزى.

٢١ ـ الشوقيات لأحمد شوقى.

٢٢ ـ لسان لعرب لابن منظور.

الهوامش:

(١) سورة النحل ـ الآية: ١٢٥.
(٢) سورة الأنعام ـ الآية: ١٢.
(٣) لسان العرب لابن منظور : ج ٣، ص ٢٧٢.
(٤) سورة الأحزاب - الآية: ٤٣.
(٥) أخرجه الترمذى، وأبو داود.
(٦) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وأحمد والدارمى.
(٧) سورة الأعراف ـ الآية: ١٥٦.
(٨) سورة غافر ـ الآية: ٧.
(٩) أخرجه البخارى ومسلم.
(١٠) سورة الإسراء ـ الآية: ٧٠.
(١١) سورة النحل ـ الآية: ١٨.
(١٢) سورة الروم ـ الآية: ٥٠.
(١٣) سورة القصص ـ الآية: ٧٣.
(١٤) سورة الإسراء ـ الآية ١٥.
(١٥) سورة النساء ـ الآية: ١٦٥.
(١٦) سورة الأنبياء ـ الآية: ١٠٧.
(١٧) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى ج ٢، ص ٥٢٥
(١٨) سورة الحجر ـ الآية: ٨٨.
(١٩) سورة آل عمران ـ الآية: ١٥٩.
(٢٠) سورة التوبة ـ الآية: ١٢٨.
(٢١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ ج: (١) ـ ص : (١٢٦).
(٢٢) أخرجه ابن حبان.
(٢٣) رواه الشيخان.
(٢٤) الشوقيات ـ جـ (١) ـ ص: (٣٦) الهمزية النبوية.
(٢٥) النبى ﷺ فى القرآن الكريم للإمام الأكبر الشيخ/ جاد الحق على جاد الحق ـ ص: (٣٧).
(٢٦) سورة الأعراف ـ الآية: ١٥٧.
(٢٧) صفوة التفاسير الشيخ/ محمد على الصابونى ـ جـ: (١) ـ ص: (٤٧٦).
(٢٨) سورة البقرة ـ الآية: ١٨٥.
(٢٩) سورة البقرة ـ الآية: ٢٨٦.
(٣٠) سورةالنساء ـ الآية: ٢٨.
(٣١) سورة المائدة ـ الآية: ٦.
(٣٢) سورة البقرة ـ الأية: ٢٨٦.
(٣٣) جزء من حديث رواه النسائى والبخارى ومسلم وأحمد.
(٣٤) جزء من حديث رواه البخارى ومسلم وأبو داود وأحمد ومالك.
(٣٥) رواه البخارى ومسلم وأحمد.
(٣٦) رواه البخارى.
(٣٧) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ للقاضى عياض.
(٣٨) سورة البلد ـ الآية: ١٧.
(٣٩) رواه البخارى ومسلم وأحمد.
(٤٠) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وأحمد.
(٤١) رواه البخارى ومسلم وابن ماجه وأحمد.
(٤٢) رواه الترمذى.
(٤٣) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزى ـ ص: ١٢٣.
(٤٤) سورة النساء ـ الآية: ١.
(٤٥) رواه البخارى فى الأدب المفرد وأحمد والترمذى وأبو داود.
(٤٦) رواه أحمد.
(٤٧) رواه البخارى والترمذى وأبو داود وأحمد.
(٤٨) رواه البخارى ومسلم وأبو داود وأحمد ومالك.
(٤٩) رواه البخارى ومسلم والدارمى.
(٥٠) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه وأحمد.
(٥١) سورة الصف ـ الآية: ٦.
(٥٢) سورة الأحزاب ـ الآيتان: ٤٥، ٤٦.
(٥٣) سورة آل عمران ـ الآية: ١٠٣.
(٥٤) أخرجه البخارى ومسلم والنسائى وأبو داود وأحمد والدارمى.
(٥٥) سورة الحشر ـ الآية: ٢٣.

(٥٦) فى ظلال القرآن ـ لسيد قطب ـ الجزء: ٦، ص: ٣٣، ٣٤.
(٥٧) سورة الصافات ـ الآيتات: ١٠٨، ١٠٩.
(٥٨) سورة الصافات ـ الآيتان: ١١٩، ١٢٠.
(٥٩) سورة الصافات ـ الآية ٧٩.
(٦٠) سورة الصافات ـ الآيتان: ١٨١ ، ١٨٢.
(٦١) سورة الزخرف ـ الآية: ٨٩.
(٦٢) أخرجه الترمذى وأحمد والدارمى.
(٦٣) رواه مسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجه وأحمد.
(٦٤) سورة يونس ـ الآية: ١٠.
(٦٥) سورة يونس ـ الآية: ٢٥.
(٦٦) سورة آل عمران ـ الآية: ١٨٦.
(٦٧) سورة البقرة ـ الآية: ١٩٠.
(٦٨) مختصر تفسير ابن كثير للشيخ/ محمد على الصابونى ـ جـ: (١) ص: (١٦٨).
(٦٩) الوحى المحمدى لرشيد رضا ـ ص: ٢٣٦، ٢٣٧.
(٧٠) تفسير القرآن الكريم الأجزاء ـ العشرة الأولى ـ للإمام الأكبر الشيخ/ محمود شلتوت ـ ص: ٥٤٠.
(٧١) سورة الأنفال ـ الآية: ٦١.
(٧٢) أخرجه البخارى والنسائى وأبو داود وابن ماجه وأحمد.
(٧٣) البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجه وأحمد.
(٧٤) أخرجه أحمد.

خصوصية الإسلام
دين رحمة وسلام

الأستاذ/ إبراهيم شعيب على

- رئيس الجمعية النيجرية للدعوة إلى الوحدة والتضامن الإسلامى بالنيجر

مقدمة :

الحمد لله الذى ارتضى لأمة سيدنا محمد ﷺ الإسلام دينا، وجعل شريعة محمد ﷺ خاتمة الشرائع وأكملها، وأرسل بها أفضل خلقه وخاتم أنبيائه محمدا ﷺ.

فإن الإسلام منذ بزوغ فجره تعرض لطعنات متنوعة ومتفننة من القوى المعادية والمناوئة له، ووقف صامداً أمام هذه القوى، حتى دخل فى معارك ضارية فرضت عليه، وإن ما يواجهه الإسلام اليوم من القوى المناوئة له أشد ضراوة وأبلغ كيداً مما واجهه من قبل، سواء فى كثرة هذه القوى، أو فى فعالية الأدوات التى تحارب الإسلام بها، ففى العصر الحديث كثرت التيارات الفكرية بحكم التقدم العلمى والمكتشفات التى غيرت وجه الحياة تغييراً مادياً ونفسياً ومعنويا.

فالآن تقوم وسائل الإعلام الغربية - بشتى أنواعها - بتلفيقات لا سند لها ولا تمت إلى الحقيقة بصلة كقولهم: إن الإسلام يحرض أتباعه على

العنف وإراقة الدماء، ويعلم أتباعه الإرهاب، وهذا هراء ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾، ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾.

فالإسلام بريء كل البراءة من هذه التهم البالية الملصقة، إنما الغرض من هذه التهم تشويه صورته وتعاليمه، فالإسلام ما ورث العنف منذ لحظته الأولى وحتى الآن، وسيظل شامخا خافقا مهما كاد له الكائدون إلى يوم القيامة.

لقد انتشر الإسلام بتعاليمه الإنسانية السمحة، وليس بالسيف والعنف كما يدعى الغرب، والدليل على ذلك من واقعنا الجغرافى، فقد انتشر فى السودان الغربى من تشاد، النيجر، مالى، السنغال، إلخ ولم يأت لهذه البلاد جيش غاز أو قائد فرض بالسيف دين الإسلام.

وإن شاء الله سأقوم بإلقاء الضوء على بعض المواقف الدالة على أن الإسلام كله رحمة ودين سلام، وسيتم تقسيم هذا البحث المتواضع إلى المقاصد الرئيسية الآتية:

المقصد الأول

(أ) دعوة الإسلام إلى التراحم:

فالتراحم هو أن يتعامل الناس على أساس من العطف والشفقة والتواضع والإحسان، ويشعر كل فرد فيهم بأنه عضو فى المجتمع الإسلامى يعمل من أجل إسعاده وتقدمه، فهو لا يعيش لنفسه وإنما يعيش لأمته، وقد دعانا ديننا الإسلامى إلى التراحم وحثنا عليه لما فيه من توثيق الصلات وتوكيد الروابط الأخوية بين المسلمين، وتطهير النفوس من القسوة والكبرياء والحقد والبخل، حتى يعيش المسلمون إخوة متحابين متعاونين فى السراء والضراء.

قال تعالى فى الإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين: **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾**(١).

وقال فى الإحسان إلى اليتيم: ﴿**فأما اليتيم فلا تقهر* وأما السائل فلا تنهر**﴾(٢).

وكان رسول الله ﷺ مثلا أعلى للرحمة والشفقة والتواضع.

(ب) مجالسة الرسول ﷺ مع فقراء الصحابة:

فمن رحمته وشفقته أنه كان يجالس الفقراء ويحسن إليهم ويعود مريضهم ويشيع جنائزهم ويتطلف معهم فى حديثه ومعاملاته، فمن أقواله ﷺ فى الحث على التراحم: «**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**». **رواه مسلم، وقوله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**. رواه مسلم، ويقول الله سبحانه وتعالى ﴿**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا**﴾(٣).

وروى عن النبى ﷺ «**أن رجلا زار أخاً له فى قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا، فلما أتى إليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لى فى هذه القرية. قال: هل له عليك من نعمة تربها عليه؟ قال: لا، غير أنى أحببته فى الله تعالى. قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته**». رواه مسلم.

وكان ﷺ فى صلاته بالناس يخفف؛ لأنه يقدر حالة السقيم، والشيخ الكبير، وذى الحاجة.

(جـ) عطف الرسول ﷺ على خدمه:

كان ﷺ شديد العطف على الخدم، كثير الشفقة عليهم، يداعبهم ويبش فى وجوههم ويهش للقائهم، قال أنس بن مالك: «**إن رسول الله ﷺ دخل عند أمى فرأى أخى أبا عمير حزينا. فسألها النبى: ما بال أبى عمير حزينا؟ فقالت يا رسول الله، مات نغيره (وهو طائر كان يتسلى به) فقال ﷺ**

مداعبا له: **أبا عمير ما فعل النغير؟ وكان كلما رآه قال له هذا»**. وقد شملت رحمته ﷺ كافة الأحياء فهو القائل: «**دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**». ووصف الله تعالى نبيه بالرحمة فقال. ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم**﴾[٤].

(د) فضائل التراحم:

إن المجتمع الذى يسوده التراحم وينتشر بين أفراده، لاشك أنه مجتمع صالح جدير بالحياة الآمنة المطمئنة البعيدة عن الصخب والتآمر والتحاسد. ومن فضائله ما يلى:

١- أنه يقضى على كثير من الأمراض الاجتماعية التى تفتك بالمجتمع وتشل حركته فى التقدم والرقى، مثل: السرقة والغش والقتل.

٢- بالتراحم يتماسك أفراد المجتمع ويكون قوة واحدة، فيختفى شبح البؤس والفاقة، ويعيش الناس إخوة متحابين فى الله.

٣- أن التراحم يطهر النفوس من الحقد والحسد والضغينة والرياء والكبر، وغير ذلك من الصفات القبيحة التى إن انتشر داؤها العضال؛ كانت وبالا على الأمة[٥].

(هـ) تتآلف القلوب بالتراحم:

إن التراحم بين أفراد المجتمع يفضى إلى تآلف القلوب وتقارب النفوس، فما يدرك بحسن المعاملة واللين لا يدرك بالقوة والشدة، وقد مدح القرآن الكريم أسلوب الرسول ﷺ فى تأليف قلوب أصحابه والتفافهم حوله حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾[٦].

المقصد الثانى

(أ) رحمة الإسلام تعدت إلى البهائم والطيور:

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما رجل يمشى فى الطريق وقد اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل بها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث وهو يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى، فنزل البئر، فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب، فشكر الله تعالى فغفر له. قالوا: يا رسول الله أإن لنا فى البهائم لأجرا؟ قال: فى كل ذات كبدٍ رطبةٍ أجر». وقال: «دخلت امرأة النار فى هرة، لا هى أطعمتها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض».**

وعن أبى الدرداء رضي الله عنه «أنه كان يتبع الصبيان فيشترى منهم العصافير فيرسلها ويقول لها: اذهبى فعيشى حيث شئت».

(ب) من مظاهر رحمة الإسلام على أهل الأديان:

تعاطف سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أهل الذمة: وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنه «أنه رأى رجلا من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس وهو شيخ كبير، فقال له عمر رضي الله عنه: ما أنصفناك، أخذنا منك الجزية شابا ثم ضيعناك اليوم. وأمر بأن يجرى عليه قوته وأمثاله من بيت مال المسلمين».

يقول الحق سبحانه وتعالى: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾**[٧].

(جـ) الحكمة فى رعى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم:

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«ما من نبى الا وقد رعى، قالوا: يا رسول الله وأنت قد رعيت؟ قال: نعم كنت أرعى الأغنام على قراريط فى مكة»**. فالحكمة هنا فى رعى الأغنام تتجلى فى ابتلائهم على البهائم أولا، حتى

تظهر شفقتهم على خلقه وهو أعلم بهم، وإذا وجدهم مشفقين على البهائم جعلهم أنبياء، وجعلهم مسلطين على ابن آدم فى أمر دينهم.

(د) اتخاذ الله موسى صفيا لرحمته بخلق الله:

وروى أن موسى – عليه ـ الصلاة والسلام ـ قال: «يا رب بأى شىء اتخذتنى صفيا؟ قال: برحمتك على خلقى، فإنك كنت ترعى لشعيب عليه السلام، فندت شاة من غنمك فأتبعتها فأصابك الجهد فى طلبها حتى أدركتها، فلما أخذتها ضممتها إلى حجرك وقلت لها: يا مسكينة أتعبتنى، فبرحمتك على خلقى اصطفيتك وأكرمتك بالنبوة. ﴿**إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى**﴾».

(هـ) من أقوال الصحابة رضى الله عنهم حول التراحم:

كان الصديق أبو بكر ﷺ يميل دائما إلى الرفق والتراحم، ويبدى اهتماماً كبيراً بأمر الضعفاء، وعندما شيع جيش أسامة بن زيد وهو خارج للجهاد قال لرجاله: «لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيراً، ولا شيخا كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له».

إنها وصية تنطوى على الرفق والرحمة وحقوق الإنسان، وأترك التعليق أسفا لما نراه اليوم على أيدى السفاحين الديمقراطيين الذين يدعون زورا وكذبا التشدق بحماية حقوق الإنسان ومحاربة الإرهاب، وهم فى الواقع الإرهاب نفسه.

(و) الرسول الكريم يستثير عاطفة التراحم فى الجماعة المسلمة:

يقول الرسول ﷺ: «**تراحموا ترحموا. فقالوا: يا رسول الله كلنا رحماء. فقال: ليس ذلك، ليس الرحيم الذى يرحم أهله وأولاده. ولكن الرحيم الذى يرحم عامة المسلمين، فتراحموا تُرْحَموا، واغفروا يُغْفَر لكم**». وروى عن جرير بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لا يرحم الناس لا**

يرحمه الله». وعن أبى هريرة قال: رسول الله ﷺ: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقى**».

ما أروع الإسلام وهو يصور الذين يقبضون أيديهم عن الإحسان إلى الفقراء بأنهم يقبضونها عن رحمة الله ـ جل جلاله ـ بهم، فقد ورد فى الحديث القدسى «**يا ابن آدم مَرِضْتُ فلم تَعُدْنى، واستطعمتك فلم تطعمنى، واستسقيتك فلم تسقنى، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: مرض فلان فلم تعده، أما إنك لو عدته لوجدت ذلك عندى. واستطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى. واستسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى**».(٨).

المقصد الثالث

(أ) الإسلام دعوة إلى الحياة الكريمة:

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون* واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب* واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون**﴾(٩).

يوجه الله – تعالى – عباده المؤمنين إلى المحافظة على تعاليم الإيمان، والتمسك بما جاء به نبى الإسلام ﷺ ففى ذلك الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة، حيث تشتمل دعوة الإسلام على الأخلاق الكريمة والفضائل الإنسانية التى إن تعامل الناس بها عاشوا سعداء فى الدنيا والآخرة وينبهنا ربنا ـ جل وعلا ـ إلى أنه ـ سبحانه ـ يعلم ما فى نفوسنا، وقادر علينا فى جميع شئوننا، وسنرجع إليه يوم القيامة للحساب، ويحذرنا من مخالفة آوامره، ومن ترك المخالفين يفسدون فى الأرض ،فيجب علينا أن نطيعه ونمنع المفسدين من المخالفة والا نزل العقاب بالجميع.

روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: **«والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»**. ويذكرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما أنعم به على المؤمنين الأولين من أهل مكة فقد كانوا فى قلة وضعف، وخوف من أعدائهم المشركين والمجوس والروم أن يخطفوهم من ديارهم، فهيأ الله لهم الهجرة إلى المدينة وقواهم ونصرهم ووسع أرزاقهم، وأصبحوا سادة لما تمسكوا بدينهم وحافظوا على إسلامهم(١٠).

(ب) متفرقات: نظرة إلى واقع البشرية المؤسف:

١- يكثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن ظاهرة التطرف والعنف، ولا يكاد يمر يوم إلا ونسمع فى وسائل الإعلام عن متطرفين، يهاجمون أو عن أجهزة الأمن تحاصر أو تقتل متطرفين، والظاهرة عامة تكاد تمتد على مساحة الكرة الأرضية وإن كان العنف الأصولى هو الأبرز على الساحة، وفى حالة وجود عنف فى مكان ما «مجهول الهوية» فمن الأسهل أن يقال: إنه عنف أصولى، بل إن كثيرا من عتاة المجرمين ينفذون جرائمهم، وعندما يعوزهم المبرر يقولون: إنهم يحاربون الإرهاب الأصولى.

٢- **تجاوزات إسرائيلية**: وإذا أرادت إسرائيل ابتلاع أرض فلسطين، وتقتيل شعبها وملاحقته فى كل مكان بمختلف الوسائل الإرهابية، وافتتحت سجون أنصار ١-٢-٣-٤؛ لاستيعاب الآلاف من الأحرار المطالبين بالحرية لشعبهم وأرضهم، وإذا فعلت إسرائيل ذلك فإنما تفعله لحماية العالم من شرور الأصولية وإرهاب الأصوليين، وهذا كذب وتلبيس للحق بالباطل، إن طلب الاستقلال والدفاع عن المال والأرض والعرض حق يكفله القانون الدولى وشرع الله.

٣- **أوروبا وأمريكا هما وكرا الإرهاب**: وإذا تآمرت أوروبا وأمريكا والمنظمات الدولية جميعا وتفاهمت على غض البصر عن المذابح التى يندى لها جبين كل شريف فى الدول الإسلامية بل وكل إنسان حر على وجه الأرض. فإذا طلعت علينا الصحف لتبرير هذه المذابح التى يتخذونها تكئة لأفكارهم وأفعالهم

الشريرة فهذا قلب الحقائق، وكما يكون الإرهاب بالسلاح يكون بالكلمة التى تهدد أمن الآخرين. إننا نريد أن يحل الحوار والنقاش محل القنبلة والمسدس حتى لا تطغى القوة على الحق كما تفعله إسرائيل حالياً، فهى تتخذ من الإرهاب جريمة تصادر الدولة وإرادة الأمة باسم المصلحة وتهدد بالقوة الباطشة حقوق الشعب الفلسطينى ومصادرة إرادته الحرة واستقلاله باسم محاربة الإرهاب، والذى تمارسه إسرائيل هو الإرهاب بعينه وهو مرفوض دينيا وإنسانيا، ومهما افتعلوا له من أسباب وهمية ومبررات فهو ادعاء واغتصاب، وتوسع، وأخذ حق الغير بالقوة.

٤- تهمة إسرائيلية لا أساس لها من الصحة: فليس من التطرف أن يحاول صاحب الحق التمسك برأيه، ويدافع عنه ويبذل الغالى والنفيس فى سبيل أن ينتشر ويسود، بشرط أن يحدث ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، والكلمة الطيبة، والموقف الفكرى المناسب، وليس من التطرف بحال أن يحمل شعب سلاحا ليدافع عن نفسه وأهله وأرضه وعرضه، بل هو حق مشروع أقرت به جميع قوانين الأرض والسماء. إن التطرف قد يكون بالكلمة عندما تصادر آراء الآخرين فلا ترى إلا رأيك، ولا تسمح بحال بالرأى الآخر كما يفعل رئيس الوزراء الإسرائيلى حاليا، وإن سمح فلا يأخذه بعين الاعتبار. والتطرف قد يكون بالموقف أو بالقوة الغاشمة ليسكت صاحب الرأى الآخر، وهو تطرف مرفوض سواء قامت به الدولة أو قامت به جماعة أو قام به فرد من الأفراد، والعالم اليوم يكيل بأكثر من مكيال، وعنده أكثر من ميزان، ويصنف الأفعال حسب ألوان القائمين بها والمصالح الشخصية، وليس على أساس المبادئ والقيم.

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا: هل الإرهاب صناعة إسلامية ومواقف شرقية، أم أن الغرب بؤرة من بؤر الإرهاب؟

إن النازية والفاشية، ومعسكرات الاعتقال، والتمييز العنصرى، والحرق فى أفران الغاز، والصراعات الدينية بين الأجنحة الكنسية المختلفة، كلها صناعة إرهابية استأثر بها الغرب، والاستعمار الذى أناخ بثقله على شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية واستراليا فقتل شعوبها: فى الجزائر قتل أكثر من

مليون إنسان، وفى أفغانستان كذلك، وفى روسيا، وسكان أستراليا القدامى (الأبروجينيز) على وشك الانقراض، والهنود الحمر أوشكت شمسهم على الأفول، والتمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا قتل مئات الألوف، ولم يكتفوا بقتل الشعوب فقط بل دمروا الحضارات وسرقوا الآثار ونهبوا الثروات حتى قيل: إنه لا توجد لبنة بنيت منها لندن إلا ومعجونة بدماء الشعوب التى استعمروها، هذا الاستعمار هو صناعة إرهابية استأثر بها الغرب[11].

الخاتمة:

نستنتج من هذا البحث المتواضع أن الإسلام الحنيف دين العدالة والمساواة يدعو إلى الأخوة الإنسانية، لأنه يؤمن أن البشر جميعا مهما تباعدت أوطانهم وديارهم ينتمون إلى أب واحد وأم واحدة، وقد قال تعالى فى كتابه الكريم: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾[12].

كما أن الإسلام دين العقيدة الصحيحة الذى ارتضاه الله للبشرية جمعاء لتحقيق السمو الإنسانى والتعاون بين جميع أفراد البشر حتى يعيشوا حياة كريمة فيحب بعضهم بعضا، لذلك أباح الإسلام حرية العقيدة الدينية لأهل الديانات الأخرى فلا يرغم غير المسلم على ترك دينه واعتناقه الإسلام، امتثالا لقوله تعالى: ﴿**لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾[13] وأباح الإسلام أيضا حرية المناقشات الدينية مع أهل الديانات الأخرى حتى يكون الإقناع عن طريق دفع الحجة بالحجة والدليل بالدليل، قال الله تعالى: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾[14].

وقد طبق رسولنا محمد ﷺ المبادئ الإنسانية التى دعا إليها الإسلام مع غير المسلمين منذ أن بعثه الله رحمة للعالمين وأمره بتبليغ الرسالة الخالدة، رسالة الحق والخير والسلام - فعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة؛ وأراد أن يجمع طوائف المدينة من المسلمين وغيرهم عقد معاهدة بين فيها الدعائم التى

تقوم بينهم فى المجتمع الجديد، وأقر فيها اليهود على دينهم وأموالهم، وعاهدهم على الرعاية والنصرة ما داموا على العهد - كما عقد الرسول ﷺ معاهدة مع قبيلة تغلب النصرانية أقرهم فيها على دينهم ونصرتهم إذا التزموا بالعهد.

وقد حذر الرسول ﷺ من الاعتداء على غير المسلمين أو ظلمهم فقال: «من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة». وقد سار المسلمون مع أهل الديانات الأخرى سيرة نبيهم، فها هو ذا عمر بن الخطاب يطبق مبدأ التكافل الاجتماعى مع المسلمين وغيرهم، فقد مرًّ فى طريقه إلى الشام بقوم مرضى من النصارى، فأمر أن ينفق عليهم من بيت مال المسلمين، وبأن يجعل لكل واحد منهم من يخدمه ويقوم على شئونه. وعندما فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس كتب للنصارى عهداً وأماناً على أنفسهم وأولادهم وكنائسهم وصلبانهم: لا تهدم، ولا ينتقص شىء منها، ومن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه، ومن أقام منهم فهو فى ذمة المسلمين.

ولما حان وقت الصلاة وهو جالس فى صحن كنيسة القيامة، خرج وصلى خارج الكنيسة على درجة السلم التى على بابها بمفرده، ثم كتب كتاباً يوصى فيه المسلمين ألا يصلى أحدٌ منهم على الدرجة، إلا واحداً، واحداً غير مجتمعين للصلاة، ولا مؤذنين لها، وما شكا إلى عمر بن الخطاب مظلوم من أهل الذمة - اليهود والنصارى - إلا أنصفه؛ حتى ولو كان المشكو فى حقه واليا أو أميرا. هذا وقد تُرك غير المسلمين على دينهم فى البلاد العربية والإسلامية منذ ظهور الإسلام، ولم يجبر أحد منهم على الدخول فى الإسلام. فالإسلام لا يمنع غير المسلم من حقه فى الحياة الحرة الكريمة فى ظل العدالة والمساواة، كما يجد فى ظله الطمأنينة والاستقرار والأمان ما لا يعرف فى أرقى الدول المعاصرة[١٥].

الهوامش

١- سورة النساء الآية : ٣٦.

٢- سورة الضحى الآيتان : ٩، ١٠.

٣- سورة الكهف الآية : ٢٨.

٤- سورة التوبة الآية : ١٢٨.

٥- انظر: فرج عبدالسلام السوقى ود. على عبدالمنعم عبدالحمدى وآخرون: فى التربية الإسلامية - أمانة التعليم - الجماهيرية الليبية الشعبية ١٩٨٤ - ١٩٨٥ م ص ٣٠٣-٣٠٦.

٦- سورة آل عمران الآية : ١٥٩.

٧- سورة الممتحنة الآية : ٨.

٨- انظر: عبدالمنعم عبدالحميد ورجب الهادى ضياف وآخرون فى (التربية الإسلامية - أمانة التعليم والتربية - الجماهيرية الليبية - ١٩٧٨/١٩٧٩)، ص ٣٠٥-٣٠٦.

٩- سورة الأنفال الآيات : ٢٤-٢٦.

١٠- الأستاذان: منشاوى عثمان عبود وعلى السماحى فى (نصوص مختارة من القرآن الكريم) ج.م.ع. الأزهر الشريف، ١٩٧٨، ص ٣٠٥-٣٠٦

١١- انظر كتاب (حاضر العالم الإسلامى) إعداد المركز العالمى للكتاب الإسلامى عام ١٩٩٣، ص ٣٤-٣٧.

١٢- سورة الحجرات الآية : ١٣.

١٣- سورة البقرة الآية : ٢٥٦.

١٤- سورة النحل الآية : ١٢٥.

١٥- انظر كتاب د./ أحمد عمر هاشم وعبدالجليل أحمد وآخرون، وزارة التربية والتعليم ج.م.ع. ١٩٩٣ فى التربية الإسلامية ص : ٨٧-٨٩.

الدين الإسلامى نظام للسلام

الأستاذ الدكتور/ جاسم على سالم الشامسى

أستاذ القانون المدنى - وكيل كلية الشريعة والقانون
المستشار القانونى لجامعة الإمارات العربية المتحدة

إن كلمة الإسلام مشتقة من كلمات السلم والسلام، أو فى مفهومها معنى الاستسلام لنواميس الكون ولسنن الله التى قدرها، وهو ذات معنى المسالمة فى معاملة الناس[١].

والسلام اسم من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: **﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾**[٢].

وهو ما أوضحه رسول الله ﷺ بقوله: «**إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وُضع فى الأرض فأفشوا السلام بينكم**» ثم كرر هذا الاسم فى الدعاء النبوى «**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[٣].

وعبارة «السلام عليكم - وعليكم السلام ورحمة الله» هى التحية اليومية المتداولة بين المسلمين والعرب حتى فى حاضرهم، وهى من أفضل تحيات الأمم «لتضمنها السلامة التى لا حياة ولا فلاح إلا بها، فهى الأصل المقدم على كل شىء... فتضمنت السلامة نجاة العبد من الشر، وفوزه بالخير مع اشتقاقها من اسم الله»[٤].

وإن أكثر الناس أجراً أحسنهم تحية، لما جاء فى الحديث النبوى «وخيرهما الذى يبدأ صاحبه بالسلام»[٥] وإن رد التحية واجب دينى وأخلاقى، عملاً بقوله

تعالى: ﴿**وإذا حُيِّيتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها أو رُدوها إن الله كان على كل شىء حسيباً**﴾(٦) فالذى تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يُقال: وعليك السلام، لِمَنْ قال: السلام عليكم – من أهل الكتاب، فإن هذا من باب العدل(٧).

وعندما وجه رسول الله ﷺ كتبه إلى الملوك ليدعوهم إلى الإسلام خاطبهم بقوله: «سلام على من اتبع الهدى».

وإذا ما ذُكِر سيدنا محمد ﷺ أو أى نبى آخر تبعت اسمَه دوماً عبارةُ (عليه السلام) فهى عبارة تدل على أفضل الدعوات والتحيات.

ولقد سُمِّيت الجنة دار السلام فى أكثر من آية من آيات القرآن الكريم: ﴿**والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾(٨)، ﴿**لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون**﴾(٩).

وقد ورد فى تسمية الجنة بدار السلام أنه قيل: السلام هو الله والجنة داره، وقيل: السلام هو السلامة والجنة دار السلامة من كل آفة وعيب ونقص، وقيل: دار السلام؛ لأن تحيتهم فيها سلام، لقول الله تعالى فى الآية العاشرة من سورة يونس ﴿**وتحيتهم فيها سلام**﴾، ولا تنافى بين هذه المعانى جميعاً(١٠).

وإن كلمة السلام ومشتقاتها قد وردت فى كثير من آيات القرآن الكريم تجاوزت نحو المائة، وذلك خلاف كلمة الحرب ومشتقاتها التى لم تذكر إلا فى ست آيات فقط من القرآن الكريم(١١).

ويقول سيد قطب – رحمه الله: «إن التناسق فى طبيعة الكون وفى ناموس الحياة وفى أصل الإنسان – مستمد من طبيعة السلام فى الإسلام، فتستند إلى أصل أصيل عميق، ويصبح السلام هو القاعدة الدائمة، والحرب هى الاستثناء الذى يقتضيه الخروج عن هذا التناسق فى دين الله الواحد»(١٢).

ويقول سيد قطب: «إن النظرة الكلية للإسلام عن الحياة تهدينا إلى أنه يعد الحياة الإنسانية وحدة. وحدة من ناحية الزمن، متماسكة الحلقات، متدرجة

الخطوات، متضامنة الأجيال، متعاقبة الأطوار **﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾**[١٣].

ووحدة من ناحية الفطرة، متماسكة النوازع والأشواق، ممتزجة المادة والروح قابلة للارتفاع إذا حَسُن توجيهها وتزكيتها، مستعدة للهبوط إذا ساء التوجيه والعبادة **﴿ونفس وما سوَّاها • فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكَّاها • وقد خاب من دسَّاها﴾**....»[١٤] .

المطلب الأول
السلام والمساواة والحرية من خصائص الإسلام

يَعُدُّ الإسلامُ مبدأ المساواة من المعايير الكلية، فجميع الناس متساوون شرعاً - - فى الإسلام - فى الحقوق والواجبات، دون تمييز من حيث العرق أو الجنس أو اللون أو النسب أو العقيدة، فالتقوى وحدها مقياس الكرامة فى الإسلام.

فهذا المبدأ ظاهر فى النصوص القرآنية، قال الله سبحانه وتعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[١٥]، وقال سبحانه: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾**[١٦]، وقوله تعالى: **﴿ما خلقُكُم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾**[١٧].

فجميع هذه الآيات الكريمة دليل واضح كوضوح الشمس على أن المساواة مبدأ أساسى فيها، وخاصية فى غاية الأهمية فى الدين الإسلامى.

ولذلك فقد طُبق هذا المبدأ تطبيقاً دقيقاً فى عز الدولة الإسلامية، فالواجبات الدينية يلزم بها جميع المسلمين دون تفرقة بين مواطن و أجنبى، أو بين رجل وامرأة، أو بين أبيض وأسود؛ فهم جميعاً صف واحد فى الصلاة وهم جميعاً فى حجهم وعمرتهم، وإذا زدنا فى البيان فنورد التالى:

١- لا يفرق الإسلام بين الناس بسبب الدين :

حيث إن قاعدة المساواة تطبق على المسلمين فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية، وكذلك يمتد تطبيقها إلى غير المسلمين المقيمين فى دار الإسلام سواء بعقد الذمة أم بعهد الأمان، فهم يتمتعون بالمساواة القانونية والقضائية وتستثنى أحكام الأسرة؛ رعاية لحرمة العقيدة والوجدان.

ومن ذلك ما ذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن حُسن معاملته لأهل الذمة عندما أعفى اليهودى المسن الضرير من ضريبة الجزية، وأمر له بالعطاء من بيت المال.

٢- ولا يفرق الإسلام بين الناس بسبب النسب والطبقات الاجتماعية :

قضى الإسلام على التفاخر الجاهلى بالنسب والطبقات الاجتماعية فقال رسول الله ﷺ: «**كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم**»[١٨]، وقال ﷺ: «**أنا أخو كل تقى ولو كان عبداً حبشياً، وبرىء من كل شقى ولو كان شريفاً قرشياً**»[١٩].

وعلمنا رسول الله ﷺ كيف أنه لا تمايز فى الوظائف بسبب النسب لمَّا طلب منه عمه العباس أن يوليه إحدى الولايات، إذ قال له ﷺ: «**لا يا عم إنها أمانة، وإنها لخزى وندامة يوم القيامة، إلا من أخذ بحقها ووفى الذى عليه فيها**»[٢٠]، وجاء بعبارة أخرى : «**إن شئتم أنبأتكم عن الأمانة ما هى: أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة إلا من عدل**».

ولقد ساوى الإسلام فى العقوبة بين جميع الناس، فقال رسول الله ﷺ : «**أيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف فيهم تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وايم الحق لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[٢١].

٣- لا يفرق الإسلام بين الناس بسبب الجنس أو اللون أو الموطن :

فقد قال رسول الله ﷺ: «**ليس لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على**

أحمر فضل إلا بالتقوى». وقد تم تطبيق هذا المبدأ فى الواقع أيام النبى ﷺ وصحبه فلم يمنع اللون أو العرق من تقدم الصحابة فى المجتمع كصهيب بن سنان الرومى وسليمان الفارسى وبلال بن رباح.

فلا مجال لأن يفخر إنسان بحسبه ونسبه، ولا أن يحتقر إنسان بسبب نسبه، أو قلة ذات يده، حيث يقول الشاعر:

الناس من جهة التمثيل أكفاء   أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم فى أصلهم شرف   يفاخرون به فالطين والماء

ومن أجل ذلك نجد أن الإسلام قد نجح فى توثيق الروابط بين الذين آمنوا به. وقد كانت تلك الروابط أقوى على مواجهة المحن، وأقدر على حل مشكلات المجتمع، حتى شاهدت الدنيا - ولأول مرة فى تاريخها الطويل - أن الإسلام قد أقام مجتمعاً ظل فترة طويلة لم يحتج إلى قضاء يرجع إليه فى فصل خصوماته، ولا إلى شرطة تحفظ أمنه، وترعى حقوقه، وتسهر على حراسة مقوماته(٢٢).

٤- لا يفرق الإسلام بين الناس بسبب العداوة والبغضاء :

تتطلب المساواة العدالة بين الناس دون تحيز، قال تعالى: **﴿ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾**(٢٣).

تكتمل المساواة بصيانة الحريات بأنواعها، وأكثرها وضوحاً الحرية الشخصية وحرية التملك، وهما اللتان أكدهما الرسول ﷺ : **«إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا.... إنما المؤمنون إخوة، فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا من طيب نفسه»**(٢٤).

ومن آثار هذه الحريات تحريم الاعتداء على حقوق الغير والإضرار بهم **«لا ضرر ولا ضرار»**(٢٥) وتحريم أخذ مال الغير بلا سبب شرعى، قال تعالى: **﴿لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾**(٢٦).

وأيضاً من الحريات حرية الفكر والعقيدة.

المطلب الثانى
السلام ومبدأ الأخوة بين الناس

لقد مر التعاون بين الأديان والملل بمراحل مختلفة، إذ كان التعصب الدينى والمذهبى بدايتها، وهو ما كان يقود إلى التعنت والتصلب فى العلاقات بين معتنقى الأديان وأتباع المذاهب، وهو ما كان يقود فى أحيان إلى الحروب.

وإن تبدل الموقف فى العصور الحاضرة إلى نبذ هذا التعصب والتطرف، وتبنى الحرية الدينية والتسامح والتساهل فى الاعتناق، وكان هناك من يؤيد فكرة التقارب بين الأديان وطرح الحوار المشترك.

وبالنظر إلى ما قرره الدين الإسلامى حيث إن الناس جميعهم من أب واحد وأم واحدة وهم إخوة، وفى ذلك قال رسول الله ﷺ : «**أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة**»(٢٧)، وأن المؤمنين برجوعهم إلى رب واحد ومنهج واحد إخوة فى الدين ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾(٢٨)، وبينّ الإسلام أن هذه الأخوة لها حقوق وواجبات تعود فى جملتها إلى ما يحقق التعاون والتآزر، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا..**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾(٢٩)، وقال رسول الله ﷺ: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تنابزوا، وكونوا عباد الله إخواناً**»(٣٠)، وقال رسول الله ﷺ : «**حق المسلم على المسلم ست، قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه**»(٣١).

ولقد فقه المسلمون معانى الأخوة التى يتطلبها ديننا الإسلامى؛ فهذا موقف عثمان بن عفان رضي الله عنه من تجارته التى جلبت إلى المدينة المنورة عام قحط وقلة الخيرات، فهو أرجح شاهد على نماء الشعور بالأخوة وتأصله لديهم فى علاقتهم

ببعض، حضرت هذه التجارة العظيمة والمسلمون فى حاجة ماسة إلى الطعام والغذاء حيث كان عام جدب ومجاعة، وحضر التجار يساومون عثمان بن عفان ﷺ فى ثمنها، حتى بلغوا بها أضعاف قيمتها، وعثمان ﷺ يرفض ويصر على الرفض، لما سُئِلَ قال: لقد بعتها إلى من زادنى عما أعطيتمونى، بعتها إلى من اشتراها بعشر أمثالها، وتصدق بها على المسلمين.

وأيضاً موقف عمر بن الخطاب ﷺ فى عام الرمادة، وقد أجدب المسلمون وأجهدهم الجوع حتى إنهم لم يجدوا ورق الشجر ليأكلوه، فأرسل عمر ﷺ إلى ولاته يبعثون له بالأرزاق، فلما أحضرت، أخذ يُعد الطعام بنفسه للمسلمين، ولما قرقرت بطنه من الجوع، ضرب عليها بيده، وقال: «قرقرى أو لا تقرقرى، فوالله لا تذوقين سمناً ولا عسلاً حتى يشبع المسلمون».

وهذه المعانى السامية تربى عليها المسلمون فى عهد الرسالة ونقلوا هذه المبادئ لمن يليهم وهكذا.

ودائمًا الإسلام يحث المسلمين على التسامح والعفو، فقوله سبحانه وتعالى: **﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسَّعةِ أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾**[٣٢].

فهذه المبادئ السامية قد طبقها الفقهاء فيما بعد، وجاهر بها رواد النهضة الفقهية الحديثة أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وغيرهما.

فجمال الدين الأفغانى نفَّر من قول سنى وشيعى وقال بأنه لا يحب هذه التفرقة التى أحدثتها مطامع الملوك لجهل الأمة[٣٣]، وهو قول موافق للآية الكريمة **﴿إن الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء﴾**[٣٤].

وكذلك قال الأفغانى بأن الأديان الثلاثة: المسيحية والإسلام واليهودية متفقة فى المقصد والغاية، وأن كتبها متفقة بالتعاليم الجوهرية، وأما اختلاف أهل الأديان «فليس هو من تعاليمها ولا أثر له فى كتبها، وإنما هو صنع بعض رؤساء

أولئك الأديان الذين يتـجـرون بـالدين، ويشـتـرون بآياته ثمناً قليـلاً، سـاء مـا يفعلون»[٣٥].

وبنفس الروح الإنسانية، قاوم الشيخ محمد عبده التعصب الأعمى، ودعا إلى المودة والتعاون بين أبناء الجمعية البشرية، فقال: «ما هو النازل الذى حل بالإنسان، فغيّر معالمه الطبيعية، وبدّل أخلاقه السليمة، وحلّ رابطته النوعية.. الإنسان جرثومة واحدة، نشأ عنها عائلة واحدة، حواها بسيط واحد، وربطتها عادات وأخلاق متحدة الصفة – ولقد أثرت هذه الحال تأثيراً فنياً فى الحجم الغفير من عقلاء الناس، فمالوا إلى خدمة الإنسانية من غير أن يتعصبوا لجنس ولا دين ولا مذهب، فإذا رجع الإنسان إلى مركزه الطبيعى، لا نرى الجمعية البشرية بعد إلا كساكنى منزل واحد، يرتفقون بمنافعه على السواء، ويجدون من بركات الأرض ما يكفيهم مؤونة التعصب ويكفّهم عن الشقاق والعناد»[٣٦].

المجادلة بالتى هى أحسن:

والتعامل بين المسلمين وغيرهم من الأديان أوضحها القرآن الكريم بأن تكون بالحوار والتعاون فيما بينهم لإيصال حقيقة ديننا الإسلامى، قال تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾[٣٧].

وأوصى القرآن الكريم بمعاملة أهل الكتاب بالحسنى، وبمحاورتهم بالرفق والحكمة، حيث قال تعالى: ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم....**﴾[٣٨] وقال تعالى: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون**﴾[٣٩]، وقال تعالى: ﴿**فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهيَ لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد**﴾[٤٠].

ولقد أوصى القرآن الكريم بالمسيحيين خاصة، ونوه بما فى قلوبهم من رحمة، وبما لرجال الدين منهم من منزلة؛ لتواضعهم وعدم استكبارهم، فقد قال الله سبحانه وتعالى: **﴿ثم قفَّينا على آثارهم برُسُلنا وقفَّينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾**(٤١)، وقال تعالى أيضاً: **﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسِّيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون • وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾**(٤٢).

المطلب الثالث
تحقيق التوازن فى الإسلام بين مصالح الفرد ومصالح الجماعة

إن المصلحة فى حقيقتها قد تكون مصلحة خاصة للفرد، وقد تكون مصلحة عامة للمجتمع، وقد عنى الإسلام بهذه المصالح بحيث ضمن الحق للفرد والجماعة بشكل راق لم يسبقه إليه أى مذهب وضعى، ونحاول أن نستعرض ذلك فى الآتى:

أولاً: عناية الإسلام بالفرد وحقوقه:

عنيت الشريعة الإسلامية بالفرد؛ مقررة بذلك إنسانيته، حافظة لآدميته، وصائنة لكرامته وحقوقه العامة والخاصة(٤٣).

ونعرض ملامح هذه العناية فى الآتى:

١- أكد الإسلام على أن مصلحة الفرد مقصد من مقاصده، سواء كانت ضرورية، أم حاجية، أم تحسينية، مما يعنى كفالة الحياة الكريمة للفرد وتيسير سبلها المشروعة، وعنى من ثم بوضع القواعد التى تضمن حفظ الحياة للفرد وصيانة عقله وحماية عرضه وماله.

٢- أكد الإسلام على مبدأ المساواة الحقيقية بين الأفراد فى الحقوق والواجبات، دون تمييز بين الأصل أو الجنس أو الدين أو العقيدة أو المركز

الاجتماعى أو الاقتصادى، يقول رسول الله ﷺ: «**الناس أمام الحق سواء**»، وقال: «**الناس سواسية كأسنان المشط**»(٤٤).

٣- اهتم الإسلام بتكريم الإنسان واحترام شخصه، فاعتبره أكرم مخلوق على الأرض، وهو يستحق الكرامة باعتباره إنساناً، دون نظر إلى دينه أو لونه أو نسبه أو جاهه، يقول الله تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**﴾(٤٥)، وهو بهذا أكد على الحرية الشخصية وصيانة حرمتها.

٤ - أباح الإسلام حرية العقيدة الدينية وحرية الفكر وحرية القول، يقول سبحانه وتعالى: ﴿**لا إكراه فى الدين**﴾(٤٦)، ويقول تعالى: ﴿**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾(٤٧).

٥- حرص الإسلام على تربية الفرد وصلاحه باعتباره محور المجتمع، فإذا صلح الفرد صلح المجتمع، وعلى اعتبار أن الإنسان دائم التفضيل لذاته بما طبع عليه من حب الذات، مما قد ينتج عنه من تعطيل لمصلحة المجتمع؛ لذا جاء الإسلام بقواعد لتقوّم الفرد وتحسن من خلقه، يقول الرسول ﷺ: «**خياركم أحاسنكم أخلاقاً**»(٤٨).

وقد علم من الشرع طباع الإنسان من حبه للمال وحرصه على اقتنائه والاستئثار به دون غيره، فقال تعالى: ﴿**وإنه لحب الخير لشديد**﴾(٤٩)، وقال تعالى: ﴿**وأُحْضِرَت الأنفس الشح**﴾(٥٠) ، وأيضاً قوله تعالى: ﴿**قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً**﴾(٥١)، وبالتالى عالج الإسلام هذه النقاط فى الإنسان من خلال ما فرض عليه من واجبات، وما وعده به من ثواب فى حالة الالتزام بالأخلاق الحميدة.

٦- شجع الإسلام على حب العمل والنشاط للفرد، فحث على العمل وطلب الرزق ،فقال تعالى: ﴿**فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه**﴾(٥٢)، وقال رسول الله ﷺ: «**لأن يحتطب أحدكم بفأسه خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه**».

٧- احترم الإسلام الملكية الفردية وصانها. جعل الإسلام - كما رأينا - حفظ المال من الأصول الخمسة التى تقوم عليها المقاصد الضرورية، وجعل الإنسان مستخلفاً على المال، يقول تعالى: ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**﴾[٥٣]. وهذا الاستخلاف يهدى إلى معرفة الوظيفة الإنسانية والاجتماعية للمال فى المجتمع الإسلامى[٥٤]، وأقر الإسلام جهود الإنسان وتنمية أمواله، وحرص على عدم إهدار جهده، ومنع استباحة ثمار عمله؛ فاحترم ملكيته وحافظ عليها وفقاً للشروط الخاصة، فالله تعالى يضيف الأموال والأعيان إلى الإنسان حيث يقول: ﴿**وفى أموالهم حق للسائل والمحروم**﴾[٥٥]، ويقول أيضاً: ﴿**والذين فى أموالهم حق معلوم**﴾[٥٦]، ويقول: ﴿**واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً**﴾[٥٧]، ويقول جل شأنه: ﴿**وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون**﴾[٥٨]. ويقول رسول الله ﷺ فى خطبة الوداع: «**ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام**».

وإذا كانت الملكية الخاصة فى الشريعة الإسلامية محمية، إلا أنه لابد من أن يكون مصدرها مشروعاً، بأن تكون قد انتقلت إلى صاحبها عن طريق الكسب المشروع، سواء عن طريق الميراث أو الوصية أو البيع أو المقايضة أو الهبة أو الشركة؛ وكل طريق آخر مشروع كالزراعة والصناعة والتجارة وغيرها، قال سبحانه وتعالى: ﴿**وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله**﴾[٥٩] وقال تعالى: ﴿**وأحلّ الله البيع وحرّم الربا**﴾[٦٠]، وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾[٦١].

وإذا كان مبدأ سلطان الإرادة محترماً فى الإسلام، فلابد أن تراعى فيه الأصول العامة، يقول الرسول ﷺ: «**المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً**»[٦٢].

ولقد حرمت الشريعة الإسلامية الكسب غير المشروع، فقال تعالى: ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**﴾[٦٣]، وقال تعالى: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم**

وأنتم تعلمون﴾[٦٤]، وحرم الربا فى قوله تعالى: **﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾**[٦٥]، وقوله: **﴿وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين • فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾**[٦٦].

وكذلك فليس للإنسان مطلق الحرية فى إنفاق المال دون شروط، فلا يجوز إنفاقه على المحرمات كالمخدرات أو المسكرات؛ ولا على موائد القمار إلى آخر المفاسد، بل إنه ليس له تبذير المال ولو كان فى الطرق المشروعة، فيقول تعالى: **﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾**[٦٧]، ويقول تعالى: **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾**[٦٨]. وعدم جواز الإسراف يمتد حتى ولو كان المراد الإسراف فى الأمور الشرعية.

وعلى الإنسان أن يؤدى الحقوق الواردة على هذا المال سواء الحقوق المفروضة على سبيل الدوام والتحديد وهى الزكاة بأنواعها، أو الحقوق التى تخضع للحاجات العامة والخاصة كحاجات المسلمين فى الحروب والأزمات الطارئة كالفقر العام والوباء.

ثانياً: عناية الإسلام بالمجتمع وحقوقه:

باعتبار أن الدين الإسلامى هو دين وقانون فى آن واحد، فإن النزعة الاجتماعية فيه ظاهرة للعيان، فإذا كان الإسلام يهدف فى تنظيمه للمجتمع إلى إقامة النظام والاستقرار؛ فإن حرصه على إقامة مجتمع مثالى لا يقل عن حرصه على القيم الروحية والخلقية للأفراد المكونين للمجتمع.

وتظهر النزعة الاجتماعية للإسلام مع حرصه على تحقيق المصلحة العامة فعلاً، وفقاً للآتى:

١- إن تحقيق مصلحة المجتمع والمحافظة على كيانه مقصد أصلى للشرع الإسلامى؛ إذ يرمى الشارع من تحقيق المصلحة الفردية إلى تحقيق الصالح العام للمجتمع[٦٩]، أى أن اهتمام الشارع بالفرد وحقوقه ليس غاية فى حد ذاته، وإنما هو وسيلة لإقامة المجتمع الأمثل، وإذا تعارضت المصلحة

الخاصة للفرد مع المصلحة العامة للمجتمع قُدّمت المصلحة العامة، ولذا كان من القواعد المسلم بها فى الفقه الإسلامى أنه «يُتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام»(٧٠).

٢- تقييد الحقوق الفردية لمصلحة الجماعة:

أوضحنا عناية الشارع بالحقوق الفردية، إلا أنها لم تعتبر حقاً خالصاً للإنسان، حيث إنه، من جهة أخرى، وفَّق بينها وبين حقوق المجتمع، فإذا كان لابد من التعارض، قدَّم مصلحة المجتمع على المصلحة الفردية، ومثال ذلك أن حق الحياة للإنسان ليس حقاً خالصاً له، وإنما تتعلق به مصلحة المجتمع، وقد أوجب الشارع حفظ النفس كى لا يخسر المجتمع عضواً نافعاً فيه يساهم لخيره وتنميته، فعاقب مثلاً على الشروع فى الانتحار، وفرض العقوبة الأخروية على قتل النفس بدون مسوغ شرعى، كذلك فإن حق الإنسان فى الحرية ليس حقاً فردياً وإنما كفله الشارع للإنسان لصقل شخصيته وتنمية مداركه، وكذلك قُيّدت ممارسة الحرية إذا انحرفت بحيث أصبحت خطراً يهدد المجتمع فى أمنه وقيمه ومصالحه.

بل إن ما يعد حقوقاً شخصية فى القوانين الوضعية لم يعتبرها الإسلام كذلك، إذ جعل مناط هذه الحقوق هو ما يقرره الشارع، بمعنى أنها تمت بحكم الشرع ولا تنزع من الفرد حتى لو أراد التنازل عنها، وهذا المفهوم يوضحه الإمام الشاطبى بقوله: «ما هو حق للعبد إنما ثبت بكونه حقاً له بإثبات الشرع ذلك له لا بكونه مستحقاً لذلك بحكم الأصل»(٧١).

٣- أن ممارسة الحقوق الفردية مقيد بعدم الإضرار بالغير:

وتفريعاً على ذلك، منع الشرع الاحتكار؛ اتباعاً لقول رسول الله ﷺ: «**الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون**»، بل إنه منع الزيادة الفاحشة فى الأسعار.

ولقد قنن الفقهاء قواعد تمنع الضرر وتقدم المصلحة العامة على المصلحة الفردية، ومنها الآتى:

(أ) **الضرر يزال شرعاً**: وأصل هذه القاعدة حديث النبى ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**»[٧٢]، وتُعنى هذه القاعدة بوجوب رفع الضرر وترميم آثاره بعد الوقوع كوجوب التعويض على من أتلف شيئاً لغيره وإزالة الضرر الذى أحدثه، بل إقرار الخيارات فى العقود جاء لإزالة الأضرار الواقعة على أحد المتعاقدين كخيار الغبن وخيار العيب وخيار الرؤية.

غير أن الضرر لا يجوز إزالته بمثله، ولذلك تفرعت قاعدة أخرى تقضى بأن «الضرر لايزال بالضرر». مثال ذلك: لا يجوز فرض النفقة للفقير على قريبه الفقير، ولا يجوز رد المبيع إذا حدث له عيب آخر عند المشترى.

(ب) **الضرر يُدفع بقدر الإمكان**: إذا قلنا بأن الوقاية خير من العلاج، ففى إطار ذلك تفهم هذه القاعدة بوجوب دفع الضرر قبل وقوعه. ولذلك شُرع الجهاد لدفع شر الأعداء، وقُررت العقوبات لمنع الجرائم، وشُرع حق الشفعة لدفع ضرر سوء الجوار، وجاز الحجز على المدين لدفع ضرره عن الدائنين، وكذلك الأمر فى الحجز على أموال المدين، وكذلك الحجر على السفيه لدفع الضرر الذى يُلحقه بأسرته نتيجة لسوء تصرفاته.

(جـ) **الضرر الأشد يُزال بالضرر الأخف**: يعمل بهذه القاعدة عند وجود ضررين، فيتعين اختيار أخفهما، كما لو ابتلعت ماعز جوهرة ثمينة لشخص، عندئذ يحق لصاحب الجوهرة أن يمتلك الماعز بقيمتها؛ ليذبحها ويستخرج جوهرته.

وقد وردت قاعدتان أخريان بهذا المعنى، الأولى: «يختار أهون الشرين» والثانية: «إذا تعارضت مفسدتان روعى أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما» كجواز شق بطن المرأة الميتة لاستخراج الجنين الحى من بطنها، وجواز إباحة القتل للمدافع عن نفسه.

(د) **يُتحمل الضرر الخاص دفعاً لضرر عام**[٧٣]: وقد جاءت هذه القاعدة صريحة فى تقييد الحق الخاص فى حالة ما إذا كان يترتب على استعماله ضرر بالجماعة، كجواز هدم منزل أحد الناس لمنع تسرب الحريق إلى المنازل الأخرى،

وكالحجر الصحى على المريض بمرض معد خطير من أجل مصلحة الجماعة، وكإجبار القاضى للمحتكر على بيع أمواله المحتكرة عند الحاجة إليها، مع ما يؤدى إلى إلحاق الضرر بالمحتكر تحقيقاً لمصلحة الجماعة.

(هـ) **درء الأضرار مقدم على جلب المنافع:** إذا تعارضت مفسدة أو مضرة مع مصلحة أو منفعة مُنعت المفسدة ولو أدى ذلك إلى رفع المصلحة، وقد بنى الفقه على هذه القاعدة نظرية سوء استعمال الحق، وذلك بمنع المرء عن استعمال حقه إذا نتج عن ذلك ضرر فاحش للغير؛ ولذا يمنع الجار من أن يتصرف فى ملكه تصرفاً يضر بجاره، كاتخاذ فرن أو مصنع أو مدخنة تؤذى الجار بالرائحة أو الصوت.

(و) **إن الملك لله سبحانه وتعالى وحده:** وبالتالى فإن للملكية الفردية وظيفة اجتماعية قد تتضح من التكاليف التى جعلها الشارع للعباد، كأداء الزكاة، والحث على الإنفاق فى سبل كثيرة جميعها تؤدى إلى صالح المجتمع كالوقف والصدقات غير الواجبة والوصية والإحسان العام.. إلخ. وليوضح سبحانه وتعالى للعباد بأن هذا المال هو فى حقيقته لله سبحانه وتعالى، فقد قال تعالى: ﴿**لله ملك السماوات والأرض وما فيهن**﴾[٧٤]، وقال تعالى: ﴿**ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما**﴾[٧٥]، ويقول تعالى كذلك: ﴿**له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى**﴾[٧٦].

ولا تناقض بين الآيات السابقة وبين الآيات التى يفيد ظاهرها نسبة الملكية إلى الأفراد، مثل قوله تعالى: ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فى أموالكم وأنفسكم**﴾[٧٧] ، وقوله تعالى: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾[٧٨]، ذلك لأن نسبة المال إلى الأفراد قُصِدَ منها تمليك الانتفاع بالمال، والأصل أن النسبة إلى أمر يكفى فيها أدنى الأسباب.

ولقد أبان رب العزة استخلاف الإنسان على هذا المال كما ذكرنا سابقاً، كما حث المسلمين على الإنفاق ترغيباً بما أعده لهم، وفى ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وآتوهم من مال الله الذى آتاكم**﴾[٧٩] ، وقوله تعالى: ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**﴾[٨٠].

٤- تقييد مبدأ سلطان الإرادة بعدم التعسف أو الاستغلال:

إذا كانت الشريعة الإسلامية تجعل الأصل هو مبدأ الإباحة فى الشروط والعقود، غير أنها أحاطت هذا المبدأ بكثير من القيود لحماية الجانب الضعيف فى العقد.

ولتحقيق مصلحة الجماعة، تُحَرِّم الشريعة الإسلامية العقود والاتفاقات الربوية لمنع الاستغلال، وتُحَرِّم الشريعة الإسلامية - أيضاً - عقود الغرر التى يكون محل التصرف فيها أمراً غير مؤكد حصوله، كبيع الطير فى الهواء والسمك فى الماء، وبيع الشىء المفقود قبل العثور عليه؛ لما تنطوى عليه هذه العقود من مغامرة ورهان غير مشروع.

ويجيز الفقه الإسلامى - كذلك - فسخ العقد أو تعديل شروطه؛ بسبب أمر طرأ بعد إبرام العقد وعند تنفيذه، بحيث أصبح تنفيذه مرهقاً بالنسبة لأحد المتعاقدين، ويُعد ذلك خروجاً على مبدأ سلطان الإرادة الذى يقضى بأن العقد إذا أبرم صحيحاً كان ملزماً لعاقديه، فأجاز فسخ عقد الإيجار بالضرر، واعتبر هلاك الثمار بالجوائح غير المنظورة على البائع[٨١].

٥- التوازن المادى بين طبقات المجتمع:

نظر الإسلام إلى المجتمع باعتباره وحدة متماسكة تقوم على أساس التعاون والتراحم؛ هادفاً لتحقيق الاستقرار والأمان لأفراده، وبالتالى لتحقيق الغرض من وجوده.،فقال تعالى: **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾**[٨٢]. وحرص الإسلام على تحقيق ذلك فى مجالات عديدة.

فبالنسبة للأسرة أمر الشارع بنظام النفقة الواجبة؛ تحقيقاً للتوازن بين أفراد الأسرة، فأوجب النفقة على الموسر لأقربائه المعسرين. وانتقل الإسلام إلى الأسرة الممتدة وهى المجتمع فأوجب الزكاة التى تعتبر الركن الثالث من أركان الإسلام وهى عبادة وواجب اجتماعى فى آن واحد، مع ما قلناه من حثه على الأعمال الخيرية عامة.

وقد أشاعت الشريعة الإسلامية روح التكافل الاجتماعى بين أفراد المجتمع، كالتكافل فى الجانب الاقتصادى، ومن ذلك منع إلحاق الأضرار بالناس عن طريق الغش فى المعاملات والتطفيف فى الكيل والاحتكار، وكذلك التكافل فى تعويض الخطأ العقابى بتضامن أفراد العائلة فى دفع الدية فى حالة القتل الخطأ، مع أن الأصل أن تبعة جريمة الشخص تقع على نفسه، ولكن السنة النبوية جاءت بتخصيص هذا العموم؛ مراعاة لحقيقة أن فرض الدية على القاتل قد يأتى على جميع أمواله، وكذلك إشعاراً للأسرة - بجميع أفرادها - أن اختلال الفرد فيها أساسه تقصير من الأسرة ككل.

وكذلك الدفاع عن بيضة الدين، بأن جعل مسئولية الأفراد فى المجتمع الإسلامى فى الدفاع عن بلادهم ضد الأعداء فرض عين على كل منهم عند مداهمة الأعداء بلادهم.

ولقد حث الدين الإسلامى على التكافل الأدبى والأخلاقى بين الناس، وقد دعا الرسول ﷺ إلى ذلك فقال: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٨٣].

الهوامش

١- د. صبحى الحمصانى: القانون والعلاقات الدولية فى الإسلام - دار العلم للملايين ١٩٨٢ ص ٥٠.

٢- سورة الحشر - آية ٢٣.

٣- الجامع الصغير للسيوطى جزء ١ رقم ٢٠١١، وجزء ٢ رقم ٦٦٠٣.

٤- أهل الذمة لابن القيم جـ١ ص ١٩٣ و١٩٦ و١٩٧.

٥- أهل الذمة، المرجع السابق، جـ١ ص ١٩٦.

٦- سورة النساء - آية ٨٦.

٧- أهل الذمة جـ ١ ص ١٩٩ و ٢٠٠.

٨- سورة يونس - آية ٢٥.

٩- سورة الأنعام - آية ١٢٧.

١٠- كتاب أهل الذمة جـ١ ص ١٩٥.

١١- سورة البقرة - آية ٢٧٩، سورة المائدة - الآيتان ٣٣ و٦٤، سورة الأنفال - آية ٥٧، سورة التوبة - آية ١٠٧، سورة محمد - آية ٤.

١٢- سيد قطب: السلام العالمى والإسلام، دار الشروق ص ٢١.

١٣- سورة البقرة - آية ٢٨.

١٤- سورة الشمس - الآيات ٧-١٠، السلام العالمى والإسلام، دار الشروق ص ١٦٧.

١٥- سورة الحجرات - آية ١٣.

١٦- سورة النساء - آية ١.

١٧- سورة لقمان - آية ٢٨.

١٨- الجامع الصغير جـ٢ رقم ٦٣٦٨.

١٩- الرسالة الخالدة لعبدالرحمن عزام ص ١٤٣.

٢٠- الجامع الصغير للسيوطى جـ١ رقم ٢٦٦٦.

٢١- البخارى بشرح العينى جـ٢٤ ص ٢٧٦، صحيح مسلم جـ٥ ص ١١٤.

٢٢- نقلاً عن د. السيد محمد السيد نوح، شخصية المسلم بين الفروق والجماعة على ضوء الكتاب والسنة، بحث منشور فى مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية التى تصدرها جامعة الكويت، ديسمبر ١٩٩٣ ص ٢١٠.

٢٣- سورة المائدة - آية ٨.

٢٤- العقد الفريد لابن عبد ربه، القاهرة ١٩٣٥ جـ٢ ص ٣٥٧ - ٣٥٩.

٢٥- الجامع الصغير جـ٥ رقم ٩٨٩٩.

٢٦- سورة النساء - آية ٢٩.

٢٧- أخرجه أبو داود جـ٢/١٣ رقم ١٥٠٨.

٢٨- سورة الحجرات - آية ١٠.

٢٩- سورة الحجرات - الآيات ٦-١٣.

٣٠- أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٤ ص ١٩٨٢ رقم ٢٥٦٣.

٣١- صحيح مسلم جـ٤ ص ١٥٠٧ رقم ٥ (نقلاً عن الدكتور السيد محمد السيد نوح، المرجع السابق ص ٢٠٨ - ٢٠٩).
٣٢- سورة النور - آية ٢٢.
٣٣- خاطرات جمال الدين الأفغانى لمحمد باشا المخزومى، بيروت ١٩٣١ ص ١٧٩.
٣٤- سورة الأنعام - آية ١٥٩.
٣٥- الخاطرات ص ٢١٣ و٢١٤ و٢١٧.
٣٦- تاريخ الأستاذ الإمام لمحمد رشيد رضا، القاهرة ١٩٣١ جـ٢ ص ٢٠٣ و ٢١٠.
٣٧- سورة البقرة - آية ٦٢.
٣٨- سورة العنكبوت - آية ٤٦.
٣٩- سورة آل عمران - آية ٦٤.
٤٠- سورة آل عمران - آية ٢٠.
٤١- سورة الحديد - آية ٢٧.
٤٢- سورة المائدة - آية ٨٢ و ٨٣.
٤٣- د. فتحى الدرينى، الحق ومدى سلطان الدولة فى تقييده، ص ٢٢ وما بعدها. د. عبدالمنعم فرج الصده، أصول القانون، ص ٦١. د. فاروق النبهان، الاتجاه الجماعى فى التشريع الاقتصادى الإسلامى، ص ١١٥ وما بعدها.
٤٤- د. سمير عاليه، علم القانون والفقه الإسلامى، بيروت الطبعة الأولى ١٩٩١، ص ١٣٣.
٤٥- سورة الإسراء - آية ٧٠.
٤٦- سورة البقرة - آية ٢٥٦.
٤٧- سورة الكهف - آية ٢٩.
٤٨- التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول، جـ٥ ص ٦٣.
٤٩- آية ٨ من سورة العاديات.
٥٠- آية ١٢٨ من سورة النساء.
٥١- آية ١٠٠ من سورة الإسراء.
٥٢- آية ١٥ من سورة الملك.
٥٣- آية ٧ من سورة الحديد.
٥٤- عبدالجليل محمد عبدالدايم، الفكر التشريعى الإسلامى، مجلة إدارة قضايا الحكومة، العدد، الأول السنة ١٨ مارس ١٩٧٤ ص ٢٠٢.
٥٥- آية ١٩ من سورة الذاريات.
٥٦- آية ٢٤ من سورة المعارج.
٥٧- آية ٣٢ من سورة الكهف.
٥٨- آية ٢٧٩ من سورة البقرة.
٥٩- آية ٢٠ من سورة المزمل.
٦٠- آية ٢٧٥ من سورة البقرة.
٦١- آية ٢٩ من سورة النساء.
٦٢- التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول، الجزء ٢ ص ٢٠٢.

٦٣- آية ٣٨ من سورة المائدة.
٦٤- آية ١٨٨ من سورة البقرة.
٦٥- آية ٢٧٥ من سورة البقرة.
٦٦- الأيتان ٢٧٨، ٢٧٩ من سورة البقرة.
٦٧- آية ٦٧ من سورة الفرقان.
٦٨- آية ٢٩ من سورة الإسراء.
٦٩- د. عبدالمنعم فرج الصده، المرجع السابق، ص ٦٢.
٧٠- المادة ٢٦ من مجلة الأحكام العدلية.
٧١- الموافقات فى أصول الشريعة جـ٢ ص ٣٧٧.
٧٢- وتتعلق بهذه القاعدة قواعد أخرى منها: الضرورات تبيح المحظورات، الضرورات تقدر بقدرها، الضرر لايزال بالضرر. انظر: شرح مجلة الأحكام العدلية لعلى حيدر، الكتاب الأول.
٧٣- القاعدة ٢٦ من المجلة.
٧٤- آية ١٢٠ من سورة المائدة.
٧٥- آية ١٧ من سورة المائدة.
٧٦- آية ٦ من سورة طه.
٧٧- آية ١٨٦ من سورة آل عمران.
٧٨- آية ١١١ من سورة التوبة.
٧٩- آية ٣٣ من سورة النور.
٨٠- آية ٧ من سورة الحديد.
٨١- د. عبدالرزاق السنهورى، مصادر الحق فى الفقه الإسلامى جـ٦ ص ٩٠ وما بعدها.
٨٢- آية ٢ من سورة المائدة.
٨٣- البخارى ومسلم وأحمد والترمذى.

مكانة الإنسان فى القرآن الكريم

الأستاذ الدكتور/ عبدالكريم بكرى

مدير معهد تكوين الأئمة

المعهد الإسلامى لمسجد باريس الكبير - فرنسا

سادت فى أواخر القرن الماضى نظريات حالمة مستبشرة بما سوف ينعم به سكان المعمورة فى القرن الواحد والعشرين من رفاهية وأمن وسعادة، ولقد أنبعث هذا التفاؤل نتيجة لشعور البعض بأن انتصار المعسكر الغربى الليبرالى أصبح بديهيا، فبعد سقوط الكتلة الاشتراكية، وفشل سياستها، وتقزم دعاتها، وخفوت بريقها، قلت: بعد كل هذا لم يعد هناك - فى ظنهم - نظام قادر على أن يكون بديلا ضامنا وضابطا لمسيرة الإنسان مثل:الليبرالية الغربية.

وفى هذا السياق - سياق الأحادية الليبرالية، والنزعة الشوفينية - يتساءل أحد خريجى المدرسة الغربية، وهو فرنسيس فوكوياما. يتسائل هذا الرجل متحديا:

هل هناك فى الواقع الإنسانى بعض التناقضات الأساسية التى لم تلق حلا، أو جوابا فى الإطار الليبرالى الحديث؟ والجواب كان طبعا بالنفى، ذلك لأن فى دولة نهاية التاريخ (وهو اسم الكتاب الذى يضم هذه النظرية) دولة فوكوياما كل الرغبات سوف تلبى، كل ما يتمنى المرء يدركه، لن يكون فيها صراع حول المشاكل الكبرى، لن يكون الناس فى حاجة للمؤسسات العسكرية، ولا لرجال الدولة، لن يبقى إلا شىء واحد يشد الناس ويجمعهم هو النشاط الاقتصادى. ولقد أظهرت

مطالع القرن الواحد والعشرين، كم كانت هذه النظريات والتنبؤات بعيدة عن الإنسان وتطلعاته بكل ما تحمله كلمة «إنسان» من دلالات وأبعاد اجتماعية وروحية وعاطفية، وبكل ما تعنية كلمة «تطلعات» من معانى الخير والسعادة والسلام والتعاون والوئام. ذلك أن هذه الأنظمة والمنظمات الاقتصادية والتجارية التى يبشر بها دعاة العولمة؛ فى جوهرها نظم رأسمالية تطغى عليها لغة الربح والخسارة، وتوجهها المؤسسة المالية الضخمة بمنطقة لا مكان فيها للعاطفة أو الاعتبارات الإنسانية.

أيها السادة لقد أدت الأحداث المتسارعة الدامية التى عرفها العالم فى هذه الشهور الأخيرة، إلى إدراك الناس بأن نجاح أى تحول أو تطور سياسى أو اقتصادى، يتوقف على متانة الصلة التى ينبغى أن تكون بين هذه المشاريع وبين الأسس الروحية والثقافية التى تمثل طبيعة الإنسان فتفسّر سلوكه، وتصاحب مسيرته الحضارية[1].

إننا ونحن نتحدث عن رحلة الإنسان التى عبر فيها محطات ثقافية روحية تأملية، يجب ألا يغيب عن أذهاننا لحظة واحدة الدور الحاسم الذى قامت به الرسالات السماوية المتتابعة فى الرجوع بالإنسان إلى أسس الفضيلة، والنبل، والأخوة، والسمو الروحى، أى إيصال الإنسان إلى فطرة الله التى فطر الناس عليها.

أيها السادة، لقد شهد العالم الإسلامى منذ تاريخ الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ من الأحداث الإعلامية والسياسية، ما أثار رياح الخصوم الذين تسلطت عليهم شهوة إنكار أن يكون الإسلام دين المحبة والوئام بين البشر، واشتد القلق من الأبناء والأحباء الذين يريدون الاطمئنان على هذه العقيدة السمحة طوق نجاة الإنسانية من الأخطار والأسقام التى تتوعدهم فى هذا العصر الكئيب.

إن ما يتمتع به الإسلام من: قيم روحية، وعلمية، وثقافية، وقابلية للتجدد والمواءمة، يجعل للمنتمين إليه من شعوب العالم دورا هاما فى الإعداد لنموذج مرتقب من الحضارة الإسلامية، ذلك لأن المنهاج الذى سطره الإسلام للإنسان

بما يضمه فى صلبه من شمولية وتجدد وتجاوب مع المشاكل المستجدة، يمكن أن يساهم إسهاما كبيرا فى تقديم نماذج إنسانية مثالية، وفى إشاعة نفحات روحية أخلاقية، تدخل الدفء فى قلوب الحيارى التائهين، المتعطشين إلى دين يظلهم ويحميهم من لفح صحراء المادة القاحلة، ولما كان الإنسان هو الهدف والمنْطلق والغاية من مجىء الرسالات السماوية، فإن الإسلام لم يعتمد فى بناء النفس البشرية على صياغة القوانين والأحكام المجلوبة من خارج الذات الإنسانية، وإنما اعتمد فى ذلك على الفطرة التى تتطلع دائما إلى الطمأنينة والسكينة ولا تجدها إلا باللجوء إلى الله، فاطر السموات والأرض ومن فيهما وما بينهما، ولذلك فإننا نجد أن مكانة الإنسان فى القرآن تختلف عما وضعه الواضعون من حدود وقوانين، ممن عرفوا شيئا عن حقيقة الإنسان، وغابت عنهم أشياء لا يعرفها إلا من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، سبحانه وتعالى. لقد انطلق المنهج التربوى القرآنى من الإنسان نفسه، ومما يحيط به، ويؤثر فيه من أشياء وأحياء، قال تعالى: **﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**(٢).

ذلك لأن الإنسان فى القرآن يتبوأ المنزلة الأولى بين سائر مخلوقات الله، فهو الكائن الوحيد المكلف فى هذه الأرض، بما أودع الله فيه من الصفات التى تقربه من الكمال.

إن مكان الإنسان - كما يقول العقاد بحق - هو أشرف مكان له فى ميزان الفكر، وفي ميزان العقيدة، وفى ميزان الخليقة التى توزن بها طبائع الكائن بين الكائنات إلى أن يقول فى خلاصة مؤداها: إنه (أى الإنسان المكلف) أصوب فى التعريف من قول القائلين : «الكائن الناطق»، لأن الكائن الناطق ليس بشىء إذا لم يكن أهلا للتكليف، والتكليف عند العارفين قائم على أسس أهمها التبليغ، والعمل(٣).

ويقول سيد قطب فى شرح هذه الآيات: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾**

وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين • قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم • قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾(٤).

يقول - وهو يبين المعانى العميقة لهذه الآيات البينات: «إذن فهى المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد فى الوجود زمام هذه الأرض، ويطلق يده فيها، وتكل إليه إبراز مشيئته فى الخلق والإبداع، والتكوين والتجويد والتبديل». إلى أن يقول : «وإذن فهى منزلة عظيمة، منزلة الإنسان فى هذا الوجود، وتتبدّى القيمة الكبرى التى يعطيها التصور الإسلامى فى الإعلان العلوى الجليل فى الملأ الأعلى الكريم أنه مخلوق ليكون خليفة فى الأرض، كما تتبدى فى أمر الملائكة بالسجود له»(٥).

ولقد ارتبطت مسميات الإنسان فى القرآن على نحو ما سنرى (بالتفصيل) بمعانى التكليف، والرشد، والأمانة، والعلم، والعمل، والنظر، والجدل، والتبليغ، والتكريم، والضعف النسبى، والعجل...إلخ.

ولن يسمح لنا المقام بالتوسع فى شرح أبعاد ودلالات أسماء الإنسان التى وردت فى القرآن، لذلك سوف نكتفى بالإشارة إلى بعض معانيها وإيحاءاتها العامة، من ذلك كلمة «الناس».

الناس هو الاسم الكلى الجامع للجنس، البشرى الذى يخاطب الله به بنى آدم بدون تمييز أو تقييد أو تحديد، وعلى هذه القاعدة العريضة يبين القرآن بأن البشرية من أسلافها إلى أعقابها لها نسب واحد، ونسل واحد، وإله واحد.. وعلى أساس التعارف والتعاون خلق الله الشعوب والقبائل، قال الله تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾**(٦).

وقال عز وجل : **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس**

واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾(٧).

- **﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد﴾**(٨).

- **﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾**(٩).

- **﴿وأنزل التوراة والإنجيل ● من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾**(١٠).

ولم تستند الأخلاق التى دعا القرآن إلى إشاعتها بين الناس إلى الإخاء الإنسانى وحده. بل إن هذه الأخلاق تجد دعامتها القوية فى العدالة التى يأمر الله بها سبحانه وتعالى حتى مع الأعداء والخصوم قال تعالى : **﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾**(١١).

ولكلمة «إنسان» فى الاصطلاح القرآنى دلالات ومفاهيم تفصل ما أودع الله فى هذا الكائن المتميز من قدرات عقلية ولسانية وجسمانية، وكل المؤهلات التى تمكنه من خلافة الله فى هذه الأرض، وهى القدرات التى أهلته لكى يكون الكائن الوحيد المكلف المسؤول عن أعماله، حيث قَبِلَ تحمل الأمانة - أمانة حماية الأرض وإعمارها - لأن كل السموات والأرض وما فيها قد أبت الاضطلاع بحمل هذه المسؤولية الجسيمة، قال تعالى : **﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾**(١٢).

هذا الامتياز الذى ناله الإنسان، حمل الصوفيين إلى القول بالكمال الإنسانى الذى تحقق فى الذاتية المحمدية، والذى يمكن أن يقترب منه الطالبون له، وهم يرون أن هذا الشرف ليس وقفا على سلالة من الجنس البشرى، وليس وقفا على جنس مخصوص من الإنسان(١٣).

فكلمة إنسان فى القرآن الكريم تقترن بدعوته إلى اختيار الصراط السوى والتأمل فى الكون. كما ترتبط بكل ما يتولد فى النفس من عواطف ومشاعر،

ومن ضعف ونسيان، ورجاء وخوف، وحسد وصبر، من ذلك ما جاء حول الإنسان فى الآيات التالية:

﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم • الذى خلقك فسوَّاك فعدلك • فى أى صورة ما شاء ركَّبك﴾(١٤).

﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾(١٥).

﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً﴾(١٦).

﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً﴾(١٧).

﴿وكان الإنسان أكثر شىء جدلاً﴾(١٨).

﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾(١٩).

والكلمة الثالثة أو الاسم الثالث الذى أطلق على الإنسان فى القرآن هى كلمة «بشر»؛ وهى كلمة توحى بطبيعة جسم الإنسان وتكوينه، حيث إنها مشتقة من البشرة وهى ظاهر الجلد، وجمعها بَشَر، وغالبا ما تأتى لتبين حدود مؤهلات الإنسان وقدراته أمام الخالق سبحانه وتعالى، وتأتى كذلك فى سياق يوحى بأن الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - وإن اصطفاهم الله وجعلهم رسلا فى قومهم - فإنهم بشر يأكلون مما نأكل، ويشربون مما نشرب، وفى كل هذا إشارات إلى سمو الإنسان، وعلوّ قدره عند الله، وأمام كل الخلائق.

قال الله تبارك وتعالى :

﴿وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً﴾(٢٠).

﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد﴾(٢١).

﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾(٢٢).

﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾(٢٣).

﴿قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾(٢٤).

﴿بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾(٢٥).

فى القرآن كلمة أخرى خاطب الله بها الإنسان وهى كلمة «بنى آدم»، ولقد أحيطت هذه الكلمة بالخصوص بمعانى التكريم والرعاية والتفضيل، من ذلك قوله تعالى:

﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا﴾(٢٦).

﴿يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما﴾(٢٧).

﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾(٢٨).

﴿يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾(٢٩).

أما كلمة «إنس» فلا تذكر فى القرآن إلا ويقابلها كلمة «جن»، فكلمة إنس من أخوات ومشتقات الأُنس، أى أنها تحوم حول معانى الألفة، والود، والطمأنينة، والاستقرار النفسى.. ويتبين من الآيات المختلفة التى ذكرت فيها كلمة «جن» أن هذه الفئة من المخلوقات عباد أمثالنا، ما خلقوا إلا ليعبدوا الله مثلنا، وليس لها أى امتياز عن الإنسان، بل إن القرآن يحدثنا أن الله سبحانه وتعالى سخر الجن لسيدنا سليمان، وجعلهم جنودا له، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان.

قال تعالى : **﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾**(٣٠).

﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون﴾(٣١).

وانطلاقا من هذه المعانى السامية التى تضمنتها أسماء الإنسان فى القرآن؛ والتى تبين مهامه ووظائفه ومكانته فى تسلم الكائنات التى تشغل هذا الكون. قلت: انطلاقا من كل ذلك فإننا نحاول أن نبسط القول بعض البسط فى أهم المبادئ والركائز التى تقوم عليها قيمة الإنسان فى القرآن الكريم، فمن مظاهر التكريم الذى مَنَّ الله به على الإنسان.

حق الإنسان فى الحياة:

يشمل الإسلام فى مبادئه وقيمه ما يكفل حقوق الإنسان، حقوق الشعوب فى الحياة الحرة الكريمة، فمن حيث حق الإنسان فى الحياة وحمايته من اعتداء الغير عليه، أو سلبه من الحياة التى يمنحها الله للإنسان يقرر الإسلام حكما لم تصل إلى قيمه وسموه أية محكمة أو هيئة محلية أو دولية، وأى شىء أجل قيمة من هذا الذى يقرره القرآن من أن قتل النفس الواحدة هى جريمة كبيرة عند الله، تعدل قتل البشرية كلها، لأن نفس ككل نفس، وحق الحياة واحد ثابت، فقتل واحد من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته.

وإن إنقاذ نفس بالدفاع عن حياتها فى حالة الاعتداء عليها لمنع وقوع القتل؛ هو استحياء للنفوس جميعا؛ لأنه صيانة لحق الحياة الذى تشترك فيه النفوس جميعا(٣٢).

الإخاء الإنسانى:

قرر الإسلام فى القرآن أن البشر جميعا أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، تضمهم الأبوة الواحدة المشتركة والرحم الواصل؛ هذه هى المعانى التى تضمنتها الآية الأولى من سورة النساء : **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾**. وفى ضوء نفس المعانى نقرأ قوله تعالى : **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**.

وقد جعل الله اختلاف تعدد أجناس البشر واختلاف ألوانهم آية من آيات الله التى لا تعد ولا تحصى، لما فى ذلك الاختلاف من تبادل فى الخبرات والخيرات، قال تعالى : **﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾**(٣٣).

بل إن القرآن يعظنا بالإحسان إلى الغير، مهما كانت ملة هذا الغير، ما لم يؤذ المسلمين بالقتال أو بالإساءة الشديدة.

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾(٣٤).

المساواة الإنسانية:

احترام الإنسان للإنسان فى الإسلام ناشئ عن هذا المبدأ العظيم الذى قرره القرآن من أننا كلنا أبناء آدم، خلقنا من نفس واحدة، فلا اعتبار للون الإنسان أو عرقه أو طبقته فى ميزان شريعة الله، حيث أسقطت جميع أشكال التفرقة بين البشر، وأصبح الناس يتفاضلون عند الله فيما يتصفون به من تقوى، أو ما يقدمونه من أعمال، وإن عبداً مؤمنا ممن كان يعده الجاهلون من الأرذلين هو عند الله خير من حُرٍّ مشرك مهما ارتفعت مرتبته فى العرف الاجتماعى(٣٥).

ولقد شهد التاريخ التطبيق العملى لهذه المبادئ فى سيرة رسول الله ﷺ، وسيرة أصحابه رضى الله عنهم وأرضاهم. حيث روى أن صحابة رسول الله ﷺ حاولوا أن يُشفّعوا أسامة بن زيد فى امرأة من قريش سرقت، فاستحقت أن يقام عليها الحد، وعندما كلَّم أسامة رسول الله ﷺ فى أمرها غضب غضبا شديدا، وقال كلمته الشهيرة التى خلَّدها التاريخ لما فيها من سلامة المبدأ، وصلابة الموقف، وتمسك بالعقيدة، قال نبينا الكريم ﷺ: «**إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها**».

ومن ذلك قصة عمر بن الخطاب مع عمرو بن العاص واليه على مصر عندما ضرب ابنُ عمرو ابنَ أحد الأقباط المصريين، لا لشىء إلا لأنه ابن الوالى، وكيف أنصف عمرُ القبطىَ عندما ذهب إليه شاكيا الوالى وابنه، حيث استدعى أميرُ المؤمنين عمرو بن العاص وولده، وأمر ابن القبطى أن يضرب ابن عمرو الوالى كما ضربه، ثم توجه إلى عمرو، وقال له كلمته المأثورة «**متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً**»(٣٦).

تسخير الكون لعقل الإنسان:

لقد كرم الله الإنسان - كما رأينا - بالخلافة، وعلمه أسماء الأحياء والأشياء كلها. وهو العلم الذى تفوق به على الملائكة «فلقد خص الإنسان فى خلقه بالعقل والإرادة فى وسطية جامعة بين مادة خالية من الوعى والإرادة، وبين روحية

ملائكية بريئة متمحضة فى إرادتها للخير، وهذا المعنى الجامع فى الإنسان بين المادة والروح كان من ثمراته الوعى، والروحية، والإرادة المهيئة للاختيار بين السمو إلى أفق الملائكة، وبين الهبوط إلى عالم الماديات، ولقد أهلَّه لهذه المهمة ما أودع الله فيه من قدرات ومهارات، أهمها العقل الذى هو مناط التكليف، لما خص به من قدرة على الاستيعاب لما هو غائب عن الإنسان من الحقائق. وهو ما تتحقق به السيطرة على البيئة الكونية، إذ يستطيع الإنسان بفضل هذه القدرات أن يكيف حياته فى منع ما يضره واستثمار ما ينفعه، وهى عملية قابلة للاطراد لدى الإنسان لإنجاز الخلافة فى الأرض، وهى الغرض من الوجود»[٣٧].

ونظرة القرآن إلى الإنسان - كما نرى - قائمة على أساس حفظ كرامة الإنسان، مخلوقا ومفكراً ذا إرادة يريد، ويختار، ويحس. والمنهج العلمى الذى عرف به المسلمون مستمد من القرآن، ومن دعوته إلى النظر بتأمل وتدبر فى هذا الكون وذلك بإعمال العقل، والاستدلال بالبراهين[٣٨].

فلقد دعا القرآن العقل البشرى فى آيات كثيرة إلى النظر فى نفسه، وفى ما فى هذا الكون من مخلوقات، قال تعالى : **﴿قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض﴾**[٣٩].

وقال : **﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾**[٤٠].

وقال عز وجل، مبينا آلاءه ونعمه المسخرة لبنى الإنسان :

﴿الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ● وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ● وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[٤١].

نعمة الخلود:

يقول عباس محمود العقاد، وهو يعلق على الأيديولوجيا المختلفة: «إن أجوبة الأيديولوجيات على أسئلة الإنسان مهما تكن فهى أجوبة العصر التى تحل المشكلة الزمنية، ولا يتعداها إلى مشكلة الأبد، مشكلة ما مضى، وما يأتى إلى

غير نهاية، ولا جواب لهذه المشكلة غير العقيدة الإسلامية[٤٢]، ذلك لأن نظرة الإسلام قائمة على حَثِّه على الإقبال على الحياة والجد فيها، لأن الوجود كلٌ لايتجزأ، والإنسان موجود فى هذه الأرض للاضطلاع بمهمة، وسوف يُسأل عن عمره فيما أفناه. قال تعالى :**﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾**[٤٣].

ولم تعد حياة الإنسان أحقابا تائهة فى بحر الزمان تثير مشاعر الفقدان والحسرة على الأيام الخالية، فقد جعل القرآن الكريم لكل ما تم من الأفعال فى الدنيا كتابا محفوظا فى سجل الأعمال ليوم الحساب قال تعالى : **﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾**[٤٤].

وقال عز من قائل : **﴿إنا نحن نحى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين﴾**[٤٥].

فالقرآن الكريم فى معظم سوره وسياقاته يربط الواقع بالغيبيات، ويلبى حاجة الإنسان إلى البحث عن الحقيقة، إلى الصراع مع عوامل الهدم، على العمل الدائم للتغيير نحو الأفضل، إلى معطيات الأمن والاستقرار، إلى فردوس يحقق الأمن والاستقرار للذات التى فقدت الأمن والاستقرار[٤٦].

وانتفاء العدم فى حق الإنسان هو فى حد ذاته تكريم له، لما فى العدم من النقص، ولما فى الوجود من الكمال، وفى ذلك يقول حكيم المعرة أبو العلاء المعرى:

خلق الناس للبقاء فظلت — أمة يحسبونهم للنفاد

إنما ينقلون من دار أعمال — إلى دار شقوة أو رشاد

ضجعة الموت رقدة يستريح ال — جسم فيها والعيش مثل السهاد

بهذه المنة الإلهية نعمة الخلود والاطمئنان ينقذ القرآن البشرية مما تقع فيه من إفلاس روحى، ومن استهلاك للذات، وتهالك على الملذات، واستخفاف بالنفس.

الهوامش :

(١) انظر المحاضرة التى قدمناها لدى المجلس الإسلامى الأعلى بالجزائر فى موضوع «الديمقراطية بين نزعة الالتفاف وحتمية الاختلاف» (مايو ١٩٩٨).

(٢) سورة فصلت: ٥٣.

(٣) عباس محمود العقاد «الإنسان فى القرآن» ص ١٦ وما بعدها. دار نهضة مصر، القاهرة.

(٤) سورة البقرة: ٣٠ - ٣٣.

(٥) سيد قطب «فى ظلال القرآن» ٥٦/١ وما بعدها. دار الشروق، القاهرة.

(٦) سورة الحجرات: ١٣. (٧) سورة النساء: ١.

(٨) سورة فاطر: ١٥. (٩) سورة البقرة: ٢١.

(١٠) سورة آل عمران: ٢-٣.

(١١) سورة المائدة: ٨. (١٢) سورة الأحزاب: ٧٢.

(١٣) عودة الواصل سياد الحكيم ص ١٤٣، مؤسسة دندرة للدراسات ط : ١٩٩٤ بيروت.

(١٤) سورة الانفطار: ٦-٨. (١٥) سورة التين: ٤.

(١٦) سورة النساء: ٢٨. (١٧) سورة الإسراء:١١.

(١٨) سورة الكهف: ٥٤. (١٩) سورة يوسف: ٥.

(٢٠) سورة الفرقان: ٥٤.

(٢١) سورة الكهف: ١١٠، وسورة فصلت:٦.

(٢٢) سورة الأنبياء: ٣٤. (٢٣) سورة مريم: ١٧.

(٢٤) سورة الإسراء :٩٣. (٢٥) سورة المائدة: ١٨.

(٢٦) سورة الأعراف: ٣١. (٢٧) سورة الأعراف: ٢٧.

(٢٨) سورة الإسراء ٧٠. (٢٩) سورة الأعراف: ٣٥.

(٣٠) سورة الذاريات: ٥٦. (٣١) سورة النمل: ١٧.

(٣٢) انظر «فى ظلال القرآن» سيد قطب ٢ /٨٧٧-٨٧٨، وانظر «تفسير التحرير والتنوير» لمحمد الطاهر بن عاشور ١٧٩/٦. الدار التونسية.

(٣٣) سورة الروم: ٢٢. (٣٤) سورة الممتحنة: ٨.

(٣٥) إشارة إلى قوله تعالى :**﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾** البقرة ١٧٨.

(٣٦) راجع الخصائص العامة للإسلام د. يوسف القرضاوى ص ٩٨ - ٩٩.

(٣٧) عن «مبدأ الإنسان» بتصرف د. عبدالمجيد النجار. ص : ٥٩ دار الزيتونة للنشر ١٩٩٦، الرباط المملكة المغربية.

(٣٨) قيمة الإنسان د. عبدالمجيد النجار، ص : ٢٢ - ٢٣ دار الزيتونة ١٩٩٦ الرباط - المغرب.

(٣٩) سورة يونس: ١٠١. (٤٠) سورة الذاريات: ٢١.

(٤١) سورة إبراهيم :٣٢ - ٣٤.

(٤٢) الإنسان فى القرآن الكريم، ص : ٥.

(٤٣) سورة المؤمنون: ١١٥. (٤٤) سورة الكهف: ٤٩.

(٤٥) سورة يس : ١٢. - وانظر كتابنا «الزمن فى القرآن الكريم» ط : دار الفجر القاهرة ١٩٩٧.

(٤٦) فصول اللغة والأدب، عبدالكريم بكرى، ص : ٧٧.

الإنسان كما تحدث عنه القرآن

الأستاذ الدكتور/ عبد الرزاق عبد الرحمن السعدى

رئيس جمعية الآداب الإسلامية

عميد كلية المعارف الجامعة - بغداد - العراق

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد النبى الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الهداة المهتدين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فهذا البحث بعنوان: «الإنسان كما تحدث عنه القرآن» مقدم إلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى مؤتمره الرابع عشر المنعقد بالقاهرة فى المدة ٢٠-٢٣/٥/٢٠٠٢م.

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: «إن القرن العشرين سينتهى بما استحدث من مبادئ ومذاهب وأيدولوجيات، ولا ينتهى ما تعلَّمه أهل القرآن من القرآن... الإنسان فى عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله... يدين بعقله فيما رأى وسمع ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب فلا تدركه الأبصار والأسماع، والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد؛ أفضلها من عمل حسناً واتقى سيئاً وصدق النية فيما أحسنه واتقاه...»(١).

لم يذكر القرآن الكريم صنفاً من المخلوقات كما ذكر الإنسان، فقد ذكره فى مواضع عديدة وفصّل القول فيه ابتداءًا من قبل أن يرى نور الدنيا وإلى أن

يستقر فى مكان الخلود الأخروى، وذكر الإنسان بغاية الحمد وغاية الذم فى آيات متعددات أو فى آية واحدة. فالإنسان يحمد فى حال كماله، ويذم فى حال نقصانه؛ لأنه مخلوق للخير وللشر بما أوتى من إرادة وعقل وتفكير؛ لذلك كان المخلوق الوحيد الذى حمل الأمانة بكل ما تحمله من معنى بعد أن أشفق منها كل مخلوق، وخاف من حملها وتبعاتها كل سماء وأرض وجبل، فأصبح الإنسان بهذا الحمل من أعظم مخلوقات الله، لكنه لم يدرك عظمته ومسئوليته فكأنه جاهل بمكانته ظالم لقدر نفسه، قال تعالى: **﴿إنا عرضْنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأَبَين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ (سورة الأحزاب: ٧٢).**

وقد حاول أعداء الإسلام أن يُشَوِّشوا صفاء التشريع الإسلامى، ويخلطوا السم بالدسم، ويقلبوا الحق باطلاً والباطل حقاً، فقالوا فى الإسلام زورًا وكذبًا تجاه الإنسان، فتصدى طائفة من علماء المسلمين لمواجهة هذا الزحف الحاقد، فأثبتوا بالدليل القاطع والبرهان الساطع نزاهة الإسلام ونصاعته فى إعلاء شأن الإنسان.

وبما أن القرآن الكريم هو الأساس الأول للتشريع الإسلامى، وهو الكتاب الإلهى الذى مجَّد الإنسان وكرّمه؛ انعقدت الرغبة فى بحث الإنسان من خلال آيات القرآن الكريم فكان هذا البحث.

ولا أدعى أنه أول بحث فى موضوعه بل هو مسبوق بعديد من البحوث والمؤلفات مع فارق الأسلوب والمنهج.

سائلاً الله تعالى التوفيق والسداد فيما نقول ونفعل.

تعريف الإنسان

١ - **فى اللغة:** أصله: إنسيان على وزن إفعلان ثم حذفت الياء لكثرة الاستعمال فقيل: إنسان، فإذا صَغَّروا الكلمة ردوا الياء فقالوا: أنيسيان؛ لأن التصغير يرد الأسماء إلى أصولها(٢).

ويرى الجوهرى: أن وزن إنسان فعلان وإنما زيد فى تصغيره ياء فقيل أنيسيان كما زيد فى تصغير رجل فقيل رويجل وهو تصغير شاذ على غير قياس لأن القياس أنيسان(٣).

والإنسان يكون للواحد والاثنين والجمع والمؤنث بلفظ واحد، قال تعالى: **﴿إن الإنسان لفى خسر﴾**(٤) ، فيقال: هذا إنسان وهذه إنسان، ولا يقال: إنسانة إلا على لغة العامة، وقالوا فى جمعه: أناسين، مثل: بستان وبساتين.

وقد روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: «إنما سمى الإنسان إنسانًا؛ لأنه عهد إليه فنسى»(٥).

قال أبو منصور: «إذا كان الإنسان فى الأصل إنسيان فهو إفعلان من النسيان»(٦) لأن فعله نسى ينسى.

والناس جمع وأصله الأناس والواحد إنسى، وقيل: الأناس لغة فى الناس.

وقالوا فى لغة: النات بإبدال السين تاء.

وقالوا فى لغة: الإيسان بإبدال النون الأولى ياء وهى لغة طائية.

والإنس: جماعة الناس.

والأَنَس : بفتح الهمزة والنون ـ مصدر خلاف الوحشة يقال: أنِست به - بكسر النون ـ أنساً وأنسة، ويجوز فتح النون فى الفعل فيقال: أنَس.

ويقال: استأنس الوحشى إذا أحس إنسياً.

وقيل: كل عضوين من الإنسان إذا كانا مقبلين على الإنسان فهو إنسى، وإذا كانا مدبرين فهو وحشى، مثل: الساعدين والزندين والقدمين(٧).

ويجمع إنسى على أناسى مثل: كراسى، ويجوز تخفيف الياء، قال تعالى: ﴿وأناسى كثيراً﴾[8].

والإنس: البشر، والواحد: إنسى وأنسى بفتح النون وهم بنو آدم.

٢ - الإنسان فى المنطق:

قال علماء المنطق: (الإنسان حيوان ناطق)[9] ، ويعنون بالحيوان : الحياة القائمة فيه، وبالناطق : المفكر والعاقل الذى يدرك الأشياء على حقيقتها.

٣ - الإنسان فى القرآن والسنة:

لم يَرِد فى القرآن والسنة النبوية تعريف للإنسان بالمعنى العلمى المقرر للتعاريف، لكنهما تحدثا عن حقيقة الإنسان، وأصل تكوينه، ومراحل تخليقه، وأطوار حياته، منذ الولادة وإلى الانتقال إلى العالم الآخر بالموت، وتحدثا عما عليه الإنسان بعد موته إلى أن يستقر فيما قدر له من نعيم أو عذاب.

القرآن وأصل خلق الإنسان

ذكر القرآن الكريم حقيقة خلق الإنسان وأصل تكوينه فى أكثر من آية قرآنية بأساليب متنوعة: اختصاراً وإطناباً وتصريحاً وتلميحاً بأن أصله من تراب انتماء إلى أبى البشر آدم - عليه الصلاة والسلام - الذى بدأ الله - تعالى - خلقه من طين، ثم تحول بإرادته وقدرته سبحانه وتعالى إلى صورته الحسنة المتميزة عن غيرها من الكائنات الحية.

وفيما يلى طائفة من تلك الآيات القرآنية:

قال تعالى: **﴿إن مَثَلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾** (سورة آل عمران: ٥٩) التشبيه واقع على أن عيسى خلق من غير أب كآدم الذى خلق من تراب[10] ولا أب له.

وقال سبحانه: **﴿هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجلٌ مسمًى عنده ثم أنتم تمترون﴾** (سورة الأنعام: ٢) ومعنى تمترون: تجادلون فى قدرة الله تعالى على البعث واستحقاقه وحدة العبادة، وتشُكُّون فى أنه إله واحد[11].

وقال تعالى: ﴿**قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين**﴾ (سورة الأعراف: ١٢).

قال إبليس ذلك معتقداً أن النار التى خلق منها أشرف من الطين الذى خلق منه آدم[١٢].

وقال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون • والجان خلقناه من قبل من نار السموم • وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون**﴾ (سورة الحجر: ٢٦، ٢٧، ٢٨).

الصلصال: الطين الحر خلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جف أى له صوت إذا نقرته كما يصوت الحديد، والحمأ: الطين الأسود، والمسنون: المتغير، فهو فى أول أمره تراب متفرق الأجزاء ثم بُلَّ فصار طيناً ثم ترك حتى أنتن فصار حمأ مسنوناً أى متغيراً ثم يبس فصار صلصالاً نفاذاً طبخ فى النار فهو الفخار[١٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال ءأسجد لمن خلقت طينا**﴾ (سورة الإسراء: ٦١) أى لمن خلقته من طين.

وقال جل شأنه: ﴿**قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا**﴾ (سورة الكهف: ٣٧).

وقال تعالى: ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**﴾ (سورة طه: ٥٥).

والضمير فى قوله: «منها» يعود على الأرض فى الآية السابقة وهى قوله تعالى: ﴿**الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا ....**﴾.

وقال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب..**﴾ (سورة الحج: ٥).

وقال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين**﴾ (سورة المؤمنون: ١٢).

والسلالة: فعالة من السَّل وهو: استخراج الشيء، فآدم استل من الطين، وابن آدم استل من طين ومَنِيّ، وقيل: سلالة الطين هو: الخالص الذى يخرج من بين أصابعك إذا عصرته[١٤].

وقال تعالى: **﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾** (سورة الروم: ٢٠) أى خلق آباكم من تراب والفرع كالأصل[١٥].

وتنتشرون: تتصرفون فى عبادتكم ومعاشكم.

وقال تعالى: **﴿الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين﴾** (سورة السجدة: ٧).

وقال تعالى: **﴿والله خلقكم من تراب....﴾** (سورة فاطر: ١١).

وقال عز وجل: **﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾** (سورة الصافات: ١١).

واللازب: اللاصق واللازق الذى لصق بعضه ببعض ولزق بما أصابه لأنه طين حر، وقيل: هو اللزج، وقيل: الخالص، وقيل: المنتن[١٦].

وقال تعالى: **﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين﴾** (سورة ص: ٧١).

وقال تعالى: **﴿قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾** (سورة ص: ٧٦).

وقال سبحانه: **﴿هو الذى خلقكم من تراب﴾** (سورة غافر: ٦٧).

وقال تعالى: **﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾** (سورة الرحمن: ١٤).

الصلصال: هو الطين اليابس الذى يسمع له صلصلة يشبه الفخار وهو الطين المشوى بالنار[١٧].

إن كل ما تحدث به القرآن الكريم عن هذا الكائن البشرى حق ثابت لا ريب فيه، وقد أثبت العلم الحديث أن الإنسان مخلوق من طين أو تراب؛ وبذلك يكون القرآن الكريم قد سبق العقل البشرى إلى ذكر هذه الحقيقة، وبيَّنها بيانًا شافيًا لا يدع مجالاً لتأويل أو تشكيك.

وقد ذهب العلماء الباحثون إلى أن تركيبة الإنسان الجسدية تشتمل على عناصر كلها من مركبات الأرض وهي:

الكربون ـ الأوكسجين ـ الهيدروجين ـ الفوسفور ـ الكبريت ـ الكلور ـ المغنيسيوم ـ الحديد ـ المنجنيز ـ النحاس ـ اليود ـ الفلورين ـ الكوبالت ـ الزنك ـ السلكون ـ الألومنيوم[١٨].

يقول الدكتور/ السباعى حماد، الأخصائى فى التشريح والأنسجة والأجنة: (يشكل الماء نسبة ٥٦٪ من وزن الإنسان العادى غير البدين، وهذه النسبة تعود بكاملها إلى وزن عنصرى الهيدروجين والأوكسجين المكونين لذلك الماء، وإذا جف الجسد البشرى تماماً بعد موته ـ كأن يكون فى صحراء رملية جافة مثلا ولفترة طويلة ـ فإنه يبقى من وزنه الأصلى ٤٤٪ وهو الجزء الذى لو تم طحنه لتحول إلى تراب)[١٩].

وللعلماء بيان عن المقادير النسبية لبعض العناصر فى جسد الإنسان وهو على النحو الآتى: ماء يصل إلى ٦٨٪، بروتين يصل إلى ١٥٪، رماد يصل إلى ٥٪، مواد نشوية ٥, ٠٪. دهن ١٣٪.

أما المقادير الكمية فيحتوى جسم الإنسان من الملح ما يعادل ست ملاعق صغيرة، ومن السكر ما يعادل ملء كوب متوسط، ومن الحديد ما يكفى لصنع أربعة مسامير من وزن الخمسة عشر جراماً، ومن الفوسفات ما يكفى لملء بالون يحمل جسداً وزنه ٦٧ كيلو جراماً فوق الغيوم، أما الدهن الموجود فى جسد الإنسان فإنه يكفى لصنع ٧٥ شمعة مع قطعة صابون من الحجم الكبير، وأما البروتين فإنه يعطى من الغذاء ما يعادل مائة دزينة من البيض، وأما الماء فإنه يعطى ما يعادل ٣٩ لتراً[٢٠].

فسبحان من خلق من الطين بشراً سوياً، وسبحان من أنزل على رسوله محمد ﷺ كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتعارض مع الحقائق العلمية التى اكتشفها العقل البشرى مؤخراً بعد أن جاءت فى كتاب الله المجيد مفصلة واضحة، وسبحان من كَرَّم الإنسان بحسن الخلق وجمال المنظر وعدالة الهيئة.

القرآن وأطوار الإنسان الجنين

بعد أن علمنا ما مَرّ من آيات قرآنية أثبتت أن أصل الإنسان من تراب وطين لازب؛ نجد أنفسنا أمام آيات محكمات تُفَصِّل المراحل التى يمر بها الإنسان حين تخليقه وقد أُطلق على ذلك حديثاً (علم الأجنة).

قال تعالى: ﴿**ما لكم لا ترجون لله وقاراً • وقد خلقكم أطواراً**﴾ (سورة نوح: ١٣ ، ١٤)، وقد جاء ذكر الأطوار الجنينية مفصلة فى القرآن الكريم، وهى حقائق علمية اكتشفها الإنسان مؤخراً وبنى دراسته عليها.

الحقيقة الأولى ـ أن القرآن الكريم قرر بجلاء أن الإنسان هو نتاج الأبوين من ذكر وأنثى فى قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى**﴾ (سورة الحجرات : ١٣).

والحقيقة الثانية ـ أن الإنسان نتاج نطفة أمشاج أى مزيج وخليط من نطفة الأب ونطفة الأم، قال تعالى: ﴿**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج**﴾ (سورة الإنسان: ٢).

والحقيقة الثالثة ـ أن الإنسان يكون من نطفة تمنى. ذلك السائل المنوى الدافق الذى يخرج من صلب الرجل وفقرات ظهره، ومن ترائب المرأة وأضلاعها، قال تعالى: ﴿**فلينظر الإنسان مِمَّ خلق • خلق من ماء دافق • يخرج من بين الصلب والترائب**﴾ (سورة الطارق: ٥، ٦، ٧).

والحقيقة الرابعة ـ أن النطفة الممزوجة من ماء الذكر والأنثى تستقر فى قرار مكين وهو الرحم وجداره الداخلى الذى يتخلق فيه الجنين ويحافظ عليه حفاظًا شديدًا وقويًا؛ ليستقر الجنين وينمو على أحسن ما يرام، قال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين • ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين**﴾ (سورة المؤمنون: ١٢ ، ١٣).

والحقيقة الخامسة ـ أن الجنين يستقر فى رحم الأم محميًا بثلاثة حواجز وهى: الظلمات الثلاث الضرورية لنمو الجنين فى الرحم عكس النور، قال تعالى: ﴿**يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقامن بعد خلق فى ظلمات ثلاث**﴾ (سورة الزمر: ٦).

وهى: ١ ـ جدار البطن. ٢ ـ جدار الرحم. ٣ ـ أغشية الجنين.

والحقيقة السادسة ـ أن النطفة المنوية تنتقل إلى دور العلقة، ثم إلى دور المضغة، ثم تبدأ خلايا العظام وتمام الهيكل العظمى الغضروفى للجنين، ثم تكسى العظام لحمًا، فيتسارع الجنين فى النمو المطرد مع تعديل وتنسيق أجهزة الجسم بصورة أكمل، فيتغير الخلق خلقًا بعد خلق بتنسيق ربانى لطيف، فتتميز الأطراف والأصابع، وينشأ الشعر فى الجلد، وتنزل الخصيتان تدريجيًا وكذلك المبيضان فى الأنثى، ويبدأ الجنين بالحركة الذاتية، قال تعالى: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين • ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين • ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾** (سورة المؤمنون: ١٢، ١٣، ـ ١٤).

والحقيقة السابعة ـ تيسير السبيل لولادة الجنين وخروجه من رحم أمه، وتعد ولادة الطفل عبر مضيق ضيق وممر ملتو معجزة ربانية وسعت الطريق ويسرت السبيل، قال تعالى: **﴿قُتِلَ الإنسان ما أكفره • من أى شىء خَلَقَه • من نطفة خلقه فقدره • ثم السبيل يسره • ثم أماته فأقبره﴾** (سورة عبس: ١٧ ، ٢١).

إن هذه الحقائق القرآنية مطابقة لأدوار الجنين فى تسلسلها الطبيعى الذى اكتشفه علم الأجنة الحديث، وفى ذلك إثبات قاطع بأن القرآن من عند الله وأنه كرّم الإنسان واعتنى به وهو جنين عناية فائقة بدأت من دور النطفة وحتى الولادة.

القرآن والإنسان الطفل الرضيع

وُلد الإنسان مفارقًا رحم أمه ليبصر نور الدنيا بعد أن مر فى مراحل وأطوار تحدث عنها القرآن الكريم بأساليب متنوعة سبق ذكرها.

لقد أصبح الإنسان فى مرحلة الطفولة يحتاج إلى رضاع يدر عليه لبنًا يغذى جسمه الضعيف، وهى مرحلة هامة وأساسية تنعكس فيها صحة الإنسان سلبًا أو إيجابًا؛ لذلك اهتم القرآن بها أيما اهتمام وأفرد للرضاع آيات عديدة تبين أهميته ووجوبه ونتائجه وحكمه.

فإرضاع الطفل واجب لا يقبل التساهل أو الزيغ؛ لأن فى إرضاعه حياة له، قال تعالى: **﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾** (سورة البقرة : ٢٣٣) وإن نضب لبن الأم فقد وجب على الوالد أن يجد لطفله ظئرًا (مرضعة) ترضعه وتغذيه بلبنها نيابة عن الأم الأصلية نظير مال يقدم إليها من حساب الوالد، قال تعالى: **﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾** (سورة البقرة: ٢٣٣)، وإذا نضب اللبن وانعدمت المراضع أمكن للوالد أن يهيىء للطفل غذاءه من أى مصدر صالح للغذاء بعيد عن التلوث.

وإذا وقع الطلاق بين الزوجين وكان لهما طفل رضيع فلا يعقل أن يضيع الطفل ويترك هملاً بدون عناية وغذاء، فقد أوجب القرآن على الوالد أن يهيىء لولده الرضاع سواء من أمه أو مرضعة أخرى غير أمه بأجور مالية، يدفعها إلى الأم المطلّقة أو المرضعة الأجنبية.

قال تعالى: **﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وَأْتَمِرُوا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾** (سورة الطلاق: ٦).

كما أوجب القرآن أن يتم التعامل فى موضوع الرضاع بالمعروف والمودة والتفاهم والخلق الرفيع، قال تعالى: **﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلَّمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾** (سورة البقرة: ٢٣٣).

إن هذه النبذة الموجزة عن تشريع الرضاع بحق الطفل الرضيع تنبئ عن صورة مشرفة وكاشفة عن حرص الإسلام على الإنسان فى هذه المرحلة، وهى مرحلة يكون فيها الإنسان طفلاً معدم الإرادة والقدرة والتصرف، فهو مجرد أمانة كبيرة فى ذمة أبويه مجتمعين أو متفرقين.

القرآن والإنسان الطفل الصغير

جاءت عناية القرآن الكريم بالإنسان الطفل عناية عظيمة بالغة؛ لأنه النواة لقيام المجتمع والأساس لتكوين الأسرة.

فإن القرآن الكريم اعتنى بمراحل الإنسان جنيناً، ورضيعاً، وطفلاً، صغيراً، وحدَّد لكل مرحلة زمنها ابتداءً وانتهاءً، وكان لسن الطفولة فى القرآن الكريم إشارة واضحة نستظهر منها أن الطفولة مرحلة متقدمة من بداية العمر، ليست للإنسان فيها درجة كافية من الإدراك والوعى، يتحمل بموجبها المسئولية والجزاء وهى مرحلة تبدأ بالولادة حتى الاحتلام.

قال تعالى: **﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾** (سورة النور: ٥٩).

فالاحتلام يحول الطفولة إلى بداية مرحلة أخرى من حياة الإنسان وقبلها يكون طفلاً غير محاسب ولا مسئول لأنه دون سن الرشد.

قال تعالى: **﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾** (سورة النور: ٣١).

وقال تعالى: **﴿ونُقِرُّ فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً﴾** (سورة الحج: ٥).

إن الإسلام اهتم بمرحلة الطفولة من حياة الإنسان لما لها من أهمية فى مقتبل عمره تحدد مستقبله ونوعيته، فإما صحة النفس وسلامتها من المعايب والشوائب، وإما سقمها وانحرافها.

ولذلك ذكر علماء النفس أن كل ما يعانيه الإنسان من العقد والآلام النفسية بعد البلوغ ما هو إلا حصائل طبيعية نتجت عن ألوان المعاناة والمرارة التى كان يتجرعها فى مرحلة الطفولة.

ومن هنا تأتى أهمية الدور الذى يقوم به الآباء والأمهات والمربون الذين يتولون عملية التربية للأطفال.

لذلك وجه القرآن الكريم نداءً مؤثرًا لهؤلاء أن يدرءوا عن أنفسهم وأولادهم عذاب النار بحسن التربية والابتعاد عن مهاوى الرذيلة.

قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾** (سورة التحريم: ٦). وفى السنة النبوية شواهد كثيرة تبين طريقة رسول الله ﷺ فى تربية الأطفال وتوجيههم بأمانة وحسن رعاية، وفى الحديث الشريف: «ما نحل والد ولدًا أفضل من أدب حسن».

القرآن والإنسان فى مرحلة الشباب

مرحلة الشباب فى الإنسان مرحلة تكتمل فيها خصائص شتى من قوة الجسد والإرادة والعزيمة ولهيب الوجدان وفوران العاطفة.

لذلك كان الشباب هم حملة لواء الإسلام والدعاة إليه فى نشاط وبذل وحماسة؛ تلبية لنداء الرسول محمد ﷺ بعد أن استمعوا لدعوة الله، وتأثروا بكلمات القرآن تأثيرًا شديدًا.

وقد سجّل التاريخ الإسلامى عددًا من البطولات لشباب عظماء خالدين، حملوا لواء الإسلام كالإمام على بن أبى طالب، وحمزة بن عبد المطلب، ومصعب ابن عمير، وأبو دجانة، وشهداء مؤتة الثلاثة الذين قادوا المعركة فى محاربة الروم المعتدين وغيرهم كثير.

إن للشباب التقى النقى عند الله منزلة ليست للشيخ، وذلك لما يلاقيه الشاب من عنت المواجهة مع الشهوات والمغريات لذلك كان الشاب الناشئ فى عبادة الله ممن يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وقد أثنى القرآن الكريم على أولئك النفر من الفتية المؤمنين الذين آمنوا بربهم فزادهم الله نورًا وهدايةً بعد أن هجروا الأهل والصحب والعشرة والوطن مهاجرين بدينهم وعقيدتهم، تاركين بلاد الكفر والطغيان. أولئك هم أصحاب الكهف الذين قال فيهم سبحانه: **﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾** (سورة الكهف: ١٣).

القرآن والإنسان فى مرحلة الشيخوخة

قرر القرآن الكريم والسنة النبوية اعتباراً خاصًا للإنسان فى مرحلة الشيخوخة، فإن الإنسان الشيخ الذى امتدت به الأيام والسنون وبلغ من العمر عتيًا واشتعل رأسه شيبًا، وأدى ما عليه من الواجبات تجاه المجتمع، له من الكرامة والإجلال ما ليس لغيره من الصبيان والفتية، إلا أن تكون الشيخوخة متمردة غير مشفوعة بشىء من الورع والتقوى والالتزام الأخلاقى. وقد أحاط القرآن والإسلام الشيخ المسنَّ بوافر العناية وبمزيد من التكريم والاحترام، وجعل ذلك لونًا من ألوان العبادة التى يثيب الله تعالى بها عباده المؤمنين.

وفى القرآن الكريم آيات تشير إلى وجوب تكريم الكبار المسنين وضرورة العطف عليهم وحسن التعامل معهم، فقد تحدث القرآن عن الشيخ صاحب موسى ﷺ فى مدين حيث قرر موسى أن يخدم الشيخ ثمان سنوات، ثم ينكحه إحدى ابنتيه، وذلك حين دعا الشيخ موسى ليقدم له أجر سقايته لبنتيه.

قال تعالى: **﴿وَلَمَّا وَرَدَ ماء مدين وجد عليه أمةً من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير﴾** (سورة القصص: ٢٣).

وفى قصة نبى الله يوسف ﷺ ما يدل على رعاية الكبير المسنَّ واحترام مشاعره وأحاسيسه، وذلك لما أراد يوسف حبس أخيه عنده حزن إخوته وأحسوا بحرج عظيم، فذكروه بأبيه الشيخ الكبير عسى أن يرق له قلبه ويلين ثم يرد إليهم أخاهم.

قال تعالى: **﴿قالوا يا أيها العزيز إنَّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين﴾** (سورة يوسف: ٧٨).

إن اعتبارات عديدة دعا فيها القرآن الكريم إلى منح الشيخ المسن رعاية خاصة ومعاملة حسنة فأشار القرآن إلى أن المشيب ضعف يلحق الإنسان بعد قوة الشباب وحيوية الفتوة، قال تعالى: **﴿الله الذى خلقكم من ضعفٍ ثم جعل من بعد ضعفٍ قوةً ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبةً يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾** (سورة الروم: ٥٤).

لذلك بث نبى الله زكريا همومه وحالة ضعفه إلى الله تعالى طالبًا منه العون والمدد فكانت الشيخوخة سببًا فى إجابة الدعاء، قال تعالى: **﴿إذ نادى ربه نداء خفيا • قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا﴾** (سورة مريم: ٣ ، ٤).

إن الشيخوخة الطاعنة فى السن هى أرذل العمر الذى تحدث عنه القرآن الكريم، قال تعالى: **﴿ومنكم من يُتَوفَّى ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العُمُر﴾** (سورة الحج: ٥).

إن هذه مراحل الإنسان الذى كرمه الله تعالى وأحاطه فى كتابه المجيد بسياج من الرعاية والحفظ والتشريع الذى يضمن له حياة سعيدة سوية.

القرآن والإنسان: الذكر والأنثى

اقتضت إرادة الله تعالى أن يتنوع الإنسان إلى ذكر وأنثى؛ لضرورة استمرار الحياة ونمو الجنس البشرى، فأصبح كل جنس مكملاً للآخر دون أن يستغنى جنس أحدهما عن جنس الآخر، وقد ساوى الإسلام بين الذكر والأنثى فى التكريم والرعاية والحقوق والواجبات، وجعل لكل من الجنسين أحكامًا تناسب طبيعة ذلك الجنس حتى تتوزع المسئوليات، وينطلق كل جنس إلى مهمته، فتكتمل عناصر ديمومة الحياة.

وقد ركّز القرآن الكريم تركيزًا دقيقًا على بيان أهمية الذكر والأنثى، وضرورة وجودهما، وتساويهما فى الثواب والعقاب.

ففى مجال الخَلق والتكوين كلاهما مخلوق لله تعالى ومصان الحقوق على حد سواء، قال تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** (سورة الحجرات: ١٣)، وقال تعالى: **﴿أيحسب الإنسان أن يُترك سُدًى • ألم يَكُ نطفة من منى يمنى • ثم كان علقة فخَلَقَ فسوّى • فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾** (سورة القيامة: ٣٦ ـ ٤٠)، وقال تعالى: **﴿وأنه خلق الزّوجين الذكر والأنثى﴾** (سورة النجم: ٤٥).

وَرَدّ الله رَدّا قـاسـيًـا على أولئك الذين فـرّقـوا بين الذكـر والأنثى فى المكانة والمنزلة فجعلوا الذكر فى المقام الأول وجعلوا الأنثى متخلفة دون ذلك مما حمل الكفـار على نسـبـة الإناث لله والذكـور لهم، فـقـال تعـالى: **﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾** (سورة النجم: ٢١).

ولقد جعل القرآن خلق الذكر والأنثى من الأمور المعظمة التى أقسم الله تعالى بها، فقال سبحانه: **﴿وما خلق الذكر والأنثى • إنّ سعيكم لشَتَّى﴾** (سورة الليل : ٣ ، ٤).

أمـا فى مجـال العمل والجـزاء عليه فإن الذكـر والأنثى فى ذلك سواء، قـال تعالى: **﴿فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾** (سورة آل عمران: ١٩٥).

وقال تعالى: **﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾** (سورة النساء: ١٢٤).

وقال تعالى: **﴿من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾** (سورة النحل: ٩٧).

وقال سبحانه: **﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب)** (سورة غافر: ٤٠).

وقد صحّح الله تعالى للسيدة أم مريم اعتقادها بفوارق بين الذكر والأنثى حين نذرت ما فى بطنها لخدمة بيت المقدس، فلما وضعتها أنثى تألمت اعتقادًا منها بأن الذكر ليس كالأنثى، فصحح الله لها ذلك بقوله تعالى: **﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسناً وكفّلها زكريا﴾** (سورة آل عمران: ٣٧).

وقد أثبت القرآن الكريم صفات كريمة للذكر والأنثى على حدٍّ سواء مقارناً بين الجنسين دون فوارق، فـقـال تعالى: **﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾** (سورة الأحزاب: ٣٥).

كما وجَّه القرآن التكليف إلى كل مؤمن ومؤمنة بطاعة الله ورسوله والابتعاد عن معصيتهما، فقال تعالى: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً**﴾ (سورة الأحزاب: ٣٦).

وجعل القصاص فى حق الذكر والأنثى متساويًا لأن كليهما كائن بشرى مخلوق لله تعالى، فقال سبحانه: ﴿ **كُتِبَ عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى**﴾ (سورة البقرة: ١٧٨).

وأخيراً فإن القرآن الكريم ذم الذين يفرقون فى التعامل بين الذكر والأنثى فى استبقاء الذكور وإزهاق أرواح الإناث كما فعل بعضهم قبل الإسلام من وأد البنات ودفنهن أحياء بالتراب، فقال تعالى: ﴿**وإذا الموءودة سُئلت • بأى ذنب قتلت**﴾ (سورة التكوير: ٨، ٩).

وقال تعالى: ﴿**وإذا بشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم• يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيمسكه على هون أم يدُسُّه فى التراب ألا ساء ما يحكمون**﴾ (سورة النحل: ٥٨، ٥٩).

وجعل القرآن جزاء العمل الصادر من الذكر والأنثى متساويًا، وجزاء التعامل معهما متعادلاً، لا فرق بين الجنسين فى ذلك.

قال تعالى: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض**﴾ (سورة التوبة: ٧١) ، وقال تعالى: ﴿**وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها..**﴾ (سورة التوبة: ٧٢).

وقال تعالى: ﴿**والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً**﴾ (سورة الأحزاب: ٥٨)، وقال سبحانه: ﴿**ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات**﴾ (سورة الأحزاب: ٧٣)، وقال سبحانه: ﴿**واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات**﴾ (سورة محمد: ١٩)، وقال سبحانه: ﴿**ليُدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار**﴾ (سورة الفتح: ٥)، وقال تعالى: ﴿**يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم..**﴾ (سورة الحديد: ١٢)، وقال تعالى على لسان نبى الله نوح: ﴿**رب**

اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات﴾ (سورة نوح: ٢٨)، وقال تعالى: **﴿إنّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾** (سورة البروج: ١٠).

وهكذا نجد عنصر مساواة الذكر والأنثى واضحًا فى كتاب الله المجيد على مستوى التكليف والتكريم والتكوين والجزاء ثوابًا أو عقابًا؛ وإن كان ثمة اختصاص فى بعض الأمور لكل جنس فذلك نابع من طبيعة تكون كل صنف، وتكليفه بما يناسبه هو مراعاة لمصالحه.

القرآن والإنسان: الابن والبنت

يطلق على الذكور من الذرية كلمة ابن وأبناء، وعلى الإناث بنت وبنات، وعلى كلا الجنسين ولد وأولاد.

وقد أولى القرآن الكريم عناية عظيمة بالأولاد ابتداءً من اختيار الزوج والزوجة اللذين سيكونان أمًا وأبًا وإلى أن يبلغ الأولاد رشدهم ويتحملوا مسئولياتهم، فقد عظّم القرآن الكريم الأولاد فأقسم الله تعالى بهم فى قوله سبحانه: **﴿لا أقسم بهذا البلد • وأنت حل بهذا البلد • ووالد وما ولد﴾** (سورة البلد: ١ - ٣) وذلك لأن حفظ النوع الإنسانى يكون باستمرار وجود الولد ذرية بعد ذرية.

وقد كفل القرآن حق الأولاد فى أموال آبائهم وأمهاتهم وإخوانهم فى حياتهم وبعد وفاتهم، وذلك من خلال الآيات التشريعية لمسائل الميراث والتى جاء معظمها فى سورة النساء كقوله تعالى: **﴿يوصيكم الله فى أولادكم للذَّكَر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف﴾** (سورة النساء: ١١).

وقد جعل القرآن الكريم الأولاد نعمة عظيمة من نعم الله على العباد؛ لأنه الناصر المعين لأهله وذويه، ولذلك حكى القرآن الكريم مشاعر العزيز تجاه الطفل

يوسف عليه السلام فى قوله تعالى: **﴿وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾** (سورة يوسف: ٢١).

وقصّ القرآن - أيضًا - مشاعر امرأة فرعون تجاه الوليد موسى عليه السلام بقوله تعالى: **﴿وقالت امرأة فرعون قُرَّتُ عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون﴾** (سورة القصص: ٩).

وشدّد القرآن النكير على من تعمد قتل الأولاد، ونهى عن هذا الفعل المشين وجعله من أعمال الكفر والشرك، ومن فعل ذلك فهو من الخاسرين، وجعل المحافظة على حياة الأولاد من صفات المؤمنين الصادقين والمؤمنات الصادقات.

فقال تعالى: **﴿وكذلك زُيِّنَ لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم﴾** (سورة الأنعام: ١٤٠).

وذكر القرآن عهد المؤمنات الذى تضمن بنودًا كثيرة منها عدم قتل الأولاد.

قال تعالى: **﴿يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن...﴾** (سورة الممتحنة: ١٢).

ورفض القرآن الكريم كل الذرائع التى تذرّع بها قاتلوا الأولاد وقاطعوا النسل من ذريعة الفقر والعار أو غيرهما.

فقال تعالى: **﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾** سورة (الأنعام: ١٥١).

وقال تعالى: **﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خِطأً كبيراً﴾** (سورة الإسراء: ٣١).

ولما للأولاد من أهمية فى حياة الآباء والأمهات، ولما قد يحصل من انحراف فى توجيههم أو الاغترار بهم، ولما قد يصل إليه الآباء والأمهات من الافتتان بكثرة الأولاد؛ حذّر القرآن الكريم منبهًا إلى هذه القضية الخطيرة.

فى قوله تعالى: ﴿**فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرًا**﴾ (سورة الكهف: ٣٤).

وقال تعالى: ﴿**ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولدًا**﴾ (سورة الكهف: ٣٩).

وقال تعالى: ﴿**أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولدًا**﴾ (سورة مريم: ٧٧).

وقال تعالى فى حق قوم نوح ﷺ: ﴿**واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا**﴾ (سورة نوح: ٢١).

وقال تعالى: ﴿**اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد..**﴾ (سورة الحديد: ٢٠).

وقال تعالى فى حق المتباهين المغرورين: ﴿**وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين**﴾ (سورة سبأ: ٣٥).

وقال تعالى: ﴿**وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحًا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون**﴾ (سورة سبأ: ٣٧).

وقال تعالى: ﴿**واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم**﴾ (سورة الأنفال: ٢٨).

وقال تعالى: ﴿**لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يَفْصِلُ بينكم والله بما تعملون بصير**﴾ (سورة الممتحنة: ٣).

وقال سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون**﴾ (سورة المنافقون: ٩).

وقد بيّن القرآن أن الأولاد قسمان: منهم من هو عدو لأبويه، ومنهم من هو زينة الحياة الدنيا وبهجة لأبويه.

فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم**﴾ (سورة التغابن: ١٤).

وقال تعالى: ﴿**لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا**﴾ (سورة آل عمران: ١٠) و(سورة المجادلة: ١٧).

وقال تعالى: ﴿**يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون • إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾ (سورة الشعراء: ٨٨، ٨٩).

وقال تعالى: ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**﴾ (سورة الكهف: ٤٦).

وقال تعالى: ﴿**زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين**﴾ (سورة آل عمران: ١٤).

إن القرآن الكريم احتفل بالأبناء والبنات وأبنائهم أيما احتفال، وطالب الآباء والأمهات بحسن التوجيه والتربية، حتى ينشأ جيل صالح تسعد به الحياة.

فقال تعالى: ﴿**والله جعل لكم من أنفسكم أزواجًا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات**﴾ (سورة النحل: ٧٢).

وامتن على بنى إسرائيل بالمال والبنين، فقال تعالى: ﴿**ثم رددنا لكم الكرة وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرًا**﴾ (سورة الإسراء: ٦).

وقال تعالى: ﴿**واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون • أمدكم بأنعام وبنين**﴾ (سورة الشعراء: ١٣٢, ١٣٣).

وجعل القرآن منح البنين من نتائج تقوى الله والإيمان به كما بشر نوح من آمن من قومه.

فقال تعالى: ﴿**ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً**﴾ (سورة نوح: ١٢).

لقد طالب القرآن الكريم الآباء والأمهات أن يقوموا تجاه أولادهم بحسن التوجيه والتربية؛ حتى ينشأ جيل صالح على الأخلاق الفاضلة والأدب الرفيع.

وذكر القرآن نماذج من ذلك كتوجيه لقمان لابنه فى سورة لقمان، ونصيحة نوح لابنه أيضًا فى سورة هود الآيات: (٤٢ - ٤٥)، ووصية إبراهيم ويعقوب أبناءهما فى سورة البقرة الآيات: (١٣٢ - ١٣٣)، ووصية يعقوب أبناءه بعدم الدخول من باب واحد وبالتفتيش عن أخيهم يوسف كما جاء فى سورة يوسف الآيات: (٥ ، ٦٧ ، ٧٨)، ودعاء إبراهيم لبنيه باجتنابهم عبادة الأصنام فى سورة إبراهيم: (٣٥).

إن القرآن اعتبر الأولاد أمراً تقر به العين إذا كانوا سالكين منهج الإيمان والتقوى، فقال تعالى: **﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذُرِّيَاتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾** (سورة الفرقان: ٧٤).

وجعل القرآن الإخبار بحصول الولد بشارة عظيمة.

فقال تعالى: **﴿وامرأته قائمة فضحكت فبَشَّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾** (سورة هود: ٧١).

وقال تعالى: **﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾** (سورة مريم: ٧).

وأخيرًا فإن الله تعالى تولى بنفسه توزيع منح الوالدين الذكور والإناث تكريمًا لهم لحكمة هو يعلمها سبحانه.

فقال تعالى: **﴿لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يَهَبُ لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور • أو يزوجهم ذُكرانًا وإناثًا ويجعل من يشاء عقيماً﴾** (سورة الشورى: ٤٩ ، ٥٠).

القرآن والإنسان: الوالد والوالدة

الوالدان أو الأبوان كلاهما موضع اهتمام القرآن الكريم بطريقة لا نظير لها فى العقائد والشرائع والكتب السماوية الأخرى.

فللأب والأم عناية واجبة ورعاية وتكريم لا يعول عليهما إلا الإيمان بالله تعالى.

قال تعالى: **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا﴾** (سورة النساء: ٣٦).

وقال سبحانه: **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا أياه وبالوالدين إحسانًا﴾** (سورة الإسراء: ٢٣).

وفى القرآن الكريم تفاصيل دقيقة فى منهج التعامل مع الوالدين من الكلام معهما بود وصوت منخفض مذعن والإنفاق عليهما حسب المستطاع واحترام مشاعرهما حتى ولو كانا كافرين. ولا يجوز الإساءة إليهما على أى حال من الأحوال بل إن أى كلمة تدل على التضجر منهما فهى من الذنوب، وطالب القرآن الكريم الدعاء لهما وخفض الجناح، قال تعالى: **﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً﴾** (سورة الإسراء: ٢٤).

القرآن والإنسان: الزوج والزوجة

أقام القرآن الكريم علاقة مقدسة شريفة نظيفة بين الذكر والأنثى على أساس تبادل الحقوق والواجبات، بإجراءات معينة وتوثيق بعقد فيه قبول وإيجاب وشهود ومهر، وأطلق عليهما الزوجان.

وجعل هذا الرباط المقدس آية من آيات الله تعالى؛ لأن الحياة السعيدة تكمن فيه، قال سبحانه: **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾** (سورة الروم: ٢١).

ولقد حقق القرآن الكريم عدالة مطلقة بين الزوجين فحمَّل الزوج مسئولية إكرام زوجته وعدم إيذائها بضرب أو غيره والإنفاق عليها بما يسد حاجتها وتوجيهها نحو عبادة الله تعالى لوقايتها من النار التى وقودها الناس والحجارة، قال تعالى: **﴿وَأمُر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾** (سورة طه: ١٣٢).

وقال سبحانه: **﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة﴾** (سورة التحريم: ٦).

القرآن والإنسان الجار

شأن الجار فى القرآن الكريم شأن عظيم، وقد راعى القرآن حقوق الجار، وأمر الجار أن يضطلع بأداء حقوق جاره، سواء كان مسلمًا أو غير مسلم إلا أن يكون محاربًا للمسلمين، فلا يقام له وزن، وليس له حقوق، وله حكم خاص به. فاحترام الجار والإحسان إليه من الأمور التى أمر الله بها، ونص عليها فى القرآن الكريم موضحًا أن رعاية الجار واجبة فى حق كل من له صفة الجوار، قريبًا كان أو أجنبيًا، مقيمًا كان فى جواره أو مفارقًا فى جواره كجوار العمل والسفر.

وأطلق القرآن احترام الجار فهو جار تجب رعايته فردًا كان، أو عائلة، أو قبيلة، أو دولة، أو يحمل أى وصف آخر.

قال تعالى: **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل﴾** (سورة النساء: ٣٦).

القرآن والإنسان اليتيم

اليتم فى الإنسان يعنى حالة الانفراد وفقدان الأب قبل سن البلوغ؛ لأن الإنسان فى هذا العمر صغير يحتاج إلى رعاية أبويه معاً، ويبقى للأب الدور الكبير فى حماية ولده وتربيته والحفاظ على حقوقه. فإذا فُقِدَ الأب أصبح الولد ذكرًا كان أو أنثى عرضة للأذى من ذوى الأطماع والشر.

لذلك أوصى القرآن الكريم باليتيم وصايا شديدة فى وجوب إحاطته الكاملة بالرعاية والاهتمام، وحذّر تحذيرًا كبيرًا من الاعتداء عليه فى ماله أو نفسه أو مشاعره.

وشدّد القرآن النكير على من آذى اليتيم أو أكل ماله أو سبه أو شتمه، وحمل حملة كثيفة على الذين يعتدون على اليتيم، وأمر الأوصياء على الأيتام أن يتحققوا من بلوغ الطفل ووصوله إلى مدارك الرجال واتصافه بالرشد حتى يدفعوا الأموال إليهم بأمانة.

قال تعالى: **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أَشُدَّهُ﴾** (سورة الأنعام: ١٥٢).

وقال سبحانه: **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا﴾** (سورة النساء: ١٠).

وقال سبحانه: **﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾** (سورة الفجر: ١٧).

القرآن والإنسان الضيف

وردت نصوص قرآنية تتحدث عن حق الإنسان وهو ضيف فله حق الضيافة وعلى المضيف واجب الإكرام والإنزال وحسن الاستقبال.

قال تعالى: **﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾** (سورة الذاريات: ٢٤).

فقد بين القرآن كرم نبى الله إبراهيم عليه السلام وبره بمن نزل عنده ضيفاً، وكذا الحال مع نبى الله لوط عليه عليه السلام كما جاء فى سورة هود.

القرآن والإنسان العامل

العمل هدف من أهداف الإنسان لإعمار الحياتين الدنيا والآخرة؛ لذلك اعتنى القرآن الكريم بالإنسان العامل، وحث على العمل، وجعل له جزاءً حسناً على ما يقدم من أعمال نافعة، ونهى عن ترك العمل والاكتفاء بالأقوال.

فقال تعالى: **﴿والعصر • إن الإنسان لفى خسر • إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾** (سورة العصر: ١-٣).

وقال تعالى: ﴿**وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى**﴾ (سورة الكهف: ٨٨).

وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون • كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾ (سورة الصف: ٢، ٣).

القرآن والإنسان العالم

دعا القرآن الكريم الإنسان إلى العلم والتزود من المعرفة، وجعل العلماء فى مرتبة الصدارة من المجتمع الإنسانى، ونفى المساواة بين العلماء والجهلة؛ لأن العلماء تظل قلوبهم تخشى الله وتذكره ذكرًا لا ينقطع.

قال تعالى: ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾ (سورة المجادلة : ١١).

وقال سبحانه: ﴿**قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾ (سورة الزمر: ٩).

وقال تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ (سورة فاطر: ٢٨).

القرآن والإنسان المجاهد

الإنسان الصالح المؤمن هو الذى يرفع الظلم، ويقف فى وجه الظالم، ويدافع عن الحقوق فى المال والنفس والعرض والوطن والدين، وهو الذى يصد المعتدين المتجاوزين على حقوق العباد، وذلك بالجهاد المقدس الذى يعالج حقوق الإنسان ويصد عنه الانتهاكات.

فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين**) (سورة التوبة: ١١٣).

إن مقاومة المعتدين لإنقاذ الحقوق واجب فطرى وشرعى، إذ ليس من نوازع

الإنسان، ولا من دينه، وعقيدته، أن تنتهك حرماته، وتهان مقدساته، وتنهب أمواله، وتحتل أرضه، ويبقى ساكتًا أو مكتوف اليدين خاضعًا مستسلمًا لما يراد به من قهر وأذى، بل لابد من التحرك واتخاذ التدابير والوسائل التى تدفع عنه هذه البلايا والرزايا.

قال تعالى: **﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾** (سورة البقرة: ١١٩).

وقال تعالى: **﴿انفروا خفافًا وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** (سورة التوبة: ٤١).

هذا هو الإنسان المجاهد الذى مدحه القرآن الكريم وجعله فى صفوف المهتدين بقوله تعالى: **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾** (سورة العنكبوت: ٦٩).

وبالجهاد المقدس يبطل كيد الأعداء، وبالإعداد للجهاد نرهب عدو الله وعدو الإنسان والإنسانية ليقف عند حده ولا يتطاول فى عدائه.

ولا يقر القرآن غير هذا الذى أطلق عليه أعداء القرآن أنه إرهاب وسعوا فى إبطال الجهاد بدعوى مكافحة الإرهاب ومطاردة الإرهابيين، وهذا افتراء وكذب على المجاهدين. وما الإرهاب إلا زرع الرعب والخوف فى صفوف الآمنين المسالمين دون حق مشروع.

فأعداء القرآن يصولون ويجولون فى تقديم أنواع الأذى لعباد الله، ولا يسمُّون ذلك إرهاباً، لكنهم أطلقوا مصطلح الإرهاب على من دافع عن دينه ووطنه وعرضه وماله.

وقد أخبر القرآن عن أهداف هؤلاء الأعداء بأن غرضهم إركاع الآخرين وإبعادهم عن معتقداتهم بهذا الاعتداء والمضايقة.

فقال تعالى: **﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يَرُدُّوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾** (سورة البقرة: ٢١٧).

فليس المجاهد إرهابياً ولكن المعتدين هم الإرهابيون.

القرآن والإنسان: الحر والرقيق

الإنسان كائن مكرم، وهذه حقيقة أرساها القرآن الكريم وجعل الإنسان سيد المخلوقات على الإطلاق بل جعل الكائنات الأخرى مسخرة لخدمته وراحته.

قال تعالى: **﴿ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾** (سورة الإسراء: ٧٠).

واعتبر القرآن حرية البشر هى الفطرة الأصل واعتبر الرق عارضاً موقوتاً طارئاً عليها، ولم يبح الاسترقاق إلا بنطاق ضيق وبقيود معينة، وشرع وسائل عدة لتحرير الأرقاء واستعادة حرياتهم المفقودة واسترجاع كرامتهم الإنسانية إذ ما من مجتمع أو قوم أو دين أو نظام إلا وفيه رق.

ونحن حين نوازن بين سماحة القرآن وبين ما فعلته الأعراف والقوانين والفلسفات والمجتمعات نجد أن الإسلام قرر للإنسان الحرية، وحطم قيود الرق، وفتح أبواب الحرية، وأتاح للتحرير فرصًا كثيرة فى تشريعاته، فحث على عتق الرقبة بدون مقابل، قال تعالى: **﴿فلا اقتحم العقبة • وما أدراك ما العقبة • فك رقبة﴾** (سورة البلد: ١١ ـ ١٣).

وشرع نظام المكاتبة وأم الولد وقرر العتق كفارة لعدد من الأخطاء التى يرتكبها المسلم كقتل النفس وإفطار رمضان عمدًا دون عذر وكفارة الظهار واليمين وغير ذلك.

بالإضافة إلى ما سَنَّه من قوانين احترام الأرقاء والمساواة بينهم وبين الأحرار فى حسن التعامل.

وممارسات الإسلام التاريخية فى هذا الموضوع خير شاهد على رحمة الإسلام وعدالته خلاف ما عليه الآخرون.

القرآن والحفاظ على ضرورات الإنسان

للإنسان ضرورات وحاجات وتحسينات وقد نظم القرآن الكريم هذه الأمور ووجه الإنسان أفضل توجيه إليها.

لكن العناية القرآنية كانت أظهر وأشد فى ضروريات الإنسان؛ لأن وجوده يتوقف عليها، ولا كيان له بدونها وهى:

١ ـ حفظ النفس. ٢ ـ حفظ الدين. ٣ ـ حفظ العقل.

٤ ـ حفظ المال. ٥ ـ حفظ العرض.

وقد صان القرآن كل ذلك لصيانة الإنسان فى مختلف مراحل حياته بتشريعات إلهية دقيقة رصينة لا تتخلف أغراضها وفوائدها فى زمان أو مكان. ومن هنا أصبح الإسلام والقرآن صالحين لكل الأجيال والعصور والأماكن والمجتمعات.

ففى مجال حفظ النفس: جعل القرآن الكريم الإنسان بنيان الله، وأى إزهاق لنفسه يعد هدمًا لبنيان الله حرام وجريمة لا تضاهيها جريمة، وأعلن القرآن غضب الله الشديد على القاتل عمداً بغير حق، وبيّن عذابه الأليم يوم القيامة.

قال تعالى: **﴿الذى خلقك فسوَّاك فعدلك • فى أى صورة ما شاء ركبك﴾** (سورة الانفطار: ٧، ٨).

وقد وضع القرآن قانونًا جزائيًا دنيويا لمن اقترف هذه الجريمة، قال تعالى: **﴿ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب﴾** (سورة البقرة: ١٧٩).

وقال تعالى: **﴿ومن يقتل مؤمنًا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾** (سورة النساء: ٩٣).

كما وضع القرآن نظام الدية فى النفس والأطراف، وحرّم الانتحار، فقال سبحانه: **﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾** (سورة النساء: ٢٩).

وفى مجال حفظ الدين الذى لا قيمة للإنسان بدونه: وضع القرآن نظامًا

كاملاً وتشريعًا دقيقًا لحفظه، فشرع الجهاد، وفصّل طرق الإيمان ومسالكه فى آيات عديدة.

قال تعالى: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾** (سورة آل عمران: ٨٥).

وفى مجال حفظ العقل: حرم القرآن الخمر والسُكْر، ووضع الإسلام قانوناً لردع من يتجرأ على هذا الفعل الذى يزيل العقل الذى هو نعمة الله على عباده.

وفى مجال حفظ المال: حرم القرآن السرقة والربا وغيرهما من الممارسات المالية التى تجعل المال حكرًا على طائفة بغير حق، ووضع حدودًا لذلك، فوضع حد السرقة وحد قطع الطريق، قال تعالى: **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾** (سورة المائدة: ٣٨).

وفى مجال حفظ العرض: رغّب القرآن فى الزواج وحرّم السفاح والزنا ووضع حدودًا لمرتكبى المحرمات، فقال تعالى: **﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾** (سورة الإسراء: ٣٢).

وقال تعالى: **﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾** (سورة النور: ٢).

وحرم القذف واللواط، ووضع حدودًا رادعة وعقابًا شديدًا

وهكذا حمى القرآن الإنسان فى حاجاته وتحسيناته، فحث على الصدق والأمانة ،وحرم الكذب والخيانة والغدر والغيبة والنميمة والحسد واحتقار الآخرين والتكبر والخيلاء والسب والشتم وما إلى ذلك.

القرآن وحقوق الإنسان

أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان فى ١٨/صفر/١٣٦٩هـ الموافق ١٠/كانون الأول (ديسمبر)/١٩٤٨م.

لكن الإسلام سبق هذا الإعلان بأربعة عشر قرنًا فأثبت حقوق الإنسان وواجباته، وأحكم ذلك فى سلسلة تشريعية مترابطة تميزت عن هذا الإعلان نوعاً وكيفاً وكماً وهدفاً وتطبيقاً.

لأن الإعلان سعى إلى تقنين ما للإنسان من حقوق فى مواجهة الاستبداد والاستغلال، وهى فلسفة جاءت فى الإعلان عن حقوق الإنسان امتدادًا لفلسفة فكرية فى الحضارة الغربية، لذلك ظل هذا الإعلان فى كثير من الحالات وقفًا على الإنسان الغربى قبل سواه وأكثر من غيره.

وقد أثبت القرآن الكريم فى آيات عديدة كل ما يسعد الإنسان ويرتقى به إلى أفضل الحالات الأخلاقية، ليس مجرد حقوق للإنسان، وإنما هى فرائض إلهية وتكاليف وواجبات شرعية لا يجوز لصاحبها الإنسان أن يتنازل عنها أو يفرط فيها حتى بمحض اختياره إن هو أراد(٢١).

فهى فى القرآن ليست مجرد حقوق بل هى واجبات وفرائض تؤدى إلى حفظ النفس الإنسانية والدين الربانى والعقل الإنسانى وعرض الإنسان وماله.

فالحفاظ على الحياة والعلم والحرية والعدل والمشاركة فى الأمور العامة جاءت فى القرآن الكريم أمرًا واجبًا على الإنسان لا يجوز للإنسان أن يفرط فيها، بل هو يحافظ عليها ويقاتل من أجلها حتى النصر أو الشهادة، لكنها فى نظر الحضارة الغربية حق من حقوق الإنسان ولصاحبها حرية التنازل عنها بالاختيار.

قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾** (سورة الأنفال: ٢٤).

وقال تعالى: **﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوارة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم﴾** (سورة الأعراف: ١٥٧).

إن القرآن الكريم رسالة إلهية إلى البشرية جمعاء، ترفع شعار التحرر والعدل والمساواة، وتكسر قيود الاستبداد وأغلال العقائد الفاسدة، فهو كتاب يعلن حقوق الإنسان وواجباته قبل أن تعلنها قوانين البشر القاصرة عن تلبية قضايا الإنسان والإنسانية.

مصادر البحث

١ - القرآن الكريم.

٢ - العطاء الحضارى للإسلام — د. محمد عمارة.

٣ - أركان حقوق الإنسان — د. صبحى المحمصانى.

٤ - الإنسان فى القرآن الكريم — عباس محمود العقاد.

٥ - مطابقة علم الأجنة لما فى القرآن والسنة — د. ناطق محمد جواد النعيمى.

٦ - قبسات من إعجاز الله فى خلق الإنسان — د. السباعى حماد.

٧ - الطب محراب الإيمان — د. خالص جلبى.

٨ - الإسلام كبديل عن الأفكار والعقائد المستوردة — محمد قطب.

٩ - قضايا فى مرآة الإسلام — د. محمود إبراهيم الديك.

١٠- الإسلام بنظرة عصرية — د. محمد جواد مغنية.

١١- الإنسان فى الإسلام — د. أمير عبد العزيز.

١٢- تربية الأولاد فى الإسلام — د. عبد الله ناصح علوان.

الهوامش

١ - الإنسان فى القرآن الكريم: ١٠-١٢.

٢ - لسان العرب: ٦/ ١٠ «أنس».

٣ - الصحاح للجوهرى ٣/ ٩٠٥ «أنس».

٤ - المذكر والمؤنث لابن الأنبارى: ١/ ٣٢٢.

٥ - المصدر السابق.

٦ - لسان العرب: ٦/ ٩٠٦ «أنس».

٧ - الصحاح للجوهرى: ٣/ ٩٠٥ «أنس».

٨ - لسان العرب: ٦/ ١٢ «أنس».

٩ - التعريفات للشريف الجرجانى: ٣٨.

١٠- تفسير القرطبى: ٤/ ١٠٢.

١١- تفسير القرطبى: ٦/ ٣٨٩.

١٢- تفسير القرطبى: ٧/ ١٧١.

١٣- تفسير القرطبى: ١٠/ ٢١.

١٤- تفسير القرطبى: ١٢/ ١٠٩.

١٥- تفسير القرطبى: ١٤/ ٧.

١٦- تفسير القرطبى: ١٥/ ٦٩.

١٧- تفسير القرطبى: ١٧/ ١٦٠.

١٨- الإنسان فى الإسلام، د. أمير عبد العزيز: ١٣٤.

١٩- قبسات من إعجاز الله فى خلق الإنسان ، د. السباعى حماد: ٣.

٢٠- انظر الإنسان فى الإسلام: ١٣ - ١٤.

٢١- العطاء الحضارى للإسلام، د. محمد عمارة: ١٢ - ١٤.

تكريم الإسلام للإنسان

الأستاذ الدكتور / محمد شامة

الأستاذ بجامعة الأزهر

مصر

رفع منزلته:

اختلفت المذاهب الفلسفية والمذاهب الفكرية فى النظرة إلى الإنسان وتقييمه، فتنوع تصورها له، وتعدد مفهومها لعناصر تكوينه.

فمن قائل: إنه كتلة من اللحم والدم والعظم والأعصاب والأجهزة والغدد والخلايا تعمل بنظام معين، وتحكم العلاقات بينها روابط طبيعية واتصالات فسيولوجية، تكونت على هيئة خاصة يحدث فى ظلها التأثير والتأثر بين العناصر المختلفة، دون أن يكون هناك تصادم أو تعارض بين وظائفها المختلفة، بل إن أعمالها المتنوعة يغذى بعضها بعضًا، فيخرج من التداخل والتلاحم والامتزاج والاختلاط بين وظائفها ما يبدو أمامنا على هيئة إنسان.. حتى وظيفة العقل والتفكير فيه، ما هى إلا مادة يفرزها المخ، كما تفرز أعضاء أخرى فى جسم الإنسان مواد أخرى، لها عملها المعين فى تركيب جسم الإنسان، فيؤدى وظائفه طبقًا لهذه الإفرازات مجتمعة.

وقد ذهب بعض العلماء إلى بيان نوعية العناصر التى يتكون منها الإنسان ومقدارها، فقال: «إذا جئنا بإنسان زنته مائة وأربعون رطلاً (١٤٠) وحللنا تكوينه

وجدنا بدنه يحتوى على المواد الآتية:

«قدر من الدهن يكفى لصنع سبع قطع من الصابون، وقدر من الكربون يكفى لصنع سبعة أقلام رصاص، وقدر من الفسفور يكفى لصنع مائة وعشرين عود ثقاب، وقدر من ملح المغنيسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات، وقدر من الحديد يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه، وقدر من الجير يكفى لتبييض بيت للدجاج، وقدر من الكبريت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التى تسكن شعره، وقدر من الماء يملأ برميلاً سعته عشرة جالونات».

وهذه المواد تُشْتَرَى من الأسواق بمبلغ يساوى عشرة جنيهات مصرية. فهذه قيمة الإنسان فى نظر هذا الفريق من الماديين؛ مجموعة من العناصر المادية رُكِّبَتْ بطريق معينة، لتؤدى وظائف مختلفة، إلا أنها متناسقة ومنسجمة، فإذا اختل هذا التناسق، واضطربت عوامل الانسجام تفككت هذه المكونات وتلاشت، فأصبحت شيئًا آخر، وهذا ما يعبر عنه بالموت.

أليس فى هذا التصور ما يدعو الإنسان إلى احتقار نفسه، والتهوين من شأنه، والنظر إلى وجوده على أنه شىء تافه، لا يستحق الاهتمام، ولا يستدعِى التفكير فيه، فهو لا يختلف فى تكوينه عن كل ما يحيط به.

تأثر وتأثير بين المواد المختلفة على شكل تفاعلات كيميائية حتى فى أخص الخصائص التى تميز بها عن غيره، ألا وهى قوة الإدراك والتفكير ؟؟؟

ودورة ميكانيكية تتوقف عندما يحدث عطب فى هذه التفاعلات الكيميائية، أو اضطراب فى عملية التأثير بين وظائفها المختلفة ؟؟؟

إن مما لا شك فيه أن هذه النظرة إلى الإنسان تجعله يشعر بأنه لا شىء يذكر بالنسبة للكائنات الأخرى، فما دام التركيب واحدًا، والعناصر متماثلة، وليس هناك ما يميزه عن غيره، فهو كالحشرة، أو هو كالحيوان فى مادته وتركيبه. وقد عبَّر أحد الماديين عن عدم الفرق بين الإنسان والكائنات الحية الأخرى، فقال: «هل نحن فكرة أكثر من كون الحشرات فكرة ! نحن لا نساوى أكثر من أنفسنا، وكذلك الحشرات، ونحن لا نريد إلا أن نحقق أنفسنا، وكذلك الحشرات، والفرق

بيننا وبين الحشرات هو فرق التفوق فقط، وفرق التفوق بيننا وبين أرقى حيوان، لا يفوق كثيرًا فرق التفوق بين أدنى حشرة وأرقى حيوان. ماذا نفقد أو يفقد الكون، أو تفقد الشمس والقمر بفقدنا أنفسنا ؟

يجرد هذا التصور الإنسان من أخص خصائصه، ويسلبه ما ميزه الله وفضله به على سائر مخلوقاته، ألا وهى النفخة الإلهية التى أودعها الله هذا الجسم، كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم، فحوله إلى كائن آخر يمتاز فى خصائصه، وميوله ونزعاته، وتفكيره عن كل ما عداه من مخلوقات.

تلك النفخة التى ارتفعت به عن الأرض وحلقت به فى السماء، مترفعة به على سائر المخلوقات التى خلقها الله على هذه الأرض؛ فهو نوع آخر مميز ومفضل عليها، ولهذا فإن له السيطرة عليها، وهى مسخرة له ينتفع بها فى سائر شئون حياته، وهذا التصور يُشْعِر الإنسان بالعزة والكرامة، ويضفى عليه هالة من الإجلال والرفعة مما يجعله يحس بفاعليته فيمن حوله وما حوله، فينطلق لتعمير الكون، ليحقق بذلك قول الله تعالى: **﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾**[1]، وقوله: **﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض﴾**[2] فشعور الإنسان بأنه مستخلف يختلف كثيرا عن شعوره بأنه كائن مثل حشرات الأرض وهوامها.

ولم تكن نظرة الماديين إلى الإنسان واحدة، فبينهم اختلاف فى تصور العناصر التى يتكون منها الإنسان، وفى تفسير وجوده، فبينما يرى البعض بأنه كتلة من اللحم والدم والعظام... و..... و...... إلخ كما بيناه سابقًا، يذهب آخرون بأن وجوده على هذه الهيئة إنما هو حلقة فى سلسلة تطور الكائنات الحية؛ فالإنسان عندهم أخو الحشرات، غير أن تطوره خطا خطوات أسرع، فتحول إلى هذه الصورة، ومن أشهر ما قيل فى هذا المجال: رأى «داروين» الذى يتلخص فى أن الإنسان ككائن حى مرَّ بمراحل فى سلم تطوره، وآخر مرحلة انتقل منها إلى هيئته الحالية هى مرحلة: «القرد»، ولذا شاع بين الناس أن الإنسان أصله قرد.

لا تختلف هذه النظرة إلى الإنسان عن سابقتها؛ فكلاهما قد هبط به إلى أسفل، وجرده مما يتميز به عن سائر الكائنات الحية الأخرى، فهو وإن اعترف

بتطوره، إلا أن مفهوم هذا التطور عنده يتعلق بالعناصر المادية، فلا يتطرق إلى ما وراء المادة من: روح، ونفس، وسمو، وشفافية، بل لا يخرج عندهم عن كونه حيوانا متطورًا، تَرَقَّى من طور إلى طور آخر، حتى بلغ ما هو عليه الآن، فالحيوانية أصله، والمادية سدته، فلم يتكون إلا من العناصر الهابطة، غير أنها ارتقت بعض الشيء عن مثيلاتها.

ألا يعتبر هذا من أكثر التصورات سوءاً على نفس الإنسان ؟

هل يوجد ما هو أسوأ من هذه النظرة على حياته ؟

إذ يرى نفسه مخلوقًا هابطًا، لا يختلف عن الحيوان فى شىء، فلا يتميز عنه بميزة ترفع قدره، وتُعْلِى مكانته بين المخلوقات، فهو يشعر فى ظل هذه النظرية بالانحدار والتلوث والإسفاف، وبناء عليه فهو لا يستنكف من التلوث لأنه أصله، ولا يخزى من الهبوط فى وديان القذارة والأوحال، فهو منها، وليس فيه ما يرفعه عنها أو يدفعه إلى التخلص منها، فالحياة النظيفة غريبة عنه، وليس بينه وبين المعالى السامية أدنى اتصال، فهو مجرد من كل ما يدفعه إلى الدنو منها، أو يرى فيه ما يهذب هذه المادة ويخلصها من الشوائب، ويرتفع بها إلى عالم المعالى، ويسبح بها فى آفاق الحق الأعلى، فيستعلى على الشهوات، ويبتعد عن المطامع المادية تقربًا إليه ومبتغيًا رضاه.

فنظرة الماديين إلى الإنسان هى احتقار له، وتهوين من شأنه، وهبوط به إلى درجات الحيوانية، أما الإسلام فقد نظر إلى الإنسان على أنه مخلوق كريم على الله، خلقه ربه فى أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر ملائكته بأن يسجدوا له تكريمًا، وإشعارًا له بتميزه عن سائر خلقه، وفى ذلك ما يدفعه إلى ممارسة كل ما من شأنه أن يرتفع به عن الجانب المادى فيه، ويحلق به فى سماء المعانى، بعيدًا عن الماديات وأقذارها، ومتجنبًا كل ما من شأنه أن يهبط به إلى أسفل، حيث التلوث والإسفاف، والانحدار إلى مدارك لا تليق به كمخلوق فَضَّله الله على سائر المخلوقات بأن نفخ فيه من روحه، وكرَّمه بسجود الملائكة له، وميَّزه بالعلم والإرادة، وجعله خليفته فى

الأرض، ومحور النشاط الفكرى فى الكون، وسخر له ما فى السماوات والأرض، فكل ما فى الكون مسخر له، ولم يجعله الله مسخَّرًا لشىء أبدا، وإنما طلب منه العبادة له وحده.

إن مكانة الإنسان المادية بين المخلوقات لا تكاد تذكر، فهو من حيث حجمه وتكوينه المادى شىء ضئيل جدًا بالنسبة للكون، وكذلك بالنسبة لمخلوقات أخرى كثيرة تعيش على سطح هذه الأرض، ولكنه من حيث ما أودع الله فيه من روح، وقوة إدراك، وإرادة وبصيرة شيئًا كبيرًا، إذ اكتسب بهذ الصفات غير المادية مكانة سامية، فشعر بالعلو والسمو على غيره من الكائنات، ودفعه هذا الشعور إلى بذل كل ما لديه من طاقات ليظل مرتفعًا، محلقًا فى سماء الفضيلة والكرامة، فمن يغفل عن هذا الجانب يهوى إلى قاع المادة، حيث الأوحال والأقذار، يقول تعالى: **﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأَتْبَعَهُ الشيطان فكان من الغاوين • ولو شِئْنا لرفَعْناه بها ولكنه أَخْلَدَ إلى الأرض واتَّبَعَ هواه﴾**[٣] أى آثر الجانب المادى على الجانب المعنوى، فهوى إلى الأرض ببعده عن رسالة الله التى ترفعه وتسمو به.

تفضيله:

أكد الله فى كثير من آيات القرآن الكريم على أنه كرَّم الإنسان وفضَّله على سائر المخلوقات كلها، منها قوله تعالى: **﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾**[٤]، وقوله: **﴿خَلَقَ الإنسانَ • عَلَّمَه البيان﴾**[٥]، وقوله: **﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾**[٦]. بل إن تصوير القرآن الكريم لإخبار الله الملائكة بأنه سيجعل فى الأرض خليفة، وإظهارهم تخوفهم من أن هذا المخلوق سيفسد فى الأرض، ثم بيان الله لهم بالدليل الواضح على أنه صاحب عقل ودراية وإدراك لما حوله، لبيان واضح للإنسان عن مدى تفوقه على مخلوقات الله، وفضله عليهم؛ إذ أن العقل المدرك فيه قد رفعه من حطيط المادية إلى سماء الإدراك والفهم، يقول الله تعالى: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة قالوا أتجعلُ فيها من يُفْسِدِ فيها ويسفِكُ**

الدماء ونحن نُسبّح بحمدك ونُقدّس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون • وعَلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين • قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم • قال يا آدم أنبئْهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غُيبَ السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾.(٧)

كذلك كان أمر الله الملائكة بالسجود له - وهم عباد الله المقربون الذين لا يعصون الله ما أمرهم، وهم الذين يسبحون الله آناء الليل وأطراف النهار، فلا يوجد فى مخلوقات الله من هم أقرب إليه منهم - إعلاناً على أن الإنسان قد احتل مكانة سامية لدى رب العالمين سبحانه وتعالى.

وأى مكانة تضاهى الاحتفاء به فى العوالم الروحية!!!

وجاء هذا الاحتفاء فى صورة أمر الله الملائكة بأن تسجد تحية له، فهى تحية إجلال وإكبار ممن جعلهم الله أقرب خلقه إليه، يقول الله تعالى: **﴿إذ قال ربُّك للملائكة إنى خالق بشراً من طين • فإذا سوَّيتُه ونفختُ فيه من رُوحى فَقَعُوا له ساجدين • فسجد الملائكةُ كلهم أجمعون • إلا إبليس﴾**.(٨)

لم يفهم إبليس معنى السجود للإنسان، ولم يدرك سببه، ولذلك علق عدم سجوده على مظهر مادى بحت، عندما سأله الله عن عدم السجود، يقول تعالى: **﴿قال يا إبليس ما مَنَعَكَ أن تسجد لما خلقتُ بيدَى أستكبرتَ أم كنتَ من العالين • قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾**.(٩)

عصى إبليس أمر ربه، فلم يؤد التحية لهذا المخلوق الجديد، لأن الحقد والحسد من تكريم الله للإنسان ورفعه فوق درجة الملائكة دفعاه إلى الاستكبار، فأبى الخضوع لأمر الله فكان من الكافرين.

فماذا كان عاقبة هذا التمرد ؟؟ وماذا كان مصير من لم يعترف بفضل الإنسان، فلم يقم بتبجيله واحترامه ؟؟؟

ذكر القرآن الكريم أنه عوقب عقابًا أليمًا؛ إذ طرده الله من رحمته ولعنه، فصار طريدًا فى كل مكان، وملعونًا على كل لسان عبر الدهور والأزمان، يقول تعالى: ﴿ **فاخرج منها فإنك رجيم • وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين**﴾(١٠) ومن يلعنه الله فلن يجد له نصيرًا، ومن يطرده الله من رحمته فلن يحس بلحظة سعادة، بل تظل حياته شقاء وبؤسًا، وألمًا يعصر روحه إلى أن تقوم الساعة، ويومها يُلْقَى فى جهنم وبئس المصير.

وأى ذنب فعله إبليس لينال كل هذا العذاب فى الدنيا والآخرة؟

ليس إلا رفضه تكريم الإنسان كما أمره ربه، وهذا يبين مدى فضل الإنسان عند رب الكون ودرجته عند مبدع الأفلاك وما عليها، وخالق السموات والأرض وما بينهما.

فإذا قارن المرء بين نظرة الماديين إلى الإنسان، حيث يعتبرونه مجرد حيوان يأكل ويشرب ويشبع رغباته وغرائزه، دون أدنى شعور بما يدفعه إلى التفوق والارتقاء إلى أعلى، وبين تكريم الإسلام له، فإنه يشعر بمدى الإهانة والاحتقار من جانب الماديين، والذل والهوان لو دار فى فلكهم، واتبع أهواءهم، وانغمس فى شهواتهم، بينما الإسلام يغرس فيه الثقة بالنفس، والشعور بالذات، بل إنه يتيه فى رحاب الإيمان فخرًا وعزَّة، لأنه ينتسب إلى الله، ويرتبط به، لأنه خلقه بيده، ويقترب منه لأنه فَضَّله وكَرَّمه على سائر خلقه. وليس هذا الإحساس بهين فى عالم الإنسان، فهو يؤثر على شعوره فيدفعه إلى الترفع عن الدنايا، لأنها لا تليق بمركزه، وبذلك يتقوم سلوكه، فيلتزم طريق الخير الذى يعود عليه بالسعادة فى الدنيا والفلاح فى الآخرة.

القضاء على الطبقية:

يسيطر حب الظهور على مشاعر الإنسان وأحاسيسه، فيدفعه إلى سلوك كل الطرق لتأكيد تميزه على غيره من أبناء جنسه، ويعمق فى نفسه الأحقاد بتفاوت الطبقات بين البشر، فيقوده ذلك إلى تصنيف الناس وتقييمهم حسب ما يعتقد أنه يرفعهم درجة، أو ينزلهم درجتين، أو يقربهم من علية القوم، أو يصنفهم مع

طبقات الدرجة السفلى. وقد درجت المجتمعات البشرية على اعتبار الظواهر المادية أساسًا للتصنيف، فمن يملك مالاً أكثر من غيره، يحتل درجة أعلى، ومن يتمتع بجاه أو سلطان يحتل مكان الصدارة بين الناس، ولذا أصبح المقربون إلى الحُكَّام والسلاطين هم أولئك الذين يملكون الثروات، أو يتمتعون بجاه العصبية والسلطان، أو يكون لديهم من القوة ما يمكنهم من التقرب إلى الحاكم، أو ما يحمل الحاكم على جذبهم نحوه حتى يُؤَمِّن ملكه، ويُقَوِّى سلطانه. أما أولئك الفقراء فليس لهم مكان بين هذه الطبقات، حتى وإن كانوا أحسن خلقًا وأعز نفسًا، وأحرص على خدمة الأمة. فتقييم الناس عند هؤلاء القوم لا يعترف بميزان التقوى والصلاح، بل بكثرة الدراهم والدنانير، ومنعة القوة والسلطان.

غير أن رسالات الله التى أنزلها على رسله وضَّحت للمجتمعات البشرية أن هذا الميزان لا وجود له عند الله، بل يُقَرِّب الإنسان إليه على أساس الخُلق الحسن، والسلوك السليم، والتقوى والصلاح، وصفاء النفس وطهارة القلب، والعمل الصالح والإسهام الإيجابى فى بناء المجتمع، والبذل والعطاء لحماية خلق الله من شرور المفسدين وطغيان المتكبرين، ومع هذا فقد نسى الإنسان ذلك، فاتبع هوى نفسه، ووساوس شيطانه، فمال إلى من أداروا ظهورهم لهذا الخط الواضح فى تقييم الناس وتكريمهم، حتى رجال الدين الذين يحتم عليهم وضعهم فى المجتمع أن يتبعوا خطوات الرحمن، ولا ينزلقوا إلى مزالق الشيطان، انحرفوا عن الطريق المستقيم فوضعوا أنفسهم فى مكان أقرب إلى الله من غيرهم، بل جعلوا أنفسهم وسطاء بين الله وبين البشر، فَبَدَوْا بهذا السلوك، وكأن الله قد قربهم إليه كما يقرب السلطان أولياءه وأقرانه، وذوى النفوذ من شعبه، وظلوا يلعبون دور الوسيط، ويمارسون عمل السماسرة بين الله وبين من أوهموهم أنهم لا يستطيعون الوصول إلى الله بأنفسهم، فبينهم وبينه حجاب، فعن طريقهم – أى رجال الدين – تصل رحمة الله إلى عباده، حتى جاء الإسلام فأعلن للناس أن كل إنسان قريب من الله يستطيع أن يدعوه بدون وسيط، وأن يسأله بنفسه، فليس بينه وبين عباده حجاب، ولم يفضل أحدًا فيقربه إليه، ويمنع الفضل عن أحد فيغلق بابه دونه، لأن الله فَضَّل الإنسان من حيث هو إنسان، كرمه لذاته، وميزه

على سائر خلقه لما أودع فيه من قوة تدرك خالقه، فإذا أراد التوجه إليه فلا حجاب يمنعه، ولا باب يرده، مهما كانت درجته فى سلم التقييم الذى تعارف عليه البشر، يقول تعالى: **﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان﴾**.(١١)

كما بين القرآن الكريم أن الله موجود حيث يتوجه الإنسان إليه، فلا يحول بينهما التمييز الطبقى الدنيوى، وليس هناك من الحواجز ما يمنعه من الوصول إليه كتلك التى تحول بين اتصال الطبقات المختلفة فى المجتمعات البشرية، يقول الله تعالى: **﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تُوَلُّوا فَثَمَّ وجه الله﴾**(١٢)،ويقول: **﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلمُ ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾**(١٣)، ويقول: **﴿ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلا هو رابعُهُم ولا خمسةٍ إلا هو سادسُهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ إلا هو معهم أينما كانوا﴾**(١٤). وجاء تأكيد هذا المعنى فى كثير من الأحاديث التى أخبرنا بها رسول الله ﷺ عن ربه، نذكر منها ما رواه البخارى عن رسول الله ﷺ أن رب العزة يقول: «**أنا عند حسن ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن تقرب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعًا، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة**».(١٥)

هذه هى مكانة الإنسان عند الله، بَيَّنَها لعباده، ليقلعوا عن نعرة الجاهلية، فلا يكون تفضيل الناس بينهم على أساس مادى بحت، بل يُقَدَّم فيهم من كان على تقوى وصلاح، ومن عُرِفَ بين قومه بالسلوك الحسن والخلق الطيب، والعمل الصالح لربه ولنفسه ولأهله، ولقومه وعشيرته ولأمته الإسلامية، وللإنسانية جمعاء، يقول تعالى: **﴿ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا وما ربك بغافل عما تعملون﴾**.(١٦)

تحرير الإرادة:

يرتفع قدر الكائن الحى بمقدار ما يملك من حرية فى تصرفاته وسلوكه، فكلما كانت حريته أوسع كان قدره أكبر، فإذا نظرنا إلى الكائنات الحية بهذا المنظار لوجدنا أن أرقاها هو الإنسان، لأنه هو الكائن الوحيد الذى أعطاه الله حرية فى سلوكه أكثر اتساعًا من أى مخلوق آخر على وجه الأرض، إذ أن ما عداه من الكائنات لا يتمتع بمثل هذه الحرية، فهى ما بين متحرك بالدفع الذاتى داخل دائرة عامة تحكمه وتحدد حركته مع ماهو مرتبط معه من الكائنات الأخرى كالأفلاك والأجرام، ومنها ما تحركه غريزته، فهو خاضع لمتطلباتها، يسير وفق ما تمليه عليه، وما توجهه نحو إشباعها كالحيوان والنبات. أما الإنسان فهو الكائن الوحيد الذى يتصرف وفقًا لإرادته هو، فليس مرتبطًا بغيره من الكائنات، ولا يخضع خضوعًا لازمًا لتوجيه متطلبات غرائز كامنة فيه، فهو وإن كان فيه من الغرائز ما يدفعه إلى إشباعها، إلا أن له من الحرية مايُمَكِّنه من التصرف عكس ما تطلبه منه، فإن دفعته غريزة الجوع - مثلاً - إلى الأكل من طعام فى متناول يده، فإن له من الإرادة مايجعله قادرًا على الامتناع عن تناول هذا الطعام، وإن استعرت فى داخله غريزته الجنسية، فإن له من القوة مايمكنه من كبتها، وعدم تلبية ما تطلبه منه، أو الجرى وراء ما تدفعه إليه، وهكذا فى كل أعماله، لاتصدر إلا عن إرادة منه وعزم على تحقيقه، وتلك هى الحرية التى منحها الله له، وفَضَّله بها على سائر الكائنات الحية على سطح الأرض.

كذلك من تفضيل الله للإنسان أن جعله مركز هذا الكون المادى العريض، فهو سيده، يتصرف فيه كيف يشاء، وعلى أى وجه يريد، فله الحرية فى ممارسة طاقاته معه، لا قيد عليه فيما يفعل، ولا حجر عليه فيما يتناول، وليس بينه وبين ما يريد الانتفاع به من هذا الكون باب مغلق، ولا حجاب يحول بينه وبين ما يريد، ولا حاجز يفصل بينه وبين الوصول إلى أى شىء، فالكون مسخر له، وكأنه خُلِقَ من أجله، وَوُجِد له، وفصلت ظواهر الطبيعة من بحار وأنهار وجبال ووديان، وريح ورياح لينتفع بها فى مجالات حياته المختلفة، وأحوال تكوينه المتنوعة، يقول

تعالى: ﴿**الله الذى خَلَقَ السماوات والأرضَ وأنزلَ من السماء ماءً فأخرجَ به من الثمرات رزقًا لكم وسَخَّر لكم الفلكَ لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار • وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليلَ والنهار • وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تَعُدُّوا نعمة الله لا تحصوها**﴾[17]، ويقول: ﴿**ولقد كَرَّمْنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفَضَّلْناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**﴾[18]، ويقول: ﴿**الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون • وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعًا منه**﴾.[19]

وبهذا أصبح الإنسان مؤهلاً لحمل أمانة الوحى، فحريته الواسعة المدى تمكنه من اختيار طريق الهدى وسيلة لحياته، ومصباح الحق نوراً يهتدى به فى سلوكه، حتى لا يتعثر فى طرقات الدنيا المظلمة. وقد شرع الله معالم تحدد له مسار الركب الإنسانى حتى لا ينحرف فيتيه فى صحراء مهلكة، ووديان مليئة بماء آسن وقاذورات تلطخ ثوبه الناصع الذى خلقه الله به.

فحرية الإنسان وسيلة أعطاه الله إياها ليصبح مستعدًا عن طواعية لحمل الأمانة الكبرى، ألا وهو التكليف باختيار ما يصلحه دينًا ودنيا، وهو ما عبر الله عنه وصوره فى أبدع صوره فى قوله تعالى: ﴿**إنا عَرَضْنا الأمانةَ على السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ منها وحَمَلَهَا الإنسان** ﴾[20] حملها لأنه كان على استعداد لحملها، فهو يتمتع بالحرية التى تمكنه من القيام بهذا الواجب، ولذا فمصيره بيده، إن شاء اختار طريق الله، وإن شاء تخبط فى ظلمات الشيطان، يقول تعالى: ﴿**بل الإنسانُ على نفسه بصيرة** ﴾[21]، ويقول: ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾[22]، ويقول: ﴿**قد أفلح من زَكَّاها • وقد خاب من دَسَّاها**﴾[23]، ويقول: ﴿**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها**﴾.[24]

من هذا العرض يتبن لنا جليًا أن الإسلام كَرَّم الإنسان؛ إذ رفع منزلته ببيان أن الله نفخ فيه من روحه، رافعًا بذلك احتقار الماديين له، ومزيلاً تهوينهم من

شأنه، ومفضلاً إياه على كثير من خلق الله، كذلك قضى على نزعة الطبقية التى تسود فى كثير من المجتمعات الإنسانية، فأعلن أن الناس سواسية، لا فضل لعربى على عجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، أى أن التفضيل لا يكون على أساس الجنس أو اللون، بل مرجعه الكفاءة فى العمل، والأخلاق الحميدة، التى تؤثر على السلوك والتعامل مع الآخر تعاملاً أساسه التعاون والتعايش السلمى بين بنى البشر جميعًا. كما تفوق الإسلام على كل الحضارات، القديمة منها والحديثة، بإعلان أن الإنسان سيد هذا الكون، يتصرف فيه كيف يشاء، وعلى أى وجه يريد، فله الحرية الكاملة: تعبيرًا، وفكرًا، وعقيدةً، وسلوكًا، مع تحمله مسئولية ما يترتب على ذلك إيجابًا وسلبًا، فرفع بذلك الوصاية عنه، فأصبح حرًا مسئولاً عن كل تصرفاته، وذلك أقصى ما وصلت إليه الحضارة الحديثة، بل تفوق الإسلام عليها بوضعه ضوابط للحرية تحمى الفرد، وتصون سلامة المجتمع.

الهوامش:

(١) سورة هود: ٦١.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٥.

(٣) سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٦.

(٤) سورة الإسراء: ٧٠.

(٥) سورة الرحمن: ٣-٤.

(٦) سورة التين: ٤.

(٧) سورة البقرة: ٣٠-٣٣.

(٨) سورة ص: ٧١-٧٤.

(٩) سورة ص: ٧٥ - ٧٦.

(١٠) سورة ص: ٧٧ - ٧٨.

(١١) سورة البقرة : ١٨٦.

(١٢) سورة البقرة : ١١٥.

(١٣) سورة ق : ١٦.

(١٤) سورة المجادلة: ٧.

(١٥) ٧٤٠٥ البخارى: التوحيد - باب ١٥.

(١٦) سورة الأنعام : ١٣٢.

(١٧) سورة إبراهيم: ٣٢-٣٤.

(١٨) سورة الإسراء: ٧٠.

(١٩) سورة الجاثية: ١٢-١٣.

(٢٠) سورة الأحزاب: ٧٢.

(٢١) سورة القيامة: ١٤.

(٢٢) سورة الكهف: ٢٩.

(٢٣) سورة الشمس: ٩-١٠.

(٢٤) سورة الإسراء: ٧.

تكريم الإسلام للإنسان

سماحة الشيخ/ يوسف جمعة سلامة
القائم بأعمال وزير الأوقاف والشئون الدينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك ـ فلسطين

مقدمة :

الإنسان سيد الكون، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، فكل ما فى هذا الكون مسخر لخدمة الإنسان، وقد ميز الله سبحانه وتعالى الإنسان عن غيره من المخلوقات وفضله، حيث يقول تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**﴾(١).

والإسلام يعتبر الناس كلهم أمة واحدة، ويساوى بينهم جميعاً، لأن رسالته موجهة إليهم قال تعالى: ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾(٣).

والأسرة الإنسانية على اختلاف ألسنتها وألوانها انبثقت من أصل واحد: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً**﴾(٤).

واختلافها فى الألسنة والألوان آية من آيات الله جل علاه: **﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعَالِمين﴾**[٥].

وهذا الاختلاف أدعى إلى التعارف والتآلف والمحبة، لا إلى التناكر والتناحر والشحناء والبغضاء: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[٦].

وأعلن هذا رسول الله ﷺ فى خطبة الوداع حيث قال: **«أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى... ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم، قال:اللهم فاشهد»**.

لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى

إن الإسلام لا يميز بين إنسان وآخر، لا فى العرق ولا فى الجنس ولا فى النسب ولا فى المال، امتثالا لقول النبى ﷺ: **«لا فضل لعربى على عجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»**[٧]، وقوله ﷺ: **«النساء شقائق الرجال»**[٨].

كما ألغى الإسلام الاعتداد بالحسب والنسب، واعتبر العمل هو القيمة والأساس فى التفاضل بين الناس، فالرسول ﷺ يقول: **«يا معشر قريش اشتروا أنفسكم، لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنكِ من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئاً»**[٩].

وبهذا الفهم الصحيح، والوعى الكامل لرسالة الإسلام خرج المسلمون من الجزيرة العربية يحملون هذه الدعوة التى وضعت الأمور فى نصابها، وأعلنت حقوق الإنسان منذ أن هبط الوحى على صاحب الرسالة ﷺ، يحملونها إلى الناس وقد اختلطت بمشاعرهم وأحاسيسهم، وطبقوها على أنفسهم، فأثمرت وأينعت، وربت جيلا قرآنيا على مر الأيام.

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾(١٠).

إن رسالة الإسلام، رسالة العدل والمساواة حيث أشرقت الأرض بنور ربها، وارتفعت كلمات رسول الله ﷺ يوم حجة الوداع «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا**»(١١).

ومن قبل ذلك كله كان المثل الرائع على عهد النبوة لتطبيق العدل والمساواة دون أن يميل مع القربى، أو يحيف مع الشنآن، ونضرب لذلك مثالين:

أولاً: عندما جاء أسامة بن زيد يشفع لمخزومية سرقت.. فكانت كلمات رسول الله ﷺ نوراً يهدى من بعده: «**إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها**»(١٢).

ثانياً: كان ذلك عندما تواطأ بعض المنافقين على إتهام يهودى ظلماً بسرقة وقعت بالمدينة من رجل من المنافقين يقال له «طعمة بن أبيرق»، فنزلت الآيات من السماء تنتصف لليهودى، وتتهم أولئك المتآمرين - وهم جيرانه وأقاربه - بالخيانة، وذلك ما نزل من قوله تعالى: **﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً• واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً• ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾**... إلى آخر الآيات(١٣).

وسار الصحابة على هدى نبيهم محمد - ﷺ - في ذلك:

- فكان عدل عمر رضي الله عنه فيما يفعله مع الأمير الغسانى الذى لطم مسلماً فهشم أنفه حيث قال عمر: إما أن ترضيه وإلا أقدته منك، قال جبلة: تُقيده منى وأنا ملك وهو سوقة، قال عمر: إن الإسلام سوى بينكما، قال جبلة: إنى رجوت أن أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية، فردد عمر ما قاله، قال جبلة: إذن أتنصر، فقال عمر: إذن أضرب عنقك..(١٤).

- وكان عدل علىّ إذ وقف أمام عمر مع يهودى فلما كناه عمر غضب علىّ، وكانت كتابة عمر إلى قاضيه يعلمه العدل بين الناس، والمساواة بينهم.

كرامة الإنسان
بين القوانين الشرعية والعادات الاجتماعية

إن الإسلام عقيدة وشريعة ودستور ونظام حياة، والإسلام جاء ليقود الإنسانية لحياة كريمة فى الدارين الدنيا والآخرة، والإسلام منذ أن أشرقت شمسه وعم نوره الكون والبشرية تعيش حياة كريمة طيبة آمنة.

وقد أكرم الإسلام الإنسان وجعله سيد هذا الكون تنفيذاً لأوامر الله - عز وجل - إذ خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته الكرام: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾**(١٥).

وقد أولى الإسلام الإنسان اهتماماً منذ بدء تكوينه ومراحل نشأته الأولى، فقد حرم الإسلام الإجهاض، كما أنه لم يجز توزيع تركة المتوفى إذا كانت زوجته حاملاً حتى تضع، وجعل دية الجنين غرة، فقد روى أبو داود فى سننه: **«أن امرأتين كانتا تحت رجل من هذيل، فضربت إحداهما الأخرى بعمود فقتلتها وجنينها، فاختصموا إلى النبى ﷺ فقال أحد الرجلين: كيف نُدَىّ من لا صاح ولا استهل، ولا شرب ولا أكل؟ فقال ﷺ : «أسجع كسجع الأعراب»؟! وقضى فى الجنين بغرة، وجعل دية المرأة على عاقلتها»**(١٦).

فهذا الحديث يدل على أن الإسلام يحترم الإنسان منذ النشأة الأولى، وأكرم الإسلام الإنسان بعد مولده، وذلك بأن يسمى اسماً حسناً، كما جعل الإسلام للمولود عقيقة فقال عليه السلام: **«كل غلام رهينة بعقيقته، تذبح عنه يوم سابعه، ويسمى فيه، ويحلق رأسه»**(١٧)، كما دعا الإسلام إلى ضرورة الاهتمام بتربية النشء التربية الصحيحة فقال عليه السلام: **«مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع»**(١٨).

وهناك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة تبين مدى اهتمام الإسلام بالإنسان، فقد حذر الرسول الكريم من الاعتداء على الإنسان فقال: **«إن دماءكم وأموالكم**

وأعـراضـكم حـرام عليكم كـحـرمـة يومـكم هـذا من عـامـكم هـذا، إلـى يوم القـيـامـة، وإن حـرمـة المؤمـن عند الله أشد من حـرمـة الكعـبـة»[١٩]، ويقـول عليـه السلام أيضاً: «**لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله تعالى من قتل مؤمن، ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم الله النار**»[٢٠].

كمـا بين الله ـ عـز وجل ـ الغـضب الشـديد الذى يلحق بالقـاتل جـزاء فـعلتـه الشنيعـة ﴿**ومن يقـتل مؤمناً متـعمداً فـجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليـه ولعنه وأعـد له عذاباً عظيماً**﴾[٢١]، وقـد رسم الإسـلام الخطوط العـريضـة لسـلامـة الإنسـان وكرامـتـه، وعـدم الاعـتـداء عليـه وقتله، فـقـال عليـه السلام: «**لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[٢٢].

ومن الأمور المؤسفـة فى هذه الأيام أن كرامة الإنسان قـد ديست، وأن الاعتداء على حـيـاته أصبح سـهلاً وهيناً، فـهـذا يقـتل ذلك مـن أجل الاخـتـلاف على شـبـر أرض وهـاتان العـائلتـان يقـتل بـعضـهم بعضـا من أجل أولاد صـغـار يلعـبـون، وهـذا يعـتدى على حـيـاة جـاره من أجل الاخـتـلاف علـى مـجـرى مـاء، والناس يتـنازعـون ويقـتـل بـعـضـهم بـعـضـا بـدون سـبـب إلا لأن الشـيـطـان قـد سـيطـر علـى عـقـولهم، وقـادهم إلى الهـاوية، هـذا كله يخالف تعـاليم الإسـلام التى تنص علـى الحلم والعفـو والصبر وعلـى حـقـوق الجـار وحرمـة الإنسان المسلم، فتسمع عـن حـوادث القتل بين المسلمـين أبناء الشـعـب الواحـد علـى أمـور تافـهـة، ويقـتـل الرجـال، وييـتم الأطـفـال، وترمل النسـاء، وتخرب البيوت، وتحـرق المتاجر والمساكن، ويترك أهل القـاتل أمـاكن سكناهم، وتصاب الأمة بحالة من الذعر.

فالإسـلام وضـع أسـاسـا هـامـا لسـلامة المجتمـع وحمايته من نـار الفتنة والفـرقة وهـو أن الجـانـى هو الذى يعـاقـب وحـده.. مـا ذنب أبيـه وأهله؟! مـا ذنب شـقـيق القـاتل حتى تقتلوه؟! وما ذنب عمه حتى تعدموه؟! وما جريمة والده أو قـريبـه تزهقون أرواحهم البريئة لغير ذنب ارتكبوه؟!.

إن القصـاص يكون من المجرم القـاتل فقط إن كان القتل عمدا، وهـذا هـو أحد الخيارات الشـرعيـة فى تلك الحـالة لقوله عليه السـلام: «**من أصابه دم أو خبل فهو بالخيار فى إحدى ثلاث: إما القصاص، أو يأخذ العقل، أو يعفو، فمن أراد رابعاً فاضربوا على يديه**»[٢٣].

فلنترك أيها الإخوة الكرام العادات الجاهلية، ولنتمسك بتعاليم السماء التى تكفل لنا حياة كريمة، ولنتعقل الأمور دائما، فالإنسان الحليم والكريم لا يعد ضعيفا، بل هذا خلق طيب، حيث بشر الله العافين عن الناس بجنة عرضها السماوات والأرض **﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين • الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾**(٢٤).

وعلينا أن نبتعد عن طريق الشيطان، وأن نتحلى بالصبر والحكمة، وألا نفرق فى معاملاتنا بين قوى وضعيف، وغنى وفقير، فقد جاء فى الحديث: «**كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**»(٢٥)، وفى حديث ثان: «**الناس سواسية كأسنان المشط**»(٢٦)، وفى حديث ثالث: «**ألا لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى**»(٢٧)، وفى حديث رابع: «**إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»(٢٨).

إن الإنسان لا يشعر بالطمأنينة؛ ولم ولن يعرف معنى الكرامة إلا إذا تفيأ بظلال الإسلام، وابتعد عن التمرد على الله والإسلام ودستوره.

هذا الإسلام الذى قرر أن العبودية لله وحده، ولا عبودية لسواه، وأن الإنسان مرتبط بربه ارتباطاً مباشراً لقوله تعالى: **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾**(٢٩)، ولقد بعث الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ رسولاً لأمته ليخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فنظر الإسلام للإنسان بأنه حر وليس عبداً، فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)، تلك المقولة التى أطلقها فى وجه عمرو بن العاص والى مصر وقتئذ، لأن ابناً لعمرو بن العاص اعتدى على أحد المواطنين الأقباط فى مصر دون وجه حق فى سباق للخيل.

فعلى المسلمين أن يلتزموا بشرع الله، وأن يحتكموا لهذا المصدر العظيم، وأن يتركوا العادات الباطلة البعيدة عن طريق الحق والصواب، وأن يستجيبوا لشرع الله عز وجل لقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾**(٣٠).

كرامة الإنسان.. إلى أين ؟

يقول الله تعالى: **﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾.**

قرأت هذه الآية الكريمة والتى تبين عظمة الإسلام، ومدى اهتمامه بالإنسان، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته وجعله سيداً لهذا الكون.

وقد لفت نظرى ما نشاهده ونقرأه يومياً من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وعن العدد الكبير فى العالم ممن أصابتهم المجاعة فى أفريقيا، وآسيا، والشرق الأوسط، والعالم الثالث، الذين يتضورون جوعاً ويحتاجون إلى مواد غذائية، وأدوية، وملابس فى ظل هذه الظروف الاقتصادية الصعبة.

إننا نسمع ونشاهد عبر أجهزة التلفاز، ونقرأ فى الصحف أخباراً عن مجاعات فى العالم، وعن انتشار الأوبئة والأمراض، بينما الخيرات الكثيرة تعم العالم، إن هذا يدل على أن هناك دولاً كأمريكا وغرب أوروبا تعيش حياة متخمة، بينما نرى دولاً كثيرة فى أفريقيا وآسيا وغيرها من الدول النامية تعيش حياة البؤس والشقاء، حتى إن السكان لا يجدون قوتهم الأساسى، وهذا يذكرنى بما قاله الفيلسوف برنارد شو عندما انتقد سوء التوزيع فى العالم، فبرنارد شو كان أصلع الرأس كثيف اللحية، فقال: الرأسمالية كرأسى ولحيتى، كثرة فى الإنتاج وسوء فى التوزيع.

أما الإسلام فقد كرم الإنسان مهما كانت عقيدته، كما أن الله ـ عز وجل ـ جعل الإنسان سيد هذا الكون وأسجد له ملائكته، ونحن نرى يوم طُبِّقَ الإسلام فى دولة الإسلام، يوم أن عم نوره الكون، وانتشر العدل على وجه الأرض، نرى أن عامل الزكاة كان يجمع الزكاة فلا يجد فقراء يستحقونها، هذا يدل على حالة المسلمين الطيبة وقتئذ، حتى إن عمر بن عبدالعزيز كان يأمر عامله أن ينادى أين الغارمون؟ أين الذين يريدون الزواج؟ وقد يتوهم متوهم بأن الحالة الطيبة، والمعاملة الحسنة من المسلمين كانت مقصورة عليهم، فنقول: إنها ليست مقصورة

على المسلمين بل شملت غيرهم من أهل الكتاب والبلاد المفتوحة.

فقد روى أبو يوسف فى كتاب الخراج: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بباب قوم وعليه سائل يسأل، وكان شيخاً ضرير البصر، فضرب عمر عضده وقال له: من أى أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودى. قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله وأعطاه مما وجده! ثم أرسل به إلى خازن بيت المال، وقال له: انظر هذا، فوالله ما أنصفناه إذ أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾** والفقراء هم الفقراء المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ثم وضع عنه الجزية.

والعاطفة التى جاشت بالرحمة فى نفس عمر نحو هذا اليهودى البائس نبعت من قلب متحمس للإسلام، متمسك بمبادئه، وقد كان عمر شديداً فى دين الله، ولكن الشدة التى عرف بها لا تعنى التعصب الأعمى، والضغينة القاسية على المخالفين للدين من أهل الكتاب الأولين.

هذا مثال واحد من أمثلة عديدة ومواقف مشرفة من مواقف الإسلام العظيمة تجاه الإنسان، فهل نطبق هذه الأمثلة فى عالم اليوم، عصر التفرقة العنصرية، وعصر الظلم والاستعباد، وعصر الحضارة الزائفة حيث يعامل الإنسان أخاه الإنسان بكل بطش وقسوة.

كما أن الإسلام وضع نظاماً اقتصادياً متكاملاً لو سار عليه البشر لعاشوا حياة سعيدة، ولما رأينا جائعاً واحداً، فقد حث المسلمين على جمع المال من طريق الحلال، ونهى عن كنز المال، وأعد العذاب الشديد للذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله، وأمر بالإنفاق فى مجال الاستهلاك بدون إسراف ولا تبذير، وحث على الإنفاق فى سبيل الله، وعلى الفقراء والمساكين، وإقراض المحتاجين وتفريج كروبهم والتيسير عليهم، وحرم الربا **﴿يمحق الله الربا ويربى الصدقات﴾**، ووضع الكفارات والنذور مساعدة للفقراء، ووضع الزكاة كحق للفقراء فى مال الأغنياء، وحث أتباعه على إقامة المشاريع، ووضع قاعدة لتوزيع الإرث بحيث يأخذ كل إنسان حقه، ودعا أتباعه إلى البذل والإيثار وترك

الشح والبخل والأنانية وحب الذات، وبين أن المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

تلك هى طبيعة المجتمع المسلم، فهذا ديننا وتلك تعاليمه، وهذه أمتنا وذلك ماضيها، وهذا هو العالم وحاضره الذى يعيش فيه، **﴿وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾**.

أما آن للبشرية التائهة أن تعود إلى الأصل، إلى الحق، إلى سفينة النجاة التى تقودها إلى حياة كريمة سعيدة، إلى كتاب الله وسنة رسوله فهما مصدر الخير والحق.

حرية الإنسان فى عقيدته

لقد أنعم الله سبحانه وتعالى على البشرية جمعاء برسالة سيدنا محمد ﷺ، هذه الرسالة التى ختم الله بها الرسالات، وجاءت كاملة شاملة **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**[٣١].

هذه الرسالة السماوية نزلت على سيدنا محمد ﷺ فى بطحاء مكة، وفى خلال فترة وجيزة، وبفضل الله وعونه إذ بهذه الرسالة تنتشر انتشاراً سريعاً فى أرجاء المعمورة.

هناك من يقول: إن الإسلام انتشر بالسيف...

هذا قول خاطىء، فالإسلام لم ينتشر بالسيف، ولا بالقوة، ولا بالعنف، لأنه لو انتشر الإسلام بالسيف لزال الإسلام يوم أن زال السيف.

فهذه بريطانيا كانت الشمس لا تغيب عن ملكها بفعل السيف، فلما زال السيف زالت، لكن سيف الإسلام - على حد قول هؤلاء - زال، ولكن بفضل الله ورحمته نرى وجوهاً جديدة تدخل كل يوم فى دين الله أفواجا.

إن الإسلام قد انتشر بالأخلاق، بالقدوة الصالحة، بالحكمة والموعظة الحسنة، هذا ما تحلى به التجار المسلمون يوم طافوا البلاد بأخلاقهم الكريمة وصفاتهم الطيبة، فدخل الناس فى دين الله أفواجاً.

إن الحرية الدينية شئ شرعه وابتكره ديننا الإسلامى الحنيف..

إن صيحة: ﴿ **لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون**﴾[٣٢]، هذه الصيحة لم تعرف إلا فى كتابنا العظيم، وإن صيحة: ﴿**لكم دينكم ولى دين**﴾[٣٣]، هذه الصيحة لم تعرف إطلاقاً فى ملة أخرى.

كانت أوروبا قبل القرآن وبعده، وكان العالم كله يعيش فى برك من الدم، وصراع آثم حول إكراه الناس على العقائد، حتى جاء القرآن الكريم يقول للناس: ﴿**لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾[٣٤].

عندما نتصفح كتب التاريخ فإننا نجد صفحات مشرقة عن التسامح الإسلامى مع أهل الديانات الأخرى، وعن الأسلوب الطيب فى احترام الآخرين.

نجد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرفض أن يصلى فى الكنيسة التى عرض عليه أسقف بيت المقدس أن يصلى فيها، لماذا؟ حرصاً من عمر على بقاء الكنيسة لأصحابها، فقد قال للأسقف: لو صليت هنا لوثب المسلمون على المكان وقالوا: هنا صلى عمر، وجعلوه مسجداً!!

كما نلاحظ المعاملة الطيبة من المسلمين تجاه أهل الكتاب، وهذا ما دفع الكثير من أهل الكتاب للدخول فى هذا الدين الجديد، لأنهم وجدوا فيه ضالتهم من السماحة واليسر والمحبة والأخوة.

فهذا رسول الله ﷺ وقد مرت عليه جنازة يهودى فقام النبى ﷺ لها، فقيل له: إنها جنازة يهودى فقال: «**أليست نفساً**»[٣٥].

وهذا أمير المؤمنين - عمر بن الخطاب - رضي الله عنه، يرى شيخاً متوكئاً على عصاه وهو يسأل الناس، فسأل عنه فقيل: إنه كتابى، وفى رواية - نصرانى - فقال: «خذوا هذا وضرباءه إلى بيت المال، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته وتركناه عند شيبه»[٣٦].

وروى أن عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - ذبحت فى بيته شاة فقال: أهديتم لجارنا اليهودى منها؟ قالوا: لا، قال: أهدوا إليه، فإنى سمعت رسول الله: ﷺ يقول: «**مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**»[٣٧].

إن صيحة: **﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾**[٣٨].. تظهر عظمة هذا الدين، تظهر مدى مخاطبته للعقول لتختار بين طريق الإيمان وطريق الكفر، طريق الخير وطريق الشر، طريق الحق وطريق الباطل.

فالإسلام لم يفرض على النصرانى أن يترك نصرانيته، أو على اليهودى أن يترك يهوديته، بل طالب كليهما - ما دام يؤثر دينه القديم - أن يدع الإسلام وشأنه، يعتنقه من يعتنقه، دون تهجم مُرٍّ، أو جدل سيئ.

إن التسامح الذى عامل به الإسلام غيره، لم يعرف له نظير فى القارات الخمس، ولم يحدث أن انفرد دين بالسلطة، ومنح مخالفيه فى الاعتقاد كل أسباب البقاء والازدهار مثل ما صنع الإسلام، وفى مجتمع يضم أناساً مختلفى الدين، قد يثور نقاش بين هؤلاء وأولئك من الأتباع المتحمسين، وهنا نرى تعاليم الإسلام صريحة فى التزام الأدب والهدوء **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن..﴾**[٣٩].

فالأخوة الإنسانية هى الأساس الذى تقوم عليه علاقات الناس، حيث إن القرآن الكريم وضع دستوراً للعلاقة بين المسلمين وغير المسلمين أياً كانت ديانتهم كما فى قوله تعالى: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين • إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولَّوْهُمْ ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾** والعهدة العمرية التى أرسى قواعدها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ مع بطريرك الروم صفرونيوس فى السنة الخامسة عشر للهجرة تمثل لوحة فنية فى التسامح الإسلامى الذى لا نظير له فى التاريخ، التسامح بين المسلمين والمسيحيين فى فلسطين الحبيبة، هذه العلاقة الطيبة التى ما زالت وستبقى إن شاء الله نلاحظها أيضاً فى بلاد عديدة كأرض الكنانة وغيرها.

والمؤسف أن جهل شريحة واسعة من أهل الغرب المسيحى بحقيقة الدين الإسلامى، جعل أفراد هذه الشريحة يعادون المسلمين، ويكونون أكثر قرباً من اليهود الذين يكنون عداء تاريخياً لكل من المسيحيين والمسلمين على حد سواء،

فى حين أن الإسلام يميز تماماً بين اليهود والمسيحيين، فيعتبر «اليهود والذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا»، فى حين يصف القرآن الكريم النصارى بالقول: **﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾**(٤١).

واليهود يصفون السيدة مريم العذراء - عليها السلام - بأوصاف سيئة، فى حين أن القرآن الكريم يصفها بأجمل وأطهر العبارات فى مواضع عديدة، ويعتبرها أفضل نساء العالمين قاطبة فى عصرها، حيث يقول الله - عز وجل - فى محكم آياته: **﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك اصطفاك على نساء العالمين﴾**(٤٢).

وبالإضافة إلى ذلك أقول: إنه فى أول عهد الإسلام قبل الهجرة النبوية اشريفة إلى المدينة المنورة جرت معركة طاحنة بين الروم المسيحيين والفرس المجوس، كان النصر فيها للمجوس المشركين.

وفرح المشركون فى مكة بذلك النصر وشمتوا بالروم، فيما ابتأس المسلمون بسبب هزيمة المسيحيين من أهل الكتاب.

ولما نزلت الآيات الكريمة التى تقول: **﴿الم • غلبت الروم • فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهِم سَيَغْلِبُونَ • فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم • وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**(٤٣)، فقد ابتهج المسلمون بهذا النصر.

كرامة الإنسان فى فلسطين

وها هو الشعب الفلسطينى مسلمين ومسيحيين يقف اليوم فى خندق واحد، حيث إن الإرهاب الإسرائيلى لا يفرق بين مسيحى ومسلم، وأن قنابل الاحتلال وطائراته موجهة ضد المسلمين والمسيحيين معاً، فكما تضرب القدس والخليل، فهى تضرب بيت لحم، وكما تعتدى على رام الله والبيرة وجنين، فهى تعتدى على بيت ساحور، وكما تهاجم طولكرم ورفح وجباليا، فهى تهاجم بيت جالا.

إن الهجمة الشرسة التى يتعرض لها الشعب الفلسطينى فى هذه الأيام قد يتمت الأطفال، ورملت النساء، ودمرت البيوت والمصانع والمؤسسات، وجرفت المزارع والبيارات، وهاجمت مقرات السلطة الوطنية الفلسطينية، حيث إن قوات الاحتلال تتبع سياسة الأرض المحروقة التى لا تبقى ولا تذر، حيث وصلت هذه الاعتداءات إلى المقدسات الإسلامية والمسيحية، حيث منعت المسلمين من الوصول إلى المسجد الأقصى المبارك والصلاة فيه، وإغلاق المسجد الإبراهيمى فى الخليل أمام المصلين، وقصف العديد من المساجد فى نابلس، وجنين، وطولكرم، والخليل، وبيت لحم، ورفح، وغزة، وخان يونس، وجباليا وغيرها من المحافظات، كما امتدت هذه الاعتداءات إلى كنيسة القيامة حيث منعت سلطات الاحتلال المسيحيين من الاحتفال بأعيادهم، كما أنها تحاصر كنيسة المهد فى بيت لحم، وتقتل وتعتدى على العلماء المسلمين، ورجال الدين المسيحى (مرفق تقرير عن الاعتداءات الإسرائيلية على المقدسات الإسلامية والمسيحية)، وكما قال الشاعر:

ملكنا فكان العفو منا سجية   فلما ملكتم سال بالدم أبطح

فحسبكم هذا التفرق بيننا   وكل إناء بالذى فيه ينضح

ومع ذلك فإن القيادة الفلسطينية تسير على خطى العهدة العمرية، وتتمسك بها، وتسير على هديها حيث إنها تعمل جاهدة على تشكيل وفد إسلامى مسيحى مشترك لتظهر للعالم العلاقة الوثيقة بين أفراد الشعب الواحد. إن الأوضاع الراهنة فى فلسطين خطيرة جداً، ونحن بحاجة إلى دعم الأشقاء فى الأمتين العربية والإسلامية؛ ليبقى هذا الشعب المرابط متمسكاً بحقوقه، مرابطاً على أرضه، مدافعاً عن عقيدته.

إننى أنتهز هذه المناسبة ومن خلال علماء الأمة أن أنقل أصدق آيات الشكر والتقدير من الشعب الفلسطينى المرابط ومن القيادة الفلسطينية وعلى رأسها الأخ الرئيس/ ياسر عرفات رئيس دولة فلسطين إلى الشعوب العربية والإسلامية على وقفتها المشرفة مع أشقائهم فى فلسطين، هذه الوقفة وهذه التبرعات الكريمة التى تبين أننا إخوة فى السراء والضراء، وأننا أمة واحدة هى الأمة العربية والإسلامية، وأننا ننتظر مستقبلاً زاهراً بإذن الله، وإن شاء الله سنصلى معاً وسوياً فى المسجد الأقصى المبارك وقد تحرر من أيدى المحتلين **﴿ويسألونك متى هو قل عسى أن يكون قريباً﴾**.

كلنا ثقة بالله، بأن الليل مهما طال فلابد من بزوغ الفجر، فما بعد العسر إلا اليسر، وما بعد الضيق إلا الفرج، وإن الفرج آت بإذن الله، رغم المشككين، رغم الحاقدين، رغم أعداء الإسلام كلهم، وكما قال الشاعر:

وما نيل المطالب بالتمنى ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وما استعصى على قوم منال ... إذا الإقدام كان لهم ركابا

الهوامش

١- سورة الإسراء، الآية (٧٠).
٢- سورة الأنبياء، الآية (٩٢).
٣- سورة الحجرات، الآية (١٣).
٤- سورة النساء، الآية (١).
٥- سورة الروم، الآية (٢٢).
٦- سورة الحجرات، الآية (١٣).
٧- من خطبة النبى ﷺ فى حجة الوداع.
٨- رواه الترمذى.
٩- متفق عليه.
١٠- سورة آل عمران، الآية (١١٠).
١١- أخرجه مسلم فى صحيحه.
١٢- متفق عليه.
١٣- سورة النساء، الآيات (١٠٥ - ١١٣).
١٤- القصة واردة فى كتب التاريخ، وسيرة عمر رضي الله عنه.
١٥- سورة البقرة، الآية (٣٠).
١٦- أخرجه أبو داود.
١٧- أخرجه أصحاب السنن.
١٨- أخرجه أبو داود.
١٩- أخرجه البخارى.
٢٠- أخرجه مسلم والترمذى.
٢١- سورة النساء، الآية (٩٣).
٢٢- أخرجه الشيخان.
٢٣- أخرجه أبو داود والنسائى والدارمى.
٢٤- سورة آل عمران، الآيتان (١٣٣-١٣٤).
٢٥- أخرجه البيهقى.
٢٦- أخرجه أصحاب السنن.
٢٧- أخرجه البيهقى.
٢٨- أخرجه الشيخان وأصحاب السنن.
٢٩- سورة النساء، الآية (٣٦).
٣٠- سورة الأنفال، الآية (٢٤).
٣١- سورة المائدة، الآية (٣).
٣٢- سورة يونس، الآية (٤١).
٣٣- سورة الكافرون، الآية (٦).
٣٤- سورة البقرة، الآية (٢٥٦).
٣٥- أخرجه البخارى.
٣٦- كتاب الخراج لأبى يوسف.
٣٧- أخرجه البخارى.
٣٨- سورة الكهف، الآية (٢٩).
٣٩- سورة العنكبوت، الآية (٤٦).
٤٠- سورة الممتحنة ،الآيتان (٨-٩).
٤١- سورة المائدة، الآية (٨٢).
٤٢- سورة آل عمران، الآية (٤٢).
٤٣- سورة الروم، الآيات (١-٦).

تكريم الإسلام للإنسان

الأستاذ الدكتور / إبراهيم بن أحمد بن سليمان الكندى

وزارة الأوقاف والشئون الدينية

سلطنة عمان

المقدمـــة

الحمد لله الغنى الكريم، خلق الإنسان فى أحسن تقويم، وكرمه إذ نفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته أيما تكريم، أحمده سبحانه وهو العلى العظيم، وأعترف بالعجز التام عن القيام بأقل شكر على ما أسداه ويسديه من إحسان عميم وفضل عظيم، وأشهد أنه الله الذى لا إله إلا هو القوى فى سلطانه، اللطيف فى جبروته، لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، ولا راد لما قضى، ولا ناقض لما أبرم، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمد عبدالله ورسوله المبعوث رحمة للعالمين بأجمل شريعة وأيسر مِلَّة وأكمل دين، اللهم صلِ وسلم عليه، وعلى آله هداة الخلق والدعاة إلى الحق، وعلى صحبه أولى العزيمة والصدق، الذين بذلوا أرواحهم وأموالهم فى سبيل إعزاز هذا الدين وإعلاء كلمته، وعلى كل من اهتدى بهديهم واقتفى آثارهم إلى يوم الدين.

أما بعد :

فإنه من كرم الله سبحانه علىَّ وتوفيقه لى ولطفه بى أن تتهيأ لى فرصة المشاركة فى هذا المؤتمر المبارك (المؤتمر العام الرابع عشر للمجلس الأعلى

للشئون الإسلامية) بورقة عمل تحت عنوان (تكريم الإسلام للإنسان)، وإنى إذ أشارك بهذا البحث الذى أرجو من الله أن يكون نافعاً لأسأل المولى القدير أن يخص هذا المؤتمر بتوفيقه وتسديده وعنايته وتأييده، وأن تكون سائرُ أعمال كل من بذل جهداً فيه مكللة بالنجاح متقبلة عند الله، وأن يكون خطوة موفقة لبلورة الإسلام فى هذا العالم المتغير، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

تكريم الإسلام للإنسان :

إنه لمن فضل الله على عباده ورحمته بهم وتكريمه إياهم، أن أرسل إليهم رسلاً من أنفسهم يوضحون لهم المحجة ويقيمون بينهم الحجة بشرائع منيرة جوهرها واحد وطريقها قاصد وإن تعددت مناهجها وتظاهرت روافدها، بعضهم يقفو آثار بعض، يجدد الآخِرُ برسالته ما انطمس من معالم رسالة من قبله، ويتحف الجيل الذى هو فيه بما يفتقر إليه حسب ما تتطلبه أطوار البشرية المختلفة المتعاقبة، وهكذا دواليك رسل تترا وكتب تُتلى دعوةً إلى دار السلام وإبانةً للطريقة المثلى، كل ذلك والبشرية تتدرج من حَسَنٍ إلى أحسن فى مراحلها المتطورة، فى عمرانها وحضاراتها وتفكيرها وثقافاتها، حتى إذا ما بلغت مرحلة النضج الفكرى وعهد الرشد التام أرسل إليها كافة رسولاً كريماً رءوفاً رحيماً من أوسطها نسباً وأشرفها حسباً وأكملها عقلاً وأوفاها حلماً وأعظمها خلقاً، بشريعة غراء، حنيفية سمحاء، هى للإنسانية نعمة وتكريم وهى فى حقيقتها صراط مستقيم.

إنها شريعة الإسلام التى لا تعرف الانغلاق والجمود، ولكنها تواكب المتغيرات بسعة أفق ويسرٍ فى التشريع، ونَسَقٍ ونظام يكفلان للمتشرِّع بها تحقيق كل ما يصبو إليه من سعادة ورخاء تكريماً للإنسانية وارتقاءً بها إلى أوج الكمال المُقَدر لها.

وسوف يتناول هذا البحث النقاط التالية :

- الإســلام.
- كيف كرَّم الإسلام الإنسان؟.
- قمة تكريم الإسلام للإنسان (الخلافة).
- خروج الإنسانية عن مظهر التكريم بالخلافة.

الإســلام

إننا حينما نتحدث عن الإسلام الذى كرَّم الإنسان وارتقى به عقلاً وروحاً وجسداً إلى أعلى عليين، إنما نعنى به ذلك الإسلام الذى رضيَه الله ديناً لعباده، فأكمله لهم وأتم به عليهم نعمته، ذلك الإسلام الذى أراده الله أن يكون للبشرية نظام حياة، ومنهج تربية، ودستور حكم، وشعائر تعبد، وقِيَماً سامية، ومعارف ناصعة لا غبش فيها ولا غموض، نعنى به تلك الشريعة التى هى كل لا يتجزأ، كل متكامل، سواء فيه ما يختص بالتصور والاعتقاد، وما يختص بالشعائر والعبادات، وما يختص بالحلال والحرام، وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية، هذا هو الإسلام، لا ما فهمه المتشددون الغالون، ولا ما فهمه المنحرفون الغاوون من تصورات ومبادئ ومظاهر وقشور توهموها حقيقة الدين وروح التشريع.

والإسلام بذلك المعنى صار حقيقة عرفية للشريعة المحمدية، ولقد ترسخت هذه الحقيقة فأصبح هذا الإطلاق لهذه الكلمة معنياً به الشريعة التى جاء بها محمد رسول الله ﷺ لدى كل الأمم، تلك الشريعة التى لا تقتصر على جنس أو قوم ولكن إلى الناس كافة بل إلى الثقلين، إنها الشريعة العالمية الكاملة التى أراد الله أن يتشرع بها الثقلان لتكون لهم منهج حياة، ونبراساً فى عالم الوجود، وبهذا نطقت نصوص القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**(١)، وقال سبحانه : **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾**(٢)، والذى يدل على أن الإسلام فى هذه الآية مراد به شريعة محمد ﷺ السياق، فإنها فى معرض الاحتجاج على أهل الكتاب ورد شبههم، كما أنها فى معرض الرد على المعاندين والمرتدين بدليل أن بعد هذه الآية قوله سبحانه : **﴿كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين﴾**(٣).

ومن السنة المطهرة قوله صلى الله عليه وسلم : «**بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، و إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً**» متفق عليه(٤).

وحتى لو تمشينا مع الإطلاق العام الشامل للإسلام الذى هو مطلق الاستسلام والخضوع والانقياد لله، فإن هذا وذاك هو مصدر التكريم للإنسان.

إننا نجد الإسلام فى التشريعات الإلهية كلها على ألسنة رسله جميعاً بدءاً من رسالة آدم عليه السلام، وخاتمة بمسك ختام الشرائع شريعة محمد ﷺ يعنى به : **مطلق الاستسلام والانقياد للخالق جل وعلا**، فهو اسم للدين الذى جاء به جميع الأنبياء والمرسلين من عند رب العالمين، ذلك الانقياد الذى يبلوره أداء كل ما افترضه الله حسب الاستطاعة واجتناب كل ما حرمه ابتغاء وجهه والتحلى بالفضائل والبعد عن الرذائل،انقياداً ناشئاً عن رضاً مطلق وتسليم كامل، ولقد أوضحت ذلك الإطلاق الشامل الآيات البينات فى القرآن الكريم، فنبى الله نوح عليه السلام يقول: **﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾**(٥)، ونبى الله يعقوب عليه السلام يوصى أولاده : **﴿ يابَنِىَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون • أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾**(٦)، وقد قال الله لخليله : **﴿أسلم﴾** فقال: **﴿أسلمت لرب العالمين﴾**(٧) كما أن نبى الله موسى عليه السلام يقول لقومه : **﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾**(٨) وفى الحديث الشريف: **(وأسلمت نفسى إليك)**(٩). ثم إنه بعد مبعث النبى محمد ﷺ أصبح الإسلام يطلق حقيقة عرفية على هذه الشريعة الغراء كما أشرت آنفاً.

كيف كرَّم الإسلام الإنسان :

إن التكريم تفعيل من الكرم الذى هو : إذا وُصِفَ اللهُ – تعالى – به فهو اسمٌ لإِحْسَانه وَإِنْعامه المُتَظاهِرِ نحو قوله : **﴿فإن رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾**(١٠) وإذا وُصِفَ به الإنسَانُ فهو اسمٌ للأخْلاقِ وَالأفْعالِ المحمُودَةِ التى تَظْهَرُ منه ولا يقالُ هو كَرِيمٌ حتى يَظْهَرَ ذلك منه(١١)، يقول الزمخشرى فى تفسير الكريم : **(كريم بالإنعام على من يكفر نعمته)**(١٢). وواضح من هذا أن الكريم ليس هو الذى إذا سُئِلَ أعطى، وإنما الكريم هو الذى يتفضل قبل السؤال حتى على من يكفر نِعمَه ويُنكرُ إحسانه جهلاً أو تجاهلاً.

إن تكريم الإسلام للإنسان فيض من تكريم الله له، ذلك أن الإسلام الذى بَوَّءَ الإنسانية كلَّها مُبَوَّءَ العزة والرفعة وأظلها بظلال الرحمة هو نعمة الله السابغة، وبيان تكريم الإسلام للإنسانية كلها يقتضى منا وقفات ووقفات، فلنبين ذلك على وجه الإجمال قبل أن نجول فى شىءٍ من التفصيل فنقول :

أولاً : إن الإنسان حينما يقف وقفة منصفة حيال إنعام الله - تعالى - بهذا الدين وهى النعمة التامة الضخمة الهائلة، يدرك مدى ضخامة هذه النعمة التى تمثل مولد الإنسان فى الحقيقة كما تمثل نشأته واكتماله، فالإنسان لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يُعَرِّفُهُ هذا الدين له، وقبل أن يعرف الوجود الذى يعيش فيه كما يُعَرِّفُهُ له هذا الدين، وقبل يعرف نفسه ودوره فى هذا الوجود وكرامته على ربه كما يعرف ذلك كله من دينه الذى رضيه له ربه ـ اللهم إلا وجوداً يشبه وجود البهائم ـ، والإنسان لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة الله وحده، وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع الله وبسلطانه لا من صنع أحد ولا بسلطان أحد من الخلق، إن معرفة الإنسان بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الدين هى بدء مولد الإنسان، إنه بدون هذه المعرفة على هذا المستوى يمكن أن يكون حيوانًا أو أن يكون مشروع إنسان فى طريقه إلى التكوين والاكتمال، ولكنه لا يكون الإنسان فى أكمل صورة للإنسان وأحسن تقويم إلاَّ بمعرفة هذه الحقائق الكبيرة كما صورها القرآن[١٣] ثم تمليها والعيش بها بعد ذلك، قال تعالى : ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾[١٤]، إن هذا الخطاب بهذه الصراحة وهذا الامتنان ليس موجهاً إلى جيل خاص فى زمن خاص أو مكان خاص أو بيئة خاصة، كما يتصور المغرورون أن ذلك خطاب لأهل المدينة فى العصر الذهبىّ للرسالة، كلاّ كلاّ، إنه خطاب لكل الأمة المحمدية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فى كل أطوارها وأزمنتها وأمكنتها، وفى كل ظروفها وبيئاتها بل وكل نواحى حياتها، فمن رضىَ بذلك فله الرضى، ومن سخِطَ فليُبَوِء نفسه أى مبوَءٍ شاء، ﴿**لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من**

الغى﴾[١٥]. كيف لا يكون هذا الدين الإسلامى تكريماً للإنسان وقد التقطه من سفوح كان يتردى فيها فاقداً لإنسانيته.

ثانياً : إن إتمام نعمة الله على الإنسانية يتجلى فى تكريم الله للإنسان الذى أثبته له الإسلام بأن يكون قيماً على نفسه، محتملاً تبعة اتجاهه وعمله فهذه هى الصفة التى بها كان الإنسان إنساناً، حرية الاتجاه وفردية التبعة، وبها استخلف فى دار العمل، فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله وجهده فى دار الحساب، يقول الله تعالى : **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ❁ وأن سعيه سوف يُرى ❁ ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾**[١٦]، وشتان بين نظرة الإسلام إلى الإنسان فى هذا الجانب المهم، حيث اعتبر خطيئته وتبعتها والتخلص منها أمراً فردياً وبين نظرة الكنيسة له حيث أثبتت تلك النظرة له الخطيئة قبل أن يولد، وحيث أثبتت أن عيسى عليه السلام كان صلبه باختيار منه ليُكَفّرَ خطيئة بنى آدم، **﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شكٍ منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً ● بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾**[١٧]، أما الإسلام فيقول **﴿أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ❁ وإبراهيم الذى وَفَّى ❁ ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾**[١٨]، ويقول كذلك : **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير﴾**[١٩].

ثالثاً : إن المنهج الذى جاء مع محمد ﷺ منهج يسعد البشرية كلها ويقودها إلى الكمال المقدر لها فى هذه الحياة، ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلى : جاءت كتاباً مفتوحاً للعقول لكل الأجيال، شاملاً لأصول الحياة البشرية التى لا تتبدل، مستعداً لتلبية الحاجات المتجددة التى يعلمها خالق البشر، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير. ولقد وضعت هذه الشريعة أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة، وأجازت للبشرية بل وقد أوجبت فى بعض الأحيان أن

تستنبط الأحكام الجزئية التى تحتاج إليها فى ارتباطات حياتها النامية المتجددة وظروفها المتغيرة، واستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة وملابساتها، دون اصطدام بأصول المنهج الدائم، وكفلت للعقل البشرى حرية العمل، بكفالة الحق فى التفكير، وبكفالة مجتمع يسمح لهذا العقل بالتفكير، ثم تركت له الحرية فى دائرة الأصول المنهجية التى وضعت لحياة البشر كيما تنمو وترقى وتصل إلى الكمال المقدر لحياة الناس فى هذه الأرض[٢٠].

رابعاً : إن المنهج الذى جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين فى الشعائر والتشريعات والسلوك والعلاقات والقيم والمبادئ وفى مناحى الحياة كافة، إنه حيال تلبيته رغبات البشرية وفى النمو والتقدم لا يكبت طاقاتها فى صورة من صور الكبت الفردى أو الجماعى، ولا يحرمها الاستمتاع بثمرات جهدها وطيبات الحياة التى تحققها، قال تعالى : **﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾**[٢١]، ذلك أن قيمة هذا المنهج تكمن فى أنه متوازن متناسق، لا يعذب الجسد ليسمو بالروح، ولا يهمل الروح ليستمتع الجسد، ولا يقيد طاقات الفرد ورغائبه الفطرية السليمة ليحقق مصلحة الجماعة أو الدولة، ولا يطلق للفرد نزواته وشهواته الطاغية المنحرفة لتؤذى حياة الجماعة، أو تسخرها لإمتاع فرد أو أفراد. وتلك الحياة الطيبة حقاً، كما أن هذه الشريعة السمحة أباحت للإنسان أن يستمتع بالطيبات من رزق الله، ومما سخره له دون إفراط أو تفريط، قال تعالى: **﴿قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾**[٢٢].

خامساً : لقد جاء الإسلام لينادى بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية، لتلتقى فى عقيدة واحدة وحقوق يشترك فيها الجميع على أساس العدل والمساواة، وتَبِعات وجزاءات كل فرد فيها حسب ما قدمه ويقدمه، يقول الرسول ﷺ فى حجة الوداع: «**كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى**»[٢٣].

سادساً : إن الإنسانية قد كانت فى الفترة التى سبقت هذه الرسالة متردية فى سفوح الجاهليات المتعددة ، فى تصوراتها الاعتقادية، وفى أوضاعها الاجتماعية، وفى أخلاقها الفردية والجماعية، وفى علاقاتها وارتباطاتها، وفى مجال التحليل والتحريم، وفى ممارسة الشعائر، فجاء الإسلام ليلتقط الإنسانية جمعاء منذ بزوغ فجر الرسالة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من تلك السفوح كلها، فقد التقطها من سفح الجاهلية وسار بها فى الطريق الصاعد إلى القمة السامقة، فإذا هى على القمة تنظر إلى تلك الوهاد والسفوح من علٍ ، وإلى من شاء باختياره أن يبقى متردياً فى زواياها.

كذلك جاء الإسلام ليلتقطها من سفح الجاهلية فى التصورات الاعتقادية حول ربوبية الأصنام والملائكة والجن والكواكب وطواغيت البشر، ومن سائر الأساطير الساذجة والخرافات السخيفة، لينقلها إلى أفق التوحيد إلى أفق الإيمان بإله واحد قادر قاهر رحيم ودود سميع بصير عليم خبير عادل قريب مجيب، لا واسطة بينه وبين أحد والكل له عباد والكل له عبيد، ومن ثم حررها من سلطان الكهانة ومن سلطان الرياسة الظالمة، كما حررها من سلطان الوهم والخرافة.

وكذلك جاء الإسلام ليلتقطها من سفح الجاهلية فى الأوضاع الاجتماعية من الفوارق الطبقية ومن العادات الزرية ومن الاستبداد الذى كان يزاوله كل من تهيأ له قدر من السلطة ولا أدل على ذلك من الأوضاع العربية السائدة قبيل بزوغ فجر هذه الرسالة وظهور نورها، فقد كانت آنذاك القدرة على الظلم قرينة بمعنى العزة والجاه فى عرف السيد والمسود من أمراء الجزيرة من أقصاها فى الجنوب إلى أقصاها فى الشمال، وقل مثل ذلك فى العالم الرومانى والعالم الفارسى قطبى العالم فى تلك الفترة، أما الأوضاع العربية فحدث عنها ولا حرج، فما كان الشاعر النجاشى إلا قادحا مبالغا فى القدح حين استضعف مَهْجُوَّه لأن قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل، كما فى قوله :

قَبِيلَةٌ لا يغدرون بِذِمَّةٍ ولا يظلمون الناس حبة خردلِ

وما كان حجر بن الحارث إلا ملكاً عربيًا حين سام بنى أسد أن يستعبدهم بالعصا وتوسل إليه شاعرهم عبيد بن الأبرص حيث يقول :

أنت الملك فيهم وهم العبيد إلى القيامةِ ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الخزامة

وكان عمرو بن هند ملكاً عربيًا حين عَوَّدَ الناس أن يخاطبهم من وراء ستار، وحين استكثر على سادة القبائل أن تأنف أمهاتهم من خدمته فى داره ، وكان النعمان بن المنذر ملكاً عربيًا بلغ به العَسَف أن يتخذ لنفسه يومًا للرضى يغدق فيه النعم على كل قادم إليه خبط عشواء؛ ويومًا للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح إلى المساء، وقد قيل عن عزة كليب وائل إنه سمى بذلك لأنه كان يرمى الكليب حيث يعجبه الصيد فلا يجسر أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه، وقد قيل فيما يضرب من أمثال : (**لا حُر بوادى عوف**)؛ لأنه من عزته كان لا يأوى بواديه من يملك حرية فى جواره فكلهم أحرار فى حكم العبيد، وخذ من الشواهد على ذلك ما شئت من تاريخ العرب قبل الإسلام(٢٤)، وكذلك جاء الإسلام ليلتقط البشرية من سفح الجاهلية فى التقاليد والعادات والأخلاق والصلات الاجتماعية، ألم تكن عند العرب البنت الموءودة والمرأة المنكودة وعندهم وعند غيرهم الخمر والقمار والعلاقات الجنسية الفوضوية والتبرج والاختلاط مع احتقار المرأة ومهانتها والثارات والغارات والنهب والسلب؟ إن الإسلام قد أنشأ أولاً من العرب أمة تطل من القمة السامقة على البشرية كلها فى السفح فى كل جانب من جوانب الحياة فى جيل واحد عرف السفح وعرف القمة عرف الجاهلية وعرف الإسلام، لا ليكون هذا الدين لهم وحدهم بل ليكونوا قادة للأمم إلى الصراط المستقيم رواداً للنهضة والعمران والحضارة الإنسانية جمعاء، وأوجب على هذه الأمة أن تسير فى هذا المشروع فى نهج الوسطية والاعتدال كما أراد الإسلام، قال تعالى : ﴿**وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾(٢٥).

سابعاً : إن المسلم حينما ينطلق فى دعوة غيره إلى الدخول فى الإسلام يجب عليه أن يضع نصب عينيه أنه لا يدعو غيره للدخول فى هذا الدين ليكون له السلطان والهيمنة عليه، بل ليشركه فى الأخذ بأوفر نصيب من هذا الخير المتدفق الذى أفاضه الإسلام، وليقتبس من نوره المتألق مشعلاً به يجوب آفاق الحياة، أما السيادة والقيادة فإنما تكون بالمؤهلات التى اعتبرها الإسلام معياراً ومقياساً.

هذا إيضاح تكريم الإنسان على جهة الإجمال، وخلاصة القول أن الإسلام كغيره من التشريعات الإلهية التى جاءت على ألسنة الرسل واحداً تلوَ الآخر، تلك الشرائع التى لم يشبها التحريف ولم تُطوَّع لهوى مخلوق، جاءت كلها بإرساء مبدأ

تقرير حقوق الإنسان من حيث هو إنسان، كما تضافرت كلها على ذلك - وفى ذروة تلك الشرائع شريعة الإسلام التى هى خاتمة الشرائع - تضافرت على إيجاب صون هذه الحقوق وحفظها، وإحاطة هذه الحقوق بالرعاية وشمولها بالعناية بدءاً من أولى الأمر وانتهاءً مع الأشخاص العاديين، على أن الإسلام وهو دين اللّه ورسالته الخاتمة إلى البشرية، أقام المنهجَ المتكاملَ للحياة الإنسانية، على قواعد ثابتة وجعل له أصولاً راسخة ومبادئ خالدة، بل إن الإسلام اعتبر التفريط فى حقّ من حقوق الإنسان، تفريطاً فى جنب اللّه، وتعدّياً على حدوده، وخروجاً على سنة اللّه فى خلقه.

ومن أجل ذلك ، كان حقّ الفرد والمجتمع فى الشريعة الإسلامية حقّاً للّه تعالى، وإنما كان ذلك كذلك لشمول نفعه وعظيم خطره وبالغ تأثيره على الحياة الإنسانية كلِّها بل وعلى الكون أجمع.

والحقُّ فى الشريعة الإسلامية يمثّل القاعدة الأساس للتشريع كلّه، وتأسيساً على هذه القاعدة، فإن حقوق الإنسان فى المنظور الإسلامى، هى حقوق اللّه يترتَّب على الوفاء بها وأدائها على خير الوجوه، خلوصُ العبودية للّه، والطاعة له سبحانه، والقيامُ بتكاليف شرعه الحنيف، والجزاء العاجل والآجل، وبذلك يرتقى المفهومُ الإسلامىُّ لحقوق الإنسان إلى مقام العبادة الرفيع، باعتبار أن تلك الحقوق هى فى الشريعة الإسلامية واجباتٌ دينيةٌ ، ومن الفروض الشرعية، وهذه درجةٌ من التكليف تطوق الإنسانَ بمسؤولية كبرى، أمام ربّه سبحانه وتعالى، ثم أمام نفسه ومجتمعه والإنسانية جمعاء، **﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً • ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾**(٢٦).

إن هذا البحث لا يتسع لتفصيل حقوق الإنسان التى كفلها الإسلام له إعزازاً وتكريماً وألزم كل فرد من معتنقيه بتحقيقها والذود عنها مهما كان الثمن ومهما كانت التضحية بدءاً من حقه إذ كان جنيناً وانتهاءً بحقه حين يوارى فى مثواه الأخير، ولكنى أُطِل إطلالة على قمة ذلك التكريم الذى أثبته الإسلام للإنسان ألا وهو استخلافه فى الأرض.

قمة تكريم الإسلام للإنسان
(الخلافـة)

إن الخلافة فى مصطلحها اللغوى تعنى أحد مفهومين :

١ - النيابة عن الغير من أجل تنفيذ إرادته.

٢ - القيام بدوره الذى يؤدّيه هو أصالة.

ومن هذا المنطلق فإن وصف الإنسان بكونه خليفة يعنى : **النائب والقائم بالدور الموكول إليه نيابة عن غيره**، وعلى هذا الأساس فنيابته إما أن تكون لغيبة المنوب عنه، وإمّا لموته، وإمّا لعجزه، وإمّا لتشريفه (**المستخلَف**)[٢٧]. فماذا يعنى وصف الإنسان بكونه خليفة الله على هذه الأرض كما فى قوله تعالى : **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾**[٢٨]، وكما فى قوله تعالى : **﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾**[٢٩].

مما لا ريب فيه أن المراد باستخلاف الإنسان على الأرض تشريفه وتكريمه ليضطلع بالمهام التى أوكلها إليه من استخلفه على أكمل وجه وأحسنه بالشروط التى أرادها المستخلف وبالخطة التى رسمها له. لا لعجز المستخلِف، ولا لإشراك هذا الخليفة فى خصائص المستخلِف وكمالاته. لأن هذا الاستخلاف فى حقيقته إنما هو اختبار لقدراته ومدى استجابته لتحمل هذه الأمانة وهو فى أساسه تشريف وتكريم، ذلك أن القرآن الرسالة الإلهيه المعبِّرة عن إرادة الله، والوثيقة الربّانيّة الناطقة بلسان الحقيقة، والصيغة التعبيرية الكاشفة عن ضمير الوجود الكونى لهذا الإنسان، وهو وعاء الفكر والشريعه. ومنبع القيم ومقياس الحكم والتقويم للإنسانيّة فى هذه الحياة. والقرآن بصبغته العلمية، ودقّته التعبيريّة هو الذى أطلق على الإنسان اسم الخليفة، وهو الذى وضعه فى موضع الخلافة - **خلافة الله فى الأرض** - . فما حقيقة هذا الاستخلاف؟ وما الغاية منه؟، وما الهدف الأسمى من هذا الاستخلاف ؟ وما الشرط الذى يتأهل باستيفائه هذا الإنسان ليكون خليفة؟، وما آثار ذلك فى دنيا الوجود؟ وهل جَعْلُ الإنسان خليفة

فى الأرض يعنى حصره فيها وعدم كفاءته لخلافة أخرى على غير الأرض؟ وبمَ تتحقق تلك الخلافة؟

فى استطاعتنا أن نجيب باختصار على هذه التساؤلات فى الومضات التالية :

أولاً : **حقيقة الاستخلاف** : إن الاستخلاف فى الأرض ليس مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم إنما هو ذلك كله على شرط استخدامه فى الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذى رسمه الله للبشرية كى تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها فى الأرض، اللائق بخليقة أكرمها الله. إن الاستخلاف فى الأرض فى نظر الإسلام يعنى: القدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، والقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر، والقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشرى، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارك الحيوان؛ (30).

ثانياً : **الغاية من الاستخلاف** : إن الغاية من استخلاف الله لهذا الكائن الذى هو الإنسان على هذا الكوكب تجليه غاية التجلية هذه الآية : **﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويسفكُ الدّماء ونحنُ نسبحُ بحمدك ونقدّسُ لك قال إنّى أعلمُ ما لا تعلمُون﴾**(31)، لقد فهمت الملائكة تلك الغاية من خلال علمها بمراد الله من إيجاد الخلق كما قررت ذلك الآية وذلك هو تسبيح الله وتقديسه بدلالة قولهم النافى للحاجة إلى خليفة فى الأرض مادام التسبيح والتقديس قائماً، وأحقيّة المسبّحين والمقدّسين بالخلافة دون غيرهم، وهذه الغاية - أعنى التقديس والتسبيح - هى رسالة الإنسان فى هذا الوجود بأكملها وهى مسؤوليّته على هذه الأرض، وهى منهج سعادته، ومحتوى عهده وميثاقه مع الله، فالتسبيح هو التنزيه الذى هو لب التوحيد المقتضى لنفى الشّرك، والمقتضى للاستهانة بكل طاغوت وصنم ومقدّس غير الله مما لم يأمر بتقديسه.

فبالتسبيح تُسقط الإنسانيّة شوائب النقص ومظاهر الفساد من حياتها بعد أن تنزّه معبودها عنها وتنفيها عنه، وبالتسبيح تنمو فى الإنسانيّة روح الاتجاه إلى الكمال المطلق، وتشعر بالاتجاه نحوه والسعى إليه، وبالتسبيح لله وحده يعلن الإنسان تحرّره من عبوديّات الأرض وطواغيت البشر.

وبالتقديس تعظّم الإنسانية الكمال الإلهى، وتراه غاية قصوى تسعى نحوه على هذه الأرض لتصوغ من إنسانيتّها صيغة تتشرف وتسمو بعبادة هذا المعبود المقدّس، وتتفيأ ظلاً يحاكى ذلك الملكوت فى البعد المقدّس، وظلاً يحاكى ذلك الملكوت فى البعد عن الشرّ والفساد، لتقيم فى أعماقها موازنة الحساب بين غايتها العليا التى تشدّها إليها ودوافع التقديس والتسبيح، وتوافه الحياة ونوازع الفساد التى تلحُّ عليها بالخروج على هدف الاستخلاف ومسؤوليّة الخلافة الموكلة للإنسان.

ثالثاً : الهدف الأسمى من الاستخلاف : قال تعالى : **﴿يا داود إنا جعلناك خليفةً فى الأرض فاحكم بين النّاس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾**[٣٢]، إن القرآن بخطابه هذا ربط ربطاً موضوعياً عميقاً بين خلافة الإنسان فى الأرض وقيام الحكم والسياسة على أساس مبادئ الحقّ والعدل، فجعل الحكم بالحقّ هدفاً أسمى من أهداف الخلافة الإنسانية فى الأرض وجانباً مهماً من جوانب تحقّقها، لأنّ الحكم فى نظر القرآن هو إحقاق لمبادئ الحقّ والعدل، وتطبيق لإرادة الخير في كل المبادئ والأهداف.

والإنسان حينما يمارس مسؤوليّة الحكم والسياسة هذه ويتصدى لمهمّة التوجيه والقيادة إنّما يريد أن يحقّق إرادة الله العادلة الخيّرة فى هذه الأرض، فيكون هو النائب والوكيل والمستخلف لتنفيذ هذه المهمّة وفق هذه المبادئ وعلى هدى هذا المنهج. قال تعالى : **﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عمّا جاءك من الحقّ لكلّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ❖ وأن احكم**

بينهم بما أنزل الله ولا تتَّبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من النّاس لفاسقون ❁ أفحكم الجاهليّة يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾(٣٢). ففى هذه الآيات نقرأ تكرار كلمة (**الحكم**)، ونرى تأكيد القرآن على ضرورة الالتزام بمبادئ الحقّ، والعمل بمنهج القرآن فى مجالات الحكم والسياسة والتوجيه الإنسانى العام.

وإذا عدنا إلى الآية السابقة التى حكت لنا الخطاب الإلهى الموجّه إلى داود ـ عليه السلام ـ والتى ربطت بين الخلافة والحكم ـ إذا عدنا إليها ـ وربطنا بينها وبين هذه الآيات التى تخاطب رسول البشريّة محمّد ﷺ وتطالبه ومتبعيه بتطبيق المنهج الإلهى فى الحكم والسياسة، نستنتج منها ما يعزّز فكرة الربط بين خلافة الإنسان فى الأرض وبين الحكم والعمل بمنهج العدل الإلهى، لنصل إلى اكتشاف الضرورة الحتميّة ضرورة الربط بين خلافة الإنسان فى الأرض وحملها لمعانى الحقّ والعدل، وإظهار آثار العدل الإلهى فى ربوعها بين البشر عن طريق الحكم والسياسة، لتُرى مظاهر الخلافة الإنسانية واضحة جليّة، بعيدة عن الظلم ولبس الحق بالباطل، وليرى الإنسان وفيّا مخلصاً لمبادئ الاستخلاف وأهداف الخلافة.

رابعاً : شرط تأهل الإنسان للاستخلاف : إن أهم الشروط التى يتأهل بها الإنسان لأن يكون خليفة الله فى أرضه : الإيمان، ذلك الإيمان الذى يستغرق النشاط الإنسانى كله. بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه مع ربه، ذلك الإيمان الذى يملك على الإنسان حركاته وسكناته المثمر لوجل القلب عند استحضار ربه المؤمن به وذكره إياه، وعند تلاوته لآياته يزداد ويزداد، ذلك الإيمان الذى يتبلوّر فى العبادة التى هى كمال المحبة وغاية الخضوع للرب الذى يؤمن به. كما قال سبحانه: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم**

وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾(٣٤).

إن الإيمان الذى يؤهل الإنسان لتلك الخلافة هو ذلك الإيمان المتمثل فى منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به، ويدخل فيما أمر الله به: توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى فى الأرض .. أمانة الاستخلاف، وهذا هو لب العمل الصالح وجوهره المَعْنِىّ صراحة بقول الحق سبحانه : **﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾**(٣٥). والعمل الصالح هو الذى يكون منطلقه قاعدة الإيمان ، فبدون الإيمان لا يعد العمل شيئاً حتى ولو كان صالحاً، كما أن الإيمان لا يتبلوَر فى الواقع المنظور وفى ساحة الوجود إلا إذا أبرزه العمل الصالح، فهما جناحان متوازيان لا يحلق الإنسان إلى مستوى المسئولية ـ مسئولية الاستخلاف فى الأرض ـ بدونهما معاً، وهما تياران متعادلان كالموجب والسالب يُحَوِّلان إرادة الإنسان والتى هى من أخص خصائص الإنسانية إلى أفعالٍ نبيلةٍ يسعد بها عالم المخلوقات، وفى مقدمة من يسعد بها هذا الإنسان الذى هو ميدان المعركة بين الخير والشر فى هذا الوجود، وهو وحده الخاسر أو الرابح.

خامساً : أثر الاستخلاف فى دنيا الوجود : إنّ من أثر الاستخلاف حفظ الحياة والإصلاح فى الأرض وإعمارها وملؤها بالعمل والعمران وشتى مظاهر المدنية والحضارة بدلالة اعتراض الملائكة على إيجاد الإنسان الذى لا يحترم الحياة ولا يصلح فى الأرض، وتصريحهم بعدم صلاحيَّتِهِ للخلافة فى الأرض مادام يفسد فيها ويسفك الدماء، لأنّ كلاً من الفساد وسفك الدماء عمل معاكس لمنطق الوجود الذى ألفته الملائكة واعتادت على تقبّله، وهذا التعبير الملائكى يعكس بصورة إيجابيّة منطق القرآن ونظرته إلى هذه الحقيقة الهامّة فى الحياة، حقيقة الخلافة وارتباطها بإصلاح الأرض وملئها بعناصر الخير والسّلام، كما دلّت آيات أخرى على هذه المسؤولية البشرية وآثارها فى دنيا الوجود، كالذى ورد على

لسان صالح ـ عليه السلام ـ: **﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب﴾**[٣٦].

سادساً : صلاحية الإنسان لخلافته على غير الأرض : إن هذا الإنسان هذا الكائن الذى هو مظهر من مظاهر مشيئة الله فى الوجود، أطلقت هذه المشيئة العليا يده على هذا الكوكب الأرضى وجعلته مظهراً من مظاهرها فى التصرف فى هذه الأرض بالتغيير والتبديل والتحليل والتركيب والإبداع والتحوير، لا الخلق والتصريف، وأكرمته هذه المشيئة بالخلافة عليها على مقتضى تشريعات المستخلِف، تلك التشريعات التى جاءت فى جوهرها ومضامينها لتكفل للإنسان مقومات الإنسانية ولتحفظ له قِيَمه التى هى أعلى وأغلى من القيمة المادية لهذه الأرض وما احتوت عليه، ولقد سَخَّرَ الله له كافة الإمكانات لتكون له معواناً على تنفيذ ما أراد الله منه أن ينفذه من أحكام ومقتضيات، فسَخَّر له ما فى السماوات والأرض، وسخر له الكواكب الأخرى والمجرات الأخرى غير الأرض من شمس وقمر وغيرهما، وقد جاءت النظرة القرآنية للإنسان على أنه عامل مهم فى نظام الكون أجمع، ملحوظاً فى هذا النظام كله بقيَمه ومقومات إنسانيته فوق الماديات، إذ خلافته على هذه الأرض تتعلق بارتباطات شَتَّى مع المخلوقات الأخرى غير الأرض من سماوات ورياح وأمطار، ومن شموس وكواكب وأقمار، وكل الكائنات تلك ملحوظ فى تصميمها إمكان قيام الحياة على الأرض، وإمكان قيام هذا الإنسان بالخلافة، وبعد : فهل يعنى تسخير تلك الكائنات وإكرام الإنسان بخلافته على الأرض عدم صلاحيته لأن يعيش على غيرها ويستخلف على غيرها كما استخلف على الأرض، منفذاً إرادة الله سبحانه ومظهراً من مظاهر قدرته، وأن يُمَكَّن من التحليل والتركيب والتصرف والتحوير فى غير كوكبه الأرضى الذى خلق منه وإليه سيعود، ثم يخرج منه تارةً

أخرى؟، ثم هل يمكن أن تسخر له مخلوقات أخرى لتكون عوناً له على الحياة فى غير الأرض بل وعلى استخلافه على ذلك؟، للإجابة على هذا التساؤل علينا أن نستعرض النصوص القرآنية متدبرين متأملين بعيدين على الغلو والمبالغة.

(أ) قال تعالى : **﴿وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**(٣٧).

(ب) قال تعالى : **﴿الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمىً يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾**(٣٨).

(جـ) قال تعالى : **﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار﴾**(٣٩).

إن هذه النصوص توحى بأن تلك المخلوقات مُسَخَّرَة مُذَلَّلة مُهَيَّئَة ليستفيد منها الإنسان أكبر قدر ممكن من الاستفادة، ولتكون له عوناً للحياة فى رحلته الأولى فى دار الدنيا، وأنَّ يده طليقة فيها بلا حدود، وأنَّ ذلك الإطلاق لا يتقيد باستخدام منافعها الجزئية والانتفاع بموادها فحسب - كما أشار إلى ذلك صاحب ظلال القرآن رحمه الله(٤٠) - وبرهان ما أقرره أن رُوَّاد الفضاء أمكنهم أن يعيشوا على سطح القمر فترات طويلة، وأن يستمتعوا بمناخه، وأن يأخذوا عينات من خاماته ومواده ليحلِّلُوها على الأرض، فإمكان الحياة والمكث الطويل فى القمر لايجعل من المستحيل أن يكون الإنسان بعد خليفة على غير الأرض يحلِّل ويُرَكِّب ويتصرَّف ويُحَوِّر على مقتضى نواميس الكون وتسخير الله للإنسان ما امتن عليه بتسخيره ، بل يبرهن بوضوح على إمكان استخلاف الإنسان على غير الأرض إذا شاء الله ذلك وأراده، أما النصوص الصريحة التى تُمَلِّكُ الإنسان الخلافة على الأرض وتطلق يده فيها من مثل قول الحق: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾**، ومن مثل قوله سبحانه : **﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض﴾**، ومن مثل قوله : **﴿هو الذى جعلكم خلائف**

فى الأرض﴾[٤١]، فإنها لا تمنعه أن يكون خليفة على غير الأرض، بل تمنحه الخلافة عليها دون تعرض لغيرها، ولا حصر لهذه الخلافة فى الأرض وحدها، ومفهوم تعلق الحكم بالاسم هنا مفهوم لقب، لأنه تعلق بذات مسمى لا بصفة من صفاته أو شرط أو غاية حتى يكون المفهوم حجة، فمفهوم اللقب عند الأصوليين هو : ما فهم من تعليق الحكم على الذات[٤٢]، وهذا المفهوم ليس حجة باتفاق من يعتد باتفاقه من العلماء، فضلاً عن اختلافهم فى حجية باقى المفاهيم من مثل مفهوم الصفة والعدد والغاية والحصر والشرط[٤٣] وهى معدومة فى هذه النصوص، وقد جاء عن النبى ﷺ: «**إنما الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون**»، والدنيا اسم شامل لكل تلك الكائنات التى سخرت للإنسان إذ هى اسم لهذه الدار بكل محتوياتها مما خلق فيها سابقاً وسيخلق لاحقاً إلى أن يأذن الله بخراب هذا العالم وانتقال هذا الإنسان إلى دار الجزاء والخلود الدائم.

إذاً فالإسلام وهو السبَّاق إلى هداية الإنسان وإرشاده لكل ما يسعده ويعينه على حمل الأمانة الكبرى المعروضة على السماوات والأرض، يقول للإنسان بكل صراحة : (**الحياة حياة انطلاق لا جمود، وحرية لا انغلاق، فى حدود القيَم السامية التى أراد مستخلِفه وخالقه أن يتحلى بها، وحدود المحافظة على مقومات الإنسانية التي من أشرفها الحرية المتمثلة فى العبودية لله وغاية الخضوع له**).

فالقرآن يوضّح مسؤوليّة الإنسان الخليفة فى إعمار الأرض والهدف من استخلافه ﴿**واستعمركم فيها**﴾ بإحيائها وإصلاحها باستثمار خيراتها، من تراب وماء ومعادن ونبات، وخامات وطاقات، واستثمار كل ذلك استثماراً ملتزماً بمنهج الخلافة وقوانينها، قوانين الحقّ والعدل التى بشّر بها الأنبياء.

سابعاً : ما يتحقق به الاستخلاف : لا تتحقق الخلافة الإنسانية على ما استُخْلِفَ عليه الإنسان على أكمل وجوهها، وفى أجمل صُوَرِها، وأوسع معطياتها، وأثبت ما يكون من دعائمها إلا بأمرين أساسيين، فإذا فقدا

معاً انعدمت تلك الخلافة ولم يعثر لها على أثر، وبوجود أحدهما بدون الآخر توجد شوهاء منقوصة ليس لها فى الحياة دور مؤثر وإن ارتفعت أعلامها إلى حين أو برزت معالمها فى مكان.

أول الأمرين الأساسيين : الصلة بالله، الصلة التى تؤمن للحياة مقوماتها، وتضفى على كل من المستخلَفِ والمستخلَفِ عليه الجمال والكمال، وهذه الصلة لايمكن أن تتجسد أو تتبلوَر إلا حيث النظافة والطهر والنماء، حيث التزكية، تلك التزكية التى تعنى تطهير الضمير والقلب والشعور والخواطر والنفس فى كل أغوارها، وتلك هى تزكية الباطن، كما تعنى تطهير السلوك والعلاقات المؤدية إلى تطهير الأعراض والقيَم والجوارح وسائر الارتباطات، وتلك تزكية الظاهر، إن التزكية أول مبدأ من مبادئ الرسالة التى جاءت لترتفع بالإنسانية من دركاتها وسفوحها التى طالما تردَّت فيها وتمرغت فى أوحالها، تلك الرسالة التى جاءت لتضع أقدام الإنسانية على الجادَّة حيال تلك الخلافة لتؤهله لها. إن أول ما يطالعنا فى بيان مبادئ هذه الرسالة : التزكية التى تعنى أكثر من تحصيل النمو، والتنشئة التى تعنى التربية الصحيحة على أقوم منهاج والطهارة النقية الشاملة، يكفى أن نقرأ هاتين الآيتين بإمعان وتدبر : **﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾**(٤٤)، **﴿هو الذى بعث فى الأُميّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾**(٤٥).

إن الإنسان المزَكى هو الذى يتم تخليصه وتنقيته من كل المعوقات التى تحول دون اضطلاعه بمهام الخلافة سواء كانت تلك المعوقات أمراضاً جسمية أم أمراضاً عقلية ونفسية أم روحية وخلقية، وكل صلة منبتة عن الصلة بالله ففيها كل ذلك أو بعضه. وما أنزلت الكتب ولا أرسلت الرسل إلا لتزكية الإنسان وتطهيره وتصفيته وتنقيته من كل بادرة شر أو شائبة رذيلة.

أما الأمر الأساسى الثانى : فإنه العلم، بكل معطياته وأبعاده وآفاقه الواسعة وأرجائه الفسيحة كما بينت ذلك الآيتان اللتان قرنته بالتزكية، الذى لا أثر للتزكية بدونه ولا انتفاع به دونها، وتذييل الآيتين ببيان ما كانت عليه الأمم

قبل مبعث الرسالة من ضلال مبين ظاهر للعيان فى كل آفاق الحياة وأوضاعها برهان ساطع على أن الخلافة لا تقوم على جهل أبداً، على أن تعليم الكتاب والحكمة لا يعنى الاقتصار على إفهام نصوص الشريعة أو فهمها، أو تعلم اللغة التى يُستطاع إدراكه بها وإن كان ذلك من الأولويات، ولم يتأخر العالم الإسلامى، ولم يكن فى ذيل قافلة الأمم المتحضرة إلا حينما ضُيِّقَت فيه آفاق العلم ودوائر المعارف الإنسانية، واقتُصِرَ فيه على تعلم نصوص الشريعة فحسب، أو على جانب من معطياتها، ورفع الشعار الزائف المقتضى لفصل دين الله عن عموم الحياة ونواحيها المختلفة، وجعله قاصراً على الشعائر أو السلوكيات، **﴿إن الدين عند الإسلام﴾**[٤٦]. هذا الإسلام الذى كانت به الأمة خير أمة أخرجت للناس عِزَّةً وقوة، وهيبة ومنعة، **﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾**[٤٧]، **﴿قل هل يستوى الذى يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب﴾**[٤٨].

إن التنويه بشأن العلم وإبراز اعتبار دين الإسلام إياه أقوى ركائز الاستخلاف ودعائمه، والإفاضة فى ذلك يستغرق مجلدات فضلاً عن استيعابه أو الاقتراب من استيعابه فى بحث كهذا. وإذا لم يكن بُدٌّ من الإشارة فما علينا إلا أن ندرك - ولو بإطلالة - الحجة والبرهان على الملائكة فى الحوار معهم على أحقية هذا الإنسان بالخلافة، حيث قال الحق سبحانه : **﴿وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ❖ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ❖ قال يا آدم أنبئهم بأسمائِهم فلما أنبأهم بأسمائِهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾**[٤٩].

إن الملائكة الكرام لما أدركوا ما عسى أن يصدر عن هذا الخليفة من تدمير وهدم وإفساد وإزهاق للأرواح إما بإلهام من الله أو بشواهد من الحال أو إدراك نابع من تجارب سابقة لما أدركوا قصور هذا الخليفة أو تقصيره المتوقع بما ركب فيه من ميلٍ إلى الإفساد لم يُقِم الله سبحانه عليهم الحجة على أحقية الإنسان بالخلافة وتأهله لها بأن ينزهه عن تلك العيوب، أو تكون فطرته كفطرتهم لا تعرف إلا الخير ولا تألف إلا الطهر، وإنما أقام عليهم الحجة على تلك الأحقية

بأنه سيكرمه بالعلم الواسع الآفاق المتجدد العطاء، فَسَلَّمُوا وأذعَنُوا مستخدمين نفس الأسلوب فى التعبير، مكررين كلمة العلم ومشتقاته : **﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾**، والعلم والحكمة قرينان حيث وجد هذا وجد الآخر ، وذلك بصرف النظر عن كيفية ذلك التعليم أو سعة ذلك العلم الحاصلَين فى أروع حفل لتكريم الإنسان الذى أُمِرَ الملائكة فيه بالسجود له إجلالاً وإكباراً بعد نفخة الله فيه من روحه.

أما الإسلام الذى جاء لينتشل الإنسانية جمعاء من تلك الوهاد، فأول آية فى كتابه الخالد خوطب بها أول مرة ذلك الرسول الخاتم : **﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الإنسان ما لم يعلم﴾**(٥٠)، يا لسَعَةِ أفق هذا العلم ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

خروج الإنسانية عن مظهر التكريم بالخلافة

إنه مما لا يمترى فيه عاقل ولا يخفى على ذى لب أن المتأهلين لاستخلاف الله وتكريمه بهذا الاستخلاف على هذه الأرض، هم أولئك الذين يحققون النهج الذى أراده الله، ويقررون العدل الذى أراده الله، ويسيرون بالبشرية خطوات فى طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله. فهل الكيانات العالمية الكبرى التى تعتبر نفسها أقطاباً تدير شؤون هذا العالم وتتحكم فيه مستخلفة من قبل الله؟

إن الذين يملكون ويقهرون ويفسدون فى الأرض، وينشرون فيها البغى والجور، وينحدرون بها من مدارج الكمال إلى مدارك الحيوان .. هؤلاء ليسوا مستخلفين فى الأرض، إنما هم مبتلُون بما هم فيه، أو مبتلى بهم غيرهم، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله، قال تعالى : **﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما ءاتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾**(٥١).

إن الناظر فى واقع العالم اليوم يدرك خطورة انحراف أولئك به فى شتى مجالات الحياة من التعمير إلى التدمير، ومن الرقى إلى الانحطاط، فالحضارة

المادية وإن بلغت أوجها ـ أو كادت ـ ليست إقامتها وحدها الهدف الأسمى من استخلاف الإنسان فى الأرض واستعماره فيها، إنما ذلك وسيلة لا غاية، ولا أدَلَّ على ذلك من أن الحضارات المادية البحتة تتهاوى وتسقط بأدنى مؤثر.

إن الحروب العالمية التى أودت بحياة الملايين، ودمَّرت المساحات الشاسعة من هذا الكوكب الأرضى، وغيرت البيئة الصالحة لأن يعيش عليها الإنسان الراقى الواعى الكامل القوى، وظهرت آثارها حتى على طبيعة الكون ومناخه، لبرهان ساطع على ما قررناه، وأسلحة الدمار المختزنة فى أرجاء المعمورة، والمعدة لدفع النكبات، والتخلص من الأزمات، والذود عن حمى الإنسانية لهى النكبات والأزمات بعينها، ولم تصبح تجدى نفعاً حتى للذين يخوِّفون بها من لا يمتلكها، وهم يدركون ذلك حقاً، فاستخدامها سيؤدى إلى دمار لم تشهده الحروب العالمية الطاحنة التى وقعت فى القرن الماضى.

وأخيراً أختم هذه الومضات بهذا السؤال : هل العالم الإسلامى متأهل الآن لأن يكون خليفة على هذه الأرض أو على أكبر منها أو أصغر؟.

أما الإجابة فتمليها أوضاع المسلمين أفراداً وجماعات، أوضاعهم السلوكية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية، وأوضاعهم حيال علاقاتهم فيما بينهم أنفسهم، ثم فيما بينهم وبين غيرهم على أسس إنسانية مرتكزة على الشعور الصادق بالمسؤولية من خلال الواقع المنظور لا من خلال الكتب والبحوث والشعارات والأقوال.

... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

... وصلِ اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ...

قائمة المراجـع

١ - القرآن الكريم.

٢ - صحيح البخارى للإمام محمد بن إسماعيل البخارى.

٣ - صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج.

٤ - سنن الترمذى.

٥ - سنن أبى داود للإمام الحافظ سليمان بن داود السجستانى.

٦ - الكشاف للزمخشرى.

٧ - فى ظلال القرآن لسيد قطب.

٨ - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقى.

٩ - معجم مفردات القرآن الكريم للراغب الأصفهانى.

١٠ - إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للمحقق الإمام محمد بن على الشوكانى.

١١ - شرح طلعة الشمس على شمس الأصول للعلامة نور الدين السالمى.

١٢ - الدلالات وطرق الاستنباط. د / إبراهيم الكندى.

١٣ - كتاب قصص العرب لـ محمد أبو الفضل إبراهيم.

الهوامـش

(١) الآية ٣ من سورة المائدة.

(٢) الآية ٨٥ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ٨٦ من سورة آل عمران.

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبدالباقى، دار الحديث - القاهرة، المطبعة المصرية ١/ ٢٠١٦ ـ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، كتاب الإيمان، باب تعريف الإسلام والإيمان، ١/١٥٧.

(٥) الآية ٧٢ من سورة يونس.

(٦) الآيتان ١٣٢ ، ١٣٣ من سورة البقرة.

(٧) الآية ١٣١ من سورة البقرة.

(٨) الآية ٨٤ من سورة يونس.

(٩) سنن أبى داود رقم ٣٠٥٧ .

(١٠) الآية ٤٠ من سورة النمل.

(١١) المفردات للراغب الأصفهانى.ش

(١٢) الكشاف للزمخشرى ج ٣ ص ١٤٤ .

(١٣) فى ظلال القرآن ج ٢ .

(١٤) الآية ٣ من سورة المائدة.

(١٥) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

(١٦) الآيات ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ من سورة النجم.

(١٧) الآيتان ١٥٧ ، ١٥٨ من سورة النساء.

(١٨) الآيات ٣٦ - ٣٨ من سورة النجم.

(١٩) الآية ١٨ من سورة فاطر.

(٢٠) فى ظلال القرآن ج ٤ ص ٢٤٠١ .

(٢١) الآية ٩٧ من سورة النحل.

(٢٢) الآية ٣٢ من سورة الأعراف.

(٢٣) صحيح البخارى ج ٢ ص٣٨٠ رقم ٨٩٣ ، الترمذى رقم ١٧٠٥ .

(٢٤) انظر كتاب قصص العرب لـ محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٤ ـ ج ١ ص ١٥٧ ، ج ٣ ص٣٥٦ .

(٢٥) الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

(٢٦) الآيتان ٧٢ ، ٧٣ من سورة الأحزاب.

(٢٧) الراغب الأصفهانى/ معجم مفردات ألفاظ القرآن/ ط. مطبعة التقدم العربى/ ص١٥٧ .

(٢٨) من الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢٩) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام.

(٣٠) فى ظلال القرآن لسيد قطب ج ٤ ص٢٥٢٩ .

(٣١) الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٣٢) الآية ٢٦ من سورة ص.

(٣٣) الآيات ٤٨ – ٥٠ من سورة المائدة.

(٣٤) الآية ٥٥ من سورة النور.

(٣٥) الآية٩٧ من سورة النحل.

(٣٦) الآية ٦١ من سورة هود.

(٣٧) الآية ١٣ من سورة الجاثية.

(٣٨) الآية ٢ من سورة الرعد.

(٣٩) الآية ٣٣ من سورة إبراهيم.

(٤٠) فى ظلال القرآن لسيد قطب ج ٤ ص٢١٠٧ – ٢١٠٨ .

(٤١) من الآية ٣٩ من سورة فاطر.

(٤٢) الدلالات وطرق الاستنباط. د / إبراهيم الكندى ص ٢٥٩ .

(٤٣) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الاصول للمحقق الإمام محمد بن على الشوكانى - دا رالمعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ص١٧٨، شرح طلعة الشمس على شمس الأصول للعلامة نور الدين السالمى - طبعة وزارة التراث والثقافة ص ٢٦٠ .

(٤٤) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران.

(٤٥) الآية ٢ من سورة الجمعة.

(٤٦) الآية ١٩ من سورة آل عمران.

(٤٧) الآية ٢٢ من سورة الأنفال.

(٤٨) الآية ٩ من سورة الزمر.

(٤٩) الآيات ٣١ - ٣٣ من سورة البقرة.

(٥٠) الآيات ١ - ٥ من سورة العلق.

(٥١) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام.

المحور الثانى

العلاقة بالآخر

العلاقة بالآخر

الأستاذ الدكتور/ خالد الشعيب
مدير إدارة البحوث والموسوعات الإسلامية
وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
الكويت

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبع هداهم إلى يوم الدين، وبعد،

فقد حبى الله تعالى المسلمين بشريعة كاملة كما قال تعالى:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾(١)

فبنزول هذه الآية أتم الله تعالى نعمه بإكمال الشرائع والأحكام.

ومن كمال الشريعة أنها نظمت علاقات الفرد المختلفة ـ علاقته بربه وعلاقته بأخيه الإنسان، علاقته بأسرته وعلاقته بالجماعة وولى الأمر ـ ووضعت الأحكام الشرعية الخاصة بكل علاقة، فأصبح المسلم يسير على بصيرة من أمره، يعرف حدود علاقاته وما يجب عليه أن يفعله وما يجب عليه أن يتركه.

ومن العلاقات التى نظمتها الشريعة الإسلامية: علاقة المسلم بغير المسلم من أهل الديانات السابقة، وهى علاقة لها طبيعة خاصة إذ هى قبل أن تكون علاقة بين فرد وفرد هى علاقة بين دين ودين وبين عقيدة وعقيدة وبين شريعة

وشريعة. والأساس الذى وضعته الشريعة الإسلامية لهذه العلاقة هو **﴿لا إكراه فى الدين﴾**[٢]، إضافة إلى الكثير من الأحكام التى تحدد هذه العلاقة وتنظمها.

ومن خلال هذه الأحكام عاش المسلمون مع غير المسلمين فى مجتمعات واحدة فى طمأنينة وأمان، بل فى كثير من الأحيان فضَّل غير المسلمين العيش مع المسلمين على العيش مع بنى جلدتهم؛ لما رأوه من المسلمين من عدل وإنصاف وصدق فى التعامل وسمو فى الأخلاق.

وفى هذا البحث ألقى الضوء على بعض الأحكام التى وضعتها الشريعة لتنظيم العلاقة بين المسلم وغير المسلم، آملاً أن تكون مقدمة لدراسات أخرى حديثة أوسع وأشمل يقدمها المختصون لبيان وجه الإسلام المشرق.

نظرة الإسلام إلى الديانات السماوية:

أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الكتب لإصلاح البشرية وإسعادها، وختم رسله بمحمد ﷺ، ورسالاته بالإسلام، قال تعالى: **﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾**[٣].

ومن أركان الإيمان: الإيمان بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة عليهم، قال تعالى: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾**[٤].

وقال النبى ﷺ فى حديث جبريل عندما سأله عن الإيمان قال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»**[٥].

وأصبح من أساسيات العقيدة الإسلامية الإيمان بمن سمَّى الله تعالى فى كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلاً سواهم وأنبياء لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى **﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾**[٦].

والإيمان بما سمَّى الله تعالى فى كتابه من الكتب المنزلة، من التوراة والإنجيل والزبور، والإيمان بأن لله تعالى - سوى ذلك - كتبًا أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى[٧].

قال الطحاوى: ونؤمن بالملائكة والنبيين، والكتب المنزلة على المرسلين ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين(٨).

ومع أن المسلمين يؤمنون بنبوة موسى ـ عليه السلام ـ وبكتابه التوراة، ويؤمنون بنبوة عيسى ـ عليه السلام ـ وبكتابه الإنجيل، إلا أنهم يؤمنون إيماناً يقينياً بأن التوراة والإنجيل قد لحقهما التحريف والتغيير، قال تعالى: **﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾**(٩)، وقال تعالى: **﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾**(١٠).

ولا أدل على التحريف مما نسب لله تعالى ولرسله فى التوراة والإنجيل من صفات لا تليق بهما.

فزعم اليهود فيما حرفوه من التوراة أن الله ـ تعالى ـ تعب من خلق السماوات والأرض فاستراح فى اليوم السابع(١١)، كما وصفوا الله ـ تعالى ـ بالجهل(١٢) والندم(١٣). وزعموا أن نوحًا ـ عليه السلام ـ شرب الخمر(١٤)، وأن لوطًا ـ عليه السلام ـ زنا بابنتيه(١٥)، وأن هارون ـ عليه السلام ـ صنع العجل لبنى إسرائيل لتكون آلهة لهم.(١٦)

وزعم النصارى أن عيسى ـ عليه السلام ـ ابن الله(١٧)، وأن نبى الله سليمان ـ عليه السلام ـ ابن زنا(١٨).

وبسبب هذا التحريف فسدت عقائد اليهود والنصارى، فنسخ الله ـ تعالى ـ رسالتيهما بالإسلام، وأمر الله ـ تعالى ـ جميع الناس بما فيهم اليهود والنصارى باتباع محمد ﷺ والتدين بدين الإسلام، قال تعالى: **﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فإن لله ما فى السماوات والأرض وكان الله عليمًا حكيمًا﴾**(١٩).

وأصبح الإسلام هو الدين الوحيد المقبول عند الله ـ تعالى ـ، قال تعالى : **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾**[٢٠]، وقال تعالى: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾**[٢١].

قال الألوسى: لا دين مرضى عند الله ـ تعالى ـ سوى الإسلام.

وعن أمير المؤمنين على ـ كرم الله وجهه ـ : «أيها الناس، دينكم دينكم فإن السيئة فيه خير من الحسنة فى غيره، إن السيئة فيه تغفر وإن الحسنة فى غيره لا تقبل»[٢٢].

المساواة بين البشر فى التصور الإسلامى :

كرَّم الله ـ تعالى ـ الإنسان وشرَّفه بأن خلق أباه آدم عليه السلام بيده ونفخ فيه من روحه، قال تعالى: **﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين • فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾**[٢٣]، وقال تعالى: **﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى﴾**[٢٤]، ولما كان البشر كلهم يرجعون إلى أصل واحد هو آدم عليه السلام فهم متساوون فى أصل الخلقة وفى التكريم الذى منحه الله ـ تعالى ـ له، قال تعالى: **﴿ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾**[٢٥].

فقد جعل الله ـ تعالى ـ الناس متساويين فى مادة التكريم والتفضيل التى هى: العقل، ومن ثم فلا تفاضل بين إنسان وآخر فى التكريم، فالكل مكرَّم كما يدل عليه قوله تعالى: **﴿بنى آدم﴾**.

قال القرطبى: وقد جعل الله فى بعض الحيوان خصالاً يفضُل بها ابن آدم، كجرى الفرس وسمعه وإبصاره، وقوة الفيل، وشجاعة الأسد، وكرم الديك وإنما؛ التكريم والتفضيل بالعقل[٢٦].

وقد ألغى الإسلام كل معايير التفاضل والتمييز فى المجتمع، واستثنى معياراً واحدًا فقط هو: معيار التقوى والعمل الصالح.

وقد أخرج البخارى «**أن النبى ﷺ مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودى، فقال: أليست نفسا؟**»(٢٧).

فمنذ أربعة عشر قرناً ألغى الإسلام معيار اللون، فلا فرق بين أبيض وأسود ولا بين أصفر وأحمر، قال النبى ﷺ لأبى ذر عندما عَيَّر رجلاً من الصحابة بأمه «**انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى**»(٢٨).

كما ألغى معيار الجنسية والقومية، قال النبى ﷺ : «**يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لافضل لعربى على أعجمى، ولا أعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى**»(٢٩).

كذا لم يعتبر الإسلام الجاه والمال معياراً للتفاضل منذ بداية ظهوره، فعن ابن مسعود قال: «**مر الملأ من قريش بالنبى ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، قالوا: يا محمد، رضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهم؟ اطردهم عنك، فلعك إن طردتهم أن نتبعك! فنزل قوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾**(٣٠).

وقد أكد الإسلام هذا المبدأ فى عباداته، فنجد المسلمين يقفون خلف الإمام فى الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة متساويين، يلتصق كتف الفقير بالغنى وصاحب الجاه بغيره.

ويلبسون ثوباً واحداً فى الحج، فيشعر الفقير بأن الغنى وصاحب الجاه لا يفضله بشىء، وأنهما سواء فى الدين.

وقد ساوى الإسلام بين أفراد المجتمع أمام القانون، لا فرق فى ذلك بين مسلم وغير مسلم، قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾**(٣١).

قال القرطبى: دلت الآية ـ أيضًا ـ على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه[٣٢].

وقد ضرب المسلمون الأوائل أروع الأمثال فى تطبيق مبدأ التساوى أمام القضاء حتى وقف أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ ـ وهو ابن عم النبى ﷺ ورئيس الدولة ـ أمام القاضى فى مقابلة غير مسلم فى خصومة.

فقد أخرج البيهقى بسنده قال: «خرج على بن أبى طالب ﷺ إلى السوق، فإذا هو بنصرانى يبيع درعًا، قال: فعرف على ﷺ الدرع، فقال: هذه درعى بينى وبينك قاضى المسلمين، وكان قاضى المسلمين شريح.. فقال شريح: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ فقال على: هذه درعى ذهبت منى منذ زمان، فقال شريح: ما تقول يا نصرانى؟ فقال النصرانى: ما أكذب أمير المؤمنين، الدرع هى درعى، فقال شريح: ما أرى أن تخرج من يده، فهل من بينة؟ فقال على ﷺ: صدق شريح، فقال النصرانى: أما أنا أشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يجىء إلى قاضيه، وقاضيه يقضى عليه، هى والله يا أمير المؤمنين درعك»[٣٣]، والمعيار المعتبر فى التفاضل بين الناس فى الإسلام هو: التقوى والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[٣٤]، قال القرطبى: وفى هذه الآية ما يدلك على أن التقوى هى المراعى عند الله ـ تعالى ـ وعند رسوله دون... الحسب والنسب[٣٥].

وعن أبى هريرة ﷺ: «**سئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ فقال: أتقاكم لله**»[٣٦].

قال النووى: أصل الكرم كثرة الخير، ومن كان متقيًا كان كثير الخير، وكثير الفائدة فى الدنيا، وصاحب الدرجات العلى فى الآخرة[٣٧].

ومعنى التقوى: مراعاة حدود الله ـ تعالى ـ أمرًا ونهيًا، والاتصاف بما أمر به، والتنزه عما نهى عنه[٣٨].

الأقليات غير المسلمة فى الدولة الإسلامية:

إذا أقام غير المسلم فى البلاد الإسلامية والتزم بأداء ما عليه من حقوق مالية(٣٩)، فقد أوجب الإسلام على المسلمين تجاه هذا الشخص حقوقاً، وأوجب عليه التزامًا.

أما حقوقه فهى:

أولاً: توفير الحماية والأمن له:

إذا أقام غير المسلم فى بلاد المسلمين صار من أهل دار الإسلام، وأصبح له حق الإقامة آمنًا مطمئنًا على نفسه وماله وعرضه، ووجب على المسلمين حمايته من كل مَنْ أراد به سوءًا، واسترجاع ما أخذ من ماله، حتى لو أُسر وجب استنقاذه(٤٠).

ولا يجوز مسه بأذى أو ظلم، قال النبى ﷺ: «**ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة**»(٤١). وقال عمر رضي الله عنه فى وصيته للخليفة بعده: «وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم»(٤٢).

ثانياً: عدم التعرض له فى عقيدته وعبادته:

الأصل فى التعامل مع أهل الكتاب الذين يعيشون فى البلاد الإسلامية تركهم وما يدينون، فيتركون وعقائدهم وأعمالهم التى يعتبرونها من أمور دينهم، كضرب الناقوس خفيفًا فى داخل معابدهم، وقراءة التوراة والإنجيل فيما بينهم.

ولا يمنعون من ارتكاب المعاصى التى يعتقدون جوازها كشرب الخمر، واتخاذ الخنازير وبيعها، أو الأكل والشرب فى نهار رمضان، وغير ذلك، بشرط: أن لا يظهروا ذلك ولا يجهروا به بين المسلمين(٤٣).

ثالثاً: حرية العمل:

من حق من أقام من أهل الكتاب فى البلاد الإسلامية اختيار العمل الذى يراه مناسبًا للتكسب، فيشتغل بالتجارة والصناعة كما يشاء، ولا يجوز التعدى على ما اكتسبه من عمله، ولا مصادرة شىء من ماله بدون وجه حق كالمسلم فى ذلك. وله إجراء المعاملات وسائر التصرفات المالية كالمسلم إذا كانت جائزة شرعًا كالبيع والإجارة والمضاربة ونحوها من العقود المباحة.

أما العقود المحظورة شرعًا: فلا يجوز الإقدام عليها كعقود الربا، فإنها لا تصح من المسلم أيضًا. واستثنى الفقهاء من ذلك التعامل بالخمر والخنزير، فإنه لا يجوز للمسلم التعامل بها، ويجوز لأهل الكتاب التعامل بهما ـ بالبيع والهبة ونحوهما ـ فيما بينهم وبشرط عدم الإظهار(٤٤).

ويجب على أهل الكتاب المقيمين فى بلاد المسلمين أن يلتزموا بما يلى:

أولاً: عدم الانتقاص من الإسلام:

يجب على أهل الكتاب المقيمين فى البلاد الإسلامية احترام عقيدة المسلمين، والامتناع عما فيه غضاضة على المسلمين، وانتقاص دين الإسلام، مثل: ذكر الله تعالى أو القرآن الكريم أو رسوله محمد ﷺ بسوء؛ لأن هذه الأفعال يحرم على المسلمين إتيانها فأهل الكتاب أولى، ولأن فى هذه الأفعال استخفافًا بالمسلمين وازدراءً بعقيدتهم(٤٥).

ثانيًا: عدم الإضرار بالمسلمين:

يجب على أهل الكتاب المقيمين فى البلاد الإسلامية عدم الإتيان بفعل أو قول يؤدى إلى الإضرار بالمسلمين، كأن يعمل لحساب أعداء المسلمين فيقوم بأعمال تخريبية أو يتجسس لصالح أعداء المسلمين.

ومن الإضرار بالمسلمين العمل على فتن المسلمين عن دينهم سواء بالقيام بالأعمال التبشيرية داخل بلاد المسلمين أو العمل على إفساد عقيدة المسلمين أو أخلاقهم(٤٦).

ثالثًا: عدم إظهار ما يخالف الإسلام:

يجب على أهل الكتاب عدم إظهار شعائرهم الدينية علنًا، كضرب أجراس الكنائس أو إظهار الصليب، وإنما يؤدون شعائرهم داخل معابدهم وفيما بينهم فى بيوتهم.

كما يجب عليهم عدم إظهار ما هو محرم شرعًا عند المسلمين وإن كانوا يعتقدون حله، كشرب الخمر أو بيعها وبيع الخنازير وأكلها(٤٧).

الأقليات الإسلامية فى الدول غير الإسلامية:

سبق فيما مضى بيان الحقوق والواجبات التى وضعها الإسلام لغير المسلمين الذين يعيشون فى المجتمعات الإسلامية. وفيما يلى نبين نظرة بعض الشعوب ومعتقداتهم لغيرهم من الشعوب، ومن خلال هذه النظرة نعرف كيفية المعاملة بين هؤلاء وغيرهم ممن يعيشون معهم. نأخذ على سبيل المثال: اليهود والهندوس.

١ ـ اليهود:

يعتبر اليهود أنفسهم فى منزلة رفيعة لا يشاركهم فى مستواها أحد، جاء فى التلمود[٤٨]: «إن الإسرائيلى معتبر عند الله أكثر من الملائكة فإذا ضرب أُمِّىٌّ إسرائيليًا فكأنه ضرب العزة الإلهية».

ويعتقد اليهود أنهم جزء من الله كما أن الابن جزء من أبيه[٤٩].

كما يعتبر اليهود غيرهم حيوانات خلقوا بأشكال آدمية لخدمتهم، ينقل الأب برانايتس عن ميدراش تالبيوت قوله: «خلقهم الله فى أشكال آدمية لتمجيد إسرائيل إلا أن الآكوم ـ أى غير اليهود ـ خلقوا لغاية وحيدة هى خدمتهم ـ أى خدمة اليهود ـ ليل نهار، وهم لا يستطيعون التخلص من هذه الخدمة، ومن اللائق أن يقوم على خدمة ابن ملك حيوانات بأشكال طبيعية»[٥٠].

كما وصفوا غيرهم من الشعوب بأنهم نجسون وأسوأ من الحيوانات وأبناء الشيطان[٥١].

ومن معتقدات اليهود: وجوب قتل غير اليهود بمن فيهم المسيحيون، ففى التلمود: «يجب إلقاء المهرطقين ـ أى المسيحيين ـ والخونة والمرتدين فى البئر والامتناع عن إنقاذهم»[٥٢]. وفى التلمود أيضًا: «حتى أفضل الغويم ـ أى غير اليهودى ـ يجب قتله»[٥٣].

٢ ـ الهندوس:

إن مبادئ الهندوسية قائمة على النظام الطبقى بين الهندوس أنفسهم، فهم يقسمون الهندوس إلى أربعة طبقات:

(أ) البراهمة: وهم الذين خلقهم الإله براهما من فمه، ومنه المعلم والكاهن والقاضى. وهم ملجأ الجميع خلال ممارستهم لطقوس العبادة وفى حالات الزواج والوفاة، ولا يجوز تقديم القرابين إلا عن طريقهم.

(ب) الكاشتريا: وهم الذين خلقهم الإله براهما من ذراعيه، وهم الذين يحملون السلاح للدفاع، ويتمتعون بحق المشاركة فى الحكومة.

(جـ) الويش: وهم الذين خلقهم الإله من فخذه، وهم الذين يزرعون ويتاجرون ويجمعون الأموال لإنفاقها على المعاهد الدينية.

(د) الشودر: وهم الذين خلقهم الإله من رجليه، وهم طبقة المنبوذين وعملهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاث السابقة ويمتهنون المهن الحقيرة والقذرة، ويمثل هؤلاء الأغلبية لسكان الهند؛ إذ يصل عددهم إلى ٤٥٪ من مجموع سكان الهند.

وكل طبقة من هذه الطبقات تحتقر الطبقة التى تليها، والطبقات الثلاث الأولى مجمعة على احتقار طبقة المنبوذين.

ومن تعاليمهم:

١ ـ يجب أن يكون سكن المنبوذين خارج القرية، ولا يحق لهم امتلاك شىء إلا الكلاب والحمير.

٢ ـ للبراهمة أن يأخذوا من أموال الشودر ما يشاءون.

٣ ـ المنبوذون أحط من البهائم ومن سعادتهم أن يخدموا البراهمة.

وإذا كانت هذه علاقة الهندوس مع من يدين بدينهم، فإنهم أشد تعصبًا ضد من لا ينتمى لدينهم، فهم يحرمون الأكل مع غير الهندوسى أو مجالسته أو مخالطته ويعتقدون أنه دنس(٥٤).

الهوامش

(١) سورة المائدة/ ٣.
(٢) سورة البقرة/ ٢٥٦.
(٣) سورة الأحزاب/ ٤٠.
(٤) سورة البقرة/٢٨٥.
(٥) أخرجه مسلم (١/ ٣٧).
(٦) سورة النساء/١٦٤.
(٧) شرح العقيدة الطحاوية ٣٤٩ ـ ٣٥٠.
(٨) شرح العقيدة الطحاوية ٣٣٢.
(٩) سورة البقرة/٧٥.
(١٠) سورة النساء/٤٦.
(١١) جاء فى الإصحاح الثانى من سفر التكوين: «فأكملت السماوات والأرض وكل جندها، وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقًا».
(١٢) حيث أمر الله تعالى بنى إسرائيل أن يجعلوا الدم على أبواب بيوتهم حتى رءاها الله تعالى فلا يصيبهم من العذاب ما يصيب المصريين، فقد جاء فى الإصحاح الثانى عشر من سفر الخروج: «ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمين والعتبة العليا فى البيوت.... ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها. فأرى الدم وأعبر عنكم. فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر».
(١٣) جاء فى الإصحاح الثانى والثلاثون من سفر الخروج هذا الحوار بين الله تعالى وموسى عليه السلام: «وقال الرب لموسى رأيت هذا الشعب.. فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم.. فتضرع موسى أمام الرب وقال لماذا يارب يحمى غضبك على شعبك.. ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك... فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه».
(١٤) ورد فى الإصحاح التاسع من سفر التكوين: «وابتدأ نوح يكون فلاحًا وغرس كرما. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه».
(١٥) جاء فى الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين: «فسكن ـ أى لوط ـ فى المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقى أبانا خمرًا ونضطجع معه فنحيى من أبينا نسلاً فسقتا أباها خمرًا فى تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا قيامها. وحدث فى الغد مع ابنة لوط الصغيرة مثل ما حدث للكبيرة. وحبلت ابنتا لوط من أبيهما».
(١٦) جاء فى الإصحاح الثانى والثلاثين من سفر الخروج: «ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون. وقالوا له قم اصنع آلهة تسير أمامنا... فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتونى بها، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكًا. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر. فلما نظر هارون بنى مذبحًا أمامه. ونادى هارون وقال: غدًا عيد للرب».
(١٧) ورد فى الإصحاح السادس عشر من إنجيل متى قول بطرس لما سأله عيسى ﷺ عن نفسه: «أنت هو المسيح ابن الله الحى».
(١٨) جاء فى الإصحاح الأول من إنجيل متى: «وداود الملك ولد سليمان من التى لأوريا». وأمراة أوريا هل التى رآها داود من على سطح بيته تستحم فأعجب بها ثم أرسل إليها واضطجع معها وأحبلها (انظر الإصحاح الحادى عشر من سفر صموئيل الثانى).
(١٩) سورة النساء/ ١٧٠.
(٢٠) سورة آل عمران/ ١٩.

(٢١) سورة آل عمران/٨٥. (٢٢) روح المعانى ١٠٦/٣.
(٢٣) سورة ص/ ٧١، ٧٢. (٢٤) سورة ص/٧٥.
(٢٥) سورة الإسراء/٧٠. (٢٦) تفسير القرطبى ٢٩٤/١٠.
(٢٧) فتح البارى ٧٩١/٣ ط السلفية.
(٢٨) أخرجه أحمد (المسند ١٨٥/٥)، وفى رواية البخارى (فتح البارى ١/ ٨٤) قال النبى ﷺ: «يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»، قال ابن حجر: قيل إن الرجل المذكور هو بلال المؤذن، وفى رواية «قلت له يا ابن السوداء» (انظر فتح البارى ١/ ٨٦).
(٢٩) أخرجه الإمام أحمد (المسند ٤١١/٥)، وقال الهيثمى: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٢٦٦/٣).
(٣٠) تفسير الطبرى ٣٧٤/١١، والدر المنثور للسيوطى ٢٧٢/٣.
(٣١) سورة المائدة/٨. (٣٢) الجامع لأحكام القرآن ١١٠/٦.
(٣٣) السنن الكبرى ١٣٦/١٠. (٣٤) سورة الحجرات/١٣.
(٣٥) الجامع لأحكام القرآن ٣٤٥/١٦.
(٣٦) أخرجه البخارى (فتح البارى ٤١٧/٦)، ومسلم (١٨٤٦/٤).
(٣٧) شرح صحيح مسلم للنووى ١٣٥/١٥.
(٣٨) الجامع لأحكام القرآن ٣٤٥/١٦.
(٣٩) اصطلح الفقهاء على تسمية هذا الحق المالى بـ «الجزية»، وقد أورد الكاسانى معنى لطيفًا لهذا الحق فقال: «إن قبول الجزية لا لرغبة فيما يؤخذ منهم أو طمع فى ذلك بل للدعوة إلى الإسلام ليخالطوا المسلمين فيتأملوا فى محاسن الإسلام وشرائعه وينظروا فيها فيروها مؤسسة على ما تحتمله العقول وتقبله فيدعوهم ذلك إلى الإسلام فيرغبون فيه» (بدائع الصنائع ١١١/٧).
(٤٠) المغنى ٢٥٠/١٣، بدائع الصنائع ١١/٧، ١١٣، ومغنى المحتاج ٢٥٣/٤.
(٤١) أخرجه أبو داود (٤٣٧/٣).
(٤٢) أخرجه البخارى (فتح البارى ١٦٩/٦، ٦١/٧).
(٤٣) مغنى المحتاج ٢٥٣/٤.
(٤٤) بدائع الصنائع ١١٣/٧، ومغنى المحتاج ٢٥٣/٤.
(٤٥) المغنى لابن قدامة ٢٣٨/١٣، مغنى المحتاج ٢٥٨/٤.
(٤٦) المغنى ٢٣٨/١٣، مغنى المحتاج ٢٥٨/٤.
(٤٧) المغنى ٢٤٧/١٣، بدائع الصنائع ١١٣/٧، مغنى المحتاج ٢٥٧/٤.
(٤٨) التلمود: هو كتاب اليهود المقدس الذى يحتوى على التعاليم اليهودية. (انظر فضح التلمود للأب أى. بى. برانايتس ٢١).
(٤٩) الكنز المرصود فى فضائح التلمود ٢٠٠، وفضح التلمود ١١٢.
(٥٠) فضح التلمود٩٢.
(٥١) المرجع السابق ٩٠ وما بعدها.
(٥٢) فضح التلمود ١٣٩.
(٥٣) المرجع السابق ١٤٦، والكنز المرصود ٢٢٠.
(٥٤) الديانة الهندوسية ونظرتها تجاه البشرية ٢١ وما بعدها.

العلاقة بالآخر
الأقليات الإسلامية فى الدول غير الإسلامية

المهندس / محمد يوسف هاجر

الأمين العام للمنظمة الإسلامية أمريكا اللاتينية

يسعدنى أن أرفع باسم: المنظمات، والاتحادات، والجمعيات، والمراكز الإسلامية فى أمريكا اللاتينية، وباسم الجالية المسلمة - أصدق عبارات الشكر والتقدير لصاحب السيادة الرئيس/ **محمد حسنى مبارك**؛ على رعايته لهذا المؤتمر، وعلى كل ما تقدمه جمهورية مصر العربية من جهود مخلصة لحماية الهوية الحضارية للأقليات المسلمة فى العالم، والاهتمام بها، والاستجابة لطلباتها؛ بتعيين الشيوخ والدعاة طوال السنة وإرسال الوعاظ والمقرئين فى شهر رمضان المبارك عن طريق وزارة الأوقاف والأزهر الشريف، وطرح المنح الدراسية فى منابع العلم وروافده بمصر الكنانة، كما نوجه تحية تقدير للدكتور/ **محمود حمدى زقزوق** وزير الأوقاف، والإمام الأكبر الدكتور/ **محمد سيد طنطاوى** شيخ الأزهر الشريف، وأحيى جميع الإخوة المشاركين.

الإنسان المسلم تربطه بالآخرين عدة أسس من أهمها: عقيدة الإيمان، فأغلب البشر يؤمنون بالله تعالى رب العالمين خالق كل شىء ومالكه، كما يربطه بهم الإيمان بالرسل، فالمسلم يؤمن أن الله تعالى قد أرسل الرسل مبشرين ومنذرين إلى سائر الأمم فى كل زمان ومكان؛ يدعونهم إلى عبادة الله وطاعته **﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾** (النحل ٣٦:١٦) فالأنبياء حسب التعاليم الإسلامية جميعًا إخوة، ورسالتهم الأساسية واحدة، ومصدر هذه الرسالة واحد وهو الله تعالى، ومن صفات المؤمن الإيمان بهم جميعًا دون تفريق حيث يقول الله تعالى فى كتابه: **﴿آمن الرسول بما أنزل**

إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ (البقرة ٢ : ٢٨٥)، وتربطه أيضًا الأخوة فى البشرية وهذا يؤكده القرآن الكريم.

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ (النساء ٤ : ١)

أيها السادة/ فى ما يخص الأقليات المسلمة فى العالم فإنها قد أصبحت جزءًا هامًا من الشعوب الإسلامية حيث عددها يوازى ثلث عدد المسلمين فى العالم، كما أصبح دورها ملموسًا فى بعض البلدان التى قدموا إليها أو التى ولدوا وعاشوا فيها، وذلك بانخراطهم فى الحياة الاجتماعية واختلاطهم وتفاعلهم فى تلك المجتمعات الغربية.

فيجب على المنظمات والمؤسسات الإسلامية العالمية ـ الحكومية ـ وغير الحكومية الاهتمام بهذه الأقليات، وتأصيل سبل التعاون معها، واعتبارها وسيطًا أو جسرًا لترسيخ القيم الإسلامية، فعن طريقها تتهيأ الأرضية المناسبة لحوار هادف بناء، مبنى على الاحترام المتبادل، والكلمة الطيبة، وبأسلوب حضارى يخدم الإنسانية، ويشجع على التفاهم الفكرى والثقافى فى العالم؛ لأن الأديان والثقافات الحضارية تدعو إلى المحبة والإخاء والسلام والتفاهم والتسامح، وإن الحوار المبنى على هذه الأسس حتمًا سيؤدى إلى تقريب الإنسان من أخيه الإنسان، ويقضى على العنصرية، ويحترم الثقافات المتعددة، والهوية الحضارية لكل الشعوب، ويحقق النتائج المرجوة. فالإسلام ينظر إلى وجود الأديان الأخرى والثقافات والحضارات المتعددة بأنها حكمة الله فى خلقه، وهو أمر ليس بوسع مخلوق تبديله أو تغييره، يقول الله تعالى فى كتابه الكريم: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين • إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾** (هود ١١ : ١١٨ : ١١٩) فهذه إرادته، كما أن اختلاف اللغات والأجناس والألوان من آيات الله تعالى الدالة على حكمته وقدرته.

﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾ (الروم ٣٠ : ٢٢).

ويجب أن يكون هناك اتصال دائم بين العالم الإسلامى ومنظماته والمراكز والمؤسسات الإسلامية فى الغرب؛ للدفاع عن حقوق الجالية المسلمة، خاصة حرية الاعتقاد وممارسة العبادات،وحقها فى الحياة كبشر، والمساواة أمام القانون، والتنسيق معها لتفعيل دورها فى تغيير الصورة الخاطئة عن الإسلام

لدى الغرب، ومحو هذه الصورة، وإبراز محاسن الإسلام وسماحته، واستثمار خبرات هذه الأقليات وطاقاتها البشرية، ووضع خطة كفيلة بجعلهم حلقة وصل، وتحويلهم إلى قوة أو خط أمامى للدفاع عن القضايا الإسلامية، و (لوبى) يساهم فى النهوض بالعلاقات الطيبة، وربط جسور التعاون والتقارب الثقافى والفكرى مع الساسة والمفكرين الغربيين باستضافتهم للمشاركة فى اللقاءات والندوات والمناسبات الإسلامية، وعقد اتفاقيات مع الجامعات والأكاديميات ودور العلم والثقافة المختلفة، خاصة التى تهتم بالدراسات الإسلامية، وتبادل الزيارات والتجارب والخبرات معها، وإقامة المعارض المشتركة للمخطوطات والآثار الإسلامية **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾** (الحجرات ٤٩ : ١٣).

ومشاركة علماء المسلمين فى المؤتمرات الدولية التى تعقد فى الغرب والتى تهتم بالقضايا المعاصرة، لطرح رأى الإسلام فى هذه القضايا مثل: الاستنساخ، والإجهاض، والبيئة، وحقوق الإنسان، والإرهاب، وغيرها؛ وذلك لإزالة الشوائب.

إن لغة الحوار والتبادل الفكرى والثقافى أقوى من أى تبادل آخر؛ لأنه مبنى على القيم والاحترام؛ لهذا يجب أن نتسلح بالحوار السليم المنطقى المبنى على أسس، وأن ننبذ كل غلو وتطرف حتى يعم السلام والعدل والإخاء.

إخوتى الكرام/ إن الأقليات المسلمة فى العالم أجمع تراقب ما يجرى من أحداث راهنة بعين من الحذر والقلق، خاصة الحملة الإعلامية المسعورة والهجمة الشرسة التى تتهم الإسلام بأنه يأوى الإرهاب والإرهابيين، هذه الحملة الإعلامية أدت إلى ردود فعل وحملات ضد العرب والمسلمين المقيمين فى المجتمعات الغربية إلى أبشع أنواع الاعتداءات: على أشخاصهم، وعلى مساجدهم، ومراكزهم الثقافية، وأماكن تجمعاتهم، والمساس بحقوقهم وحريتهم المدنية، والتعرض إلى كل أنواع التفرقة العنصرية والكراهية.

فيجب علينا ـ نحن مسلمى أمريكا اللاتينية الذين يعيشون فى هذه القارة والتى يزيد فيها عددنا على ثلاثة ملايين نسمة ـ توحيد الجهود وتضافرها؛ لأننا جزء من هذا المجتمع الأمريكى اللاتينى، وأغلبنا ممن ولدوا وعاشوا فى هذه الديار، فلدينا حقوق وعلينا واجبات مثل أى مواطن آخر، بالدرجة الأولى تجمعنا عقيدة الإسلام، ثم اللغة الأسبانية (ثانى لغة فى العالم) والتى يتحدث بها ٩٠٪ من سكان أمريكا اللاتينية، فيجب أن نعمق ونوسع نطاق الاتصال والتشاور المتواجد فى الوقت الحالى عن طريق المنظمة الإسلامية لأمريكا اللاتينية، حتى يشمل دول القارة غير الأعضاء فى هذه المنظمة، ودعوتهم إلى الانضمام إليها،

والمساهمة فى أعمالها؛ لتتكامل الجهود فى إطار التنسيق والتعاون لما فيه خير الإسلام، وبجهود الجميع نستطيع تحقيق الكثير من الإنجازات والنشاطات الهامة، وإحلال التعايش السلمى فى المنطقة، وتحقيق الخير والنفع الشامل من خلال تعليمات القرآن الكريم والسنة النبوية، فهذا يعتبر واجبًا وطنيًا فى الدولة التى نعيش فيها، ويتربى فيها أبناؤنا، ونحترم قوانينها، ونحترم تعدد الثقافات، ونعيش فيها بسلام وحرية، ونرفض الجور والظلم بحجة إحلال السلام والأمن، كما نرفض ونُدين الشعارات التى ينادى بها البعض مثل: (صراع الحضارات) و(حرب الأديان) وما هى إلا قناع زائف لتغطية مطامع أيديولوجية، وضرب استبدادى ضد الضعفاء، ولكن علينا بالحوار لحل المشكلة من جذورها، وكشف المغالطات وتصحيح المفاهيم.

وحتى نكون على اتصال دائم بالعالم الإسلامى نطلب من جميع المنظمات المعنية إنشاء محطة فضائية للثقافة الإسلامية، تُبَثُّ للعالم أجمع وبعدة لغات حية؛ لخدمة القضايا الإسلامية، ولتصل إلى المتعطشين لمعرفة الإسلام ومحاسنه، وما ينص عليه القرآن والسنة المحمدية الشريفة، دون تحريف أو تزييف حيث هناك ظاهرة حساسة وخسيسة تعتمدها وسائل الإعلام والصحافة العالمية باستعمال لغة التحريف، فمثلاً تعلق على صورة المسلمين حجاج مكة بأنه (اجتماع للتعصب الدينى) ثم تعلق على صور لتجمع أتباع ديانة أخرى بأنهم (مجموعة المؤمنين) ومع تكرار هذا المشهد تترسخ الصورة فى أذهان الغربيين وإيهام الرأى العام بذلك.

وبما أن هذا المؤتمر يجمع عددًا كبيرًا من وزراء الأوقاف وعلماء المسلمين والمسئولين عن مسيرة الدعوة الإسلامية فى العالم الإسلامى؛ فإننا نرفع طلبنا إليهم جميعًا بالاهتمام بالأقليات المسلمة، وتهيئة أجيالها الجديدة بجميع وسائل الاتصالات المتعددة والتكنولوجية الحديثة، وتزويدها بالمعلومات وبالقيم الإسلامية؛ لتحصين هويتها، وحمايتها من الانحراف والذوبان.

فإن الرجوع إلى التعاليم الإلهية واحترام العدالة والمعتقدات الدينية والأديان السماوية من شأنه القضاء على جميع الأمراض الفتاكة التى بليت بها البشرية.

وأخيرًا أشكركم باسم المنظمة الإسلامية لأمريكا اللاتينية على منحى هذه الفرصة لأتحدث أمامكم وأعرض رأى إخوانكم المسلمين فى هذه القارة، معاهدين الله تعالى وإياكم على المضى قدمًا فى خدمة هذا الدين الحنيف الذى شرَّفنا الله بأن نكون من أتباعه.

وتبقى مشيئة الله الخالق سبحانه وتعالى فهو المرشد والموجه والهادى

العلاقة بالآخر

الأستاذ الدكتور/ إبراهيم أبو محمد
رئيس مجلس إدارة
المؤسسة الأسترالية للثقافة الإسلامية
أستراليا

تمهيد :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فى ختام الألفية الثانية يلفت نظر الباحثين ظهور صحوة إسلامية جذورها عميقة وجذوتها متألقة، لكن أبالسة العالم تآمروا عليها، وحاولوا ولا زالوا يحاولون أن يدفعوها لترتد على نفسها فتأكل بعضها بالانقسام المر والتقاتل المهلك، وما تبقى منها فأجهزة إعلامهم كفيلة بتشويه سمعته ووصفه بأبشع الأوصاف لتفضَّ الناس عنها وتصرفهم عن مبادئها وأفكارها، وبدأت تطفو على الساحة الإعلامية والثقافية عينات من المصطلحات الجديدة كالأصولية والتطرف والعنف والإرهاب، وراحت دوائر معينة - نفترض فيها سوء الفهم على أقل تقدير، أو سوء النية، أو هما معا ـ راحت تلك الدوائر فى الغرب تطنطن بترديد تلك المصطلحات وتحاول إشاعتها - خصوصًا - حول الإسلام والمسلمين لتصنع منها غبارًا يحجب الرؤية، ودخانًا يزكم الأنوف.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، وإنما بدأت نظرية جديدة فى الظهور تتبنى التفسير الأصولى لأحداث التاريخ والجغرافيا، ومشكلة الاحتباس الحرارى، وما يستجد من كوارث الزلازل والفيضانات والبراكين، وراح رواد هذه النظرية وتلامذتهم يشكلون مدرسة فى الخطاب والتفكير والتوجيه، يحملون الإسلام والإسلاميين مسؤولية كل الأخطار التى يعانيها كوكبنا فى بره وبحره، وأرضه وسمائه، فهم المسؤولون عن كل الكوارث بجملة همومها وجميع شرورها ما ظهر منها وما بطن، ما وقع منها وما لم يقع بعد، يقول الكاتب والمفكر فهمى هويدى:

«المنهج ليس جديدا، لكن تأسيس المدرسة وتجميع رموزها، ونشر فروعها فى الداخل والخارج هو الإنجاز الذى تم بوضوح، يتصل بذلك أيضا أن كفاءة العمل قد تحسنت كثيرا بحيث بات الحدث يقع فى الجزائر مثلا فى الصباح فتسمع تفسيره الأصولى بعد الظهر فى إذاعتى مونت كارلو ولندن، وتقرأ تحليلا موسعا فى القاهرة على ذات الموجة خلال أيام قليلة، وإزاء تعدد الممارسات وتسارعها فقد بات المرء يتصور أن هناك تحليلات وتفاصيل جاهزة فى استمارات معدة سلفا تسارع الأطراف المعنية إلى تعبئتها بالأسماء المرشحة كلما وقع حدث أو تصاعدت أزمة، أعنى أن البيانات التى تقطع بمسؤولية الإسلاميين عن كل فتنة موجودة بالفعل، وأنها مصاغة فى عدة صور مختلفة حسب الأحوال: تعصب، تطرف، فتنة، إرهاب، إلى آخر القائمة التى نقرأ عنها كل حين، وما إن تحدث أزمة أو مشكلة حتى يستخرج البيان المناسب وتضاف إليه الأسماء والعناوين، ثم يتواصل الإرسال عبر مختلف قنوات ومنابر الخطاب العام»[1].

ومعروف أن الثقافة الفاسدة تحدث فى العقول ما يحدثه الطعام المسموم فى الجسم الإنسانى، فإذا أضفت إلى فساد الثقافة فساد الضمائر والخلق، وفساد النوايا الخبيثة والصدور التى لا تنطوى إلا على شر، فلك أن تتصور كيف تشوه الحقائق وتنقلب معايير العدالة، حتى يصبح المظلوم ظالما، والضحية مجرما، وذلك بالضبط ما تحاول دوائر الاستشراق والتنصير أن تثيره حول الإسلام ونبيه ﷺ من قديم الزمان، وإن وجدت فرصتها فى الفترة الأخيرة لإخراج كل ما فى الصدور من أحقاد وكراهية.

وبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة، يلحظ الباحث مجموعة من الوقائع والأحداث أثرت بالطبع على تضاريس الواقع. بعضها يتصل بنا كمسلمين وبشكل مباشر، وبعضها صنعته مطابخ السياسة فى عالم السادة الكبار، حين راحوا يمارسون دورهم مع قضايا العالم - ونحن منه بالطبع - كعمل مسرحى لهم وحدهم فيه دور البطولة، والآخرون مجرد كومبارس، يرددون كلمات البطل، ويعزفون النغم الذى يرضيه، ووقف المتفرجون من أهل الشمال مخدرين بإحساس أن أبطال المسرحية قد سيطروا تمامًا على زمام الأمور، بينما وقف أهل الجنوب ينظرون إلى المشهد فى انبهار وذهول، ولكى يستمر البطل فى ممارسة دور البطولة كان لابد من وجود عدو - ولو وهمى - ليكتمل المشهد، وليلهب به البطل مشاعر المشاهدين، خاصة عندما سقط منافسه تحت وطأة الجينز والحرية والهامبورجر، وخلت أرض المسرح لبطل واحد ووحيد، وراحت دوائر الشر فى مراكز القرار وصياغة الرأى العام تعمل على تجهيز المسرح لاستقبال العدو الموهوم؛ ليقوم بدور المنافس للبطل الوحيد حتى يكتمل المشهد الدرامى ، وتظل عواطف المشاهدين ملتهبة، ولسوء حظ العدو الموهوم، كان عليه أن يتحمل مسؤولية كم هائل من الضغائن والأحقاد القديمة حملتها صدور غيره ، ولم يكن هو سبب فى وجودها يوما ما، هذه الضغائن والأحقاد عبرت عنها رئيسة الوزراء البريطانية مرجريت تاتشر حين قالت عقب سقوط الكتلة الشرقية: (الآن انتهى الغرب من العدو التاريخى وبقى العدو الأزلى) وحين سئلت إبان حرب الخليج فى بداية التسعينات عن العدو الأزلى لم تكن فى حاجة لهز الكتف وهى تردد : (الإسلام طبعًا)(٢).

لذلك لم تكن الكلمات التى عبر بها الرئيس الأمريكى جورج دبليو. بوش عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر عن الحرب الصليبية مجرد فلتة لسان، وإنما كانت تعبيرا صادقا عن النوايا سلفا، كل ما هنالك أنه كانت هناك حاجة لصنع حدث ضخم يهز الوجدان ، ويحرك العقل الجمعى ، ويملأ صدور الناس فى الشارع بالكراهية، ويثير الرعب والفزع - من هذا الغول الموهوم - الذى يريد أن يطفئ أنوار الحضارة، ويصادر الحريات ، ويعود بالناس والحياة إلى عصور

سحيقة من التخلف والبدائية، وهكذا تفعل الآلة الإعلامية عملها فى تهيئة المناخ وتجهيز النفوس وشحن الرأى العام بطاقة من الغضب ، تجعله يؤمن بضرورة التخلص من هؤلاء الأشرار البرابرة الذين يسمون بالمسلمين ويعتقدون فى إله الخراب الذى يعبدونه، وعندئذ يكون للانتقام ما يبرره، ويصبح سحق ما تبقى من تلك الصحوة ضرورة لحماية السلام ، وبذلك يتخلص الغرب من المنافس الاقتصادى والبديل الحضارى، وينتهى من هذا العدو الأزلى لتخلو له الساحة مرة أخرى بعدما خلت من قبل بسقوط الشيوعية ، ويتمكن من بسط نفوذه وسيطرته على كل منابع الثروة بغير منازع، وفى نفس الوقت تكون عصاه جاهزة لأى شاة شاردة، والوسائل إلى ذلك: تشويه الصورة، ومسخ الشخصية، وغسيل الأدمغة، وتذويب الهوية.

وأشهد أن الإصابة حتى الآن بالغة، وأن التشويه شديد، وأن أدمغة كثيرة قد غسلت، وأن المستقبل يحمل فى طياته الشىء الكثير، وأننا سنفاجأ بكثير من المغامرات المثيرة والمحيرة، والتى تشبه دائرة متصلة الحلقات فى قطع الليل المظلم لا يُدْرَى أين طرفاها، ثم هى تدع الحليم حيران، لكن عزاؤنا أن المعركة لم تنته بعد، وأن الإصابة ستكون فى المسلمين وليست فى الإسلام، وأن سنة الله جارية فى خلقه بالتمحيص والابتلاء، وأنه سبحانه ﴿ **غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[٣]، وقد اقتضت سنته أن يكون الصراع هكذا كر وفر، وهزيمة ونصر، لكن العاقبة لأهل الحق دائماً مهما علا صوت الباطل، أو أسكرته نشوة النصر المؤقت ، أو تعدى وتجاوز به غرور القوة الممزوج بالطغيان والفساد والعدوان والظلم، يقول الله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصُدُّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون (٣٦) ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركُمَه جميعًا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون**﴾[٤].

وبدأت تلك الدوائر تطفح أحقاد السنين على الإسلام وأهله، وتصفهم بالشراسة والعنف والإرهاب، لأن دينهم جاء بشريعة تعتمد القتل والعنف بديلا

عن الإقناع بالحجة والبرهان، فهو دين لا يعترف بالآخر، ومن ثم لا يمنحه حق الحياة، وعندما تنطوى النوايا على شر، وتشحن الصدور بالكراهية، يصبح سوء الظن هو القاعدة، ويكون من السهل تصيد الأخطاء، وإلحاق التهم بالأبرياء والشرفاء، وتفاديا للوقوع فى هذا الشرك المفخخ والملغم نتساءل ونحن نعرف الإجابة، واللبيب من الإشارة يفهم، نتساءل: هل يمكن أن نصف المسيح والمسيحية بالإرهاب والعنف لمجرد أن المسيح ـ عليه السلام ـ قال: «ما جئت لألقى سلاما بل سيفا»؟ ونحن نسارع فى الإجابة بالنفى طبعا، غير أن الجانب الآخر يصر على اتهامنا واتهام ديننا وشريعتنا بما ليس فينا، ومتابعة بسيطة لما يبث فى وسائل إعلامه تظهر حجم التعصب وضخامة الافتراء، ومع أننا لا نعبأ كثيرا لهذا الهجوم لكثرة ما فيه من أباطيل وخلوه من الحقائق، إلا أن ناسا كثيرين ممن لا يعرفون الإسلام ولم تتح لهم فرصة التعرف عليه وقعوا ضحايا لتلك الحملات المغرضة، فكانت إصابتهم شديدة وجراحهم غائرة، حتى أضحى من الواجب على كل مسلم عموما، وعلى المثقفين الشرفاء بوجه خاص، وعلى العلماء الجامعيين والمجمعيين على وجه أخص أن ينصفوا الحقيقة، وأن يشرحوا الملابسات، وأن يعملوا جاهدين على تحصين القارئ؛ ليكون فى مأمن من الخيانة الثقافية والاغتيال العقلى الذى كثيرا ما يمارس من قبل هؤلاء؛ لذا فقد آثرت أن أستجيب للرغبة الكريمة وأن أشارك بالكتابة والحديث فى هذا المحور إنصافا للحقيقة أولا، وأداء لواجب الإسلام علىّ ثانيا، وحماية لحق القارئ فى أن يرى الصورة بغير رتوش ثالثا.

وإليك بيان الحقيقة فى اختصار تفرضه ظروف البحث ونرجو ألا يكون مخلاً:

١ - اعتراف الإسلام بالديانات السماوية السابقة عليه عنصر أساسى فى عقيدة المسلم :

فى معاجم لغتنا تدور كلمة الإسلام حول معنى الخضوع والانقياد فقد ذكر الفيروزآبادى أن: كلمة أسلم تعنى انقاد وصار مسلما[٥]، ودارت المادة فى المعجم الوسيط حول : إظهار الخضوع والقبول لما أتى به محمد ﷺ[٦]، وذكر العلامة

الراغب الأصفهانى : أن مادة السلم والسلامة تعنى التعرى من الآفات الظاهرة والباطنة، والإسلام فى الشرع دون الإيمان وهو الاعتراف باللسان، وبه يحقن الدم، حصل به الاعتقاد أو لم يحصل[٧]. وإياه قصد بقوله: ﴿**قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا**﴾[٨].

ومن استقراء نصوص القرآن الكريم يتبين لنا : أن للإسلام ثلاثة معان: معنى عام ومعنى خاص ومعنى أخص، فالمعنى العام هو الإذعان والانقياد طوعا أو كرهًا بحيث لا يملك المخلوق أن يتأخر أو يتقدم عن هذا الإذعان وهذا الانقياد، أى لااختيار له فى ذلك، وهذا المعنى يتصف به جميع المخلوقات، فهى منقادة لله مذعنة له، يتصرف فيها كما يشاء، فالسموات والأرض ومن فيهن وما بينهن مسلمة له، أى منقادة لأمره قال تعالى: ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا** ﴾[٩]، وقال تعالى: ﴿**أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعًا وكرهًا**﴾[١٠]، فهذا خضوع بلا عقل ولا إرادة ولا اختيار ، ويسميه العلماء خضوع العبودية، أى أنه خضوع بإرادة التكوين لا بإرادة التكليف، فلا يشذ عنه فى الكون شىء، قال تعالى: ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون**﴾[١١]، هذا هو المعنى الأول.

أما المعنى الثانى وهو المعنى الخاص فهو : الانقياد والطاعة له ـ سبحانه ـ اختيارا، أى بالعقل والإرادة والاختيار، ويعبر عنه العلماء بخضوع العبادة عن طريق التكليف الشرعى الذى بلغه رسل الله : إلى خلقه وإليه دعوا الناس كلهم، قال ابن تيمية رحمه الله: ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والسلامة التى هى الخلاص، وقد علم أن الرسل جميعهم بعثوا بالإسلام العام المتضمن لذلك كما قال تعالى: ﴿**يحكم بها النبيُّون الذين أسلموا**﴾[١٢]، وقال تعالى: ﴿**وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين**﴾[١٣]، وقال الخليل لما قال له ربه أسلم قال: ﴿ **أسلمت لرب العالمين** ﴾[١٤].

أما المعنى الأخص فهو : دين الله الخاتم الذى بعث به محمدا ﷺ إلى الناس كافة بجميع تفاصيله التى تضمنها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والإسلام بهذا

المعنى هو الدين الذى أوجب الله على البشر جميعا أن يؤمنوا به، بما فى ذلك رسل الله السابقين، قال تعالى: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مُصَدِّق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشَّاهِدِينَ**﴾(١٥).

إذاً فالجميع يشتركون معنا فى أصل الشجرة إذا جاز التعبير، أى فى المعنى العام للإسلام، وهو مطلق الخضوع والانقياد لله تعالى وإن اختلفنا بعد ذلك فى الفروع والتفاصيل، وهذا بُعد جديد فى توسيع الدائرة الإيمانية ينفرد به الإسلام ويمتاز ، ولقد شكل هذا البعد قفزة نوعية فتحت الأبواب والنوافذ لأفق أوسع وأرحب فى عالم العلاقات الإنسانية، يقول العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز(١٦): (إذا أخذنا كلمة الإسلام بمعناها القرآنى نجدها لا تدع مجالاً للسؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين غيره من الأديان السماوية، فالإسلام فى لغة القرآن ليس اسما لدين خاص، وإنما اسم للدين الذى هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء ، هكذا نرى نوحًا يقول لقومه: ﴿**وأمرت أن أكون من المسلمين**﴾(١٧)، ويعقوب يوصى أبناءه: ﴿**فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمونَ**﴾(١٨)، وأبناء يعقوب يجيبون أباهم:﴿**نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحداً ونحن له مسلمون**﴾(١٩)، وموسى يقول لقومه: ﴿**يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين**﴾(٢٠)، والحواريون يقولون لعيسى:﴿**آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون**﴾(٢١) بل إن قومًا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن:﴿**قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين**﴾(٢٢).

وبالجملة نرى الإسلام شعارا عاما يدور على ألسنة الأنبياء جميعا وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية وإلى عصر النبوة الخاتمة، ثم نرى القرآن يجمع هذه القضايا كلها فى قضية واحدة، يوجهها إلى قوم محمد ﷺ ويبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم دينا جديدا، وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم، ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم فى سلك واحد ويجعل منهم جميعا أمة واحدة،

لها إله واحد كما لها شريعة واحدة: ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**﴾[٢٣]، ما هذا الدين المشترك الذى اسمه الإسلام، والذى هو دين كل الأنبياء والمرسلين؟ إن الذى يقرأ القرآن يعرف كنه هذا الدين: إنه هو التوجه إلى الله رب العالمين فى خضوع خالص لا يشوبه شرك، وفى إيمان واثق مطمئن بكل ما جاء من عنده على أى لسان وفى أى زمان أو مكان، دون تمرد على حكمه، ودون تمييز شخصى أو طائفى أو عنصرى بين كتاب وكتاب من كتبه، أو بين رسول ورسول من رسله هكذا يقول القرآن: ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباطِ وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**﴾[٢٤]، فهذه الآيات تؤكد وحدة المصدر الذى تلقى عنه أنبياء الله جميعا، كما تؤكد وحدة الإرادة فى الخلق والإيجاد ومقصود تلك الإرادة من كل العقائد والتشريعات التى أمروا بها، قال تعالى: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾[٢٥]، وتشير إلى الروابط والغايات التى يجب أن تسود بين البشر جميعا، قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وَجَعَلْنَاكُمْ شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[٢٦]، كما تلتقى مع مبادئ الدين الحنيف فى مدلوله ومعناه الأخص باعتباره الدين الخاتم، فهو الوعاء والمحتوى لكل حقائق الوحى فى الرسالات السابقة والتى تلقاها وبعث بها كل رسل الله السابقين لمحمد ﷺ، ومن هنا فإن الإسلام هو المنهج الوحيد الذى يطوى على مستوى التاريخ أبعاد الزمان، فيجمع الناس فى عقد واحد ويرسى قواعد الأخوة بين أبناء البشر جميعا، ويطالب أتباعه والمؤمنين به بضرورة الإيمان بكل النبوات السابقة كشرط للإيمان بمحمد ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾[٢٧]، كما أنه على مستوى القيم الفاعلة والمؤثرة فى دفع حركة المجتمع إلى الأمام والضابطة لسلوكيات الأفراد فيه، وهى قيم ثابتة لم يطرأ عليها تغيير أو تبديل، يعتبر شرع من سبقنا شرع لنا ما لم يرد

ناسخ، يقول تعالى: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعِيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾[٢٨]، وهنا تلتقى وتتعانق فى انسجام تام ثوابت القيم فى كل النبوات والرسالات السابقة مع منظومة ثوابت القيم فى منهج الإسلام، فهو مصدق لما بين يديه من الكتب التى لم يطرأ عليها تبديل أو تحريف ومهيمن عليها أيضا، أى حارسا أمينا عليها، ومن قضية الحراسة ألا يكتفى الحارس بتأييد ما خلده التاريخ فيها من حق وخير، بل عليه فوق ذلك أن يحميها من الدخيل الذى عساه أن ينضاف إليها بغير حق، وأن يبرز ما تمس إليه الحاجة من الحقائق التى عساها أن تكون قد أخفيت منها، وهكذا كان من مهمة القرآن أن ينفى عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدعى وجودها فى تلك الكتب: ﴿**قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين**﴾[٢٩]، كما كان من مهمته أن يبين ما ينبغى تبيينه مما كتموه منها: ﴿**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب**﴾[٣٠]، ونموذج لذلك نراه ينفى عن نبى الله عيسى وأمه ما لاكته ألسنة البعض من تهم باطلة حاول اليهود بها تلويث سيرتهما ، فقالوا عن المسيح وأمه مقالة السوء والبهتان والزور: (يسوع الناصرى موجود فى لجات الجحيم بين القار والنار، وأمه مريم أتت به من العسكرى باندار سفاحا، والكنائس النصرانية بمثابة قاذورات، وأساقفها أشبه بالكلاب النابحة، وقتل المسيحى من الأمور المأمور بها.... ومن الواجب دينا أن يلعن اليهودى ثلاث مرات رؤساء المذهب النصرانى)[٣١] فرد القرآن تلك الفرية على أصحابها وأنصف المسيح وأمه واعتبره وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين، وأن أمه صديقة مطهرة اصطفاها الله على نساء العالمين، قال تعالى:﴿**إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطَهَّرك واصطفاك على نساء العالمين (٤٢) يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين (٤٣) ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون (٤٤) إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهًا فى الدنيا**

والآخـرة ومن المقـربين (٤٥) ويكلم الناس في المهـد وكـهـلاً ومن الصالحين﴾[٣٢]، هذا هو رأي الإسلام من خلال القرآن وليس من خلال وجهة نظر أخرى في مريم والمسيح.

وبهذا كان القرآن هو الوعاء الذي له وحده دون سواه ميزة الإحاطة والاحتواء قال تعالى:**﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه﴾**[٣٣]، فهو دين يوجب على أتباعه عدم التمييز والمفاضلة بين نبي وآخر على اعتبار أنهم جميعا أخوة، فمنطوق الإيمان ومفهومه عندنا:**﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾**[٣٤]، إذاً فالإسلام بمعناه القرآني الذي وصفناه لا يصلح أن يكون محلا للسؤال عن علاقة بينه وبين سائر الأديان السماوية، إذ لا يسأل عن العلاقة بين الشيء ونفسه، فها هنا وحدة لا انقسام فيها ولا إثنية.

هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة ولبنات متراكمة في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنيان وملأت ما بقي فيه من فراغ، وأنه في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء، وصدق الله حين وصف خاتم أنبيائه ﷺ بأنه: **﴿جاء بالحق وصدق المرسلين﴾**[٣٥].

٢ - كل البشر سواسية في التصور الإسلامي:

وكما يطوي الإسلام على مستوى التاريخ أبعاد الزمان، فهو كذلك على مستوى الجغرافيا يطوي أبعاد المكان، ولا يعترف بالحدود المصطنعة ولا بنقاط التفتيش، بل يوجه دعوة الرسول الخاتم إلى كل الناس في كل مكان، ونلاحظ هنا في رسالة الإسلام بالذات أن المكان قد تمدد واتسع، وأن الزمان كذلك قد تمدد واتسع، فليست بعثة الرسول ﷺ قاصرة على مكان محدد، كما أن الرسالة ليست قاصرة على زمن محدد، فهي تتجاوز بتوجيهاتها عصبية اللون والجنس والأعراق والأرض قال تعالى: **﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله**

ورسـوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾[٣٦]، وقال تعالى: **﴿ إن فى هذا لبلاغًا لقوم عابدين (١٠٦) وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**[٣٧]، وإذا كان الإسلام قد نظر إلى العرب على أنهم عقل الإسلام ولسانه، إلا أنه قد رفض أن تكون الرسالة قاصرة على الجنس العربى وحده، ومن ثم رفض أيضا أن يكون الذكاء الإنسانى قاصرا على جنس مخصوص، ورأى أن هناك عطاء لكل جيل، وأن التراكمات الثقافية والفكرية وحرية العقل لها فى التكوين الحضارى إسهام كبير، وتشارك فيها الأجيال والشعوب والأمم، لذلك اعتمد الإسلام التجارب الإنسانية ضمن روافد التكوين الحضارى للأمم والشعوب، ونظر إليها كرصيد ومؤسس فى بناء الحضارات، كما اعتبر الإضافة العلمية حقا لكل جيل ، وهى تدخل ضمن الروافد الهامة التى لا يجوز أن يحرم منها المجتمع لأى سبب كان، وعلم أتباعه والمؤمنين به أن يبحثوا عن الحكمة حيثما كانت، وألا ينغلقوا على أنفسهم أو يتمركزوا حول ذواتهم فقط، وقبل ذلك وبعده اعترف برسالات السماء كإطار مرجعى لحماية قيم الحق والرشد فى الأمم والشعوب، بالإضافة إلى قبوله لفكرة الإبداع الإنسانى فى إثراء الحضارات.

وتأسيسا على هذه القاعدة من الوعى بالتفاعلات المهمة فى كل أقطار الأرض توجه خطاب الوحى المعصوم ، ليقيم العلاقات بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول على أساس من الكرامة وعزة الإنسان، وهى علاقات تتفاعل مع الآخرين أخذا وعطاء، وتأثيرا وتأثراً، تدعم جوانب الخير وتقيم العدالة، وتنضبط بضوابط الأخلاق لا بضوابط المصلحة المادية، فالمسلم فى حياته يعز بدينه ، ويفاخر بالانتماء لأمة الإسلام ، ولكن هذا الاعتزاز وهذا التفاخر لا ينطلقان من عصبية عمياء ولكنهما محكومان بضوابط العدل والإنصاف فى التعامل مع الآخرين ولو كانوا مختلفين معنا فى العقيدة والدين، فكتاب المنهج كإطار أخلاقى وكمصدر مرجعى لتوجيهات المسلم وتصوراته وسلوكياته يرفض الظلم ويأباه فى كل صوره، مع الشقيق المسلم أو مع العدو اللدود، كما يرفض المحاباة على حساب الحق لقريب أو صديق، أو حسيب أو نسيب، أو حتى مع

الوالدين والأقربين قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا الذى له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأُمّى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾[٣٨]، وهكذا يتحدد فى المنهج بحزم وصرامة أن الحق فوق القوة، وأن العدل فوق الخصومة، وأن إنسانية الإنسان فوق كل اعتبار، كما يتحدد من خلال المنهج أن حماية البيئة وكل مفردات الطبيعة ومنظومة الكون الكبير، وتأمين السلام للجميع هو الأصل إنطلاقاً من القاعدة القرآنية المعروفة: ﴿ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها﴾[٣٩]، وأن هذا السلام بموجب هذه القاعدة حق مكفول فى منهج الإسلام، لا يجوز العدوان عليه أو تهديده فى أية صورة من الصور ولو بمجرد حبس حيوان أعجم، وقصة المرأة التى دخلت النار فى هرة حبستها، قصة معروفة للجميع، فهل يوصف هذا الدين بعد ذلك بأنه مصدر للإرهاب والعنف؟ وأنه لا يعترف بالآخر ولا يقبل بوجوده فى الحياة كما تشيع آلة الإعلام فى الغرب دوما وفى كل مناسبة وأحيانا بغير مناسبة؟ أم أن التهمة ترتد إليهم بحكم شهادة التاريخ واستقراء الواقع المفجع فى طول الدنيا وعرضها؟[٤٠].

الطبقيات المعترف بها فى الإسلام:

• الطبقية الأولى :

وإذا كان الإسلام كما أشرنا لا يعترف فى تقويم[٤١] البشر بالطبقيات الممقوتة ويرفض أن يتميز الإنسان لمجرد أنه من جنس معين أو أنه يملك المال فقط، فهو فى الوقت نفسه ينصب الموازين الحق فى تقدير الناس على أساس من اعتبارات ثلاثة:

الاعتبار الأول : أن البشر يتساوون جميعًا فى أصل الخِلقة والتكوين، فلا ميزة لدم على دم ، ولا لجنس على جنس ، ولا لعرق على عرق ، ولا للون على

لون آخر، وإذا حدث واختلفت الشعوب والأجناس، أو اختلطت المفاهيم والتصورات، أو تضاربت المصالح والغايات - وهذا وارد جداً - إلا أن القرآن كتاب الوجود والخلود يرسم لأتباعه إطاراً أخلاقيًا يتربى عليه المسلم منذ نعومة أظفاره بحيث يشب وقد علم أن المطامع والمطامح لابد لها - على الأقل - من سقف أخلاقى لا تتعداه ولا تتحداه؛ كى يعيش الناس فى سلام وانسجام، وإذا بدت بعض التناقضات فى المصالح والغايات، وتطورت أحياناً إلى صراع محموم، فعلى الأطراف أن يتذكروا دوما أنهم خلقوا ليعمروا لا ليدمروا، وليضيفوا إلى كل جميل جمالا جديدا فى هذا الوجود، وأنهم فى الوقت نفسه أبناء أب واحد وأم واحدة، فكل الناس لآدم وآدم من تراب، وبالتالى وجب عليهم أن يتعاونوا ويتراحموا ويتواصلوا، وإذا لم يفعلوا ذلك دينا، لوجب عليهم أن يتواصلوا ويتراحموا نسبا وصهرا، قال تعالى: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا﴾**(٤٢)، هكذا تتحدد علاقة المسلم تجاه الآخرين - الإنسان والبيئة وعناصر الكون ومفردات الوجود أرضا وسماء - فالمسلم ينطلق فى مشاعره مسالما، يبادر الآخرين بالحب لا بالكره، وبالعدل لا بالظلم، وبالسلام لا بالصراع، لأن السلام فى عقيدته شعيرة ، وفى حسه شعور، وفى حياته شعار، ودينه لا يمنح شرف الانتساب إليه إلا لمن سلم الناس من لسانه ويده كما أنه يجعل من تحقيق الأمن وإشاعة الطمأنينة غاية من غاياته، يتربّى المسلمون عليها، ويتعبدون ربهم بها، ويتبادلونها تحية فيما بينهم، ويحيون دعاة لها، وحماة لمبادئها من بطش الآخرين وعدوان الذين يقتاتون دماء الشعوب واستلاب حرياتهم، ويعيشون على القضم والهضم.

الاعتبار الثانى : أن مجال المنافسة يجب أن يكون فى إطار من الفضيلة والشرف، وأن خير الناس فى الدنيا هو من يلتزم بالتقوى والعمل الصالح، وذلك مجال متاح لمن أراد أن يزكى نفسه ويطهر قلبه ويعلى فى الأولين والآخرين قدره ومكانته.

الاعتبار الثالث : أن أساس التميز متاح للجميع وليس حكرا على جنس

معين، وهو أساس يعتمد الخير العام والعمل الصالح كمحور للتفاضل، ويجعل الغاية من تعدد الشعوب والأجناس هى التعارف والتواصل وتبادل المنافع والمصالح وإقامة السلام، وليس الحرب والتباغض وإثارة الكراهية والعدوان، ويناديهم بقوله تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**(٤٣).

تلك هى الطبقية الأولى التى يقرها الإسلام ويدعو الجميع إليها، وهى طبقية لا تعتمد فى تميزها لون البشرة أو العصبيات أو الجنس، كما لا تعتمد العرض الفانى فى تقويم الرجال، وإنما تعتمد صلاح النفس ونظافة الضمائر، والإحسان إلى الناس كمعيار فى التقويم، وكأساس فى التمايز، ذلك هو المفهوم من مصطلح (التقوى) فى النص الكريم: **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**(٤٤).

ولما كان المجتمع قبل الإسلام مجتمعا طبقيا ينقسم الناس فيه إلى سادة يملكون كل شىء، وبيدهم وحدهم مقاليد الأمور، وإلى عبيد لا يملكون حتى من أمر أنفسهم شيئا، فإن الإسلام قد جاء ليعدل الموازين ويشكل بصياغة جديدة قيم المجتمع، فيستبقى منها ما يفيد ويحافظ عليه وينميه ، ويستبدل منها ما يضر، ويغير من نظرة البشر بعضهم لبعض، ويضع معيارا - ثابتا بثبات قيمه - فى تقدير البشر، ويرفض النظر السطحى الذى يقف عند حدود الظاهر من الأشياء ولا يغوص إلى عمق الإنسان ؛ ليجلى أجمل ما فيه من الفضائل والقيم، عن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى - رضى الله عنه - قال: «**مر رجل على النبى ﷺ فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك فى هذا ؟ فقال رجل من أشراف الناس: هذا والله حرى إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، فسكت رسول الله ﷺ ، ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله: ما رأيك فى هذا ؟ فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا حرى إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: هذا خيرٌ منْ ملْء الأرض مثل هذا**»(٤٥). فالرجل الثانى - رغم فقره وقلة ذات اليد لديه - خير من ملء الأرض رجالاً من أمثال الرجل الأول، والرجل الأول - وإن كان من أشراف الناس بمعيار الجاهلية له بين

أبناء المجتمع مكانة تجعله مسموع الكلمة إن تكلم، مجاب الطلب إن سأل، مقبول الشفاعة إن شفع؛ إلاّ أنه بمعيار الإسلام هذا لا بمعيار الجاهلية - لا يمكن أن يتساوى مع الثانى، وإن ملك كل خزائن الأرض، لماذا؟ لأن التقويم هنا لا يخضع للقيم المادية فى تقدير الرجال، ولم يقف عند حدود المظاهر المرئية أو عند القشور الخارجية فى التعامل مع الناس، وإنما يخضع التقويم هنا لمعايير جوهرية جديدة لم يعرفها مجتمع الجاهلية من قبل تتصل بنظافة الخلق ونظافة الضمائر والقلوب، ورجاحة العقل وطهارة النفس، وتلك قفزة نوعية فى التقدير والتقويم، أراد الرسول ﷺ أن يرسى قواعدها ، وأن يغرس بذورها فى مجتمع كانت الكلمة والسيادة والتصدير فيه لمن يملك المال وإن خبثت نفسه ودنست فطرته، فأراد ﷺ أن يجعلها لمن يملك طهارة النفس ورجاحة العقل وشرف الضمير، وأن الثراء والفقر والجنس واللون لا دخل لهما فى تقدير الرجال، هذا هو موقف الإسلام من قضية المساواة بين البشر، بينما إذا أخذنا عينة عشوائية من بعض النصوص التى توصف بأنها مقدسة لدى الآخرين، فإن القارئ يصدم لحجم الكراهية والحقد والعنصرية التى تكرسها هذه النصوص فى عقيدة أصحابها، ولك أن تتصفح ما عند الآخرين لتعرف نفاسة ما لديك، وحتى لا تغلى الدماء فى عروقك ويرتفع ضغط دمك، نكتفى بأن نقدم إليك نموذجا واحدا من نماذج كثيرة تكرس العنصرية، وتسخر من الآخرين، بل وتستبيح دماءهم وأعراضهم، وتدعوا الأتباع لحرق الأخضر واليابس، وتلويث الطاهر، وهدم الديار، واقرأ إن شئت هذا النص فى سفر المكابيين:

(سأل إسرائيل إلهه: ولماذا خلقت خلقاً سوى شعبك المختار؟ فقال له: لتركبوا ظهورهم وتمتصوا دماءهم وتحرقوا أخضرهم وتلوثوا طاهرهم وتهدموا عامرهم)(٤٦).

● الطبقية الثانية :

أما الطبقية الثانية التى يعترف بها الإسلام فى تمايز الناس وتقديرهم فهى الطبقية العلمية التى ترفع أهل العلم إلى مستوى مرموق فى التقدير والتبجيل

والتوقير، وتربط بين المعرفة والتطبيق من ناحية وبين الغايات التى يسعى العالم بعلمه لتحقيقها من ناحية أخرى، قال تعالى: ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾[٤٧]، وقال جل جلاله: ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات** ﴾[٤٨] ، وقال سبحانه : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾[٤٩]، ومعلوم أن: (أولى العلم هنا ليسوا بالضرورة أن يكونوا علماء الشريعة فقط، أو أهل العلم الدينى، وإنما هم أهل العلم من كل فن وتخصص إذا صدقت نواياهم، وارتبطت غاياتهم وتوجيهاتهم بالله تعالى، وأقدموا على العلم فهما وتحليلا واستنباطا باسم الله أولا، ورفعا لرايته ثانيا، وخدمة لعباده ثالثا، وتعميرا للأرض وترقية للحياة استجابة لأمره رابعا)[٥٠]، ومن هنا فلا يكفى فى ميزان الإسلام أن يكون لدى العالم عقل موسوعى مجرد، لكنه مقطوع الصلة بمن أبدع السموات والأرض، فقلبه من الإيمان فارغ، ومشاعره خالية من الارتباط بالله، حينئذ يتحول هذا العالم فى أى تخصص كان إلى مجرد شريط كاسيت أو قرص مدمج (C.D) على أكثر تقدير، وإنما العلم المعتبر فى الإسلام هو العلم المرتبط بغاية، فإما أن يهدى صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى، بصرف النظر عن نوع العلم وتخصص العالم، وذلك منحى جديد فى توظيف القدرات والملكات ينفرد به الإسلام ويمتاز، قال رسول الله ﷺ: «**ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم، يهدى صاحبه إلى هدى، أو يرده عن ردى، ولا استقام دينه حتى يستقيم عقله**»[٥١]، وجدير بالملاحظة هنا الربط بين استقامة الدين واستقامة العقل فكأن العقل شريك النص فى التعرف على الحقيقة والوصول إلى المقاصد والغايات، ومن هنا كان العقل مناط التكليف، ومن لا عقل له فلا تكليف عليه، وهذا فى الواقع إعلاء رائع لدور العقل ومكانته فى الدين الخاتم، وهذه هى الطبقية الثانية، طبقية أهل العلم بعد طبقية أهل التقوى التى يعترف بها الإسلام ويدعو إليها، وهذه الطبقية ليست حكرًا على جنس معين أو دم أو لون، وإنما هى دائرة مشرعة الأبواب ، مفتوحة النوافذ لجميع الخلق بصرف النظر عن اللون أو الجنس أو العرق أو المستوى المادى فى الثراء والفقر، وهذا هو المعنى الجميل

الذى أشار إليه الحديث الشريف الذى يمثل قفزة نوعية فى عالم القيم عند تقويم الرجال، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**(٥٢)، ففى ميزان الإسلام لا تدخل الأعراض الزائلة، ولا هيئات الناس فى تقدير ملكاتهم، وإنما المعول عليه قيم متاحة كما أشرنا للبشر جميعًا(٥٣).

٣ - الأقليات الإسلامية فى الدول غير الإسلامية :

الحديث فى هذا الفصل - فصل الأقليات الإسلامية فى الدول غير الإسلامية ـ يقتضى منا بداية أن نشير إلى مجموعة من الحقائق تحدد إطارا للبحث ، وترسم الصورة الحقيقية لهذه الأقليات بعيدا عن تدليس السياسة وتزييف الإحصاءات التى تقلل الكثير، وتكثر القليل لأغراض أضحت معروفة فى عالم الوعى والثقافة والفكر، وكشفت عنها أحداث السنوات العجاف، والأيام السود والليالى المظلمة التى مرت بها الجاليات المسلمة فى الدول غير الإسلامية، وأول هذه الحقائق وأجدرها بالاهتمام هو:

١ - أن بعض ما يعد فى الإحصاءات أقليات ليس إلا أقطارا إسلامية خالصة، ضمت عنوة وقهرا إلى كيان أكبر منها لتفقد فيه خصائصها بداية، ثم تذوب فيه، ومن ثم تمحى معالم خلاياها فتتحول شيئا فشيئا إلى مجرد نسيج عادى فى جسد المجتمع العام، فإذا لم يتحقق ذلك، واستعصت على الدمج والذوبان فلا مانع من بقائها أقلية مسحوقة فى دولة كبرى، والمثال على ذلك الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى السابق (طشقند وأوزبكستان وأذربيجان وتركستان) فهذه أقطار إسلامية خالصة ومع ذلك تحسب ضمن الأقليات.

٢ - أن إحصاءات ودراسات أجريت من نحو عشرين عاما فى جامعة الإمام محمد بن سعود دلت نتائجها على أن هذه الأقليات فى مجموعها العام تكون أكثر من ربع عدد سكان العالم الإسلامى.

٣ - أن بعض هذه الأقليات لها تاريخها وأثرها العلمى والحضارى فى شبه القارة الهندية، كما تمثل من حيث العدد التجمع الثانى للمسلمين فى العالم وهى الأقلية الإسلامية فى الهند.

٤ - أن بعض هذه الأقليات ليست أقلية وإنما هم الأكثرية الحقيقية الساحقة، ولكن التزييف وحرب الإحصاءات يتعمدان دائما تقليل أعداد المسلمين وإظهارهم على أنهم أقلية، خصوصا فى مناطق معينة، وذلك لخدمة أهداف سياسية معروفة، فإذا تم العدوان عليهم واجتياح حقوقهم يصورون - إعلاميا وسياسيا - على أنهم أقلية متمردة يجب تأديبها، ومن ثم تمر قضية اضطهادهم دون ضجيج على أنها شأن خاص، أو مسألة داخلية، لا يجوز التدخل فيها، أو الاعتراض عليها، أو الخلاف بسببها.

وهكذا عاشت هذه الأقليات منسية من ذاكرة الأمة، بعيدة عن قلبها، معزولة عن بؤرة التفكير والإحساس لدى الكثيرين من أبنائها، خاصتهم وعامتهم وجماهيرهم، وكم عانت هذه الأقليات فى القديم والحديث من سلب للحقوق، وسفك للدماء ، وانتهاك للأعراض ، ومذابح جماعية ، يقول غوستاف لوبون: (إننا لا نجد وصفا لضروب القسوة والبربرية التى كانت طابع الحكم الصليبى فى فلسطين حيث لم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب العسف والتدمير والتنكيل التى اتبعوها، فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود الذين كان عددهم ستين ألفا، فأفنوهم عن آخرهم فى ثمانية أيام، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا)[٥٤]، ويقول غليوم الصورى: (إن الصليبيين كانوا من السفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين، ولو أراد كاتب أن يصف رذائلهم الوحشية لخرج من طور المؤرخ ليدخل فى طور القادح الهاجى)[٥٥]، أما فى أسبانيا فتحدثنا وقائع التاريخ أن دماء المسلمين قد سفكت، (وأنهم أرغموا إرغاما على ترك الإسلام والدخول فى دين النصرانية، وفى شباط ١٥٠٢ صدر أمر بطرد المغاربة المسلمين، وقد سموهم أعداء الله، من أشبيلية وما حولها إذا لم يقبلوا التعميد، وعليهم أن يغادروا أسبانية قبل شهر نيسان، وألا يصحبوا معهم ذهبا ولا فضة، وألا يذهبوا فى طريق يقودهم إلى أرض إسلامية)، ويعلق الكاتب فيقول: (والنتيجة التى جاءت أثرا لهذه الشروط موت الجميع)[٥٦].

إن محاكم التفتيش نصّرت المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، بأشد وسائل

العنف، ولم تكن العهود التى قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية التى أسبغت على سياسة أسبانيا الغادرة ثوب الدين والورع، وفى عام ١٥٠١ أصدر الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا أمرًا ملكيًا خلاصته: (لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ويعاقب المخالفون بالموت ومصادرة الأموال)[٥٧]، تلك هى معاملة غير المسلمين للأقليات المسلمة قديمًا.

أما فى العصر الحديث فالصورة لم تتغير كثيرًا غير أن الآليات قد تطورت، فحضارة القرن العشرين قد أضفت عليها من جديد وسائلها ما لا يستطيع العقل تصديقه أو حتى تصوره، واسأل إن شئت. أهل كوسوفا، أو ابحث فى باطن أية بقعة من أرض البوسنة والهرسك، أو اسأل إن شئت كرداتش، فهو لا يزال حرا طليقا، ولا ينبئك مثل خبير، وإن رأيت أن المسافة بعيدة، وأن السفر شاق وطويل، فلا عليك إذا اختصرت الطريق وذهبت إلى فلسطين، وهناك ترى الخبر اليقين الذى يغنيك عن أى حديث، ويلهيك عن أية معاناة، ويمسك لسانك عن أى كلام، وربما يقصف قلمك عن كتابة أى حرف مباح، حتى تنتهى شهرزاد من إتمام مهمتها بعد أن أخذت الضوء الأخضر من حبيبها شهريار بالتخلص من كل المسلمين الأشرار، ولكن بالتقسيط المريح، وحتى تتحقق المساواة الكاملة بين الجميع - رجالاً أو نساء، شيوخًا أو أطفالاً، أحياءً أو أمواتًا لا فرق - المهم هو أن تحقق شهرزاد المساواة الكاملة، وتكرر مأساة صبرا وشاتيلا بذبح الفلسطينيين ودفنهم فى مقابر جماعية، قبل أن يلوح ضوء النهار وتهل تباشير الصباح.

٤ - الأقليات غير المسلمة فى الدول الإسلامية :

بعد أن عرفنا موقف الإسلام من الديانات السماوية الأخرى، وأنه موقف التصديق الكلى لكل الحقائق التى بعث بها الرسل، لم يكن بدعا ما سنه الإسلام من تشريعات أساسها رعاية الحق وإقامة العدل فى تحديد العلاقة بين أتباع الديانات الأخرى ممن يعيشون فى مجتمع المسلمين، فالأحقاد الطائفية والحروب

الدينية غريبة على البيئة المسلمة، فقد تعلم المسلمون من أصل دينهم وتوجيهات نبيهم أن يعاملوا غيرهم بيسر وحسن معاشرة، ورعاية للجوار الذى وجهت إليه سماحة الإسلام فيما شرعته من قوانين ووضعته من تقاليد، ذلك أن الإسلام فى ميدان الحياة العامة حريص على احترام شخصية المخالف ، ثم لم يفرض عليه حكمه، أو يقهره على الخضوع لشرائعه، ولم يقم بمصادرة حقوقهم أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم ، أو المساس بأموالهم وأعراضهم ودمائهم، بل ترك أهل الأديان وما يدينون، فليس من أهداف الإسلام إذا أن يفرض نفسه على الناس فرضا حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، فنبى الإسلام هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هى محاولة فاشلة، بل هى مقاومة لسنة الوجود، ومعاندة لإرادة رب الوجود: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين﴾**[٥٨]، **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾**[٥٩]، **﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾**[٦٠]، ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية المحكمة المبرمة فى حرية العقيدة: **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾**[٦١]، إن الإسلام يجعل الاعتقاد الصحيح ثمرة الإرادة الحرة، وبالتالى فمن لا حرية له فلا تكليف عليه، وكما أن المكره على ما فعل عمل ما لا يتحمل نتائجه لأن إرادته استعبدتها قوة قاهرة ، فكذلك المكرهون بالعنف على الدخول فى دين ما لا يعتبرون متدينين به إذ خضعوا له شكلاً، على أن الإسلام لا يكتفى منا بهذا الموقف السلمى السلبى وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه بل يتقدم بنا إلى الأمام، فيرسم لنا خطوات إيجابية، نكرم بها الإنسان فى شخص غير المسلم، فضلا عن الديانات الأخرى التى تربطنا بها أواصر الوحى السماوى، اقرأ فى سورة التوبة: **﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾**[٦٢]، فأنت تراه لا يكتفى منا بأن نجيرهم، ونؤويهم، ونكفل لهم الأمن فى جوارنا فحسب، ولا يكتفى منا بأن نرشدهم إلى الحق ونهديهم طريق الخير وكفى، بل يأمرنا بأن نكفل لهم الحماية والرعاية فى انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذى يأمنون فيه كل غائلة، ثم هل ترى أعدل

وأرحم وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من هذه التعاليم التى لا تكتفى بأن تكفل لغير المسلمين فى بلاد الإسلام حرية عقائدهم أو عوائدهم، وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم فقط، بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من الحقوق العامة فيكون (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) وفق القاعدة المعروفة.

حقوق غير المسلمين فى مجتمع المسلمين :

أولاً : حق الحماية :

حق الحماية يقصد به حماية دمائهم وأموالهم وأعراضهم وممتلكاتهم وحريتهم فى ممارسة شعائرهم الدينية وعباداتهم وغير ذلك على تفصيل لا يتسع له هذا البحث المختصر، وهذا الحق ينقسم الحديث فيه إلى قسمين: حق الحماية فى الداخل، وحق الحماية فى الخارج.

حق الحماية فى الداخل :

فإن الإسلام قد أوجب هذا الحق على أتباعه والمؤمنين به بموجب عقد الذمة، ولم يشأ الإسلام أن يجعله - مجرد عقد مثل كل العقود - التى يطالب الحاكم أو الوالى العام بالوفاء بما تضمنته بنوده والالتزام بما جاء فيه وانتهى الأمر، وإنما رفع من قداسة هذا العقد ليجعله عقدا ليس فى ذمة الوالى أو الحاكم فحسب، وإنما جعله فى ذمة الله وذمة رسوله ليحظى بأعلى مستوى من التقدير والتوقير والوفاء، لذلك تضافرت النصوص، قرآنا وسنة، فى توكيد هذا العقد، ثم كانت ممارسات المسلمين فى شتى عصورهم، تطبيقا حيا وعمليا يجسد حالة الالتزام فى أرقى درجاتها رعاية وعناية، وأعلى تجلياتها كرما وتسامحا، فالله تعالى يأمر فى دينه بالعدل والإحسان، ولا يجرد المسلم من العواطف سلبًا وإيجابًا (عواطف الحب أو الكره) حين يمارس هذا العدل، ولكنه يفرض عليه بذل أقصى الجهد فى تحرى العدالة المطلقة، فلا يجوز له أن يميل مع الهوى أو يحيف مع الشنآن، قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونُوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن**

يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خَبِيراً ﴾[٦٣]، وقال تعالى: **﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قومٍ على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهِ إنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بما تعملون﴾**[٦٤]، يروى أبو داود والبيهقى فى السنن قول الرسول ﷺ : **«من ظلم معاهدا أو انتقصه حقا أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة)**[٦٥]، وقال ﷺ : **(من آذى ذمياً فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله)**[٦٦]. وفى مجال فردية التبعة وشخصية العقوبة وعدالة الجزاء ذكر أبو يوسف فى الخراج أن: عهد النبى ﷺ لأهل نجران جاء فيه: **«ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله ﷺ على أموالهم وملتهم وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر»**[٦٧]، إذاً فدماؤهم وأموالهم وأعراضهم محمية بنصوص القرآن والسنة وحمايتهم جزء من عبادة المسلم، يقول الرسول ﷺ : **«من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»**[٦٨]، فالإسلام يفرض لهم (بموجب عقد الذمة حقوقًا علينا طالما كانوا فى جوارنا وفى حمايتنا وذمتنا وذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ وذمة دين الإسلام)، قال ابن عابدين: (لأنه بعقد الذمة وجب لهم ما لنا؛ فإذا حرمت غيبة المسلم حرمت غيبته، بل قالوا: إن ظلم الذمى أشد)[٦٩]، وتوالت النصوص على حماية حريتهم الدينية وحرمة معابدهم، وشعائرهم وقد فصلت ذلك وثيقة عمر بن الخطاب التى أعطاها لأهل إيلياء (القدس) حيث جاء فيها:

(هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسائر ملتها ، لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبها، ولا من شىء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود)[٧٠].

٢ - حق الحماية من العدوان الخارجى :

ويعنى هذا الحق أن المجتمع الإسلامى يكفل حمايتهم من كل عدوان خارجى، ومن ظلم داخلى، حتى ينعموا بالاستقرار والأمان، فحمايتهم من كل عدوان خارجى تقررت بناء على القاعدة المعروفة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا)، وبناءً عليه فيجب على الإمام أو ولى الأمر بما له من سلطة شرعية وما لديه من قوة عسكرية أن يوفر لهم سبل هذه الحماية باعتبارها جزءا من واجباته الدينية بموجب عقد الإمامة بينه وبين الأمة، جاء فى مطالب أولى النهى من كتب الحنابلة: (يجب على الإمام حفظ أهل الذمة ومنع من يؤذيهم، وفك أسرهم ودفع من قصدهم بأذى إن لم يكونوا بدار حرب، بل كانوا بدارنا، ولو كانوا منفردين ببلد، فقد جرت عليهم أحكام الإسلام، وتأبد عقدهم فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين)(٧١)، وذكر الإمام القرافى، وهو من أئمة المالكية فى كتابه الفروق، نقلا عن الإمام ابن حزم الظاهرى فى كتابه مراتب الإجماع ما نصه:

(أن من كان فى الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك صونا لمن هو فى ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة) وقد علق الإمام القرافى على هذا الكلام بقوله: (فعقد يؤدى إلى إتلاف النفوس والأموال صونا لمقتضاه عن الضياع لعظيم)(٧٢).

فهل عرفت الدنيا أو وعت ذاكرة التاريخ مثل هذا الأفق الرحيب فى التسامح لسمو المبدأ ورقى الفكرة، لكن المهم هو التطبيق العملى، ونجيب بسرعة بإحالة السائل إلى أحداث التاريخ التى تضمنت الكثير من المواقف العملية والتطبيقية للصحابة وكبار الأئمة، كما نحيله إلى اعترافات الكثيرين من كتاب الغرب ومفكريهم، بل وكبار رهبانهم والاعتراف - كما يقولون - هو سيد الأدلة، ولضيق المقام نشير هنا إلى موقف يذكره التاريخ بالجلال والفخر، ألا وهو موقف شيخ الإسلام ابن تيمية (حينما سيطر التتار على الشام، وذهب الإمام، ليكلم قائد التتر (قطلوشاه) فى إطلاق سراح الأسرى، فسمح القائد للشيخ فى إطلاق سراح

الأسرى المسلمين ، وأبى أن يسمح له بإطلاق سراح أهل الذمة فقال الشيخ العالم: لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيرًا لا من أهل الذمة ولا من أهل الملة، فلما رأى إصراره وتشدده فى أمر أهل الذمة من اليهود والنصارى أطلقهم له)(٧٣).

ونكتفى بهذا الموقف لننتقل إلى شهادة المنصفين من كتاب ومفكرى الغرب ليعلم القارئ أن الحقائق لا تذهب مع الزبد الرابى وسط السيل المندفع، ولا يزيلها جليد الباطل أبدا مهما غطاها بطبقات الصقيع، فسيأتى يوم تسطع فيه الشمس ، وتذيب جليد الباطل بأنوارها وحرارتها وستجرف أمواج المحيط ما تبقى من رمال الباطل على شطآن الحقيقة، فيراها الجميع رأى العين، ويسمعون نداءها، ويتردد فى فطرتهم وقلوبهم رجع صداها .

أرسل البطريق النسطورى يشوع باف الثالث إلى المطران سمعان رئيس أساقفة فارس رسالة جاء فيها : (إن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا، يشاهدون ما أنتم عليه ، وهو بينكم كما تعلمون ذلك حق العلم ، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية، بل على العكس، يعطفون على ديننا ويكرمون قسسنا وقديسى الرب ويجودون على الكنائس والأديار)(٧٤).

ويعلل سير توماس أرنولد سبب إسلام الجماعات المسيحية التى كانت تحت حكم الدولة البيزنطية بقوله: (إنها وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية، فقد سمح الإسلام لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد، فقد وضعت قيود دون الاحتكاك بين الديانات المتنافسة، وتمنع إثارة التعصب بين فرقة وأخرى، وهذا من قواعد الحرية والمحافظة عليها)(٧٥)، وحتى المتعصبين من النصارى لم تخل أحاديثهم من لحظة صدق تفلتت فيها الحقيقة من عقال التعصب، فخرجت فى فلتات اللسان ، ليتحقق القول المأثور (صدقك وهو كذوب) رأينا ذلك جليا فى شهادة الدكتور فيليب حتى المؤرخ المسيحى المعاصر والذى لم يدخر وسعاً فى شتم النبى محمد ﷺ! ولم يكف يومًا عن محاولة الغمز واللمز

والنيل من رسول الإسلام! لكن فطرته غلبت عليه فى لحظة سكون العقل المكابر فقال: (كان أهل الذمة فى ظل الدولة الإسلامية يتمتعون بقدر كبير من التسامح الدينى، وكانوا يخضعون حتى فى الأمور المدنية، وكافة الإجراءات القانونية إلى رؤسائهم الدينيين)(٧٦).

وينقل أرنولد من كتاب ميخائيل الأكبر بطريق أنطاكية اليعقوبى، الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر بعد سرد اضطهادات الرومان المسيحيين لهم يقول: (إنه يرى أصبع الله فى فتوح العرب، وأن الله لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة، فنهبوا كنائسنا وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب؛ ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم، ....، ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التى وجدت فى حوزتها، ولم يكن كسبا هينا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام)(٧٧).

ونتساءل مرة أخرى: هل عرفت الدنيا أو وعت ذاكرة التاريخ مثل هذا الأفق الرحيب فى التسامح ورعاية الأقليات غير المسلمة فى مجتمع المسلمين؟

يجيبنا الواقع ويشهد التاريخ بأن الدنيا منذ عرفت معنى التمدن والتحضر لم تعرف نظيرا أو شبيها لِكَمِّ الحقوق، وحجم الرعاية، ووفرة الكرامة التى حظيت بها الأقليات غير المسلمة فى مجتمع المسلمين، وإذا كانت إنسانية القرن العشرين تتباهى بتشريعات نظرية، حفظت للإنسان حقوقه فى صورة قوانين ضمنتها دساتير الأمم (الحرة) كما يحلو لهم أن يسموا أنفسهم، ووثقتها الأمم المتحدة فى ميثاقها العام، إلا أن الإنسان منذ وجد على الأرض لم يتجرع كأس المرارة والمهانة والمذلة، مثلما تجرعه فى هذا العصر، وبقيت هذه القوانين وتلك التشريعات مجرد حبر على ورق، يلجأ إليها الأقوياء عندما يريدون معاقبة الضعاف إذا هموا بمخالفة الكبار، أو تمردوا على أخلاق القطيع، خصوصا إذا كانوا من المسلمين، حينئذ تطبق القوانين بصرامة غير مسبوقة وشدة غير

معهودة، بينما يضرب بها عرض الحائط ولو انتهك الفاعل كل الأعراف والمواثيق الإنسانية (مادام من أهل الحظوة)، فهو حينئذ فوق القانون وفوق كل المواثيق، حتى ولو دمر البنية التحتية، وأحرق المدن والقرى، ودك المستشفيات بطائراته ومدافعه، وحطم عربات الإسعاف بدباباته، وداس بجنازيرها على أجساد الضحايا، ومن ثم شهدت إنسانية القرن العشرين أسوأ انتهكات لحقوق الإنسان فى تاريخ الدنيا وتحت سمع وبصر الأمم المتحدة، بل إن منظمة الأمم المتحدة نفسها استعملت مطية لتحقيق أهداف الاستعمار الجديد، ورأينا ازدواجية المعايير والكيل بألف مكيال، مما صور عدالة الأرض فى نفوس البعض بألف وجه قبيح، تنفر منه الطبائع السوية، ويتشكك فيه من يعيش فى الحياة بنصف عقل، وبقيت القوانين مجرد أفكار فى الذهن أو فى الأوراق سيان، لكنها غابت عن عالم الواقع ولم يستشعر الإنسان فى ظلها لحظة من الأمان أو الأمن المفقود، ولقد تأكد لدى العقلاء وكبار المفكرين فى العالم، بعد إفلاس الحضارة الغربية وسقوط فلسفتها، أن المناهج والأيديولوجيات لم تستطع أن تشفى العالم من أسقامه، وأن أمراض البشر لا يمكن أن تعالج بأفكار ونظريات أرضية، فيها من الخطأ أضعاف أضعاف ما فيها من الصواب، كما تأكد الآن أكثر من أى وقت مضى، أن الإسلام هو الصيغة الربانية المتحفزة والمؤهلة لقيادة عمليات الإغاثة والإنقاذ، وأنه - وحده دون سواه - هو الذى يملك وسائل إدارة التحولات الكبرى فى الاتجاه الصحيح، وبرغم هزيمة المسلمين وانكسارهم، فإنه فى موقف الاقتدار ولا يزال يعلو ولا يعلى عليه.

قال تعالى: **﴿وبِالحق أنزلناه وبِالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشِراً ونذيراً﴾**[٧٨]، وقال سبحانه وتعالى: **﴿وتَمَّت كلِمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدِّل لكلماته وهو السميع العليم﴾**[٧٩].

نتــائج البحــث

أولاً : فيما يتصل بعلاقة الإسلام بالديانات السماوية السابقة :

١ - اتضح من خلال البحث أن الإيمان بالأديان السماوية السابقة يشكل عنصرا أساسيا فى عقيدة المسلم، وأن الاعتراف بالآخر ليس خيارا إنسانيا وإنما هو فريضة دينية.

٢ - اتضح أن الإسلام دين يوجب على أتباعه الإيمان بكل النبوات السابقة كشرط للإيمان بمحمد ﷺ كما يوجب عدم التمييز والمفاضلة بين نبى وآخر على اعتبار أنهم جميعا أخوة، فمنطوق الإيمان ومفهومه عند المسلمين : **﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾**.

٣ - اتضح أن الإسلام فى لغة القرآن ليس اسما لدين خاص، وإنما هو اسم للدين الذى هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء وهذا بُعد جديد يوسع الدائرة الإيمانية ويشكل قفزة نوعية فتحت الأبواب والنوافذ لأفق أوسع وأرحب فى عالم العلاقات الإنسانية.

ثانيا : فيما يتصل بالمساواة فى التصور الإسلامى :

اتضح من خلال البحث أن الإسلام هو المنهج الوحيد الذى يطوى **على مستوى التاريخ** أبعاد الزمان، كما يطوى على **مستوى الجغرافيا** أبعاد المكان، فيجمع الناس فى عقد واحد، ويرسى قواعد الأخوة والمساواة بين أبناء البشر جميعا، وينظر إليهم على أنهم متساوون فى أصل الخلقة والتكوين، فلا ميزة لجنس على جنس ، فكل الناس لآدم وآدم من تراب.

ثالثا : فيما يتصل بالأقليات المسلمة فى المجتمع غير المسلم :

١ - اتضح أن بعض ما يعد فى أقليات ليس إلا أقطارا إسلامية خالصة،

ضمت عنوة وقهرا إلى كيان أكبر منها لتفقد فيه خصائصها، ثم تذوب فيه حتى استعصت على الدمج والذوبان فلا مانع من بقائها أقلية مسحوقة فى دولة كبرى.

٢ - اتضح أن هذه الأقليات فى مجموعها العام تكوّن أكثر من ربع عدد سكان العالم الإسلامى، كما أشارت إلى ذلك دراسات وأبحاث كثيرة.

٣ - أن بعض هذه الأقليات تمثل من حيث العدد التجمع الثانى للمسلمين فى العالم، لها تاريخها بالإضافة إلى أثرها العلمى والحضارى فى شبه القارة الهندية، كالأقلية الإسلامية فى الهند.

٤ - أن بعض هذه الأقليات إنما هى الأكثرية الحقيقية الساحقة، ولكن التزييف وحرب الإحصاءات يتعمدان دائما تقليل أعداد المسلمين وإظهارهم على أنهم أقلية، خصوصا فى مناطق معينة، وذلك لخدمة أهداف سياسية معروفة فإذا تم العدوان عليهم واجتياح حقوقهم فإنهم يصورون - إعلاميا وسياسيا - على أنهم أقلية متمردة يجب تأديبها، ومن ثم تمر قضية اضطهادهم دون ضجيج على أنها شأن خاص، أو مسألة داخلية، لا يجوز التدخل فيها، أو الاعتراض عليها.

٥ - اتضح أن هذه الأقليات الإسلامية المنسية فى بلاد المهجر تشكل خط الدفاع الأول عن الوطن الإسلامى الأم، خصوصا بعد أحداث ١١ سبتمبر، وأنها رصيد استراتيجى ضخم يمكن أن يؤثر فى الأحداث إيجابيا لخدمة قضايا الأمة إذا أحسنَّا التعامل معها، وأحسنَّا استثمار وجودها فى الخارج، خاصة أن من أبنائها الآن من يشغلون مراكز مرموقة، وبعضهم نواب فى برلمانات الدول التى يعيشون فيها، ولذا فلا يجوز أن تبقى هذه الأقليات منسية من ذاكرة الأمة، بعيدة عن قلبها، معزولة عن بؤرة التفكير والإحساس لدى الكثيرين من أبنائها، خاصتهم وعامتهم قادتهم وجماهيرهم، وتلك مسؤولية ضخمة تضاف إلى حجم الأعباء والمسؤوليات المنوطة بالوزارات والمؤسسات المعنية.

رابعاً : الأقليات غير المسلمة فى الدول الإسلامية :

١ - اتضح من خلال البحث أن الإسلام فى ميدان الحياة العامة حريص على احترام شخصية المخالف له، ومن ثم لم يفرض عليه حكمه، أو يقهره على الخضوع لعقائده ، ولم يقم بمصادرة حقوقهم ، أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم أو المساس بأموالهم وأعراضهم ودمائهم، بل ترك أهل الأديان وما يدينون، ولقد تقررت هذه الحقيقة لا من خلال النصوص الدينية فقط، بل بشهادة كبار المفكرين والباحثين المنصفين من كتاب ومفكرى الغرب أنفسهم، وقد كانت ممارسات المسلمين فى شتى عصورهم، تطبيقا حيا وعمليا يجسد حالة الالتزام فى أرقى درجاتها رعاية وعناية، وأعلى تجلياتها كرما وتسامحا.

٢ - اتضح أن الإسلام حريص فى تعاليمه على تكريم الإنسان فى شخص غير المسلم، وأنه أكثر حرصا على وحدة الأمة وتماسكها حيث بلغ من سماحته ورعايته لغير المسلمين - ولو كانوا مشركين وليسوا من أهل الكتاب - أنه لا يكتفى منا بأن نجيرهم ونؤويهم ونكفل لهم الأمن فى جوارنا فحسب، ولا يكتفى منا بأن نرشدهم إلى الحق ونهديهم طريق الخير وكفى، بل يأمرنا بأن نكفل لهم كذلك الحماية والرعاية فى انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذى يأمنون فيه كل غائلة ، **﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾**(٨٠)، ولم تعرف الدنيا أو تسع ذاكرة التاريخ نموذجا لسمو المبدأ ورقى الفكرة، منذ وعت ذاكرته أدب التسامح وقواعد الأخلاق أسمى وأنبل من تلك الوصايا الذهبية التى يوصينا بها القرآن فى معاملة الوثنيين الذين يدينون بديانة هى أبعد الديانات عن الإسلام، فضلا عن الديانات الأخرى التى تربطنا بها أواصر الوحى السماوى فى مجتمع المسلمين.

وبعـــد ، فلقد تأكد لدى العقلاء وكبار المفكرين والمثقفين فى العالم، بعد إفلاس الحضارة الغربية وسقوط فلسفتها، أن المناهج والأيديولوجيات لم تستطع أن تشفى العالم من سقامه، وأن أمراض البشر لا يمكن أن تعالج بأفكار ونظريات أرضية، فيها من الخطأ أضعاف أضعاف ما فيها من الصواب، كما

تأكد الآن أكثر من أى وقت مضى أن الإسلام هو الصيغة الربانية المتحفزة والمؤهلة لقيادة عمليات الإغاثة والإنقاذ، وأنه - وحده دون سواه الذى يملك وسائل إدارة التحولات الكبرى فى الاتجاه الصحيح، وبرغم هزيمة المسلمين وانكسارهم، فإنه فى موقف الاقتدار ولا يزال، يعلو ولا يعلى عليه.

وخلاصة القول أن الحقائق لا تذهب مع الزبد الرابى وسط السيل المندفع، ولا يزيلها جليد الباطل أبدا مهما غطاها بطبقات الصقيع، فسيأتى يوم تسطع فيه الشمس ، وتذيب جليد الباطل بأنوارها وحرارتها وستجرف أمواج المحيط ما تبقى من رمال الباطل على شطآن الحقيقة فيراها الجميع رأى العين، ويسمعون نداءها، ويتردد فى فطرتهم وقلوبهم رجع صداها **﴿قل إن ربى يَقْذف بالحقِّ علام الغيوب • قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد﴾**(٨١) صدق الله العظيم.

سيدنى فى ٢٤ محرم ١٤٢٣ هـ
الموافق : ٧ أبريل ٢٠٠٢ م

المصادر والمراجع

أولاً : القــرآن الـكريم.

ثانياً : السنة النبوية.

١ – ابن ماجه.

٢ – البخارى.

٣ – البيهقى ، السنن الكبرى.

٤ – الطبرانى ، الأوسط.

٥ – الطبـرانى ، المعاجم الثلاث ، فيض القـدير شـرح الجـامع الصغيـر ، دار الفكر.

٦ – المنذرى ، الحـافظ ، مـختـصـر صـحيح مسلم، تحـقيق الألبـانى، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٩٧٣، ط٢.

٧ – النسائى.

ثالثاً : المراجع الأخرى :

١ – ابن عـابدين، مـحـمـد أمين، رد المحـتـار على الدر المخـتـار شـرح تنوير الأبصار، تحقيق وتعليق عادل أحمد عبدالموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١ ، ١٩٩٤، جـ ١ .

٢ – أبو مـحـمـد ، د. إبراهيم، دعـوة إلى التفكيـر، أبو ظبى للطبـاعـة والنشـر، ط٢, ١٩٩٥.

٣ – أبو مـحمـد، د. إبراهيم، الإنسـان بين الصـحوة والسقوط، الناشر العربى، سيدنى، ط٢، ١٩٩٩.

٤ – أبو محمد، د. إبراهيم، من أنت ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ١، ١٩٩٩.

٥ – أبو يوسف ، الخراج .

٦ – أرنولد ، توماس ، الدعوة إلى الإسلام.

٧ – الأصفهانى ، الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن ، دار القلم، دمشق، ١٩٩٧،

ط ٢، تحقيق صفوان عدنان داودى.

٨ – أنيس، د. إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٩٧٢، ط٢.

٩ – البلاذرى، فتوح البلدان.

١٠ – دراز، د. محمد عبد الله عنان، الـديـن، ١٩٦٩.

١١ – روهلنك، الكنز الموجود فى قواعد التلمود، ترجمة د. يوسف نصر الله.

١٢ – سقوط غرناطة.

١٣ – شلبى، د. أحمد، مقارنة الأديان، جـ٣.

١٤ – طبـارة، عـفـيـف، روح الدين الإسـلامـى، دار العلم للمـلايين، بيـروت، ١٩٨٨، ط٢٧.

١٥ – الطبرى، تاريخ الطبرى، دار المعارف بمصر، جـ٣.

١٦ – عبـدالغنى، مـصطفى، حقـيقـة الغرب بين الحـملة الفـرنسيـة والحـملة الأمريكية، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١.

١٧ – العهد القديم، سفر المكابيين ١٥ – ٢٤.

١٨ – الفيروزآبادى، القاموس المحيط، مؤسسـة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٨.

١٩ – القـرضاوى، د. يوسف، غيـر المسلمين فى المجتمع الإسـلامى، مكتبـة وهبة، القاهرة، ١٩٧٧.

٢٠ – القرافى، الإمام، الفـروق، جـ٣.

٢١ – لوبون، غوستاف، حضارة العرب.

٢٢ – مطالب أولى النهى، جـ٢.

٢٣ – هويدى، فـهـمى، التـفـسيـر الأصـولى للأزمـات، جـريدة الخليج، ٢٠ ديسمبر ١٩٨٨، ص١٦، العدد ٣٥٢١.

الهــوامـش :

(١) التفسير الأصولى للأزمات ، فهمى هويدى ، جريدة الخليج ٢٠ ديسمبر ١٩٨٨ ، ص ١٦ ، العدد ٣٥٢١.
(٢) حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية ، مصطفى عبدالغنى، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١، ص٣٧.
(٣) سورة يوسف ، الآية ٢١.
(٤) سورة الأنفال ، الآية ٣٦، ٣٧.
(٥) القاموس المحيط ، الفيروزآبادى ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٧٨، باب الميم، فصل السين، ص١٤٤٤.
(٦) المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وآخرون، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٩٧٢، ط٢، ص٤٤٦.
(٧) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهانى، دار القلم، دمشق، ١٩٩٧، ط٢، ص٤٢٣، تحقيق صفوان عدنان داودى.
(٨) سورة الحجرات ، الآية ١٤ .
(٩) سورة فصلت ، الآية ١١ .
(١٠) سورة آل عمران ، الآية ٨٣ .
(١١) سورة يس ، الآية ٨٢ .
(١٢) سورة المائدة ، الآية ٤٤.
(١٣) سورة يونس ، الآية ٨٤ .
(١٤) سورة البقرة ، الآية ١٣١.
(١٥) سورة آل عمران ، الآية ٨١ .
(١٦) الدين ، د. محمد عبد الله دراز ، ١٩٦٩ ، ص ١٨٤ وما بعدها بتصرف .
(١٧) سورة يونس ، الآية ٧٢ .
(١٨) سورة البقرة ، الآية ١٣٢ .
(١٩) سورة البقرة ، الآية ١٣٣ .
(٢٠) سورة يونس ، الآية ٨٤ .
(٢١) سورة آل عمران ، الآية ٥٢ .
(٢٢) سورة القصص ، الآية ٥٣ .
(٢٣) سورة الأنبياء ، الآية ٩٢ .
(٢٤) سورة البقرة . الآية ١٣٦.
(٢٥) سورة البينة ، الآية ٥.
(٢٦) سورة الحجرات ، الآية ١٣.
(٢٧) سورة البقرة ، الآية ٢٨٥.
(٢٨) سورة الشورى ، الآية ١٣.
(٢٩) سورة آل عمران ، الآية ٩٣.
(٣٠) سورة المائدة ، الآية ١٥.
(٣١) الكنز الموجود فى قواعد التلمود ، د. روهلنك ، ترجمة د. يوسف نصر الله.
(٣٢) سورة آل عمران ، الآيات ٤٢-٤٦.
(٣٣) سورة المائدة ، الآية ٤٨.
(٣٤) سورة البقرة ، الآية ٢٨٥.
(٣٥) سورة الصافات ، الآية ٣٧.
(٣٦) سورة الأعراف ، الآية ١٥٨.
(٣٧) سورة الأنبياء ، الآيتان ١٠٦-١٠٧.
(٣٨) سورة الأعراف ، الآية ١٥٨.
(٣٩) سورة الأعراف ، الآية ٥٦.
(٤٠) انظر كتاب الإنسان بين الصحوة والسقوط، د. إبراهيم أبو محمد ، بتصرف ط١، ١٩٩٨، ص٣٢-٣٧.

(٤١) الصحيح تقويم وليس تقييم ولكن تقييم خطأ شائع، والخطأ الشائع أولى فى الاستعمال من الصحيح المهجور.
(٤٢) سورة النساء ، الآية ١.
(٤٣) سورة الحجرات ، الآية ١٢.
(٤٤) سورة الحجرات ، الآية ١٢.
(٤٥) متفق عليه.
(٤٦) سفر المكابيين الثانى ١٥-٢٤.
(٤٧) سورة الزمر ، الآية ٩.
(٤٨) سورة المجادلة، الآية ١١.
(٤٩) سورة آل عمران، الآية ١٨.
(٥٠) انظر كتاب من أنت، د. إبراهيم أبو محمد، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٩، ص٦٢.
(٥١) أخرجه الطبرانى فى المعاجم الثلاث ، انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الفكر، جـ ٥، ص٤٢٤.
(٥٢) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذرى، تحقيق الألبانى، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٩٧٣، ط٢، ص٤٧٣، حديث رقم ١٧٧٦.
(٥٣) انظر : دعوة إلى التفكير، د. إبراهيم أبو محمد، أبو ظبى للطباعة والنشر، ١٩٩٥، ط٢،ص٢٢٠.
(٥٤) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص١٩٤.
(٥٥) مقارنة الأديان ، د. أحمد شلبى جـ ٣ ص ١٤٧.
(٥٦) المرجع السابق.
(٥٧) سقوط غرناطة ، ص ٩٨.
(٥٨) سورة هود ، الآية ١١٨.
(٥٩) سورة يوسف ، الآية ١٠٣.
(٦٠) سورة يونس، الآية ٩٩.
(٦١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦.
(٦٢) سورة التوبة ، الآية ٦.
(٦٣) سورة النساء ، الآية ١٣٥.
(٦٤) سورة المائدة ، الآية ٨.
(٦٥) انظر السنن الكبرى ، البيهقى ، جـ ٥ ، ص ٣٠٥.
(٦٦) رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن.
(٦٧) انظر الخراج لأبى يوسف ، ص ٧٢-٧٣.
(٦٨) رواه أحمد والبخارى فى الجزية كما رواه ابن ماجة والنسائى فى الديات.
(٦٩) انظر رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، لخاتمة المحققين محمد أمين الشهير بابن عابدين، تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبدالموجود - الشيخ على محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ ، جـ١، ص ٣٨٢.
(٧٠) تاريخ الطبرى ، دار المعارف بمصر، جـ ٣ ، ص ٦٠٩.
(٧١) مطالب أولى النهى ، جـ ٢ ، ص ٦٠٢-٦٠٣.
(٧٢) الفروق، للإمام القرافى ، جـ٣، ص ١٤.
(٧٣) فتوح البلدان ، البلاذرى ، ص ١٤٣.
(٧٤) غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ص ١٠ ط١، مكتبة وهبة، د.يوسف القرضاوى.
(٧٥) نفس المصدر السابق.
(٧٦) النص ذكره أستاذنا الدكتور عبدالجليل شلبى فى كتابه القيم (رد مفتريات على الإسلام)، دار القلم، ١٩٨٢، ط١، نقلا عن تاريخ العرب، مبروك نافع، ص٢٨٩.
(٧٧) بتصرف نقلا عن كتاب روح الدين الإسلامى ص ٢٨٨، عفيف طبارة، ط٢٧ ,١٩٨٨، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
(٧٨) سورة الإسراء ، الآية ١٠٥.
(٧٩) سورة الأنعام ، الآية ١١٥.
(٨٠) سورة التوبة ، الآية ٦.
(٨١) سورة سبأ ، الآيات ٤٨ ، ٤٩.

الحوار مع الغرب

الأستاذ الدكتور/ محمد على الجوزو
مفتى جبل لبنان

منذ بدء الدعوة الإسلامية، والإسلام يقيم حواراً مع غير المسلمين، لأنه جاء يدعو الناس إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

نشأت الدعوة فى بيئة مشركة تعبد الأصنام والأوثان، وكان الخطاب موجهاً إلى هؤلاء ، ورغم المواجهة الشرسة من قبلهم، ورغم محاربتهم للنبى ﷺ واضطهادهم له وللقلة التى آمنت معه، فقد خاطبه المولى عز وجل بقوله: **﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾**.

ثم أثنى عليه وعلى سعة صدره، وسماحة أخلاقه، وصبره على الناس، فقال جل وعلا: **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾**(١٥٩) آل عمران.

وكان ﷺ يحض أصحابه على الصبر، وتحمل الأذى، واحتساب ما يواجهونه من اضطهاد فى سبيل الله، إخلاصاً له.. وإيماناً به.

«صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة».

تعالوا إلى كلمة سواء

وكان الحوار مفتوحاً مع النصارى واليهود، وكانت الدعوة الصريحة المعلنة وهى الاتفاق على التخلص من كل مظاهر الشرك والتوجه إلى عبادة الله وحده..

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا

الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾(٦٤) آل عمران.

هذا النداء حمل تعبيراً جميلاً فيه تكريم المخاطب وهو **﴿أهل الكتاب﴾** مما يعطى مثالاً يحتذى به فيما يجب أن يكون عليه الخطاب الإسلامى مع الآخر؛ فلا يستخدم تعبير يشعر المخاطب بأنه لا ينظر إليه نظرة احترام ومساواة **﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء﴾**.

والكلمة السواء هى التوحيد.

والتوحيد تحرير لعقل الإنسان من التركيب والتعقيد، وتأليه البشر، أو الحجر، أو المادة.

لقد أكد الإسلام على أن الرسول ﷺ بشر، وأنه جاء يدعو إلى تنزيه الله من أن يكون بشرًا أو حجراً أو صنمًا، ولما كانت الرسالات السماوية الثلاث جاءت فى الأصل بدعوة التوحيد فإن الشرك الذى طرأ على الرسالتين السابقتين إنما هو خطأ بشرى وتصور بشرى ولا يمت بصلة إلى العقيدتين اللتين جاء بهما موسى وعيسى، فكان الإسلام دعوة لتصحيح هاتين العقيدتين والعودة بهما إلى الفطرة وإلى التوحيد.

فالإسلام يعترف بجميع الأنبياء والرسل ولا ينكر رسالة عيسى وموسى بل يعترف بهما ويقر لهما بالأسبقية يقول الله عز وجل :**﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى عيسى وما أوتىَ النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾** (١٣٦) البقرة.

ويقول الله عز وجل :**﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾** (١٧١) النساء.

ثم يبين المولى ـ عز وجل ـ فى كتابه العزيز أن الرسل جميعاً من البشر، وأنهم جاءوا بدعوة واحدة هى توحيد الله، وعبادة الله وحده. فقد أكد أن الرسول ﷺ

بشر.. وهو بشر مثلنا.. وكل رسول بشر، يقول الله عز وجل: **﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين﴾** (٦) (فصلت).

ومع ذلك فإن الإسلام حضَّ المسلمين على الحوار الهادئ والجدل الرصين مع أهل الكتاب، واستخدام الوسائل العقلية التى تتسم بالحكمة والاتزان والموضوعية، يقول الله عز وجل: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾** (١٢٥) (النحل).

أسلوب الدعوة والحوار

إذا أردنا أن نتعرف إلى الأسلوب الأمثل فى الدعوة إلى الله والحوار مع الآخر، فعلينا أن نتخذ من الرسول ﷺ القدوة الحسنة، والهدى الصحيح، والنهج الأرقى؛ لأن الرسول ﷺ هو الداعية الأول الذى علمنا كيف ندعو إلى الله.

يقول الله عز وجل:

﴿يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً (٤٥) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾(٤٦) الأحزاب.

هذا الداعية العظيم، وهذا الرسول الكريم، سبق وقدَّمنا أن المولى - عز وجل - وصفه وصفاً رائعاً عندما بَيَّن أن ما يمتاز به هذا النبى هو «لين الجانب» و«دماثة الخلق» وأنه كان بعيداً عن «الغلظة» و«التشدد» و«القسوة» و«الانغلاق» و«الفظاظة». **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾** (١٥٩) آل عمران.

إنها رحمة الله التى أضفت على النبى ﷺ هذه الصفات، وهذا ما هيأ للدعوة أسباب النجاح، والانتشار السريع، والتفوق، والوصول إلى قلوب الملايين من البشر.

ومن هنا فإن الرسول ﷺ دعا إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة. **﴿يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾** (٢٦٩) البقرة.

والحكمة ضالة المؤمن.. ولا بد للداعية أن يكون حكيماً.. وأن يخاطب الناس خطاباً يتسم بالإقناع الفكرى، وبالموعظة الحسنة، تأسياً برسول الله ﷺ، وتنفيذاً للأوامر الربانية، والمنهج القرآنى، فى دعوة الناس إلى معرفة الإسلام، دون إكراه ولا غصب ولا استخدام للعنف والقوة. **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾** (٢٥٦) (البقرة).

هذه الدعوة العظيمة لم تصل إلى قلوب المؤمنين بها - بالخشونة والرعونة والحماقة والتنفير والتكفير - بل وصلت بالرحمة بالحب بالسماحة باللين بالأسلوب الحسن، ونريدها أن تصل أيضاً إلى عقول الناس بنفس الأسلوب، وخاصة أولئك الذين يعادون الإسلام عن جهل به، وعن إعلام سيء يحاول تشويه صورته، وذلك عملاً بقوله تعالى: **﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾** (٤٦) (العنكبوت).

صفات الداعية

هذه الصفات التى ذكرناها آنفاً، والتى أخذناها عن رسول الله ﷺ، يجب أن يلتزم بها دعاة هذا العصر، إضافة إلى صفات أخرى يجب أن يلتزم بها هؤلاء الدعاة، تتفق ومقتضيات هذا العصر.

أولها : إتقان اللغة الأجنبية التى يعمل الداعية فى مجتمعاتها ويدعو أهلها إلى معرفة الإسلام.

ثانيها : دراسة البيئة والعادات التى اشتهر بها القوم الذين نرغب فى تعريفهم بالإسلام، ومعرفة طريقة التفكير التى يعتمدها هؤلاء، وأسلوب التأثير بهم؛ لإقناعهم بوجهة النظر التى نؤمن بها.

ثالثها : أن نستخدم الوسائل العلمية الحديثة فى الأوساط العلمية، وأن يكون الداعية ملماً إلى حدٍ ما بالجوانب العلمية التى تخدم الدعوة، خاصة ما يتفق مع المنهج القرآنى فى دراسة ملكوت السموات والأرض ومعجزة خلق الإنسان.

رابعها : استخدام الوسائل الحديثة فى الإيضاح والشرح، ومخاطبة الشعوب التى لا تدين بالإسلام بطريقة منهجية علمية ومحاولة إظهار الجوانب الإيجابية التى يدعو إليها الإسلام.

خامسها : إبراز الجوانب الإنسانية العالمية فى الإسلام، والدعوة إلى وحدة الشعوب والقبائل، والتعارف بينها، والتفاعل بين الحضارات الإنسانية.

سادسها : عرض القصص القرآنى، وسير الأمم السابقة والعظات والصور، التى يقدمها القرآن للبشرية للاستفادة منها فى الحاضر وفى المستقبل.

سابعها : الاطلاع بدقة على كتب اليهود والنصارى، والموجودة بين أيديهما اليوم، ومعرفة ما طرأ عليها من تغيير وتبديل تاريخياً، والمقارنة بينها وبين الإسلام فى كشف الحقائق الكونية، ومعرفة الرسالات السماوية. مما يسعف الداعية فى طرح أفكاره أمام الآخرين بأسلوب يقنع المستمع بقوة الحجة عند الداعية.

فهم الآخر

من الضرورى بمكان أن نفهم الإنسان الذى نريد إجراء الحوار معه، والاستماع إلى آرائه، ومعرفة وجهة نظره، وتركه يتحدث إلينا، ويفضى بمكنونات نفسه؛ لأن ذلك يساعد الداعية على دراسة أفكار هذا الإنسان، والرد عليها بالمنطق الذى يناسبه، لأن البلاغة كما يعرفها أربابها هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

ولما كانت حياة الشعوب وعاداتها وأساليب التفكير عندها، تختلف من بلد إلى بلد، ومن مجتمع إلى مجتمع، فإن معرفة هذه الأمور، تساعد الداعية على فهم الآخر، وعدم التصادم معه فى طريقة عرضه لأفكاره.

فالغرب على سبيل المثال ليس واحداً فى طريقة تفكيره، بل يختلف كل شعب من شعوبه عن الشعب الآخر، بل ربما اختلف جنوبه عن شماله وشرقه عن غربه، وكذلك بالنسبة للأمريكيتين الشمالية والجنوبية.

ومن هنا فإن الداعية المسلم أو الإنسان المسلم الذى يريد الذهاب إلى أى بلد، عليه أن يدرس أحوال الشعب الذى يتوجه إليه، ويود أن يعيش معه.

وهناك إجراء يقوم به بعض كبار الموظفين فى الدولة يقتضى معرفة السيرة الذاتية لأى ضيف يريد أن يستقبله هؤلاء المسؤولون الكبار، حتى يعرف الموظف

كيف يتعامل مع الضيف، فمن باب أولى ونحن نود أن نمارس دوراً هاماً كالدعوة إلى الله، أو التعريف بالإسلام فى بيئة ما، أن نفهم هذه البيئة فهماً جيداً، وأن نهيىء لها المنهج الذى يناسبها قبل الدخول فى حوار معها، فنحن نريد أن نتحاور مع أى شعب على طريقته هو، وليس على طريقتنا التى اعتدنا عليها فيما بيننا. لأن طباع الشعوب تختلف كثيراً، وعلينا أن نلحظ هذا الجانب فى حوارنا مع الآخر.

أسس الحكم فى الإسلام

ولا بد أن نبين لهذا الآخر أسس الحكم فى الإسلام، وقيام هذا الحكم على الشورى والعدل وأداء الأمانات فى تحقيق الإنصاف والمساواة بين الناس، والحفاظ على الضروريات الخمس: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل.

أما فى الشورى، فإن الإسلام قد سبق فى تطبيق مبادئ التشاور وتبادل الرأى والأخذ بما يحقق مصلحة الجماعة المسلمة، يقول المولى عز وجل :﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾ (١٥٩)(آل عمران)، ويقول جل من قائل: ﴿**والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون**﴾ (٣٨) (الشورى).

وكان الرسول ﷺ يُعَلِّمُ أصحابه كيف يكون التطبيق العملى فى مجال الشورى، فلجأ إليها فى السلم وفى الحرب، والتزم بها، وكانت منهاجاً له ولخلفائه من بعده.

أما العدل، فإن الله ـ عز وجل ـ أمر المسلمين بتحقيق مبدأ العدل، واعتبره أمانة فى رقاب المسؤولين فى الحكم، قال تعالى: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعِمَّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً** ﴾ (٥٨) (النساء).

ويقول الرسول ﷺ: «**لا تُقَدَّسُ أمة لا يقضى فيها بالحق، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع**» [١].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة، عَدْلُ ساعة أفضل من عبادة ستين سنة، قيام ليلها وصيام نهارها، ويا أبا هريرة،**

جور ساعة فى حكم أشد وأعظم عند الله ـ عز وجل ـ من معاصى ستين سنة »[٢].

التحذير من الظلم

وقد شدد الإسلام على الظلمة والمستبدين، وأنذرهم بأشد العواقب، وها هو ذا يعطينا مثلاً عن رمز من رموز الاستبداد والظلم وهو فرعون...

يقول الله عز وجل: **﴿هل أتاك حديث موسى (١٥) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) اذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩) فأراه الآية الكبرى (٢٠) فكذّب وعَصَى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى (٢٤) فأخذه الله نكال الآخرة والأولى (٢٥) إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى﴾** (١٥-٢٦) (النازعات).

ويقول الرسول ﷺ: «**إن الله يملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته**» ثم تلا قوله تعالى: **﴿وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذا أخذ القُرى وَهى ظالِمة إنَّ أَخْذَهُ أليمٌ شدَيدٌ﴾** (١٠٢) (هود).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «**من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام**».

المحافظة على الضروريات الخمس

فقد جاء فى كتاب «نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبى» ما نصه: «أما حفظ الدين وتصحيح الإيمان وتثبيته فى القرآن المكى، فمسألته أشهر وأوضح من أن تحتاج إلى دليل أو مثال، حتى لقد شاع - خطأ - أن القرآن المكى لا يحتوى إلا على هذا، وهى الفكرة التى يصححها الإمام الشاطبى من خلال بيان ما اشتمل عليه القرآن المكى من قواعد وكليات تشريعية من قبيل ما يلى:

حفظ النفس، فقد نص عليه فى كثير من الآيات المكية كقوله تعالى: **﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾** (١٥١)(الأنعام) وقوله: **﴿وإذا الموءودة سئلت (٨) بأى ذنب قتلت (٩)﴾** (التكوير).

وحفظ النفس يتضمن حفظ العقل. وأما «تكميل» حفظ العقل، فقد جاء فى المدينة بتحريم المسكرات، وإقامة الحد عليها، فالحفظ الأول أساس الحفظ الثانى، وهذا هو المراد بيانه فى هذا السياق (٣).

والذى يؤكد هذا المنهج فى حفظ هذه الكليات قول الرسول ﷺ فى حجة الوداع: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا..**».

فجعل حرمة الدماء والأموال والأعراض كحرمة يوم عرفة وحرمة شهر ذى الحجة، وحرمة البيت الحرام فى مكة المكرمة.

أى أن للنفس الإنسانية قدسيتها، قدسية هذه الأيام والأماكن المقدسة، فلا يجوز إزهاق النفس المؤمنة بغير حق أيًا تكن الأسباب.

وكل هذه الأمور توضع فى قانون حماية حقوق الإنسان.

حقوق الإنسان فى الإسلام

ولما كانت حملات التشهير التى تشن ضد الإسلام تحاول الادعاء بأن الإسلام لا يحافظ على حقوق الإنسان فى الحرية والعدالة والتعبير عن الرأى، وإنصاف المرأة وغير ذلك من الاتهامات، فإننا نحيل القائلين بذلك إلى سيرة النبى ﷺ مع أصحابه، وعلى سيرة أصحابه، فقد استطاع هذا الرسول العظيم أن يجمع حوله مجموعة كبيرة من القبائل المتفرقة المتصارعة، وأن ينشئ من هؤلاء منظومة جديدة من البشر، أقامت حضارة شامخة من أعظم الحضارات، ونشرت ثقافتها على مساحة كبيرة من الأرض امتدت من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام وبلاد فارس، والترك ومصر وشمال إفريقيا.

هذه الدولة قال الخليفة الأول أبو بكر الصديق فيها فى خطبته عند تولى الحكم: «لقد وُليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى، وإن أخطأت فقومونى».

أما الخليفة الثانى عمر بن الخطاب فقد كان عهده عهد الحرية والعدالة، فكانت صيحته التاريخية فى وجه حاكم مصر عندما ضرب ابنه ذلك المصرى القبطى عندما سابقه فسبقه.. فقال: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

والتاريخ الذى يروى قصة مقتل الخليفة عثمان ظلماً بحجة أنه ولى أقاربه فى حكم الناس، تؤكد إلى أى مدى بلغت الحرية فى عهده، وهو الذى كان بإمكانه كحاكم أن يقتل خصومه وأن يزج بهم فى السجون كما يفعل حكام هذا العصر، ولكنه أبى ذلك، حتى وصل خصومه إليه فى بيته، وقتلوه وهو يقرأ القرآن.

وكذلك قتل الخليفة الثانى عمر رضي الله عنه وهو يصلى فى المحراب، وهو الفاتح العظيم، والذى كان يقف إماماً فى الصلاة دون حراسة ولا جند مدجج بالسلاح من حوله ولا مخابرات. حتى تمكن القاتل من الوصول إليه بسهولة ليرتكب جريمته.

ولذلك كانت كلمات الفارسى عندما جاءه فرآه نائماً تحت شجرة دون حراسة، فقال له كلمته المشهورة: «عدلت فأمنت فنمت يا عمر».

أما الخليفة الرابع على بن أبى طالب رضي الله عنه، فقد قُتل أيضاً وهو فى طريقه إلى المسجد ليؤدى صلاة الفجر، مما يؤكد أن هؤلاء الناس لم يغر بهم صولجان الملك. ولا بهرجة السلطة، أن يقيموا من حولهم تلك المظاهر التى تدل على القوة والعظمة، بل كانوا يتصرفون ببساطة مطلقة، ويعيشون حياة الناس دون الظهور بمظاهر أبهة الحكم، فكان مصيرهم الغدر والقتل.

صور من التاريخ المشرف الرائع تؤكد أن الإسلام كان لا يفرق بين حاكم ومحكوم، وكان الناس يعيشون فيه على قدم المساواة، وكان الحب هو الذى يرسى قواعد الأمن والأمان فى المجتمع.

الحوار مع الغرب

كثيراً ما نتحدث عن الحوار مع الآخر، ثم نجد أنفسنا نتحدث مع أنفسنا، وندور فى حلقة مفرغة، ولا يصل رأينا إلى الآخر، لأننا لم نستخدم وسائل الاتصال الحديثة استخداماً عملياً. ولم نحاول إيجاد قنوات تخاطب الآخرين بلغتهم وثقافتهم وأسلوبهم الذى يفهمونه.

الحوار مع الغرب على سبيل المثال، يظل حواراً داخل المجتمع العربى والإسلامى، ولا يصل إلى أصحابه، فى العواصم الغربية عامة والأمريكية خاصة.. وما أكثر البحوث التى كانت تتحدث عن الحوار مع الغرب، دون أن يسمع الغرب أو يعرف شيئاً عنها.

ودفاعنا عن الإسلام ضد التشويه والتزوير الذى تقوم به أجهزة الإعلام الغربى يظل دفاعاً قاصراً على أنديتنا ومؤتمراتنا ولا يتعدى حدودها.

كيف العمل إذاً؟ وما هى الطريقة التى يمكن لنا أن نخاطب بها هذا الغرب الذى لا يكاد يسمع لنا صوتاً أو يقرأ لنا بحثاً أو دراسة؟!

هل لدينا قنوات بقوة قناة (CNN) الأمريكية؟

أم بقوة القناة (5) الفرنسية؟

وهل استفدنا من وجود الهيئات والمراكز الإسلامية فى الغرب لتمكنها من إنشاء قنوات تلفزيونية، تبث برامجها من داخل أمريكا، أو أوروبا... وهذه المؤسسات تضم كفاءات كبرى تصلح للقيام بدور إعلامى يحسن مخاطبة القوم بلغاتهم.؟!

نحن حتى الآن لم نفكر بالقيام بهذا الأمر، وما تزال أدواتنا التى نستخدمها محلية، لا تتجاوز حدود بلادنا، من هنا فإن الحوار مع الآخر.. يتطلب استخدام وسائل الاتصالات الحديثة... ويتطلب الاستفادة من طاقات الشباب المسلم الذى يعيش فى بلاد الغرب وأصبح يعرف أبعاد التجربة الغربية. ويستطيع أن يحدث القوم بالطريقة التى يتقنونها ويتأثرون بها.

من هنا فإن الخطاب مع الآخر، يقتضى العمل بأحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا من وسائل الحوار، وعرض الأفكار، والرد على الإشاعات وعلى التشهير، والتزوير، وإيضاح الصورة الحقيقية للإسلام وأبعاده العقائدية والأخلاقية والإنسانية حتى نواجه الحملات الصهيونية والأمريكية المسمومة وحتى نتمكن من الدفاع عن ديننا دفاعاً يتناسب ولغة العصر؛ اللغة العلمية التى تقوم على العقلانية والمنطق والتى يجيدها كثير من الشباب المسلم اليوم.

الهوامش

(١) الترغيب والترهيب ص ٤٥٨.

(٢) المرجق السابق ص ٤٥.

(٣) المقاصد ص ١٥٣.

الأقليـــات غيـــر المسلمـــة
فـــى العالـم الإسلامـــى

الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

المفكر الإسلامى

مصـــر

لأنى قد تناولت هذا الموضوع فى عدد من الكتب والدراسات[1] .. ومراعاة للمقام، الذى يقتضى وتكفى فيه المبادئ والخلاصات .. وحتى لا تكون هذه الصفحات تكراراً، أو إسهاماً يخرجان بها عن المقاصد المبتغاة، سيكون التركيز على تناول ومعالجة المحاور الآتية :

١ - مصطلحات المبحث .. وإطاره ..

٢ - الموقف الإسلامى .. دينياً .. وتاريخياً .. من الأقليات.

٣ - الواقع المعاصر للأقليات .. والتحديات المحيطة بها ..

٤ - نظرة إلى المستقبل ..

١ - مصطلحات المبحث .. وإطاره :

مصطلح "الأقلية" فى استخداماتنا الثقافية والاجتماعية الحديثة والمعاصرة، مصطلح وافد من المفاهيم الغربية التى وفدت إلى واقعنا الثقافى والاجتماعى منذ الاحتكاك بين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية فى العصر الحديث،

لذلك فهو مصطلح مُحَمَّل بالمعانى والظلال «العنصرية - الإثنية - والعرقية» التى ارتبط بها فى الثقافة الغربية، عندما استخدم للتعبير عن «الأفراد الذين يعتبرون أنفسهم، أو يعتبرهم الآخرون مشتركين فى بعض السمات والخصائص التى تميزهم عن التجمعات الأخرى فى مجتمع يستطيعون فى إطاره تطوير سلوكهم الثقافى الخاص»(٢).

فالأقلية "الإثنية" بهذا المفهوم الغربى ليست مجرد أقلية عددية، ولا هى بالأقلية السياسية، وإنما هى أقلية لها «هوية ثقافية» مختلفة عن الهوية الثقافية لأغلبية المجتمع الذى تعيش فيه، هويتها الثقافية هذه عادة ما تتطور فى اتجاه متميز أو مختلف عن الهوية الغالبة على أغلبية المجتمع الذى تعيش فيه .. ولذلك، ولهذا السبب، نفهم رفض أقباط مصر - وهم أقلية عددية - ورفضنا معهم، إطلاق مصطلح «الأقلية» بهذا المفهوم الغربى عليهم .. فهويتهم الثقافية والقومية والحضارية ـ بل وحتى الأصول العرقية ـ هى ذاتها هوية الأغلبية المسلمة أو أصولها .. ومن هنا كان الصدق وكانت الإجابة لقول «الأنبا موسى» أسقف الشباب بالكنيسة الأرثوذكسية المصرية: «نحن كأقباط لا نشعر أننا أقلية؛ لأنه ليس بيننا وبين إخواننا المسلمين فرق عرقى "إثنى" لأننا مصريون، يجرى فينا دم واحد من أيام الفراعنة .. ومن جهة الهوية العربية فنحن نحيا العربية لأنها هويتنا الثقافية .. والثقافة الإسلامية هى السائدة الآن .. وأى قبطى يحمل فى الكثير من حديثه تعبيرات إسلامية، يتحدث بها ببساطة ودون شعور بأنها دخيلة عليه بل هى جزء من مكوناته .. نحن أقلية عددية فقط، وهذا لا يجعلنا نشعر أن هناك شرخاً بيننا وبين إخواننا المسلمين، كما أننا لا نشعر بشعور الأقلية البغيض الذى يعانى منه غيرنا ..»(٣).

هذا عن المفهوم الوافد لمصطلح «الأقلية» ..

ومن الأمور الهامة، والجديرة بالملاحظة والاعتبار أن تراثنا الإسلامى، الدينى منه والحضارى والتاريخى، وكذلك اللغوى، لم يعرف استخدام مصطلح «الأقلية» بهذا المفهوم الوافد، وإنما عرفه فقط بمعناه اللغوى أى الأقلية العددية، فى

مقابل الأكثرية العددية، دونما أى مفاضلة أو تمييز بسبب هذه الكثرة أو القلة فى الأعداد .. بل لقد كثر الحديث فى القرآن الكريم عن ارتباط الكثرة بقلة العلم وبقلة الإيمان **﴿فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾** - الحديد : ٢٦ - **﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾** - هود: ١٧ - **﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾** - البقرة : ٢٤٣ - **﴿وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾** - الأنعام : ١١٦ - **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** - الأعراف : ١٨٧ - **﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾** - الزخرف : ٧٨ - **﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾** - آل عمران : ١١٠ - **﴿يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾** - المائدة : ١٠٣ - **﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾** الأنعام : ١١١.

فلم تكن الكثرة ميزة دائماً، بل لقد ارتبط مصطلحها فى الكثير من الاستخدامات بالصفات السلبية .. وعلى العكس من ذلك ارتبط مصطلح القلة والأقلية - غالباً فى التعبيرات القرآنية بالصفات الإيجابية **﴿وقليل من عبادى الشكور﴾** سبأ : ١٣ - **﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾** ص : ٢٤ - **﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾** البقرة : ٢٤٩ - **﴿وما آمن معه إلا قليل﴾** هود : ٤٠.

فالأكثرية والأقلية يستخدمان بمعنى الكثرة العددية والقلة العددية، فقط لا غير، دونما أية ظلال مفهومية لصيقة بالكثرة أو القلة، وإنما العبرة بالمعايير التى تجتمع عليها وتؤمن بها وتنتمى إليها الأكثريات والأقليات .. فالمدح والذم، والإيجاب والسلب، والقبول والرفض إنما هو للمعايير والمكونات والهويات والمواقف، ولا أثر فى ذلك للكثرة أو القلة فى الأعداد.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة رأينا الإسلام، وتراثه الفكرى والحضارى؛ قد تميز عن الأنساق الفكرية والحضارية التى مايزت بين الأعراق والأجناس، وأقامت علاقات "النفى للآخر" الدينى واللغوى (القومى) .. فلقد نظر الإسلام، أولاً وبالدرجة الأولى إلى «الجوامع» الجامعة وذلك دون أن يهمل «التمايزات»

«المميزة»، وإنما سلك التمايزات والاختلافات فى إطار الجوامع الموحّدة، على نحو من الوسطية الجامعة، التى لا تجور على «الجوامع» فتؤدى إلى التشرذم "والتشظى .. والتفرقة"، ولا تجور على «التمايزات والاختلافات» فتفضى إلى «قهر هذه التمايزات» ونفى الاختلافات. فالإنسانية كلها قد خلقها الله - سبحانه وتعالى - من نفس واحدة، ثم شاء لها التنوع والاختلاف .. إلى ذكران وإناث، وشعوب وقبائل، وألسنة ولغات وقوميات، وألوان وأجناس، وملل ونحل وشرائع وأديان، ومناهج وثقافات وحضارات، وأعراف وتقاليد وعادات. وفى إطار «جامع الإنسانية الواحدة».

ونفس المنهاج، قد حكم الرؤية الإسلامية فى النظر إلى «الأمة .. ورعية الدولة» فجامع الأمة هو الرابط الذى يظلل التنوع والاختلاف فى العقائد والشرائع الدينية، وفى الشعوب والقبائل، وفى الألسنة واللغات والقوميات، وفى الطبقات الاجتماعية، وفى الأقاليم والأوطان، وفى العادات والتقاليد والأعراف، أى الثقافات الفرعية. كل هذا التنوع - الذى هو سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل - يعيش ويزدهر فى ظلال جوامع الأمة الواحدة، والحضارة الواحدة وفى إطار «دار السلام» **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾** النساء :١ - **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾** المائدة : ٤٨ - (أى ملة واحدة) **﴿ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾** المائدة : ٤٨ - **﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾** الروم : ٢٢.

فكل هذه الأنواع من التمايزات هى القاعدة، والإعمال لسنة الله - سبحانه وتعالى - فى كل عوالم الخلق ،ومن ثم فلا شبهة لوجود أية ظلال سلبية تنشأ بسبب أى تنوع أو اختلاف من هذه التمايزات، وبصرف النظر عن الأعداد التى ترتبط بأى لون من ألوان هذه الاختلافات، فهذه التمايزات إما أنها مؤسسة على صفات لصيقة، هى من صنع الله، أو على خيارات إنسانية، التعددية فيها سنة من

سنن الله.

هذا عن المفهوم الإسلامى لمصطلحات هذا المبحث ـ الأقليات والأكثريات - وهو مفهوم لا علاقة له بالظلال التى ارتبطت بهذه المصطلحات فى السياق الحضارى الغربى، تلك التى ميّزت بين الأغلبيات وبين الإثنيات العرقية والألوان والديانات فى المجتمعات الغربية.

أما إطار هذه الدراسة فهو : الأقليات غير المسلمة ـ النصرانية واليهودية والأرواحية [الوثنية] فى العالم الإسلامى، مع التركيز على مصر والوطن العربى كنموذج تطبيقى للمنهاج الإسلامى فى النظر لهذا الموضوع.

٢ - الموقف الإسلامى من الأقليات :

لقد مثل الإسلام منذ ظهوره (ثورة إصلاحية وإصلاحًا ثوريًا) على المفاهيم السائدة التى حكمت علاقات الشعوب والأجناس والأديان فى ذلك التاريخ ..

- **فالرومان:** كانوا يحتكرون (السيادة والشرف) للجنس الرومانى!، ويرون فى كل الآخرين والأغيار "برابرة" لا يستحقون حتى أن يطبق عليهم القانون الرومانى، ولا حق لهم فى التدين بغير دين السادة الرومان، وثنيًا كان هذا الدين أو نصرانيًا ملكانيًا، ولقد صبوا جام اضطهادهم فى حقبة الوثنية على اليهود وعلى النصارى، وفى حقبة تنصرهم الملكانى، على النصرانية الشرقية اليعقوبية ـ فى مصر والشام.
- **واليهودية التلمودية:** قد تحولت إلى (إثنية ـ عنصرية) بل و (وثنية) جعلت الله - سبحانه وتعالى - إله بنى إسرائيل وحدهم، وللشعوب الأخرى آلهتها، وذلك بدلاً من الإيمان بأنه سبحانه وتعالى هو إله العالمين . ولقد صبوا جام اضطهادهم على المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - وعلى حوارييه والذين آمنوا به واتبعوه.
- **والنصرانية** : هى الأخرى ـ بادلت الآخرين إنكارًا بإنكار، واضطهادًا

باضطهاد، فبمجرد أن أفاقت ـ مصر مثلاً ـ من الاضطهاد الوثنى الرومانى، وفور تدين الدولة الرومانية بالنصرانية، على عهد الإمبراطور "قسطنطين" [٢٧٤ : ٣٣٧م] صبت هذه النصرانية جام اضطهادها على الوثنية المصرية، فدمرت معابدها، وأحرقت مكتباتها، وسحلت وقتلت ومزقت وأحرقت فلاسفتها، وسجّل التاريخ كيف قاد بطريرك الكنيسة المصرية (تيوفيلوس) [٣٨٥ـ ٤١٢م] (حملة اضطهاد عنيفة ضد الوثنيين، واتجه للقضاء على مدرسة الإسكندرية، وتدمير مكتبتها وإشعال النار فيها، وطالت هذه الإبادة مكتبات المعابد، وتم السحل والتمزيق والحرق لفيلسوفة الأفلاطونية الحديثة وعالمة الفلك والرياضيات (إناتية) [٣٧٠ - ٤١٥م] وذلك فضلاً عن تحطيم التماثيل، والعبث بالآثار)[٤].

ثم عادت النصرانية اليعقوبية إلى موقع الضحية والمضطهدة من النصرانية الملكانية الرومانية، بعد الاختلافات حول طبيعة المسيح عليه السلام.

ولقد سجل القرآن الكريم هذه المواقف الرافضة لقبول الآخر، والتعايش معه، والتسامح مع تمايزاته واختلافاته، عندما قال : **﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء﴾** البقرة : ١١٣ ـ **﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأمّيين سبيل﴾** آل عمران : ٧٥.

جاء الإسلام، وهذا هو موقف الحكام من المحكومين، وموقف الأغلبيات من الأقليات، وموقف كل صاحب دين وهوية من الأغيار والآخرين. فمثّل وأحدث ـ منذ ظهوره، ومنذ إقامة دولته وأمته وحضارته ـ (ثورة إصلاحية وإصلاحًا ثوريًا) فى هذه النظرات والعلاقات، جاء الإسلام فسلك الاختلافات فى إطار الوحدة، وجعل التنوع هو السنة والقاعدة والقانون، ووضع لبنات فى البناء الجامع، وقرر أن (الآخر) هو جزء من (الذات)، وذلك لأول مرة فى تاريخ الشرائع والأمم والدول والحضارات.

- فالله سبحانه وتعالى هو **﴿رب العالمين﴾** الفاتحة : ٢، وليس رب شعب دون غيره من الشعوب.

- وكل الشرائع الدينية التى توالت على امتداد علاقة السماء بالأرض هى تنوع فى إطار الدين الإلهى الواحد **﴿شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾** الشورى : ١٣ - **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا﴾** المائدة : ٤٨.

- والإيمان الإسلامى شامل للإيمان بأصول الدين الإلهى الواحد، وبكل الرسل والأنبياء **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾** البقرة : ٢٨٥. فجميع هؤلاء الرسل والأنبياء إنما يمثلون تنوع الشرائع الإلهية فى إطار الدين الإلهى الواحد «**الأنبياء إخوة من عَلات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد**». رواه البخارى ومسلم وأبو داود.

- والقرآن الكريم مصدق لما بين يديه من الكتب والصحف والألواح التى نزل بها وحى السماء على سائر الرسل والأنبياء **﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه﴾** الأنعام : ٩٢.

- ورغم التحريف الذى أصاب بعض هذه الكتب السابقة والنسيان الذى أصاب بعضها، ذهب القرآن - فى الدقة والإنصاف ـ إلى تقرير أن هذا التحريف والنسيان لم يكونا عامين، ففى هذه الكتب - وخاصة التوراة والإنجيل ـ هدى ونور، ومطلوب من أهلها تحكيمها، والحكم بما صح فيها **﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾** المائدة : ٤٣ ـ **﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾** المائدة : ٤٧.

- وحتى فى الشرائع المتمايزة بتمايز الأمم والرسالات والحقب التاريخية، لم يعمم الإسلام النسخ على جميع هذه الشرائع السابقة، وإنما قرر (أن الشريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم تنسخ) بتطور الواقع الذى تجاوزها.

- وكما لم يعمم الإسلام أحكام التحريف على كل الكتب، ولا أحكام النسخ على جميع أحكام تلك الشرائع، لم يعمم الأحكام على سائر أهل هذه الكتب

والشرائع، وإنما ميز بين الصادقين فى تدينهم بها وبين غير الصادقين ، فهم **﴿ليسوا سواء﴾** آل عمران : ١١٣.

- نعم .. جاء الإسلام فأحدث هذه (الثورة الإصلاحية، والإصلاح الثورى) فى العلاقة بالآخرين، وبلغ فى العمق والسمو الحد الذى سلك فيه (الآخر) فى جامع (الذات) ، وذلك عندما سلكت أمم الشرائع الأخرى فى (ذات الدين الإلهى الواحد).

- ولأن الإسلام دين ودولة ، وشريعة ومجتمع، ودنيا وآخرة ، وفرد وأسرة وجماعة وأمة ، وأغلب فرائضه وتكاليفه الاجتماعية لا تتحقق إلا فى إطار وطن ودولة ونظام واجتماع، وحتى تكاليفه الفردية يزداد ثوابها، وتتعاظم تأثيراتها الاجتماعية عندما تؤدى فى جماعة؛ فرهبانيته جهاد اجتماعى، وليست عزلة تدير الظهر للدنيا فى شعب من الشعاب، أو مغارة من المغارات؛ لأن للإسلام هذا التميز الذى تفردت به شريعته بين شرائع السماء، فإن مبادئ "الإصلاح الثورى" التى جاء بها فى العلاقة (بالآخر) - لم تقف عند حدود [الوصايا - والفلسفات - والفكر النظرى] وإنما وضعتها مواد فى دستور دولته الأولى - دولة النبوة والخلافة الراشدة - وصياغات دستورية فى المواثيق والمعاهدات والعهود التى عقدتها الدولة الإسلامية مع "الآخرين" الذين قامت بينهم وبين دولة الإسلام علاقات ومصالح وارتباطات، ثم تجسد كل ذلك فى الواقع والحضارة والتاريخ.

- ففى دستور دولة المدينة [الصحيفة - الكتاب] الذى وضعه رسول الله ﷺ عند قيام هذه الدولة عقب الهجرة؛ لينظم الحقوق والواجبات بين مكونات الأمة فى الوطن؛ نص هذا الدستور على أن القطاعات العربية المتهودة من قبائل المدينة، ومن لحق بهم وعاهدوه، قد أصبحوا جزءًا أصيلاً فى الأمة والرعية المتحدة لهذه الدولة الإسلامية ، فنص هذا الدستور على أن : «**اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم، ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وأن بطانة يهود ومواليهم كأنفسهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم**

النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر المحصن من أهل هذه الصحيفة، دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه»(٥).

- وهكذا تجسد التحام (الآخر اليهودى) فى الأمة الواحدة والرعية المتحدة للدولة، فى ظل المرجعية الإسلامية، ومن خلال سعتها التى نص عليها هذا الدستور عندما قال : «.. **وإنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله»**(٦).

- كذلك تجسد هذا الالتحام "بالآخر" وتحققت هذه المساواة وإياه فى العلاقة التى أدخلت النصارى ـ نصارى "نجران" وكل المتدينين بالنصرانية - فى صلب الأمة الواحدة، وفى رعية الدولة المتحدة، فنص ميثاق العهد الذى كتبه رسول الله ﷺ، لنصارى "نجران" على مجموعة من المبادئ الدستورية ؛ التى وضعت مبادئ وفلسفات علاقة الإسلام بالآخر فى الممارسة والتطبيق، فجاء فى هذا الميثاق : « .. **ولنجران وحاشيتها، ولأهل ملتها، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية جوار الله وذمة محمد رسول الله على أموالهم وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم وتبعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير .. أن أحمى جانبهم، وأذبّ عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السماح، حيث كانوا من بر أو بحر، شرقاً وغرباً، وبما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام ملتى».**

- ولم يقف هذا الميثاق فقط، عند ضمان حرية الاختلاف فى المعتقد الدينى، وحرية إقامة هذا المعتقد المخالف للإسلام، وإنما نص على احترام "الوجود المؤسسى" لهذا التنوع والاختلاف .. «**فلا يُغيَّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته ..».**

- ولأن "الجزية" هى "بدل جندية" لا تؤخذ إلا من القادرين مالياً، الذين يستطيعون حمل السلاح وأداء ضريبة القتال دفاعًا عن الوطن، وليست "بدلاً

من الإيمان بالإسلام"، وإلا لفرضت على الرهبان ورجال الدين، وبدليل أن الذين اختاروا أداء ضريبة الجندية فى صفوف المسلمين ضد الفرس والروم، وهم على دياناتهم غير الإسلامية فى "الشام، والعراق، ومصر" لم تفرض عليهم الجزية، وإنما اقتسموا مع المسلمين الغنائم على قدم المساواة، لأن هذا هو موقع "الجزية" فى علاقة الدولة الإسلامية بالآخرين، جاء فى ميثاق نصارى "نجران" : **«ولا يُحشرون ﷺأى لا يكلفون التعبئة العامة للقتال ﷺ، ولا يُكلف أحد من أهل الذمة منهم الخروج مع المسلمين إلى عدوهم، لملاقاة الحروب ومكاشفة الأقران، فإنه ليس على أهل الذمة مباشرة القتال، وإنما أُعطوا الذمة على أن لا يُكلفوا ذلك، وأن يكون المسلمون ذُبابًا عنهم وجواراً دونهم، ولا يُكرهوا على تجهيز أحد من المسلمين إلى الحرب الذى يلقون فيه عدوهم، بقوة سلاح أو خيل، إلا أن يتبرعوا من تلقاء أنفسهم، فيكون من فعل ذلك منهم وتبرع به حُمد عليه، وعُرف له، وكوفئ به».**

- كما نص هذا الميثاق على أن العدل فى القضاء والمساواة فى تحمّل الأعباء المالية إنما هو فريضة إلهية شاملة لكل الأمة، على اختلاف معتقداتها الدينية **«فلا خراج ولا جزية إلا على من يكون فى يده ميراث من ميراث الأرض؛ ممن يجب عليه فيه للسلطان حق، فيؤدى ذلك على ما يؤديه مثله لا يُجار عليه، ولا يُحمّل منه إلا قدر طاقته وقوته على عمل الأرض وعمارتها وإقبال ثمرتها، ولا يكلف شططاً ولا يتجاوز به حد أصحاب الخراج من نظرائه، ولا يدخل من بنائهم فى شىء من أبنية المساجد، ولا منازل المسلمين، ومن سأل منهم حقًا فبينهم النصَف غير ظالمين ولا مظلومين».**

- أما الحرية الدينية، والحق فى المغايرة للإسلام، فلقد قدسها هذا الإسلام عندما نفى وجود الدين والتدين مع وجود الإكراه **﴿لا إكراه فى الدين﴾** البقرة : ٢٥٦ .. ولذلك نص هذا الميثاق على أنه: **«لا يجبر أحد ممن كان على ملة النصرانية كرهاً على الإسلام، ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى**

أحسن، فيخفض لهم جناح الرحمة، ويُكف عنهم أذى المكروه حيث كانوا وأين كانوا من البلاد»، وإمعانًا من الإسلام فى توفير عوامل التلاحم للأمة الواحدة، التى جعل الإسلام وحدتها فريضة نص عليها القرآن الكريم **﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾** الأنبياء : ٩٢ .. فلقد حققت التطبيقات الإسلامية فى الواقع الاجتماعى عددًا من الإنجازات التى سلكت الجميع فى الأمة الواحدة .. فالموالى الذين كانوا أرقاء ثم حررهم الإسلام، دمجهم النظام الإسلامى فى قبائلهم التى كانوا أرقاء فيها، ولحمهم فيها بلحمة "الولاء" الذى جعله كالنسب سواء بسواء، يكسب هؤلاء الموالى شرف هذه القبائل وحسبها ونسبها، ونصت سنة رسول الله ﷺ على أن **«مولى القوم منهم» رواه البخارى - وعلى أن «الولاء لحمة كلحمة النسب»** رواه الدارمى وأبو داود، حتى أصبح بلال الحبشى "سيدًا" يقول عنه عمر بن الخطاب، وعن أبى بكر - الذى اشتراه وأعتقه: [سيدنا أعتق سيدنا] .. وحتى لقد تمنى عمر أن يكون أحد الموالى "سالم مولى أبى حذيفة" [١٢هـ-٦٣٣م] حيًا ليجعله خليفة على المسلمين!.

- والقبائل والعشائر، التى اندمج فيها الموالى، قد تحولت إلى لبنات فى بناء الأمة الواحدة.

- كذلك سلكت التطبيقات الإسلامية باب المصاهرة والزواج بين المسلمين وبين الكتابيات المحصنات؛ لتحقيق أعلى درجات التلاحم بين غير المسلمين وبين المسلمين فى بناء الأمة الواحدة .. فزواج المسلم من الكتابية يدخل ذويها من غير المسلمين فى دائرة "أولى الأرحام" عند المسلمين، وتلك قمة التلاحم والاندماج .. وعنها يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ، ١٨٤٩ - ١٩٠٥م]: «أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية - نصرانية أو يهودية - وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها، وهى منه بمنزلة البعض من الكل، وألزم له من الظل، وصاحبته فى العز والذل، والترحال، والحل، بهجة قلبه، وريحانة نفسه، وأميرة بيته، وأم بناته وبنيه، تتصرف فيهم

كما تتصرف فيه، ولم يفرق الدين فى الحقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية، ولم تخرج الزوجة الكتابية - باختلافها فى العقيدة مع زوجها - من حكم قوله تعالى : **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**، الروم : ٢١. فلها حظها من المودة، ونصيبها من الرحمة، وهى كما هى. وهو يسكن إليها كما تسكن إليه، وهو لباس لها كما أنها لباس له أين أنت من صلة المصاهرة التى تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة، وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عُهد فى طبيعة البشر؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم، وذوى القربى لوالدتهم، يغيب عنك ما يستحكم من روابط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذى لم يعهد عنه فيمن سبق؛ ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه؟»(٧).

- لذلك وحتى يكون هذا الزواج سبيلاً لهذا التلاحم، حرص عهد رسول الله ﷺ مع نصارى "نجران" على أن يتوفر لهذا الزواج عنصر الرضا والقبول، فالمرأة لابد فى زواجها من "ولى"، وأولياء الكتابية كتابيون، فلابد أن يكون هذا الزواج عن محبة ورضا، وقبول واختيار، وعن هذا المبدأ الإسلامى جاء فى هذا الميثاق: **«ولا يُحملوا من النكاح "الزواج" شططًا لا يريدونه، ولا يُكره أهل البنت على تزويج المسلمين، ولا يضارّوا فى ذلك إن منعوا خاطبًا وأبوا تزويجًا؛ لأن ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم، ومسامحة أهوائهم، إن أحبوا ورضوا به».**

- ولأن هذا التلاحم، بواسطة المصاهرة، لا يتحقق إلا فى ظل الاعتراف الإسلامى "بالآخر الدينى"؛ وبحق هذا الآخر فى المغايرة الدينية ـ وهو ما تميّز به الإسلام عن كل الآخرين، وبسببه جاز زواج المسلم من "الأخرى"؛ لأنه يعترف بدينها ومكلف باحترام عقيدتها وتدينها ـ على عكس موقف الآخرين من الإسلام، ومن عقيدة المسلمة ـ لهذا التميز الإسلامى، كان زواج المسلم من الكتابية بابًا للتلاحم، ولإدخال غير المسلمين فى دائرة "أولى الأرحام"، ولم يكن

هذا الزواج سببًا من أسباب الشقاق الاجتماعى، فنص العهد مع نصارى "نجران" على أنه «**إذا صارت النصرانية عند المسلم "زوجة" فعليه أن يرضى بنصرانيتها، فمن خالف ذلك وأكرهها على شىء من أمر دينها فقد خالف عهد الله، وعصى ميثاق رسول الله، وهو عند الله من الكاذبين**».

وإذا كانت تطبيقات الدولة الإسلامية لهذه المبادئ الإسلامية، قد بلغت، وحققت قبل أربعة عشر قرنًا الحد الذى يدهش له الكثيرون فى عصرنا الحاضر .. من مثل تحرير جيش الفتح الإسلامى لمصر كنائس نصارى مصر من الاحتلال والاغتصاب الرومانى، لا ليحولها إلى مساجد للمسلمين، وإنما ليردها للنصارى اليعاقبة يتعبدون فيها .. فإن عهد رسول الله ﷺ مع نصارى (نجران) قد بلغ الذروة فى تعامل الدولة الإسلامية مع دور العبادة هذه إلى الحد الذى نص فيه على أن مساعدة الدولة الإسلامية لغير المسلمين فى بناء دور عبادتهم هو جزء من واجبات هذه الدولة .. فليست الواجبات فقط هى السماح ببناء دور العبادة، وإنما هى أيضًا الإعانة على بنائها، وأن غير المسلمين هم جزء أصيل فى الأمة الواحدة، والرعية المتحدة لهذه الدولة، فإن واجباتها حيال دور عبادتهم هى ذاتها الواجبات حيال مساجد المسلمين، فجاء فى هذا الميثاق مع نصارى "نجران":

«**... ولهم إن احتاجوا فى مرمّة بيعِهم وصوامعهم، أو شىء من مصالح أمور دينهم إلى رفد (مساعدة) من المسلمين وتقوية لهم على مرمتها، أن يُرفدوا على ذلك ويُعاونوا، ولا يكون ذلك دَينًا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله، وموهبة لهم، ومكرمة لله ورسوله عليهم**».

ثم يتوج هذا الميثاق بنود هذه الحقوق بالنص على كامل المساواة بين المختلفين فى الدين ؛ والمتحدين فى الأمة الواحدة، والملتحمين فى الرغبة المتحدة للدولة الإسلامية بقول رسول الله ﷺ : «**لأنى أعطيتهم عهد الله أنّ لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم .. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم**»[٨].

ولأن وحدة الأمة لا تتحقق إلا بولاء كل أبنائها لها، وانتماء جميعهم لدولتها ولمقومات هويتها - أمنها الوطنى والقومى والحضارى - اشترط هذا العهد على نصارى (نجران) أن يكون الولاء خالصًا، والانتماء كاملاً لهذه الأمة الواحدة، ولهذه الدولة الإسلامية .. فالولاء - كل الولاء- لها وحدها، والبراء - كل البراء - من جميع أعدائها .. ولذلك جاء فى هذا الميثاق: «**واشترط عليهم أمورًا يجب عليهم فى دينهم التمسك بها والوفاء بما عاهدهم عليه منها: ألا يكون أحد منهم عينًا ولا رقيبًا لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين فى سره وعلانيته، ولا يأوى منازلهم عدوٌ للمسلمين يريدون به أخذ الفرصة وانتهاز الوثبة، ولا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا فى شىء من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة، ولا يرفدوا - (يساعدوا) - أحداً من أهل الحرب على المسلمين بتقويةٍ لهم بسلاح ولا خيلٍ ولا رجالٍ ولا غيرهم، ولا يصانعوهم ، وإن احتيج إلى إخفاء أحد من المسلمين عندهم وعند منازلهم ومواطن عباداتهم؛ أن يؤوهم ويرفدوهم ويواسوهم فيما يعيشون به ما كانوا مجتمعين، وأن يكتموا عليهم، ولا يظهروا العدو على عوراتهم، ولا يخلوا شيئًا من الواجب عليهم**» ويزيد من سمو هذا الإنجاز الإسلامى تعميم التطبيقات الإسلامية لهذا المنهاج وهذه المبادئ على الديانات الوضعية أيضًا .. فلم يقف المسلمون بهذه الثورة الإصلاحية فى العلاقة بالآخر عند اليهود - أهل التوراة؛ والنصارى - أهل الإنجيل - فقط، وإنما عمّموها لتشمل (المجوس) و (الهندوس) و (البوذيين)، وعندما فتح المسلمون فارس - وأهلها مجوس يعبدون النار، ويقولون بإلهين أحدهما للخير والنور، وثانيهما للشر والظلمة - عرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه [٤٠ق. هـ - ٢٣هـ، ٥٨٤ - ٦٤٤م] هذا الأمر الواقع المستجد على مجلس الشورى فى مسجد المدينة، وقال:

- "كيف أصنع بالمجوس"؟

- فوثب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه [٤٤ ق. هـ - ٣٢هـ، ٥٨٠ - ٦٥٢م] فقال : أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال : «**سُنّوا فيهم سُنّة أهل الكتاب**»(٩).

فطبقت الخلافة الراشدة هذه السنة النبوية، وساد هذا التطبيق على امتداد تاريخ الإسلام فى بلاد الديانات الوضعية من فارس إلى الهند إلى الصين، حتى لقد تمتع أهل هذه الديانات، لا بحرية الاعتقاد فقط، وإنما أيضًا بحرية مناظرة علماء الإسلام فى مجالس الخلفاء، إبان مجد وقوة وعظمة الخلافة الإسلامية. ولقد أورد (السير توماس أرنولد) [١٨٦٤ - ١٩٣٠م] بإعجاب كيف أن زعيم المانوية [١٠] المجوس فى فارس (يزدانبخت) قد أتى بغداد، وناظر المتكلمين المسلمين فى حضرة الخليفة "المأمون" [١٧٠ - ٢١٨هـ، ٧٨٦ - ٨٣٣م] فلما أفحمه علماء الإسلام تاق "المأمون" إلى أن يسلم (يزدانبخت) ففاتحه فى ذلك، لكنه رفض فى أدب وقال للخليفة: (نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذهبهم) فتركه المأمون وشأنه، بل وطلب حمايته من العامة حتى يبلغ مأمنه بين أتباعه وأنصار مذهبه من المجوس[١١]. هكذا بلغ الإسلام القمة عندما لم يكتف بالوصايا والمنظومة الفكرية والفلسفية التى تعترف بالآخر الذى لا يعترف بالإسلام، وإنما تجاوز (الفكر) إلى الممارسة والتطبيق فى الدولة والأمة والاجتماع، وعندما تجاوز (الاعتراف بالآخر) إلى حيث دمج هذا "الآخر" فى "الذات" مع الحرص على التعددية الدينية التى سلكها فى إطار (وحدة الدين) الإلهى الواحد، لا باعتبارها مجرد حق من حقوق الضمير الإنسانى، وإنما باعتبارها سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل، فحقق الإسلام بهذا (الإصلاح الثورى) مستوىً غير مسبوق فى التاريخ الإنسانى، سواء على المستوى الفكرى أو فى الممارسة والتطبيق.

- وإذا كانت سنة من سنة الله فى الاجتماع الإنسانى، أن يكون هناك ـ دائمًا وأبدًا ـ فارق بين "الواقع" وبين "المثال"، وأن يظل "المثال" ـ دائمًا وأبدًا – عصيًا على كمال التحقق فى "الواقع" المعين .. فإن ممارسات الدولة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية لم تكن دائمًا على مستوى هذا "المثال" الإسلامى فى العلاقة مع "الآخر" الدينى .. كما أن هذا "الآخر" الدينى لم يكن ـ دائمًا وأبدًا على مستوى هذا "المثال" الذى نصت عليه العهود والمواثيق، أو لنَقُل : لم يكن

كل المسلمين ولا كل الحكام على مستوى هذا "المثال" .. ولم يكن كل غير المسلمين على مستوى هذا "المثال"، لكن - ومع ذلك - ظلت هناك ثوابت حكمت علاقة المسلمين بغير المسلمين فى الدولة الإسلامية، والمجتمعات الإسلامية عبر تاريخ الإسلام.

- فلم يعرف هذا التاريخ الإسلامى إكراهًا فى الدين .. فلقد دخل الشرق - بالفتوحات الإسلامية - فى الدولة الإسلامية خلال سنوات قياسية فى تاريخ الفتوحات، إذ فتح المسلمون فى ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون .. ولقد كانت هذه الفتوحات الإسلامية تحريرًا للشرق - الإنسان والأرض - من القهر الدينى والحضارى الذى مارسه الرومان والفرس ضد شعوب الشرق على امتداد عشرة قرون - من الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٤ق.م] فى القرن الرابع قبل الميلاد إلى الفتوحات الإسلامية فى القرن السابع للميلاد، فترك الناس وما يدينون دونما إكراه، بل وفى أحيان كثيرة دونما ترغيب - عندما كان بعض الولاة أحرص على الجزية منهم على إسلام غير المسلمين، حتى إن أقليات اليوم الدينية - وخاصة النصرانية - قد ظلت أغلبيات غير مسلمة فى الدولة الإسلامية لعدة قرون.

- وإذا أخذنا مصر نموذجًا - وهى التى ضربت المثل الأروع فى الاستمساك بنصرانيتها على امتداد ستة قرون من الاضطهادات الرومانية التى ضُربت بها الأمثال - فإننا نجد أن تحول أغلبية أهلها إلى الإسلام قد استغرق عقودًا طويلة .. فلقد كان تعداد سكانها، من النصارى واليهود، عند الفتح الإسلامى لها [سنة ٢٠هـ، ٦٤١م] ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة .. حتى نهاية خلافة "معاوية بن أبى سفيان" [٢٠ق. هـ - ٦٠هـ، ٦٠٣- ٦٨٠م] - أى بعد نحو نصف قرن من الفتح الإسلامى - كان قرابة نصف المصريين لا يزالون على نصرانيتهم .. فكان تعداد غير المسلمين فى نهاية عهد معاوية [سنة ٦٠ هـ، ٦٨٠م] ١,٠٤٠,٠٠٠ نسمة .. وفى نهاية عهد هارون الرشيد [١٤٩ - ١٩٣هـ، ٧٦٦ - ٨٠٩م] - أى بعد مرور قرابة القرنين من الزمان على تاريخ الفتح - كان تعداد غير المسلمين بمصر ٦٥٠,٠٠٠ نسمة - أى نحو ربع السكان البالغ عددهم يومئذ

٢,٦٧١,٠٠٠ ـ وحتى القرن التاسع الميلادى ـ أى بعد قرنين ونصف من الفتح الإسلامى لمصر ـ كانت نسبة غير المسلمين فى سكانها ٢٠٪ من هؤلاء السكان(١٢) الأمر الذى يقدم الحقائق المادية ـ بالأرقام ـ لهذه الخلاصة التي كتبها المستشرق الإنجليزى ـ الحجة، والشديد التدين بالنصرانية ـ "سير توماس أرنولد"، والتى قال فيها : [إنه من الحق أن نقول : إن غير المسلمين قد نعموا، بوجه الإجمال، فى ظل الحكم الإسلامى بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً فى أوروبا قبل الأزمنة الحديثة؛ وإن دوام الطوائف المسيحية فى وسط إسلامى يدل على أن الاضطهادات التى قاست منها بين الحين والآخر على أيدى المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح](١٣).

– فلم يكن هناك إكراه على التحول إلى الإسلام؛ بل لم تكن للإسلام عبر تاريخه "مؤسسة تبشيرية" تنظم وتتابع نشر هذا الدين.

– وأكثر من ذلك فلقد كتب علماء وباحثون من النصارى الغربيين عن تحولات الأغلبيات النصرانية الشرقية إلى الإسلام، فأرجعوا هذه التحولات إلى اختلافات الكنائس النصرانية حول طبيعة المسيح – عليه السلام – تلك الاختلافات التى حولت العقيدة النصرانية إلى أسرار وألغاز جعلتها مستعصية على فهم الجمهور، فلما أشرقت شمس التوحيد الإسلامى، على هذا النحو البسيط والفطرى، تحولت أغلبيات نصارى الشرق إلى هذا التوحيد عن رغبة، وللإشباع الروحى، ولخلو الإسلام من سلطة الكهنوت التى تحتكر مفاتيح التوبة والخلاص .. تحولت هذه الأغلبيات لذلك ـ نحو الإسلام دونما إكراه، بل ولا حتى ترغيب، كتب عن هذه الحقيقة علماء نصارى ـ منهم " كيتانى" Caetanin ـ الذى يقول : [إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحى، أما الشرق الذى عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فلقد كانت الثقافة الهلينية وبالاً عليه من الوجهة الدينية؛ لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة

محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات؛ فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزعة أصول العقيدة الدينية ذاتها، فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأةً من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التى اختلطت بالغش والزيف، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الرِّيب، لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذى بَدَّدَ بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا جليلة، إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل، وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى فى أحضان نبى العرب].

- لقد أقبل الناس على الإسلام، الذى رأوه ـ كما يقول "مونتيه" .. [عقلانى الجوهر، بأوسع معانى هذه الكلمة]، وأقبلوا عليه "دون أى محاولة للإرغام والاضطهاد" كما يقول "أرنولد"(١٤).

- والثابت الثالث من ثوابت علاقة الإسلام بغير المسلمين فى الدولة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية هو: استمرار غير المسلمين قابضين على عصب دواوين وإدارات الدولة الإسلامية ـ قبل تعريب لغة تلك الدواوين وبعد تعريبها [٨٧هـ ـ ٧٠٥م] وهذه الحقيقة جعلت المستشرق الألمانى الحجة "آدم متز" [١٨٦٩ ـ ١٩١٧م] يكتب فيقول : "لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام"(١٥).

- ومن يراجع كتاب "الإشارة إلى من نال الوزارة" لابن الصيرفى يرى حجم السيطرة غير المسلمة على مناصب الوزارة والإدارة عبر تلك القرون (١٦).

- أما التوترات الطائفية التى شهدتها المجتمعات الإسلامية، والتى ألحقت قدرًا من الضيق والتمييز والأذى بالأقليات غير الإسلامية، فلقد كانت عارضة .. وعابرة .. وكانت أغلب أسبابها وافدة على الموقف الإسلامى الثابت والأصيل، ومفروضة على المنهاج الطبيعى للتطبيقات الإسلامية لهذا المنهاج .. وبعبارة "سير توماس أرنولد" فلقد كان مرد هذه الاضطهادات إلى "ظروف محلية"

أكثر مما كانت ثمرة لمبادئ التعصب وعدم التسامح [١٧].

- أما هذه الأسباب الطارئة على الإسلام، والمفروضة على منهاج المسلمين فى معاملة الآخر الدينى؛ فلقد فصّلها وحصرها باحث ومؤرخ نصرانى لبنانى، هو الدكتور "جورج قرم" عندما قال : [إن فترات التوتر والاضطهاد لغير المسلمين فى الحضارة الإسلامية كانت قصيرة، وكان يحكمها ثلاثة عوامل :

- **العامل الأول :** هو مزاج الخلفاء الشخصى. فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا فى عهد المتوكل [٢٠٦ ـ ٢٤٧هـ، ٨٢١ ـ ٨٦١م] الخليفة الميال بطبعه إلى التعصب والقسوة، وفى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله [٣٧٥ ـ ٤١١هـ، ٩٨٥ ـ ١٠٢١م] الذى غالى فى التصرف معهم بشدة (وكلا هذين الحاكمين عمَّ اضطهادهما المسلمين وغير المسلمين !!).

- **العامل الثانى :** هو تردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسواد المسلمين، والظلم الذى يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التى وقعت فى عدد من الأمصار.

- **أما العامل الثالث :** فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبى فى البلدان الإسلامية، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة. إن الحكام الأجانب بمن فيهم الإنجليز ـ لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية فى أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب، وهذه ظاهرة نلاحظها فى سوريا أيضًا، حيث أظهرت أبحاث "جب" و "بولياك" كيف أن هيمنة أبناء الأقليات فى المجال الاقتصادى أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين فى دمشق سنة ١٨٦٠م، وبين الموارنة والدروز فى جبال لبنان سنة ١٨٤٠م و١٨٦٠م، ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها – فى أماكن عديدة – أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية ، ولا سيما الأرمن الذين تعاونوا مع الغازى.

- بل إنه كثيرًا ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامى، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح؛ سببًا فى نشوب قلاقل طائفية،

فعلاوة على غلو الموظفين الذميين فى الابتزاز، وفى مراعاتهم وتحيزهم إلى حد الصفاقة - أحيانًا - لأبناء دينهم، ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة][١٨].

- وإذا شئنا الإشارة إلى وقائع من التاريخ الوسيط والحديث تؤكد صدق هذا التحليل الذى قدمه الدكتور "جورج قرم" لأسباب التوترات الطائفية العارضة وخاصةً بسبب الغوايات الاستعمارية لبعض أبناء الأقليات الدينية، فإن هناك واقعة دالة إبان الغزوة التترية، عندما استقوى نصارى دمشق بالقائد التتارى "كتبغا" - وكان نصرانيًا نطوريًا ـ فانحازوا إلى الغزاة ضد المسلمين، وتحولوا إلى أداة إذلال واضطهاد للمسلمين فى ظل الاحتلال التترى، ولقد تحدث مؤرخ العصر «المقريزى »[٧٦٦ - ٨٤٥هـ، ١٣٦٥ - ١٤٤١م] عن هذا الاستعلاء والاستقواء النصرانى بالتتار، فقال: (استطال النصارى بدمشق على المسلمين، وأحضروا فرمانًا من "هولاكو" بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان، ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات، وصبوه على أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب، وصاروا يمرون به فى الشوارع إلى كنيسة مريم، ويقفون به، ويخطبون فى الثناء على دينهم، وقالوا جهرًا: (ظهر الدين الصحيح، دين المسيح)، وخرّبوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم، فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرهم لنائب (هولاكو) وهو (كتبغا) فأهانهم وضرب بعضهم، وعظم قدر قسوس النصارى، ونزل إلى كنائسهم، وأقام شعائرهم) [١٩].

- وأمام هذه الخيانة، والاحتماء بالعدو الغازى، واضطهاد الأقلية للأغلبية ما كان من السلطان "قطز" [٦٥٨هـ - ١٢٦٠م] إلا أن أوقع بنصارى دمشق، وترك الناس فخربوا دورهم ونهبوها عقب الانتصار على التتار فى "عين جالوت" [٦٥٨هـ - ١٢٦٠م].

- ولقد تكرر مشهد الغواية والخيانة فى مطلع العصر الحديث، عندما جاء

بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] على رأس الحملة الفرنسية لغزو مصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م]، وألقى حبال الغواية لأبناء الأقليات الدينية، ووقع فى هذه الحبال نفر من أقباط مصر - خانوا أمتهم وطائفتهم وكنيستهم - قادهم "المعلم يعقوب حنا" [١٧٤٥ - ١٨٠١م] وكونوا فيلقًا قبطيًا تزيًا بزىِّ الجيش الفرنسى، وحارب المصريين وأذلهم لحساب الفرنسيين، ولقد تحدث مؤرخ العصر الجبرتى [١١٦٧ - ١٢٣٧هـ، ١٧٥٤ - ١٨٢٢م] عن صنيع "بونابرت" مع هذه القلة الخائنة، عندما جعل لهم نصف عضوية "ديوان المشورة"، والسلطة الفعلية فى الجهاز المالى والإدارى .. وبعبارة "الجبرتى"، فلقد فوض الجنرال كليبر [١٧٥٣ - ١٨٠٠م] للجنرال يعقوب أن يفعل بالمسلمين ما شاء، حتى تطاول النصارى - من القبط ونصارى الشوام - على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكانًا !! وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين !![٢٠].

- فكان السقوط فى شراك الغواية الاستعمارية من أكثر أسباب التوتر الطائفى تأثيرا، فى الفترات العارضة التى شابت فيها هذه التوترات تلك الوحدة التى حققها الإسلام مع الآخر الدينى فى الأمة والدولة ، ومقومات الهوية الوطنية والحضارية على امتداد تاريخ الإسلام .

٣ - الواقع المعاصر للأقليات .. والتحديات المحيطة بها :

لقد تعمدنا فى هذه الدراسة أن يكون الرجوع دائمًا إلى المصادر المتخصصة والمعتمدة، والتى كتبها علماء وباحثون مشهود لهم بالأمانة والموضوعية ورسوخ القدم فى تخصصاتهم .. وتعمدنا كذلك، عندما نكون بإزاء قضية خلافية يدور حولها جدل كثير وكبير أن تكون المصادر التى نحتكم إليها قد كتبها علماء وباحثون غير مسلمين !.

صنعنا ذلك ونحن نبحث مكانة ونفوذ وموقع غير المسلمين فى الحضارة والتاريخ والدول والمجتمعات الإسلامية، وكذلك عند بحث أسباب التوترات الطائفية التى مرت بها الأقليات غير المسلمة فى بعض فترات التاريخ الإسلامى،

ببعض المجتمعات الإسلامية.

ونصنع ذلك الآن، ونحن نريد حسم قضية يثور حولها جدل كبير وتشكيك كثير، وهى: قضية عدد الأقليات غير المسلمة فى أقطار الوطن العربى خاصة، ودول العالم الإسلامى بوجه عام.

أما المصادر المتخصصة فى "السكان ـ الديموجرافيا"، والتى كتبها علماء وباحثون غير مسلمين، والتى اعتمدنا عليها فى حسم هذه القضية المثيرة للجدل .. فهى :

١ - كتاب [أطلس معلومات العالم العربى] الذى كتبه اللبنانى المسيحى "رفيق البستانى"، والفرنسى المسيحى "فيليب فارج" والمطبوع سنة ١٩٩٤م.

٢ - وكتاب [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] والذى كتبه عالمان متخصصان فى "الديموجرافيا"، والصادر عن مؤسسة فرنسية متخصصة فى الأبحاث والدراسات "الديموجرافية"، هما "فيليب فارج" و "يوسف كرباج" .. والمطبوعة ترجمته العربية سنة ١٩٩٤م. وكلا المصدرين تتابع إحصاءاتهما الواقع "السكانى ـ الديموجرافى" حتى سنوات الطبع .. أى ما يقرب من منتصف تسعينيات القرن العشرين[٢١].

ومن خلال هذه المصادر العلمية المتخصصة فإن :

١ - تعداد النصارى العرب فى كل أقطار الوطن العربى، بمذاهبهم وطوائفهم وكنائسهم المختلفة هو ٧,٠٠٠,٠٠٠ نسمة .. وأن متوسط نسبة النصارى فى سكان الشرق الأوسط ـ العرب وتركيا ـ هو ٣,٨٪.

٢ - وتعداد اليهود فى أقطار الوطن العربى هو ١٣,٠٠٠ نسمة فى بعض الإحصاءات، و ٢٠,٠٠٠ نسمة فى إحصاءات أخرى، ولعل السبب فى الاختلاف هو الهجرات المتحركة لهذه الأقليات اليهودية نحو إسرائيل.

٣ - أما الأقليات الأرواحية (الوثنية) فى جنوب السودان فإن تعدادها هو ٥,٨٠٠,٠٠٠ نسمة.

٤- ولما كان الجدل الأكثر فى إحصاء أعداد غير المسلمين، إنما يدور حول عدد الأقباط النصارى فى مصر، والذين يمثلون أكبر الأقليات النصرانية فى الواقع العربى؛ فلقد اهتمت هذه المصادر المختصة بالوقوف عندها، وحسم قضية تعدادها، ولقد جاء فى [أطلس معلومات العالم العربى] (ص ٣٢) - تحت عنوان [أقباط مصر] ما يلى :

"كم عددهم ؟ كم عدد أكبر طائفة مسيحية فى الشرق ؟ هل يبلغ أكثر قليلاً من ثلاثة ملايين، كما يمكن استنتاجه من آخر تعداد للسكان ؟ أم هل يرتفع عددهم إلى ٥ أو ٦ أو حتى ٧ ملايين، كما تؤكد بعض الهيئات القبطية ؟.

إن التفاوت فى التقدير أمر غريب فى بلد تتوفر فيه الإحصاءات بغزارة فمصر على عكس بعض بلدان المنطقة لا تبخل بالمعلومات عن سكانها، إذ تجرى التعداد بصفة منتظمة منذ سنة ١٨٨٢م [أى فى ظل الاحتلال الإنجليزى، وغلبة الموظفين الأقباط فى إدارات الإحصاء] ، وجاء [التعداد] بحصيلة لا بأس بها من المعلومات، وهى حصيلة قابلة للتحقق منها، وللمطابقة بينها وبين غيرها.

ومع هذا فإن الجدل حول هذا الموضوع مازال قائمًا، فالطائفة القبطية تقول: إن تقرير عدد الأقباط بنسبة ٦٪ من عدد السكان الكلى، كما تشير إلى ذلك الإحصاءات الرسمية، فيه تقليل من عددهم، ولكننا نلاحظ أن التعدادات التى أجريت فى عهد الاستعمار، تؤكد هذه الأرقام الرسمية، ونلاحظ تناقصًا طفيفًا فى نسبة عدد الأقباط، كما يتبين من التعدادات المتتالية :

إذا كانت نسبة الأقباط أعلى قليلاً من ٨٪ من العدد الكلى للسكان فى مصر، فيما بين عامى ١٩٠٧، ١٩٣٧م، ثم هبطت إلى ٧,٩٪ فى تعداد ١٩٤٧م، وإلى ٧,٣٪ فى سنة ١٩٦٠م [بعد جلاء القوات الأجنبية وعدد كبير من الذين أصابتهم قوانين الإصلاح الزراعى وتمصير الشركات]، وإلى ٥,٩٪ فى سنة ١٩٨١م. وليس هناك أى استثناء فى هذا المنحنى الهابط بانتظام، مما يوحى بأنه ليس هناك افتعال فى هذه الظاهرة.

إن أقباط مصر شأنهم فى ذلك شأن مسيحيى الشرق الآخرين، سبقوا المسلمين إلى تخفيض عدد المواليد، ولذلك فقد هبطت نسبة عدد الأقباط بالنسبة للعدد الكلى من ٣,٧٪ فى سنة ١٩٦٠م إلى ٩,٥٪ فى عام ١٩٨٦م"

بهذا المنطق العلمى وبالحقائق الإحصائية تناولت هذه المصادر - التى كتبها متخصصون غير مسلمين - حسم هذه القضايا التى يدور حولها الجدل، وتثار بصددها الشكوك.

٥ - وهذه الأقليات النصرانية العربية - ٧,٠٠٠,٠٠٠ نسمة - موزعة على

رقم	الطائفة	عددها	ملاحظات	رقم	الطائفة	عددها	ملاحظات
١	الأقباط الأرثوذكس	٣,٠٠٠,٠٠٠		٦	الكلوان	٥٠٠,٠٠٠	
٢	الروم الأرثوذكس	٨٠٠,٠٠٠		٧	السريان الكاثوليك	١٥٠,٠٠٠	
٣	الأرمن الكرجيون	٣٠٠,٠٠٠		٨	الأقباط الكاثوليك	١٠٠,٠٠٠	
٤	اليعقوبيون (سوريا)	١٧٠,٠٠٠		٩	الأرمن الكاثوليك	٧٥,٠٠٠	
٥	النطوريون	٥٠,٠٠٠		١٠	الروم الكاثوليك	٤٠٠,٠٠٠	

عشر طوائف رئيسية .. **يوضحها هذا الجدول** :[٢٢]

رقم	الدولة	نسبة المسلمين	نسبة النصارى	ملاحظات	رقم	الدولة	نسبة المسلمين	نسبة النصارى	ملاحظات
١	الأردن	٩٥,٨٪	٤,٢٪		١١	العراق	٩٨,٦٪	١,٤٪	
٢	الإمارات العربية	١٠٠٪			١٢	عمان	١٠٠٪		
٣	البحرين	١٠٠٪			١٣	فلسطين	٩٦,٢٪	٣,٨٪	
٤	تونس	٩٩٪	١٪		١٤	قطر	١٠٠٪		
٥	الجزائر	٩٨٪	٢٪		١٥	الكويت	١٠٠٪		
٦	جيبوتى	١٠٠٪			١٦	لبنان	٥٦,٢٪	٤٣,٨٪	
٧	المملكة السعودية	٩٩,٥٪	٠,٥٪		١٧	ليبيا	٩٨٪	٢٪	
٨	السودان	٧٢٪	٤٪	٢٤٪ وثنيون	١٨	مصر	٩٤,٣٪	٥,٧٪	
٩	سوريا	٩٣,٦٪	٦,٤٪		١٩	المغرب	٩٨٪	٢٪	
١٠	الصومال	٩٩٪	١٪		٢٠	موريتانيا	٩٩٪	١٪	
					٢١	اليمن	٩٩٪	١٪	

٦ - أما بالنسبة المئوية لهؤلاء النصارى العرب مقارنة بمواطنيهم المسلمين، فى الأقطار العربية .. فيوضحها الجدول الآتى :

رقم	الدولة	نسبة المسلمين	نسبة غير المسلمين	ملاحظات	رقم	الدولة	نسبة المسلمين	نسبة غير المسلمين	ملاحظات
١	أفغانستان	٩٩٪	١٪		١٣	تشاد	٤٥٪	٥٥٪	
٢	أندونيسيا	٩٠٪	١٠٪		١٤	الجابون	١٦٪	٨٤٪	
٣	إيران	٩٨٪	٢٪		١٥	جامبيا	٨٥٪	١٥٪	
٤	باكستان	٩٧٪	٣٪		١٦	جزر القمر	٩٩٪	١٪	
٥	بروناى				١٧	السنغال	٩٠٪	١٠٪	
٦	بنجلاديش	٨٠٪	٢٠٪		١٨	سيراليون	٣٩٪	٦١٪	
٧	تركيا	٩٨٪	٢٪		١٩	غينيا	٦٩٪	٣١٪	
٨	المالديف				٢٠	غينيا بيساو	٣٠٪	٧٠٪	منهم ٥٪ مسيحيون
٩	ماليزيا				٢١	الكاميرون	٢٠٪	٨٠٪	
١٠	أوغندا	١٥٪	٨٥٪		٢٢	مالى	٩٠٪	١٠٪	
١١	بنين	٤٧٪	٥٣٪		٢٣	النيجر	٩٧٪	٣٪	
١٢	بوركينافاسو	٤٠٪	٦٠٪		٢٤	نيجيريا	٤٨٪	٥٢٪	

٧ - أما نسبة غير المسلمين إلى المسلمين فى أقطار منظمة المؤتمر الإسلامى - غير العربية - **فيوضحها الجدول الآتى :**

رقم	الدولة	عدد اليهود	ملاحظات	رقم	الدولة	عدد اليهود	ملاحظات
١	سوريا	٨٠٠		٦	ليبيا	٠,٢٠٠	
٢	لبنان	٦٠٠		٧	تونس	٢,١٠٠	
٣	العراق	٩٠٠		٨	الجزائر	٢,١٠٠	
٤	اليمن	١,٠٠٠		٩	المغرب	٧,٨٠٠	
٥	مصر	٥٠٠					

٨ - أما توزيع الأقليات اليهودية فى أقطار العالم العربى، فيوضحها الجدول التالى :

هذا عن التعداد المعاصر للأقليات غير المسلمة فى الوطن العربى، وبقية دول منظمة المؤتمر الإسلامى [٢٣].

أما عن التحديات التى تواجه هذه الأقليات فى واقعنا الراهن .. فإنها - فى الحقيقة - هى التحديات التى تواجه الأمة .. فقوى الهيمنة الغربية تريد أن تجعل من هذه الأقليات "أوراق ضغط" و "ثغرات اختراق وتدخل" لإعاقة تقدم الأمة - كل الأمة - ونهوضها وانعتاقها وانبعاثها الحضارى .. إنها التحديات التى تعيد - مرة أخرى - قصة "الغواية الاستعمارية"، ومشاريع "الحماية" التى حاولتها قوى الغزو والاستعمار مع هذه الأقليات تاريخيًا، تحاولها الآن قوى الهيمنة الغربية، وفى المقدمة منها "العولمة الأمريكية"، وذلك من خلال المخططات الاستعمارية المعلنة لتفتيت الأمة - أكثر مما هى مفتتة - وتحويل كياناتها القطرية إلى "كيانات ورقية وفسيفسائية" بواسطة الأقليات الدينية والمذهبية والقومية.

وهناك حقيقة يلمسها الدارس لمراحل وألوان هذه المخططات الاستعمارية

الحديثة والمعاصرة للعب بأوراق الأقليات فى وطن العروبة وعالم الإسلام، هى وجود الأصابع الصهيونية فى كل هذه المخططات والمحاولات.

فمنذ بدايات الغزوة الغربية الاستعمارية الحديثة للوطن العربى - قلب العالم الإسلامى بواسطة حملة "بونابرت" [١٧٦٩ - ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣هـ، ١٧٩٨م] كان الإعلان عن مخطط للعمل على استخدام الأقليات فى مشروع الهيمنة الاستعمارية على بلادنا، وذلك عندما أعلن "بونابرت" - وهو فى الطريق البحرى من "مرسيليا" إلى "الإسكندرية" - عزمه على تجنيد عشرين ألفًا من أبناء الأقليات غير المسلمة، ليكونوا مواطئ أقدام وثغرات اختراق تعينه على بناء إمبراطوريته الاستعمارية الشرقية، وأثناء حصاره لمدينة "عكا" الفلسطينية سنة ١٧٩٩م - فى الذكرى السبعمائة لاحتلال الصليبيين للقدس سنة ١٠٩٧م !! - أصدر "بونابرت" نداءه إلى الأقليات اليهودية فى العالم كى تتحالف معه لتحقيق هذا الغرض الاستعمارى، مقابل أن يساعدها على احتلال فلسطين[٢٤].

ومنذ ذلك التاريخ اتخذت قطاعات من هذه الأقليات اليهودية أكثر القرارات لا أخلاقية، وذلك عندما وظفت نفسها فى خدمة الحضارة الغربية التى اضطهدت اليهود طوال تاريخهم ضد الحضارة الإسلامية التى آوتهم وأكرمتهم طوال تاريخها !! فبدأت "الشراكة" بين الصهيونية وبين الاستعمار الغربى منذ ذلك التاريخ .. الصهيونية تحلم بالخلاص من اضطهاد الغرب لليهود على حساب العرب والمسلمين ! .. والغرب الاستعمارى يريد تحقيق "حزمة" من الأهداف .. فهو يريد الخلاص من اليهود، الذين كان ينظر إليهم باعتبارهم سرطانات فى جسم حضارته المسيحية، وذلك بقذفهم إلى قلب الوطن العربى، يقيم بواسطتهم قاعدة لحضارته، وآلة حربية ضد أحلام العرب فى التقدم والنهوض .. والبروتستانتية الغربية قد رأت فى هذا المشروع "الصهيونى - الاستعمارى" تحقيقًا لنبوءة أسطورية تتحدث عن عودة السيد المسيح - عليه السلام - ثانية ليحكم العالم ألف سنة سعيدة، عندما يحشر اليهود فى فلسطين، ويقيمون "الهيكل الثالث" على أنقاض المسجد الأقصى، وتحدث معركة "هرمجدون" التى يباد فيها المسلمون[٢٥]!!

وعندما هزم المصريون حملة "بونابرت" وتبددت أحلامه وأصبحت القيادة - فى المشروع الاستعمارى الغربى - لإنجلترا؛ نقل الصهاينة "قبلتهم .. وشراكتهم" إلى الاستعمار الإنجليزى، وتولت إنجلترا رعاية هذه "الشراكة" وتوظيف الأقليات اليهودية ضد العرب والمسلمين.

وفى مواجهة مشروع «مصر - محمد على باشا» [١١٨٤ - ١٢٦٥هـ. ١٧٧١ - ١٨٤٩م] لتجديد شباب الشرق، وإنقاذه من الضعف العثمانى للحيلولة دون نجاح مخططات الاستعمار الغربى، سعت إنجلترا إلى الدولة العثمانية كى تسمح بزرع اليهود فى فلسطين لإعاقة المشروع النهضوى لمحمد على باشا، وطلب "بلمرستون" [١٧٨٤ - ١٨٦٥م] وزير خارجية إنجلترا سنة ١٨٤٠م من سفيره فى "الأستانة" أن يقنع السلطان العثمانى بالسماح بهجرة اليهود إلى فلسطين "حتى يكونوا حجر عثرة أمام محمد على باشا ونواياه، والأغراض التى قد تخطر بباله أو بال من يخلفه"(٢٦)!.

ولم تخرج فرنسا الاستعمارية من الساحة نهائيًا - بهزيمة نابليون - فهى قد تولت تحويل الأقلية المارونية فى لبنان - بواسطة التغريب الثقافى ومدارس الإرساليات التبشيرية - إلى ثغرات اختراق؛ لتحويل قبلة هذه الأقلية - وغيرها - إلى الغرب بدلاً من الشرق والعروبة وحضارة الإسلام .. وذلك وصولاً إلى "جعل البربرية العربية - [كما قالوا] - تنحنى لا إراديًا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا"(٢٧).

كما تولت فرنسا - فى المغرب العربى - اللعب بورقة الأقليات الأمازيغية لإلحاق عاداتها وأعرافها بالقانون الوضعى الفرنسى، بدلاً من الشريعة الإسلامية وإلحاقها - لغويًا وثقافيًا - بالفرنسية والفرنكفونية، بدلاً من هويتها الحضارية العربية الإسلامية.

ولقد كانت "الشراكة" الاستعمارية الصهيونية والأصابع اليهودية حاضرة وفاعلة، دائمًا وأبدًا فى كل هذه المراحل؛ لتنفيذ هذا المخطط الاستعمارى للعب بأوراق الأقليات فى بلادنا العربية والإسلامية .. ولقد زاد من وضوح الدور

الصهيونى فى هذا المخطط وهذه التحديات منذ أن تجسد الحلم الصهيونى فى الكيان الإسرائيلى سنة ١٩٤٨م، فرأينا الكتابات الصهيونية تضع مخططات تفتيت الشرق العربى والإسلامى بواسطة الأقليات الدينية والمذهبية والقومية، باعتبار هذا التفتيت هو التعميم لمشروع الأقلية اليهودية فى إقامة كيانها السياسى الخاص .. وباعتبار أن هذا التفتيت هو الضمان لأمن الكيان الصهيونى الذى لا نماء له ولا مستقبل فى ظل الوحدة العربية والجامعة الإسلامية .. لقد تصاعد إغراء الأقليات باختيار الطريق الصهيونى: عض اليد العربية الإسلامية، والتوجه غربًا ضد العروبة والإسلام، وربط مستقبل هذه الأقليات بالهيمنة الاستعمارية الغربية؛ بدلاً من المشروع النهضوى للعرب والمسلمين !..

ومنذ أكثر من نصف قرن، وبالتواكب مع إقامة الكيان الصهيونى على أرض فلسطين - قاعدة عنصرية استعمارية غربية - لإعاقة تقدم أمتنا ووحدتها .. أعلن المستشرق الصهيونى "برنارد لويس Bernard Lewis" مخطط التفتيت للأمة الإسلامية بواسطة الأقليات .. والذى نشرته مجلة وزارة الدفاع الأمريكية - البنتاجون - Executive Intelligence Research Project وفيه يدعو إلى إضافة أكثر من ثلاثين كيانًا إنفصاليًا، على أساس دينى ومذهبى وعرقى (إثنى) تضاف إلى التجزئة التى أحدثتها اتفاقية "سايكس - بيكون" سنة ١٩١٦م .. وينص عبارات هذا المستشرق الصهيونى : "فإن الصورة الجغرافية الحالية للمنطقة لا تعكس حقيقة الصراع، فما هو على السطح يتناقض مع ما هو فى العمق. على السطح كيانات سياسية لدول مستقلة، ولكن فى العمق هناك أقليات لا تعتبر نفسها ممثلة فى هذه الدول، بل ولا تعتبر أن هذه الدول تعبر عن الحد الأدنى من تطلعاتها الخاصة"!

وبعد أن تحدث عن تفاصيل مخطط تفتيت العالم الإسلامى - من باكستان إلى المغرب - على أسس دينية ومذهبية وعرقية، خلص إلى الهدف الصهيونى من وراء هذا التفتيت، فقال : "ويرى الإسرائيليون أن جميع هذه الكيانات لن تكون فقط غير قادرة على أن تتحد، بل سوف تشلها خلافات لا انتهاء لها .. ونظرًا

لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل، فإن هذه ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل[٢٨]"!

فالمطلوب هو استخدام الأقليات لتفتيت العالم الإسلامى إلى كيانات ضعيفة؛ لضمان الأمن والتفوق للكيان الصهيونى الموظف فى خدمة المشروع الإمبريالى الغربى الكبير!.

ولقد تحول هذا التخطيط "الاستعمارى ـ الصهيونى" إلى الممارسة والتطبيق على أيدى "ديفيد بن جوريون" [١٨٨٦ - ١٩٧٣م] و "موشى شاريت" [١٨٩٤-١٩٦٥م] و "موشى ديان"، فى حقبة خمسينيات القرن العشرين، ابتداءً بالأقلية المارونية فى لبنان، وطموحًا إلى تعميمه خارج لبنان. وكتب "شاريت" فى مذكراته عن المقاصد من وراء اللعب بأوراق الأقليات فى بلادنا، يقول إنها :

أولاً : تثبيت وتقوية الميول الانعزالية للأقليات فى العالم العربى.

ثانيًا : إذكاء النار فى مشاعر الأقليات المسيحية فى المنطقة، وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال والتحرر من الاضطهاد الإسلامى !!.. فمجرد تحريك الأقليات هو عمل إيجابى، لما قد ينتج عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر[٢٩] "!

وفى مرحلة ثمانينيات القرن العشرين، ورغم الحديث عن "السلام والتسوية .. وتطبيع العلاقات" بعد "المعاهدة المصرية ـ الإسرائيلية" سنة ١٩٧٩م .. نجد أن هذا المخطط التفتيتى لعالمنا الإسلامى بواسطة الأقليات، هو من "الثوابت" الاستعمارية الصهيونية التى لا تتأثر" بالمتغيرات "، حتى لو سميت هذه المتغيرات "بالسلام .. وتطبيع العلاقات" !.

ففى المحاضرة التى ألقاها "إرييل شارون" ـ وكان يومئذ وزيرًا للدفاع ـ فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٨١م ـ والتى نشرتها مجلة "معاريف" نراه يقول : "إن إسرائيل تصل بمجالها الحيوى إلى أطراف الاتحاد السوفيتى شمالاً، والصين شرقًا، وأفريقيا الوسطى جنوبًا، والمغرب العربى غربًا .. وهذا المجال الحيوى عبارة عن مجموعات قومية وإثنية ومذهبية متناحرة".

ثم يواصل "شارون" الحديث عن مشروعات تفتيت العالم الإسلامى، بواسطة الأقليات ـ على النحو الذى سبقه إليه "برنارد لويس" ـ حتى يكون هذا العالم الإسلامى "مجالاً حيويًا لإسرائيل[٣٠]".

وفى ذات الحقبة ـ ثمانينيات القرن العشرين ـ تصوغ "المنظمة الصهيونية العالمية" هذا المشروع التفتيتى تحت عنوان : "استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات" وتنشره فى مجلتها الفصلية "كيفونيم" Kivunim [الاتجاهات] ـ فى عدد ١٤ فبراير سنة ١٩٨٢م ـ .. وفى ثنايا هذا المخطط الاستراتيجى تتحدث عن النجاحات التى حققتها إسرائيل فى لبنان ـ إبان الحرب الأهلية اللبنانية [١٩٧٥ - ١٩٨٩م] بواسطة قطاع من الأقلية المارونية السياسية ـ باعتباره النموذج الواجب التعميم مع كل الأقليات .. فتقول "المنظمة الصهيونية العالمية" : "إن تفتت لبنان بصورة مطلقة إلى خمس مقاطعات إقليمية هو سابقة للعالم العربى بأسره، بما فى ذلك: مصر وسوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية .. إن دولاً مثل: ليبيا والسودان والدول الأبعد منها ـ [فى المغرب] ـ لن تبقى على صورتها الحالية، بل ستقتفى أثر مصر فى انهيارها وتفتتها، فمتى تفتتت مصر تفتت الباقون ـ [!!!]. إن رؤية دولة قبطية مسيحية فى صعيد مصر، إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية ـ مصرية، لا سلطة مركزية كما هو الوضع الآن، هو مفتاح هذا التطور التاريخى الذى أخرته معاهدة السلام، لكنه لا يبدو مستبعدًا فى المدى الطويل.

وإن تفتت سوريا والعراق لاحقًا إلى مناطق ذات خصوصية إثنية ودينية على غرار لبنان هو هدف من الدرجة الأولى بالنسبة لإسرائيل .. ولأن العراق أقوى من سوريا، وقوته تشكل فى المدى القصير خطرًا على إسرائيل أكثر من أى خطر، فهو المرشح المضمون لتحقيق أهداف إسرائيل فى التفتيت، فتفتيت العراق هو أكثر أهمية من تفتيت سوريا.

وشبه الجزيرة العربية بأسرها، مرشح طبيعى للانهيار، وأكثر اقترابًا منه، بفعل ضغط داخلى وخارجى، وهذا أمر غير مستبعد فى معظمه، خصوصًا فى السعودية.

والأردن هدف استراتيجى فى المدى القصير .. فليس هناك أى إمكان، بأن يبقى الأردن قائمًا على صورته وبنيته الحاليتين فى المدى الطويل. وينبغى أن تؤدى سياسة إسرائيل ـ حربًا أو سلمًا ـ إلى تصفية الأردن بنظامه الحالى .."

ثم تخلص هذه "الاستراتيجية" ـ بعد التفصيل لمخطط التفتيت للعالم الإسلامى بواسطة الأقليات ـ إلى أن هذا هو: "ضمان الأمن والسلام فى المنطقة بأسرها فى المدى الطويل .. ففى العصر النووى لا يمكن ضمان بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا التفكيك، ويجب من الآن فصاعدًا بَعْثَرَة السكان، فهذا دافع استراتيجى، وإذا لم يحدث ذلك، فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود[٣١]".

وفى حقبة التسعينيات ـ من القرن العشرين ـ تعود المؤسسات الصهيونية للتأكيد على "ثبات ثوابت هذه الاستراتيجية" .. فيدعو "مركز بارايلان للأبحاث الاستراتيجية" ـ التابع لجامعة بارايلان الإسرائيلية ـ إلى ندوة عقدت فى ٢٠ مايو سنة ١٩٩٢م، وشاركت فيها وزارة الخارجية الإسرائيلية بواسطة "مركز الأبحاث السياسية" التابع لها، وأسهم فيها باحثون من "مركز ديان "التابع لجامعة "تل أبيب" وذلك حول "الموقف الإسرائيلى من الجامعات الإثنية والطائفية فى منطقة الشرق الأوسط" .. وقد ناقشت هذه الندوة أحد عشر بحثًا، دارت جميعها حول "تأييد إسرائيل للنزعات الانفصالية للجماعات العرقية والإثنية والاعتبارات الكامنة وراءه" ـ وهذا هو عنوان أحد أبحاث هذه الندوة !! ـ ..

وقد خلصت أبحاث ومقررات هذه الندوة إلى أن هذه الأقليات .. هى شريكة لإسرائيل فى المصير، ولا بد من أن تقف مع إسرائيل فى مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية، أو تبدى استعدادًا لمحاربتهما أو مقاومتهما، وهى حليف وقوة لإسرائيل لتنفيذ سياسة الاستيطان، والدولة التى مازالت فى مرحلة التكوين[٣٢]"!

ولقد تزامن مع اشتعال الحرب الطائفية فى لبنان ـ فى سبعينيات القرن العشرين ـ غواية عدد من الشباب القبطى المصرى بالاشتراك مع المارونية السياسية فى هذه الحرب!. واجتذبت الأصابع الصهيونية فى أمريكا قطاعًا من

أقباط المهجر - وخاصة فى أمريكا وكندا وأستراليا - لتكوين "الهيئات القبطية" الداعية إلى ما نسميه "تحرير مصر القبطية من استعمار العروبة والإسلام"!! .. حتى أفضت هذه الأنشطة الطائفية، المواكبة لهيمنة العولمة الأمريكية، والمدفوعة والمدعومة من "اللوبى الصهيونى" ومنظمات وكنائس "التحالف المسيحى" و "المسيحية الصهيونية" .. حتى أفضت إلى إصدار "الكونجرس الأمريكى" فى أكتوبر سنة ١٩٩٩م، لقانون الحريات الدينية الدولية "الذى فرض الحماية الأمريكية على الأقليات الدينية - وخاصة فى العالم الإسلامى - وقنن لآليات إيقاع العقوبات الأمريكية على الدول التى لا ترضى عنها أمريكا فى هذا المجال!..

وليس صدفة أن صدور هذا القانون قد جاء ثمرة لحملة إعلامية بدأها محام يهودى - هو "مايكل هورو فيتز" Michael Horowz - فى ٥ يوليو سنة ١٩٩٥م، ثم تلقفت الخيط المؤسسات والكنائس "المسيحية الصهيونية" و"التحالف المسيحى " و"المحافظون الجدد "لتفضى هذه الحملة - الموجهة بالأساس إلى العالم الإسلامى - إلى قانون "الحماية والعقاب" - كما أسماه بحق الكاتب "سمير مرقص[٣٣]".

وليس صدفة كذلك أن تجد هذه المخططات "مراكز أبحاث" ممولة من أمريكا والغرب، تركز على اللعب بورقة الأقليات فى بلادنا .. وتدعو إلى تطبيق ذات المخطط الذى دعا إليه "برنارد لويس" و "بن جوريون" و "موشى شاريت" و "موشى ديان" و "إرييل شارون" و "المنظمة الصهيونية العالمية" .. مخطط تفتيت العالم الإسلامى إلى كيانات سياسية - نعم ! سياسية - على أساس الدين والعرق والمذهب .. أى تحويل التنوع من نعمة ومصدر قوة إلى نقمة وتشرذم وتفتيت .. وتحويل الأقليات من لبنات فى بناء الأمة والأمن الوطنى والقومى والحضارى إلى ثغرات اختراق، وأسباب للانهيار والدمار .. فيكتب رئيس أحد أهم هذه "المراكز البحثية" يقول بالنص : "إن المجتمعات التى تتسم بالتعددية الإثنية فى الوقت الحالى ينبغى أن تكون متعددة من الناحية السياسية أيضًا[٣٤]".

ومع هذه الغواية الأجنبية التى استجابت لها ووقعت فى شباكها جمعيات

وجماعات طائفية تعيش فى المهجر؛ متعاونة مع الصهيونية وقوى الهيمنة الإمبريالية .. وقلة قليلة من غلاة العلمانيين والطائفيين فى الداخل، يستخدم المخطط الغربى - وخاصة الأمريكى - السلاح الاقتصادى فى إذكاء الصراع الطائفى، فبواسطة المعونات الأمريكية الموجهة إلى القطاع الخاص، وتوكيلات الاستيراد والتصدير، والمعونات الموجهة للمشروعات التنموية الصغيرة يتم التمييز الطائفى؛ لإيجاد واقع اجتماعى يمزقه "ثراء الأقلية" و"حرمان الأغلبية"!، لا حُبًّا فى سواد عيون الأقلية، وإنما لتأجيج الصراع الطبقى ذى الطابع الطائفى؛ تكرارًا للتجربة التى سبق وصنعها الاستعمار - وآتت ثمراتها - فى لبنان، وإغناء الأقلية المارونية وإفقار الأكثرية المسلمة وخاصة الشيعة منها، الأمر الذى أحدث - فى لبنان - ويحدث الآن تراجعًا للسماحة والتسامح، و "فرزًا طائفيًا" على نحو غير معهود .. كما يخلق ضيقاً بالآخر "وتضييقًا على بعض حقوقه الطبيعية والمشروعة، كالحال مثلاً فى موقف العامة والجمهور من بناء دور العبادة فى بعض البلاد، بينما النهج الإسلامى يفتح الطريق أمام الحريات فى هذه الميادين، حتى ليحض الدولة على إعانة غير المسلمين فى بنائها.

وإذا كان هذا "التميز الاقتصادى" مما يعترف به العقلاء، حتى ليقول "الأنبا موسى" - أسقف الشباب فى الكنيسة الأرثوذكسية المصرية، وهو من عقلاء وحكماء هذه الكنيسة - :" إن الأقباط جزء هام من نسيج الحياة المصرية .. فهم أطباء وصيادلة ومهندسون، وغيرها من المهن، ونسبتهم فى رجال الأعمال مرتفعة أكثر من نسبتهم العددية فى مصر(٣٥).. "فإن هذه الفوارق الاقتصادية والاجتماعية المستفزة تشير إليها أرقام وإحصاءات رصدتها مصادر علمانية تقول : إن الأقلية النصرانية فى مصر - والتى تقل نسبتها فى السكان عن ٦٪ .. والتى كان يصفها الشيخ محمد الغزالى عليه رحمة الله [١٣٣٥ - ١٤١٦هـ، ١٩١٧ - ١٩٩٦م] بأنها "أسعد أقلية فى العالم" - تملك من ثروة مصر ما بين ٣٥٪ و ٤٠٪ ! فهى تملك وتمثل :

- ٢٢,٥٪ من الشركات التى تأسست ما بين سنة ١٩٧٤م وسنة ١٩٩٥م - سنوات الانفتاح والمعونات الأمريكية !.

- و ٢٠٪ من شركات المقاولات فى مصر.
- و٥٠٪ من المكاتب الاستشارية.
- و ٦٠٪ من الصيدليات.
- و٤٥ ٪ من العيادات الطبية الخاصة.
- و ٣٥٪ من عضوية غرفة التجارة الأمريكية، وغرفة التجارة الألمانية.
- و ٦٠٪ من عضوية غرفة التجارة الفرنسية (منتدى رجال الأعمال المصريين والفرنسيين).
- و ٢٠٪ من رجال الأعمال المصريين.
- و ٢٠٪ من وظائف المديرين بقطاعات النشاط الاقتصادى بمصر.
- و أكثر من ٢٠٪ من المستثمرين بمدينتى السادات والعاشر من رمضان.
- و ١٥,٩٪ من وظائف وزارة المالية المصرية.
- و ٣٥٪ من المهن الممتازة والمتميزة: الصيادلة .. والأطباء .. والمهندسين .. والبيطريين .. والمحامين(٣٦).

وذلك فضلاً عن أن هذه الأقلية نادرًا ما يعانى أحد منها من المشكلات التى تطحن الأغلبية سواء : البطالة .. والأمية .. وأزمات الزواج .. والإسكان .. إلخ.

ومع كل ذلك تصدر القوانين الأمريكية لحماية "أسعد أقلية فى العالم" ! .. ويأتى أعضاء الكونجرس الأمريكى والدبلوماسيون الأمريكيون والغربيون "ليفتشوا" عن أحوالهم، ويرفعوا التقارير التى تتحدث عن "اضطهادهم" !! .. وتطلب توقيع العقوبات على مصر وشعبها، وفق القانون الأمريكى ـ قانون "الحماية والعقاب" ! .. وتصدر "الهيئات القبطية" فى المهجر الكتب والنشرات داعية إلى تحرير هذه الأقلية من العروبة والإسلام ! ..

هذا هو "الفعل الاستعمارى" فى المسألة الطائفية .. وتلك هى "ردود الأفعال"

على هذه التحديات فى تطبيقاتها على الأقلية القبطية فى مصر .. وهى أكبر الأقليات النصرانية العربية عددًا؛ وأهم الأوراق التى يحاول الغرب اللعب بها !.

وإذا كنا نحذر من "الفعل الاستعمارى" و "النزعة الطائفية الانعزالية" التى تعمل على إحياء اللغة القبطية ـ كما أحيت الصهيونية العبرية ـ كى تحل محل اللغة العربية، التى هى اللغة الوطنية والقومية والحضارية للأمة كلها، على اختلاف أديانها ! .. فإننا ندعو إلى أن تتحمل الأغلبية مسئولياتها الكبرى فى مواجهة هذه التحديات، وفى قطع الطريق على مخططاتها .. وذلك عن طريق :

١ – حل المشكلات الحقيقية التى تعانى منها الأقليات، باعتبارها جزءًا من الأمة، وباعتبار مشكلاتها جزءًا من مشكلات الأمة.

٢ – إدارة حوار داخلى بين "الحكماء" لتحديد وتمييز "المظالم" الحقيقية من "الأحاسيس الزائفة أو المتضخمة بالظلم"! فالحكماء فى مختلف الفرقاء كثيرون وهم الممثلون للأغلبية .. وحوارهم هو السبيل لقطع الطريق على القلة العميلة والمعادية، التى صنعها ويغذيها الاستعماريون والصهاينة .. وقطع الطريق على الغلو الدينى عند مختلف الأطراف.

٣ – إعمال المنهاج الإسلامى فى "مداواة الجراح" بدلاً من "توسيع هذه الجراح" .. فمن الخطأ والخطيئة الاكتفاء "بردود الأفعال" وخاصة تلك التى تصدر عن العامة والجماهير .. فالتحصين ضد الغوايات، وإقالة العثرات هو الأولى بالاتباع، وليس تصيد الأخطاء.

وعلينا أن نتذكر ما صنعته الأمة ـ قبل قرنين من الزمان ـ عندما نجحت غواية الحملة الفرنسية على مصر فى اجتذاب "المعلم يعقوب حنا" و "الفيلق القبطى" الذى قاده .. فسقطوا فى حظيرة الخيانة لأمتهم وطائفتهم وكنيستهم .. فلقد صدر العفو ـ بعد هزيمة هذه الحملة سنة ١٨٠١م ـ عن الذين استجابوا لهذه الغواية .. وصدرت "الفرمانات السلطانية" التى أعلنت هذا العفو، والتى تحذر من الانتقام، ومن فتنة لا تعيد بهم الذين ظلموا خاصة .. ولقد تحدث "الجبرتى" عن هذا المنهاج فى مداواة جراح تلك الغواية، فقال : "لقد نودى بأن لا

أحد يتعرض بالأذية لنصرانى ولا يهودى، سواءً كان قبطيًا أو روميًا أو شاميًا، فإنهم من رعايا السلطان، والماضى لا يُعاد .. وكُتبت فرمانات وأرسلت إلى البلاد ـ [فى الأقاليم] ـ مضمونها : الكف عن أذية النصارى واليهود وأهل الذمة، وعدم التعرض لهم، وفى ضمنها ـ [أى الفرمانات] ـ آيات قرآنية وأحاديث نبوية، والاعتذار عنهم بأن الحامل على تداخلهم مع الفرنساوية : صيانة أعراضهم وأموالهم .. كما قرئت فرمانات .. فيها : التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط، والوصية بهم(٣٧)".

فالأقليات جزء أصيل من نسيج الأمة، لهم كل ما للأمة من الحقوق، وعليهم جميع ما عليها من الواجبات .. ومسئولية الأغلبية فى صد الغوايات، ومعالجة جراحاتها أكبر بكثير ـ من مسئولية الأقليات.

هكذا بدأ .. واستمر .. ويتم اللعب بأوراق الأقليات الدينية .. والقومية ـ غير المسلمة وأيضًا المسلمة ـ فى وطن العروبة وعالم الإسلام .. وهكذا يجب الوعى بمخاطر هذه التحديات التى تواجه وحدة الأمة وتقدمها.

٤ – نظرة إلى المستقبل :

وإذ كانت هذه التحديات التى تواجه الأقليات فى واقعنا الراهن .. ويواجه بها المشروع (الاستعمارى ـ الصهيونى) أمتنا، محاولاً استخدام (أوراق) هذه الأقليات لتفتيت الأمة، فما هو الحل الذى نواجه به هذه التحديات؟؟ .. إننا إذا استثنينا (حل) التجزئة والتفتيت للأمة، على أسس دينية ومذهبية وقومية ـ لأنه ليس (حلاً) وإنما هو (المشكلة والتحدى) ـ فإن هناك مشروعين يتم الحديث عنهما لتحقيق التحصين لجسد الأمة ضد هذه التحديات :

أولهما : الحل العلمانى، الذى يبشر به العلمانيون، والذى يتصور أصحابه أن (العلمانية) التى تستبعد المرجعية الإسلامية من السياسة والدولة والقانون والدستور ومشروع النهضة ـ (هى الحل لمشكلة الأقليات) فى بلادنا، كما مثلت ـ برأيهم ـ الحل لهذه المشكلة فى النموذج الحديث والمعاصر للمجتمعات الغربية.

وثانيهما : هو الحل الإسلامى، الذى بدأ به الإسلام التعامل مع (الآخر) كل ألوان (الآخر)، والذى حوّل الإسلام به هذا (الآخر) إلى جزء من (الذات) ذات الدين الإلهى الواحد، فى ظل المرجعية الإسلامية الواحدة .. وهو النموذج والحل الذى تحدثنا عنه فى القسم الثانى من هذه الدراسة .. والذى كان له الفضل فى إنقاذ أهل الديانات الأخرى من الإبادة، حتى لكان وجودها وبقاؤها فى الشرق هو (هبة) هذا الحل الإسلامى .. كما أنه هو الحل الذى عرفته الأمة، واندمج به (الآخرون) مع المسلمين فى أمة واحدة، عبر هذا التاريخ الطويل.

ولما كان قد سبق وانتقدنا ورفضنا وفندنا (الحل العلمانى) فى عدد من كتبنا[٣٨] .. فإننا نكتفى، فى هذا المقام بالإشارة إلى أن العلمانية قد مثلت وتمثل (المأزق) وليس (الحل) لما يسمى (بمشكلات الأقليات)، فالعلمانية وافد غربى، يستبعد المرجعية الإسلامية، التى هى هوية الأمة، والتى تتمسك بها الأغلبية وقطاعات واسعة من الأقليات[٣٩] .. فاستبدال العلمانية بالمرجعية الإسلامية هو ـ فى الحقيقة ـ بمثابة فرض قطاع محدود من الأقلية ـ أى أقلية الأقلية! ـ رأيه على أغلبية الأمة! .. وتحويل هذه الشريحة إلى (فيتو) ضد أغلبية الأمة وهويتها وتاريخها! .. وفى هذا تعميق للشقاق على أسس طائفية، وتحقيق لمقاصد التحديات، وليس حلاً نواجه به هذه التحديات .. فضلاً عن أنه نفى وإلغاء لجوهر الديمقراطية، التى يجتمع حولها ويتمسك بها الجميع، والتى تعطى الوزن المناسب لرأى الأغلبية فى تحديد مقومات المجتمع، طالما إنها لا تنقص من عقائد الأقليات وحقوقها .. وفوق كل ذلك، فإنه يبدو غريبًا الدعوة إلى العلمانية وهى وافد غربى ـ لحل مشكلة الأقليات، بعد أن سقطت وأفلست كل الحلول الغربية الوافدة، التى أضاعت أمتنا قرنين من عمرها وهى تجرب النهوض وفق نماذجها!.

وإذا كان الحديث عن أقليات دينية، فإن المرجعية الإسلامية ـ التى عاشت فى ظلالها هذه الأمة أربعة عشر قرنًا، كانت فى أغلبها (العالم الأول) على ظهر هذه الأرض ليست بديلاً لما تدين به هذه الأقليات، حتى تكون تعديًا على حريتها فى الاعتقاد الدينى، لأن هذه المرجعية الإسلامية تترك هذه الأقليات وما تدين

به، وتقتصر بتطبيقاتها على الجانب المدنى والقانونى والسياسى، الذى ليس له مناظر فى النصرانية، التى تدع ما لقيصر لقيصر، وتقف عند مالله، وخلاص الروح ومملكة السماء، ففقه المعاملات الإسلامى هو اجتهادات بشرية، فى ظل منظومة القيم الإيمانية التى لا تختلف باختلاف الشرائع السماوية المتعددة، والاجتهادات فيه مفتوحة أبوابها لكل أصحاب العطاء القانونى على اختلاف الديانات التى يتدينون بها .. فكما جعل الإسلام شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم ينسخها التطور التاريخى، فتح الباب أيضًا أمام كل أبناء الأمة على اختلاف مللهم ؟؟، للإسهام فى البناء لحضارة الإسلام .. ومن ثم فهو يفتح كل الأبواب أمام عقول الأمة للإسهام فى بلورة المشروع النهضوى المتميز لهذه الأمة ـ الأقليات منها والأغلبيات ـ .. ومن هنا تصبح المرجعية الإسلامية، فيما وراء ما جاءت به النصرانية من عقائد، حلولاً (وطنية .. وقومية .. وحضارية) لكل أبناء الأمة، تجمعهم على هوية حضارية واحدة، ومشروع نهضوى واحد، فيصبح نهوضهم المعاصر المنشود امتدادًا لتاريخهم فى النهوض والازدهار الحضارى، ويصبح فقه (الشافعى) [١٥٠ – ٢٠٤ هـ، ٧٦٧ – ٨٢٠م] فقهًا وطنيًا بالنسبة لكل المصريين، لا يمكن أن يتقدم عليه فقه نابليون، الذى جاء غازيًا وقاهرًا لكل المصريين، وكذلك الحال مع فقه (أبى حنيفة) [٨٠ – ١٥٠هـ، ٩٥٦ – ٧٦٧م] فى العراق .. وفقه الإمام مالك [٩٣ – ١٧٩ هـ ،٧١٢ – ٧٩٥م] فى أقطار المغرب العربى .. إن وطنية النصرانى الشرقى لا يمكن أن تفضل القانون الرومانى، قانون (جستنيان) والذى اضطهد النصرانية الشرقية، على فقه (الليث بن سعد) [٩٤ – ١٧٥ هـ ، ٧١٣ – ٧١٩م] الذى أفتى بأن بناء الكنائس هو من عمارة البلاد، وأكثر من هذا .. فلقد مثلت العلمانية عندما طبقت فى تركيا – بعد إسقاط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م – نكبة على الأقليات الدينية والقومية، ولم تكن حلاً لمشكلاتها بأى حال من الأحوال، ويكفى أن نعلم أن نسبة النصارى فى سكان الخلافة العثمانية سنة ١٥٥٠م قد كانت ٤١,٨٪ .. وإنها ظلت حتى بعد انفصال واستقلال بلاد البلقان تمثل ١٩,١٪ من السكان سنة ١٩١٤م .. فلما جاءت العلمانية أجهزت على هذه الأقلية النصرانية، فلم يبق منها فى ١٩٩١م سوى ٢٪

من السكان! ..[٤٠] وحتى الاضطهاد، وما يقال عن (الإبادة) التى حدثت للأرمن سنة ١٩١٥م فإن مرتكبيها هم العلمانيون من قادة (الاتحاد والترقى) الذين انقلبوا على المرجعية الإسلامية للخلافة العثمانية.

أما حال الأكراد، فى ظل هذه العلمانية التركية التى يريدونها حلاً لمشكلات الأقليات فهو لا يقل سوءًا ـ رغم إسلامهم ـ عن حال النصارى، فهم محرومون من الحديث بلغتهم، فضلاً عن التعليم والكتابة بها!، ومحرومون من أن يسموا أبناءهم وبناتهم بالأسماء التى يريدون!!.

إن الأقليات غير المسلمة ـ وكذلك المسلمة ـ قد عاشت وتعايشت وأملت وازدهرت فى ظل المرجعية الإسلامية، فى ظل شريعة (لهم ما لنا، وعليهم ما علينا) .. ولم تعرف المشكلات إلا فى ظل الاستعمار وغواياته، وفى ظل العلمانية التى جلبها إلينا هذا الاستعمار ـ وصدق (الأنبا موسى) عندما قال عن حال أقباط مصر فى ظل الخلافة العثمانية: (.. حينما تذكر الأقباط أيام الدولة العثمانية، كانوا مع إخوانهم المصريين لهم دور مشترك .. وكثير من الأقباط عملوا وشاركوا بشكل واضح فى الحياة السياسية فى عهد محمد على ..)[٤١].

بل إن هذه العلمانية، ذات النشأة الأوروبية، قد تحولت إلى (مأزق أوروبى)؟؟؟ المسيحية فى أوروبا، وجعل مجتمعاتها فراغًا دينيًا، انصرف فيه أغلبية الناس عن الإيمان الدينى، حتى لتغلق الكنائس وتباع! .. ثم عجزت هذه العلمانية عن أن تملأ هذا الفراغ، وتجيب على أسئلة النفس الإنسانية التى يجيب عنها الدين .. وبشهادة القس الألمانى ـ عالم الاجتماع ـ الدكتور (جوتفرايد كونزلن) فلقد نبعت العلمانية من التنوير الغربى .. وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشرى، يتلاشى باطراد فى مسار التطور الإنسانى .. ومن نتائج العلمانية: فقدان المسيحية لأهميتها فقدانًا كاملاً .. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم .. بل وزوال أهميته أيضًا كقوة موجهة فما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام .. فسلطة

الدولة، وليست الحقيقة، هى التى تصنع القانون .. وهى التى تمنح الحرية الدينية.

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينًا حل محل الدين المسيحى، يفهم الوجود بقوة دنيوية هى العقل والعلم لكن، وبعد تلاشى المسيحية فى أوروبا، سرعان ما عجز ت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان، التى كان الدين يقدم لها الإجابات، فالقناعات العقلية، أصبحت مفتقرة إلى اليقين وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها، بل وتفكر أنساقها ـ العقلية والعلمية ـ عدية ما بعد الحداثة .. فدخلت الثقافة العلمانية فى أزمة، بعد أن أدخلت الدين المسيحى فى أزمة، فالإنهاك الذى أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلمانى الحديث، وتحققت نبوءة (نيتشه) [١٨٤٤ - ١٩٠٠م] عن (إفراز) التطور الثقافى الغربى لأناس يفقدون (نجمهم) الذى فوقهم، ويحيون حياة تافهة، بعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئًا خارج نطاقه.. وبعبارة (ماكس فيبر) [١٨٦٤ - ١٩٢٠م]: (لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم)! ..

لقد أزالت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوروبا، ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلمانى على الإنسان الأوروبى، عندما أصبح معبدها العلمى عتيقًا! .. ففقد الناس (النجم) الذى كانوا به يهتدون[٤٢]!.

هكذا تحدث (قس وعالم اجتماع) عن تحول العلمانية ـ فى بلاد نشأتها ـ إلى مأزق، عندما هزمت الدين الإلهى ثم لحقت الهزيمة (بدينها الطبيعى) ففقد الناس النجم الذى به يهتدون!.

فهل يريد العلمانيون ـ بسبب الأقليات الدينية أن ندخل فى هذا الطريق، (وهذا المأزق) الذى دخل فيه الغربيون؟! .. وألا تفيق النصرانية فى بلادنا، فتعلن رفضها (لكأس السم) الذى تجرعته النصرانية الأوروبية .. وتدرك أن منظومة القيم الإيمانية – التى تتفق فيها كل الأديان ـ لا بد أن تكون لها السيادة فى حياتنا، وأن الشريعة الإسلامية هى والنصرانية والنصارى أوعى من العلمانية والعلمانيين؟! ..

وفى هذا الإطار، علينا أن نَذْكر ونُذَكر بالكلمات العاقلة والحكيمة التى رأت وترى (جوامع الإسلام) فى الشريعة والحضارة - باعتبارها جوامع الأمة، وليست (خصوصية) للمؤمنين - بالإسلام، دون الآخرين .. أن نتذكر كلمات البابا (شنودة الثالث) بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية التى قال فيها : (إن الأقباط فى ظل حكم الشريعة الإسلامية، يكونون أسعد حالاً وأكثر أمناً، ولقد كانوا فى الماضى حينما كان حكم الشريعة هو السائد .. نحن نتوق إلى أن نعيش فى ظل (لهم ما لنا، وعليهم ما علينا) .. مصر تجلب القوانين من الخارج حتى الآن، وتطبقها علينا، ونحن ليس عندنا ما فى الإسلام من قوانين مفصلة، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة، ولا نرضى بقوانين الإسلام؟) ..[٤٣]

ولقد رحب البابا «شنودة» أخيرًا بالحلول الإسلامية التى يقدمها الفقه الإسلامى لمشكلات الأسرة المسيحية - ومنها قانون «الخلع»، وقال - رغم معارضات متعصبة ترفض «الخلع» لا لشىء إلا لمصدره الإسلامى! - : «إن الخلع مبدأ موجود منذ القدم فى الشريعة الإسلامية، ولم يكن عديد من الناس على معرفة به، وبمقتضى مبدأ الخلع من حق المرأة أن تطلب الانفصال عن زوجها لأسباب تبينها للمحكمة، منها استحالة الحياة الزوجية بينهما .. وإذا كان قانون الخلع يسمح للمرأة المسلمة بأن تستفيد من هذا الوضع، فما المانع من أن تستفيد منه المرأة المسيحية؟ فالمعروف فى القانون هو عمومية القانون، فلا نطبقه فى حالة لفائدة البعض، ونرفضه فى حالة أخرى لفائدة البعض الآخر. إذن، الخلع يَسمح للمرأة، مسيحية كانت أو مسلمة، أن تتخلص من الزوج «المتعب»، وبخاصة لو كانت هناك أسباب تجعل استمرار الحياة المشتركة بينهما مستحيلاً[٤٤]..»

فالوحدة الوطنية من مقوماتها - بعد وحدة منظومة القيم، ووحدة المدرسة - وحدة المحكمة، ووحدة القانون، طالما لم يكن هناك نص دينى قطعى وجَلى مخالف للشريعة العامة الشريعة الإسلامية - .. ففيما يتعلق بمثل هذا النص يترك غير المسلمين وما يدينون .. أما فى فقه المعاملات - ومنه أغلب قوانين الأحوال الشخصية .. وكل القوانين المدنية والجنائية والتجارية والدولية - فالفقه

الإسلامى فيها قانون مدنى عام لكل الأمة، على اختلاف عقائدها الدينية .. وأن نتذكر، كذلك، كلمات القائد الوطنى «مكرم عبيد باشا» [١٣٠٧ - ١٣٨٠ هـ ، ١٨٨٩ - ١٩٦١م] التى يقول فيها : «نحن مسلمون وطنًا، ونصارى دينًا .. اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك وللوطن أنصارًا .. واللهم اجعلنا نحن نصارى لك وللوطن مسلمين[٤٥] ..»

ولقد فصل هذه الحقيقة أبو القانون المدنى الحديث، القاضى العادل، الدكتور «عبد الرزاق السنهورى باشا» [١٣١٣ - ١٣٩١ هـ ، ١٨٩٥ - ١٩٧١م] عندما تحدث عن «جامع الإسلام» .. وشريعته .. وفقه المعاملات فيه «باعتبارها مقومات الوحدة للأمة جمعاء»، فقال : «إن الإسلام دين ومدنية .. والمدنية الإسلامية لا تعنى مجتمعًا من المسلمين فقط، وإنما تعنى مجتمعًا ذا طابع فذٍ من المدنية قدمها لنا التاريخ كثمرة للعمل المشترك، ساهمت فيه جميع الطوائف الدينية التى عاشت وعملت معًا جنبًا إلى جنب تحت راية الإسلام، والتى قدمت لنا بذلك تراثًا مشتركًا لجميع سكان الشرق الإسلامى .. إن المدنية الإسلامية هى ميراث حلال للمسلمين والمسيحيين واليهود من المقيمين فى الشرق، فتاريخ الجميع مشترك، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدنية .. والشريعة الإسلامية لا ينبغى الاقتصار على كونها صالحة لتطبيقها على المسلمين وحدهم فى العصر الحاضر، بل على غير المسلمين أيضًا، وذلك دون إرغام غير المسلمين على اتباع خلاف عقائدهم .. ولذلك يجب أن تكون حركة إحياء الشريعة الإسلامية مبنية على أساس لا يتناقض مع هذه المعتقدات .. وأن يشترك فى هذه الحركة الإحيائية، إلى جانب المسلمين غيرهم من الشرقيين غير المسلمين، القانونيين منهم والاجتماعيين .. وأن نطبق قاعدة : إن الشريعة الإسلامية تكملها الشرائع الأخرى ما لم تتناقض معها هذه الشرائع[٤٦]..»

فالعلمانية ليست الحل .. بل إنها هى «المأزق» الذى يشكو منه عقلاء الأوروبيين والغربيين الذين شربوا كأسها المسموم .. وحرام أن يظل العلمانيون فى بلادنا مثل أهل الكهف .. يبشرون «بالحداثة الغربية» بعد أن تجاوزها أصحابها إلى عدمية وتفكيك «ما بعد الحداثة»!! .. ويدعون إلى العلمانية، بعد

أن أفلست فى المجتمعات التى نشأت فيها، وشهد العالم ويشهد صحوات دينية حتى عند أهل الديانات الوضعية، ورأينا ونرى «اللغة الدينية» و «المقاصد الدينية» تسود حتى فى ميادين السياسة بالبلاد التى ظننا أنها علمانية حتى النخاع!.

إذن، يجب أن نتوجه جميعًا إلى الشرق، وأن نحذر ونتخلص من غوايات الغرب .. وأن نخلص الولاء والانتماء لمقومات حضارتنا الواحدة الجامعة، الحضارة الإسلامية، التى ورثت واستوعبت وأحيت كل المواريث الحضارية التى سبقت ظهور الإسلام، والتى شاركت فى بنائها كل شعوب الشرق، على اختلاف عقائدها الدينية .. فالتغريب، والغوايات الغربية، والاختراق الغربى لأمن أمتنا القومى والحضارى ـ هى المخاطر المحدقة بوحدتنا الوطنية والقومية والحضارية.

ولنتذكر كلمات شهيد الحرية عبد الرحمن الكواكبى [١٢٧٠ – ١٣٢٠ هـ، ١٨٥٤ – ١٩٠٢م] ـ قبل قرن من الزمان ـ : «يا قوم، أليس مطلق العربى أخف استحقارًا لأخيه من الغربى؟! .. هذا الغربى قد أصبح ماديًا لا دين له غير الكسب، فما تظاهره مع بعضنا بالإخاء الدينى إلا مخادعة وكذبًا، فالذين يطاردون الدين ـ [بالعلمانية] ـ فى بلادهم، لا تكون دعواهم الدين فى الشرق إلا كما يغرد الصياد وراء الشباك[٤٧]! ..»

فنحن جميعًا شرقيون، حضارة ومدنية وقيمًا .. وبعبارة «السنهورى باشا» : «.. فالشرق بالإسلام، والإسلام بالشرق، وإنهما لشىء واحد .. وأمتنا ذات مدنية أصيلة هى أكثر تهذيبًا من المدنية الأوروبية .. وليست هى الأمة الطفيلية التى ترقع لمدنيتها ثوبًا من فضلات الأقمشة التى يلقيها الخياطون[٤٨]».

وإذا كان أسلافنا قد علمونا : «أن صلاح آخر هذه الأمة لن يكون إلا بما صلح به أولها» .. فإن المنهاج الإسلامى الذى جعل «الآخر» جزءًا من «الذات» ـ ذات الأمة .. والرعية .. والدولة .. والقومية .. والحضارة ـ بل والدين الإلهى الواحد، مع الاختلاف فى الشرائع، هو أصلح المناهج لبناء الوحدة الوطنية والقومية والحضارية لشعوب الأمة الإسلامية، هذه الوحدة التى نواجه بها مختلف الغوايات وجميع التحديات ..

وعلينا أن نتذكر ـ كمنطلق لنا فى هذا المقام ـ كلمات رسول الإسلام، ورحمة الله للعالمين، وخاتم النبيين والمرسلين، والمصدق لما جاءوا به أجمعين، ومحرر الشرق والشرقيين، وبانى نهضة هذه الأمة، عندما أعطى العهد والميثاق لغير المسلمين، أن يكونوا **«مع المسلمين أمة واحدة، بينهم النصر، والنصح، والنصيحة والأسوة، والبر دون الإثم .. لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم .. حتى يكونوا شركاء فيما لهم وفيما عليهم .. وأن أَحرُس دينهم وملتهم بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى ..»**

ذلك هو دستور العدل والإنصاف لوحدة الأمة، مع كل الحقوق والحريات فى التنوع الدينى، فى ظل الولاء والانتماء لحضارتنا المشتركة والواحدة .. حضارة الإسلام.

وإذا جاز لنا فى ختام هذه الدراسة أن نرشح «لجماعة الحكماء» التى يجب أن تأتلف، لتدير الحوار الموضوعى حول مشكلات الأقليات، والتحديات التى تواجه الأمة بسبب استغلال الغرب الاستعمارى لهذه المشكلات .. إذا جاز لنا أن نرشح «النقاط الساخنة»، التى يجب أن تتصدر «جدول أعمال» هذا الحوار، فإننا نرشح :

أولاً : ضرورة استبعاد الأوهام التى تروجها قطاعات أقباط المهجر، تلك التى سقطت فى شباك الغواية الصهيونية ـ الغربية، والتى تزعم أن العروبة والإسلام طارئين على الشرق، ويجب تحرير النصرانية الشرقية منهما!! .. فليست هناك ـ ولا يعقل أن تكون ـ امتيازات للأقدمية الدينية».. فدين الله واحد، والتعددية والتوالى إنما هما فى الشرائع والنبوات والرسالات، التى هى معالم على طريق الوصول إلى الله .. فالمسلمون الفرس هم إيرانيون زرادشتيون أسلموا، وليسوا طارئين ولا وافدين على إيران .. وكذلك المسلمون المصريون، هم مصريون ـ أى أقباط ـ أسلموا، وليسوا مهاجرين من شبه الجزيرة العربية إلى مصر .. وعلى الذين يزعمون أن المسلمين فى المشرق والمغرب هم مهاجرون طارئون على البلاد

التى فتحها المسلمون ـ أن يتعلموا ويعلموا حقائق «الديموجرافيا» التى كتبها ونشرها العلماء غير المسلمين، والتى تقول :

إن كل سكان شبه الجزيرة العربية فى عهد الخلافة الراشدة ـ أى عصر الفتوحات ـ كان عددهم ١,٠٠٠,٠٠٠ نسمة فقط .. بينما كان عدد سكان مصر والشام والعراق وفارس وحدهم ـ أى باستثناء المغرب ـ ٢٩,٠٠٠,٠٠٠ نسمة[٤٩] فحتى لو هاجر كل سكان شبه الجزيرة العربية ـ وهذا لم يحدث ـ إلى البلاد التى فتحها المسلمون لما كان لذلك أى أثر (ديموجرافى) على التركيبة السكانية الأصلية لتلك البلاد.

وإذا كانت قد تمت هجرات عربية مسلمة محدودة العدد إلى تلك البلاد، فلقد تمت إليها هجرات أرمينية ويونانية وقبرصية مسيحية أيضًا.

وعلى الذين يقولون إن الإسلام (وافد) على النصرانية فى تلك البلاد، أن يتذكروا أن النصرانية (وافدة) على تلك البلاد أيضًا .. بل هى وافدة حتى على الفاتيكان! .. كما أن اليهودية (وافدة) على كل البلاد التى دخلتها بما فى ذلك فلسطين .. وإذا كانت (الأقدمية الدينية) ميزة وامتيازًا! فربما كان الفوز بهذا الامتياز هو للذين يعبدون (العجل أبيس)!!.

فعلينا أن نبدأ حوار الحكماء بتبديد هذه الأوهام.

وثانيًا : إن المساواة فى حقوق المواطنة ـ السياسية والاجتماعية والاقتصادية ـ هى حق إلهى بحكم خلق الله – سبحانه وتعالى – للإنسان ـ من الأقليات أو من الأغلبيات كان هذا الإنسان ـ فهذه المساواة ليست مجرد حق من حقوق الإنسان، تمنح أو تمنع تبعًا لدرجة التسامح فى المجتمع والدولة، وإنما هى «حق إلهى» بحكم الخلق والتكريم الإلهى لمطلق الإنسان.

وإذا كان الحق فى بناء دور العبادة، وفى إقامة الشرائع الدينية فيها، هو مما كفله الإسلام، بل وأوصى الدولة الإسلامية بأن تعين وتساعد عليه غير المسلمين .. قرر الإسلام ذلك، وطبقه قبل أى حديث عن حقوق الإنسان، ولما كانت هذه

القضية قد اكتسبت الكثير من الحساسية؛ لكثرة ما قيل فيها وعنها، ولما اختلط فى أوراقها من حق ومن أكاذيب .. فإن الاقتراح الذى نقدمه ـ للحوار حوله ـ بصددها، هو الذى سبق واقترحه شيخنا محمد الغزالى ـ رحمه الله ـ فى الندوة التى دعت إليها نقابة المهندسين بمصر منذ سنوات، والتى حضرها معنا البابا شنودة الثالث، وفيها اقترح الشيخ الغزالى أن يعطى كل أهل دين مساحة من الأرض لبناء دور عبادتهم عليها مساوية لنسبتهم العددية إلى السكان .. فهذا هو المعيار العادل، الذى يخرج هذه القضية الحساسة والحيوية من غلو الغلاة، وكل الغلاة .. غلو الذين يضيقون ببناء الكنائس .. وغلو الذين يريدون لبناء الكنائس أن يكون مظهرًا من مظاهر «الاستقواء» والتغيير لهوية المجتمع، لحساب الهوية المستوردة التى لا علاقة لها بهويتنا المشتركة.

وثالثًا : إذا كان من غير المتصور أن تفرض الأقلية الدينية على الأغلبية منهاجها ومذهبها فى «الدولة» كأن يسعى المسلمون، فى فرنسا مثلاً، بملايينهم الخمسة، إلى فرض الدولة الإسلامية وشريعتها على الأغلبية العلمانية للشعب الفرنسى، أو أن يمثلوا (فيتو) على التوجه العلمانى للأغلبية ـ فكذلك الحال مع مائتى مليون مسلم فى الهند؛ لأن «هوية الدولة» – بالمنطق الديمقراطى ـ هى خيار الأغلبية .. فإن هذه «الدولة» تكون علمانية مع الأغلبية العلمانية، وإسلامية مع الأغلبية الإسلامية مطالبة بأن تجور هويتها ـ علمانية كانت أو إسلامية ـ على الحق الإلهى والمقدس للأقليات فى حرية الاعتقاد الدينى، وإقامة شعائر وفرائض الدين.

فالأقليات الإسلامية. فى البلاد العلمانية، مطالبة باحترام القانون الوضعى، بشرط أن يراعى هذا القانون حريتها فى الاعتقاد الإسلامى وإقامة الفرائض الإسلامية، ومراعاة الحلال والحرام الدينى فى أحوالها الشخصية وحياتها الأسرية، وعدم التجريح لمقدساتها.

والأقليات غير المسلمة فى المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة مطالبة باحترام

قوانين وفقه الشريعة الإسلامية، خصوصًا وأن هذه القوانين مرجعيتها منظومة القيم الإيمانية المشتركة، والجانب المدنى والقانونى الإسلامى، الذى لا بديل له ولا نقيض فى النصرانية، وإنما هو بديل ونقيض للقانون الغربى العلمانى، الذى جاءنا فى ركاب الغزاة والمستعمرين .. فالقانون الإسلامى هو (قانون وطنى .. وقومى) بالنسبة لغير المسلمين، مع ضرورة مراعاة ألا يتعارض بند من بنود هذا القانون مع نص دينى جاء به الدين لغير المسلمين.

وإذا كانت أوراق الأقليات قد تحولت - على يد الهيمنة الغربية - من (نعمة التنوع فى إطار الوحدة) إلى (نقمة تشرذم وتفتيت) فإن العقلاء والحكماء، من مختلف الفرقاء يجب عليهم إنقاذ الأديان من هذا الاستغلال الاستعمارى .. وإنقاذ الأقليات من هذا الذى تصنعه الغواية والخيانة بأقلية قليلة، أرادت وتريد تعميم جريمتها على الأغلبيات الساحقة من أبناء الأقليات.

إن التعصب رذيلة، بصرف النظر عن دين المتعصبين .. أما السقوط فى شباك الغواية الاستعمارية فهو الخيانة للوطن وللدين معًا، ولنتذكر مرة أخرى الخيار الصهيونى للأقليات كما جاء فى مقررات (ندوة التسعينات) والذى قالوا فيه : (إن هذه الأقليات هى شريكة لإسرائيل فى المصير، وفى الوقوف ضد الإسلام والقومية العربية) .

أعاذ الله أمتنا من شرور الغواية .. وحرسها من تحديات الخيانة .. ووفقنا جميعًا - أقليات وأغلبيات - إلى ما يرسخ وحدة أمتنا، ويعيد لها أسباب النهوض؛ لتأخذ مكانها ومكانتها الجديرة بدورها التاريخى، الذى تعلمت منه الكثير من الأمم والحضارات ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش

(١) انظر كتبنا : [الإسلام والتعددية : التنوع والاختلاف فى إطار الوحدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م. و[الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة؟ أم تفتيت واختراق] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨م و [فى المسألة القبطية: حقائق وأوهام] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.

(٢) جوردن مارشال [موسوعة علم الاجتماع] المجلد الأول ـ مادة (إثنية (سلالة)) ترجمة : أحمد عبد الله زايد، محمد محيى الدين، محمود عبد الرشيد، عدلى السمرى، محمد عبد الحميد، محمد على إبراهيم، هناء الجوهرى. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٣) د. سعد الدين إبراهيم [الملل والنحل والأعراق] ص ٥٢٩ - ٥٣٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.

(٤) يوحنا النقيوس [تاريخ مصر ليوحنا النقيوس] ص ١٢٢، ١٢٥ - ١٣٠. ترجمة ودراسة وتعليق د. عمر صابر عبدالجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م، صبرى أبو الخير سليم «تاريخ مصر فى العصر البيزنطى» ص ٤٠، ٤١، ٤٩، ١٢٦، ١٦٧، ١٦٨. طبعة القاهرة ٢٠٠٠.

(٥) د. محمد حميد الله الحيدر آبادى ـ جمع وتحقيق ـ [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٧ - ٢١ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

(٦) المصدر السابق ص ٢٠.

(٧) محمد عبده [الأعمال الكاملة] ج ٣ ص ٣١٢ ـ دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٨) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١١٢، ١٢٣ - ١٢٧.

(٩) البلاذرى [فتوح البلدان] ص ٣٢٧. تحقيق : د. صلاح الدين المنجد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

(١٠) هم أتباع (مانى) ، ولقد اعتبروه خاتم الأنبياء، ويسمون (الثنوية) أيضًا.

(١١) سير توماس أرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ١٠٣، ١٠٥. ترجمة : د. حسن إبراهيم حسن، د. عبدالمجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

(١٢) فيليب فارج، يوسف كرباج [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص ٤٦، ٤٧ -٥٢ ترجمة : بشير السباعى. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م. ولقد كان انتشار الإسلام خارج مصر أبطأ .. ولو أخذنا مصر وسوريا وفارس معًا، فسنجد أن انتشار الإسلام فيها بعد قرن من الفتح لم يتجاوز ١٠٪ من السكان.

(١٣) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٧٢٩، ٧٣٠.

(١٤) المرجع السابق. ص ٨٩، ٩٠، ٩٨، ٩٩، ٤٥٥.

(١٥) آدم متز [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] ج ١ ص ١٠٥. ترجمة : محمد عبدالهادى أبو ريدة. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

(١٦) أبو القاسم ابن منجب ـ الشهير بابن الصيرفى ـ [الإشارة إلى من نال الوزارة] تحقيق : عبدالله مخلص. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٤م.

(١٧) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٧٢٩، ٧٣٠.

(١٨) جورج قرم [تعدد الأديان ونظم الحكم : دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة] ص ٢١١ - ٢٢٤. طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م. والنص فى [الملل والنحل والأعراق] ص ٧٢٩، ٧٣٠.

(١٩) المقريزى [كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك] ج ١ ق٢ ص ٤٢٥، ٤٣٢. تحقيق : د. محمد مصطفى زيادة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

(٢٠) الجبرتى [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] ج ٥ ص ١٣٦. تحقيق : حسن محمد جوهر، عمر الدسوقى، السيد إبراهيم سالم. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

(٢١) رفيق البستانى، فيليب فارج [أطلس معلومات العالم العربى] ص ٢٨ - ٣٣، ١٢٢ - ١٤١. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م. و : د. فيليب فارج، يوسف كرباج [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص ١١٥، ١١٨، ١١٩، ٢١٦، ٢٤٩، ٢٨٤.

(٢٢) [موسوعة العالم الإسلامى] ج ٣ ص ٥٨١ - ٨٧٨ إعداد منظمة المؤتمر الإسلامى ـ طبعة الكويت ـ [وإحصاءات هذه الموسوعة تحتاج إلى تجديد وتدقيق].

(٢٣) [أطلس معلومات العالم العربى] ص ٢٨ - ٣٣، و [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص ١١٥، ١١٩، ١٦٤، ٢١٦.

(٢٤) محمد حسنين هيكل [المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل : الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية] - الكتاب الأول - ص ٣١، ٣٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦م.

(٢٥) جريس هالسل [النبوءة والسياسة] ترجمة : محمد السماك. طبعة ليبيا سنة ١٩٩٠م. و [يد الله] : ترجمة محمد السماك. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٢٦) د. محمد عمارة [إسرائيل : هل هى سامية؟] ص ١٢٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

(٢٧) د. محمد عمارة [هل الإسلام هو الحل .. لماذا، وكيف؟] ص ٢٢ - من مراسلات القناصل - محفوظات أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية - لسنوات ١٨٤٠ - ١٨٤٢ - ١٨٤٨ - ١٨٩٧ - ١٨٩٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

(٢٨) محمد السماك [الأقليات بين العروبة والإسلام] ص ١٣١، ١٣٢، ١٤٣. طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.

(٢٩) المرجع السابق،ص ١٤٢، ١٤٣.

(٣٠) المرجع السابق، ص ١٣٢-١٤٣.

(٣١) المرجع السابق، ص ١٤٠، ١٤٤.

(٣٢) [ندوة الموقف الإسرائيلى من الجماعات الإثنية والطائفية فى العالم العربى] ص ٦ - ١٠، ٢٧ ترجمة : الدار العربية للدراسات والنشر. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

(٣٣) سمير مرقص [الحماية والعقاب : الغرب والمسألة الدينية فى الشرق الأوسط] ص ٨١ - ١٥٦. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٣٤) د. سعد الدين إبراهيم [التعددية الإثنية فى الوطن العربى] ص ٢٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

(٣٥) [الملل والنحل والأعراق] ص ٥٢٩ - ٥٣٤.

(٣٦) مجموعة تقارير «روز اليوسف» و «اتحاد المهن الطبية» و «اتحاد المقاولين» و «مجلة المختار الإسلامى» عدد ١٥ ربيع الأول - يوليو سنة ١٩٩٢م - و : د . جمال بدوى [الفتنة الطائفية] ص ١١٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م - وهو ينقل عن : د. سميرة بحر [الأقباط فى الحياة السياسية المصرية].

(٣٧) [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] ج ٥ ص ٢٩٢، ٢٩٩، ٣٠٤.

(٣٨) انظر - على سبيل المثال - كتبنا (الإسلام والسياسة: الرد على شبهات العلمانيين) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م. و(نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م. و(هل الإسلام هو الحل؟) و(الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية) طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٢م.

(٣٩) فى استفتاء أجراه «المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية» فى مصر، كانت أغلبية الأقباط مع تطبيق الشريعة الإسلامية على كل الأمة، أقباطًا ومسلمين - انظر (الأهرام) فى ٦ - ٣ - ١٩٨٥م.

(٤٠) (المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى) ص ٢١٦.

(٤١) (الملل والنحل والأعراق) ص ٥٢٩ - ٥٣٤.

(٤٢) جو تفرايد كونزلن (مأزق المسيحية والعلمانية فى أوروبا) ص ٢٨، ٣١، ٣٢، ٣٦. تقديم: د محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

(٤٣) (الأهرام) فى ٦-٣-١٩٨٥م.

(٤٤) (الأهرام) فى ٢٦ - ٣ - ٢٠٠٢م.

(٤٥) د. محمد عمارة (الإسلام والسياسة: الرد على شبهات العلمانيين) ص ١٥٠.

(٤٦) د. عبدالرزاق السنهورى (الأوراق الشخصية) فى تاريخ: ١١ - ١١ -١٩٢٢م و١٧ - ١٠ - ١٩٢٣م و١٨ -١٠ - ١٩٢٣م. و ٢٤ - ٢ - ١٩٢٤م. إعداد: د. نادية السنهورى، د. توفيق الشاوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.

(٤٧) عبدالرحمن الكواكبى (الأعمال الكاملة) ص ٢٠٨. دراسة وتحقيق: د محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م.

(٤٨) جريدة (السياسة) فى ١٤ - ١٠ - ١٩٣٢م. و(الأوراق الشخصية) فى تاريخ ١١ - ١١ - ١٩٢٢م. و٢٨ - ٨ - ١٩٢٣م.

(٤٩) (المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى) ص ٢٥، ٤٤ - وانظر - فى دعاوى أن العروبة والإسلام استعمار استيطانى لمصر، والدعوة إلى تحرير مصر منهما: د. سليم نجيب - وهو رئيس الهيئة القبطية بكندا - (الأقباط عبر التاريخ) ص١٨٤ ، ١٨٥ - وفيه يتحدث عن برنامج «جماعة الأمة القبطية» - وكيف أن هدف هذه الجماعة هو « استرداد مصر كلها، أرضنا التى سلبت منا بواسطة العرب المسلمين منذ أربعة عشر قرناً . إن أرضنا هى مصر، ونحن سلالة الفراعنة، وديانتنا هى المسيحية، وسيكون دستورنا هو الإنجيل، وتكون لغتنا هى اللغة القبطية» - طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.

الأقليات الإسلامية في الدول غير الإسلامية

الأستاذ الدكتور/ حلمى محمد نصر

أستاذ الدراسات العربية بجامعة ساو باولو

البرازيل

تمهيد:

إن الأقليات الإسلامية فى الدول غير المسلمة منبثة فى كثير من دول العالم الذى يدين بالمسيحية، ومن الواضح لكل دارس أن نشاط أفراد هذه الأقليات يمتد إلى كل نواحى الحياة فى المجتمع الذى يعيشون فيه، نجدهم بين طلبة المدارس والجامعات، وبين العمال وأصحاب الحرف، وبين المهنيين من أطباء ومهندسين وأساتذة، بل بين رجال الحكم وأقطاب السياسة، وفى مجال الزراعة والتجارة وصفوف الملاك، ومن هنا يمكن القول بأن هذه الأقليّات يمكن أن تقوم بدور فعّال فى التعريف بالإسلام والدفاع عنه، وخاصة فى مثل الظروف التى نعيشها اليوم بعد حوادث «سبتمبر»، حيث اشتد الهجوم على الإسلام، وألصق به الحاقدون كل ما هو منه براء من عنف وعدوان وإرهاب.

غير أن هذه الأقليّات ـ كلها أو أكثرها ـ فى أشدّ الحاجة إلى رعاية وعناية، حتى تقوم بهذا الدور البنّاء للذود عن الإسلام. إذ أنه بدون هذه الرعاية سوف تذوب الأقليّات فى مجتمعات الأكثرية، وتتلاشى فى خضمِّها الجارف.

ولا ننسى أنه إذا كانت الأجيال الأولى من تلك الأقليّات ظلت فترة من الزمن متمسكة بتقاليدها، محافظة على عقيدتها، فإن الأجيال الجديدة التى نشأت فى أجواء تلك المجتمعات توشك أن تكون غريبة بالنسبة لتعاليم الدين الحنيف.

لهذا نعود فنقول: إن من واجب العالم الإسلامى كله أن يحاول رتق الفتق قبل أن يتسع الخرق على الراقع، وأن يوجّه من الجهد ما يضمن الحفاظ على بقاء تلك الأقليّات فى ساحة الإسلام. على المسلمين جميعًا أن يتضافروا لإنقاذ الأجيال الجديدة من براثن الإلحاد، وعوامل الضياع.

سنحاول فى بحثنا هذا إعطاء فكرة عن إحدى هذه الأقليات، ونعنى الأقلية المسلمة فى «البرازيل» حيث شاءت إرادة الله أن نعيش بين أحضانها عشرات السنين، تَمكنًا فيها من مراقبة أحوالها، وإدراك كفاحها، والإحساس باحتياجاتها، بل والاشتراك فى نشاطها، وها نحن نقدّم دراستنا عن هذه الأقلية، تلك الدراسة التى يمكن أن تنطبق على أقليّات أخرى، تتشابه ظروف معيشتها مع معيشة أقليّة البرازيل.

سنقسّم الموضوع إلى ثلاثة أقسام:

(أ) نتكلم فى الأول منها عن تاريخ الأقلية المسلمة فى البرازيل.

(ب) وفى الثانى سنعطى صورة مفصّلة عن الوضع الحالى لهذه الأقلية، موضحين النواحى الإيجابية والسلبية فى صراعها للمحافظة على كيانها الدينى.

(جـ) وفى القسم الثالث سنقدّم مشروع خطّة للوسائل اللازمة لتحقيق الهدف المنشود، وهو حماية المبادئ الإسلامية، ثم إمكان استغلال هذه الأقليّات لتكون منابر دفاع، ومراكز دعاية للإسلام والمسلمين.

١ - الجانب التاريخى:

إن الأقليّة المسلمة التى جاءت إلى البرازيل بحثًا عن فرص جديدة لتحقيق حياة أفضل، تركت الوطن الأصلى بسبب ظروف غير ملائمة من ناحية المعيشة

والعمل، كان معظم الجيل الأول من المهاجرين يتمثل فى أشخاص يملؤهم الطموح، وإن كان أكثرهم لم يندرج فى سلك التعليم. وقد وصلوا إلى البرازيل فى أواخر القرن التاسع عشر، ومن العسير تحديد الوقت الذى وصل فيه أول مهاجر مسلم إلى هذه البلاد، وكانت غالبيتهم من سوريا ولبنانٍ أيام الحكم العثمانى، وقد ظل عددهم يزداد يومًا بعد يوم حتى أوائل القرن العشرين، ثم انضم إليهم فى السنوات الأخيرة عدد لا بأس به من أبناء فلسطين ومصر وبلاد إسلامية أخرى، والجميع اليوم يمثل الطائفة الإسلامية فى البرازيل.

ومن المناسب أن نعرف أن أراضى البرازيل التى تعيش عليها هذه الأقلية المسلمة، أراضٍ شاسعة تبلغ مساحتها أكثر من ثمانية ملايين ونصف من الكيلو مترات المربعة، أى أن مساحتها تبلغ مساحة أربعة أضعاف مساحة شبه الجزيرة العربية كلها. كما أن سكان البرازيل يبلغ تعدادهم الآن مائة وسبعين مليونًا، ودين البرازيل هو الدين المسيحى، وإن كان سكانها تتمثل فيهم الديانات المتعددة والمذاهب المختلفة.

جاء المسلمون إلى البرازيل وبدءوا يواجهون صعاب المحافظة على التقاليد الموروثة: فبُعد المسافات بين المدن التى تفرقوا فيها، والعمل الدائب المرهق لكسب العيش، وعدم توفّر البيئة الإسلامية فى الوطن الجديد، كل ذلك كان من العوامل المسئولة عن نقص العناية بتنشئة أولادهم نشأة دينية عقيدة وسلوكًا. ومن ناحية أخرى أخذت البيئة الجديدة تؤثّر بعض الشىء على أولاد المسلمين وتصوغهم فى قالبها الاجتماعى. ومن هنا بدأت الخطوة الأولى فى البعد عن التربية الإسلامية.

يتبين من ذلك أن الجيل الأول من المسلمين كان له من ناحية الدين والعقيدة أسس أقوى وأمتن مما كان للأجيال التى أتت بعد ذلك. ولم يقتصر هذا الفرق على الدين فحسب وإنما امتد إلى اللغة العربية كذلك، فبينما كان الأوائل يستخدمون اللغة العربية فى لغة الحديث فيما بينهم، أصبحت الأجيال التالية لهم والتى نشأت فى الأرض الجديدة يتحدثون فيما بينهم باللغة البرتغالية، وأحيانًا كان الأب يتكلم إلى ابنه بالعربية فيرد عليه الابن باللغة البرتغالية، بمعنى

أنه كان يفهم العربية ولا يستطيع التحدث بها، وأخيرًا انتهى الأمر إلى جيل لا يتكلم العربية ولا يفهمها.

هذا التباعد المتدرج شيئًا فشيئًا بين الآباء والأبناء، أدى إلى خلق فروق فى التفكير والسلوك وأحياناً أدت هذه الفروق إلى حدوث صراع بين القديم والحديث. ولا شك أن هذا ناتج من تأثير المجتمع الكبير على المجتمع الصغير، فالأقلية غالبًا تخضع طوعًا أو كرهًا للظواهر الاجتماعية فى مجتمع الأكثرية.

وقد مارس المغتربون كل أنواع العمل لكسب العيش، ومع ذلك فالنشاط الأساسى لهؤلاء المهاجرين تركز تقريبًا فى التجارة، وخاصة فى صورة البائع المتجول الذى كان يطلق عليه «ماسكاتى»، كانوا يسيحون فى الأرض، يحملون بضائعهم على ظهورهم، ويقطعون الأميال أحيانًا سائرين على الأقدام. ومع مرور الزمن تحسنت أحوالهم، وبدءوا يستقرون فى أماكن ثابتة فى كل ولايات البرازيل لممارسة أعمالهم. وقد سكن عدد كبير منهم ولاية ساو باولو، بعضهم فى الضواحى والبعض الآخر فى العاصمة.

ومن الملاحظ أن الجيل الثانى توصل إلى إحداث تغييرات كبيرة فى أسلوب الحياة التجارية. فبينما كان الجيل الأول ينتقل من مكان إلى آخر لتسويق بضاعته، جاء الجيل الثانى ليمارس التجارة عن طريق المحلات والمستودعات، بل إن بعضهم أنشأ مصانع الغزل والنسيج واشتغل باستغلال الأراضى وبيع الغلال، وبذلك ازدهرت حياتهم وبدءوا يعيشون عيشة تضمن لهم التنعم بحياة رغيدة.

أما الجيل الثالث، وقد انخرط معظمه فى سلك التعليم، فقد انتهى إلى تخريج طبقة من المتعلمين الجامعيين، اندرج بعضهم فى وظائف حكومية، وكوّن البعض الآخر الطلائع الأولى من أصحاب المهن الحرّة، من مهندسين ومحامين وأطباء ومعلمين.

ولا يفوتنا أن نقول: إن ولاية ساو باولو اليوم، وعلى الأخص مدينة ساو باولو، تمثل أكبر تجمّع للمسلمين. ولا نعلم عددهم بالدقة لعدم وجود إحصاء لهم إلى الآن، ولكن يمكن أن يقدر عددهم على وجه التخمين بما يقارب المليون. وهم

يعملون الآن فى كل المجالات ويعاونون معاونة صادقة فى ازدهار البلد الذى يعيشون على أرضه والذى استقبلهم بكل ترحاب.

نعود إلى الكلام على الجيل الأول والثانى فنقول: إن التغيّر الذى حدث بين الجيلين والذى أدّى إلى خلق عقليّتين مختلفتين، ثم إلى صراع بين القديم والحديث، هذا التغيير جعل الآباء يساورهم القلق من ناحية مستقبل أولادهم الثقافى، ويدركون أن السلوك الجديد سببه نقص التوجيه الدينى والتربية الإسلامية. ولتصحيح الأوضاع رأوا من اللازم إقامة مساجد لتكون منطلق الدعوة الدينية، وتكوين جمعيات إسلامية للعناية بشئون الطائفة، وبناء مدارس لتعليم الدين واللغة العربية. كانت هذه الأفكار هى الخطوة الأولى فى محاولة الحفاظ على ثقافة تلك الأقلية. وقد لاقت هذه البادرة ترحيبًا من سكان ولاية ساو باولو ثم انتقل صداها إلى ولايات أخرى فيها تجمعات للمسلمين وخاصة ولاية «باراناه» ومع ذلك بقيت للأسف بعض التجمعات الإسلامية، وخاصة فى شمال البرازيل، بعيدة عن تحقيق هذه الأفكار.

لم يدّخر الجيلان الأول والثانى وسعًا فى صيانة عقيدتهم، فبدءوا فى تنفيذ ما عزموا عليه وهو إقامة أول مسجد فى البرازيل؛ ليكون مركز الإشعاع الدينى للطائفة، وفعلاً بدأ بناء المسجد فى ساو باولو بعد كفاح مرير وتعاون مشكور. لقد بدأ بناء المسجد فى الثلاثينات من القرن الماضى: اشتُريت أرضه فى سنة ١٩٣٥، ووضع حجر أساسه فى سنة ١٩٤٨، وأُكمل بناؤه حوالى سنة ١٩٦٠. وقد كانت هناك مصاعب جمة فى جمع تكاليف البناء من هنا وهناك. وعندما تم بناء المسجد ومنّ الله على الطائفة بحضور شخصية دينية فذّة من القاهرة، ظهر كيان الأقلية المسلمة واتسع نشاطها، فأخذوا فى بناء مدرسة إسلامية، ثم حصلت الجمعية الخيرية الإسلامية على أرض من الحكومة لتكوين مقبرة للمسلمين، ثم انتقل هذا النشاط إلى ولايات أخرى من البرازيل، فتعددت المساجد وكثرت الجمعيات الإسلامية، وبُنيت مساجد فى كوريتيبا وبارانجواه وكوياباه ولندرينا. وفى السنوات الأخيرة بُنيت مساجد فى برازيليا وسان ميغيل وجونديائى وبرّيتوس وغوروليرس وسنتوس وريو دى جانيرو وسان برناردو دو كامبو.

هذا من ناحية المساجد، أما من ناحية المدارس ففى أوائل الستينات من القرن الماضى بُنيت أول مدرسة إسلامية فى«فيلا كارّون» حيث كان هناك جمع كبير من الأُسر المسلمة. وقد بدأت المدرسة بنجاح نسبى كبير ولكن لم تستطع مدرسة واحدة أن تسد احتياجات كثير من أبناء المسلمين. ثم أُقيمت مدرسة فى كوريتيبا وفصول عدّة فى أماكن أخرى؛ لتعليم اللغة والدين على أن النتيجة دائمًا كانت أقل مما يُرجى.

ولا ننسى فى هذا الصدد ما قامت به بعض البلاد الإسلامية ـ وخاصة مصر والمملكة العربية السعودية ـ من مساعدة للمسلمين فى البرازيل، تتمثّل فى إرسال مشايخ ودعاة وكتب ومساعدات مالية ضخمة، ومنح دراسية لأولاد المسلمين.

أما الجمعيات الإسلامية فقد تكوّن منها الكثير، بل إنه قد يوجد فى بعض المدن أكثر من جمعية.

٢ ـ تحليل الوضع الحالى:

التعليم: حالة التعليم الدينى واللغة العربية لا تبعث على التفاؤل وليس هذا عن تقصير من ناحية الطائفة، ولكن الظروف كلها غير ملائمة لتحقيق الهدف، فباستثناء المدرسة الأولى فى «فيلا كارّون» لا توجد مدارس بالمعنى الكامل لتعليم الدين واللغة العربية، وإنما هى فصول محدودة تقوم بهذا العمل فى إمكانيات ضيقة، ثم إن هذه الفصول ليس الالتحاق بها سهلاً على كل أبناء المسلمين بسبب البعد الشاسع وبسبب المواصلات الصعبة وخاصة على الأطفال. ومن هنا اقتصرت هذه الفصول على أولاد المسلمين الذين يسكنون قريبًا منها. وتكون النتيجة على العموم غير مرضية، فلو فرضنا أن فى ساو باولو عدة آلاف من الأطفال وأحصينا من يتردد منهم على فصول اللغة العربية والدين لوجدناهم لا يجاوزون بضع مئات.

فإذا أضفنا لذلك النقص فى عدد المدرسين المتخصصين، وعدم وجود الطرق الحديثة لتعليم اللغات من وسائل سمعية وبصرية، وعدم وجود الكتاب المشوّق

للأطفال أدركنا مقدار الصعوبات التى تواجه الجالية الإسلامية فى تعليم الأولاد، وأدركنا مدى الضياع الذى تتعرض له الأجيال الجديدة من ناحية الدين واللغة.

الزواج: زواج الأبناء والبنات أصبح الآن مشكلة عويصة بالنسبة للأسرة المسلمة، فالآباء - حسب التقاليد الموروثة - يحبون أن يزوجوا أبناءهم من أُسر مسلمة. وقد ظل الجيل الأول محافظًا على هذه الناحية فكانوا يذهبون إلى الوطن الأم للبحث عن زوجة مسلمة للابن أو زوج مسلم للبنت، أما الآن فقد تغيّر الوضع وأصبح الجيل الجديد الناشئ فى أرض البرازيل أقرب إلى العقلية البرازيلية منه إلى العقلية المسلمة، بمعنى أن الشاب يريد أن يختار زوجته، لا أنّ أبويه يقومان له بهذا العمل، وكثيرًا ما يختار زوجته من فتيات الوطن الجديد. والمشكلة الكبرى هنا هى عندما تتزوج الفتاة المسلمة من شاب غير مسلم.

وسائل الإعلام: للأسف لا يوجد للطائفة الإسلامية إلى الآن أى نوع من الإعلام، ليس لنا جريدة تنقل أخبار الطائفة وتوثق الصلات بين أفرادها المنبثين فى طول البلاد وعرضها، وبذلك، فلا يعلم المسلم ما يحدث بين أبناء دينه من ميلاد أو زواج أو موت أو قدوم أو سفر، كما لا يعلم المسلم ماذا يجرى فى بلاده إلا ما يقرؤه من أخبار عن وكالات الأنباء وكثيراً ما تصل محرفة.

ليس لنا مجلة تنشر المقالات عن الإسلام وعظمته، وترد على الافتراءات التى ينشرها المغرضون، وترفع صوت المسلمين بين طبقات الشعب البرازيلى، فأكثر البرازيليين لا يعلم شيئًا عن الإسلام إلا ما يصله من مصادر مضللة وما يسمعه من أخبار مشوهة.

ليس لنا إذاعة مسموعة ترشد الأم فى بيتها والفتاة فى خدرها والأب فى متجره، إن الجميع فى حاجة إلى هداية وإرشاد، والراديو اليوم من أنجع الوسائل فى توصيل المعلومات.

ليس لنا إذاعة مرئية توضح العبادات وتشرح العقيدة وتوصل إلى الأطفال ما عجزوا عن فهمه عن طريق القراءة، وتعرض على الشباب والشابات بالصورة الحية والطريقة المنتقاة هدى القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم.

٣ ـ خطة عملية لحماية الأقلية:

نعتقد اعتقادًا جازمًا بأن الوسائل الآتية يمكن أن تؤدّى إلى حماية المبادئ السامية الأساسية للأقلية المسلمة دون أن يُؤَثِّر ذلك فى انسجامها مع مجتمع الأكثرية.

أ – ضرورة القيام بإحصاء شامل:

حيث أنه لا توجد دراسات منهجية وإحصائية عن الأقلية المسلمة فى أمريكا الجنوبية على العموم وفى البرازيل على الخصوص ـ وهذا مما يزيد صعوبة النظرة الشاملة للموضوع ـ فلا بد من القيام بإحصاء كامل لأفراد التجمعات الإسلامية المنبثين فى كل أنحاء البرازيل؛ حتى يمكن دراسة كيانهم، وإعداد منهج لمعاونتهم وتقويتهم فى الوسط الذى يعيشون فيه. وهذه هى أول خطوة ضرورية بدونها لا ينتج أى عمل جدّى. ومن خلال الإحصاء يمكن أن نعرف أمكنة تجمعاتهم على وجه الدقة ومقدار كثافتهم ويمكن بهذا أن نقرّب البعيد ونوجّه المعزول، كما يمكن أن نعرف بين المتعلمين العناصر التى يمكن أن ينتفع بها مهنيًا فى الوطن.

ب – بناء مدارس حسب توزيع السكان:

مع معرفة الشكل الكامل لهذه الأقلية (من هى، وأين يسكن أفرادها، وماذا يعملون، وما هى متطلباتهم، ونسبة توزيعهم فى الأماكن التى يسكنونها) يمكن أن تُخصص لهم أماكن للتعليم لتزويدهم بما يحتاجون من التكوين الثقافى والدينى؛ بهذا لا يمكن أن توجد فئة مهملة مهما صغرت من محيط الأقلية. ولا بدّ أن يُعدّ برنامج إجبارى للتعليم والإرشاد منفذ عن طريق مسئولين متخصصين.

جـ – الدّعاة:

لابدّ أن تُقام فى البلاد الإسلامية معاهد خاصة لتخريج الدّعاة للبلاد الأجنبية، ولابدّ لهم من إتقان لغة البلاد التى يُرسلون إليها؛ ليتمكنوا من الحديث المباشر مع أبناء الطائفة التى يُبعثون إليها. كما ينبغى أن يلموا بدراسات الأديان

المقارنة حتى يمكنهم - عن عمق - دحض الآراء الباطلة التى تظهر من وقت لآخر ضد الإسلام ومبادئه.

وطلبة هذه المعاهد يمكن أن يختاروا من بين شبان الأقلية المسلمة، ومع معرفتهم الكاملة بلغة وطنهم الثانى يمكن أن يتفرغوا للدراسات الدينية ويعودوا إلى طائفتهم للقيام بمهمة الدعوة الإسلامية.

د- وسائل الإعلام:

يلزم أن تستخدم وسائل الإعلام لنشر الثقافة والدين. فمن المهم جدًا أن يتخصص مكان فى وسائل الإعلام الموجودة، أو حتى تنشأ قنوات فضائية خاصة؛ لنشر تقاليد الشعوب الإسلامية والإلمام بمراسم أعيادها وحفلاتها، ويمكن كذلك أن تنشأ برامج تربوية للتسلية؛ لاجتذاب انتباه المجموعات الإسلامية إلى أهمية ثقافتها. أفلام خاصة عن كيفية الوضوء والصلاة وعن الحج يمكن بالطرق الحديثة أن تضمن للجميع بسهولة التعرّف على قواعد الدين، التى قد يصعب الإلمام بها عن طريق قراءة الكتب، وخاصة بالنسبة لمن ليس عندهم وقت للقراءة. كما ينبغى أن يكون للأقلية المسلمة صحف تنقل أخبارها، وتحقّق وحدتها، وتترجم عواطفها وشعورها الدينى، ومجلات ونشرات؛ لتفصيل أحكام الدين، وتوضيح مبادئ الإسلام، والردّ على الأعداء الذين يتربصون بالإسلام الدوائر، ويشوهون جماله، ويحرفون منهاجه.

ولا بد أن يكون بجانب التعليم الأساسى توجيه دينى لكل أفراد الطائفة عقيدة وسلوكًا، ولا شك أن هذا التوجيه الدينى سيربط بين أفراد الطائفة، ويقوّى وحدتهم، ويجعلهم يحتلون فى المجموعة الكبيرة مكانًا أكثر امتيازًا وأرفع درجة.

هـ - الكتب والمكتبات:

من الضرورى أن نضمن للأجيال التى فقدت الاتصال بالعالم الإسلامى الكتب التى تحوى مبادئ الإسلام من عقائد وعبادات ومعاملات، وأن تنشأ مكتبات مزودة بكل ما يحتاج إليه أفراد الطائفة من كتب دينية متخصّصة، وأن يلحق

بهذه المكتبات قاعات لإلقاء المحاضرات وعقد الندوات لا للرجال فقط ولكن للسيدات اللواتى يعشن فى عزلة عن تعاليم الدين، وللشبان الذين انقطعت صلتهم بثقافة إسلامهم. ولا ننسى أن هذه الوسائل ستعود بالنفع ـ عن طريق غير مباشر ـ على الشعب البرازيلى الذى سيعرف بصورة حقيقية الحضارة الإسلامية ومكانة الأقلية التى يتعايش معها.

و- الترجمات الإسلامية:

مجالات الترجمة محدودة جداً، وفى حاجة ماسّة إلى العناية، ففى السنوات الأخيرة ترجمت بعض الكتب المتعلقة بأركان الإسلام من صلاة وصيام وحج، قام بها مركز الدعوة الإسلامية فى ساو باولو. أما الكتب التى تتكلّم عن الإسلام وعصوره الزاهرة فلم يُترجم منها شىء، مع أن الوسط البرازيلى وخاصة الوسط الجامعى فى أشدّ حاجة لمعرفة تاريخ الإسلام وحضارته، ولو عرفنا أن فى البرازيل ما يقرب من مائة وثلاث وخمسين جامعة، وأن هذه الجامعات كلها ـ باستثناء جامعة ساو بولو ـ ليس فيها دراسات عربية ولا إسلامية، أمكننا أن نتصور ضخامة الآلاف المؤلفة من الجامعيين البرازيليين الذين ليس عندهم فرصة للتعرّف على الثقافة الإسلامية.

وهنا ينبغى ألا ننسى موضوعًا فى غاية الأهمية، وهو ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة البرتغالية.

لقد تبيّن أنه يوجد فى البرازيل والبرتغال مع مستعمراتها القديمة ثمان تراجم لمعانى القرآن الكريم، قام بها مترجمون معظمهم أجانب، ومن كان منهم عربيًا كان ينقصه الإلمام بالثقافة الإسلامية، وبفحص هذه التراجم لاحظنا أن فيها كثيرًا من التحريف والحذف وعدم الدقة فى فهم النص، ونظرًا إلى أنه ليس هناك رقابة علمية، فإن هذه التراجم هى التى توجد فى متناول أبناء المسلمين وغير المسلمين.

وعلاوة على التحريف وعدم الدقة يوجد فى بعض هذه الترجمات شىء من الدس والتشكيك، ويكفى أن نعطى فكرة موجزة عن بعض هذه المغالطات:

١ ـ أحد المترجمين ـ وهو من موزمبيق ـ عند ترجمة الآية رقم ٨٢ من سورة المائدة **﴿لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾** يترجمها هكذا: لتجدن أشدّ الناس نزاهة للذين آمنوا اليهود إلخ..

٢ ـ مترجم آخر من البرتغال يدس سمومه فى التعليق على بعض السور، فعند الكلام على سورة «آل عمران» يقول: «إن أسلوبها ردىء» وعند الكلام على سوة «المائدة» يقول: «إن هذه السورة تنقصها الوحدة الأساسية».

والأدهى من ذلك كله أنه يشكك فى المعلومات القرآنية، فمثلاً عندما يتكلم عن النبى «هود» يقول: «إن هذا النبى لم يأت ذكره فى التوارة، وعلى ذلك فوجوده غير مؤكد»، ثم يقول فى التعليق على الآية رقم ٦٥ فى سورة الأعراف **﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً﴾**: يقول ما نصه: «والواقع أن قوم «عاد» تكرر ذكرهم فى القرآن، وأنهم كانوا موجودين بعد قوم «نوح»، وعندما جاء الإسلام قال عنهم: إنهم أهلكوا لعدم تصديقهم بنبوة «هود». والمرجح أن قوم «عاد» مشكوك فى وجودهم، ولا يعرف فى أى مكان سكنوا، وإن كان بعض المؤرخين يقولون: إنهم سكنوا الجنوب».

ثم يدس سمومه فيقول: «وأشد تعقيداً من هذا هو وجود النبى «هود» حيث إن اسمه يأتى فى القرآن ويراد به اليهود بصيغة الجمع، كما فى الآية رقم ١١١ من سورة البقرة **﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾** وكذلك فى الآية رقم ١٣٥ **﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾**. وفى الآية رقم ١٤٠ **﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى﴾**.

و ـ توثيق الاتصال بالعالم الإسلامى:

حتى نضمن حماية الجيل الجديد من الذوبان، لابد أن نوثق الصلة بينه وبين العالم الإسلامى، ويكون ذلك بزيادة البعثات العلمية للتلاميذ للدراسة فى المدارس والجامعات الإسلامية. هذا بالنسبة لمن هم فى مرحلة التعليم، أما بالنسبة للكبار فلا بأس من تكوين زيارات دورية منتظمة إلى البلاد الإسلامية،

ويا حبذا لو عقدت الحكومات الإسلامية اتفاقات ثقافية مع البرازيل تنص على إنشاء كراس للدراسات الإسلامية فى الجامعات البرازيلية. وغالب ظننا أن البرازيل سوف ترحب بهذه الفكرة، وتؤيد هذه المبادرة.

خاتمـــة:

هذه صورة موجزة للأقلية المسلمة فى البرازيل. ومن الجائز أن تتكرر هذه الصورة بشكل أو بآخر، فى أقليات إسلامية أخرى.

ونعود فنقول: إن واجب العالم الإسلامى أن يوجه العناية إلى هذه الأقليات، فيدرس مشاكلها التى تتلاحق، واحتياجاتها التى تتجدد، ويمد لها يد العون؛ حتى يمكن أن تتخذ منها ركيزة إسلامية، ترفع علم الإسلام فى سماء المجتمعات غير المسلمة، وتنبه أفراد هذه المجتمعات إلى أن الإسلام امتداد لأديان إبراهيم وموسى وعيسى، وأنه يقوم على العدالة والإنصاف، ويحرر الناس من العبودية والذل، ويعلن المساواة بين البشر أجمعين، وأنه أولاً وقبل كل شىء يعنى السلام، والسلام نقيض الحرب، ونقيض العدوان، ونقيض الإرهاب.

الأقليات الإسلامية فى الدول غير الإسلامية

الأستاذ الدكتور/ محيى الدين عبد الحليم

أستاذ الصحافة والإعلام بجامعة الأزهر

مصر

مقدمة :

تواجه الأقليات المسلمة فى العالم مشكلات سياسية واقتصادية وثقافية متعددة تحاول القضاء على هويتها، وتسعى إلى تمزيق وحدتها، وإن كان ثمة جهود مخلصة للاهتمام بهذه الأقليات من خلال المؤتمرات واللقاءات، إلا أنها لا تزال جهوداً متواضعة لا ترقى إلى مستوى التحدى الذى تحتاجه الأمة فى صراعها الحضاري، وذلك على الرغم من أن هذه الأقليات تقف على ثغر من ثغور الإسلام فى مواجهة الهجمات الشرسة التى تستهدف الإساءة إلى هذا الدين وأهله.

وهذا يعنى أننا فى حاجة إلى خطة جادة يتم فيها جمع شتات هذه الأقليات، ودعمها وترسيخ وجودها، وإذابة الخلافات المذهبية والعرقية والسياسية بينها من خلال استراتيجية واحدة بدلاً من التشتت والتشرذم؛ لتتحول هذه الأقليات إلى جماعات قوية وضاغطة تستطيع التأثير على صانع القرار فى دول العالم بصفة عامة، والعالم الغربى بصفة خاصة.

وقد زادت التحديات التى تواجه الأقليات المسلمة فى الآونة الأخيرة بعد سقوط الشيوعية وبروز الإسلام كعقيدة بديلة تواجه الأيديولوجيات الأخرى، مما أدى إلى ملاحقة المسلمين ومحاربتهم فى أرزاقهم، وعدم اعتراف العديد من دول العالم بحقوقهم، وفرض القيود على تمثيلهم فى المجالس النيابية والشعبية، إضافة إلى ما تقوم به وسائل الإعلام الأجنبية من التركيز على الجوانب السلبية التى تسخر من دينهم، وتقلل من شأنهم مستهدفة من وراء ذلك تشويه صورتهم، وحتى هؤلاء الذين حققوا إنجازات علمية أو اقتصادية أو ثقافية بارزة قد انكبوا على أنفسهم وألهتهم أعمالهم، كما استغرقتهم الأوضاع الجديدة التى فرضت نفسها عليهم.

وفى واقع الأمر إن المسلمين الذين يعيشون فى دول المهجر، والذين تشدهم العقيدة والوطن، يجاهدون وحدهم للحفاظ على صورتهم دون عون أو مساعدة، فعالمهم الإسلامى لا يكاد يهتم بقضاياهم، والمنظمات الإسلامية لا تحفل بهم أو تعيرهم أهمية تليق بمكانتهم، وكأنهم عناصر غير مرغوب فيها، وكثيراً ما تشير أصابع الاتهام إلى أنهم إرهابيون تارة، أو مارقون تارة أخرى؛ مما أدى إلى إضعاف هذه الأقليات، وتوجيه الضربات القاتلة لهم، وتقاعس الدول والمنظمات الإسلامية عن دعمهم، وهذا هو ما تحفل به هذه الدراسة التى تتضمن:

١ - مفهوم الأقلية المسلمة والتوزيع البشرى والجغرافى لها.

٢ - الأقليات المسلمة والجماعات الضاغطة فى الخارج.

٣ - الأقليات المسلمة وصورة المسلمين فى الثقافة الغربية.

٤ - المشكلات التى تواجه النشاط الدعوى فى العالم.

٥ - الخاتمة والتوصيات.

مفهوم الأقلية المسلمة والتوزيع البشرى والجغرافى لها:

يشير مفهوم الأقلية المسلمة إلى جماعة معينة تشترك فى عدد من المقومات الثقافية أو الطبيعية أو المصالح المشتركة، وينشأ لدى أفرادها وعى بتميزهم فى مواجهة الآخرين، ويقصد بالأقليات المسلمة كل تجمع بشرى يعتنق الإسلام، ويعيش فى غير ديار الإسلام كأقلية عددية، تقل عن ٥٠٪ من مجموع سكان الدولة التى لا يعتنق غالبيتها الدين الإسلامي، والأقلية المسلمة تعيش كجماعة محكومة بأنظمة وقوانين غير إسلامية.

وعلى الرغم من أنه لا يكاد يوجد إحصاء دقيق لأعداد الأقليات الإسلامية فى العالم إلا أن الدراسات التى أجريت فى هذا الصدد تشير إلى أن أعدادهم فى قارات العالم تبلغ ٣٩٢,٨٠٩ مليون وذلك بنسبة ٦,١٪ من سكان العالم، وتعد الأقلية المسلمة فى آسيا أكبر تجمع إسلامى قاري، وأقلها فى الأمريكتين لا سيما أمريكا الوسطى التى تبلغ نسبة الأقليات المسلمة فيها إلى ٠,٢٪ ويقدر عدد الأقليات المسلمة فى الأمريكتين ٧,٧٨٤,٤٤٠ مليون نسمة موزعة على إحدى وثلاثين دولة بنسبة ١,٢٪ من إجمالى السكان (١).

وتتوزع الأقليات على قارات العالم الخمس على النحو التالي:

أولا _ أفريقيا: يقدر عدد الأقليات المسلمة فى اثنتين وثلاثين دولة أفريقية بـ ٨٧,٤٣٦ مليون، موزعة على ٣٢ دولة أفريقية بنسبة ٣٠,٣ ٪ من إجمالى عدد السكان، إضافة إلى بعض الجزر التى تتناثر وسط المحيطين الهندى والهادى قبالة اليابس الأفريقي، من أبرزها جزر سيشيل، وكناري، والرأس الأخضر، وماديرا، وسانت هيلانة، وساوتمي(٢).

ثانياً - آسيا: يبلغ عدد الأقليات المسلمة فى القارة الأسيوية ٢٩٧,٨٨٥ مليون موزعة على ٢١ دولة، بنسبة ١٠,٣ ٪ من عدد السكان (٣).

ثالثاً - أوروبا والأمريكتين: تشير حقائق التاريخ إلى أن الدعوة الإسلامية قد عرفت طريقها إلى أوروبا فى وقت مبكر من عام ٧١١م، وأصبحت الأندلس قاعدة انطلقت منها تلك الدعوة إلى عمق هذه القارة، ثم تحول البحر المتوسط

إلى معبر ينتقل من خلاله الإسلام إلى دول العالم الغربي، ثم دخل المسلمون البلقان عام ١٣٥٥م، وانتشرت دعوته فى جميع أراضى أوروبا الشرقية حتى وصل إلى أسوار فيينا عام ١٦٢٠م، واستمر فى أوروبا قروناً طويلة تاركاً آثاراً ثقافية وحضارية وديمجرافية خالدة، وقد خاض المسلمون معارك شرسة للدفاع عن الدعوة الإسلامية، على الرغم من موقف الكنيسة الصارم والعنيد لمقاومة الوجود الإسلامى فى الغرب الأوروبي، وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية شهدت الدول الأوروبية تدفقاً كبيراً للمسلمين نظراً لحاجتها الشديدة إليهم فى بناء ما دمرته الحرب، وتتشابه الظروف التى تعيش فيها الأقليات المسلمة سواءً فى الدول الغربية أو فى الولايات المتحدة إلى حد كبير، ويبلغ عدد المسلمين فى القارة الأوروبية ١٨,٧٠٤ مليون موزعة على ٢٧ دولة بنسبة ٣,٥٨ ٪ من إجمالى عدد السكان، ويمثل مسلمو أوروبا ١,٥ ٪ من مسلمى العالم، ونحو٦,٣٪ من الأقليات المسلمة فى القارات الست (٤).

الأقليات المسلمة والجماعات الضاغطة فى الخارج:

تؤكد حقائق التاريخ أن الإسلام قد أحدث آثاراً حضارية وبصمات ثقافية بارزة، على جميع أنحاء العالم بصفة عامة وفى أوروبا بصفة خاصة، وخاض المسلمون معارك شرسة للدفاع عن الدعوة الإسلامية وتثبيت أقدامها فى مواجهة هؤلاء الذين حاولوا محاصرتها والنيل منها، ورغم صعوبة التحدى وجسامة الصراع، إلا أن القرون الطويلة من الجهاد والدعوة أسفرت عن دخول دول بأسرها فى الدين الإسلامى مثل مقدونيا وألبانيا والبوسنة والهرسك والجبل الأسود، كما أسفرت عن وجود جاليات إسلامية قوية فى بعض الدول كبلغاريا ورومانيا وغيرها.

ولم تنته علاقة الإسلام بخروجه منها، بل ظل المسلمون يشكلون جسوراً للدعوة الإسلامية هناك، وعرفت أوروبا الغربية الإسلام أثناء الحروب الصليبية وما تلاها من صراعات انتهت بسقوط العديد من الدول الإسلامية تحت السيطرة الاستعمارية، ثم استقدمت هذه الدول العديد من الأيدى العاملة للقيام ببعض المهن والأعمال المتواضعة، ونتج عن ذلك تزايد أعداد المسلمين

واستقرارهم فى البلاد التى وجدوا فيها فرصاً ميسرة للعيش، وعلى أثر ذلك تشكلت العديد من التجمعات الإسلامية فى هذه الدول.

وشهد العصر الحديث هجرة العديد من المسلمين إلى الدول الغربية مع بداية الحرب العالمية الأولى حيث هاجرت أعداد ضخمة من مسلمى الجزائر صوب فرنسا، وعند نشوب الحرب نقلت فرنسا ما يزيد على ٢٧٠,٠٠٠ جزائرى ما بين جنود فى جيش الاحتلال أو عمال فى المصانع أو مزارعين فى الأراضي، وقامت وزارة الحرب الفرنسية بالإشراف على هجرة هؤلاء الجزائريين وتوزيعهم داخلياً(٥).

وشهدت الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية تدفقاً كبيراً للمسلمين إلى دول أوروبا الغربية حين كانت هذه الدول فى أمس الحاجة للأيدى العاملة الرخيصة لإعادة بناء ما دمرته الحرب، ففتحت أبوابها لاستقبال العمالة الحرفية من دول العالم الثالث، واستقر المقام بالكثير منهم فى هذه الدول، كما أن الازدهار الاقتصادى الذى شهدته أوروبا منذ الخمسينات أوجد عوامل جذب قوية للعمالة المسلمة لا سيما من بلدان المغرب العربي، ومعظمهم من العمال غير المهرة وأنصاف المهرة، فقد تجاوز عدد المهاجرين المغاربة إلى فرنسا عام ١٩٨٢م مليون ونصف المليون منهم (٨٠٥,٣٥٥) من الجزائر، (٤٩٢,٦٦٩) من المغرب (مراكش)، (٢١٢,٩٠٩) من تونس وشكَّل هؤلاء نسبة ٤٢٪ من المجموع الكلى للمهاجرين المقيمين فى فرنسا (٦)

لذلك نجد أن الغالبية العظمى من مسلمى فرنسا هم من أبناء المغرب العربى والدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية، وفى بريطانيا نجد السواد الأعظم من المسلمين من أبناء شبه القارة الهندية إلى جانب الدول الأفريقية وجزر الهند الغربية التى وقعت تحت السيطرة البريطانية، كما يشكل الأندونيسيون أكبر الجاليات الإسلامية فى هولندا والتى سبق لها أن استعمرت أندونيسيا (٧).

وخلال العشرين عاماً الماضية حدثت تغيرات جذرية فى نوع الهجرة الدولية وكثافة تدفقها وسياسات الدول والحكومات تجاهها، وأصبح يغلب على المظهر

الجديد للهجرة ارتفاع نسبة المهاجرين المتخصصين مقابل انخفاض هجرة العمال غير المهرة نظراً لأن دول المهجر أصبحت تقنن عمليات الهجرة طبقاً لمصالحها القومية (٨).

وإذا أردنا التعرف على تركيبة الأقليات الإسلامية فى الدول الغربية نجد أنها تتكون من الفئات التالية:

١ - أبناء الدول الأوروبية الأصليون الذين دخلوا فى الإسلام منذ قرون طويلة، وحافظوا على إسلامهم رغم كل ما واجهوه من تحديات ومحاولات لمحو هويتهم.

٢ - المهاجرون من العمال المسلمين الذين سافروا إلى أوروبا بغرض العمل واستقر بهم المقام هناك.

٣ - الطلاب الذين ابتعثوا لاستكمال دراساتهم العليا فى أوروبا ولكنهم آثروا البقاء والإقامة هناك؛ لأسباب عديدة من أهمها الحصول على فرص عمل جيدة فى البلدان المضيفة، أو بسبب زواجهم من أجنبيات.

٤ - العمال والمتخصصون وأساتذة الجامعات الذين اجتذبتهم الدول الأوروبية للعمل أو لإكمال دراستهم العلمية، فخلال عقد السبعينات تراوح عدد أصحاب الكفاءات العلمية العرب الذين اجتذبتهم فرنسا - وحدها - بين ٢٥ - ٣٠ ألفاً (٩). واستقبلت ألمانيا الغربية ٢٢٠٠ طبيباً من دول الشرق الأوسط فى عام ١٩٧١ فقط (١٠).

٥ - الشباب المسلم الذين دخلوا أوروبا تحت غطاء السياحة والزيارة مع نية الإقامة، ومعظمهم يقيم اليوم بطرق غير قانونية مما يعرضهم لمطاردة الشرطة الأوروبية.

٦ - اللاجئون السياسيون الذين فروا من بلادهم لأسباب سياسية نتيجة تقييد حرياتهم ومطاردة أنظمة الحكم لهم، فاختاروا البقاء فى بعض الدول الأوروبية التى أتاحت لهم حق اللجوء السياسى (١١).

الأقليات المسلمة وصورة المسلمين فى الثقافة الغربية:

فى الحقيقة أن الأقليات المسلمة فى العالم محاصرة بكم هائل من قنوات الفكر ووسائل الاتصال التى كثيراً ما تقدم لها ما يتنافى مع أصول هذا الدين ومثله العليا، مثل القنوات الفضائية والشبكات الإذاعية والصحافة العالمية التى توزع على نطاق دولى، إضافة إلى ما تبثه شبكة الإنترنت من معلومات غريبة عن الإسلام والمسلمين مما يسهم فى تشكيل صورة سلبية عن هذا الدين فى الثقافة الشعبية الغربية بصفة عامة، والثقافة الأمريكية بصفة خاصة.

وقد أدى ذلك إلى ترسيخ كراهية العرب والمسلمين فى النفسية الأمريكية بحيث أصبح من المعتاد إدانتهم جميعاً على أية جرائم أو عمليات إرهابية تحدث فى أى منطقة من العالم، فما أن تحدث حادثة حتى تتجه أصابع الاتهام إلى المسلمين والعرب على اعتبار أن الإسلام يشجع الإرهابيين والمتطرفين على ارتكاب الجرائم، وفى الحقيقة أن صورة الإسلام فى الوجدان الغربى ليست وليدة اليوم وليست جديدة، ولكنها متجذرة منذ الحروب الصليبية.

وقد ظهرت دراسات إسلامية من جانب علماء الغرب مبنية على معلومات خاطئة ومضللة فيها العديد من الافتراءات على الإسلام والمسلمين، فقد اتهمهم البعض بأنهم عبدة الأوثان، واتهمهم البعض الآخر بأنهم يعبدون القمر، فإذا أضفنا دراسات بعض المستشرقين الذين ينظرون إلى الإسلام على أنه حركة إصلاح اجتماعى اتخذت طابعاً دينياً.

ويكفى أن ننوه بنتائج الدراسة التى أجراها الأستاذ جاك شاهين عام ١٩٩٧م على ثلاثة آلاف مبعوث من الأمريكيين وهى الدراسة التى كشفت عن أن ٤٢٪ من هؤلاء المبعوثين يرون أن المسلمين أتباع دين يؤازر الإرهاب، وأن ٤٧٪ منهم يرى أن المسلمين معادون للغرب، وأن كل مسلم فى العالم هو صورة طبق الأصل من آية الله الخومينى أو صدام حسين، وأن كثيراً من الأمريكيين يعتقدون أن كل المسلمين عرب، وأن الإيرانيين عرب، إلى غير ذلك من النتائج الكثيرة والمفاهيم الخاطئة التى أسفرت عنها هذه الدراسة.

وللأسف فإن هناك خلطاً للأوراق يسهم فى ترسيخ الصورة السلبية للإسلام والمسلمين، فهم عندما يتحدثون عن الإنسان المسلم يقرنونه بالشخص الذى يركب حصانه وبيده سيفه، والعربى الذى يحمل كيساً من الدولارات يعيش به هنا وهناك، حتى أصبح العربى والمسلم موضوعاً للنكات وكلمات السخرية فى الصحف الغربية (١٢).

وتعمل وسائل الإعلام الغربية على إبراز الجوانب السلبية التى تسخر من الإسلام، وتقلل من شأنه، وتشوه صورته أمام الرأى العام العالمى مما يسهم فى إيجاد بيئة عدائية ضد الأقليات والجاليات المسلمة المقيمة فى دول العالم (١٣).

ولا تزال منابر الفكر وقنوات الاتصال الدولية بصفة عامة وفى الولايات المتحدة بصفة خاصة تشن حرباً ثقافية ضد العرب والمسلمين، ابتداءً من الكتب الدراسية والسينما والمسرح، ومروراً بالشخوصات الكاريكاتورية المروعة التى تتهم المسلمين جميعاً بأنهم إرهابيون أو شيوخ نفط، وأن بلادهم هى بمثابة صحراء قاحلة وخربة، ووصولاً إلى الكتب التافهة التى كتبها صحفيون مغرضون، وهى الكتب التى أشاعت نماذج إسلامية غريبة تصف المسلمين جميعاً بأنهم قتلة وسفاحين.

هذا فى الوقت الذى تتجاهل فيه الصحافة الغربية الإيجابيات الموجودة فى العالم الإسلامي، وتشير الدراسات الإحصائية إلى أن أخبار العالم الإسلامى لاتكاد تذكر فى الصحافة الأمريكية على الرغم من كثرة الصحف، وكثرة الصفحات، وتشير الدراسات العلمية التى أجريت فى هذا الصدد أنه لم ينشر فى هذه الصحف إلا بعض الأحداث التى تتعلق بالإرهاب والتعصب المذهبى والتطرف الديني، وأحداث العنف وعدم الاستقرار السياسى والأمني، وانتهاكات حقوق الإنسان، وتدهور الأحوال الاقتصادية فى العالم الإسلامي، كما أفادت الدراسة أن صورة الإسلام لدى الشباب الأمريكى تعكس ملامح البداوة والتخلف والقسوة، ولا تكشف الملامح الحديثة للمجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية.

وإذا كان المواطن فى العالم الغربى يحوز أعلى المعدلات فى امتلاك أجهزة

الاستقبال الإذاعية والتليفزيونية فى العالم، كما أن نصيبه من عدد الصحف والكتب والمواد المطبوعة يعد أعلى نسبة يحظى بها أمثاله فى بقية مناطق العالم، فإن هذه الوفرة الإعلامية فى ظل هذا الموقف المعادى للإسلام تسهم بفاعلية فى الإساءة لهذا الدين مما يزيد من حالة التغريب التى يعيشها المواطن المسلم فى المجتمعات الغربية، لا سيما أن القوى المضادة للعمل الإسلامى هناك تملك من الإمكانيات المادية والقدرات النفسية والكوادر البشرية ما يمكنها من التأثير الفاعل على الرأى العام العالمي، ومن أبرز هذه القوى المنظمات الصهيونية، والأنشطة التنصيرية، إضافة إلى الفرق الضالة التى تَدَّعى الإسلام ظاهراً، وتبطن العداء الشديد له، ومن ثم فإن الحضور الإسلامى فى تلك المجتمعات ذات الوفرة والسيطرة الإعلامية يعد أمراً بالغ الأهمية والخطورة.

وتتحمل وسائل الإعلام الإسلامية العبء الأكبر فى تصحيح الصورة، ونحن فى عصر الفضاء نستطيع أن نصل إلى كل مكان فى الدنيا، وليس هناك بديل عن الأسلوب العلمى الصحيح، فنحن فى زمن لا يحترم فيه إلا العلم(١٤).

المشكلات التى تواجه الأقليات المسلمة فى العالم:

إذا كانت الأقليات المسلمة فى العالم تعمل جاهدة للحفاظ على هويتها الدينية وتتمسك بمرجعيتها العقدية، كما تحاول أن تتأقلم مع الثقافات الأخرى المسيطرة، إلا أنها تواجه العديد من المشكلات والمصاعب مما يدفعها إلى الانعزال والتقوقع، كما يضطر كثير منهم إلى الالتحاق بمهن متواضعة أو مهينة، وقد أدى ذلك إلى التأثير فى مكانتهم والنيل من صلابتهم وتمزيق وحدتهم.

ولما كان وضع استراتيجية علمية لدعم الأقليات المسلمة والإفادة من وجودها فى الخارج يحتل أهمية بالغة على صعيد الدعوة الإسلامية؛ فإنه يصبح من الأهمية بمكان التعرف على واقع هذه الأقليات الإسلامية باعتباره الخطوة الأولى لحل مشكلاتهم، والتى تكمن فيما يلى (١٥):

١ - ظهور النعرات القومية والشعوبية يؤدى إلى تفتيت وحدتها، ونشوب الصراعات بينها، وتبعثر جهودها، والحد من فاعليتها، يساعد على ذلك

عدم التجانس اللغوى والعرقى بين السلالات الإسلامية دون وجود تنسيق بينها.

٢ - يفجر الزواج بين المسلمين وغيرهم من ذوى الثقافات الأخرى مشكلات اجتماعية تنعكس على الأسرة والأبناء، لا سيما أن الهدف الرئيسى من تلك الزيجات هو الحصول على تصريح للعمل والإقامة فى دول المهجر.

٣ - أسفر انحراف بعض أبناء الأقليات الإسلامية، ومسايرتهم لأنماط الحياة الأجنبية وذوبانهم فيها عن ضياع هويتهم الإسلامية بفعل المغريات الكثيرة التى تعمل على تذويبهم والقضاء على هويتهم .

٤ - أدى استبعاد الأقليات المسلمة من المشاركة السياسية فى أنظمة الحكم وعدم اعتراف العديد من الدول بحقوقها إلى فرض القيود على تمثيلها فى المجالس النيابية والشعبية، وقد نجم عن ذلك تفجر الصراعات السياسية والحركات الاستقلالية كما هو الحال فى الفلبين والهند والصين.

٥ - يؤدى ضعف الاهتمام بتعليم اللغة العربية بين أبناء الجيل الثانى من تلك الأقليات إلى زيادة هوة الانفصال بينهم وبين دينهم، فالجهل باللغة العربية يشيع بين ٨٠، ٨٥٪ من المسلمين فى مختلف أنحاء العالم، كما تسبب عدم توافر قنوات التعليم والثقافة الإسلامية فى انخفاض المستويات الثقافية والتعليمية لأبناء المسلمين فى المهجر، مما ينعكس سلباً على أبناء الجيل الثانى من المسلمين(١٦).

٦ - يؤدى انخفاض المستويات الاقتصادية لأبناء الأقليات الإسلامية إلى انعزالها وتقوقعها داخل أحياء فقيرة، وعدم مشاركتها فى الأنشطة الاجتماعية، ففى دراسة أجريت على عينة من المهاجرين المسلمين فى أمريكا حول مدى مشاركتهم فى الأنشطة الاجتماعية على أرض المهجر وجد أن الذين لم يشاركوا مطلقاً فى تلك الأنشطة قد بلغت نسبتهم ١٣,٥٪، بينما الذين كانت مشاركتهم محدودة ٦٩,٢٪، أى أن مجموعهم بلغ ٨٢,٧٪ (١٧).

٧ - يؤدى الاختلال السكانى لأبناء الأقليات إلى تشتتهم، وتدنى مستويات

معيشتهم، وارتفاع معدلات اللاجئين منهم حتى بلغت ٨٢٪ من مجموع لاجئ العالم.

٨ - تُلْقِى الصورة النمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين بظلالها السيئة على أسلوب التعامل مع الأقليات المسلمة، فالإسلام كما تروج له العناصر المغرضة هو دين الإكراه والعنف وتعدد الزوجات وسفك الدماء... إلخ.

٩ - أدى انتشار الحركات اليمينية المتطرفة فى أوروبا والتى تدعو إلى طرد كل الأجانب منها إلى ملاحقة المسلمين ومحاربتهم فى أرزاقهم مثل الأقلية التركية فى ألمانيا، والأقلية المغربية فى فرنسا إلى غير ذلك من الحركات المماثلة، وقد انتقلت عدوى تلك الحركات العنصرية إلى بقية أنحاء العالم الغربي.

١٠ - ضعف الإمكانات المالية والبشرية والفنية للمراكز الإسلامية فى العالم يجعل تأثيرها متواضعاً إذا ما قورنت بما يناط بها من مهام، وينعكس هذا الضعف على النشاط الدعوى الذى تضطلع به الأقليات المسلمة المحاصرة بكم هائل من وسائل الإعلام الحديثة التى تقدم كل ما هو منافٍ لأخلاق هذا الدين وتعاليمه.

١١ - ارتباط معظم أنشطة وجهود الدعوة خارج ديار الإسلام بالحكومات التى تمولها، والتى تصبغ تلك الأنشطة بصبغة سياسية تعكس الخلافات بين الدول الإسلامية، مما يفرغ العمل الإسلامى من مضمونه، كما أن اعتماد تلك الجهود على تمويل هذه الحكومات يجعلها عرضة للتوقف - فى أى وقت - إذا ما رأت تلك الحكومات تناقضها مع سياستها.

١٢ - اعتماد الجهود الدعوية التى تضطلع بها الأقليات المسلمة فى الخارج على أساليب ووسائل تقليدية، لا تحقق طموحات الدعوة لا سيما فى ظل ما تزخر به المجتمعات المتقدمة من وسائل الاتصال الإلكترونية الحديثة، إضافة إلى نقص الدعاة القادرين على التعامل مع وسائل الإعلام وجماعات الضغط وصناع القرار فى العالم.

١٣ - اعتماد كثير من الهيئات ومنظمات الدعوة الإسلامية على العمل العشوائى دون تخطيط علمى مسبق، ودون استقراء لطبيعة المشكلات التى يتعين عليها مواجهتها وترتيب أولوياتها، وفى معظم الأحيان يغلب على العمل الإسلامى الحماس للدعوة دون أن يستند هذا الحماس على دراسات جادة وتخطيط دقيق.

١٤ - إن ثمة أخطاء أو سلوكيات مشينة يقع فيها بعض أبناء الأقليات الإسلامية فى الخارج تسىء إلى الإسلام وتشوه صورته، مما يتطلب إقامة جسور قوية مع هذه الأقليات لتقويم سلوكها وتوعيتها بالدور المنوط بها.

١٥ - إنه فى الوقت الذى يشتد فيه الخلاف ويحتدم فيه الشقاق بين الأقليات المسلمة فى العالم، فإننا نجد فيه الأقليات اليهودية تعمل ضمن استراتيجية واحدة جمعت بينها أهدافًا مشتركة، وترتبط ارتباطاً عضوياً بالدولة العبرية؛ حتى أصبحت هذه الأقليات قوة ضغط هائلة على صانع القرار فى الدول التى يعيشون فيها، وسيطرت على أسواق المال وأجهزة الإعلام وصناعة السينما وغيرها من المرافق الحيوية، فإننا كثيراً ما نجد الشقاق والخلاف والصراع يحتدم بين الأقليات المسلمة فى العالم .

الخاتمة والتوصيات:

فى الحقيقة إن الأقليات المسلمة يمكن أن تشكل قوة ضغط كبيرة على صانع القرار إذا ما أُحسن تنظيم جهودها واستثمار إمكاناتها، لا سيما أن كثيراً من النظم السياسية فى العالم تتيح للأفراد والجماعات حرية التعبير وحرية التفكير، والمسلمون - شأنهم شأن غيرهم - يتمتعون بهذه الحقوق، إلا أننا لم نحسن الاستفادة من هذا الواقع.

وهذا يعنى أنه لابد من التنسيق بين هذه الأقليات وتنظيم عملها وفق خطة موحدة تستثمر كافة الإمكانات المتاحة، وتؤدى نشاطها على أسس علمية، من خلال جهاز إسلامى واحد يجمع شتاتها، ويوحد بينها، ويذيب الخلافات العرقية أو السياسية أو المذهبية بينها، بدلاً من التشتت والتباعد والتفرق.

إن الأمر يحتاج إلى وقفة أمينة لمساعدة هذه الأقليات فى الحفاظ على هويتها والدفاع عن دينها، واستثمار قدراتها، لتشكل جسوراً تعبر من خلالها الدعوة الإسلامية إلى المتلقى الغربى لا سيما أن الإسلام ينتشر بقوته الذاتية فى العالم بسرعة وقوة تذهل خبراء السياسة والعلاقات الدولية، أى أن هذا الدين لو وجد من يقدمه إلى الرأى العام العالمى بصورته الصحيحة، لأحدث انقلاباً كاملاً وغَيَّر شكل الحياة فى هذه المجتمعات.

والحكومات والمنظمات الإسلامية مطالبة بالتحرك لتحقيق هذا الأمل، ومن هنا فإن الأمر يحتاج إلى عملية استنفار إسلامى لدعم الأقليات المسلمة والحفاظ على هويتها.

وهنا يصبح من الأهمية بمكان تزويد هذه الأقليات بمجريات الأحداث فى ديار الإسلام، وربطهم بالوطن الأم، واستثمار إمكاناتهم لفهم آليات النظام السياسى والوضع الاقتصادى والاجتماعى السائد فى الدول التى يعيشون فيها، والرد على المزاعم والافتراءات التى تستهدف الوطن والعقيدة والتراث، والاتصال بجماعات الضغط المؤثرة والشخصيات العالمية البارزة التى تتعاطف معنا حتى نتمكن من إبراز المبادئ النبيلة والقيم الرفيعة التى يعمل الإسلام على إرسائها، وتوضيح المعانى السامية التى يتضمنها هذا الدين.

ولن يتأتى ذلك إلا من خلال التنسيق مع المؤسسات والمراكز الإسلامية فى الخارج من خلال خطة علمية محكمة تستثمر المعطيات الدولية المعاصرة، والقضاء على المعوقات الإدارية والمالية والفنية التى تعوق انسيابية الرسالة التى تبثها قنوات الاتصال الإسلامى، حتى تستطيع تحقيق التأثير المستهدف، وتصحيح الصورة الخاطئة، والرد على الافتراءات الظالمة والمزاعم الكاذبة، والتعامل مع المتغيرات الدولية بفاعلية واقتدار.

وهذا يعنى أننا فى حاجة إلى عقليات جديدة تعيد صياغة العقل المسلم، وتتعامل بفكر مفتوح مع المستجدات التى تفرض نفسها على الساحة الدولية، وتمسك بيدها زمام المبادرة، فتأخذ بكل ما هو جديد ومفيد من معطيات العولمة فى الفكر والثقافة والعلم والتكنولوجيا، وتتجاوز السلبيات التى يحملها هذا التيار

الذى سوف يجرف فى طريقه كل من يقف على أرض هشة، مع الحفاظ على ثوابت الأمة وتراثها الوطنى.

وهنا يصبح من الأهمية بمكان إنشاء مؤسسة إسلامية دولية لشئون الأقليات، تجمع شتات الأجهزة والمؤسسات الرسمية والشعبية العاملة فى هذا المجال لتنسق جهودها، والقضاء على التضارب والخلافات بينها، وذلك لكى تأخذ على عاتقها تحقيق المهام التالية:

١ - إقامة الندوات والمؤتمرات التى توضح حقيقة الحضارة الإسلامية وصحيح الدين؛ لدرء الشبهات، ولتصحيح الصورة المغلوطة التى تروجها المنظمات الصهيونية والتنصيرية والإلحادية والفرق الضالة، وذلك من خلال تجسيد النموذج الإسلامى فى القول والعمل.

٢ - إقامة المعارض وتشجيع التبادل الثقافى بين المنظمات والجامعات ومراكز البحوث فى الدول الإسلامية ودول العالم الأخرى، وتشجيع الزيارات المتبادلة بين الأدباء والمفكرين المسلمين ونظرائهم فى دول العالم المختلفة، لشرح الحقائق وتوضيح المفاهيم، وإجهاض الحملات المغرضة التى تشعل نار العداوة والبغضاء وسوء الفهم بين الطرفين .

٣ - تشجيع النشاط الإعلامى الإسلامى فى دول الغرب من خلال الإصدارات الصحفية، والقنوات الفضائية، والإذاعات الموجهة من دول العالم الإسلامى إلى الرأى العام العالمي، شريطة إعطاء اهتمام أكبر لتنشئة الجيل الثانى من المسلمين فى الغرب تنشئة إسلامية صحيحة، وتزويدهم بالمعارف الإسلامية لحمايتهم من الانخراط فى مفاسد المجتمعات غير المسلمة بهدف الحفاظ على هويتهم والتمسك بدينهم قولاً وفعلاً، وتشجيعهم على تعلم اللغة العربية والعلوم الإسلامية، والقضاء على الخلافات العرقية والمذهبية بينهم، وذلك لتحقيق الهدف الأسمى وهو الدفاع عن الإسلام وتصحيح صورته فى العالم.

٤ - الإسهام والمشاركة فى الجهود الدعوية التى تقوم بها المراكز الإسلامية فى

العواصم الغربية ودعم أنشطتها، والإسهام فى إقامة المساجد والمدارس والمراكز الإسلامية بالجهود الذاتية، والإفادة من المؤسسات الاجتماعية التى أسسها أبناء المسلمين، وتفعيل دور هذه المؤسسات لخدمة العمل الإسلامى.

٥ - التقليل من ظاهرة زواج غير المسلمين والمسلمات من أبناء وبنات المجتمعات الغربية التى يقيمون فيها تجنباً للآثار السلبية لتلك الظاهرة.

الهوامش

(١) رضا عكاشة - المعالجة الصحفية لشئون الأقليات المسلمة فى الصحافة العربية : رسالة دكتوراه غير منشورة . قسم الصحافة والإعلام. جامعة الأزهر. ص ٥٢.

(٢) سيد عبد المجيد: الأقليات المسلمة فى أفريقيا. مكة المكرمة. رابطة العالم الإسلامى. ١٩٨٥. ص ٣٢٨.

(٣) (المرجع السابق).

(٤) Brinley Thomas, Modren Migration The Brain Drain (ed)Walter Adms, N.Y. Macmillan Company P.29.1968

(٥) زوزو عبد الحميد: دور المهاجرين بفرنسا فى الحركة الوطنية الجزائرية فيما بين الحربين العالميتين. الجزائر. بدون ناشر. ص ٥٦.

(٦) محمد إبراهيم الجيوشى: الأقليات الإسلامية فى المجتمع الغربى. لندن. المجلس الإسلامى العالمى. ص ٢-٤.

(٧) مصطفى الخروبى: المغاربيون فى فرنسا، هجرة شقية ومحاولات الاندماج فى المجتمع الفرنسي. القاهرة. الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء. ١٩٩٠. ص ١.

(٨) المرجع السابق.

(٩) أنطونى زحلان: السكان والتنمية فى الشرق الأوسط. بغداد.اللجنة الاقتصادية لغربى آسيا. قسم التنمية الاجتماعية والسكان. ١٩٨٤. ص ٣٢٣.

(١٠) مركز دراسات الوحدة العربية. هجرة الكفاءات العربية، بحوث ومناقشات الندوة التى نظمتها اللجنة الاقتصادية لغربى آسيا. بيروت: ١٩٨١. ص ٢٩٨.

(١١) سامى الشريف: التحديات الإعلامية التى تواجه العالم الإسلامى فى القرن الواحد والعشرين . بورسعيد. رابطة الجامعات الإسلامية بالاشتراك مع جامعة قناة السويس. ١٩٩٧. ص ١٢.

(١٢) عبد القادر طاش: الصورة النمطية للإسلام والعرب فى مرآة الإعلام الغربي.الرياض: شركة الدائرة للإعلام المحدود ١٩٨٩. ص ١١٢ -١١٣.

(١٣) مرسى سعد الدين: الدعوة الإسلامية والإعلام الغربي. القاهرة. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ١٩٩٩.

(١٤) محمود حمدى زقزوق: الدعوة الإسلامية والإعلام الغربى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ١٩٩٩.

(١٥) سامى الشريف: المرجع السابق. ص ١٦.

(١٦) المرجع السابق: ص ١٧.

(١٧) محمد عبد العليم مرسى: تزييف العقول البشرية. الرياض. عالم الكتب. ١٩٨٢. ص ٩٣.

حقوق الأقليات والجاليات غير المسلمة في الإسلام وحياتهم في جمهورية مصر العربية والمملكة العربية السعودية

الأستاذ الدكتور / عدنان بن محمد الوزان

مستشار حقوق الإنسان - المملكة العربية السعودية

أولاً: تمهيد.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً..

أما بعد:

إن فقه معاملة غير المسلمين فى الإسلام وأحكامه، يستند إلى أحكام النظام السياسى والإنسانى فى الإسلام، ويبين ما للأقليات والجاليات غير المسلمة من حقوق اجتماعية واقتصادية ودينية... إلخ داخل الدولة الإسلامية، وهذا البحث يسعى لبيان ما يلى :

١- إبراز الإطار الذى يرسمه الإسلام فى تكريمه للإنسان - وإن كان غير مسلم - وفى تجنب ظلمه وإيذائه، وتوضيح موقف الإسلام من الاتصال بغير المسلمين، ومعاملتهم والتعرف عليهم، والتعاون معهم وما عرف عند المسلمين

بأهل الذمة أو أهل الأمانة أو أهل العهد فى المصطلح الفقهى السياسى، وهو ما يعرف عند غيرهم الآن بالأقليات أو الجاليات فى مصطلح القانون الدولى.

٢- تقديم التصور الإسلامى الصحيح لمعاملة غير المسلمين فى الإسلام من خلال آيات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وأقوال فقهاء الإسلام وتأكيدات مفكرى الغرب على خصائص الإسلام فى هذا الجانب، ومن ثم تحديد الأسس والضوابط للتعامل مع غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى استناداً إلى أحكام الشريعة الإسلامية.

٣- استعراض بعض النماذج الإسلامية فى معاملة غير المسلمين فى العصور الإسلامية المختلفة.

والبحث يلقى الضوء على عالمية الإسلام وتسامحه وأنه وحده الكفيل بإقامة المجتمع الإنسانى العالمى، وتحقيق حقوق الإنسان مسلماً كان أو غير مسلم، وذلك من خلال قاعدته الإنسانية العريضة التى جاءت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[1]، وقول النبى محمد ﷺ: **«ما من شيء أكرم على الله من بنى آدم يوم القيامة، قيل: يا رسول الله ولا الملائكة المقربون ؟ قال: «ولا الملائكة المقربون»** [2] وقوله ﷺ فى خطبة الوداع: **«أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»**[3]، فالإسلام يخاطب بنى البشر بقوله «يا أيها الناس» و «يا بنى آدم» و «يا أيها الإنسان»، وهو بذلك - أى الإسلام - يؤكد على وحدة الأب ووحدانية الرب الإله، فلا استعلاء لجنس على جنس أو لون على لون، والعبرة لمن اتقى، والله أعلم بمن اتقى. والإسلام هو ميزان عدل لحفظ حقوق الإنسان وهو الدين الخالد الذى يحقق للبشرية السعادة الدنيوية والأخروية.

ومن هنا سوف نبين فى هذه الدراسة حقوق غير المسلم فى المجتمع

الإسلامى ومنهم الذمى ومنهم المستأمن، وذلك من خلال مباحث ثلاثة وتمهيد:

المبحث الأول: يتعلق بحقوق غير المسلم فى المجتمع الإسلامى (الذمى والمستأمن)، الحقوق الدينية، الحقوق الاجتماعية... إلخ وذلك فى زمن السلم.

المبحث الثانى: وفيه الحديث عن حقوق غير المسلم فى وقت الحرب: الحقوق النفسية والبدنية والدينية والبيئية... إلخ.

المبحث الثالث: حياة الأقليات والجاليات غير المسلمة فى بلاد الإسلام مثل مصر وباكستان والمغرب ونموذج ذلك يتمثل فى حياة الأقليات فى جمهوية مصر العربية وحياة الجاليات فى المملكة العربية السعودية رمز الإسلام فى العصر الحديث.

إن حقوق الإنسان فى الإسلام فضل من الله ونعمة وآفاق أمام البشر، بدأت مع قصة خلق آدم عليه السلام بكل شمول وكمال من رب العزة والجلال، فمنح الإنسان الكرامة الموحدة من الأب الواحد لكى لا يستعلى أحد على أحد لأى سبب، وهذا منتهى العدل، ومع أنه خلقه من تراب لكنه نفخ فيه من روحه ليكرمه، يقول جل وعلا: ﴿**ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ● الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ● ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ● ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون**﴾[٤]، فهو - أى الإنسان - مادة وروح، وعزز العَلِىُّ القدير خلق الإنسان بتكريمه حيث يقول تعالى: ﴿**ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**﴾[٥]، وقمة هذا التكريم توج بأن أمر سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود لأبى الإنسان والبشر آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿**إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ● فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين**﴾[٦]، ثم إن الله - سبحانه وتعالى - منذ الأزل فى خلق آدم مَنَّ عليه بالسمع والبصر والفؤاد، فمنحه حق الحياة وحَرَّم قتله وإفساد حياته فقال تعالى: ﴿**من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض**

فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾[7]، وقال النبى ﷺ: «لن يزال المسلم فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً»[8]، كما أن الله - سبحانه وتعالى - منح الإنسان حق العلم والتعلم وأثنى على العلماء والمعلمين، فقال معلم العالمين العلى العليم: **﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ● قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ● قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾**[9]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «تعلموا العلم وعلموه الناس» [10].

هكذا يتضح تكريم الله - سبحانه وتعالى - للإنسان ومنحه تلك الحقوق: التكريم فى الخلق، والحق فى الحياة، والحق فى العلم، ثم منة الله - سبحانه وتعالى - على الإنسان بالعقل والإرادة، كما جعل له حق الزواج وتكوين الأسرة ورزقه الطعام والشراب وحق الأمن والمسكن، كل ذلك جاء بعد أن خلق الله آدم وخلق منه حواء قال تعالى: **﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكُلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾**[11]، ولكن عبث إبليس وحقده وحسده على الإنسان دفعه للسعى إلى إفساد حقوق الإنسان بغوايته وضلالته نحو الجحود والاعتداء على ما شرع الله للإنسان وما أعطاه من حقوق، (وهذا ما يفعله شياطين الإنس اليوم)، فذاك تسبب فى هبوط الإنسان من الجنة إلى الأرض، ولكن حقوقه التى منحها الله إياها بقيت له ومعه تنطلق من أهم ما أوجب الله على الإنسان فى خلقه، حيث يقول المولى جل وعلا: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ● ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ● إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾**[12]، وقوله ﷺ فى الحديث الذى رواه معاذ بن جبل - رضي الله عنه - حيث قال: «كنت ردف النبى ﷺ على حمار فقال: يا معاذ هل تدرى ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً، قلت: يا رسول الله أفلا

أبشر الناس ؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا»[١٣]. وحقيقة هذه العبادة توحيد الله وإفراده بالألوهية والربوبية هو الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال تعالى: **﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب﴾**[١٤].

لقد أكرم الله الإنسان بالخلق والحياة بدءًا، ثم سخر له السماوات والأرض ومتعه بالطيبات وأمره بعبادته وحده لا شريك له، ولقد انبرت بعض الدراسات لتؤكد السبق التاريخى المتعلق بالإعلان عن حقوق الإنسان الذى صدر عام ١٩٤٨م، فاحتج الإنجليز بوثيقة العهد الكبير Magna Carta التى صدرت عام ١٢١٥م، واعتز الأمريكان بوثيقة إعلان استقلالهم التى صدرت عام ١٧٧٦م، وكذا فعل الفرنسيون عن وثيقة حقوق الإنسان التى صدرت مع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، ولا شك فيما ذكرناه من الآيات السابقة والأحاديث النبوية قاطع الدلالة على أن التاريخ الحقيقى لحقوق الإنسان يبدأ مع خلق الإنسان ومانح هذه الحقوق هو رب الناس ملك الناس، وليس لأحد فضل فى المناداة بأن الحقوق جاءت بها أمة من الأمم أو مؤسسة من المؤسسات: **﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾**[١٥]، وعن قدم تاريخ حقوق الإنسان ومصدرها الإلهى وما عند الناس من هرطقات وتفاخر الأمم بسبقها إلى إعلان حقوق الناس يقول الشيخ محمد الغزالى - يرحمه الله -: «إن المبادئ التى طالما صدرناها للناس يعاد تصديرها إلينا على أنها كشف إنسانى ما عرفناه يوماً ولا عشنا به دهراً» [١٦]. إن العمق التاريخى لكرامة الإنسان وخلقه - ومنها تتبع حقوقه - تبدأ مع الحياة الإنسانية ومرجعها إلى الله فهى فى الإسلام ذات عمق موثق بالقرآن الكريم والسنة النبوية وهى عن الإنسان من حيث هو إنسان بأهداف سامية شريفة مؤيدة بالنقل معززة بقبولها عند المتصفين بالعقل، ولهذا فإن البعد التاريخى الماضى لا يجعل لأمور الحاضر فى المناداة بحقوق الإنسان وجهة للقول به إلا عند أولئك الذين ظلموا الناس وتدرجوا بهم فى مظاهر التفكير المختلفة عند

حمورابى، وأرسطو، وعند أفلاطون، وصولون، وعند العرب فى جاهليتهم، وعند شيشرون، وجان جاك روسو وغيرهم. تدرجت عند هؤلاء حقوق الإنسان بين التبديل والتعديل، بين الرق والاستعباد، بين إهانة المرأة وأنها من سقط المتاع، والتمييز بين الكبراء والصغراء، وبين السادة والعبيد، ولكن حقوق الإنسان كما جاءت من رب العالمين وحفظتها الشريعة الإسلامية، تعتبر سلسلة محكمة من المبادئ والقواعد والضوابط، تشمل الدين والأخلاق والمعاملات، تقوم على هدى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، مبنية إجمالاً على المعقول الموافق لروح المنقول ومتوسلة طرق الإجماع والقياس والاستصحاب والاستصلاح والاستحسان. فالثبات والعمق وتحقيق الخير والصلاح للناس والنهى عن الشر سمة من سمات الشريعة الإسلامية فى حفظ حقوق الإنسان مسلماً أو غير مسلم. وخفظ الكليات الخمس : الدين والعقل والمال والنفس والعرض.

ثانياً: حقوق غير المسلم فى السلم

ونبدأ هنا ببيان حقوق غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى إبان السلم وكيف أن الإسلام ورسول الإسلام ﷺ هما الرحمة المهداة إلى العالمين جميعاً، هكذا يقول الكاتب الأوربى المعروف الأستاذ (ليك) فى كلام مفصل له عن الإسلام: «إن حياة محمد التاريخية لا يمكن أن توصف بأحسن مما وصفه الله نفسه بألفاظ قليلة بين فيها صفة النبى محمد ﷺ حيث قال: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**، إن يتيم آمنة العظيم قد برهن بنفسه على أنه أعظم الرحمات لكل ضعيف ولكل محتاج إلى المساعدة. كان محمد ﷺ رحمة حقيقية لليتامى وأبناء السبيل، والمنكوبين والمدينين، وجميع الفقراء والمساكين، والعمال ذوى الكد والعناء، ولقد كان محمد ﷺ رحمة لجنس النساء الذى كان يعامل كالأمتعة والأثاث لا أكثر، وذلك فى جميع الدنيا، ومن قبل كل دين من الأديان وكل نظام اجتماعي، فهلموا الآن نقول بأعظم الإخلاص والتلهف والابتهال: اللهم صل على محمد وعلى أتباعه ومحبيه أجمعين»(١٧). يعكس قول «ليك» السابق مفاهيم حقوق الإنسان بحقيقة الرحمة الإسلامية الإيمانية والدين الصافى الذى بعث

الله به محمداً ﷺ لتحقيق خير البشرية جمعاء، خصوصاً البؤساء والضعفاء والمقهورين مسلمين كانوا أو غير مسلمين.

ونحن عندما نتحدث عن حقوق غير المسلمين فى حالة السلم إنما نوضح سمو رسالة الإسلام، وجوهر دعوة القرآن لإصلاح البشرية وأن المسلمين ليسوا أعداء السلام، وإنما هم صانعوه فى هذا العالم لاعتمادهم على أصل راسخ من الاعتقاد الدينى والإخلاص فى التنفيذ والحزم فى التطبيق وصون السلام العالمي، فالسلام أصل من أصول الإسلام الكبرى للآيات القرآنية الدالة على ذلك مثل قوله تعالى: **﴿وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾**(١٨)، وقوله جل شأنه: **﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السِّلم كافة﴾**(١٩)، وقوله تعالى: **﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾**(٢٠)، وقال عز وجل: **﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلَمَ فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾**(٢١).

فهل يسوغ لأحد التغاضى عن هذه الآيات الكريمات التى تدعو إلى السلم والسلام فى قرآن كريم أوحى إلى الرسول محمد ﷺ ليكون شريعة خالدة دائمة للبشرية ؟ مما جعل ادعاء نسخ آية منه أو تغيير أو تبديل مرفوض رفضاً قاطعاً ما لم يقم دليل على ذلك. والسلم مقرون بالود والصفاء والعهد والاطمئنان والثقة، ولكن مع ذلك عند الاعتداء وللاعتداء مظاهر عديدة، ومفهوم واسع تحدده الدولة بميزان الحق والعدالة، نظل متمسكين بفرضية الجهاد الكفاية أو التعبئة حسب مقتضيات الأحوال للدفاع عن الحق والخير.

وغير المسلمين الذين نتحدث عنهم فى هذه الدراسة كما قلنا هم الذميون والمستأمنون كما هو فى مصطلح الفقه الإسلامى السياسى فى الشريعة الإسلامية وهو ما يعرف فى القانون الدولى بالأقليات والجاليات. والذميون (الأقليات): هم أصحاب الديانات الأخرى الذين يعيشون فى بلاد الإسلام، بصفتهم مواطنين أو راغبين فى العيش فى بلاد الإسلام ويقيمون إقامة دائمة فى الدولة الإسلامية، والمستأمنون (الجاليات) هم أهل الضمان والحق والأمان والعهد، لهم فى حكم الإسلام ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، هم الذين

يقيمون فى بلاد الإسلام إقامة مؤقتة لمصلحة عارضة، لهم من الحقوق الأساسية حرمة المال والنفس والدم والعرض والدين مثل حقوق الذميين بما يحفظ الأمن والنظام العام على جميع المواطنين والذميين. وقد قرر الإسلام المساواة بين المسلمين والذميين فى كثير من الحقوق وعصم الدماء والأموال والأعراض، بل أعفى الذميين من بعض الواجبات المقررة على المسلمين فى الدولة الإسلامية، ومع ذلك فلهم ما للمسلمين من الحقوق المدنية والسياسية وعليهم ما على المسلمين من الواجبات التى تمس أمن البلاد ونظام التعامل، والعقوبات، وكفل حريتهم الدينية، فأمر المسلمين أن يتركوهم وما يدينون ولا يتعرضون لهم وما يعتقدون من إقامة الشعائر، هذا مع العلم بأن عقد الذمة لازم فى حق الإمام المسلم، ورئيس الدولة لا يملك نقضه وهو فى حقهم غير لازم، وللدولة الحق فى تقييد حرية كثير من مواطنيها الأصليين وغيرهم ببعض الشروط والأوضاع، وهذا التقييد يشملهم - أى أهل الذمة - أيضاً، وهذا شائع فى كل الدول القديمة والحديثة إسلامية أم غير إسلامية، ولهم حرية التعامل المباح والنشاط الاقتصادى مع المسلمين بمختلف أنواع المعاملات المباحة قال الإمام الكاساني: «ويتركون أن يسكنوا فى أمصار المسلمين يبيعون ويشترون، لأن عقد الذمة شرع ليكون وسيلة لهم إلى الإسلام، وتمكينهم من المقام فى أمصار المسلمين أبلغ إلى هذا المقصود، وفيه أيضاً منفعة المسلمين بالبيع والشراء، فيمكنون من ذلك»(٢٢)، ولا فرق فى العقوبات بين المسلم والذمى، فالقصاص والديات والضمانات والتعازير سواء بين المسلمين والذميين، وعلى التخصيص فى القصاص والدية والضمانات. وزواجهم وطلاقهم معترف به، ولهم الزواج بمن يشاءون ما لم يخالفوا النظام العام كالزواج من المحارم مثلاً أو الزواج من المسلمة، ويحسن إليهم فى المعاملة والمعاشرة والزيارة والتودد والبر والإنصاف والإقساط كما فى الوصايا الواردة فى الآيات الآتية فى قوله تعالى: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين • إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولَّوهم ومن**

يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾[٢٣]، وكذلك ما جاء فى قول النبى محمد ﷺ: **«ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة»** [٢٤].

وكانت معاهدات الذمة مع نصارى نجران وأهل الحيرة وأهل الشام وحمص وسكان بيت المقدس وغيرهم مثلاً يُحتذى فى التسامح والحرية والأخلاق الكريمة فى حفظ حقوق الإنسان غير المسلم فى الدولة الإسلامية. ومن هذه القاعدة العظيمة التى تمثل دستور التعامل مع غير أهل الإسلام يقول الإمام القرافى شارحاً معنى البر فى الآيات السابقة ويوضح أبعاده بقوله: " الرفق بضعيفهم وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وكساء عاريهم، ولين القول لهم، على سبيل اللطف لهم والرحمة، لا على سبيل الخوف والذلة واحتمال أذيتهم فى الجوار مع القدرة على إزالته، لطفاً منا بهم لا خوفاً ولا تطبعاً، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم فى جميع أمورهم فى دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم، وإيصالهم إلى جميع حقوقهم» [٢٥].

ويتأكد ذلك من قول (غوستاف لوبون) العالم الفرنسى بعد سرد آيات من القرآن الكريم فى سماحة الإسلام مع أهل الكتاب إذ يقول: «إن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وإنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التى ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المرتابين أو المؤمنين القليلين الذين أمعنوا النظر فى تاريخ العرب. ويستشهد (لوبون) بقول (روبرتسن) فى كتابه (تاريخ شارلكن) إذ يقول: «إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً فى التمسك بتعاليمهم الدينية» [٢٦].

ومثل هذه الأقوال عند الغربيين عن سماحة الإسلام وحسن معاملته لغير المسلمين كثيرة ومن ذلك ما قاله (آدم ميتز): «ولم يكن فى التشريع الإسلامى ما

يغلق دون أهل الذمة أى باب من أبواب الأعمال، فكانوا صيارفة وتجاراً وأصحاب ضياع وأطباء، بل إن أهل الذمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة الجهابذة فى الشام مثلاً يهوداً على حين كان أكثر الأطباء، والكتبة نصارى، وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة، وكان رؤساء اليهود وجهابذتهم عنده» (٢٧).

ويوضح (ميتز) العلة فى دفع الجزية وعلى من تجب فيقول: «كان أهل الذمة ويحكم ما يتمتعون به من تسامح المسلمين معهم ومن حمايتهم لهم، يدفعون الجزية كل منهم بحسب قدرته، وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة الدفاع الوطنى، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح فلا يدفعها ذوو العاهات ولا المترهبون وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار»، ويدل على ذلك ما قرره الفقهاء «أن لا جزية على الراهب المنقطع للعبادة لأنه ليس من أهل القتال»(٢٨).

وتسقط الجزية عن أهل الذمة حينما تعجز الدولة الإسلامية عن حمايتهم، أو عند اشتراكهم مع المسلمين فى الدفاع عن دار الإسلام، ذكر القاضى أبو يوسف فى كتابه الخراج: «أن أبا عبيدة بن الجراح عندما أعلمه نوابه على مدن الشام بتجمع الروم كتب إليهم: أن ردوا الجزية على من أخذتموها منه وأمرهم أن يقولوا لهم: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشروط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم»(٢٩).

وروى الطبرى عن ملك (الباب) فى نواحى أرمينيا واسمه (شهر براز) أنه طلب من سراقة بن عمرو أمير تلك المناطق أن يضع عنه وعمن معه الجزية على أن يقوموا بما يريده منهم ضد عدوهم فقبل سراقة وقال له: " قد قبلنا ذلك ممن كان معك على هذا ما دام عليه، ولابد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض " فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو. ولهذا يقول الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه -: «إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا» (٣٠). والإسلام يحترم حقوق غير المسلمين بدءاً بدياناتهم

وعقائدهم ومن ثم الأنبياء والرسل وهو حفظ الحقوق الدينية واحترام حقوق الأنبياء والرسل موضوع لا أعلم أن أحداً بينه بوضوح على أنه حق إنسانى لأولئك الرسل ولأتباعهم فى حفظ الحقوق الدينية للإنسان كما سيأتى بيانه فى القطوف التالية من ثوابت القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ضمن الحقوق الدينية للأقليات والجاليات غير المسلمة.

١- الحقوق الدينية.

إن من أسس وأركان الإيمان فى الإسلام أن يؤمن المسلم بأنبياء الله ورسله جميعاً، ويؤمن بما دعوا إليه من دعوات التوحيد كما جاء فى قوله سبحانه وتعالى: **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب﴾**(٣١)، وقال النبى محمد ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»(٣٢)، أى أن دعوة الرسل جميعاً هى توحيد الله بالألوهية، وإفراده بالعبادة، فنحن المسلمين نؤمن بعيسى ابن مريم نبى الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وبموسى كليم الله عليهما السلام وبكافة الأنبياء والرسل من لدن آدم وحتى محمد صلى الله وسلم عليهم جميعاً. ونحن عندما نتحدث عن النصرانية أو اليهودية مثلاً فإننا لا نتهجم عليهما، كيف وهما دينان سماويان مقدسان، نؤمن بهما كما جاء ذكرهما فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، لا على ما هى عليه من تحريف وتبديل، قال تعالى: **﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾**(٣٣).

كما أننا نؤمن يقيناً أن الله - سبحانه وتعالى - أمرنا بمجادلة أهل الكتاب

بالحسنى فى أكثر من موطن من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾**(٣٤).

ويلاحظ أن الهجمات التى تشن ضد النبى محمد ﷺ والقرآن، وضد الإسلام بصفة عامة من قبل المسيحيين المثقفين فى كتاباتهم وأحاديثهم، والغارات المستمرة حتى اليوم، هى مصدر إيذاء كبير للمسلمين، وهذه الهجمات تخلو من المناقشة العلمية، وتتسم بالانفعال والإساءة، بقصد النيل من الإسلام وتحقيره. وهى هجمات مليئة بالسباب والشتائم، تقوم على الأكاذيب والافتراءات المغلفة بدعوى العلمية والموضوعية وأن من يفعل هذا غير مخلص لدينه أولاً قبل أن يقول بالعلمية عن الدين الإسلامي، لأن الأديان السماوية من عند الله، ومن انتقص الإسلام فقد انتقص دين موسى وعيسى. وشواهد ذلك كثيرة فى التاريخ وآخرها ما وقع فى أمريكا فى أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م فللوهلة الأولى اتهموا الإسلام والمسلمين بالإرهاب وأن من فعل ذلك هم من المسلمين مع أنهم لم يقولوا من قتل كثيراً من رؤسائهم وكبرائهم عبر التاريخ ولم يعرفوا الفاعل للوهلة الأولى أو بعد ذلك. أين الحق والعدل ؟

أما نحن المسلمين نقدر مريم وعيسى المسيح (عليهم جميعاً سلام الله وصلواته) تقديراً عالياً، وهذا جزء من عقيدتنا، بل إن التلفظ بأية كلمة تدل على أقل قدر من عدم الاحترام نحوهما هى كفر فى ديننا، وتعرضنا للخروج من دين الإسلام، وربما لا نستطيع أن نأتى بمثال واحد يزعم فيه أن مسلماً ادعى أقل قدر يمكن تخيله من عدم الاحترام للنبى عيسى وأمه البتول (عليهما السلام)، إننا بالطبع لا نؤمن بألوهية المسيح عيسى، ولكن إيماننا بنبوته لا يقل ثبوتاً عن إيماننا بنبوة محمد (عليهما جميعاً الصلاة والسلام)، وأن أحداً لا يمكن - بالتاكيد - أن يكون مسلماً ما لم يؤمن ويقر بنفس التصديق، والإيمان بالمسيح عيسى ابن مريم مع التصديق بالنبى محمد (عليهما جميعاً الصلاة والسلام)، قال سبحانه وتعالى: **﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ● يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ● ذلك من أنباء الغيب**

نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾[٣٥]. وقال تعالى: **﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾**[٣٦].

ولعلنا عندما نتحدث عن رسل الله واحترامهم واحترام أتباعهم وما هم عليه من دين نعطى دليلاً واضحاً عن احترام الإسلام لحقوق غير المسلم الدينية.

ولننظر إلى شريعة الإسلام فى احترام رسل الملوك والسلاطين أيضاً وإن كانوا غير مسلمين، إذ تحتل مسألة حرمة السفراء والرسل وحصانتهم مكانة عالية عند قدومهم للديار الإسلامية، ومن ذلك مثلاً التأكيد على سلامة السفير أو الرسول وأمنه وحريته وأمواله، ومن يطلع على كتب سير الخلفاء والولاة فى الإسلام يجد كيف أن منح الحصانة الدبلوماسية للسفراء والرسل بسبب طبيعة أعمالهم وضرورة أداء واجباتهم على الوجه المطلوب. كانت قد أقرت من قبل الجميع فى الإسلام، فيؤكد الإمام الشيبانى فى كتابه (السير الكبير) بقوله: «إن السفير لا يمكن أن يعمل من دون احترام وضمان وحصانة له، وذلك لأن عمله لا يمكن أن ينجزه من دون مثل هذه الحصانة» [٣٧].

ولقد استقبل رسول الله ﷺ رسولى مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة فى عهده ﷺ وطالب مشاركته فى الحكم، وقالا قولاً عنيفاً للرسول ﷺ لم يرضه منهما، فقال لهما عليه الصلاة والسلام: «**لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما**»[٣٨]. ومضت السنة الإسلامية أن الرسل لا تقتل ولا يعتدى عليها كما جاء فى كتاب (الخراج) لأبى يوسف، وكتاب (السير الكبير) لأبى الحسن الشيبانى وفيهما: «إذا وجد المسلمون رجلاً من أهل الحرب فى بلاد المسلمين فقال: أنا رسول ملكى بعثنى إلى ملك المسلمين، وقد دخلت بغير أمان فإن كان معروفاً بالرسالة، أو أخرج معه كتاباً إلى الخليفة فهو آمن، لأن ما لا يمكن الوقوف على حقيقته يجب العمل فيه بغالب الرأي، وإذا قال: إن ما معه من الدواب والسلاح والمتاع هو هدية له فإنه يصدق ويقبل قوله إذا كان أمراً معروفاً ولا سبيل عليه، ولا يُتعرض له، ولا لما معه»[٣٩].

وإذا كانت الحرية الشخصية للرسل والسفراء وامتيازاتهم وحصانتهم قد أُقرت فى الإسلام، لزم احترام أهل تلك الإديان وحقوقهم كما أمرت بذلك الشريعة الإسلامية التى لم تقف عند حد حفظ حقوق أهل الأديان المعروفة، بل حتى المشركين كما سيأتى بيانه بحق المشرك.

إن المشرك هو الذى لا يعترف بوحدانية الله - سبحانه وتعالى - ويجعل له الشريك والصاحبة والولد، ويجعل معه آلهة أخرى، وهو أيضاً الذى يعبد من دون الله الأوثان والأصنام، قال تعالى: **﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾**(٤٠)، وقال تعالى: **﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾**(٤١) والشرك خطر عظيم وذنب كبير لا يغفره الله - سبحانه وتعالى - إلا بالتوبة، قال تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾**(٤٢)، ويظن كثير من الناس أنهم يعبدون الله حقاً ألوهيةً وربوبيةً، ولكنهم ليسوا كذلك، حيث قال تعالى: **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾**(٤٣)، وتوعد الله المشركين بالعذاب الأليم حتى فى حق الأنبياء لو أشركوا وحاشاهم أن يشركوا بالله شيئاً قال تعالى: **﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾**(٤٤)، وعندما سئل النبى ﷺ عن أى الذنب أعظم قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»(٤٥) أى تجعل له شريكاً.

ومع عظم حال المشرك ومحادته لله - جل وعلا - إلا أن الإسلام حفظ حقوقه باعتباره إنساناً إذا دخل بلاد الإسلام طالباً الأمان، فيؤمَّن قال تعالى: **﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾**)(٤٦)، والآية تبين أن الإسلام حريص على كل قلب بشرى أن يهتدى وأن يتوب، وأن المشركين الذين يطلبون الجوار والأمان فى دار الإسلام يجب أن يعطوا الجوار والأمان، مع إعطائهم فرصة سماع القرآن

ومعرفة هذا الدين، لعل قلوبهم أن تتفتح وتتلقى وتستجيب، وحتى إذا لم تستجب فقد أوجب الله لهم على أهل دار الإسلام أن يحرسوهم بعد إخراجهم حتى يصلوا إلى بلد يأمنون فيه على أنفسهم.

تلك قمة عالية وهمة كريمة؛ إعطاء الإجارة والأمان لغير المسلمين فى دار الإسلام، وقمم الإسلام الصاعدة ما تزال تتراءى قمة وراء قمة، وهذه منها، هذه الحراسة للمشرك عدو الإسلام والمسلمين ممن آذى المسلمين وفتنهم وعاداهم، هذه الحراسة له حتى يبلغ مأمنه خارج حدود دار الإسلام، إنه منهج الهداية لا منهج الإبادة، حتى وهو يعمل لتأمين قاعدة الإسلام للإسلام، وما علم الذين يتحدثون عن الجهاد فى الإسلام فيصفونه بأنه كان لإكراه الأفراد على الاعتقاد، والذين يهولهم هذا الاتهام ممن يقفون بالدين موقف الدفاع، فيروحون يدفعون هذه التهمة بأن الإسلام لا يقاتل إلا دفاعاً عن أهله فى حدوده الإقليمية ! هؤلاء وهؤلاء فى حاجة إلى أن يتطلعوا إلى تلك القمة العالية التى يمثلها هذا التوجيه الكريم فى الآية المباركة.

قال ابن كثير فى تفسير الآية: «إن إنساناً يأتيك ليسمع ما تقول وما أنزل عليك فهو آمن، حتى يأتيك فتسمعه كلام الله وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطى الأمان لمن جاءه مسترشداً أو فى رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم عروة بن مسعود، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحداً بعد واحد، يترددون فى القضية بينه وبين المشركين فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم، والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام فى أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطى أماناً ما دام يتردد فى الإسلام وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه»(٤٧).

قال السرخسى فى المبسوط فى أموال تجار الدولة المعادية بعد نشوب الحرب: «أموالهم صارت مصونة بحكم الأمان فلا يمكن أخذها بحكم

الإباحة»[٤٨]، بل إن الإسلام لحرصه على أموال التجار الذين دخلوا بعقد أمان يقرر أن التاجر المستأمن يستمر على ملكه ولو عاد إلى دار الحرب وحمل السلاح محارباً للمسلمين»[٤٩].

ولقد حفظ الإسلام حق الوالدين المشركين على ابنهم المسلم قال تعالى: **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾**[٥٠] إن حفظ حق الوالدين وإن اختلف الدين يقوم على ما للوالدين من الحق الإنسانى الذى أكرم الله - سبحانه وتعالى - به الإنسان.

٢- حقوق غير المسلمين الفكرية.

الفكر والاعتقاد وحرية إبداء الرأى والإبداع امتداد لحقوق غير المسلم الدينية، ولقد امتن الله سبحانه وتعالى على الإنسان بالعلم والتعليم عندما خلق آدم - عليه السلام - كما فى قوله تعالى: **﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾**[٥١]، وقوله جل وعلا: **﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾**[٥٢]، والعلم والتعليم حق منحه الله - سبحانه وتعالى - للإنسان فهناك التعلم بالتلقى والعلم بالاستيعاب والقدرة على الاسترجاع والإفادة من العلم بإبداء الرأى أو بالإبداع الفنى أو الأدبى أو العلمي، ولقد امتن الله - سبحانه وتعالى - على الرسل والأنبياء بذلك، وكان من أجل دعاء النبى محمد صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى: **﴿وقل ربِّ زدنى علماً﴾**[٥٣]، وهكذا كان شأن حق العلم والتعليم فى الإسلام كما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة ومنها قوله ﷺ: **«تعلموا العلم وعلموه الناس»**[٥٤].

وحرية الرأى والتعبير، دعوة إلى التفكر والمشاركة فيه، دعا إليها القرآن الكريم كما فى قوله تعالى: **﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنّة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد﴾**[٥٥]، وأثنى الله على من صَدَعَ بالحق ونادى به كما جاء فى قوله جل وعلا: **﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك إن اتبع إلا ما يوحى إلىَّ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾**[٥٦]، وشجع الرسول ﷺ أصحابه على المشاركة بالرأى وشاورهم فى

كثير من الأمور، وبَيَّن عليه الصلاة والسلام أهمية التفكر إذ أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب (التفكر)، والأصفهانى فى (الترغيب) عن عمر بن مرة قال: «**مر النبى ﷺ على قوم يتفكرون فقال: تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق**»(٥٧)، وأخرج الطبرانى وابن مردويه قال رسول الله ﷺ: «**تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله**»(٥٨)، وفتح المجتمع الإسلامى أبوابه للباحثين الذين لجأوا إليه من دول أخرى كالنساطرة، فضلاً عمن يقومون فيه، من المجوس واليهود وطوائف المسيحيين، ولم يكن هناك حجر على مناشطهم.

أما فى مسألة حقوق الإنسان فى الإبداع فإن القرآن الكريم يدعو الناس إلى استخدام حواسهم فى تناسق مستمر قال تعالى: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً**﴾(٥٩)، والسمع والبصر أهم وسائل الاتصال بالعالم حولنا، ملاحظة وتجربة واختباراً للنتائج، والفؤاد هو ذلك العمل الداخلى الذى يضع هذه المعلومات والنتائج فى محتواها وإطارها المنهجى، والآية الكريمة بهذا تجمع بين الكون والإنسان، أو بين الذات والموضوع، أو بين الرؤية والتحليل والمقارنة والاستنتاج، وأشار القرآن الكريم إلى استنباط الأحكام، وهو جهد عقلى مضاف إلى المادة العلمية الموجودة، يقول الله تعالى: ﴿**وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو رَدُّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم**﴾(٦٠).

والإبداع - فى أى أمر - هو الانتقال بمستواه إلى مستوى أعلى يكون أكثر قدرة على العطاء من المستوى الأول، وهو غير مقتصر على أفق واحد أو محدد، ولكنه جهد مثمر فى آفاق يقوم على الحق والفضل والخير.

ومن هنا تبدو ضرورة إزالة أى عائق يحول دون قدرة الفرد أو المجتمع على الإبداع يستوى فى هذا أن يكون العائق عنصراً عرقياً، أو اجتماعياً، أو اقتصادياً، أو سياسياً أو دينياً. إن الالتزام بتعاليم الإسلام لا يمنع الأديب من الإبداع ولا يمنع العالم من الاكتشاف والاختراع، ولا يمنع الطبيب من الوصول إلى أنجع وسائل العلاج وابتكار الدواء.

والقرآن الكريم يحث الناس على التفكر فى آيات الله ومخلوقاته واكتشاف أسرار الكون والنفس البشرية، يقول عز من قائل: **﴿وفى الأرض آيات للموقنين ● وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾**(٦١)، ويقول سبحانه: **﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم﴾**(٦٢).

إن الحق فى التعبير والإبداع كما يراه الإسلام يشمل التصور العام للوجود والإنسان وحقائق الكون، واستشعارها بحس سليم يمثل الذوق الفنى والأدبى لهذا الاستشعار فيما يراه من الطبيعة التى تحيطه، وما يسود المجتمع الإنسانى من سلوكيات وأخلاقيات، فالقرآن الكريم يوجه الأنظار إلى الطبيعة وما هو موجود بين السماء والأرض قال سبحانه وتعالى: **﴿إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾**(٦٣).

وقد أكد لنا الرسول محمد ﷺ الحق فى التعبير والإبداع المرتبط بالحق من ناحية وتذوقه للجمال البيانى الذى أظهر هذا الحق عندما سمع قصيدة لبيد اللامية(٦٤):

ألا كل شئ ما خلا الله باطل … وكل نعيم لا محالة زائل

إذا المرء أسرى ليلة ظن أنه … قضى عملاً والمرء ما عاش آمل

حبائله مبثوثة بسبيله … ويفنى إذا ما أخطأته الحبائل

فقولا له إن كان يقسم أمره … ألما يغطك الدهر ؟ أمك هابل

فإن أنت لم تصدمك نفسك فانتسب … لعلك تهديك القرون الأوائل

فإن لم تجد من دون عدنان والداً … ودون معد فلتزعك العوازل

وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه … إذا كشفت عند الإله المحاصل

لقد تذوق النبى الكريم ﷺ هذا الشعر، فقال وما ينطق عن الهوى: «أصدق

كلمة قالها شاعر كلمة لبيد «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» وقد أورده الإمام البخارى - رحمه الله تعالى - فى كتاب (الأدب) تحت باب (ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه)، كما أن الحديث ورد فى كثير من كتب الصحاح والسنن فقد رواه مسلم والترمذى وابن ماجة وأحمد - رحمهم الله تعالى -.

ولننظر كيف قبل الرسول الحق عندما سمع بعض شعر إنسان غير مسلم فاعترف له بحق سماع شعره كإنسان وبين ما انطوى عليه من الخير كحق فى الإبداع والتعبير وذلك عندما سمع ﷺ شعر أمية بن أبى الصلت فقد أورد الإمام مسلم - رحمه الله تعالى - فى صحيحه (كتاب الشعر) عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: " **ردفت رسول الله ﷺ فقال: هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت ؟ قال: هيه، فأنشدته بيتاً، فقال: هيه، ثم أنشدته بيتاً، فقال: هيه، حتى أنشدته مائة بيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كاد ليسلم «وفى رواية قال عليه السلام: «فلقد كاد يسلم فى شعره»** وهذه النسبة تحدد حق الإنسان فى الإبداع وهو من الجمال والزينة، والجمال مسألة لازمة للإنسان ومنها التزين والزينة كما جاء فى قوله تعالى: **﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين • قل من حَرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون • قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾**[٦٥].

٣- الحقوق الاجتماعية:

يشترك الإنسان المسلم وغير المسلم فى جملة من الحقوق العامة الاجتماعية التى نص عليه القرآن الكريم وجاءت فى السنة المطهرة. فحق الإنسان على الأرض من الشراب والطعام والكساء والمسكن والأمن وحق العمل والحركة على

الأرض وحقوقه المكتسبة وحقوق التكافل الاجتماعى وحقوق التقاضى كل ذلك يأتى فى سياق الخطاب العام الموجه للناس فى آيات الكتاب الحكيم والأحاديث النبوية الشريفة تشمل الناس جميعاً وتوصى المسلمين بغيرهم لاشتراكهم فى الحقوق الإنسانية، وأن حقيقة الحياة على الأرض أساسها تفرع البشر والناس من أبوين جعلت منها الشعوب والقبائل قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾(٦٦) ولكل شعب وقبيلة دار وموطن ولكل دار وبلد حرمة وحق، والتباين بين أنواع الشعوب والقبائل فى الآية مدعاة إلى التكامل والتعارف بين الناس، ومن حق المواطنين المسلمين مثلما هو واجبهم فى الوقت نفسه حماية أوطانهم والدفاع عنها، وحماية الذميين المستأمنين الذين يعيشون معهم لتستمر الحياة الاجتماعية بدءًا من تكوين الأسرة الصغيرة.

وتكوين الأسرة الصغيرة يبرز للإنسان (حواء) أمنا الأولى وتتخذ الحياة الإنسانية صورتها الباقية الصحيحة على طريق الحياة. يقول الله تعالى: ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾(٦٧). إن الحق فى تكوين أسرة من أبرز الحقوق فى الحياة الإنسانية، وقد بينت الآية دعائمه: سكون الزوج إلى الزوجة. المودة. الرحمة. والأساس أن أزواجكم من أنفسكم. وحرم الزنا مقابل الزواج المشروع، قال عليه الصلاة والسلام: «**الدنيا كلها متاع، وخير متاعها الزوجة الصالحة**»(٦٨)، كما قال ﷺ: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله**»(٦٩)، وهذه المواصفات قيم إنسانية تسعد بها أى أسرة: تنهى عن الزنا، وتحمى الأمم من ضياع الأنساب وفساد الأخلاق، وحفظ حق الإنسان من الاعتداء على الأعراض. والإسلام يحرم تحريماً كل ضروب الزنا واللواط والدعارة والقوادة... إلخ ولا يدع سبيلاً لاتصال الرجال بالنساء إلا عن طريق الزواج الذى يكفل حقوق الزوجين والأولاد والمجتمع وينظف البيئة من جميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

الإسلام يشجع تعدد الزوجات ويمنع وجود العشيقات ونساء الهوى وهو يعاقب على الزنا، ويثيب على الزواج وتعدده بشروطه وأحكامه. إن حقوق الإنسان والمجتمع لا تُحفظ بترك البغاء والدعارة والزنا (الاحترافى وغيره) مرخصاً به، دون حظر أو تحريم أو محاربة أو عقوبة وإلا تهدمت الأسر، وكثر أتباع السفاح الذين يكونون أخصب بيئة للجريمة والفساد.

فتح الإسلام باب العمل أمام الإنسان باعتباره حقًا اجتماعيًا، ولم يجعله مجرد حق له، بل رعاه وأثابه عليه وحثه على الحركة والنشاط، كما فى قوله تعالى: **﴿والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾**(٧٠)، وقوله تعالى: **﴿وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾**(٧١)، وعن الثروات والصناعات المعدنية والعمل فيها يقول جل وعلا: **﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد • أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحاً إنى بما تعملون بصير﴾**(٧٢)، وعن التجارة والعمارة يقول عز من قائل: **﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾**(٧٣).

هذه مجرد أمثلة وليست استقصاء. وهى تبين آفاق العمل المفتوحة أمام الإنسان ينشط فيها وفى نظائرها. وللإنسان الحق فى الأجر إذا كان يعمل لغيره. قال تعالى: **﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين • قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج﴾**(٧٤).

وتمتد الرعاية الإسلامية إلى أهل الذمة وكفالة حقوقهم الاجتماعية، منها ماكان فى خلافة أبى بكر الصديق رضي الله عنه، إذ كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه فى عقد الذمة لأهل الحيرة بالعراق، وكانوا من النصارى: «وجعلت لهم: أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله»(٧٥).

إن توفر السلطة عند الحكومة الإسلامية وقيامها بمسؤولياتها، وإمكانية وصول الأفراد إليها، هو فى ذاته «حق» أو على الأصح «مجموعة من الحقوق» وهى متداخلة - عملياً - مع نسيج الحقوق السابقة، ونستطيع أن نذكرها كمهيمنة على الحقوق السابقة جميعاً، أن نضعها تحت عنوان " الحق فى العدل " بمفهومه الإسلامى الواسع الذى يضم آفاق الحياة وفيه الحق فى التقاضى.

ويضع الإسلام الحياة فى ميزانها العادل فى آيات بينات جاء فى قوله تعالى: ﴿**والسماء رفعها ووضع الميزان • ألا تطغوا فى الميزان • وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان**﴾(٧٦)، يقول ابن كثير: " والميزان: هو العدل كما قال الله تعالى: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾، وهكذا قال هاهنا ﴿**ألا تطغوا فى الميزان**﴾ أى خلق السموات والأرض بالحق لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل، ومن هذا الميزان العام ينبع العدل فى التقاضى: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعِمَّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً**﴾، ويقول تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون**﴾، وعلى القاضى العدل فى مجلسه وإقباله على أطراف القضايا»(٧٧)، جاء فى خطاب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبى موسى الأشعرى ﷺ قوله: «آس بين الناس فى مجلسك وفى وجهك وقضائك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك» (٧٨)، وهذا التوجيه يشمل العدل والمساواة فى حق المسلم والذمي، ولا شك فى أن من الإيذاء الجور فى الحكم لاختلاف الدين، يقول الإمام على بن أبى طالب ﷺ : «إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا» (٧٩).

ولعل من تمام هذه الحقوق أن يكون المسؤول القائم بأمرها مؤمناً بها ديناً يسألهم الله عنها ويحكمون بين الناس بها، أنها عندهم - أى المسلمين - دين ونظام وحياة، وعند أهل الذمة حياة، وليست ديناً يدينون به، فموقف المسلمين

فى تطبيقها والمسؤولية عنها يدعو إلى أن يقوموا بأمر المجتمع الإسلامى والإنسانى مع اختلاف الدين وتباين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية أن تأخذ حقها فى النمو الطبيعى والفكرى، وتتعاون جميعاً فى خدمة الدولة الإسلامية والمجتمع الإنسانى الذى يعيشون فيه وتبشر بهذه الحقوق الإنسانية وهى من الله فضل ونعمة.

يذكر ابن قدامة (شمس الدين) فى (الشرح الكبير) «وإذا عقد الذمة (أى الإمام) فعليه حمايتهم من المسلمين وأهل الحرب وأهل الذمة، لأنه التزم بالعهد حفظهم». ومن كتاب عمر للخليفة بعده: «وأوصيته بأهل ذمة المسلمين خيراً أن يوفى لهم بعهدهم ويحاط من ورائهم» (٨٠).

ثالثاً: حقوق غير المسلمين فى الحرب.

١- مفهوم الحرب فى الإسلام:

الحرب هى الوسيلة النهائية من وسائل الإكراه التى تلجأ إليها الدول لحل منازعاتها إن لم تفلح الوسائل السلمية فى فض النزاع كالمفاوضات والتدخل الفردى والوساطة والتحقيق والتوفيق والتحكيم، وتكون الحرب مشروعة فى حالتين اصطلح عليهما القانونيون الدوليون وهما:

١- أن تكون الحرب دفعاً لاعتداء واقع بالفعل كدفاع عن النفس، وهذا قد جاءت به الشريعة الإسلامية كما فى قول الله تعالى: **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾**(٨١) فالآية تقيد رد الاعتداء بالقدر اللازم دون مجاوزة أو تنكيل.

٢- أن تكون الحرب لحماية حق ثابت لدولة ما انتهكته دولة أخرى دون مبرر وذلك كجزاء لحماية هذا الحق.

أما الحرب غير المشروعة فهى الاعتداء رغبة فى السيطرة وبسط النفوذ السياسى، والاقتصادى، والدينى، والحضارى ... إلخ، وهذه لا يقرها القانون الدولى ويسميها الحرب غير العادلة.

أما موقف الإسلام من الحرب فإنه لا يجيزها إلا فى حالات محدودة، وما عداها فهى جريمة وحرب غير عادلة، كما أن الإسلام يوجب عند قيام الحرب العادلة الأخذ بمبدأ الإعلان وعدم المباغتة، وقد شوه كثير من المستشرقين والقانونيين المفترين على الإسلام بما هو براء منه، وصوروه بصور كريهة، وخاصة فى مسائل الجهاد، حيث ادعوا أن الجهاد فى الإسلام يقوم على القهر والغلبة، وفرض دين الإسلام على جميع الأجناس والأديان، والإسلام - كما يزعمون - قد أعلن الحرب على جميع الشعوب لنشر دعوته بالسيوف. كما زعموا بأن الإسلام لا يراعى العهود والمواثيق والمعاهدات وأنه سمى الحرب جهاداً فى سبيل الله منَّى فيها الإسلام المقاتلين بالأمانى الباطلة بأن لهم الجنة لمن قتل منهم فى محاربة الكفار.

ويبدو أن تلك الاتهامات هى دليل على الجهل والنقص والتعصب فكيف يسوغ لمنصف أن يقبل الافتراء على الإسلام بمثل ذلك البهتان من القول المبنى على الجهل والحقد والتعصب ضد شريعة رب العالمين، فالله تعالى قد رسم لرسوله ﷺ الطريق الذى يجب أن يدعو له إلى الدين، بالتدبير وإعمال الفكر مع الصبر وترك الأذى بدليل قوله تعالى: **﴿فذكّر إنما أنت مذكر ● لست عليهم بمصيطر﴾**[٨٢]، وقوله تعالى: **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن﴾**[٨٣]، وقوله تعالى: **﴿وما أنت عليهم بجبار فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد﴾**[٨٤]، وبعد ذلك كله فإن كتاب الله يمنع الرسول ﷺ والمسلمين من إكراه الناس على الإسلام، وإنما بالبيان لطريق الخير، قال تعالى: **﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾**[٨٥].

لذا فالإيمان الذى يجىء عن طريق الإكراه لا قيمة له ولا كرامة لصاحبه، ولا اعتداد به عند الله، كما أنه ليس فى طبيعة الدعوة الإسلامية من التعقيد والغموض والمشقة العقلية ما يحتاج معه إلى إكراه سواء أكان إكراهاً مادياً أو معنوياً، وكذلك فالدعوة الإسلامية لا تخالف سنة الله من حيث ترك الناس وما يختارون لأنفسهم عن طريق النظر والإقناع، كما أن الشريعة لا تبيح اتخاذ الإكراه كوسيلة من وسائل الدعوة إليها، لأن صاحب الدعوة ليس مسؤولاً أمام

الله إلا عن مهمة إبلاغ الرسالة التى يبينها القرآن الكريم، وهى التبشير والإنذار وليس هو مطالباً بإيمان الناس حتى يسمح له بإكراههم.

من كل ذلك يتضح بأن المسلمين كانوا يدعون إلى عبادة الله بالحكمة والموعظة الحسنة، بينما أعداء الإسلام يردون هذه الدعوة بالقوة والعنف والتعذيب والتشريد والقتل، وهذا مما اضطرهم أن يهاجروا فراراً بدينهم، وخلاصاً من الحرب المسعورة الظالمة التى أعلنتها قريش عليهم وتركوا لقريش أموالهم ومساكنهم وذراريهم بعد ثلاث عشرة سنة من الاضطهاد. وكان طبيعياً أن يتوقع المسلمون أن جيوش الشرك من قريش لابد أن تلاحقهم فى مهجرهم بالمدينة بعد أن أعلنت الحرب عليهم وأخرجتهم من مكة وكان مقتضى ذلك أن يحتاط المسلمون للأمر ويتخذوا له أهبته حتى لا تفاجئهم قريش بحرب ولا تأخذهم على حين غرة.

والجهاد فى الإسلام معناه تحطيم مملكة الشر، فالإسلام يحطم مملكة عبادة البشر ولا يحطم مملكة البشر التى تحكم بما أنزل الله، لأنه يعمرها بالخير والاستقامة والعدالة، وإنه يحطم مملكة الشر ويحطم عبادة الناس والأصنام والأوثان لإقامة مملكة الله وحده فى الأرض وعبادته إلهاً واحداً لا إله غيره بيده ملكوت السموات والأرض.

والجهاد الإسلامى هو غير الحروب المعروفة بين الناس بقصد الاستيلاء والتوسع والاستعلاء البشرى إنما هو الدعوة إلى الله فى سبيل تحرير الإنسان من العبودية لغير الله وإعلاء ألوهية الله وحده، وهذا ما يشير إليه قول الصحابى الجليل ربعى بن عامر ورفاقه عندما سألهم رستم القائد الفارسى عن سبب خروجهم لقتال الفرس، فأجابوا: «إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» (٨٦)، والأسباب الأخرى التى دعت ودفعت المسلمين إلى الاعتراك مع أعداء الدين يمكن حصرها فى سببين رئيسين:

أولهما: حماية الدعوة الإسلامية من عدوان خصومها من عرب وعجم حيث

حاول كسرى الفرس قتل الرسول ﷺ وبذل العطاء لمن يأتيه برأس النبى عليه الصلاة والسلام، وكذلك فعل هرقل ملك الروم عندما أمر بقتل كل من أسلم من أهل الشام.

وثانيهما: محاربة أعداء الإسلام الذين نقضوا العهود والمواثيق القائمة بين الدولة الإسلامية وأعدائها من قبل الأعداء، كما فعلت قريش بعد معاهدتها فى الحديبية، وكذلك نقض اليهود للعهود المبرمة مع المسلمين وتحزيبهم فى غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق ضد الإسلام.

هذه الحرب المشروعة فى التشريع الدولى الإسلامى، والتى ينص عليها القانون الدولى الوضعى حالياً، بل يتضح من الآيات التى تدعو إلى الجهاد بأن الله أمر المسلمين بأن يقاتلوا من يقاتلهم على ألا يبدأوا بالعدوان، ولكن لابد أن يختاروا فى قتالهم الحد الكافى فى رد العدوان، ويؤيد ذلك نهى الرسول ﷺ عن قتل من ألقى السلام أو من أدبر ممن بدأ بالقتال.

ومع هذا كله فإن الإسلام لايجيز القتال أو الحروب إلا لضرورة، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم فى قوله جل وعلا: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم**﴾(٨٧)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿**وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾(٨٨)، بل إن الإسلام يدعو إلى السلم وهو دين السلام، حيث يقول عز من قائل سبحانه: ﴿**وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم**﴾(٨٩).

فهذا هو اسم الإسلام المشتق من السلام الذى أساسه الاستسلام والخضوع لله رب العالمين دون غيره، قال تعالى: ﴿**بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه**﴾(٩٠)، بل وجعل الله تحية المسلمين بكلمة (السلام عليكم ورحمة الله) فى حياتهم وصلاتهم، وحتى يلقون ربهم فى الجنة التى سماها (دار السلام)، وأعظم من ذلك فإن الله تعالى سمى نفسه بالسلام كاسم من أسمائه الحسنى، كما يحيى عباده الصالحين يوم يلقونه فى الجنة بالسلام بقوله تعالى: ﴿**الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾(٩١).

كل ذلك يؤكد أن السلم والسلام هو أصل كل علاقة بين المسلمين مع غيرهم من أهل الأديان الأخرى، ما لم تقم من جانبهم حرب واعتداء على المسلمين لأن السلم والسلام يسهل للبشر معرفة الإسلام ونشره، وهكذا يتم بمنتهى التسامح بين كافة الأديان نحو الخير والسلام ومعرفة الله بحق وصدق ويكون هناك حوار بين الحضارات والثقافات، ويتم التعارف والتعاون فى ظل الأمن والسلام والحق والعدل.

والحرب والقتال فى الشريعة الإسلامية مخالف لكل النظريات السياسية والفلسفات الاجتماعية والفكرية التى ترى فى الحرب والعنف غريزة أصلية فى الإنسان. وثابتاً من الثوابت القديمة. جاء الإسلام ليقرر القتال إنسانياً ودينياً وأنه أمر مكروه وطارئ تفرضه الضرورات وتضبطه الأخلاقيات الإسلامية والإنسانية ليكون مقصده خيراً وصلاحاً وليس شراً وفساداً. قال تعالى: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم**﴾(٩٢)، ومن تتبع آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية فى أحكام القتال والحرب من الأذى به أو الأمر به أو وجوبه أو الحض والتحريض عليه لا يخرج عن كونه رد عدوان المقاتلين للمسلمين فى الدين أو إخراجهم من ديارهم أو المظاهرة عليهم أو المساعدة على الاعتداء. وليس هو توسعاً أو سيطرة. قال تعالى: ﴿**الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين**﴾ (٩٣).

ولعل خير شاهد هو موقف المسلمين من المشركين الذين نقضوا صلح الحديبية مما اضطر الرسول ﷺ أن يسير إليهم بعشرة آلاف رجل، ولم يكن همه القتال، وإنما كان أقصى ما يريد هو أن يخلص بيت الله الحرام من دنس الأوثان والأصنام التى أرجسته وشوهت حقيقة الدين الحنيف الذى جاء به إبراهيم عليه السلام منذ آلاف السنين، قد رد رسول الله - عليه الصلاة والسلام - على القائل عندما اقترب الجيش المسلم من مكة: هذا يوم الملحمة، بقوله ﷺ: «**بل هذا يوم المرحمة**»(٩٤)، بل إنه قبل دخول المسلمين إلى مكة نودى فى أهلها أن: «**من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن**» (٩٥).

ودخل رسول الله ﷺ مكة من غير حرب أو إراقة دم، ولو كان يريد تشفياً كما يرجف المرجفون لأمعن فى قريش قتلاً جزاء ما عملوه فيه وفى المسلمين، ولكنه دخلها دخولاً ما دخله أحد من قبله ولا من بعده، بل دخلها وذقنه يمس قربوس فرسه خضوعاً وشكراً لله تعالى.

وبالجنوح للسلم فالإسلام يحث المسلمين على مراعاة العهود، واحترام المواثيق وأن يراعوا قول الله تعالى: **﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون﴾**(٩٦)، وقوله: **﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً﴾**(٩٧)، وقول رسول الله ﷺ: **«من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة»**(٩٨).

وبعد فإن كل هذه التوضيحات تكفى رداً على الحاقدين من أعداء الإسلام ممن يدعون بأن الإسلام يبيح نقض العهود بعد توكيدها، والحق أن ذلك كان – كما ورد فى كتب القانون الدولى – من فعل الباباوات الذين ادعوا لأنفسهم حق إبرام المعاهدات ونقضها متى يشاءون، فمثلاً (البابا أوربان السادس) قد حرم كل الأحلاف وأبطلها مع غير المسيحيين واعتبر كل ما عقد معهم من عهود يعد باطلاً مهما كانت المعاهدات سابقة أو مستقبلية. وقد قال بلونتشلى فى مقالة له فى دراسات أكاديمية القانون الدولى: (بأن الكنيسة ما كانت تعرف حقاً لغير المسيحيين، أما بالنسبة لغيرهم فليس لهم إلا الحرب، فأين هذا مما حث عليه القرآن الكريم الذى أوصى باحترام العهود والمواثيق مع جميع الأمم والدول مهما كانت أديانها وجنسياتها كما أوضحنا ذلك سابقاً(٩٩). ولا ننسى ما يطفح به تلمود اليهود من الأقوال التى تدعو إلى قتال الأغيار دون رحمة أو هوادة. ولعلنا نحيل القارئ إلى كتاب إسرائيل شاحاك (الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود) وما فيه من أقوال عن القتال وحرية الدم اليهودى وإهدار دماء الأغيار وإبادتهم.

ثم إن دعوى أن الإسلام قد سمى قتال الكفار والمشركين جهاداً فى سبيل الله فهذا صحيح لأن ذلك رد لاعتداء، ويعد حرباً عادلة ما دام فى حدود الشرع

الإســلامى. والجـهـاد بذلك لا يعنى إكـراه الناس على الدخـول فى الإسـلام أو الإكراه فى الدين وهذا يؤكد أن الجهاد الإسلامى لم يقتل فيه آلاف من المسلمين كمـا فعل الاسـتعمار الغربى للدول الإسلامية فى العصور الوسطى والحديثة، وشواهد التاريخ فى ذلك لا تنكر.

ويؤكد الكاتب الإنجليزى (توماس كارلايل) إن الإسلام لم ينشر بحد السيف فيقول: «ولقد قيل كثيراً فى شأن نشر محمد دينه بالسيف، فإذا ما جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه فشد ما أخطأوا وجاروا، إنهم يقولون: ما كان الدين ينتشر لولا السيف، ولكن ما هو الذى أوجد السيف ؟ هو قوة هذا الدين وأنه حق. ولم يروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً ؟ وحسبكم ما فعل «شارلمان» بقبائل السكسون ! »(١٠٠).

كما يعلق (الكونت دى كاسترى) على حروب المسلمين مع غيرهم فيقول: «ولقد أطلنا القول فى مسألة المسلمين عند انتشار دينهم فى الغرب، لأن الضد ثابت فى أذهان المسيحيين، ولا يزال مستحكماً من نفوسهم إلى يومنا هذا مما أظهره المؤرخون، ومن طافوا بلاد الشرق من مخالفته للواقع. قال (ميتشو) فى تاريخ الحروب الصليبية: «لما استولى عمر على مدينة أورشليم، لم يفعل بالمسيحيين ضرراً مطلقاً، ولكن لما استولى المسيحيون على تلك المدينة قتلوا المسلمين، ولم يشفقوا بهم وأحرقوا اليهود، وعلى هذا يتحقق أن الدين الإسلامى لم ينتشر بالعنف والقوة»(١٠١).

٢- مبادئ التعامل مع غير المسلم فى الحرب وحقوقه:

بعد هذه الاستهلالة العامة عن مفهوم الحرب ومفهوم الجهاد فى الإسلام فإننا سنعرض أحكام الشريعة الإسلامية وبيانها لحقوق غير المسلمين فى الحروب، والواضح مما سبق أن الإسلام لا يجيز الحروب ولا يدعو إليها بل ينبذها ويكرهها، ولكن إذا وقعت وصارت ضرورة لازمة فإن الإسلام لم يحرم غير المسلم حقوق إنسانيته فى هذه الظروف الحرجة الضيقة. فقد شرع الإسلام لذلك شرعاً مطهراً أمر نبيه ﷺ وجميع المسلمين الالتزام به وعدم

الخروج عنه قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحلُّوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾**(١٠٢). وقد سبق أن أشرنا إلى أن الإسلام عندما يضطر إلى خيار الحرب يفرض على المسلم شروطاً تهذب سلوك المقاتل المسلم وتحفظ للخصم كرامته الإنسانية كغرض إلهى أساسى للإنسان، ولننظر ذلك فى وصية رسول رب العالمين حيث قال: «**اغزوا باسم الله فى سبيل الله، واغزوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا تعتدوا ولا تمثلوا**»(١٠٣)، فهذه الوصية توضح مدى رأفة المسلمين وحرصهم على عدم إراقة دماء الأبرياء، بل إنهم لا يودون حتى إراقة دم المعتدين إن كفوا عن عدوانهم، ولهم حق اختيار الإيمان بالله وحده طوعاً، أو البقاء على دينهم السابق مقابل دفع الجزية خضوعاً ومشاركة منهم فى دفع نفقات دفاع الإسلام عنهم وعن أموالهم وأرضهم وأهلهم ودينهم، وهذا منتهى السلم، مع حرية الاعتقاد الذى دعا له الإسلام. وهذه الوصية التى جاءت قبل آلاف السنين من صدور قانون باريس البحرى أو اتفاقية جنيف فى أسرى الحرب وغيرهم، إنما تدل على سبق الإسلام إلى حقوق الإنسان فى هذا الجانب.

وهكذا فعل الخليفة الأول لرسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه فى وصيته إلى الطليعة العسكرية المسلمة ومما جاء فيها قوله: «**لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوا، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله. وسوف تمرون بقوم قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم شيئاً منها فاذكروا اسم الله عليه**»(١٠٤).

إنها وصايا إسلامية تفيض بالسماحة والتكريم لشخص الأعداء وأرضهم وأموالهم. التى رسمت الخطوط لقيود الحرب، وضبطت بها الشريعة الإسلامية

حدود القتال الإسلامى إلى جانب الحرص على احترام الأشخاص وكرامتهم وكف الأذى عن أرضهم وبيئتهم وكفالة حرية العبادة والعقيدة ودور العبادة... إلخ.

هكذا إذن فالإسلام يحفظ حرمة الإنسان وحقوقه إذا لم يكن محارباً أو مقاتلاً أو أنه كان أعزلاً من السلاح، بل ويأمر الإسلام بالمحافظة على الأموال والممتلكات وعلى البيئة والحياة الطبيعية، التى هى منح وحقوق أكرم الله جل جلاله بها الإنسان لكى يجدها الإنسان إذا ما وضعت الحرب أوزارها سليمة غير مفسدة، وأين هذه التعاليم الإسلامية مما فعله الإنسان بصناعة أسلحة الدمار والخراب بالأنفس والديار التى يذكرها التاريخ عن الماضى ونشهدها اليوم فى الحاضر وما يجرى فى فلسطين وغيرها من بلاد المسلمين ؟ إن القوم رصدوا أموالاً كثيرة للحرب وأدواته أكثر مما هو مخصص للتعليم والصحة والكفالة الاجتماعية فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة، إن أخلاقيات الإسلام فى الحرب وحفظ حقوق الإنسان ترحم الإنسان عندما تزول عنه صفة المقاتل عندما يعجز عن حمل السلاح أو يصبح غير قادر على المشاركة فى الحرب أو أن يسقط جريحاً أو مريضاً أو أسيراً أو حتى عند إلقاء السلاح وإعلان الاستسلام يقول تعالى: **﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلَم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾**(١٠٥).

والإسلام يحفظ حق الأسير لآدميته وإنسانيته وإن كان مقاتلاً وخائناً ومعتدياً فى الأصل، فحرم قتل الأسرى وفتح أمامهم باباً واسعاً لفك أسرهم فإن اعتنق الإسلام بدون إكراه فك أسره، وقد يفك أسره بدون مقابل أو حتى بفداء، وقد قال الحسن وعطاء: لا يقتل الأسير بل يمن عليه أو يفادى به قال تعالى: **﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قُتِلُوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾**(١٠٦).

وقد ورد عن أبى هريرة رضي الله عنه أن خيلاً للمسلمين أسرت ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة، وجاءوا به إلى المدينة فقال ﷺ: «**أحسنوا أساره واجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه، ثم سأله النبى ﷺ ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندى يا محمد خير إن تقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما تشاء، فتركه إلى الفداء ثم أمر بإطلاق سراحه بغير فداء**»(١٠٧)، وقد أثر هذا الصنيع فى ثمامة فأسلم وحَسُنَ إسلامه. كما ورد عن الرسول ﷺ أنه قد مَنَّ على أبى عزة الجمحى وأبى العاص بن الربيع والمطلب بن حطب يوم بدر بالفداء، وكان ﷺ أيضاً قد من على جميع أهل مكة يوم الفتح حينما قال لهم: «**ما تظنون أنى فاعل بكم ؟» قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء**»(١٠٨).

ومن ناحية أخرى هناك الفداء أو البدل كما جاء فى قوله تعالى: (وإما فداء) وللفداء أشكال كثيرة، فقد يكون تبادلاً شخصياً حيث يبادل أسرى العدو بأسرى المسلمين لديه، وقد صح عنه ﷺ أنه فدى رجلين من أصحابه برجل من المشركين من بنى عقيل، وقد يكون تبادلاً مالياً إن لم يكن للمسلمين أسرى لدى الأعداء، والبدل هو الجُعْل المالى الذى يقدره ولى الأمر وتدفعه دولة الأسير أو يدفعه الأسير نفسه من ماله ليفتدى به، فإن عافه قومه ولم يكن يمتلك مالاً كان الفداء بما يناسب حاله.

ومن عناية الإسلام بحقوق الإنسان فى الحرب، جثث القتلى، فلقد اهتم الإسلام بذلك الجانب اهتماماً بالغاً بوصف الإنسان مخلوقاً آدمياً كرمه الله بخلق كريم فصوره فى أحسن تقويم فذلك قوله تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم**﴾، وكذا قول النبى ﷺ: «**إن لله عباداً اختصهم بالنعم لمنافع العباد يقرها فيهم ما بذلوها فإذا منعوها حولها منهم**»(١٠٩).

ولقد أمر الرسول ﷺ أن يدفن المقتول حيث صرع تكريماً له ولآدميته، فالإنسان تظل كرامته بعد موته، وهذا ما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «**لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر**»(١١٠)، وإلى هذا الحد يحترم الإنسان الجثة

الإنسانية ويحافظ عليها، كما ينهى الإسلام عن نبش القبور وهى صورة أخرى لاحترام الجثة الإنسانية.

إن ما ذكرناه من نماذج عن حقوق غير المسلم فى الدولة المسلمة وغيره مما لم نذكره عن سماحة الإسلام وتسامحه وتعايشه مع الآخرين ونزوعه إلى إفشاء السلام الجماعى العالمى يقوم دليلاً على أن الإسلام كان ثورة تحريرية للعالم ونظاماً عالمياً جديداً، وأن ما يحتضنه من مبادئ وقيم تصلح صلاحاً أبدياً لقيادة الإنسان نحو مستقبل أفضل وأسعد لصونه وحفظ حقوقه.

رابعاً: الأقليات فى جمهورية مصر العربية :

يشهد واقع الناس اليوم بحياة غير المسلمين فى بلاد الإسلام بصفتهم أقليات دينية مواطنة فى جمهورية مصر العربية والجمهورية السورية والعراق وباكستان والمغرب وغيرها من دول الإسلام، كما تعيش كثير من الجاليات غير المسلمة فى دول الإسلام فى دولة الكويت ودولة الإمارات العربية المتحدة ومملكة البحرين ودولة قطر وسلطنة عمان والمملكة العربية السعودية.

ولكل صنف من الأصناف حقوق محفوظة فى بلاد الإسلام استناداً إلى أحكام الشريعة الإسلامية، وانطلاقاً من الروابط الوطنية والمصالح العليا للبلاد، برغم التحرش السياسى والمناداة بضياع حقوق الإنسان من قِبَل أعداء الإسلام للاعتداء على الإسلام ولتفتيت الوحدة الوطنية كما نراه فى حق أرض الكنانة، فى بلد الأزهر الشريف، فى جمهورية مصر العربية، حرسها الله وكل بلاد المسلمين من كل شر وانقسام.

لا يخفى على أحد أن جمهورية مصر العربية تضم على أرضها مواطنين مسيحيين عرب منذ زمن طويل، وهم محل وصية رسول الإسلام الرحمة المهداة النبى الأمى محمد ﷺ الذى قال: «**استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحما**»[111]، فهم خلق تربط المسلمين بهم صلة الإنسانية وصلة العروبة وصلة الديانات السماوية فنبيهم عيسى ابن مريم البتول صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً. وقال عليه الصلاة والسلام: «**الله الله فى قبط مصر فإنكم**

ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وعوناً فى سبيل الله»(١١٢). وفى حديث آخر يقول النبى ﷺ: «**إنكم ستقدمون على قوم جعدة رؤوسهم، فاستوصوا بهم خيراً فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله تعالى**»(١١٣) وهذا يعنى قبط مصر.

إن الأقباط فى مصر يتمتعون بحقوقهم الإنسانية فى التعليم والصحة وتقلد الوظائف الحكومية الرسمية وغير الرسمية، وغالبية عظمى منهم تمسك بزمام الشئون التجارية والاقتصادية، ويشترك أقباط مصر ومسلميهم فى المواطنة المصرية الواحدة والوحدة الوطنية المتماسكة. ولا أود استرجاع تاريخ مصر فى العهد الإسلامى وما تلاه من عصور فى رعاية الأقباط وحفظ حقوقهم خشية الإطالة، ولكن يكفى فى هذا المقام أن أوضح مدى تمتع الأقباط بحقوقهم وتمسكهم بالوحدة الوطنية وحياتهم مع المسلمين فى ظل الدولة الإسلامية ما أفرزته زيارة وفد اللجنة الأمريكية للحريات الدينية إلى جمهورية مصر العربية عام ٢٠٠١م، وكان هناك الموقف الوطنى الموحد بين المصريين من الأقباط والمسلمين فى مواجهة ذلك الوفد وتوضيح أغراضه التى جاء من أجلها إلى مصر. فاللجنة الأمريكية للحريات الدينية استند إنشاؤها إلى تشريع صادر من الكونجرس الأمريكى عام ١٩٨٨م (١١٤)، يختار أعضاؤها بمعرفة الكونجرس بحيث لا يكون من أعضائها أى مسؤول حكومى. واللجنة تجد تأييد من معظم الأحزاب الأمريكية السياسية. ولما كان هذا هو واقع هذه اللجنة فإن رجال الدين المسيحى وعلماء الإسلام كانوا يرون أن زيارة اللجنة إلى مصر هو تدخل فى شئون جمهورية مصر الداخلية، وحسب تأكيد البابا شنودة نفسه فإن الأجانب لا حق لهم فى التدخل فى الشئون الداخلية لمصر، وهذه قناعته الخاصة التى لن تتغير، وهو نفس ما قاله عدد كبير من قيادات الكنيسة وفى مقدمتهم الأنبا ويصا، الذى رفض زيارة الوفد بشكل صريح واعتبرها بلا سبب لأن الأقباط لم يطلبوها ولم يكن هناك سبب لحضورهم (١١٥).

ويؤكد الأنبا مرقس – أسقف شبرا الخيمة بقوله: إن الأمريكان لا يبحثون إلا عن مصالحهم فقط وقبل كل شئ؛ لأن الكونجرس لا علاقة له بأقباط مصر أو مسلميها ليرعى مصالحهم (١١٦).

ويرى القس منيس عبدالنور - راعى الكنيسة الإنجيلية بقصر - الدوبارة أن مجرد الاستشارة الأجنبية فى أحوال البلاد مرفوضة، فما بالك بالتدخل الأجنبى فى وحدة مصر، لأن التدخل الأجنبى يزيد حجم أى مشكلة ويضخمها لمجرد أن يثبت أنه جاء إلى مصر فى الوقت المناسب. لكن الحقيقة أن مشاكلنا نحن أقدر على حلها فكل مشكلة لها حل والدولة تتعاون مع الكنيسة بشكل جيد لحل كل المشاك (١١٧).

ويرفض الدكتور فيليب اسكاروس - عضو الحزب العربى الديمقراطى - تسمية هذا الوفد بأنه لجنة حريات، فالأصدق أنها لجنة مشبوهة هدفها إثارة الفتنة، رغم أن القانون والدستور المصرى يعامل الجميع مسلمين وأقباطًا بالمساواة فالدين لا يلعب دوراً فى تمييز أحد داخل مصر (١١٨).

أما إذا كانت زيارة الوفد خاصة بالتحقق من قضية الكشح بعد الحكم الأخير، فكما يقول كمال زاخر إنه لا داعى لهذه الزيارة وهى مرفوضة، فالأقباط لا يزايدون على وطنهم، لأن النيابة أنهت المشكلة وتقدمت بطعن أمام محكمة النقض قالت فيه: إن الحكم خالف القانون وأخطأت تطبيقه، وأن الأسباب التى قام عليها لا نجد لها صدى فى الأوراق، لا أقول إن مصر ليست بها مشاكل لكن هذه المشاكل تحل فى إطار القنوات الشرعية للدولة والحوار مع المسؤولين، وليس من خلال وفد أمريكى جاء بناءً على أقوال مرسلة لبعض الأفراد يعلمون تماماً أنهم غير صادقين (١١٩).

وموقف الأزهر لم يكن مخالفاً للكنيسة فالدكتور سيد طنطاوى- شيخ الأزهر- قال : لم يصلنى أى طلب رسمى أو غير رسمى للقاء هذا الوفد، لكن إذا طلبوا المقابلة فبابى مفتوح للجميع لأسمع منهم ما يقولون، ولكى أؤكد لهم شيئاً واحداً وهو أن مصر مجتمع يعيش فى نسيج واحد فوق أرض واحدة تظلنا سماء واحدة لا فرق بين مسلم ومسيحى (١٢٠).

أما مشايخ الأزهر وعلماؤه فهم يعترضون بشدة على اللجنة، مؤكدين أنها لجنة خبيثة تريد النيل من وحدة المصريين على حد تعبير الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر، لأن الادعاء باضطهاد الأقباط فى مصر - كما يصفه الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر - نار يشعلها الحاقدون وخطوة غربية لضرب الإسلام فى مصر لأنها أكثر القلاع الإسلامية مناعة، لكنهم لن ينالوا

هدفهم لأن التاريخ يؤكد أن الأقباط عاشوا أحسن ما عاشوا فى مصر فى الإسلام ورعايته (١٢١).

أما الدكتور عبدالصبور شاهين - الأستاذ بجامعة القاهرة - فيعتبر هذه الزيارة عدوانًا على مصر، وإهانة لأحكام القضاء المصرى، ومحاولة أمريكية لإغراق مصر فى الفتن الطائفية ويحاولون الاعتماد فى ذلك على أقباط المهجر (١٢٢).

ولهذا فقد أكد البابا شنودة فى حديث قال فيه: «إن أقباط المهجر لا يعرفون حقيقة ما يحدث فى مصر، مما يجعل وفد لجنة الحريات فى جهل وغفلة عن الحقيقة»(١٢٣)، وهذا ما أكده المعاون البطريكى للكاثوليك حيث قال: «قابلنا اللجنة لأننا لا نخفى شيئاً»(١٢٤). ولما كانت أغراض الوفد الأمريكى معلومة، ولما كانت الحقيقة بينة فى مصر قال الدكتور رامى لكح: «هل من حقى كبرلمانى مصرى أن أذهب إلى أمريكا وأتحدث عن مشاكل الهنود الحمر»(١٢٥)، وتحدث لدكتور أسامة الباز المستشار السياسى للرئيس محمد حسنى مبارك بأن مصر لا تقبل التقارير المغلوطة عن المصريين وحياتهم سواء كانوا مسلمين أو أقباطًا قال: «إنه من ضميرنا أن يتعامل المسيحى كأى مسلم بلا فرق ليس إرضاءً جماعات معينة بالخارج وإنما إرضاءً لمسؤوليتنا القومية وواجبنا لأن ذلك يتعلق الهوية المصرية والمواطنة»(١٢٦).

كما يلحظ أن رجال الدين المسيحيين فى جمهورية مصر العربية رفضوا مقابلة اللجنة الأمريكية للحريات الدينية، وقد قال بهذا الأستاذ جورج إسحاق مسئول الإعلام والثقافة بالمجالس الكاثوليكية فى القاهرة (١٢٧)، ويجىء هذا الرفض لمقابلة هذا الوفد والتعاون معه لما ذكر من أسباب أعلاه فضلاً عن أبعاد مؤامرة حقيقية تسعى إلى تفتيت الوحدة الوطنية لبلاد مصر أرض الكنانة، إذ كشفت بعض المصادر المعلوماتية عن وثيقة إسرائيلية تدعو إلى إقامة دولة قبطية فى صعيد مصر منذ عشرين عاماً، وقد نشرت هذه الوثيقة فى بعض الصحف المصرية (١٢٨). وقد تضمنت الوثيقة أن فكرة إنشاء دولة قبطية فى مصر العليا

إلى جانب عدد من الدويلات الضعيفة هى وسيلة إسرائيلية للسيطرة وفرض الأمن والسلام بالطريقة الصهيونية اليهودية. وهذا سوف يؤدى إلى سقوط الدول العربية الأخرى (١٢٩).

إن ما يتمتع به الأقباط فى جمهورية مصر العربية من حقوق جعلهم يقفون موقفاً عملياً وموضوعياً إزاء وحدتهم الوطنية فيمن يريد الاعتداء على بلادهم خصوصاً من الأقباط الذين يعيشون خارج مصر والذين قال البابا شنودة عنهم: «إن هؤلاء الذين دأبوا على شحذ الهجوم ضد وطنهم خلال فترات زمنية معينة لم يحدث أنهم جاءوا إلى مصر منذ سنوات عديدة. بل طالما افتخروا بإلقاء جذورهم وراء الظهور، وأن وطنهم أمريكا أصبح هو الملاذ والمصير» (١٣٠). إذن هؤلاء المغرضين غرباء على أمريكا لأنهم ضمن الأقليات أو الجاليات التى لا جذور لها فى وطن أصيل على عكس حال الأقباط فى مصر فهم فى وطن أصيل. ولما يعلم أن من يخون وطنه الأصلى حرى بأن يخون وطن المهجر فهو خطر محدق لا خير فيه. من هنا أصدرت منظمات حقوق الإنسان فى مصر بياناً أعلنت فيه رفضها مقابلة لجنة الحريات الدينية الأمريكية لعدم إنشائها بموجب قرار دولى أو ثنائى، ولافتقارها إلى مرجعية تبرر دورها فى تقصى الحقائق (١٣١).

إن جملة هذه المواقف الكريمة للحفاظ على الوحدة الوطنية من مسلمى وأقباط مصر أدهش الوفد الأمريكى فى تعاضد المصريين أمام وطنهم (١٣٢). وليس ثمة دهشة فى ذلك فقد أوضح النبى ﷺ ذلك بأن القبط عون للمسلمين على أعدائهم مما تقدم ذكره فى الحديث، وعلماء القبط ومفكريهم أقروا بأن أمر ما يتربص بهم فوقفوا وقفة وطنية واحدة مع إخوانهم المسلمين.

هذه المواقف وهذه الأحداث قريبة العهد بالأمس، كفيلة للتدليل على قناعة الأقباط بأن حياتهم فى مصر وطنهم جنباً إلى جنب مع المسلمين، حياة كريمة يستلهمون فيها حقوقهم السياسية والاقتصادية والدينية والعلمية... إلخ، ثم يتساءل البعض هل أحداث الحادى عشر من سبتمبر لعام ٢٠٠١م التى دفعت

بالغرب، وعلى الأخص الولايات المتحدة الأمريكية إلى إعادة النظر فى قوانينها التى تخص الهجرة والأقليات والجاليات، سوف لن تطال أقباط مصر فى تلك الدول بشىء من التضييق على الحريات وحقوق الإنسان إن لم نقل بشيء من السوء؟.

خامساً: الجاليات فى المملكة العربية السعودية:

إن المملكة العربية السعودية منذ تأسيسها على يد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود - يرحمه الله - عام ١٣١٩هـ فإنها دولة قامت على هدى الإسلام، وجميع رعاياها من المسلمين. ولا يوجد فى المملكة العربية السعودية أى نوع من الأقليات، مثل اليهود أو النصارى أو المجوس وغيرهم من الوثنيين. ولكن المملكة العربية السعودية فى ظل مسيرة التطور المدنى والحضارى فى جميع جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصحية والزراعية والتعليمية والتقنية والعمرانية سعت إلى الاستعانة بالقدرات والخبرات البشرية من جميع أنحاء العالم، فتعاقدت مع خبراء استخراج البترول من مهندسين وفنيين وعمال، كما تعاقدت مع أعداد كبيرة من الأطباء والمدرسين وخبراء الزراعة والصناعة والاقتصاد، ومن بين هؤلاء الناس من غير المسلمين، فأصبح يوجد فى المملكة العربية السعودية (وحسب الإحصاءات السكانية التى قامت بها المملكة العربية السعودية عام ١٤١٤هـ من خلال وزارة المالية والاقتصاد الوطنى) بضع ملايين من الجاليات التى تعمل فى المملكة العربية السعودية من الدول الغربية فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ومن الفلبين والهند والصين وكوريا واليابان وغيرها من الدول. ومعلوم أن هذه الجاليات تتمتع بكامل حقوقها الدينية والتعليمية، والاقتصادية، والاجتماعية... إلخ فى المملكة العربية السعودية وقد أجرينا دراسة ميدانية ذات دلالات إحصائية عن حياة غير المسلمين وحقوقهم فى المملكة العربية السعودية ضمن موسوعة حقوق الإنسان فى الإسلام التى أعددناها وستصدر قريباً إن شاء الله تعالى والتى أظهرت نتائجها أن ما يزيد عن ٩٠٪ من غير المسلمين يتمتعون بكافة حقوقهم فى المملكة العربية السعودية والتى نتحدث عنها كما يلى:

١ - الحقوق الدينية :

تحدثنا فيما تقدم من هذه الدراسة عن نظرة الإسلام فى موضوع الدين وأنه لا إكراه فى الدين. والمملكة العربية السعودية من خلال المؤسسات الحكومية أو مؤسسات القطاع الخاص وبمقتضى أحكام الشريعة الإسلامية فإنها لا تشترط على من يتعاقد معه أن يكون مسلماً، ولا تفرض عليه تغيير دينه مقابل توقيع العقد، بل ولا يكره من يعمل فى المملكة العربية السعودية على اعتناق الإسلام، علماً بأن جميع المواطنين فى المملكة العربية السعودية من المسلمين، ولهذا فإن سماحة الدين الإسلامى أذنت بالتعاقد مع غير المسلمين للعمل فى بلاد المسلمين. والمملكة العربية السعودية ترعى هؤلاء العاملين ولا تتعرض لهم بسبب الاختلاف فى الدين، سوى أن على العاملين من غير المسلمين احترام خصوصيات المجتمع السعودى المسلم. ومعلوم أنه لم تسجل حالة واحدة فى المملكة العربية السعودية أن إنساناً ما عالماً كان أم عاملاً أكره على اعتناق الإسلام أو أسئ إليه بسبب أنه غير مسلم، لما كفلته الشريعة الإسلامية لحقوق غير المسلمين بأحكامها المختلفة.

ولكن يجب ألا نغفل فى هذا الجانب الخصوصية الدينية للمملكة العربية السعودية فى قلوب ملايين المسلمين بمقتضى أحكام الشريعة الواردة فى هذا الجانب، فضلاً عن الأنظمة الدولية التى تراعى خصوصيات الأمم والشعوب والدول، والحفاظ على الأمن العام والصحة العامة، والنظام المتبع فى كل دولة وما لها من سيادة على ترابها وأرضها.

إن قواعد القانون الدولى المتعلقة بمعاملة الأجانب تتيح تقييد حرية الأجانب على إقليم الدولة، وفق مقتضيات الأمن والنظام العام، لأن الدولة تتمتع بالسلطة الكاملة فى ممارسة سيادتها اللازمة لحفظ الأمن، والتى تخولها سلطة عدم السماح للأجانب بدخول أراضيها إلا بإذنها فى الحالات وبالشروط التى تتمشى مع اعتبارات نظامها العام وأمنها الوطني، لحماية مواطنيها من الأضرار التى قد تسببها إقامة الأجانب، أو لأسباب جوهرية ترجع إلى النظام الدينى أو الاجتماعى أو الثقافى، أو السياسى، أو إلى ظروف استثنائية مثل الاضطرابات

الداخلية، أو الاجتماعية والهجرات غير المشروعة. كما أن الدولة تملك حق تقييد حرية الأجنبى لاعتبارات أمنية، أو لضرورة حماية المجتمع، ووقاية التراث الوطني، ومنها ممارسة الأجنبى لشعائره الدينية علناً الأمر الذى قيد بالنظام العام والآداب فى القانون الدولى.

وللمملكة العربية السعودية خصوصية تاريخية ودينية لا تتوفر فى غيرها من الدول، فهى مهبط الوحى وفيها الحرم المكى والمسجد النبوى والمشاعر المقدسة. كما أنها من الناحية الجغرافية تشغل المساحة الأكبر من الجزيرة العربية التى اعتبرت قاعدة الإسلام، فخصت من دون غيرها من الدول الإسلامية بعدم السماح لغير المسلمين إقامة شعائر دينهم علناً إعمالاً لأحكام الشريعة الإسلامية. وموقف المملكة العربية السعودية يتسق مع تاريخها باعتبار خلوها من المعابد لغير المسلمين منذ عمل المسلمون على إنفاذ الأمر النبوى بجعلها قاعدة للإسلام، حيث تحقق ذلك تاريخياً منذ عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب. ﷺ، فأصبحت قاعدة للإسلام لا يشاركها فيها دين آخر، وهذا الوضع بالتالى يتصل بالهوية الدينية والثقافية والحضارية للمملكة. ومن الجانب الواقعى فإن سكان المملكة العربية السعودية يدينون بالإسلام فالمواطنون مسلمون، أما غير المسلمين من الموجودين فى المملكة فهم أجانب قدموا مؤقتاً للعمل أو التجارة أو نحو ذلك، وهم فى حكم المستأمنين كما سبق توضيحه، وأن من شروط قبول التعاقد خضوع المتعاقد لأنظمة البلد الذى يقيم فيه، ومنها فى المملكة عدم السماح بإقامة معابد للأجانب، أو ممارسة الشعائر الدينية علناً.

٢ - الحقوق التعليمية :

تطبيقاً لتعاليم الشريعة الإسلامية فى حق الإنسان فى العلم وطلبه وتعلمه وتعليمه - كما أوضحنا ذلك عند حديثنا عن حرية الرأى وفريضة العلم - وتحقيقاً لهذا الحق الإنسانى المشروع، فإن المملكة العربية السعودية لم تحرم أبناء العاملين فيها من التعلم وفاءً بالعقود والعهود والمواثيق، فضلاً عن تحقيق ما جاء فى بعض مواد الإعلان العالمى لحقوق الإنسان. من هذه الثوابت سعت

المملكة العربية السعودية إلى استحداث الإدارة العامة للتعليم الأجنبى بصدور قرار مجلس الوزراء رقم ٢٠٠٧ فى ١٣٩٤/١٢/٣هـ، وتضمن الموافقة على إنشاء المدرسة العربية السعودية العالمية. وكان الهدف من إنشاء هذه المدرسة هو خدمة أبناء الجاليات غير المسلمة العاملة فى المملكة، وكان المقر الرئيسى للمدرسة فى الرياض ولها فرعان أحدهما فى جدة والآخر فى الظهران. وكانت المملكة تنفق على هذه المدارس من ميزانية الدولة، وبعد بضع سنوات من إنشاء المدرسة العربية السعودية العالمية طرأت زيادة كبيرة فى أعداد العاملين المقيمين فى المملكة مع عوائلهم وتعدد جنسياتهم ووجود الرغبة والحاجة إلى مدارس تخدم أبناءهم بمقتضى مناهج التعليم فى بلدانهم، فعملت وزارة المعارف على منح تراخيص عديدة لفتح المزيد من المدارس الأجنبية التى توصف بالعالمية ويضاف إلى اسم كل منها اسم الجنسية التى تخدمها المدرسة، كالمدرسة العالمية الأمريكية، أو البريطانية، أو الأثيوبية، أو الباكستانية، أو الهندية، أو الفلبينية. وبنهاية عام ١٤١٧هـ بلغ عدد المدارس المرخص لها نظامياً خمساً وستين مدرسة منتشرة فى أنحاء المملكة، كلها تحت إشراف وزارة المعارف.

وأدركت وزارة المعارف أنه بجانب المدارس المرخصة المشار إليها قام بعض أبناء الجاليات غير المسلمة بافتتاح عدد كبير من المدارس الأجنبية غير المرخصة. كما زاد عدد الجاليات التى تطلب الترخيص بفتح مدارس لتعليم أبنائهم، كما تقدم كثير من المواطنين السعوديين مبدين رغبتهم فى فتح مدارس أجنبية تخدم الجاليات المقيمة فى أنحاء مختلفة من المملكة، فى ضوء ما سبق ولتنظيم هذا المجال المضطرد الاتساع، أصدر مجلس الوزراء قراره رقم ٢٦ فى ١٤١٨/٢/٤هـ بالموافقة على لائحة المدارس الأجنبية لتنظيم العملية التربوية من الناحية الإدارية والنظامية والمالية، وتنظيم علاقة وزارة المعارف بالمدارس الأجنبية وتنسيق العلاقة بين الوزارة والجهات الحكومية الأخرى ذات الاختصاص مثل وزارة الداخلية ووزارة الخارجية والرئاسة العامة لتعليم البنات من خلال مجلس الإشراف على المدارس الأجنبية والنظر فى طلب الرخص ووضع التعليمات والقواعد لهذه المدارس فى ضوء اللائحة، ففى عام ١٤١٧هـ

منحت تراخيص لسبع وعشرين مدرسة أجنبية، وفى عام ١٤١٩هـ منحت تراخيص لاثنين وستين مدرسة، وبذلك بلغ عدد المدارس الأجنبية المرخصة حتى عام ١٤٢٠هـ مائة وأربعة وخمسين مدرسة منذ صدور الموافقة على إنشاء المدارس الأجنبية عام ١٣٩٤هـ. والهدف الرئيسى من افتتاح هذه المدارس هو مساعدة الجاليات المقيمة فى المملكة بصورة نظامية على تعليم إبنائها فى مدارس خاصة بهم، بحيث يتمكنون من مواصلة تعليمهم بعد عودتهم إلى بلدانهم، مع توفير الضبط الإدارى والمعلومات اللازمة عن المدارس الأجنبية ومنتسبيها من الإداريين والمعلمين والتلاميذ، التأكد من أن المدارس مرخصة وأن سجلاتها نظامية وأن منتسبيها ذوو إقامات نظامية، وأنه مرخص لهم بالعمل حفاظاً على كثير من حقوقهم يتقدمها الحقوق التعليمية والثقافية والمالية... إلخ.

ومع توسع التعليم الأجنبى وازدياد عدد مدارسه وتنوعها فإن فائدة أخرى ظهرت وهى تمكين التربويين السعوديين من معلمين وإداريين من الاطلاع على نماذج وأنماط التعليم والإدارة فى المدارس الأجنبية؛ لتطوير التعليم والتربية فى المملكة والإفادة من ذلك، وهذا ما يعزز العلاقة الثقافية والعلمية بين المملكة والدول الأخرى ويؤكد الاعتراف بحضارات وثقافات الآخرين وحقوقهم. ومعلوم أن للمدارس الأجنبية منشآت تعليمية خاصة يتم تمويلها من الرسوم الدراسية والتبرعات والهبات التى تحصل عليها من المملكة ورجال الأعمال أو من دولهم، وهذه المدارس تعتبر جزء من أنظمة الدولة التابعة لها، إذ لا يجوز قبول الطلاب السعوديين فى المدارس الأجنبية عدا من تقضى الضرورة التحاقهم فيها من الطلاب القادمين من الخارج الذين لا تمكنهم ظروفهم الدراسية من الالتحاق بالمدارس السعودية، ويقتصر المستوى الدراسى للمدارس الأجنبية على رياض الأطفال والمراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية أو ما يعادلها. بحيث تتولى كل مدرسة أجنبية مسئولية تنظيم مختلف جوانب العمل داخل المدرسة، بالإضافة إلى ما يتعلق بتحديد مستواها فى الأوساط التعليمية، والأكاديمية المختلفة، ويكون فى كل مدرسة أجنبية مجلس إدارة لرعاية مصالحها، يمثل فيه أولياء أمور الطلاب، ويتم بإشراف وزارة المعارف تصفية أى من المدارس الأجنبية فى حالة انتهاء الغرض منها، أو إلغاء الترخيص، وذلك بالتنسيق مع الجهات ذات العلاقة(١٣٣).

٣ - الحقوق الاقتصادية:

تتمتع المملكة العربية السعودية بمركز مالى واقتصادى كبير بين دول العالم منذ تأسيسها على يد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود يرحمه الله، وكان هذا المركز واضحاً حتى قبل اكتشاف البترول وتدفق الثروة الوطنية، وذلك كما يتمثل فى قدوم حجاج بيت الله الحرام إلى المملكة لأداء فريضة الحج. ولئن كانت واجبات المملكة الإسلامية والسياسية تتطلب منها حفظ حقوق الناس فقد ارتكزت فى ذلك على فقه المعاملات المالية فى الشريعة الإسلامية بما يخص الأجور والإيجارات والمواريث والبيع والشراء وتبادل المنافع التجارية والاقتصادية فى الداخل والخارج. ونظراً لأن المملكة العربية السعودية منذ تأسيسها كانت تتعامل فى معاملاتها التجارية بالنقود المعدنية من الذهب والفضة ومعادن أخرى. ولما كان ذلك مما يثقل حمله على القادمين إلى المملكة أو المغادرين من الحجاج وغيرهم، فقد سعت مؤسسة النقد العربى السعودى منذ أن أسسها الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - عام ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م إلى إصدار ما سمى بإيصالات الحجاج، وهى أول عملة ورقية تصدرها المملكة لسهولة تداولها وحملها لحفظ الحقوق المالية للناس، ومع استمرار الأيام وازدياد قوة الاقتصاد السعودى والتبادلات التجارية بين المملكة ودول العالم أصبحت المملكة تتميز بعضوية بارزة فى عدد من المؤسسات المالية العالمية. فمنذ قبول المملكة لاتفاقيتى صندوق النقد الدولى والبنك الدولى بموجب المرسوم الملكى رقم ٥/١/١٧/٢٥٧١ فى ١٣٧٦/١٢/١٨هـ الموافق ١٩٥٧/٧/١٦م، تزايدت حصص المملكة فى الصندوق وفى رأس مال البنك الدولى، حتى أصبح للمملكة مقعد مستقل فى مجلس المديرين التنفيذيين فى الصندوق الدولى منذ عام ١٣٩٨هـ ١٩٧٨/م وفى البنك الدولى منذ عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، إن هذا الوضع المالى المتميز والاقتصاد القوى للمملكة بعث على الطمأنينة الكاملة والتامة على قبول كثير من الناس العمل فى المملكة العربية السعودية، لما فى ذلك من ضمان لحقوقهم المالية.

ومعلوم أيضاً أن جميع العاملين فى المملكة العربية السعودية، سواء فى المؤسسات الحكومية أو فى القطاع الخاص أم لدى الأفراد، كفلت لهم أنظمة العمل بموجب أحكام الشريعة الإسلامية حقوقهم المالية والاقتصادية، فالطرف المستفيد مكلف بموجب النظام بدفع الالتزامات المالية المترتبة عليه. فمثلاً

عندما يتم التعاقد مع أعضاء هيئة التدريس للعمل فى الجامعات السعودية أو أى فئة ستعمل فى تلك الجامعات، تسعى الجامعة إلى النص فى العقد على تحديد الحقوق المالية للمتعاقد ومن ذلك تحديد مرتبه الشهرى وكافة امتيازاته المالية خلال العقد وعند انتهائه أو عند الاقتضاء، وكفالة سكنه سكناً إنسانياً مناسباً أو تعويضه عنه بمبلغ مالى ويعتمد ذلك على رغبة المتعاقد، كما تتكفل الجامعات بتأمين تذاكر سفر المتعاقد له ولأسرته وأولاده الذين هم دون سن البلوغ. من بلده وإلى مكان عمله فى المملكة وخلال الإجازات وعند انتهاء العقد، وفى كثير من الأحيان تصرف تذاكر سفر حتى لأبناء المتعاقد ممن بلغوا سن الرشد. ويلاحظ أن كل العاملين فى المملكة العربية السعودية لا تفرض عليهم عوائد ضريبية على دخولهم، ولا يؤخذ منهم أى إتاوات أو جزية برغم أنهم غير مسلمين وهذا من تسامح نظام الدولة المستمد من الشريعة الإسلامية التى تلتزم بها المملكة فى جميع شئونها، وهذه الأمور تطبق على جميع فئات المتعاقدين من فنيين وعمال ومختصين مثل الأطباء فى وزارات الصحة أو المراكز الطبية الخاصة، والشئون البلدية والقروية وغيرها من الوزارات، إضافة إلى هذه المزايا فإن العاملين فى المملكة العربية السعودية يتمتعون بمزايا مالية كبيرة تزيد أضعافاً عن حقوقهم المالية فى بلدانهم، إذ يحصلون على رواتب عالية جداً قد تصل فى بعض الأحيان إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف ما يحصلون عليه فى دولهم. وهذا تقدير من المملكة العربية السعودية لهؤلاء العاملين كونهم يسهمون فى الحركة الحضارية والتنموية للمملكة بما قدموه من تضحية بترك أوطانهم واغترابهم. والإسلام بسماحته حث على الوفاء مع العامل أياً كان دينه أو لونه أو جنسه، بل إكرامه والإحسان إليه إذ أنه كما قال الرسول ﷺ: «**فى كل كبد رطبة أجر**»[١٣٤]، وهذا يعنى كل مخلوق حى ومنها الحيوان فى الإحسان إليه أجر فمن باب أولى بالإنسان الذى كرمه الله وخلقه فى أحسن تقويم.

وتيسيراً للعاملين فى المملكة العربية السعودية وتلبية للتوسع الاقتصادى فى المملكة، وتزايد عدد العاملين فقد سعت المملكة إلى إيجاد شراكة مع بعض البنوك الأجنبية، فأسس البنك السعودى الأمريكى، والبنك السعودى البريطانى، والبنك السعودى الفرنسى، والبنك السعودى الهولندى وغيرها من البنوك، وفى هذا تسهيل للعاملين فى المملكة بربط حساباتهم البنكية فى المملكة مع أصول

حساباتهم البنكية فى بلدانهم؛ ليتيسر لهم السحب والتحويل سواءً كانوا داخل المملكة أو خارجها.

والبنوك فى المملكة العربية السعودية تقدم تسهيلات مصرفية كبيرة للعاملين فيها، دون تحديد لنسبة تحويل الأموال أو تحكم من أى نوع فى ضرورة صرف جزء من مرتباتهم داخل المملكة أو نحو ذلك، والواقع الملموس شاهد على ذلك، لأن الشريعة الإسلامية لا تحجر على الإنسان فى ماله وتسمح له أن يتصرف فى ماله كيف شاء ما لم يكن سفيهاً أو قاصراً أو من فى حكمهما، والمال مال الله والخلق كلهم عيال الله وأحب عيال الله إلى الله أنفعهم لعياله، وهذا منهج تتبعه المملكة فى إعطاء المسلم وغير المسلم على أرضه حقوقه المالية، وفى تاريخ البنوك السعودية منذ أن أنشئت مؤسسة النقد العربى السعودى التى كانت تعد ثانى أقدم بنك مركزى فى الوطن العربى، وهى الجهة الرقابية على البنوك والمستودع الحافظ للأموال، لم يحدث قط أن حجرت البنوك أو جمدت أو صادرت أموال أى شخص لأسباب سياسية، أو أخلاقية، أو إجرامية... إلخ. لأن الحق المالى غير الحق السياسى وغير الحق الاجتماعي، والإسلام لا يسمح الخلط بين المصالح بالمفاهيم المغلوطة والأغراض غير الشريفة. كما جمدت بعض الدول فى الغرب وصادرت أموال الأقليات والجاليات باسم محاربة الإرهاب، ولا يسمح بضياع الحقوق بسبب الخلاف أو الاختلاف. ولا ينسى التاريخ ما فعلته بعض الدول الكبرى التى أؤتمنت على أموال دول أخرى أن سعت تلك الدول الكبرى خلال بعض الأزمات السياسية إلى تجميد أو حتى مصادرة أموال تلك الدول، بسبب تغير نظام الحكم بما يخالف مصالحها. بل إن بنوك الدول الكبرى بسبب تدخل الحكومات تمنع صرف الأموال لمستحقيها من الحكومات والمؤسسات وتفرض عليهم بالمقابل شراء منتجات وسلع بلدانها، وإن كانت ليس هناك حاجة إلى ذلك. وعادة ما تتعرض أموال الدول المسلمة إلى مثل هذه المواقف. فأين حقوق الإنسان الاقتصادية باسم الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ؟ أين ذلك من سماحة الشريعة الإسلامية التى تحث على البذل والعطاء ومنح الإنسان حظه وحقه من المال والطعام حتى مع العدو المحارب الذى يريد شراً بالناس قال تعالى: **﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ۝ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾** (١٣٥).

ومن وجوه تمتع العاملين فى المملكة بحقوقهم الاقتصادية، خروج كثير منهم عند سفرهم بآلاف الريالات والدولارات وغيرها من العملات، ولا يتعرضون إلى المساءلة أو الإساءة أو التحقيق كما تفعل كثير من الدول التى تدعى الحضارة وتنادى بحقوق الإنسان، وتتهجم على الدول التى تحفظ حقوق الإنسان حقاً وتتهمها بانتهاكات حقوق الإنسان والعكس صحيح، كبرت كلمة تخرج من أفواههم. كما يتمتع العاملون فى المملكة بحقوقهم المالية على قدم المساواة مع المواطنين السعوديين فى البيع والشراء. وفى ظل التطورات الاقتصادية العالمية أفسحت المملكة الفرصة لغير السعوديين بحق التملك وممارسة الأنشطة الاقتصادية المختلفة، خصوصاً بعد الإعلان عن تكوين المجلس الأعلى للاقتصاد والموافقة على إنشاء هيئة الاستثمار الأجنبى.

٤ - الحقوق الاجتماعية والوظيفية:

من المعلوم أن تاريخ وجود الجاليات غير المسلمة فى المملكة مع مختلف فئات العاملين فى المملكة العربية السعودية من الدول الأخرى يرجع إلى عام ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م، بعد أن باشرت شركة أرامكو أعمالها بالتنقيب عن البترول واستثماره تجارياً بعام واحد، حيث أصدر الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - نظام العمل والعمال بمقتضى أحكام الشريعة الإسلامية، إلى أن جرى تحديث النظام عام ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م؛ لجعله أكثر ملاءمة مع متطلبات وظروف العاملين الاجتماعية والوظيفية وحقوقهم فى هذا الصدد. وقد جاء النظام الجديد أكثر شمولية بمواده المتعددة المستمدة، من الكتاب والسنة ومتوائماً مع مستويات العمل الدولية ومن ذلك مثلاً:

- تحديد وتنظيم أوقات العمل والإجازات الأسبوعية والسنوية وغيرها من الإجازات.
- الاهتمام بسلامة العاملين وصحتهم وصرف النفقات الطبية للعاملين الذين يتعرضون لإصابات بسبب العمل.
- العناية بإسكان العمال وتوفير المرافق العامة لهم ووسائل المواصلات.
- تنظيم العلاقة بين أصحاب العمل والعاملين وإيضاح حقوق الطرفين، والجهات المختصة لفض الخصومات فى حل الاختلاف وتحديد حقوق كل طرف.

- تحديد أنواع المكافآت المختلفة ومكافآت نهاية الخدمة وتحديد العقوبات والجزاءات.

- تطوير الخدمات الاجتماعية العمالية وتوسيع نطاقها بحيث يستفيد منها أكبر عدد ممكن من العمال.

- مراجعة عقود العمال والاتفاقيات بين المؤسسات والأفراد والمنظمات وإيضاح نظامية ذلك.

ولا شك أن نظام العمل والعمال فى المملكة العربية السعودية يقوم على أساس ضوابط العدل فى الشريعة الإسلامية والمراعاة العادلة لحقوق العمال وأصحاب العمل والتزامهم دون أن يطغى جانب على آخر، ويُعَامَل السعوديون وغير السعوديين بموجب نظام العمل والعمال على قدم المساواة دون تفريق، بحيث تحفظ الحقوق الوظيفية والاجتماعية والصحية والسلامة والأمن للجميع... إلخ. وكذا نظام التأمينات الاجتماعية للعائدات التقاعدية والإعانات المقطوعة والمكافآت التشجيعية... إلخ.

كما أن المتعاقدين العاملين فى المملكة العربية السعودية يتمتعون بكافة الحقوق الاجتماعية فى استخدام المرافق العامة : المستشفيات، الحدائق، المطاعم، وسائل المواصلات المختلفة، الأسواق، البنوك... إلخ دونما نظر إلى دين أو جنس أو لون أو عنصر، إذ لا يوجد تفريق فى استخدام هذه المرافق بين مسلم وغير مسلم وبين أسود أو أبيض، وليس هناك أحياء خاصة بغير المسلمين يسكنونها دون المسلمين، فقد يسكن غير المسلم إلى جوار المسلم الذى قد يكون من علماء الشريعة الإسلامية أو القضاة لأنه - أى غير مسلم - اختار السكن الذى يرغبه بما يتناسب مع مكانة أسرته ووضعه الاجتماعى وقدرته المالية، ولا يشعر بحرج أو تضييق. فالشريعة الإسلامية تأمر بحسن المعاملة للجار حتى ولو لم يكن مسلماً باعتبار ذلك حق اجتماعى له. ومعلوم فى سيرة الرسول ﷺ أنه زار الغلام اليهودى عندما كان مريضاً وتعاهده بالزيارة، وقَبِل عليه الصلاة والسلام هدية لذراع شاة من امرأة يهودية وإن كانت قد غدرت به ﷺ حيث سممت الذراع بالسم وأهدته إليه عليه الصلاة والسلام بقصد قتله ولكن الله سَلَّم. ومعاملة غير المسلمين داخل المجتمع الإسلامى حق فرضه الإسلام باعتبار

الإنسانية وليس على فوارق الدين أو اللون أو العنصر.

وفى المملكة العربية السعودية يتمتع غير المسلمين بحقوقهم الاجتماعية، فى وسط المجتمع السعودى، فتجدهم وأسرهم فى أمن وأمان، لا يتعرضون لتحرش أو اغتصاب جنسى أو سرقة لأموالهم وممتلكاتهم أو تعرض للقتل أو أى أنواع من الأذى إلا ما ندر. كما يستمتع غير المسلمين العاملين فى المملكة بحياة اجتماعية لا يشوبها الكدر أو الإساءة بما تنعم به المملكة من نعمة الأمن والرخاء والسلام وحفظ حقوق الناس جميعاً على أرضها مسلمهم وغير مسلمهم.

إن المملكة العربية السعودية ودول مجلس التعاون فى الخليج العربى ليس فيها أقليات دينية. ولكن الموجود على أرضها جاليات غير مسلمة جاءوا للعمل والتجارة والاستثمار، وفى المملكة العربية السعودية لم نسمع شكوى من المقيمين فيها من الجاليات التى جاءت بها فى المؤسسات الرسمية أو الأهلية أولئك الذين أتوا بعقود شخصية أو أوفدوا من قبل حكوماتهم. هناك الدبلوماسيون وهناك الأطباء وهناك المهندسون، والطيارون، والمعلمون والفنيون... إلخ. لهم حقوقهم التعليمية والاقتصادية والاجتماعية، ولا يجبرون على ترك دياناتهم إذ لا إكراه فى الدين، لقد أتوا إلى المملكة بمحض إرادتهم ورغبتهم، مع أنه لا توجد دول أخرى تدفع لهم راتب أفضل ولكنهم ما أتوا إلى المملكة إلا لما تتمتع به هذه الدولة من نعمة الأمن والأمان وأن حقوق الإنسان غير ضائعة فى بلاد الحرمين الذى تهوى إليه أفئدة المسلمين كل يوم ويأتيها الناس كل عام من كل فج عميق فى موسم الحج الذى هو التجمع الإنسانى الإسلامى الذى تذوب فيه جميع الفوارق.

أقول إذا كان هذا حكم الإسلام فى حق الأقليات والجاليات غير المسلمة فى الشريعة الإسلامية فهو عدل فى حق أبنائه وحق فى أحكامه. إذن فلماذا هذه الهجمة الشرسة والعداوة الباطلة على الإسلام والمسلمين عامة، وعلى بلاد الدعوة والدولة المملكة العربية السعودية بصفة خاصة ؟ قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش

١- سورة الحجرات، الآية ١٢ .

٢- أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ، قاله الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨٢/١، والبيهقى فى شعب الإيمان ١٧٤/١ (١٥٣ ، ١٥٤) ، والخطيب البغدادى فى التاريخ ٤٥/٤ .

٣- أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٥٦٢٢/٣ ، ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

٤- سورة السجدة ، الآيات ٦-٩ .

٥- سورة الإسراء ، الآية ٧٠ .

٦- سورة ص ، الآيات ٧١-٧٢.

٧- سورة المائدة ، الآية ٣٢ .

٨- رواه البخارى ، مشكاة المصابيح ٢٥٨/٢ (٢٤٤٧) .

٩- سورة البقرة ، الآيات ٣١-٣٣ .

١٠- رواه الدارمى ، والدارقطنى ، مشكاة المصابيح ٩١/١ (٢٧٩) .

١١- سورة البقرة، الآية ٣٥ .

١٢- سورة الذاريات ، الآيات ٥٦ - ٥٨ .

١٣- رواه البخارى ومسلم ، فتح البارى ١٧٣٩/١٣ .

١٤- سورة الشورى ، الآية ١٣ .

١٥- سورة يونس ، الآية ٥٨ .

١٦- محمد الغزالى، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وميثاق الأمم المتحدة ، الدار القومية للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص٦

١٧- نخبة من علماء المسلمين ، الإسلام والمستشرقون ، عالم المعرفة ، جدة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص ٣٢٢-٣٢٣ .

١٨- سورة الأنفال، الآية ٦١ .

١٩- سورة البقرة ، الآية ٢٠٨ .

٢٠- سورة النساء ، الآية ٩٤ .

٢١- سورة النساء، الآية ٩٠ .

٢٢- الكاسانى ، أبوبكر بن سعود ، بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع ، تحقيق محمد عدنان درويش ، ١١٣/٧ ، دار إحياء التراث العربى، ببيروت ١٤١٩هـ .

٢٣- سورة الممتحنة ، الآيات ٨-٩ .

٢٤- رواه أبوداود (٣٠٥٢) ، والبيهقى ٢٠٥/٩ ، والسيوطى فى الجامع الكبير ٨٥/١-٨٦ .

٢٥- القرافى ، الفروق ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ١٠٣ .

٢٦- غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، ط الحلبى ، القاهرة ١٣٦٦هـ ، ص ١٢٨ .

٢٧- رواه الدارقطنى ٢٥٠/٢ .

٢٨- المرجع السابق ، ج١ ، ص ٩٦ .

٢٩- مصطفى سعد عبده الرحيبانى ، مطالب أولى النهى بشرح غاية المنتهى ، القاهرة ١٢٤٣ هـ ، ج٢ ص٩٦ .

٣٠- آدم ميتر ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبدالهادى أبوريدة ، ط ٤ ،ج١ ، ص٨٦ .

٣١- سورة الشورى ، الآية ١٣ .

٣٢- رواه البخارى ، فتح البارى ج٦/٤٧٨ (٣٤٤٣) ومسلم فى صحيحه ، ج٤/١٨٣٧(٢٣٦٥) ، وأبو داود ج٥/٥٥ (٤٦٧٥) ، وأحمد ٢/٣١٩،٤٣٧،٤٦٣.

٣٣- سورة النساء ، الآية ١٧١ .

٣٤- سورة العنكبوت ، الآية ٤٦ .

٣٥- سورة آل عمران ، الآيات ٤٢-٤٤ .

٣٦- سورة آل عمران ، الآية ٤٥ .

٣٧- أبو الحسن الشيبانى ، السير الكبير ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٧م ، ج١ ص١٦٦ .

٣٨- رواه أحمد فى المسند ١/٣٩٦،٤٠٤ .

٣٩- أبو الحسن الشيبانى ، السير الكبير ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .

٤٠- سورة يونس ، الآية ١٨ .

٤١- سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .

٤٢- سورة النساء ، الآية ٤٨ .

٤٣- سورة يوسف ، الآية ١٠٦.

٤٤- سورة الأنعام ، الآية ٨٨ .

٤٥- رواه البخارى ، فتح البارى ، ٨/١٦٣ (٤٤٧٧) ، ورواه مسلم فى كتاب الإيمان (٨٦) .

٤٦- سورة التوبة ، الآية ٦ .

٤٧- عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، بيروت ١٩٦٦م ، ج٣ ، ص٣٦٦-٣٦٧ .

٤٨- محمد بن أحمد السرخسى ، المبسوط ، دار الدعوة ، أستانبول ، ١٤٠٣هـ ، ٣/٣٦٧ .

٤٩- المرجع السابق .

٥٠- سورة العنكبوت، الآية ٨ .

٥١- سورة البقرة ، الآية ٣١ .

٥٢- سورة العلق ، الآية ٥ .

٥٣- سورة طه، الآية ١١٤.

٥٤- رواه الدارمى ج١/٧٣ ، والدارقطنى ٤/٨٢ . والبيهقى فى السنن الكبرى ٦/٢٠٩ وانظر مشكاة المصابيح ١/٩٩ (٢٧٩) .

٥٥- سورة سبأ ، الآية ٤٦ .

٥٦- سورة الأنعام ، الآية ٥٠ .

٥٧- راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى ٤/٣٩٥ (١٧٨٨) .

٥٨- المرجع السابق .

٥٩- سورة الإسراء ، الآية ٣٦ .

٦٠- سورة النساء ، الآية ٨٣ .

٦١- سورة الذاريات ، الآيتان ٢٠-٢١ .

٦٢- سورة فصلت ، الآية ٥٣ .

٦٣- سورة البقرة ، الآية ١٦٤ .

٦٤- مطاع صفدى وزميله ، موسوعة الشعر العربى ، شركة خياط للكتب والنشر ببيروت ١٩٧٤م ، ج٢ ،ص ٥٣٠ - ٥٣١ .

٦٥- سورة الأعراف ، الآيات ٣١-٣٢ .

٦٦- سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

٦٧- سورة الروم ، الآية ٢١ .

٦٨- رواه مسلم فى باب الرضاع ١٧ (٦٤) وفى المشكاة ١٥٨/٢ (٣٠٨٣) .

٦٩- رواه ابن ماجه (١٨٥٧) ، وفى المشكاة ١٦١/٢ (٣٠٩٥) .

٧٠- سورة فاطر ، الآية ٩ .

٧١- سورة فاطر ، الآية ١٢ .

٧٢- سورة سبأ ، الآيتان ١٠-١١ .

٧٣- سورة الملك ، الآية ١٥ .

٧٤- سورة القصص ، الآيتان ٢٦-٢٧ .

٧٥- أبو يوسف ، الخراج ، ص ٣٠٦ .

٧٦- سورة الرحمن ، الآيات ٧-٩ .

٧٧- تفسير ابن كثير ، ج٦ ص ٤٨٦ .

٧٨- روى هذه القصة وكيع فى كتاب أخبار القضاة ج١ ص ٢٨٣-٢٨٤ ، ط عالم الكتب، بيروت .

٧٩- رواه الخطيب فى تاريخه عن ابن مسعور، وأورده السيوطى فى الجامع الكبير ، ٤٧٦/١ .

٨٠- ابن قدامة ، المغنى والشرح الكبير ، ج ١٠ ص٦٣٠ .

٨١- سورة البقرة ، الآية ١٩٤ .

٨٢- سورة الغاشية ، الآيتان ٢١-٢٢ .

٨٣- سورة العنكبوت ، الآية ٤٦ .

٨٤- سورة ق ، الآية ٤٥ .

٨٥- سورة يونس ، الآية ٩٩ .

٨٦- أخرجه الطبرى فى تاريخه١٠٦/٤، وابن الأثير فى الكامل فى التاريخ ٤٦٣/٢.

٨٧- سورة البقرة ، الآية ٢١٦ .

٨٨- سورة البقرة ، الآية ١٩٠ .

٨٩- سورة الأنفال، الآية ٦١ .

٩٠- سورة البقرة ، الآية ١١٢ .

٩١- سورة النحل ، الآية ٣٢ .

٩٢- سورة البقرة ، الآية ٢١٦ .

٩٣- سورة البقرة ، الآية ١٩٤ .

٩٤- رواه البخارى ، فتح البارى ، ٥/٨-٦ (٤٢٨٠) وورد فى مغازى يحيى بن سعيد الأموى .

٩٥- رواه مسلم ٨٦ (١٧٨٠) .

٩٦- سورة النحل ، الآية ٩١ .

٩٧- سورة الإسراء ، الآية ٣٤ .

٩٨- رواه أبو داود (٣٠٥٢) ، البيهقى ٢٠٥/٩ .

٩٩- حسين القطيفى ، القانون الدولى العام ، ١٩٧٠ ، ص ٣٣٩-٣٤٧ .

١٠٠- نخبة من علماء المسلمين ، الإسلام والمستشرقون ، ص ٣٠٢ .

١٠١- الكونت هنرى دى كاسترى ، الإسلام خواطر وسوانح ، ص ٤٨ .

١٠٢- سورة المائدة ، الآية ٢ .

١٠٣- رواه مسلم فى باب الجهاد (٢) ، وأبو داود (٤٤٩٨) ، والترمذى (١٤٠٨) ، وابن ماجه (٢٨٥٨) .

١٠٤- أخرجه مالك فى الموطأ ٦/٢ ، أخرجه عبدالرزاق فى مصنفه ١٩٩/٥ (٩٣٧٥) راجع كنز العمال ٢٩٥/٢-٢٩٦ .

١٠٥- سورة النساء ، الآية ٩٠ .

١٠٦- سورة محمد ، الآية ٤ .

١٠٧- رواه البخارى ١٢٨/٥ (٤٣٧٢)، باب وفد بنى حنيفة ، ورواه مسلم ١٣٨٦/٣ (١٧٦٤) .

١٠٨- رواه ابن إسحاق فى السيرة ، انظر : سيرة ابن هشام ٤١٢/٤ ، تحقيق مصطفى السقا وزملائه ، ط ٢، ١٣٧٥هـ مطبعة البابى الحلبى ، القاهرة .

١٠٩- أخرجه ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج (٥) وأبونعيم فى الحلية ١١٥/٦ ، والخطيب البغدادى فى التاريخ ٤٥٩/٩ وحسنه الألبانى .

١١٠- رواه مسلم فى كتاب الجنائز برقم ٩٧١ .

١١١- رواه الحاكم فى المستدرك ٥٥٣/٢ وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى وأقرهما الألبانى فى السلسلة الصحيحة ٣٦٢/٣ ، والطبرانى فى المعجم الكبير ٦١/١٩ ، ١١١-١١٣ .

١١٢- رواه الطبرانى فى المعجم الكبير ٢٦٥/٢٣ (٥٦١) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦٣/١٠ ورجاله رجال الصحيح .

١١٣- رواه أبو يعلى فى مسنده ٥١/٣ (١٤٧٣) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦٤/١٠ ورجاله رجال الصحيح .

١١٤- جريدة الأهرام ، ٢٠٠١/٣/٢٣م ، ص ١ .

١١٥- مجلة المصور ، ٢٠٠١/٣/٢١م ، ص ١٣ .

١١٦- المرجع السابق .

١١٧- المرجع السابق .

١١٨- المرجع السابق .

١١٩- المرجع السابق .

١٢٠- المرجع السابق .

١٢١- المرجع السابق .

١٢٢- المرجع السابق .

١٢٣- مجلة روز اليوسف ٢٤-٢٠٠١/٣/٣٠م ، العدد ٣٧٩٨ .

١٢٤- المرجع السابق .

١٢٥- المرجع السابق .

١٢٦- جريدة الأحرار ، ٢٠٠١/٣/٢٣م .

١٢٧- المرجع السابق .

١٢٨- مجلة صوت الأمة ، ٢٠٠١/٣/٢١م .

١٢٩- المرجع السابق .

١٣٠- جريدة الجمهورية ، ٢٠٠١/٣/٢٤م ، ص ١ .

١٣١- جريدة الوفد ، ٢٠٠١/٣/٢٣م ، ص ١ .

١٣٢- جريدة الشرق الأوسط ، ٢٠٠١/٣/٢٢م .

١٣٣- وزارة المعارف ، لائحة المدارس الأجنبية ، الرياض ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، ص ٧-١٩ .

١٣٤- رواه البخارى ٤٣٨/١٠ (٦٠٠٩) .

١٣٥- سورة الإنسان ، الآيتان ٨-٩ .

اعتراف الإسلام بالديانات السماوية السابقة عنصر أساسى فى عقيدة المسلم

الشيخ/ إبراهيم صالح الحسينى
رئيس المجلس الإسلامى النيجيرى - ورئيس هيئة الإفتاء
نيجيريا

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وسيد الأولين والآخرين، سيدنا وحبيبنا وشفيعنا وقائدنا محمد النبى الأمى الأمين، الذى فتح الله به أبواب الهدايات، وختم به النبوة والرسالات، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه السادة المجاهدين.

أما بعد .....

يقول الله تبارك وتعالى فى محكم تنزيله: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾** البقرة: ٢٨٤.

ويقول فى آية أخرى: **﴿ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾** النساء: ١٣٥.

وقد جاء فى الحديث الشريف: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره** ... ». الحديث رواه البخارى ومسلم

عن عمر بن الخطاب وأبى هريرة.

إن هذا العمل العظيم الذى دأب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بجمهورية مصر العربية على القيام به كل عام تحت رعاية السيد الرئيس محمد حسنى مبارك رئيس جمهورية مصر العربية لمن دواعى فخر واعتزاز مصر الأزهر وحكومتها وشعبها العظيم، كما يسعد به المسلمون فى كل مكان، وقد تقرر عقد هذا المؤتمر هذا العام تحت عنوان «حقيقة الإسلام فى عالم متغير» فى الفترة من ٢٠: ٢٠٠٢/٥/٢٣م.

وبمشاركة جميع من تضمه أرض مصر العزيزة، أرض الكنانة المباركة من العلماء والمفكرين، كما تشارك فيه مؤسسات علمية ودينية عريقة فى داخل البلاد وخارجها، وهو مؤتمر دأب القائمون عليه على جمع نخبة طيبة من أكابر علماء الإسلام فى هذا العصر للنظر فى شئون المسلمين وحل قضاياهم.

إنه لأمر يستوجب التقدير والاهتمام، خاصة الظرف الذى ينعقد فيه المؤتمر هذا العام، ونحن إذ نستجيب لهذه الدعوة الكريمة نكرر شكرنا لله تبارك وتعالى على نعمة الإسلام، كما نشكر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى مصر على دعوته الكريمة لنا، ولما لقيناه فى هذا البلد المضياف من حفاوة وتكريم.

إن الظروف العصيبة، والمتغيرات الجارفة التى تمر بها أمتنا وتمر بها الإنسانية جمعاء فى الوقت الراهن، متمثلة فى الظلم البين والاعتداء الصارخ على الإسلام والمسلمين، خاصة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر من العام المنصرم تقتضى من حكماء وعلماء هذه الأمة أن يضاعفوا الجهود من أجل إبراز سماحة الإسلام وعدالته وشموليته التى تسع الزمان والمكان، وتوفر للعالم كله السلام والاستقرار، والمتضمنة لكافة الحلول التى من شأنها أن تخرج العالم من الهوة السحيقة التى أشرف على الانحدار إلى قاعها، ومن المعلوم أن السلام العالمى لايمكن أن يتحقق أبداً مادام هذا الظلم للإسلام باقياً ومستمراً على ما هو عليه.

ومن هنا فإننا نقدر هذه الجهود المباركة التى بذلت من أجل إنجاح هذا المؤتمر، كما ننتهز هذه الفرصة لنسجل شكرنا الجزيل لمعالى السيد وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الدكتور محمود حمدى زقزوق ورفاقه على إتاحتهم الفرصة لإخوانهم من المسلمين فى نيجيريا للمشاركة فى أعمال هذا المؤتمر العظيم، عن طريق هذه الورقة التى أقدمها تحت عنوان «اعتراف الإسلام بالديانات السماوية السابقة» وهذا الاعتراف يعد عنصراً أساسيًا فى عقيدة المسلم.

هذا كما أرجو أن تتناول الورقة باختصار رؤوس الموضوعات الآتية:-

الإسلام دين الفطرة

الإسلام والديانات الأخرى

الإسلام وأزمة السلام العالمى.

فأقول وبالله التوفيق:

الإسلام دين الفطرة

إن الإنسان كائن طموح محدود القدرات عظيم التطلعات، ولعلمه بمحدوديته التى تعارض تطلعاته، نجده دائماً يهرب من النهاية ويتهرب من هذا الواقع المحتوم؛ ليعيش آماله ولو فى عالم الخيال ويسعى طول حياته فى سبيل تحقيق الخلود.

هذا والذى يجعل من هذا الكائن الطموح، كائناً دائم الوجود ودائم البقاء؛ ويضمن له طاقات أوسع لتحقيق طموحاته الكبار فى هذا العالم الفانى؛ ويصل وجوده بذلك العالم الباقى هو الله تبارك وتعالى.

وقد يضطر الإنسان فى أكثر الحالات للبحث عن قوة عليا تكبر محدوديته وتتسامى عنها، يلجأ إليها ليعوض عن إحساسه بالعجز عن تحقيق الأمان والاستقرار الذى يلازم تفكيره، وقد يكون بحثه عن هذه السعادة بعقله وقد يكون فى أكثر الأحيان بعاطفته، إلا أن الطريق الصحيح لذلك؛ ولتحصيل السعادة

والكمال؛ واجتياز المحدودية اليائسة إلى عالم البقاء واللانهاية هو الالتزام بالدين، الذى هو هداية الله للإنسان وعنايته به، فالدين الإسلامى- وهو كلمة الله الأخيرة والخالدة - يهدف إلى خلق إنسان صالح رشيد، منسجم مع سنن الاستقامة والمنهج الإلهى الذى خطه الله لعباده فى أرضه بواسطة النبوات والرسالات التى ابتعث بها أنبياءه ورسله - عليهم الصلاة والسلام ـ الذين ختموا بسيدنا محمد ﷺ الذى جاء ليكمل نقص الإنسان، ويتمم مكارم أخلاقه، ويملأ بدينه الحق وقيمه فراغ الروح والعقل فيه، ويبنى أسس الأمن والسلام والاستقرار.

ومن هنا كان الإسلام دين الفطرة بقدر ما هو دين السلام، وأن هدى الله الذى وعد به آدم وأبناءه يتمثل فى القرآن الذى جمع كل ما تفرق فى جميع الكتب السماوية المنزلة على جميع الأنبياء والرسل، الذين جاءوا من عند الله مؤيدين بالآيات البينات والمعجزات الخارقة للعادات، وهذا القرآن هو معجزة نبينا محمد ﷺ العظمى، وذلك لكون رسالة الرسول الخاتم ـ عليه الصلاة والسلام - عامة لكافة الأمم والشعوب ودائمة إلى قيام الساعة وشاملة لكل زمان ومكان، كما أنها صالحة لمسايرة جميع العصور، ومتضمنة لحل جميع تحديات التطور المتمثلة فى المستجدات التى تتغير بتغير الأحوال والأزمان، يقول الله تبارك وتعالى فى محكم تنزيله: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ آل عمران: ١٩. ويقول فى آية أخرى: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين**﴾ آل عمران:٨٥. وفى الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** ... الحديث». رواه أبو داود وغيره.

اعتراف الإسلام بالديانات السابقة وتسامحه

اعترف الإسلام مع وضوح دعوته ودقتها وكونه هو الإرادة الأخيرة بجميع الأديان السابقة، وقرر فى هذا الموضوع ما لم يسبقه إليه دين آخر قال تعالى: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾** البقرة: ٢٨٥. وقال تعالى: **﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾** البقرة: ١٣٦.

وقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾** النساء: ١٣٦.

إن الإسلام وهو دين الفطرة قد تضمن جميع ما تقدمه من الرسالات، إذ أنه الرسالة الخاتمة قد قرر وبكل وضوح أن إيمان المسلم لا يتم إلا بإيمانه بتلك الأديان، كما أن إيمانه بسيدنا محمد ﷺ لا يعتبر كاملا ولا مقبولا إلا إذا شمل جميع الأنبياء والرسل وما أنزل الله عليهم من كتب سماوية، كما يظهر من سياق تلك الآيات المتقدمة. ومع وضوح عقيدة الإسلام وتسامحه مع الديانات السابقة، إلا أن أنصار تلك الديانات حتى غير الملتزمين بتعاليمها لا يترددون فى كراهيتهم للإسلام والمسلمين، واعتدائهم عليه وإعلان الحروب المتكررة عليه دونما سبب يوجب ذلك.

ولما رأى العقلاء من المسلمين ذلك دعوا هؤلاء الناس إلى الحوار، وبعد تردد وإحجام قبل الجميع مبدأ الحوار، وقد كان الإسلام يدعو إلى الحوار مع أهل الكتاب منذ قيامه فى عهده الأول كما هو معلوم فى القرآن الكريم وفى السيرة النبوية الشريفة. وفى سبيل تحقيق وتأكيد سماحة الإسلام، وضع الإسلام أسساً

وقواعد عديدة لحسن التعامل مع أهل الديانات السماوية الأخرى، فقال تعالى فى حق أهل الكتاب: **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾** العنكبوت: ٤٦- وقال فى آية أخرى: **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾** النساء: ٣٦.

والجار الجنب قد فسر بما يشمل الجار غير المسلم وسواء جار فى المنزل أو فى الوطن، فإن حقوقه يجب أن تصان، وزيادة على ذلك يجب أن يعامل باللطف والرفق والإحسان فى جميع الأمور.

والإحسان إلى الآخرين فى مفهوم الإسلام لا يقتصر على إسداء المعروف، وإنما يتناول هذا مع غيره من الحقوق كاحترام حق الآخرين فى الرأى والاعتقاد والفكر، مما يجعل التعايش والتساكن ممكناً بين جميع أبناء البشر فى إطار الأسس والمقومات التى أقرها الدين، والتى ترعى مصالح الناس جميعاً على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم ومعتقداتهم. والجار سواء كان مسلماً أو ذمياً فإن الإسلام صان حقوقه فى الحياة والبقاء والتملك، ففى حق المسلم جاء الحديث: «**كل المسلم على المسلم حرام، ماله وعرضه ودمه بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**».

وفى حق أهل العهد من غير المسلمين قال عليه الصلاة والسلام: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما**». وفى حديث آخر قال : «**من قتل معاهداً فى غير كنهه حرم الله عليه الجنة**».

إذاً فالتسامح الذى يتمثل فى احترام حق الآخر فى ممارسة حقوقه الإنسانية، من حرية فى العقيدة أو حرية فى الرأى أو التعبير، أو توفير حق الحماية له فى العيش بسلام حالة الاختلاف حتى فى هذه الأمور الجوهرية،

والتعايش بين المسلمين وغير المسلمين، ليس من القضايا الاجتهادية أو الافتراضية فى الإسلام، بل جاء فيه النص القاطع فى المعاملات فليقرأ من شاء قوله تعالى: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين• إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾** الممتحنة: ٨-٩. وفى الاعتقاد اقرأ قول الله تعالى: **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾** البقرة: ٢٥٦.

الإسلام والحوار الهادف

لقد وضع الإسلام وسيلة هى أرقى وسائل إحقاق الحق على مر العصور، وهى استخدام العقل الواعى والحكم بمقتضى منطق الحكمة فى كل القضايا المتعلقة بالدين والدنيا وما يرجع إليهما، وهذا الحوار هو أساس الدعوة إلى إحقاق الحق وإزالة كل خلاف ينشأ بين الإنسان وغيره، يقول الحق تعالى: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾** النحل : ١٢٥.

وقال الحق تعالى لموسى وهارون: **﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى• فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾** طه : ٤٣-٤٤.

فكان الحوار فى الدعوة وغيرها محكوم بهذه الضوابط المحكمة والممهدة لإنجاح الحوار والجدل بحيث يكون هادفاً إلى إحقاق الحق، محافظة على أصل السلام والأمن والاستقرار فى المجتمع، وليس لانتصار أحد الفريقين على الآخر، وهو فى الحقيقة تعاون على البحث عن الحق أو الحقيقة؛ لشدة الحاجة إلى ذلك فوضع الإسلام هذه الضوابط:

أولاً: يجب أن يكون هناك اعتراف ضمنى من طرفى الحوار بوجهة النظر الأخرى، أو أن يعترف كل طرف بحق الديانة الأخرى فى الوجود حتى يوجد بذلك المناخ الصالح للحوار والبحث.

ثانياً: أن يكون القول فى ذلك محكماً أى مقروناً بالدليل البين فى نفسه، الموضح للحق المزيل للشبهات؛ وهذه هى الحكمة فى الدعوة وبخاصة فى حق من استثارت عقولهم بعلوم الديانات السابقة أو الثقافات والفلسفات الإنسانية المختلفة.

ثالثاً: أن يكون الوعظ أو أسلوب الحوار ليناً موقظاً للشعور مَكسُواً بالرفق بحيث يرجى معه إذعان المخاطبين أو الطرف الآخر، واقتناعهم بصدق المدعى. وقد استعمل القرآن أسلوب العرض فى الدعوة، فقال تعالى لموسى :**﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى• فقل هل لك إلى أن تزكى• وأهديك إلى ربك فتخشى﴾** النازعات : ١٧ - ١٩.

رابعاً: يرى الإسلام أنه يجب أن يكون الحوار والمناظرة عند عرض وجهات النظر المختلفة بالطريقة المثلى، وذلك بالصبر والدفع بالتى هى أحسن وعدم مقابلة الإساءة بالإساءة ولا الغلظة بالغلظة، وإنما يكون شأن الداعية تابعاً لما أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ به سيد الدعاة سيدنا محمداً ﷺ حيث قال له : **﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين• وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾** الأعراف : ١٩٩ - ٢٠٠.

وفى الحوار مع أهل الكتاب ومن ألحق بهم، ممن لهم شبهة كتاب يقول الحق تعالى: **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾** العنكبوت : ٤٦.

فكما تميزت الديانة الإسلامية بالشمولية والعموم فى أصولها، تميزت أيضاً بالتسامح والتسامى عن التعصب وضيق الأفق فى نشرها، وذلك بالدعوة إلى الاعتراف بالديانات كلها فى أصلها الصحيح، مع إنصاف المخاطب بكل وضوح يقول الحق تعالى : **﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم• وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم. وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾** فصلت : ٣٤ - ٣٦.

ويقول تعالى: ﴿**قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾ آل عمران : ٦٤.

وبفضل هذه الصفات المميزة لمنهج الدعوة والحوار فى الإسلام فى أكثر البلدان على مر العصور، وهذه المرونة والتسامح والترفع عن ظلم جميع الناس، والاعتراف بحقهم الأساسى والطبيعى فى حرية الاعتقاد والفكر والسياسة والنشاط البناء، جعلت من هذا الدين العظيم ديناً عالمياً جاء لإنقاذ البشرية جمعاء، من ضيق الظلم والتعسف والطغيان السائد فى العالم، إلى العدل والاعتدال واحترام الإنسان وتقييمه التقييم الصحيح يقول الحق تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**﴾ الإسراء : ٧٠.

ومن هنا جاء إقرار الإسلام لعدد من الأسس والمبادئ التى تكفل التعايش السلمى بين المسلمين وغير المسلمين ولا عبرة إلا بالتقوى.

أولاً: أقر الإسلام مبدأ التعايش والتساكن بين سائر الأمم والشعوب، واحترام كل القيم الأساسية للإنسان، بغض النظر عن فوارق الأصل والعرق والدين والمعتقد أو القطر أو الإقليم، قال تعالى :﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾ الحجرات : ١٣.

ويقول الحق: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد**﴾ الحج : ١٧. ويقول: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ البقرة: ٦٢.

ثانياً: يعترف الإسلام بحق جميع الشعوب فى تمسكها بمصالحها وقيمها القومية والوطنية، والدفاع عنها وعن مكاسبها وثرواتها الطبيعية وتراثها الثقافى

وتقاليدها الاجتماعية وقيمها الروحية، فيقول الحق تبارك وتعالى: **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾** المائدة : ٤٨.

ثالثاً: أقر الإسلام مع مبدأ التعايش والتساكن، مبدأ حسن الجوار بل والتعاون بين جميع الناس من أتباع الديانات السماوية: الإسلام والنصرانية واليهودية باستثناء سكنى الجزيرة العربية، وذلك لأسباب وظروف خاصة أوجبت اتخاذ هذا القرار الحكيم فى تلك الأيام الحرجة.

رابعاً: أقر الإسلام وحدة الهداية بين جميع الرسالات، حيث قال الله تبارك وتعالى: **﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم• ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين• وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين• ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم. ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون • أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين • أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾** الأنعام:٨٣ - ٩٠.

خامساً: أقر الإسلام أصل العلاقة الزوجية والمصاهرة بين المسلم وأهل الكتاب، وأباح للمسلم طعامهم والانتفاع بأوانيهم وصناعاتهم، وما يجلب إلينا من بلادهم من المأكولات والملبوسات، حتى مع الجهل بالمواد التى صنعت منها ما لم يثبت المنع بدليل قاطع.

سادساً: كفل الإسلام حرية الاعتقاد والفكر وممارسة الطقوس والعبادات لمن لديهم كتاب أو شبهة كتاب، بل وتكفل بحمايتهم وحماية مقدساتهم وممتلكاتهم وأماكن عباداتهم، ولا يخلو كتاب من كتب الفقه الإسلامى من نصوص تتعلق

بأحكام أهل الذمة والعهد وهكذا جميع الأقليات فى المجتمع الإسلامى، ولقد أدان الإسلام جميع أنواع الظلم والعدوان الذى كانت تمارسه أمة ضد أمة أو شعب ضد شعب، ولا فرق فى الإسلام بين أن يكون العدوان والاضطهاد بالقوة العسكرية أو عن طريق سياسة الهيمنة والكبت التى تمارسها وتباشرها الأمم القوية ضد الدول الضعيفة، مثل الذى يحدث الآن ضد مجموعة من الدول الإسلامية إما تحت شعار الحرب ضد الإرهاب الدولى الذى ترفع رايته أمريكا ورئيسها بوش، وإما تحت شعار النظام العالمى الجديد والعولمة، وفى مثل هذه الحال لا يتردد الإسلام فى إعطاء الدول المستضعفة الحق فى التمسك بحقوقها وتراثها، والدفاع عن مصالحها وقومياتها وثرواتها وقيمها الروحية وكرامتها الإنسانية، إذا تعرضت للتهديد.

سابعاً: إن الإسلام مع إعطائه حق الدفاع للأمم والشعوب ضد العابثين بحقوق الناس، أو ضد الذين يحاولون سلب الحريات الطبيعية وفرض الهيمنة والسيطرة عسكرياً وسياسياً، فإنه يرفض جميع أنواع الإرهاب ويسميه فسادا ومحاربة لله ولرسوله فيقول الله تعالى: **﴿وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾** البقرة: ٢٠٥.

ويقول: **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾** المائدة : ٣٥.

ثامناً: إن الدفاع الذى يشرعه الإسلام ويقره هو الدفاع بالوسائل المشروعة، التى تحصر الرد والردع فى مقاومة المعتدى الظالم، ولا يبيح الاعتداء على الأبرياء أو أخذ البرىء بذنب غيره أو القريب بذنب قريبه المجرم، أو التخبط العشوائى بالأعمال العشوائية للإضرار بمصالح الغير؛ مما يهدد الأمن والاستقرار فى المجتمع الآمن، ولا كذلك يبيح الإسلام معاقبة قبيلة بكاملها بذنب فرد أو جماعة منها، كما لا يبيح تعذيب أمة بذنب يرتكبه قادتها أو أكابر

مجرميها. كما يجرى الآن من الحصار المفروض على عدد من بلدان المسلمين وكما يجرى دون رادع فى الأراضى الفلسطينية من قبل الإسرائيليين اليهود فى ظل سيطرة القطب الواحد على العالم، وفى ظل النظام العالمى الجديد أو فى إطار الحرب ضد الإرهاب التى أوقد نيرانها الرئيس الأمريكى بوش، وهو الذى تفنن فى ابتداع أساليب التعذيب والتنكيل الجماعى بما لا تقره القوانين الدولية ولا الأعراف التى تواطأت عليها الأمم والشعوب. فما يجرى اليوم فى فلسطين المحتلة بعد هذا الاجتياح الغادر الظالم الذى دمرت فيه البنية التحتية للسلطة الوطنية الفلسطينية، وقتل فيه النساء والأطفال والعجزة من الشيوخ والمرضى وأحرق اليهود فيه الأخضر واليابس، وهدمت فيه المنازل على رؤوس أصحابها، بطريقة بربرية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، وبمباركة من الإدارة الأمريكية ومن الرئيس بوش شخصياً. وكذلك ما يجرى فى أفغانستان دون تمييز بين الجانى وغيره، مما يوحى للمشاهد بأن الهدف الحقيقى لهذه الحروب كلها هو محاربة الإسلام والعرب. ومهما قيل سوى هذا فإنه كذب بشع وخداع خبيث مكشوف لا يصدقه أحد من الناس حتى الأطفال، ومما يشهد لما نقول تلك التصريحات التى يدلى بها الرئيس الأمريكى، ومن أسوأها وصفه للسفاح القاتل الآثم شارون بأنه رجل سلام، وتحريضه للإسرائيليين البرابرة أن يزيدوا من بطشهم وتنكيلهم بالأبرياء فى ظل الحماية الأمريكية؛ وهذا الذى يجرى فى الأراضى المحتلة، وما يجرى فى أفغانستان بهذه الصورة وما تحاول أمريكا وبريطانيا تنفيذه ضد العراق وإيران وسوريا وليبيا ولبنان، وما تدندن حوله من تعمد إدراج المنظمات الوطنية التى تناضل من أجل تحرير أراضيها من احتلال العدو كحماس والجهاد الفلسطينى وحزب الله اللبنانى فى قائمة المنظمات الإرهابية. كل ذلك يدل دلالة واضحة بأن المخطط ضد الإسلام والعرب والشعوب الإسلامية أكبر بكثير مما يظن الناس، والله حسبنا ونعم الوكيل.

تاسعاً: الإسلام بما أنه دين يقدس نظام العدل والإحسان والتسامح، ويحترم حقوق الجيران والآخرين على وجه العموم، ويحترم كذلك مشاعر أصحاب الديانات الأخرى، يلتزم فى كل شئونه الوسطية الراقية، ويرفض التطرف

والتعصب الطائفى بكل أشكاله، ويرى أن التطرف والعنف ظاهرة سياسية اجتماعية لا علاقة لها به، فهى تناقض الإسلام وتفرغه من مضمونه الأساسى؛ أعنى السلام والسماحة والاعتدال والإنصاف والوسطية، وهو دين يتسع لأصول جميع الديانات، ويقدم دائماً استعمال العقل والفكر المتوازن ومقابلة الحجة بالحجة، ويترك باب الحوار مفتوحاً، والإسلام لا يكون سيفاً على رقاب الآخرين، ولا يقبل أن يكون سوطاً يلهب ظهور من يختارون غيره من الديانات وهو الذى يقول: ﴿**لست عليهم بمصيطر**﴾ الغاشية: ٢٢. ويقول: ﴿**لا إكراه فى الدين**﴾ البقرة: ٢٥٥. ويقول: ﴿**قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل**﴾ يونس:١٠٨.

ويقول: ﴿**ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين • وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون**﴾ يونس: ٩٩ - ١٠٠.

عاشراً: الإسلام أوجد بنظامه السماوى التوازن الثابت بين كافة أفراد الأمة بعضهم ببعض، وفى علاقتهم بالسلطة الحاكمة، بحيث يحترم الفرد المواطن شرعية السلطة ويقف إلى جانبها فيما يساعد على إقامة الأحكام الشرعية، ويدعو الإسلام السلطة - أيا كانت وكيفما كانت - إلى المحافظة على حقوق المواطنين المدنية واحترام مشاعرهم الدينية وكرامتهم الإنسانية؛ حتى ولو كانت السلطة علمانية أو يكون لها معتقد يخالف معتقدات الأمة، فلا يجوز للسلطة أن تجعل من المواطن غرضاً للسخرية والإهانة، فيسود حينئذ الانسجام بين المواطنين والسلطة الحاكمة، وتتقوى بذلك الرابطة القائمة على أساس من التكامل والثقة والاحترام بين الحاكم والمحكوم. للحديث الوارد فى النصيحة وهو: «**الدين النصيحة قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» رواه مسلم عن تميم الدارى.

الحادى عشر: إن الإسلام يرفض جميع مظاهر التعصب الدينى أو الحزبى أو السياسى، كالذى يجرى فى أكثر البلدان ذات الأقليات الإسلامية، إذ تتحدى

بعض تلك السلطات فى البلدان ذات الأغلبية غير المسلمة المواطنين المسلمين، وتعاملهم معاملة تسىء إلى معتقداتهم وتجرح شعورهم الدينى، وأحياناً يصل الأمر إلى الاستفزاز بالتجاهل المتعمد لحقوقهم المشروعة فى الاحتفاظ بأماكن عبادتهم أو ممتلكاتهم الأثرية، وأحياناً يصل الأمر إلى إنكار وجودهم الطبيعى. وهذه التصرفات غير المنصفة هى المسئولة عن نشأة ظاهرة الإرهاب فى صوره المروعة المختلفة فى أكثر الأحيان وفى أكثر من مكان.

الثانى عشر: يرى الإسلام أن من الظلم اعتبار الأصولية فى الإسلام تطرفاً أو تعصبًا، فإن الأصولية هى التمسك بما كان عليه سلف الأمة من الفهم الصحيح للنصوص الدينية، والوقوف بها عند حدودها ومنع الانحراف بها يميناً أو شمالاً تفريطاً أو إفراطاً؛ فالإسلام يعترف بالأصولية، ويؤكد بملء الفم وبأقوى الأدلة أن التعصب أو التطرف أو الإرهاب ظواهر سياسية اجتماعية تظهر دائماً إذا وجدت المناخ الملائم فى جميع مجتمعات البشر، وهى أمور محرمة بالنصوص القاطعة فى الإسلام. والشاهد على ما قلنا مايجرى فى أرقى دول العالم كأمريكا وبريطانيا وغيرها مما لا تخلو نشرة من نشرات الأخبار منه فى كل يوم، والإسلام ليس مسئولاً عنه؛ وذلك مثل ما وقع فى مأساة غيانا وكارثة أوكلاهوما بأمريكا على سبيل المثال، وكذلك الإرهاب والعنف الجارى فى أيرلندا الشمالية بين الكاثوليك والبروتستانت من جهة وبين الكاثوليك والحكومة البريطانية من جهة أخرى منذ عقود من الزمان.

الثالث عشر: يرى الإسلام أن المسلم - أينما كان وكيفما كان - يجب عليه أن يتمسك بدينه ويدافع عنه ويحافظ على أخلاقه التى تحكم شخصيته كمسلم، وذلك بالطرق المشروعة، وهو الأمر الذى حدث وتأكد تماماً فى الدول الإسلامية الأولى. فالمجتمعات الإسلامية فى أفريقيا قبل الاحتلال الأوروبى الاستعمارى ظلت ترعى حقوق الأقليات وتحترم ممتلكات تلك الأقليات فى غير أحوال الحرب وظروفها، الأمر الذى لم تراعه الدول المستقلة ذات الأقليات الإسلامية فى أفريقيا وغيرها، إذ أغلب الأحيان يتعرض المسلمون إلى التمييز ويعاملون فى بلدانهم كأجانب أو كمواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة فى أكثر الأحيان، بل

قد مورس ضدهم فى بعض بلدان ما يسمى بالعالم المتحضر فى أوروبا جرائم التطهير العرقى والإبادة الجماعية، وبدافع التطرف والتعصب الدينى وليس السياسى فقط، كما حدث فى البوسنة والهرسك لعدة سنوات، قبل أن يتحرك العالم لنجدتهم ولوضع حد لتصرفات الصرب النازيين المنافية للأخلاق والإنسانية.

الإسلام وأزمة السلام العالمى

إن الإسلام دين سماوى قام على عقيدة التوحيد الواضحة، وعلى رعاية حقوق الله وحقوق الناس وتحريم الظلم والعدوان بكل الأشكال والألوان. وأزمة السلام فى عالمنا المعاصر سببها الأساسى هو الظلم والاستعاضة بالقوة عن التفاهم بالحوار والعقل؛ مما أفقد الناس الثقة فى جميع المنظمات الدولية وفى القانون الدولى، الذى فقد فعاليته فى ظل الهيمنة الأمريكية، وما لم يتوقف هذا الظلم وينصف العالم المظلومين، فإن الإرهاب والعنف لن يتوقف مهما فعلت أمريكا وحلفاؤها فى حربهم ضد الإرهاب.

ومن أجل ذلك كان من أبرز أسس دعوة الإسلام إلى السلام العمل على بسط مظلة العدل على جميع الناس؛ حتى تختفى مظاهر الظلم والعدوان بين جميع الشعوب فيسود السلام وينتشر. ومهَّد الإسلام لذلك الأساس بوضع قاعدة التوازن بين سكان الوطن الإسلامى – مسلمين وأهل ذمة ومعاهدين ـ فالجميع سواسية وكلهم ينسبون إلى آدم فهم إخوة بهذا الاعتبار كما قال تعالى: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام﴾** النساء:١.

وقال تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾** الحجرات: ١٣. ولم يجعل الإسلام لتحقيق هذه الغاية قيودا ولا حدودا ما لم تعد عليه بالنقض، الأمر الذى جعله دين سلام بحق:

١- فقد إباح الإسلام لأتباعه إقامة كافة العلاقات بينهم وبين أهل الذمة من أهل الكتاب، ابتداءً من المعاملات التجارية إلى علاقات المصاهرة وتبادل المآكل والمشارب فيما أحل الله للفريقين، وتقدم سياق بعض الآيات التى تؤكد هذا المعنى وقال تعالى أيضاً: **﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾** المائدة : ٦.

٢- ومن أسس التسامح التى انفرد بها هذا الدين؛ السماح لأتباعه بالإصهار إلى أهل الكتاب وذلك لوجود علاقة الإيمان بين الزوجين على الأقل من طرفه هو، والزواج وما يترتب عليه من آثار لا يبيحه الإسلام على هذا الوجه إلا لأنه يعتبر المسألة أصولية وليست فرعية سياسية فى باب المعاملة، فمن الوضوح بمكان أن زواج المسلم من الكتابية يجعل بعض عائلته يهوداً أو نصارى، فأصهار وأجداد أولاده من جهة أمهم وأخوالهم وخالاتهم وبعض أقاربهم كأبناء أخوالهم وخالاتهم من ذوى أرحامهم لهم حقوق صلة الرحم وحقوق ذوى القربى، وهذا التسامح لا يكاد يوجد مقنناً ومشرعاً بهذا الوجه فى غير دين الإسلام.

٣- ولقد أباح فقهاء الإسلام للمؤهلين من أهل الذمة أن يشغلوا مناصب وزارية تنفيذية فى الدولة الإسلامية كما وقع ذلك فى عهد الدولتين الأموية والعباسية وغيرهما.

٤- ومن تلك التمهيدات كفالة الإسلام لحرية الاعتقاد لجميع المواطنين، وأنه حتى وهو فى مركز القوة لا يفرض على الناس اعتقادا لم يختاروه بمحض إرادتهم فقال تعالى فى كتابه العزيز فيما لم ينسخ: **﴿لا إكراه فى الدين﴾** البقرة : ٢٥٥.

٥- لم يمنع الإسلام استعمال الرحمة والأدب اللائق مع المخالفين أهل كتاب كانوا أم مشركين.

(أ) ففى حكم الوالدين غير المسلمين يقول القرآن: **﴿وإن جاهداك على أن**

تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفًا واتبع سبيل من أناب إلىَّ ثم إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ لقمان : ١٥.

وفى حديث أسماء بنت أبى بكر عند أحمد والشيخين قالت: «**قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا فأتيت النبى ﷺ فقلت: يارسول الله، إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها؟ قال : نعم، صلى أمك**».

(ب) وفى حكم الأسرى وهم حينئذ قطعاً من غير المسلمين يقول الله تعالى: **﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾** الإنسان: ٨. والمسكين واليتيم فى الآية تتناول المسلم وغيره، بل عاب الإسلام ربط الإنفاق المطلق بالدين أو الإيمان فقال تعالى: **﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾** البقرة: ٢٧٢. وقد روى الإمام محمد بن الحسن الشيبانى فى شرح السير الكبير: **أن النبى ﷺ بعث إلى أهل مكة مالا لما قحطوا ليوزع على فقرائهم**. انتهى (ج ١ ص١٤٤).

٦ – من أعظم الممهدات لبناء الثقة بين المسلمين وأصحاب الديانات السماوية يهوداً أو نصارى، ما تميزت به معاملة الرسول ﷺ لهم، إذ عرف له من عاصروه احترامه لدياناتهم وأماكن عباداتهم وعدم منعهم من ممارسة شعائر دينهم حتى فى مسجده الشريف؛ ومن ذلك زيارته لهم، وعيادته مرضاهم، وقبوله هداياهم ومهاداته إياهم، وفى السيرة ذكر ابن إسحاق أن وفد نصارى نجران لما قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة دخلوا عليه مسجده بعد العصر فكانت صلاتهم فقاموا يصلون فى مسجده، فأراد الناس منعهم فقال رسول الله ﷺ : **دعوهم فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم**. وفى هذا جواز استقبال أهل الكتاب فى المساجد وجواز دخولهم فيها إذا دعت لذلك ضرورة، وجواز السماح لهم بإقامة صلاتهم بحضرة المسلمين إذا لم يتخذ ذلك عادة دائمة.

وروى البخارى عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ عاد يهوديا وعرض عليه الإسلام فأسلم فخرج وهو يقول: «الحمد لله الذى أنقذه بى من النار».

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب الأموال عن سعيد بن المسيب أن **رسول الله ﷺ تصدق بصدقة على أهل بيت من اليهود فهى تجرى عليهم**. انتهى ص: ٦١٢.

وسار أصحاب رسول الله ﷺ على مثل ما عمل به ﷺ فى هذا الكتاب، فقد رأى عمر يهودياً عجوزاً يسأل فتبين أنه من غير عائل، فأمر بصرف معاش دائم له ولعياله من بيت مال المسلمين. ثم يقول قال الله تعالى: **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾** التوبة: ٦٠، وهذا من مساكين أهل الكتاب. انتهى. الخراج لأبى يوسف (ص ٢٦).

وعبد الله بن عمرو بن العاص يوصى غلامه أن يعطى جاره اليهودى من الأضحية، ويكرر الوصية مرة بعد مرة، حتى دهش الغلام وسأله عن سر هذه العناية بجار يهودى؟ قال ابن عمرو: إن النبى ﷺ قال: **«مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»**. رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذى. انتهى.

وذكر ابن حزم فى (المحلى ج٥ ص ١١٧)؛ أن أم الحارث بن أبى ربيعة وهى نصرانية ماتت فشيعها أصحاب رسول الله ﷺ.

والأصل فى هذه المعاملة هو ما غرسه الإسلام فى نفوس المسلمين من الاعتقاد بتكريم الله للإنسان من حيث هو إنسان، وهذا طبقه المسلمون الأوائل على جميع بنى البشر بغض النظر عن اختلاف الدين والعرق واللون وكل الفوارق الأخرى.

تسامح الإسلام وتعنت الآخرين

بالرغم من الأدلة الكافية التى تقدم ذكرها فى بيان تسامح الإسلام، إلا أن مما يؤسف له أنه لا يمضى وقت طويل حتى تسمع عن أزمة أو صدام حدث أو يحدث بين المسلمين والمسيحيين فى المناطق التى يسكنون فيها، يحدث ذلك فى كثير من بلدان العالم التى يشترك فيها المسلمون مع غيرهم، فهذه هى فلسطين المغتصبة تتعرض لأفظع عمليات انتهاك الحرمات والمقدسات وقتل الأبرياء من العجزة والأطفال والنساء ولمدة تجاوزت الأربعة عقود، ثم يصر دهاقنة السياسة

الدولية على تسمية الأزمة بقضية الشرق الأوسط؛ لتجد إسرائيل موقعاً لها فى المنطقة فتفصل بين أجزاء العالم الإسلامى، الأمر الذى تم التخطيط له بدهاء منذ عشرات العقود.

وهذه هى قضية كشمير لازالت الاشتباكات تحدث بين المسلمين وغيرهم من وقت لآخر، وهكذا الأمر فى بعض المناطق فى إندونيسيا، أما فى أفريقيا فالأمر أصبح بدرجة من الوضوح مما يستدعى وقفة جادة لكشف الحقائق للبشرية جمعاء، فعلى سبيل المثال حدثت عدة اشتباكات بين النيجيريين خلال العام المنصرم تناقلته وسائل الإعلام الغربية بأنها اشتباكات بين المسيحيين والمسلمين، ومما يؤسف له حقاً هو تشويه الحقائق وصياغة الأخبار بالطريقة التى يهواها الغرب وبالطريقة التى تخدم مصالحه فى العالم، فى الوقت الذى تجد فيه أن الواقع مختلف تماماً، لقد كانت نيجيريا قبل عقدين من الزمان تعيش فى أمن وسلام خاصة فى مجال التعايش بين المسلمين والمسيحيين لدرجة أنه فى وقت من الأوقات، إذا رفع الأذان لوقت الصلاة ترى المسيحى يقف إذا كان ماشياً إجلالاً وتعظيماً للإسلام، وتجد منهم حتى الآن من يدعون المسلمين لذبح بهائمهم فى مناسباتهم الدينية حتى يضمنوا مشاركة جيرانهم من المسلمين لهم فى الأفراح، فكل هذا يدل على مدى سماحة الإسلام والتعايش السلمى بين سكان هذه البلاد بالرغم من تعدد دياناتهم، واختلاف أعراقهم، ظل الحال هكذا، إلى أن أطل عهد جديد، ظهرت فيه الدسائس السياسية والطموحات التى لا تعرف قيوداً من الأخلاق والدين، كما أن الظروف الاقتصادية المتردية، أسفرت عن وضع اجتماعى سيئ للغاية حيث تفشت البطالة بآثارها المدمرة، لقد استغل هذا الوضع بعض الساسة - وخاصة أولئك الذين يتفجرون غيظاً ويمتلئون حقداً على الإسلام والمسلمين - فطفقوا يلبسون كل أزمة حدثت بين النيجيريين لبوس الدين لتحقيق أهدافهم، فما من فتنة نائمة إلا وأيقظوها، ولا من أزمة نشبت إلا وأذكوا أوارها، حتى تكونت قناعة لدى بعض الشعب والناس أن الإسلام دين اعتداء وليس فيه تسامح بل دين إرهاب، وهى دعاية مغرضة ليست فى صالح المسيحية ولا أية ديانة أخرى، إنما تحقق أهدافاً معادية للبشرية جمعاء.

ومن هنا، نرجو أن لا يخرج علماء الإسلام من اجتماعهم فى هذه القاعة المباركة إلا بوضع خطط شاملة توضح حقائق الإسلام وتبرئته من تلك المفاهيم الخاطئة، التى علقت به فى أذهان الذين يجهلونه، بناء على ما يرونه من تصرفات بعيدة كل البعد عنه، يقوم بها أناس لم يحسنوا عرض الإسلام وتقديمه للناس على وجهه الصحيح، ولهذه الأسباب يجب أن يسهر جميع العلماء كل فى موقعه لتوضيح هذه الحقائق، وأن يجاهد الكل فى سبيل إيصالها إلى العالم الذى كاد بأكمله أن يقع فى ظلمات المفاهيم المضللة حول الإسلام وحقائقه مع وضوحها وانتشارها على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وهذا أقل ما يجب أن يقوم به العلماء تجاه هذا الدين العظيم فى ظل الأزمات والمتغيرات الراهنة.
وشكراً لمصر حكومة وشعباً، وشكراً منا ومن جميع المسلمين حول العالم للأزهر الشريف ورجاله المخلصين لهذا الدين العظيم.

النظرة الإسلامية إلى الآخر

الأستاذ الدكتور/ عكرمة سعيد صبرى

المفتى العام للقدس والديار الفلسطينية

خطيب المسجد الأقصى المبارك – فلسطين

هذا الموضوع عميق وعريض ويشمل محاور كثيرة، أتناول فى هذه العجالة بعضاً منها، وآمل من خلالها أن أعطى صورة واضحة حول الموضوع:

١- كرامة الإنسان:

لقد تولَّى الله ـ سبحانه وتعالى ـ تكريم الإنسان بقوله: **﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾**(١) فهذه الآية الكريمة تشمل الناس جميعاً الذين تناسلوا من آدم ـ عليه السلام ـ والتكريم لفظ عام لا يحيط به نطاق الحصر، كما يقول علماء التفسير.

فالمسلم ينظر إلى غير المسلم نظرة إنسانية؛ لأن المسلم وغير المسلم متساويان؛ فى الإنسانية، ولأن الله ـ عز وجل ـ قرر تكريمهما .

٢- حرية الإنسان:

دعا الإسلام لأن يكون الإنسان حراً لا عبداً، وعالج الإسلام الرق نفسياً وعملياً، فقد جاء الإسلام وكان الرق منتشراً لدى العرب ولدى الشعوب الأخرى كالهنود واليونان والرومان والفرس، ودعا إلى تحرير الأرقاء بطرق شتى، وجفف منابع الرق حتى لا تتكون طبقة جديدة من الأرقاء فى المجتمع، حتى استطاع القضاء عليه بعد أن تَفَهَّم العبيد معنى الحرية، وكانوا قادرين لأن يعيشوا بكرامة واستقلالية واعتماد على النفس.

وتأكيداً لمعنى الحرية وتنفيراً من العبودية قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» وفى رواية «لم استعبدتم..» قال أمير المؤمنين هذه العبارة التاريخية لوالى مصر عمرو بن العاص ولابنه الذى اعتدى على القبطى فى مصر.

٣- العدل فى الإسلام:

يدعو الإسلام إلى العدل فى مجالات الحكم والقضاء والشهادة والفصل بين الناس والتعامل فيما بينهم، وعلى المسلم أن يكون بعيداً عن الحيف والظلم والتجنى على الآخرين فيقول الله سبحانه وتعالى: **﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾**[٢].

ويقول عز وجل أيضاً: **﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾**[٣] فلابد من تحقيق العدل بين الناس جميعاً سواء كان الطرف الآخر قريباً أو كان بعيداً وسواء كان صديقاً أو كان عدواً، وسواء كان مسلماً أو غير مسلم. وإن كتب تاريخ الحضارة الإسلامية زاخرة بالأمثلة التطبيقية العملية على ذلك.

٤- العلم والمجتمع:

لقد كَرَّم الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإنسان بالتعليم قراءة وكتابة، ولبيان مدى اهتمام الإسلام بالتعليم كانت أول الآيات نزولاً فى القرآن الكريم بشأن الحث على القراءة والخط والكتابة فيقول عز وجل: **﴿إقرأ باسم ربك الذى خلق• خلق الإنسان من علق• اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الإنسان ما لم يعلم﴾**[٤] وبالرغم من أن التوحيد هو أصل فى الإسلام إلا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ طالب الإنسان بالقراءة والخط والكتابة قبل مطالبته بالتوحيد والعقيدة والعبادة، وذلك لبيان أهمية التعليم، وأن التوحيد لا يكون صحيحاً ولا سليماً دون التعليم، لأن التعليم هو الذى يقود الإنسان إلى الحق والحقيقة وإلى اليقين والثبات وإلى المعرفة والعرفان. ويحسن فى هذا المقام أن أورد تعقيباً للإمام الزمخشرى فى تفسيره (الكشاف) حول هذه الآيات الكريمة بقوله: «... فدل على كمال كرم الله ـ سبحانه وتعالى ـ للإنسان بأن علم عباده

ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم. ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو. وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هى لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر بالقلم والخط لكفى به»(٥).

وما من شك أن الكتابة ساهمت مساهمة كبيرة فى حفظ القرآن الكريم، كما حفظت كتب التوحيد والتفسير والفقه وسائر علوم الشريعة واللغة، فلولا التدوين والتوثيق لذهب بها الإعصار وصارت نسياً منسياً؛ لأن ما كان يحفظ بالصدور قد ذهب بوفاة الحُفَّاظ؛ وبهذا ظهرت الحكمة الإلهية فى الأمر بالكتابة بنص القرآن الكريم(٦).

وترشد هذه الآيات الكريمة إلى ما يأتى:

١- وجوب تعلم القراءة، ومن المعلوم بداهة أن القراءة هى بداية المعرفة بالنسبة لكل إنسان.

٢- وجوب تعلم الخط والكتابة، ومن المعلوم بداهة ـ أيضاً ـ أن الكتابة هى لنشر المعرفة بين الناس، وأن القلم الأداة الفاعلة الفعالة فى التوثيق وحفظ المعرفة ونقلها للآخرين، ولولا القلم لتعرضت أمور كثيرة إلى الضياع، ومن المعلوم ـ أيضاً ـ أن الطباعة انبثقت عن فكرة الكتابة بالقلم.

٣- الحث على البحث والتقصى، وذلك للتوسع فى المعرفة، وللوصول إلى أفكار جديدة، ومكتشفات علمية حديثة متطورة(٧).

بالإضافة إلى عشرات الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة فى الحث على طلب العلم بشكل عام.

٥- الضرورات الخمس :

لقد تكفل الإسلام توفير الضرورات الخمس لكل مواطن حتى يستطيع أن يعيش فى مجتمع مستقر آمن، وهذه الضرورات هى: العقل، الدين، النفس، العرض (النسل)، المال.

فالدول الإسلامية ملزمة فى الحفاظ على هذه الضرورات للمواطنين جميعهم مسلمين وغير مسلمين، وعليه فإن غير المسلم يشعر بالطمأنينة حين تتوفر له هذه الضرورات بما فيها النفس والدين.

٦- لا إكراه فى الدين:

لم يضق الإسلام ذرعاً بالأديان السابقة بل احتواها، ووضع قواعد ومبادئ ثابتة لكيفية العلاقات والمعاملات مع غير المسلمين، ودعا أول ما دعا إلى التعامل مع أتباع هذه الديانات بالتسامح والمحبة بعيداً عن التعصب والمعاداة، فمن مبادئ الإسلام فى التسامح الدينى:

(أ) أن الأنبياء والمرسلين إخوة لا تفاضل بينهم فى النبوة والوحى، والله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿**لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**﴾[٨] ويقول فى آية أخرى: ﴿**لا نفرق بين أحد من رسله**﴾[٩] ويقول فى آية ثالثة: ﴿**والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً**﴾[١٠] فالمسلم مطالب بالإيمان والاعتقاد بالأنبياء والمرسلين جميعهم، وأنهم جميعاً موحًى إليهم من الله - سبحانه وتعالى - مع الإشارة إلى أن الرسول محمداً ﷺ يتميز عنهم لكونه آخر الأنبياء والمرسلين، وأن رسالته رسالة شاملة لجميع مناحى الحياة كلها.

(ب) لا يجوز الإكراه على العقيدة بل لابد من الاقتناع والرضا، والله - عز وجل - يقول: ﴿**لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾[١١] ويقول - سبحانه وتعالى - فى آية أخرى: ﴿**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾[١٢] وجاء الاستفهام هنا للإنكار.

(جـ) أن تكون المناقشة مع أصحاب الديانات بالحسنى، فيقول عز وجل: ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن**﴾[١٣] ويقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾[١٤].

(د) إن أماكن العبادة لأصحاب الديانات الأخرى محترمة ومصانة ولا يجوز الاعتداء عليها والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لَهُدِّمَت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً**﴾(١٥). وعندما تسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ مفاتيح مدينة القدس من صفرونيوس بطريرك الروم سنة ١٥هـ/٦٣٦م، رفض أن يصلى فى كنيسة القيامة، وصَلَّى خارجها، حتى لا يأتى المسلمون بعده ويَدَّعُون أحقيتهم بها، وبنى مسجد عمر مقابل كنيسة القيامة رمزاً للتسامح والمحبة والعدالة.

وعندما فتح المسلمون مدينة دمشق سنة ١٤هـ/٦٣٥م، تعهدوا لمواطنيها النصارى بإبقاء خمس عشرة كنيسة مع الحرية التامة فى ممارسة عباداتهم(١٦).

٧- التعددية:

بما أن الإسلام آخر الديانات السماوية، وأن الرسول محمدا ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه يعترف بوجودها، لذا يقر بمبدأ التعددية فى المجتمع، ويتعامل معها منذ بدء نزول القرآن الكريم إلى أن اكتمل التشريع، وأوضح الإسلام حقوق غير المسلمين، وأن التعامل استمر إلى يومنا هذا وإلى يوم الدين. فليس الأمر غريباً أو مستهجناً أن يتعايش المسلمون مع غير المسلمين؛ لأن المسلمين مهيأون أصلاً لذلك، وأن صورة التعامل معهم واضحة وجلية وصريحة من خلال نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

٨- التسامح:

المسامحة هى المساهلة من التسهيل، وسمح بمعنى: أعطى ويقال: فى الحق مسمح أى متسع، ولا مجال للباطل.

ويعتبر التسامح من القيم الرفيعة، والعناصر الإنسانية الإيجابية التى تقوى الروابط بين الناس، وتشيع فيهم الألفة والمودة والمحبة، ومن أبسط صور المسامحة: أن يسقط الشخص حقه تجاه غيره، أو أن يطلب المعتدِى المسامحة من المعتدَى عليه، فيستجيب الأخير لطلبه، فالمسامح بعمله هذا قد بَدَّل الكراهة إلى المحبة، والعداوة إلى الألفة.

ويدعو ديننا الإسلامى إلى القيم الخلقية الرفيعة جميعها، والتى منها العفو والمسامحة، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: **﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾**(١٧) ويقول - عز وجل - فى آية أخرى: **﴿فاصفح الصفح الجميل﴾**(١٨).

وقد يتوهم البعض أن التسامح يأتى عن ضعف واستكانة، وهذا توهم خاطئ فالتسامح ينبع من القوة والمقدرة، وكما هو معلوم ومعروف أن العفو يكون عند المقدرة، والله - سبحانه وتعالى - يقول: **﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾**(١٩)، ويقول - عز وجل - فى آية أخرى: **﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾**(٢٠) فالذى يصبر ويعفو ويصفح يكون قوى العزيمة ضابط الأعصاب كاظم الغيظ، ويقول - سبحانه وتعالى - فى صفات المتقين: **﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾**(٢١) فالقرآن الكريم يشجع على العفو والصفح والتسامح فيما بين الناس، وما من عقوبة تذكر فى القرآن الكريم وتتعلق بحقوق العباد إلا ويرافقها مطلب ربانى بالصلح والعفو والمسامحة، فيقول سبحانه وتعالى: **﴿وليعفوا وليصفحوا﴾**(٢٢) ويقول - عز وجل - فى آية أخرى: **﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾**(٢٣) وبهذا العفو والصفح والمغفرة تزداد الألفة بين الأفراد، ويعم الاستقرار فى المجتمع، وتهدأ الفتن، وتطفأ الأحقاد وينزع فتيل الانتقام.

ليس هذا فحسب بل يشجع الإسلام الناس على الإحسان لمن أساء إليهم، ففى ذلك خطوتان:

الخطوة الأولى: إن الإنسان المعتدى عليه لا يقابل الإساءة بالإساءة – أى لا يعتدى على من اعتدى عليه.

والخطوة الثانية: إن الإنسان يحسن لمن أساء إليه، فيقول سبحانه وتعالى: **﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين • ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم • وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا**

وما يُلَقّاها إلا ذو حظ عظيم﴾[٢٤] وترشد هذه الآيات الكريمة إلى قمة التسامح والمحبة، ولا يصل إلى هذه القمة إلا الصابرون وأصحاب الثواب العظيم والإيمان المتين.

٩- عقد الذمة:

يحسن فى هذه العجالة أن أتناول عقد الذمة بإيجاز لبيان الهدف منه، ولأزيل الغشاوة التى تحيط هذا العقد لدى البعض:

جرى العرف الإسلامى على إطلاق اسم (أهل الذمة) على المواطنين من غير المسلمين فى الدولة الإسلامية، وأن عقد الذمة يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم وتمتعهم بأداء شعائر دينهم، وتعهد الدولة بالمحافظة على أرواحهم وأموالهم، مقابل أخذ الجزية منهم والتزامهم أحكام الإسلام فى غير ما يتصل بعقائدهم، وأن الذمة تعنى الأمان والعهد والضمان والكفالة.

ولقد نَعِمَ أهل الذمة فى ظل الدولة الإسلامية بحقوق يعجز أى نظام بشرى - مهما بلغ من الرقى والحضارة والتمدن - أن يكفلها للرعايا المخالفين له فى دينه برعاية الأصليين، وقد رفع الإسلام شعار (لهم ما لنا، وعليهم ما علينا) وهذا، الشعار يمثل القاعدة الاستراتيجية فى التعامل مع غير المسلمين.

وقد توالت وصايا الرسول ﷺ بأهل الذمة، وتكررت أوامره بالإحسان إليهم والبر بهم، كما تكررت نواهيه عن إيذائهم وسلب حقوقهم، فيقول عليه الصلاة، والسلام: **(ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كَلَّفَه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)**[٢٥].

وأوصى النبى ﷺ بأقباط مصر خيراً فقال: **(إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمةً ورحماً)**[٢٦].

وفى ظل هذه المعانى الإسلامية الكريمة، والهدى النبوى الشريف، سار الخلفاء الراشدون وولاة الأمور وقادة الفتوح الإسلامية، فعاملوا أهل الذمة معاملة حسنة، وأحاطوهم بالرعاية والعناية، ففى عهد الخليفة أبى بكر الصديق رضي الله عنه كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه كتاب الصلح لأهل الحيرة فى العراق جاء فيه:

(... وجعلت لهم أيما شيخ ضَعُفَ عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام)[٢٧].

وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه رغم أنه أصيب بضربة رجل من أهل الذمة - ألا وهو أبو لؤلؤة المجوسى - إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يوصى الخليفة من بعده وهو على فراش الموت فيقول: (أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفون فوق طاقتهم)[٢٨] وحصل أثناء خلافته أنه شاهد شيخاً كبيراً ضريراً يسأل الناس، فاستوضح منه فإذا هو يهودى، فقال له عمر: (فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: انظر هذا وضربائه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شيبته ثم نخذله عند الهرم ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين...**﴾[٢٩] والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه)[٣٠].

وتابع الأمويون سياسة حسن معاملة أهل الذمة، فتولى أهل الذمة كثيراً من المناصب الإدارية فى الدولة، فقد اعتمد الأمويون عليهم فى شؤون الدواوين حيث عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان بالإدارة المالية إلى أسرة مسيحية ظلت تتوارث فيما بينها تلك الإدارة، وهى أسرة سرجون بن منصور الرومى[٣١] واستمر تعيين الأكفاء من أهل الذمة فى وظائف الدولة رغم تعريب الدواوين فى عهد عبدالملك بن مروان الذى بنيت فى عهده كنيسة جميلة فى مدينة الرها[٣٢]، كذلك فى عهد الخليفة هشام بن عبدالملك فإن الوالى خالد بن عبدالله القسرى - والى الكوفة - قد أكثر من الاستعانة بالنصارى، واستخدمهم فى الوظائف وبنى لهم البيع والكنائس[٣٣].

ويصف المستشرق (وول ديورانت) حال أهل الذمة فى العصر الأموى فيقول: (لقد كان أهل الذمة المسيحيون واليهود يتمتعون فى عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً فى البلاد المسيحية فى هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً فى ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم)[٣٤].

وهكذا عاش غير المسلمين مع المسلمين فى جو من المحبة والتعاون والاحترام المتبادل عبر التاريخ، ولابد من التنويه إلى أن المسيحيين فى فلسطين بخاصة وفى البلاد العربية بعامة قد وقفوا إلى جانب المسلمين ضد المحتلين الفرنجة الذين أعلنوها حرباً صليبية تستراً بالدين.

إن النظام الإسلامى هو نظام شامل وَضَّحَ العلاقات بين الناس وخالقهم، والعلاقات بين الناس فيما بينهم: بين المسلمين والمسلمين، وكذلك بين المسلمين وغير المسلمين. وهذا الدين العظيم هو الذى أعطى الحقوق لغير المسلمين، فى حين لا يوجد أى نظام آخر يعطى الحقوق لمن يختلف معهم فى الديانة، بل إن الاضطهاد الدينى سابقاً ولاحقاً فى الدول غير الإسلامية عنيف ودموى ضد المسلمين؛ ومع ذلك فإن موقفنا ثابت لا يتغير، وينطلق من أحكام الشريعة الإسلامية السمحة، ولا يكون موقفنا رد فعل لتصرفات الآخرين فى الشرق أو فى الغرب.

فالإسلام عادل ورحيم ومتسامح، كان ولا يزال، وعلى أتباعه أن يكونوا أمناء فى تنفيذ أحكامه وترجمتها على أرض الواقع.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش

١- سورة الإسراء الآية ٧٠ جـ١٥.
٢- سورة المائدة الآية ٨ جـ ٦.
٣- سورة الأنعام الآية ١٥٢ جـ ٨.
٤- سورة العلق الآيات ١-٥ الجزء ٣٠.
٥- تفسير الكشاف للزمخشري جـ٢ ص ٥٥٢، وتفسير النسفى جـ ٤ ص ٣٦٨.
٦- اليمين فى القضاء الإسلامى للشيخ الدكتور عكرمة صبرى ص ٥٢.
٧- التربية فى الإسلام للشيخ عكرمة صبرى ص ٢، والعلم طريق الإيمان للشيخ عكرمة صبرى ص ٥، وبحث حول (حق التعليم فى الإسلام) للشيخ عكرمة صبرى ص ٤.
٨- سورة البقرة الآية ١٣٦ جـ ١، وسورة آل عمران الآية ٨٤ جـ٣.
٩- سورة البقرة الآية ٢٨٥ جـ٣.
١٠- سورة النساء الآية ١٥٢ جـ٦.
١١- سورة البقرة الآية ٢٥٦ جـ٣.
١٢- سورة يونس الآية ٩٩ جـ١١.
١٣- سورة العنكبوت الآية ٤٦ جـ٢١.
١٤- سورة آل عمران الآية ٦٤ جـ٣.
١٥- سورة الحج الآية ٤٠ جـ١٧.
١٦- كتاب (تاريخ دمشق الكبير) لابن عساكر - القاسم على بن الحسن جـ ١ ص ٢٤١.
١٧- سورة التغابن الآية ١٤ جـ٢٨.
١٨- سورة الحجر الآية ٨٥ جـ١٤.
١٩- سورة الشورى الآية ٤٠ جـ٢٥.
٢٠- سورة الشورى الآية ٤٣ جـ٢٥.
٢١- سورة آل عمران الآية ١٣٤ جـ٤.
٢٢- سورة النور الآية ٢٢ جـ١٨.
٢٣- سورة التغابن الآية ١٤ جـ٢٨.
٢٤- سورة فصلت الآيات ٣٣-٣٥ جـ٢٤.
٢٥- رواه أبو داود عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم (سنن أبى داود جـ٣ ص ١٧١ رقم ٣٠٥٢ باب الخراج والإمارة).
٢٦- مسند الإمام أحمد جـ ٥ ص ١٧٤.
٢٧- كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٥٥، و ص ١٥٦.
٢٨- كتاب إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى للقسطلانى جـ ٥ ص ١٦٢.
٢٩- سورة التوبة الآية ٦٠ جـ١٠.
٣٠- كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٣٦.
٣١- كتاب تاريخ خليفة بن خياط جـ ١ ص ٢٧٦.
٣٢- كتاب الدعوة إلى الإسلام للمستشرق توماس أرنولد ص ٨٥.
٣٣- كتاب تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ٢٤٣.
٣٤- كتاب (قصة الحضارة) تأليف المستشرق: وول ديورانت جـ٢ ص ١٣٠.

كل البشر سواسية فى التصور الإسلامى

الأستاذ الدكتور/ مصطفى الشكعة

الأستاذ بجامعة عين شمس

مصر

الإسلام هو خاتم الرسالات السماوية، ومحمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، والإسلام يعترف بالرسالات السماوية السابقة جميعا، وبالأنبياء والمرسلين السابقين جميعا، وذلك بتوجيه إلهى فى قوله عزَّ وجلَّ: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نُفَرِّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾**(١).

وإذا كانت الرسالات السابقة جاءت معجزات أنبيائها حاسمة مما يجعلها تبطل الإنجازات الكبرى لإنسان زمنها، كالسحر فى زمن رسالة سيدنا موسى عليه السلام، والطب فى زمن سيدنا عيسى عليه السلام، فإن معجزة الرسالة الخاتمة تمثلت فى العديد من المعجزات المبهرة التى أعظمها إبهارا القرآن الكريم الذى يقول المولى سبحانه فى شأنه: **﴿ما فَرَّطنا فى الكتاب من شىء﴾**(٢) وصدر الآية قوله تعالى: **﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾**.

على أن الصبغة التى يتسم بها مجتمع الرسالة الخاتمة هى «الوسطية»، فهى أبعد ما تكون عن جانب الغلو إيجابا أو سلبا، طردا أو عكسا، اندفاعا أو اندحارا، إنفاقا أو تقتيرا، إسرافا أو بخلا، حتى فى العبادة من صلاة وصوم، واللعب من فروسية ورمى، ولذلك لما رأى رسول الله ﷺ عبد الله بن عمرو مفرطًا فى نسكه وكثير العبادة قال له: «**إن لجسدك عليك حقًا، وإن**

لزوجك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقًا» أما وإن الإسلام دين الوسطية، فإنه - والأمر كذلك - يريح البشر حتى أولئك الذين لا يؤمنون به لو التزموا جانب الحياد، وهم غير قليل فى جماعة المستشرقين، وبعضهم من رجال الدين، فالوسطية تضع المرء فى جانب الأمان، وهى سعادة وسلام للمجتمع البشرى، ورفاهية وعمران للحياة الإنسانية، وعلى العكس من ذلك يصنع الانفلات من ناحية والجمود من ناحية أخرى، والله سبحانه يقول فى محكم كتابه **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا﴾**(٣).

ومن وسطية الإسلام أنه وقد جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم، لم يمنع المسلمين من أن يأخذوا العلم من غير المسلمين، وأن يقتبسوا المعرفة من الثقافات البشرية السابقة من يونانية وفارسية وهندية، فنشطت الترجمة إلى العربية للكتب التى سطرتها أقلام علماء هذه الأمم، فأحسن المسلمون استقبالها، ومارسوا الانتفاع بها، وزادوها نمواً، وأضافوا إليها الكثير مما رفع من قيمتها ومن شأن العلماء المسلمين، و نستطيع أن نذكر فى هذا المقام من علماء المسلمين ذوى الإسهامات الكبيرة: البيرونى، والرازى الطبيب، وأبناء موسى، والطوسى والحسن بن الهيثم، وابن سينا، والفارابى، وغيرهم من العلماء الذين ترجمت كتبهم إلى اللغة اللاتينية وإلى اللغات الأوروبية الحديثة.

وإذا كان عنوان هذا البحث «كل البشر سواسية فى التصور الإسلامى» فإن هذا العنوان ينم عن حقيقة يعرفها ويعترف بها المتخصصون، كما ينبغى أن يتعرف عليها الدارسون الذين هم يسعون فى جد إلى ارتقاء السلم العلمى درجة فدرجة.

إن القرآن ـ كتاب الإسلام ـ الذى أنزل على محمد نبى الإسلام وخاتم الرسل يكرم الإنسان ـ كل الإنسان ـ بصرف النظر عن دينه أو عرقه أو لونه، فيقول سبحانه وتعالى : **﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾**(٤)

ولمزيد من تكريم البشر فقد خلقهم الله فى أحسن تقويم، يعنى فى أكمل هيئة

وأجمل صورة ، والقرآن الكريم يسجل ذلك فى قول الله عز وجل : **﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾**(٥) وهذه الآية مسبوقة بقسم عظيم هو قوله - عز وجل : **﴿والتين والزيتون ● وطور سينين ● وهذا البلد الأمين﴾** ولقد صدق الله سبحانه وهو أصدق القائلين إذ ليس بين مما خلق من هو فى مثل جمال تقويم الإنسان، تكريما له، وتشريفا لجميع الجنس البشرى. ولكن ليكون عدل الله شاملا وواقعاً، فلابد للإنسان الذى كرمه الله بأن خلقه فى أحسن تقويم أن يكون مطيعاً لأوامر الله مذعنا لإرادته بالتزام الإيمان به رباً، وفعل الخير للآخرين، فإن لم يفعل فإن سمات جمأل الخلق تنزع عنه، فيرتد إلى أسفل سافلين. أما الذين يبقون على إيمانهم فيظلون على حالهم من الكمال والجمال مع حسن الجزاء الأوفى من الله : **﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾**.

وعلى هذا النهج من تكريم الله للبشر - كل البشر - أن الله سبحانه خلق الإنسان سويا من حيث الخلق، معدلا - أى متناسقا جميلا - من حيث الصورة، ولكن هذا الوصف يجىء فى سياق توبيخ من اعوجّ سلوكه وانحرف إيمانه، ولذلك فإن الله سبحانه يعاتبه فى ثوب من ألفاظ التعنيف قائلا : **﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ● الذى خلقك فسواك فعدلك ● فى أى صورة ما شاء ركبك﴾**(٦).

ومن تكريم الإسلام للبشر - كل البشر - وجعلهم سواسية موضوع استخلاف الله لهم فى الأرض، استخلفهم فيها ليعمروها باستزراع تربتها، واستخراج خيراتها، والإكثار من الإنجاب الصالح، وحسن المعاملة، وكمال الخلق، وإعطاء المولى حقه من العبادة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. بل إن معنى الاستخلاف ومراده يمتد إلى ما فى أيديهم من مال، حيث أمرهم بالإنفاق والإحسان مما هم مستخلفين فيه - وهذا حق الله وعدل منه - وذلك فى قوله جل شأنه : **﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾**(٧)

ويؤكد القرآن الكريم استخلاف الله سبحانه للبشر فى آية أخرى تكريما لهم

وامتحانا لهم فى تصرفهم، ومدى صلاحيتهم لنعمة الاستخلاف فى قوله عز وجل : ﴿**وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم**﴾(٨)

ومثلما مَنَّ الله سبحانه وتعالى على الإنسان باستخلافه إياه فى الأرض، فإنه عرض عليه الأمانة ـ وهى فضيلة جليلة وخطيرة لحاجة البشر إليها ـ فقال سبحانه فى محكم كتابه : ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا**﴾(٩).

إن السياق القرآنى الكريم يستدعينا إلى بعض التوقف هنا، لنؤكد على أن الخالق سبحانه لم يبدأ بعرض الأمانة على الإنسان إشفاقا منه ـ تنزهت ذاته وتباركت أسماؤه ـ على الإنسان، فعرضها منذ البداية على السموات بما حوت من الكواكب، وعلى الأرض بما حفلت من براكين وبحار وأنهار، والجبال بما حملت وتحملت، فأبت السموات والأرض والجبال خوفا من خطرها وأهميتها عند الخالق ومخلوقاته، وإشفاقا على كيانهن من الرسوب فى الامتحان، وعدم الاستطاعة بالوفاء بتحملها، فعرضها المولى على الإنسان، وكان الإنسان فى حل من عدم قبول العرض، وما كان الله ليعاقبه على ذلك فقد أبى حملها من هُنَّ أقدر على ذلك منه، ولكنه حملها لأنه ظلوم جهول.

ولكن ما هى تلك الأمانة التى عرضها الله على أعظم مخلوقاته : السموات والأرض والجبال، إنها أعظم مخلوقاته بنص القرآن الكريم، وخلقها أشد من خلق الإنسان، وذلك فى قوله تعالى مخاطبا البشر فى سياق قصة موسى وفرعون، يقول تعالى مخاطبا البشر : ﴿**ءأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها • رفع سمكها فسواها • وأغطش ليلها وأخرج ضحاها • والأرض بعد ذلك دحاها • أخرج منها ماءها ومرعاها • والجبال أرساها • متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾(١٠)

يقول فريق من المفسرين الذين استعان بهم الطبرى: إن الله عرض طاعاته وفرائضه على السموات والأرض والجبال، فأبت حملها شفقة منها ألا تقوم

بالواجب عليها. وقال فريق آخر : هى الدين والفرائض والحدود، قيل له - أى الإنسان - أتحملها؟ قال : نعم، قيل له : أتؤدى حقها ؟ قال : نعم. قال الله : إنه كان ظلوما جهولا عن حقها. وقال فريق ثالث : هى جميع معانى الأمانات فى الدين، وأمانات الناس، ويرضى الطبرى بهذا التفسير، ويقول : هو الصواب.

إن قضية الأمانة التى وردت فى الآية الخاصة بها والتى حملها الإنسان تخص جميع البشر؛ لأن كل البشر سواسية فى التصور القرآنى وبالتالى فى التصور الإسلامى فى نطاق ما نحن بصدده من سياق.

أما الحكم الإلهى فى نهاية الآية على الإنسان فإنه يفيد التقرير، ولا يراد به التعريض أو التوبيخ لقبوله حمل الأمانة، أى أنه أضعف من أن يحملها، لأن الشعوب إذا حافظت على الأمانة بكل ما تشتمل عليه من معان وممارسات سعدت واطمأنت، وأما إذا ضاعت فالويل لقوم ضاعت الأمانة بينهم.

هذا وقد ورد ذكر لفظ الإنسان - أى البشر - فى القرآن الكريم خمساً وستين مرة فى صيغ شتى وأوصاف متباينة : مخاطباً، وموصوفاً، وممدوحاً، ومذموما، ومعنّفا، وموجها، ومنصوحا، ومأمورا إلى غير ذلك، وتلك بعض آيات الكتاب العزيز فى هذه المجالات :

● **﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ● الذى خلقك فسواك فعدلك﴾**. الانفطار: ٦, ٧.

● **﴿ويدعُ الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا﴾** الإسراء:١١.

● **﴿إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبينًا﴾** الإسراء: ٥٣.

● **﴿أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئًا﴾** مريم: ٦٧.

● **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهن﴾** لقمان: ١٤.

● **﴿فلينظر الإنسان مم خلق ● خلق من ماء دافق ● يخرج من بين الصلب والترائب﴾** الطارق: ٥ - ٧.

● ﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾ التين: ٤.

ولأن الإنسان هو خير خلق الله فقد خصه المولى بسورة مستقلة فى كتابه العزيز هى «سورة الإنسان»، وعدد آياتها إحدى وثلاثون، وعلى الذين يعنون بدراسة الإنسان فى أى علم من العلوم التى تدخل دراسة الإنسان فى مكوناتها أن يسارعوا إلى قراءة هذه السورة الكريمة من كتاب الله العزيز، فهى تروى قصة خلق الإنسان، ونشأته، والسبيل الذى يسلكه، ولكى توضح له طريقه وسلوكه فقد ضمت السورة آية واحدة من سطر واحد يشرح ما يحيق بالكافرين، أما بقية الآيات فتتحدث عن الأبرار، والجنة، وسكانها، وما يلقون فيها من ألوان النعيم حتى الآية الثانية والعشرين، ولأن محمدا ﷺ إنسان فإن الآيات التسع الباقية تُمثِّلُ توجيها ربانيا له فيه توجيهات إلهية، وختام السورة قول الله عز وجل : **﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليمًا حكيمًا● يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابًا أليمًا﴾** الإنسان: ٣٠ -٣١.

والذين أسرفوا على أنفسهم نقول لهم : توبوا إلى بارئكم فإن الله سبحانه وتعالى يقول : **﴿ورحمتى و سعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾** الأعراف: ١٥٦.

بناء الدولة الإسلامية:

إلى هنا نصل إلى مرحلة بناء الدولة الإسلامية فى المدينة، التى كان مجتمعها يتكون من المهاجرين والأنصار ـ وهم الأوس والخزرج ـ واليهود وبقية من لم يسلموا بعد من الأوس والخزرج، ولقد ذوب الإسلام ما بين الأوس والخزرج من حقد، وأزال ما بينهما من ضغائن، ولكى تستقر الأحوال فى المدينة كان من الضرورة خلق جو من الأمن بين جميع سكانها، يسطر فى وثيقة مكتوبة تلزم جميع الأطراف ببنود محددة، يستشعرون الأمان على أنفسهم من خلالها، والحفاظ على عقائدهم وأموالهم، وأن تحترم بنود هذه الوثيقة دون نقص أو إخلال، وقد أملى النبى ﷺ بنود هذه الوثيقة، وارتضتها الأطراف جميعا.

وهكذا نشأت دولة المدينة التى قامت على أساس المواطنة الإسلامية، وهو

أساس جديد لم يكن معروفا قبل ذلك، ووصفت الوثيقة مجتمع المدينة بأنه أمة من دون الناس، وحلت الرابطة الدينية محل الرابطة القبلية، ذلك أن العرب لم يكونوا يجتمعون قبل الإسلام إلا على صلات من القرابة والنسب.

لقد ضمت الوثيقة سبعا وأربعين مادة طبقا لتقسيم الدكتور محمد حميد الدين لها، وقد رأينا أن نعيد عرض الوثيقة طبقا للتقسيم الذى قدمها الدكتور حميد الدين من خلاله(١١).

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ هذا كتاب من محمد النبى، رسول الله، بين المؤمنين والمسلمين من قريش، وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم.

٢ ـ أنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣ ـ المهاجرون من قريش على رَبْعَتِهِمْ، يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانِيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين(١٢).

٤ ـ وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥ ـ وبنو الحارث بن الخزرج على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين.

٦ ـ وبنو ساعدة على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧ ـ وبنو جشم على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨ ـ وبنو النجار على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩ ـ وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠ ـ وبنو النَّبِيت على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة

تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١ - وبنو الأوس على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢ - وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء، أو عَقْل[١٣].

١٣ - وأن لا يُحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه.

١٤ - وأن المؤمنين المتقين، أيديهم على كل من بغى منهم، أو ابتغى دَسِيعَةَ[١٤] ظلم، أو إثماً، أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم.

١٥ - ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن.

١٦ - وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض، دون الناس.

١٧ - وأنه من تبعنا من يهود، فإن له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولامتناصر عليهم.

١٨ - وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

١٩ - وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً[١٥].

٢٠ - وأن المؤمنين يُبىءُ بعضهم عن بعض[١٦]، بما نال دماءهم فى سبيل الله.

٢١ - وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

٢٢ - وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش، ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.

٢٣ - وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن غير بينة، فإنه قود به، إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه[١٧].

٢٤ ـ وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً، أو يؤويه، وأن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل[١٨].

٢٥ ـ وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

٢٦ ـ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين، ماداموا محاربين.

٢٧ ـ وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ[١٩] إلا نفسه وأهل بيته.

٢٨ ـ وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف.

٢٩ ـ وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف.

٣٠ ـ وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف.

٣١ ـ وأن ليهود بنى جُشَم مثل ما ليهود بنى عوف.

٣٢ ـ وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف.

٣٣ ـ وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لايوتغ إلا نفسه، وأهل بيته.

٣٤ ـ وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

٣٥ ـ وأن لبنى الشُطيبة مثل ما ليهود بنى عوف، وأن البر دون الإثم[٢٠].

٣٦ ـ وأن موالى ثعلبة كأنفسهم.

٣٧ ـ وأن بطانة يهود كأنفسهم.

٣٨ ـ وأن لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

٣٩ ـ وأنه لا ينحجز على ثأر جرح[٢١]، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته، إلا من ظلم، وأن الله على أبر هذا.

٤٠ ـ وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر[٢٢] على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح

والنصيحة، والبر دون الإثم.

٤١ـ وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

٤٢ـ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٤٣ـ وأن يثرب حرام جوفها[٢٣] لأهل هذه الصحيفة.

٤٤ـ وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

٤٥ـ وأنه لا تجُار حرمة إلا بإذن أهلها[٢٤].

٤٦ـ وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث[٢٥]، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره.

٤٧ـ وأنه لا تُجار قريش ولا من نصرها.

٤٨ـ وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

٤٩ـ وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه، ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه[٢٦]، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين.

٥٠ـ على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم.

٥١ـ وأن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة [٢٧] وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره.

٥٢ـ وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.

لقد كانت وثيقة الموادعة تلك مترعة بأسباب السماحة الإسلامية، مليئة بالمبادئ الإنسانية، فمن أبرز موادها أن «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم» و «من خرج من المدينة فهو فى أمان، ومن قعد فهو فى أمان، إلا من ظلم وأثم» و «المسلمون جميعاً ضد من ظلم أو بغى أو اعتدى أو أفسد بين المؤمنين، ولو كان ولد أحدهم» و «أنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين، ولامتناصرين عليهم» و «أن بطانة يهود كأنفسهم» و «أنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم» و«أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين» و «أن الجار كالنفس غير مُضَار ولا آثم».

وكان من أنصع مواد هذه المعاهدة أن التحكيم فى شئونها مردّه إلى الله وإلى الرسول ﷺ وذلك فى الفقرة رقم (٤٢) التى تقرر : وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأن الله على أتْقَى ما فى هذه الصحيفة وأبره».

يقول الدكتور جعفر عبد السلام : إن المتمعن فى نصوص الوثيقة يستخلص منها كيف اهتم الرسول ﷺ ببناء الأمة، أى : تحديد الروابط السياسية والاجتماعية والقانونية بين فئات السكان، فالرسول برغم إقامته الدولة على أساس العقيدة، فإنه لم يغفل فئات السكان الأخرى التى تعيش معه فى مكان واحد فى الدولة الجديدة، يؤدون واجبهم نحوها فى الذود عنها، وصيانة أمنها الداخلى والخارجى، والحفاظ على البناء الأساسى الذى وطده الرسول فى يثرب(٢٨)

هذا فضلا عن عناصر أساسية فى بناء الدولة الحاضرية اشتملت عليها الوثيقة، وتنبه إليها صاحب البحث، يمكن عرض أهم مبادئها على النحو التالى:

● إن تحديد العلاقات بين الأطراف يضعنا أمام لجنة تأسيسية، هى كل بطون المدينة والمهاجرين إليها، فضلا عن قائدها ونبيها، وهذه اللجنة التأسيسية تضع عقدا اجتماعيا ترسى فيه مبادئ دستورية توضح أساس التعامل بين مختلف فئات المجتمع.

● شهدت أرض يثرب عملية بناء ضخم تمت فى العام الأول للهجرة، فقد كان الرسول ﷺ يبحث عن إقليم الدولة، أو الإقليم الذى يأوى إليه؛ لكى يتمكن من نشر دعوة الإسلام وبناء الأمة الإسلامية، وقد وجد الرسول ضالته فى المدينة، لذلك اهتم بأمر هذا الإقليم، فحدده وجعله حرما آمنا لمن يأوى إليه، وإذا ما تتبعنا حياة الرسول فى المدينة نجده ﷺ قد اهتم بأمور عدة، أهمها ثلاثة إنجازات كبيرة :

أولها : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهى عملية فريدة لم تتكرر فى تاريخ الإنسانية كلها.

وثانيها : وضع هذه الوثيقة.

وثالثها : بناء المسجد، الذى هو دائما فى الإسلام وحدة دينية واجتماعية وسياسية.

● اهتم الرسول بفكرة إقليم الدولة؛ حيث نصّ فى الوثيقة على أن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، أى : تحريم قتل الأنفس ونهب الأموال، بل تحريم قطع الشجر وقتل الطير.

وقد أورد المرحوم ظافر القاسمى أنه ورد فى بعض المراجع أن الرسول ﷺ أرسل بعض أصحابه لكى يضعو أعلاما على حدود حرم المدينة، بين لابتيها شرقا وغربا، وبين جبل ثور فى الشمال، وجبل عير فى الجنوب ووادى العقيق(٢٩).

● كان الضمان الاجتماعى يشكل مظلة ظليلة على مجتمع الدولة الإسلامية فى المدينة، فقد جاء به الإسلام شاملا، وقام نظام الدولة الإسلامية على فرض الزكاة، وفرض توزيع أموال من بيت المال على المحتاجين، وهو ما نصت عليه الوثيقة فى وضوح. وذلك أن المسلمين لا يتركون مفرحاً ـ أى : مثقلا بالدين ـ وإنما يعطونه بالمعروف، فضلا عن الفداء من الأسر، وتحمل الديات.

هذا وقد ورد بالصحيفة نصوص على حرية العقيدة، وعلى التأكيد على المساواة بين عناصر الدولة.

ومجمل القول: أن هذه الوثيقة تعدّ سبقاً تاريخياً فى وضع وثائق بناء الدول، وفى صياغة أسس تتضمنها الوثائق الدستورية الحديثة، منذ أن بدأت الدول تعرف هذا المصطلح فى القرن السادس عشر الميلادى حتى الآن.

إن اليهود لم يمهد لهم احترام فى التاريخ بمثل ما مهدت لهم هذه الوثيقة المحمدية الشريفة، فقد كان لهم نصيب فى المغنم إذا ما قاتلوا مع المسلمين، مما جعل بعض المؤرخين يعلل هذا التسامح العظيم تارة بأن الإسلام كان لايزال ضعيفاً آنذاك، وتارة أخرى بأنها كُتِبَت قبل أن تفرض الجزية، ولكن الأمر ليس كذلك تماما، لأن اليهود هم الذين نقضوا العهد، وكان الإسلام قد خاض غزوة بدر، وكان النصر المؤزر حليف المسلمين.

على أن اليهود لم يصبروا على فضيلة الأمانة والحفاظ على العهد كدأبهم، فتحالفوا مع كفار قريش فى مكة، ووضعوا خطة بل مؤامرة للإيقاع برسول الله والفتك به على ما هو مفصل فى كتب السيرة، فانكشف غدرهم، وحاصرهم الرسول بالكتائب بادئا ببنى قريظة ثم بنى النضير حتى أجلاهم، فكانوا - أى اليهود - البادئين بغدرهم سبب إجلائهم عن مدينة الرسول، وتلك سليقتهم على مرّ العصور وكرّ الدهور.

بهذا استقر الأمر للمسلمين فى دولتهم التى بدأت تتسع آفاقها، فكان لابد لها من تنظيم يرسى قواعد العدل فى ربوعها، فكانت وثيقة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء العمل الاسمى فى إرساء العدالة بين المسلمين.

ويوسع عمر دائرة القضاء على رقعة الدولة الإسلامية، التى اتسعت فى أيامه بحيث شملت مصر والشام والعراق وفارس فضلاً عن الجزيرة العربية نفسها، فولى «أبا الدرداء» القضاء فى المدينة، وولى «شريح بن الحارث الكندى» القضاء

فى الكوفة، وولى أبا موسى الأشعرى «عبد الله بن قيس» القضاء فى البصرة، وولى «عثمان بن قيس بن أبى العاص» القضاء فى مصر(٣٠).

وإذا كان الدستور القضائى فى الإسلام ينبع من الكتاب والسنة واجتهاد القاضى فى نطاق علمه وعدله ووجدانه، فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يثبت هذا الدستور بالتوجيه الحسن، وشرح فلسفة القضاء ومفهومه وحدوده برسالته إلى أبى موسى الأشعرى التى يقول فيها :

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس «أبى موسى الأشعرى» سلام عليك، أما بعد :

فإن القضاء فريضة محكمة، وسنّة متبعة، فافهم إذا أُدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لانَفَاذ له، آس بين الناس بوجهك، وعدلك، ومجلسك، حتى لايطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرم حلالاً، لا يمنعنك قضاءٌ قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل، الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله، وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادعى حقا غائباً أو بينة أمداً ينتهى إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحللت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً فى ولاء أو نَسَب، فإن الله تولى منكم السرائر، ودرأ بالبينات والأيمان. وإياك والغلق، والضجر، والتأذى بالخصوم، والتنكر عند الخصومات، فإن الحق فى مواطن الحق ليعظم الله به الأجر، ويحسن به الذخر، فمن صحت نيته فى الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله، فإن الله تعالى لايقبل من الناس إلا ما كان خالصاً، فما

ظنك بثواب عند الله - عز وجل - فى عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام»[٣١].

إن رسالة عمر قد نبعت من الكتاب والسنة، وبنيت على الأحكام الإسلامية الصريحة السليمة، واعتمدت فى جانب كبير منها على القياس والاجتهاد فى نطاق المفاهيم الإسلامية العريقة.

إن عمر يعرّف القضاء بأنه فريضة محكمة وسنة متبعة، ومراد عمر أن ما يحكم به القاضى نوعان : أحكام فرضها الله، وأحكام تعتمد على سنة رسول الله، ومن المسلم به أن أحكام السنة إكمال لأحكام الكتاب، وأن عمر فى ذلك مستجيب لحديث رسول الله ﷺ ومستأنس بقوله الشريف: «العلم ثلاثة، فما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، وسنة قائمة، وفريضة عادلة».

يحض عمر القضاة على تنفيذ أحكامهم، فليس القصد هو مجرد إصدار الأحكام ولو كانت عادلة، وإنما قيمة الحكم فى تنفيذه، وإشاعة العدل تكمن فى أن يحصل صاحب الحق على حقه، وأن يتم القصاص من الظالم، إن عمر يطلب من القاضى أن يعرف ما هو حق، وأن يقوى على تنفيذه.

وبالعدل تستقيم أمور الناس، وتستقر شئون الدول، وتحقيق العدل أمر حتمى فى الإسلام، ولو مع قوم ذوى خصومة وخلاف، والقرآن الكريم يؤكد على ذلك فى قول الله سبحانه وتعالى : **﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾**[٣٢] وقوله سبحانه : **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾**[٣٣].

إنها أوامر ونواهى إلهية لتحقيق سعادة الأمة فى دنياها وآخرتها، ولكن يأتى الأمر بالعدل والإحسان فى مقدمتها، وكل البشر سواء فى التمتع بثمرات هذه الأوامر وتلك النواهى، إذ لا يقتصر تطبيقها على المسلمين وحدهم، ولكنه ينصرف إلى غيرهم من أصحاب العقائد الأخرى، ممن يشاركونهم العيش فى أوطانهم.

وأما العدل فهو بدوره مكفول لجميع الناس، والمساواة واجبة التحقيق لهم على اختلاف عقائدهم وأعراقهم وأجناسهم رجالا ونساء.

وإن قصة علىّ بن أبى طالب واليهودى الذى شكاه إلى عمر بن الخطاب، فلما وجه عمر السؤال إلى علىّ قائلا له : ماذا تقول يا أبا الحسن؟ غضب علىّ غضبا شديدا، فظن عمر أنه أساء إلى علىّ وسأله عما أغضبه، فكانت إجابة علىّ الفورية : كنّيتنى يا أمير المؤمنين، أى جاملتنى فى الحديث، الأمر الذى يدخل الشك فى الحكم الذى يصدره عمر، لأن المساواة بين الخصمين ينبغى أن تكون كاملة فى المعاملة وفى القول وفى الحركة، ولذلك فإن عمر - رضى الله عنه - نص على ذلك فى رسالة القضاء التى بعث بها إلى أبى موسى الأشعرى، والتى أوردنا نصها قبل صفحة أو صفحتين، وذلك فى قوله : «آس بين الناس بوجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك»، وأغلب الظن أن هذه العبارة من رسالة عمر كان سببها موقف علىّ واليهودى أمامه، ومجاملة عمر لعلىّ بمناداته بكنيته.

وإذا كانت هذه القصة مثلا للمساواة وتحقيقها بين أحد عظماء المسلمين ويهودى، فإن قصة أخرى جرت بين قبطى من نصارى مصر وابن لعمرو بن العاص حين كان واليا على مصر، فقد طلب ابن عمرو أن يتسابق بفرسه مع فتى مصرى يركب جوادا له، وتم السباق وانتهى بسبق الفتى القبطى، فما كان من ابن عمرو إلا أن ضربه بسوطه، مردفا قولته التى ترفضها عدالة الإسلام وعنصر المساواة فيه : (كيف تسبق ابن الأكرمين).

إن والد الفتى المصرى وقد رأى أثر ضرب السياط على جسد ولده اصطحب ولده واتجه إلى المدينة المنورة عاصمة دولة الإسلام، وشكا لعمر العدوان الذى وقع على ولده، فما كان من عمر إلا أن أرسل فى استدعاء عمرو وولده من مصر على أن يكون السوط معهما، فلما مثل الشاكى والمشكو فى حقه أمام عمر، قام عمر بتوبيخ عمرو بن العاص ـ على الرغم من سمو مكانته ـ وقال له غاضباً :

(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) ثم أعطى عمر السوط للفتى القبطى وقال له : (اضرب ابن الأكرمين، اضرب ابن الأكرمين) قالها مرتين. إذن كل البشر سواسية فى التصور الإسلامى، يهودا كانوا أو نصارى، فقراء كانوا أم أثرياء، رجالا كانوا أو نساء.

بل إن الإسلام يوصى بمودة غير المسلمين متى لم يعلنوا خصومة، أو يرتكبوا عدوانا، وذلك فى قول الله - عز وجل : **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾**(٣٤)

بل إن الأمر فى سماحة الإسلام مع غير المسلمين؛ يتجاوز الأمثلة التى تمثلناها إلى ما هو أبعد أثرا منها بُعدا كبيرا، والآية الكريمة فى هذا الشأن تغنى عن كل شرح وتعليق، وذلك فى قول الله - عز وجل : **﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجرْهُ حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾**(٣٥).

هذا وقد كفل الإسلام للمسلمين وغير المسلمين حرياتهم فى إبداء الرأى، والملكية، والعقيدة.

فأما حرية الرأى فهى حق مكفول للجميع، إلا أن تكون آراء هدامة للأخلاق أو عقيدة الآخرين، أو دعوة إلى التحلل والفجور، وإن أعظم ما قيل عن حرية الرأى هو قول رسول الله ﷺ «أفضل الجهاد عند الله كلمة حق عند سلطان جائر».

وكذلك حرية الملكية مكفولة بل مقدسة فى الإسلام؛ إلى المدى الذى يقرر أن من مات دفاعا عما يملك فهو شهيد، ولذلك فإن الإسلام يستنكر العدوان على أملاك المواطنين، أرضا كانت أو عقارا أو متاجر أو مصانع أو أموال، حتى ولو أُطلق على العدوان على هذه الملكيات أسماء مستحدثة كالتأميم، أو ما شابه ذلك من مصطلحات استحدثها بعض الحكام فى عدد من البلدان العربية فى أواسط القرن العشرين الماضى.

والمبدأ نفسه يطبق على حرية العقيدة، فالناس أحرار فيما يعتقدون فى نطاق الدين، والإسلام يحرم إجبار الناس على اعتناقه، وذلك بصريح آيات الكتاب العزيز وقول الله سبحانه : ﴿**لا إكراه فى الدين**﴾(٣٦).

ولذلك فإن شائعة انتشار الإسلام بالسيف فرية كاذبة بنص القرآن الكريم وبشهادة كثير من المستشرقين الذين ألف بعضهم كتبا نفيسة فى هذا الموضوع والتى من أشهرها كتاب الدعوة إلى الإسلام Preaching to Islam للمستشرق الإنجليزى سير توماس آرنولد.

ومن الأمور الطريفة فى هذا الشأن أن منشورا صدر فى العاصمة المغربية (الرياط) منذ بضعة وعشرين عاما، موجها إلى جميع قضاة المغرب ألا يقبلوا كل من يتقدم إليهم بطلب الدخول فى الإسلام من أهل الديانات الأخرى، حتى يبحثوا حالته ومعرفة السبب الداعى له إلى تغيير دينه، ويعلق على هذا المنشور العالم المغربى الجليل الشيخ عبد الله كنون ويقول : الواجب يقضى علينا بمناقشة هذا المنشور، وإبداء ما فيه من النقص والاختلال سواء من الناحية الشرعية، أو من الناحية القانونية لأنه لا يجوز شرعاً تأخير قبول من يريد الدخول فى الإسلام، وأبدى السيد عبد الله كنون كثيرا من الحجج والأسباب التى تبطل هذا المنشور(٣٧).

ثمت موضوع آخر على جانب من الأهمية، وبخاصة فى أيامنا هذه، وهو مفهوم الجهاد فى الإسلام، وأدب الحروب فيه.

الجهاد فى الإسلام يقتضى الدفاع عن المسلمين إذا ما جرى اعتداء على دينهم أو أرضهم أو أنفسهم أو أموالهم وممتلكاتهم، مثل تلك الجريمة البشعة التى يقترفها اليهود الذين أعطوا وطنا فى جزء من أرض فلسطين بغير حق، وعن طريق ما يسمى بمنظمة الأمم المتحدة فى أواخر الأربعينات من سنوات القرن الماضى، إن هؤلاء اليهود يمارسون هذه الأيام العدوان على الفلسطينيين فى أرضهم، يخربون زراعتها، وبيوتهم يهدمونها نسفا بالقنابل على سكانها، ويقتلون الرجال والعجائز من النساء والرجال، ويطلقون النيران على الأبرياء من

الطائرات المروحية على الناس فى الطرقات، ويحولون بين الجرحى وإسعافهم حتى تنزف دماؤهم ويموتون فى الطرقات، وتترك جثثهم إيامًا فى الطرق حتى تتحلل، ويقوم اليهود فى فلسطين بأبشع الجرائم التى يتعفف عن اقترافها المجرمون المحترفون العتاة، ويحدث ذلك كله بالأسلحة الأمريكية التى تمد بها أمريكا اليهود من محتلى فلسطين كراهية للعرب والمسلمين.

هنا يصير الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة، ليس من أهل فلسطين فقط وإنما على جميع مسلمى العالم.

لكن الأمر العجيب المخجل أن حكام أمريكا يعتبرون دفاع الفلسطينيين عن أنفسهم امتثالا لفريضة الدفاع والجهاد فى سبيل الله تخريبا وعدوانا على اليهود، ويعتبرون اليهود المعتدين ـ بسلاح الأمريكيين - شعب سلام معتدى عليه، بل يعتبرون أكبر مجرم يهودى فى العصر الحديث ـ أرئيل شارون ـ رجل سلام.

أما وقد اختلت موازين العدالة عند الحكام الأمريكيين والمؤسسات التى تتبع ما يسمى بالأمم المتحدة؛ فإن واجب المسلمين حكاما ومحكومين أن يعلنوا الجهاد، وأن يسمحوا بتسلل الشباب القادر على حمل السلاح ـ بعد تسليحه من خزائن السلاح الذى لا يستعمل حتى صار صدئا، حينئذ ـ وبشجاعة المحارب المسلم الذى يبتغى النصر أو الشهادة دفاعاً عن إخوته فى الدين والإنسانية - حينئذ سوف يتحتم على الطغاة من الأمريكيين واليهود أن يغيروا موقفهم، هذا مع ضرورة أن يتحد المسلمون جميعا على مقاطعة كل من يتعاطف مع اليهود بالمقاطعة الاقتصادية، ولن يضير ذلك السلوك المحايدين من البشر فى شىء بل إن بعضهم يتعاطف مع المجاهدين فى فلسطين بالقول والعمل.

إن اليهود فى فلسطين؛ والأمريكيين فى أفغانستان يرتكبون من جرائم الحرب ألوانا غير مسبوقة؛ إنهم يحرقون كل شئ ويقتلون كل شئ، بغير قوى تردعهم، أو مقاومة تمنعهم.

وهنا ينبغى الإشارة إلى أدب الحرب فى الإسلام التى هى دفاعية دائما.

الرسول ﷺ يكره الحرب إلا فى حالات الاضطرار، ويقول: «لا تتمنوا لقاء العدو» ليس جبنا ولا هروبا، ولكن إيثاراً للسلام الذى هو أحد شعارات الإسلام.

والله سبحانه يقول: ﴿**وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله**﴾[٣٨].

وينصح الرسول ﷺ المحاربين المسلمين قائلا: «**لا تقتلوا شيخا، ولا طفلا صغيرا، ولا امرأة، ولاتغلوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين، وإياكم والمثلة ولو بالكلب العقور**»

ويوجه أبو بكر رضي الله عنه وصيته إلى الجيش المسلم وهو متجه إلى جبهة القتال: «لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا، ولاتقطعوا نخلا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا بقرة ولا شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون على قوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له».

هذا هو الفرق بين المسلمين إذا حاربوا، وبين اليهود والصليبيين إذا حاربوا، وقد أعلن رئيس أمريكا أنه يخوض حربا صليبية، إن المسلمين فى حربهم لايقتلون إلا المحارب، فإذا وقع فى الأسر حرم قتله، وهم يحافظون على الطفل والشيخ والمرأة ورجل الدين غير المسلم، ولا يقطعون شجرة، ولا يحرقون نخلة، وغير المحاربين آمنون على أنفسهم ودمائهم وزروعهم وأنعامهم.

وأما الأمريكيون واليهود فيحرقون كل شىء، ويقتلون كل حى من إنسان أو حيوان، كما يقتلون الأسير ويمثلون بجثته، ويحولون بين الجريح وبين أن يحمل إلى مستشفى، ويظل ينزف حتى يقضى نحبه، إنهم يرتكبون من جرائم الحروب ما لم يرتكب مثله فى الحروب على مسيرة تاريخ الإنسانية، وأما المسلمون فيحافظون على إنسانية الإنسان حتى فى حروبهم، من أجل ذلك فإن كل البشر سواسية فى التصور الإسلامى.

الهوامش

(١) البقرة : ٢٨٥.

(٢) الأنعام : ٣٨.

(٣) الإسراء : ٢٩.

(٤) الإسراء : ٧٠.

(٥) التين : ٤.

(٦) الانفطار : ٦ – ٨.

(٧) الحديد : ٧.

(٨) الأنعام : ١٦٥.

(٩) الأحزاب : ٧٢.

(١٠) النازعات : ٢٧ – ٣٣.

(١١) مجموعة الوثائق السياسية ص : ٥٩ وما بعدها.

معانى المفردات :

(١٢) على ربعتهم : أى أمرهم وشأنهم الذى كانوا عليه. وقال السهيلى فى شرح السيرة : الحال التى جاء الإسلام وهم عليها.

ـ التعاقل : إعطاء المعاقل، وهى الديات. أى : يكونون على ما كانوا عليه من إعطاء الديات وأخذها فى الجاهلية.

ـ العانى : الأسير.

(١٣) المفرح : المثقل بالدين ولايجد قضاءه، وقيل : هو الذى لا مال له، وقيل : هو الذى لاعشيرة له. العقل : الدية.

(١٤) الدسع : الدفع والعطية. وفى اللسان : أى طلب دفعا على سبيل الظلم.

(١٥) الغازية : الجماعة تخرج للغزو.

يعقب بعضهم بعضا : أى يتناوبون. فإذا خرجت طائفة غازية ثم عادت تكلف أن تعود ثانية حتى تعقبها أخرى غيرها، يعنى أن يكون الغزو بينهم بالتناوب.

(١٦) يبىء بعضهم عن بعض : أى يتعادلون ويتكافأون ويتساوون.

(١٧) اعتبطه : أى قتله بلا جناية منه توجب قتله.

القود : القصاص فى القتل، بمعنى أن القاتل يقاد به فيقتل.

(١٨) المحدث : الجانى. والعدل : الفداء. والصرف : التوبة. وقيل : الصرف القيمة، والعدل : المثل (بكسر ثم سكون).

(١٩) يوتغ : يهلك.

(٢٠) البر دون الإثم : أى أن البر بين أهل الصحيفة يحول بينهم وبين الإثم. يعنى أن البر والوفاء ينبغى أن يكون حاجزا عن الإثم.

(٢١) حجزه فانحجز : منعه وحال بينه وبين غرضه.

(٢٢) النصر هنا بمعنى المناصرة.

(٢٣) الجوف : المطمئن من الأرض، والجمع أجواف.

(٢٤) يظن أن المراد بالحرمة هنا حرمة الجوار فلا يجير الجار مستجيراً إلا بإذن مجيره. وذهب آخرون إلى أن معنى هذا النص ألا تجير امرأة إلا بإذن أهلها. والأول أقرب إلى الصواب، والله أعلم. ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ «قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء» بعد أن شكت إليه أن أخاها «على بن أبى طالب» أراد أن يقتل رجلا من المشركين أجارته بأمانها. والحديث متفق عليه.

(٢٥) الحدث : الأمر الحادث المنكر.

(٢٦) يلبسونه : من لبسه : إذا خالطه واشترك فيه.

(٢٧) هنا ينتهى النص طبقا لرواية ابن هشام، وإن ما تلا ذلك من زيادة فهى من «عيون الأثر» ١٩٧/١، ١٩٨.

(٢٨) وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية فى المدينة ص ٣٥١ من مجلة الشريعة والقانون، العدد الثانى - تصدرها كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر.

(٢٩) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى، ص ٣٥.

(٣٠) تاريخ الطبرى ٢٥٣/٤.

(٣١) المعانى : آس بين الناس: يعنى سوٍّ بينهم. حتى لا يطمع شريف فى حيفك: يعنى فى ميلك معه لشرفه. تلجلج: يعنى تردد. ظنين فى ولاء أو نسب: أى متهم بولاء أو نسب أو قرابة. درأ: يعنى دفع، قال ﷺ «ادرأوا الحدود بالشبهات». الغلق هو ضيق الصدر، يقال : رجل غلق كقذر أى سىء الخلق. من تخلق للناس: يعنى أظهر للناس فى خلقه خلاف نيته.

(٣٢) المائدة : ٨.

(٣٣) النحل : ٩٠.

(٣٤) الممتحنة : ٩.

(٣٥) التوبة : ٦.

(٣٦) البقرة : ٢٥٦.

(٣٧) كتاب «مفاهيم إسلامية» للشيخ عبد الله كنون، ص ١٠٤ ومابعدها.

(٣٨) الأنفال : ٦١.

أحداث ١١ سبتمبر
والجاليات الإسلامية فى الغرب

سماحة/ عبدالمجيد الخوئى

أمين عام مؤسسة الإمام الخوئى الخيرية

لندن ـ المملكة المتحدة

بحثى هذا يندرج تحت العنوان الثالث (الأقليات الإسلامية فى الدول غير الإسلامية) من المحور الثانى (العلاقة بالآخر) ضمن بحوث المؤتمر العام الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، المنعقد فى جمهورية مصر العربية فى الفترة ٢٠-٢٣/٥/٢٠٠٢ بمشيئة الله تعالى، بعنوان (حقيقة الإسلام فى عالم متغير) تحت رعاية السيد الرئيس محمد حسنى مبارك رعاه الله، واستجابة لدعوة مشكورة من معالى الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق المحترم، وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

مدخل البحث:

بعد هجمات ١١ سبتمبر/ أيلول مباشرة، سارعت جماعات عديدة إلى القول أن العالم لن يكون أبدًا مثلما كان، ولا ريب فى أن حجم الاعتداء الإرهابى ودراميته كانا يختلفان عن أى عمل من أعمال العنف التى شهدتها الولايات المتحدة والغرب فى زمن السلم، وكذلك كان وقع الحدث لا يقل أهمية بالنسبة للجاليات الإسلامية فى الغرب، وقد عكست الأجواء اللاحقة التى عاشتها هذه الجاليات بعد الحدث أهميتها من نواحى عديدة، فحال المجتمع بصفة عامة، خوف متزايد وانعدام الأمن بدرجة كبيرة. ولكن يُضاف إلى ذلك أن المسلمين كان

عليهم أن يتعاملوا مع إحساس شديد بالاستقطاب والتمييز كأقليات فى الغرب، أنظار متوجسة ملؤها الشك والريبة والاتهام، بل ثبوت الجرم حتى قبل التحقيق فى الأمر.

ولكن إذ نعود بأنظارنا إلى الأشهر القليلة الماضية، فنرى أن العديد من نواحى الحياة لم تتغير عند هؤلاء المسلمين، وأن أمانيهم - المحلية والعالمية - بقيت غير متحققة. ولعل أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول وما تلاها، تكون سببا فى تغيير - ولو على المدى البعيد - الخريطة السياسية العالمية ككل. ولكن بالنسبة للمسلمين الذين يعيشون فى الغرب، لم تفعل هذه الفترة سوى تأكيد القضايا والمشاكل التى كانوا أصلاً يواجهونها، من دون تغيير جوهرى فى محنتهم أو مواقفهم أو حل لقضاياهم.

ولفهم رد فعل المسلمين على ١١ سبتمبر/أيلول وما بعده، يتعين أولا وقبل كل شىء فهم موقعهم فى المجتمع حتى تلك اللحظة؛ ولذا سأبدأ بنظرة سريعة إلى موضوع تطورهم الاجتماعى والمؤسسى فى الآونة الأخيرة، مركزا على ثلاثة مضامير ذات علاقة بصفة خاصة هى:

(أ) مسألة الاعتراف بالهوية الدينية فى المجال العام.

(ب) نشوء جيل ثان وثالث من الشباب المسلمين، مع الأخذ بنظر الاعتبار مسألة الاندماج فى المجتمع الغربى والنزعة الراديكالية.

(ت) تطور البنية المؤسسية التحتية للجماعة الإسلامية.

وسينصب اهتمامى بالأساس على خبرة المسلمين البريطانيين ووضعهم الداخلى، ليس لاطلاعى عليها وارتباطى بها فحسب؛ بل ولأنها أيضا المثال الأوضح الذى ينبغى التوجه إليه فى ضوء الدور البارز الذى تقوم به بريطانيا فى الأحداث الجارية.

وبعد تحديد هذا السياق لوضع المسلمين فى بريطانيا، إزاء الدولة والمجتمع وقت وقوع الاعتداءات، سأتناول تأثيرها المباشر على المسلمين البريطانيين. وكما سيتضح لاحقا، فإن ردود أفعال المسلمين البريطانيين بل والجماعة الأوسع من

المسلمين على الاعتداءات يمكن أن تفهم - إلى حد ما - بالرجوع إلى دينامية تطورهم حتى تلك اللحظة. ولكن قد يكون من المفيد النظر إلى ردود الأفعال هذه أيضا بمفردات رد الفعل على الاعتداءات نفسها، ثم فى ضوء ردود الأفعال على خوض ما يسمى «الحرب على الإرهاب» بعدما بدأت القنابل تنهمر على أفغانستان. وهذان الجانبان لا يعكسان مدى تنوع الآراء بين المسلمين فحسب، بل ويشيران أيضا إلى تعقد القضايا الأخلاقية والسياسية والاجتماعية وازدواجية المعايير التى تقدمت إلى مركز الصدارة فى عالم متغير.

١- المناخ الذى كان سائدا قبل الأحداث:

ينبغى النظر إلى تأثير ١١ سبتمبر/ أيلول وأصدائه بالنسبة لمليونى مسلم بريطانى أو نحو ذلك، فى سياق تطورهم الاجتماعى والمؤسسى فى السنوات الأخيرة. وقد كانت عملية مختلطة: مثمرة لتقدمهم الإيجابى فى بعض الحالات ولكنها معطلة فى مضامير أخرى. وكانت التطورات الإيجابية فى مجالات المتابعة الإعلامية والمشاورات الحكومية نابعة أساسا نتيجة لضغوط متواصلة مارستها قطاعات من الجالية الإسلامية، فضلا عن دور المسلمين فى انتخابات ١٩٩٧ التى حملت إلى السلطة حكومة أقرت لأول مرة بأن (للمسلمين البريطانيين حاجات محددة، وأنها مستعدة للاستماع إليها وتلبيتها إلى حد ما).

(أ) الاعتراف بالهوية الدينية:

أثارت قضية التمييز الدينى طيلة سنوات عديدة نقاشات عامة واسعة. وترتبط اهتمامات المسلمين فى بريطانيا بشأن هذه القضية، عموما، بمسألة الاعتراف بالحاجات العريضة للجالية بصفة عامة وبتنوعها الثقافى الداخلى. وفى حين أن قضايا الأقليات كانت تقليديا تعالج من خلال معالجة مسألة العرق والإثنية، فإن قضية الدين لم تنل عموما الاهتمام اللازم من المخططين السياسيين. ورغم أن الجالية الإسلامية فى بريطانيا تنتمى إلى طائفة واسعة من الأصول الإثنية والعرقية، ولكن تبقى الحقيقة ماثلة فى أن هذه الجالية بعمومها تشعر بالحرمان من إمكانية ولوج المجال العام وبأنها تتعرض إلى التهميش.

وقد انخرط عدد من الوزارات ـ بينها وزارة الداخلية ووزارة التعليم والتشغيل ووزارة الخارجية ووزارة الزراعة والثروة السمكية ووزارة الصحة ـ فى مناقشات عديدة حول القضايا ذات الاهتمام المشترك مع عدة منظمات إسلامية وممثلى الجالية الإسلامية بصورة منتظمة، وفى مناسبات مخصصة تحديدا لهذه المسألة.

وكمثال لما يرتبط بإحدى التطورات الهامة فى هذا المجال حول إدارة السجون فى مراجعة التشريع المتعلق بالتمييز الدينى من ناحية حق السجين فى الاتصال برجل دين من مذهبه؛ ليتسنى له ممارسة شعائر دينه بلا معوقات. ولهذه الغاية عينت الحكومة مستشارا مسلما متفرغا؛ للتشاور مع إدارة السجون حول جميع القضايا التى تهم السجناء المسلمين ورجال الدين الذين يزورونهم. كما كانت هناك التفاتات رمزية أيضا ساعدت فى إشاعة أجواء من علاقات التسامح والود بدلا من المعاداة وانعدام الثقة، وكان من أبرز هذه الالتفاتات حفلات الاستقبال التى تقام بمناسبة العيد، فى مجلس العموم ومقر رئيس الوزراء فى (داوننغ ستريت). ورغم طبيعتها الرمزية فإن هذه المبادرات أرسلت إشارة اعتراف بالمسلمين بوصفهم جزءاً متميزاً لا ينفصل عن المجتمع البريطانى المعاصر. كما عقدت وزارة الخارجية سلسلة من اللقاءات الخاصة بين وزراء كبار وممثلى المسلمين؛ لبحث آرائهم فى مبادرات السياسة الخارجية البريطانية تجاه العالم الإسلامى. وبهذه الطريقة باتت الأقلية المسلمة تشعر بأنها جزء من عملية صنع القرار فى مجال السياسة الخارجية، وإن كانت عديمة أو ضعيفة التأثير.

وفى جانب التعليم فقد كانت مسألة المدارس المموّلة حكوميا تستأثر بالنقاشات على هذا الصعيد. وقد مُنحت مدرستان مسلمتان هذه الصفة حتى الآن أسوة بالمدارس الأخرى لأصحاب الديانات المسيحية واليهودية. ولكن هناك طائفة واسعة من القضايا التعليمية الأخرى التى تتطلب إيلاءها مزيدا من الاهتمام والالتزام من جانب الحكومة، ومنها المسائل المتعلقة بالمناهج الدراسية – العبادة والتربية الدينية والتأهيل الأكاديمى – والانخفاض النسبى لمستوى أداء التلاميذ المسلمين فى المدارس العامة مثلا، كما يتضح من التقارير الأخيرة. ومن

الواضح أن المطلوب تحسين العمل فى المجالين ليتمكن التلاميذ المسلمون من إثبات قدراتهم الحقيقية، وأن تمويل الحكومة لمدرستين فقط لا يتناسب بحال مع نسبة وجود وتأثير المسلمين فى البلاد.

(ب) الشباب المسلم: النزعة الراديكالية والاندماج:

من السمات الأساسية للجالية الإسلامية فى بريطانيا الدور الهام - والمتميز بصورة متزايدة - الذى يقوم به جيل الشباب، فإن الكثير من المسلمين البريطانيين هم موظفون من الجيل الثانى والثالث لعائلات مهاجرة من شبه القارة الهندية ـ بالدرجة الرئيسية ـ ومن العالم العربى وأفريقيا، وغالبيتهم ولدوا فى بريطانيا وعاشوا حياتهم فيها. وبالتالى فإنهم لا يواجهون بعض المصاعب التى واجهها آباؤهم مثل حاجز اللغة أو عدم التآلف مع الثقافة البريطانية، وهؤلاء الشباب يؤكدون ثقتهم المتنامية بالنفس فى سائر مجالات الحياة فى التعليم والمجالات المهنية والفنون والثقافة وغيرها، وأنهم فى الغالب الأعم جزء حيوى لا ينفصل عن المجتمع البريطانى متعدد الثقافات.

ولكن يبدو أن هناك اتجاها ثنائيا بين الكثير من المسلمين الشباب فى بريطانيا، الذين بدأوا يؤكدون هويتهم الإسلامية: فمنهم الذين أصبحوا أكثر راديكالية فى تأويلهم للإسلام، وبالتالى أكثر تسيسا فى الممارسة من جهة، وهناك الذين احتفظوا بهويتهم الإسلامية ودينهم، ولم يروا فى ذلك عائقا أمام مساهمتهم فى عموم المجتمع البريطانى، واندماجهم الإيجابى فيه؛ لذا فهناك ـ بالمعنى الحقيقى ـ معركة فى الغرب لكسب قلوب وعقول الشباب المسلم، وستكون لها دلالات حاسمة لمستقبل المسلمين على المدى البعيد.

والأرجح فإنه يمكن تتبع رد الفعل الأكثر راديكالية بين الشباب المسلم ـ فى بريطانيا على أقل تقدير ـ حول الأحداث التى وقعت فى أواخر الثمانينات، بالارتباط مع قضية «سلمان رشدى» على الأخص، وانبعاث الإسلام السياسى بصورة متزايدة عالميا بما تلقاه من دفعة أولية، وما وجده من تجسيد له فى الثورة الإسلامية التى قامت فى إيران قبل ذلك بعقد من الزمن. وبارتباط مع التهميش الاجتماعى والاقتصادى والسياسى للمسلمين، والوعى الفكرى المتعاظم

والثقة المتنامية بالنفس لدى الجيل الثانى والثالث من الشباب، مما أسفرت هذه الأحداث عن بعض ردود الأفعال الراديكالية حول هذا الاستياء العام من نظم الحكم.

كما أن ثورة المعلومات التى تنامت بمتوالية هندسية فى الفترة نفسها من خلال عولمة الإعلام والاتصالات، سلطت الضوء على الحساسيات السياسية العالمية للشباب المسلم من الذين يرون وينفعلون بالظلم الواقع على أشقائهم المسلمين فى فلسطين والبوسنة والشيشان وكشمير على سبيل المثال. وتتبدى مشاعر السخط العميق لدى هذا القطاع من الشباب بمفردات ما يعتبرونه بحثا عن شكل نقى أو أصيل غائب للإسلام. مقابل إسلام ضعيف مستغل من الغرب وخاضع له بسبب ضعف حكامهم فى البلاد الأصلية.

وفى حين أن الكثير من المسلمين يتعاطفون عموما مع هذه المشاعر، فإن أقلية منهم فقط ترجمت هذا التعاطف فى الممارسة إلى شكل متطرف من أشكال «العداء للغرب»، وإظهار الصورة السائدة للشاب المسلم المتزمت حتى بالنسبة إلى اللباس، فى المساجد المحلية والشوارع والجامعات، تعود فى الأساس إلى تركيز الإعلام تركيزا مغرضا على مثل هذه الجماعات المتطرفة وبرامجها الغوغائية والصارخة بصورة متعمدة.

فى حين أن الفئة الأخرى من المسلمين الشباب، التى يفوق عددها بكثير من الفئة الأولى، تمكنت من مواجهة صعوبات جمة من دمج هويتها المسلمة فى سياق المواطنة البريطانية. والكثير من أفراد هذه الفئة هم شباب مهنيون، أطباء ومحامون وإعلاميون وفنانون. وهم يقبلون الطبيعة المهجنة للعيش فى بيئة تعددية، ويحاولون تفهم هذا الواقع دون أن يتخلوا عن مبادئهم الإسلامية. وثمة اعتقاد بأن الإسلام يمكن فى الواقع أن يزدهر بأشكال جديدة من خلال ارتباط متبادل ذى اتجاهين يثرى أحدهما الآخر فى الغرب، على مستوى القيم والأخلاق والروحانية والتبادل الثقافى والعلمى على السواء. وهؤلاء لا يضعون الغرب كله فى سلة واحدة من حيث الصداقة أو العداء.

وهناك، بالطبع، الكثير من المسلمين الشباب الذين يقفون بين هاتين الفئتين، وقد يكون من المفيد النظر إلى ذلك من خلال مفردات اتجاهات سائدة بدلا من الحديث عن فئات أو مجموعات. وعلى سبيل المثال وقعت قبل ١١ سبتمبر/ أيلول اضطرابات أهلية خطيرة بين مجموعات من الشباب الآسيويين (مسلمين فى الغالب) وبين البيض (المسيحيين) فى شمال انكلترا. ويبدو أن هذه الاضطرابات لا تمت بصلة مباشرة إلى الاتجاهات السائدة فى البحث، وإنما تشكل انعكاسا لقضايا أعمق تتعلق بمعاناة المسلمين الشباب؛ نتيجة العيش فى أحياء فقيرة داخل المدن، وانتمائهم إلى طبقة مهمشة مسحوقة.

(جـ) التطور المؤسسى الداخلى:

ليست هناك هيئة مركزية واحدة تمثل الجالية الإسلامية فى بريطانيا بصفة عامة. وبمرور السنين ظهرت منظمات عديدة بعضها يعمل على المستوى العالمى إلى جانب المستوى الوطنى، بهدف توفير درجة من التمثيل لقطاعات الجالية الإسلامية والعمل كحلقة وصل بين حاجات الجالية وأجهزة هامة مثل الحكومة المركزية ووسائل الإعلام. وقد وفر هذا التطور للمسلمين قنوات بدأوا يلفتون الانتباه من خلالها إلى حاجاتهم المتنوعة بطريقة أكثر استدامة وتماسكا.

وتميل المنظمات الأكبر إلى تغطية طائفة واسعة من النشاطات والوظائف، التى اشتملت على التشاور مع الحكومة حول جملة قضايا كما سبق ذكرها. ومن المؤكد أن تنامى نشاط هذه المنظمات ونفوذها كان بمثابة تقدم للجالية الإسلامية بصفة عامة من حيث إثبات وجودها فى الحياة العامة، وإيصال قضاياها إلى الحكومة والرأى العام الأوسع، ولكن ينبغى عدم المغالاة فى حجم هذا التقدم. فإن الكثير من المسلمين لا يعتبرون بالضرورة أن أيا من هذه المنظمات تمثل مصالحهم، بل إن البعض سيضع طابعها التمثيلى الأساسى موضع تساؤل؛ لذلك هناك الكثير مما ينبغى عمله لضم مكونات مختلفة من الجالية الإسلامية فى بريطانيا إلى عملية المشاركة الاجتماعية والسياسية. واللافت أن مثل هذه المجموعات الناشطة ـ ضمن الاتجاه العام بقدراتها المالية

والتنظيمية المتوقع منها إحداث تغيير حقيقى ـ تعانى قصورا مأساويا فى تمثيل جيل الشباب، الأمر الذى عمق الإحساس بالاغتراب والاستلاب بين الكثير من الشباب.

٢- مناخ ١١ سبتمر / أيلول وما بعده:

المخطط الذى حددت معالمه أعلاه يعطى فكرة مقتضبة عن الوضع فيما يتعلق بالمسلمين فى بريطانيا وقت وقوع هجمات ١١ سبتمر/ أيلول، وهو ضرورى فى تسليط الضوء على فهمنا لردود أفعالهم ومحنتهم بعد الأحداث.

ففى أعقاب ١١ سبتمبر/ أيلول سارعت الغالبية الساحقة من المسلمين والمنظمات الإسلامية إلى إدانة الاعتداءات إدانة لا تقبل اللبس بوصفها أعمالا بعيدة كل البعد عن أى قيم أو مبادئ حضارية أو دينية، ولكن فارقا واضحا تماما كان ماثلا فى أذهان الكثيرين منهم فى الغرب، بين رفض الفعلة نفسها، وبين المظالم الحقيقية للغاية التى ادعت التعبير عنها.

وهذه نقطة بالغة الأهمية، لأن وسائل الإعلام بصفة خاصة جنحت فى حالات عديدة إلى تمويه هذا الفارق. وكان هناك توجه إلى أن تُعد انتقادات المسلمين المشروعة لانحياز الغرب فى سياسته الخارجية فى الشرق الأوسط على سبيل المثال، بمثابة مؤشر لا يمكن تجاهله وهو أن المسلمين يدعمون ضمنا ما أقدم عليه من قام بتلك الجريمة. والحق أنه كانت هناك عناصر أشد راديكالية ممن ورد ذكرهم سابقا، كانت على النقيض من ذلك شديدة الإبهام فى رد فعلها، فى حين أن البعض أيدها تأييدا سافرا، ولكن هؤلاء كانوا أقلية صغيرة جداً معروفة أصلاً بترويج تطرفها ضيق الأفق بين المسلمين. ولكن للأسف الشديد فإن وسائل الإعلام أفردت لهم حيزاً واسعا للتعبير عن آرائهم، على حساب الآخرين الذين لم يكونوا يشاركونهم الرأى وهم الغالبية العظمى.

فكانت الحصيلة المباشرة للاعتداءات بالنسبة للمسلمين حصيلة مزدوجة: فمن جهة، رغم إدانة الغالبية العظمى من المسلمين لهذه الاعتداءات إدانة صريحة، فإنهم مع ذلك كانوا متهمين أمام ما يشبه بمحاكم التفتيش العامة بشأن

ولائهم للدولة (مما ساهم لاحقا فى احتدام النقاش حول الحقوق المدنية، التى سأعود إليها فيما بعد)، ومن الجهة الثانية: فقد سعت مؤسسات عديدة بينها الحكومة والكنيسة وبعض وسائل الإعلام، بدرجة معينة على الأقل، إلى تبرئة الدين الإسلامى من المسئولية عن الأعمال الإرهابية.

لذا كان المسلمون منذ البداية موضع ردود أفعال متناقضة ومتنافرة من المجتمع بصفة عامة، واقترن هذا الموقف الملتبس بالخوف عندما تصاعد العداء للإسلام، مؤديا إلى تهديدات للمدارس، وتجاوزات على المساجد، وحتى اعتداءات جسدية على نساء مسلمات؛ لذا كان الوضع معقدا وقلقا، ولكنه قطعا لم يكن سلبيا بالكامل.

وقد سارعت الحكومة البريطانية إلى استثمار علاقة العمل التى أقامتها مع المنظمات الإسلامية فى السنوات الأخيرة، كما ورد ذكره أعلاه، واشتملت هذه على لقاءات عالية المستوى عقدها ممثلو المسلمين مع رئيس الوزراء ووزير الخارجية. وبتأثير مبادرات مثل استقبال ياسر عرفات فى (١٠ داوننغ ستريت) وتأييد الحكومة البريطانية بقوة لإقامة دولة فلسطينية، وزيارة رئيس الوزراء إلى مؤسسة الإمام الخوئى الخيرية فى لندن، وهى الأولى من نوعها بالنسبة إلى رئيس وزراء بريطانيا لمركز إسلامى، فقد انحسرت إلى حد ما مخاوف الكثير من المسلمين من تجاهل قضاياهم، وتصاعد ردود الأفعال المعادية للمسلمين. وجاهر كبير أساقفة كانتربرى، وهو رئيس كنيسة انكلترا، بدعمه للمسلمين فى ذلك الوقت.

وكان هذا المكسب يعكس تطورات سابقة أحدها التخطيط لإطلاق مبادرة بريطانية عامة لإجراء حوار بين المسلمين والمسيحيين برعاية كبير الأساقفة نفسه، ومن جهة أخرى كان بروز دور الأزهر من خلال مؤتمر الحوار الإسلامى المسيحى الذى عقد بالإسكندرية، وكذلك زيارة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشريف إلى لندن والتوقيع على اتفاقية التفاهم والحوار والعمل المشترك بين الأزهر والكنيسة الانكليكانية مع كبير أساقفة كانتربرى.

كما تجدر الإشارة إلى تنامى النشاط بين أعضاء الديانات المختلفة على كل مستويات المجتمع، مساهمة فى تبرئة الإسلام والمسلمين من تهمة التواطؤ مع الاعتداءات.

وفيما كانت النقاشات تحتدم فى الشوارع وعلى الصفحات الأولى للصحف القومية (صحيفة ذى صن، أوسع الصحف الشعبية انتشارا فى بريطانيا، كتبت افتتاحية مفاجئة برصانتها غير المعهودة، أكدت فيها أن الإسلام دين سلام) عاكسة تنوع ردود الأفعال والآراء، بدأ المزاج يتغير عندما اندلعت فعلا «الحرب على الإرهاب» كما تُسمى، وأخذت القنابل تسقط على أفغانستان.

٣- رد الفعل على «الحرب على الإرهاب»:

قبل حملة القصف، كانت هناك درجة معينة من التضامن بين المسلمين وغير المسلمين فى بريطانيا إزاء هجمات ١١ سبتمبر/ أيلول، وحتى قدر من التفاؤل بأن قضايا المسلمين العامة وفى مقدمتها قضية فلسطين، باتت أخيرا تلقى آذانا صاغية. وكان هذا رغم التساؤلات المغرضة التى كانت تشكك فى ولاء المسلمين والتصريحات الخطرة والجاهلة من أمثال سيلفيو بيرلسكونى والبارونة ثاتشر، التى أججت ما لدى البعض من توجسات بشأن وجود المسلمين فى الغرب.

ولكن ما إن بدأ القصف حتى تبدد التفاؤل ودُفعت قضايا جديدة إلى مركز الصدارة. ورغم أن الكثير من المسلمين كانوا ـ حقا ـ مع تقديم مرتكبى اعتداءات ١١ سبتمبر / أيلول إلى العدالة، فإنهم كانوا عموما ينظرون بعدم ارتياح إلى تطور الحملة العسكرية التى أخذ البعض يرى فيها اعتداءً متواصلاً وعشوائيا على أشقاء لهم فى الدين. وتنامى هذا الإحساس مع استمرار «الحرب» وكانت له بعض الآثار الضارة.

وهكذا فرضت الحرب على الكثير من المسلمين فى الغرب إعادة تقييم أخلاقية حتمية لموقعهم. ولم يكن هذا يرتبط بأهداف الحرب المعلنة فى تدمير تنظيم «القاعدة» ومعاقبة الأنظمة التى تؤويها (وهى أهداف مازال بعض المسلمين يقف ضدها من حيث المبدأ) بقدر ارتباطها بالطريقة الفعلية فى شن

الحرب لتحقيق هذه الأهداف. فهى أعادت إلى أذهان الكثير من المسلمين الذكريات المرة لأيام حرب الخليج، وأنها بدت وكأنها تريد إطلاق يد الغرب مرة أخرى ـ وخاصة الولايات المتحدة ـ لانتهاك ديار المسلمين وقتل المسلمين الأبرياء عشوائيا من أجل مصلحة غربية خاصة. وكما فى حرب الخليج، كانت هذه الحرب تشير إلى ما يعتبره كثير من المسلمين فى سائر أنحاء العالم ـ بما فى ذلك الغرب ـ معايير مزدوجة تتجلى فى تقاعس الغرب إزاء الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين. والمؤكد أن المسلمين فى الغرب لم يكونوا بمنأى عن تأثير هذه المشاعر الأوسع فى تكوين آرائهم.

وكانت هذه المشاعر قوية بصفة خاصة بين العناصر الأكثر راديكالية من المسلمين، وعملت على تكريس راديكاليتهم ـ رغم الصعوبة المتزايدة التى أخذ يواجهها الكثير من المسلمين، بصرف النظر عن توجهاتهم الأيديولوجية ـ فى تأييد الحرب بلا تحفظ. والأكثر أهمية أن قضية الولاء للدولة أصبحت الآن قضية مطروحة بصراحة متزايدة فى المجال العام، متسببة فى ازدياد مشاعر القلق بين المسلمين الذين وجدوا أنفسهم مضطرين إلى التوفيق بصورة عملية وآنية بين هويتهم كمسلمين وهويتهم كمواطنين بريطانيين. وكما هى الحال مع ردود أفعال غالبية المسلمين فى بريطانيا على الهجمات الأولى على الولايات المتحدة، فقد كان هناك مرة أخرى تصور مشوش فى أذهان أوساط من الرأى العام، عززته بشكل لا مسؤول بعض وسائل الإعلام، وبدا أن هذا التصور يجمع بين جانبين متميزين من جوانب رد فعل المسلمين عموما على الحرب، كما لو أن انتقاد المسلمين للحملة العسكرية انطلاقا من اعتبارات إنسانية يعكس على نحوٍ ما عدم ولائهم للدولة البريطانية، بل وحتى يعبر عن دعمهم الضمنى «لابن لادن» و«القاعدة» و«طالبان». وازداد هذا التصور تفاقما عندما أبرز الإعلام الكشف عن وجود نفر من المسلمين البريطانيين الشباب يقاتلون فى صفوف طالبان، وقامت بإذكاء ردود الأفعال على هذا النبأ حفنة من الجماعات المتطرفة فى بريطانيا، أطلقت مزاعم مبالغا فيها، والمفارقة أن ذلك حدث بمساهمة عناصر معادية للمسلمين، أرادت تصوير المسلمين على أنهم طابور خامس. والظروف

الاستثنائية تجمع بكل تأكيد عناصر تكون فى الأحوال الاعتيادية على طرفى نقيض. وفى زمن أقرب، مع قضية من يسمى «صاحب الحذاء المتفجر» ريتشارد ريد، فقد عاد الاهتمام من جديد يتركز على المسلمين المتطرفين الشباب فى بريطانيا.

وظهرت هذه القضايا على نحو أبرز بالارتباط مع المناقشات التى فجرها إقرار الحكومة البريطانية لقانون مكافحة الإرهاب الذى لم يثر قلق الكثير من المسلمين فحسب، بل والناشطين من أجل الحريات المدنية أيضا. وبما يتضمنه القانون من قسم يشير إلى التمييز الدينى، وهذا التطور أيضا ينبغى أن يُفهم فى ضوء تاريخه الأخير. فقد كان المسلمون يدعون إلى الإقرار بوجود تمييز على أساس دينى منذ سنوات، ولكن الأمر يبدو وكأنه تطلب حدوث هجمات ١١ سبتمبر/ أيلول، لطرح هذه القضية بثبات على الأجندة السياسية بما قد يوحى بأنها لاقت ترحيب المسلمين. ولكن غياب التشاور مع المسلمين حول القانون والاستياء من «إلحاق» القسم المتعلق بالتمييز الدينى بالنصوص التشريعية الأكثر جوهرية ضد الإرهاب، كان بنظر الكثير من المسلمين تقصيرا وطريقة غير مناسبة فى صوغ القوانين. كما أبدى المسلمون مخاوفاً من أن تقييد الحريات المدنية سيستفرد بهم، ويتعدى على حرياتهم اليومية. وكان القانون بنظرهم ردا سلطويا متشنجا على مشكلة مزمنة أعمق بكثير.

٤- خلاصة:

حملت الآثار الناجمة عن ١١ سبتمبر / أيلول للمسلمين فى بريطانيا والغرب معها طائفة من القضايا المعقدة التى تواجههم الآن، حول المواطنة والسياسة الخارجية والمشاركة فى العملية السياسية ونمط حياتهم كأقلية ذات قاعدة مؤسسية ناقصة التطور. وطرحت هذه القضايا ذاتها على جالية مسلمة متعددة المشارب ومتنوعة أيدلوجيًا، تعيش أجواء عامة من الخوف وانعدام الأمن فى المجتمع الأوسع، وهو وضع يمس المسلمين مباشرة.

وكان من التطورات الإيجابية لهم الصعود التدريجى لرأى عام إسلامى يتسم بالاعتدال. وقد صدر بالفعل رد فعل أكثر تقدما من بعض الأوساط الإسلامية

التى ترفض مصادرة الأجندة بالكامل على يد فئة ضيقة من العناصر المتطرفة.

ولكن أكبر التداعيات وأشدها خطرا بنظر المسلمين البريطانيين والتى قد تكون لها آثار أعمق على صعيد ثقتهم بالحكومة، هو ما يرون أنه تخل عن الفلسطينيين فى محنتهم الراهنة. وثمة إحساس عميق بين البعض وليس الراديكاليين وحدهم، بأن القضية الفلسطينية استُغلت لمجرد كسب تأييد المسلمين البريطانيين للحرب ضد طالبان، وتوظيف هذا التأييد حتى الخلاص منهم. ويرتبط هذا ارتباطا وثيقا بفهم رد فعل المسلمين على أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول فى الغرب، حيث غالبية المسلمين يعتزون بكونهم مواطنين غربيين ويساهمون بقسط كبير فى مجتمعاتهم على كل المستويات. وهم يستنكرون الإرهاب عن إيمان دينى، وليس من وجهة نظر القانون والوضع السياسى وحدها. ولكن آصرتهم الروحية بأشقائهم المسلمين فى أنحاء العالم لا يمكن أبدا أن تتآكل لصالح الدولة. ومن الضرورى إدراك القوة الثقافية الحميدة لهذه الوشيجة، وليس دلالاتها السلبية الخطيرة. فإنه لم يعد بالإمكان تجاهل الارتباطات الثقافية والدينية فى عالمنا المتعولم لدى رسم السياسة الخارجية.

والمطلوب مقاربة متكاملة للسياسة الخارجية البريطانية بحيث تستجيب لحاجات المواطنين فى الداخل بقدر ما تراعى أحكام التعامل مع الخارج. والافتراض القائل بأن الآصرة فوق القومية التى يشترك بها المسلمون كافة، هى آصرة غير سياسية، وبالتالى لا تمت بصلة إلى صنع السياسة، إنما هو افتراض خاطئ وخطر. فالحقيقة الماثلة هى أن لمجتمعاتنا ـ ذات التعدد الثقافى فى الغرب ـ تأثيرا مباشرا على العلاقات الخارجية لا تتبدى بوضوح كما تتبدى فى حالة المسلمين فى الغرب. وهذا هو التحدى الحقيقى الذى يواجهه الغرب نتيجة أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول وما تلاها.

وفى الختام أود التذكير ببعض النقاط التى نراها من الأهمية بمكان التركيز عليها فى هذه المناسبات:

(أ) نؤمن بنظام عالمى متعدد الثقافات والأديان، يقوده العدل والإنصاف ويجب

أن ينعم فيه الجميع بالمساواة والأمن والكرامة، وإن إدانة الإرهاب منهج ثابت فى الإسلام كما هو فى جميع الديانات، كما ينبغى معالجة وقوع الأحداث الإرهابية برد مناسب ضد مرتكبيها فقط، مع ضرورة معالجة الأسباب كذلك، وليس تعميم الحكم على الجميع.

(ب) الظلم هو الظلم والإرهاب هو الإرهاب، سواء عند المسلمين أو المسيحيين أو اليهود أو غيرهم، واقع عليهم أو صادر من بعض من يدعون الانتماء إلى تلك الديانات، ولا يجوز تقسيمها والفصل بين ما يسمى بالإرهاب الإسلامى أو المسيحى أو اليهودى، كما لا فرق بين إرهاب الأشخاص والمنظمات وبين إرهاب الدولة المنظم وبخاصة ما يصدر عن إسرائيل ضد أبناء الشعب الفلسطينى المضطهد.

(ت) التركيز بوضوح بين الإرهاب وبين الدفاع عن الحقوق والأوطان وكرامة الإنسان.

(ث) ضرورة وقوف الجميع وقفة موضوعية وعقلانية صريحة وواضحة أمام ظاهرة الإرهاب، وإلا فإن هذه الظاهرة ستتنامى أكثر وأكثر وقد تتخذ أشكالا وأبعادا لتؤسس ظواهر لن تكون أقل وطأة مما حدث فى ١١ سبتمبر/ أيلول.

(ج) علينا أن نكون دقيقين خلال بحث موضوع العلاقة بين الإسلام والغرب، من عدم الوقوع فى مطب الخلط بين الجميع واعتبار الغرب أمة واحدة أو ذات إتجاه موحد.

(حـ) مع اعتقادنا بأن لدى الولايات المتحدة ـ والغرب عموماً وفى وسط دوائرهم الصهيونية خاصة ـ مطامع فى بلادنا، وأنهم سبق وأن أجروا علينا سياسات خاطئة وظالمة، عانينا ومازلنا نعانى الكثير منها. ولكن علينا أيضا أن نكون موضوعيين ومنطقيين وصريحين مع أنفسنا قبل أن نكون كذلك مع غيرنا، وأن لا نضع تمام المسؤولية تجاه ما يحدث ضد مصالحنا على عاتق الآخرين. كما علينا الابتعاد عن الشعارات العاطفية الفضفاضة أو التلاعب بالألفاظ، وتحمل قدر أكبر من المسؤولية والتعاون والتنسيق بين الجماعات العاملة لتحقيق المصالح العامة.

صلة التأثير والتأثر
بين الحضارة الإسلامية وغيرها

الأستاذ الدكتور/ السيد محمد الشاهد
الأستاذ بجامعة الأزهر - مصر

بداية أود التأكيد على عدة نقاط :

(أولاً) أنه لا توجد حضارة بدأت من الصفر بحيث يمكن أن تعتبر البداية الأولى والأم للحضارات التى تلتها فى الظهور، كما يدعى بعض مؤرخى الفكر الإنسانى، حتى اعتبرت الفلسفة اليونانية نقطة انطلاق الفكر الإنسانى وأما لكل ما تلاها من حضارات وفلسفات، ثم اضطر هؤلاء المؤرخون أو من لحقهم إلى الاعتراف بأسبقية وفضل الحضارات المصرية القديمة على ما تلاها من حضارات، وأولاها الحضارات اليونانية. وأزعم كذلك أن الحضارات المصرية القديمة لم تنطلق من فراغ بل كانت إفرازاً لتفاعلات فكرية وعقدية سبقتها وشكلت محاورها الرئيسية رغم أننا قد لا نستطيع الآن تحديد تلك المصادر التى يمكن أن تكون إنسانية أو عقدية أو هما معا.

(ثانياً) أن الفكر الإنسانى المرتبط بالحياة لم ينفك يوماً ما عن معتقدات دينية ترتبط بعالم علوى يتعالى عن الإدراك الحسِّى دائماً والعقلى أحياناً، تَلَمّسَ فيه الإنسان أسباب وجوده، ورأى فيه غاية كدِّه وعنائه. وأرتب على ذلك قولى بأنه: لم يوجد قط فى تاريخ الفكر الإنسانى خطاب فكرى خالص، بل كان الخطاب الفكرى مرتبطاً بعقائد غيبية كان مصدرها مجهولاً فى بعض الأحيان

ومعلوماً فى أحيان أخرى. وسوف يظل الارتباط بين شقى الخطاب الفكرى والفلسفى قائماً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(ثالثاً) أن التاريخ الفكرى والعقدى للبشرية خضع ولا يزال يخضع وسوف يظل خاضعاً لتأثير التأويلات المتعسفة من بعض مؤرخى الفكر والحضارات الإنسانية، ولا أستثنى من ذلك أية دائرة حضارية.

(رابعاً) أن التأثير دليل حيوية المتأثر، والتأثير دليل قوة المؤثر. فكل فكر حى يتأثر بما سبقه ويمكنه أن يؤثر فيما يلحقه إذا توفرت فيه عناصر القوة ووجد فى المتأثر شروط التأثر مثل الانفتاح والتمكن من لغة المؤثر.

(خامساً) أن جدلية التأثر والتأثير بين الحضارات لا تسير فى خط ، ستقيم بل تأخذ الشكل الدائرى حيث يصبح الكل متأثراً ثم مؤثراً فيما يشبه تصور أرسطوطاليس للحركة التى تسير فى شكل دائرى تبدأ بالمحرك الأول وتنتهى إليه مدفوعه بما أسماه العشق، أى عشق الحركات لمحركها الأول.

وهى فى سعيها إلى معشوقها تتحرك بسابقتها وتحرك لاحقتها. فالحضارات تبعاً لهذا التصور ذات طبيعة تكاملية، لا تصادمية، ترتبط كل منها بغيرها مرة متأثرة، وأخرى مؤثرة، كما يترتب على هذا التصور رفض نظريات «صدام الحضارات» ونهاية التاريخ «كذلك أسميه» نرجسية «التاريخ الحضارى».

(سادساً وأخيراً) أن العلاقة بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية لا تخرج عن هذا التصور لجدلية التأثر والتأثير الحضاريين.

(أ) حال الفلسفة اليونانية حين انتقالها إلى دائرة الفكر الإسلامى (ملحوظات أولية) :

أود الإشارة هنا إلى حقيقة لم تحظ بما تستحق من الإيضاح فى الأبحاث التى أَرَّخَتْ لتلك الفترة وتناولت طبيعة الثقافات التى أثرت فى الفكر الإسلامى من حيث النشأة والمنهج والمضمون. أُلَخِّص ملحوظاتى فى هذا السياق فى ثلاث نقاط على النحو التالى:

أولاً: أن الفلسفة اليونانية لم تكن عقلانية خالصة، ولم تخل من الأساطير

والاعتقاد فى قوى غيبية كما كان الحال مثلاً فى المدرسة الفيثاغورية الأولى، وخاصة شخصية مؤسسها فيثاغورث الأول، وكذلك مذهبهم فى الأعداد وقواها السحرية... إلخ[١].

ثانياً: أن الفلسفة اليونانية كانت قد انحدرت إلى مستوى سيئ جدا قبل وصولها إلى بلاد الشرق، وذلك بسبب ظهور تيارات الشك التى اشتد تأثيرها قبيل ظهور المسيح عليه السلام، ممثلاً فى الشُّكّاك المتأخرين وأولهم أينسيديموس Aenesidemos (حوالى سنة ٧٠ قبل الميلاد)[٢] وظل أثرهم حتى ظهور القديس أوغسطين (ت ٤٣٠م) فى نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادى. وقد ساعد فى تشويه الثقافة اليونانية ظهور كتب نسبت إلى فلاسفة مشهورين مثل: أرسطوطاليس الذى نسب إليه كتاب الربوبية الذى اعتمد عليه الفارابى فى كتابه التوفيق بين رأى الحاكمين، وهو عند المحققين بعض تاسوعات أفلوطين (القرن الثالث الميلادى) أو لأحد تلاميذه، كما توجد أكثر من ألف رسالة أو كتيب منسوبة إلى شخص يدعى «هرمس» لا تعرف شخصيته أو عما إذا كان هناك فيلسوف بهذا الاسم على الإطلاق[٣].

نلاحظ أن تيارات الشك ظهرت فى كل مراحلها الأولى والوسطى والمتأخرة كرد فعل الإفراط فى اعتماد العقل وسيلة وحيدة للوصول إلى الحقيقة، وهذا الشك يعتمد فى حججه على العقل أيضاً ويبين أن العقل أيضاً يناقض نفسه ويعجز عن الوصول إلى الحقيقة إذا اعتمد فقط على نفسه. وكانت نتيجة ذلك الاتجاه هى ترك العقل والاعتماد على الإيمان فى قوة غيبية تتحكم فى مصائر البشر، كما كانت الحال فى كثير من الديانات الشرقية التى تتأسس على فقدان الثقة فى العقل بل لأنها نبتت فى البيئة الشرقية التى كانت تتلائم طبيعتها مع هذا النوع من التفكير[٤].

وعندما اختلطت هذه الفلسفات المختلفة ولم تكن إحداها قادرة على تفسير كل المشكلات الطبيعية والفكرية التى واجهت البشر آنذاك ظهر الاتجاه إلى الاعتماد على كل من العقل والروح أى التعقل إلى جانب الإيمان، وربما يقدم أحدهما على الآخر، فكان البعض يرى أن الإيمان يوصل إلى التعقل Uog Anselm erdo intelligam ، والآخر يرى أن التعقل هو طريق الإيمان مثل

معظم المعتزلة والفلاسفة، ومنهم من كان يجعل تعارض الحقائق الإيمانية مع العقل سبباً فى التمسك بالإيمان بها مثل مارتين لوثر (Grede quia adsurdum) أما الفلسفات التى أتت بعد ذلك فقد حاولت طريقًا وسطًا يجمع بين العقل والإيمان كما كان واضحاً فى ما ذهب إليه «فيلون» الفيلسوف اليهودى الذى عاصر ظهور المسيح عليه السلام، وكذلك القديس أوغسطين الذى سبق ذكره قبل قليل وهما أهم مفكرى رجال الدين فيما قبل الإسلام.

ثالثاً: أن ما وجده المسلمون من ثقافات فى البلاد المفتوحة لم يكن له نصيب كبير من الأصالة، لأنها كانت قد امتزجت بالثقافة الإغريقية، وما وجدوه من الثقافة الإغريقية فى الإسكندرية مثلاً، لم يكن بعيداً عن التأثر بالثقافات الشرقية، وكان هذا المزيج من الثقافات الشرقية والثقافات الإغريقية يسمى بالثقافة الهيلينية أو الهيلينيستية.

ولم يقف تأثير الثقافة الإغريقية على الثقافات الشرقية محاولة الشرقيين أخذ ما يتفق مع ثقافتهم فقط ونبذ الباقى. فقد تركت الثقافة الإغريقية بعض معالمها فى الثقافات الشرقية وأثرت فيها تأثيراً شديداً وأكسبتها لوناً جديداً ظهر عند مفكرى تلك الثقافات قبل ظهور المسيحية وما بعدها إلى أن جاء الإسلام.

والخلاصة: أن الإيمان الذى يؤيده العقل وكذلك العقل الذى يؤيده الإيمان كان نتيجة مرحلة لتطوير الفكر الإنسانى فى مرحلة ما قبل الإسلام.

إذن لم تكن للفلسفة اليونانية تأثير كلى مباشر على الفكر الإسلامى، بل كان تأثيراً فرديًا (جزئيًا) غير مباشر، تمثل فى بعض الفلاسفة مثل أفلاطون (المثل - الخلق) أفلوطين، ابن سينا، أرسطو فى المنطق والميتافيزيقيا، أبيقور فيما يسمى بنظرية الذرة (الجزء الذى لا يتجزأ) وما عرف بنظرية الكمون والظهور، خاصة عند النظام المعتزلى.

(ب) ما تميزت به الفلسفة الإسلامية عن سابقاتها:

لم تعد بنا حاجة إلى تفصيل الحديث عن أصل كلمة فلسفة وتعريفها، فمن الواضح أن هذه الكلمة غير عربية رغم أنها أصبحت متداولة وكأنها عربية، حتى

أن البعض يعربها ويستخرج منها صيغا نحوية فيقال : «التفلسف» والفعل «تفلسف» أو «تتفلسف» وغير ذلك من الاشتقاقات اللغوية المعروفة فى اللغة العربية. ومن نافلة القول أن كلمة الفلسفة فى لغتها الأصلية اليونانية مكونة من مقطعين فيلو Philo صوفيا Sophia بمعنى محبة الحكمة، أما الكلمة العربية المقابلة لها فهى الفكر، فيكون المقابل العربى لكلمة الفلسفة الإسلامية الفكر الإسلامى وهذا هو الأصح.

الفلسفة الإسلامية لم تطرح أصلاً السؤال عن وجود الله، أو عن معنى الحياة، أو عن : من أين؟ وإلى أين؟

رغم أن هذه هى الأسئلة التى شغلت بها الفلسفة اليونانية، بل تنطلق الفلسفة الإسلامية من يقين بوجود الله وكذلك يقين بأن الوحى الإلهى هو مصدر القرآن الكريم.

أما ما نجده فى كتب الفلسفة الإسلامية من براهين لإثبات وجود الله فلا يقصد بها سوى إقناع منكرى الألوهية بضرورة وجود الخالق - جل وعلا - وهى عند الفلاسفة والمفكرين المسلمين ضرورة منطقية. ثم انطلق الفكر الإسلامى بعد ذلك إلى معرفة صفات الله أو بمعنى أدق إثبات صفات الله التى نزلت فى القرآن الكريم من قدرة، وعلم، وحكمة، وإردة، وحياة، ووجود، إلى آخرة ... اعتماداً على ما فى الكون من حكمة تثبتها السنن الكونية، وكل مكونات الكون. وقد مهد اهتمام المسلمين بذلك؛ تطويرهم للعلوم الطبيعية، وتوصلهم إلى اكتشافات ونظريات علمية شيدت للإنسان أعظم حضارة عرفها التاريخ حتى الآن، ويضرب المفكر الألمانى المسلم «مراد هوفمان» فى بحث له بعنوان «حول دور الفلسفة الإسلامية»[٥] مثالاً لاختلاف آراء المفكرين المسلمين حول إحدى المسائل الفلسفية، ثم ينطلق من بيان اختلاف المواقف إلى التعرف على اختلاف الاتجاهات الفكرية حيث قسمها إلى أربعة اتجاهات، وبنى هذا الاختلاف على أساس قولهم فى بعض صفات الله، التى توحى بتبين موقف المذهب فيقول: «لو أننا افترضنا أن بعض المسلمين سئل عن تفسير معنى قوله تعالى: ﴿**فإن الله كان بعباده بصيراً**﴾ (سورة فاطر: ٤٥)، سوف ترى أن كل واحد منهم يتخذ موقفاً مخالفاً للآخر تجاه فهم هذه الآية الكريمة، أحدهم: سوف ينكر ضرورة وإمكانية

تفسير هذه الآيات ويكتفى بقراءتها وتصديقها كما أنزلت، ويكون صاحبُ هذا الموقف ممن ينتمون إلى مذهب الإمام «أحمد بن حنبل» وعلى منهج الشيخ محمد ابن عبد الوهاب. أما الثانى: فرغم أنه لا ينكر أهمية تفسير هذه الآيات إلا أنه سوف يذهبُ إلى استحالة الوصول إلى تفسير قاطع لها، ولعل هذا الثانى يكون ممن ينتمون إلى الأشعرية. أما الثالث، والرابع: فسوف يذهبان إلى ضرورة وإمكانية تفسير هذه الآيات الكريمة، إلا أن الثالث: سوف يتبع فى ذلك المنهج العقلى، ويكون من المعتزلة. أما الرابع: فسوف يتبع المنهج الحَدْسى ويكون من أتباع المنهج الصوفى كالإمام أبى حامد الغزالى.

بذلك يكون مراد هوفمان قد قسم الفلسفة الإسلامية إلى أربعة اتجاهات: اتجاهٍ سنى محافظ، واتجاهٍ أشعريٍ يقدم النقلَ على العقل، واتجاه معتزلى يُقدمُ العقلَ على النقل، واتجاهٍ صُوفيٍ يقدم الحدس الروحى على ما سواه فى فهم نصوص الوحى.

(جـ) حول أصالة الفكر الإسلامى نشأة ومنهجاً :

هل كان السبب الوحيد فى إقبال المسلمين على دراسة الثقافات الأخرى هو فقط رغبتهم فى الدفاع عن الإسلام ضد هجمات ثقافية جاءت من تلك الثقافات؟ وبعبارة أخرى - إذا افترضنا أن دخول الإسلام على ثقافات أخرى لم ينتج عنه مصادمات أو مواجهات من جانب الثقافات المقهورة - هل كان يعنى ذلك أن المسلمين ما كانوا ليقبلوا على تلك الثقافات؟

إن الرأى الذى يذهب إليه معظم مؤرخى الفكر الإسلامى سواء من المسلمين أو من غيرهم هو أن المسلمين اضطروا إلى ذلك لغرض الدفاع عن الإسلام ضد الديانات الأخرى التى سادت البلاد المفتوحة والتى كانت قد سبقت الإسلام إلى تعلم المنطق الإغريقى، وأن هذا الاحتكاك بالثقافات غير الإسلامية ولد فى المسلمين الجدل الذى أدى إلى نشأة الفرق الإسلامية من متكلمين وفلاسفة ومتصوفة، ويخرج القارئ بانطباع مؤداه أنه ما كانت تلك الفلسفة لتظهر فى الإسلام لولا هذا الاحتكاك الثقافى بالثقافات غير الإسلامية مثل الإغريقية، والفارسية والهندية إلى جانب الديانات الأخرى، وأهمها المسيحية واليهودية.

رأيان متناقضان (مؤيد ومخالف):

فيقول عبده فراج: «ولم يكن المسلمون قبل احتكاكهم بأهل الأديان الأخرى وقبل شيوع الثقافات الهندية والسريانية واليونانية يجدون أدنى صعوبة فى الاعتقاد بظاهر معنى الآيات (يقصد الآيات القرآنية التى تدل على اختيار العبد لأفعاله وكذلك التى وردت فيها ذكر صفات الله تعالى) وما طابقها من الحديث، ولا ينقبون فيما وراء ذلك من مشكلات وتأويلات، ولكن لم يلبث الجدال أن ظهر واشتد بين المسلمين، وبين أهل الملل والأديان الأخرى، من جهة، وبينهم وبين أنفسهم من جهة أخرى[٦].

ويقول عرفان عبد المجيد: «حاول كتاب «الفرق والمقالات» ربط نشأة الفرق والمذاهب الإسلامية بعوامل أجنبية تتمثل فى الديانات والثقافات والمعتقدات الفلسفية التى وجدها المسلمون فى البلاد المفتوحة، وكانت الغاية التى استهدفوها هى تصوير هذه الفرق والمذاهب فى شكل دعاوى مبتدعة ومذاهب مستحدثة من أديان قديمة باطلة... وفى العصر الحديث نهض بعض المستشرقين لدراسة هذه المذاهب والفرق وانتهوا فى دراساتهم واجتهادهم - على الرغم مما فيها من جدية وعمق وتحليل - إلى القول بأن هذه المذاهب تولدت فى الإسلام بتأثير عوامل أجنبية على اختلاف بينهم فى تحديد تلك العوامل، وقد صدر هذا عن اعتقادهم بأن العقلية العربية مصابة أصالة «باللاموضوعية»[٧].

ويؤيد الرأى الذى ذهب إليه عرفان عبد المجيد ما قاله ديلاسى أوليرى عن العقلية العربية فى كتابه «الفكر العربى ومكانه فى التاريخ» حيث ورد فى مقدمة هذا الكتاب: «الحق أن هذه الثقافة الإسلامية فى أساسها وفى جوهرها جزء من المادة الهيلينية الرومانية، بل إنه حتى علم التوحيد الإسلامى قد تمدد وتطور بواسطة منابع هلينية». ويناقض أوليرى نفسه فى الفقرة اللاحقة على تلك فيقول: «ولكن الإسلام ظل مدة طويلة منعزلاً عن المسيحية، وحدث تطوره فى بيئات تختلف عنها تماماً، حتى ليبدو غريباً عليها، أجنبيًا عنها، وتظهر أعظم قوة له فى أنه قد عرض المادة القديمة (يقصد التى عرفها المسلمون عن الثقافة الهلينية) فى شكل جديد جدة تامة»[٨].

إن من يتدبر آيات القرآن الكريم والحديث الشريف، يجد الأدلة الكافية على أن أصول تلك الفرق الإسلامية، وما جاءت به من أمهات المسائل موجودة فى مصدر الإسلام الأصيل، فالآيات التى تحث على التدبر والتعقل وتحصيل العلم وتفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون، بالإضافة إلى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التى تحث على الأخذ بالأسباب والتوكل على الله فى ترقب النتائج وهى عديدة ولا تخفى على من يريدها.

ولقد كان من الطبيعى أن يتدبر المسلم ما جاء فى كتاب الله العزيز من تعاليم وإشارات وآيات بينات وهذا يوصله حتماً إلى ما يشبه الجدل واعتماد الدليل العقلى فى المناقشة، وأقصد هنا «الجدل الإيجابى» الذى يستهدف الوصول إلى المعرفة، وليس «الجدل السلبى» الذى لا يقصد منه إلا التشكيك ونقض الرأى الآخر بحق وبغير حق.

أضف إلى ذلك أنه كانت هناك ديانات أخرى فى الجزيرة العربية وهى اليهودية والمسيحية، وكان منهم من له ثقافة واطلاع مما جعل النقاش حول مشكلات لم تصل اليهودية ولا المسيحية إلى حل قاطع فيها أمراً طبيعياً.

ولم يكن العرب المسلمون أقل كفاءة من غيرهم على التدبر والتفكير العقلى والنقاش، وهذه الحقائق كلها تؤكد أن الجدل حول مسائل فى العقيدة وفى الفقه وفى السياسة لم يكن شيئاً مستورداً من ثقافات أخرى ولا نتج عن الاحتكاك بها وإن كان هذا الاحتكاك فى الواقع هو بمثابة المعجل به والمشجع على نموه واتخاذه مساراً متطرفاً فى بعض الأحيان.

الجدل فى الإسلام:

أذكر عالمين جليلين أيّدا الرأى الذى يذهب إلى أن الفلسفة والجدل أصلهما إسلامى أولهما أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسى (المتوفى سنة ٥٢١هـ) الذى يذهب فى كتابه «التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين» إلى أن الخلاف الذى عرض لأهل ملتنا من ثمانية أوجه كل ضرب من الخلافات متولد منها ومتفرع عنها(٩):

الأول منها: اشتراك اللفظ والمعانى. **الثانى**: الحقيقة والمجاز.

الثالث: الإفراد والتركيب. **الرابع**: الخصوص والعموم.

الخامس: الرواية والنقل. **السادس**: الاجتهاد فيما لا نص فيه.

السابع: الناسخ والمنسوخ. **الثامن**: الإباحة والتوسع.

ويدور هذا الكتاب الصغير الحجم نسبيا وعظيم الفائدة حقاً حول هذه الأوجه الثمانية، وهو من أول ما كتب فى هذا الفن وما نهل منه اللاحقون عليه.

أما الجدل فهو على وجهين، كما سبق ذكره إما إيجابيا وإما سلبيا، وعلم الجدل يعرف عند المسلمين تارة بأنه «علم يقوم على مقابلة الأدلة لإظهار أرجح الأقوال الفقهية» ، وتارة أخرى بأنه «علم يقتدر به على حفظ أىِّ وضعٍ يراد ولو باطلاً وهدْمِ أىِّ وضعٍ يرادُ ولو حقا»[10].

أما العالم الجليل الذى سوف أتوقف عند وجهة نظره فترة أكثر من تلك التى سبقت، لأهميتها، وأرجو أن يعذرنى القارئ الكريم فى ذلك، فهو ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلى، المتوفى سنة ٦٣٤هـ الذى يقول فى كتابه «استخراج الجدال من القرآن الكريم»[11]:

«اعلم أن الله - سبحانه وتعالى - ذكر لفظة «الجدل» وما تصرف منها فى كتابه العزيز فى تسعة وعشرين موضعاً، ولفظة «الحجة» وما تصرف منها فى سبعة وعشرين موضعاً، ولفظة «السلطان» فى ثلاثة وثلاثين موضعاً، الجميع المراد به «الحجة» سوى موضع واحد فى سورة «الحاقة» ﴿**هلك عنى سلطانيه**﴾، «أما الجدل فهو مذموم فى كل موضع ذكر إلا فى ثلاثة مواضع». أحدها فى النحل. ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن**﴾ (آية: ١٢٥).

والموضع الثانى فى العنكبوت: ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أَحْسَنُ**﴾ (آية: ٤٦).

وقول الله عز وجل: ﴿**بالتى هى أحسن**﴾ خيرُ دليلٌ على وجود نوعين من الجدل أحدهما مستحسن والآخر مستقبح.

وأول من سن الجدل الملائكة صلوات الله عليهم، كما يقول ابن الحنبلى فى

كتابه المذكور، حيث قالوا: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون**﴾ (البقرة آية: ٣٠). فأما إبليس فهو أول من أظهر الخلاف وركب العناد وسار فى البلاد، والفرق بينه وبين الملائكة أن الملائكة لم يظهر منهم خلاف ولا عصيان، بل طلبوا بسؤالهم الإيضاح والبيان، وإبليس أفتى وذل فى مسألته فانقطع فى مجادلته وبان فساد تعليله وإزاغته عن الصواب فى تأويله أنه قال: ﴿**خلقتنى من نار وخلقته من طين**﴾ (الأعراف آية: ١٢)[١٢].

وأول المجادلين من الأنبياء - عليهم السلام - هو نوح - عليه السلام - قال: ﴿**استغفروا ربكم إنه كان غفاراً • يرسل السماء عليكم مدراراً • ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً • مالكم لا ترجون لله وقاراً • وقد خلقكم أطواراً • ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقًا • وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجًا • والله أنبتكم من الأرض نباتًا • ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجًا • والله جعل لكم الأرض بساطًا • لتسلكوا منها سبلاً فجاجًا**﴾ (نوح: ١٠ - ٢٠)[١٣] ثم جدال إبراهيم - عليه السلام - وحجاجه وله ثلاثة مقامات الأول: مع نفسه، والثانى: مع أبيه، والثالث: مع نمرود وقومه[١٤] وجدال إبراهيم - عليه السلام - مع نفسه لم يكن جدالاً بالمعنى المعروف ولكن كان نظراً. ولكن جداله كان مع أبيه: ﴿**واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقًا نبيًا • إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئًا**﴾ إلى آخر سورة مريم (الآيات ٤١ - ٤٦). وكذلك جداله مع النمرود فى الآية رقم ٢٥٨ من سورة البقرة[١٥].

ثم يذكر ابن الحنبلى الأدلة على وجود الصانع فى آيات القرآن الكريم، ويذكر منها الآيات (١٧ - ٢١) من سورة الغاشية: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت • وإلى السماء كيف رفعت • وإلى الجبال كيف نصبت • وإلى الأرض كيف سطحت • فذكر إنما أنت مذكر**﴾. ويذكر كذلك الآيات الكريمة من سورة النبأ الآيات (رقم ٦ - ١٦) وغيرها والآيات (٢٧ - ٣٣) من سورة النازعات، وكذلك الآيات (٣ - ٤) من سورة الرعد، والآية (رقم ١٦٤) من سورة البقرة، و(الآية: ٥) من سورة يونس، إلى آخر ذلك من الآيات الكريمة التى تدل

على وجوده تعالى وهو الغنى عن التدليل ولكنه أعلم بخلقه منهم ويعلم حاجتهم إلى دليل عقلى يفهمه الإنسان بعقله المحدود(١٦).

ثم يورد بعض الآيات الكريمة التى تثبت وحدانيته تعالى واستحالة أن يكون له شريك فى ملكه، ومنها الآية (٢٢) من سورة الأنبياء: **﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾**(١٧).

ثم يذكر بعض الآيات الكريمة التى تدل على البعث، مثل الآيات (٦٦ ـ ٦٧) من سورة مريم، والآيات (٧٨ ـ ٧٩) من سورة يس: **﴿وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾**(١٨).

ويليها أدلة نبوة سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ منها الآية (٢٣) من سورة البقرة: **﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**، والآية الكريمة: **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (سورة الإسراء آية: ٨٨)**(١٩). وغير ذلك من الآيات البينات. ويذكر من ألفوا فى دلائل نبوة نبينا محمد ـ عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلوات والسلام ـ ومنهم أبو نعيم الحافظ الأصبهانى (ت. ٤٣هـ) وأبو بكر بن فورك (ت: ٤٠٦هـ) والحافظ أبو بكر البيهقى (ت ٤٥٨هـ)(٢٠).

ويختتم ابن الحنبلى كتابه المذكور بفصل أفرده للأسئلة والأجوبة الجدلية من الكتاب العزيز بذكر الآيات الكريمة ثم شرحها وبيان معانيها، وأساليب الجدال فيها ويبدأ ذلك بالآيات الكريمة ١١ ـ ١٢ من سورة البقرة، والآيات (١٨ ـ ١٩) من سورة يس، والآية (١٨٣) من سورة آل عمران(٢١).

والحقيقة أننى لا أريد التوقف كثيرًا عند هذه النقطة، فالجدال والنقاش اللذان يعتمدان على أدلة سمعية وعقلية، ويهدفان إلى الوصول إلى الحقيقة تجدهما فى كثير من كتب التراث الفكرى فى شتى فروعه واتجاهاته، وعندما نقرأ كتابى «منهاج السنة» و«موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» لشيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية نجد فيهما نمطًا جدليا له طابع المناقشة المنهجية

العلمية. وكذلك بعض المراجع القيمة الأخرى التى يذخر بها تراثنا الفكرى فى العصور السالفة، وكذلك فى العصر الحديث، أختار منها واحداً على سبيل التمثيل، حيث ينبه مؤلفه إلى منزلق خطير قد يقع فيه المهتمون بمحاولة التوفيق بين العقل والنقل أى بين العلم والدين.

يقول عباس محمود العقاد فى كتابه «التفكير فريضة إسلامية» : «والإفراط إنما يحذر من محاولة التوفيق بين القرآن الكريم وبين تلك العلوم (يقصد العلوم العصرية) فى كل جليل ودقيق مما ثبت ثبوت اليقين ومما يعرض أصحابه عرضاً يحتمل المراجعة، بل يحتمل النقض والإلغاء. فمن الحق أن نعلم أن كتابنا (القرآن الكريم) يأمرنا بالبحث والنظر والتعلم والإحاطة بكل معلوم يصدر عن العقول، ولكن ليس من الحق أن يزعم أن كل ما تستنبطه العقول مطابق للكتاب مندرج فى ألفاظه ومعانيه. فإن كثيراً من آراء العلماء التى يستنبطونها أول الأمر لايعدو أن يحسب من النظريات التى يصح منها ما يصح ويبطل منها ما يبطل ولا تستغنى على الدوام عن التعديل، وإعادة النظر من حين إلى آخر»[٢٢].

وقد تركزت موضوعات الفكر الإسلامى حول أربعة نقاط:

١ ـ إثبات وجود الله وما يليق به من صفات (التوحيد).

٢ ـ تفسير كيفية الخلق وإثباته.

٣ ـ إثبات النبوة بصفة عامة ونبوة سيدنا محمد ﷺ، بصفة خاصة.

٤ ـ مسألة الجبر والاختيار (العدل).

وكان من نصيب النقطتين الأولتين من التأثر بالثقافات الأخرى أكبر بكثير من النقطتين الأخيرتين.

والمسلمون كانوا أيضًا فى أربع مجموعات رئيسية:

١ ـ السلفيون.　　　٢ ـ المتكلمون (أصحاب الفرق).

٣ ـ الفلاسفة.　　　٤ ـ المتصوفة.

ويلاحظ هنا أن مصطلح «أهل السنة والجماعة» كان ينطبق فى بداية الأمر

على كل من أهل السلف والمتكلمين، فكان كل فريق منهما يدعى لنفسه الأحقية بهذه التسمية. ولم تقتصر هذه التسمية على أهل السلف الذين تجنبوا الكلام والدخول فى متاهات جدلية مع المتكلمين إلا فى فترة متأخرة، وبعد ظهور مذهب الإمام أحمد بن حنبل مثل الأشاعرة وانتصارهم لمذهب السلف على طريقتهم الكلامية التى تأثروا فيها بالمعتزلة بما جلب عليهم غضب المسكين عن الكلام والجدال من أهل السلف الصالح. وفى ردود الشيخ ابن تيمية على الأشاعرة فى كتابه «الموافقة»[٢٣] ما يكفى فى هذا الصدد.

أما الفلاسفة والمتصوفة فقد كانوا أبلغ من الآخرين فى تأويل الآيات والبحث عن المعنى الباطن، كما كانوا يدعون. والمتصوفة كانت أكثر من الفلاسفة فى هذا الاتجاه وأبلغهم جميعاً فى الاعتماد على التفسير الباطن وترك ظاهر القرآن الكريم وإن كانوا متفقين مع الفلاسفة فى بعض النقاط. ومعظمهم كان يجمع بين الفلسفة والتصوف، وبعضهم جمع إليه الكلام كما هى الحال عند الإمام أبى حامد الغزالى.

والخلاصة أن أهل السلف اختاروا التمسك بظاهر الآيات الكريمة والحديث الشريف، وتجنبوا الدخول فى مجادلات تلهيهم عن التدبر فى آيات الله البينات وسنة رسوله الكريم ﷺ دون السؤال عن الكيف، فنجوا بدينهم وسلموا من كل طعن وشُبهة.

أما المتكلمون فقد آمنوا بما جاء فى القرآن الكريم ظاهرا وباطنا، ولكنهم زادوا على السلف بالتأويل والبحث عن الكيف، فحاولوا إثبات العقيدة (الوحى) بالبراهين العقلية (العقل) فأعطوا للعقل حرية البحث عن الأسباب معتمدين فى ذلك على أن العقل لايمكن أن يتعارض مع ما جاء به الوحى الإلهى الكريم، فتشعبت آراؤهم ومذاهبهم حتى لم يجدوا شيئا يتفقون عليه فيما بينهم أو كادوا، وما ترتب على ذلك هو أمر معروف للجميع.

أما الفلاسفة فقد كان جل همهم هو محاولة التوفيق بين ما جاء به الوحى من ناحية وبين ما وجدوه فى الفلسفة الإغريقية والهيلينية، وهذه المحاولة هى التى سببت تميزهم عن الفلاسفة الإغريق، فجاءت محاولاتهم شبيهة بمحاولات

فيلون اليهودى وأفلوطين الإسكندرانى وأوغسطين المسيحى، وإن اختلفت عنها فى كثير من النقاط الأخرى التى لم تتعرض لها الفلسفة الهيلينية بالتفصيل وتميزت ببعضها كمسألة إثبات النبوة وتعريفها.

أما بالنسبة للمسألة الرئيسية فى الفلسفة، وهى إثبات وجود الله، فقد استعان معظم الفلاسفة المسلمون بما وصل إليهم من أفلاطون وأرسطو، وبعض مؤلفات أفلوطين التى وصلتهم منسوبة إلى أرسطو مثل: الكتاب المسمى بالربوبية (أثولوجيا) وهو بعض تاسوعات أفلوطين[٢٤] كما سبق ذكره، وأضافوا إلى ذلك براهين جديدة مثل البرهان المسمى ببرهان واجب الوجود - الذى جاء به أبو نصر الفارابى (ت ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م)، واعتمده ابن سينا (٤٢٧هـ/١٠٣٧م) بينما رفضه ابن رشد (٥٩٥هـ/١١٩٨م) واعتبر ما قال به أرسطوطاليس.

أما موقف الفلاسفة من النبوة فملخصه أن الحقيقة يمكن الوصول إليها عن طريقين:

١ ـ عن طريق التأمل والنظر (الفلسفة).

٢ ـ عن طريق الوحى (النبوة).

الطريق الأول لا يتسنى إلا لمن لهم القدرة على التأمل والنظر وهم قلة بين الناس وهم الفلاسفة ومن هم فى مستواهم العقلى، فهؤلاء فقط من بين جميع الناس يمكنهم الوصول إلى الحقيقة بالاعتماد على العقل وحده.

أما العامة فإنهم محتاجون إلى الوحى الذى ينزل على نبى يتحدث لهم بلغة وأدلة تتناسب مع مستواهم العقلى الذى يعجزون به عن الوصول وحدهم إلى الحقيقة، ومن هنا جاءت ضرورة نزول الوحى وظهور الأنبياء. هذا الرأى هو الذى ذهب إليه وعرضه الفارابى فى كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة"[٢٥] الذى كان يحاكى فيه «جمهورية أفلاطون» إلا إنها عند الفارابى تختلف وتتميز عنها بأشياء أساسية ترجع إلى إدخال الفارابى التصور الدينى الإسلامى فى بناء مدينته والذى تخلو جمهورية أفلاطون منه تماماً.

ويتضح الفرق الأساسى بين الفلاسفة والمتكلمين فى انطلاق المتكلمين من

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة مع بعض التأويل الذى كان يتجاوز الحدود أحيانًا كثيرة، ومحاولتهم إثبات صحة ما جاء به الوحى الكريم بالعقل وعن طريق الطرق المنطقية التى وجدوها فى الفلسفة الإغريقية والهيلينية حتى يصلوا فى النهاية إلى نفى التعارض بين الوحى والعقل، وفى هذا، كما كانوا يعتقدون، إثباتاً لصحة ما جاء به الوحى.

أما الفلاسفة فقد كان منطلقهم من نقطتين أساسيتين كلاهما يساوى الآخر فى الأهمية والصحة وهما: العقل والوحى، وكانوا يميلون إلى رفع العقل على الوحى لشدة تأثرهم بالفلسفات العقلانية. وقد جاءت محاولات عديدة لبيان الموافقة والاتصال بين الوحى والعقل، فكانت محاولة الفارابى فى كتاب «الجمع بين رأيى الحكيمين»(٢٦) يقصد أفلاطون وأرسطو، وقد كان أفلاطون يمثل عنده الفكر الدينى، وأما أرسطو فقد كان ممثلا للعقلانية الخالصة، وبعد ذلك جاء كتاب: «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال»(٢٧) لابن رشد. وهناك أمثلة أخرى لهذا الاتجاه التوفيقى لا داعى هنا لذكرها.

وجدير بالذكر أن أولى هذه المحاولات – وهى التى جاءت فى كتاب الفارابى السابق الذكر – انطلقت من أن رأى أرسطو يقترب من رأى أفلاطون فى مسألة وجود الله وكيفية الخلق على أساس ما جاء فى كتاب "الربوبية" المنحول لأرسطو والذى سبق ذكره، وهذا يعنى أن الأساس الذى بنى عليه الفارابى رأيه فى كتابه «الجمع بين رأيى الحكيمين» هو أساس خاطئ نتج عنه تصور خاطئ تأثر به من جاء بعده من الفلاسفة الإسلاميين الذين لم ينتبهوا إلى خطأ نسبة هذا الكتاب إلى أرسطو، وقد عبر الفارابى بنفسه عن شكه أو بعبارة أفضل عن تعجبه وتردده فى اعتبار كتاب الربوبية من تأليف أرسطوطاليس، ولكنه سرعان ما توقف عن هذا التردد وقطع بأن هذا التردد ناتج عن قصر فى قدرته هو على فهم المعانى الباطنة لما ذكره أرسطو فى هذا الكتاب(٢٨).

وجد الفلاسفة عند أفلاطون وأفلوطين ما يفسرون به كيفية الخلق وصدور المادى عن اللامادى، هذه الثنائية التى لم يستطع أرسطو حلَّها، ففسر علل الأشياء بما عرف بالعلل الأربعة، وهى العلة المادية، والعلة الصورية، والعلة الفاعلية، والعلة الغائية، وهو بذلك قد اتخذ طريقاً يختلف تماماً عن طريق

أستاذه أفلاطون الذى كان قد فسر فى نظرية «المثل» كيفية ترتيب الموجودات ابتداء من المثال الأول اللامادى وهو الواحد المطلق والخير الخالص، وانتهى فى هذا التدرج بالمادة الخالصة وهى أدنى الموجودات فى الشرف، ولكنه لم يستطع أيضاً تفسير كيفية صدور المادى عن اللامادى. ثم جاء أفلوطين فى القرن الثالث الميلادى ووضع تفسيراً للخلق، أى صدور المادى عن اللامادى وحظى بقبول كثير ممن جاءوا بعده من فلاسفة مسيحيين ومسلمين، فقد بدأ أفلوطين بالواحد المطلق والخير المحض اللامادى، وقال: إنه قد صدر عن هذا الواحد المطلق ما أسماه «بالعقل الفعال» صدور الضوء عن الشمس فهو لا يؤثر فيها سلباً بالنقص، ثم تنحدر عن هذه الفيوضات (الصدور) عقول أخرى (عقول الأفلاك وهى عشرة عقول)، ثم صدرت النفس الكلية التى صدرت عنها أنفس البشر التى امتزج فيها المادى واللامادى. ثم يتدرج الوجود عند أفلوطين حتى يصل إلى المادة الخالصة وهى نهاية عملية الصدور والفيض وأدنى مستوياته[٢٩].

فنجد أن «العقل الفعال» عند أفلوطين يقابل «الكلمة» عند فيلون الذى سبقه بحوالى قرنين، ثم جاء أوغسطين فى القرن الخامس الميلادى، وجعل الكلمة هى المسيح عليه السلام.

وقد جاء ذكر «الكلمة» فى الفكر الإسلامى- وخاصة عند المعتزلة - ولكن بمعنى يختلف تماماً عن معناها فى الفلسفة الهيلينية، فقد رأى أبو الهذيل العلاف أن «الكلمة» هى الأمر بالخلق أو الكونية وهى «كن» التى صدرت من الله - عز وجل - فكان الخلق **﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾**. **(يس آية: ٨٢)**[٣٠].

فوجه الشبه هو أن الكلمة «كن» تصدر مباشرة عن الله - عز وجل - والاختلاف هو أن هذه الكلمة لاتتعدى معنى الأمر لشىء يريد الله خلقه بأن يكون فيكون.

وبعد.. فإن تأثر ثقافة بثقافة، أو بثقافات أخرى لا يدل على أن الثقافة المتأثرة ضعيفة أو سلبية، ولكنه يدل على أن هذه الثقافة حية. فالتأثر هو نتيجة حتمية للاحتكاك الثقافى، وهو دليل على حيوية الثقافة المتأثرة، لأن التأثر لا يأتى إلا على الأحياء أما الأموات فلا يتأثرون.

إن مقياس قوة الثقافة المتأثرة هو كيفية تقبلها لما جاءها من الثقافات الأخرى والنتائج التى أدى إليها هذا التأثر، فالفلسفة الإسلامية تأثرت وتطورت، ثم تأثرت وأثرت فى ثقافات أخرى. ويقرر «برنتل» فى كتابه «العلوم الطبيعية عند الشرقيين». أن «روجر بيكون» قد أخذ كل النتائج المنسوبة إليه عن العرب «وروجر بيكون» (تقريبًا سنة ١٢٩٤م) يعتبر عند الغرب هو مؤسس العلوم التجريبية وواضع أسس المنهج العلمى التجريبى[٣١]. يقول جوستاف لوبون فى «حضارة العرب» : «ولم يظهر فى أوروبا قبل القرن الخامس عشر عالم لم يقتصر على استنساخ ما فى كتب العرب فعلى كتب العرب وحدها عوَّل روجر بيكون...»[٣٢].

ويرجع «برنتل» وهو أحد أشهر مؤرخى المنطق فى أوروبا فى القرن العشرين[٣٣]. وكذلك معاصره «فرانس روزنتال» فى كتابه «استمرار علوم الإغريق فى الإسلام» هذا التقدم العلمى فى الثقافة الإسلامية إلى موقف الإسلام الإيجابى من العلم فيقول: «وموقفه (أى موقف الإسلام) كان المحرك الكبير لا للحياة الدينية فحسب، بل للحياة الإنسانية فى جميع جوانبها. وموقف الإسلام هذا هو الدافع الأكبر فى السعى وراء العلوم».

وبعد فإن التطور الذى حدث فى الفكر الإسلامى بجوانبه الإيجابية والسلبية بعد اتصاله بالفكر الأجنبى ما كان ليحدث بهذه السرعة ويصل إلى هذه الدرجة بدون الاحتكاك بالثقافات الأخرى، ولكن هذا لا يعنى أنه ما كانت هناك حضارة إسلامية على الإطلاق لولا اتصال المسلمين بغيرهم. لقد كان الاحتكاك الثقافى دافعاً ومشجعاً لهذا التطور ولم يكن السبب الأول له.

إن السبب الأول لهذا التطور - فى نظرى - هو موقف الإسلام من العلم بصفة عامة، بما جاء من آيات كريمة وأحاديث شريفة تدعو إلى العلم وتحصيله والتدبر فى خلق السماوات والأرض وما فيهن، والإيمان بالله والرسول واليوم الآخر. تلك هى الجذور التى أنبتت ـ بتأثير عوامل أخرى، التطور فى مجالات العلوم الطبيعية والشرعية أى العلوم الإسلامية على وجه العموم.

ومن المؤكد أن هذه العوامل الخارجية لم تؤثر إلا على مراحل تطور هذه العلوم، وأما الجذور الأصلية فهى أبعد من أن تتأثر بشىء من فعل البشر.

وعندما نستعيد أمثلة الاحتكاكات الثقافية الآن فى تاريخ البشرية نجدها كلها متشابهة تشترك فى الدوافع والطرق والنتائج.

إن أول أمثلة الاحتكاك الثقافى التى تعرضت لها فى هذا البحث هو احتكاك الثقافة الإغريقية بالثقافات الشرقية، والتى نتجت عنها الثقافة الهيلينية، والمثال الثانى هو احتكاك الإسلام بالثقافات الأخرى وهى الهيلينية والفارسية والهندية والتى ساعدت فى تطور الثقافة الإسلامية، أما المثال الثالث وهو احتكاك الفلسفة الغربية بالفلسفة الإسلامية فى العصور الوسطى المسيحية والتى نتج عنها ما أسموه بالنهضة الأوروبية، والمثال الرابع هو احتكاك المجتمع الإسلامى (الفكر الإسلامى) بالفكر الغربى فى العصر الحديث الذى نتجت عنه آثار فيها الكثير من السلبيات، وأما الإيجابيات فهى مازالت قليلة جدا على ما سيأتى تفصيله.

ففى أمثلة الاحتكاك الثقافى الثلاثة الأولى كانت الثقافة المتأثرة تأخذ فقط ما يتفق وروحها، أو ما تعتقده متفقا معها، لتنتفع به، فكان هذا هو الدافع للأخذ عن الثقافة المؤثرة. وأما الوسيلة فكانت هى الترجمة من لغة الثقافة المؤثرة إلى لغة أو لغات الثقافة المتأثرة. وقد سبق الحديث عن الترجمة فى بداية هذا البحث. أما النتيجة فكانت غالباً هى التطور، وظهور علوم جديدة فى الثقافة المتأثرة. هذا كله نجده فى كل أمثلة الاحتكاك الثقافى التى سبق ذكرها. وأما الاحتكاك الثقافى فى العصر الحديث فلابد له أيضاً أن يسير على نفس الطريقة التى تكررت فى الماضى مع الاستفادة من التجربة وكل الإمكانات المنهجية المتوفرة لنا الآن حتى يؤدى إلى نتائج إيجابية بالنسبة إلى ثقافتنا الإسلامية.

لابد لنا إذن أن ننتقى الجوانب التى تتفق مع روح وأصل ثقافتنا، والتى تفيدها فى ديننا ودنيانا، ونرفض ما يتعارض مع ذلك. والأخذ والرفض لا يتم إلا بعد الفهم، والفهم لا يتم إلا بعد الاطلاع، والاطلاع يشترط معرفة اللغة المؤثرة والإحاطة بأساليب تعبيراتها المختلفة ومنهجها فى العرض حتى نفهم ما يعرضه علينا الفهم الصحيح، ونكتشف ما قد تخفيه من خطر أو فائدة لكى نرد عليها بلغتها وأسلوبها ومنهجها العلمى حتى يفهم أبناؤها وجهة نظرنا وموقفنا من كل نقطة خلاف أو اتفاق. أما الرفض التام لكل شىء يأتى من الخارج لمجرد أنه

غريب وإظهاره على أنه عداء وضرر للمسلمين، فهذا لا ينفع ولا يحمى ثقافتنا على المدى البعيد فضلاً عن أنه سيضرنا، فالاحتكاك الثقافى واقع، والتأثر والتأثير حتمى، فعلينا أن نبادر بوضع منهج علمى يتفق وأهدافنا ويوصلنا إلى موقع قوة نرد به كل ضار وننتقى منه كل مفيد.

إن تأثر الفلسفة الإسلامية بغيرها لا يعيبها بل يظهرها بأنها حية، كما أن تأثيرها على الثقافات الأخرى يفيد أنها قوية. فالتأثر دليل الحيوية، والتأثير دليل القوة والأصالة وأقصد هنا التأثر الواعى والتأثير الهادف.

وكما كان السلف لا ينقطعون عن الذود والذب عن الإسلام فى أصله الأصيل ودرء كل ما يمس العقيدة الإسلامية الأصيلة بسوء، لابد أن يكون هذا أيضا هو واجبنا وهدفنا فى العصر الحاضر الذى نتعرض فيه لحملات قاسية متمكنة من كل وسائل العلم مستغلة لكل إمكاناته متبعة فى ذلك منهجا علمياً أخذوه عنا وطوروه، منطلقين من اقتناع راسخ أن الأمة الإسلامية سوف تنهض مرة أخرى مادام فيها كتاب الله الكريم، وسنة نبيه المطهرة. وهذا الاقتناع جاءهم بعد أن فشلت الحروب الصليبية التى لم تكن تهدف، كما يعتقد الكثير للاستيلاء على بيت المقدس فحسب، بل لتحطيم هذه الأمة، وهذا الدين الحنيف، فردهم الله على أعقابهم ونصر دينه وأمته التى استمسكت بعروته الوثقى.

أقول : إن الغرب قد عرف وتأكد أن الأسلوب الوحيد لتحطيم أمة كهذه هو دراسة حضارتها وأصولها ومنهجها، فكان لهم ما أرادوا وسعوا له بجد وكان لنا ما استحققناه بابتعادنا عن الطريق القويم الذى اختاره الله لنا، فسادوا العالم وأفسدوه.

وبعد : فإن كان القرآن الكريم هو مصدر فكرنا وشريعتنا وسلوكنا الاجتماعى، فهل يمكن القول بأن القرآن الكريم يتضمن أسساً قوية يمكن أن نبنى عليها فلسفة إسلامية خالصة، تقوم على منهج معرفى أصيل، تؤخذ أو تستنبط منه كل عناصر.

حاشية البحث:

١ . انظر تاريخ الفكر الفلسفى . محمد على أبو ريان . دار المعارف . القاهرة . ١٩٦٨ . ص ٥٥ .
٢ . انظر تاريخ الفلسفة المختصر . هـ.ى. شتوريج . فرانكفورت . ١٩٧٦ . ج١ ص ٢٠٠ (باللغة الألمانية
H.J.:Störig: Kleine Weltgesch. der Philos.
٣ . انظر خريف الفكر اليونانى . عبد الرحمن بدوى . دار النهضة المصرية . القاهرة . ١٩٥٩ . ص ٨٣ . ٨٥.
٤ . انظر معالم الفكر الفلسفى . عبده فراج . الأنجلو المصرية . القاهرة . ١٩٦٩ . ص ١٤ .
٥ . صدر هذا الكتاب عن المكتبة الإسلامية . مدينة كولونيا . ألمانيا الغربية . ١٩٨٤ . ص ٩ (باللغة الألمانية)
M.Hofmann: Zur Rolle der islamischen Philosophie.
٦ . معالم الفكر الإسلامى . مصدر سابق . ص ٥٤ .
٧ . دراسات فى الفرق والعقائد الإسلامية، عرفان عبد المجيد، بيروت ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، مقدمة الكتاب.
٨ . الفكر العربى ومكانته فى التاريخ د/ أوليرى. ترجمة تمام حسين . القاهرة، ١٩٦١م، مقدمة الكتاب.
٩ . البحث السابق.
١٠. انظر الكتاب المذكور، تحقيق أحمد حسن كميل وآخر، دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٨هـ . ١٩٧٨م، ص ١١.
١١. انظر مفتاح السعادة . طاش كبرى زاده، دار الكتب الحديثة . القاهرة، جـ٢ ص ٥٩٩، التعريفات للجرجانى، مطبعة الحلبى ص ٦٦، والفقرة مأخوذة عن أدب الاختلاف فى الإسلام، طه جابر فياض العلوانى، قطر ١٤٠٥هـ، ص ٢٥.
١٢. الكتاب المذكور، تحقيق زاهر عواض الألمعى، الفرزدق، ١٤٠١هـ . ١٩٨١م، ص ٤٩، ٥٢.
١٣. المصدر السابق، ص ٥٧، ٦٠.
١٤. المصدر السابق، ص ٦٥.
١٥. المصدر السابق، ص ٦٣.
١٦. المصدر السابق، ص ٦٦ . ٦٧.
١٧. المصدر السابق، ص ٧٣ . ٨١.
١٨. المصدر السابق، ص ٨٣ . ٨٦.
١٩. المصدر السابق، ص ٩١ وما بعدها.
٢٠. المصدر السابق، ص ٩٩ وما بعدها.
٢١. المصدر السابق، ص ١١٣ وما بعدها.
٢٢. الكتاب المذكور، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٦٩م. ط/ ٢ ص ٧٨.
٢٣. موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، وللكتاب اسم آخر اشتهر به وهو: درء التعارض بين العقل والنقل، حققه محمد رشاد سالم، طبعته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٩هـ . ١٤٠٢هـ.
٢٤. انظر تاريخ الفلسفة الإسلامية، ماجد فخرى، ترجمة كمال اليازجى، بيروت، ١٩٧٤م.
٢٥. الكتاب المذكور، حققه البير نصرى نادر، بيروت ١٩٦٨م.
٢٦. الكتاب المذكور حققه البير نصرى نادر، بيروت ١٩٦٨م.
٢٧. الكتاب المذكور حققه جورج فضلو حورانى . ليدن . ١٩٥٩م.
٢٨. انظر معالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى . عبده فراج ص ٨٩ . ٩١.
٢٩. المصدر السابق.
٣٠. أنظر منطق ابن تيمية ومنهجه الفكرى، محمد حسنى الزين، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ص ٣٠٠ . ٣٠١.
٣١. الكتاب المذكور ص ١٢١.
٣٢. حضارة العرب . جوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر، بيروت، ١٩٧٩م، ط ٣ . ص ٦٧٨.
٣٣. أنظر تاريخ المنطق فى الغرب . كارل برنتل . طبع لأول مرة فى ليبتزج . (ألمانيا الشرقية) ١٨٥٥م . وأعيد طبعه فى جراتس النمسا) ١٩٥٥م، (باللغة الألمانية).

المحور الثالث

الجهـــــاد

الكفاح المشروع للشعوب

الاستاذ الدكتور/ صوفى حسن أبو طالب

أستاذ بكلية الحقوق جامعة القاهرة

اختار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عنوانًا لموضوع مؤتمره الرابع عشر **«حقيقة الإسلام فى عالم متغير»**. فقد ربطت الولايات المتحدة الأمريكية وتابعتها كثير من الدول الغربية بين أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م والإسلام والمسلمين . فقد اختطف بعض أشخاص بضعة طائرات أمريكية من مطاراتها الأمريكية وهاجموا بها برجى التجارة العالميين - رمز قوة أمريكا الاقتصادية - ومبنى البنتاجون - رمز القوة العسكرية الأمريكية - وأودى الحادث بحياة بضعة آلاف من الأمريكيين، ولم تنتظر أمريكا ما يكشف عنه التحقيق بل بادرت بتوجيه أصابع الاتهام إلى المسلمين وبالتحديد إلى أنصار الملاَّ عمر، وابن لادن فى أفغانستان، وقامت هى وحلفاؤها بشن الحرب على أفغانستان، وخربتها بصورة عشوائية دونما تمييز بين العسكريين والمدنيين، وأخذت تتعقب من تشك فى صلتهم بالحادث من المسلمين فى أى بلد كان ، سواء بالاعتقال أو بمصادرة الأموال أو تجميدها ، وهددت بالانتقام من أى شخص أو أية جماعة أو آية دولة تشك أمريكا فى اشتراكها فى الحادث ونعتت وسائل الإعلام الغربية الإسلام والمسلمين بصفة الإرهاب والتخلف الحضارى والتعصب الدينى ، وطالبت

بالقضاء عليهم ، بل استعمل بعض قادة البلاد الغربية هذه الأوصاف فى نعت المسلمين بها وإلزامهم بتغيير برامج الدراسة فى المدارس والجامعات بما يبعد بها عن الإسلام ووصف بعض الدول الإسلامية بأنها محور الشر ، وكل ذلك يرجع إلى الخلط - عن عمد أو عن جهل - بين الإرهاب والكفاح المشروع، وبين الإرهاب والجهاد ، كما يرجع إلى جهل البلاد الغربية بالإسلام وما يتضمنه من نظم، لأن معلوماتهم عنه تقتصر على ما كتبه عنه المستشرقون إبان عصر الاستعمار على عكس الحال بالنسبة لليهودية؛ لأن كتب اليهود المقدسة تكون ما يسمى فى المسيحية بالعهد القديم وكتب المسيحية تكون ما يسمى بالعهد الجديد، ومن العهدين معًا يتكون الكتاب المقدس، ومن ناحية أخرى تملكت أمريكا رغبة جامحة فى فرض نظمها على العالم الإسلامى بعد أن دانت لها السيطرة الكاملة على العالم كله فى ظل العولمة وانفرادها بقيادته بعد سقوط الاتحاد السوفييتى عام ١٩٩١م وهكذا انتهت العولمة إلى هيمنة أمريكية واستعمار فى ثوب جديد هو «سيف العم سام وذهبه».

وانتهزت إسرائيل الفرصة واتهمت المقاومة الفلسطينية والسلطة الفلسطينية بالإرهاب، واجتاحت بجيوشها الأراضى التى تقع تحت سيطرة السلطة الفلسطينية، وارتكبت من الأعمال الوحشية - من قتل واعتقال وهدم للمدن والقرى بعد حصارها - ما لم يحدث مثله فى التاريخ تحت سمع وبصر العالم كله الذى عجز حتى الآن عن ردها إلى صوابها وتضميد جراح الفلسطينيين ؛ فهى حرب إبادة عنصرية من جانب الدولة العبرية تحت ستار الدفاع عن النفس فأسمتها «الجدار الواقى»، وهى حرب شبيهة بما سبق أن حل بالمسلمين فى البوسنة والهرسك وكوسوفا والعراق خلال السنوات الأخيرة.

وسنعالج على التوالى : الإسلام دين سلام وتسامح ، كفاح الشعوب فى مواجهة الغزو المسلح عن طريق المقاومة المسلحة.

أولاً : الإسلام دين سلام وتسامح:

تكريم الإنسان:

• كرم الإسلام الإنسان وفضله على كثير من المخلوقات بوصفه إنسانًا وبصرف النظر عن دينه وأصله ولغته .. إلخ.

وقد ورد ذكر هذا التكريم فى آيات عديدة من القرآن الكريم ، نذكر منها قوله تعالى فى سورة الإسراء: **﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾**(١).

الاعتراف بالآخر:

إن الإسلام أبعد ما يكون عن التعصب الدينى فهو يعترف بالآخر ويظهر ذلك بصورة جلية فى اعترافه بالأديان السماوية السابقة عليه وهو خاتم الرسالات السماوية وهى كلها خرجت من مشكاة واحدة وهو ما أكده القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة فصلت: **﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾**(٢) ، وقوله تعالى فى سورة البقرة: **﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾**(٣). وتطبيقًا لهذا المبدأ اعترف الإسلام بحرية العقيدة وقسيمتها حق إقامة الشعائر الدينية ، من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة: **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾**(٤).

حرية العقيدة :

إن التأكيد على حرية العقيدة وكفالة حق ممارستها لكل الديانات السماوية من السمات البارزة للإسلام ، ولا عبرة لما يردده بعض العلمانيين المعاصرين من

---

(١) الإسراء : ٧٠ . (٢) فصلت : ٤٣ . (٣) البقرة : ١٣٦ . (٤) البقرة: ٢٥٦.

أن الإسلام لا يكفل حرية «الإلحاد» على خلاف ما تقوله بعض المجتمعات العلمانية المعاصرة ، ذلك أن الإسلام يتفرد بأنه جعل للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله .. إلخ . المكان الأسمى فى كل ما ينادى به من نظم فمن الطبيعى ألاَّ يعترف بالإلحاد والملحدين واعترافه بالديانات السماوية السابقة عليه قضى على التعصب الدينى داخل المجتمعات الإسلامية وهو ما يفسر كثرة عدد الأقليات الدينية (يهودية أو مسيحية) داخل البلاد الإسلامية على خلاف الحال فى الدول المسيحية التى ظلت حتى قيام الثورة الفرنسية والتحول إلى العلمانية لا تقبل أن يعيش فيها المسلمون ولكنها تقبل أن يعيش فيها اليهود؛ لأن المسيحية تعترف باليهودية لأنها سبقتها، ولا تعترف بالإسلام؛ لأنه لاحقٌ عليها، واليهودية لا تعترف لا بالمسيحية ولا بالإسلام وهو ما يفسر لنا سبب طرد المسلمين الذين رفضوا التحول إلى النصرانية أو قتلهم بعدما سقطت الأندلس فى أيدى المسيحية، ولم تعترف الدول الغربية بحرية العقيدة للمسلم الذى يقيم بها إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وسمحت بعض هذه الدول للمسلمين بإقامة المساجد ومراكز الثقافة الإسلامية بها ، وما زالت بعض الدول الأوروبية ترفض الاعتراف للمسلمين بحرية العقيدة وبناء المساجد بها.

والتسليم بمبدأ حرية العقيدة فى الإسلام اقتضى عدم جواز إكراه أحد على الدخول فى الإسلام.

وقد أكد القرآن الكريم ذلك فى عدة آيات قرآنية منها قوله تعالى فى سورة الكهف: **﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾**(١).

وقوله تعالى: **﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعًا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾**(٢).

وإعمالاً لحرية العقيدة فى الإسلام كانت الدعوة إليه بالحسنى . وهو ما أكده القرآن الكريم فى عدة آيات منها قوله تعالى: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾**(٣).

---

(١) الكهف : ٢٩ .　(٢) يونس : ٩٩ .　(٣) النحل : ١٢٥ .

وقوله تعالى فى سورة العنكبوت: **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾**(١).

ولا يقف الإسلام عند حد تقرير المبدأ بل يمنع كائنا من كان أن يحاسب الكفار على كفرهم فى الحياة الدنيا بل جعل ذلك من حق الخالق وحده يحاسب عليه فى الحياة الآخرة . من ذلك قوله تعالى: **﴿وإن ما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾**(٢). وقوله تعالى: **﴿ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظًا وما أنت عليهم بوكيل﴾**(٣). ومن التجنى على الإسلام ما يروجه بعض الباحثين فى الغرب من أن الإسلام انتشر بقوة السلاح فى أعقاب الفتوحات الإسلامية الكبرى فوقائع التاريخ تكذب ذلك. فالإسلام لم ينتشر فى هذه البلاد إلا بعد مضى عدة قرون على الفتوحات، وكانت أهم أسباب انتشاره سماحته ومخالطة المسلمين لغيرهم . والدليل القاطع على ذلك أنه انتشر فى بلاد لم يفتحها المسلمون نتيجة لمخالطة ومعاشرة المسلمين من التجار وغيرهم ، وهو اليوم ينتشر فى بلاد ليس للمسلمين عليها سلطان . كذلك لا محل للقول بأن الإسلام انتشر بسبب إكراه غير المسلمين على دفع الجزية فلا يستسيغ العقل أن يتحول غير المسلم إلى الإسلام هروبًا من دفع مبلغ تافه لا يتجاوز دينارين فى السنة أى حوالى جنيه استرلينى واحد. وتتجلى حرية العقيدة بأعلى معانيها فى بعض العلاقات الخاصة مثل إباحة الزواج بين المسلم والكتابية ، وبعض المذاهب الإسلامية (كالشافعية) تحرم على الزوج أن يفاتح زوجته الكتابية فى أمر تحولها إلى الإسلام ولو بمجرد النصيحة . وبعضها الآخر يحرم على هذا الزوج منعها من ممارسة شعائرها الدينية بل تلزمه بأن يصاحبها إلى دور عبادتها لأداء هذه الشعائر. ولا يسمح الإسلام للمرأة المسلمة بالزواج من غير المسلم؛ لأن دينه يحرم هذا الزواج فإن فعل خرج من دينه ويصبح طريدًا لا دين له، ولذلك يعلل الفقهاء تحريم هذا الزواج بأنه يكون سببًا فى إيذاء المرأة وفتنتها عن دينها. كما يظهر ذلك أيضا من إباحة الإسلام للمسلمين

---

(١) العنكبوت : ٤٦ .   (٢) الرعد : ٤٠ .   (٣) الأنعام : ١٠٧ .

مخالطة غير المسلمين والأكل من طعامهم، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة المائدة: **﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾**(١).

وبعض الباحثين الغربيين، ومعهم بعض العلمانيين فى العالم الإسلامى يتهم الإسلام بالتعصب الدينى المخالف لحرية العقيدة، ويتخذ من عقوبة الردة المقررة فى الإسلام دليلاً على ذلك. وواقع الأمر أن الإسلام مثله فى ذلك مثل كل الديانات ـ يحمى نفسه ضد من يعتنقونه ثم يرتدون عنه . فالمسيحية توقع عقوبة على من يرتد عنها هى عقوبة «اللعن» أى الطرد من رحمة الكنيسة، ومن أهم آثارها: عزله عن المجتمع المسيحى، وتحريم التعامل معه. والحال كذلك فى اليهودية إذ يعاقب المرتد بعقوبة الحرمان الكبير بعد استتابته ثلاث مرات ، وإجراءاته شبيهة بالإجراءات المتبعة فى الردة فى الإسلام. والاختلاف بين المسيحية من ناحية واليهودية والإسلام من الناحية الأخرى يرجع إلى أن عقوبة الحرمان تطبقها الآن الكنيسة المسيحية دون تدخل من الدولة بينما عقوبة الردة تطبقها الدولة فى كل من اليهودية والإسلام لأن طبيعة المسيحية الفصل بين الدين والدولة ولكنهما يجتمعان فى اليهودية والإسلام .

وفى بداية عهود المسيحية أصدر الإمبراطور قسطنطين عدة قوانين تعاقب من يرتد عن المسيحية بالحرق، ثم عدلت إلى عقوبة، مصادرة الأموال. وفى عهد تيودور حرم غير المسيحى من تولى الوظيفة العامة وعاقب اليهودى الذى يتزوج من مسيحية بالإعدام .

وعقوبة الردة شبيهة من كثير من الوجوه بعقوبة إسقاط الجنسية التى تطبقها الدولة الحديثة ضد مواطنيها الذين يرتكبون أفعالاً تمس سلامة المجتمع وأمنه .

ومقتضى حرية العقيدة تمكين غير المسلمين من أهل الكتاب من أداء شعائرهم الدينية فى دور العبادة الخاصة بهم والسماح بإقامتها وترميم ما يتهدم

---

(١) المائدة : ٥ .

منها . وكتب التاريخ خير شاهد على ذلك سواء فى ذلك ما كتبه المؤرخون المسيحيون والمؤرخون المسلمون وما حفظه التاريخ من معاهدات الصلح بين المسلمين وغيرهم .

ولم يكتف الإسلام بكفالة حرية العقيدة وقسيمتها حرية الشعائر الدينية فى خصوص العبادات بل تمتد هذه الحماية إلى أحكام المعاملات الواردة فى الديانات السماوية السابقة على الإسلام ولو كانت مخالفة لأحكام الإسلام مثل أمور الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وخلافه .

التسامح :

ووصل التسامح فى الإسلام أعلى درجاته حينما قرر المساواة بين المسلمين وأهل الكتاب (**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**) . وقد جرى العلماء فى الإسلام على استعمال تعبير العدل للدلالة على المساواة اشتقاقاً من المعنى اللغوى لكلمة العدل التى تعنى التسوية فى المعاملة ، ويتحدثون عن العدل بمعانيه العديدة ، سياسية واجتماعية واقتصادية.

وقد تقرر مبدأ المساواة فى عديد من الآيات القرآنية والسنة النبوية؛ لأنها شريعة سماوية تخاطب البشر أجمعين دونما تمييز بسبب الدين، أو اللغة، أو الأصل، أو الحرفة، أو الطبقة الاجتماعية . ولذلك أمرت بالعدل ونهت عن نقيضه وهو الظلم. من ذلك قوله تعالى : ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾(1).

والحديث الشريف يقول: «**أحب الخلق إلى الله إمام عادل ، وأبغضهم إليه إمام جائر**».

وإعمالاً لهذا المبدأ أجمع العلماء على أن جور الحاكم من بين أسباب عزله بل إن بعض المذاهب تجيز الخروج عليه والثورة ضده بسبب جوره . والأمر بالعدل والنهى عن الظلم خطاب عام للمسلمين وغيرهم ، ولذلك حرص الإسلام على أن

---

(١) النساء: ٥٨.

يفرد بالذكر العدل مع الأعداء . من ذلك قوله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ..﴾**(١). ويمتد الحكم بالعدل إلى المشركين من غير أبناء دار الإسلام لقوله تعالى : **﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾**(٢) .

وحسن المعاملة ينصرف أيضا إلى أسرى الحرب لقوله تعالى: **﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا﴾**(٣) .

ومن جماع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية سالفة الذكر صاغ الفقهاء مبدأ عاما يقول فى خصوص أهل الكتاب: (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) وفى هذا الصدد يفرق العلماء بين العبادات والمعاملات . ففى العبادات يخضع أهل الكتاب لما يأمر به دينهم ولو كان مخالفًا للإسلام تطبيقًا لمبدأ **﴿لا إكراه فى الدين﴾**. أما فى المعاملات فإنهم يخضعون لذات الأحكام التى يخضع لها المسلمون باستثناء ما كان منها مرتبطًا بالدين وهى ما تُعرَفُ اليوم بالأحوال الشخصية من زواج وطلاق وغيره إذ أجاز الفقهاء خضوعهم لما يأمر به دينهم ، وكذلك الحال فى أحكام بعض المعاملات التى يأمر بها دينهم رغم مخالفتها لأحكام الإسلام مثل شرب الخمر وأكل لحم الخنزير .

وبذلك يتميز الإسلام عن اليهودية والمسيحية . فهذه الأخيرة لا تعترف لليهود بأية حقوق بالرغم من اعترافها بالديانة اليهودية، لأن الكنيسة المسيحية اعتبرتهم مسئولين عن دم المسيح - عليه السلام - وهذه النظرة لم تتغير إلا فى الستينيات من القرن العشرين حينما أصدر بابا الفاتيكان قرارًا ببراءة اليهود من دم المسيح - عليه السلام - ولم يحظ اليهود بالمساواة بالمسيحيين فى البلاد المسيحية التى كانوا يعيشون فيها إلا بعد الثورة الفرنسية سواء فى ذلك من كان يعيش منهم فى ظل سيادة الدولة الرومانية الغربية أو الدولة الرومانية البيزنطية. فقد كانت قوانين البلاد التى يعيشون فيها تحرم عليهم الاختلاط بالسكان

---

(١) المائدة : ٨. (٢) التوبة : ٦ . (٣) الإنسان : ٨ .

وبالزواج وغيره . فكانوا يعيشون فى عزلة (جيتو : أى حارة اليهود) ويجب أن نلاحظ أن من عاش منهم فى ظل هذه الدولة الرومانية البيزنطية فى الشام ومصر وغيرها وفى دول شرق أوروبا التى وقعت فى أيدى الدولة العثمانية قد نعموا بالمساواة بالمسلمين وعوملوا معاملة أهل الذمة ، ونفس الأمر حدث لهم فى ظل الدولة الإسلامية بالأندلس.

اليهودية :

والشريعة اليهودية شريعة عنصرية دينية. فهى شريعة خاصة ببنى إسرائيل وحدهم، ولا تعترف بما جاء بعدها من شرائع سماوية سواء فى ذلك المسيحية أو الإسلام ، ولذلك نظرت هذه الشريعة إلى الأجنبى نظرة عدائية واعتبروه كافرًا، ومن ثم حرموه من التمتع بأى حق من حقوق القانون العام والقانون الخاص كما حرمت هذه الشريعة التعامل معه أو الاختلاط به. فحرمت الزواج بين اليهود والأجانب (سفر الخروج ـ ٢٦ : ٣٥.٣٤) ، وحرمت الإقراض بفائدة بين اليهود وأباحته بالنسبة للأجانب (سفر الخروج ـ ٢٢ : ٢٤) وحرمت على الأجانب تملك العقارات . والأجنبى فى شريعة اليهود هو الشخص الذى لا يرتبط برابطة الدم ببنى إسرائيل من جهة الأب والأم معًا فضلاً عن اعتناق الديانة اليهودية، ثم حدث تجاوز فى شرط رابطة الدم وأصبح يقتصر على رابطة الدم من جهة الأم فقط ، وهو ما يجرى عليه العمل الآن فى إسرائيل . وحدث تجاوز أيضًا فى شرط التمسك برابطة الدم وأصبح يكتفى باعتناق الديانة اليهودية بصرف النظر عن الدم الذى يجرى فى عروقه، غير أن هذه القاعدة لا يفيد منها إلا إذا امتد اعتناق اليهودية ثلاثة أجيال متتالية، ومن ثم لا يفيد منها إلا أبناء الجيل الثالث لمن اعتنق اليهودية (سفر التثنية : ٢٢ ، ٩.٣).

ثانياً : الغزو العسكرى والمقاومة المسلحة

قواعد القانون الدولى:

مرت القواعد التى تنظم العلاقات الدولية بين الدول بعدة تطورات . وهذه القواعد نشأت فيما بين الدول المسيحية الأوروبية، وتستمد قوتها من تراضى الدول عنها سواء فى صورة أعراف دولية أم معاهدات تعقدها فيما بينها ، وهذه الصورة الأخيرة لم تظهر بشكل فعال إلا منذ القرن التاسع عشر . وكانت هذه العلاقات تعتمد على قوة الدولة إذ كانت القوة تنشئ الحقوق وتحميها . وفى ظل هذا الوضع ظهرت الإمبراطوريات الكبرى التى عرفها التاريخ فى الماضى البعيد والإمبراطوريات الكبرى فى العصور الحديثة على أساس حق الفتح وضم أراضى الدول المهزومة . ثم اتجه العالم إلى محاولة الحد من استخدام القوة كوسيلة لفض ما يثور بين الدول من منازعات والالتجاء إلى الطرق السلمية . وتبلور هذا الاتجاه بعد الحرب العالمية الأولى بإنشاء منظمة دولية تكون مهمتها المحافظة على السلم والأمن الدوليين ، فظهرت " عصبة الأمم " ونصت المادة الثانية عشرة من ميثاقها على التزام الدول إذا قام نزاع بينها يهدد السلم الدولى بالالتجاء إلى الطرق السلمية لفضه وذلك بعرضه على التحكيم أو القضاء أو على مجلس العصبة وَألاَّ تلجأ إلى الحرب إلا بعد مضى ثلاثة أشهر على الأقل من صدور قرار أو حكم فى النزاع ، فإن قبلت إحدى الدولتين المتنازعتين القرار أو الحكم امتنع على الدولة الأخرى الدخول فى حرب ضد الدولة القابلة للحكم أو القرار . والدولة التى تخالف هذا النظام تعتبر مرتكبة لعمل من أعمال الحرب ضد كل دول «العصبة » ويجب على دول العصبة تقديم المساعدة اللازمة للدولة القابلة للحكم أو القرار. غير أن عصبة الأمم فشلت فى حماية السلم والأمن الدوليين . ومن ناحية أخرى اتجهت كثير من الدول إلى عقد اتفاقات دولية فيما بينها تدين اللجوء إلى الحرب لفض ما يثور بينها من منازعات . ومن أهم هذه الاتفاقات ميثاق بريان كيلوج عام ١٩٢٨م ، ويسمى أيضًا ميثاق باريس . ولكن هذه المواثيق لم تر النور فى التطبيق حتى قيام الحرب العالمية الثانية ، وبعدها أُنشئت منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥م حيث ظهر لأول مرة فى تاريخ البشرية نظام دولى

يحـرم الالتـجـاء إلى القـوة لفض مـا يثـور بين الدول من منازعـات .. فـقـد نصت الفقرة الرابعة من المادة الثانية صراحة على ذلك . واستثنى ميثاق هيئة الأمم من هذا المبدأ بضعة حالات أهمها حالتى الدفاع الشرعى (م ٥١) وحق تقرير المصير (م١/٢ + م٥٥) فأجاز للدولة المعتدى عليها استخدام القوة دفاعًا عن نفسها - سواء بمفردها أو بمساعدة الدول الأعضاء فى تنظيم إقليمى تدخل فيه الدولة المعتدى عليها - وذلك حتى يتولى مجلس الأمن نظر موضوع النزاع واتخاذ ما يراه لازمًا من تدابير سلمية أو عسكرية إذا ما قدر المجلس أن النزاع يهدد أو يخل بالسلم الدولى . غير أن ميثاق الأمم المتحدة قصر هذا الحق على الدول ذات السيادة أعضاء هيئة الأمم ولم يعط هذا الحق للشعوب والأقاليم المحتلة فى الدفاع عن نفسها . كما أن الميثاق لم ينظم كيفية ممارسة الشعوب لحقها فى تقرير مصيرها . ولذلك اضطرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بإصدار مجموعة من القرارات أكدت فيها حق الشعوب فى الدفاع عن نفسها وحقها فى تقرير مصيرها .

ويثور تساؤل هام: كيف استطاعت أوروبا المسيحية أن تتجاهل تعاليم المسيحية القائمة على المحبة والسلام ، وتعتمد على القوة فى نشر المسيحية وفى إقامة إمبراطوريات فى آسيا وإفريقيا فضلاً عن الحربين العالميتين الكبيرتين بين الدول الكبرى المسيحية واعتبار القوة أساس تنظيم العلاقات الدولية بينها ؟ . هل كان ذلك استجابة لما يقوله العهد القديم: (التوراة والتلمود وبروتوكولات حكماء صهيون) أم هو وليد تفسير مغلوط لبعض آيات العهد الجديد؟. يبدو أن الأمر يرجع إليهما معًا .

اليهودية:

فنصوص العهد القديم تجعل غاية الحرب بين اليهود وغيرهم من الشعوب وسيلة لامتلاك أراضى السكان الأصليين وطردهم منها وتخريبها . من ذلك ما ورد فى سفر العدد : (٣٣ ، ٥٠-٥٣)عن حروب موسى: «وكلم الرب موسى فى عربات موآب على أردن أريحا قائلاً : كلم بنى إسرائيل، وقل لهم: إنكم عابرون

الأردن إلى أرض كنعان ، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم، وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة، وتخربون جميع مرتفعاتهم ، تملكون الأرض وتسكنون فيها؛ لأنى قد أعطيتكم الأرض لكى تملكوها». وما ورد فى سفر التثنية : (١٣ ، ١٢ ـ ١٦) «إن سمعت عن إحدى مدنك التى يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها .. فضربًا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف، وتحرِّمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف ، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها، وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلاً إلى الأبد لا تبنى بعده " .

وصاغت التوراة فى سفر التثنية (٢٠ ، ١٠ ـ ١٦) قوانين الحرب بقولها : " حين تقرب من مدينة، لكى تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًا التى ليست من مدن هؤلاء . أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبق منها نسمة ما " . ومن بين قواعد الحرب أيضًا قاعدة الانتقام من أعداء بنى إسرائيل حسبما ورد فى سفر العدد (٣١ ، ١.١١) وكلم الرب موسى قائلاً: «انتقم لبنى إسرائيل من المديانيين ثم تضم إلى قوتك .. فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر.. وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم، ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار».

وكانت حروب داود كلها حروب إبادة جماعية ، ومن أمثلة ذلك ما ورد فى سفر صموئيل الأول : (٢٧ ، ١٢.٨) «وخرب داود الأرض، ولم يستبق رجلاً ولا امرأة، وأخذ غنمًا وبقرًا وحميرًا وجمالاً وثيابًا .. وهكذا عادته كل أيام إقامته فى بلاد الفلسطينيين». وكرر العهد القديم ذات الحكم حينما ضم داود أرض الفلسطينيين إلى ملكه . فقد جاء فى سفر صموئيل الثانى (٨ ، ٢.١) ما يلى: «وبعد ذلك ضرب داود الفلسطينيين وذلهم وأخذ داود زمام القصة من

يد الفلسطينيين ، وضرب المؤابين وقاسهم بالحبل . أضجعهم على الأرض فقاس بحبلين للقتل وبحبل كامل للاستحياء ، وصار المؤابيون عبيدًا لداود يقدمون هدايا».

وكانت حروب يشوع حروب إبادة جماعية ، فقد ورد فى سفر يشوع : (٨ ، ٢٤.٢١) «ولما رأى يشوع وجميع إسرائيل أن الكمين قد أخذ المدينة وأن دخان المدينة قد صعد انثنوا وضربوا رجال عاى ، وهؤلاء خرجوا من المدينة للقائهم فكانوا فى وسط إسرائيل هؤلاء من هنا وأولئك من هناك . وضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت . وأما ملك عاى فأمسكوه حيًا وتقدموا به إلى يشوع . وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاى فى الحقل فى البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعًا بحد السيف حتى فنوا ، إن جميع إسرائيل رجع إلى عاى وضربوها بحد السيف» . وكانت حروب داود تستهدف الغنائم بعد تعذيب الأسرى وتقطيعهم بالمناشير وإحراقهم فى الأفران كأنه كان يتنبأ بما سيحل باليهود فى ألمانيا فى العهد النازى فى الحرب العالمية الثانية . فقد ورد فى سفر صموئيل الثانى : (١٢ ، ٣١.٢٦) «وحارب يؤاب ربة بنى عمون وأخذ مدينة المملكة، وأرسل يوآب رسلاً إلى داود يقول له: حاربت ربة وأخذت أيضًا مدينة المياه . فالآن أجمع بقية الشعب، وأنزل على المدينة، وخذها لئلا آخذ أنا المدينة فيدعى باسمى عليها . فجمع داود كل الشعب وذهب إلى ربة وحاربها وأخذها ، وأخذ تاج ملكهم عن رأسه، ووزنه وزنة من الذهب مع حجر كريم وكان على رأس داود . وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جدًا . وأخرج الشعب الذى فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرهم فى أتون الآجر . وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون ، ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم». ولعل شارون أعجب بما جرى لهذه المدينة، فكرره حديثًا فى جنين، وهدم المنازل على أهلها ـ وهم أحياء ـ وداسهم بالدبابات .

تلكم هى قواعد الحرب عند اليهود من واقع ما ورد فى كتبهم المقدسة حينما حطوا رحالهم فى أرض فلسطين فى الماضى البعيد . ولذلك لا محل للدهشة أن نرى الصهاينة يكررون ذات الصورة بمآسيها فى فلسطين بعدما حطوا رحالهم

فيها أيام الانتداب الإنجليزى على فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى وتمكنهم من إقامة دولة لهم فى فلسطين عام ١٩٤٨م، وترسموا خطى أستاذ الصهيونية «جابوتنسكى» الذى تبنى النظرية الاستعمارية التى تقوم على طرد سكان البلاد المستعمرة وإخلائها لصالح المستعمرين ، فرفع ذات الشعار «أرض بلا شعب وشعب بلا أرض». ومن ثم يتعين طرد الفلسطينيين من أرضهم ليحل اليهود محلهم بعد تجميعهم من الشتات .

المسيحية :

ونصوص العهد الجديد ترفض الحرب وتمجد السلام وتكرس ذلك فى قاعدتين وضعهما السيد المسيح - عليه السلام - تقول أولاهما : " من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا » (إنجيل متى : ٥ ، ٣٩). وتقول ثانيتهما : «أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم» (إنجيل متى : ٥ ، ٤٤). غير أن التطبيق العملى فى عهده - حسبما ورد فى إنجيل لوقا : (٢٢ ، ٣٥-٣٨) دل على جواز استعمال القوة دفاعًا عن النفس حينما أحس بالخطر يتهدده بالقبض عليه فطلب من كل واحد من تلاميذه أن يكون لديه سيف ومزود يحفظ فيه القوت . ومن ناحية أخرى لجأت المجامع الدينية الكنسية إلى تفسير مغلوط لبعض آيات الإنجيل منها الآيات التى وردت فى إنجيل لوقا سالفة الذكر ومنها أيضا ما ورد فى إنجيل لوقا : (١٢ ، ٤٩-٥٢) «جئت لألقى نارًا على الأرض ، فماذا أريد لو اضطرمت .. أتظنون أنى جئت لأعطى سلامًا على الأرض. كلا أقول لكم بل انقسامًا لأنه يكون من الآن خمسة فى بيت واحد منقسمين ثلاثة على اثنين واثنان على ثلاثة ينقسم الأب على الابن والابن على الأب . والأم على البنت والبنت على الأم والحماة على كنتها والكنة على حماتها». وهذه التفاسير المغلوطة بدأت منذ عهد آباء الكنيسة - وعلى رأسهم القديس أوغسطين - إذ أصبحت الحرب لصالح الكنيسة حربًا مقدسة يدخل ضحاياها فى عداد الشهداء . وعلى أساس هذه الفكرة قامت الحروب الصليبية فى الشرق وحروب المسيحية ضد المسلمين فى الأندلس . وكانت هى أساس استخدام السيف لنشر المسيحية فى أوروبا منذ عهد شارمان، ثم استخدمت فى الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت فى القرن السادس عشر .

الإسلام :

سبق القول أن القواعد التى تنظم العلاقات بين الدول ظهرت فى أوروبا المسيحية منذ القرن التاسع عشر، واعتمدت على الأعراف الدولية السائدة حينذاك وكلها تبيح الالتجاء إلى القوة لفض المنازعات بين الدول . ولم يتغير الحال إلا بعد الحرب العالمية الثانية بعدما قاست البشرية من ويلات الحروب . ولم يشارك المسلمون فى الأعراف الدولية إذ اقتصرت على أعراف الدول الأوروبية المسيحية . ولعلهم لو كانوا شاركوا لتغير كثير من القواعد .

والواقع أن أكثر القواعد التى نظمتها الاتفاقات الدولية بعد الحربين العالميتين فى شأن الحرب ومن أهمها اتفاقيات لاهاى ١٨٩٩ ـ ١٩٠٧ ، اتفاقيات جنيف الأربع عام ١٩٤٩م وما قرره ميثاق هيئة الأمم المتحدة تتطابق مع ما سبق أن وضعته الشريعة الإسلامية من أحكام فى هذا الموضوع . فقد حدد الإسلام أسباب الحرب، ونظم ما يترتب عليها من آثار .

الإسلام دين سلام، ولكنه ليس دين استسلام، ويظهر ذلك من نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية وما جرى عليه التطبيق العملى فى التاريخ الإسلامى . فالقرآن الكريم فرض السلم على المؤمنين بقوله تعالى فى سورة البقرة : **﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السِّلْم كافة﴾**(١) . كما أمر بمسالمة الأعداء بقوله تعالى فى سورة الأنفال: **﴿وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها﴾**(٢) . والسلام أحد أسماء الله الحسنى، ودار السلام أحد أسماء الجنة . ومن أجل ذلك ابتعدت الدعوة إلى الإسلام عن الحرب والإكراه، واعتمدت على الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى ـ كما سبق أن رأينا ـ وهذه الأحكام تتفق مع ما قرره ميثاق هيئة الأمم المتحدة بتحريم اللجوء إلى القوة كأصل عام (م٢/٤) .

وإذا كان الأصل هو السلام ومنع الحروب إلا أن الإسلام أباح الحرب دفاعًا عن العقيدة إذا ما اعتدى عليها وتأمينًا للدعوة إذا وضع أعداء الإسلام

---

(١) البقرة : ٢٠٨ .　　(٢) الأنفال : ٦١ .

الصعوبات فى طريقها، كما أباحها دفاعًا عن أرض الإسلام إذا ما اعتدى عليها أو لدفع الأذى الذى يقع على المسلمين . ومن الآيات القرآنية التى أباحت القتال لدفع الاعتداء قوله تعالى فى سورة البقرة: **﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾**(١). وكتب السيرة خير شاهد على أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يبدأ بالعدوان ، وكان يهادن من هادنه من الكفار . أما بالنسبة للنصارى فلم يقاتل أحدًا منهم إلا بعد صلح الحديبية حينما أرسل رسله إلى ملوك البلاد يدعوهم فيها إلى الإسلام فقتلوا هؤلاء الرسل، كما قتلوا من أسلم لمجرد أنه أسلم . ولذلك اضطر الرسول إلى إرسال سرية لقتالهم فى «مؤتة» وهو أول قتال بين المسلمين والنصارى . وفى هذه المعركة استشهد كثير من قواد جيش المسلمين منهم زيد بن حارثة أمير السرية ثم جعفر بن أبى طالب ثم عبد الله بن رواحة، ثم انتقلت الراية إلى خالد بن الوليد .

كما أباح القرآن الكريم القتال دفاعًا عن النفس، من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة: **﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾**(٢) وهذا الحكم شبيه بالحكم الوارد فى المادة (٥١) من ميثاق هيئة الأمم المتحدة عن الدفاع الشرعى . كما أن القرآن الكريم أباح الحرب لنصرة المستضعفين بقوله تعالى فى سورة النساء: **﴿وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلُها واجعل لنا من لدنك وليًا واجعل لنا من لدنك نصيرًا﴾**(٣). وهذا الحكم شبيه بحق تقرير المصير الذى قررته هيئة الأمم المتحدة بالعديد من قرارات الجمعية العامة بها . كما أباح الإسلام القتال دفاعًا عن الأرض المغتصبة بقوله تعالى فى سورة الحج : **﴿أُذِن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير • الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾**(٤).

---

(١) البقرة : ١٩٠ . (٢) البقرة : ١٩١. (٣) النساء: ٧٥. (٤) الحج: ٣٩ ـ ٤٠.

وأكد القرآن على حسن معاملة غير المسلمين الذين لم يناصبوا المسلمين العداء بقوله تعالى فى سورة الممتحنة: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين • إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾**[1]. ولم يكتف الإسلام بذلك بل طالب بالتزام إجارة المشركين إن استجاروا بالمسلمين فقد قال تعالى فى سورة التوبة: **﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾**[2].

وبالإضافة إلى تجنب الحرب وحصر أسبابها نظم الإسلام الصورة التى يجب أن يلتزمها المحاربون . ومن ذلك : النهى عن الإفساد فى الأرض وتخريبها فقد قال تعالى فى سورة البقرة : **﴿ومن الناس من يُعجبك قولُه فى الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام • وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد • وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبُه جهنم ولبئس المهاد﴾**[3]. وبسط الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عدم الإفساد بقوله لأفراد جيوش المسلمين **«لا تغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال ، فأيهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم»**. وأوصى الرسول عليًا حينما سأله ماذا يصنع مع الكفار فى الحرب أجابه : **«إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ، فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً ، فإن قتلوا منكم قتيلاً فلا تقاتلهم حتى تريهم إياه»**.

واستحدث الإسلام نظام إعلان الحرب فلا حرب بدون إعلان مسبق . وقد ورد هذا الحكم فى القرآن الكريم فى سورة الأنفال: **﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾**[4].

---

(١) الممتحنة: ٨ ـ ٩. (٢) التوبة : ٦ . (٣) البقرة : ٢٠٤ـ٢٠٦ . (٤) الأنفال: ٥٨.

كما استحدث الإسلام نظامًا جديدًا فى العلاقة الدولية لم يكن معروفًا من قبل . فقواعد الحرب كانت تقضى بخضوع أهل البلاد المفتوحة صلحًا خضوعًا تامًا لأهل البلد الفاتح ومنها اعتناق ديانة الفاتحين وتطبيق نظمهم وقوانينهم . أما إن كان الفتح عنوة جاز للفاتحين فوق ما تقدم استرقاق أهل البلاد المفتوحة . جاء الإسلام ببديل ثالث هو الاحتفاظ بالديانة مع دفع الجزية ، وطبق عمر بن الخطاب هذا النظام على البلاد التى تفتح عنوة أو صلحًا وبذلك أصبح لأبناء البلاد المفتوحة الخيار بين أمور ثلاثة : الإسلام ، المعاهدة أى يدخلون فى ذمة المسلمين ويدفعون الجزية ويحتفظون بدينهم وما فى حوزتهم من أراضٍ وأموال ، أو القتال بالصورة التى وردت فى الحديث النبوى سالف الذكر . وتشهد كتب التاريخ التزام أفراد المسلمين بهذه القواعد . وقد خالف أحد قواد المسلمين هو قُتيبة بن مسلم حينما فتح أرض سمرقند ولم يخير سكانها بين الإسلام أو المعاهدة ، أو القتال ، بل استولى عليها غدرًا، فاشتكوا إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز فكتب إلى واليه - حسبما ذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ ، ج٥ ص ٢٢ - يقول له: «إن أهل سمرقند قد شكوا ظلمًا وتحاملاً من قتيبة عليهم ، حتى أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابى فأجلس إليهم القاضى فلينظر فى أمرهم، فإن قضى لهم فأخرج العرب من معسكرهم قبل أن يظهر عليهم قتيبة». ولما جلس القاضى واستمع إليهم قضى أن يخرج الجيش إلى معسكره ، وأن ينابذهم على سواء ، فيكون إذن صلحًا أو فتحًا . وحينما سمع أهل سمرقند ذلك قالوا: رضينا بما كان، ودخلوا فى دين الله أفواجًا».

ومن السوابق التاريخية الجديرة بالتسجيل فى هذا الصدد ما فعله أبو عبيدة ابن الجراح مع بعض مدن الشام ومنها مدينة حمص - حسبما ورد فى كتاب الخراج لأبى يوسف - إذ أمر برد الجزية إليهم؛ لأن المسلمين اضطروا إلى الانسحاب منها لمواجهة الروم الذين أعدوا جيشًا لمحاربة المسلمين فى موقعة اليرموك . وقال لهم: «إنا رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك . وقد رددنا ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشروط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله

عليهم». وكان رد أهل حمص على ما ذكر البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان: «إن ولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ، ونبهوا بذلك فسقطت عنهم الجزية».

وقد ورد فى كتاب السير الكبير فى باب وصاية الأمراء فى الحرب: أن الخليفة أبا بكر بعث الجيوش إلى الشام، وبعث يزيد بن أبى سفيان أميرًا، فقال: «إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعهم وما زعموا، وإنى موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ، ولا صبيًا ، ولا كبيرًا هرمًا ، ولا تقطعن شجرًا مثمرًا ، ولا نخلاً ، ولا تحرقها ، ولا تخربن عامرًا ، ولا تعقرن شاة ولا بقرة إلا لمأكلة ، ولا تجبن ولا تُغلِ». ومن الواضح أن ما ورد فى هذه الوصية ونظائرها لأفراد الجيوش يتطابق إلى حد كبير مع ما نصت عليه اتفاقيات جنيف الأربعة الموقعة فى ١٣ من أغسطس ١٩٤٩م الخاصة بضحايا الحرب . فقد ورد فى المادة ١٤٧ من الاتفاقية الرابعة الخاصة بحماية المدنيين وقت الحرب منع القيام بالأعمال الآتية ضد المدنيين الذين تحميهم هذه الاتفاقية : «القتل العمد ، التعذيب أو المعاملة البعيدة عن الإنسانية ، بما فى ذلك التجارب الخاصة بعلم الحياة، الأعمال التى تسبب آلامًا شديدة أو إصابة خطيرة للجسم أو النفى أو الإبعاد غير القانونى أو الاعتقال غير القانونى للأشخاص المحميين ، أخذ الرهائن ، والتدمير الشامل للممتلكات ..» ولعل ما حدث من قادة إسرائيل ضد الفلسطينيين خير شاهد على مدى مخالفة إسرائيل لهذه القواعد من مذابح فى دير ياسين وصبرا وشتيلا وقانا وأخيرًا فى جنين ، ومحاصرة كنيسة المهد وضربها بالمدافع وحصار الرئيس عرفات فى مقره فى رام الله بما يشبه الاعتقال هو وزملاؤه لمدة زادت عن شهر.

ولم يغفل الإسلام عن تنظيم معاملة أسرى الحرب ، وهى لا تخرج عن أحد أمرين : إما إطلاق سراحه بلا مقابل، أو بفدية تتفق وظروف الأسير وحالته ، وهى فى العصر الحديث مبادلة الأسرى .

ويقول القرآن الكريم فى سورة محمد عن وضع الأسير بقوله تعالى : **﴿فإما منا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاءُ الله لانتصر منهم ولكن ليبلُوا بعضكم ببعض﴾**(١).

ومن ناحية أخرى نص على حسن معاملة الأسير وسوى بينه وبين اليتيم والمسكين فى الحاجة إلى البر بهم والعطف عليهم بقوله تعالى فى سورة الإنسان: **﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً • إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شُكوراً﴾**(٢). وهذه القواعد شبيهة بالقواعد التى أوردتها المادة ١٣٠ من الاتفاقية الثالثة من اتفاقيات جنيف الخاصة بمعاملة أسرى الحرب.

والغريب فى الأمر أننا مازلنا نسمع من بعض زعماء العالم أن الإسلام دين إرهاب وليس دين سلام ما لم يكن المقصود بالسلام الخنوع والخضوع التام والاستسلام لرغبات إسرائيل التى لا تقف عند حد بمساندة الولايات المتحدة الأمريكية.

المقاومة الفلسطينية وحق الفلسطينيين فى تكوين دولتهم:

شهد القرن العشرين بداية انهيار النظام الاستعمارى أمام انبعاث الروح القومية للشعوب التى خضعت للاستعمار ومطالبتها بحق تقرير مصيرها، وانتهى الأمر بظهور قاعدة جديدة فى العلاقات الدولية تقضى بضرورة احترام حق الشعوب فى تقرير مصيرها إما بالطرق السلمية مثل الاستفتاء ، وإما بالقوة المسلحة. وقد ظلت الدول الاستعمارية تضع العقبات فى سبيل تحقيق أمانى الشعوب الخاضعة للاستعمار حتى جاءت الحرب العالمية الأولى واحتاج الحلفاء إلى مؤازرة الشعوب ومساعدتها . ففى ديسمبر ١٩١٥م صرح الرئيس ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بأن الفتح والاستيلاء لا يدخلان فى برامج الحكومات الديمقراطية، وأن حق الفتح الذى ساد حتى ذلك الحين يتعارض مع حق الشعوب فى اختيار حكامها. ولكن ذلك التصريح لم يظهر له أثر فى عهد

---

(١) محمد: ٤.

(٢) الإنسان: ٨ ـ ٩.

عـصـبــة الأمم اللهم إلا بعض إشــارات بمنـاسـبــة الكلام عن الانتـداب ووضع الأقليات. وبعد الحرب العالمية الثانية صدر ميثاق الأمم المتحدة الذى أقر مبدأ تقرير المصير. فقد نصت عليه الفقرة الثانية من المادة الأولى من الميثاق، وأكدته المادة ٥٥ ، كما أكده العهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وكذلك العهد الدولى للحقوق المدنية والسياسية عام ١٩٦٦م . كما تبنى حق تقرير المصير الميثاق الإفريقى لحقوق الإنسان . ولم ينظم ميثاق هيئة الأمم المتحدة المقصود بحق تقرير المصير ولا كيفية تطبيقه ، ولذلك تصدت الجمعية العامة للأمم المتحدة وأصدرت عدة قرارات فى هذا الخصوص ، ومن أهمها : قرار الجمعية العامة عام ١٩٦٠م الذى تضمن حق الشعوب فى تحديد نظامها السياسى وتحقيق نموها الاقتصادى والاجتماعى والثقافى ، بوضع حد لجميع أنواع الأعمال المسلحة أو أعمال القمع الموجهة ضد الشعوب غير المستقلة ، حتى تتمكن من أن تمارس فى سلام وحرية حقها فى الاستقلال التام وتضمن سلامة إقليمها الوطنى. وقامت الجمعية عام ١٩٦١م بإنشاء لجنة تصفية الاستعمار.

وفى عام ١٩٦٥م أصدرت الجمعية قرارًا يطالب الدول الاستعمارية بالكف عن سياسة خرق حقوق الشعوب بتشجيع التدفق المنتظم للمهاجرين الوافدين الأجانب وتشتيت السكان الأصليين وترحيلهم. وأخذ القرار بمشروعية كفاح الشعوب الواقعة تحت الحكم الاستعمارى من أجل حقها فى تقرير المصير والاستقلال، ودعت جميع الدول إلى توفير المساعدة المادية والمعنوية لحركات التحرر القومى فى الأقاليم المستعمرة . وتأكدت هذه المعانى فى قرارى الجمعية بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٦٦م و١٣ ديسمبر ١٩٦٦م حيث تم إقرار حق الشعوب المغلوبة على أمرها فى استخدام القوة فى كفاحها من أجل الحصول على الاستقلال. وتوالت قرارات الجمعية العامة فى ١٢ من أكتوبر ١٩٧٠م التى قضت بمعاملة المناضلين الأحرار المعتقلين معاملة أسرى الحرب فى اتفاقية جنيف ١٩٤٩م . كما أقرت شرعية كفاح الشعوب المُستَعمَرة من أجل حريتها بجميع الوسائل المناسبة مع مطالبة جميع الدول والمنظمات الدولية بتقديم كافة المساعدات.

أصدرت الجمعية القرار رقم ٣١٠٣ فى ١٢ ديسمبر ١٩٧٣م فى شأن المبادئ الأساسية المتعلقة بالمركز القانونى للمقاتلين الذين يكافحون السيطرة الاستعمارية والأجنبية والنظم العنصرية " الذى تضمن التأكيد على أن كفاح الشعوب الخاضعة للسيطرة الاستعمارية والأجنبية والنظم العنصرية فى سبيل حقها فى تقرير مصيرها والاستقلال هو كفاح مشروع، وأن كل محاولة لقمع هذا الكفاح يشكل تهديداً للسلم والأمن الدوليين . كما تضمن ضرورة تطبيق اتفاقيات جنيف ١٩٤٩م على الأشخاص القائمين بالكفاح المسلح ضد السيطرة الأجنبية والاستعمارية والعنصرية . كما أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى عام ١٩٧٤م القرار رقم ٣٣١٤ بشأن تعريف العدوان وذكرت فى المادة السابعة إلى أنه ليس فى هذا التعريف ـ ولا سيما المادة الثانية ـ ما يمكن أن يمس ما هو مستقر فى الميثاق من حق تقرير المصير والحرية والاستقلال للشعوب المحرومة من هذا الحق بالقوة .. أو أن يمس بحق هذه الشعوب فى الكفاح من أجل هذا الهدف وفى طلب الدعم وتلقيه وفقًا لمبادئ الميثاق».

ويتبين من كل القرارات سالفة الذكر أن كفاح المقاومة الفلسطينية للحصول على الاستقلال وتقرير المصير هو كفاح مشروع، وأن من يمدون لها يد العون يؤدون واجبًا دوليًا . ولكن للأسف الشديد ظهرت نغمة جديدة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م تصف أعمال الانتفاضة بوصف الإرهاب، وتحولت أمريكا من دور الوسيط المتعاطف مع إسرائيل إلى دور المنحاز لها انحيازًا تامًا لا لشىء سوى أن أصابع الاتهام فى أحداث سبتمبر أشارت إلى أشخاص مسلمين فجروا أنفسهم مع ركاب الطائرات فى تلك الأحداث ، وهو ما يتشابه فى نظر الأمريكيين مع الأعمال الاستشهادية التى يقوم بها بعض أفراد الانتفاضة ضد إسرائيل فكأنها تنتقم من المسلمين عن طريق إسرائيل بعدما صبت جام غضبها على أفغانستان ودكتها بالطائرات والمدافع، وتريد تكرار السيناريو الأفغانستانى فى فلسطين .

وفى عام ١٩٧٢م أصدرت الجمعية العامة قرارًا بإنشاء لجنة خاصة للإرهاب الدولى . وفى عام ١٩٧٧م قدمت اللجنة تقريرها الذى تضمن استبعاد الأعمال

التى تقوم بها حركات التحرير الوطنية المعترف بشرعية كفاحها لتحقيق أهدافها فى تقرير المصير والاستقلال وتأكيدًا لذلك أصدرت الجمعية فى ١٧ ديسمبر ١٩٧٩م قرارًا بشأن التدابير العملية للتعاون من أجل القضاء السريع على مشكلة الإرهاب الدولى ، وقد أدانت بصورة قاطعة جميع أشكال الإرهاب الدولى التى تعرض للخطر أرواحًا بشرية، أو تودى بها، أو تهدد بها الحريات الأساسية، كما قررت إدانة استمرار أعمال القمع والإرهاب التى ترتكبها النظم الاستبدادية والعنصرية والأجنبية سالبة الشعوب حقها المشروع فى تقرير المصير والاستقلال وغيره من حقوق الإنسان والحريات الأساسية. كما أن مؤتمر جنيف الدبلوماسى الذى عقد عام ١٩٧٧م أقر بروتوكولين إضافيين لاتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩م وفى البروتوكول الأول : أكد المؤتمر على اعتبار النزاعات المسلحة الناجمة عن نضال الشعوب من أجل تقرير المصير من قبيل النزاعات المسلحة المشروعة .

ومع ذلك فإن الخلاف مازال ثائرًا حول صور استخدام القوة التى تُعد كفاحًا مشروعًا وتلك التى تدخل ضمن الإرهاب الدولى ؟ إن الدول الاستعمارية تنظر إلى نضال الشعوب على أنه ماس بأمنها وسيادتها وتقضى عليه باسم الدفاع الشرعى المقرر فى المادة (٥١) من ميثاق هيئة الأمم وتتعامل معه على أنه إرهاب . والواقع أن الميثاق قصر حق الدفاع الشرعى على الدول ذات السيادة، وتجاهل حق الشعوب فى الدفاع عن نفسها فى وجه ما تتعرض له من عدوان . ويرجع ذلك إلى أنه لا يوجد لدى هذه الشعوب كيان داخلى منظم يستطيع ممارسة الدفاع الشرعى؛ ولذلك ذهب فريق من الباحثين إلى منح هذه الشعوب حق الدفاع الشرعى إذا ما ظهر فيها هذا الكيان . وهو الأمر الذى ينطبق على المقاومة الفلسطينية بعد ظهور منظمة التحرير الفلسطينية بمقتضى قرار مؤتمر القمة العربى بمقر الجامعة عام ١٩٦٤م ثم حل محلها كيان السلطة الفلسطينية بمقتضى اتفاقية أوسلو بين الفلسطينيين وإسرائيل ومباركة العالم كله بما فيه أمريكا. وبناء على ذلك فإن من حق السلطة الفلسطينية أن تمارس حق الدفاع الشرعى فى مواجهة الأعمال العدوانية التى تقوم بها إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى .

والذين يرفضون منح الشعوب المستضعفة والمستعمرة حق الدفاع الشرعى يبررون رأيهم بأن كفاح هذه الشعوب لا يميز بين العسكريين والمدنيين ويصيب بالأذى المدنيين الأبرياء . وهل مدافع إسرائيل ودباباتها وإطلاق الرصاص العشوائى ضد الفلسطينيين يميز بين الأهداف العسكرية والأهداف المدنية وبين العسكريين والمدنيين الأبرياء ؟ والغريب فى الأمر أن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية - خليفة الرئيس الأمريكى ويلسون أول من نادى بمنح الشعوب المستعمرة حق تقرير المصير والاستقلال - هو الذى يصف أعمال الدفاع الشرعى الفلسطينى بأنها أعمال إرهابية ، ويصف شارون بأنه رجل سلام !! ولنا أن نتساءل عما إذا كان ما قام به واشنطن إبان معركة الاستقلال مع إنجلترا يعتبر عملاً إرهابيًا فى نظر الأمريكيين أم أنه يعد بطلاً شعبيًا ؟ ونفس التساؤل يثور بالنسبة لكل زعماء المقاومة الشعبية مثل الجنرال ديجول فى فرنسا، ومانديلا فى جنوب إفريقيا، وبن بيلا فى الجزائر .. إلخ . وهل كان بمقدور هذه الشعوب أن تحقق استقلالها بدون الثورات التى قامت بها ضد الدول المستعمرة . ولماذا ينكرون هذا الحق على الشعب الفلسطينى . إن الغرب بفكره المادى ينظر إلى قيام الفلسطينى الشاب أو الأنثى التى تجهز لتزف إلى عريسها بتفجير أنفسهما فى جمع من الناس على أنه عمل انتحارى وحشى يصيب الأبرياء؛ لأنهم يجهلون أن ذلك الاستشهاد هو أرقى درجات التضحية فى سبيل الجماعة وجزاؤه الجنة. ولعل حديث خيثمة مع ابنه فى التسابق إلى الخروج للجهاد فى معركة بدر حينما كان يرجو ابنه أن يقعد فى البيت يرعاه لينطلق هو إلى المعركة والابن يعلن أنه قد يتنازل عن حقه فى الثوب الجديد والجائزة المغرية بل قد يتنازل عن حقه فى الزواج - أما التنازل عن الجنة فلا . واضطر الأب أن يساهم ابنه فى الخروج فيخرج سهم ابنه فى القرعة ورُزق الشهادة .

إن تاريخ إسرائيل مع الفلسطينيين شاهد على مخططها الصهيونى فى ابتلاع فلسطين وطرد أهلها منها ، ووجدت لها فى إنجلترا ظهيرًا ثم فى أمريكا سندًا ومعينًا . لقد خططت الصهيونية العالمية بعد مؤتمر بازل بسويسرا ١٨٩٧م على ابتلاع فلسطين على مراحل، وتبنت فى ذلك الصدد المبدأ الاستعمارى " شعب بلا أرض وأرض بلا شعب».

فحصلت فى البداية على وعد بلفور ١٩١٧م بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين الذى نص على ألاً ينتج عن ذلك أى أضرار،أو تعريض للحقوق المدنية والدينية للهيئات غير اليهودية الموجودة فى فلسطين، أو أن يؤثر على الحقوق، أو الأوضاع السياسية لليهود فى البلاد الأخرى . وبعد الحرب العالمية الأولى حصلت إنجلترا فى ٢٥ إبريل ١٩٢٠م على الانتداب على فلسطين وهو نظام جديد نصت عليه المادة ٢٢ من عهد عصبة الأمم . وبمقتضى هذا النظام تظل السيادة على فلسطين للفلسطينيين . أما ممارستها فتكون لإنجلترا، ونصت المادة الخامسة من وثيقة الانتداب على إلزام الدولة المنتدبة (إنجلترا) بعدم التنازل عن شىء من أراضى فلسطين . ولكن إنجلترا فتحت باب الهجرة لليهود إلى فلسطين حتى وصل عددهم إلى خمسة وسبعين ألفًا . وبناء مستوطنات بها، ولم تقم حكومة بفلسطين بل تولت إدارتها وحكمتها حكمًا مباشرًا، وسمحت تحت ضغط ترومان رئيس أمريكا بإنشاء جيش يهودى عام ١٩٤٤م ، وفى حمايته تدفقت العصابات الصهيونية والمستوطنين اليهود . وفى ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧م أصدرت الجمعية العامة لهيئة الأمم القرار رقم ١٨١ بالتوصية بتقسيم فلسطين وإنهاء الانتداب البريطانى . وكان القسم الخاص باليهود يسكنه عرب يكونون أكثر من نصف سكانه ويتملكون ٩٠٪ من أراضيه . وفى ١٥ مايو ١٩٤٨م أعلن بن جوريون قيام دولة يهودية باسم إسرائيل سرعان ما اعترفت بها دول العالم . وفى ١٢ مايو ١٩٤٩م قُبلت إسرائيل كعضو فى الأمم المتحدة بعد أن تعهدت فى بروتوكول لوزان بعودة الفلسطينيين إلى ديارهم وتعويضهم طبقًا لقرارات الأمم المتحدة . ومازالت إسرائيل تراوغ فى الوفاء بهذا التعهد . بل إنها أضافت إلى أرضها مساحة تزيد عن ربع مساحة نصيبها فى قرار التقسيم . وأصدرت فى ٥ يولية ١٩٥٥م قانون العودة الذى يقضى بأن لكل يهودى فى العالم الحق فى أن يعود إلى البلاد بوصفه مهاجرًا . وتدفقت الهجرة إلى إسرائيل وبعد هزيمة ١٩٦٧م احتلت إسرائيل كل أرض فلسطين ومازالت ترفض الانسحاب منها رغم القرارات الدولية التى قضت بذلك وأهمها : قرارات صادرة من مجلس الأمن

بالانسحاب من الأراضى الفلسطينية المحتلة (٢٤٢ ، ٣٣٨ ، وقرارين جديدين عام ٢٠٠٢م هما ١٤٠٢ و ١٤٠٣) وضربت بها إسرائيل عرض الحائط بما فيها القرار الذى صدر أخيرًا بإقامة دولة فلسطينية، كما أنها لم تحترم الاتفاقات التى وقعت عليها ومنها اتفاقية كامب ديفيد الأولى والثانية ، اتفاقية مدريد ١٩٩١م ، اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣م، اتفاقية غزة وأريحا عام ١٩٩٤م ، اتفاقية واى ريفير فى واشنطن ١٩٩٨م ، تقرير لجنة ميتشيل ١٩٩٩م . بل إنها رفضت قبول لجنة تقصى حقائق فى أحداث جنين مما اضطر مجلس الأمن إلى إلغائها . وصاحب كل هذه الاتفاقات مراوغات وأعمال استفزازية لا حصر لها، آخرها دخول شارون فى حراسة ثلاثة آلاف جندى إسرائيلى المسجد الأقصى فى ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م وهو ما أدى إلى قيام الانتفاضة الثانية التى مازالت مستمرة حتى اليوم ، وفى ٢٩ مارس ٢٠٠٢م تبنى مؤتمر القمة العربى المنعقد فى بيروت مبادرة سعودية بالاعتراف بإسرائيل وتطبيع العلاقات معها من جميع الدول العربية مقابل انسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة والعودة إلى حدود ٤ يونيه ١٩٦٧م . وقابلت إسرائيل هذا العرض باجتياح أراضى السلطة الفلسطينية، واعتقال قيادات المقاومة، وهدم القرى والمدن، وحصار جنين، ثم دخولها، وهدم مبانيها على سكانها وقتلهم؛ فكانت مجزرة بشعة. وهى فى رفضها لتنفيذ القرارات الدولية بالانسحاب من الأراضى المحتلة وتمكين الفلسطينيين من ممارسة حق تقرير مصيرهم واستقلالهم تعتمد على وقوف أمريكا بجانبها تحميها عن طريق «الفيتو» فى مجلس الأمن ضد أى قرار يدين إسرائيل.

وتقع إسرائيل فى خطأ كبير إذا تصورت أنها قضت على رموز المقاومة الفلسطينية بالقتل أو الاعتقال مما يوهم بانتهاء أعمال الانتفاضة . فإن أعمالها الوحشية أججت نار العداء مع الشعب الفلسطينى بل والعالم العربى والإسلامى وجزء كبير من الرأى العام العالمى. فالدعاية القديمة التى كانت تصور إسرائيل بالحمل الوديع الذى تريد الدول العربية إلقاءه فى البحر تبين أنه وحش كاسر لا يقف فى وجهه شىء.

وإزاء فشل مجلس الأمن وعجزه عن تنفيذ قراراته بانسحاب إسرائيل من أراضى السلطة الفلسطينية والجلوس إلى مائدة المفاوضات لحل المشاكل المعلقة. فإن باب الالتجاء إلى الجمعية العامة لهيئة الأمم مازال مفتوحًا تحت بند «الاتحاد من أجل السلام» كما حدث فى الماضى فى مصر إبان العدوان الثلاثى وفى النزاع الكورى وغيرهما . وقد يقال بأن هذه الوسيلة لن تردع إسرائيل؛ لأنها لن تنفذ قرارات الجمعية العامة . ولذلك يرى فريق آخر ضرورة مواجهة الموقف مواجهة عسكرية ، غير أن هذا الرأى بعيد عن الواقع؛ لأن المواجهة العسكرية لن تكون مع إسرائيل بل مع أمريكا. ويرى فريق ثالث الإعداد من الآن لمقاضاة شارون وغيره من حكام إسرائيل أمام المحاكم الدولية؛ لأن ما ارتكبوه يكون جرائم حرب هى: إبادة جماعية ، جرائم ضد الإنسانية من قتل وتعذيب وسجن وتجويع واعتقال .. إلخ، جرائم حرب تشمل انتهاكات اتفاقيات جنيف ١٩٤٩م. وهذه المحاكمة قد تكون أمام المحكمة الجنائية الدولية التى ستدخل حيز الاستخدام اعتبارًا من أول يوليه ٢٠٠٢م، وقد تكون المحاكمة أمام محاكم وطنية يسمح قانون دولتها بذلك مثل بلجيكا ، وقد تكون المحاكمة أمام محكمة دولية مؤقتة كما حدث بالنسبة لرئيس جمهورية يوجوسلافيا «ميلوسوفيتش» السابق ، وهذه المحكمة تشكل بقرار من مجلس الأمن، ويمكن تجنب الفيتو الأمريكى باستصدار القرار من الجمعية العامة عملاً بنظام الاتحاد من أجل السلم. ويذهب بعض رجال السياسة إلى استعمال سلاح النفط بعد دراسة آثاره على الدول المنتجة ورد الفعل لدى الدول المستهلكة مع التمييز فى استعماله بين الدول المؤازرة لإسرائيل وغيرها من الدول. وقد يقتصر الأمر على إعادة توظيف عوائد النفط بعملة أخرى غير الدولار وفى بلاد غربية غير منحازة إلى إسرائيل. ويأتى قبل كل ذلك العمل على استمرار المقاومة الفلسطينية ومعاونتها بكل السبل بما فيها الأموال بصورة جادة ومنتظمة. وأخيرًا لابد من نشر الوعى بأهمية الدفاع عن الفلسطينيين فى الداخل والخارج واستغلال بوادر التحول فى الرأى العام العالمى لصالح الفلسطينيين الذى ظهر فى صورة المظاهرات العديدة فى سائر

بلدان العالم . وكذلك التعريف بالإسلام وأحكامه الصحيحة عن طريق مراكز الثقافة الإسلامية المنتشرة فى أوروبا وأمريكا سواء ما كان تابعًا لهذه الدول أم بجهود المسلمين بالخارج.

الجهاد فى الإسلام
دراسة تحليلية

الأستاذ الدكتور/ على جمعة
الأستاذ بجامعة الأزهر
مصر

يقول الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾[1].

إن هذا البيان القرآنى بإطاره الواسع الكبير، الذى يشمل المكان كله فلا يختص بمكان دون مكان، والزمان بأطواره المختلفة وأجياله المتعاقبة فلا يختص بزمان دون زمان، والحالات كلها سلمها وحربها فلا يختص بحالة دون حالة، والناس أجمعين مؤمنهم وكافرهم عربهم وعجمهم فلا يختص بفئة دون فئة، ـ ليجعل الإنسان مشدوها متأملاً فى عظمة التوصيف القرآنى لحقيقة نبوة سيد الأولين والآخرين ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ رحمة عامة شاملة، تجلت مظاهرها فى كل موقف لرسول الله ﷺ تجاه الكون والناس من حوله.

والجهاد فى الإسلام حرب مشروعة عند كل العقلاء من بنى البشر، وهى من أنقى أنواع الحروب من جميع الجهات:

١ - من ناحية الهدف.
٢ - من ناحية الأسلوب.
٣ - من ناحية الشروط والضوابط.
٤ - من ناحية الإنهاء والإيقاف.
٥ - من ناحية الآثار أو ما يترتب على هذه الحرب من نتائج.

وهذا الأمر واضح تمام الوضوح فى جانبى التنظير والتطبيق فى دين الإسلام وعند المسلمين، وبالرغم من الوضوح الشديد لهذه الحقيقة، إلا أن التعصب والتجاهل لحقيقة الدين الإسلامى الحنيف، والإصرار على جعله طرفاً فى صراع وموضوعاً للمحاربة، أحدث لبساً شديداً فى هذا المفهوم - مفهوم الجهاد- عند المسلمين، حتى شاع أن الإسلام قد انتشر بالسيف، وأنه يدعو إلى الحرب وإلى العنف، ويكفى فى الرد على هذه الحالة من الافتراء، ما أمر الله به من العدل والإنصاف، وعدم خلط الأوراق، والبحث عن الحقيقة كما هى، وعدم الافتراء على الآخرين، حيث قال سبحانه فى كتابه العزيز: **﴿لِمَ تَلبِسُونَ الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾**[٢].

ولقد فطن لبطلان هذا الادعاء كاتب غربى كبير هو «توماس كارليل،» حيث قال فى كتابه " الأبطال وعبادة البطولة "ما ترجمته: " إن اتهامه - أى سيدنا محمد ﷺ - بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم؛ إذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس، أو يستجيبوا له، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم، فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب من غيرهم قبل أن يقدروا عليها"[٣].

يقول المؤرخ الفرنسى «غوستاف لوبون» فى كتابه «حضارة العرب» ـ وهو يتحدث عن سر انتشار الإسلام فى عهده ﷺ وفى عصور الفتوحات من بعده: "قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة ...، ولم ينتشر القرآن إذن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التى قهرت العرب مؤخَّرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار فى الهند ـ التى لم يكن العرب فيها غير عابرى سبيل ـ ما زاد عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها ..... ولم يكن القرآن أقل انتشاراً فى الصين التى لم يفتح العرب أى جزء منها قط وسترى فى فصل آخر سرعة الدعوة فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونا فى الوقت الحاضر."[٤]

هذا وقد مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد كان نتاج هذه المرحلة أن دخل فى الإسلام خيار المسلمين من الأشراف وغيرهم، وكان الداخلون أغلبهم من الفقراء، ولم يكن لدى رسول الله ﷺ ثروة عظيمة يغرى بها هؤلاء الداخلين، لم يكن إلا الدعوة والدعوة وحدها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تحمَّل المسلمون - لاسيما الفقراء والعبيد ومن لا عصبية له منهم - من صنوف العذاب وألوان البلاء ما تعجز الجبال الرواسى عن تحمله، فما صرفهم ذلك عن دينهم، وما تزعزعت عقيدتهم، بل زادهم ذلك صلابة فى الحق، وصمدوا صمود الأبطال مع قلتهم وفقرهم، وما سمعنا أن أحداً منهم ارتدّ سخطاً عن دينه، أو أغرته مغريات المشركين فى النكوص عنه، وإنما كانوا كالذهب الإبريز لا تزيده النار إلا صفاء ونقاء، وسنتكلم هنا على الجانبين التنظيرى والتطبيقى، ونقصد بالتنظيرى ما ورد فى مصادر الإسلام (الكتاب والسنة)، ونعنى بالتطبيقى ما حدث عبر القرون ابتداء من الحروب التى شارك فيها النبى ﷺ، وانتهاء بعصرنا الحاضر، ثم نختم ببيان هذه النقاط الخمسة التى ذكرناها سابقاً.

أولاً : الجانب التنظيرى

ورد فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية آيات وأحاديث تبين شأن الجهاد فى الإسلام، ويرى المطالع لهذه الآيات والأحاديث، أن المجاهد فى سبيل الله، هو ذلك الفارس النبيل الأخلاقى المدرب على أخلاق الفروسية العالية الراقية؛ حتى يستطيع أن يمتثل إلى الأوامر والنواهى الربانية التى تأمره بضبط النفس قبل المعركة وأثناء المعركة وبعد المعركة، فقبل المعركة يجب عليه أن يحرر نفسه من كل الأطماع، وألا يخرج مقاتلا من أجل أى مصلحة شخصية، سواء كانت تلك المصلحة من أجل نفسه، أو من أجل الطائفة التى ينتمى إليها، أو من أجل أى عرض دنيوى آخر، وينبغى أن يتقيد بالشروط والضوابط التى أحل الله فيها

الجهاد، وأن يجعل ذلك لوجه الله تعالى، ومعنى هذا أنه سوف يلتزم بأوامر الله، ويستعد لإنهاء الحرب فوراً، إذا ما فقدت الحرب شرطاً من شروط حِلِّها أو سبباً من أسباب استمرارها، وسواء أكان ذلك الفارس منتصراً، أو أصابه الأذى من عدوه، فإن الله يأمره بضبط النفس، وعدم تركها للانتقام، والتأكيد على الالتزام بالمعانى العليا، وكذلك الحال بعد القتال، فإنه يجب عليه أن يجاهد نفسه الجهاد الأكبر؛ حتى لا يتحول الفارس المجاهد إلى شخص مؤذٍ لمجتمعه أو لجماعته أو للآخرين، وبالرغم من أن لفظة الجهاد إذا أطلقت انصرف الذهن إلى معنى القتال فى سبيل الله؛ إلا أن الرسول ﷺ قد أسماه بالجهاد الأصغر، وسمى الجهاد المستمر بعد القتال بالجهاد الأكبر؛ لأن القتال يستمر ساعات أو أيام، وما بعد القتال يستغرق عمر الإنسان كله.

وفيما يلى نورد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحدثت عن هذه القضية، ثم بعد ذلك نستخرج منها الأهداف والشروط والضوابط والأساليب، ونعرف منها متى تنتهى الحرب، والآثار المترتبة على ذلك:

أولا: القرآن الكريم:

١ - ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين * واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾(٥).

٢ - ﴿فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾(٦).

٣ - ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾(٧).

٤ - ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله

والفتنة أكبر من القتل﴾[٨].

٥ - ﴿وكأين من نَبِيّ قاتل معه رِبِّيُّون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾[٩].

٦ - ﴿ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾[١٠].

٧ - ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقُتِلُوا لأكفرن عنهم سيئاتهم﴾[١١].

٨ - ﴿فليقاتل فى سبيل الله الذين يَشْرُون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيُقتل أو يَغلِب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾[١٢].

٩ - ﴿وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾[١٣].

١٠ - ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾[١٤].

١١ - ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ❖ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾[١٥].

١٢ - ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾[١٦].

١٣ - ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾[١٧].

١٤ - ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس

ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط﴾[١٨].

١٥ - ﴿وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾[١٩].

١٦ - ﴿يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أُخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾[٢٠].

١٧ - ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ❁ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾[٢١].

١٨ - ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فَيَقتُلُون وَيُقتَلُونَ﴾[٢٢].

١٩ - ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلِمُوا وإن الله على نصرهم لقدير❁الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾[٢٣].

ثانيا : الأحاديث النبوية الشريفة:

١ - روى الترمذى فى سننه عن النعمان بن مقرن :**كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على جيش أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا وقال: اغزوا باسم الله وفى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تُمَثِّلوا، ولا تقتلوا وليدا، فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال؛ أيها أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم .. ادعهم إلى الإسلام والتحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم إن فعلوا ذلك فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، وإن أبوا أن يتحولوا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم ما يجرى على الأعراب، ليس لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا، فإن أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم، وإذا حاصرت حصنا فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه واجعل لهم ذمتك وذمم أصحابك،**

لأنكم إن تَخْفِروا ذمتكم وذمم أصحابكم خير من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلوهم، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا"(٢٤).

٢ - عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته إلا جهاد فى سبيله وتصديق كلمته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة»(٢٥).

٣ - عن وهب بن منبه، سألت جابراً عن شأن ثقيف إذ بايعت، قال: اشترطت على النبى ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد وأنه سمع النبى ﷺ بعد ذلك يقول: "سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا"(٢٦).

٤ - عن سعد بن زيد بن سعد الأشهلى أنه أهدى إلى رسول الله ﷺ سيفاً من نجران، فلما قدم عليه أعطاه محمد بن مسلمة وقال: "جاهد بهذا فى سبيل الله فإذا اختلفت أعناق الناس فاضرب به الحجر ثم ادخل بيتك، وكن حلساً ملقى حتى تقتلك يد خاطئة، أو تأتيك منية قاضية». قال الحاكم: فبهذه الأسباب وما جانسها كان اعتزال من اعتزل عن القتال مع على رضي الله عنه وقتال من قاتله"(٢٧).

٥ - عن سعيد بن جبير قال: "خرج علينا أو إلينا ابن عمر فقال رجل: كيف ترى فى قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدرى ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة، وليس كقتالكم على الملك"(٢٨).

٦ - عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: إنى أريد الجهاد فقال: أحىٌّ والداك؟ قال: نعم. قال: ففيهما"(٢٩).

ويتضح من هذه الآيات والأحاديث أن هدف الحرب فى الإسلام يتمثل فى الآتى:

١ - رد العدوان والدفاع عن النفس.

٢ - تأمين الدعوة إلى الله، وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها.

٣ - المطالبة بالحقوق السليبة.

٤ - نصرة الحق والعدل.

ويتضح لنا أيضا أن من شروط وضوابط الحرب:

١ - النبل والوضوح فى الوسيلة والهدف.

٢ - لا قتال إلا مع المقاتلين، ولا عدوان على المدنيين.

٣ - إذا جنحوا للسلم وانتهوا عن القتال فلا عدوان إلا على الظالمين.

٤ - المحافظة على الأسرى ومعاملتهم المعاملة الحسنة التى تليق بالإنسان.

٥ - المحافظة على البيئة، ويدخل فى ذلك النهى عن قتل الحيوان لغير مصلحة، وتحريق الأشجار، وإفساد الزروع والثمار، والمياه، وتلويث الآبار، وهدم البيوت.

٦ - المحافظة على الحرية الدينية لأصحاب الصوامع والرهبان وعدم التعرض لهم.

الآثار المترتبة على الجهاد

يتضح لنا مما سبق أن الجهاد فى الإسلام قد اتسم بنبل الغاية والوسيلة معا، فلا غرو أن تكون الآثار والثمار المتولدة عن هذا الجهاد متناسقة تماما فى هذا السياق من النبل والوضوح؛ لأن النتائج فرع عن المقدمات، ونلخص هذه الآثار فى النقاط التالية:

١ - تربية النفس على الشهامة والنجدة والفروسية.

٢ - إزالة الطواغيت الجاثمة فوق صدور الناس، وهو الشر الذى يؤدى إلى الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها.

٣ - إقرار العدل والحرية لجميع الناس مهما كانت عقائدهم.

٤ - تقديم القضايا العامة على المصلحة الشخصية.

٥ - تحقيق قوة ردع مناسبة لتأمين الناس فى أوطانهم.

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الحج:

﴿الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدِّمَت صوامع وبِيَع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾[٣٠].

قال الإمام القرطبى عند تفسيره لهذه الآية:

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ "أى لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء، لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بينته أرباب الديانات من مواضع العبادات، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة. فالجهاد أمر متقدم فى الأمم، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات؛ فكأنه قال: أُذن فى القتال، فليقاتل المؤمنون. ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله: **﴿ولولا دفع الله الناس﴾** الآية؛ أى لولا القتال والجهاد لتُغُلب على الحق فى كل أمة، فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه؛ إذ لولا القتال لما بقى الدين الذى يذب عنه. وأيضاً هذه المواضع التى اتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت لهذا المعنى؛ أى لولا هذا الدفع لهُدمت فى زمن موسى الكنائس، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع، وفى زمن محمد ﷺ المساجد. "لهُدِّمت" من هدمت البناء، أى نقضته فانهدم. قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل فى تأويل الآية[٣١].

ثانياً : الناحية التطبيقية

١ - حروب النبى ﷺ :

(أ) الحرب ظاهرة اجتماعية

الحرب ظاهرة إنسانية قديمة قدم الإنسان على ظهر هذه البسيطة، فمنذ

وجد الإنسان وهو يصارع ويحارب، وكعلاقة من العلاقات الاجتماعية الحتمية نشأت الحرب، فالاحتكاك بين البشر لابد وأن يولّد صداماً من نوع ما، لقد جبل الإنسان على غريزة التملك التى تدعوه إلى التشبث بما يملكه حيث إن هذه الغريزة هى التى تحفظ عليه البقاء فى الحياة، وهى بالتالى التى تتولد عنها غريزة المقاتلة فى أبسط صورها دفاعاً عن حقه فى الاستمرار والحياة، وقد تتعقد نفسية الإنسان وتصبح حاجاته ومتطلباته مركبة، فلا يقاتل طلباً للقوت أو دفاعاً عنه فقط، وإنما يقاتل طلباً للحرية ورفعاً للظلم واستردادا للكرامة. ويفصّل العلامة ابن خلدون هذه الحقيقة فى مقدمته فيقول: "اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة فى الخليقة منذ برأها الله، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض، ويتعصب لكل منها أهل عصبيته، فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان؛ إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع، كانت الحرب، وهو أمر طبيعى فى البشر، إما غيرة ومنافسة وإما عدواناً وإما غضباً لله ولدينه، وإما غضباً للملك وسعياً فى تمهيده"(٣٢).

(ب) الحرب فى الكتب المقدسة قبل الإسلام:

إذا ما تجاوزنا الأمم والحضارات البشرية، وتأملنا فى الكتب السماوية المقدسة (التوراة - الإنجيل)، نرى أن هذه الكتب المقدسة قد تجاوزت الأسباب المادية الغريزية التى يقاتل الإنسان من أجلها إلى أسباب أكثر رقيا وحضارة. فبعد أن كان الإنسان يقاتل رغبة فى امتلاك الطعام أو الأرض، أو رغبة فى الثأر الشخصى من الآخرين، أو حتى ردًا للعدوان، نرى أن الكتب المقدسة قد أضافت أسباباً أخرى، أسباباً إلهية تسمو بالبشرية عن الدنايا وظلم الآخرين، إلى بذل النفس؛ إقامة للعدل ونصرةً للمظلوم ومحاربةً للكفر والخروج عن منهج الله. لقد حددت الكتب السماوية المناهج والأطر التى يسمح فيها بإقامة القتال، وعبرت بالإنسان مرحلة بناء المجد الشخصى المؤسس على الأنا، إلى مرحلة التضحية من أجل المبادئ والمثل الإلهية العليا، التى تعمل فى إطار الجماعة البشرية لا فى محيط الفرد الواحد.

الحرب فى العهد القديم:

وردت أسباب الحرب فى ست وثلاثين موضعاً تقع فى ثمانية أسفار من أسفار العهد القديم هى: (التكوين - العدد - التثنية - يوشع - القضاة - صموئيل الأول - الملوك الثانى - حزقيال).

١ – ففى سفر العدد - الإصحاح الثالث عشر، ورد ما يفيد أن موسى عليه السلام بعد خروجه بقومه من مصر بعث رسلا يتحسسون أمر أرض كنعان - فلسطين - ليستقروا فيها:

" فساروا حتى أتوا موسى وهارون وكل جماعة بنى إسرائيل إلى برية فاران إلى قادش، وردوا إليهما خبرًا وإلى كل الجماعة، وأروهم ثمر الأرض، وأخبروه وقالوا: قد ذهبنا إلى الأرض التى أرسلتنا إليها وحقا إنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها، غير أن الشعب الساكن فى الأرض معتز، والمدن حصينة عظيمة جدًا وأيضا قد رأينا بنى عناق هناك"(٣٣).

٢ – وجاء فى سفر صموئيل الأول - الإصحاح الخامس والعشرون:

"فأجاب نابال عبيد داود وقال: من هو داود؟ ومن هو ابن يسى؟ قد كثر اليوم العبيد الذين يقحصون كل واحد من أمام سيده، أآخذ خبزى ومائى وذبيحى الذى ذبحت لجارى وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم ؟ فتحول غلمان داود إلى طريقهم ورجعوا وجاءوا وأخبروه حسب كل هذا الكلام، فقال داود لرجاله: ليتقلد كل واحد منكم سيفه، وتقلد داود سيفه وصعد وراء داود نحو أربعمائة رجل ومكث مائتان مع الأمتعة"(٣٤).

٣ – وفى سفر الملوك الثانى - الإصحاح الثالث:

"وكان ميشع ملك موآب الثانى صاحب مواش، فأدى لملك إسرائيل مائة ألف خروف ومائة ألف كبش بصوفها، وعند موت آخاب عصى ملك موآب على ملك إسرائيل، وخرج الملك يهورام فى ذلك اليوم من السامرة وعد كل إسرائيل، وذهب وأرسل إلى يهو شافاط ملك يهوذا يقول: قد عصى على ملك موآب، فهل تذهب معى إلى موآب للحرب؟"(٣٥).

٤ – جاء فى حزقيال ـ الإصحاح الواحد والعشرون:

"وكان إلى كلام الرب قائلا: يا ابن آدم اجعل وجهك نحو أورشليم، وتكلم على المقادس، وتنبأ على أرض إسرائيل، وقل لأرض إسرائيل: هكذا قال الرب، هاأناذا عليك وأستل سيفى من غمده، فأقطع منه الصديق والشرير، من حيث إنى أقطع منك الصديق والشرير، فلذلك يخرج سيفى من غمده على كل بشر من الجنوب إلى الشمال، فيعلم كل بشر أنى أنا الرب، سللت سيفى من غمده لا يرجع أيضاً"[٣٦].

٥ – وجاء فى سفر يوشع – الإصحاح الثالث والعشرون:

"وأنتم قد رأيتم كل ما عمل الرب إلهكم، هو المحارب عنكم، انظروا: قد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين ملكاً حسب أسباطكم من الأردن وجميع الشعوب التى قرضتها، والبحر العظيم نحو غروب الشمس، والرب إلهكم هو ينفيهم من أمامكم، ويطردهم من قدامكم فتملكون أرضهم كما كلمكم الرب إلهكم"[٣٧].

٦ – وجاء فى سفر القضاة – الإصحاح الأول:

"وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها، وضربوا بحد السيف، وأشعلوا المدينة بالنار، وبعد ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين سكان الجبل وسكان الجنوب والسهل".

٧ – وفى سفر القضاة – الإصحاح الثامن عشر:

"فأما هم فقد أخذوا ما صنع ميخا والكاهن الذى له، وجاءوا إلى لايش إلى شعب مستريح مطمئن فضربوهم بحد السيف، وأحرقوا المدينة بالنار، ولم يكن من ينقذ؛ لأنها بعيدة عن صيدون، ولم يكن لهم أمر مع إنسان ،وهى فى الوادى الذى لبيت رحوب، فبنوا المدينة وسكنوا بها، ودعوا اسم المدينة دان، باسم دان أبيهم، الذى ولد لإسرائيل، ولكن اسم المدينة أولا: لايش"[٣٨].

٨ – وفى صموئيل الأول – الإصحاح الرابع:

"وخرج إسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب، ونزلوا عند حجر المعونة، وأما الفلسطينيون فنزلوا فى أفيق، واصطف الفلسطينيون للقاء إسرائيل، واشتبكت

الحرب فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين، وضربوا من الصف فى الحقل نحو أربعة آلاف رجل"(٣٩).

٩ - وفى التكوين - الإصحاح الرابع والثلاثون:

"فحدث فى اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين أن ابنى يعقوب شمعون ولاوى أخوى دينة أخذ كل واحد منهما سيفه، وأتيا على المدينة بأمن، وقتلا كل ذكر وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف؛ لأنهم بخسوا أختهم، غنمهم وبقرهم، وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخذوه، وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما فى البيوت"(٤٠).

١٠ - وفى سفر التكوين - الإصحاح الرابع عشر:

"فلما سمع إبرام أن أخاه سُبى جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاث مائة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان ،وانقسم عليهم ليلاً هو وعبيده فكسرهم، وتبعهم إلى حوبة التى عن شمال دمشق، واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطاً أخاه - أيضاً -، وأملاكه والنساء - أيضاً - والشعب"(٤١).

١١ - وفى سفر العدد - الإصحاح الواحد والعشرون:

"فقال الرب لموسى لا تخف منه لأنى قد دفعته إلى يدك مع جميع قومه وأرضه، فتفعل به كما فعلت بسيحون ملك الأموريين الساكن فى حبشون، فضربوه وبنيه وجميع قومه، حتى لم يبق لهم شارد وملكوا أرضه"(٤٢)

١٢ - وفى سفر العدد - الإصحاح الخامس والعشرون:

"ثم كلم الرب موسى قائلا: ضايقوا المديانيين واضربوهم لأنهم ضايقوكم بمكايدهم التى كادوكم بها"(٤٣).

١٣ - وفى سفر العدد الإصحاح الثالث والثلاثون:

تطالعنا التوراة أن الله قد أمر موسى عليه السلام أن يشن حرباً على أقوام قد عبدوا غير الله سبحانه وتعالى "وكلم الرب موسى فى عربات موآب على أردن

أريحا قائلا: كلم بنى إسرائيل، وقل لهم: إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم، وتمحون جميع تصاويرهم، وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفعاتهم"[٤٤].

١٤ – وشبيه به ما ورد فى سفر صموئيل – الإصحاح السابع عشر : "فقال داود للفلسطينى: أنت تأتى إلى بسيف وبرمح وبترس، وأنا آتى إليك باسم رب الجنود، إله صفوف إسرائيل الذين عيرتهم ..... فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله لإسرائيل"[٤٥].

١٥ – وفى سفر صموئيل الأول – الإصحاح الثالث والعشرون:

"فذهب داود ورجاله إلى قعيلة وحارب الفلسطينيين، وساق مواشيهم، وضربهم ضربة عظيمة، وخلص داود سكان قعيلة"[٤٦].

١٦ – فى سفر المزامير – المزمور الثامن عشر:

يسبِّح داود الرب ويمجِّده لأنه يعطيه القوة على محاربة أعدائه: "الذى يعلم يدى القتال فتحنى بذراعى قوس من نحاس .... أتبع أعدائى فأدركهم ولا أرجع حتى أفنيهم، أسحقهم فلا يستطيعون القيام، يسقطون تحت رجلى، تمنطقنى بقوة للقتال، تصرع تحتى القائمين على، وتعطنى أقفية أعدائى ومبغضى، أفنيهم"[٤٧].

هذه بعض من حروب بنى إسرائيل التى سجلتها نصوص كتبهم وأسفارهم، فمفهوم الحرب والقتال ليس مفهوماً كريهاً من وجهة النظر التوراتية، وكأنها حروب مستمدة من الشريعة الدينية التوراتية، وكانت دائما تتم بمباركة الرب ومعونته، وكأن الرب ـ حسب تعبير التوراة – قد استل سيفه من غمده فلا يرجع[٤٨].

الحرب فى العهد الجديد:

كذلك نرى الإنجيل لم يهمل الكلام عن الحروب بالكلية، بل جاء نص واضح صريح، لا يحتمل التأويل ولا التحريف يقرر أن المسيحية على الرغم من وداعتها

وسماحتها التى تمثلت فى النص الشهير "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر" . إلا أنها تشير إلى أن السيد المسيح عليه السلام قد يحمل السيف ويخوض غمار القتال إذا دعته الظروف لذلك؛ فجاء فى الإنجيل على لسان السيد المسيح:

"لا تظنوا أنى جئت لأرسى سلاماً على الأرض، ما جئت لأرسى سلاماً، بل سيفاً، فإنى جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها، والكنة مع حماتها، وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته"(٤٩).

ولعلنا نلاحظ التشابه الكبير بين هذه المقولة وحديث الرسول ﷺ: "بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده" رواه أحمد وأبو داود.

مما سبق يتبين لنا واضحاً وجليا أن الحرب والقتال سنة كونية سرت فى الأمم جميعاً، ولم نر فى تاريخ الأمم أمة خلت من حروب وقتال، ورأينا من استعراض الكتب المقدسة ـ التوراة والإنجيل ـ أنه سنة شرعية لم تخل شريعة من الشرائع السماوية السابقة على الإسلام من تقريره والقيام به كما مر.

لقد كان هذا القدر كافيا فى إثبات أن محمداً ﷺ سائر على سنن من سبقه من الأنبياء، وأن الجهاد لتقرير الحق والعدل مما يمدح به الإسلام لا مما به يُشان، وأن ما هو جواب لهم فى تبرير هذه الحروب وسفك الدماء كان جواباً لنا فى مشروعية ما قام به النبى ﷺ من القتال والجهاد. ولنشرع الآن فى تتميم بقية جوانب البحث مما يزيل الشبهة ويقيم الحجة ويقطع الطريق على المشككين، فنتكلم عن غزوات النبى ﷺ ممهدين لذلك بالحالة التى كانت عليها الجزيرة العربية من حروب وقتال وسفك للدماء لأتفه الأسباب وأقلها شأناً، حتى يبدو للناظر أن القتال كان غريزة متأصلة فى نفوس هؤلاء لا تحتاج إلى قوة إقناع أو استنفار.

الحرب عند العرب قبل الإسلام :

سجلت كتب التاريخ والأدب العربى ما اشتهر وعرف بـ (أيام العرب) وهى عبارة عن مجموعة من الملاحم القتالية التى نشبت بين العرب قبل مبعث النبى

ﷺ، وليس يعنينا سرد هذه الملاحم وتفاصيلها، ولكن الذى يعنينا هنا أن نقف على بعض الجوانب التى تصلح للمقارنة (الأسباب - الزمن المستغرق - الآثار التى خلفتها هذه الحروب).

قال العلامة محمد أمين البغدادى : "اعلم أن الحروب الواقعة بين العرب فى الجاهلية أكثر من أن تحصر، ومنه عدة وقائع مشهورة لا يتسع هذا الموضع لذكرها، ولنذكر بعضاً منها على سبيل الإجمال"(٥٠).

وقد ذكرت كتب التواريخ أياماً كثيرة للعرب (البسوس - وداحس والغبراء - يوم النسار - يوم الجفار - يوم الفجار - يوم ذى قار - يوم شعب جبلة - يوم رحرحان ٠٠٠ إلخ) والمتأمل فى هذه الملاحم والأيام يرى أن :الحماسة الشديدة، والعصبية العمياء، وعدم الاكتراث بعواقب الأمور، والشجاعة المتهورة التى لا تتسم بالعقل، كانت هى الوقود المحرك لهذه الحروب، هذا فضلاً عن تفاهة الأسباب التى قامت من أجلها هذه المجازر، والمدة الزمانية الطويلة التى استمرت فى بعضها عشرات السنين، والآثار الرهيبة التى خلفتها هذه الحروب، وعلى الرغم من أننا لم نقف على إحصاء دقيق لما خلفته هذه الحروب إلا أن الكلمات التى قيلت فى وصف آثارها من الفناء والخراب وتيتم الأطفال وترمل النساء ٠٠٠ إلخ لتوقفنا على مدى ما أحدثته الحرب فى نفوس الناس من اليأس والشؤم، ويصف لنا الشاعر زهير بن أبى سلمى طرفاً من ذلك فى معلقته المشهورة وهو يخاطب الساعين للسلام بين عبس وذبيان :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما   تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

فهو يقول للساعين للسلام : إنكما بتحملكما ديات الحرب من مالكما، أنقذتما عبسًا وذبيان بعدما يئسوا، ودقوا بينهما عطر منشم، ومنشم هو اسم لامرأة كانت تبيع العطر يضرب بها المثل فى التشاؤم، دليل على عظم اليأس الذى أصاب نفوس الناس من انتهاء هذه الحرب(٥١).

هذه إطلالة سريعة ومختصرة على الحروب وأسبابها لدى العرب قبل الإسلام والآن نشرع فى الكلام على تشريع الجهاد فى الإسلام، ثم نتبع ذلك بتحليل موثق لغزوات النبى ﷺ.

الجهاد فى شرعة الإسلام :

لما استقر النبى ﷺ بالمدينة وأسس حكومته النبوية بها، بعد ثلاثة عشر عاماً من الدعوة إلى الله وتحمل الأذى والعذاب فى سبيل ذلك تخللتها ثلاث هجرات جماعية كبيرة - هاجت ثائرة قريش، وحقدوا على رسول الله ﷺ لما أحرزه من استقرار ونجاح لهذه الدولة الوليدة - دون ظلم أو استبداد أو سفك للدماء - ولذلك فقد كان ﷺ مقصوداً بالقتل، إذ ليس معقولاً أن تنام أعينهم على هذا التقدم والنمو، ومصالحهم قائمة على الزعامة الدينية فى جزيرة العرب، وهذه الدولة الجديدة قائمة على أساس دينى ربما يكون سبباً فى زوال هذه الزعامة الدينية الوثنية الموروثة. وإذا كان الإسلام ديناً بلغت الميول السلمية فيه مداها فى قوله تعالى ﴿**فاصفح عنهم وقل سلام**﴾ إلا أن الميول السلمية لا تتسع لمنع القائمين بهذا الدين الجديد من الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم الذى أنزله الله للإنسانية كافة، فى عالم يضيع فيه الحق والعدل إن لم يكن لهما قوة تحميهما، فكان لامناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذى يشهره خصومهم فى وجوههم، ولذلك كان التعبير بقوله تعالى : ﴿**أُذن للذين يُقَاتَلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ❁ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز**﴾[٥٢].

أقول: كان التعبير بالإذن الذى يدل على المنع قبل نزول الآية يدل على طروء القتال فى الإسلام، وأنه ظل ممنوعاً طيلة العهد المكى وبعضاً من العهد المدنى.

"هذا ولم يغفل الإسلام حتى فى هذا الموطن - موطن الدفاع عن النفس والدين - أن ينصح أتباعه بعدم العدوان؛ لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصدور، وهذا من مميزات الحكومة النبوية فإن القائم عليها من نبى يكون كالجرّاح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لاستئصاله، مع عدم المساس بالأعضاء السليمة، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله، والعالم كله فى نظر الحكومة النبوية شخص مريض تعمل لاستدامة وجوده سليماً قوياً .. إن

طبيعة هذا العالم مبنية على التدافع والتغالب ليس فيما بين الناس فحسب، ولكن فيما بينهم وبين الوجود المحيط بهم، وبين كل فرد والعوامل المتسلطة عليه من نفسه، ولا أظن أن قارئاً من قرائنا يجهل الناموس الذى اكتشفه دارون وروسل ولاس ودعوه ناموس تنازع البقاء، وبنوا عليه كل تطور أصاب الأنواع النباتية والحيوانية والإنسان أيضاً"[٥٣].

"ألم تر كيف تصدى خصوم الدين النصرانى للمسيح وما كان يدعو إلا للصلاح والسلام، حتى إنهم استصدروا أمراً بصلبه فنجاه الله منهم، وما زالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم حتى مضت ثلاثة قرون وهم مشردون فى الأرض لا تجمعهم جامعة، إلى أن حماهم من أعدائهم السيف على يد الأمبراطور قسطنطين الذى أعمل السيف فى الوثنيين من أعدائهم .. أفيريد مثيرو هذه الشبهة أن يقوم دين على غير السنن الطبيعية فى عالم مبنى على سنن التدافع والتنازع واستخدام القوة الحيوانية لطمس معالم الحق ودك صروح العدل".

يقول المعترضون : وماذا أعددتم من حُجة حين تُجمع الأمم على إبطال الحروب وحسم منازعاتها عن طريق التحكيم، وهذا قرآنكم يدعوكم إلى الجهاد ويحثكم على الاستبسال فيه؟".

نقول : أعددنا لهذا العهد قوله تعالى : **﴿وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾**[٥٤].

"هذه حكمة بالغة من القرآن، بل هذه معجزة من معجزاته الخالدة، وهى أدل دليل على أنه لم يشرع الحرب لذاتها، ولكن لأنها من عوامل الاجتماع التى لابد منها، ما دام الإنسان فى عقليته ونفسيته المأثورتين عنه، غير أنه لم ينف أن يحدث تطور عالمى يتفق فيه على إبطال الحرب فصرح بهذا الحكم قبل حدوثه ليكون حُجة لأهله من ناحية، وليدل على أنه لا يريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى، ولو كان يريدها لذاتها لما نوه لهذا الحكم"[٥٥].

ثانياً : نظرة تحليلية لغزوات النبى ﷺ :

إذا تتبعنا هذه الغزوات وقسمناها حسب الطوائف التى ضمتها، أمكننا التعرف على القبائل التى حدثت معها هذه المعارك وهى كالآتى :

١ - **قريش مكة** : وهى القبيلة التى ينتمى إليها النبى ﷺ، حيث إن قريشاً هو فهر بن مالك، وقيل النضر بن كنانة، وعلى كلا القولين فقريش جد للنبى ﷺ، وكانت معهم الغزوات : سيف البحر - الرابغ - ضرار - بواط - سفوان - ذو العشيرة - السويق - ذو قردة - أُحد - حمراء الأسد - بدر الآخرة - الأحزاب - سرية العيص - سرية عمرو بن أمية - الحديبية - سيف البحر الثانية ٨هـ - فتح مكة.

٢ - **قبيلة بنو غطفان وأنمار** : غطفان من مضر، قال السويدى : "بنو غطفان بطن من قيس بن عيلان بن مضر، قال فى العبر : وهم بطن متسع كثير الشعوب والبطون" (٥٦)، قال ابن حجر فى فتح البارى : "تميم وأسد وغطفان وهوازن جميعهم من مضر بالاتفاق"(٥٧)، أما أنمار فهم يشتركون فى نفس النسب مع غطفان، قال ابن حجر : "وسيأتى بعد باب أن أنمار فى قبائل منهم بطن من غطفان"(٥٨)، أى أن أنمار ينتسبون إلى مضر أيضاً ونسبهم كالتالى : أنمار بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر(٥٩).

والغزوات التى ضمتهما هى : قرقرة الكدر - ذى أمر - دومة الجندل - بنى المصطلق - الغابة - وادى القرى - سرية كرز بن جابر - ذات الرقاع - تربة - الميفعة - الخربة - سرية أبى قتادة - عبد الله بن حذافة(٦٠).

٣ - **بنو سُليم** : قال السويدى : "بضم السين المهملة قبيلة عظيمة من قيس عيلان والنسبة إليهم سُلَمى، وسليم من أولاد خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر(٦١)، والغزوات التى خاضها ﷺ مع بنى سُليم هى: بئر معونة - جموم - سرية أبى العوجاء - غزوة بنى ملوح وبنى سليم(٦٢).

٤ - **بنو ثعلبة** : ثعلبة هو ابن سعد بن ضبة بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر(٦٣)، نسبه الدكتور على الجندى إلى مرّ بن أدّ هكذا : ثعلبة بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر(٦٤)، والغزوات التى غزاها ﷺ معهم هى : غزوة ذى القصة - غزوة بنى ثعلبة - غزوة طرف - سرية الحسمى(٦٥).

٥ - **بنو فزارة وعذرة** : قال فى سبائك الذهب : "بنو فزارة بطن من ذبيان من غطفان، قال فى العبر : وكانت منازل فزارة بنجد ووادى القرى، ونسب

فزارة: فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر.

أما بنو عذرة : بنوه بطن من قضاعة، ونسبهم هكذا : عذرة بن سعد بن جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافى بن قضاعة[٦٦]. ونسبهم إلى قضاعة أيضاً الدكتور على الجندى معتمداً على أنساب ابن حزم هكذا : عذرة بن سعد بن أسلم بن عمران بن الحافى بن قضاعة[٦٧]، وعلى هذا فبنو عذرة ليسو من مضر وإنما كانوا موالين لبنى فزارة وهم من مضر. وكان معهم الغزوات والسرايا الآتية :

سرية أبى بكر الصديق ـ سرية فَدك ـ سرية بشير بن سعد ـ غزوة ذات أطلح[٦٨].

٦ - **بنو كلاب وبنو مرة** : أما بنو كلاب فهم : بنو كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر: وبنو مرة هم: أبناء كعب بن لؤى، فيكون كلاب بطن من مرة ، وهذه نفس سلسلة النسب التى ذكرها الدكتور على الجندى معتمداً على أنساب ابن حزم[٦٩]، والغزوات التى كانت معهم : غزوة قريظة ـ غزوة بنى كلاب ـ غزوة بنى مرة ـ سرية ضحاك[٧٠].

٧ - **عضل والقارة** : قال فى سبائك الذهب : "عضل بطن من بنى الهون من مضر"، ونسبهم هكذا : عضل بن الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وأما القارة فلم يذكرها السويدى فى السبائك ولا الدكتور الجندى، إلا أن الأستاذ الشيخ محمد الخضرى نسبها إلى خزيمة بن مدركة، وذكر الفارة بالفاء الموحدة لا بالقاف المثناة[٧١] وقد غزاهم النبى ﷺ غزوة واحدة هى: غزوة الرجيع[٧٢].

٨ - **بنو أسد** : قال السويدى : " بنو أسد حى من بنى خزيمة، ونسبهم هكذا: أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر[٧٣]، والغزوات التى غزاهم فيها رسول الله ﷺ هى : سرية قطن ـ سرية عمر مرزوق ـ غزوة ذات السلاسل[٧٤] .

٩ - **بنو ذكوان** : قال السويدى : " بنو ذكوان بطن من بهتة من سليم، وهم من الذين مكث النبى ﷺ شهراً يقنت فى الصلاة يدعو عليهم وعلى رعل[٧٥]،

ونسبهم هكذا : ذكوان بن بهتة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ـ الناس ـ بن مضر[٧٦]، ولم يغزهم رسول الله ﷺ إلا غزوة واحدة هى: غزوة بئر معونة.

١٠ - **بنو لحيان** : من المعروف أن بنى لحيان من هذيل، وهذيل هو : ابن مدركة بن إلياس بن مضر[٧٧]، وغزاهم النبى ﷺ غزوة واحدة هى:غزوة بنى لحيان[٧٨].

١١ - **بنو سعد بن بكر** : نسبهم : سعد بن بكر بن هوازن بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ـ الناس ـ بن مضر[٧٩]، وقد أرسل لهم النبى ﷺ سرية واحدة هى: سرية فدك.

١٢ - **بنو هوازن** : بنو هوازن بطن من قيس عيلان، ونسبهم هكذا : هوازن ابن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر[٨٠]، وقد غزاهم ﷺ غزوة ذات عرق.

١٣ - **بنو تميم** : بنو تميم بطن من طابخة، قال فى العبر : "وكانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمن، ونسبهم هكذا : تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر"[٨١].

١٤ - **بنو ثقيف** : بنو ثقيف بطن من هوازن اشتهروا باسم أبيهم ثقيف ، ونسبهم : ثقيف بن منبه بن بكر بن بهتة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ـ الناس ـ بن مضر[٨٢]، وقد غزاهم النبى ﷺ غزوتين هما: غزوة حنين ـ غزوة الطائف.

ونستطيع من خلال هذا التتبع أن نقول : إن هذه القبائل كانت جميعها تنتسب إلى مضر وهو جد النبى ﷺ أو من والاهم، وبالمعنى الأدق كانت نتيجة غضب إخوته من أجداده، أما اليهود فقد كانوا مع قريش حسب معاهدتهم معهم، وبذلك ظهر جلياً أن الغزوات والسرايا التى خاضها أو أرسلها النبى ﷺ، كانت موجهة فى نطاق ضيق هو نسل مضر، فلا يمكن أن يقال حينئذ : إن النبى ﷺ قد أشعل نار الحرب ضد العرب جميعاً، أو أنه خاض الحروب لإكراه الناس على اعتناق الإسلام، ولو كان الأمر كما يقولون لوقعت حرب عدوانية أو دفاعية ضد أى قبيلة من مئات القبائل العربية، وهذه الحقيقة تحتاج إلى مزيد من التعمق والتحليل فى بعض خصائص القبائل العربية؛ إذ قد يقول قائل أو يعترض

معترض : إن هذا الذى توصلنا إليه بالبحث ـ ألا وهو انحصار القتال مع المضريين ـ لم يحدث إلا اتفاقاً، والأمور الاتفاقية لا تدل على شىء ولا يستخرج منها قانون كلى نحكم به على جهاد النبى ﷺ، إذ كان من الممكن أن يقاتل النبى ﷺ ربيعة بدلاً من مضر، أو يقاتل ربيعة ومضر معاً، أو يقاتل القحطانية بدلاً من العدنانية، أو يقاتلهما معاً، وهكذا.

ذلك أن المتوقع أن تزيد الألفة والمودة بين أفراد وقبائل الجد الواحد لا أن تشتعل نار الحرب والقتال بينهم، فما الذى عكس هذا التوقع وقلب الأمر رأساً على عقب ؟!

وللإجابة على هذه الشبهة نقول :

كان من أشهر الأمثلة العربية المثل المشهور "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" وقد كان العرب يطبقون هذا المثل تطبيقاً حرفياً ـ دون هذا التعديل الذى أضافه الإسلام عليه ـ فكانوا ينصرون إخوانهم وبنى أعمامهم نصراً حقيقياً على كل حال: فى صوابهم وخطئهم، وعدلهم وظلمهم، وإذا دخلت قبيلتان منهم فى حلف كان لكل فرد من أفراد القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الأخرى، وهذا الحلف قد يعقده الأفراد، وقد يعقده رؤساء القبائل، والأمر واحد فى الحالين.

بينما هم كذلك فى بنى أبيهم وفى حلفائهم، إذ بك تراهم حينما تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضاً فى الشرف والثروة، فتجد القبائل التى يجمعها أب واحد، كل واحدة قد وقفت لأختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها، وترى العداء قد بلغ منها الدرجة التى لا تطاق، كما كان بين بطنى الأوس والخزرج، وبين عبس وذبيان، وبين بكر وتغلب ابنى وائل، وبين عبد شمس وهاشم ... إلخ، فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة، تزيدها العصبية حياة ونمواً، وكانت مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة؛ فكانت قواهم متفانية فى قتالهم وحروبهم ونزاعاتهم.

وقد علل الشيخ محمد الخضرى بك هذه الحقيقة العجيبة بأمرين :

الأمر الأول : التنافس فى مادة الحياة بين بنى الأب الواحد، إذ إن حياتهم كانت قائمة على المراعى التى يسيمون فيها أنعامهم، والمناهل التى منها يشربون.

الأمر الثانى : تنازع الشرف والرياسة، وأكثر ما يكون ذلك إذا مات أكبر

الإخوة وله ولد صالح لأن يكون موضع أبيه، فينازع أعمامه رياسة العشيرة ولا يسلم أحد منهما للآخر، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمراً فى نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء، وقد يبقيا متجاورين، وفى هذه الحالة يكون التنافر أشد، كما كان الحال بين الأوس والخزرج من المدينة، وبين هاشم وأمية من مكة، وبين عبس وذبيان من قيس، وبين بكر وتغلب من ربيعة. ومتى وجد النفور بين جماعتين أو بين شخصين لا يحتاج شبوب نار الحرب بينهما إلى أسباب قوية، بل إن أيسر النزاع كاف لنشوب نار الحرب وتيتم الأطفال وتأيم النساء؛ لذلك كانت الجزيرة العربية دائمة الحروب والمنازعات[٨٣].

هذه الحقيقة التى توصلنا إليها ـ وهى أن نار الحرب سريعة النشوب بين أبناء الأب أو الجد الواحد ـ تدعم ما توصلنا إليه من أن الحرب إنما كانت نتيجة غضب إخوته من أجداده، وإذا كان الخلاف محصوراً فى السببين السابقين، فأى سبب هو الذى أجج نار الغيرة والحقد على رسول الله ﷺ؟ هل السبب هو التنافس فى مادة الحياة الدنيا، أم الخوف من انتزاع الشرف والسيادة التى تؤول إلى النبى ﷺ إذا هم أذعنوا له بالرسالة والنبوة؟

أما عن السبب الأول فليس وارداً على الإطلاق؛ فلقد ضرب كفار مكة حصاراً تجويعياً على رسول الله ﷺ وعلى بنى هاشم وبنى عبد المطلب، فانحازوا إلى شعب أبى طالب ثلاث سنوات كاملة، عاشوا فيها الجوع والحرمان ما لا يخطر ببال، حتى إنهم من شدة الجوع قد أكلوا ورق الشجر، وكان يسمع من بعيد بكاء أطفالهم وأنين شيوخهم، ومع ذلك فقد التزم النبى ﷺ الصبر والثبات، ولم يأمر أصحابه أن يشنوا حرباً أو قتالاً لفك هذا الحصار، والخبير يعلم ما الذى يمكن أن يفعله الجوع بالنفس البشرية، إن لم يصحبها نور من وحى، أو ثبات من إيمان.

كان **السبب الثانى** إذن كفيلاً بإشعال هذه النار فى قلوب هؤلاء، وعلى حد تعبير الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى : " كان مقصوداً بالقتل من قريش، وليس يعقل أن تغمض قريش عينها، ومصلحتها الحيوية قائمة على زعامة الدين فى البلاد العربية، وعن قيام زعامة أخرى فى البلاد كيثرب تصبح منافساً لأم القرى، وربما بزها سلطاناً على العقول، وكَرَّ على قريش فأباد خضراءها، وسلبها حقها الموروث"[٨٤]، والذى يؤيد هذا ويقويه ذلك الحوار الذى دار بين الأخنس بن شريق وبين أبى جهل؛ إذ قال له الأخنس : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ ـ يعنى القرآن ـ فقال: ما سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف،

أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسى رهان قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك هذا؟! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه.

ليست الصدفة إذن ولا محض الاتفاق هما اللذان دفعا النبى ﷺ لقتال أبناء أجداده من مضر دون ربيعة أو غيرها من العرب، بل الطبيعة العربية المتوثبة دائماً، لمن ينازعها الشرف والسيادة من أبناء الأب الواحد - على ما بيناه آنفاً - كانت هى السبب الرئيسى لاشتعال هذه الحروب، ولولاها لما اضطر ﷺ للقتال بعد ثلاثة عشر عاماً من الدعوة والصبر، تخللها من المشاق والعنت ما الله به عليم، ومع ذلك فقد كان هجيراه - بأبى هو وأمى - " اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ".

وثمة أمر آخر ينبغى الإشارة إليه، يتعلق بالآثار الناجمة عن هذا القتال، من حيث أعداد القتلى التى نجمت عن هذه الغزوات والجدول الآتى يعطينا صورة بيانية عن هذه الآثار كالآتى(٨٥):

الغزوة	شهداء المسلمين	قتلى المشركين	الملاحظة
بدر	١٤	٧٠	
أحد	٧٠	٢٢	
الخندق	٦	٣	
بنو المصطلق		٣	
خيبر	١٩	-	لم يدخل اليهود فى هذه الإحصائية لأن لهم حكماً آخر بسبب خيانتهم، فهم قُتلوا بناء على حكم قضائى، لا بسبب الحرب.
مؤتة	١٤	١٤	
حنين	٤		
الطائف	١٢		
تبوك			
المجموع	١٣٩	١١٢	٢٥١ من الجانبين

وبعد .. فقد بدا للناظرين واضحًا وجليًا: أن الإسلام متمثلاً فى شخص رسول الله ﷺ أبعد ما يكون عن حمل الناس على اعتناق الإسلام بالسيف، وهو الذى قال ﷺ لأعدائه بعدما قدر عليهم : **"اذهبوا فأنتم الطلقاء"** هكذا دون شرط أو قيد، أقول: حتى دون اشتراط الإسلام.

والنتائج الحقيقية :

١ - تحويل العرب الوحوش إلى عرب متحضرين، والعرب الملحدين الوثنيين إلى عرب مسلمين موحدين.

٢ - القضاء على أحداث السلب والنهب، وتعزيز الأمن العام فى بلاد تفوق مساحتها مساحة فرنسا بضعفين.

٣ - إحلال الأخوة والروحانية محل العداوة والبغضاء.

٤ - إثبات الشورى مكان الاستبداد[٨٦].

هذا وقد وضع رسول الله ﷺ ضوابط وقيود كان من شأنها أن تحدد وظيفة الجهاد فى نشر الإسلام فى ربوع المعمورة، دون سفك للدماء ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

ومن هذه الضوابط قوله تعالى : **﴿وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾**[٨٧].

فإن كان بين المسلمين والكفار عهد أو أمان فلا يجوز للمسلمين الغدر حتى ينقضى الأمد، فإن خاف المسلمون من أعدائهم خيانة بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة، فحينئذ يخبرهم المسلمون أنه لا عهد بيننا وبينكم حتى يستوى علم المسلمين وعلم أعدائهم بذلك.

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة من الأعداء لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم، لأنه لم يخف منهم بل علم ذلك.

ودل مفهوم الآية أيضاً أنه إذا لم يخف منهم خيانة بأن يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته[٨٨].

انتشار الإسلام

(أ) معدلات انتشار الإسلام :

الذى يؤكد على الحقيقة التى توصلنا إليها - وهى أن انتشار الإسلام كان بالدعوة لا بالسيف -أن انتشار الإسلام فى الجزيرة العربية وخارجها، كان وفق معدلات متناسبة تماماً من الناحيتين الكمية والكيفية، مع التطور الطبيعى لحركة الدعوة الإسلامية، ولا يوجد فى هذه المعدلات نسب غير طبيعية أو طفرات تدل على عكس هذه الحقيقة، والجدول الآتى يوضح هذه النسب :

السنوات بالهجرى	فارس	العراق	سورية	مصر	الأندلس
نسبة المسلمين مع نهاية أول مائة عام	٥٪	٣٪	٢٪	٢٪	أقل من ١٪
السنوات التى صارت النسبة فيها ٢٥٪ من السكان	١٨٥	٢٢٥	٢٧٥	٢٧٥	٢٩٥
السنوات التى صارت النسبة فيها ٥٠٪ من السكان	٢٣٥	٢٨٠	٣٣٠	٣٣٠	٣٥٥
السنوات التى صارت النسبة فيها ٧٥٪ من السكان	٢٨٠	٣٢٠	٣٨٥	٣٨٥	٤٠٠

❖ حسبت السنوات منذ عام ١٣ قبل الهجرة عندما بدأ تنزيل القرآن الكريم.

وتوضح معلومات أخرى أن شعب شبه الجزيرة العربية كان الشعب الأول فى الدخول فى الإسلام، وقد أصبح معظمهم مسلمين فى العقود الأولى بعد تنزيل القرآن الكريم. وهكذا كان عدد العرب المسلمين يفوق عدد المسلمين من غير العرب فى البداية، ومهدوا الطريق للتثاقف الإسلامى والتعريب من أجل المسلمين غير العرب، ولم يمض وقت طويل على هؤلاء فى أصولهم من أديان ومذاهب متعددة من كل الأمم والحضارات السابقة، كان على هؤلاء جميعاً أن يوظفوا بشكل موحد عمليات توأمية للتقليد والابتكار فى وقت واحد وذلك حسب

خلفياتهم الأصلية تحت التأثير الثورى والمتحول الأكثر عمقاً للفكر الإسلامى ومؤسساته، وقاموا عن طريق عملية التنسيق المزدوجة بتنقية تراثهم من علوم وتكنولوجيا وفلسفات عصر ما قبل القرآن الكريم، وذلك إما بالقبول الجزئى أو الرفض الجزئى، وقاموا كذلك بالابتكار من خلال انطلاقهم من أنظمتهم الفكرية الحسية وتراثهم فى ضوء القرآن الكريم والسنة، ومن هنا ولدت العلوم الإسلامية والتكنولوجيا الإسلامية والحضارة الإسلامية الحديثة متناسبة مع الأيديولوجية والرؤية الإسلامية الشاملة"(٨٩).

خصائص ذلك الانتشار :

- عدم إبادة الشعوب.
- جعلوا العبيد حكاما.
- لم يفتحوا محاكم تفتيش.
- ظل اليهود والنصارى والهندوك فى بلادهم.
- تزاوجوا من أهل تلك البلاد، وبنوا أُسرا وعائلات على مر التاريخ.
- ظل إقليم الحجاز - مصدر الدعوة الإسلامية - فقيراً إلى عصر البترول، فى الوقت الذى كانت الدول الاستعمارية تجلب خيرات البلاد المستعمرة إلى مراكزها.
- تعرضت بلاد المسلمين لشتى أنواع الاعتداءات (الحروب الصليبية - الاستعباد فى غرب إفريقيا - إخراج المسلمين من ديارهم فى الأندلس، وتعذيب من بقى منهم فى محاكم التفتيش)

ونخلص من هذا كله إلى أن تاريخ المسلمين نظيف، وأنهم يطالبون خصومهم بالإنصاف والاعتذار، وأنهم لم يفعلوا شيئاً يستوجب ذلك الاعتذار حتى التاريخ المعاصر.

الهوامـــش

(١) سورة الأنبياء الآية: ١٠٧ .

(٢) سورة آل عمران الآية: ٧١ .

(٣) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ١٦٦، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٤) غوستاف لوبون، حضارة العرب ص ١٢٨، ١٢٩، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٥) سورة البقرة الآيتان: ١٩٠-١٩١ .

(٦) سورة البقرة الآيتان: ١٩٢، ١٩٣ .

(٧) سورة البقرة الآية: ٢١٦ .

(٨) سورة البقرة الآية: ٢١٧ .

(٩) سورة آل عمران الآية: ١٤٦ .

(١٠) سورة آل عمران الآية: ١٦٩ .

(١١) سورة آل عمران الآية: ١٩٥ .

(١٢)، (١٣) سورة النساء الآيتان: ٧٤ ، ٧٥.

(١٤) سورة النساء الآية : ٩٠ .

(١٥) سورة الأنفال الآيتان: ٧، ٨.

(١٦) سورة الأنفال الآية: ١٧ .

(١٧) سورة الأنفال الآية: ٣٩ .

(١٨) سورة الأنفال الآية: ٤٧ .

(١٩) سورة الأنفال الآية: ٦١ .

(٢٠) سورة الأنفال الآية: ٧٠ .

(٢١) سورة التوبة الآيتان: ٥، ٦ .

(٢٢) سورة التوبة الآية: ١١١ .

(٢٣) سورة الحج الآيتان: ٣٩، ٤٠ .

(٢٤) رواه الترمذى.

(٢٥) رواه مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله.

(٢٦) رواه أبو داود فى سننه ـ كتاب الخراج والإمارة والفئ ـ باب ما جاء فى خبر الطائف.

(٢٧) رواه الحاكم فى مستدركه ـ كتاب معرفة الصحابة رضى الله عنهم ـ ذكر إسلام أمير المؤمنين على رضى الله عنه.

(٢٨) رواه البخارى ـ كتاب التفسير ـ باب قول الله تعالى ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾.

(٢٩) مصنف عبد الرزاق ـ كتاب الجهاد ـ باب الرجل يغزو وأبوه كاره.

(٣٠) سورة الحج الآية: ٤٠ .

(٣١) القرطبى ج ١٢ تفسير سورة الحج.

(٣٢) تاريخ ابن خلدون ٢٢٦/١ فصل فى الحروب ومذاهب الأمم فى ترتيبها.

(٣٣) سفر العدد ـ الإصحاح الثالث عشر ـ الآيات ٢٦ : ٢٩ .

(٣٤) سفر صموئيل الأول ـ الإصحاح الخامس والعشرون – الآيات ١٠: ١٤ .

(٣٥) سفر الملوك الثانى ـ الإصحاح الثالث – الآيات ٤: ٨ .

(٣٦) سفر حزقيال ـ الإصحاح الواحد والعشرون – الآيات ١ : ٥ .

(٣٧) سفر يوشع ـ الإصحاح الثالث والعشرون ـ الآيات ٢ : ٥ .

(٣٨) سفر القضاة ـ الإصحاح الثامن عشر ـ الآيات ٢٧ : ٣٠.

(٣٩) سفر صموئيل الأول ـ الإصحاح الرابع – الآيات ١ : ٤.

(٤٠) سفر التكوين ـ الإصحاح الرابع والثلاثون ـ الآيات ٢٥ : ٢٩ .

(٤١) سفر التكوين ـ الإصحاح الرابع عشر ـ الآيات ١٤ : ١٦ .

(٤٢) سفر العدد ـ الإصحاح الواحد والعشرون – الآيات ٣٤ : ٣٥ .

(٤٣) سفر العدد ـ الإصحاح الخامس والعشرون – الآية ١٦ .

(٤٤) سفر العدد ـ الإصحاح الثالث والثلاثون – الآيات ٥٠ : ٥٣ .

(٤٥) سفر صموئيل ـ الإصحاح السابع عشر – الآيات ٤٥ : ٤٧.

(٤٦) سفر صموئيل الأول ـ الإصحاح الثالث والعشرون – الآية ٦ .

(٤٧) سفر المزامير ـ المزمور الثامن عشر – الآيات ٣٥ : ٤١ .

(٤٨) حزقيال ـ الإصحاح الواحد والعشرون ـ آية ٥ .

(٤٩) إنجيل متى – الإصحاح العاشر- الآيات ٣٤ : ٣٦.

(٥٠) سبائك الذهب ٤٤٣ .

(٥١) شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٨٣ ، ط مصطفى الحلبي.

(٥٢) سورة الحج الآيتان: ٣٩ ، ٤٠ .

(٥٣) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة لمحمد فريد وجدى ص ١٦٣ ، ١٦٤ بتصرف.

(٥٤) سورة الأنفال الآية: ٦١ .

(٥٥) السيرة النبوية لمحمد فريد وجدى ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٥٦) سبائك الذهب ص ١٢٠ ط دار الكتب العلمية، موسوعة القبائل العربية لمحمد سليمان الطيب ٥١/١ ط. دار الفكر العربي.

(٥٧) فتح البارى ٥٤٣/٦ - دار المعرفة ـ بيروت.

(٥٨) فتح البارى ٤٢٤/٧ .

(٥٩) تاريخ الأدب الجاهلى د/على الجندى ص ٤٧٢ .

(٦٠) رحمة للعالمين للمنصور فورى ص ٤٦٢ .

(٦١) فى تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٧٣ .

(٦٢) رحمة للعالمين للمنصور فورى ص ٤٦٢ .

(٦٣) سبائك الذهب ص ٨ .

(٦٤) تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٧٠ .

(٦٥) رحمة للعالمين للمنصور فورى ص ٤٦٢ .

(٦٦) سبائك الذهب ٨٧ .

(٦٧) تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٦٦ .

(٦٨) رحمة للعالمين للمنصور فورى ص ٤٦٣ .

(٦٩) سبائك الذهب ٢٩٥ ، تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٦٧ .

(٧٠) رحمة للعالمين ص ٤٦٣ .

(٧١) تاريخ الدولة الأموية للشيخ محمد الخضرى ص ١٥٦ .

(٧٢) رحمة للعالمين ص ٤٦٣ .

(٧٣) سبائك الذهب ص ٢٥٦، تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٦٧ .

(٧٤) رحمة للعالمين ص ٤٦٣ .

(٧٥) سبائك الذهب ص ١٢٧ .

(٧٦) سبائك الذهب ص ١٢٦ .

(٧٧) تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٦٧ .

(٧٨) رحمة للعالمين ص ٤٦٣ .

(٧٩) سبائك الذهب ص ١٤٨، تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٧٣ .

(٨٠) سبائك الذهب ص ١٢٤، تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٧٣ .

(٨١) سبائك الذهب ص ٨٥، ٨٦، تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٧٠ .

(٨٢) سبائك الذهب ص ١٤٧، ١٤٨، تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٧٣ .

(٨٣) تاريخ الدولة الأموية للشيخ محمد الخضرى بك ص ٣٢، ٣٣، ط دار القلم، بيروت.

(٨٤) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، الأستاذ محمد فريد وجدى ص ١٦٢، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٨٥) اعتمدنا الجدول الذى ذكره الأستاذ أحمد شلبى فى كتابه «الإسلام والقتال» ص ١٢ ط الهيئة العامة للكتاب.

(٨٦) رحمة للعالمين ص ٤٦٩ .

(٨٧) سورة الأنفال الآية : ٥٨ .

(٨٨) تفسير ابن كثير ٣٢١/٢ .

(٨٩) الفكر الإسلامى فى تطوير مصادر المياه والطاقة، د/ سيد وقار أحمد الحسينى. عالم زائر فى جامعة ستانفورد ٧١ : ٧٥، ترجمة د/ سمية زكريا زيتونى طبعة : فصلت للدراسات والترجمة والنشر.

Conversion of ISLAM and emaergence of a Muslim Society in IRAN, Richard W. bulliet. Meier & ed. Nehemia Levtzion (New York Holmes) (publ., Inc, 1979) Pp. 30-51,p31 for fig fig 1.1.

الجهاد فى الإسلام

سماحة آية الله
الشيخ / عبد الأمير قبلان
نائب رئيس المجلس الإسلامى الشيعى الأعلى
المفتى الجعفرى الممتاز فى الجمهورية اللبنانية

يسعدنا أن نتشرف لمشاركتكم فى هذا المؤتمر الإسلامى الكبير، الذى تعبِّرون فيه عن اهتمامكم البالغ بقضايا الإسلام والمسلمين، وإنها إضافة جديدة تقدمها وزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والتى تصب فى خدمة الدعوة الإسلامية، حيث تواجه الأمة الإسلامية قضايا مصيرية إثر المعطيات الكثيرة والمتتابعة التى طرأت على العالم، وتفرض على نموذجنا الإسلامى أن يتنبه لها وأن يسلط الأضواء عليها، ويبين بالحجة والبرهان على سماحة الإسلام وانفتاحه وتواصله، لأنه دين العالمية والسلام والتسامح ونبذ العنف، وإذ تتولى مصر عقد هذه المؤتمرات من منطلق المسئولية، ومن أجل جمع المسلمين على كلمة سواء، للانطلاق نحو تحقيق الأهداف المرجوة لكل ما يعود بالخير على الإسلام والمسلمين.

مقدمة :

إن الروح الإنسانية التى انطوت عليها الناحية الدينية والأخلاقية فى الإسلام، سَرَتْ أيضاً إلى الناحية القانونية بجميع فروعها، وتجلت فى أحكامها كافة،

وشيدت فى مجموع هذه النواحى بناءً متيناً متماسكاً فى جميع أجزائه، فلا يمكن تقديره من ناحية واحدة فحسب، بل ينبغى تقديمه ككل مترابط لا يتجزأ.

وإذا كانت هناك مغالطات فى فهم الإسلام لاعتباره فى غالبه قانون حرب، غير أن النصوص الشرعية المعوّل عليها وحدها تؤيد العكس، وهو أن الإسلام يعتبر السلام قاعدة أساسية فى نظامه التشريعى، وأن هذه النصوص لم تتناول أحكام الحرب إلا فى الأحوال الاستثنائية، التى تعد فيها الحرب مشروعة، فلا يمكن من ثمَّ أى عمل أو تصرف مخالف ـ على فرض وقوعه ـ أن يبطل مثل هذه النصوص المقدسة والصريحة. وتوضيحاً لذلك فإن كلمة الإسلام بالذات مشتقة من نفس الجذْر الذى اشتقت منه كلمات السلم والسلام والسلامة، وقد صُوِّرت هداية الإسلام فى القرآن الكريم، بأنها تُخرج المؤمنين من ظلمات الجاهلية إلى نور الحق، وتهديهم إلى طريق السلام، كما ورد فى الآيات الكريمة **﴿يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾**(١) والسلام من أسماء الله الحسنى، وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم **﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾**(٢) وتكرر هذا الاسم فى الدعاء النبوى «**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**». وعبارة «السلام عليكم» هى التحية اليومية الشائعة بين العرب والمسلمين، وهى من أحسن تحيات الأمم، لتضمنها السلامة التى لا حياة ولا فلاح إلا بها. فهى الأصل المقدم على كل شىء، ثم إن رد التحية واجب دينى وأخلاقى، عملاً بالآية القرآنية الكريمة **﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شىء حسيباً﴾**(٣) وكان النبى ﷺ فى كتبه التى وجهها إلى الملوك الأجانب ليدعوهم إلى الإسلام، يخاطبهم بقوله: «**سلام على من اتبع الهدى**». وكذلك سميت الجنة «بدار السلام» فى أكثر من آية كريمة **﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾**(٤) **﴿لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾**(٥).

ومن الأهمية أن نشير إلى أن كلمة السلام وردت فى أكثر من مائة آية من آيات القرآن الكريم، على حين أن كلمة الحرب ومشتقاتها، لم تُذكر إلا فى ستة

آيات، وهذا دليل على أن السلم والسلامة والسلام من صميم الإسلام، بحسب النصوص المقدسة، وأدلته الشرعية، ومقاصده السامية، وتعاليمه الحقيقية، وتقاليده الثابتة، وأن الحرب وهو كُره، كُتب لحالات استثنائية **﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾**(٦).

الإسلام إذن ينطوى على معنى السلام، ثم إن تعاليمه الأساسية تشجّع السلام، وتحض عليه، ومن هذه التعاليم: المساواة الإنسانية، والتسامح الدينى، والأخوة الشاملة، والمجادلة بالحسنى، والتعاون على البر، وتجنب البغى والعدوان. لكن دعوة السلم هذه لا تسالم العدوان والبغى. والإسلام إذ يضع الحدود الفاصلة بين الحرب المشروعة جهاداً فى سبيل الله والحق، ودفعاً للظلم وغضباً لحرمات لا يجوز أن تستباح **﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير• الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾**(٧) والقرآن يوضح لأمته منهج سلوكها فى الحرب والسلم، برفض البغى والعدوان.

تحديد المفاهيم:

الجهاد . لغة: على وزن فعال، مأخوذ من الجُهد بالضم، بمعنى الطاقة والجَهد بالفتح بمعنى التعب والمشقة. فتحمل المشقة، وبذل الطاقة، والجُهد فى أى مجال، يُطلق عليه لغة الجهاد.

الجهاد . شرعاً: لقد اعتمد الشرع الإطلاق فى النصوص الدينية، فجاءت كلمة الجهاد ضمن المعنى اللغوى العام، الذى هو بذل الوسع، وتحمل المشقة فى سبيل شيء ما. وورد لفظ الجهاد ومشتقاته فى حوالى الأربعين آية، ومنها قوله تعالى: **﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾**(٨) **﴿وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾**(٩) وفى نصوص عديدة أطلق الجهاد على جوانب مختلفة من أعمال البر، فجاءت كلمة الجهاد تشمل عناوين كثيرة من السعى، فهى تبدأ من جهاد النفس، وهو الجهاد الأكبر، إلى التطوع للقتال فى سبيل الله، وتستمر مع السعى الدائب لإقامة الحق، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والكفاح ضد الظلم والعدوان. وضمن هذا السياق، كان اعتبار القتال فى سبيل الله، والمشاركة فيه بالمال والنفس، جهاداً لما يمثله من أبهى صور البذل وتحمل المشاق.

إذن، الجهاد بمعناه العام الشامل، هو بذل الجُهد والطاقة، وتحمل العناء والمشقة فى سبيل الله بالدفاع عن المبادئ والقيم، ولخدمة مصالح الأمة وحماية الحرية الدينية، **﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾**[١٠].

القتـال:

إن غالبية الآيات والأحاديث التى تتحدث عن الجهاد، تتجه إلى هذا النوع من الجهاد، الذى يقوم على عناوين كثيرة ذكرناها آنفاً، أما لفظ القتال وما يتعلق به فقد جاء وروده فى سياق الرد على عدوان المعتدين، درءاً للمفاسد وتوطيداً لمصالح المسلمين. وإن هذا الأمر جاء مقترناً بالنهى، وهو ما يشهد عليه قوله تعالى: **﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾**[١١] فإن مضمون هذه الآية يتفق مع ما نزل فى القرآن فى الإذن للمسلمين بالقتال، وبذلك يكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد ذكر فى تعليل إذنه للقتال الأمور التالية، وهى: كونهم مظلومين، معتدى عليهم فى أنفسهم، مخرجين نفياً من أوطانهم وأموالهم لأجل دينهم وإيمانهم، وهو ما يستهدف فى النهاية، أنه لا يجوز مقابلة الاعتداء إلا بمثله، وفقاً للنص القرآنى **﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾**[١٢] **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾**[١٣] فدفع الاعتداء عن المسلمين وديارهم وأموالهم حق طبيعى تعترف به وتقره الأعراف البشرية والقوانين الدولية فى الماضى والحاضر، لأنه دفاع محض ضد العدوان. فالقتال فرض وواجب على المسلمين عند توفر سببه ومسوغاته وغايته، ولا يشترط وقوع الاعتداء فعلاً، بل يكفى معرفة تصميم العدو للقيام بعدوان، لأن نية الشروع تكون موجودة، وهى الاستعداد للقتال. وقد قال الإمام على رَضِيَ الله عَنْهُ: «فوالله ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا». وفى هذه الحالة، تكون صفة العدوان موجودة، ولأن الدعوة إلى الإسلام حق، وصون حرية التبليغ بهذا الدين أمر واجب شرعاً، فإذا حيل بين التبليغ وجموع البشر وجب تحقيق ذلك بما يستدعى من تأمين الحرية للناس ليكونوا أحراراً فى اعتناق الإسلام **﴿وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم**

أهلها﴾[١٤]. وبذلك تتأكد حالة الحرب الاستثنائية التى تعتبر محرمة وغير مشروعة، إلا ضمن مسوغات وهى:

حماية الحرية الدينية: أى الحرب الوقائية التى تكون بإنذار أو بدونه، حتى تصل إلى دفع العدوان، وهى الحرب الدفاعية، ومحاربة الظلم وإقامة العدل وحماية النظام ومنع الفتنة **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾**[١٥] فالحرب إذا كانت ظاهرة شنيعة ومفجعة، فقد حددتها الآيات المتعلقة بها فى إطار يلزمها، وضمن مسوغات تؤكد عليها عندما تكون لازمة وضرورية لدفع العدوان والظلم **﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾**[١٦]. فالقتال هنا ـ وفق مصاديقه التى ذكرناها ـ يعتبر شعبة من شعب الجهاد، وهو فرض واجب على كل مسلم، بدليل الآية القرآنية **﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله﴾**[١٧]. وقد رتب الفقهاء ذلك فى مواضع منها: دخول العدو ديار الوطن، أو التقاء الزحفين وتقابل الصفين أو استنفار الإمام الجيش نفيرًا عاماً للذود عن بيضة الإسلام **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله﴾**[١٨].

العنف:

يُعرِّفُ ابن منظور العنف بأنه: «الخرق بالأمر وقلة الرفق به وهو ضد الرفق»، ويُعَرِّفه أبو هلال العسكرى بأنه: «التشديد فى التوصل إلى المطلوب»، وتعرِّفه موسوعة علم النفس بأن: «مصطلح العنف هو السلوك المشوب بالقسوة والعدوان والقهر والإكراه، وهو عادة سلوك بعيد عن التحضر والتمدن تستثمر الدوافع والطاقات العدوانية استثماراً صريحاً بدائياً، كالضرب والتقتيل للأفراد، والتدمير للممتلكات، واستخدام القوة لإكراه الخصم وقهره. ويمكن أن يكون العنف فردياً يصدر عن فرد واحد، كما يمكن أن يكون جماعياً يصدر عن جماعة أو هيئة أو مؤسسة تستخدم جماعات وأعداداً كبيرة على نحو ما يحدث فى التظاهرات السلمية التى تتحول إلى عنف وتدمير واعتداء، أو استخدام الشرطة للعنف فى فض التظاهرات والإضرابات. إنما نجد على النقيض الكامل لمصطلح

العنف مصطلح اللاعنف، الذى هو سلوك لا يمكن فصله عن القدرة الداخلية والروحية المتحكمة بالذات، وهى الطريقة التى يعالج بها الإنسان الأشياء بكل لين ورفق.

إن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، لا أصل له فى الإسلام، هناك قاعدة الأهم والمهم، وكلما دار الأمر بين ضررين، قدّموا الأخف على الأكثر، وذلك بخلاف الغاية تبرر الوسيلة التى تقدم الغاية مهما كلف الأمر. وقد خلت سور القرآن الكريم من لفظة العنف ومشتقاتها. ومن خلال المعنى اللغوى، فإن العنف لا يعدو أن يكون صورة من الشدة التى تخالف الرفق، وهو لا يعنى القتل أو الفتك بالأرواح أو ما شابهه، وإن رافقته بعض صنوف الضرب والشتم، ولكنه طريق للوصول إلى كل ذلك، فتكرار العنف أو شدته قد يؤدى إلى أعمال العنف الكبيرة، كالقتل وغيره، مما يحتويه مفهوم الإرهاب حديثاً. ولأن الفطرة الإنسانية تحارب العمل العنفى، فقد ظهرت المقاومة للعنف بكل أشكاله، وولد مصطلح اللاعنف، الذى يعنى أن يعالج الإنسان الأشياء سواءً أكانت بناءً أو هدماً بكل لين ورفق حتى لا يتأذى من هذا العلاج.

والمسلمون كانوا على رأس المقاومين للعنف، بدليل ما ورد فى القرآن الكريم من دعوة إلى السلام، والتسامح، والعفو، والمجادلة بالتى هى أحسن، ونبذ التعصب والتعسف، وهذا دليل على مناداة الإسلام باللاعنف. فالأديان كلها قامت على مبدأ السلم والأخوة بين البشرية ونبذ العنف، وإن منطق الرسل والأنبياء كان منطق السلم واللاعنف، والاحتجاج بالعقل من أجل إنقاذ البشرية، حيث يقول القرآن الكريم: **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾**(١٩).

الإرهاب:

الإسلام دين السماحة والرحمة، وقد جاء للناس كافة **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**(٢٠) يرفض العدوان والعنف والإرهاب بكل صوره وأشكاله،

ويرفض العدوان على المسلمين وغير المسلمين، ويحترم النفس الإنسانية ويصونها ويحميها من أى عدوان.

وفى قراءة للفظة إرهاب فى لغتنا العربية، وفق دلالاتها المعجمية، فهى مصدر الفعل «أرهب» ولمادة هذا الجذر فى لغتنا أصلان، أحدهما يدل على الخوف، والثانى على الدقة والخفة. وقد ورد استعماله فى القرآن الكريم حيث قال الله تعالى: **﴿لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله﴾**[٢١] وكذلك فى قوله: **﴿فإياى فارهبون﴾**[٢٢]. ونخلص من هذا إلى أن الإرهاب فى المعجم العربى والاستعمال القرآنى يعنى: الخوف، وهو الظاهرة النفسية المعروفة التى تصيب الإنسان لأسباب، والإخافة هى إثارة الخوف فى نفوس الغير، والآيات القرآنية الكريمة تركزت على مخافة الله - تعالى - فى بعضها الأول، واقتصرت فى بعضها الثانى على إخافة عدو الله وعدو المسلمين عن طريق إعداد القوة والطاقة والاقتدار، فى الآية القرآنية **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾**[٢٣]. فالخطاب فى الآية الكريمة موجه إلى المسلمين عامة، ويفاد منه أن الإعداد مطلوب من الدولة والأمة معاً، بمستوى يحقق إخافة العدو، ويجعل فى نفوس أعداء الإسلام والمسلمين أشد الرهبة. فالإرهاب الوارد فى الآية الكريمة، هو معنى الرهبة من خلال إعداد القوة العسكرية التى تحقق للمسلمين الحضور المتميز عالميا، وتدخل الخوف فى نفوس أعداء الإسلام والمسلمين، الذين يريدون الكيد والعدوان.

أما ما هو متعارف عليه اليوم من كلمة إرهاب ومنظمات إرهابية، فهو منتشر فى جميع أنحاء العالم وفق ما تذيعه وسائل الإعلام العالمية من استخدام وسائل العنف كالخطف والقتل والتعذيب والتخريب وما شاكلها، وهذه مشكلة دولية بكل معنى الكلمة، تتركز خطورتها فى احتلالها لدور هام فى الصراع السياسى. وفى عصرنا الحاضر أصبحت الكلمة تدل على استخدام العنف لهدف سياسى.

الجهاد وصوره:

لقد ورد معنى الجهاد فى القرآن الكريم بكثير من المعانى منها جهاد المحارب للحق والباغى المذكور فى قوله تعالى: **﴿فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله﴾**(٢٤) ومنها جهاد النفس الأمارة بالسوء **﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها﴾**(٢٥) فإن محاولة كبحها وقمعها وكبت سيطرتها جهاد بل هو أعظم الجهاد، وفى الرواية أن النبى ﷺ بعث بسرية فلما رجعوا قال: «**مرحبا بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقى عليهم الجهاد الأكبر**»، **فقيل: «يا رسول الله ما الجهاد الأكبر؟» قال: «جهاد النفس».**

والجهاد فى سبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾**(٢٦) والجهاد للدفاع عن الدين وصد شبهات الكفار والملحدين وتنوير من كان منصفاً منهم وهدايته إلى الصراط المستقيم.

ومن هنا اصطلح الفقهاء على جهاد الأعداء بالجهاد الأصغر، وعلى جهاد النفس بالجهاد الأكبر.

وعن فضيل بن عياض قال: «سألت أبا عبد الله رضي الله عنه عن الجهاد أسنة هو أم فريضة؟» فقال: «الجهاد على أربعة أوجه: فجهادان فرض، وجهاد سُنَّة لا تقام إلا مع الفرض، وجهاد سُنة، فأما أحد الفرضين فمجاهدة الرجل نفسه عن معاصى الله ـ عز وجل ـ وهو من أعظم الجهاد، ومجاهدة الذين يلونكم من الكفار فرض، وأما الجهاد الذى هو سُنة لا يقام إلا مع فرض فهو مجاهدة العدو؛ لأن مجاهدة العدو فرض على جميع الأمة ولو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب، وهذا هو من عذاب الأمة، وهو سُنة على الإمام وحده أن يأتى العدو مع الأمة فيجاهدهم، وأما الجهاد الذى هو سُنة فكل سُنة أقامها الرجل وجاهد فى إقامتها وبلوغها وإحيائها، فالعمل والسعى فيها من أفضل الأعمال؛ لأنها إحياء سنة، وقد قال رسول الله ﷺ: **«مَن سنَ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شىء».**

الإرهاب وصوره فى تاريخ الأديان والحضارات:

إن تاريخ عبارة «إرهاب» لا يتعدى فى بدئه نهاية القرن الثامن عشر، فهى عندما ظهرت كان ظهورها نتيجة طويلة ومشحونة بالقلاقل والأحداث المختلفة وبالأفكار والعقائد أدى تفاعلها كلها إلى بروز العبارة هذه والتى راحت تكتسب مضمونًا سياسياً واضح المعالم على عدة مراحل فكرية، بحيث يمكننا استخراج هذه المراحل فى تكامل مدلولها:

المرحلة الأولى، حيث لم تكن العبارة تدل بعد على أى معنى سياسى، والمرحلة الثانية، حيث أخذت تظهر بعض الملامح السياسية فى استعمالها، والمرحلة الثالثة حيث اتضح فيها المعنى السياسى؛ ومن ذلك نفهم عدم وجود تعريف موحد وشامل للإرهاب حتى أصبح التعريف بحد ذاته مشكلة تصعب على الحل إذ إنه من العسير التوصل إلى تحديد مجرد للإرهاب دون إدخال عناصر خارجية عليه تتمثل فى الآراء المتداولة حوله.

وإذا كان هناك من تعاريف فإنها تظل ضيقة فى أفقها لأنها تفتقد للشرعية العالمية، وهذه الشرعيةُ لن تتأتى إلا عبر الإحساس العالمى أجمع بضرورة توحيد المصطلح، وبالتالى يسهل تعبيد الطريق لمحاربة كل أشكال الإرهاب، وإن كان ذلك يتطلب فى الوقت الحاضر الكيفية لمقاومة الإرهاب. والواقع أنه سبق للجمعية العمومية للأمم المتحدة أن أصدرت فى العام ١٩٩٤ إعلانها الشهير حول مكافحة الإرهاب الدولى، وطالبت الدول المعنية بالتزام كل التوصيات التى أوردها هذا الإعلان، ومع أن هذا الإعلان لم يعرف الإرهاب الدولى تعريفاً محدداً، إلا أنه أورد على سبيل التوضيح فى مضامين اثنتى عشرة معاهدة دولية تحديداً لأنواع من الإرهاب الدولى تتعلق بجرائم القراصنة، وخطف الطائرات، والجرائم المرتكبة بحق الدبلوماسيين والموظفين الدوليين وأخذ الرهائن وجرائم التعذيب والتخريب.

إن مسألة تعريف الإرهاب ضرورية وملحة، لأنها تمكن الهيئات الدولية من اعتماد مرجعية قانونية موحدة ـ من جهة ـ كما تمكن الدول من الالتزام القانونى الموحد وغير خاضع لمصالح أى دولة من الدول ـ من جهة ثانية ـ إلا أن غياب هذا التعريف أو تغييبه لأسباب سياسية إقليمية معروفة يجب أن لا يمنع الدول المعنية من التركيز فى سياق عملها الدبلوماسى على حالات أخرى حرص القانون الدولى على اعتمادها. ومن هذه الحالات:

أن القــانون الدولى يحظر نوعين من الإرهاب الدولى، إرهاب الأفــراد لدى قيامهم أو ارتكابهم جريمة حرب، أو جريمة ضد الإنسانية أو جريمة إبادة أو جريمة عدوان، وإرهاب الدولة الذى يمكن أن يحدث عندما ترفض الدولة التزام المعاهدات الدولية المتعلقة بوجوب محاربة الإرهاب الدولى.

والقانون الدولى يميز من جهة ثانية بين الإرهاب والمقاومة، وهو بقدر حرصه على تجريم إرهاب الأفراد والدول، يحرص أيضاً على تشريع المقاومة الوطنية لحالتى تقرير المصير ومقاومة الاحتلال. ونجد أيضاً أن ميثاق الأمم المتحدة بالذات شرع المقاومة، وركَّز على ضرورة ممارسة الحق فى تقرير المصير من دون أى عائق أو مانع. وهناك قرارات الجمعية العمومية للأمم المتحدة منذ الستينات، تؤكد على هذا الحق وتدعو كل الدول إلى احترامه وعدم التعرض لمنعه، وإن الشعوب المناضلة من أجل التوصل إلى ممارسة حقها فى تقرير مصيرها، ودحر الاحتلال، يمكن أن تستعين بكل الوسائل بما فيها العنف المسلح من أجل هذه الغاية. وبذلك باتت ممارسة حق المقاومة ضد الاحتلال الذى يجب أن يميز عن الإرهاب هو من مبادئ وميثاق الأمم المتحدة، وتحكمه أيضاً اتفاقية جنيف الرابعة لعام ١٩٤٩ من حيث حماية المدنيين الواقعين تحت الاحتلال، وهكذا يميز القانون الدولى بين الإرهاب والمقاومة.

وخير تأكيد على ذلك، ما قدمته المقاومة الإسلامية المباركة فى جنوب لبنان من عنفوان وصمود فى دحر العدو الإسرائيلى عن أرضنا اللبنانية، وهى ستبقى خزاناً لكل طالب حق مغتصبة أرضه، ومنارة لكل الأحرار فى العالم الحر بأن يستلهم منها الدروس والعبر.

الدفاع المشروع:

إن المبرر لقيام حق الدفاع الشرعى هو اتقاء الخطر، حفظاً للمعصوم من نفس أو عرض أو مال، فليس حق الدفاع إلا سلطة وقائية.

وجاء فى أكثر النصوص الفقهية، أن للإنسان الحق فى مقاومة المعتدى على نفسه، أو ماله مع ظن السلامة، وإنه إذا قتل المعتدى فلا شىء عليه، كما إنه لو قُتل دون ذلك كان له أجر الشهداء. وأكدت هذا المبدأ المرويات عن النبى ﷺ، ومنها قوله ﷺ: **«من قُتل دون أهله وماله فهو شهيد»**.

إذاً، للإنسان أن يدافع عن نفسه وماله، ويجب اعتماد الأسهل. فلو اندفع الخصم فى الصياح اختصر عليه، وإن كان فى موضع يلحقه المنجد، وإن لم يندفع عول على اليد فإن لم تغن فالعصا، فإن لم يكف فالسلاح، ويذهب دم المدفوع هدرًا جرحاً كان أو قتلاً، ويستوى فى ذلك الحر والعبد. ولو قتل الدَّافعُ كان شهيدًا، ولا يبدأه ما لم يعلم قصده إليه، وله دفعه مادام مقبلاً. ويتعين الكف مع إدباره لاندفاع ضرره.

إذا كان للمدافع أن يمارس حقه فى الدفاع بالدفع فحسب، لأن حق الدفاع سلطة وقائية فهل له أن يقصد القتل؟! اتفق فقهاء الشافعية والمالكية والإمامية على أن الدفاع يقصد لمنع العدوان، ودرء الأذى، ولو أدى إلى القتل. إلا أنه ليس للمدافع أن يباشر القتل، أو يقصده ابتداءً بحجة الدفاع، لأنه ملزم بمراعاة التدرج، ولكنه يملك حق الدفاع، ولو أدى إلى قتل المعتدى إذا توقف الدفع عليه. فالاتفاق بين الفقهاء وارد على وجوب مراعاة الترتيب فى مقام الدفاع، بحيث لو كان فى الإمكان دفع المعتدى باليد أو العصا لا يسوغ دفعه بالسلاح القاتل المؤدى إلى جرحه أو قتله، فلو تجاوز، فكسر عضوًا من أعضائه، أو جنى على حياته يكون ضامناً ومسئولاً عن جنايته. كما أن المعتدى إذا فرَّ، فليس لمن كان هدفاً لعدوانه أن يتتبعه، وإذا ضربه فقطع يمينه وولى مدبرًا فضربه وقطع رجله وأحد أعضائه يكون مسئولاً وضامناً لجنايته، لأنه قد تجاوز حقه على حد تعبيرهم.

ولأن إباحة فعل الدفاع مشروطة بتوافر شروط الدفاع الشرعى، ومنها التناسب بين فعل الدفاع والخطر الذى هدد المعتدى عليه، وبانتفاء هذا التناسب يعود المجال للقول بإباحة الأفعال المدافعة، إذ إن إجماع فقهاء المذاهب منعقد على أن إباحة الدفاع إنما هى لدفع الخطر، بمعنى أنه سلطة وقائية، وإذا كان الأمر كذلك، فلا يباح من فعل المدافع إلا القدر الضرورى الذى يحقق الدفع، وما زاد عن هذا القدر لم يكن ضروريًا، لاندفاع الخطر لما دونه شدة، فهو لم يقم بدور الوقاية من الخطر ومن ثم فلا مسوغ لإباحته، ومجمل القول أن الإسلام لم يرخص بأى حال من الأحوال أن تعرض كرامة الإنسان للتحدى والعدوان، بل طلب منه أن يدافع عنها بكل إمكانياته حتى إذا قتل كان مع الأبرار والشهداء والصالحين.

خاتمـــة:

الكل يعرف الإرهاب ولا أحد يريد أن يُعرِّفه، فالإرهاب الذى يتحدث عنه الغرب ويضخم من صورته وخطورته، ليس سوى تغطية وتعمية مقصودة لإرهاب الكيان الصهيونى الأول فى العالم، الذى اقتلع شعباً بكامله من أرضه واحتلها وأباد مئات الألوف منها، ولايزال هذا الكيان الغاصب يرفض تطبيق القرارات الدولية فى فلسطين، ويُمعن فى تقتيل الأطفال والشيوخ والنساء وتشريد من تبقى من أبناء شعب فلسطين ضمن مخططات منظمة، وجرائم وحشية، يهتز لها الضمير الإنسانى، وتدينها شرعية حقوق الإنسان والمواثيق الدولية والقانون الدولى. وعلى الولايات المتحدة الأمريكية، إزاء ما يجرى فى فلسطين، أن تقوم بتغيير جذرى فى سياستها والكف عن الكيل بمكيالين والتوقف عن دعم الإرهاب الصهيونى فى تلك الأرض المقدسة.

إن دماء الأبرياء فى فلسطين تستغيث، لا من أجل وقف إرهاب الكيان الإسرائيلى فحسب، وإنما من أجل تحالف دولى يعيد لأصحاب الأرض حقوقهم ويؤمن لهم السلام الحقيقى.

إن الإسلام حارب الإرهاب بكل أشكاله وصوره، ولم تشرَّع الحرب فى الإسلام إلا لضرورة الدفاع عن النفس وردّ العدوان، لأنه يرفض الاعتداء على المسلمين وعلى غير المسلمين، وإن إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام دعوة ظالمة. وإننا ندعو الغرب ومؤسساته إلى قراءة هذا الدين دين السماحة والرحمة وحقوق الإنسان فى كل زمان ومكان، وكانت تعاليمه مبعث أعظم حضارة عرفتها البشرية، وإن كان هناك من مأزق يعيشه العالم الغربى، فإنه فى مأزق مع ذاته من خلال ذلك التناقض الغريب بين مبادئ تؤمن بالديمقراطية لتوفير العدالة الاجتماعية، وبين سلوك أنانى يعتمد الربح والمنفعة دون اكتراث بحقوق الغير، سوى الضغط عليهم واستغلالهم، فالديمقراطية عنده تنسلخ عن بعدها الإنسانى والحقوقى والأخلاقى لتحقق غايات مصلحية. ولخروج العالم الغربى من مأزقه، عليه الرجوع إلى أخلاق الإنسان الفطرية التى استقر عليها الضمير البشرى، وآمن بها العقلاء المنصفون؛ لأن الابتعاد عنها هو اتجاه نحو الهاوية. وهناك مأزق الديمقراطية المعاصرة، الذى

يتمثل فى إشكالياتها الأخلاقية، وعدم التقيد بالقواسم المشتركة التى تحفظ التوازن العالمى عبر مفهوم العدالة للجميع واحترام خصوصية كل ثقافة.

إن اجتماعنا اليوم فى مصر العروبة والإسلام، بلد الأزهر الشريف، ومشاركتنا مع تلك النخبة المتميزة من العلماء والمفكرين والباحثين وصانعى القرار، يجعلنا ننظر بأمل كبير إلى المستقبل وإلى فعالية هذه المؤتمرات، لما ستتخذه من مقررات وتوصيات ومن إجابات. ولا يجوز أن يغيب عن أذهاننا ما يجرى فى فلسطين، فلسطين القدس المحتلة التى يحاصرها الاحتلال والتهويد لبترها عن جذورها الإسلامية المزروعة فى أعماق التاريخ، فالأمة مطالبة اليوم بالتكاتف والعمل من أجل نصرة شعب فلسطين، شعب الانتفاضة الأبىّ.

نسأل الله لمؤتمركم التوفيق والسداد، وللأمة الإسلامية الأمن والسلام، وأن يرتفع نداء الله أكبر على مآذن المسجد الأقصى المبارك.

نسأل الله أن يوفقنا جميعاً إلى ما يحب ويرضى، وأن يجمعنا دائماً على طاعته، وأن يجعل هذه المؤتمرات خالصة لوجهه الكريم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الهوامش

١ ـ سورة المائدة آية ١٦.

٢ ـ سورة الحشر آية ٢٣.

٣ ـ سورة النساء آية ٨٦.

٤ ـ سورة يونس آية ٢٥.

٥ ـ سورة الأنعام آية ١٢٧.

٦ ـ سورة البقرة آية ٢١٦.

٧ ـ سورة الحج آية ٣٩ ـ ٤٠.

٨ ـ سورة التوبة آية ٧٩.

٩ ـ سورة لقمان آية ١٥.

١٠. سورة الفرقان آية ٥٢.

١١. سورة البقرة آية ١٩٠.

١٢. سورة النحل آية ١٢٦.

١٣. سورة البقرة آية ١٩٤.

١٤. سورة النساء آية ٧٥.

١٥. سورة الحجرات آية ٩.

١٦. سورة محمد آية ٣٥.

١٧. سورة التوبة آية ٤١.

١٨. سورة التوبة آية ١١١.

١٩. سورة آل عمران آية ١٥٩.

٢٠. سورة الأنبياء آية ١٠٧.

٢١. سورة الحشر آية ١٣.

٢٢. سورة النحل آية ٥١.

٢٣. سورة الأنفال آية ٦٠.

٢٤. سورة الحجرات الآية ٩.

٢٥. سورة الشمس آية ٧ ـ ٨.

٢٦. سورة آل عمران آية ١٠٤.

الجهاد
«مقاصده وضوابطه»

السيد/ على بن السيد عبد الرحمن الهاشمى
مستشار الشئون القضائية والدينية
دولة الإمارات العربية المتحدة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للناس أجمعين، بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وقد جاهد فى الله حق جهاده، فأخرج الناس بدعوة الحق من الظلمات إلى النور، وهداهم إلى صراط مستقيم، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسيمًا كثيرًا، ورضى الله عن جميع الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد،،،

مقدمة:

لقد عنيت مؤتمرات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية السابقة بجوانب من الحياة الإسلامية والإنسانية: اجتماعية، واقتصادية وتشريعية، وفكرية، وقد أثمرت - بحمد الله وتمام توفيقه - وآتت أكلها، إلا أن هذا المؤتمر له من الخصوصية حيث يعقد فى ظروف حرجة وغير مسبوقة، بسبب امتداد العدوان الصهيونى على جوانب عديدة من بلاد العروبة والإسلام، وقد ساندته فى حملته الغاشمة قوى غبية باطشة، وقد صدق من قال: بأن ما يسمى بالحملة على الإرهاب ما هو إلا تعبيد الطريق أمام عدوان إسرائيلى غاشم على الأرض المقدسة فى فلسطين، وعلى أهلها من عرب ومسلمين، ثم تلك الحملة ما هى إلا

توطئة لحرب ظالمة على بلاد المسلمين، ومحاربة للإسلام وقيمه الرفيعة.

ومن هنا فإنه على العالَم أجمع أن يعى أن الأمة العربية والإسلامية عندما تخوض حربًا أو قتالًا فإنها لا تخوضها دفاعًا عن مقدسات إسلامية فحسب، ولكن عن قيم إنسانية رفيعة تحاول الصهيونية العالمية أن تدوسها وتحطِّمها بمعاول وآليات متطورة مكَّنتها منها دول لم تدرك حركة التاريخ، وإن أدركت فإنها لا تملك القدر الكافى من الوعى الذى بمقتضاه ترى بعين الواقع والحقيقة أن العرب والمسلمين إنما يدافعون - أيضًا - عن مقدسات دينية مسيحية قد صانها المسلمون فى الأرض المباركة، وفى مختلف البقاع عبر القرون، يلتقى فيها العابدون فيجدون الأمن والسلام.

مفهوم الجهاد:

قد يرد على بعض الأذهان أن انتشار الإسلام كان بالسيف والقتال، ويتشدق هذا النفر من أهل الاستشراق، ومن بعض المسلمين أن تلك حقيقة تاريخية مفروغ منها.

ولا نجرد بعض هؤلاء من حُسْن النية عند كتابتهم عن الإسلام، وخاصة الغربيين منهم، ولكن حسن النية - إن توفر - لا يعفيهم من حسن الفهم والنفاذ إلى حقائق التاريخ، والفقه فى الدين لتصحيح الأقاويل التى يشيعونها عن فريضة (الجهاد) فى الإسلام.

فإن الذين لم يحسنوا فهم (الحقائق) يحسبون أن الإسلام يوجب القتال الدائم على المسلم، كما يوجب الصلاة والصيام وسائر الشعائر المفروضة.

وحقيقة الأمر أن الأساس الأخلاقى الذى قامت عليه فريضة (الجهاد) بمفهومه الإسلامى يستقيم مع كل أساس سليم لكل اعتقاد قويم.

وهذه الأسس والقواعد الإسلامية فى (مفهوم الجهاد) تشمل مبادئ المساواة بين الأجناس الإنسانية أمام الله، وتقرر أواصر الأخوة العالمية بين جميع البشر، بغير نظر إلى العنصر أو اللون أو الدين، من حيث الدفاع عن المستضعفين، وحمايتهم ممن يعتدون عليهم، وإغاثة المعوزين والمحرومين، وبذل الحياة نفسها فى سبيل هداية الناس إلى الطريق المستقيم، وهذا فيه من الإيثار ومكارم الأخلاق مما يعد مثالاً يحتذى.

كما أن التفصيلات السياسية لم تشغل فى يوم من الأيام أذهان المسلمين، فقد

اختط المسلمون سياسة تسود فيها آداب العقيدة الإسلامية، والتى هى مكارم الأخلاق التى جاء بها رسل الله وأنبياؤه لمن سبق من الأمم، وهذه المكارم الأخلاقية تقوم على العدل الاجتماعى، والحكم السمح الرفيق مع المخالف حتى فى العقيدة، والمستجيب لحاجات الأمة وضرورياتها.

وقد أجمع أهل العلم على أن (الجهاد بمفهومه الذى ذكرناه) وبوجه عام هو مبدأ من مبادئ الإسلام التى أخذت مكانتها بين عقائده وفروعه.

وقد استقرت دعوة القرآن الكريم إلى الجهاد على عمومه متعلقة بذمة المسلمين جماعة وأفراداً، وتقتضيهم هذه الذمة أن يؤمنوا بتشريع الجهاد (عامة) كإيمانهم بأى معتقد ثابتة صحته، وأن يقوموا بتنفيذه كما فرضه الله، وبمقاصده وضوابطه المشروعة.

وقد ورد لفظ (الجهاد) فى القرآن الكريم ثلاثين مرة، وورد كثيرًا بلفظ القتال (المرادف له) وكلاهما يرد أحياناً مقروناً (بسبيل الله).

ومثالاً على ذلك قوله تبارك وتعالى: **﴿الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله..﴾** (النساء: ٧٦).

وقوله: **﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله..﴾** (الأنفال : ٧٢).

وكذلك ورد كل من اللفظين غير مقيد بلفظ (فى سبيل الله) فقال عز سلطانه: **﴿كُتِبَ عليكم القتال وهو كُره لكم..﴾** (البقرة: ٢١٦).

وقوله: **﴿وفَضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾** (النساء:٩٥).

أما لفظ (فى سبيل الله) فقد ورد ذكره فى الآيات، أربعًا وخمسين مرة، وقد يرد سؤال: مامعنى فى سبيل الله؟.

جمع من المفسرين اشتهر عندهم أن لفظ (سبيل الله) هو مخصوص (بجهاد الكفار) فكلما ورد لفظ (فى سبيل الله) فمعناه الجهاد (ضد الكفر وأهله) ومقاتلتهم لإعلاء كلمة الله.

ولكن بالنظر المتأنى نجد هذه الكلمة (فى سبيل الله) فى بعض مواقعها من القرآن الكريم، ظاهرة فى التعميم ولا تختص (بقتال الكفار)، وربما كان السياق ناطقا بهذا التعميم، والسياق له حكمه المطاع فى توجيه العبارات القرآنية وغيرها.

وعلى هذا يكون لفظ (فى سبيل الله) غير مقصور على قتال العدو لإعلاء كلمة الله، وإن كان هذا المعنى فى مقدمة المعانى التى تراد من هذا اللفظ.

إذن فألوان الجهاد كثيرة، وأبرزها الجهاد بالنفس، والجهاد بالمال، وبكل ما تتطلبه موجبات العقيدة والوطن فى السلم والحرب.

الجهاد
ليس عنفاً ولا إكراهاً للدخول فى الإسلام

لقد كان القتال غير مأذون فيه، فلما أن تكررت غارات البغى والعدوان على المسلمين، أذن الله - تبارك وتعالى - لرسوله والمسلمين بقتال المشركين وأعداء الدين.

وفى الأزمان الأولى كان الجهاد باللسان والحجة، وبالمعجزات وخوارق العادات، كان ذلك بين الأنبياء وأتباعهم، وبين الكافرين المناوئين لهم.

يقول عز سلطانه: **﴿وكأيِّن من نَبِىٍّ قاتل معه رِبِّيُّون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضَعُفُوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾** (آل عمران: ١٤٦).

ولكن لا يزال حتى اليوم ينسب أعداء الإسلام إليه أنه قاتل الناس ليكرههم على الدخول فيه. مع أن الجهاد فى الإسلام ليس بدعًا جديدًا ولا شذوذًا عن سنن التناحر والتدافع بين أهل الحق وأهل الباطل فى كل زمان ومكان.

الإسلام يحارب العنف والإرهاب

إن الإسلام سلك بدعوته (منذ اليوم الأول للبعثة النبوية الشريفة) سبيل التفاهم، وأمر أتباعه بأن يتذرعوا بالصبر والحلم طويلًا كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

إلا أنه أباح القتال والدفاع إذا لم يجد المسلمون موقفًا كريمًا سوى المقاومة - بضوابطها المشروعة - لدفع الطغيان والصلف الباغى كما نرى اليوم على أرض فلسطين الغالية: أرض النبوات، ومهبط الوحى الإلهى المقدس، ومنتهى إسراء ومبتدأ معراج الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الملأ الأعلى.

ولو كان الإسلام يقر (مبدأ العنف) فى دعوته، ما شرعت الجزية وهى مبلغ رمزى زهيد من مال القادرين ممن يريدون البقاء على دينهم من اليهود والنصارى، ولا أجاز الحلف مع أعدائه المشركين، ومن ثم معاهدتهم على ترك

الحرب، والدخول فى سلم معهم.

ولكن الإسلام قد شرع كل ذلك رغبة فى السلام وإيمانًا بما يحققه الأمن والاستقرار من حياة كريمة للجميع، فى ظل العدل والمساواة والأخوة الإنسانية، ولما يحدثه العنف من فتن وترويع للآمنين، مما يؤدى إلى القضاء على الحياة الحرة الكريمة.

لقد مكن الإسلام (غير المسلمين) من أن يضعوا عن أنفسهم أعباء الحروب وويلاتها، ويطرحوا من أذهانهم أسباب الخصومة بتفاهم ودى وأخوى مع المسلمين على ما يتفقون عليه من معاهدات تكون رحيمة بالجانبين، فيقول جل وعلا: **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾** (الأنفال : ٦١).

فإن وجهة الإسلام مع خصومه تحتمها الآية الكريمة فى قوله تعالى: **﴿لا إكراه فى الدين ...﴾** (البقرة: ٢٥٦).

هذه آية كريمة وصريحة تقرر نزاهة الإسلام عن الإكراه، بل تقرر نزاهة الديانات السماوية الصحيحة كلها عن شائبة الإكراه للناس على الدخول فى دين الله.

وقد تأكد نفى الإكراه فى آية أخرى، إذ كان النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يرغب فى هداية الناس جميعا، وكان يحزن على تخلفهم عن دعوته حتى يظن (قصار العقول منهم) أن هذا الحرص منه إلحاح فى الدعوة أو إكراه على الإقتناع، فالله تعالى يصرف رسوله عن هذا الحزن وينفى عنه شبهة الإكراه بقوله تعالى: **﴿ولو شاء ربك لآمن مَنْ فى الأرض كلهم جميعًا أفأنت تُكْرِهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾** (يونس : ٩٩).

والمعنى لا تحزن عليهم، فإن إيمانهم منوط بمشيئة الله لا بمجرد إقناعك، وإنك تواصل دعوتك الرحيمة بهم، وأنت لا تستطيع إكراه الناس على الإيمان، فالاستفهام إنكارى فى قوله تعالى: **﴿أفأنت تُكْرِهُ الناس﴾**.. والإنكار نفى، يعنى: أنت لا تكره الناس كما يزعم الزاعمون.

والذى ننتهى إليه فى غير ما مشاحة ولا نزاع فى الحق، أن الإسلام برىء من تهمة الإكراه، وإن وجهة الإسلام لواضحة لكثير من علماء أهل الكتاب، ومنهم من يقبلون عليه تباعاً مطمئنين إلى حقيقته، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

ولا يزال الإسلام هاتفًا بالناس جميعًا أن يبتعدوا عن عداوته، وأن يستجيبوا لدعوته، وهو يفتح باب التفاهم والمسالمة على احترام عقيدته وشريعته، وصيانة كرامته، وطرح المظالم التى تحيف بأهله أو تجحف بأوطانه، ومن ثم فهو يحترم أفكار الآخرين ومعتقداتهم من غير ما تَخَلٍ عن دعوتهم إلى الخير وإلى الطريق الذى يرى فيه سعادة البشرية جمعاء.

وفى سبيل هذه الغايات الإنسانية الاجتماعية كانت معاهداته مع أعدائه الذين حاربوه، وكانت سياسته الرحيمة العادلة جاذبة إليه كثيرًا من الشعوب والقبائل بعد أن تَفَهَّمُوه.

وليس فى صفحات التاريخ الأمين شائبة تغض من شأن الإسلام كدستور للمجتمع أو كمنهج للتدين، أو نموذج يهتدى به المرء فى خلوته وفى اجتماعه، وفى كل حركة تصدر عنه، أو كل فكرة تخالج سريرته، أو كلمة تجرى على لسانه، وقد جاء هذا المعنى فيما كتبه الدكتور (غوستاف لوبون) كبير مؤرخى فرنسا فى كتابه (حضارة العرب) كما ذكر نحوًا من هذا الأستاذ المؤرخ البريطانى (أرنولد توينبى).

إن جهاد المسلمين فى هذا العصر لفى حاجة قصوى إلى التأسى بما رسم الله لهم فى شريعته، وفى حاجة قصوى إلى حسن التطبيق، وذلك من طريق الإيمان به وحسن التفكير فيه والتوسع فى الابتكار والمحاولات الجادة والحضارة الأصيلة، حتى لا نكتفى بما نضطر إليه من تقليد غيرنا.

وحينذاك يجد المسلمون أنفسهم عباقرة فى أفانين الحرب كما كان أسلافهم الذين وقفوا إلى جانب الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - والذين حملوا الراية من بعده فتركوا لنا أمثلة من البطولة التى تشيد بها الدنيا على صفحات أسفار التاريخ، قال تعالى: **﴿وجاهِدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾** (الحج: ٧٨).

هذا وإن مفهوم القتال فى الجهاد الإسلامى مادة وروح، فيه الدعوة إلى الخير والسلام، وفيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفيه الإعراض عن الاستغلال والاستعباد.

إلا أن مفهوم القتال فى الشرق والغرب مادة فقط، وفيه الدعوة إلى التسلط والاستعمار ونهب خيرات المواطنين الأصليين، وفيه إشاعة المنكر والفساد، وفيه من دواعى الحرب مما يعرِّض السلام للخطر فى كل وقت وحين.

ولقد حث الإسلام على الطاعة، والطاعة هى الضبط والنظام، فاستجاب المسلمون **﴿وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾** (البقرة:٢٨٥).

وأشاع الإسلام معانى الخلق الكريم ومنه: الصبر الجميل، وغرس روح الشجاعة والإقدام، وأمر بالثبات فى ميدان القتال، وحرم التولى يوم الزحف وجعله من الكبائر، ودعا إلى الجهاد بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله، وبين أن المثل العليا لابد أن تكون لها الأسبقية على كل شىء فى الدنيا، وجعل مقام الشهداء من أعظم المقامات.

فإذا تذكرنا أن الجهاد فى الإسلام يهدف إلى حماية حرية نشر الدعوة الإسلامية، وإلى إشاعة السلام وإلى الدفاع عن القيم الحضارية.

وإذا تذكرنا أيضًا أن تعاليم القتال فى الإسلام تنص على الوفاء بالعهود، واحترام المواثيق والعقود، والترفع عن الظلم والعدوان، والعمل على كل ما من شأنه إقرار السلام.

وإذا كان ذلك كذلك فإن من أهداف القتال فى الإسلام ومن تعاليمه أن روح الجهاد التى تتغلغل فى أعماق المسلم الحق مبنية على أسس سليمة رصينة؛ لأن هذا المسلم يؤمن إيمانًا عميقًا بأنه يخوض (حربًا عادلة) وهذه الحرب هى (حافز) جديد تجعل من المؤمن (مقاتلًا رهيبًا) كما يعبر بذلك العسكريون المحدثون، فالمجاهد المسلم لا يبغى من وراء ذلك إلا وجه الله ونصرة الحق الذى قامت به السموات والأرض.

وبذلك تصبح (إرادة القتال فى الجهاد الإسلامى بأهدافه وضوابطه) تسيطر على المسلم فى ميدان القتال أيام الحرب كما تسيطر عليه أيام السلم.

وإن الهدف الحيوى من الحرب هو تحطيم الطاقات المادية والمعنوية للعدو، فإذا انتصر عليه فى ميدان الحرب واستطاع أن يحطم طاقاته المادية فلا بد من جهود أخرى لتحطيم طاقاته المعنوية؛ ليكون النصر كاملًا يؤدى إلى الاستسلام.

وهنا تبدأ الحرب النفسية التى تستهدف الطاقات المعنوية فى الدرجة الأولى.

وفى تاريخ الحروب أمثلة لا تعد ولا تحصى عن انتصارات استطاعت القضاء على الطاقات المادية، ولكنها لم تستطع القضاء على الطاقات المعنوية، فكانت بذلك انتصارات ناقصة، وحروب خاسرة.

وإن الكفاح المشروع يقتضى من المسلمين ـ وقد تبينوا معنى الجهاد فى الإسلام ومراميه ومقاصده السامية ـ أن يهبوا هبة رجل واحد، وأن ينفروا خفافًا وثقالًا، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم لتحرير أوطانهم، وفى مقدمة ذلك إنقاذ وتحرير المسجد الأقصى المبارك، وكنيسة المهد والقيامة، وبقية المقدسات من أيدى اليهود المعتدين الطغاة؛ ليذكر العباد فى رحابها اسم الله – عز وجل – ويقيموا فيها شعائره.

وإن كل تقصير – لا سمح الله – فى هذا السبيل قد يؤدى فى النهاية إلى عواقب وخيمة وغير محسوبة يصعب تداركها بمضى السنين، فمطامع العدو لاتقف عند هذا الحد الذى استولى عليه من أرض العرب والمسلمين، بل هو يطمع فى أرض تمتد من النيل إلى الفرات، بل يطمع فى أوسع من ذلك، يطمع فى المدينة وما حولها، وفى أقطار أخرى عربية وإسلامية، وإنه لمن ما يؤلم النفس ويدمى القلب أن يبقى عدو المسلمين والعرب يصول ويجول فى بلادهم، يتكبر ويتجبر ويعلو ويتيه دون أن يجد أمامه قوة تردعه وتوقفه عند حده، وفى كل يوم يظهر علينا بشىء جديد، واعتداءات هنا وهناك، وإجراءات تعسفية للبطش بالآمنين من السكان، وقوانين ظالمة تصادر فيها أموال العرب والمسلمين، وتخرج أصحاب الحق من بلادهم، بالإضافة إلى ما يقوم به هذا العدو من عبث بالمقدسات، وهدم للآثار الإسلامية، واستيلاء على الأموال، تمهيداً لتهويد مدينة القدس الخالدة، وإزالة الصبغة الإسلامية والعربية عنها، غير عابئ بالعرب والمسلمين، ولا حاسب لهيئة الأمم حسابًا، ولا محترم لمجلس الأمن وقراراته، ولا مهتم بالعالم أجمع.

بينما يخرج على الناس من يصف هذا العدوان بأنه طريق للسلام ومحاربة للإرهاب، ومن يصدق ذلك عليه أن يودع عقله ويمشى فى ركاب من تصدق عليهم المقولة (إذا أخذ ما وهب سقط ما وجب!) وفى هذا منتهى العجب !!

مع أن المسلمين قادرون على إيقافه عند حده، وإزالة آثار عدوانه إذا اتفقت كلمتهم وصحت عزائمهم، وساروا فى الطريق المستقيم التى رسمها الله ـ تعالى ـ لهم، فلديهم من القوة العددية الشىء الكثير، فهم يعدون بمئات الملايين فى المشارق والمغارب، كما أن لديهم من الإمكانيات المادية والمالية ما يتمكنون بها من تزويد جيوش جرارة قوية فى أسلحتها البرية والبحرية والجوية.

وإن لديهم من الأموال ما يمكنهم من أن يكونوا أقوى الأمم وأشدها بأسًا لو استخدموا أموالهم وتصرفوا فيها تصرفاً يعود على مجموع الأمة بالخير والنفع والفائدة.

إن المال ليس كل شىء فى هذه الحياة، وماذا يفيد المال إذا كانت الأمة التى تملكه ذليلة الجانب مهدورة الكرامة، لا قيمة لها ولا وزن لها فى عالم الأقوياء، تتحكم الأمم القوية فى مقدراتها، دون أن يكون لها رأى نافذ، أو كلمة مسموعة، ودون أن يكون لها حول ولا طول ؟

إن المال لم يوجد فى الحياة ليكون مكدسًا فى الخزائن وفى الصناديق، أو مكنوزًا فى البيوت والبنوك، أو مودعًا فى مصارف أعداء الأمة، وإنما وجد ليكون وسيلة فعالة ومن الوسائل التى تؤدى إلى خير الأمة وتقويتها، ودفع الأعداء عنها، وتمكينها من الحياة الحرة الكريمة على أرضها، وتحت سمائها.

وعلى المسلمين أن يعلموا أن هذه هى الأيام الخطيرة فى تاريخهم، بل هذه هى الأوقات الرهيبة التى تمتحن فيها قوة إيمانهم، وسلامة يقينهم، وصدق عزيمتهم، وثباتهم على الحق، والدفاع عنه، حتى يشرق الحق بنوره ويزهق الباطل **﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا﴾** (الإسراء:٨١).

ونسأله عز وجل أن يوفق أمة العروبة والإسلام رعاة ورعية إلى خير الطرق وأرشد السبل، وأن يشملهم سبحانه بنعمة ربانية، تجمع شتاتهم، وتوحد كلمتهم، وتشد من أزرهم ضد أعداء دينهم ودنياهم.

وفى هذا المقام أرفع للعلماء الأجلاء المشاركين فى هذا المؤتمر صادق التحية، ولرئاسة المؤتمر جزيل الشكر والتقدير، مشفوعة بتحيات مباركات من حضرة صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة لأخيه فخامة السيد الرئيس محمد حسنى مبارك رئيس جمهورية مصر

العربية، وللشعب المصرى العربى الشقيق، داعيًا المولى - عز وجل - أن يحفظ الجميع بما حفظ به الذكر الحكيم.

وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾** (التوبة: ٧١).

والله يقول الحق وهو الهادى إلى سواء السبيل.

مراجع البحث:-

١ - أحكام القرآن. لابن العربى.

٢ - تفسير المنار. السيد محمد رشيد رضا.

٣ - الجامع لأحكام القرآن. للعلامة القرطبى.

٤ - نيل الأوطار. للإمام محمد بن على الشوكانى.

٥ - الأحكام السلطانية. للعلامة الماوردى.

٦ - السياسة الشرعية. العلامة عبد الوهاب خلاف.

٧ - التاريخ الإسلامى العام. د. على إبراهيم حسن.

٨ - الحضارة. د. حسين مؤنس.

٩ - الإسلام عقيدة وشريعة. الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

١٠- المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام. العلامة الإمام محمد أبو زهرة.

١١- حضارة العرب. غوستاف لوبون.

١٢- مصادر معرفة الحضارات د. عبد العزيز صالح محمد.

١٣- ابن الخطاب يتجهز للقادسية. صحيفة الجمهورية ١٩٧٥/٩/١٢.

الجهـــاد

الأستاذ الدكتور/ أبو سليم محمد عبد الرحيم
مدير المركز الإسلامى - برمنجهام
بريطانيـــا

١ - تحديد المفاهيم:

(أ) **الجهـاد**: فـرض الله الجهـاد على المسلمين دفـاعـاً عن دينهم، وذوداً عن شرفهم، ولم يشرعه عدواناً وانتقاماً. فالحرب الإسلامية تقوم على أسس ومبادىء معينة فهى لا تكون إلاَّ ردًا لعدوان أو منعاً لحدوث اعتداء على الإسلام والمسلمين. يقول الله سبحانه وتعالى: **﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾**(١).

الجهـاد فى سبيل الله أفضل أنواع التطوع؛ لأن فيه إعلاءً لدين الله ونشراً لكلمته، والمجاهد يضحى بأغلى ما يملك: فهو يجود بنفسه وبماله، ولذلك فقد أعدَّ الله للمجاهدين أجراً عظيماً.

- **الجهاد لغة**: جاهد العدو مجاهدة وجهاداً: قاتله(٢)

- **الجهاد شرعاً**: قتال غير الذميين من الكفار(٣)

- **الجهاد الخاص** هو: قتال الكفار والمحاربين، وهو فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن البعض الآخر لقوله تعالى: **﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾**(٤).

غير أنه يتعين على مَنْ عَيَّنَهُ الإمام، فيصير فرض عين فى حقه؛ لقوله ﷺ: «**إذا استنفرتم فانفروا**»(٥). وكذا إذا داهم العدو بلدا فإنه يتعين على أهلها حتى النساء منهم مدافعته وقتاله(٦).

(ب) **القتال**: قال الله تعالى: **﴿أُذن للذين يُقَاتَلون بأنهم ظلُموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾**[7]، ويقول الله تعالى: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾**[8].

(جـ) **العنف**: مصدر وهو الأخذ بشدة وقسوة، وعنف به وعليه فهو عنيف[9] فهو استعمال القوة فى غير محلٍّ.

(د) **الإرهاب**: مصدر من رَهَبَهُ رَهباً ورَهْبة ورَهْباً: خافه. أرهب فلاناً: خوَّفهُ فَزَّعَهُ.

(هـ) **الإرهابيون**: وصْف يُطلق على الذين يسلكون سبيل العنف والإرهاب لتحقيق اهدافهم السياسية[10] قال الله تعالى **﴿رغباً ورهباً﴾**[11]

٢ ـ الجهاد وصوره:

منها: جهاد الكفار والمحاربين، ويكون باليد والمال واللسان والقلب، لقوله ﷺ: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»[12].

وهناك جهاد الكلمة، وجهاد الدعوة، وجهاد اللسان، وجهاد المال، وجهاد الدفاع عن المستضعفين فى الأرض.

جهاد الكلمة: هو أن يجاهد الإنسان بقلمه فيقول كلمة الحق غير هَيَّاب من أحد ولا خائف لومة لائم. فالساكت عن الحق شيطان أخرس، قال الله تعالى: **﴿يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾**[13] أى يجاهدون لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ولا يبالون بمن عابهم أو لا مهم، فهم فى صلابة الدين كالجبال، وفى القتال أسود أبطال لايهابون الموت كما قال بعض القادة المسلمين لملك الفرس: (جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة).

ولو أن أصحاب الأقلام فى زماننا لم ينافقوا ولم يداهنوا لما كان هناك من يَتَفَرْعَنُ ويتجبر ويحكم الشعوب بالنار والحديد، فالكلمة الهادفة الصادقة جهاد وأى جهاد فقد قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر وأمير جائر**»[14].

وما ضاع الحق وذل أهله إلا عندما نجم قرن النفاق وكثر رواده وأنصاره.

جهاد الدعوة: هو الأساس فى الجهاد الإسلامى والأصل فيه؛ لأن النبى ﷺ بُعثَ إلى جميع الخلق قال الله تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً﴾**(١٥) وليس بعده رسول، فمن يُوَصِّل دعوته إلى الخلق؟ ومن يَقُمْ بتبليغ الرسالة عنه؟ إنهم أمته ﷺ الذين كلفهم الله بهذه المهمة السامية لقوله تعالى ـ جل ثناؤه ـ: **﴿ولتكن منكم أمة يدْعون إلى الخير﴾**(١٦).

وقد وجه النبى ﷺ أتباعه إلى القيام بهذه المهمة العظيمة فقال: «**بلغوا عنى ولو آية**»(١٧) وقال صلوات الله عليه: «**نَضَّرَ الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلَّغه كما سمعه، فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع**»(١٨) وجهاد الدعوة ليس له هدف إلا هداية الناس وإنقاذهم من مستنقع الشقاء والضلالة.

جهاد اللسان: يكون بالمحاورة والمناظرة وإقامة الحجة والبرهان كما قال سبحانه: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادِلْهم بالتى هى أحسن﴾**(١٩) وهو نوع من الجهاد عظيم يُبْطِلُ به المسلم حجة الجاهل وشغب المعاند.

وقد أمر الله رسوله بمجاهدة المشركين بالقرآن وآياته البينات قبل أن يجاهدهم بالسيف والسنان، قال جل شأنه: **﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾**(٢٠) أى جاهدهم بالقرآن بمواعظه وزواجره. فإن مجاهدة الغافلين بالحجج والبراهين أعظم من مجابهة الأعداء بالسيف والحراب، وهل القرآن إلا نور ساطع يبدد ظلمات الشك والجهل؟ ولهذا قال النبى ﷺ: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»(٢١).

جهاد المعركة والحرب: أخيراً إذا لم تنفع الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة فلابد من استعمال القوة لقهر الباطل واقتلاع جذوره وذلك باستعمال السلاح وهو (الجهاد بالنفس والمال) قال الله تعالى فى كتابه الكريم: **﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله﴾**(٢٢). فالإسلام

لا يحمل السلاح إلا عندما يستعلى الكفر والطغيان وتُغْلَقَ فى وجه الإسلام أبواب الخير والإصلاح فيضطر إلى القتال، كما أن الطبيب لا يلجأ إلى العملية الجراحية إلا عندما ييأس من نفع الدواء.

قال الشاعر:

إذا لم تكن إلا الأسنة مركباً   فليس للمضطر إلا ركوبها

ولا يُقَاتل الإسلام إلا من قاتل واعتدى ووقف فى نشر الدعوة الإسلامية امتثالاً لأمر الله عز وجل القائل **﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾**(٢٣) وهذا النوع من الجهاد إنما شرع لتقليم أظافر الشرك، وفتح طريق الهداية للناس، ولهذا اقترن بأشرف وسام وأفضل وصف ـ الجهاد فى سبيل الله ـ أى لنصرة الحق ودفع الظلم ونصرة المستضعفين. قال الله تعالى **﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله﴾**(٢٤).

وما أعظم ذلك الجزاء الذى أخبر عنه سيد الأنبياء ﷺ للمجاهدين فى سبيل الله الذين لا يريدون بجهادهم إلا وجه الله تعالى. قال رسول الله ﷺ «**إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**».(٢٦) فحمل السلاح يكون عند استعلاء الكفر والطغيان(٢٥).

ومن صور الجهاد:

جهاد الفُسَّاق: ويكون باليد واللسان والقلب لقوله ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فلْيغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(٢٧).

جهاد الشيطان: ويكون بدفع ما يأتى به من الشبهات وترك ما يزينه من الشهوات لقوله تعالى: **﴿ولا يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور﴾**(٢٨) وقوله تعالى **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتَّخِذُوه عدواً﴾**(٢٩).

جهاد النفس: ويكون بحملها على تعلم أمور الدين، والعمل بها، وتعلمها، ويصرفها عن هواها، ومقاومة رعوناتها[٣٠].

الإرهاب وصوره فى تاريخ الأديان والحضارات:

وضعت أصول علمية للتاريخ العثمانى وفضله على المسلمين لقيامه فى وجه الغارة الصليبية التى كادت أن تبتلع المغرب والمشرق بعد قضائها على الأندلس، لولا ظهور القوة العثمانية الإسلامية الفتية،[٣١] ومع كل العبث والتضليل الذى وقع فى التاريخ الحديث، فقد نجحت الرؤية الإسلامية للتاريخ فى كشف هذه الحركات المعادية التى تلبس شعارات القومية والشعوبية والإلحادية والماسونية المستترة والتقدمية والوطنية وكانت ـ ومازالت ـ عائقاً دون وحدة العرب وتقدمهم[٣٢].

إن مناخ التغريب والعلمانية قد ظهر فى ظروف لا تمت إلى حضارتنا بصلة فهناك الجنوح المضاد للسلوك الكنسى الإرهابى؛ والجهاد من أجل طرد الدين من مسرح الحياة والمجتمع والعلم.. وهناك فى عالم الكنيسة توجد علاقة عكسية بين الدين والحضارة[٣٣].

لكل حضارة عنصر قوة، ولربما لم تستطع حضارة أوربا أن تصل إلى ما وصلت إليه بعض الحضارات السابقة، حتى فى مجال البحث العلمى البحت، كَفَنِّ المعمار، وعلم التحنيط عند الفراعنة، وقد التقت هذه الحضارة بالحضارة الإسلامية على مشارف القرن السادس عشر الميلادى بعد أن كانت قد هُزِمَتْ أمام المسلمين قبل ذلك، وبعد أن كانت قد جلست فى أدب تارة وفى دموية تارة أخرى عند أقدامهم تتلمذ عليهم فى العلوم والآداب والفنون سواء فى الأندلس (٩٢ـ ٩٨هـ) أم فى عدد من جزر البحر المتوسط مثل: صقلية وكريت ورودس وقبرص وبعض مدن جنوب إيطاليا، أم فى الحروب الصليبية التى استمرت قرابة قرنين من الزمان، وقد أدركت أوربا ـ من هذه اللقاءات ـ أنها أمام حضارة قوية ذات بناء روحى ومادى قوى، وأدركت كذلك أن البناء النفسى والفكرى للأمة المسلمة هو السر القوى فى صمودها التاريخى، وفى إفلاتها من محاولات الإبادة

التى تعرضت لها ـ غير مرة ـ على يد التتار قبل الصليبيين، فلما كان لقاؤها الأخير بهذه الحضارة على مشارف القرن السادس عشر، كان لديها وعى تاريخى يكفل معرفة خصمها الذى سبرت غوره فى الحرب والسلم على السواء.

إن صمود الإسلام فى وجه الإرهاب الحضارى حتى اليوم. على الرغم من هيمنة الحضارة الأوربية منذ أربعة قرون لهو أقوى دليل على أن الحضارة الإسلامية حضارة قوية البناء، وأنها على الرغم من إخفاق أكثر أبنائها فى مواجهة الحضارة الأوربية القوية، ما زالت قادرة على الحوار والعطاء، بل إنها مازالت تأخذ ـ مع هذا الوضع المتردى ـ زمام التأثير والمبادرة الفكرية والقدرة على الإقناع..

فالحضارة الأوربية تحاول اكتساح الحضارات البشرية، وتسعى إلى فرض صياغتها للحياة وفلسفتها نحو الغيب والكون، ورؤيتها الفنية والجمالية، بل ولغاتها وآدابها على البشرية كلها.

الكفاح المشروع للشعوب:

١ ـ الكفاح حق مشروع للشعوب ضد كل معتدٍ وغاصب لخيرات الأوطان وضد كل ناهب لثروات الأمم، وللشعوب مقاتلة الذين يبدؤون بالقتال. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم**﴾ [٣٤]. أمر الله بقتال الذين يقاتلونهم من المشركين إذا بدأوهم بالعدوان، وذلك دفاعاً عن النفس والعقيدة والوطن، كما أن الكفاح حق مشروع للشعوب، فيجب مقاتلة الأعداء الذين ينقضون المعاهدات والاتفاقيات، ويُخَرِّبون ويحاولون الانقضاض على الشعوب والآمنين للقضاء عليهم، فالكفاح المشروع يكون من أجل رد العدوان الذى يقع على دولة أو عدد من الدول الأخرى.

٢ ـ الدفاع عن الحقوق والمصالح الأساسية للدولة: ففى الحالتين يجب أن يكون هدف الحرب هو تحقيق السلم الدائم، وأن يراعى المحاربون القواعد الإنسانية، فيحترمون قواعد الأمان، وحياة وأملاك الأبرياء والنساء والأطفال، ويتعلمون معاملة الأسرى والرهائن. فالكفاح فى نظر رجال الدين دفع القوة بالقوة، أو المعاقبة على الأعمال العدوانية.

لقد أُنشِئَتْ عصبة الأمم لمنع الحروب، حيث إن الحرب العالمية الأولى أصابت مناطق كثيرة من العالم بالخراب والدمار، وانْتُهِكَتْ فيها حقوق الإنسان، ولم يراعَ فيها الحقوق الإنسانية. وأهم المبادىء التى قررها ميثاق عصبة الأمم بالنسبة للحرب:

مادة١: تتعهد الدول الأعضاء على احترام سلامة أقاليم الدول الأخرى، والأعضاء فيها، واستقلالها السياسى، وضمان هذا الاستقلال ضد أى اعتداء خارجى.

مادة ١٦: تعتبر الدولة التى تلجأ إلى الحرب إخلالاً منها بالتزاماتها فى الميثاق الخاصة بفض النزاع بالطرق السلمية كأنها قامت بعمل حربى ضد جميع أعضاء العصبة، ويترتب قبلها جزاءات هى:

أولاً: الطرد. ثانيا: الجزاء الحربى. ثالثا: المقاطعة الاقتصادية.

من دراسة ميثاق عصبة الأمم يتضح أن أسباب الحروب:

١ـ الدفاع عن النفس (رد العدوان).

٢ ـ الاعتداء على حق معترف به من عصبة الأمم.

٣ ـ مخالفة الدولتين المتحاربتين لميثاق العصبة وتفضيلهما الحرب لحل النزاع بينهما. وهى الأسباب التى جعلت الهدف الأساسى لقيام الأمم المتحدة هو منع نشوب الحرب مرة أخرى.

فتنص المادة الأولى فقرة (أ) على أن مقاصد الأمم المتحدة هى:

حفظ السلم والأمن الدولى، وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعَّالة لمنع الأسباب التى تهدد السلم ولإزالتها، وتتذرع بالوسائل السلمية وفقا لمبادىء العدل والقانون الدولى لحل المنازعات الدولية التى تؤدى إلى الإخلال بالسلم أو لتسويتها.

تنص المادة الثانية فقرة (٤) على أن يمتنع أعضاء الهيئة جميعاً فى علاقتهم الدولية عن التهديد باستعمال القوة، أو استخدامها ضد سلامة الأراضى، أو الاستقلال السياسى لأية دولة، أو على وجه آخر لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة.

الكفاح المشروع للشعوب:

ما يقره القانون الدولى العام قيام جماعات فدائية تدافع عن حرية بلادها، وتقاتل قوات الغزو والعدوان التى تحتل أرض هذه الجماعات، ويضع لهم من الاتفاقات والمعاهدات ما يضمن لهم معاملتهم معاملة العسكريين إذا ما أسروا أو ألقوا سلاحهم نتيجة هزيمتهم، وتتكون القوات الفدائية من المدنيين الذين يتطوعون للدفاع عن بلادهم، حيث ينتظمون فى جماعات لها رئاسة مالية وإدارية موحدة.

وإذا كان القانون الدولى العام لا يقر العدوان، ويدفع الحرب العدوانية. فإنه يصبح من حق بل من واجب أهل البلاد المحتلة مقاومة قوات الاحتلال، وتشكيل قوات مقاومة شعبية، أو قوات فدائية للعمل ضد عدوهم، وكفاحهم المشروع لإنهاء احتلاله لأرضهم.

إن حالة الاحتلال حالة مادية عدوانية بحتة وليست قانونية، ولذلك فهى لا تكسبه أى حقوق على سكان البلاد، فهو لا يستطيع أن يمنعهم من مقاومته، أو يجبرهم على مساعدته ضد سلطات بلادهم القانونية مهما طال أمد الاحتلال.

الشروط التى ترى اتفاقية جنيف توافرها فى قوات المقاومة فى الكفاح المشروع للشعوب:

تشترط المادة ٢/١/٤ من اتفاقية جنيف الثالثة ببيان أسرى الحرب عدة شروط:

١ ـ أن يعمل أفراد المقاومة تحت رئاسة شخص مسئول عن تابعيه.

٢ ـ يجب على رجال المقاومة أن يحملوا شارة مميزة لهم تُعْرَف من بعيد، ويشترط أن تكون الشارة موحدة لأفراد المنظمة الواحدة.

٣ ـ أن يحمل المقاومون أسلحتهم بصورة ظاهرة.

٤ ـ أن يلتزم الفدائيون فى حروبهم بقوانين وأعراف الحرب [٣٥]

ومسك القول قول الله فى كتابه: ﴿**إن الله لا يحب المعتدين**﴾ [٣٦].

المصادر

١ ـ سورة البقرة: ١٩٠.

٢ ـ المعجم الوجيز.

٣ ـ الجهاد فى الإسلام (توفيق وهبة) ص ١٠، ١١.

٤ ـ سورة التوبة: ١٢٢.

٥ ـ متفق عليه.

٦ ـ منهاج المسلم (أبو بكر الجزائرى) ص ٣٤٩.

٧ ـ سورة الحج :٣٩.

٨ ـ سورة التوبة: ١١١.

٩ ـ المعجم الوجيز.

١٠ ـ المعجم الوجيز.

١١ ـ سورة الأنبياء: ٩١.

١٢ ـ حديث صحيح رواه الإمام أحمد / أبو داود/ النسائى.

١٣ ـ سورة المائدة: ٥٤.

١٤ ـ أبو داود والترمذى.

١٥ ـ سورة سبأ: ٢٨.

١٦ ـ سورة آل عمران: ١٠٤.

١٧ ـ حديث صحيح ـ رواه البخارى.

١٨ ـ رواه الترمذى.

١٩ ـ سورة النحل: ١٢٥.

٢٠ ـ سورة الفرقان: ٥٢.

٢١ ـ أخرجه أبو داود.

٢٢ ـ سورة التوبة: ٤١.

٢٣ ـ سورة البقرة: ١٩٠.

٢٤ ـ سورة البقرة: ٢١٨.

٢٥ ـ أخرجه البخارى.

٢٦ ـ مجلة الحج ص ٤٧.

٢٧ ـ حديث شريف (صحيح).

٢٨ ـ سورة فاطر: ٥.

٢٩ ـ سورة فاطر: ٦.

٣٠ ـ كتاب منهاج المسلم، أبو بكر الجزائرى ص ٣٥٠.

٣١ ـ فقه التاريخ فى ضوء أزمة المسلمين الحضارية، د/ عبدالحليم عويس ص ٢٩.

٣٢ ـ نفس المصدر السابق.

٣٣ ـ نفس المصدر السابق.

٣٤ ـ سورة البقرة: ١٩٠.

٣٥ ـ الجهاد فى الإسلام، لمؤلفه: توفيق على وهبة ـ دار اللواء للنشر والتوزيع ـ الطبعة الرابعة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م المملكة العربية السعودية ـ الرياض ـ شارع الملك فيصل.

٣٦ ـ سورة البقرة: ١٩٠.

أحكام الجهـــاد

الأستاذ الدكتور / محمد عبد الرزاق السيد إبراهيم الطبطبائى
عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ الكويت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

منذ وضعت الشريعة الإسلامية آداباً للقتال، مبنية على عدم الاعتداء، لقوله تعالى: **﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾**[1]، بل كان النبى ﷺ يوصى المسلمين عند الحرب بالأخلاق الفاضلة.

فقد قال رسول الله ﷺ عندما جهز المسلمين لغزوة مؤته **«اغزوا باسم الله، فى سبيل الله، من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا، ولا امرأة، ولا كبيراً فانيا، ولا منعزلا فى صومعة، ولا تقطعوا نخلا، ولا شجرة ولا تهدموا بناء»**[2].

وقال لعبد الرحمن بن عوف عندما أرسله فى سرية دومة الجندل: (اغزوا جميعا فى سبيل الله، وقاتلوا فى سبيل الله وقاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً).

وعندما ننظر إلى عموم الحروب سواء قبل الإسلام أو بعده، فقد وقعت فيها الشناعات، وما نعيشه اليوم من الاعتداء الإسرائيلى على الأطفال والنساء أكبر دليل على ظلم هذه الجيوش وضلالها.

وقد اعتنى الفقهاء بموضوع الجهاد، وقد ألحقه المالكية بالعبادات اعتبارا بقصد المجاهد، والشافعية ألحقوه بالجنايات باعتبار أنه جناية على الكفار لكفرهم[3].

تعريف الجهاد:

الجهاد ـ بكسر الجيم ـ مصدر جاهد مجاهدة، أصله فى اللغة: المشقة، يقال: جاهدت جهادا، أى: بلغت المشقة، وهو مأخوذ من المجاهدة، وهى المقاتلة، ومجاهد اسم فاعل من جهد إذا بالغ فى قتال عدوه.(٤)

واصطلاحا: قيل: دعاء إلى الدين الحق، وقتال من لا يقبله(٥). وقيل: قتال مسلم كافرا، غير ذى عهد، لإعلاء كلمة الله تعالى، أو حضوره له، أو دخوله أرضه(٦). وقيل: الجهاد فى سبيل الله: المبالغة فى إتعاب النفس فى ذات الله، وإعلاء كلمته التى جعلها الله طريقا إلى الجنة(٧). وقيل: القتال فى سبيل الله(٨). وقيل: قتال الكافر(٩). وقيل: بذل الجهد فى قتال الكنار(١٠).

ويطلق أيضا على مجاهدة النفس، والشيطان، والفساق، فأما مجاهدة النفس فعلى تعلم أمور الدين، ثم على العمل بها، ثم على تعليمها، وأما مجاهدة الشيطان فعلى دفع ما يأتى من الشبهات، وما يزينه من الشهوات، وأما مجاهدة الكفار، فتقع باليد، والمال، واللسان، والقلب، وأما الفساق، فباليد، والمال، واللسان، ثم القلب(١١).

مشروعية الجهاد:

الأصل فى مشروعيته الكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب:

فقوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عليكم القتال**﴾(١٢).

وقوله تعالى: ﴿**واقتلوهم حيث وجدتموهم**﴾(١٣).

وقوله تعالى: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة**﴾(١٤)، وهى آية السيف.

ومن السنة:

قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإن قالوها عصموا منى دماءهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله».

وقال ﷺ: «**من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق**»[١٥].

وأما الإجماع، فأجمع المسلمون على مشروعيته[١٦].

حكم الجهاد:

أقام رسول الله ﷺ بمكة المكرمة مدة يدعو إلى الله، وإلى الإيمان به، وينهى عن الشرك، ولم يؤمر فى ذلك بقتال، بل أمره الله تعالى بأن يعرض عنهم، فقال: ﴿**وأعرض عن المشركين**﴾[١٧]، وقال: ﴿**فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره**﴾[١٨]، فأتى بأمره لما أذن لهم فى القتال، فنزلت: ﴿**أُذن للذين يُقَاتَلُون بأنهم ظلموا**﴾[١٩]، قال ابن عباس: فهى أول آية نزلت فى القتال[٢٠].

أولا: فى زمن النبى ﷺ:

اختلف العلماء فى حكم الجهاد فى زمن النبى ﷺ إلى أربعة أقوال: فقال الماوردى: كان عينا على المهاجرين دون غيرهم، ويؤيده وجوب الهجرة قبل الفتح فى حق كل من أسلم إلى المدينة لنصرة الإسلام.

وقال السهيلى: كان عينا على الأنصار دون غيرهم، ويؤيده مبايعتهم النبى ﷺ ليلة العقبة على أن يؤوا رسول الله ﷺ وينصروه.

قال الشوكانى: «ومع ذلك فليس فى حق الطائفتين على التعميم، بل فى حق الأنصار إذا طرق المدينة طارق، وفى حق المهاجرين إذا أريد قتال أحد من الكفار ابتداء».

وذهب آخرون إلى أن: الجهاد كان عينا فى الغزوة التى يخرج فيها النبى ﷺ دون غيرها[٢١].

والأصح عند الشافعية أنه فرض كفاية[٢٢]، لقوله تعالى: ﴿**لا يستوى القاعدون..**﴾ الآية.

وذهب الشوكانى إلى أنه كان عينا على من عينه النبى ﷺ فى حقه، وإن لم يخرج[٢٣].

ثانيا: بعد عهد النبى ﷺ:

لقد اتفق العلماء على أن الجهاد بعد عهد النبي ﷺ فرض كفاية[٢٣]، إذا قام به البعض سقط عن الباقين؛ لقوله تعالى: ﴿**لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى**﴾[٢٤]، وهذا يدل على أن القاعدين غير مأثومين مع جهاد غيرهم[٢٥].

ولأن المقصود فيه دفع شر الكفار، وكسر شوكتهم، وإعلاء كلمة الإسلام، فإذا حصل المقصود بالبعض، فلا حاجة إلى غيرهم، والنبى ﷺ كان يخرج للجهاد ولا يخرج جميع أهل المدينة[٢٦]، ولأنه لم يفرض لعينه، إذ هو إفساد فى نفسه، وإنما فرض لإعزاز دين الله، ودفع الفساد عن العباد، وكل ما هو كذلك فهو فرض كفاية إذا حصل المقصود بالبعض، وإلا ففرض عين[٢٧]، لأنه أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، فيكون على الكافة، ولأنه لو وجب على جميع الناس، تعطلت مصالح المسلمين من الزراعة، والصناعة، وانقطعت مادة الجهاد، من السلاح ونحوه، فلا يقدر المجاهدون على الإقامة على الجهد، فيؤدى إلى تعطيله، فإن لم يقم به أحد، أثم جميع الناس بتركه، كسائر فروض الكفاية[٢٨].

قال تعالى: ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينُذِروا قومهم إذا رجعوا إليهم**﴾[٢٩]، فحثهم على أن تنفر طائفة، وتمكث طائفة، فدل على أن الجهاد فرض كفاية، لا فرض عين[٣٠].

وذلك إلا أن تدعو الحاجة، كأن يدهم العدو،[٣١] أو النفير العام،[٣٢] لقوله تعالى: ﴿**انفروا خِفافاً وثقالاً**﴾[٣٣]، والنفير العام: أن يحتاج إلى جميع المسلمين، فلا يحصل المقصود، وهو إعزاز الدين، وقهر المشركين إلا بالجميع، فيصير عليهم فرض عين، كالصلاة[٣٤].

ونقل عن ابن عبد البر أنه فرض كفاية مع الخوف، ونافلة مع الأمن[٣٥].

وقت وجوبه:

ذهب جمهور العلماء إلى أن الجهاد يجب فى السنة مرة، أى أن يوجه الإمام كل سنة طائفة، ويزج بنفسه معها، أو يخرج بدله من يثق به ليدعوهم للإسلام ويرغبهم فيه، ثم يقاتلهم إذا أبوا منه[٣٦].

واستدلوا على ذلك بأن الجزية تجب بدلاً عنه، ولا تجب فى السنة أكثر من مرة اتفاقاً، فيكون بدلها كذلك.

وذهب فريق من العلماء إلى وجوبه كلما أمر به[٣٧].

وقت مشروعيته:

اتفق العلماء على أن الجهاد شرع بعد الهجرة،[٣٨] وأما قبل الهجرة فكان ممنوعا منه ﷺ، لأنه كان مأموراً بالصبر وتحمل الأذي[٣٩].

الألفاظ ذات الصلة:

النصرة: النصرة لغة: الإعانة، وعكسها: الخذلان وقال رسول الله ﷺ: **«المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله».**

هدف نصرة المسلم:

إن غاية نصرة المسلم لأخيه المسلم رفع الظلم عنه، والمحافظة على حياته، ودينه، وماله، وعرضه.

حكم نصرة المسلم:

نصرة المسلم واجبة قال رسول الله ﷺ: **«انصر أخاك ظالما أو مظلوما، قالوا يا رسول الله: علمنا كيف ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما، قال: تأخذ بيده»** (رواه البخارى)

الفرق بين الجهاد ونصرة المظلوم:

١ ـ إن المقصود من مشروعية الجهاد : المحافظة على الدين، أما الهدف من نصرة المظلوم: هو دفع الظلم عنه.

٢ ـ أن العلة فى مقاتلة الكفار ـ عند جمهور العلماء من أبى حنيفة ومالك وأحمد ـ هى الحرابة، وذهب الإمام الشافعى وبعض أصحاب أحمد إلى أن مجرد الكفر هو العلة[٤٠]. أما العلة فى نصرة المظلوم فهى دفع الظلم عنه.

٣ ـ أن المجاهد يأخذ من الزكاة، فهو من الأصناف الثمانية الواردة فى قوله تعالى: **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله﴾**[٤١] أى: المجاهدون.

أما من ناصر المظلوم فهو ليس من أهل الزكاة، ولا يستحقها بالفعل.

٤ ـ أن الجهاد لا يكون إلا بإذن الحاكم أو نائبه[٤٢]، أما نصرة المظلوم فلا تفتقر إلى إذن أحد.

٥ ـ أن الجهاد يكون فى مقاتلة الكفار، أما نصرة المظلوم فإنها تكون فى دفع الظلم عن المسلمين أو غيرهم.

٦ ـ أن الجهاد إذا لم يتعين يجب فيه استئذان الأبوين[٤٣]، لحديث عبد الله ابن عمرو قال: **«جاء رجل إلى النبى ﷺ فاستأذن فى الجهاد، فقال: أحى والداك؟ قال: نعم، قال ففيهما فجاهد»**(٤٤)، وفى رواية **«أتى رجل، فقال: يا رسول الله إنى جئت أريد الجهاد معك، ولقد أتيتك، وإن والدى يبكيان، قال: ارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما»**[٤٥].

وعن معاوية بن جاهمة السلمى أن جاهمة أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله **أردت الغزو، وجئتك أستشيرك، فقال: هل لك من أم؟ قال: نعم، قال: الزمها فإن الجنة عند رجلها»**(٤٦)، **واشترط العلماء أن يكون الأبوان مسلمين، واختلف فى إلحاق الجد والجدة.**

أما نصرة المظلوم فإنه لا يشترط فيها إذن الوالدين.

مفهوم الإرهاب:

الإرهاب لغة: مشتق من الرهبة، وهى: إدخال الرعب فى نفوس الآخرين.

وقد استعمل فى القرآن فى قوله تعالى: **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾**[٤٧].

وأما مفهومه المعاصر:

فقد انتشر فى وقتنا المعاصر اصطلاح الإرهاب وقد جرد من معانيه الأصلية، وأصبح يطلق على كل من يمس مصالح الدول، باستخدام القوة، دون وجود حرب قائمة.

الفرق بين الجهاد والإرهاب:

هناك فروقات عدة بين الجهاد والإرهاب، أهمها ما يلى:

١ ـ أن الجهاد لا يكون إلا في قتال المسلمين للكفار، أما الإرهاب يمكن أن يشمل اعتداء الكفار على الكفار، أو على المسلمين، أو المسلمين على المسلمين، أو المسلمين على الكفار المعاهدين.

٢ ـ أن الجهاد لا يكون إلا بحق، أما الإرهاب فقد يكون بحق أو بدون حق.

٣ ـ أن الجهاد يؤجر عليه الإنسان بكل حال، أما الإرهاب فلا يؤجر عليه الإنسان إلا إن كان بحق.

المقاتلة:

الجهاد أعم من المقاتلة[٤٨]، لحديث: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**».

من يجب الوقوف عن قتله فى الجهاد:

لقد وردت آيات عامة فى قتل الكفار، قال تعالى: ﴿**فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾، وذهب الفقهاء إلى أنه لا يقتل فى الجهاد عدة أصناف[٤٩].

١ ـ المرأة:

لقد ثبت عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: «وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان»[٥٠].

ورأى عليه الصلاة والسلام امرأة مقتولة، فقال: «هاه مالها قتلت، وما كانت تقاتل؟»[٥١].

واستدلوا بهذا الحديث على أنها تقتل فى حالة مقاتلتها، أى بسبب مقاتلتها، فتقتل حال مقاتلتها، وبعده، وليس المراد أنها لا تقتل إلا فى حال مقاتلتها.

وقد ذكر الفقهاء بأن للمرأة ثمانية أحوال؛ لأنها إما أن تقتل أحداً أو لا، وفى كل إما أن تقاتل بسلاح أو غيره، وفى كل إما أن تؤسر أو لا، فإن قتلت أحداً بالفعل جاز قتلها، سواء كانت قتلته بسلاح أو غيره، كالحجارة، سواء أسرت أم لا، وإن لم تقتل أحداً، فإن قاتلت بالسلاح، كالرجل، جاز قتلها أيضا، أسرت أم لا، وإن قاتلت برمى الحجارة فلا تقتل بعد الأسر اتفاقا، ولا فى حال المقاتلة على الراجح عند المالكية(٥٢). وقال سحنون: لا تقتل المرأة إذا أسرت مطلقا، وصححه ابن ناجى، وهو ظاهر المصنف، وقيل: إن قتلت أحداً جاز قتلها، وإلا فلا(٥٣).

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: لم تقتل من نسائهم ـ يعنى نساء بنى قريظة ـ إلا امرأة واحدة، قالت عائشة: والله إنها لعندى تحدث معى، وتضحك ظهرا وبطنا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسيوف، إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة، قالت: أنا والله، قلت: ويلك ما لك؟ وما شأنك؟ قالت: أُقتل، قلت: لم، قالت: حدث أحدثته، فانطلق بها، فضربت عنقها، فكانت عائشة تقول: ما أنسى عجبى من طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل(٥٤)، فقتلها النبى ﷺ يوم قريظة؛ لأنها ألقت رحى على محمود بن سلمة(٥٥).

وذهب المالكي٨ة إلى أنها إذا قاتلت بالحجارة فلا تقتل(٥٦).

المرأة إذا أبدت برأى فى الحرب:

ذهب المالكية إلى أنه لا يعتبر كون المرأة أبدت مشورة أو رأى، ولا تقتل بذلك، لأن الرأى فى ترك رأيها(٥٧).

بينما ذهب الحنفية إلى أنها تقتل: إذا كانت ملكة، أو لها رأى فى الحرب، أو مال تحث به(٥٨).

٢ ـ الخنثى:

لقد نص الشافعية والحنابلة على عدم جواز قتل الخنثى فى الجهاد(٥٩)؛ لأن الخنائى ملحقون بالنساء(٦٠).

٣ ـ الصبى:

أما الصبي، فلا يجوز قتله فى القتال، وقد ورد عن ابن عمر، رضى الله عنهما ـ قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان.[٦١] وقد سماه النبى ﷺ تجاوزا، وعندما بلغ رسول الله ﷺ أن المسلمين قتلوا بعض الأطفال قال: **«ما بال أقوام تجاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية، لا تقتلوا الذرية».**

والصبى المطيق للقتال، لا يجوز قتله، ويجرى فيه ما فى المرأة من التفصيل.[٦٢] وذلك ما لم يقاتل، فإن قاتل الصبى، فإنه يقتل طالما يقاتل، أما بعد الأسر فلا يقتل لأنه ليس من أهل العقوبة[٦٣].

٤ ـ المعتوه والمجنون:

ومعنى المعتوه: ضعيف العقل، والمجنون: المختل العقل[٦٤].

والمجنون ينقسم إلى قسمين:

(أ) الجنون المطبق:

إذا كان المعتوه، وهو ضعيف العقل، لا يقتل، فلا يقتل المجنون من باب أولى.

ويستثنى من ذلك إذا قاتل المجنون، فإنه يقتل لتعدى ضرره، ودفع شره، ما دام يقاتل لا بعد الأسر، لأنه ليس من أهل العقوبة[٦٥].

(ب) الجنون المتقطع:

إذا كان الجنون متقطعاً، ويفيق أحياناً، فإنه يقتل[٦٦].

٥ ـ الشيخ:

المقصود به من لا قدرة له على القتل لكبر، فهذا لا يقتل لكونه ليس من أهل القتال[٦٧].

وعبر عنه الحنفية بالشيخ الفانى، وبالذى فنيت قواه[٦٨]، وعبر عنه الشافعية بالشيخ الضعيف[٦٩].

واستثنوا أن يكون ملكا، أو يحرض عليه، أو له رأى فى الحرب، لأن الرأى من أعظم المعونة فى الحرب، وربما كان أبلغ من القتال، أو مال يحث به، أو يكون ممن يحتال[٧٠].

وقد ورد أنه قتل دريد بن الصمة يوم حنين، وكان له مائة وعشرون سنة، ولم ينكر النبى ﷺ قتله؛ لأنه كان صاحب رأى، وخرجوا به معهم يستعينون برأيه(٧١).

وعند الحنفية، والأظهر عند الشافعية يجوز قتله مطلقا؛ لأنه من أهل العقوبة(٧٢).

٦ـ الزمِن:

والزمن بكسر الميم، أى: العاجز، والمقصود هنا: العاجز عن القتال(٧٣)، كأن يكون مريضا بإقعاد، أو شلل، أو فلج، أو جذام، أو نحو ذلك.

وهذا إذا كان ليس ملكاً، ولا رأى له، أو مال يحث به، أو لم يقاتل، أو يحرض على القتال، فإنه لا يقتل(٧٤).

وعند الحنفية والأظهر عند الشافعية جواز قتله بعد الأسر(٧٥).

وعلى القول بجواز قتلهم، جاز استرقاقهم، وسبى نسائهم، وصبيانهم، واغتنام أموالهم(٧٦).

٧ـ الأعمى:

ذهب جمهور العلماء إلى أن الأعمى لا يقتل فى الحرب(٧٧). وذلك إذا كان لا رأى له فى الحرب، أو لم يقاتل، أو يحرض على القتال، أو ذا مال يحث به على القتال، لتعدى ضرره(٧٨).

وعند الحنفية، والأظهر عند الشافعية، جواز قتله مطلقا، لأنه من أهل العقوبة(٧٩).

٨ـ الرهبان والأحبار:

الرهبان: جمع راهب، وهو العابد، والأحبار: جمع حبر ـ بفتح المهملة وكسرها وهو الأفصح ـ العالم(٨٠).

والرهبان والأحبار، ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: الراهب المنعزل: إذا كان الراهب منعزلا بدير، أو صومعة، فلا يقتل، لأنه صار كالنساء من جهة كونهم بلا رأى وتدبير، ولاعتزالهم أهل دينهم،

وتباعدهم عن محاربة المسلمين، فينقطع عن أهل ملته حسا ـ فى دير أو صومعة ـ فلا يخالطهم فى رأى، ولا يعينهم فى تدبير مشورة.

فلا يقتلون لا لفضل ترهبهم، بل هم أبعد من الله من غيرهم، لشدة كفرهم، وإنما تركوا لتركهم أهل دينهم، فصاروا كالنساء(٨١).

ولأن فى حديث أبى بكر الصديق رضي الله عنه: «وستمرون على أقوام فى مواضع لهم احتبسوا أنفسهم فيها، فدعهم حتى يميتهم الله على ضلالتهم»(٨٢).

وأن عموم قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فاقتلوا المشركين**﴾(٨٣)، وقوله ﷺ: «اقتلوا شيوخ المشركين»(٨٤)، فإنه مخصوص بما تقدم من الحديث(٨٥).

والثانى: رهبان الكنائس المخالطون الناس، إلا أن يكونوا ذا رأى يؤلب على المسلمين، أو يدلون على عورات المسلمين، فإنهم يقتلون(٨٦).

٩ ـ الرقيق:

وقد زاد الشافعية أنه يحرم قتل من به رق إذا لم يقاتل، واستدلوا بخبر الصحيحين عن النهى عن قتل النساء والصبيان، وإلحاق من به رق بهما(٨٧).

١٠ ـ الأُجَرَاء، والحَرَّاثون وأرباب الصنائع:

اختلف العلماء فى حكم الأجراء والحراثون، وأرباب الصناعات ممن لم يكن لهم رأى وتدبير الحروب لقومهم، وإلا قتلوا، فذهب بعض المالكية والأظهر عند الشافعية إلى أنهم يقتلون، وهو قول سحنون، والمشهور أنهم لا يقتلون، بل يؤسرون، وهو قول ابن القاسم، وابن الماجشون، وابن وهب، وابن حبيب، وحكاه اللخمى عن مالك قائلا، وهو الأحسن، لأن هؤلاء فى أهل دينهم كالمستضعفين(٨٨).

واستدل من قال بمنع قتل الصناع والأجراء بقول النبى ﷺ: «**الحق خالداً، فلا يقتلن ذرية ولا عسيفاً**»(٨٩)، والعسيف هو الأجير.

قال الدسوقى: والظاهر أنه خلاف لفظى فى حال، وأن المدار على المصلحة بنظر الإمام(٩٠).

وعلى القول بجواز قتلهم، جاز استرقاقهم، وسبى نسائهم وصبيانهم، واغتنام أموالهم(٩١).

العلة فى عدم قتل هؤلاء:

إن الموجب للقتل هو الحراب، ويدل على ذلك أن رسول الله ﷺ عندما رأى امرأة مقتولة قال: «**هاه ما لها قتلت، وما كانت تقاتل؟**»، وهؤلاء الذين ذكرناهم، لا يقتلون، والمجنون والصغير غير مخاطب(٩٢).

١١ - الرسل:

وكذلك يستثنى قتل الرسل(٩٣)، الذين يرسلهم الكفار عند الجهاد، لخبر ابن مسعود قال: كنت عند النبى ﷺ يوما، إذ جاءه ابن النواحة(٩٤)، رسولاً من مسيلمة، قد بعثه إلى النبى ﷺ، هو وابن وثال(٩٥)، فكَلَّمَا النبى ﷺ، فقال لهما: إنى رسول الله، أتشهدان أنى رسول الله، فقالا له: أتشهد أنت أن مسيلمة رسول الله؟ فقال لهما: «آمنت بالله ورسوله، لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما»(٩٦).

١٢ - من لا رأى لهم:

لقد عمم بعض العلماء بأنه كل من لا رأى له فى الحرب فإنه لا يقتل، إلا أن يقاتل(٩٧).

حكم من تعمد قتلهم:

ذهب الشافعية والحنابلة إلى أنه من قتل أعمى، أو امرأة، أو صبيا، أو مجنونا، ونحوهم غرم الثمن غنيمة، وعليه العقوبة، أى: التعزير لقتله من لا يحل قتله(٩٨).

مصير من ليس من أهل الحرب:

ذهب المالكية إلى أن الحاكم مخير فيهم بين ثلاثة أوجه: الاسترقاق، والعتق، والفداء، إلا الرهبان والأحبار يكونان حرين ولا يسترقان، ويترك له ماله على الأشهر(٩٩).

إعاشة من ليس من أهل الحرب:

إن من شفقة الإسلام، أن نص العلماء على أنه يترك لمن لا يقتل ولا يؤسر ما يتعيشون منه، كالبقرة، والغنيمات، والبغلة، والنخيلات، وما يقوم بمعاشهم، ويؤخذ الباقى، أو يخرب، أو يحرق(١٠٠).

وذهب بعض المالكية إلى أنه يترك لهم أموالهم كلها[101].

القتل بالرمى بالمنجنيق[102]، والغارة والتبييت[103]:

اختلف العلماء فى حكم قتل من ليس من أهل الحرب من المشركين بالرمى بالمنجنيق، أو ما يعم الهلاك به كالتحريق بنار، أو تغريق بماء.

فذهب أبو حنيفة وأصحابه والثورى إلى أنه: لا بأس برمى حصون المشركين، وإن كان فيهم من ليس من أهل الحرب كالأطفال، ولا بأس أن يحرق الحصن، ويقصد به المشركين[104].

وقال الشافعى: لا بأس برمى الحصن وفيه أسارى وأطفال، ومن أصيب فلا شىء فيه، وإن تترسوا ففيه قولان:

أحدهما: يرمون، لقوله تعالى: ﴿**وخذوهم واحصروهم**﴾[105]، وحاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف، ونصب عليهم المنجنيق، لئلا يتخذوا ذلك ذريعة إلى تعطيل الجهاد، أو حيلة على استبقاء القلاع لهم، وفى ذلك فساد عظيم، ولأن مفسدة الإعراض أكثر من مفسدة الإقدام، فإن لم تدع إليه ضرورة لم يجز رميهم؛ لأنه يؤدى إلى قتلهم بلا ضرورة[106].

ثانيهما: لا يرمون إلا أن يكون المشرك، ويتوخى جهده[107].

وعند الحنابلة: يجوز تبييت كفار ولو قتل بلا قصد من يحرم قتله[108].

قال أحمد: لا بأس بالبيات، وهل غزو الروم إلا البيات، وقال: أما أن يتعمد قتلهم (يعنى النساء والذرية) فلا[109]، فإذا تترس الكفار بالنساء والصبيان ومن لا يقتل سواء كانت الحرب ملتحمة حين ذلك أو لا، جاز رميهم بقصد المقاتلة[110].

قال أبو عمر:من سنة رسول الله ﷺ الغارة على المشركين صباحا وليلا، وبه عمل الخلفاء الراشدون[111].

وروى جندب بن مكيث الجهنى قال: بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثى، ثم أحمد بن خالد بن عوف فى سرية كنت فيهم، وأمرهم أن تشن الغارة على بنى الملوح بالكديد، قال فشننا عليهم الغارة ليلاً[112].

قال ابن عبد البر: ومعلوم أن الغارة يتلف فيها من دنا أجله، مسلما كان أو مشركاً، وطفلا وامرأة[١١٣].

وعن سلمان الفارسى أنه قال: يا رسوا الله أرى أن تنصب عليهم المنجنيق، فإنا كنا بأرض فارس ننصب المجانيق على الحصون، فنصيب من عدونا، فإن لم يكن منجنيق، لطال المقام، فأمر رسول الله ﷺ فعمل المنجنيق بيده، فنصب على حصن الطائف[١١٤].

وأما الأطفال من المشركين فى الغارة، فقد جاء فيهم حديث الصعب بن حثامة، أنه سأل رسول الله ﷺ عن الدار من المشركين يبيتون، فيصاب من ذراريهم، قال رسول الله ﷺ: «**هم منهم**»[١١٥]، وكان عمرو بن دينار يقول: هم من آبائهم. أى حكمهم حكم آبائهم، لا دية فيهم ولا كفارة ولا إثم[١١٦].

ولكن الزهرى قال: نهى رسول الله ﷺ بعد ذلك عن قتل النساء والولدان، وجعل حديث الصعب بن حثامة منسوخاً بنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والولدان، وغيره يجعله محكماً غير منسوخ، ولكنه مخصوص بالغارة، وترك القصد إلى قتلهم، فيكون النهى حينئذ يتوجه إلى من قصد قتلهم، وأما من قصد قتل آبائهم فأصابهم وهؤلاء فلا.

قال ابن عبد البر: ومن جهة النظر لا يجب أن يتوجه النهى إلا إلى القصد، لأن الفاعل لا يستحق اسم الفعل حقيقة دون مجاز إلا بالقصد والنية والإرادة، ألا ترى أنه لو وجب عليه فعل شىء ففعله وهو لا يريده، ولا ينويه، ولا يقصده، ولا يذكره، هل كان ذلك يجزى عنه من فعله، أو يسمى فاعلا له[١١٧].

المراجــع

وزارة الأوقاف ـ المغرب ـ ١٣٨٧هـ.

● الاختيار لتعليل المختار ـ عبد الله بن محمود بن مودود ـ دار المعرفة ـ بيروت.

● منتهى الإرادات ـ تقى الدين محمد بن أحمد الفتوحى ـ تحقيق عبد الغنى عبد الخالق ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط الثانية ـ ١٤١٦هـ.

● حاشية الشيخ إبراهيم البيجورى على شرح العلامة ابن قاسم الغزى، على متن أبى شجاع ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤١٤هـ.

● الصحاح ـ إسماعيل بن حماد الجوهرى ـ تحقيق شهاب الدين ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط الأولى ١٤١٨هـ.

● حاشية العدوى ـ على بن أحمد الصعيدى العدوى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

● نيل المآرب بشرح دليل الطالب ـ عبد القادر بن عمر الشيبانى ـ مكتبة الفلاح ـ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

● التفريع ـ عبيد الله بن الحسين بن الحسن بن الجلاب ـ تحقيق حسين بن سالم ـ دار الغرب الإسلامى ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

● اللباب فى شرح الكتاب ـ عبد الغنيمى الميدانى ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

● جواهر الإكليل شرح مختصر الشيخ خليل ـ صالح عبد السميع الآبى الأهرى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

● معونة أُولى النهى شرح المنتهى ـ أبى النجار الفتوحى الحنبلى ـ تحقيق عبد الملك بن عبد الله ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤١٩هـ.

● الإقناع ـ محمد بن إبراهيم بن المنذر ـ تحقيق عبد الله بن عبد العزيز ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤١٨هـ.

● الإفصاح عن معانى الصحاح ـ الوزير أبو مظفر يحيى بن محمد بن هبيرة ـ تحقيق محمد حسن ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط الأولى ١٤١٧هـ.

● العدة شرح العمدة ـ عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسى ـ دار الأرقم ـ بيروت ـ لبنان.

الهوامش

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.
(٢) مسلم ١٧٣١، وأبو داود ٢٦١٣، والترمذى ١٦١٧.
(٣) حاشية العدوى (٢/٣).
(٤) الصحاح ١/٣٩٥.
(٥) فتح باب العناية ٣/٢٥٨.
(٦) جواهر الإكليل ١/٣٥٢.
(٧) حاشية العدوى (٢/٣).
(٨) حاشية البيجورى ٢/٣٨٦.
(٩) منتهى الإرادات (١/٢٢٨)، ونيل المآرب ١/٢١٩.(١٠) نيل الأوطار، ص ١٥٤١.
(١١) نيل الأوطار، ص ١٥٤١.
(١٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.
(١٣) سورة النساء، الآية: ٨٩.
(١٤) سوة التوبة، الآية ٣٦.
(١٥) مسلم ـ ١٩١٠.
(١٦) حاشية البيجورى ٢/٣٨٦.
(١٧) سورة الأنعام، الآية: ١٠٦.
(١٨) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.
(١٩) سورة الحج، الآية ٣٩.
(٢٠) الإقناع ـ ابن المنذر ٢/٤٤٧.
(٢١) نيل الأوطار، ص ١٥٤٣.
(٢٢) روضة الطالبين ١٠/٢٠٨.
(٢٣) اللباب ٢/٢٩٧. التفريع ١/٣٥٧، وحاشية الدسوقى (٢/٢٧٤)، ونيل الأوطار ص ١٥٤٣.
(٢٤) الإفصاح ٢/٢٣٤.
(٢٥) سورة النساء، الآية: ٩٥.
(٢٦) العدة ص ٥٣٥.
(٢٧) الاختيار ٤/١١٨.
(٢٨) اللباب (٢/٢٩٦).
(٢٩) سورة التوبة: ١٢٢.
(٣٠) الاختيار ٤/١١٨.
(٣١) حاشية البيجورى ٢/٣٨٦.
(٣٢) نيل الأوطار ص ١٥٤٢.
(٣٣) سورة التوبة: ٤١.
(٣٤) الاختيار ٤/١١٧.
(٣٥) التمهيد ١٦/١٤٤.
(٣٦) جواهر الإكليل ١/٣٥٢، وحاشية الدسوقى (٢/٢٧٤).
(٣٧) حاشية الدسوقى (٢/٢٧٤)، نيل الأوطار ص ١٥٤٢.
(٣٨) فتح باب العناية ٣/٢٥٨، نيل الأوطار ص ١٥٤٢، ومنتهي الإرادات ١/٢٢٨، وحاشية البيجورى ٢/٣٨٦.
(٣٩) حاشية البيجورى ٢/٣٨٦، فتح الوهاب ٢/٢٩٦، وروضة الطالبين ١٠/٢٠٨.
(٤٠) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية ـ د. يوسف حامد العالم، ص ١٥٧.
(٤١) سورة التوبة: ٦٠.
(٤٢) معونة أولى النهى ٤/٢٢٤، والعدة ص ٥٤٠.

(٤٣) الإفصاح ٢/٢٢٤.

(٤٤) رواه البخارى.

(٤٥) رواه أحمد (٢/١٦٠)، وأبو داود (٢٥٢٨)، وابن ماجه (٢٧٨٢).

(٤٦) رواه أحمد (٣/٤٢٩)، والنسائى (٦/١١).

(٤٧) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

(٤٨) فتح باب العناية ٣/٢٥٨.

(٤٩) البخارى ـ باب قتل النساء فى الحرب.

(٥٠) الاختيار ٤/١٢٠.

(٥١) أبو داود ٣/٥٣، وابن ماجه ٢/٩٤٨، وأحمد ٣/٤٨٨، والحاكم ٢/١٢٢.

(٥٢) حاشية الدسوقى ٢/٢٧٨.

(٥٣) حاشية الدسوقى ٢/٢٧٨.

(٥٤) التمهيد ١٦/١٤٢.

(٥٥) معونة أولى النهى ٤/٣٦١.

(٥٦) حاشية العدوى ٢/١٠.

(٥٧) حاشية الدسوقى ٢/٢٧٩.

(٥٨) الاختيار ٤/١٢٠.

(٥٩) منتهى الإرادات ١/٢٣٠، معونة أولى النهى ٤/٣٥٩.

(٦٠) حاشية البيجورى ١/٢٩١.

(٦١) الاختيار ٤/١٢٠.

(٦٢) حاشية الدسوقى ٢/٢٧٨، ومنتهى الإرادات ١/٢٣٠.

(٦٣) فتح باب العناية ٣/٢٦٦.

(٦٤) حاشية الدسوقى ٢/٢٧٨، وجواهر الإكليل ١/٣٥٥.

(٦٥) اللباب ٢/٣٠٠، وفتح باب العناية ٣/٢٦٦.

(٦٦) حاشية الدسوقى ٢/٢٧٨.

(٦٧) حاشية الدسوقى ٢/٢٧٩، ومنتهى الإرادات ١/٢٣٠.

(٦٨) اللباب ٢/٣٠٠.

(٦٩) روضة الطالبين ١/٢٤٢.

(٧٠) الاختيار ٤/١٢٠، ومعونة أولى النهى ٤/٣٦١.

(٧١) الاختيار ٤/١٢٠، والتمهيد ١٦/١٤٢، ومعونة أولى النهى ٤/٣٦١.

(٧٢) اللباب ٢/٣٠٠، وروضة الطالبين ١٠/٢٤٣.

(٧٣) حاشية الدسوقى ٢/٢٧٩، ومنتهى الإرادات ١/٢٣٠.

(٧٤) فتح باب العناية ٣/٢٦٦، ومنتى الإرادات ١/٢٣٠.

(٧٥) اللباب ٢/٣٠٠، روضة الطالبين ١٠/٢٤٥.

(٧٦) روضة الطالبين ١٠/٢٤٤.

(٧٧) فتح باب العناية ٣/٢٦٥، وحاشية الدسوقى ٢/٢٧٩، ومنتهى الإرادات ١/٢٣٠.

(٧٨) فتح باب العناية ٣/٢٦٥، والتفريع ١/٣٦٠، ومنتهى الإرادات ١/٢٣٠.

(٧٩) اللباب ٢/٣٠٠، روضة الطالبين ١٠/٢٤٣.

(٨٠) حاشية العدوى ٢/٩.

(٨١) الاختيار ٤/١٢٠، وحاشية الدسوقى ٢/٢٧٩، حاشية العدوى (٢/٩).
(٨٢) أخرجه سعيد بن منصور فى سننه ٢٣٨٣.
(٨٣) سورة التوبة، الآية: ٥.
(٨٤) أبو داود ٢٦٧٠.
(٨٥) معونة أولى النهى ٤/٣٦٠.
(٨٦) الاختيار ٤/١٢٠، وحاشية الدسوقى ٢/٢٧٩، التفريع ١/٣٩٢.
(٨٧) فتح الوهاب ٢/٣٠٠.
(٨٨) حاشية الدسوقى ٢/٢٧٩، حاشية العدوى (٢/٩) وروضة الطالبين ١٠/٢٤٣.
(٨٩) رواه أبو داود ٣/٥٣، وابن ماجه ٢/٩٤٨، وأحمد ٣/٤٨٨، والحاكم ٢/١٢٢.
(٩٠) حاشية الدسوقى ٢/٢٧٩.
(٩١) روضة الطالبين ١٠/٢٤٤.
(٩٢) الاختيار ٤/١٢٠.
(٩٣) الإقناع ـ ابن المنذر ٣/٤٦١.
(٩٤) هو عبد الله بن النواحة الحنفى، من بنى حنيفة.
(٩٥) هو حجْر بن وثال. البداية والنهاية ٥/٤٧.
(٩٦) ابن حبان ١٦٢٩. الحاكم ٢/١٤٢.
(٩٧) العدة ص ٥٤٥.
(٩٨) منتهى الإرادات ١/٢٣١، معونة أولى النهى ٤/٣٦٥ ـ ٣٦٨.
(٩٩) حاشية العدوى (٢/٩).
(١٠٠) حاشية الدسوقى ٢/٢٧٩.
(١٠١) حاشية الدسوقى ٢/٢٧٩.
(١٠٢) بفتح الميم، وتكسر، آلة يرمى بها الحجارة، معربة، وقد تذكر، فارسيتها (من جه نيك) أى ما أجودنى. فتح باب العناية ٢/٢٦٢.
(١٠٣) تبييت الكفار: كبسهم ليلاً، وقتالهم وهم فارون. معونة أولى النهى ٤/٣٥٧.
(١٠٤) فتح باب العناية ٣/٢٦١، والتمهيد ١٦/١٤٤.
(١٠٥) سورة التوبة، الآية: ٥.
(١٠٦) فتح الوهاب ٢/٣٠٠.
(١٠٧) التمهيد ١٦/١٤٤، وفتح الوهاب ١/٣٠٠.
(١٠٨) منتهى الإرادات ١/٢٣٠.
(١٠٩) معونة أولى النهى ٤/٣٥٧.
(١١٠) معونة أولى النهى ٤/٣٦٢.
(١١١) التمهيد ١٦/١٤٤.
(١١٢) التمهيد ١٦/١٤٤.
(١١٣) التمهيد ١٦/١٤٤.
(١١٤) المغازى ـ الواقدى.
(١١٥) متفق عليه. البخارى ٤/٢٠، ومسلم ٣/١٣٦٤.
(١١٦) التمهيد ١٦/١٤٥ ـ ١٤٦.
(١١٧) التمهيد ١٦/١٤٥.

تحديد المفاهيم فى مجال الصراع البشرى
الجهاد - القتال - العنف - الإرهاب

الأستاذ الدكتور / عبد الله مبروك النجار
الأستاذ بكلية الشريعة والقانون
جامعة الأزهر – مصر

تقديـــم:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده، سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه، ومن سار على منوال شريعته، واتبع منهاج دينه إلى يوم الدين.

وبعد،،

فقد كان تحديد المفاهيم فى كل ميدان - ولا يزال - هو الأساس للفهم الصحيح والحكم العادل على الأمور، وهو فى عصرنا الحاضر يكتسب أهمية خاصة، حيث اختلطت المفاهيم أمام الناس وتداخلت حقائق الأمور أمام أعينهم، حتى أوشكت أن ترسخ فى أذهانهم فهما يجافى الحقيقة ويضاد الواقع، وأصبح من العادى أن يتحول الكذب صدقا والصدق كذبا، وأن تغدو الجريمة شرفا والشرف جريمة، وفى ظلال هذا الانحراف فى الفهم والخطأ فى التصور يمارس الظالمون على المستضعفين قهرا لم تشهد البشرية له مثيلا من قبل، فإذا ما وُجِّه إليهم لوم أو صدر عليهم استنكار أبدوا من الأقوال ما يجافى الحق، ومن المبررات ما ينافى الحقيقة فيسمون المجازر حربا للإرهاب، ويطلقون على الكفاح الشريف عن الأرض والعرض والوطن إرهابا. لقد غدا اختلاط المفاهيم فى عصرنا آفة

إنسانية، ولافتة عادية تراق خلفها الدماء، وتنتهك الحرمات جهاراً نهاراً على مرأى من العالم، ومسمع من الكافة، دون استحياء من ضمير، أو مراعاة لخُلُق، ودون خوف من جزاء أو محاسبة، وأصبح الناس فى ظل ذلك الخلط فوضى لا يحترمون عهدا، ولا يرعون ميثاقا، ومن ثم غدا من الأهمية أن يتم تصحيح ذلك الوضع الخاطئ، واعتدال هذا النظر المقلوب، وذلك تحقيقا لأمرين:

أولهما: إزالة تلك الحجب الزائفة التى يتخذ منها بعض ذوى المآرب الخبيثة، والنوايا السيئة، ستارا لارتكاب جرائمهم وتحقيق مآربهم، لأن تسمية الأشياء بغير مسمياتها يعد مدخلا خطيراً لقلب الحقائق وتزييف الواقع، ولهذا أمرنا الله بالسداد فى القول حين قال سبحانه ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً**﴾ (١)

والقول السديد هو الذى يطابق الواقع، ويصادق الحق والصواب.(٢) ولا شك أن اختلال المفاهيم واختلاط الأمور مما ينافى هذا المعنى، كما أنه يعد ذريعة لارتكاب الجرائم وانتهاك الحرمات، وهى آثام عظيمة وموبقات كبيرة وما يوصل إليها يكون على شاكلتها فى الإثم والحرمة.

ثانيهما: إن الإنسان مكلف من قبل ربه بأن يقوم بما شرعه، وأن يلتزم بما بعث به انبياءه ورسله من أمور التكليف، التى تجسدت فى قمة كمالها وتمام رفعتها فيما بعث به خاتم أنبيائه محمد ﷺ، ومن أمور ذلك التكليف أن يلتزم المؤمنون الصدق، ومن أعظم أبوابه تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية، والبعد عن تزيين الموبقات بالألفاظ الجميلة والألقاب الفخيمة، والصدق يعنى الحكم الصحيح على الأشياء، وأن يكون ما يتلفظ به الإنسان فى وصفها مطابقا للواقع ومصادفا للحق، وذلك حتى يكون الحكم على الأشياء صحيحا؛ ولهذا أمرنا الله بالعدل فى القول بقوله عَزَّ من قائل ﴿**وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفو ذلكم وصاكم به لعلكم تَذَكَّرون**﴾.(٣)

ومما لا شك فيه أن تسمية الأشياء بمسمياتها الصحيحة؛ والبعد بها عن مجال التزييف اللفظى والتدليس البيانى هو المدخل للحكم الصحيح عليها، لما هو معروف أن الحكم على الشيئ فرع عن تصوره، ونحن مأمورون بالعدل فى النظر

للأمور، كما أننا مأمورون بالعدل فى الحكم عليها، ولا مدخل لإنجاز ذلك الأمر الجازم إلا بالوصف الصحيح والتعبير الصادق عن الأمور، وكما يبدو فإن الأمر على درجة عالية من الأهمية للفرد وللجماعة معا، وفى ضوء أهميته تلك يجيئ موضوع هذا البحث وعنوانه: «تحديد المفاهيم فى مجال الصراع البشرى : الجهاد - القتال - العنف - الإرهاب»، الذى يرجع الفضل فى تلمس أهميته واستشعار فائدته بعد الله إلى الذين قاموا بإعداد محاور المؤتمر الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وعلى رأسهم بالقطع فضيلة الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق، الذى شرفنى بتكليفى للكتابة فيه، وها أنا ذا فاعل وشاكر ومقدر، أدعو الله تبارك تعالى أن يجعله خالصا لوجهه، وأن ينفع به، إنه ولىّ ذلك والقادر عليه، وهو سبحانه الموفق والمعين.

وتتمثل خطة دراسة هذا الموضوع فى بيان مفاهيم المفردات المكونة للصراع البشرى، وهى كما وردت فى عنوان البحث : الجهاد، والقتال، والعنف، والإرهاب. وسوف أخصص لبيان كل منها مبحثا بعد تمهيد يبين المقصود بتحديد المفاهيم، ومن ثم تكون خطة الدراسة كما يلى:

تمهيـــــــد : لبيان المقصود بتحديد المفهوم.

المبحث الأول : مفهوم الجهاد.

المبحث الثانى: مفهوم القتال.

المبحث الثالث : مفهوم العنف.

المبحث الرابع : مفهوم الإرهاب.

خـاتمـــــــة : تبين أهم النتائج المستفادة من تحديدمفاهيم مصطلحات البحث.

تمهيد
المقصود بتحديد المفاهيم

تحديد المفاهيم عبارة تتألف من كلمتين، أضيفت الثانية منهما إلى الأولى فصارت مركبا إضافيا من لفظى تحديد والمفاهيم، ومن ثم يجدر بيان كل منهما.

والتحديد لغة: من الحد، وهو المنع أو الحاجز بين الشيئين ومنه حد الدار أى الذى يوضح حدودها ويحجزها عن غيرها(٤)، وحد كل شيىء نهايته، وتحديد الشيىء إقامة حدوده وفصله عن غيره، ومنه تحديد اللفظ، يقال: حدد معنى اللفظ أو العبارة؛ أى وضحه وبينه(٥).

وهو فى الاصطلاح لا يخرج عن هذا المعنى، لأن تحديد اللفظ معنىً : ضبط معناه بما يطابق الواقع، ويجعل معناه دالاً على ما وُضع له من غير اختلاط بغيره، ويعرف بأنه اللفظ الشارح لغيره يتعدد أوصافه الذاتية واللازمة بحيث يضطرد وينعكس، كتعريف الخمر بأنها مائع يقذف بالزبد ويستحيل إلى حامض ويحفظ فى الدن(٦).

والمفاهيم : جمع مفهوم، من الفهم يقال : فهم، أى أحسن التصور والإبانة للشيىء، أو هو حسن تصور معنى الشيىء، والمفهوم: مجموع الخصائص الموضحة لمعنى كلىّ. ويقابله الماصدق ومنه الفقه أى حسن الإدراك أو العلم القائم عن فهم وفطنة.(٧) وفى اصطلاح علماء المنطق يعرف بأنه: كون اللفظ الدال بحالة يلزم من العلم به العلم بشيئ آخر،(٨) والمراد بالأول اللفظ المعبر به، وبالثانى المدلول: والتعبير باللفظ الدال هنا يلزم منه أن يكون تعبيرا لفظيا، وهو المراد فى موضوعنا، لأن المفاهيم المختلطة يغلب فيها أن تكون ألفاظا، ومن ثم يخرج الدال غير اللفظى كالدلالة العقلية، ومنها دلالة المتكلم من وراء الجدار على حياته، فإذا انهار منزل على سكانه أمكن الاستدلال على حياة الحى منهم بانبعاث صوته من تحت الأنقاض، ومن الدلالات غير اللفظية دلالة التغيير فى العالم على حدوثه،

ولادلة التأوه على المرض، وحمرة الوجه على الخجل، وصفرته على الوجل،[٩] فهذه الوسائل دالة على معانى، لكنها قد دلت عليها بغير اللفظ، ومايعنينا هو الدال اللفظى، لأنه مناط موضوعنا.

والمفهوم عند الأصوليين:

هو دلالة الكلام على حكم فى محل لم يتناوله اللفظ نطقا موافق لحكم المنطوق به، أو مخالف له، وتسمى دلالة المفهوم بالمقابلة لدلالة المنطوق الصريحة، فإذا كان حكم المسكوت عنه موافقا لحكم المنطوق به سمى مفهوم الموافقة أو فحوى الخطاب أو لحنه، وإذا كان مخالفا سمى مفهوم المخالفة أو دليل الخطاب، ومثاله قول النبى ﷺ: «فى الغنم السائمة زكاة»، (فإنه يفيد بمفهوم المخالفة أن غير السائمة ليس فيها زكاة)، وقوله ﷺ «لىَّ الواجِد ظلم «يحل عرضه وعقوبته»، (فإنه يفيد أن غير الواجد لا يحل عرضه ولا عقوبته)[١].

ومثال مفهوم الموافقة أو ما يسمى بقياس الأولى أو القياس الجلى قول الله تعالى: ﴿ **إما يبلغن عندك الكِبَر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً**﴾،[١١] فقد نهى هذا القول الكريم الولد أن يقول لأحد والديه (أف) فلأن يكون النهى واردا على ما هو أشد من ذلك إيذاء: كالضرب والشتم وترك الإنفاق عليهما مع حاجتهما إليه من باب أولى أو القياس الجلى.[١٢]

ونخلص مما سبق إلى أن تحديد المفهوم يقصد به التعبير عنه باللفظ الذى يدل عليه دلالة كافية تصلح لتصور معناه، على نحوٍ يبين خصائصه ويحدد معالمه، مع بيان الحدود التى تفصله عن غيره، وتمنعه من الاختلاط به، وهذا المعنى المراد من الاصطلاح وهو المقصود فى موضوع تلك الدراسة.

المبحث الأول

مفهوم الجهاد

يقتضى بيان مفهوم الجهاد أن نُعّرف به ونبين حكمه فى مطلب أول، ثم نبين أسس مشروعية الجهاد فى مطلب ثانٍ وذلك كما يلى:

المطلب الأول
تعريف الجهاد، وبيان حكمه الشرعى
الفرع الأول
تعريف الجهاد

الجهاد كلمة تطلق ويراد بها بذل غاية الجهد والطاقة، وصولا إلى ما يجب تحقيقه، امتثالا لأمر الدين وتحقيقا لمقاصده. ولما كان الجهاد بذل غاية الجهد فإنه يستوعب الطاقة البشرية بما فيها من صحة، وعافية، وفكر وطاقة قد تستغرق الحياة نفسها، فيبذلها صاحبها فى هذا المقصد الشريف، كما يستوعب توابع النفس من المال والعتاد والإعانة، فهو جهد يستوعب كل الطاقة فى النفس والمال وصولا إلى أسمى هدف وأنبل غاية وهو الانتصار لدين الله، ودحر الباطل، والارتقاء بالنفس إلى ما يجب أن تكون عليه من سمو وكمال والتزام بطاعة الله عز وجل، وهو هدف لا يستهان به، لأنه ربما يكون جهاد النفس أقوى من جهاد الأعداء، لأنها من صفوفهم وتأتمر بما يأتمرون به عليه من تربص بصاحبها، والحيلولة بينه وبين ما يجب عليه فعله من الطاعة، وصدق الله العظيم حين قال فى وصف النفس حين ورطت امرأة العزيز مع نبيه يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، فقالت كما حكى عنها القرآن الكريم: **﴿ وما إبرئ نفسى إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم﴾**(١٣).

حيث نسبت ما ترددت فيه من نقص ورذيلة إلى نفسها، التى دفعتها إلى النقيصة دفعا لا يصدر إلا من عدوٍ أو كاره(١٤) ولهذا جعل النبى ﷺ جهاد النفس من الجهاد الأكبر فقال: «**رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد**

القلب»،[١٥] وفى رواية: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس**»،[١٦] حيث وصف جهاد القلب ومقاومة النفس بأنه هو الجهاد الأكبر، وهذا حق يصدقه الواقع ويدركه العقل الصحيح.

والجهاد لغة: مصدر جاهد يجاهد جهاداً ومجاهدة، إذا بالغ فى قتل عدوه، كقاتل يقاتل قتالاً ومقاتلة، وهو مأخوذ من الجَهْد (بفتح الجيم) أى المشقة لما فيه من ارتكابها، يقال: جهد الرجل دابته إذا حمل عليها فى السير فوق طاقتها، وجهده الأمر والمرض إذا بلغ منه المشقة وقيل : هو مشتق من الجُهْد (بالضم) وهو الطاقة، والمبالغة، واستفراغ ما فى الوسع، لأن كل واحد يجاهد إنما يستفرغ طاقته فى الوصول لما يريده.

وفى اصطلاح الفقهاء: اختلفت أقوالهم فى تعريفه كما يلى:

(١) عرفه الحنفية بأنه:

بذل الجهد والطاقة فى سبيل الله، دفاعا عن الحق بالنفس والمال مع المبالغة فى ذلك.[١٧] وهو كما يقول الميرغيانى: ما فرض لعينه، إذ هو إفساد فى نفسه، وإنما شرع لإعزاز دين الله، ودفع الشر عن العباد[١٨].

(٢) وعرفة المالكية بأنه:

قتال الكفار إعلاءً لكلمة الدين إذا حضروا إلينا مقاتلين، أو دخلوا أرضاً إسلامية تعدياً ابتغاء الفتنة.[١٩] أو هو دفع عدو المسلمين إذا هجم على بلادهم، فإذا هاجم بعض بلادهم تعين عليهم دفعه، فإن لم يقدروا لزم من قاربهم، فإن لم يستقل الجميع وجب على سائر المسلمين حتى يندفع[٢٠].

(٣) وعند الشافعية يعرف الجهاد:

بأنه القتال فى سبيل الله لنصرة الإسلام، كما يطلق على جهاد النفس والشيطان[٢١].

(٤) وعند الحنابلة يعرف الجهاد بأنه:

القتال لدفع المشركين إذا هجموا ممن يقدر عليه بشروطه، ويطلق على قتال الكفار خاصة، بخلاف غيرهم من المسلمين كالبغاة وقطاع الطريق، ومن ثَمَّ يكون

بينه وبين القتال عموم مطلق،[٢٢] يقول ابن القيم فى زاد المعاد: والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين، إما بالقلب وإما باللسان وإما بالمال وإما باليد، وعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع[٢٣].

(٥) وعند الظاهرية يُعَرَّف الجهاد بأنه:

دفع العدو، وغزوه فى عقر داره، وحماية ثغور المسلمين[٢٤].

(٦) وعند الزيدية يُعَرَّف بأنه:

بذل الجهد فى قتال الكفار، ويطلق على جهاد النفس، والشيطان، والفساق[٢٥].

ومن خلال مطالعة أقوال الفقهاء يمكن القول إن لهم فى محل الجهاد قولين:

أولهما: لفقهاء الحنفية والشافعية وابن القيم وابن حزم،[٢٦] وحاصل قولهم: إن المصلحة فى الجهاد لا تقتصر على قتال الكفار وحدهم، وإنما تشمل جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الفساق.

ثانيهما: لفقهاء المالكية والحنابلة، وحاصل قولهم: إن الجهاد يتعلق بقتال الكفار خاصة.

ولكل قولٍ أدلته:

(أ) استدل أصحاب القول الأول لما ذهبوا إليه بالكتاب والسنة والمعقول.

أولاً: من الكتاب:

بقول الله تعالى ﴿**وجاهدوا فى الله حق جهاده**﴾[٢٧] وقوله تعالى ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**﴾[٢٨].

ووجه الدلالة فى هاتين الآيتين على المطلوب: أن الله - تبارك وتعالى - قد أمر بالجهاد فى الآية الأولى وأخبر أن من يجاهد فى سبيله سوف يهديه الله إلى سبيله، وفى ذلك من الدلالة على طلبه من الشارع ما يفيد مشروعيته، فهو

مطلوب من الشارع فى الآيتين، وقد جاء طلبه عامًا شاملاً لكافة الميادين التى يمكن أن تكون محلاً له، وإذا كان جهاد الكفار مما لاخلاف فيه فإن جهاد النفس والشيطان والفساق على شاكلته فى دحض الباطل والانتصار للحق وإعلاء القيم الدينية التى أمر الشارع بالجهاد انتصاراً لها، ويكون فى هاتين الآيتين الكريمتين دلالة على المطلوب.

ثانيا: ومن السنة النبوية:

(١) بما روى أنه ﷺ قال: «**رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد القلب**»، وفى رواية «**جهاد النفس**»[٢٩] وفى رواية عن جابر أن رسول الله ﷺ قال رجعوا من الجهاد: «**قدمتم خير مقدم، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، مجاهدة العبد هواه**» وفى رواية: «قالوا: **وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال: جهاد النفس**»[٣٠].

ووجه الدلالة فى هذه الأحاديث على المطلوب:

أنه ﷺ قد بين أن جهاد النفس من ضمن أنواع الجهاد، ووصفها بالجهاد الأكبر، فدلَّ ذلك على أن الجهاد يشملها، وأنه ليس مقتصراً على جهاد الكفار وحده، وذلك هو المطلوب.

(٢) وبما روى فى الحديث الصحيح: «**إن الشيطان قعد لابن آدم ثلاث مقاعد .. قعد له فى طريق الاسلام فقال له: أتذر دينك ودين آبائك وتسلم فخالفه وأسلم، وقعد له فى طريق الهجرة فقال: له أتذر أهلك ومالك فخالفه ثم هاجر، وقعد له فى طريق الجهاد فقال له: تجاهد فتقتل وتنكح أهلك ويقسم مالك؟ فخالفه فجاهد. فمن جاهد فقتل فحق على الله تعالى أن يدخله الجنة**»[٣١].

ووجه الدلالة فى هذا الحديث الشريف على المطلوب:

أن النبى ﷺ قد بَيَّن أن مخالفة الشيطان جهاد، فمن جاهد شيطانه فيما يقعده عنه من الخير يكون من المجاهدين، ومن ثم كان لفظ الجهاد ومعناه شاملاً لهذا المعنى.

(٣) وبما روى أنه ﷺ قال: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».**[٣٢]

ووجه الدلالة فى الحديث على المطلوب:

أنه قد دلَّ على أن مجاهدة الفاسقين تكون باليد من ذوى الولاية العامة المختصين بإقامة الحدود وتأديب المخالفين؛ أو الولاية الخاصة كولاية الزوج على زوجته وولايته على أبنائه، ثم باللسان من أهل العلم أو العارفين بالصواب من الأمور، ثم بالقلب من الكافة فلا يجوز لهم أن يقروا الخطأ أو الانحراف، أو ينحرفوا إلى تياره تقليداً وإمعية، بل يجب عليهم التمسك بالحق حتى ولو انصرف الجميع عنه، ولم يفلح معهم التغيير باليد أو التغيير باللسان وهذا أضعف الإيمان.[٣٣]

ومجمل دلالة تلك الأحاديث على المطلوب:

أنها تدل على أن الجهاد ليس مقتصرا على قتال الكفار وحده، ولكنه شامل لجهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الفساق.

ثالثا: ومن المعقول:

استدل القائلون بأن معنى الجهاد شامل لجهاد الكفار والنفس والشيطان والفساق لما ذهبوا إليه من المعقول فقالوا:

إن غاية الجهاد هو الانتصار للحق، وإعلاء كلمة الله، والزود عن حياض الدين وتوجيهاته، وهذه الغاية كما تتحقق بجهاد الكفار فإنها تتحق بجهاد النفس والشيطان والفساق، بل إن جهاد الكفار مع إهمال الجهاد فى تلك المجالات يؤدى إلى تراجع أحكام الله فى أهم المجالات التى يجب أن تتقدم فيها، والتى يتعين على المسلمين أن يجاهدوا دونها، وهى مجالات النفس، وداخل أرض الإسلام، وإذا لم يستطع المسلمون أن يجاهدوا أنفسهم وينتصروا للحق فيما بينهم، فكيف يستطيعون أن ينتصروا على غيرهم؟، ولهذا سمى الرسول ﷺ جهاد القلب والنفس جهاداً أكبر، بل إن الله - تبارك وتعالى - جعل تغيير ما فى النفس شرط للقدرة على تغيير ما بالقوم، فقال سبحانه: **﴿له معقبات من بين يديه ومن**

خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يُغَيِّر ما بقوم حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم﴾[٣٤] ومن ثم يكون معنى الجهاد ومقصوده متوافراً فى تلك المجالات فتكون من إطلاقاته.

(ب) واستدل أصحاب القول الثانى لما ذهبوا إليه من الكتاب والسنة والمعقول كما يلى:

أولا: من الكتاب

(١) يقول الله تعالى : **﴿ انفروا خفافاً وثِقَالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾**[٣٥].

ووجه الدلالة فى الآية الكريمة على المطلوب:

أن الله تبارك وتعالى قد أمر بالنفرة، أى الخروج للجهاد سريعاً عند توافر دواعيه وشروطه، والجهاد بذل النفس والمال فى سبيل الله، والمقصود بسبيل الله هو الجهاد الحاصل فى مواجهة الكافرين خاصة، فيكون معنى الجهاد خاصا به لا يتعداه إلى سواه.

مناقشة هذا الاستدلال:

ويمكن مناقشة الاستدلال بهذه الآية الكريمة وما قيل من أن ورودها فى مجال القتال فى سبيل الله يدل على أن قتال الكفار هو المقصود بالجهاد خاصة، أن هذا لا يمنع دلالتها على الجهاد فى المجالات الأخرى التى تقتضى الجهاد، ومنها النفس والشيطان والفساق، بل إنها ليس فيها ما يمنع من ذلك ومن ثم يكون قصرها على جهاد الكفار خاصة قصراً لها بغير دليل، وتخصيصاً لمعناها بلا مخصص وهو لا يجوز.

(٢) ويقول الله تعالى: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقَاتِلُون فى سبيل الله فيَقْتُلُون ويُقْتَلُون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا**

ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾.(٣٦)

ووجه الدلالة فى الآية الكريمة على المطلوب:

أن الله تبارك وتعالى قد أخبر بأنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وضمن لهم الجنة بسبب بذلهم النفس والمال فى سبيله، فيقتلون ويقتلون، وهذا ما وعد به فى كتبه السماوية، وبشر به عباده المؤمنين، وما يفعلونه وصولا لكل ذلك الفضل يعتبر هو الفوز العظيم، فالآية تدل على أن الجهاد هو قتال الكفار خاصة.

مناقشة الاستدلال بهذه الآية الكريمة:

ويمكن مناقشة هذا الاستدلال بأن دلالة الآية الكريمة على أن الجهاد هو بقتال الكفار خاصة لا يمنع من توافر معناه فى المواطن الأخرى، فدلالته على التخصيص بقتال الكفار هنا لا ينافى أن الجهاد فى قتال الفساق وجهاد النفس وجهاد الشيطان من أنوع الجهاد، وذلك لورود الأدلة التى تفيد ورود الجهاد فى تلك المواطن، ولا تعارض بين الأمرين.

ويقول الله تعالى: **﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلُظ عليهم ﴾**(٣٧)

ووجه الدلالة فى هذا القول الكريم على المطلوب:

أن الله تبارك وتعالى قد أمر نبيه ﷺ بجهاد الكفار والإغلاظ عليهم فى القتال وهذا يدل على أن الجهاد خاص بذلك، والخطاب الموجه إليه ﷺ بهذا التكليف خطاب لأمته، فيكون معنى الجهاد مختصا بذلك، ويكون ذلك هو مناط التكليف لهم.

مناقشة الاستدلال بالآية الكريمة:

ويمكن مناقشة الاستدلال بالآية الكريمة وما قيل فيه من الجهاد خاص بجهاد الكفار وحده، بأن دلالة الآية على جهاد الكفار لا تنفى ورود الجهاد فى المجالات الأخرى، لوجود مقتضى الجهاد فيها، ولورود الأدلة الشرعية المعتبرة عليها.

ومجمل ما تدل عليه تلك الآيات الكريمة :

أن الله - تبارك وتعالى - قد جعل الجهاد الذى كلف المؤمنين به مختصا بجهاد الكافرين دون سواه، فيكون معنى الجهاد مقتصرا عليه، وذلك ما يدل

عليه القرآن الكريم على نحو ما ورد فى الآيات السابقة.

ثانيا: ومن السنة النبوية:

(١) بما رواه البخارى أن رسول الله ﷺ قال : «**أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله**»[٣٨].

ووجه الدلالة فى هذا الحديث على المطلوب:

أن النبى ﷺ قد بين منزلة الجهاد بالنفس فى سبيل الله، وأنها ترقى بالمؤمن بين الناس فتجعله من أفضلهم، وهذا يدل على أن الجهاد الذى يصل بصاحبه إلى تلك المنزلة هو الجهاد الحق وهو المطلوب، والجهاد المقصود فى الحديث هو الجهاد فى سبيل الله، فيكون معنى الجهاد مقتصرا عليه دون سواه، وهذا هو ما يفيده الحديث.

مناقشة الاستدلال بهذا الحديث:

ويمكن أن نناقش وجه الاستدلال بهذا الحديث بما ورد على وجوه الاستدلال بأدلة أصحاب هذا القول السابقة من أن تخصيص وجوه دلالتها بجهاد الكفار تخصيص بلا مخصص، فلا يصح، ويكون معنى الجهاد شاملا لكل ميدان ينتصر فيه الدين وتعلوا كلمة الحق، ومنه جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الفساق.

٢- وبما روى عن أنس - أن رسول الله ﷺ قال : «**لغدوة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها**»، وفى رواية: «**خير مما طلعت عليه الشمس وغربت**»،[٣٩] والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة.

ووجه الدلالة فى تلك الأحاديث على المطلوب:

أنها قد خصت الجهاد وما يتعلق به من الفضل بالغدو والرواح فى سبيل الله، وهذا مختص بجهاد الكفار، فيكون هو المطلوب.

ولا يخفى أن ذلك الاستدلال يمكن أن يناقش بأن قصر معنى الجهاد على جهاد الكفار تخصيص بلا مخصص، فلا يجوز.

ثالثا: ومن المعقول:

أن جهاد الكفار أشد خطراً وأكثر تدميراً لمقومات الأمة وتهديد وجودها، وهو الذى يؤدى إلى فوات مصالح الدين والدنيا التى نزلت لحمايتها أديان السماء وحفظتها الشرائع، فيكون مما يلائم شدة خطره أن يكون التوجه إليه والاهتمام به، ولا يتفق مع ذلك توزيع معناه على ميادين مختلفة، حيث يؤدى ذلك التوزيع إلى تجزؤ الاهتمام به فى تلك المواطن الجليلة والمنازل الخطيرة، فيكون اختصاص معناه بجهاد الكفار هو الأولى، وهو المطلوب.

الرأى الراجح فى نظرنا:

ونحن نرى أن الرأى الراجح هو القول الأول الذى ذهب أصحابه إلى أن معنى الجهاد شامل لجهاد الكفار وجهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد الفساق، وذلك لما يلى:

أولا: لقوة أدلته وسلامتها من المناقشات والمآخذ التى تقدح فى وجوه الاستدلال بها.

ثانيا: أن معنى الحق الذى شرع الجهاد لأجله لا يقبل التجزئة، وكما أن هذا الحق يمكن أن يعتدى عليه بهجوم الكفار؛ فإنه يمكن أن يكون محلا للتعدى بغلبة الفساق، وانتصار الشيطان، وشيوع الهوى فى التعامل مع خصائص الدين وأحكامه، وهذا الخطر لا يقل عن خطر التعدى من الكفار، وربما كان أكثر منه أهمية وأشد خطراً على حياة الأمة، ومن ثم كان طلب الجهاد برد الكفار غير مانع من طلبه لرد الباطل والتمسك بالحق فى المواطن الأخرى، وإلا كان تمسكنا بالجهاد فى بعض المواطن دون الأخرى تحصيلاً لمصلحةٍ فى جانب، وتفريطا فى جانب آخر، وهذا ما لا يصلح ولا يكون.

أثر الخلاف بين القولين:

ويظهر أثر الخلاف بين القولين فيما يلى:

أولا: أن الجهاد إذا كان مختصاً بجهاد الكفار عند من يقولون به فإن التكليف به لا يكون ملزماً إلا عند وقوع التعدى منهم، وهذا ما ذهب إليه من يرى الفقهاء

أن الأصل فى علاقة المسلمين بغيرهم هى السلام، وأن التعدى لا يجوز إلا رداً على تعدّ سابق، أو يكون ملزما فى كل حال لفرض كلمة الحق وقطع دابر الفتنة وسد الذرائع أمام المخاطر التى تمنع وصول كلمة الحق إلى كافة الخلق، وذلك على نحو ما ذهب إليه بعض الفقهاء. أما من يرون شمول معناه لغير جهاد الكفار؛ فإن التكليف به يكون عملا مستمرا لا ينتهى إلى يوم القيامة، لكنه يتنوع بتنوع الموجب فإذا حصل التعدى من الكفار يجب رده، وإذا لم يحدث تعدٍ منهم يكون الواجب هو جهاد النفس والشيطان والكفار بالتفرغ للعمل، وإجادة العلم، والإنتاج، وعمارة الأرض، وتحقيق الكفاية للمسلمين.

ثانيا: أن القول بتخصيص الجهاد على قتال الكفار وقصره عليه يقتضى بالضرورة أن يكون موجها إلى خارج ديار الإسلام لدفع من يعتدى عليها، أما القول بأنه شامل لكافة الميادين التى تحتاج إلى الجهاد، فإنه يقتضى أن يكون ثمة ربط بين المجالين الداخلى والخارجى، وذلك الربط يمثل أهمية خاصة لنجاح الجهاد فى الخارج وفقا لما تفيده الأدلة الصحيحة، حيث لا يستطيع المسلمون أن يحققوا الانتصار المطلوب على الأعداء إلا إذا انتصروا على أنفسهم أولا، وهزموا الشيطان ثانيا، واتفقوا على كلمة سواء فيما بينهم ثالثا، ومن ثم يكون الجهاد الداخلى وسيلة لتحقيق الغايات المأمولة فى الجهاد الخارجى، ويكون مطلوبا وراجحا لذلك.

ثالثاً : أن قصر معنى الجهاد على جهاد الكفار وحده يقتضى درء مفسدة هجوم الكفار علينا وإتلافهم لمقومات ديننا ودنيانا ليس إلا بينما يؤدى تعدى معناه إلى جهاد الكفار وغيره، إلى درء المفاسد وتحصيل المصالح الناشئة عن مقاومة النفس والشيطان والفساق، ومنها عمارة الأرض وتقدم العلم واستخراج بركات الله من أرض الله، ووصول المسلمين إلى منزلة اقتصادية تحقق لهم الكفاية والترفع عن سؤال غيرهم وكفالة أسباب الحياة، فيكون ما يؤدى إلى تحقيق المصالح ودرء المفاسد مقدما على ما يؤدى إلى درء المفاسد.

الفرع الثانى
الحكم الشرعى للجهاد

لا خلاف بين الفقهاء فى مشروعية الجهاد، وأنه واجب على من يقدر عليه بقدر استطاعته إذا توافرت شروط الجهاد فى حقه، وبصرف النظر عن كونه واجباً عينيا أو كفائياً، فهو فريضة محكمة على كل مسلم يَكْفُرُ جَاحِدُها ويضل من يعاندها،[٤٠] وقد أجمعت الأمة على فرضية الجهاد فى الجملة، وقامت الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة مع الإجماع، فصار وجوبه أمراً معلوماً من الدين بالضرورة، ولكنه بحسب موجبه قد يكون فرض عين، وقد يكون فرض كفاية.

أولاً: الجهاد فرض كفاية:

وإذا كان الفقهاء متفقون على أن الجهاد واجب فى الجملة، إلا أنهم قد اختلفوا فيما بينهم حول ما إذا كان فرض عين، بمعنى أنه مفروض على كل واحد يقدر عليه من آحاد الناس، لا يسقط عنه ولا يسعه تركه كسائر الفروض من صلاة وصيام وزكاة وحج، أم أنه فرض كفاية على الابتداء إذا قام به البعض سقط عنه وعن غيره من الباقين، وإن لم يقم به أحد أثم الكل بتركه، كصلاة الجنازة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ودفع الضرر عن معصوم، ورد السلام.،[٤١] والراجح أنه يختلف باختلاف أحوال المسلمين فقد يكون فرض كفاية إذا كان الإسلام ظاهراً بحيث لم يتعرض أفراد المسلمين للفتنة فى دينهم أو الهجوم على أرضيهم وحدودهم.

الأدلة على أن الجهاد فرض كفاية فى تلك الحالات:

وقد قامت الأدلة على أن الجهاد فرض كفاية إذا لم يتعرض المسلمون للفتنة أو الهجوم من القرآن الكريم والمعقول، كما يلى:

(١) القرآن الكريم:

يدل على أن الجهاد فرض كفاية فى حالة عدم تعرض المسلمين للفتنة فى دينهم أو أرضيهم للهجوم من القرآن الكريم: قول الله تعالى: ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين**

وليـنـذروا قـومـهـم إذا رجـعـوا إليـهـم لعلهـم يحـذرون﴾[٤٢] فـقـد دلت الآية الكريمة على أن الجهاد فرض كفاية، يكفى لسقوطه عن سائر الناس أن يقوم به بعضهم، وقد كان الصحابة يفعلون ذلك مع رسول الله ﷺ، حيث كانت طائفة منهم تنفر للجهاد، وتبقى طائفة لتعلم الفقه والعلم فى الدين، لأن أحكام الشريعة تتجدد شيئاً بعد شيىء، والباقون الذين لم ينفروا للجهاد يحفظون ما يحدث، فإذا قدم الغزاة علموهم ما تجدد وهم نافرون.[٤٣] كما أن الصحابة كان بعضهم يخرج للغزو وبعضهم يقعد، ولو لم يكن الجهاد فرض كفاية ما قعد واحد منهم.[٤٤]

(٢) ومن المعقول:

أن الجهاد لو جعل على العين لاشتغل الناس به عن العمارة وطلب المعاش، فيؤدى ذلك إلى خراب الأرض وهلاك الخلق ولأدى ذلك إلى تعطيل عجلة الحياة، وخراب الأرض وهلاك الخلق؛ لاشتغال الناس به عن العمارة فلن، يكون هناك من يزرع الأرض ولن يوجد الصانع الذى يمد الجيش بما يلزمه من السلاح وأدوات القتال، ولا الطبيب الذى يعالج المرضى ويضمد الجراح، ولا العالم الذى يرسى قواعد العلم ويدعم أسس المعرفة والإيمان، ولا من يقوم بالبناء والعمران، وبذلك تفقد الأمة قوتها.[٤٥]

ثانياً: الجهاد فرض عين:

ويكون الجهاد فرض عين إذا هجم العدو على بلد، لأن السقوط عن الباقين بقيام البعض به، فإذا عَمَّ النفير لا يتحقق القيام به إلا من الكل، فبقى فرضاً على الكل عينا بمنزلة الصوم والصلاة،[٤٦] ويتعين الجهاد على الكافة فى الحالات الآتية:

(١) عند التقاء الزحفين:

إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان حرم على من حضر الانصراف، وتعين عليه المقام، وذلك لقوله تعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً﴾**،[٤٧] وقوله تعالى: **﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾**[٤٨] وقوله تعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تُوَلُّوهم الأدبار• ومن يُوَلِّهم يومئذ دبره إلا مُتَحَرِّفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله﴾**[٤٩].

ووجه الدلالة فى هذه الآيات الكريمة على المطلوب:

أن الآية الأولى قد أمرت بالثبات عند لقاء العدو، والثانية قد أمرت بالصبر، والصبر هو قمة الصمود فى مواجهة الصعاب والشدائد، كما قررت أن معية الله تعالى مع من يصبر من عباده فى ميادين القتال، وهذا أدعى للتمسك به، كما نهت الآية الثالثة عن الفرار عند لقاء الذين كفروا زحفا، ومن يفعل ذلك دون عذر مقبول - كالمنحرف ضمن خطط القتال أو الانضمام لفئة أخرى من رفاقه - فقد باء بغضب من الله ومثواه جهنم وبئس المصير، وذلك كله من شأنه أن يحذر من مغبة الفرار عند التقاء الزحفين، ويدل على وجوب الثبات فيه تعين الجهاد عنده والآيات كلها تفيد وجوب الثبات عند التقاء الزحفين.

(٢) إذا نزل العدو ببلد تعين القتال على أهله:

إذا نزل العدو على بلد فإنه يتعين الجهاد على أهله، تخرج المرأة بغير إذن زوجها، والعبد بغير إذن سيده، لأن فوات حق الزوج والسيد ضرر خاص، وأما ترك الجهاد عند هجوم العدو على بلد فإنه ضرر عام، وما يدفع الضرر العام يقدم على ما يدفع الضرر الخاص[٥٠].

(٣) استنفار الإمام لقوم:

وإذا استنفر الإمام قوما وجب عليهم أن ينفروا، ويتعين الجهاد عليهم، وذلك إعمالا لقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل﴾**،[٥١] فقد دلت الآية الكريمة على أن من حالات تعين الجهاد أن يستنفر الإمام فئة فإنه إذا استنفرهم تتعين عليهم الإجابة، ويجب عليهم وجوبا عينيا أن يلبوا، وتلك هى حالات الوجوب العينى فى الجهاد.

المطلب الثانى
أسس مشروعية الجهاد

تقوم مشروعية الجهاد فى التشريع الإسلامى على جملة أسس تنأى بالجهاد عند الظلم والتعدى، وقصر الأذى الذى ينتج عنه فى أضيق نطاق، وأنه لا يجوز

التحرش وتمنى الخوض فيه إلا إذا فرض على المسلمين، كما أنه لا يجوز أن يقع إلا ردا للتعدى ودفعا للظلم، وهذه الأسس يمكن إرجاعها إلى أمرين هما: أن السلام هو الأصل الذى يحدد ملامح العلاقة بين المسلمين وغيرهم، وأن الحرب يجب أن تكون للدفاع وليس للتعدى، ونبين هذين الأمرين فى فرعين كما يلى:

الفرع الأول

السلام هو الأصل فى علاقة المسلمين بغيرهم

السلام هو الأصل فى الإسلام، بل هو من أهم دعائم العلاقات الدولية فيه، كما أنه من أهم دعائم هذا الدين الحنيف، ويكفى أن السلام اسم من أسماء الله تعالى، قال سبحانه: **﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون﴾**[٥٢] حيث ورد السلام من ضمن الأسماء التى أثبتها الله لنفسه فى كتابه، فدلَّ ذلك على أنه من أصول دينه ومن مبادىء شرعه، فإن الله ما أنزل الدين وما بعث أنبياءه بالشرائع التى ختمت بشريعة محمد ﷺ إلا لحماية مصالح الناس، وحفظ مقومات الحياة، والسلام هو البيئة الملائمة لتلك الغايات النبيلة، والحرب لا تتناسب مع استقرارها وازدهارها، ولهذا كان السلام هو الأصل، والحرب هى الاستثناء العارض الذى لا ينبغى اللجوء إليه إلا إذا قامت الأسباب الملحة التى تدعو إلى ذلك، كأن يقع اعتداء علينا، أو يعلن طرف الحرب ضدنا، يدل على ذلك ما رواه البخارى ومسلم أنه ﷺ خطب فى الناس يوما فقال: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»،[٥٣] فقد نهى النبى ﷺ عن تمنى لقاء العدو، وفى هذا دلالة على أن ما فوق ذلك التمنى منهى عنه من باب أولى، أما إذا وقع التعدى فإنه لا يكون ثمة مانع من التعدى ودفع الهجوم، وفى هذا يقول الله تعالى: **﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾**،[٥٤] إن من يقرأ هذه الآية الكريمة يكاد يشعر أن الحرب استثناء وليست أصلا، وأنها

قد شرعت لتكون كالدواء المر الذى لا يستساغ شربه إلا عند الضرورة، وحين يهجم المرض، ولا يكون أمامنا من خيار سوى تعاطيه رغم عدم استساغته، ولأن فى مرارته مصلحة تفوق مصلحة عدم تعاطيه، لأن الأخيرة قد تؤدى إلى تدمير البدن وإنهاء الحياة، ولهذا كانت مرارة الدواء مدخلاً للشفاء وطريقاً للنجاة والإبراء، ومن ثم فإنها تتعين عند وجود دواعيها.

والمبدأ الإسلامى القاضى بأن السلام هو الأصل فى الإسلام يقوم على أسس شرعية واعتبارات دينية تعد أساساً له وأدلة معتبرة على قيامه، ويمكن رد تلك الأسس وهذه الاعتبارات إلى الأمور الآتية:

أولا: انتفاء الدواعى التى يمكن أن يتهم الإسلام فيها بأنه دين حرب :

لا يوجد مبرر يمكن أن يتهم الإسلام به بأنه دين حرب، يبدأ بالهجوم على من يختلفون معه فى العقيدة، أو يهاجم العدو لمجرد هذا الاختلاف، فذلك الداعى لا وجود له فى الإسلام، لأن الأصل فيه يقضى بأنه كما قال الله تعالى: **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾**،(٥٥) والآية خبر بمعنى الإنشاء، فهى وأن كانت تخبر عن عدم الإكراه فى الدين إلا أن ذلك الخبر بمعنى الاقتضاء أو الطلب، فهو ينشىء حكما تكليفيا يجب تنفيذه على المسلمين، كأنها تقول: لا تكرهوا أحداً على دين الله، وهذا التكليف وإن كان مصدره الشرع إلا أنه يوافق مقتضى العقل، ويلائم فطرة الطبع، كما ينسجم مع الواقع الذى يراه الناس ويحسونه ويشاهدونه، لأنك تستطيع أن تشق قلب أى إنسان بالسيف نصفين وتقطعه به إربا، لكنك لا تستطيع أن تفرض عليه الإيمان بما لا يريد أن يؤمن به، أو أن تفتحه لدخول عقيدة، أو دين لا يرغب ان يدخل فيه، فالإيمان لا يستطيع أحد أن يفرضه على أحد، ولكنه يُخلق خلقا بتقدير الله القائل: **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يَصَّعَّد فى السماء﴾**(٥٦). ولأن أمر الإيمان متعلق بالقلب، وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء قال سبحانه: **﴿واعلموا أن**

الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾(٥٧) وإذا كان القلب بيد الله، تكون أسباب الهداية بيده وحده سبحانه، ومن اختصاصه الذى لا يشاركه فيه سواه حتى ولو كان ما سواه هو أشرف خلقه وسيد أنبيائه ورسله محمد الخاتم ﷺ ولهذا خاطبه الله بقوله تعالى: **﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء﴾**(٥٨). ويقول سبحانه: **﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾**(٥٩)، وإذا كان أمر الهداية بيد الله سبحانه، تكون مهمة النبى ﷺ هى البلاغ وتذكير الناس بما نسوه من أمر ربهم، ولذلك فإن الله تعالى قد حدد مهمته فى القرآن الكريم بذلك، قال سبحانه: **﴿إنْ عليك إلا البلاغ﴾**(٦٠) وقال سبحانه: **﴿فذكر إنما أنت مذكر • لست عليهم بمصيطر﴾**(٦١).

ولما كان ذلك وكانت الهداية من اختصاص الله وحده؛ كان من شأن هذا الاختصاص أن ينفى عن دين الله أدنى شبهة أو شك أو ارتياب فى الإكراه عليه، إذ يستحيل شرعا أن يكلف الله عباده بالجهاد لحمل فئة من الناس على أمر لا يملكه المجاهدون، حيث لا يقدرون بسيوفهم المشرعة ولا بالأدوات والأجهزة أن يفتحوا القلوب المغلقة لتؤمن إذا لم ترد الإيمان، بل ولا يملكه من يتوجه الجهاد إليهم لأن قلوبهم ليست بأيديهم، وإنما هى بيد خالقهم سبحانه، ولو أراد لهم الإيمان لحولها إليه، وإذا كان أمر الهداية بيد الله ولا يملك أحد من خلقه فيه شيئا يكون التكليف بالحرب لأجلها تكليفاً بما لا يطاق، وهذا غير وارد فى شرع الله القائل: **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾**(٦٢).

ومما يدل على ذلك ويؤكده أمران:

(١) أن الله تعالى هو العزيز، والعزيز هو الشديد القوى الذى يحتاج إليه الجميع ولا يحتاج إلى أحد،(٦٣) قال سبحانه: **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾**،(٦٤) فقد دلت هذه الآية الكريمة على أن العزة لله سبحانه بل إن العزة كلها له، كما قال عز من قائل: **﴿إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم﴾**(٦٥).

وإذا كانت له فإنه ليس مما يتواءم مع ما أثبته الله لنفسه من العزة الكاملة أن يستجدى الإيمان من أحد، حيث لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية

العاصين، أو أن يكلف عباده بأن يحملوا الناس قسرا وإكراها على الإيمان به، ذلك ما لا يعقل تصوره، ولا يتسنى إدراكه.

(٢) أن الإسلام هو نعمة الله وخيره الكامل قال سبحانه: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾**[٦٦].

وإذا كان الإسلام هو النعمة التى أكملها الله لعباده، فإنه لا يتصور أن يكون الإكراه وسيلة للإيمان به، أو البدء بالحرب على من لا يدخلون فى دينه، لأن الخير لا يحمل عليه إنسان، والنعمة لا يكره عليها أحد، ولأن القهر والإكراه لا يعقل حصولهما إلا فيما يضر ويهلك، سيما مع من يعقل الخطاب ويفهمه، ويقدر على وزن مركزه بما ينفعه.

وحاشا لدين الله أن يكون مصدر ضر أو سبب هلاك، فما من طريق إلى الخير إلا عبَّده، وما من وسيلة تصل بالناس إلى عز الدنيا وسعادتها إلا وتجدها من ضمن مبادئه، بل إن ما تبحث عنه البشرية من العدل والخير والسلام والاستقرار والتقدم موجود فى دين الله، كما ان ما تخشاه وتحذر وقوعه منهى عنه فى هذا الدين الحنيف الذى لا يقر الظلم أو التعدى على مقومات الحياة، أو تخريب العامر فيها.

وقد نهى الله عباده عن ذلك نهيا صريحا فى كتابه الكريم فقال سبحانه: **﴿ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها﴾**[٦٧].

ولهذا فإن الحق سبحانه قد ترك أمر الإيمان به لحرية العبد، وكمال اختياره، وما منحه له من العقل القادر على النظر فى الكون، وتلمس الآيات الدالة على وجود خالقه، وبعد أن أبعد عنه كل وسائل الضغط والإكراه، حتى يكون وصول العبد إلى الإيمان بربه بكامل إرادته واختياره، وذلك ما اقتضته حكمة البارى وجرت به مشيئته، وجعله من المبادىء المستقرة فى كافة الشرائع التى أنزلها، والتى نادى بها كل الأنبياء والرسل قبل بعثه نبينا محمد ﷺ، فلما بعثه جعلها من مبادىء شريعته ومن معالم رسالته.

وبهذا يتبين أن اتهام الإسلام بأنه دين حرب لا يوجد أدنى دليل عليه، أو أقل قرينه تكشف عنه.

الفرع الثانى

الجهاد للدفاع وليس للتعدى

ليس من طريق الدعوة فى الإسلام اللجوء إلى القهر والإكراه، لأن الإسلام لا يقر هذا الأسلوب من وسائل الدعوة إليه، بل يقرر إهداره، فالاختيار الصحيح هو أساس الإيمان الحق، وأن الإيمان هَدر إذا كان عن طريق الإكراه والقلب مطمئن بالكفر، ولهذا تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة على أن الحرب المشروعة فى الإسلام هى حرب الدفاع عن الحق وأهله، وحماية دعوة الله ودينه، فمن لم يدخل فى الإسلام وسالم أهله وداره فلم يهاجمها أو يعتدى عليها فهو آمن لا يأذن الإسلام بحربه وقتاله(٦٨). ولهذا قال الإمام الثورى: «لا يجوز قتالهم حتى يبدءونا بالقتال»(٦٩).

وعلى هذا الرأى اتفق جمهور الفقهاء، يقول الشربينى الخطيب الشافعى: «وأما قتل الكفار فليس بمقصود حتى لو أمكن الهداية بإقامة الدليل دون جهاد لكان أولى منه»،(٧٠). ويمكن القول أن فى سبب القتال؛ وما إذا كان هو التعدى أو الكفر قولين:

أولهما: لفقهاء الحنفية والمالكية والشافعية فى قول والحنابلة والإمام الثورى وبعض المعاصرين(٧١)، وحاصل قولهم: إن سبب القتال هو وقوع التعدى من الكفار وليس الكفر فإن هاجمونا وقاتلونا فإنه يجب علينا أن نقاتلهم، فمناط القتال هو الحرابة والمقاتلة والاعتداء، وليس الكفر، فلا يجوز أن يقاتل شخص لمجرد مخالفته للإسلام أو لكفره، وإنما يقتل لاعتدائه على الإسلام(٧٢).

وثانيهما: للشافعية فى قول والزيدية، وحاصل قولهم: إن مناط الجهاد هو الكفر، فإذا اجتمع معه التعدى يكون الوجوب أشد، والطلب ألزم،(٧٣) ولكل قولٍ أدلته.

(أ) أدلة أصحاب القول الأول:

استدل أصحاب القول الأول لما ذهبوا إليه بالكتاب، والسنة، والإجماع، والمعقول.

أولا: من الكتاب:

(١) يقول الله تعالى: **﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾**[1].

ووجه الدلالة فى هذا القول الكريم:

أن الآية واضحة الدلالة على أن القتال لم يؤذن فيه إلا لدفع الظلم، ومن ثم يكون الأمر بالابتداء غير وارد، فيكون للدفع وليس للبدء.

(٢) ويقول تعالى: **﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ● واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين● فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾**[٧٥].

ووجه الدلالة فى هذا القول الكريم:

أن الله تبارك وتعالى قد أمرنا بالقتال فى سبيله لمن يقاتلوننا، ونهانا عن التعدى، ثم ختم ذلك المطلوب الإلهى بما لا يقبل النسخ وهو قوله تعالى" **﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾** فدل ذلك على أن القتال المشروع إنما هو للدفع وليس للبدء، وفى الآية الثانية منها، نهى عن قتال المشركين فى المسجد الحرام حتى يقاتلونا فيه، فإنه يجوز لنا عندئذ وليس قبله أو دونه أن نرد على قتالهم، وهو دليل على المطلوب، ثم جعل الرد مرتبطا باستمرار القتال منهم، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم، وفى هذا دلالة على أن القتال إنما شرع للرد على التعدى عند وقوعه، فإذا انتهى التعدى انتهى الرد عليه،[٧٦] وفى هذا دلالة على أن هدف القتال دفع التعدى وليس دخول الكفار فى الإسلام.

(٣) وبقوله تعالى: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾**[٧٧].

ووجه الدلالة فى هذا القول الكريم:

أنه قد دل على أن غاية القتال كف التعدى من غير المسلمين، وقبولهم معايشة المسلمين والالتزام معهم بقانون واحد يحفظ وحدة الأمة، ويقوى منعتها، والمراد بالصغار هو الخضوع لحكم القانون، والكف عن التعدى، والالتزام بما يجب أداؤه ولو كان الكفر هو سبب القتال لما كانت هذه نهايته، بل ولا ستمر حتى يسلموا، ولما قبل منهم غير ذلك، أما وأن الآية الكريمة قد جعلت غاية القتال ليست هى الإسلام يكون القتال مشروعا لدفع التعدى، وليس لمجرد الكفر، وهو ما تدل عليه الآية الكريمة.

ثانيا: من السنة النبوية:

(١) بما روى عن أبى هريرة أنه ﷺ قال: «**أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»[٧٨].

ووجه الدلالة فى هذا الحديث على المطلوب:

أنه قد بين الغاية التى من أجلها شرع القتال، بحيث إذا فعلها المقاتلون حرم قتالهم، والمعنى أنه ﷺ لم يؤمر بالقتال إلا إلى هذه الغاية، وليس المراد أنى أمرت بقتال كل أحد إليها، فإن هذا خلاف النص والإجماع، فإنه لم يفعل هذا قط، بل كانت سيرته أن من سالمه لم يقاتله[٧٩] يقول ابن تيمية : «لقد ثبت بالنص والإجماع أن أهل الكتاب والمجوس إذا أدوا الجزية حرم قتالهم[٨٠].

فالحديث يبين غاية القتال فى الجملة حتى يقف عندها، وليس مراده أن يقاتل كل أحد حتى هذه الغاية، ومن ثم يكون اعتبار الكفر غير وارد فيه، وإذا كان هذا الحديث قد جاء مطلقا عن التقييد بسبق التعدى؛ فإنه يتعين بالأدلة الدالة عليه من الكتاب والسنة جمعاً بين أدلة الشرع، ورفعاً لما يوهم التعارض الظاهرى بينها.

(٢) وبما روى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله، لا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلا صغيرا، ولا امرأة،**

ولا تغلوا اوضموا غنائكم، وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين»[٨١].

ووجه الدلالة فى هذا الحديث على المطلوب:

أنه قد دل على أن غاية القتال ومناطه هو رد التعدى وليس الكفر، ولو كان الكفر مناطه، لأمر بقتل جميع الكفار منهم ممن ورد النهى عن قتلهم فى الحديث، لكنه قد نهى عن قربانهم بالأذى حال الحرب، فدل ذلك على أنها مشروعة لرد التعدى، وبدليل أن هؤلاء الذين نهى عن قتلهم ليسوا من أهل التعدى، ولا يرجى منهم ذلك، فيكون الحديث دالا على المطلوب. وقال ابن حبيب من المالكية: «لا يجوز القصد إلى قتلها إذا قاتلت إلا إذا باشرت القتل - يقصد المرأة - أو قصدت إليه»، يدل على ذلك ما رواه أبو داود فى المراسيل عن عكرمة **أن النبى ﷺ مرَّ بامرأة مقتولة يوم حنين فقال: من قتل هذه؟، فقال رجل: أنا يارسول الله، غنمتها فأردفتها خلفى، فلما رأت الهزيمة فينا أهوت إلى قائم سيفى لتقتلنى فقتلتها، فلم ينكر عليه رسول الله ﷺ ذلك**[٨٢].

مناقشة الاستدلال بهذا الحديث:

وقد نوقش الاستدلال بهذا الحديث بأنه معارض بما ينافيه ويبطل حكمه، وذلك بما روى عن سمرة عند أحمد والترمذى وصححه بلفظ: «**اقتلوا شيوخ المشركين، واستجبوا شرخهم**»، حيث أمر النبى ﷺ بقتل شيوخ المشركين، ولو كان الدفاع غاية القتال لما قتلهم، لأنهم لا يقاتلون عادة، فدل ذلك على أن الكفر علته[٨٣].

رد هذه المناقشة:

وهذه المناقشة مردودة بما حققه الكوفيون والمالكيون بقولهم: إن الآثار الدالة على قتلهم معللة بما إذا قاتلوا بالمباشرة، أو بالمساعدة، أو بالقصد إلى القتل، يدل على ذلك ما روى فى قصة المرأة التى مر بها النبى ﷺ مقتولة يوم حنين حيث حاولت قتل مَنْ غنمها بقائم سيفه حين رأت الهزيمة فى المسلمين، ولم ينكر عليه النبى ﷺ ذلك[٨٤].

وكما فى قصة دريد بن الصمة فإن النبى ﷺ لما فرغ من حنين بعث أبا عامر على جيش أو طاس، فلقى دريد بن الصمة وقد كان نيف على المائة، وقد أحضروه ليدير لهم الحرب، فقتله أبو عامر ولم ينكر عليه النبى ﷺ ذلك[٨٥].

وما نقل عن الإمام أحمد بن حنبل من أنه ﷺ أمر بقتل الشيخ لأنه لا يكاد يسلم، والصغير أقرب إلى الإسلام،[٨٦] فإن ذلك مبناه الاحتمال والتخمين، ومن يدرينا فربما أسلم الشيخ، ذلك إذا كان الإسلام هو غاية القتال، أما وإن الغاية هى رد التعدى؛ وهو ممن لا يصدر منه التعدى؛ يكون إسلامه أو عدم إسلامه سواء.

ثالثاً: ومن الإجماع:

اتفق جميع الفقهاء على أنه لا يجوز قتل النساء والولدان، وعللوا ذلك بأن النهى عن قتل النساء إنما تقرر لضعفهن وأما الولدان فلقصورهم عن قتل الكفار وقد حكى هذا الاتفاق ابن بطال كما نقله الشوكانى فى «نيل الأوطار»[٨٧].

مناقشة الاستدلال بالإجماع:

ويمكن أن يناقش ما استدل به أصحاب هذا القول من الإجماع بأنه لو كان الإجماع موجودا لما استساغ للشافعى أن يخالفه، ولما وجدنا فى المسألة قولين.

رد هذه المناقشة:

ويمكن رد تلك المناقشة بأمرين:

أولهما: عدم أخذ الشافعى بالإجماع لا يلزم منه بطلانه، لاحتمال أنه لم يقف عليه، ولو كان قد وقف عليه لما استساغ له أن يخالفه، إذ ليس مثله ممن يخالف ما أجمع عليه المؤمنون.

ثانيهما: أو لاحتمال أنه يكون قد وقف عليه؛ ولم تتوافر شروط العمل به عنده، ومن ثم يكون إهماله مبنيا على نظرٍ منه، وليس على مطعن فيه، وإذا كان كذلك يكون الاستدلال حجة.

رابعـــا: ومن المعقول:

واستدل القائلون بأن مناط الحرب هى الدفاع، وليس حمل الناس على الإيمان من المعقول فقالوا:

(١) إن طبيعة الإيمان تنافى الحمل عليه، فيظل ما يؤدى إليه وهو الحمل والإكراه بالقتال وبما دونه.

(٢) لو كان الكفر هو علة القتال للزم منه أن تظل سيوف المسلمين مشرعة فى وجوه من يخالفونهم العقيدة، فلا يتفرغوا لبناء أو غيره، ولا يقوموا بإصلاح فى مرافق الحياة الأخرى، ولأدى ذلك على امتداد الزمان إلى فنائهم وتمكين عدوهم منهم، ولأتى على كافة الأدلة الشرعية التى تدل على أن علاقة المسلمين بغيرهم هى السلم وليست الحرب.

(٣) لو كان الأمر كما فهم البعض من قوله تعالى: **﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾**،[٨٨] وقوله: **﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾**[٨٩] بأن عله القتال هى الكفر للزم منه أن يظل القائد الحربى يخطط طريقة لغزو الدنيا كلها، فيبدأ بأقربها[٩٠] وهذا ليس صحيحا ولا واردا، وإنما المراد ـ فيما سبق ـ بأن القتال مقيد بمن سبق منهم التعدى ورداً له، كما أن المراد بالمشركين هم المحاربون الذين قاتلوا المسلمين واعتدوا عليهم[٩١] ومن ثم يكون القتال لرد التعدى وليس لمحو الكفر من الدنيا، أو إرغام الناس على الدخول فى الإسلام.

(ب) أدلة أصحاب القول الثانى:

استدل أصحاب القول الثانى لما ذهبوا إليه من الكتاب والسنة.

أولاً : من الكتاب:

(١) بقول الله تعالى: **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾**[٩٢].

ووجه الدلالة فى هذا القول الكريم على المطلوب:

أنه قد دل على أن غاية القتال هى إنهاء الكفر، فيكون محدودا به، وفى هذا دلالة على أن علة القتال هى الكفر وليس الدفاع.

مناقشة الاستدلال بهذا القول الكريم:

ويمكن أن يناقش هذا الاستدلال بعدة ملاحظات:

أولها: ليس فى الآية ما يدل على أن غاية القتال هى القضاء على الكفر، وإنما القضاء على الفتنة والتعدى والبغى، بدليل قوله تعالى فى نهاية الآية: **﴿فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾**.

ثانيها: أن الآية غير دالة على وجوب القتال مطلقا، ومن ثم فإنها تفيد الدلالة المفيدة لوجوب القتال ردا للتعدى، وذلك جمعا بين الدليلين، وتوفيقا بين المصدرين.

ثالثها: وعلى فرض أنها تدل على وجوب القتال حتى يعم الإسلام، فتلك غاية القتال العامة، وليس ذلك هو ما يفعل مع كل إنسان، لوجود الأدلة المانعة من الإكراه فى الدين.

رابعاً: إن الآية فيها حث على القتال فى حال مقاتلة الكفار للمسلمين ومحاولتهم أن يفتنوهم فى دينهم،(٩٣)

(٢) وقول الله تعالى: **﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾**،(٩٤). ويقول الله تعالى: **﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾**(٩٥).

ووجه الدلالة فى هذين القولين الكريمين:

أنهما قد دلا على قتال المشركين كافة، وحيث وجدهم المسلمون، وقد جاء طلب القتال مطلقا غير مقيد بالتعدى منهم، فدل ذلك على أن الكفر هو علة القتال وليس التعدى منهم.

مناقشة الاستدلال بهذين القولين الكريمين:

وقد نوقشت هاتان الآيتان بأمور:

أولها: انهما تبينان حكم قتال من نقضوا العهد مع المسلمين، وتوثبوا للقتال، فيجب حربهم حتى يثوبوا، ويكفوا عن التوثب للمسلمين بالقتال والتجهيز له(٩٦).

ثانيها: أن دلالة هاتين الآيتين على وجوب قتال الكفار مطلقة، والآيات الأخرى مقيدة بوجوب التعدى، والمطلق يحمل على المقيد،(٩٧) ولا موجب لتقرير تعارض الآيات مع بعضها، حيث لا يتعذر الجمع بينها(٩٨).

ثالثها: أنهما تدلان على معاملة المشركين بالمثل فى اجتماع كلمتهم علينا وقتالنا جميعا لا أنهما تأمران بالمبادأة بها.(٩٩) ويقول الله تعالى: **﴿قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً﴾**(١٠٠).

ووجه الدلالة فى هذا القول الكريم على المطلوب:

أنها قد دلت على أن المسلمين سوف يلقون قوما أولى بأس شديد، وسيظلون يقاتلونهم إلى أن يدخلوا فى الدين فيكفوا عن قتالهم، وهذا يفيد أن غاية القتال هى الإسلام.

مناقشة الاستدلال بهذه الآية الكريمة:

وقد نوقش الاستدلال بهذه الآية الكريمة من وجهين:

أولهما: أن الإسلام هو غاية القتال، وليس الغاية لمن يقاتلون، بدليل ما ورد من الأدلة المانعة من الإكراه فى الدين.

ثانيهما: أن دلالتها على وجود قتال الكفار مطلقة، فوجب أن تتقيد بالأدلة الأخرى التى تقيد القتال برد التعدى، لأن المطلق يحمل على المقيد.

ثانيا: من السنة النبوية:

بما روى أنه ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلة إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»(١٠١).

ووجه الدلالة فى هذا الحديث على المطلوب:

أنه قد دل على وجوب قتال المشركين حتى يؤمنوا، فدل ذلك على أن الإسلام غاية الجهاد وليس التعدى.

مناقشة الاستدلال بهذا الحديث:

وقد سبق مناقشة الاستدلال بهذا الحديث بما قاله بعض العلماء من أن الإسلام هو غاية القتال، وليس الغاية لمن يقاتلون، كما أن دلالته مطلقة فتحمل على الأدلة المقيدة عملاً بالقاعدة التى تقضى بأن المطلق يحمل على المقيد.

ثالثا: ومن المعقول:

كما استدلوا لما ذهبوا إليه من المعقول بما ذكره الإمام الدهلوى فى «حجة الله البالغة»، فقالوا: إن الاسلام جاء لتنظيم الحياة وإصلاح مافسد من العقائد، فان لم يصلحها الرفق واللين والرغبة؛ وجب الإصلاح بطريق القوة والرهبة، وذلك كالطبيب الذى يشرف على علاج مرضاه، فإنه يبين مزايا الدواء وآثاره النافعة وطلب من المريض أن يتعاطاه طواعية وعن رغبة، فان امتنع لم يكن من الرحمة أن يترك الناس وأمراضهم، بل يعطوه رغم أنوفهم، ويؤجر لهم(١٠٢).

مناقشة الاستدلال بما ذكروه من المعقول:

ويمكن أن يناقش هذا الاستدلال من وجهين:

أولهما: أن الإسلام قد نزل لاصلاح حال الناس، هذه مقدمة صحيحة، لكنه لم يفرض أحكامه عليهم بالقتال والاكراه، لأن الخير لايكره عليه، والنعمة لايحمل عليها أحد.

ثانيهما: أن هذا الاستدلال من المعقول معارض بما استدل به أصحاب الرأى الأول من المنقول والإجماع، وماثبت، بالمنقول يقدم على ماثبت بالمعقول.

الرأى الراجح فى نظرنا:

ومن خلال بيان أدلة كل قول، وماورد عليها من مناقشات يستبين لنا أن القول الأول القاضى بأن غاية القتال هى رد التعدى، والدفاع عن النفس ضد من يقاتلوننا هو الراجح، وذلك لأمرين:

(١) قوة أدلته وسلامتها من المعارض، ورد ما أثير عليها من مناقشات ضدها من الكتاب والسنة والإجماع والمعقول على نحو مارأينا.

(٢) أن هذا القول هو الذى يتفق مع مبادئ الإسلام العامة، وقواعده الكلية، وفروعه الفقهية التى تقضى بأنه لايجوز الإكراه على الدين، وأن أمر الايمان مبناه على الاختيار، وليس الإجبار، بل إن الله تعالى لا يقبل إيمان من يؤمن به إلا إذا جاء عن طواعية واختيار، وليس عن قهر واضطرار، ولهذا لم يقبل إيمان فرعون حين أدركه الغرق، وأخبر عن عدم قبول توبة العبد إذا أعلنها عند الغرغرة، ومن ثم يكون القتال لحمل الناس على الايمان به لا طائل من ورائه ولايرجى منه تحقيق غاياته، ويكون التكليف به تكليفا بما، لايطاق هو مرفوع فى شرع الله، يدل على ذلك قول الله تعالى: **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾**(١٠٣) وإذا تقرر ذلك تكون غاية القتال هى الدفاع عن النفس ورد التعدى وليس القضاء على الكفر فى الأرض، وهو مايترجح لدينا.

ويكون مفهوم الجهاد هو بذل غاية الجهد بالنفس والمال والعقل والقلب فى رد التعدى، والانتصار للحق فى النفس والمجتمع.

المبحث الثانى

مفهوم القتال

القتال لغة : مصدر قتل، والقتل هو القضاء على الحياة، يقال: قتله قتلا أى قضى على حياته، واقتتل القوم: قاتل بعضهم بعضا، وتقاتل القوم: اقتتلوا، والمقتل: الموضع الذى إذا أصيب فيه الإنسان أو الحيوان لايكاد يسلم، وفى اصطلاح الفقهاء: يعرف القتل بأنه الفعل المتلف للنفس، أو هو الفعل الذى تزول به الحياة[١٠٤].

وفى اصطلاح فقهاء القانون يعرف القتل بأنه: سلب إنسان حق الحياة[١٠٥] فالقتل يفترض وجود إنسان حى تعرض لفعل أفقده حق الحياة، ومن خلال هذا التعريف يتبين أنه يشترط فى القتل مايلى:

أولا: أن يكون المجنى عليه إنسانا حيا:

الإنسان هو محل الاعتداء فى القتل، فلا يقع هذا الأخير على سواه من المخلوقات، ولو كان الفعل الحاصل قد أجهز عليه وأزهق روحه، وعلى هذا يخرج الحيوان من نطاق الجريمة ليتخذ موضوعا لجريمة أخرى من جرائم الاعتداء على الأموال، يكون المجنى عليه فيها هو صاحب ذلك الحيوان[١٠٦]. كما يخرج الجنين من بطن أمه حيث لم يكتسب وصف الانسان بعد، كما يخرج الميت اخيرا من نطاق تلك الجريمة لزوال ذلك الوصف عنه، ومناط التعدى هو جسم الإنسان الحى لأنه هو المحل الذى ينصب عليه الحق فى الحياة، سواء كان ذلك باعتبار الكيان الذى يباشر وظائفها، أو باعتبار أنه الموضوع الذى تقع عليه أفعال الاعتداء على ذلك الحق، وليست الحكمة فى حماية هذا الحق لأن الحياة هى أغلى ما يعتز بها الإنسان، ويحرص على صيانتها تلبية لنداء غريزة البقاء[١٠٧]، كما أن حمايتها تستهدف صيانة المصلحة العليا للمجتمع فى حياة أفراده، وليست ذات طابع شخصى تعول على حياة فرد معين من بنى البشر[١٠٨].

ثانيا : أن يكون المجنى عليه غير الجانى:

القتل هو إزهاق لروح إنسان بفعل يقع من إنسان أو شيىء آخر، فإذا ما قتل الشخص نفسه كانت الواقعة انتحارا، وليست قتلا بالمعنى الدقيق، والتشريعات القانونية المعاصرة لا ترى فى الانتحار جريمة، ومن ثم فلا يتصور الشروع أو الاشتراك فى اقترافها، ولا جدوى من الحديث على مسئولية المنتحر، لأنه قد مات ولذلك لا يقدر على محاكمته غير الله، والقانون الوضعى لا يؤثم فعل المساهم باعتبار أنه قد ساهم فى فعل مباح لا يخضع لأيٍ من نصوص التجريم، وهذا الكلام محل نظر لأن المنتحر غالبا ما يقدم على ذلك تحت تأثير ظروف عاتية يصعب عليه الفكاك منها، فإذا لقى العون من غيره فانه يكون جديراً بالمساءلة والعقاب ولهذا ذهبت تشريعات كثيرة إلى تجريم المساهمة فى الانتحار، وأياً ما كان الأمر فان الانتحار قتل غير مشروع.

وقد ورد القتل فى القرآن الكريم والسنة النبوية بعدة معان، منها ما هو مشروع ومنها ما هو ممنوع ويجدر بيان ذلك فى مطلبين كالتالى:

المطلب الأول

القتل المشروع

والقتل المشروع هو الذى يقع جهادا فى سبيل الله، كما إذا تعين القتال وسيلة للجهاد، وقد رأينا أن الجهاد كما يكون بالسنان والقتل، يكون بجهاد المال وجهاد اللسان، فإذا تعين القتل وسيلة للجهاد فإنه يكون مشروعا فى الحدود التى يشرع فيها الجهاد، وهو أن يكون ردا للتعدى، وانتصارا للحق فى النفس والمجتمع.

وقد يكون القتال للبغاة والخارجين على حدود الله، كما قد يكون لدفع الصائل بالشروط التى حددها الفقهاء.

أولا : القتال فى الحرب:

قد يتعين القتال وسيلة من وسائل الجهاد، فيكون من أعلى درجاته لأن الجود بالنفس فى سبيل الله أقصى غاية الجود، وقد ورد النص على الجهاد بالقتال فى سبيل الله فى أكثر من آية فى القرآن الكريم، ومن ذلك:

(أ) قول الله تعالى: **﴿فليقاتل فى سبيل الله الذين يَشْرُون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يُقَاتِل فى سبيل الله فيُقْتَل أو يَغْلِبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾**[١٠٩].

(ب) وقوله تعالى: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقَاتِلُون فى سبيل الله فيَقْتُلُون ويُقْتَلُون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾**[١١٠].

(جـ) وقوله تعالى: **﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ● واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ● فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ● وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾**[١١١].

(د) وقوله تعالى : **﴿إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾**،[١١٢] والآيات فى هذا المعنى كثيرة، وهى تدل على أن القتال بمعنى الجهاد، ولذلك فإنه يتقيد بقيوده، ويتحدد بشروطه، ومنها أن يكون لدفع التعدى الواقع علينا من الكفار، ومن يقتل نفسه فى سبيل وطنه يكون شهيدا، ولايكون منتحرا بحال من الأحوال.

ثانيا : قتال البغاة :

البغاة جمع باغ، وهو مشتق من البغى، وهو الظلم والعدوان[١١٣].

وفى اصطلاح الفقهاء: فإنهم قوم من أهل الحق، يخرجون على الامام بتأويل سائغ، ولهم شوكة ومنعة، غير مستبيحين دماء المسلمين وسبى ذراريهم(١١٤).

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى جواز قتالهم عند الحاجة، كسرا لشوكتهم وقطعا لمدار الفتنة، وذلك ما ذهب إليه جمهور أهل العلم(١١٥).

الفرق بين قتال البغاة وقتال المشركين:

ويفترق حكم قتال البغاة عن قتال المشركين من وجوه هى:

أن يقصد بالقتال ردعهم لا قتلهم، ويكف عن مدبرهم، ولا يجهز على جريحهم، ولا يقتل أسراهم، ولاتغتنم أموالهم، ولا تسبى ذرياتهم، ولا يستعان على قتالهم بمشرك، ولا نوادعهم على مال، وتنصب عليهم الرعَّادات، ولا تحرق عليهم البساتين، ولا يقطع شجرهم(١١٦).

ثالثا: قتال المحاربين لله ورسوله (قطّاع الطريق):

وقطاع الطريق جماعة يخرجون على المارة لأخذ أموالهم على سبيل المغالبة، وبأسلوب يخيفهم، ويمنعهم من المرور فى الطريق، وقد يكون القطع، من واحد أو جماعة، لكن يشترط فى الواحد أن يكون له قوة القطع، وسواء كان القطع بسلاح أم غيره من العصا والحجر والخشب ونحوها، وسواء كان بمباشرة الكل أم التسبب من البعض بالإعانة والأخذ، لأن القطع يحصل بكل ماذكر، ولأن هذا من عادة قاطعى الطريق، ومن ثم يبدو أن قطاع الطريق قوم لهم منعة وشوكة، بحيث لايقدر المارة على مقاومتهم، يقصدون قطع الطريق بالسلاح وغيره(١١٧).

وقد اتفق جمهور أهل العلم على أنهم يقتلون إذا قتلوا وأخذوا المال، فإذا لم يقتلوا فإنهم يعاقبون بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف،(١١٨) يدل على ذلك قول الله تعالى : **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَبوا أو تُقطع أيدِيهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾**(١١٩).

الفرق بين قتال المحاربين وقتال البغاة:

ويختلف قتال المحاربين عن قتال البغاة فى أمور:

فهم يقاتلون مدبرين، ويجوز تعمد قتلهم، ويطالبون بما استهلكوا من دم أو مال فى الحرب وغيرها، ويجوز حبس أسراهم لاستبراء أحوالهم وما أخذوه من الخراج والزكاة لايسقط عمن كان عليه، وذلك كالغاصب إذا أخذ ذلك.[١٢٠]

رابعا: القتل حدا أو قصاصا:

ومن أنواع القتل المشروع القتل حدا أو قصاصا، وذلك لقول الله تعالى: **﴿ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب﴾**[١٢١] وقوله تعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى﴾**[١٢٢] ولقول النبى ﷺ: **«العمد قود إلا أن يعفو ولى المقتول»**،[١٢٣] وكقتل اللائط والزانى المحصن والمرتد.

خامسا: دفع الصائل (الدفاع المشروع):

إذا قام شخص بإتيان فعل يمثل تعديا على حق إنسان؛ فإن له أن يدفع ذلك التعدى بما يدحضه، وذلك على نحو ما هو معروف بالدفاع الشرعى أو دفع الصائل، وقد جاء فى تعريفه أنه: الاستطالة والوثوب على الغير، أو من يريد ذلك،[١٢٤] حيث يسمى صائلا، وإن لم يصل بالفعل، بل كان يؤيد الصول، أو كان على وشك أن يصول. أو هو الذى يقصد قتل النفس، وليس له غرض من أخذ المال ونحوه،[١٢٥] أو هو الظالم بلا تأويل ولا ولاية. وقد عرفه بعض المعاصرين بأنه: هو المعتدى مكلفا أو غير مكلف من الإنسان أو غيره، على شخص بما يفوت نفسه أو بعضه أو ماله[١٢٦].

وفى اصطلاح فقهاء القانون يعرف الدفاع الشرعى بأنه: حراسة الإنسان لنفسه أو لغيره حين لا تأتى حراسة البوليس[١٢٧] أو هو دفع اعتداء إجرامى على وشك الوقوع بدرء خطره عن نفس المدافع، أو عن ماله، أو عن غيره أو ماله.

وقد قام الدليل عليه من قول الله تعالى : **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾**[١٢٩].

ومن قول النبى ﷺ: «**من قتل دون ماله فهو شهيد**»، **ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد**»[١٣٠] والدفاع الشرعى مباح ومشروع، لكن تلك المشروعية مقيدة بشروط هى:

(١) أن يكون هناك خطر محقق يهدد الشخص فى نفسه أو ماله، أو يهدد شخصا من الغير فى نفسه أو ماله، إذا كان عزيزا على الشخص الأول إلى درجة كبيرة، ولا يلزم وقوع الضرر بالفعل، بل يكفى أن يكون وشيك الوقوع.

(٢) أن يكون هذا الخطر عملا غير مشروع كالضرب والسرقة.

(٣) أن يتعين الدفاع الشرعى وسيلة لرد الاعتداء على النفس أو المال، دون وسيلة أخرى كاللجوء إلى الشرطة، أو الاستعانة بالآخرين.

(٤) وأن يكون دفع الاعتداء بالقدر اللازم لرد هذا الاعتداء دون مجاوزة أو إفراط، فإذا كان ضرب المعتدى يكفى لرد اعتدائه فإن قتله يعتبر تجاوزاً لحد الدفاع الشرعى، ومن ثم يعتبر مخطئا، فإذا توافرت هذه الشروط يكون الدفاع الشرعى مباحا، حتى ولو انتهى إلى قتل الصائل.

المطلب الثانى

القتل غير المشروع

والقتل غير المشروع هو القتل العمد والعدوان الذى يسلب إنسانا معصوم الدم حق الحياة، والانتحار أو تعدى الشخص على نفسه، ونبين ذلك:

أولا : القتل العمد والعدوان:

والقتل العمد العدوان، يتمثل فى أن يقصد شخص قتل إنسان معصوم الدم تعديا دون حق. أو هو القصد إلى إزهاق روح آدمى بفعل آخر،[١٣١] ومن هذا التعريف يبدو أن للقتل العمد أو العدوان أركانا تتمثل فيما يلى:

(١) أن يكون الاعتداء واقعا على آدمى حى:

يتعين فى القتل العمد العدوان أن يكون واقعا على آدمى حى، فإذا كان واقعا على غير آدمى كالجناية على الحيوانات فإنه يندرج فى باب ضمان الأموال، ويجب أن يكون الآدمى حياً، لأنه لو كان ميتا لما سميت الجريمة قتلا، لأن الميت لا يموت، وإن كان من الممكن أن يمثل الفعل هتكا لحرمة الموتى[١٣٢].

(٢) أن يكون المجنى عليه معصوم الدم:

ويجب أن يكون المجنى عليه معصوم الدم فلا يكون دمه مباحا، فان كان مباح الدم كالحربى، والمرتد، والزانى المحصن؛ والبغاة؛ وقاتل النفس عمدا فإن قتله لايترتب عليه إثم لأنه قتل بحق[١٣٣].

(٣) أن يكون هذا الآدمى معينا:

ويجب أن يكون الآدمى المقتول معينا، أى مقصودا بالفعل القاتل، لأنه لو لم يكن مقصودا لترتب على ذلك أن يكون القتل خطأً وليس عمدا.

(٤) أن يقصد الجانى ضرب المجنى عليه:

يرى جمهور الفقهاء أنه يجب لاعتبار القتل عمداً أن يقصد الجانى ضرب المجنى عليه بما يقتل عادة، ولايشترط قصد القتل، والقصد أمر باطنى لأنه من عمل القلب، وإذا كان كذلك فإنه يتعذر الوصول إلى حقيقته، ولذلك أقيم الفعل القاتل مقام قصد القتل تيسيراً للوصول إليه، وبذلك يكون استعمال ما يقتل غالبا دليلاً ظاهراً على توافر نية القتل وقصده[١٣٤].

(٥) أن يكون الضرب تعديا:

كما يجب أن يكون الضرب المؤدى إلى القتل تعديا، وذلك يتحقق بأن يكون بسبب عداوة أو غضب، وهو مايعرف بالقتل العدوان، فإن كان قتلا بحق كقتل القاتل فإنه وإن كان قتلا عمدا. إلا أنه بحق وليس تعديا.

فإذا توافرت هذه الشروط فإن القتل يكون عمدا عدوانا، ويكون غير مشروع.

ثانيا: تعدى الشخص على نفسه بالانتحار:

التعدى على النفس أو الانتحار جريمة محرمة فى الشريعة الاسلامية، فقد حرم الله اعتداء الانسان على نفسه بالإهلاك، أو بتعريضها للهلاك، وذلك بقوله تعالى : ﴿**ولا تُلقوا بأيدِيكم إلى التهلكة**﴾[١٣٥].

وقوله تعالى : ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً**﴾[١٣٦]. وأيضا فإن عموم النهى فى قوله تعالى : ﴿**ولا تقتلوا النفس التى حَرّم الله إلا بالحق**﴾،[١٣٧] يندرج تحته قتل الانسان لنفسه.

وقد بين النبى ﷺ أن عقوبة قاتل النفس عقوبة أخروية شديدة، وذلك فيما رواه البخارى ومسلم : «**من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا أبدا، ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته فى يده يتوجأ بها فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا**»[١٣٨].

كما روى عن جندب البجلى عن النبى ﷺ قال : «كان ممن كان قبلكم رجل به جرح فجزع، فأخذ سكينا فجز بها يده، فسال الدم حتى الموت، قال الله تعالى : «**بادرنى عبدى بنفسه، حرمت عليه الجنة**»[١٣٩]. ومن ثم حرم الإسلام قتل الإنسان لنفسه.

وإذا كان مساءلة من يقتل نفسه دنيويا عن إتلاف نفسه غير ممكنة لموته، فانه لايمنع ذلك من مساءلة من يحرضه على قتل نفسه، سواء تَمَّ ذلك بالاتفاق معه أو بمساعدته، ويكون موقف التشريع الإسلامى متفقا مع القانون فى تجريم الاشتراك فى جريمة الانتحار، وبهذا يتبين أن الانتحار والاشتراك فيه يعتبر قتلا غير مشروع.

المبحث الثالث

مفهوم العنف

العنف لغة : هو الأخذ بالشدة والقسوة، ومن يفعل ذلك يسمى عنيفاً؟ ومنه الشيء : أوله، ويقال فى عنفوان شبابه، أى فى قمة نشاطه وحدته،[١٤٠] ومنه التعنيف : أى التعبير واللوم[١٤١] ولفظ العنف لم يرد بأى اشتقاق فى القرآن الكريم[١٤٢] وجاء فى السنة مخالفا للرفق فى الأمور، ومضادا له[١٤٣].

وفى الاصطلاح: يمكن تعريف العنف بأنه : استعمال القوة الشخصية بدلا من القوة المشروعة فى الإلزام بالرأى، أو هو فرض الرأى بالقوة أو استبدال التحاور الفكرى بالتلاكم اليدوى بآلة أو بدونها، أو تجاوز الحدود المشروعة فى استعمال القوة الشخصية.

ويبدو من هذا التعريف أن العنف ينبغى أن يتوافر فيه ركنان:

أولا : استعمال القوة الشخصية بدلاً من القوة الشرعية دون سند من الشرع أو القانون، ودون أن يتوافر المبرر المنطقى، أو العقلى، أو الفكرى لهذا الاستعمال.

ثانيا : أن يتم استبدال القوة بالحوار فى الرأى، أو فى المجالات التى لا يصلح فيها استعمال القوة، ولا يجدى سوى الحوار العقلى، والتبادل الفكرى، والاقتناع الذى يوجه صاحبه للإقبال على السلوك المطلوب، وهو بكامل حريته واختياره، ودون تأثير عليه بما يعيب إرادته، أو يكرهه على تقرير ما لا يريده.

ومن تطبيقات العنف ما يلى:

(١) الافراط فى استعمال القوة دون مقتض شرعى يجوّز ذلك، وإنزال أقصى أنواع العذاب بشخص لمجرد أنه قد ارتكب مخالفة معينة، وذلك كمن يقتل شخصا لأنه لم يلتزم اداب الاسلام فى مظهره، أو إحراقه بالنار لإحاطة الشبهات به فى ارتكاب جرم ما.

(٢) إلغاء دور السلطة الشرعية فى تأديب الجناة وتوقيع العقاب على المخالفين، وذلك من خلال قيام من يتورطون فى العنف بهذا الدور، بدلا من

السلطة الشرعية، وذلك كما فى حالة قيام أقارب المجنى عليه بإنزال أقصى أنواع العذاب والقتل والتخريب بمن يقتل شخصا لهم، وإلغاء دور السلطة الشرعية هو الذى أدى إلى عدم اقتناع الأفراد بسطوة الحكومات، والافتئات على الحكام، وانتشار بعض العادات الذميمة التى تهدد أمن المجتمع كالأخذ بالثأر، والاستيلاء على أموال الناس بالبلطجة.

(٣) فرض الرأى بالقوة، وهجر الحوار والاقناع، وتبادل الدليل، ومقارعة الحجة بالحجة، اكتفاء بقهر أصحاب الرأى المخالف، وضربهم، أو إبعادهم، أو حرمانهم من حقوقهم الانسانية المقررة.

(٤) استعمال القسوة لحمل المتهمين على الإقرار بارتكاب جرائم معينة من قبل بعض المنتسبين إلى جهات الضبط، حتى يتم الانتهاء من إجراءات التحقيق سريعا، ودون توجه لكشف الحقيقة بالأساليب القانونية الصحيحة.

(٥) قتل المتهمين أثناء الكشف عن وقائع الجريمة من قبل جهات الضبط، أو بعض من ينتسبون إليها، أو حين سماع أقوالهم.

(٦) استعمال القوة الشخصية لتأديب القادرين من سطوه الجماعات المنحرفة، بهدف حملهم على الرجوع لما كانوا عليه من انحراف وخروج على أمن المجتمع ونظامه.

(٧) استعمال القوة فى غير موضعها، والقسوة فى غير موطنها، وذلك لمن يتجاوز حدود التأديب المشروعة فى مجال التعليم والتربية، وبما يخلف أثرا فى جسد من يمارس عليه العنيف قسوته أو تشوها أو نقصا أو عاهة.

(٨) كل قول أو فعل من شأنه أن يحبذ العنف، أو يزينه للناس، أو يدعو إليه، أو يصوره فى إطار يغرى على تقليده والاحتذاء به، واتخاذه منهاجاً وسلوكا فى الحياة.

(٩) استعمال القوة بقصد ممارسة عمل غير مشروع مع شخص، كخطف الإناث أو الأطفال بغية انتهاك أعراضهم، أو ممارسة الفسق معهم، أو حملهم على ممارسة الجريمة كالنشل والتسول أو الاتجار فى المخدرات، أو غير ذلك من ألوان السلوك المجرم.

(١٠) التهديد بارتكاب جريمة ضد النفس أو المال معاقب عليها بالقتل أو بالاشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة أو بانشاء مايشين أو نسبة أمور مخدشة بالشرف وكان التهديد مصحوبا، بطلب أو بتكليف بأمر يعاقب بالسجن (مادة ٣٢٧ عقوبات مصرى).

والأذى المهدد به يلزم أن يكون جريمته من الجرائم التى يعاقب عليها القانون، فالتهديد بأذى لا يشكل جريمة بهذا المعنى لا تتحقق به الجريمة، فلا جريمة فى التهديد برفع دعوى، ومقاطعة تجارة المهدد، أو فساد العلاقة بينه وبين آخر[١٤٤] ويجب أن يكون المهدد جادا لامازحا.

المبحث الرابع
مفهوم الارهاب

الأرهاب لغة : الإخافة، يقال أرهبه أى أخافه[١٤٥] وأرهبه، والإرهابيون وصف يطلق على الذين يسلكون سبيل العنف والإرهاب لتحقيق أهدافهم السياسية، وعلى الذين يعمدون إلى التخريب والقتل وتفجير المركبات العامة لإخافة الناس وحملهم على الرضوخ لما يريدون فرضه عليهم من أفكار لاتلقى قبولا، وهذا المعنى اللغوى لايتفق مع معنى الإرهاب فى الاصطلاح، ولامع ماورد بشأنه، من بيان فى الكتاب والسنة، وأقوال الفقهاء كما سنرى.

وفى الاصطلاح : حين تكلم القرآن الكريم عن الإرهاب لم يذكره بصيغة المصدر للفعل (أرهب) إرهابا على وزن (أكرم) إكراما، وإنما ذكره بصيغة الفعل فى ثلاث آيات تحدثت أولاها عن الرهبة المقررة فى ألواح موسى عليه السلام، وهى رهبة من الله وخوف منه، قال سبحانه : **﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾**[١٤٦]، ولأن تلك الرهبة من الله، وهى رهبة مشروعة ومحمودة فقد سبقت تلك الرهبة بالهدى والرحمة فى الآية الكريمة، لتفيد أن من يخشون الله ويرهبونه ويخافون عذابه عليهم أن يهتدوا ويتراحموا، ومن ثم كان هدف تلك الرهبة هو الرحمة.

أما الآية الثانية فقد جاءت الرهبة فيها بلفظ الأمر، وذلك فى قوله تعالى مخاطبا بنى إسرائيل : **﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوفِ بعهدكم وإياى فارهبون﴾**[١٤٧] والرهبة هنا مطلوبة من الله، لأنها رهبة منه وخوف من عذابه، وقد خاطب الله بها بنى إسرائيل حتى يخافوا من الله ويرهبوا عذابه، فلا ينكثوا فى العهود ولايغدروا فى الاتفاق ومن ثم كان هدف الرهبة هنا هو الحث على الوفاء، والبعد عن الضرر والخيانة.

وأما الآية الثالثة: فقد جاء فيها الحديث عن الإرهاب بصيغة الفعل المضارع وذلك فى قول الله تعالى : **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾**،[١٤٨] والآية الكريمة تتحدث عن الإرهاب أو الرهبة فى إطار إعداد القوة لمواجهة عدو واضح يعلن الحرب بعد أن نأخذ أسباب العدة والعتاد لها، ومن ثم كان فى سياق هذا الحديث مايدل على أنها ينبغى أن تتقيد بالمواجهة العسكرية القائمة، أو التى على وشك القيام بين جيشين، وذلك

بأن يكون لها سبب مشروع، وأن تكون كذلك فى إطار هدف مشروع، وليس من الأسباب أو الأهداف المشروعة أن تكون تلك الرهبة موجهة إلى من ليس طرفا فى حرب، أو أن يكون المقصود بها التخريب والتدمير والقتل ظلما وعدوانا.

مفهوم الإرهاب فى القرآن الكريم :

ويبدو من حديث القرآن الكريم عن الإرهاب أو الرهبة أنه إنما يقصد بها التخويف بالأذى، وليس بإيقاع الأذى نفسه، وذلك هو معنى اللفظ اللغوى، فالرهبة أو الإرهاب فى اللغة تعنى التخويف من فعل شيىء، وذلك بأسلوب التلويح باستعمال القوة، واستعراض وسائلها، والله تعالى حين طلب منا أن نرهب عذابه وذلك فى قوله تعالى : **﴿للذين هم لربهم يرهبون﴾**[١٤٩] وقوله تعالى : **﴿وإياى فارهبون﴾**[١٥٠] فإن الرهبة هنا من الله، وهى تعنى التخويف من عذابه، والتحذير من بطشه، وانتقامه، ولاتعنى القتل والتدمير والتخريب بدون عقل وبغير تمييز، ومن ثم كان إيقاع الأذى بالفعل وإلحاق التدمير بالعمران عملا، إنما هو إفساد فى الأرض وتخريب لها كما قلنا، وهو عمل يتجاوز مضمون الإرهاب ومعناه بفساد كبير وعدوان أكبر، ومن ناحية أخرى فإن مقصد الرهبة فى حديث القرآن عنها: صلاح حال الناس، وتعمير الأرض، والبعد عن الخبث فى العهود والمواثيق، والهداية والرحمة، وكف الظالمين عن ظلمهم، والمعتدين عن اعتدائهم، وليس من مقصودها إتلاف الأنفس، وتخريب العمران، وإلحاق الأذى بالناس فى أرواحهم وأموالهم وأبدانهم. لقد نهى الاسلام عن مجرد إرهاب الآمنين وترويعهم بمجرد التلويح بالسلاح، وليس باستعماله فعلا، فقد روى أبوهريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال : «**لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده فيقع فى حفرة من النار**»،[١٥١] ولا يشترط أن يكون الإرهاب بسيف أو سلاح نارى، حيث يكفى أن يروع الإنسان أخاه الإنسان بحديدة أو عصا، روى أبو هريرة أيضا أن رسول الله ﷺ قال : «**من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهى وإن كان أخاه لأبيه وأمه**»،[١٥٢] بل إن الاسلام يحرم الإرهاب حتى بالنظرة المخيفة عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «**من نظر إلى مؤمن نظرة يخيفه فيها بغير حق أخافه الله يوم القيامة**»[١٥٣] ومن ثم يبدو أن الإسلام يحرم مجرد ترويع المدنيين بالنظرة المخيفة والحديدة والعصا والسيف والسلاح وما دون ذلك أو أقل، وهذا دليل على أنه لايقر الإرهاب، وأن ما يقع منه إنما هو إفساد وتخريب وليس إرهابا وفقاً لحديث القرآن

الكريم عن الإرهاب، وحتى فى حال قيام الحرب فإنه لا يجوز قتل من لا يقاتل كالشيوخ والمرضى والرهبان والنساء والأطفال، كما لا يجوز اتلاف الزرع أو قتل الماشية.(١٥٤)

والإرهاب الذى يقع فى دنيا الناس من قبل الإرهابيين والمفسدين والمخربين يخالف صحيح الأحكام الشرعية وأصول الدين وفروعه من الوجوه التالية:

أولا : أنه يأخذ البرئ بإثم الجانى، وهذا ظلم وحمق لا يقره الإسلام، بل لايجيزه أى دين سماوى أو تشريع وضعى، فمن المقرر شرعا وقانونا أنه لايجوز أن يعاقب شخص دون ذنب أو جريمة يتحقق ويتأكد وقوعها منه ونسبتها إليه، والذين يمارسون الإرهاب يقتلون أنفسا لا ذنب لها، ولم يقع منها ما يمكن أن تتحقق نسبته إليها، والإسلام لا يجيز أن يؤخذ برئ بإثم غيره، قال تعالى : **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾**(١٥٥) ويقول سبحانه : **﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾**،(١٥٦) أى مسئولة عما فعلت من الإثم والجريمة، وقال سبحانه : **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾**(١٥٧). أى لا نؤاخذ نفسا بجريمة نفس أخرى، وإذا كان ذلك منهاج القرآن الكريم فى العقاب على الجريمة فان ذلك التوجيه الرشيد هو الذى يتفق مع العقل. وهو الذى يحقق المصلحة المتمثلة فى حفظ أمن المجتمع، وضبط الإسناد فى مجال الاتهام مما يمنع أن يرتكب الجريمة شخص ثم يعاقب عنها غيره، لأن ذلك فضلا عن منافاته للعدل ينافى مقصود العقوبة فى إصلاح الجانى وتقويمه، والعقاب على غير جرم وإنزال لأمر فى غير منزله، واستعمال للدواء فى غير موطن علته.

ثانيا: أنه ينافى منهج الإسلام فى العدل وفقاً لما أمر به الله فى كتابه حين قال : **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾**،(١٥٨) والعدل هو الإنصاف للخصوم من الظالم، وعدم مؤاخذة البرئ بإثم الجانى، والإرهاب ينافى هذا المعنى ويناقضه لأنه يأخذ جملة من الناس بالإهلاك المدمر دون قصد لبيان ما إذا كان من ينزل بهم ذلك الإهلاك أبرياء أم آثمين. فالمهم هو الإهلاك والإتلاف وليس التقويم والإنصاف.

والإحسان يعنى أن يراقب من يقيم العدل به فلا يأخذ بظواهر الأدلة ما ليس له حق فيه يقول النبى ﷺ : «إنكم تحتكمون إلىَّ ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بغير حقه فإنما اقتطع له قطعة من النار»(١٥٩)، ومن الإحسان أن يكون بناء العدل سليما فى شكله ومضمونه، فلا يكون الحكم به مبنياً على غير أسباب سائغة، أو بدون أدلة مؤكدة، لأن الحكم بدون دليل هو ظلم بَيِّن والذين يمارسون الإرهاب ينزلون بطشهم بلا عدل، ويصدرون أحكامهم

على من ينزلون بطشهم بهم بدون دليل، ولذلك كانوا مضادين للإسلام فى ذلك، وبعيدين عن هديه ومنهاجه.

ثالثا: أنهم يخالفون منهج الإسلام وأصوله فى حفظ مقومات الحياة، ومنها حفظ النفس والمال، وما يقوم به تلك المصالح من المبانى والعمران، وحفظ النفوس لا تفرقة فيه بين نفس وغيرها، لأن الآدمى بنيان الرب، فيه سره، وفيه نفخ من روحه، يستوى فى ذلك أن تكون تلك النفس لمسلم أو مسيحى أو يهودى أو غيره فكأن نفوس البشر فى ميزان حماية التشريع الاسلامى بدرجة سواء، وكفتين متوازيتين لا ترجح إحداهما عن الأخرى قَيْد فتيل، **وقد مرت جنازة على النبى ﷺ وكان قاعدا فوقف احتراما لنفس صاحبها، فقيل له يارسول الله: إنها ليهودى فقال عليه الصلاة والسلام : «أليست نفسا»**[١٦٠] إن هذا الحديث الشريف يدل على أن كافة النفوس فى ميزان الشرع بدرجة سواء، لا تفرقة بينها بسبب اختلاف الديانة أو اللغة أو الجنس أو الفكر، لأنها مستودع الروح، وفيها نفخة الخالق، ومن ثم فلا يجوز قتلها إلا بحق، وبعد قيام الأدلة المؤكد عليها، وأنها قد فعلت ما يوجب قتلها، قال سبحانه: **﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾**،[١٦١] وقال سبحانه وتعالى : **﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾**،[١٦٢] فأثبت للنفس الواحدة من حق الحماية مايثبت لكافة النفوس، لأن معنى النفس لا يقبل التبعيض أو التجزئة، وإحياء النفس الواحدة له حكم إحياء نفوس الناس جميعا، وإذا كان ذلك هو حكم النفس الواحدة فى الإسلام فما بالنا بالنفوس الكثيرة إذا أتلفت، كما أن الأموال محرمة لايجوز المساس بها اتلافا أو أخذا بغير إذن صاحبها، يقول النبى ﷺ : «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم**»،[١٦٣] والتحريم يعنى عدم جواز المساس بها إلا بإذن صاحبها أو رضا منه، وبدون ذلك يكون المال حراما، كما تكون النفس حراما والإرهاب لا يحترم ذلك ولا يرعاه، ولهذا كان مخالفا للدين.

رابعا : إن الذين يمارسون الإرهاب يسيئون إلى الإسلام إساءة بالغة فى الوقت الذى يظنون فيه أنهم يرفعون راياته ويعلنون تعليماته، وأساس تلك الإساءة قائم فى الأسلوب الذى يتبعونه والمسلك الذى يلتزمونه، لأن أسلوبهم يتسم بالقصور الذى لا يرى الإسلام إلا فى عصوره الأولى، ولذلك فإنهم يبالغون فى التماس مظاهر تلك الفترة ملبسا ومأكلا ومشربا ومركبا وتفكيرا، وانفصلوا بأنفسهم عن واقع الزمان ومسايرة الواقع.

وإذا كان الإسلام فى مضمونه وبنائه وأحكامه يرتقى بالناس إلى آفاق المستقبل وحسن الخاتمة؛ فإنهم يأخذون الناس إلى ردة زمنية تقف عند المرحلة الأولى من نزوله، وفى ذلك أبلغ إساءة للإسلام، إنهم يقضون عليه، ويعملون جادين لتحنيط أحكامه وغيرها فى فترة ركنت إليها عقولهم، ويعزلونه عن واقع الحياة وتصرفات الناس، إنهم يحكمون على الإسلام بالعزلة، ويقيمون خصومة بينه وبين البشر، وهم حين يفعلون ذلك إنما يفعلونه بسوء نية، أو بغيا يصل لمستوى هذا السوء، لأنهم لم ينعزلوا عن واقع الحياة فى تطور صناعة الأسلحة ووسائل الاتصال فتراهم يستعملون منها أرقى أنواعها وأحدث ما صنع منها، كما يستخدمون ما تفتقت عنه العقول من وسائل النقل المختلفة كالسيارات والطائرات والقطارات والبواخر، ويستعملون الفاكس والكمبيوتر والإنترنت، ولكنهم حين يتعاملون مع معطيات العصر على هذا النحو إنما يهدفون إلى استخدام مخترعات فى خدمة الهدف الذى لايرون بديلا عنه فى خدمة الدين من وجهة نظرهم، وهو الرجوع به إلى الوراء، وليس بإجهاد أنفسهم فى علومه لاستنباط أحكام تواجه ذلك الواقع، ليثبتوا للناس ما كلفنا الله بإثباته لهم، وهو أن الإسلام دين خاتم، وأنه صالح لكل زمان ومكان، ولهذا كان مسلكهم مصدر إساءة كبرى للإسلام، وكان بعيدا عن هديه ومقاصده كما كان بعيداً عن توجيهه وتشريعاته، وذلك هو موقف الإسلام من الارهاب، وتلك هى نظرته إليه، وذلك هو حكمه الواضح على من يمارسونه، وباختصار فإنه لا يقره ولايعترف به، ولايجيز لأحد أن يمارسه، والذين يمارسون الإرهاب باسم الإسلام إنما يدلسون على الناس بذلك، لأنهم إنما يمارسون مايفرضه عليهم الهوى والغرض، أما الإسلام فإنه منهم ومما يلصقونه به براء.

وبداهة فانه يوجد فرق كبير بين الإرهاب على نحو مايشاع عنه ويعرف به مما سبق بيانه وبين من يدافعون عن وطنهم، فالدفاع عن الوطن عمل مشروع فى كل الأديان وفى كافة القوانين، ولهذا فإنه لايجوز ولا يصح الخلط بين الأمرين، لأن الفرق بينهما هو الفرق بين الفضيلة والجريمة، وبين الحق والباطل، وبين الصواب والخطأ، وبالقطع فإن الفضيلة والحق والصواب كل ذلك يتمثل فى الدفاع عن الوطن، والجريمة والباطل والخطأ كله متجسد فى الإفساد فى الأرض، أو مايطلق عليه لدى الاستعمال الشائع بالإرهاب.

الخاتمـــــة

فى ختام تلك الدراسة يمكن القول أن أهم النتائج المترتبة على تحديد مفاهيم البحث هى ما يلى:

أولا: أن الجهاد هو بذل غاية الجهد بالنفس والمال والعقل والقلب فى رد التعدى، والانتصار للحق فى النفس والمجتمع، وأنه مشروع وواجب عند وجود مقتضياته، وهو الهجوم على الوطن بالسلاح أو بالفكر المناهض لمقومات الايمان، ولهذا فإنه كما يكون بالسنان يكون باللسان الذى يدافع عن دين الله، وعن الحق والفضيلة.

ثانيا: ان القتال هو إتلاف النفس طلبا للشهادة فى سبيل الله والحق، ولا يجوز أن يتم القتال انتقاما من الضعفاء، أو إرهابهم، أو فرض الرأى الباطل بالقوة والتخويف والتفجير، كما أن قتل النفس وتفجيرها فى سبيل الله دفاعاً عن الوطن شهادة ينال صاحبها أعلى درجات الجنة، ولا يمكن اعتبار هذا النوع من قتل النفس انتحارا بحال من الأحوال، لأن الانتحار هو قتل النفس فشلا ويأساً من رحمة الله انقياداً لمقاصد ذاتية أو اعتبارات شخصية.

ثالثا: أن العنف هو استعمال القوة بما يجاوز الحدود المشروعة، أو فى غير موضوعها، أو الافتئات على حق المجتمع فى القيام على شئون الأمن، وتطبيق الأحكام الشرعية الواجبة.

رابعاً : ان الإرهاب هو التلويح بالقوة الرادعة لعدو ظاهر يتوثب لقتالنا، وذلك بهدف تخويفه، ومنعه من الخوض فى الحرب طلبا لسلامتنا، وليكفى الله المؤمنين شر القتال، وليس منه قتل الآمنين، أو تخريب العامر وتفجيره. والله ولى التوفيق.

الهوامش

١ – سورة الأحزاب – الآية ٧٠.
٢ – الدمشقى الحنبلى – اللباب فى علوم الكتاب ـ جـ٧ ص ٢٠٢ تحقيق نخبة من العلماء طبعة دار الكتب العلمية بيروت.
٣ – سورة الأنعام ـ من الآية ١٥٢.
٤ – مختار الصحاح ـ ص١٢٦ طبعة دار الفكر بيروت والمعجم الوجيز ـ ص ٣٩ طبعة وزارة التربية والتعليم.
٥ – المعجم الوجيز ـ السابق.
٦ – ابن قدامة ـ روضة الناظر وجنة المناظر ـ جـ١ ص٣٧ مكتبة المعارف بالرياض، والدن: هو إناء حفظ الخمر.
٧ – مختار الصحاح ـ ص ٥١٣ والمعجم الوجيز ـ ص ٤٧٩.
٨ – شرح الرسالة الشمسية المسمى تيسير القواعد المنطقية د. محمد شمس الدين سالم ـ ص ٣٠ الطبعة الرابعة ١٩٨٤.
٩ – المرجع نفسه.
١٠ – د. على حسب الله ـ أصول التشريع الإسلامى ـ ص ٢٧٦ طبعة دار المعارف د. شوكت العدوى ـ محاضرات فى أصول الفقه ـ ص ٨٨ طبعة ١٩٨١م.
١١ – سورة الإسراء ـ من الآية ٢٣.
١٢ – د. على حسب الله – السابق د. شوكت العدوى ـ السابق.
١٣ – سورة يوسف ـ آية ٥٣.
١٤ – راجع: القرطبى الجامع لأحكام القرآن ـ حـ٩ ص١٣٧ـ طبعة الهيئة المصرية للكتاب، وقارن ما ذهب إليه الفخر الرازى فى تفسيره ـ حـ ١٨ ص ١٢٤، الدمشقى الحنبلى فى تفسيره ـ اللباب فى علوم الكتاب ـ حـ١١ – ص ١٣١. حيث يريان مع بعض المفسرين أن ذلك من تمام كلام يوسف عليه السلام وقد حكاه عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب﴾ وقيل إنه من قول العزيز، كأنه قال: وإنى لم أغفل عن مجازاته على أمانته ، اللباب ـ السابق ص ١٣٠.
١٥ – السيوطى الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة ـ ص ٨٩ طبعة الحلبى.
١٦ – الزبيدى اتحاف السادة المتقين ـ جـ٦ ص ٣٧٩ وحـ٧ ص ٣٥١ طبعة بيروت.
١٧ – الكاسانى ـ بدائع الصنائع ـ جـ٩، ص ٤٢٩٩، مجمع الأنهر، حـ١ ص ٦٣١؛٦٣٢ دار إحياء التراث.
١٨ – الهداية، شرح بداية المبتدى حـ٢ ص ١٣٥ طبعة الحلبى.
١٩ – فى هذا المعنى انظر: شرح الخرشى على مختصر خليل، حـ٣ ص٧ المطبعة الأميرية.
٢٠ – القوانين الفقهية لابن جزى ص ١٢٦ طبعة دار الفكر.
٢١ – حاشية الجمل على شرح المنهاج للشيخ زكريا الأنصارى ـ حـ٥ ص ١٧٩.
٢٢ – ابن قدامة ـ المغنى جـ١٣ ص٧ ومابعدها طبعة هجر سنة١٩٩٩م، وكشاف القناع للبهوتى ـ حـ٣ ص٣٢ مكتبة مصر الحديثة. وراجع فى هذا المعنى: د. منصور أبو المعاطى ـ تنظيم الحرب والسلام في الفقه الإسلامى. ص ٤٧، دار الطباعة المحمدية، ١٩٨٤م.
٢٣ – زاد المعاد ـ لابن القيم، حـ٢، ص٣٥، المطبعة العصرية.
٢٤ – المحلى لابن حزم ، جـ٧، ص ٢٩١ مكتبة دار التراث.
٢٥ – الشوكانى نيل الأوطار ـ، ص ٢٣٦ طبعة الحلبى.
٢٦ – زاد المعاد لابن القيم، جـ٢ ص ٣٥ المطبعة العصرية.
٢٧ – سورة الحج ـ الآية ٧٨.
٢٨ – سورة العنكبوت ـ الآية ٦٩.
٢٩ – سبق تخريج هذين الحديثين فى بدايات المبحث الأول.
٣٠ – المناوى فيض القدير ـ جـ٢ ـ ص٣١ طبعة دار النهضة الحديثة ببيروت سنة ١٩٧١م.
٣١ – ابن العربى أحكام القرآن ، جـ٢ ـ ص ٩٠٨ طبعة دار الجيل بيروت.
٣٢ – رواه أحمد وأبو داود، وابن ماجه راجع: نيل الأوطار للشوكانى ـ جـ٢ ـ ص ٣٤٥
٣٣ – فى هذا المعنى : الشوكانى : نيل الأوطار، جـ٧، ص ٢٣٦.

٣٤ – سورة الرعد ـ الآية ١١.
٣٥ – سورة الأنفال ـ الآية ٦٠.
٣٦ – سورة التوبة ـ الآية ١١١.
٣٧ – سورة التوبة ـ الآية ٧٣ سورة التحريم ـ الآية ٩.
٣٨ – فتح البارى بشرح صحيح البخارى ـ ص ٣٤٦.
٣٩ – رواه أحمد ومسلم والنسائى – وللبخارى مثله من حديث أبى هريرة – راجع: نيل الأوطار للشوكانى ـ ص٢٣٥.
٤٠ – العناية بهامش الهداية. مع فتح القدير، جـ٥ ـص ١٨٩ – دار التراث.
٤١ – راجع فى التفرقة بين فرض العين وفرض الكفاية بدائع الصنائع للكاسانى، جـ٩، ص ٤٣٠١ – مطبعة الإمام، وتبيين الحقائق للزيلعى، حـ٣، ص ٢٤٠، والمغنى لابن قدامة ، جـ ٩، ص ١٩٦، وحاشية الجمل مع شرح المنهج للشيخ زكريا الأنصارى، جـ٥، ص ١٨١ وما بعدها.
٤٢ – سورة التوبة – الآية ١١٢.
٤٣ – حاشية الجمل – السابق ، جـ٥ ـ ص ١٧٠.
٤٤ – تبيين الحقائق للزيلعى، جـ ٣، ص ٢٤١، والهداية السابق، ص ١٣٠.
٤٥ – د. منصور أبو المعاطى، د. محمود العكازى – الفقه الإسلامى في الجهاد والحدود والقصاص ـ ص ٤٠، والهداية، السابق.
٤٦ – بدائع الصنائع، جـ٩، ص٤٣٠١، والهداية، السابق، والمغنى، جـ١٢، ص٨.
٤٧ – سورة الأنفال ، الآية ٤٥.
٤٨ – سورة الأنفال ، الآية ٤٩.
٤٩ – سورة الأنفال الآيتان ١٥، ١٦.
٥٠ – الهداية السابق ـ ١٣٧.
٥١ – سورة التوبة ـ الآية ٣٨.
٥٢ – سورة الحشر ـ الآية ٢٣.
٥٣ – فتح البارى ، جـ٦ ـ ص ٩٥.
٥٤ – سورة البقرة ـ الآية ٢١٦.
٥٥ – سورة البقرة ـ الآية ٢٥٦.
٥٦ – سورة الأنعام ـ الآية ١٢٥.
٥٧ – سورة الأنفال ـ الآية ٢٤.
٥٨ – سورة البقرة ـ الآية ٢٧٢.
٥٩ – سورة القصص ـ الآية ٥٦.
٦٠ – سورة الشورى ـ الآية ٤٨.
٦١ – الغاشية ـ الآيتان ٢١، ٢٢.
٦٢ – سورة البقرة ـ الآية ٢٨٦.
٦٣ – الغزالى ـ المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى، ص ٩٦ تحقيق محمد عثمان الخشت، القاهرة، ١٩٨٥م.
٦٤ – سورة المنافقون ـ الآية ٨.
٦٥ – سورة يونس ـ الآية ٦٥.
٦٦ – سورة المائدة ـ الآية ٣.
٦٧ – سورة الأعراف ـ الآية ٥٦.
٦٨ – تفسير المنار، حـ٢، ص ١٧٤.
٦٩ – الزيلعى : تبيين الحقائق، جـ٢، ص ٢٤١.
٧٠ – مغنى المحتاج، جـ٤، ص ٢١٠، طبعة الحلبى ، ١٩٥٨م.
٧١ – تبيين الحقائق ، السابق ، وشرح الخرشى على مختصر خليل،جـ٣، ص٧، وتفسير المنار، جـ٢ ص ١٧٤، وابن تيمية : مجموعة الرسائل (رسالة القتال) ص ١١٧، مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٤٩م، وزاد المعاد ـ جـ ٣، ص ٧١ طبعة مؤسسة الرسالة.

٧٢ – د. وهبة الزحلبى ـ أثار الحرب فى الفقه الإسلامى رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة ـ ص ١٠٦ ـ الطبعة الثالثة دار الفكر دمشق.
٧٣ – مغنى المحتاج ـ جـ ٤ ، ص ٢٢٣.
٧٤ – سورة الحج ـ الآية ٣٩.
٧٥ – سورة البقرة ـ الآيات ١٩٠ـ ١٩٢.
٧٦ – جاء فى العناية على الهداية: «وسببه (أى القتال) كون الكفار حرباً علينا» ، راجع: جـ ٥، ص ٤٣٧ بهامش القدير، طبعة الحلبى، وجاء فى المبسوط للسرخسى: «والقتل إما أن يكون للمحاربة كما يقول علماؤنا – رحمهم الله – أو للشرك كما يقول الخصم» المبسوط ، جـ ١٠، ص ٣٠، ٨١.
٧٧ – سورة التوبة – الآية ٢٩.
٧٨ – أخرجه البخارى صحيح مسلم، حـ١، ص ١٧٩ طبعة الشعب.
٧٩ – د. وهبة الزحيلى الرسالة السابقة ـ ص ١٠٧.
٨٠ – رسالة القتال لابن تيمية ـ ص ١١٧.
٨١ – رواه أبو داود وراجع نيل الأوطار للشوكانى ـ حـ٧، ص ٢٨٠.
٨٢ – نيل الأوطار السابق ـ ص ٢٨١.
٨٣ – المرجع نفسه ـ ص ٢٨٠.
٨٤ – المرجع نفسه ـ ص ٢٨١.
٨٥ – المرجع نفسه.
٨٦ – المرجع نفسه.
٨٧ – المرجع نفسه، وقال : «ولما فى استبقائهم جميعاً من الانتفاع إما بالرق أو بالفداء».
٨٨ – سورة التوبة ـ الآية ١٢٣.
٨٩ – سورة التوبة ـ الآية ٣٦.
٩٠ – فى هذا المعنى ـ د. وهبة الزحلبى ـ السابق ص ١١٩.
٩١ – فى هذا المعنى: تفسير المنار ـ ص ٢١٤ وما بعدها.
٩٢ – سورة الأنفال ـ الآية ٣٩.
٩٣ – د. وهبة الزحلبى ـ السابق ـ ص ١١٧.
٩٤ – سورة التوبة ـ الآية ٥.
٩٥ – سورة التوبة ـ الآية ٣٦.
٩٦ – د. وهبة الزحيلى ، السابق ، ص ١١٨.
٩٧ – الشيخ عبد الوهاب خلاف ـ ص ٧٧ وما بعدها، وتفسير المنار، جـ ١٠، ص ١٦٧.
٩٨ – د. وهبة الزحلبى – السابق.
٩٩ – تفسير الطبرى ،جـ ١٠، ص ٩٠، دار المعرفة، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى، جـ ٨، ص ١٢٦، وفتح القدير، للشوكانى ، جـ ٢ ، ص ٣٥٩، دار الفكر ببيروت.
١٠٠ – سورة الفتح ـ الآية ١٦.
١٠١ – صحيح مسلم السابق ـ جـ١ ـ ص ١٧٩.
١٠٢ – الدهلوى حجة الله البالغة ـ جـ٢ ـ ص ١٧٠.
١٠٣ – سورة يوسف ـ الآية ١٠٣.
١٠٤ – مختار الصحاح ـ ص ٥٢١ والمعجم الوجيز ـ ص ٤٩٠.
١٠٥ – المعجم الوجيز السابق.
١٠٦ – فتح القدير ـ ص ٢٤٤.
١٠٧ – د. حسنين عبيد ـ جرائم الاعتداء على الاشخاص ـ ص٩.
١٠٨ – د. محمود مصطفى ـ شرح قانون العقوبات ـ ص ٦٥٢.
١٠٩ – سورة النساء ـ الآية ٧٤.
١١٠ – سورة التوبة ـ الآية ١١١.

١١١ - سورة البقرة ـ الآيات ١٩٠ - ١٩٣.
١١٢ - سورة الصف ـ الآية ٤.
١١٣ - القاموس المحيط ـ ص ٣٠٥.
١١٤ - فتح القدير ، حـ ٦، ص ١٠٠ وما بعدها، حاشية الدسوقى على الشرح الكبير، حـ٤، ص ٢٩٨، ومغنى المحتاج ، حـ ٤، ص ١٢٣، والمغنى لابن قدامة، جـ ١٠، ص ٥٢.
١١٥ - القوانين الفقهية ، ص ٢٩٣ وما بعدها، ونهاية المحتاج للرملى، جـ٧، ص ٣٨٧، والمغنى لابن قدامة، جـ٧، ص ٥٧ وما بعدها ، والمحلى لابن حزم ، جـ ١٢، ص ٥٢٤.
١١٦ - الفروق للقرافى، جـ ٤، ص ١٧١.
١١٧ - المبسوط ، جـ ٩، ص ١٩٥، ص ٣٦٢، والمهذب، جـ ٢، ص ٢٨٤.
١١٨ - المبسوط، السابق، فتح القدير ـ جـ٤، ص ٢٧٠، مغنى المحتاج، جـ ٤، ص ٨١، القوانين الفقهية ـ ص ٣٦٢، والمغنى ـ حـ ٨، ص ٢٨٨.
١١٩ - سورة المائدة ـ الآية ٣٣.
١٢٠ - الفروق ، السابق.
١٢١ - سورة البقرة ـ الآية ١٧٩.
١٢٢ - سورة البقرة ـ الآية ١٧٨.
١٢٣ - رواه ابن أبى شيبة فى مسنده عن ابن عباس.
١٢٤ - حاشية الدسوقى على الشرح الكبير، جـ٤، ص ٢٧٥.
١٢٥ - ابن تيمية السياسة ـ الشرعية ـ ص ٨٧ دار الكتاب العربى.
١٢٦ - د. محمد سلام مدكور ـ ص ٣٧٩ دار النهضة العربية.
١٢٧ - د. رمسيس بهنام ـ النظرية العامة للقانون الجنائى ـ ص ٣٨٧ منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧١م.
١٢٨ - د. محمود إبراهيم إسماعيل ـ شرح الأحكام العامة فى قانون العقوبات المصرى، فقرة ٢٧٣، الطبعة الثانية، دار الفكر العربى، ١٩٥٩م.
١٢٩ - سورة البقرة ـ الآية ١٩٤.
١٣٠ - مسند الإمام أحمد ـ جـ ١١ ـ ص ٦٨٢٩ ـ طبعة دار المعارف سنة ١٣٧٢هـ.
١٣١ - عبد القادر عوده التشريع الجنائى الإسلامى ـ ص ٦.
١٣٢ - د. حسن الشاذلى ـ الجنايات فى الفقه الإسلامى ـ ص ٨٠ الطبعة الثانية ١٩٧٨م.
١٣٣ - المرجع نفسه ـ ص ٨٥.
١٣٤ - المرجع نفسه ـ ص ٩١.
١٣٥ - سورة البقرة ـ الآية ١٩٥.
١٣٦ - سورة النساء ـ الآية ٢٩.
١٣٧ - سورة الإسراء ـ الآية ٣٣.
١٣٨ - الترغيب والترهيب للمنذرى، حـ ٣، ص ٣٠٠.
١٣٩ - أخرجه البخارى ومسلم ـ المرجع نفسه.
١٤٠ - المعجم الوجيز ـ ص ٣٣٧ ـ ومختار الصحاح ـ ص ٤٥٨.
١٤١ - مختار الصحاح ـ السابق ص ١٢ دار المعرفة.
١٤٢ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ ص ٦٠٤ طبعة دار الحديث بالقاهرة.
١٤٣ - روى عبد الله بن مغفل طبعة دار الفكر ـ ص ٨٧.
١٤٤ - د. رمسيس بهنام الجرائم المضرة ـ ص ١٨١ منشأة المعرف بالإسكندرية.

١٤٥ – مختار الصحاح ـ ص ٢٥٩.
١٤٦ – سورة الأعراف ـ الآية ١٥٤.
١٤٧ – سورة البقرة، ـ الآية ٤٠.
١٤٨ – سورة الأنفال ـ الآية ٦٠.
١٤٩ – سورة الأعراف ـ الآية ١٥٤.
١٥٠ – سورة البقرة ـ الآية ٤٠.
١٥١ – رواه البخارى ومسلم ـ ص ٢٩١.
١٥٢ – رواه مسلم ـ المرجع نفسه.
١٥٣ – رواه الطبرانى رواه أبو الشيخ من حديث أبى هريرة ـ المرجع نفسه.
١٥٤ – راجع ماسبق بيانه ضمن أدلة القائلين بأن غاية الجهاد وعلته رد المعتدين، إذ لو كانت غايته القضاء على الكفر لما ورد النهى فى السنة عن قتل الشيوخ والرهبان والنساء والأطفال وذلك فى المبحث الأول من هذا البحث.
١٥٥ – سورة البقرة ـ الآية ٢٨٦.
١٥٦ – سورة المدثر ـ الآية ٣٨.
١٥٧ – سورة فاطر ـ الآية ١٨، وسورة الإسراء ـ الآية ١٥.
١٥٨ – سورة النحل ـ الآية ٩٠.
١٥٩ – متفق عليه ، راجع فتح البارى ، جـ ١٣، ص ١٧٤، المكتبة السلفية.
١٦٠ – صحيح البخارى ـ حديث رقم ١٢٥٠طبعة دار العلوم الإنسانية دمشق.
١٦١ – سورة الأنعام ـ الآية ١٥١.
١٦٢ – سورة المائدة ـ الآية ٣٢.
١٦٣ – صحيح البخارى ، السابق، حديث ١٦٥٢.

رأى الإسلام
حول العلاقات الدولية والجهاد

الأستاذ/ محمد نورى يلماظ
رئيس الشئون الدينية تركيا

القسم الأول

رأى الإسلام حول العلاقات الدولية

إن عصرنا الحاضر يتميز بتغيرات سريعة ودائمة، وهذا التمايز فى حد ذاته لا يخص يومنا فقط بل هو ميزة إنسانية تبدأ مع بدء الخليقة، وتزداد سرعة بالاستمرار. إلا أنه فى الماضى كان يتوقف تغير أحد نواحى الحياة على مرور عصور، وفى يومنا الحاضر فإنه لا يتطلب إلا مرور سنوات أو شهور بل أسابيع.

فأصبح الإنسان يتجاوز حدود نطاق الكرة الأرضية ليكشف أسرار الفضاء خطوة خطوة. وأصبح أفراد الأسرة البشرية يحاولون أن يتعرفوا على بعضهم بعضا أكثر، وأن يتوحدوا بشكل بارز كلما تمضى الأيام بفضل التغيرات الحديثة التى تحققت فى مجال المعلومات اللاسيلكية. إن انتهاء عهد الحروب الباردة نتيجة التطورات والمجهود الديمقراطى فى كثير من البلاد التى تقاد بالديكتاتوريات، وما يصاحب هذا المجهود من مسيرة شكلت خطوات حاسمة سجلها التاريخ فى سبيل الوصول إلى سلام دائم.

كما أن المجهودات المبذولة فى مجال حماية حقوق الإنسان الأصلية وقيمته الأساسية، وما تم تأسيسها من مؤسسات فى هذا المجال قوت آمال الشعوب المضطهدة بسبب لغتها ودينها ولونها.

ومع هذه التطورات الإيجابية فهناك حقائق مرة لا يمكن غض البصر عنها؛ من وقوع إراقة دماء ودموع وأذى فى بعض بقاع من الكرة الأرضية نتيجة صدام وحروب وقتل جماعى لا يليق بهذا العصر وبالعالم المتمدن مثل ما كان الوضع فى عهد القرون الوسطى التى تسمى بـ «عهود الظلام»[1].

إن القرارات الصادرة من الأمم المتحدة ومن المؤسسات الدولية وما تتخذها من ردوع لم تكف للقضاء على وجود حروب كحقيقة، وإن حياة عالمنا المعاصر وإن نظم القانون الدولى لم تلب أمل الإنسانية فى الحصول على عالم برئ من الحروب.

لقد ارتفعت نداءات كثيرة من علماء الأخلاق والقانون بعدم كفاية القوانين التى لا تراعى الدين، وأنه لم تعط الفائدة المرجوة، وبدأ هؤلاء العلماء بإجراء بحوث علمية حول أهمية الأديان فى مجال القانون الدولى.

لقد بدأ البحث حول موقف الإسلام فى تاريخ القانون الدولى، وتأثيره فى هذا المجال المهم عبر الماضى والحاضر والمستقبل، وأصبح يشكل موقفا بارزا لا يقاس ببداية القرن العشرين[2]، هذا وإن الباحثين من العلماء الجامعيين الذين ينظرون إلى الموضوع نظرة موضوعية، وعلماء القانون حين يبحثون عن المسلمين فى تعاملهم مع أهل الأديان الأخرى، وإعطائهم الحرية الدينية، يعترفون بصدارة الإمام محمد بن الحسن الشيبانى (توفى ٨٠٥م) الذى يعتبر مؤسسا للقانون الدولى، وبتأثيره على العالم الهولندى Hogo Grotusa (١٦٤٠م) مؤسس القانون الدولى[3].

وللاستدلال فى هذا المجال يطيب ذكر الأمثلة الآتية: يقول المؤرخ الأسبانى Romero Navarro فى كتابه المسمى «بتاريخ الأسبان»، مبينا احتضان المسلمين جميع أهل الأديان الأخرى الذين يعاشرونهم دون تفرقة ما يلى:

«لقد كان الذين يعيشون تحت سيطرة المسلمين (يقصد بذلك مسلمى الأندلس) من أهل الأديان الأخرى، يحتفظون بقوانينهم وبمحاكمهم وبمعابدهم وبعلمائهم. وقد تحسنت ظروف معيشة الزراع والعبيد واليهود فى هذا العهد. وبالأخص فإن اليهود الذين كانوا قد اضطهدوا تحت حكم ملوك Vizogotlar حصلوا فى عهد المسلمين العرب على حرية العقيدة كاملا، واشتركوا فى القيادة الجديدة، كما أن جميع الأديان والأعراق فى هذا العهد عاشت الحرية التامة. وكان يطبق التسامح فى هذه البقعة من أوروبا تحت سيطرة المسلمين فى حين كان التطرف يسود أوروبا المسيحية».

وجدير بالذكر أنه تم تأسيس «وقف ٥٠٠ سنة» من قبل اليهود من المواطنين الأتراك، تخليداً لذكرى احتضان السلطان العثمانى لليهود الفارين من ألبانيا، بعد اضطهادهم فيها تحت سيطرة حكم المسيحيين فى القرن الخامس عشر[٤].

وهذان المثالان إن دلا على شىء، فإنما يدلان على تسامح الإسلام والمسلمين نحو الأقليات التى تعيش تحت سيطرة المسلمين، ومدى مستوى نظامهم القانونى الأمر الذى يجلب الغبطة والتقدير حتى فى يومنا الحاضر.

فما هو موضع هذا القانون من تاريخ الحقوق؟

وقبل أن أتطرق إلى ذكر شهادة المؤلفين من العلماء الغربيين على هذا السؤال يطيب لى ذكر ما يلى:

إن مبادئ الإسلام الدينية والسياسية كانت دائما تحرص على جمع شمل المسلمين تحت قيادة واحدة؛ ولهذا لم يرد كثيراً ذكر بيان القانون المتعلق بعلاقة دول ذات قيادات فعلية مختلفة من المسلمين فى الفقه الإسلامى، فى حين ركز المسلمون على علاقتهم نحو المحيط غير المسلم بكل تفصيلاته فجمع فقهاء المسلمين اعتبارا من القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) أحكامهم فى هذا الموضوع فى كتب الفقه فى فصول معينة أو فى كتب مستقلة سموها بـ «المميز».[٥]

وتقديرا للإمام الشيبانى يقول Christophe G.Weeramantng نائب رئيس محكمة العدل الدولية: «لقد أتم فقهاء العرب مثل الإمام الشيبانى فى القرن الثامن تأليف أحكام قانون دولى كما أن المفكرين العرب أمدوا جسورا لانتقال كثير من فصول الفلسفة القديمة إلى الغرب».(٦) وقام ببحث وجود علاقة فيما قام به الإمام الشيبانى ومن أتى بعده بقرون أمثال Grotius, Gentili, Victoria, Ayala، كما أن كاتبا غربيا آخر يسمى بـ Kont Leon Ostrong يقول ما يلى:

«إن المفكرين الشرقيين فى القرن التاسع وضعوا مبادئ لحقوق الأفراد وحرية الأفراد وحماية الأرواح والأموال، كما أنهم ألَّفوا نظاماً إنسانياً رائعا للحروب يعتبر عاراً لمن اشتركوا فى الحرب العالمية، وأن هؤلاء المفكرين الشرقيين قد فسروا نظرية التسامح لمن اعتنق عقيدة غير عقيدة المسلمين تفسيراً جميلاً لم يتوصل إلى مثل مبادئه فى الغرب إلاَّ بعد ألف سنة»(٧).

هذا هو موضع الإسلام فى تاريخ القانون وتأثيره. إلا أن المسألة ليست مسألة مناقشة ما أحرزه قانون الإسلام الدولى للإنسانية فى الماضى، لا هو مسألة ملائمته للنظام العالمى فى العصر الحاضر على حقيقته، بل المسألة هى: هل سوف يستطيع أن يحافظ على تطوره تطوراً يحوز على قبول الجميع بعد هذا أم لا؟(٨).

هناك حقائق يتفائل بها المسلمون فى هذا الموضوع، إذا أن الحقائق التاريخية التى تم التوصل إليها نتيجة الدراسات المكثفة حول الكيان الفقهى للإسلام، تعطى الضوء على تكوين مشاركة محتملة فى المستقبل للإسلام(٩).

إن نظاما لعلاقات دولية مستنبطة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية يتلائم مع عصرنا الحاضر، لا شك أنه سوف يكون أساسا مناسبا للتأثيرات المحتملة المشار إليها آنفا بجانب مشاركته السلام العالمى مشاركة فعالة. هذا وإن رأى الإسلام فى العلاقات الدولية يجب أن يتضح.

إن فقهاء المسلمين المتأخرين قد تطرقوا فى مؤلفاتهم إلى: هل علاقة المسلمين بغيرهم تتوقف على أساس السلام أو على أساس الحرب بشكل

مستقل؟ وذهب هؤلاء الفقهاء إلى سرد أدلة الآراء المخالفة مع أدلتهم ثم أدلوا بآرائهم مع التعليل[١٠].

إن قسما من فقهاء المسلمين ذهبوا إلى أن علاقة الدولة المسلمة بالدول غير المسلمة هى: أساس الحرب بناء على تقسيمهم العالم إلى دار إسلام ودار حرب[١١]. وخلافا لهذا الرأى المذكور ذهب آخرون لا سيما الباحثون المعاصرون:[١٢] إلى أن علاقة الدولة الإسلامية والدول الأخرى يتوقف على أساس السلام، كما أن هناك باحثون آخرون تمسكوا بآراء أخرى واستدلوا فى آرائهم بما يلى: «الأصل فى العلاقات الدولية ليس الحرب ولا السلام حيث إن اعتبار الحرب أساسا للعلاقات يتعارض مع رحمة الله بالعباد[١٣] التى كتبها على نفسه ومع رسول أرسله رحمة للعالمين ورسالته السماوية[١٤] ، ويكون سببا للقلق، كما أن هذا يتنافى مع وجود أناس يعتنقون عقائد مختلفة غير الإسلام حسب سنة الله فى الكون[١٥]، كما أن قبول مبدأ السلام لهذه العلاقات يفيد نتيجة عدم الوقوف ضد الشرك والظلم وعدم القيام باتخاذ كافة السبل لإيصال رسالة الإسلام إلى المجموعات البشرية. إذ يتوجب الاستعداد للقيام بأى شىء فى هذا السبيل حتى الحرب إذا تطلب الأمر، بدلا من ركود شعور بمحبة السلام. لذلك فإن الأصل للعلاقات هو الدعوة والتبليغ»[١٦].

ويمكن التوصل إلى النتيجة الآتية بعد تقييم هذه الآراء المختلفة الثلاثة:

أن الأصل فى العلاقات الدولية هو السلام، إلا أنه قد يمكن اتخاذ الحرب خلافا لأساس السلام بصورة مؤقتة فى حالة العداء للمسلمين، وكبت الحرية الدينية من قبل دول أخرى ومنع الدعوة إلى الله[١٧]، فيجب فهم مفهوم الجهاد فى الإسلام فى هذا الإطار.

ومن الجدير بالذكر سرد الأدلة على ضرورة جعل السلام أساسا لعلاقاتنا الدولية، قبل التطرق إلى تحليل مفهوم الجهاد الشامل فى الإسلام.

١- يقول سبحانه وتعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السِّلم كافة﴾**

(سورة البقرة: ٢٠٨)، حيث فسرت كلمة السلم من قبل بعض المفسرين وعلماء الإسلام المتأخرين بالسلام وبالمعاهدات الدولية[١٨].

٢- ويقول سبحانه وتعالى: **﴿وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾** (سورة الأنفال: ٦١).

٣- تفيد الآيات الكريمة من سورة النساء عدم التعرض للمنافقين بل معاملتهم بصلح حيث يقول سبحانه وتعالى: **﴿فإن اعتزلوكم فلم يُقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلَم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾** (النساء: ٩٠).

٤- لم يشرع الله حرجا فى الدين بل ترك الاختيار فى معتقدات الناس الدينية حيث يقول سبحانه وتعالى:

(أ) **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى..﴾** (سورة البقرة: ٢٥٦)

(ب) وقال سبحانه: **﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾** (سورة يونس: ٩٩)

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن الاختلاف فى العقيدة الدينية ليس سببا لدخول المسلمين فى الحرب. ويجب ألا ينسى أن روح الإسلام تدعو إلى العفو والتسامح والصداقة والمحبة. وأن كلمة السلام هى اسم من أسماء الله الحسنى وهى تحية المسلمين نحو بعضهم البعض وأن الجنة هى دار السلام[١٩].

واستنادا إلى ما ورد يمكن القول بأن الأساس فى علاقة المسلمين الدولية هو السلام، كما أن العلاقة مع الدول غير المسلمة تعتمد على المصلحة المتبادلة، وتنبع من ضرورات الحياة العلمية والثقافية وهى لا تمنع مطلقاً المعاملات التجارية والخدمات ولا توجد فى الإسلام أحكام خلاف ذلك.

إلا أنه يجب أن يكون مضمون المعاملات جميعا مما يبيحه الإسلام، هذا ما كان عليه المسلمون فى معاملتهم مع غير المسلمين منذ العهد النبوى[٢٠].

ومع هذا يجب ألاَّ يفهم اعتناق المسلمين مبدأ السلام أساسا لعلاقاتهم الدولية، على أنه استسلام وعدم وقوف ضد العداء لدينهم أو بلادهم أو شعوبهم، حيث يكون الجهاد فرضا على المسلمين جميعا فى هذه الحالات.

القسم الثانى

الجهاد

أولا: المدخل:

إن مفهوم الجهاد أحد المفاهيم الإسلامية المهمة الذى شاع بين المسلمين بمفهوم خاطئ، ويمكن دراسة هذا المفهوم الخاطئ وكيفية نشوء الخطأ، إلا أن هناك حقيقة هى أن غير المسلمين ـ بل وبعض المسلمين ـ هم الذين حملوا هذا الخطأ بهذا المفهوم. إن مفهوم الجهاد الخاطئ ادعاه الغرب فى بداية الأمر بقصد مخصوص، وشاع هذا المفهوم الخاطئ عن الجهاد فى العالم بتأثير وسائل الإعلام الغربية، وهكذا أصبح «مفهوم الجهاد» معروفا بهذا الفهم الخاطئ، لا سيما فى البلاد التى خارج نطاق العالم الإسلامى فأصبح الجهاد فى أذهان كتل لا تعرف الإسلام إلاَّ بأنه حرب، مع أن الحرب هى آخر أشكال الجهاد كما هو معروف لدى أصحاب الرأى، وكما سأبين فإن أحد أشكال الجهاد المهمة هو إيصال الإسلام إلى الناس بشكله الصحيح، ويبقى الناس أحراراً فى اعتناقه والقبول به، كما ورد ذلك فى الآيات القرآنية، التى تذكر التبليغ والإيمان بشكل واضح.

﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾.[٢١]

﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾؛[٢٢]

﴿.. ما على الرسول إلا البلاغ﴾؛[٢٣]

﴿فهل على الرسل إلا البلاغ﴾؛[٢٤]

﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرَادِقُهَا..﴾[٢٥]

﴿لا إكراه فى الدين..﴾[٢٦]

يتضح من هذه الآيات الكريمة ومن النصوص الأخرى ومن تطبيقات المسلمين التاريخية منذ العهد النبوى عدم إكراه أحد على اعتناق الإسلام، فإعطاء فكرة الحرب لمفهوم الجهاد من أجل إكراه الناس على اعتناقهم الإسلام لا يقصد به إلا الحيلولة دون وصول الإسلام إلى الناس بشكل صحيح.

إن أكبر جهاد هو إيصال الإسلام وكتابه الكريم إلى الناس بشكل صحيح وأعتقد أن هذا الاجتماع سوف يساعد على مشاركة الجهود المبذولة فى هذا الموضوع.

ثانياً: تعريف الجهاد:

يعرف السيد الشريف الجرجانى فى كتابه المسمى بـ «التعريفات» الجهاد بأنه هو: الدعاء إلى الدين الحق[٢٧] وهذا التعريف مذكور فى كثير من الكتب بإضافات، ويعرفه كمال ابن الهمام. الذى يزعم أن الجهاد معروف فى اصطلاح الفقهاء بأنه حرب ضد الكفار ـ قائلا: هو دعوتهم إلى الدين الحق وقتالهم إن لم يقبلوا.[٢٨]

ومن الخطأ شيوع فهم الحرب من عبارة. (وقتالهم أن لم يقبلوا) ونعتقد أن هذا المفهوم الوارد فى الكتب الموجه إلى المحاربين (الذين يحاربون المسلمين من الكفار) يفيد مبدأ الإسلام فى الدعوة إلى الإسلام الذى يقتضى دعوتهم قبل البدأ بالحرب لأن المسلمين يحاربون من يحاربونهم من أهل الحرب فقط دون المعاهدين الذين يبقون على عهودهم.

إن فهم الموضوع بشكله الصحيح مهم للغاية، حيث يظن بأن المسلمين يتسلحون بأسلحة يشهرونها فى وجوه الناس على اعتناقهم الإسلام ثم محاربتهم إن لم يعتنقوا: إن الدين الإسلامى أعلن عن مبدأ عدم الإكراه فى المعتقدات لذا أعتقد أن: مسألة دعوة المحاربين إلى الإسلام الواردة فى كتب الفقه هى دعوتهم إلى الإسلام كأمل أخير قبل خوض المعركة معهم، وليس خوض المعركة مع من لم يعتنقوا الإسلام وبينهم وبين المسلمين معاهدات.

وإن مفهوم الجهاد فى مضمونه الحربى، حسب فهمنا له ورد فى تعريف الراغب الأصفهانى واضحا، حيث يقول الأصفهانى: الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع فى مدافعة العدو(٢٩).

وإن التعريف الوارد فى اصطلاحنا تحت قول: الجهاد محاربة الكفار وهو المبالغة واستفراغ ما فى الوسع والطاقة من قول أو فعل، يجب أن يفهم كما أبديناه(٣٠).

ولا يخفى أن هذه التعريفات الواردة فى الجهاد بمضمونه الحربى مفسرة جميعاً كما ذكر.

وأما الجهاد بمضامينه الأخرى الواردة فى كثير من الكتب، مثل محاربة الشيطان ونوازغ النفس الخبيثة، يقع أيضا تحت تعريف الجهاد.(٣١).

وقد ذكر تعريف الجهاد شاملا فى الموسوعة الإسلامية التى يصدرها وقف الديانة التركى فى بلادنا كما يلى:(٣٢): الجهاد هو تعبد الله كفاية فى الحياة والعمل على تطبيق أحكام ما وضعه الله ورسوله لحياة الفرد والجماعة، والقيام بتبليغ الإسلام للناس، والدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد كل تهلكة وتعدى، والحرب إذا اقتضت. وذلك بكافة الوسائل البشرية من قلب ولسان ويد وسلاح.

وهذا التعريف رغم طوله يعكس مضمون الجهاد بشكل شامل.

ثالثا: مضمون الجهاد

يفهم من كلمة الجهاد الوارد فى القرآن الكريم، وفى السنة النبوية، وفى أقوال الفقهاء المسلمين أن الجهاد ليس عبارة عن محاربة غير المسلمين.

لقد وردت آيات عديدة فى عهد الإسلام المكى حول الجهاد مثل قوله تعالى:

﴿ولا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾(٣٣).

فالجهاد بالقرآن فى عهد لم يؤذن المسلمون فيه بحرب ضد الكفار لا يعنى الحرب بالسلاح مطلقا.

إن الجهاد بمضمونه الكامل هو تعلم الإسلام وتطبيقه، والقيام بتعريفه للآخرين، والعمل على نشره وتحكيمه، والنهى عن المنكر، وتبليغ الإسلام، ومجاهدة النفس والشيطان؛ ولذلك فقد قام فقهاء المسلمين بتقسيم أنواع الجهاد العملى مثل: الجهاد بالنفس، والجهاد بالمال، وأنواع الجهاد الدفاعى مثل: الجهاد ضد النوازع النفسية الخبيثة، وضد الشيطان وأعوانه، وضد الفجرة، وضد المنافقين، وضد الكفار.(٣٤)

فمفهوم الجهاد شامل، ومن الخطأ حصره على أنه: محاربة ضد الكفار.

فما ورد فى القرآن الكريم من تخصيص الجهاد بالقرآن يفيد البعد الفكرى للجهاد، وإن اعتبار هذا النوع من الجهاد فى - القرآن الكريم - جهاداً كبيراً جدير بالانتباه. ويكون الجهاد الفكرى أقوى وأكبر جهاد وأن الآية الكريمة التى تعد بالهداية فى الوصول إلى الله لمن يعمل لينال رضى الله تفيد على هذا المجهود هو جهاد(٣٥) وقال ﷺ: المجاهد من جاهد نفسه»(٣٦) كما أن قوله ﷺ: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وألسنتكم**»(٣٧) يفيد أيضا أن مضمون الجهاد لا يتوقف على الحرب بل يعتبر الحرب أحد أنواعه فقط، وأما الجهاد بمحاربة الكفار اللذين يحاربون المسلمين فقد ورد فى القرآن الكريم بلفظ (القتال).

وأرغب أن أتطرق باختصار إلى الجهاد بمضونه الحربى فقط، دون أنواع الجهاد الأخرى مثل نوازع النفس الخبيثة، والجهاد ضد الشيطان، والفجار والجهاد ذو البعد الفكرى، والجهاد بالتبليغ لأن موضوعنا هو الجهاد الحربى، ولأن هذا النوع من الجهاد هو الجهاد الذى حصل فى فهمه الأخطاء.

رابعاً: الجهاد ضد الكفار

أ - التعريف:

هو العمل وبذل الجهد الممكن عند نشوب الحروب وذلك بالنفس والمال والفكر واللسان، وبكافة الوسائل المشروعة فى سبيل الذود عن دين الله(٣٨).

فحسب هذا التعريف يكون مشاركة المسلمين الفعلية فى حرب ناشئ من أجل الذود عن دين الله بالنفس، جهادا، كما أن المساعدة بالمال والعمل الفكرى والتجهيز أو الدعم بمختلف الوسائل يعتبر جهادا أيضا.[٣٩]

ب - حكم الجهاد:

الجهاد فرض فى الإسلام على وجه الكفاية، إذا قام به البعض من المسلمين سقط عن الباقين، ويكون فرض عين إذا تطلبت مشاركة جميع المسلمين[٤٠] .

١ - أدلة مشروعيته:

لقد ثبتت مشروعية الجهاد بالكتاب والسنة والإجماع، فقد ذكر فى القرآن قوله تعالى:

﴿أذن للذين يُقَاتَلُون بأنهم ظُلِمُوا وأن الله على نصرهم لقدير﴾.[٤١]

وفى آية أخرى جاء قوله تعالى:

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾.[٤٢]

وهناك آيات كثيرة تتعلق بالموضوع، كما أن هناك أحاديث نبوية حول الموضوع[٤٣] ومما جاء فيها قوله ﷺ: **«والجهاد ماضٍ منذ ما بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال»**.[٤٤]

٢ - سبب مشروعيته:

إن سبب مشروعية الجهاد ضد الكفار حسب آراء الجمهور من فقهاء الأحناف والحنابلة والمالكية: هو إعلان الكفار الحرب ضد المسلمين واعتدائهم عليهم، وأما فقهاء الشافعية فقالوا: سببه الكفر. وقد تمسك بهذا الرأى علماء من مذهب الظاهرية وبعض من فقهاء الحنابلة والمالكية، فقالوا: سببه الكفر. فعلى رأى الجمهور فإن السبب فى مشروعية الجهاد: هو الاعتداء على المسلمين، وأنه لا يجوز محاربة من لم يحارب المسلمين، ولا من لم يعتنق الإسلام.[٤٥]

وأدلة الجمهور من الفقهاء الذين يرون الاعتداء على المسلمين سببا للجهاد أقوى. لأن الحرب غير مرغوب فيها على أن الحرب حسن لغيره لا لذاته[٤٦] لا يتوسل إليه إلا فى حالة دفع المضرات والاعتداءات بشكل استثنائى.

وإن الأدلة القرآنية التى ذكرناها سابقاً لمشروعية الجهاد ضد الكفار، تدل بكل وضوح أن الهدف من الجهاد هدفا دفاعيا وقد فسر كثير من المفسرين كلمة (لا تعتدوا) بعدم جواز الاعتداء فى هذا المجال وأن كلمة المعتدين تدل على الذين يعتدون كما أفاده محمد أسد[٤٧].

ومع وجود من يعارض هذا الرأى من الفقهاء ويدعى أن الحرب لا يتوقف على السبب الدفاعى فقط، بل يجوز للمسلمين أن يخوضوا الحرب إذ تتطلب الأمر أولا. إلا أنه فى مثل هذه الحالة يجب أن يكون أحد أسباب الحرب من منع حرية العقيدة وحقوق الإنسان المشروعة، ففى مثل هذه الحالات يجوز خوض الحرب أولا لإزالة هذه الأسباب.

وإن الآيات الكريمة التى يتمسك بها بعض الفقهاء فى الإدلال يعتبر سببا للحرب، وتفيد ما يجب القيام به أثناء الحرب أو ما يجب القيام به فيما يتعلق بإنهاء الحرب ولا تفيد أنه سبب لإشعال الحرب[٤٨].

وكما أفيد سابقاً فإن الحرب أمر غير مرغوب فيه كما أنه يسبب قتل الإنسان وتخريب البيوت، وأنه لا يتوسل إليه فى حالة إمكان العيش بسلام. وأن الحرب تشرع لحماية الحقوق وإزالة العراقيل أمام دعوة الإسلام وتأمين حرية العقيدة كاملاً، وأن الحرب أمر لا يجيزه الإسلام، ولايوصى به من يراعى الحقوق، ويلتزم به فى دائرة الصلح والسلام ولم يعتد على حرية الإنسان وسعادته.

وإن الآية الكريمة الآتية تدل على ذلك بكل وضوح،[٤٩] **﴿وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾**.[٥٠]

إن المعلومات التى أبديناها حتى الآن تفيد أن الحرب هى أحد أنواع الجهاد، وقد شرع لردع العدوان وإزالة العراقيل أمام دعوة الإسلام، والإرهاب ليس له، علاقة بالجهاد كما سنذكره هنا باختصار.

جـ - الإرهاب

إن الحفاظ على حياة الإنسان وأمواله تشكل أحد أهداف الإسلام الأساسية، ولا يجوز فى الإسلام القضاء على حياة الإنسان وإهدار أمواله دون حق وبغير سبب مشروع بأى حال من الأحوال، إن الحياة منحة إلهية لا يحق لأحد من الناس حرمان الإنسان من هذا الحق.

يقول سبحانه وتعالى فى محكم كتابه:

﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾(٥١)

إن الدين الإسلامى اعتبر قتل الإنسان بغير حق قتل جميع الناس(٥٢) وإنه جناية إنسانية، وجاء فى الأحاديث النبوية أن قتل النفس يأتى ضمن المعاصى الكبيرة.

وفى إطار وصف المؤمنين فى القرآن الكريم جاء: أن المؤمنين لا يقتلون النفس التى حرم الله بغير حق.(٥٣)

وإن الإسلام الذى اهتم بحياة الإنسان هذا الاهتمام، لا يمكن أن يصادق الإرهاب الذى يقوم ضد النظام المشروع، ويزيل الطمأنينة بين الناس، ويقتل الأبرياء بغير حق، ويقوم بسلب أموالهم. إنه من أفظع أنواع الإجرام وأوجب فيهم عقوبات حاسمة(٥٤).

إن الإرهاب يعتبر حركة متشددة، والإرهابى يستعمل الشدة عادة للوصول إلى أهدافه. وإن جميع الوسائل التى يستعملها الإرهاب من تخريب وقتل ورهن وتعذيب وتهديد وتخويف وغلظة وعدم مرحمة واستغلال واغتصاب مما يحرمه الإسلام وإن الجو المناسب لانتعاش الإرهاب هو عدم الاستقرار والوسط الغير النظامى والضيق النفسى، ولذلك فلا يمكن اعتبار الإرهاب بأنه أحد وسائل الجهاد؛ لأن الإرهاب فى وسائله لا يحبذ السلام إلى النفوس بل يبعد النفوس عن الإسلام. وينفر نفوس من يؤمل فيهم الألفة بما يقوم به من أعمال.

لقد حرم نبى الإسلام قتل النساء والأطفال والشيوخ والرهبان من المسيحيين، حتى فى أوساط الحروب، ولذلك فإن الإسلام لا يتخذ الإرهاب وسيلة للوصول إلى هدف إسلامى.

وأخيرا فإن الإسلام منع الإرهاب بكل أنواعه، سواء قام به فئة من المحتلين أو حكومات.

خامساً: الختام

إن موضوع الجهاد فى الإسلام موضوع شامل وواسع يشمل الصراع مع نوازع النفس الخبيثة والشيطان وجميع أنواع الشر، وكذلك القيام بالنشاطات العلمية، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والقيام بتبليغ الدين، وبذل الجهود فى سبيل دعم الحرب ضد الكفار بالنفس والمال واللسان، وبكافة الوسائل المشروعة، وإن الصراع المسلح ضد غير المسلمين يعتبر نوعا خاصا من الجهاد.

وإن الجهاد فرض على وجه الكفاية إلا إذا أعلن النفير العام من قبل قيادة الدولة الإسلامية، فيصبح فرض عين على جميع المسلمين ممن ليست لهم أعذار مشروعة.

كما أن الجهاد يصبح فرضا على جميع المسلمين فى حالة احتلال البلد الإسلامى حتى تحريره من الاحتلال. إن الحرب فى نظر الإسلام أمر غير محبوب لا يتوسل إليه إلا فى حالة اضطرار فهو حسن لغيره وليس حسناً بذاته، وإن الحديث النبوى الآتى يلخص نظرة الإسلام نحو الحرب:

«أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واطلبوا المعافاة منه وإذا لقيتم العدو فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».(٥٥)

ومما يفيده هذا الحديث النبوى أن الحرب لا تتمنى، وأنه يجب الصبر عليها إذا كان لا بد منها، وأن المكافأة كبيرة فى نهاية هذا الصبر.

إن من يقتل فى الحرب يحصل على درجة الشهادة التى تأتى بعد النبوة من علو الارتفاع، وأن من يبقى حيا فى الحرب يفوز بعنوان الغزاة.

الهوامش:

(1) أحاديث رئيس الشئون الدينية محمد نورى يلماز (١٩٩٢-١٩٩٤) ص ٤٨١-٤٨٢ أنقرة ١٩٩٦.

(٢) Religion and international law, ed Mark W Jamis, Corolyn Evans, the nague-1999 نُشـر أخيراً وهو مصدر قيم فى هذا الموضوع.

(٣) لقد تجنب فى جميع كتب تاريخ القانون الدولى المؤلفة حتى انتهاء الربع الأول من القرن العشرين ذكر القانون الدولى فى الإسلام وانتقل من عهد روما إلى القرن السادس عشر مباشرة بغض النظر عن القارات الثلاثة التى كان يسود فيها الإسلام طيلة ألف سنة.

(٤) تاريخ الإسلام لسعيد رمضان ص ١١٥ طبع لاهور - ١٩٧٠.

(٥) تكوين القانون الدولى للإسلام تأليف Kruse Hams ترجمة يوسف ضياقا واقجى مجلة معهد الدراسات الإسلامية ج ٤ الجزء ٣-٤ أستطنبول ١٩٧١.

(٦) Janis, Mark W-Evans, Corolyn a.g.e, sh VIII (Pretace).

(٧) Fyzce, Asaf AA Outlines of Muhammedan Law, sh. 53. Delhi-1987.

(٨) Jenks. Wilfred, c, The Common Law of Mankind, London-1958.

(٩) Shihata Ibrahim, "Islamic Law and World Community" Harward International Law Club Journal, Vol, 1 No. 4,sh 102,1962.

(١٠) انظرالعلاقات الدولية فى الفقة الإسلامى لأحمد يامان ص ١١٣-١٣٦ أنقرة ١٩٩٨، السياسة الشرعية فى الإسلام لعبدالوهاب خلاف ص ٧٠-٧٨، ١٣٥، العلاقات الدولية فى الإسلام لمحمد أبو زهرة ص ٤٧-٥٣ القاهرة ١٣٧٤/١٩٦٤.

(١١) الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام لمنصور على على ٩٢-٩٤ القاهرة ١٣٨٧/١٩٧٥. خلاف المصدر السابق ص٧١، آثار الحرب فى الفقه الإسلامى لوهبة الزحيلى ٢، ١٣ عام ١٤١٢/١٩٩٢.

(١٢) أصحاب المصادر ١٠، ١١.

(١٣) سورة الأنعام ٥٤، ٦/١٢.

(١٤) سورة الأنبياء ٢١/١٠٧.

(١٥) سورة المائدة ٥/٤٧ وسورة هود ١١/١١٧ وسورة يونس ١٠/٩٩.

(١٦) نفس المصدر السابق ليامان ١٢٧-١٢٩.

(١٧) أحكام الأسرى والسبايا لعبد اللطيف عامر ص ٦٣ طبع بيروت/القاهرة ١٤٠٦/١٩٨٦.

(١٨) الاستتابة بغير المسلمين فى الفقه الإسلامى لعبد الله بن إبراهيم بن على الدريقة ص ١١٨ طبع ١٤١٤.

(١٩) فقه السنة لسيد سابق ج ٢ ص ٩٥-٥٩٦ طبع بيروت ١٤١٣-١٩٩٢.

(٢٠) الدعوة الإسلامية المعاصرة لجمال الدين محمد محمود ص٣٨٨ القاهرة/بيروت ١٤١٣/١٩٩٢.

(٢١) سورة آل عمران ٣/٢٠.

(٢٢) سورة المائدة ٦/٩٢.

(٢٣) سورة المائدة ٦/٩٩ وانظر فى سورة النور ١٨/٥٤ وسورة العنكبوت ٢٠/١٨.

(٢٤) سورة النحل ١٤/٣٥.

(٢٥) سورة الكهف ١٥/٢٩.

(٢٦) سورة البقرة ٢/٢٥٦.

(٢٧) كتاب التعريفات للسيد الشريف على بن محمد الجرجانى طبع بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٣ ص٣٠.

(٢٨) فتح القدير لكمال ابن الهمام مطبعة مصطفى البابى الحلبى طبع مصر ١٩٧٠، ج، ٤٣٥١.

(٢٩) المفردات فى غرائب القرآن الكريم لأبى القاسم الحسين بن حمد راغب الأصفهانى، دار المعرفة بيروت ص١٠١.

(٣٠) ابن الأثير، النهاية فى غريب الحديث، المكتبة الإسلامية ج ١ ص ٣١٩.

(٣١) أنظر كتاب المفصل فى أحكام المرتد لعبد الكريم زيدان مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٣ ص ٢٧٣، ٢٧٢/٠٤

(٣٢) الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركى مادة الجهاد ٧/٥٢٨ لأحمد أوزل.

(٣٣) سورة الفرقان، ٢٩/٥٢.

(٣٤) انظر نفس المصدر لعبد الكريم زيدان ٠٤/٣٧٨

(٣٥) سورة الفرقان، ٥٢، ٢٩.

(٣٦) الترمذى فضائل الجهاد ج ٢.

(٣٧) أبو داود، فضائل الجهاد، ١٨ رقم الحديث ٢٥٠٤.

(٣٨) انظر قاموس الاصطلاحات الفقهية لعمر نصوحى بيلمن اسطنبول ج ٣ ص ٣٧٨.

(٣٩) نفس المصدر السابق لعمر نصوحى بيلمن ج ٣ ص ٣٧٨.

(٤٠) بداية المهتدى لمحمد بن أحمد بن رشد القرطبى، دار المعارف ١٩٧٨، ١/٣٨١ والهداية للمرغينانى ج٣ ص١٣٥.

(٤١) سورة الحج ٢٧/٣٩.

(٤٢) سورة البقرة ٢/١٩٠.

(٤٣) انظر مفتاح كنوز السنة ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى مادة الجهاد، والمعجم المفهرس لألفاظ الأحاديث النبوية باب الجهاد A.U Wensinck.

(٤٤) كتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى.

(٤٥) مادة الجهاد من الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركى تأليف أحمد أوزل ج٣ ص ٣٨٠.

(٤٦) المصدر السابق لعمر نصوحى بيلمن ج٣ ص ٣٨٠.

(٤٧) رسالة القرآن لمحمد أسد ترجمة جاهد قوتياق وأحمد أوترك إر الإشارة اسطنبول ١٩٩٩، ١/٥٤.

(٤٨) الموسوعة الإسلامية لوقف الديانة التركى مادة الجهاد لأحمد أوزل ٧/٤٣٠.

(٤٩) سورة الأنفال ١٠/٦١.

(٥٠) المصدر السابق لعمر نصوحى بيلمن ج٣ ص ٢٨١.

(٥١) سورة الإسراء ٣٣/ ١٥.

(٥٢) سورة المائدة، ٣٢/ ٦.

(٥٣) سورة الفرقان ٢٩/٦٨.

(٥٤) سورة المائدة ٣٣-٦/٣٤.

(٥٥) انظر صحيح البخارى باب الجهاد ص ١١٢-١٥٦، وصحيح مسلم باب الجهاد، ص ١٩. ٢٠.

المحور الرابع

رؤيـة مستقبلية

العلاقة بين الإسلام والغرب

الأستاذ الدكتور/ عبد المعطى محمد بيومى

الأستاذ بجامعة القاهرة

مصـــر

العلاقة بين الإسلام والغرب، علاقة معقدة، فهى من جانب، علاقة يجب أن تتدعم وتقوى لمصلحة الغرب والإسلام، فالغرب يحتاج إلى الشرق لا فى موارد الطاقة وحدها؛ وإنما فى أمور كثيرة يعلمها خبراء الاستراتيجية فى العالم.

وهذه الحاجة ترجع إلى عصور مضت منذ احتياج الغرب إلى موارد الطاقة الغذائية: كالفلفل والبهار وسائر منتجات الشرق، وكانت خطوط التجارة العالمية التى تمر عبر الشرق، تمثل الشرايين فى قلب العالم الإسلامى ذاهبة آيبة تحمل التجارة من الشرق إلى الغرب وبالعكس، فى تواصل مستمر وضرورى لا فكاك منه فى أى مرحلة من مراحل التاريخ.

وكلما تقدمت وسائل الاتصال وتطورت الإنسانية ازدادت الحاجة إلى هذا التواصل والتبادل.

وللإسلام حاجة إلى هذا التواصل أيضا، بنفس الدرجة والأسباب، لا تقل عددا أو أهمية عن الأسباب التى تربط الغرب بالشرق.

لكنه ولسوء الحظ، فإن عقدة غريبة تقف فى سير العلاقات بين الغرب والإسلام منذ العصور الوسطى: هى الحروب الصليبية التى تركت رواسبها

وآثارها فى نفسية الكثيرين على الجانبين، وخلفت وراءها كما هائلا من التعصب عبر قرون عديدة.

ولعل أسوأ ما خلفته هذه الحروب: هو ظهور طبقة من المفكرين المتعصبين الأوروبيين الذين صبغوا التاريخ والعلاقات بين الإسلام والغرب بهذه السخائم النفسية، التى لونت هذه العلاقات وأقامت حاجزا كبيرا بين أوروبا والعالم الإسلامى، حتى أن مؤرخاً كبيراً هو «أرنولد توينبى» يفسر العلاقات والحركات التاريخية الكبرى تفسيرا نفسيا، تبعثه هذه السخائم فيقول: إن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح كان دافعه الانتقام من العالم الإسلامى، بتطويقه من الخلف وضربه من الهند حيث ظَهّر العالم الإسلامى، وإن الأمير البرتغالى «هنرى الملاح» الذى كان العامل الفعال فى هذه الكشوف كانت رغبته الدافعة هى الانتقام من احتلال المسلمين للأندلس - كما يقول - واحتلالهم القسطنطينية («إستانبول»).

كما يفسر بعض المؤرخين الحروب الاستعمارية فى العصر الحديث واحتلال الشرق العربى بنفس التفسير، فيذكرون الكلمة الشهيرة التى قالها القائد الإنجليزى الذى احتل مدينة القدس (الآن.. انتهت الحروب الصليبية يا صلاح الدين).

إلى هذا الحد.. تكمن الحروب الصليبية فى نفسية كثير من المتعصبين الغربيين الذين ما زالوا يعيشون فى الماضى ويفسرون به الحاضر، وربما يشكلون به هذا الحاضر للأسف الشديد.

لكن يبدو أن تطور التاريخ وتنوع العلاقات وتشابك المصالح عفا على هذه النظرية الرجعية فى الأغلب الأعم، ولم يبق لهؤلاء الرجعيين المتعصبين من سند يعتمدون عليه غير مرارة الذكرى وأسمال الماضى البالية، ولا تستطيع الذكريات المريرة ولا الأسمال البالية أن تقيم سلاما، ولا أن تصنع حاضرا سعيدا بين الجانبين.

ولئن تركت الغالبية فى أوروبا وأمريكا أولئك الذين يعيشون على الماضى ومراراته أن يصنعوا الحاضر، فإنهم بالقطع سيشعلون النار فى كل مكان، بل سيحرقون أنفسهم بأيديهم ويدمرون ما صنعته الحضارات الإنسانية فى حاضر العالم، وما لم يتحرك العقلاء لكبح جماح هؤلاء المتعصبين فإنهم سوف يدمرون العالم ولن يستطيعوا حماية أنفسهم هم ولا منجزاتهم؛ لأن التعصب يورث التعصب، والدم يولد الدم.

ولنأخذ على ذلك مثالا - ولا بد أن نأخذه بكل جد -:إن اعتبار الإرهاب قرين الإسلام وضرب بعض الشعوب الإسلامية بهذه الذريعة سيشكل مفترق طريق فى العلاقات بين الإسلام والغرب، وربما يكون أقل ما يترتب على هذا العبث بالنار، أن يقوم الشيوخ فى العالم الإسلامى بإصدار فتوى للدفاع عن هذه الشعوب وحينئذ لن يكون هناك مناص من الجهاد كما هو الإجماع الحالى لشيوخ الإسلام الآن على ضرورة الجهاد فى فلسطين لحماية شعبها والمقدسات الإسلامية فيها.

ولئن حدث ذلك، فلسوف تدور السائمة إلى الوراء، لقيد الإنسانية كرة أخرى إلى الحروب الصليبية التى تدور رحاها فى داخل أمريكا وأوروبا والعالم الإسلامى على السواء وتحرق هذه المرة مصالح الجميع فى كل مكان.

ولعل الذى ينقذ البشرية من هذا الغم أن هناك عقلاء يدركون حقيقة التطور المعاصر وتشابك العلاقات والمصالح حيث يدفع البشرية إلى التعاون لا التقارب والحوار لا الصراع.

والذى يضاعف من الشعور بالانفراج أن الكنائس الغربية - حتى البعض منها الذى لعب دورا رئيسيا فى الحروب الصليبية - تبدو أنها تجاوزت فى علاقاتها مع العالم الإسلامى ومؤسساته الدينية عقدة الحروب الصليبية.

فلقد جاء الدكتور/ جورج كارى كبير أساقفة كانتر برى ونائب رئيس الكنيسة الإنجليكانية «الإنجليزية» (الملكة اليزابيث هى رئيس الكنيسة) إلى الأزهر أكثر من مرة ليعلن بكل وضوح اعتذاره الجميل عن ما وقع فى الحروب الصليبية، ويدعو إلى عصر جديد من السلام الإنسانى الشامل والتعاون البناء من أجل خير

الناس جميعا، حتى الفاتيكان يبعث رسالة إلى الحوار فى أنحاء العالم الإسلامى وهناك لجنة للحوار مشتركة بين الفاتيكان والأزهر.

هذا بالإضافة إلى شغف ملحوظ لدى الشعوب فى أوروبا وأمريكا لتفهم حقيقة الإسلام، وما ينطوى عليه من سلام، وقيم بناءة للحياة الإنسانية.

وسيكون لكل هذا بالقطع آثاره الإيجابية فى إنقاذ العالم خاصة أن بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية جسورا وروابط مشتركة سواء فى المسار التاريخى، أو فى القيم الأساسية التى تقوم عليها كل من الحضارتين.

ففى المسار التاريخى نجد صلات مشتركة بين الحضارتين، تتمثل فى أن المسلمين نقلوا فيما نقلوا من حضارات العالم الفلسفة اليونانية خاصة المنطق والرياضيات والطب والفلك.

ورغم أن الإمام الغزالى - الذى بدا معارضا قويا لوجود هذه الفلسفة فى الأمة الإسلامية - لم يستطع إلا أن يؤيد المنطق والطب والرياضيات اليونانية وحذر من تجاهلها أو محاربة دورها فى الحضارة الإسلامية، واستثناها تماما من نقده اللاذع وجعل هذه العلوم ضرورية، كما حذر أن تتسبب أغلاط أرسطو - الذى كان يسمى «المعلم الأول» فى الفكر الفلسفى الإسلامى - فى التقليل من شأن هذه العلوم اليونانية.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد تأثرت بهذه العلوم اليونانية، فقد أعادت هذه العلوم مرة أخرى ومعها الفلسفة الإنسانية والإلهية إلى أوروبا عن طريق الفيلسوف الإسلامى ابن رشد ومن سبقه من فلاسفة المسلمين فى المغرب والمشرق، بحيث كانت أفكار ابن رشد وفلاُسفة الإسلام هى أشعة التنوير للعقلية الأوروبية فى نهضتها الحديثة، وابن رشد والرشديون من فلاسفة أوروبا هم الذين أحدثوا الزلزال الذى أسقط التخلف، وكشف الغشاوة عن العقلية الأوروبية وزودها بأفكار التحرر والنهوض، فأقامت بناء العلم الأوروبى الذى نشهد تطوراته المتسارعة.

يقول «بريفولت» فى كتابه «بناء الإنسانية»:

«وإن ما يدين به علمنا لعلم العرب، ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا، إنه يدين لها بوجوده نفسه».

ويقول أيضا:

«أما ما ندعوه العلم، فقد ظهر فى أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحقة لطرق التجربة، والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات، إلى صورة لم يعرفها اليونان. وهذه الروح، وتلك المناهج العلمية، أدخلها العرب إلى العالم الأوروبى[1]».

هناك إذن نماذج أصيلة فى بناء الفكر فى الحضارتين الإسلامية والأوروبية لا يمكن فصمه أو تجاهله فى المسار التاريخى.

أما فى جانب القيم فإن القيم التى تقوم عليها الحضارة الغربية - فى أصولها - مشتركة مع الحضارة الإسلامية - فى نقائها.

فقيم الحرية والعدل والشورى والمساواة والعلم والعمل تلك التى تمثل أسس الحضارة الغربية تجد لها مكانا رئيسا فى الحضارة الإسلامية.

فقيمة الحرية وتكريم الإنسان تبدو واضحة فى النصوص الإسلامية المقدسة من القرآن والسنة، كما تبدو واضحة فى التطبيق العملى وفى الواقع الإنسانى فى عصور إزدهار الحضارة الإسلامية خاصة أيام الراشدين وفى القرنين الثالث والرابع من أيام العباسيين، وفى الحضارة الإسلامية فى الأندلس.

فالقرآن والسنة يحترمان الحرية الإنسانية، ويسقطان أى ضغط على الإنسان فى اختيار عقيدته، أو اختيار النمط الذى يختاره لتشكيل حياته، حتى إن الإسلام يجعل العقيدة اختيارا حرا مباشرا بين الإنسان وربه، لا دخل لأحد فى تشكيلها أو الإكراه عليها، ومما يحفظ ويتداول قوله تعالى: ﴿**لا إكراه فى الدين**﴾ (سورة البقرة ٢٥٦) وقوله تعالى: ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾ (الكهف ٢٩) وقوله سبحانه: ﴿**لست عليهم بمصيطر**﴾ (الغاشية ٢٢).

كما أن القرآن يعد العقيدة سراً بين الإنسان وربه ويسقط الإكراه تماما، فالذى يبطن الإيمان فى داخله ويظهر غيره مكرها يقبل الله منه إيمانه ويعفو عن كذبه فى ذلك يقول تعالى: **﴿إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون • من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾** (النحل ١٠٥، ١٠٦) فهو يستثنى ـ سبحانه ـ من الكاذبين أولئك الذين يكذبون بإعلان الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان إذا كان مكرها على ذلك وهو بهذا يسقط من اعتباره أى قيد على الحرية الإنسانية.

وفى التطبيق العملى لهذه القيمة الجامعة بين الحضارتين، نرى مما يحفظ ويتداول مواقف عمر بن الخطاب الشهيرة حينما أمر القبطى المصرى أن يضرب ابن عمرو بن العاص ليأخذ بالعدل حقه منه، بقطع النظر عن عقيدته قائلا له مقولته الشهيرة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

وأى إنسان يدخل فى العلاقة بين الإنسان وربه إنما يقتحم دون حق هذه العلاقة وينتزع اختصاص الرب؛ لأنه ـ سبحانه ـ وحده هو المحاسب وما كان دور رسوله ﷺ إلا كونه مبلغاً، يقول سبحانه: **﴿إن عليك إلا البلاغ﴾** (الشورى ٤٨) ويعلم الله ـ سبحانه ـ نبيه، ويعلم كل مسلم ألا يحاسب إنسانا وألا يقتحم اختصاص الله، فيقول سبحانه: **﴿وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾** (الشورى ١٥).

وقيم أخرى، وجوامع مشتركة بين الحضارتين.

الروابط المشتركة بين الإسلام والغرب:

أول هذه الروابط المشتركة: قيمة الحرية، وقد برزت قيمة الحرية فى جوانبها المتعددة العقدية والسياسية والاقتصادية بوصفها أولى القيم الفاعلة فى الحضارتين.

وإذا كانت هذه القيمة بالذات هى أساس النهضة الأوروبية الحديثة فهى بنفسها القيمة التى كانت أول ما تعلمه فلاسفة النهضة من تراث المسلمين فى الأندلس.

وقد أشرنا فى المقال السابق أن أول مرتكزات الحضارة الإسلامية إسقاط الوساطة بين الإنسان وربه قال تعالى: **﴿وقال ربكم ادعونى أستجب لكم﴾** (غافر ٦٠) وقال سبحانه: **﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾** (البقرة ١٨٦).

ومن هنا كان الرسول ﷺ بشرا تجرى عليه قوانين الحياة والموت، ولكن حياته وموته لا يؤثر فى استمرار الرسالة الإلهية إلى الإنسان، قال تعالى: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾** (آل عمران ١٤٤).

وهذا هو الذى فهمه خليفته الأول: أبو بكر الصديق رضي الله عنه فى اللحظة البالغة الحزن عند موته ﷺ واهتزاز وجدان كثير من كبار الصحابة وعلى رأسهم عمر الذى اختلطت فى ذهنه - للحظة قصيرة جدا - الرسالة بالرسول.. الرسالة الإلهية المستمرة بالبشر الفانى المعرض للموت فقال فى الناس صائحا: من قال إن محمدا مات قتلته، فرده أبو بكر بهذه الآية، وقام خطيبا فى الناس لينبههم من ذهولهم ويعيد إلى عقولهم الوالهة فى تلك اللحظة أن الرسالة للإنسان وأن محمدا ﷺ لم يكن وسيطا بل مبلغا.. لم يكن وسيطا بين الإنسان وربه، وإنما كان مبلغا للناس رسالة الله وقد تم البلاغ واكتملت الرسالة، ولذلك فهم أبو بكر رضي الله عنه عندما سمع الرسول ﷺ يبلغ الناس يوم حجة الوداع قوله تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾** (المائدة ٣).

بكى رضي الله عنه فلما سئل قال: إن الله ينعى نبيه للناس، وفعلا لحق الرسول ﷺ بربه بعدها بعدة أشهر فقط.

ولقد عزز القرآن هذه الركيزة الحضارية فى الإسلام - إسقاط الوساطة بين الله والإنسان - فأكد فى أكثر من آية فى القرآن الكريم أن محمدا ﷺ نفسه إذا لم يكن واسطة بين الله والإنسان فإن خلفاءه من الحكام والعلماء ليسوا إلا مبلغين بالرسالة وليسوا وسطاء أو كهانا، ولا يجوز لأحد من هؤلاء وأولئك أو من غيرهم أن يتدخلوا فى العلاقة بين الإنسان والله أو يشقوا عن قلوب الناس، وقد شاع على ألسنة الأئمة عبر العصور فى الحكم على الناس «لنا الظاهر والله يتولى السرائر» وقد قال تعالى: ﴿**الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً**﴾ (الأحزاب ٣٩).

وقد أكد رسول الله ﷺ ذلك فى تطبيقاته العملية، فعندما قتل أسامة بن زيد فى أحد الحروب رجلا ضيق عليه حتى عرف الرجل أنه مقتول لا محالة فقال: لا إله إلا الله، فظن أسامة أنه يتقى بها القتل وليس مؤمنا حقا، فقتله، فغضب ﷺ وراح يعنف أسامة بطريقة تنهى تماما الوساطة بين الله والإنسان فى الإسلام، وتقضى على كل شبهة قد تبرر هذه الوساطة، قال عليه الصلاة والسلام لأسامة: أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ قال أسامة: لقد قالها تقية - أى يتقى بها القتل - قال عليه الصلاة والسلام: هلا شققت عن قلبه؟!».

ولذا كان موقفه ﷺ حاسما فى قضية التكفير، فهو ﷺ يكفر من يكفر المسلم فعن أبى ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبى ﷺ يقول: «**لا يرمى رجل رجلا بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك**»[(٢)].، وقال عليه الصلاة والسلام: «**من لعن مؤمنا فهو كقتله، ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله**»[(٣)].

كان هذا بالضبط هو المدخل إلى عصر النهضة فى أوروبا، فلقد فعلت هذه المبادئ الإسلامية فعلها فى عقول فلاسفة التنوير الأوروبى الذين عملوا على تحطيم الوساطة والتدخل فى العلاقة بين الإنسان والله، وإنهاء وصاية الكنيسة على العقول فى العصور الوسطى والثورة ضد صكوك الغفران واحتكار المعرفة الدينية وتفسير النصوص المقدسة والقضاء تماما على حق الكنيسة فى التفكير والطرد من رحمة الله.

وكان التحرر العقلى والنهضة مواكبين تماما للاطلاع والاستفادة من علوم الإسلام والنهل من الثقافة العربية.

يقول «جون هرمان راندل» فى كتابه «تكوين العقل الحديث»:

«فنهضة القرن الثانى عشر فى أوروبا كانت تعنى أولا بالنسبة للشعوب الأوروبية احتكاكها مع العالم الإسلامى والثقافة القديمة التى حافظ عليها[٤]».

والذى يطلع على فكر وآراء فلاسفة النهضة الأوروبيين يدرك بجلاء التوافق التام بين قيمة الحرية فى الثقافة الإسلامية وفى فكر هؤلاء، بحيث يمكن أن نرى تشابها كاملا بينهم وبين بعض مدارس الحضارة الإسلامية التى تبدو فى بعض الأحيان كأنها النبع الذى شرب منه هؤلاء وارتوت منه عقولهم.

فهذا هو «فولتير» الذى يعد أقوى النقاد السافرين من رجال الدين فى العصور الوسطى وكان - كما قال الأستاذ يوسف كرم - بحق «أكبر عامل على نشر هذه الروح - السافرة - واستطالة أثره إلى أيامنا»[٥] يبدو تأثره بالثقافة الإسلامية حتى ليكاد يردد نفس القضايا بأدلتها الإسلامية - تقريبا - فى الدين والحرية.

لم تكن عباراته السافرة بعنف من الثقافة الكنسية فى ذلك الوقت لتنال من إيمانه بالله فهو يؤمن به ويستدل على وجود الله بنفس الدليل الموجود فى كتب التوحيد الإسلامى ويطلق على الله ـ تعالى ـ نفس الإطلاق الإسلامى «الموجود بذاته» يقول «إذا وجد شىء منذ الأزل، وأنا موجود، ولست موجودا بذاتى، فهناك موجود بالذات هو الله»[٦].

يقول الأستاذ «يوسف كرم»: «وكثيرا ما كان (فولتير) يردد دليل العلل الغائية الذى كان يعتبره نيوتن أقوى الأدلة» «حين أرى ساعة يدل عقربها على الزمن أستنتج أن موجودا عاقلا رتب لوالبها لهذه الغاية، وكذلك حين أرى لوالب الجسم

الإنسانى استنتج أن موجودا عاقلا رتب هذه الأعضاء، وأن العينين أعطيتا للرؤية، واليدين للقبض.. إلخ، ويقول فى موضع آخر شعرا:

«إن الكون يحيرنى، ولا يسعنى أن أعتقد أنه توجد هذه الساعة ولا يكون لها صانع»(٧).

وهذا الكلام أشبه ما يكون فى الثقافة الإسلامية بالحديث عن الأثر ودلالته على المؤثر وهو نابع فى هذه الثقافة من حديث القرآن باستمرار عن مظاهر الكون فى السموات والأرض ووجوه الإبداع والعناية فيها ودلالتها على الخالق سبحانه **﴿قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون﴾** (يونس ١٠١).. **﴿أم خُلِقُوا من غير شىء أم هم الخالقون﴾** (الطور ٣٥).

بل يشتد التقارب والجامع المشترك بين ثقافة «فولتير» ـ بوصفه أكبر باعث ومعبر عن روح النهضة الغربية – والثقافة الإسلامية عند إيمان فولتير بوجود الله وأن هذا الإيمان يزداد باعتبار أن القول بضرورة العالم (أى وجوده بالضرورة من غير إله) ينطوى على صعوبات ومتناقضات لا ينطوى على مثلها القول بوجود الله».(٨) وهذا يعيد إلى الأذهان الجدلية القائمة فى الثقافة الإسلامية حول القول بقدم العالم وحدوثه، ويتشابه كلام «فولتير» هنا إلى حد التطابق التام مع كلام أبى البركات البغدادى وابن طفيل وابن رشد من أن الاعتراضات التى توجه إلى القول بقدم العالم والاعتراضات التى توجه إلى القول بحدوثه لا تنفى وجود إله يحتاج إليه هذا العالم بالفعل.

ومهما مضينا فى استعراض الروابط المشتركة بين فكر النهضة الأوروبية ممثلا فى أقوى رجالها وأشد دعاتها سواء فى ضرورة الدين أو الإيمان بالثواب والعقاب فإننا نجد دائما أن النهضة الأوروبية فى مشرقها الأول تنتج من الإسلام.

ولنأخذ فكرة أخيرة لفولتير أيضا فى أهم مدخل للحضارة الأوروبية فى الحرية لنجد التطابق الكامل بين فكره وفكر المعتزلة فى الحرية الإنسانية وصلتها بالإرادة الإلهية.

فـ«فولتير» يرى أن حرية الإنسان لا تكمن ولا تتمثل فى حرية إرادته فحسب، بل تتجلى فى قدرته على تنفيذ الفعل الذى يريده بحرية وبمعنى آخر العاجز لا تظهر له حرية ما لم يعط القدرة على تنفيذ الفعل المراد فهو يقول: (إن حريتى تقوم فى أن أمشى حين أريد أن أمشى، ولا أكون مصابا بالتقوس).

وكأن «فولتير» صوت للمعتزلة الذين قالوا: إن الإنسان مختار لأفعاله بحرية وهو يوجدها بقدرة أودعها الله فيه» ومن ثم كانت المسئولية فى الفعل الإنسانى على الإنسان؛ لأنه أعطى حرية الإرادة، وأعطى القدرة على الفعل الذى يختاره بحريته.

وهذا هو الذى يتضح من نصوص القرآن، فالعاجز غير مسئول ولا مكلف **﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾** (الطلاق ٧)، **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾** (البقرة ٢٨٦)، **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾** (التغابن ١٦).

وإذا كانت قيمة الحرية على هذا القدر من التشابه الذى يصل إلى حد التطابق كما رأينا بين الحضارتين، وكانت هذه القيمة لها آثارها فى الثقافة والديمقراطية، فإننا يجب هنا أن ننبه إلى أن جوهر الحرية فى الثقافة العربية الإسلامية يسمح بديمقراطية أوسع مفهوما من الديمقراطية الغربية.

نقل الدكتور عبد المتعال الجبرى فى كتابه «الحضارة والتمدن الإسلامى بأقلام فلاسفة النصارى» عن «دوزى» فى كتابه «تاريخ المسلمين فى أسبانيا» قال دوزى فى هذا الكتاب: «إن العرب لم يحكموا بتعاليم فلسفية فقط بل بالفطرة والغريزة (علق الجبرى هنا بأن «دوزى» يتجاهل هنا أن الإسلام دين الفطرة **﴿فطرة الله التى فطر الناس عليها﴾**؛ حتى حققوا بادئ ذى بدء مقالة الثورة الفرنسية وهى: «الحرية والمساواة والإخاء» ولقد كان البدوى يستمتع بحرية ليس أوسع منها على الأرض ويقول: لا أعرف مولى غير مولى العالم (المولى هو الله عند العربى). وبلغ الحد الأعظم من الحرية، بحيث لو قرنت معها أصولنا فى الحرية الراقية إلى أبعد الغايات، لكانت تسجل على أنها تشبه قواعد الاستبداد، وإذا منحت إحدى القبائل لقب أمير لأحد أفرادها، فلا يكون ذلك على الأغلب

إلا من قبيل الحرمة، لا يعود عليه بشىء، بل هو بمثابة شهادة عامة تمنحه إياها، دليل إجلالها له، واعترافا بإخلاصه فى قضاء شئون قبيلته».

ثم قال: «وهذا الفهم العربى للحرية والإمارة خير من مفهومها الديمقراطى الغربى، لأنه أدعى إلى نجاة الأفراد الأمراء من الأطماع التى لا حد لها، مما يهدم أركان المجتمع كما هو مشاهد فى أوروبا».

وأقول: إن هذا الفهم العربى للحرية والإمارة والديمقراطية مازال موجودا فى بعض البلاد العربية حيث تعطى القبائل العربية مشيختها لمن هو أكثر خدمة لها، ومجلس شيخ القبيلة هو مجلس قضاء الحوائج لكل المترددين عليه الذين يخاطبون الأمير أو الشيخ بحاجاتهم فيلبيها لهم دون أن يتكلفوا لها شيئا من الإجراءات «والروتين»، أو يتكلفوا شيئا من إراقة ماء الوجه فى طلب ما يريدون لمجلس الأمير أو الشيخ، هو مجلس الشعب أو الجمعية الوطنية أو البرلمان أو الكونجرس فى بعض الديمقراطيات الغربية، بل ربما يكون مجلس الشيخ أوسع ديمقراطية.

وعلى كل حال: أيا كانت أشكال الديمقراطية هنا أو هناك، فليست وقفا على شكل معين، المهم أن أشكال الديمقراطية التى تحقق الحرية والمساواة والعدالة، مهما تنوعت فإنما تجد أصولها فى الحضارة الإسلامية فى القرآن والسنة والتطبيقات النقية فى كثير من صور الحكم فى تاريخ الإسلام، بحيث تستوعب حضارة الغرب وتتجاوزها بآماد بعيدة تحقيقا للحرية والعدالة والمساواة.

وهذه النقطة من التشابه والرابطة المشتركة بين الحضارتين لا يجب أن تغطيها فى أعين المتعصبين مواقف وأفعال بعض المستبدين هنا أو هناك.

وما يبدو من إجراءات لتطبيق الحرية فى المجتمع الغربى إنما هى إجراءات أصيلة فى التراث العربى الإسلامى، حتى فى اختيار العرب لشيخ القبيلة الذى يتبادر للبعض أنه قمة الاستبداد وأن قبيلته فى قمة الطاعة والولاء له بحيث لا يبدو للبعض الذين لا يدركون أعماق الحضارة العربية الإسلامية أنه لا توجد فرصة فى القبيلة للديمقراطية، أو للشبه بين الحرية فى الغرب والوضع فى

القبيلة، نقول: إن هؤلاء إذا تأملوا كيف يصل شيخ القبيلة إلى مشيخته لها، لعرفوا أنه يصل بحرية قبيلته، لأنه لا يدين له أفراد القبيلة إلا بعد أن يعطى القبيلة أعز ما لديه، ولا يبخل عليها بأغلى ما عنده، فإذا بذل فى خدمتهم نفسه وأغلى ما عنده، بذلوا له فى صدق وحب وكامل حرية، كل ما عندهم من ولاء وتفان فى الطاعة.

بل إن الديمقراطية الغربية - على كثرة محاسنها التى نعترف بها بكل موضوعية - تبدو أمام الحضارة العربية الإسلامية مجرد إجراءات لتحقيق الشورى الإسلامية، فالشورى قيمة، لكن الديمقراطية إجراءات، وكثيرا ما تتخلل الديمقراطية الغربية سلبيات تجعلها شبه عاجزة عن تحقيق الشورى الإسلامية، عندما تتحكم فيها سيطرة رءوس الأموال والاحتكارات الكبرى، بحيث تعد عملية إنتخاب الرئيس فى النهاية رأسمالية، تتكلف الأموال الضخمة التى لا يستطيع المرشح ولا الحزب توفيرها، وإنما توفرها الشركات العملاقة والاحتكارات الضخمة، فالرئيس فى كثير من الديمقراطيات الغربية فى نهاية الأمر هو منتخب هذه الشركات فى الحقيقة وصوت هذه الشركات أكثر مما هو صوت الشعب أو الأمة، بما تملك هذه الشركات من قوى التأثير على الرأى العام وسوقه إلى ما تريد.

هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى كثيرة تتدخل فى اختيار الرئيس والنواب من محاولات تجميل المرشحين بما ليس فيهم أحيانا، وهناك ما يسمى علم صناعة الزعيم وفنون هذا العلم كثيرة، بدءا بالوعود الانتخابية الواسعة لفظا ومضمونا بما لا تستطيع قدرة الزعيم أن تفى بعشر معشارها، ونهاية بتغيير شكل المرشح إذا لزم الأمر بإجراء عمليات التجميل التى تتجاوز كل تصور أحيانا، وكثيرا ما ينجح مرشحون أقل من المستوى.

وكل هذه السلبيات قد تضعف من تحقيق الحرية التى هى رغم كل هذه السلبيات هى قيمة أساسية من قيم الحضارة الغربية، لكن الممارسات الواقعية البشرية التى تفعل مفعولها فى إضعاف هذه القيمة وتحقيق هدفها على الغاية

المنشودة، مما يؤكد أن هناك مساحة ما فاصلة بين الفلسفة والواقع، بين النظرية والتطبيق، تدل عليها ممارسات الزعامة بعد الانتخاب واستفتاءات الرأى العام التى يولع بها الغرب فى قياس أداء الزعماء.

نفس هذه المساحة الفاصلة بين فلسفة الحرية فى الحضارة الغربية وواقع التطبيق فى هذه الحضارة، تجدها أيضا بين قيمة الحرية فى الحضارة الإسلامية وواقع المسلمين.

لكن الأمر يختلف عندما نجد الميزان مختلا فى المقارنة بين الحرية فى العالم الإسلامى والحرية فى العالم الغربى، فنجد عند الحديث عن العالم الإسلامى التركيز على الواقع وتناسى القيمة فى ذاتها فى الفلسفة الإسلامية أو فى نصوص الإسلام ومواثيقه وتطبيقاته الأولى، التى تعبر بصدق عن مكانة الحرية فى صُلب الحضارة الإسلامية، بينما عند الحديث عن الحرية فى العالم الغربى نجد التركيز على أصل النظرية فى الحضارة الغربية وتجاهل ما يجرى فى الواقع من أن اختيار الرئيس فى الحقيقة هو اختيار الشركات واحتكاراتها ونفوذها أكثر مما هو اختيار الشعب اختيارا حرا مباشرا دون ضغوط، مع أن تناسى هذه الفروق فى المقارنة يؤدى إلى اهتزاز المقارنة وظلم الحضارة الإسلامية، والمفارقة غير الحقيقية بينها وبين الحضارة الغربية.

ومما يجب إبرازه فى هذا الصدد أن مؤسسة الرئاسة فى مصر قد سارعت عقب انتخابات مجلس الشعب الأخيرة إلى الحث على سرعة سن قانون جديد ينظم إجراءات الانتخابات، بحيث لا تقع تحت سيطرة رءوس الأموال وتأثيرها على الناخبين.

لكن هذا الأمر الذى كان يوجب على المثقفين أخذه ودراسته بعناية فى سياق تحقيق معنى الحضارة العربية الإسلامية وغايتها من الشورى أو الديمقراطية الحقيقية، هو حتى الآن على المثقفين، دون أن يلفت نظرهم إلى الروابط المشتركة بين نظرية الحرية أو قيمة الحرية الحقيقية بين الإسلام والغرب.

إن الاحتكارات الرأسمالية وتأثيرها على الانتخابات فى الغرب وممالأة المرشحين لقوى الضغط والتأثير فى الرأى العام، لكسب نتيجة الانتخابات بأى طريقة كانت، تحدث أمام سمع وبصر الكل هناك وفى العالم منذ عشرات السنين، دون أن يهزها أحد أو ينالها بالنقد بل ينضوى الكل تحت تأثيرها وكأنها «الطاحونة» التى لا يفلت منها أحد، بينما تحركت مؤسسة الرئاسة، لمجرد مرة أطلت شبهة تأثير رءوس الأموال على عملية الديمقراطية.

من هنا تظل المقارنة بين الحرية فى الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية لصالح الحضارتين معا إذا قامت المقارنة على أساس الفلسفة أو النظرية أو المواثيق الأساسية للحضارتين، وهذا هو الذى ندعو إليه عند النظر فى الحضارتين وعندئذ نجد التوافق والاشتراك فى هذه الرابطة الأساسية.

لكن التغافل عن مواثيق الحضارتين هو الذى ينشئ الخلاف، فالمساحة التى تفصل بين نظرية الغرب فى الحرية والواقع هناك هى أشبه بالمساحة التى تفصل بين نصوص القرآن والسنة وتطبيقات الخلفاء الراشدين وأمثالهم عبر التاريخ الإسلامى مما يعد من وثائق هذه الحضارة من جهة، وواقع المسلمين وممارساتهم من جهة أخرى، فهذه النصوص شىء والواقع شىء آخر.

وهناك ملحظ مهم فى هذا السياق تبدو فيه الحضارة الإسلامية فى جانب الحرية حضارة أصيلة، لأن النصوص والمواثيق التى تنظم هذه الحرية شىء ثابت من ثوابت هذه الحضارة، أما الإجراءات فهى متغيرة بتغير الأحوال والأزمان، ومفتوحة للتصحيح كلما احتيج إلى التصحيح والاستفادات من حضارات الغير مما يتماشى مع سياق النصوص والمواثيق، مما يكشف عبقرية هذه الحضارة وملاءمتها لكل عصر واتفاقها مع كل حضارة بناءة عبر التاريخ بقطع النظر عن واقع المسلمين ووجود بعض صور الاستبداد.

فرغم، النصوص ثابتة فى تأكيد الحرية فى الإسلام، نجد أن أنظمة الحكم التى تحقق هذه الحرية متعددة ومختلفة أحيانا اختلافا كبيراً، لكنه اختلاف فى الوسائل التى تحقق غاية واحدة.

فالطريقة التى تولى بها الخلفاء الراشدون لم تكن واحدة، فتولى أبو بكر الخلافة فى سقيفة بنى ساعدة لم تكن بنفس الطريقة التى زكى فيها أبو بكر خليفته عمر بن الخطاب بشخصه وحده وعرضه على الأمة منفردا لمبايعة المسلمين له، بينما اختلفت طريقة تولية عثمان الذى رشحه الخليفة عمر ضمن ستة من المرشحين سابعهم ابنه، لكنه اشترط أن لا يتولى الخلافة وإنما يقتصر دوره على الترجيح فى الاختيار إذا لزم الأمر، وقد انتهت هذه الآلية إلى إلغاء دور ابن عمر وأيلولته بحرية هذه المجموعة إلى عبد الرحمن بن عوف الذى اختار فى نهاية الأمر عثمان خليفة للمسلمين.

وكانت ثلاث تجارب لاختيار الخليفة قبل «على» كفيلة بأن ترفع لاختيار طريقة من الثلاثة، لكن «عليا» اختير بطريقة جديدة اختلفت عن الطرق الثلاثة مما ترك الأمر واضحا فى صلب الحضارة الإسلامية: أن الإسلام فى أصل مواثيقه - من الكتاب والسنة - ترك الأمر مفتوحا للمسلمين ليختاروا أنظمة الحكم على ما يرونه صالحا لهم، عبر الزمان والمكان، وفى ضوء الأسس الأصيلة الثابتة التى تحقق الحرية بالشورى والعدالة والمساواة، فأى نظام يحقق هذه الأسس فهو إسلامى، فإذا انخرم مبدأ من هذه المبادئ لا يكون النظام إسلامياً.

فاختيار النظام موكول للمسلمين على أساس الهدى العام «ما رآه المسلمون حسنا فهو حسن».

وكان عليه الصلاة والسلام يكل إلى الرأى فى تحقيق المصالح التى تحقق القيم الإسلامية، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «نعم وزير العلم الرأى الحسن». وكان يلجأ إلى الرأى فيما لم يترك فيه وحى وقال: ﷺ «**إنما أقضى بينكم برأيى فيما لم ينزل**» وقد أرسى عليه الصلاة والسلام قاعدة مهمة فى السياسة الشرعية للأمور الدنيوية فقال: «**إذا أمرتكم بشىء من عند الله فخذوه، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر**»(٩).

وعندما تكون الحضارة مفتوحة إلى هذا الحد، فإن ما يحكم بصواب مسيرتها أن يشعر الناس حقا بالعدل والشورى والمساواة وتتحقق بالفعل قيمة

الحرية بعيدا عن محاولات صناعة الزعيم أو تضليل الأمة بتجميل الزعيم أو التأثير عليها بالمال أو الإعلام أو أى وسيلة أخرى من وسائل تضليل الرأى العام، مما تراه فى واقع الحضارة الغربية أو واقع المسلمين على السواء مما لا يحسب حسابه فى نقد إحدى الحضارتين أو تمييز إحداهما على الأخرى.

العلم أيضا إرث مشترك بين الإسلام والغرب:

وبعد قيمة الحرية تأتى قيمة العلم والتجربة، فمنذ أن بدأت الحضارة الغربية الحديثة وهى تعلى من قيمة العلم والتجربة.

والذين يحلو لهم تأصيل الحضارة الغربية بإرجاعها وإرجاع جذورها إلى اليونان، ويعدون الحضارة الحديثة فى الغرب امتداداً للحضارة والفكر فى اليونان إنما يقفزون على حقائق التاريخ، ويتناسون فجوة العصور الوسطى، كما يتناسون الزمن بين أرسطو وفلسفته فى القرن السادس قبل الميلاد، ونشوء الفلسفة العلمية فى أوروبا فى القرن السابع عشر وظهور فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) ورينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠).

كانت هذه الفترة فجوة حقيقية بين فلسفة أرسطو الطبيعية التى تؤسس للعلم وبين العلم الحقيقى فى مفهوم الحضارة الأوروبية، العلم الذى يستخدم التجربة ويسلك الطرق العلمية لاستنباط القوانين العلمية، وقد عاشت أوروبا فى هذه الفترة الطويلة - (من القرن السابع ق.م إلى القرن السابع عشر الميلادى - عشرة قرون كاملة تحت اضمحلال فلسفة أرسطو وتبددها ثم تحت وطأة اللاهوت والعلم النظرى المنبثق من اللاهوت الذى كانت تصكه أو تصوغه الكنيسة، حتى هذا العلم لم يكن علما بالمعنى الحقيقى الذى يقوم على البراهين، ولم يعد فى أحسن حالاته إلا أن يكون رأيا تفرضه الكنيسة، وتحارب به أى نظرية أو محاولة علمية تقوم على برهان التجربة التى تمثل سلطة عقلية حقيقية يذعن لها العقل ويحترمها، وينتفع بها وحصيلتها من المعرفة العملية.

لكن العلم بدأ فى أوروبا عن طريق الرشديين، الذين كانوا متأثرين بطرق متفاوتة بابن رشد - الفيلسوف الإسلامى الأكبر الذى أراه فى هذا السياق أكبر

فيلسوف حاول بنجاح التوفيق بين الإسلام والفلسفة اليونانية، وأبرز جسور التوفيق والصلة بين الإسلام والحضارة الغربية - من أشهر هؤلاء: الفيلسوف «بونيو ناتزى» (١٤٦٢ - ١٥٢٥م) الذى كان أشهر أساتذة باروفا تلك الجامعة الأرسطية الرشدية التى كانت تتشبث بتأويل ابن رشد لأرسطو ليس فقط فى العقليات بل أيضا فى الطبيعيات، وهو من الفلاسفة المبكرين الذين لفتوا النظر إلى أن هناك مسائل لا تحل عن طريق الدين، بينما لا يصل العقل إلى إدراكها كمسألة خلود النفس، كما يبدو تأثره الواضح بابن رشد فى قوله: إن المعجزات أحداث استثنائية تصاحب نشوء الأديان وهى مع ذلك أحداث طبيعية - أى أحداث تحدث فى الطبيعة ويعد كتابه الذى نشر له بعد وفاته «فى علل الظواهر الطبيعية - العجيبة» سنة ١٥٥٦ من الكتب المبكرة فى تاريخ العلم فى الحضارة الأوروبية.

وإذا كان مؤرخو العلم فى الحضارة العربية يتناسون الفلاسفة الرشديين مثل بونيو ناتزى وجيرولامو كودانو (١٥٠١ - ١٥٧٦) ونشيزارى كريمونينى (١٥٥٠ - ١٦٣١) ويركزون على أصحاب المعادلات العلمية البحتة مثل: ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ - ١٥١٩) ونيقولا كوبرنيقوس (١٤٧٢ - ١٥٤٣) ولويس فينيس (١٤٩٢ - ١٥٤٠) وكبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠) وجاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) فإن هؤلاء الذين يجمع الباحثون على أنهم بواكير العلم فى الحضارة الغربية لا نجد صعوبة فى إدراك التشابه إلى حد التطابق مع الأسس العلمية فى الحضارة الإسلامية، بحيث تبدو الحضارة الإسلامية من ثنايا أفكار هؤلاء تطل بتأثيراتها الواضحة.

فالفكرة الرئيسية عند «ليوناردو دافنشى» هى الاعتماد على التجربة فى التمييز بين العلم والتخمين والدجل، يقول الأستاذ «يوسف كرم»: «إن دافنشى كان مقتنعا بأن العلم ابن التجربة وأن النظريات التى لا تتأيد بالتجربة نظريات باطلة فكان يرمى الكيميائيين والمنجمين بأنهم دجالون أو مجانين»(١٠).

ونقطة التطابق التامة بينه وبين ابن رشد تبدو فى الفكرة عن العلاقات بين الأشياء، فقد ذهب «دافنشى» إلى أن التجربة ليست مجرد الإدراك الحسى بل البحث عن العلاقات الضرورية بين الأشياء(١١).

ومسألة العلاقات الضرورية بين الأشياء هذه هى التى خاض فيها ابن رشد حربا مشهورة وجدلا فلسفيا وعلميا شغل الفكر الإسلامى، بحيث يعد علامة بارزة فى جدله الشهير مع الإمام أبى حامد الغزالى ومعه متكلمى الأشاعرة الذين ذهبوا إلى أن العلاقة بين الأشياء أو بين الأسباب ومسبباتها علاقة عادية لكن ابن رشد أكد أن هذه العلاقة علاقة ضرورية، والفرق بين الفكرتين: أن العلاقة العادية قد تتخلف لكن العلاقة الضرورية لازمة لا تتخلف إلا عند حدوث معجزة فى عالم الطبيعة تنبئ أن خرقا للنظام الكونى قد حدث. ومن ثم يبقى الاحترام كل الاحترام من لدن العلم للقوانين الكونية الثابتة واحترامه فى نفس الوقت للمعجزة سواء فى مصدرها وطريقتها ودلالتها ومن ثم كان للعلم عند ابن رشد يقينه، وكان للعالم كما عند دافنشى قدرته على استنتاج الظواهر المستقبلة من الظواهر الراهنة.

وعندما نقف أمام فكره فكأننا نقف أمام علم من علماء الحضارة الإسلامية يحكى صورة من الحوار الذى كان يدور فى هذه الحضارة حول القلب والنفس وماهية هذه النفس وحقيقتها وأيهما مركز المعرفة القلب أو الدماغ، فهو يصرح بأن صعوبات جمة تعترض الفحص عن ماهية النفس وأن العلم بما ليست النفس (أى بما ليس من حقيقة النفس) أيسر من العلم بما هى (أى بحقيقتها) وأن لا فائدة من معرفة حقيقة النفس بل الفائدة فى معرفة وظيفتها[١٢] وهذه هى الفكرة نفسها التى انتهت إليها الحضارة الإسلامية أنه لا يمكن معرفة حقيقة النفس الإنسانية، ومن ثم ركز الإسلاميون على وظائفها فعرفها الإمام الغزالى: بأن النفس لطيفة ربانية عالمة مدركة، وهو منطلق من قوله تعالى: **﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾** (الإسراء ٨٥).

وبالرغم من أنه كان يرى أن النفس مبدأ للحياة بجميع مظاهرها وفيها الحياة الفكرية وأن الدماغ هو مركز المعرفة فإنه لم يتجاهل القلب فوضع فيه القوة الحيوية بحجة أن القلب موضع أول مظهر وآخر مظهر للحياة، وهو روحى مع ذلك، وروحية القلب عنده تتفق مع ما ذكره الإمام الغزالى فى كتابه «إحياء علوم

الدين» من تعريفات للنفس والروح والقلب من أن كلا منهما لطيفة ربانية عالمة مدركة، وهو أيضا منطلق من قوله تعالى: **﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾** (الحج ٤٦) وقوله تعالى: **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾** (الأعراف ١٧٩).

ومن بعد هؤلاء الرشديين العلماء الأوروبيين الذين وضعوا أوروبا على طريق العلم والتجربة، نرى أن الأربعة العظام كما يسميهم «برتراند راسل» وهم: «كوبرنيقوس»، «كبلر» و«جاليلو» و«نيوتن» أولئك الذين كانت لهم مكانتهم فى إبداع العلم الأوروبى كانت فروضهم وأفكارهم العلمية تتفق مع روح العلم فى الحضارة الإسلامية.

هكذا تبدو المنطلقات العلمية الأولى فى الحضارة الغربية متسقة مع إمكانيات ومقررات الحضارة الإسلامية فى الجانب العلمى، مما يقطع بالتشابه بينهما إن لم نقل ببزوغ العلم الغربى من الشرق الإسلامى.

حتى الكفاح العلمى ومواجهة الجمود إرث مشترك بين الإسلام والغرب:

وإذا مضينا قدما فى الكشف عن العلاقات المشتركة بين الإسلام والحضارة الغربية، وقد قلنا فى مقالنا السابق إن الأربعة العظام الذين أسهموا فى نشأة العلم فى أوروبا وكانوا المنطلقات الأساسية للحضارة الغربية فى المجال العلمى وهم: كوبرنيقوس، كبلر، جاليليو، نيوتن. يتمتعون بروح علمى هو نفس الروح العلمى فى الحضارة الإسلامية، كما كانت لهم نفس السمات الخلقية العلمية التى نجدها دائما فى أخلاقيات العلم الإسلامى لدى رواد الحضارة الإسلامية، بل كانت لهم نفس المنطلقات الفلسفية الميتافيزيقية التى كانت لدى العلماء والفلاسفة المسلمين.

ونذكر فى مقالنا هذا كلمة الفيلسوف الإنجليزى «برتراند راسل» فى وصف هؤلاء الذين أسسوا العلم الأوروبى. يقول: «ولقد كان للرجال الذين أسسوا العلم الحديث مأثرتان لا يلزم أن نجدهما معا: صبر عظيم فى الملاحظة، وجرأة كبيرة فى صياغة الفروض».(١٣)

وهاتان المأثرتان، هما بالضبط من مآثر علماء المسلمين وسماتهم الأصيلة مما يقطع بالتشابه بين بناة العلم الأوائل فى أوروبا وعلماء المسلمين إن لم يكن التأثر بهم.

ويكفى أن ننظر إلى مناهج هؤلاء وتعويلهم على التجربة بوصفها أساس البحث العلمى، ولنأخذ أى واحد من هؤلاء العلماء لندرك ذلك بوضوح.

فالبيرونى – على سبيل المثال – هو الذى وضع القواعد الثابتة للتجربة، بل وضع – كما يقول الدكتور أحمد على الشحات – ما يمكن أن نسميه باللمسات الأخيرة للمنهج التجريبى، كما أنه هو الذى وثق بالرياضيات وأوصى بتحرير العقل من الأوهام وآمن بالحدس الذى سماه توفيق الله ـ تعالى ـ حتى إن منهج ديكارت الذى كان علامة بارزة فى تاريخ الحضارة الغربية فى حقيقته تجميع من منهجى البيرونى والغزالى، حيث استقى جزءا من منهجه فى الشك من الغزالى وجزءا من منهجه الرياضى عن البيرونى.

كما أن جابر بن حيان هو الذى وضع قواعد المنهج التجريبى من: الملاحظة المقصودة للظواهر، والتجربة الدقيقة، والتثبت من شهادة الغير، والتأكد مما يقع فى الذهن من فروض(١٤).

وإذا كنا قد وضعنا أيدينا على مناطق التشابه أو التأثر بين ما توصل إليه كوبرنيقوس وما توصلت إليه الحضارة الإسلامية، فإننا نكمل تأثيرات هذه الحضارة على بقية الأربعة الكبار فى تاريخ العلم الأوروبى.

فالذى يتعمق فيما أنجزه «كبلر» (١٥٧١ – ١٦٣٠) يجد أصوله فى حضارة الإسلام، فقد كان إنجاز «كبلر» العظيم حديث ينص ـ كما يقول راسل – على:

اكتشاف قوانينه الثلاثة عن حركة الأجرام السماوية بنص القانون الأول على أنه: ترسم الكواكب أفلاكا بيضاوية تشغل الشمس بؤرة واحدة فيها، وينص القانون الثانى على أن: الخط الذى يصل بين أى كوكب والشمس يقطع مساحات متساوية فى أزمنة متساوية، وينص القانون الثالث على أن: مربع فترة دوران أى كوكب يتناسب مع مكعب متوسط المسافة بينه وبين الشمس، ومؤدى ذلك ومعناه - مع التبسيط بقدر الإمكان للقارئ - أن حركة الأفلاك تدور لكن دورتها بشكل بيضاوى (هذا فى القانون الأول) وأن السرعة المتفاوتة للكوكب عند نقطة مختلفة من فلكه تتساوى فيها السرعة مع المسافة، فالكوكب يتحرك أسرع حين يكون أقرب إلى الشمس ويتحرك أبطأ حين يكون أبعد منها (فى القانون الثانى)، وأن معدل المسافة بين أى كوكب والشمس مقسم بواسطة طول السنة لهذا الكوكب (القانون الثالث).

وهذه المعلومات التى يكتشفها «كبلر» لأول مرة فى تاريخ العلم الأوروبى كانت أفكارها الأساسية متداولة بين المسلمين، حيث كان القرآن يلفت أنظارهم إليها ويتحدث المفسرون كل بطريقته عنها.

فالقرآن يلفت النظر إلى أن مدارات الكواكب مكورة، يزيد أحدها بقدر ما ينقص من الآخر، وهذا يدل على أن الكرة ليست دائرة كاملة أو مستوية، بل هى مختلفة الأطراف أو بعبارة أخرى مدحوة حين قال تعالى: **﴿خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى﴾** (سورة الزمر الآية: ٥) أى لزمن ومسافة معلومة وفى هذه الآية إشارة إلى شكل المدارات من الحركة والزمن والمسافة وفى حديث القرآن عن منازل القمر وأنه فى أحدها كالعرجون القديم، إشارة إلى مساره الدائرى كما لفت القرآن النظر إلى مواقع النجوم، حين قال تعالى: **﴿فلا أقسم بمواقع النجوم • وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾** (الواقعة ٧٥، ٧٦).

وأبان القرآن بجلاء كيف أن الأرض مدحوة على شكل بيضة، حين قال: **﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾** (النازعات ٣٠) وأن حركة الأفلاك تقتضى تغير الليل والنهار وغشيان كل منهما للآخر بسرعة **﴿يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾** (الأعراف ٥٤). **﴿يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى﴾** (فاطر ١٣).

وقد دفعت هذه اللفتات القرآنية المسلمين إلى دراسة علم الفلك، كما دفعتهم الرغبة فى تحديد مواقيت الصلاة والصيام والحج، إلى التعمق فى هذا العلم حتى لقد أنجبت الحضارة الإسلامية علماء فى الفلك والرياضيات كانوا وكانت أفكارهم تحت نظر علماء الغرب منذ بدء النهضة، من أهم هؤلاء البتانى والبيرونى.

وقد كان البتانى يقول: أن معادلة الزمن تتغير تغيرا بطيئا على مر الأجيال. وله كتب كثيرة أهمها كتاب «يزج الصابى» الذى ألفه سنة ٢٩٩هـ - نهاية القرن التاسع الميلادى تقريبا - وهو محفوظ فى مكتبة الفاتيكان وقد قال الدكتور/ محمد عبد الرحمن مرحبا فى كتابه «الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب» أنه: «كان لهذا الكتاب أثر عظيم سواء فى علم الفلك أو فى حساب المثلثات الكرى (الكروى) خلال العصور الوسطى ومستهل عسر النهضة، وقد ترجم إلى اللاتينية أكثر من مرة فى القرن الثانى عشر كما أمر الفونس العاشر صاحب قشتالة بنقله من العربية إلى الأسبانية رأسا فى القرن الثالث عشر»(١٥).

ولعل رفض البيرونى لنظريات اليونان بأن الأجرام السماوية والأرض كروية إذ لم تعجبه أدلة اليونان على ذلك، تلك الأدلة التى تقوم على اعتبارات نظرية، على أساس أن شكل الكرة أو الدائرة هو أكمل الأشكال؛ ولذلك كان يريد أدلة علمية واقعية مما جعله يرفض أن تكون الأرض على شكل كرة بالمعنى الهندسى؛ ولذلك قال بأن جاذبية أجزاء الأرض بعضها لبعض وسرعة دوران الأرض حول محورها يمنع أن يكتمل لها شكل دائرى أو كروى مما يقربها من النص القرآنى الذى كان يقرؤه بطبيعة الحال **﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾**.

أما «جاليليو» (١٥٦٤ - ١٦٤٢) الذى يطلق عليه «راسل» أنه أعظم مؤسسى العلم الحديث مع إمكان استثناء نيوتن فأهم نظرية لديه هى سقوط الأجسام بسرعة ثابتة إلا بالقدر الذى تتدخل به مقاومة الهواء، أو بعبارة أخرى أوضح: أنه إذا سقط جسم سقوطا حرا فى فراغ خال من الهواء فإن سرعته تتزايد بمعدل ثابت، هذا مع اعتباره الشمس مركزا وأن الأرض تدور حوله مما جعل «نيوتن» (١٦٤٢ - ١٧٢٧) يمضى قدما فى اكتشاف قانون الجاذبية الذى قال به العالم المسلم «البيرونى» قبل نيوتن مما جعل الأرض غير كاملة الدوران، لأن أجزاءها بل الأفكار التى واجهت العلماء فى منشأ الحضارة الأوروبية متشابهة إلى حد كبير مع مد واجهة العلماء المسلمين فى بداية نشأة الحضارة الإسلامية مما يجعل الحضارتين، متشابهتين فى الجهاد العلمى من أجل العلم والازدهار الإنسانى.

بل إن الطرافة تصل إلى منتهاها حين نرى من صلات التشابه بين الحضارتين، أن فكرة دوران الأرض هى الفكرة بعينها التى كان الموقف منها فى كلا الحضارتين متشابها إلى حد كبير.

فكما منع جاليليو من الحديث عن دوران الأرض أمام محاكم التفتيش التى أجبرته سنة ١٦٣٣ على أن ينكر رأيه علنا حتى وعد المحكمة ألا يتمسك بعد ذلك بالقول بأن الأرض تدور ولم يستطع أن يبوح بهذا إلا بينه وبين نفسه قائلا لنفسه: «ومع ذلك فهى تدور» كذلك منع «البيرونى» من قوله بحركة الأرض وأمر بالسكوت عن تكراره، أنه كان قد قال فى كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة»: إن الأرض متحركة حركة الرحى على محورها»، مما جعل البعض يرددها عنه فى مجلس السلطان مسعود وهو راعى البيرونى فارتاع السلطان لقول البيرونى بحركة الأرض فأمره بالسكوت وعدم تكرار أمثال هذه الأقاويل.

إلا أن هناك فارقا واحدا بين الحضارتين فى هذه المسألة: هو أنه بينما كان جاليليو وحده الذى يقول بدوران الأرض فى أوروبا لم يكن «البيرونى» وحده فى الحضارة الإسلامية، بل قال بها «أبو سعيد السجزى» وجماعة يبدو أنها كانت كثيرة.

وكما وقف رجال الدين فى أوروبا ضد الفكرة، فقد وقف ضدها بعض العلماء فى الحضارة الإسلامية، فقد ذكر الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا فى كتابه (الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب): «أن إمام الحرمين «الجوينى» أشار فى كتابه «الشامل فى أصول الدين» إلى أن هناك قوما زعموا أن الأرض كرة متتابعة الدوران. وأعلن رفضه لهذه الفكرة قائلا: إن لديه أدلة على بطلانها».

مما يدل على أنه حتى الكفاح العلمى مشترك بين الحضارتين - الإسلامية والغربية - ومواجهة الجمود من أجل الاجتهاد والتقدم العلمى إرث مشترك ومتشابه على الجانبين.

الهوامش:

(١) ينظر: محمد إقبال، تجديد التفكير الدينى فى الإسلام، ص ١٥٠، ترجمة عباس محمود، ط١.

(٢) البخارى، كتاب الأدب، باب ٤٤

(٣) نفس المصدر السابق ونفس الباب.

(٤) د. عبد المتعال الجبرى، الحضارة والتمدن الإسلامى، ص ٩١، مكتبة وهبه، القاهرة.

(٥) تاريخ الفلسفة الحديثة، ص ١٩٠، دار المعارف بمصر ١٩٦٢.

(٦) المصدر السابق ص ١٨٩.

(٧) الصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٨) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٩) رواه مسلم فى كتاب الفضائل ١٤٠.

(١٠) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٧، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.

(١١) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٨.

(١٣) تاريخ الفلسفة ج ٣ ص ٦١، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٧.

(١٤) ينظر كتاب: أبو الريحان البيرونى، للدكتور أحمد على الشحات، ط ١، دار المعارف بمصر ٨٧٤.

(١٥) ص ٤٣٤، منشورات البحر المتوسط، وعويدات، بيروت ـ باريس.

مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات المعاصرة

الأستاذ / الصادق المهدى

السودان

الفصل الأول : الدين والثقافة والحضارة.

الفصل الثانى : الحضارة الإسلامية.

الفصل الثالث : الحضارة الغربية الحديثة.

الفصل الرابع : عدوانية الحضارة الغربية.

الفصل الخامس : مسألة النفط.

الفصل السادس : علاقة الشمال بالجنوب.

الفصل السابع : العولمة.

الفصل الثامن : العلاقة بين الحضارات فى المستقبل المرئى.

الفصل التاسع : الإسلام والغرب عامة وأمريكا خاصة.

الفصل العاشر : الأقليات الإسلامية فى عالم اليوم.

الفصل الحادى عشر : استشراف المستقبل.

مدخل:

كانت علاقات الحضارات الإنسانية فى الحقب التاريخية الماضية تتأرجح بين اللقاح والصدام. فعالم اليوم عالم مختلف فى أمرين هامين:

الأمر الأول:

ثورة الاتصالات والمواصلات، واتساع السوق العالمى الحر، وعوامل أخرى، حولت العالم إلى ما يشبه القرية الواحدة التى تتأثر أجزاؤها ببعضها بعضا.

الأمر الثانى:

امتلاك عدد كبير من الدول لأسلحة الدمار الشامل وحتى الشعوب التى لا تمتلك أسلحة الدمار الشامل تمتلك أسلحة الضرار الشامل.

لهذين السببين فإن شعوب العالم وحضاراته أمامها خيارات:

الاستقطاب، فالمواجهات، فالدمار، فى ظل عصر ظلامى جديد، أو الحوار والوفاق فى ظل نظام عالمى أعدل وأفضل.

فى حضارات الإنسان المعاصر تيارات تدفع نحو المواجهة، وأخرى تدفع نحو الحوار والوفاق.

إن مستقبل العالم منوط بتحالف قوى الاستنارة ضد قوى الصدام؛ لإنقاذ العالم من العهد الظلامى، والدفع به نحو مستقبل أعدل وأفضل.

فى هذه الدراسة سوف أستعرض الأمر من كافة جوانبه، وأُبين معالم الطريق نحو الخيار المأمول.

انتماءات الإنسان:

انتماءات الإنسان التى تلزمه ذاتيا وتفسر تحركاته تقع فى ثلاثة محاور:

- المحور الأول: يتعلق بالولاءات الدينية والإثنية والثقافية الموروثة.
- المحور الثانى: يتعلق بالفكرية أو الأيديولوجية التى يؤمن بها الإنسان.

ـ المحور الثالث: يتعلق بالمصالح الفردية أو الطبقية التى يسعى الإنسان لتحقيقها.

* عندما أطلّت الثورة الصناعية فى أوروبا الغربية، ونما النظام الرأسمالى بدأ كأن النظام الجديد سوف يطرد كافة الولاءات الموروثة الدينية والقومية والثقافية لتصبح انتماءات الإنسان طبقية أو أيديولوجية تحددها ايديولوجيات تخدم المصالح الطبقية.

هذا التصور افترضته أقوى أيديولوجية سياسية فى الغرب ـ الأيديولوجية الماركسية ـ وبنت عليه تصوراتها لمستقبل الإنسانية.

لقد شهد القرن العشرين أضخم صراع عرفته الإنسانية بين المجتمعات الإنسانية الأكثر تملكا للقدرات المادية على أساس أيديولوجى وطبقى، وبعد حمامات دم أودت بملايين الأرواح وحطمت العمران على نطاق واسع فى الحرب العالمية الثانية (٣٩ ـ ١٩٤٥م)، وبعدها ساد المعمورة نظام عالمى مستقطب بين النظام الرأسمالى والنظام الشيوعى، فخاضا الحرب الباردة (٤٦ ـ ١٩٩١م) على أساس صراع أيديولوجى ومصلحى كلف الإنسانية من الدموع والدماء والأموال تكاليف غير مسبوقة.

وبعد الحرب الباردة ظهر واضحا أن انتماءات الإنسان الدينية والقومية والثقافية لم تمت كما كان متوقعا بل برزت أهمية الانتماء الدينى كمحرك فكرى واجتماعى للبشر وتمددت ظاهرة الأصولية الدينية فعمت كل الأديان.

لذلك قررت جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية ـ تكليف جماعة مختصة لدراسة هذه الظاهرة، فأصدرت ست مجلدات حاوية لهذه الدراسة فى عام ١٩٨٨م.

استنتجت الدراسة أن الحماسة الأصولية ظاهرة عمت كل الأديان، وأن السبب الدافع لها هو تمسك الجماعات الدينية بعقائدها وقيمها الخلقية فى وجه هجمات فكر وثقافة علمانية نافية لها.

وفى تقرير عن التحدى للجنوب ـ أى جنوب الكرة الأرضية ـ بتاريخ ١٩٩٥م جاء ما فحواه: أن التنمية فى بلدان الجنوب أخفقت؛ لأنها لم تراع الجوانب الثقافية فى تكوينات هذه المجتمعات.

وفى نوفمبر ١٩٩٥م جاء فى تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية المعنون «تنوعنا البشرى الخلاق» Our Ereative diversity النص الآتى:

«إن مجهودات التنمية غالبا ما أخفقت لأن العامل البشرى ـ تلك الشبكة من العلاقات والمعتقدات والقيم والدوافع التى تجسدها الثقافة ـ قد أهمل فى التخطيط للمشروعات المختلفة».

وجاء فى التقرير أن تقرير لجنة برندلاند قد أشار لأهمية العلاقة بين التنمية والبيئة الأيكولوجية، ولأسباب مماثلة ينبغى أن نراعى العلاقة بين الثقافة والتنمية.

ولأهمية الجانب الثقافى فى حياة الإنسان؛ اقترح التقرير أن يراجع الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الحق الثقافى إليه.

جاءت الأحداث التى صاحبت انهيار الاتحاد السوفياتى ونهاية الحرب الباردة فظهر فيها وزن الانتماءات الدينية والأمنية والثقافية فأدى ذلك لتحليلات جسدها فى كتابه صدام الحضارات "Samuel Huntingiton" الكاتب الأمريكى صموئيل هنتجتون وإعادة تكوين النظام العالمى، وخلاصة اطروحته أن السياسة الدولية فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة سوف تدور حول الحضارات وعلاقاتها تنازعا وتعاونا، وتنافسا وصداماً.

ولا يوجد مقياس واحد لسلوك الإنسان، نعم سيكون للانتماءات الدينية والثقافية المكونة للحضارات دور فى تشكيل العلاقات بين المجموعات البشرية كما سيكون للمصالح والأيديولوجيات دورها.

الفصل الأول

الدين والثقافة والحضارة

كل مجتمعات الإنسان كونت لنفسها ثقافات. والثقافة هى شخصية المجتمع، وقد أحصى علماء الإنسان عشرة آلاف ثقافة حية. الثقافة تشمل المعتقدات الدينية واللغة والعادات والقيم الخلقية، فإذا تطورت وصارت كاتبة حاسبة وارتبطت بالحوافز كانت حضارة، فالحضارة ثقافة فى مرحلة أعلى من مراحل النضج.

الأديان: وهى من أهم مكونات الثقافات والحضارات بعضها محلى كالأديان الأفريقية وبعض الأديان الآسيوية وبعضها أديان عالمية كالأديان الإبراهيمية الثلاثة والزردشتية والهندوسية والبوذية.

كل حضارات الإنسانية فيها مكون دينى، والحضارات الإنسانية الحية فى العالم اليوم ثمان هى:

الحضارة الصينية ـ اليابانية ـ الهندية ـ الغربية ـ والسلافية ـ اللاتينية ـ أمريكا الجنوبية ـ والإسلامية والأفريقية.

ربما طرح سؤال عن ماهية الحضارة الأفريقية لأنه لاتوجد حضارة واحدة عامة فى أفريقيا جنوب الصحراء هناك مراجع تؤكد أن ثمة معالم مشتركة بين اللغات واللهجات الأفريقية، كما أن ثمة معالم مشتركة بين الأديان الأفريقية، عوامل شرحها أولاجى أدوو النيجيرى فى كتابه «الدين الأفريقى التقليدى» هذه العوامل المشتركة سميت الأفريقانية.

تناول الأستاذ/ على مزروعى التراث الأفريقى فوجده مكوناً من ثلاثة عناصر هى: (الأفريقانية ـ الإسلام ـ الحضارة الغربية).

الإفريقانية كونت الذهنية الأفريقية، انفردت بالتركيز على العلاقة الخاصة بين البشر والطبيعة، وبين المادى وغير المادى فى الطبيعة، وبين العقلانى والفطرى فى الحياة وبين الأجيال الحاضرة والماضية من الناس.

اتسم تاريخ الإنسانية كله بتنافس وتلاقى وتداخل وصدام الحضارات، ونتيجة لهذه العوامل فإن الحضارات أثرت فى بعضها بعضاً وتأثرت ببعضها بعضاً، وقيل إن العنصر الأصيل فى أية حضارة لا يمكن أن يتجاوز ٢٠٪ فالحضارة اليونانية متأثرة بالحضارة الفينيقية والفرعونية والهندوسية، والحضارة الغربية ربيبة المسيحية واليهودية ومتأثرة بالحضارة اليونانية والرومانية والإسلامية.

والحضارة الإسلامية متصلة بالأديان الإبراهيمية ومتأثرة بالحضارة اليونانية والفارسية والهندوسية وهلم جرا.

لقد اتسم اللقاح الحضارى على طول التاريخ بالسمات الآتية:

أولاً: الحركة البطيئة ـ فالبوذية انتشرت فى الصين بعد ستة قرون من ظهورها فى شمال الهند.

ثانياً: الانحصار الجغرافى: فالهندوسية انحصرت فى شبه القارة الهندية وكذلك الحضارة اليابانية.

حضارتان فقط من بين الحضارات العالمية انفردت بأمرين هامين هما:

ـ **الأول**: الانتشار السريع.

ـ **الثانى**: تجاوز الجهوية إلى العالمية.

هاتان الحضارتان هما الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية الحديثة ـ هذه الصفة المشتركة جعلتهما متنافستين وأعطت التنافس بينهما خصوصية.

الفصل الثانى

الحضارة الإسلامية

انتشر الإسلام فى ثمانين عاماً على رقعة من الأرض غطت بأكثر مما غطته الحضارة الرومانية فى ثمانمائة عام.

وفى مدة قصيرة من الزمان هيمنت الحضارة الإسلامية فى شكل دولتى بنى أمية وبنى العباس، ثم الإمبراطوريات الثلاث: العثمانية والصفوية والمغولية على الربع المعمور فى العالم لمدة ألف عام من الزمان منذ القرن السابع إلى القرن السابع عشر الميلادى.

الحضارة الإسلامية التى هيمنت على الربع المعمور من العالم هيمنت عليه سياسياً ولكنها استصبحت علومه ومعارفه وآدابه فكرياً وثقافياً.

قال الأستاذ/ منتجمرى واط: «هنالك حقيقة مدهشة لا تكاد تصدق فى كيفية امتصاص الحضارة الإسلامية لحضارات الشرق الأوسط القديم».

واستطاع الإسلام أن يحرك قوميات عديدة فى بناء حضارته، انطلق الإسلام من جزيرة العرب وكان أروع عطاء حضارى للعرب فى ظله، كما كان أروع عطاء للفرس فى ظل الإسلام، وأروع عطاء للأتراك تحت مظلة إسلامية، وكانت الحضارة المغولية من أروع منجزات الهند الثقافية.

من أول وصول الإسلام إلى أسبانيا فى القرن السابع الميلادى، حتى حصار المسلمين للنمسا فى عام ١٥٢٩م، كانت أوروبا تتوقع انتصاراً إسلامياً عليها مرتين على الأقل.

فى عام ١٥٢٩م ـ حصار فيينا الأول ـ وفى عام ١٦٨٣م ـ حصار فيينا الثانى، ومع أن الكيان السياسى الإسلامى لم يستطع ضم أوروبا الغربية إليه فإن أثره على الحضارة الغربية كان هائلاً.

قال: روبرت ـ بريفلون ـ فى كتابه «الحضارة الإسلامية تكوين الإنسانية» ـ «التنوير الحقيقى لأوروبا هو الذى حدث نتيجة إحياء العرب الحضارى لأوروبا» بوابة ذلك الإحياء وليست إيطاليا هى مصدر المولد الثقافى لأوروبا.

وقال: كذلك «كانت أوروبا متراجعة باستمرار حتى بلغت غاية الانحطاط والتوحش، بينما تألقت عواصم العالم الإسلامى فى بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة، وكانت عامرة بالثقافة والتوقد الفكرى، فى تلك العواصم نشأت الحياة الحضارية الجديدة التى جسدت مرحلة عالية فى تطور الحضارة الإنسانية إن الحياة الإنسانية الجديدة كانت نتيجة مباشرة لإشعاع الحضارة الإسلامية.

وقال: «من الراجح أنه لولا العرب لما ظهرت الحضارة الأوروبية الحديثة. ومن المؤكد انه لولاهم لما اكتسبت الحضارة الأوروبية الحديثة الصفات التى مكنتها من التسامى على كافة مراحل تطور الإنسانية سابقاً».

هذه الحقائق يعرفها ويكررها كثير من الكتاب والمثقفين الغربيين ولكن التيار الغالب فى الحضارة الغربية لم يتعامل مع هذه الحقائق بموضوعية.

قال مونتجمرى واط: «إن مشاعر الغربيين نحو الإسلام كانت فى الغالب شبيهة بشعور الطبقات المحرومة فى دولة كبيرة هؤلاء يتجهون لانتمائهم الدينى للتعبير عن خصوصيتهم فى مواجهة الطبقات العليا. هكذا فعل الأوروبيون تجاه الحضارة الإسلامية المتفوقة. تحصنوا بمذهب القديس «جيمس الكمبستولى» واندفعوا فى حماسة الحركة الصليبية. كذلك شوه الكتاب والقادة فى أوروبا صورة الإسلام لتعويض أنفسهم عن شعورهم بالدونية.

قال الأستاذ واط: «أوروبا كانت تخشى الإسلام على هويتها لذلك أنكرت دينها له وبالغت فى اعتمادها على التراث اليونانى والرومانى».

لذلك فإن علينا اليوم أن نخلص أنفسنا من هذا الزيف وأن نعترف بحجم ديننا الحضارى والثقافى للعالم الإسلامى.

لمدة ألف عام كانت القوة السياسية والعسكرية الإسلامية خطراً مباشراً على وجود واستقلال دول أوروبا الغربية.

ومع محافظة دول أوروبا على استقلالها السياسى والعسكرى فإن فكرها وثقافتها وحضارتها استمدت كثيراً من عناصرها ومكوناتها من الحضارة الإسلامية. لهذه الأسباب صارت نظرة الحضارة الغربية للحضارة الإسلامية محملة باعباء وخصوصيات وآراء ومشاعر مختلفة عن رؤيتها لأية حضارة أخرى.

الفصل الثالث

الحضارة الغربية الحديثة

عبر عوامل الإصلاح الدينى، والتنوير الفكرى والثقافى نهضت الحضارة الغربية بموجب ثلاث ثورات مكنتها من صنع الحداثة.

١ - ثورة سياسية مكونة من جانبين:

● ثورة سياسية نقلت دويلات أوروبا من مقاطعات يحكمها أمراء تحت ظل الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى دول وطنية عقب صلح وستفاليا عام ١٦٤٨م.

● ثورة سياسية هى الثورة الفرنسية التى جعلت الدولة الوطنية ممثلة لشعوب ذات حقوق ومشاركة فى اتخاذ القرار السياسى. هذه الثورة السياسية حلت أهم العقبات السياسية فى الحكم؛ لأنها حققت التناوب السلمى على السلطة عبر انتخابات عامة حرة، وحققت الامتثال العسكرى لقرار القيادة المدنية المنتخبة - هذه الثورة السياسية هى التى أبعدت شبح الاقتتال على السلطة السياسية وشبح التسلط على الشعوب. فقامت نظم سياسية جديدة لا تناقض فيها بين الحكام والشعوب ولا مواجهة بين الطبقات المتطلعة للحكم إلا عبر انتخابات حرة. هكذا زال شبح التناحر على السلطة. كما تحررت قوات الدولة المسلحة من تسخيرها لصالح الصراع على السلطة، فاتجهت نحو تجويد أدائها المهنى فى ظل قوانين ضبط وربط حازمة.

٢ - ثورة اقتصادية:

تحققت عبر الثورة الصناعية التى حققت تقدماً تكنولوجيا وسخرت قوى الطبيعة لصالح الإنسان.

الثورة الصناعية استطاعت أن تحقق تراكماً رأسمالياً عبر علاقات إنتاج عقلانية بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال واستخدام الآلات الحديثة - فارتفع الإنتاج إلى درجة لم تشهد الإنسانية لها مثيلاً - فالثورة الصناعية حققت من

الفوائض والأرباح ما مكن من بناء إدارات مدنية قوية وقوات مسلحة قاهرة فأخضعت الدول الأوروبية كافة أنحاء العالم لبأسها ومكنتها من تسخر الأيدى العاملة لخدمتها ومن توفير الخامات لصناعاتها ومن جعلها أسواقاً لمنتجاتها.

٣ ـ الثورة الثقافية:

التى اندفعت بحرية البحث العلمى والتكنولوجى إلى تسخير العلم لمنفعة الإنسان. كما أن الثورة الثقافية وسعت من فرص التعليم للشعوب وجعلتها مصادر قدرات علمية ومهنية وفنية واسعة.

* هذه الثورات الثلاث. وضعت الحداثة ومكنت الحضارة الغربية الحديثة من نهضة سياسية واقتصادية وعلمية وتكنولوجية وعسكرية وثقافية فتقدمت تقدماً نوعياً على الحضارات والمجتمعات الأخرى وأخضعتها لسلطانها.

منذ القرن الثامن عشر وعبر القرن التاسع عشر شهد العالم ظاهرتين هما:

ـ **الأولى**: قوة وحيوية الحضارة الغربية الحديثة.

ـ **الثانية**: فرض الحضارة الغربية لهيمنتها على المعمورة.

وفى القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين بدا وكأن الحضارة الغربية الحديثة هى مستقبل الإنسانية وأن العالم كله مرشح للخضوع لها والامتثال لمفاهيمها وقيمها.

ـ فى عام ١٩٢٣ قال (زيا جولب) المفكر التركى: «الحضارة الغربية هى التقدم ـ وهى مستقبل الإنسانية وعلينا أن نقبل عليها» وهى نغمة رددها بعد ذلك عدد من المفكرين لا سيما فى مصر ـ قال طه حسين فى «مستقبل الثقافة فى مصر»: «الغرب هو المستقبل وعلينا أن نقبله بخيره وشره» وعلى نفس الوتيرة تحدث سلامة موسى قائلاً:

«أنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب وفى ما أكتب أحاول أن أغرس فى ذهن القارىء تلك النزعات التى اتسمت بها أوروبا فى العصر الحديث. وأن أجعل قرائى يولون وجهوهم نحو الغرب وينفصلوا عن الشرق، لأنى اعتقد أن لا رجاء

لنا بالنجاح فى العالم إلا بذلك» وكثير من الكتاب والمفكرين فى الشرق قلدوا نظرائهم فى الغرب لا سيما فى اعتبار الدين مرحلة إنسانية بدائية سوف يحرر الإنسان منها حتماً - رواية أولاد حارتنا نجيب محفوظ تشابه ما ذهب إليه الفيلسوف الفرنسى (أوجست كومت) من أن الدين مرحلة بدائية للإنسانية سوف يتجاوزها حتماً لتخلفها مرحلة العلم - هذه المقولة لم تصدق فى الغرب ومن باب أولى ألا تصدق فى الشرق - بل إن الشعور بأن العقائد والهويات الثقافية فى خطر كان من بين أهم أسباب اليقظة الدينية والقومية أثناء القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٤ - ١٩١٨) سيطر الغرب على العالم إلا قليلاً - الحضارة الغربية الحديثة حضارة مركبة من عنصر تراثى. قال عنه (بول فاليرى) أوروبا مكونة من تراث ثلاثى:

- فى المجال الأخلاقى: المسيحية بشقيها الكاثوليكى والبروتستنتى.

- فى مجال القانون والسياسة والدولة - فإنها تستمد من القانون الرومانى.

- فى مجال الفكر والفنون - تستمد من التراث اليونانى. انطلاقاً من هذا التراث وعبر ثورات الحداثة تمت الحضارة الغربية الحديثة: النظام الديمقراطى التعددى - النظام الاقتصادى الرأسمالى - التمدد الحضرى - محو الأمية - حرية البحث العلمى - التطور التكنولوجى - التسامح الدينى - النظام الدولى التعاهدى.

إذن الحضارة الغربية الحديثة مكونة من عنصرين:

١ - عنصر تراثى.

٢ - عنصر حداثى.

- الجزء التراثى خاص بأوروبا وهو نفسه إذا بحثناه بحثاً دقيقاً لوجدناه مستمداً من روافد غير أوروبية.

- أما الجزء الحداثى - فهو يمثل التطوير الغربى لمصادر ثقافية وسياسية واقتصادية - ساهمت فيها كل الإنسانية مما يبرر التفرقة بين التغريب والتحديث - كثير من مفكرى أوروبا يرفضون هذه التفرقة ويعتقدون أن الحضارة الغربية

الحديثة كلها إنجاز حضارى غربى فريد ويعتبرون أن واجبهم المصيرى أن ينقلوا حضارتهم هذه للعالم كله ليصبوا العالم فى قوالبها ـ إنها رسالة الرجل الأبيض ـ تكمن هذه النظرية فى عدوانية الحضارة الغربية وتكمن فى عدوانية الحضارة الغربية المشاكل التى سوف تكرس العداء بينها وبين الحضارات الأخرى لاسيما الإسلامية ـ اللهم إلا إذا استطاعت الحضارة الغربية التخلى عن هذه العدوانية والتعامل العادل المستنير مع الآخرين.

إن عامل الموضوعية والحرية فى الحضارة الغربية الحديثة ـ كفيل باجراء هذا التصحيح: (آرنولد توينبى) فى كتابه الموسوعة «دراسة للتاريخ» حَجَّم دور الحضارة الغربية وأشار إلى ضرورة الاعتراف بدور ومكانة الحضارات الأخرى ـ وبعد خمسين عاما مما قاله توينبى قال بروديل فى الستينيات: «المطلوب أن يتحرر الغرب عن النظرة الضيقة لنظرة أوسع أفقاً تفهم النزاعات الثقافية فى العالم وتفهم بعمق التعددية الحضارية فيه».

*** هنالك نظرتان فى الغرب:**

ـ نظرة مستنيرة تدرك أن حضارة الغرب مركبة من جزء تراثى وجزء حداثى ـ وأن الحداثى هذا يمثل رصيدا إنسانياً يمكن للحضارات الأخرى استيعابه بمحض اختيارها وبالطريقة التى تلائمها.

ـ نظرة استعلائية تعتبر الحضارة الغربية الحديثة كلاً متكاملاً شاهداً على تفوق أوروبا الإنسانى وأنه يبرر وصاية الغرب الفكرية والثقافية على الناس كافة.

ـ النظرة الأولى هى الصحيحة والغرب نفسه تعامل مع الحضارة الإسلامية بصورة انتقائية بحيث رفض ما اعتبره عنصرا ذاتياً للحضارة الإسلامية واستصحب الجوانب الإنسانية والموضوعية منها، لكن مع عدالة هذه النظرة فإن للحضارة الغربية نزعة استعلاء وعدوانية سوف تعمل لنفى حقوق الآخرين وبسط الهيمنة الغربية. إذا أدرك قادة الحضارة الغربية ذلك وتجنبوا النزعة الاستعلانية العدوانية واعترفوا بحق الآخرين ـ فإن ذلك سوف يساعد على إجراء حوارات مثمرة ـ ولكن إذا اتخذ قادة الحضارة الغربية مواقف نافية لحقوق الآخرين فإن ذلك سوف يدفع فى طريق الاستقطاب والمواجهات.

الفصل الرابع
عدوانية الحضارة الغربية

كل حضارات الإنسان فى أوج مجدها أظهرت استعلائية على الآخرين. وكل الحضارات المغلوبة أظهرت شعورا بالدونية نحو الحضارة الغالبة وحاولت تقليدها أو نقمت عليها واستعدت لمواجهتها.

الفرق هو أن الحضارة الغربية الحديثة أظهرت درجة أعلى من القوة، والهيمنة والمثابرة والعالمية.

عرفت الإنسانية فى الحقب الماضية ظاهرة التطهير العرقى وعرفت ظاهرة الرق، لكن الحضارة الغربية مارست هاتين الظاهرتين بصورة بشعة لم يعرف الناس لها مثيلاً.

الشعوب الأصيلة فى المناطق التى نزحت إليها بعض الشعوب الأوروبية مثل أمريكا أبيدت. لقد كان مصير الإنسان الأحمر فى أمريكا مصير إبادة.

كما عرفت الإنسانية الرق كنتيجة للأسر وكأرقاء فى الخدمة المنزلية، أما اصطياد الإنسان الأسود وترحيله غرباً عبر الأطلسى بالبشاعة التى حدثت، ثم تسخيره فى عملية التراكم الرأسمالى فإنها ممارسة ابتدعتها الحضارة الغربية.

قال روجيه جارودى: «إن اكتشاف الذهب والفضة فى أمريكا والاسترقاق والاغتصاب ودفن الأهالى الأصليين فى المناجم. وتحويل أفريقيا إلى مستودع تجارى لاصطياد العبيد..، كل ذلك يطبع عصر الإنتاج الرأسمالى الدموى».

علاقة الغرب بالعالم الآخر، انتهت إلى قيام استعمار غربى قهر العالم بآلة عسكرية فتاكة ـ المفارقة الحقيقية هى أن الغرب قد شهد فى دوله نهضة واستنارة ديمقراطية ولكنه فى البلدان التى استعمرها، كان يمارس سياسة قهر واستغلال ويقنع نفسه بهذه الازدواجية، باعتبار أن الشعوب المستعمرة متخلفة، وتحتاج للوصاية الاستعمارية.

وبعد الحرب العالمية الثانية (٣٩ ـ ١٩٤٥) انتهى عهد الاستعمار المباشر، مخلفاً أوضاعا مستعصية على الحل وملتهبة بالنزاعات.

إذا نحن استعرضنا البؤر الملتهبة فى عالم اليوم والتى تغذى بحممها الصدام، لوجدنا أن للغرب دوراً هاما فى تكوينها، فيما يلى استعراض بعض تلك البؤر:

* مسألة فلسطين:

حتى القرن العشرين لم تكن توجد أية مشكلة تذكر بين العرب واليهود، إن الحركة الصهيونية، حركة وجدت وترعرت فى ظروف أوروبا، قد نتج عن مطالب تلك الحركة وعد بلفور ١٩١٧م، ثم تكوين دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، كان إليهود فى فلسطين يشكلون ٣١,٥٪ من السكان عام ١٩٤٨ (وذلك بسبب الهجرة المتزايدة لهم بسبب وعد بلفور، إذ لم تتجاوز نسبتهم ٨٪ فى عام ١٩١٧م والآن فإن إليهود يشكلون ٥٣,٧٪ من سكان فلسطين عامة، ويشكلون حوالى ٧٩,٢٪ من سكان الأراضى المحتلة عام ١٩٤٨م، والتى يطلق عليها اسم إسرائيل دوليا. بينما عرب الأراضى المحتلة من مسلمين ومسيحين يشكلون حوالى ٢٠٪ من السكان، وقد أصبح هؤلاء - وإخوانهم الذين يسكنون فى الضفة الغربية وقطاع غزة - ضحايا التاريخية المأسوية التى حدثت فى إقليم فلسطين فى نصف القرن الماضى.

إن المشكلة تراوح مكانها. والتطلع لحل عادل لها عبر قرار يمر بإرادة الناخبين الإسرائيليين وإرادة الشارع العربى مستحيل، لأنهما يدفعان فى اتجاهين متناقضين، هذا معناه أن التوتر سوف يبقى ويتوالد العنف منه ونتيجة للتحالف الأمريكى مع إسرائيل فإن هذا التوتر والعنف الناتج منه سوف يسمم العلاقات العربية الأمريكية وسوف يتساءل القادة العرب والشعوب العربية: كيف يمكن للغرب أن يكون مخلصاً لقضية الحرية التى يدافع عنها وهو يساند اسرائيل بينما تقهر إسرائيل عرب فلسطين وتحرمهم حقوقهم؟

* مسألة إيران:

فى كتابه «تخاليط القوى» قال: مارك كيوتس الآتى:

«كثير من الأمريكيين لا يعلمون أن الغضب الإيرانى على بريطانيا وأمريكا كان له دور فى إشعال الثورة الإسلامية فى إيران فى ١٩٧٩م، وهو غضب له مبرراته

حتى بالمقاييس الغربية، وقد كان هذا الغضب نتيجة للانقلاب العسكرى فى إيران والذى خططت له وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى عام ١٩٥٣م، وما أعقبه من حكم الشاه الذى اضطهد الشعب الايرانى».

*** مسألة جنوب السودان:**

مسألة جنوب السودان وما كان من أمر سياسة الاستعمار لتطوير الجنوب على أساس مناقض لما فى الشمال، ثم عكس تلك السياسة فى فترة زمانية لم تكف لتكريس الاتجاه الجديد.

*** تركيا:**

تركيا حليف للغرب موال له ضمن حلف «الناتو» وفى مقالة عن الجماعات الإسلامية الراديكالية فى تركيا قال: الأستاذ/ إيلى كارمون: «إن النظام الحاكم فى تركيا طارد المنظمات الصحوية الإسلامية واضطرها لحماية نفسها عن طريق استبدال اسمها وتنظيمها أربع مرات: حزب النظام الوطنى، ثم حزب الإنقاذ الوطنى، ثم حزب الرفاهية ثم حزب الفضيلة» وأضاف قائلاً: «إن الهجوم التركى الأخير على مظاهر العمل السياسى السلمى الإسلامى يمثل قفل الباب أمامها لتعمل داخل النظام العلمانى الحاكم مما يزيد احتمالات العمل الإرهابى».

*** أفغانستان:**

حتى الغزو السوفياتى لأفغانستان كانت المنظمات الإسلامية الأفغانية عديمة النشاط. إن الغزو السوفياتى استفزها ودفع بها للصفوف الأمامية للنشاط السياسى، إن الدعم المالى الخارجى وما حصلت عليه من تسليح مكنها من خوض معركة ناجحة ضد الاحتلال السوفياتى.

ولكن مع ذلك لم تكمن هناك أية تدابير نحو الآتى:

«فى الحقيقة CNN المستقبل، قالت السيدة ـ مادلين أولبرايت لمحطة (سى إن إن) إن الولايات المتحدة تخلت عن أفغانستان بعد انسحاب القوات السوفياتية وتركت فراغاً ـ من عيوبنا أننا نتخلى عما فى أيدينا قبل إنجاز المهمة» هذا الفراغ ملأته طالبان.

* ابن لادن:

فى كتابه الجيد عن ابن لادن وصف الكاتب الأمريكى آدم روبنسون - كيف نشأت ظاهرة العرب الأفغان. وذكر كيف أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، كانت تفضل دعم العرب الأفغان على دعم المقاتلين الأفغان لأنها كانت تعتبر العرب الأفغان أهلاً للثقة ووصف فى كتابه كيف استطاع ابن لادن أن يصبح بطلاً - جيفارا - عربى - ووصف تكوينه لجيش جهادى أممى على نمط الشركات متعددة الجنسيات، هذا كله تحت عيون الوكالة، لا نظام طالبان ولا تنظيم القاعدة صنيعتان لأمريكا، ولكن السياسة الأمريكية خلقت مناخاً مساعداً لهما، وفى ظرف تاريخى معين وشجعتهما.

* جامو وكشمير:

عندما قررت بريطانيا الانسحاب من الهند، احتد الصراع بين الهندوس والمسلمين، وبلغ درجة تقرر معها تقسيم الهند إلى دولتين فى عام ١٩٤٦م. ووضعت قاعدة تضم الولايات للهند أو باكستان حسب ميل أغلبية سكان الولاية، ولاية جامو وكشمير أغلبية سكانها من المسلمين إذ بلغوا ٧٠٪ ولكن ملكها كان هندوسياً، واختار الانضمام للهند. كان ينبغى أن تحل هذه المشكلة وفق أحكام تقسيم الهند ولكن هذا لم يحدث، فبقيت المشكلة مشتعلة مسببة حروباً متصلة بين الدولتين ومسببة خطراً مستمراً على استقرار المنطقة.

* مسألة تايوان:

عندما انهارت السلطة الوطنية فى الصين عام ١٩٥٠م أمام الزحف الشيوعى لجأت حكومة الوطنيين إلى جزيرة فورموزا (تايوان) وبمساعدة غربية أثناء الحرب البادرة كونت دولة فيها. وصارت تايوان من أهم جبهات المواجهة فى الحرب الباردة ومازالت تشكل خطراً مستمراً على السلام والاستقرار فى منطقة المحيط الهادى.

إذا حلت هذه المشكلات السبع حلولاً عادلة فإنها تمهد السبيل لعلاقات ودية بين أطراف النزاع. ولكن إذا استمرت مشتعلة فإنها سوف تسمم العلاقات بين أطراف النزاع فيها.

الفصل الخامس

مسألة النفط

إن ما حدث فى البوسنة وفى كوسوفو يشكل نزاعا بين أصحاب انتماءات حضارية مختلفة. ولكن فى بحر قزوين تحالفت الولايات المتحدة مع ثلاث دول هى:

أذربيجان، وتركيا، وتركمانستان ضد دولتين مسيحيتين هما: روسيا وأرمينيا، لأسباب من أهمها التنافس على الموارد الطبيعية.

*** النفط:**

النفط سلعة استراتيجية تقوم أهميتها على أساسين:

● **الأول**: النفط هو وقود الآلة الحربية. هذه الظاهرة تمكنت منذ الحرب العالمية الأولى - إذ قال لورد كيرزت: «الحلفاء سبحوا للنصر على موجة من النفط».

● **الثانى**: استخدام النفط كسلاح فى حرب ١٩٧٣م. أظهر نقص النفط فى مناطق كثيرة، فأدى ذلك إلى تدنى الإنتاج وحدث كساد اقتصاد عالمى.

النفط: ركيزة للاستقرار الاقتصادى، وهو عنصر هام للأمن القومى للدول الصناعية.

إن توزيع النفط جغرافياً فى العالم، يربط بين الصراع حوله كمورد طبيعى، وبين العلاقات الحضارية.

الدول الأكثر إنتاجاً للنفط فى العالم ١٤ دولة هى:

السعودية - العراق - إيران - الإمارات العربية - الكويت - ليبيا - نيجيريا - أمريكا - روسيا - الصين - فنزويلا - المكسيك - بروناى - بريطانيا - ولكن خمس دول من هذه هى:

السعودية - العراق - إيران - الإمارات - الكويت - تمتلك ثلثى احتياطى النفط فى العالم.

* منطقة الخلية - وهى منطقة إسلامية - مهمة لمعادلة النفط لأمرين هما:

* **الأول**: يتوقع أن يزيد استهلاك العالم للنفط ما بين١٩٩٧م، و٢٠٢٠م بنسبة ٥٥٪ حسب توقعات إدارة الطاقة الأمريكية، الجزء الأهم من هذه الزيادة يتوقع أن يأتى من الخليج.

ففى عام ١٩٩٠م. أشبع الخليج ٢٧٪ من استهلاك النفط فى العالم، ويتوقع أن ترتفع هذه النسبة إلى ٣٩٪ فى عام ٢٠٢٠م.

* **الثانى**: إن احتياطى النفط فى العالم يقع ٦٥٪ منه فى منطقة الخليج، لذلك صارت للمنطقة أهمية استراتيجية خاصة.

قال الرئيس الأمريكى جيمى كارتر: «أية محاولة لدولة أجنبية لعرقلة تدفق النفط من الخليج سوف تمنع بكل الوسائل بما فى ذلك القوة».

وقال الجنرال ج - هـ - بى قائد القوات الأمريكية المركزية: «إن تدفق نفط الخليج دون عائق للمصافى وأماكن التكرير فى العالم هو شريان حياة الاقتصاد العالمى إن الدفاع الأمريكى سوف يحمى هذه المصلحة».

إن أهمية النفط للنزاع الدولى نتيجة مباشرة لحقائق جيولوجية - ولكن منطقة الخليج ليست محايدة حضارياً كتربتها.

أثناء حرب فيتنام اعتمدت الولايات المتحدة على شاه إيران أن يقوم بدور شرطى منطقة الخليج - وفى الفترة ٧٠ - ١٩٧٨م بيع لإيران سلاح متطور جداً بلغت قيمته ٢٠ مليار دولار حقيقة وصفها النائب الأمريكى - جيرى ستدز (نائب عن ماساشيوسيتى) «بأنها أكبر كمية للقوة العسكرية فى التاريخ فى غير ظروف الحرب» هذا الإجراء كان فى نظر القوى السياسية سلاحاً قوياً فى مواجهة عدو خارجى. ولكنه كان معيباً فى نظر القوى الداخلية فاعتبرته دليلاً على تغريب الثروة الوطنية وعلى التبعية للغرب، فكانت هذه المواقف من أهم مسببات الثورة الإسلامية فى إيران.

بعد سقوط الشاه اتخذت أمريكا أسلوباً آخر للدفاع عن مصالحها فى المنطقة، يقوم على تكوين وجود بحرى كبير فى مياه الشرق الأوسط - وإعداد قوة

انتشار سريعة ـ واتخاذ قواعد عسكرية فى المنطقة ـ وتسليح دول المنطقة ـ واتخذت الولايات المتحدة خطأ واضحاً لاحتواء الدولتين اللتين تتحديان الوجود الأمريكى فى المنطقة وهما إيران والعراق.

ولكن الوجود الأمريكى فى المنطقة أثار ضده معارضة واسعة فى دول المنطقة الأخرى، معارضة بلغت درجة إعلان الجهاد لإزالته.

المعارضة للوجود الأمريكى فى الخليج تزداد مع زيادة التوتر فى الشرق الأوسط.

قال: الجنرال بى: «الانسحاب من المنطقة ليس خياراً وارداً» ويقول كثير من المعارضين فى المنطقة: البقاء الأمريكى الحالى فى المنطقة ليس خياراً مقبولاً. إن النفط يشكل عنصراً هاماً فى علاقات الحضارات.

الفصل السادس

علاقات الجنوب والشمال

أغلبية دول شمال العالم الغنية مادياً القوية عسكرياً منتمية للحضارة الغربية وأغلبية دول جنوب العالم الفقيرة مادياً الضعيفة عسكرياً منتمية للحضارات الأخرى، بما فيها الحضارة الإسلامية.

ومع أن دول الشمال يسكنها ٢٠٪ من سكان العالم فإنها تحوز على ٨٠٪ من الدخل المادى والنسبة معكوسة لسكان جنوب العالم.

هذا التوزيع غير المتوازن بين الحجم السكانى والكسب المادى يشكل سبباً لنزاع حول المصالح يرتبط بعلاقات الحضارات؛ لأن الحضارة الغربية حائزة على نصيب الأسد.

بعد انقضاء عقدة الثمانينات نشرت لجنة الجنوب تقريراً عن إخفاق برامج التنمية فى دول الجنوب وأحصت أسباباً داخلية ذاتية وأخرى خارجية. وذكرت كيف أن العلاقات بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة غير متكافئة فى كل المجالات لا سيما فى مجال أسعار التبادل بين المنتجات الخام والسلع المصنعة. وتراكمت على دول الجنوب الديون وعجزت عن سدادها، وصار ما تدفعه خدمة لهذه الديون أكبر من تدفق الأموال من الشمال للجنوب ـ هكذا حدثت أزمة لها أسباب داخلية وأخرى خارجية. وشجبت اللجنة الدول الغنية بشدة، على أنها قاومت أمرين هامين لإعادة الأمل فى تنمية دول الجنوب هما:

ـ ضرورة التزام الأسرة الدولية بالتنمية فى العالم الفقيره.

ـ ضرورة التعامل جماعياً مع أزمة الدين الخارجى.

إن عالم اليوم يقوم على هياكل ونظم تكفل هيمنة الغرب على العالم هى:

● اقتصادياً: العملة والنظام النقدى، والبنك الدولى وصندوق النقد الدولى والشركات متعددة الجنسيات (اسميا لكنها فى الواقع غربية) والنظام التجارى العالمى.

● دبلوماسيا: آلية العضوية الدائمة فى مجلس الأمن وما توفر لأصحابها من صلاحيات وحق النقض.

• عسكريا: التفوق الحاسم ـ لحلف ناتو وتكوين النادى النووى والتعامل مع انتشار أسلحة الدمار الشامل بمنطق الوصاية.

ـ أجهزة العالم الإعلامية والرياضية والفنية غربية الرموز والقيادة والسياسات.

هناك أسباب عديدة توجب على الغرب صاحب القدح المعلى فى هذا المجال أن يتعامل مع أزمة التنمية فى دول الجنوب بصورة مستنيرة هى:

• أسباب سياسية: هى استحالة حصر مشاكل الجنوب فى الجنوب، فإن تأزمت أحواله طفحت على أنحاء العالم الأخرى.

• أسباب اقتصادية: هى أن التنمية تتيح فرصاً لرؤوس الأموال فى الشمال وتتيح أسواقاً لمنتجاته.

• أسباب أيكولوجية: تنطلق من وحدة البيئة العالمية وتوجب رؤية موحدة.

• أسباب أخلاقية: هى مذمة تجاوز الرضاء والحرمان فى مسرح بشرى واحد.

ـ أوصت لجنة الجنوب بطائفة من التوصيات لدعم التنمية فى العالم الفقير واحتواء أزمة الدين الخارجى أهمها:

ـ التمويل الميسر للتنمية فى دول الجنوب.

ـ فتح أسواق الشمال لمنتجات الجنوب.

ـ احتواء أزمة الدين الخارجى وإيقاف تدفق الأموال من البلاد الفقيرة للبلاد الغنية.

ـ إيجاد وسائل لحماية دول الجنوب من تقلبات أسعار المواد الخام.

ـ اتخاذ إجراءات للبيئة الصالحة.

نعم إن الإصلاحات الخارجية لن تجد ما لم تصحبها إصلاحات داخلية فى دول الجنوب تحقق الحكم الصالح والاقتصاد الذى يقوم على سياسات كلية صحيحة والسلام والاستقرار والإدارة النزيهة.

ولكن ما لم تتخذ الدول الغربية سياسات كالمذكورة هنا، فإن فجوة التنمية والثروة والدخل سوف تخلق مناخاً مشجعاً لصدام الحضارات، ومانعاً لما ينبغى أن ينشأ بينهما من حوار بناء.

لقد كانت الحرب الباردة سبباً هاماً فى تدفق أموال تنموية من الشمال إلى الجنوب، فقد استعمل المعسكران المساعدات التنموية وسيلة لكسب التأييد، ومع انحسار الحرب الباردة انحسرت هذه المساعدات إلا قليلاً. وصارت الدول الغنية، تقول إن عصر العولمة قد جاء ومعه جاء التحرر الاقتصادى والسوق G7 المساه العالمى الحر. وجاءت الخصخصة التى تجعل القرارات الاستثمارية فى يد الأفراد والشركات وما على العالم الفقير إلا تأهيل نفسه لجذب هذه الاستثمارات إليه وتحقيق التنمية.

إن التوقع الأكثر احتمالاً هو أن العولمة سوف تخلق (فجوة العولمة) أى فجوة المسافة بين الفقراء وأغنياء العالم التى زادتها العولمة (للعوامل المذكورة التى صاحبتها) اتساعاً ينمو بعجلة متسارعة، ويساهم فى تكريس المظالم الاقتصادية العالمية.

لقد تكونت لدى كثير من مواطنى ودول الأقطار المصدرة للبترول أموال هائلة. هذه الأموال حرصت الدول الغنية على جذبها إليها عن طريق مشتروات مواطنى ودول الأقطار المصدرة، فقفزت فاتورات شراء المواد الاستهلاكية والمواد الغذائية والبضائع الرأسمالية والأسلحة بصورة غير مسبوقة، واتجه مواطنو ودول الأقطار المصدرة للبترول للاستثمار فى الغرب.

ففى أمريكا تقدر الاستثمارات العربية بما يساوى تريليون دولار. هذا المبلغ يسبب تدفقاً مضاعفاً للعمليات الاستثمارية والاستهلاكية ويكتسب عائداً لايقل عن ٢٠٪ هذا يعنى أن المال العربى يساهم بنسبة محترمة فى الاقتصاد الأمريكى، هذه الحقيقة تدخل ضمن العلاقات الأمريكية العربية، وتظهر مفارقة كبيرة عندما يتضح أن الاقتصاد الأمريكى هو كفيل الاقتصادى الإسرائيلى وإسرائيل هى جلاد العرب!! إن العولمة سوف تزيد من هذه الظاهرة.

الفصل السابع

العولمـة

الحضارة الغربية طفرت بنفسها، وأبطلت مفاهيم ونظم العالم القديم بالحداثة منذ التسعينات. حتى الآن تضافرت مجموعة من العوامل لتخلق ظاهرة العولمة.

العالم اليوم أكثر إحساساً بالتجاور بين سكانه وزوال الاستقطاب الذى فرضته الحرب الباردة، شجع ذلك على انطلاق أنشطة عالمية البرامج والمقاصد. هناك أصول مشتركة بين كل سكان الأرض كالمحيطات والفضاء والغلاف الجوى والقطبين، هذه المملوكات المشتركة، أوجبت قوانين جديدة وآليات للتعامل معها.

وهناك قضايا لايمكن التعامل معها إلا من تصورات مشتركة وسياسات وبرامج مشتركة، لذلك توالت المؤتمرات العالمية بشأن البيئة ١٩٩٢م ـ وبشأن العالم ١٩٩٥م، وبشأن المرأة سلسلة مؤتمرات كان آخرها ١٩٩٨، وبشأن المسائل الاجتماعية ١٩٩٦م.

أما مسائل العولمة وما ارتبط بها من مظاهر فهناك عولمة صنعتها ثورة المعلومات والاتصالات والمواصلات والتى صحبت انتصار آلية السوق الحر كأفضل آلية للنشاط الاقتصادى، فأدى ذلك إلى تحويل المعاملات التجارية والمالية والاستثمارية إلى أنشطة فى خدمة سوق عالمى واحد.

هذه العولمة مكنت أصحاب السندات والأسهم وطلاب الصفقات التجارية من الانتقال عبر وسائل الاتصال الالكترونى بسرعة البرق على نطاق العالم، كما مكنت الشركات متعددة الجنسيات وهى شركات تتبع لمواطنى الدول الغنية من توزيع عملياتها على نطاق عالمى ومن نقل خيارتها الاستثمارية إلى حيث المناخ الاقتصادى الأكثر ربحية.

هذه العولمة لا تجرى فى عالم محايد، بل فى عالم يهيمن عليه الغرب ـ فالنظام المصرفى العالمى بيده، وعملات العالم غربية والقوة الشرائية الأكبر كذلك والإنتاجية الأكبر فيه والقدرات العسكرية الأغلب فيه وهو يسيطر على وسائل الاتصالات والمواصلات والبحث العلمى والفضاء والطيران ووسائل الإعلام.

إن العولمة والتحرر الاقتصادى فى عالم مشوه اقتصاديا وماليأ وتجارياً، سوف تؤدى حتماً لمكافأة الأغنى واستنزاف الأفقر؛ مما يؤدى لتهميش الجنوب أكثر مما هو مهمش الآن.

إن ظاهرة الرأسمالية المتوحشة التى يدفعها الربح وحده والتى ترتبط بالعمولة سوف تؤثر سلباً على دولة الرعاية الاجتماعية فى الدول الغنية نفسها، تؤثر عليها لأنها توجب تخلى الدولة عن برامج الرعاية الاجتماعية، ويتوقع أن تؤثر وسائل الإنتاج الحديث سلباً على توظيف الأيدى العاملة. لذلك ينتظر أن تؤثر العولمة سلباً على السلام الاجتماعى فى البلدان نفسها لأن المجتمع الحر الذى يعجز عن مساعدة الفقراء من مواطنيه، سوف يعجز عن حماية الأغنياء منهم. لذلك شهدنا ونشهد سلسلة المظاهرات التى تقودها النقابات وجماعات سلامة البيئة، فى كل عواصم العالم الغنى، لا سيما لدى انعقاد اجتماعات دولية ذات طابع اقتصادى، سلسلة أشهرها عالمياً ما حدث فى سياتل بحيث يمكن وصف هذا الاحتجاج بأنه احتجاج سياتل.

أما بالنسبة للعالم الفقير فإن العولمة يتوقع أن تحقق السلبيات الآتية:

- **أولاً**: الرأسمالية الثقافية التى تندفع بها العولمة يمكن أن تنقل النشاط المالى والاستثمارى من مكان لمكان فى لمح البصر، مما يعرض النظم الاقتصادية الهشة للانهيار كما حدث فى جنوب شرق آسيا، واضطرت ماليزيا لمواجهته بإجراءات مضادة للعولمة.

- **ثانيا**: منطق العولمة سوف يدعو لمزيد من التخلى للتنمية ـ حوار الشمال والجنوب ـ لجنة برانت ـ والتى أوجبت التزاماً فى العالم الفقير، واقترحت إجراءات عديدة لتنفيذ ذلك. هذا إذا تحقق معناه تعريض عالم الجنوب لمزيد من التهميش.

- **ثالثاً**: ثورة المعلومات وطفرة وسائل الاتصال، أتاحت فرصة هائلة لعولمة ثقافة التسلية الأمريكية وهى ثقافة رائجة بالغناء الصاخب والرقص المستهتر والمشروبات الفوارة والمأكولات المحمولة، والملابس المدهشة والألعاب المثيرة، مقترنة

بسلوك الاستلاب واللامبالاة. ثقافة التسلية هذه اذ تنتشر فى العالم تشكل استفزازاً ثقافياً للآخرين ورغبة لديهم فى التصدى لها كآخر حلقات الغزو الثقافى.

العولمة وما صاحبها من رأسمالية متوحشة وثقافة تسلية تمثل تحدياً لكل حضارات العالم وهى مسئولة بصورة ما عن انطلاق ظاهرة الأصولية فى كل الأديان ولكنها ـ أى العولمة ـ ظاهرة اقترنت بالغرب وبأمريكا وهى أكثر المنتفعين بها، لذلك اتخذت ردود الفعل على العولمة طابعاً مضاداً للغرب عامة ولأمريكا خاصة، لدى كافة الحضارات الأخرى لاسيما الحضارة الإسلامية.

إذا تركت العولمة لمنطق السوق الحر والتنافس المطلق فإن واقع العالم الحالى سوف يجعلها عاملاً آخر من عوامل التنافس بين الحضارات. اللهم إلا إذا أمكن تدارك الموقف لترشيد العولمة ضمن تصور يميل نحو الوفاق الحضارى.

الفصل الثامن

العلاقات بين الحضارات فى المستقبل المرئى

تحدثنا عن الحضارة الغربية الحديثة. ولكن على ضوء تطورات كثيرة أعقبت نهاية الحرب الباردة، تكونت ظاهرة جديدة جعلت الولايات المتحدة تمثل فرعاً ذا صفات مميزة فى الحضارة الغربية بحيث ينبغى أن نتحدث عن الحضارة الغربية الأمريكية.

إن نتائج الحرب الباردة ودور الولايات المتحدة البارز فيها، وكيفية إدارة حرب الخليج الثانية، وكيفية التعامل مع أزمة الشرق الأوسط وإدارة الحرب ضد الإرهاب، وغيرها من الحقائق تؤكد أن الولايات المتحدة تمثل قطباً حضارياً وسياسياً منفرداً. وعلى تصرفاته يتوقف مستقبل العلاقات بين الحضارات منذ نهاية الحرب الباردة صار واضحاً أن العالم يتطلع لنظام عالمى جديد، هذا النظام سوف تقوم الولايات المتحدة بالدور الأكبر فى بنائه.

الأوضاع الدولية الراهنة قابلة لعدة صياغات ولكن هناك خيارات أمام الولايات المتحدة الخيار الأبسط والأسهل هو أن تنطلق من تفوقها الحالى فى المجالات المختلفة، أى نظام أمريكى للعالم وفيه مهما كانت Pax Americana وتقيم نظاماً يوصف بأنه العلاقات الشكلية تقوم الولايات المتحدة بدور شرطى العالم.

والخيار الثانى هو أن تلجم الولايات المتحدة نفسها وتدرك حقائق العالم وتسعى لتشجيع كل الحوارات البناءة: حوارات الأديان، وحوارات الحضارات والحوارات الإقليمية سعياً وراء إصلاحات أساسية للنظام الدولى الحالى وإقامة نظام عالمى أعدل وأفضل.

يقول: زبيقنيو برزينسكى فى محاضرة عن أمريكا والعالم اليوم. «ليس أمام الولايات المتحدة خيار، عليها أن تقود العالم». إن صح هذا التوجه علينا أن ندقق فى معانيه.

* **أولاً**: إن بين أمريكا وغرب أوروبا الآن بوناً شاسعاً فى قضايا أساسية فأمريكا أكثر تديناً من أوروبا. وأمريكا أكثر تأثراً بالمثاليات فى سياساتها سواء

كانت مثاليات صائبة أم خاطئة. وأمريكا أسرع احتكاماً للمعالجات الجراحية. وأمريكا لا تتردد فى الاندفاع نحو معالجات أحادية، وقد أظهرت ذلك بصورة أوضح منذ نهاية الحرب الباردة فى حرب البوسنة، وفى مشكلة الشرق الأوسط وفى الحملة العالمية التى قادتها ضد الإرهاب وغيرها من القضايا.

إذا واصلت الولايات المتحدة هذا النهج فإنها سوف تتنافس مع دول الغرب الأخرى لاسيما الاتحاد الأوروبى والاتحاد الروسى... وقد ظهرت علامات التنافس واضحة فى تعامل أمريكا مع روسيا فى موضوع تمدد حلف ناتو شرقاً وفى موضوع نفط بحر قزوين، وفى موضوعات أمن الشرق الأوسط وأمن الخليج، وكلها مجالات تغافلت فيها أمريكا دور روسيا.

وهنالك صراع خفى بين الولايات المتحدة واليابان، صراع حول مسلك اليابان الاقتصادى والتجارى، وحول دور اليابان فى المجالات الاستراتيجية الواسعة.

وهنالك تيارات فى اليابان معادية للولايات المتحدة، قال البرلمانى اليابانى المعروف سنتاور أشيها: «لا أمل فى المستقبل للولايات المتحدة. إن الحضارة الحديثة التى شيدها البيضان تقارب نهايتها».

وهناك الصراع الأمريكى الصينى حول سياسات منطقة المحيط الهادى، وظهور الصين الدولة الأعظم فى المنطقة واتجاه أمريكا للحيلولة دون ذلك، والنزاع بينهما حول طائفة من القضايا الساخنة، مثل الموقف من تايوان، ومن كوريا الجنوبية، وقضايا انتشار أسلحة الدمار الشامل. وحتى فى أقرب المناطق التصاقاً بالسياسية الأمريكية ـ أعنى أمريكا اللاتينية ـ فإن الدور الأمريكى سوف يواجه مشاكل مثلما حدث فى انقلاب فنزويلا الأخير الذى باركته الولايات المتحدة وأسقطه الشعب الفنزويلى.

هذا النهج سوف يضع النظم الصديقة لأمريكا أمام تناقض حاد مع شعوبها، تناقض ينخر فى شرعيتها ويمهد للإطاحة بها ـ حتى إذا استبعدنا الحضارة الإسلامية فإن الحضارة الغربية الأمريكية ستجد نفسها وهى فى دور قيادى عالمى محتاجة لقرار هل توجه الدور نحو الهيمنة وشرطية العالم أم نحو نظام عالمى أعدل وأفضل؟.

قال صمويل هنتنجتون فى عدد أكتوبر ١٩٩٧م من مجلة الديمقراطية: «لقد انتهى عهد الكومنترن ـ أى الشيوعية العالمية ـ وبزغ عهد الدمنترن ـ أى عهد الديمقراطية العالمية». أى أن تقود الولايات المتحدة الديمقراطية فى العالم.

هنالك ثلاثة سيناريوهات للدور الأمريكى فى العالم هى:

١ ـ أن تنفرد بدور قيادى كشرطى للعالم.

٢ ـ أن تصبح رقماً مهماً فى توازن عالمى جديد تقف معه قوى عالمية معينة وتقف ضده قوى عالمية أخرى.

٣ ـ أن تقوم بدور قيادى مثل ما فعلت فى الحرب العالمية الأولى (١٤ ـ ١٩١٨م) لقيام نظام عالمى جديد أعدل وأفضل يفوق النظام العالمى الذى أعقب الحرب العالمية الثانية (٣٩ ـ ١٩٤٥م) بمثل ما تفوق النظام الذى أعقب الحرب العالمية الثانية نظام عصبة الأمم.

الفصل التاسع

الإسلام والغرب عامة وأمريكا خاصة

بعض الكتَّاب - لحاجة فى نفس يعقوب وعلى رأسهم برنارد لويس فى كتابه «الغضب الإسلامى» - يصفون تعامل الإسلام مع الغرب باللاعقلانية، بأنه مشحون بالعداء والبغضاء دون أسباب موضوعية، وعلى نفس المنوال كتب يوسف بودانسكى - فى كتابه «أمريكا هى الهدف» قال: إن الإسلام دين عنف وهو صنو الإرهاب وغضب الإسلام موجه ضد أمريكا.

عدد من الكتاب اليهود - مثل هذين الكاتبين - يروجون لهذا التفسير لموقف المسلمين من أمريكا، لأنهم يريدون إقناع الرأى العام الغربى بأن عداوة الإسلام والمسلمين للغرب عداوة دفينة وغير عقلانية ولا صلة لها بمظالم معينة مثل قيام إسرائيل - بل إسرائيل نفسها - لأنها تمثل الحضارة الغربية الحديثة - ضحية لهذا العداء الأعمى، وهى مع الغرب فى خندق واحد هدف للعنف الإسلامى اللاعقلانى - آخرون يرون أن الإسلام يمثل أكثر الحضارات الأخرى عصياناً لإرادة الغرب؛ لذلك يمثل هدفاً بديلاً للدفاع الغربى بعد سقوط الاتحاد السوفيتى. هذا ما قاله أمين عام الناتو فى عام ١٩٩٢ وربما وجد آخرون فى مواجهة الإسلام وسيلة لتعزيز الهوية الأوروبية. قال بارى بوزان: «إن قيام حرب حضارية ضد الإسلام - يدعم الهوية الأوروبية فى ظروف تكوين الاتحاد الأوروبى وهو أمر يرحب به كثيرون - هذه الآراء تنكأ جروحاً تاريخية وصوراً مشوهة للإسلام فى المخيلة الغربية تتحدث عن الإسلام باعتباره ديانة كاذبة - وعن انتشار الإسلام بأنه تحقق بحد السيف - إنها آراء فاسدة تعرض لها وأبطلها كثير من الكتاب الغربيين - لا أعنى الذين أسلموا منهم - بل الذين لم يسلموا - قال «منتجمرى واط» فى مقدمة كتابه عن «محمد النبى ورجل الدولة» إن افتراض أن محمداً كاذب - افتراض غير معقول» وأوضح «توامس أرنولد» فى كتابه «الدعوة للإسلام» أن الإسلام انتشر بوسائل سلمية وفى الظروف الراهنة أوضح الجون اسبوزيتو» فى كتابه «الخطر الإسلامى وهم أم حقيقة» «إن الإسلام دين تسامح واعتدال».

عندما أزمع الحلفاء إبرام اتفاقية فرساى بعد الحرب العالمية الأولى ـ وعلم «جان سمتس» بمحتوياتها ـ قال «للويد جورج رئيس وزراء بريطانيا: «إن اتفاقية مثل هذه سوف تؤدى لحرب أخرى بعد جيل من الزمان» واقتنع لويد جورج بالحجة وكتب مذكرة لزملائه قال فيها: «إن الغرور والظلم الذى يصحب انتصارنا ـ لن ينسى وسوف تكون له عواقب وخيمة» ـ هذه المذكرة تسربت وثار ضدها ٢٠٠ من نواب البرلمان البريطانى ووقف إلى جانبها اللورد **نور تكليف** صاحب جريدة التايمز وأنذروا لويد جورج فى برقية نشرتها التايمز فوراً جاء فيها: «إننا نعارض أية محاولة لتخفيف شروط السلام» فتراجع لويد جورج وصدرت اتفاقية فرساى بنصوصها المجحفة فكانت البذرة الأولى التى أفرخت النازية فى الحرب العالمية الثانية ـ إن غرور المنتصرين الفائق وظلم المهزومين المبالغ فيه ـ ولد الإحساس بالإهانة والإذلال ومهد للنازية ـ إن معاملات الغرب للعرب والمسلمين سلسلة من اتفاقيات فرساى فهل يستغرب أنها فرخت شعوراً عدائياً!!.

القضية ليست قضية دينية بل قضية سياسية: العالم الإسلامى تجتاحه مشاعر مشروعة بالظلم والإهانة ـ نعم ـ دخل العنصر الدينى والحضارى فى الموضوع لأن المظلومين فى الغالب مسلمون وينتمون للحضارة الإسلامية ولأن الظلمة فى الغالب ينتمون للحضارة الغربية ـ الإسلام دين اعتدال وتسامح والجهاد فيه نوع من الرهبانية مشحون بمفاهيم تربوية وروحية وأخلاقية وهذا هو الجهاد الأكبر جهاد النفس وهو جهاد مدنى بالمال والكلمة والتعبئة والمثابرة لإعلاء كلمة الله. ولا يعتبر مثالياً إلا اتقاء فتنة (أى كفالة حرية العقيدة) أو دفاعاً عن النفس ـ بينت كيف أن القتال فى الإسلام دفاعى «لقد شرحت بالتفصيل هذا الأمر فى كتابى «جدلية الأصل والعصر» **﴿أُذِنَ للذين يُقَاتَلُون بأنهم ظُلِمُوا وإن الله على نصرهم لقدير﴾** ومبادىء الإسلام التسامحية واضحة: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾** وأيضاً **﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾** ـ نعم هنالك ظروف سياسية معينة جعلت قادة وكتاب ودعاة مسلمين يتخذون

مواقف سياسية متشددة ويصورونها تفسيراً لنصوص إسلامية - إن الإسلام أقوى محرك للمجتمع ولاتبرح المذاهب السياسية تحاول دعم مشروعيتها بمظلة الإسلام تماماً مثلما دعمت الحركة الصهيونية نهجها بمظلة يهودية - والحركة الصليبية دعمت نهجها بمظلة مسيحية - إن الغلو الذى اندفعت فيه بعض التيارات الإسلامية فى وقتنا الحاضر - يعود للأسباب السبعة الآتية:

١ - الحرمان السياسى: ضيق قنوات المشاركة السياسية والاحتجاج.

٢ - الفقر والتوزيع غير العادل للثروة والدخل - والاحتجاج على الحرمان الاقتصادى.

٣ - الاستلاب الفكرى والثقافى والاحتجاج عليها.

٤ - الاحتجاج على الهيمنة الدولية ودعم الغرب وأمريكا السافر لإسرائيل ومساندتها فى عدوانها وانتهاكاتها لحقوق الشعب الفلسطينى.

٥ - الفهم المنكفىء للنصوص الدينية مما أدى إلى الاندفاع نحو تطبيقها دون مراعاة لتغيرات الزمان والمكان.

٦ - الفهم العدوانى لأحكام الجهاد الذى قالت به فرق إسلامية فى ظروف تاريخية معينة.

٧ - غياب برامج أخرى تخاطب التطلعات للتأصيل وغياب حركات أخرى تنظم المقاومة والاحتجاج.

النتيجة:

كل تطلع للتأصيل الإسلامى لا يراعى اختلافات ظروف الزمان والمكان - إنما هو طالبانية - وكل فهم عدوانى للجهاد - إنما هو قاعدية (مشتق من تنظيم القاعدة).

الفصل العاشر

الأقليات الإسلامية فى عالم اليوم

لا يخفى أثر حال الأقليات الإسلامية التى تعايش حضارات أخرى على مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات المعنية. فى العالم اليوم (٦) ستة مليارات من البشر - ملياران من هؤلاء مسلمون أى ثلث العالم - حوالى ١,٢ مليون منهم يقطنون دول العالم الإسلامى - أى ٢٢٪ من سكان العالم والبقية حوالى ثلث المسلمين يعيشون كأقليات مع أغلبيات دينية وثقافية مغايرة. هؤلاء يعيشون فى كل أنحاء العالم وأهمها أربع مناطق: آسيا - أوروبا - أمريكا - أفريقيا.

خرطية الأقليات الإسلامية:

١ - الأقليات الإسلامية فى آسيا:

* **الهند** - سكانها مليار وزيادة - المسلمون يشكلون ١٤٪ أى (١٤٠) مليون - الثقافة الهندوسية مرتبطة بالدين ومتعصبة ولديها مع المسلمين ثارات تاريخية لذلك تعددت وجوه النزاع فى الهند مما أدى لأحداث آسام فى ١٩٨٤م وهدم مسجد البابرى فى أيوديا فى عام ١٩٩٢م وغيرها.

* **مشكلة جامو وكشمير**: هذه المنطقة سكانها ١٢ مليون و٧٠٪ منهم مسلمون والباقون هندوس وسيخ، وحسب قاعدة تقسيم الهند كان ينبغى أن تضم المنطقة لباكستان، ولكن ملكها كان هندوسيا فاختار الانضمام للهند. مشكلة جامو وكشمير استعصت على الأمم المتحدة، وما اتخذته الأمم المتحدة من قرارات لم ينفذ، وسببت المشكلة ثلاثة حروب بين الهند وباكستان، فاستحكم العداء بينهما حتى امتلكتا السلاح النووى - إن مشكلة جامو وكشمير ومعاملة الأقلية المسلمة فى الهند سوف تؤثر على العلاقة بين العالم الإسلامى والهند سلباً أو إيجاباً.

* **الصين:**

ثانى أكبر أقلية إسلامية فى آسيا تسكن فى الصين - سكان الصين ١,٢ مليار من البشر ١١٪ منهم مسلمون - أى (١٣٠ مليون) المسلمون فى الصين ينتمون إلى ثلاث مجموعات إثنية: صينية - تركية - اثنيات أخرى.

أقليم تركستان الشرقية الذى يضم الإثنية التركية ٧١٪ من السكان مسلمون ـ هذا الإقليم وسمى سينغانغ أو يغور ينتج ٨٠٪ من حاجة الصين النفطية ـ وقد ضم للصين مؤخراً عام ١٩٤٩م وفيه الآن مقاومة مسلحة للسلطات الصينية.

*** الفلبين:**

سكان الفلبين ٨١ مليون المسلمون منهم ٦ مليون. الجزر الشمالية احتلتها أسبانيا منذ القرن السادس عشر. أسبانيا والتعصب الكاثوليكى الذى طرد المسلمين من الأندلس وجعل الفلبين الدولة الوحيدة المسيحية فى آسيا. دخل الإسلام الجزر الجنوبية لما يعرف بالفلبين اليوم فى عام ١٣١٠م وقد كانت تلك الجزر مستقلة تاريخيا عن أجزاء الفلبين الشمالية ـ وفى عام ١٨٩٩ احتلت الولايات المتحدة الفلبين وقبل منحها الاستقلال فى عام ١٩٤٦ ضمت الجنوب للشمال ـ ومنذ عام ١٩٧٢ تكونت جبهة تحرير المورو التى انقسمت فى ١٩٧٧ وتفرعت منها الجبهة الإسلامية لتحرير مورو ـ ثم تكونت فى عام ١٩٩١ جماعة أبو سياف.

*** بورما:**

السكان (٤٢) مليون ٤٪ منهم مسلمون وهم مركزون فى إقليم أراكان ويعانون اضطهاداً سياسياً واقتصادياً ودينياً يقاومونه.

*** إسرائيل:**

الصهيونية أقامت دولة إسرائيل فى ١٩٤٨م وفرضت على أهل فلسطين ـ كما قال توينبى كل ما عاناه اليهود على يد النازية من بطش. عرب فلسطين هم ٨٤٪ مسلمون و١٦٪ مسيحيون ـ يعيش مليون منهم فى إسرائيل ومليونان فى الضفة والقطاع وما بين مليونين وثلاثة لاجئين.

٢ ـ الأقليات الإسلامية فى أفريقيا:

دخل الإسلام أفريقيا مبكراً إذ كانت الهجرة الأولى للحبشة. سواحل أريتريا وسواحل الصومال كانت البوابات الشرقية التى عبرها الإسلام لأفريقيا ودخل الإسلام أفريقيا على بوابات غربية عن طريق شمال أفريقيا ـ المسلمون فى

أفريقيا السوداء سواء كانوا أغلبيات أو أقليات عانوا اضطهاداً واسعاً على يد الاستعمار الأوروبى الذى عزلهم من أصولهم الحضارية وكذلك فعلت الامبراطورية الحبشية من القرن الأفريقى. الاستعمار الأؤروبى مارس السياسات الآتية من أفريقيا السوداء:

١ ـ استغلال تام ومبرمج.

٢ ـ استرقاق بصورة غير مسبوقة لنقل العبيد للعالم الجديد عبر المحيط الأطلسى.

٣ ـ التنصير والاستلاب الثقافى لفرض ثقافة مغايرة استجابة لما سموه «رسالة الرجل الأبيض».

٤ ـ محاصرة المسلمين وعزلهم.

المسلمون فى أفريقيا السوداء يشكلون أغلبيات فى غرب أفريقيا وأقليات فى شرقها ووسطها وجنوبها ولكن المسلمين حيثما هم أغلبيات أو أقليات مهمشون تماماً فى هياكل الدول وفى كوادر الحكم حتى بعد رحيل الاستعمار ـ إن أوضاع المسلمين جنوب الصحراء إذا لم تصحح بصورة فعالة ـ فإنها سوف تنفجر مثلما هو الحال فى آسيا ولكن بصورة أقوى.

٣ ـ الأقليات الإسلامية فى أوروبا:

(أ) أوروبا الشرقية:

منطقة البلقان: كانت جزءاً من السلطنة العثمانية التى دامت (٥٠٠) سنة ـ نتيجة لدخول الإسلام تكونت جماعات وطنية مسلمة فى البوسنة ـ ألبانيا ـ مقدونيا ـ الجبل الأسود ـ اليونان وغيرها ـ بعد نهاية الحكم العثمانى قامت دول قومية وفيما عدا ألبانيا كان المسلمون أقليات فى دولهم وصاروا يعانون من اضطهاد أرثوذكسى مسيحى ـ ثم اضطهاد شيوعى بعد الحرب العالمية الأولى إلى حين نهاية الحرب الباردة ـ وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى وانهيار الاتحاد اليوغسلافى ـ انفجرت فى (١٩٩١ ـ ١٩٩٧) النزاعات الدينية والعرقية فى المنطقة ـ المسلمون فى البوسنة والهرسك وكوسوفو حققوا أوضاعاً جديدة فى ظل اتفاقيات بإشراف دولى. ولكن تبقى مشاكل الأقليات الإسلامية الأخرى فى شرق أوروبا.

الاتحاد الروسى: يوجد مسلمون أصليون فى شمال القوقاز وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى نشأت حركة تحرير داغستان والشيشان والهدف هو تحرير شمال القوقاز المسلم من روسيا.

(ب) الأقليات الإسلامية فى أوروبا الغربية:

الأقليات الإسلامية فى أوروبا الغربية - غالبا مهاجرة - ويوجد الآن ما بين ١٠ - ٢٠ مليون مسلم فى أوروبا الغربية، وهؤلاء هاجروا للغرب فراراً من القهر والفقر والانفجار السكانى فى بلدانهم وقد صادفوا حاجة أوروبية للأيدى العاملة - هذه حركة عامة من عالم الجنوب إلى أوروبا ولكن منذ عام ١٩٩٠ صار ثلثا المهاجرين من المسلمين.لقد وجد المسلمون مجتمعات أوروبا الغربية مجتمعات جذابة لتوافر الحريات العامة والرعاية الاجتماعية وفرص تكوين التنظيمات الدينية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، كذلك كون المسلمون فى مجتمعات أوروبا الغربية منظمات مجتمع مدنى قوية وفعالة، ولأسباب مختلفة أفرزت ظاهرة الهجرة هذه عوامل استغلها اليمين المتطرف وعبرها برز لاحتلال مراكز سياسية فى دول أوروبا الغربية للتمدد فى بناء المساجد وتكوينات المجتمع المدنى إلى جانب هؤلاء نمت أمة الإسلام وهى ظاهرة أفرزتها الظروف الأمريكية - فالاضطهاد اللونى والعرقى والحرمان الاجتماعى والتاريخ الحزين مكن مؤسس أمة الإسلام من فارد فى ١٩٣٠ إلى أليجا محمد بعده - من إقامة كيان استقطب قاعدة عريضة من السود فى أمريكا. ثم اتجه (ولاس) الابن الخليفة لأليجا محمد - من تعديل وجهة الكيان فى اتجاه الإسلام الصحيح - هذا وأعطاه صياغة فكرية وشعبية، ويقوده الابن (لوس فاركان) بصورة تتماشى مع جوهر تعاليم الإسلام، ولكن بمفاهيم ورموز خاصة بحياة ومطالب السود فى أمريكا، انه تعبير إسلامى يخاطب حاجة السود لرد الاعتبار وشكواهم من الفقر والحرمان والانغماس فى الرذيلة فى المجتمع الأمريكى، إنه تعبير إسلامى مناهض لمؤسسة الدولة والمجتمع السائد فى أمريكا، إن ملفات الأقليات الإسلامية من شأنها أن تكون أساساً لتواصل بين المجتمعات التى يعيشون فيها والحضارة الإسلامية أو أن تكون أسباب نزاع وصدام.

الفصل الحادى عشر
استشراف المستقبل

هنالك كما أوضحنا أسباب وافرة للنزاع بين الغرب بقيادة الولايات المتحدة والحضارات الأخرى، هذه النزاعات سوف تتفجر إذا حرص الغرب - سميا الولايات المتحدة الأمريكية - على الانفراد والهيمنة شرطياً للعالم بل هذا النهج سوف يعزل الولايات المتحدة من حلفائها المعهودين، ويضع حلفاءها من الحكام فى البلدان الأخرى فى قفص الاتهام ما لم ينأوا بأنفسهم من مشروع الهيمنة الأمريكية، ولكن أمام الولايات المتحدة فرصة تاريخية لصياغة أسس جديدة للعلاقات بين الحضارات فى ظل نظام عالمى أعدل وأفضل، هذا التوجه يوجب على الغرب بقيادة أمريكا تحقيق الشروط الآتية كأساس للتواصل بين الحضارات:

١ - أن يدرك الغرب ويعتبر بأن الحضارة الغربية الحديثة حضارة مركبة ساهمت كل حضارات الإنسان السابقة لاسيما الحضارة الإسلامية فى تكوينها.

٢ - الاعتراف بأن الحضارات الإنسانية والثقافية الأخرى لها دورها فى بناء حاضر ومستقبل الإنسانية ولايجوز التعامل معها ككائنات منقرضة أو فى طريقها للانقراض الوشيك.

٣ - التسليم بأن منجزات الحضارة الغربية الحديثة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجية التى نضج عودها فى الغرب والصالحة لاستصحاب البشر كافة لها، سيتم استصحابها برؤية ذاتية لا بالإكراه والرؤية الذاتية هذه تشتمل على أقلمة ثقافية واجتماعية تحددها الشعوب المعنية باختيارها.

٤ - إدراك أن الظلم الاجتماعى على صعيد الدولة مثل الظلم الاجتماعى على الصعيد العالمى. كلاهما يقوض الاستقرار والسلام. إن إزالة الغبن التنموى عن عالم الجنوب والسعى الحثيث بدعم التنمية فى عالم الجنوب المتخلف ضرورة لحفظ النظام العالمى.

٥ ـ إقامة علاقات حوار إيجابية بالحضارات الأخرى على أساس التعلم المتبادل.

٦ ـ التواصل عن طريق حوار متكافىء قدر المستطاع لاتفاق على غايات انسانية وأيكولوجية مشتركة.

٧ ـ إدراك أن الغرب قد كان سبباً أساسياً فى تكوين عدد من بؤر النزاع الساخنة فى العالم.

ومهما كانت مسئولية الأطراف المحلية فى استمرار تلك البؤر ملتهبة، فإن اعتراف الغرب بدوره فى تكوينها، واستعداده للقيام بدور تكفيرى لعلاجها أمر هام وعتبة نحو علاقات دولية سليمة وسوية، لقد ذكرنا تلك البؤر فى معرض الفصول السابقة ولكن أذكر هنا أربع:

- قضية فلسطين.
- قضية جامو وكشمير.
- قضية تايوان.
- مسألة جنوب السودان.

إن النهج الغربى المستنير سوف يشكل بيئة خارجية صالحة لنا، ولكن الأهم منها أن نقف نحن المسلمين ـ ويقف جميع أهل الحضارات ـ وقفة صدق مع الذات نحاسب أنفسنا ونحسب خطانا، لأن تجديد دورنا الفاعل فى الحياة يبدأ بصحوة ذاتية «الصحوة الذاتية الإسلامية».

لقد بينت الورقة التى قدمتها لهذا المنبر العام الماضى بعنوان «جدلية الأصل والعصر» أن الصحوة الإسلامية رهينة باستنهاض فى تراثنا الإسلامى بلا انكفاء وبالتحديث بدون استلاب وعددت مجالات الصحوة الثقافية اللازمة لنا ـ الستة وهى:

(أ) **مفهوم الإسلام**: فيكون بصورة تعترف بقيمة دينية للأديان الأخرى.

(ب) **الأخلاق**: فلا تبنى على المنفعة المحصنة أو الثيوقراطية وتتدرج مراتبها من المماثلة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثم الإيثار.

(جـ) **الجهاد**: بحيث يحرر من كونه قتالياً هجومياً ليصير بذلا للجهد كله وبكل السبل لإعلاء كلمة الله ولايصير قتالياً إلا دفاعاً عن النفس أو لتحقيق حرية الدعوة.

(هـ) **مفهوم الدولة**: بحيث يتجاوز النظرية السنية المتمثلة فى (الخلافة الإسلامية) والنظرية الشيعية المتمثلة فى (ولاية الفقيه) ويتجاوز شعارات الحاكمية فى ذلك الآن الذى يتجاوز العلمانية ويؤكد أن الدولة فى الإسلام مقيدة بمبادىء سياسية كالعدل والشورى وجلب المصالح ودرء المفاسد وبأحكام ولكن ليس لها شكل معين.

(و) **الاقتصاد**: بحيث تراجع أشكال الأحكام الإسلامية ذات المضمون الاقتصادى لتأخذ المستجدات فى الحسبان.

وبينت أن هذه الصحوة الذاتية إذا تمت باستجلاء تراثنا بصورة تراعى مستجدات العصر فإنها يجب أن تستصحب منجزات للحضارة الغربية الحديثة مطروحة من كل الحضارات وهى: الحداثة ـ حقوق الإنسان ـ التعايش بين الأديان والحضارات ـ العلاقات الدولية القائمة على التعاون والمصالح المشتركة ـ مراعاة سلامة البيئة ـ التعامل الإيجابى مع شق العولمة الحميد.

ـ الحضارة الإسلامية الآن غائب عنها إرادة موحدة ـ ولكن تتوفر لها قوة هائلة ووحدة معنوية ووجدانية ومع احتمالات التناقض بين الغرب والحضارات الأخرى وبين الإسلام والحضارات الأخرى، فإن المحورين اللذين يمكن أن يدور حولهما الصدام أو الوئام هما: الحضارة الغربية ـ والحضارة الإسلامية لماذا؟.

إن محورية دور الحضارة الغربية تفرضه قوتها الاقتصادية والتكنولوجية والعلمية والعسكرية ولا جدال فيه، ولكن ما الذى يبرر محورية دور الإسلام وأهله، هم أهله من حيث الجهل والفقر والتخلف.

الأسباب:

معلوم أن الحضارة الغربية الحديثة تفتقر إلى عناصر روحية وخلقية وعدالية، وواضح مما قاله الغربيون الذين اعتنقوا الإسلام بمحض اختيارهم أنهم يعتقدون أن أفضل مصدر لتزويد الحياة المعاصرة بتلك العناصر المطلوبة هو الإسلام، هذا ما قاله روجيه جارودى ـ وموريس بوكاى ـ ومراد هوفمان وكاد اسيفنس وغيرهم.

الإسـلام يمثل البـديل الناقـد للحـضـارة الغـربيـة فى العـصـر الحديث، لذلك اتخذت المناهضـة لمؤسسات الدولة والمجتمع فى الغرب طابعاً إسـلامياً ـ وهذا ظهر فى أقوى صوره عند المسلمين السود فى أمريكا.

الحـضـارة الحديثة هزت كل الحـضـارات والثـقـافـات الأخـرى، ولكن اليـقين الإسلامى كان الأقل اهتزازاً، وواصل دوره فى منح صاحبه درجة عالية من الثقة فى النفس والثقة فى المصير والأمل فى المستقبل، مع كل مظاهر ضعف المسلمين السياسى والاقتصادى فإن الإسـلام هو الدين الأكثر انتشارا فى عالم اليوم. إن المقابلة بين الحضارة الغربية ونظرتها المادية والحضارة الإسلامية وقوتها المعنوية أشبـه مـا تكون بـالمقـابلة بين جـالوت وداود فى قـصص الأنبيـاء والمدهش والمحير لجـالوت أن داود الحـالى قوة هائلة غيـر مـرئيـة ومـجـسـمـاتهـا مـوزعـة بصـورة لا مركزية بحيث تستعصى على الرصد والاستهداف.

آثار أحداث الحادى عشر من سبتمبر على الموقف:

طالبان أصحاب قضية يؤيدها كثيرون فى العالم الإسلامى.

إحيـاء الإسـلام فى الحـيـاة العـامـة والخـاصـة ـ والقـاعـدة تدافع عن مطالب يؤيدهـا كـثـيـرون ـ رفض الظلم والتـصـدى للظالمين ـ ولكن طالبـان أقـدمت على برنـامـجـهـا دون أدنى مـراعـاة لمتغيـرات الزمـان والمكان، فشـوهت قـضـيـة التطبيق الإسـلامى ـ والقاعدة فى مؤتمرهـا فى ١٩٩٨/٢/٢٣م أصدرت الفتوى الآتية «إن قتل الأمـريكان وحلفـائهم عـسكريين ومـدنيين فـرض عـين على كل مسلم فى كل أنحاء العالم».

ـ هذا النص يخـالف أحكام القـتـال فى الإسـلام .. عن أنس أن النبى ﷺ قـال فى إحدى وصـايـاه لقواد الجـيوش «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسوله الله ولا تقتلوا شيـخـاً فـانيـاً ولا طفـلاً صـغيـراً، ولا، امـرأة ولا تغلوا وضـمـوا غـنـائمكم وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين» رواه أبو داود.

ـ وجـاء فى وصـيـة أبى بكر رضي الله عنه ليزيد بن أبى سـفـيـان وانى موصـيك بعـشـر: «لا تقتلن إمـرأة ولا صـبـيـاً ولا كبـيـراً هـرمـاً، ولا تقطعن شـجـراً مثـمـراً ولا تخـرين عـامـراً ولا تعقـرن شـاة ولا بعيـراً إلا لمأكلة ولا تحـرقن نـخـلاً وتغـرقنـه ولا تغلل».

إن موقف طالبان وأساليب القاعدة تضع الإسلام فى مواجهة العصر وفى مواجهة كل حضارات الإنسان، بل تسببان ضرراً للإسلام والمسلمين بالغاً.

- الربط بين الإسلام والحكم الاستبدادى وبينه وبين العنف العشوائى.

- اشعال الحرب بين المسلمين والأقليات التى تعيش معهم وبين الأقليات الإسلامية والأغلبيات الأخرى التى يعيشون معها.

- تقوية حجة الخيارات العلمانية.

إن المؤسف والمدهش أن بعض المسلمين يؤيدون القاعدة وطالبان ويرون أن طالبان تطبق الشريعة وعلى المسلمين تأييدها - نحن للأسف امام موقف فيه سيل من الفتاوى يدعم الاستبداد باسم تطبيق الشريعة ويدعم قتل الأبرياء باسم الجهاد، إن هذه الظواهر جزء من الفوضى الفكرية والشرعية السائدة فى العالم الإسلامى، فصرنا نستقبل نوعين من الفتاوى يلوثان ديباجة الإسلام الناصعة فى كثير من الأحوال.

- فتاوى بلاطية لإرضاء الحكام.

- فتاوى احتجاجية لتبرير العنف العشوائى.

إن تمييز الموقف الإسلامى الصحيح من موقفى طالبان والقاعدة واجب إسلامى وهو واجب وطنى وقومى وإنسانى.

فى ٧ أكتوبر ٢٠٠١ شنت الولايات المتحدة حربا على أفغانستان تحت مظلة حرب عالمية ضد الإرهاب. إن الولايات المتحدة حقاً مشروعاً للدفاع عن النفس، لكن الحملة تجاوزت الدفاع عن النفس تأتى بتجاوزات خطيرة أهمها:

(أ) إصابة أهداف مدنية وقتل الأبرياء.

(ب) معاملة الأسرى بصورة وحشية.

(ج) فتح المجال للصقور لكى يضموا لحرب الإرهاب كافة القوى المناهضة للواقع الراهن، حتى إذا كان الواقع الراهن قائماً على ظلم وعلى احتلال أراضى الآخرين.

ـ إعطاء القيادة الإسرائيلية المعتدية ضوءاً أخضر للقيام بحملة ضد الإرهاب بهدف التخلى عن كل الالتزامات نحو أهل فلسطين وتصفية القضية عسكرياً.

ـ الحملة الأمريكية والحملة الإسرائيلية التى استظلت بها نجحتا عسكرياً ولكنهما أخفقتا سياسياً ـ لقد هب الشارع العربى والإسلامى بل العالمى فى كل مكان منتصراً لضحايا الحملة.

ـ الحملة خلقت من الأشخاص الذين استهدفتهم أبطالاً شعبيين، ووضعت أصدقاء الولايات المتحدة فى كثير من البلدان فى قفص الاتهام وهذا عكس الأهداف السياسية والمعنوية التى أتت بنقيض مقصدها ليس من العقل أو المصلحة بالنسبة لأمريكا استمرار السياسة الأمريكية فى تحقيق نقيض مقاصدها.

إن الرأى العام الواعى فى عالمنا يأخذ على السياسة الأمريكية الآتى:

١ ـ انتهاج سياسة خارجية غير موزونة حينما يؤثر عليها جماعات اللوبى وتوجهها فى اتجاهات محكومة بمصالح ضيقة.

٢ ـ ازدواج المعايير ـ عدم العدالة فى التعامل مع بؤر الالتهاب فى العالم فى الشرق الأوسط فى الخليج فى أفريقيا وآسيا وغيرها.

٣ ـ الموقف غير السوى من اتفاقيات ترتيب أوضاع الكرة الأرضية وتنظيم المسئوليات الدولية ـ مثلاً ـ الموقف من اتفاقيات البيئة ـ الألغام الأرضية ـ التسليح ـ المحكمة الجزئية الدولية ... الخ.

٤ ـ عدم احترام الأمم المتحدة بالقدر الكافى ـ استخدم التفوق العسكرى والتكنولوجى بصورة تدمر الأهداف المدنية وتقتل الأبرياء.

٥ ـ الاستخفاف بحقوق الشعوب لا سيما فى عالم الجنوب طالما كانت حكوماتها مراعية للمصالح الأمريكية.

إنها مناسبة تاريخية أن تتناول الولايات المتحدة هذه القضية لمراجعة موقفها ـ فإن فعلت فإنها سوف تفتح باب مستقبل أعدل وأفضل للعالم، ولكنها إذا تقاعست عن ذلك فسوف ترهن سياساتها للصقور والتحالف المستمر مع الشارونية، وتفتح بذلك الباب أمام استقطاب حاد، فيه ينحاز قسم هام من العالم

الإسلامى للطالبانية والقاعدية وغيرها من مذاهب الغلو - وسوف تكتب صقور الغرب والشرق أجندة العالم، وبذلك تتأثر سلباً علاقات الأديان والحضارات والدول وتتبارى فى النزال أسلحة الدمار الشامل وأسلحة الضرر الشامل إذا افترضنا أن الولايات المتحدة صارت مستعدة لمراجعة إيجابية لسياستها.

وأوضاع العالم لكى يقوم فيه نظام عالمى جديد أعدل وأفضل على نحو ما فعلت الولايات المتحدة مرتين فى التاريخ الحديث بعد الحرب العالمية الأولى ثم بعد الحرب العالمية الثانية. فماذا ينبغى أن يفعل المسلمون لبناء هذا الصرح الجديد؟

المسلمون مؤهلون لمشاركة أساسية فى هذا المشروع لأربعة أسباب هى:

١ - الحساسية وخصوصية علاقة الإسلام بالحضارة الغربية كما أسلفنا.

٢ - التداخل الإسلامى مع كل حضارات الإنسان الأخرى لوجود الأقليات.

٣ - لأن المسلمين هم الأكثر تظلماً فى عالم اليوم - إما لظلم ذوى القربى أو لظلم الآخرين - لذلك صاروا هم أصحاب المصلحة الأكبر فى تغيير الواقع الراهن.

٤ - لوقوع كثير منهم ضحايا للاجتهادات المنكفئة والحماسات الحركية - ولكن ما السبيل إلى هذا الدور والمسلمون موحدون وجدانياً ويعاملهم خصومهم كوحدة - ولكنهم يعانون من تفرقة بالغة لايرجى معها موقف موحد وفى سبيل ذلك افترضنا ثلاثة نداءات - نداء المهتدين - نداء الإيمانيين - ونداء الحوار بين الحضارات.

١ - نداء المهتدين

وهو نداء موجه لأهل القبلة كافة يقترح الاتفاق حول الالتزام بالقطعى وروداً ودلالة من النصوص الشرعية والتعامل المنهجى مع الوافد من الماضى على أساس الالتزام بالقطعيات واعتبار ما سواها أموراً اجتهادية وتجنب التعصب للاجتهاد الخاص والتعامل معه بقاعدة «اجتهادنا صواب يحتمل الخطأ واجتهادهم خطأ

يحتمل الصواب» أى أن الأمور الاجتهادية يتفق على القواسم المشتركة فيها ويعتبر ما سواها مجالاً لاختلافات مشروعة.

٢ ـ نداء الإيمانيين:

وهو نداء موجه لكافة أهل الملل يؤكد أن الدين ضرورة حياتية فى مجالاته وكذلك العلم فى مجال المشاهدات ـ ويدعو لضرورة كفالة الحق الثقافى والحضارى والدينى كحق إنسانى أصيل وتضمينه بمواثيق حقوق الإنسان العالمية. حرية الفكر والبحث العلمى كأساس للتقدم وعلى اتفاق جميع الأديان على تأمين ضرورة إشباع كافة ضرورات الإنسان الروحية والخلقية والمادية والعقلية والعاطفية والبيئية والاجتماعية والرياضية والترفيهية بشكل متزن ـ وضرورة أن تقوم النظم السياسية على كفالة حقوق الإنسان وحرياته وضرورة حماية حقوق الشرائح المستضعفة وسلامة البيئة فى العالم وأن تسعى المنظمات الدينية دائما لاحتواء الكوارث والنكبات التى يتعرض لها العالم ـ والمطلوب أمرين:

١ ـ ترتيب العلاقة بين الدين والعلم على أسس واضحة.

٢ ـ تنظيم التعايش السلمى بين الأديان.

٣ ـ نداء حوار الحضارات:

وهو نداء وجهناه لكافة عقلاء العالم لتجاوز عقلية الصدام والتناحر بين الحضارات التى تؤذن بإدخال الكون فى عهد ظلامى ـ وقد زادت الحاجة لهذا النداء عقب أحداث سبتمبر ٢٠٠١ فحوى النداء أن تاريخ الحضارات تاريخ تلاقح وصدام ـ ولكن منذ أكثر من قرنين طفرت الحضارة الغربية وصنعت الحداثة وأخضعت العالم بالاستعمار وبعد مرحلة الاستعمار المباشر صارت لها هيمنة وهى الآن تقود العولمة ـ ورغم ذلك الثقافات والأديان والحضارات الأخرى باقية وغير مستعدة للذوبان ـ لذلك فإخضاع العالم بحضارة واحدة غير ممكن واستباحته لعداء الحضارات غير مطلوب.

الممكن والمطلوب هو الحوار بين الأديان والحضارات لإصدار وثائق تضم المواثيق الدولية كلبنات فى صرح النظام الدولى المنشود ـ وفى النداء شروطها للتواصل بين الحضارات تتبنى على أن تقوم فى الحضارات المختلفة صحوة ذاتية بينا شروطها بالنسبة للمسلمين أما بالنسبة للحضارة الغربية فالمطلوب حركة تدفع بقوى الاستنارة للسطح فيحقق الغرب الآتى:

ـ الاعتراف بمساهمة ودور بقية الحضارات فى الحضارة الحديثة.

ـ التسليم بأن منجزات الحداثة ستستصحب طواعية وبرؤية ذاتية لدى الحضارات الأخرى وبأقلمة تحددها تلك الحضارات.

ـ إدراك أن المظالم الاقتصادية والسياسية العالمية تقوض الاستقرار العالمى.

ـ السعى لإطفاء البؤر الملتهبة من صنع يديه.

ـ المشاركة فى حوار متكافىء مع بقية الحضارات.

والتوصل معها للاتفاق على غايات إنسانية وأيكولوجية مشتركة.

هذه النداءات وأمثالها ينبغى أن تبحث فى ورشات عمل ومؤتمرات تمثل المسلمين اليوم تمثيلاً حقيقياً.

إن مستقبل العلاقة بين الحضارات الإسلامية والحضارات المعاصرة سيتوقف على موقف العالم من النهجين المذكورين هنا لدفع العالم نحو عصر ظلامى جديد أو عصر استنارة جديد يليق بكرامة الإنسان وقدرة باريه ﴿**لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم**﴾ صدق الله العظيم.

مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات المعاصرة

الأستاذ الدكتور/ أحمد صدقى الدجانى
دولة فلسطين

فى نطاق تناول موضوع «حقيقة الإسلام فى عالم متغير»، الذى اختاره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر العربية، موضوعاً لمؤتمره الرابع عشر المنعقد بالقاهرة فى ذكرى مولد رسول الله محمد ﷺ لعام ١٤٢٣ (٢٠-٢٠٠٢/٥/٢٣)، يأتى هذا البحث ليتشوف «مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات المعاصرة».

لقد تحدَّثت ورقة عمل المؤتمر فى تقديمها لموضوعه عن «محاولات خلط للأوراق وربط ظالم بين الإسلام والإرهاب، فى ظل ظروف ومتغيرات يعيشها عالمنا المعاصر وبخاصة بعد أحداث ٩/١١، واتهام العرب والمسلمين بمعاداة الحضارة وتشجيع الإرهاب». الأمر الذى يتطلب وقفة موضوعية تضع النقاط على الحروف بشأن حقيقة الإسلام، وتُذَكِّر أيضاً بعطاء الحضارة الإسلامية للحضارة الأوروبية، وبما قدمته هذه الحضارة من «نموذج رائع للتعايش الإيجابى بين الأديان والحضارات». وانتهت الورقة إلى أن هذا التوضيح والبيان يصب فى نهاية الأمر فى «تحديد مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية وغيرها من الحضارات». وهذا ما استهدفه المحور الرابع من محاور المؤتمر ـ الخاص بالرؤية المستقبلية ـ الذى يتكامل مع محاور: حقيقة الإسلام، والعلاقة بالآخر، والجهاد.

بغيـة الوفـاء بالمطلوب من بحثنـا، سوف نمهـد أولاً بحـديث عن المفـاهيم، ثم نتعرف على المشهد الحضارى العالمى والحضارة الإسلامية ضمنه؛ لنصل إلى تشوف مستقبل العلاقات بين حضارتنا الإسلامية والحضارات المعاصرة.

أولاً : تمهيـــد :

حديث عن المفاهيم:

الحضارة الإسلامية هى واحدة من حضارات عالمنا المعاصر. ولها دائرتها الحضارية التى تضم ديار الإسلام. ويتصل بها عدة مصطلحات من المفيد أن تكون مفاهيمها واضحة فى استخدامنا لها فى هذا البحث.

ثقافة وحضارة:

توجد فى إطار هذه الحضارة ثقافات كثيرة. والثقافة فى أبسط تعريفاتها هى « مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها فى مجتمع من المجتمعات»، فهى إذا «جماع حياة المجتمع»، يكتسبها الفرد من مجتمعه، وينميها بجهد عقلى داخلى وبعلم يتخصص فيه، فيتأدب – على حد تعبير أجدادنا – آخذا من كل علم بطرف، ويعتز المجتمع بثقافته التى يتفرد بها لكونها نتاج امتزاج فكرى نفسى عاطفى يوجه الإنسان، كما لاحظ د.أذرشب فى ندوة التعاون العربى الإيرانى، ويمكن أن نضيف «وروحىّ» أيضا. وقد قدر أحد الباحثين الغربيين «ميردوك» وجود ثلاثة آلاف ثقافة فى عالمنا كما أورد هارى شابيرو فى كتابه «نظرات فى الثقافة»، وثقافة مجتمع ما تصور – كما لاحظ ويل ديورانت فى موسوعته قصة الحضارة « عملية الانتخاب الطبيعى الذى تقوم به تجارب لا حصر لها..؛ كما تصور حكمة الأجيال التى تعاقبت فى المجتمع فجمعت تراثاً غزيراً». ويلاحظ العلماء أن للدين تأثيراً قوياً على الثقافة، شأن اللغة. وانطلاقاً من هذا التعريف يمكن أن نتحدث عن «ثقافة النوبة» مثلاً فى وادى النيل، ومثيلاتها هنا وهناك فى عالمنا، باعتبارها «ثقافة محلية»، وعن «ثقافة قطرية» هى جامع للثقافات المحلية.

والحضارة فى أبسط تعريفاتها هى «نمط من الحياة يتميز بخطوط وألوان من الرقى.. وتقوم فى دائرة من الاتساع المكانى والبشرى والزمانى.. وتتضمن نظماً ومؤسسات وقيماً ومعانى تنطوى الحياة عليها». والحضارة بفعل ذلك كله تضم العديد من الثقافات القطرية، فى «جامع مشترك» تفاعل فيه الإنسان مع المكان والزمان، وكونته عناصر «الدين بما يوفره من رؤية كونية»، و«لسان جامع مشترك إلى جانب ألسنة أخرى» و«تاريخ وعادات ونظم» فى دائرة واسعة ينتمى إليها - حضارياً - كل البشر المقيمين فى هذه الدائرة على اختلاف أقوامهم ومللهم وأنماط حياتهم وشرائحهم الاجتماعية، وقد عرف تاريخ الإنسان قيام عدد من الحضارات وازدهارها وأفول بعضها.

وعُمــران :

والعمران هو مصطلح اقترحه ابن خلدون فى مقدمته للدلالة على نمط الحياة بوجه عام، جاعلاً إياه أحدث الخواص التى تميز بها الإنسان عن سائر الحيوانات، وهو التساكن والتنازل فى مصر أو حِلَّةٍ، للأُنس بالعشير واقتضاء الحاجات، لما فى طباعهم من التعاون على المعاش. ومن هذا العمران ما يكون حضرياً ومنه ما يكون بدوياً. وقد استلهم ابن خلدون المصطلح من الهدى القرآنى ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾ (هود: ٦١). والعمران فى اللسان العربى هو نقيض الخراب، وعُمر الإنسان هو اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، وهكذا يكون تعمير العالم المدلول الإيجابى للتغيير؛ لأن التغيير يمكن أن يكون سلبياً فيغدو تخريباً. وقد آن الأوان ـ ونحن ننظر فى مستقبل الحضارة ونرى ما يتم باسم التحضر على صعيد الإخلال بالبيئة وبمحيطنا الحيوى وعلى صعيد الهندسة الوراثية ـ أن نميز بين التعمير الحضارى وأى تخريب فى إطار الظاهرة الحضارية. وهذا ما دعا كاتب هذا الحديث إلى اقتراح مصطلح العمران الحضارى للدلالة على التوظيف الإيجابى لمنجزات الحضارية فى كتابه «عمران لا طغيان».

ودائرة حضارية :

فى ضوء هذه المصطلحات الثلاثة : الثقافة والحضارة والعمران، تتضح معالم مصطلح «الدائرة الحضارية» الذى يدل على حضارة نشأت وازدهرت، فى رقعة من الأرض يسكنها أقوام وملل وشعوب وقبائل وأمم شاركوا فى إقامتها وانتموا إليها بثقافاتهم المحلية والقطرية. وقد عنى التاريخ الحضارى بدراسة الظاهرة الحضارية فى الاجتماع الإنسانى عبر العصور، وبالتعرف على المجتمعات الحضارية التى ظهرت فيه، وبتحديد دوائرها الحضارية، وذلك منذ أن أرسى قواعدها ابن خلدون. ووقف أرنولد توينبى فى دراسته الجامعة «دراسة فى التاريخ» أمام واحد وعشرين مجتمعاً حضارياً حفظ لنا التاريخ أخبارهم، ظهروا فى مختلف القارات، أشار إلى مجتمعات توقفت عن النمو الحضارى مثل: الإسكيمو، وانتهى إلى أن هناك سبعا من الحضارات بقيت ولكل منها دائرته الحضارية.

إن تعدد الحضارات التى قامت فى الاجتماع الإنسانى حقيقة يكاد يجمع عليها المختصون بالتاريخ الحضارى من المؤرخين. وقد فند هؤلاء مقولة نفر من المؤرخين الغربيين الذين ظهروا فى عصر الاستعمار الأوروبى التى زعمت وجود حضارة واحدة هى حضارة الغرب الوارثة لحضارة الإغريق والرومان، وكل من كان خارج دائرتها فهم «برابرة». وهو التعبير الذى أطلقه بعض الإغريق القدماء على غيرهم. وكان لتوينبى جهد بارز فى هذا التفنيد، وهو الذى كتب «العالم والغرب» بهذا الهدف. ولافت أن التاريخ الحضارى شهد ازدهاراً فى القرن العشرين الميلادى، فى مختلف أنحاء عالمنا، أسهم فيه عدد من المؤرخين العرب والمسلمين. ويسجل كاتب هذا الحديث فضل بعض هؤلاء على جيله وعليه، ومنهم شكيب أرسلان، ومالك بن نبى، وجورج حداد أستاذ الحضارة فى الجامعة السورية فى الخمسينيات، وقسطنطين زريق، وجمال حمدان الجغرافى المؤرخ، وزكى نجيب محمود، وأنور عبدالملك وآخرون. ولايزال القول بحقيقة تعدد الحضارات فى عالمنا اليوم هو الغالب، وإن برز رأى يقول بأن الحضارة الغربية باتت فى عصر ثورة الاتصال التى نشهدها حضارة كونية، وقد أشار هنتنجتون فى مقاله إلى ف.س.نايبول الذى طرح هذا الرأى وزعم أن حضارة الغرب كونية

كلية تناسب كل الناس، وطرح هذا الرأى مؤخراً محمود أمين العالم الذى تساءل «هل هناك حضارات متعددة فى عصرنا الحالى أم أن هناك حضارة واحدة؟» وأجاب «بأن التعدد الحضارى كان موجوداً طوال التاريخ الماضى، بينما تسود فى عصرنا الراهن حضارة واحدة غربية المنشأ رأسمالية». وخالفه كثيرون شرحوا حقيقة تعدد الحضارات اليوم، ونجد مثلاً على ذلك فى ندوة مجلة المستقبل العربى صراع حضارات أم تعدد ثقافات، فى العدد ١٢/١٩٨٨ التى شارك فيها معه: السيد ياسين وأسامة خليل وقيس جواد العزاوى، والحق أن تخلل بعض الإنجازات المادية الغربية الحضارات الأخرى، لا يعنى انتهاء هذه الحضارات، لأن ما يميز بين حضارة وحضارة ثقافتها وقيمها ورؤاها الكونية، وما الإنجازات المادية الغربية إلا ثمرة الإنجازات المادية للحضارات جميعاً التى تراكمت عبر العصور، ولذا لاحظ دارس الحضارات سهولة انتقالها فى إطار التفاعل الحضارى على عكس انتقال الأفكار. وقد فصل قسطنطين زريق شرح ذلك فى حديثه عن تفاعل الحضارات.

عناصر الدائرة الحضارية:

وبعد.. فإن مفهوم الدائرة الحضارية فى ضوء ما سبق، ووفقاً للتعريف الذى أوردناه يتضمن عنصرا جغرافياً وآخر بشرياً سكانياً وعنصراً ثالثاً تراثيا ثقافياً حضارياً عمرانياً تحكمه رؤية كونية يوفرها الدين فى غالب الأحيان والفلسفة الوضعية حيناً كما فى العلمانية الغربية.

ثانياً : المشهد الحضارى العالمى وحقائق حضارتنا:

ننظر فى الدوائر الحضارية فى عالمنا المعاصر. فنجد أن علماء التاريخ الحضارى المعتمدين يطرحون آراء متقاربة بشأنها، مع اختلاف حول نقاط بعينها، فهم متفقون على حقيقة تعددها. وقد رأى أرنولد توينبى حوالى منتصف القرن العشرين أنها سبع دوائر بقيت من المجتمعات الحضارية التى تتبعها فى «دراسته للتاريخ» وبلغت واحداً وعشرين، وهذه الدوائر السبع الباقية هى: الحضارة الغربية وتشمل عنده أوروبا والأمريكتين الشمالية والجنوبية، والحضارة الإسلامية، والحضارة الهندوكية، والحضارة الصينية، والحضارة الكورية

اليابانية، والحضارة المسيحية البيزنطية، والحضارة الأرثوذكسية المسيحية الروسية. وحين عمد صموئيل هنتجنتون إلى تحديد هذه الدوائر عند كتابة بحثه المثير للجدل حول صراع الحضارات فى عام ١٩٩٣، مستنيراً بدراسة توينبى الجامعة، ذكر الغربية، ولكنه أخرج منها أمريكا الجنوبية، وجعل لها فرعين فقط: الأوروبى والأمريكى الشمالى، وقال بوجود حضارة أمريكا اللاتينية فى أمريكا الجنوبية، كما ذكر الحضارات الإسلامية، والهندوكية، والصينية التى سماها الكونفوشوسية، واليابانية، والأرثوذكسية «السلافية» مستبدلاً هذا المصطلح بالروسية. وذكر أخيراً احتمال وجود حضارة أفريقية قائلاً «وربما الإفريقية». ونكتفى بتسجيل هذين الرأيين لشهرة كلٍّ منهما فى الغرب وفى العالم بعامة.

ثمان دوائر حضارية فى عالمنا:

الرأى الذى نطمئن إليه بعد إعمال فكر وإمعان نظر، هو أن هناك اليوم ثمان دوائر حضارية يمكن التمييز بينها تكشفها النظرة المحيطة، وتسود فى كل منها حضارة غالبة لها خصائصها. فهناك الغربية بفرعيها الأوروبى والأمريكى الشمالى، والحضارة الأمريكية الجنوبية التى جاءت ثمرة تفاعل حضارة المستعمرين المستوطنين الغربيين القادمين من شبه جزيرة أيبريا مع حضارة سكان البلاد الأصليين مع الحضارة الأفريقية المتأثرة بالحضارة الإسلامية، ونحن مع الرأى الذى يميزها عن الحضارة الغربية، وهناك الحضارة الهندوكية فى الهند، وهناك الحضارة الأرثوذكسية السلافية فى روسيا وأوروبا الشرقية الجنوبية، وهناك الحضارة الأفريقية السائدة فى جنوب الصحراء فى قارة أفريقيا، والحضارة الإسلامية بفروعها فى آسيا وأفريقيا.

وقفة أمام دائرة الحضارة الأفريقية :

يجدر الوقوف هنا لتأكيد حقيقة وجود دائرة حضارية أفريقية وذلك فى ضوء عدم ذكر توينبى لها وقول هنتجتون باحتمال وجودها. والحق أن نظرة متأنية لتاريخ أفريقيا العام الذى جمعته منظمة اليونسكو فى سبعة مجلدات فى عهد مديرها العام أحمد مختار أمبو، تؤكد أن هذه الحضارة كانت قائمة فى أنحاء

مختلفة من أفريقيا قبل حلول كارثة الاستعمار الأوروبى للقارة والنهب الاستعمارى لها والذى شمل فيما شمل الكثير من الوثائق المكتوبة. وقد تفاعلت هذه الحضارة مع الحضارة الإسلامية بفرعها الأفريقى بخاصة الذى عم أفريقيا شمال الصحراء وشرق أفريقيا، فجرى استخدام الحرف العربى أحياناً فى كتابة لغات أفريقية. وهناك اليوم صحوة علمية إزاء هذه الحضارة يتوقع لها أن تكشف الكثير عنها، كما كشفت البحوث العلمية الغربية ازدهار حضارة أمريكا قبل كولمبس: المكسيكية وألانكا والإنديز والمايا. والأمل أن تسهم مراكزنا العلمية الثانية. وكم طاب لى مؤخراً حين التقيت بأخى أحمد مختار أمبو - زميلى فى أكاديمية المملكة المغربية - أن أستزيد من علمه بهذه الحضارة، فسمعت منه ما يستحق حديثاً مفصلاً ليس هذا مجاله.

حلقات مركزية وتخوم :

حين نتأمل كلاً من هذه الدوائر الحضارية نلاحظ وجود حلقة مركزية فيها تحيط بها حلقات تنتهى بمحيط الدائرة الذى هو تخومها مع بقية الدوائر. وللحلقة المركزية موقع متميز، كما أن للتخوم أهميتها. وفى دائرتنا الحضارية الإسلامية يمثل جزءاً من الوطن العربى. هذه الحلقة المركزية فيها مصر وفلسطين وبلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، وتخوم الدائرة تقوم مع الدوائر الأفريقية والهندوكية والصينية والغربية والأرثوذكسية السلافية، فى قارات أفريقيا وآسيا وأوروبا.

إن تخوم أى دائرة حضارية يمكن أن تكون مناطق وصل بين الحضارات فى عهود السلم، كما يمكن أن تكون مناطق فصل فى عهود الحرب حين تنشب نزاعات وتحتدم صراعات. ووفقاً للرؤية الكونية التى تحكم الحضارة تكون النظرة إلى هذه التخوم ويكون التعامل معها. ولقد تجلى هذا الأمر فى الفرضية التى انطلق منها صموئيل هنتنجتون فى كتابه «صدام الحضارات» مؤخراً. والفرضية التى قدمها هى بكلماته «أن المصدر الأساسى للنزاعات فى هذا العالم الجديد لن يكون مصدراً أيديولوجيّا أو اقتصاديّا فى المحل الأول. فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافة والمصدر المسيطر للنزاع سيكون ثقافيًا، وستظل الدول الأمم هى أقوى اللاعبين فى الشئون الدولية، لكن النزاعات الأساسية فى

السياسات العالمية ستحدث بين أمم ومجموعات لها حضارات مختلفة. «وسيطر الصدام بين الحضارات على السياسات الدولية، وبذلك ستكون الخطوط الفاصلة بين الحضارات هى خطوط المعارك فى المستقبل». فالرؤية هنا تحكمها فكرة «الصراع» ولذا أصبحت النظرة إلى التخوم على أنها خطوط معارك بين الدوائر الحضارية، وعلى العكس من ذلك حين تكون الرؤية الكونية محكومة بفكرة أن الله ـ جل وعلا ـ خالق كل شىء ، خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا، ومن ثم ليتعاونوا على البر والتقوى، فإن النظر إلى التخوم تصبح على أنها مناطق وصل بين الدوائر الحضارية وليس مناطق فصل. وهذا هو الشأن فى حضاراتنا الإسلامية التى ظهر فيها رمز «السندباد» البحرى والبرى. فالتعارف والتعاون على البر والتقوى هو الأصل فى العلاقات بين الدوائر الحضارية، والاستثناء هو الصراع يحدث «طغيان» يبغى بغير حق.

موقع دائرتنا الحضارية :

فى ضوء ماسبق يتضح مكان دائرة الحضارة الإسلامية من دوائر حضارات عالمنا المعاصر وبينها، فهى واحدة منها تجاور خمسة أخرى، وهى تمتد فى قلب المساحة التى تشغلها قارات عالمنا الثلاث: آسيا وأفريقيا وأوروبا، وهى تشهد من ثم تفاعلات حضارية قوية. كما يتضح أيضاً موقع وطننا العربى فى هذه الدائرة، فى مركزها وفى طرفها الغربى حتى شاطىء الأطلسى.

وقفة أمام اسم دائرة الحضارة الإسلامية :

فى ختام هذا الجزء من حديثنا نستشعر الحاجة إلى وقفة أمام الأسماء الشائعة للدوائر الحضارية ومن بينها اسم حضارتنا، ويلفتنا أن بعضها سمى بمكان الدائرة، وواحدة وفق الجهة، وبعضها برز فى اسمه الدين الغالب. فالأفريقية والأمريكية الجنوبية واليابانية أعطى المكان أسماؤها، والغربية نسبة إلى الغرب، وكانت قبل امتدادها إلى أمريكا الشمالية تعرف الأوروبية نسبة إلى المكان. والهندوكية نسبة إلى الدين الغالب، والكونفوشيوسية الصينية والأرثوذكسية السلافية برز فى اسميهما الدين والأقوام، أما الإسلامية فأخذت اسمها من الإسلام. وقد حبَّذ بعض مؤرخى الحضارات العرب إضافة كلمة العربية للإسلامية. وذلك للإشارة إلى أن اللسان العربى الذى أنزل به القرآن

الكريم كان لغة التعبير الأولى، وأن للعرب دوراً فى حمل رسالة الإسلام ونشرها، كما أن لوطنهم مكان مركزى فى هذه الدائرة الحضارية. ويحبذ آخرون الاقتصار على كلمة الإسلامية تجنباً لإثارة حساسيات الانتماءات القومية فى هذا العصر الذى قامت فيه الدول القطرية، وتوخياً للاختصار.

واضح أن للرؤية الكونية، ديناً كانت أو فلسفة، مكان خاص ودور خاص فى كل هذه الحضارات، سواء منها من حملت اسماً يشير إلى الدين الغالب أو من لم تحمل. ومعلوم أن للبوذية والشنتوية مكانهما فى الحضارة اليابانية، شأن المسيحية الكاثوليكية فى الأمريكية الجنوبية، شأن الأديان الأفريقية فى الأفريقية، وهذه تستحق أن ندرسها. وإذا كانت العلمانية بفلسفاتها غلبت على الحضارة الغربية فى القرنين الأخيرين إلا أن المسيحية بمذهبها الكاثوليكى ونحلها المتفرعة من المذهب البروتستانتى كان لها تأثيرها الفعال فيها، وهذا ما نراه فى أوروبا المتوسط حيث الكاثوليكية وفى الشمال الأوروبى والولايات المتحدة الأمريكية وكندا حيث تنتشر النحل البروتستانتية.

بقى أن نقول إن بروز الرؤية الكونية المؤمنة فى الحضارة الإسلامية لدى المسيحيين والمسلمين المؤمنين بالله جعل كثيرين فى الغرب يستعملون كلمة «الإسلام» للدلالة على هذه الحضارة بجميع من ينتمى إليها، وهذا هو المدلول الحضارى لكلمة الإسلام يضاف إلى مدلول رسالة الإسلام الخاتمة ورسالات الإسلام التى سبقت.

حرب العولمة الجارية :

نتابع التعرف على المشهد الحضارى لعالمنا المعاصر، فأجد عند كتابة هذه السطور فى مطلع الأسبوع الثانى من شهر أبريل نيسان ٢٠٠٢، محرم ١٤٢٣ أن دائرتنا الحضارية مستهدفة بحرب العولمة التى يشنها العولميون «القارونيون الجدد» عليها بقيادة الإدارة الأمريكية. وفى نطاق هذه الحرب يقوم جيش المستعمرين المستوطنين الصهاينة العنصريين منذ مارس ٢٠٠٢ بحرب إبادة على الشعب العربى الفلسطينى تستهدف إخضاعه وإخضاع الأمة، وإنهاء انتفاضة الأقصى ـ ضد الاحتلال الإسرائيلى لوطنه وللقدس ـ التى آكملت شهرها الثامن عشر، وذلك بعد آن أعلنت الإدارة الأمريكية يوم ١١ مارس بدء المرحلة الثانية فى

هذه الحرب، وكانت قد باشرت المرحلة الأولى فى أفغانستان فى ٢٠٠١/١٠/٧ إثر زلزلة ٢٠٠١/٩/١١ التى أصابتها. ويواجه الشعب العربى الفلسطينى هذه الحرب بمقاومة بطولية للمستعمر المستوطن الصهيونى تمنع فى نطاق ظاهرة المقاومين لطغيان العولمة وطغوتها وهيمنتها. وقد فصلنا عن هذه الحرب فى بحث مستقل.

المشهد الحضارى وتأملات فيه :

إن المشهد الحضارى لعالمنا المعاصر اليوم مستمر فى خطوطه الأساسية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، وقد سبق أن وقفنا أمامه فى مطلع عقد تسعينات القرن العشرين فى كتابنا «عُمران لا طغيان» فوجدنا بداية مناخاً من نوع خاص مخيم عليه فيه ما يبعث على التفاؤل والكثير مما يبعث على التشاؤم. وقد أشارت السيدة فرو هارلم برونتلاند ـ رئيسة اللجنة العالمية للبيئة والتنمية ـ إلى هذا المناخ فى مقدمتها لتقرير اللجنة الذى صدر مؤخراً باسم مستقبلنا المشترك، فذكرت كيف وقعت مآسٍ عدة خلال إعداد التقرير مثل: المجاعات الأفريقية، وتسرب الغاز فى مصنع المبيدات فى بوبال بالهند، والكارثة النووية فى تشيرنوبيل فى الاتحاد السوفيتى، بينما أزمة الديون تفعل فعلها فى الدول النامية مع هبوط الأسعار للسلع الأولية وهبوط الدخول الفردية، وكان مجال العلاقات الاقتصادية الدولية يثير القلق فى العالم أجمع، وأشارت إلى أن أعوام الستين شهدت أوقاتاً للتفاؤل والتقدم حين كان هناك أمل فى عالم أكثر شجاعة وفى أفكار دولية تقدمية بعد أن غدت المستعمرات التى تحظى بالموارد الطبيعية دولاً مستقلة، وبدا أن هناك سعياً جاداً نحو مثل التعاون المشترك. ولكن أعوام السبعين شهدت مفارقة تمثلت فى الانزلاق البطىء إلى حالات ردود فعل وعزلة فى وقت كانت فيه سلسلة مؤتمرات للأمم المتحدة تقدم الأمل بتعاون أعظم فى معالجة القضايا الرئيسية. وتميز عقد الثمانين بالتراجع عن الاهتمامات الاجتماعية، والتفات العلماء إلى الخطر الذى يتهدد البيئة؛ بعد أن أصبح التردى البيئى مسألة حياة أو موت بالنسبة للأمم النامية بعد أن كان فى بادىء الأمر مشكلة تخص الأمم الغنية مقترنة بالثورة الصناعية.

لقد سلط تقرير مستقبلنا المشترك أضواء على واقع عالمنا الحضارى، شأن كثير من التقارير الأممية والدراسات التى صدرت حديثاً. فهناك إيجابيات فى هذا الواقع يوقف أمامها فنحن نستطيع أن ننقل المعلومات والبضائع عبر كوكبنا بأسرع مما كان فى أى وقت مضى، ونستطيع أن ننتج غذاء أكثر باستثمار موارد أقل، وتقدم لنا تكنولوجيتنا وعلومنا ـ على الأقل ـ القدرة على النظر بصورة أعمق فى أنظمة الطبيعة وفهمها بشكل أفضل. ومن الفضاء نستطيع أن نرى وندرس الأرض كنظام تتوقف صحته على صحة جميع أجزائه. ونحن نملك القدرة على المواءمة مابين الجهود البشرية وقوانين الطبيعة، ونؤمل ازدهاراً خلال ذلك، وفى هذا يستطيع تراثنا الثقافى والروحى أن يعزز مصالحنا الاقتصادية ويدعم ضرورات بقائنا. وهناك فى هذا الواقع نجاحات منها، انخفاض معدلات الوفيات بين الأطفال، والزيادة فى طول أعمار الناس، وارتفاع نسب البالغين القادرين على القراءة والكتابة فى العالم، ونسبة الأطفال الذين يدخلون المدرسة، وزيادة الإنتاج العالمى للغذاء بأسرع من نمو السكان، لكن هذه العمليات نفسها التى أدت إلى هذه المكتسبات هى التى أوصلت إلى إخفاق على صعيد التنمية من منظور عالمى تجسده هذه الفجوة ما بين أمم غنية وأخرى فقيرة ـ التى تتسع بدل أن تضيق وتدل عليه أرقام عدد الناس الجائعين فى العالم والأميين منهم وعدد المحرومين من المياه النقية أو المساكن الصالحة. كما أوصلت هذه العمليات إلى إخفاق فى إدارة بيئتنا البشرية بفعل اتجاهات بيئية تهدد بتفجير كوكبنا وتهدد بالخطر حياة العديد من الكائنات الحية التى تقطنه. ففى كل سنة تتحول ستة ملايين هكتار من الأرض الجافة المنتجة إلى صحار، وهناك أكثر من أحد عشر مليون هكتار من الغابات تدمر سنويًا وتقتل الأمطار الحامضية غابات وبحيرات وتخرب التربة، ويؤدى حرق الوقود الأحفورى إلى نشر ثانى أكسيد الكربون فى الجو، مما يتسبب فى الزيادة التدريجية للحرارة فى العالم، وتهدد غازات صناعية أخرى باستنزاف غلاف الأوزون الذى يحمى الكرة الأرضية، إلى الحد الذى يمكن أن يرتفع معه بشكل حاد عدد إصابات الناس والحيوانات بالسرطان، وتتعرض للاختلال دورة الغذاء فى المحيطات، وتطرح الصناعة والزراعة مواداً سامة فى مكونات الدورة الغذائية للإنسان، وفى طبقات المياه الباطنية إلى حد يتجاوز إمكانية التطهير.

يخرج المتأمل فى الواقع الحضارى فى عالمنا أيضاً بأن الأواصر بين البيئة والتنمية أواصر معقدة وهى فى حالات كثيرة لا تفهم على الوجه المطلوب. لكن النظرة الشاملة للأمن الدولى والقومى يجب أن تتجاوز التركيز التقليدى على القوة العسكرية وسباق التسلح. فالمصادر الحقيقية لانعدام الأمن تشمل أيضاً التنمية غير المستديمة. وقد تحدث تقرير مستقبلنا المشترك - وهو ينبه إلى هذا الأمر - عن الإجهاد البيئى كمصدر للنزاع، وعن النزاع كسبب للتنمية غير المستديمة. فالتفاعل بين الفقر والظلم وتدهور البيئة والنزاع جار على قدم وساق وبطرائق معقدة وفعالة، ومن مظاهره ظاهرة ما يسمونه لاجىء البيئة التى تشتمل أسبابها الكامنة على تردى قاعدة الموارد الطبيعية وقدرتها على إعالة السكان، ومثل عليها أحداث القرن الأفريقى منذ السبعينات التى شهدت هروب زهاء عشرة ملايين أفريقى فى عامى ٨٤ - ٨٥ من ديارهم بسبب الحروب التى نشبت إثر حدوث الجفاف، وكان من أسبابها سوء استخدام الأرض المستمر على فترة طويلة، وواضح أن سوء الاستخدام هذا مرتبط بالاستغلال الذى هو التعبير الصارخ عن الظلم، وقد أوضح مشروع الهيئة البيئية للسلفادور الذى أعدته الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية إثر الأحداث التى جرت هناك مؤخراً أن الأسباب الأساسية للصراع الدائر ليست أسباباً بيئية بقدر ما هى أسباب سياسية، نابعة من معضلات تتعلق بتوزيع الموارد فى أرض مكتظة. و أحد الأمثلة على هذا الاستغلال: سياسة الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا؛ فمن الطرائق التى تعتمدها هذه السياسة باسم نظام أراضى الوطن الذى يخصص ١٤٪ من أراضى البلاد إلى ٧٢٪ من السكان. وينجم عن ذلك هروب الشباب السود ممن هم فى سن العمل من هذه الأراضى التى أنهكتها الزراعة والرعى بحثاً عن العمل فى المدن، وهناك يواجهون ظلماً اجتماعياً واقتصادياً قاهراً وتمييزاً عنصرياً غاشماً، فيناضلون فى مواجهة ذلك ويعمد النظام إلى قمعهم فيبحث ضحاياه عن ملجأ عبر الحدود، فيعمد نظام جنوب إفريقيا إلى توسيع رقعة الصراع لتشمل الدول المجاورة. وتقع المنطقة بأسرها أسيرة صراع أوسع. ويذكرنا هذا الحديث عن النظام العنصرى فى جنوب إفريقيا بما يقوم به النظام العنصرى الصهيونى فى فلسطين، وتتداعى إلى الخاطر السياسات التى تمارسها القاعدة الاستعمارية الاستيطانية الإسرائيلية فى منطقة الوطن العربى.

لقد شهد الواقع الحضارى فى عالمنا فى مرحلة الحرب الباردة نشوب صراعات كثيرة وفى خضم هذه الصراعات وهذه الحروب بلغ الإنفاق العسكرى فى عالمنا تريليون دولار سنويا، مستهلكا فى بلاد كثيرة نسبة عالية من إجمالى إنتاجها الوطنى، وخيم شبح الحرب النووية مهدداً العمران البشرى، وامتلأت مخازن السلاح بأسلحة الدمار الجماعى الأخرى، وانتشرت ثقافة السلاح التى استخدم فيها نصف مليون عالم فى أبحاث التسلح على الصعيد العالمى، ودأبت دول كثيرة على التمسك بهذه الثقافة ونشرها وبخاصة فى الدول المنتجة للسلاح. وقد قدر تصدير السلاح بأكثر من ٣٥ مليار دولار سنوياً التهمت فيها تجارة السلاح ما يربو على ٣٠٠ مليار دولار خلال العقدين الماضيين؛ ثلاثة أرباعها على شكل مبيعات لما يعرف بالبلدان النامية . وهكذا يتجلى الصراع سبباً لحدوث ما يسميه تقرير مستقبلنا المشترك: التنمية غير المستديمة.

إن هذا الواقع الحضارى فى عالمنا يؤثر على حياة الإنسان أينما كان على سطح كوكبنا. وهناك كثيرون اليوم فى مختلف الأنحاء يقفون اليوم وهم يتأملونه أمام حروب محلية وإقليمية وصراعات دموية، وفقر وسوء تغذية وأمراض وديون، وتدخل صندوق النقد الدولى، وانهيار أسعار، وكوارث بيئية تفعل فعلها فى العديد من بنى البشر؛ وبخاصة فى الجنوب فى عالمنا الذى تزداد فجوة الثروة القائمة بينه وبين الشمال اتساعاً. وإذا كان الشعور بالتفاؤل قد عم بعض الأوساط فى أعقاب انتهاء الحرب الباردة بشأن هذا الواقع الحضارى حيث بدا لها أن الأزمة الاقتصادية العالمية انتهت، وقامت الديمقراطية فى أماكن لم تكن متوقعة، ولم يعد بالإمكان التعرف على الخريطة الأيديولوجية والاجتماعية فى القارة الأوروبية، وأصبحت المؤشرات فى البلاد المتطورة تبشر برحلة جديدة من النمو تستمر عدة سنوات، إلا أن هذا التفاؤل سرعان ما اصطدم بحقيقة أن المشاكل التى تنجم عن النظام العالمى السائد ستستمر من مشكلة عدم التوازن بين البلدان إلى مشكلة الانتقال العسير لنظام السوق إلى مشكلة المظالم بين المجموعات الاقتصادية فضلاً عن مشاكل البطالة والمجاعات وفوضى الأسواق المالية والمواد الأولية. ويتطلع البعض إلى التحديث التقنى كحل يكفل سير الأمور نحو الأحسن وبأقل ما يمكن من الشرور، ولكن البعض الآخر ينبه إلى أنه لا يمكن تأمين النمو المستمر فعلاً إلا إذا توقفت سياسات الدول الكبرى الاقتصادية

عن السير فى الاتجاه المعاكس، إذ لا يمكن للمضاربات الأمريكية المفرطة فى الولايات المتحدة والعجز بالوفر الحقيقى وعودة التضخم وزيادة معدلات الفائدة وديون الشركات أن تسلم من الهزات الخطيرة فى أسواق البورصة، كما أن النمو- بشكل عام حتى فى أكثر البلاد ثراءً - لا يمس إلا فئة محدودة من السكان، والبنية التحتية لا تزال متخلفة فى عدد من البلدان الغنية نفسها، كان ذلك بالنسبة للجسور أو شبكات الطرق أو منشآت التعليم فى وقت لا ينعكس فيه تطور النفقات على هذه البنية، هذا فضلاً عن أن العزلة أصبحت مهيمنة فى المدن الكبرى، فالعديد من الناس غارقون تحت كتلة من المعلومات، ويتجه بعض هؤلاء فى المجتمعات الغنية بالدرجة الأولى إلى الاكتفاء بالتمتع بمشهد القوة فى ملذات الأقلية وتعاطى المكيفات. وتؤكد دراسات غربية أن السياسات الاقتصادية فى الغرب لا تزال تتبنى مفهوماً للتنمية يجعلها تنمية لصالح الأغنياء والمؤثرين، ولا تزال غافلة عن متطلبات حماية البيئة حين تتابع الحديث التقليدى عن التكاليف والعائد غير المادى، متجاهلة الحاجة إلى نظام اقتصادى جديد يسلك مسلكاً مخالفاً للتكاليف والعائد غير المادى، وقد أدت هذه السياسات إلى زيادة أعباء العالم فى الجنوب وإلى استقطاب الثروة والدخل فى الشمال، وحدث هذا الاستقطاب أيضاً داخل مجتمعات الرخاء نفسها فارتفع مؤشر البطالة ليصل فى الجماعة الأوروبية مثلاً ١٥٪ من القوى العاملة، واكتسبت الممارسات الاقتصادية المشبوهة أو السوداء التى يتم بعضها عن طريق العنف أهمية كبيرة. وتبدو العواقب النهائية لهذه السياسات فى رأى أصحاب تلك الدراسات غامضة ومشكوك فيها.

مشكلات وأخطار:

لقد دأبت التقارير الأممية التى تناولت هذا الواقع الحضارى فى عالمنا خلال العقدين الماضيين على التحدث عن المشكلات التى تتحدى البشرية جمعاء. فتقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال مثلاً الذى صدر عن اليونسكو عام ١٩٨١ بعنوان «أصوات متعددة وعالم واحد» ـ أوضح أن تحديات مشكلات البيئة والاستخدام الرشيد للموارد الطبيعية لاسيما غير المتجدد منها، وأزمة الطاقة، والعمالة، والتضخم، والكفاح ضد الآفات الاجتماعية التى تنتشر داخل

الأمم وتسود فيما بينها، والدفاع عن حقوق الإنسان.. كفاح ضد مخلفات الاستعمار،وحماية السلاح، ونزع السلاح، هى تحديات يرتبط بعضها ببعض ولايمكن مواجهتها إلا بتضافر القوى التى نعيش فى كنفها والتى جعلت عالمنا أكثر ترابطاً، وأصبح مفهوم العالم عند إنسان العصر بفعلها أشمل وأعمق. وكان إعلان الأمم المتحدة الخاص بإقامة نظام دولى جديد الذى صدر فى أيار - مايو ١٩٧٤، قد لاحظ وجود فجوة كبيرة آخذة فى الاتساع بين دول غنية وأخرى فقيرة، وأن مكاسب التقدم التقنى ليست مقسمة بالتساوى بين أعضاء المجتمع الدولى، وقد ثبت أنه من المستحيل تحقيق تنمية عادلة ومتوازنة للمجتمع الدولى فى ظل النظام الاقتصادى الحالى، ذلك أن الفجوة بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية مستمرة فى ظل نظام أقيم فى وقت لم يكن فيه للبلدان النامية وجود كبلدان مستقلة، وهو نظام يدعم عدم المساواة. ويتجلى انعدام المساواة فى هذا النظام على مختلف الصعد.. استغلال موارد المحيطات بصورة سيئة أو بصورة بالغة الكثافة من جانب قلة من الدول تنتهك الحق المتكافىء لجميع الدول الأخرى فى التمتع بنصيبها مما هو هبة الطبيعة للبشرية جمعاء.. وما يتم على صعيد إنتاج الغذاء وتوزيعه.. وعلى صعيد انتشار التقنية والصناعات.. وعلى صعيد تأثير الإنسان على البيئة.. وعلى صعيد بنى التجارة وشروط التبادل التجارى.. وعلى صعيد استخدام المواد الخام .. وعلى صعيد العمل والعمالة. وما يصدق على هذا النظام الاقتصادى يصدق على نظام الاتصال الدولى، وعلى النظام السياسى الدولى، أى على النظام العالمى بجوانبه المختلفة.

يتجلى لنا من خلال هذا المشهد الحضارى خطران يهددان العمران فى عالمنا أولهما: خطر طغيان العولميين على البيئة وامتهانهم لها والتعدى عليها بحجة قهر الطبيعة، كما يتمثل فى التدخل فى ناموس الخلق بدون ضابط وتغيير خلق الله. وقد رأينا فيما سبق من الحديث أمثلة على هذا الطغيان على البيئة، أما التدخل فى ناموس الخلق بدون ضابط فإن أمامنا أمثلة عليه فى بعض تطبيقات الهندسة الوراثية، بعد أن توصل المشتغلون بعلم الحياة إلى شطر وحدة الوراثة - الجين - وبنائه من جديد، فأحدثوا ثورة على صعيد الصناعة العلمية قوامها هندسة عملية الحياة للأغراض التجارية بيوتكنولوجى - التقنية الحيوية. والواقع القائم اليوم على هذا الصعيد يشير إلى أن قدرات المشتغلين بالطب التقنى من

أطباء وباحثين تجاوزت العرف التراثى والأخلاقى للبشر على حد تعبير المحرر العلمى لمجلة نيوزويك. والموضوع مطروح على الكافة ومتداول على صعيد المشتغلين بالطب النفسى الذين لا يقفون فى بحوثهم عند خطوط حمر؛ وعلى صعيد الحكومات التى لها اهتمام قانونى فى تأمين انتقال الحياة من حبل إلى آخر بشكل منتظم؛ وعلى صعيد المجتمعات التى تحكمها اعتبارات دينية وخلقية؛ وعلى صعيد رجال الأعمال الذين يريدون توظيف هذا الجديد واستثماره.

الخطر الآخر يواجه الإنسان بخاصة ويتمثل فى: طغيان بعض البشر على أخوة لهم فى الإنسانية وبغيهم عليهم بغير حق فى صورة قارونية معاصرة. ومن مظاهره القهر السياسى بصوره المختلفة واتساع الفجوة بين قلة غنية وكثرة فقيرة وتفجر الصراعات بين الأقوام والملل والطبقات.

إمكانية المعالجة :

يبدو مستقبل الحضارة فى ضوء ما سبق محل تساؤل الإنسان فى عصرنا، ويشتد القلق على مصير الإنسانية والمحيط الحيوى بعامة، ويسود فى بعض أوساط أصحاب الرؤية الملحدة الدهرية المادية يأس من إمكانية الإنقاذ، فالوقت فات، والساعة هى الخامسة والعشرون، وقد اتسع الخرق على الراتق.. ولكن أصحاب الرؤية المؤمنة ليسوا بيائسين، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، بل إنهم أمضى عزيمة لمواجهة الأخطار التى تهدد الإنسان والكائنات الحية والأرض؛ والاستجابة لتحدياتها. وهم ينطلقون من رؤيتهم المؤمنة فى تأملهم لهذه اللحظة التاريخية التى تعيشها الحضارة اليوم، وفى إعمالهم الفكر لتحديد ما ينبغى عمله فى ضوء سنة الأولين.

لقد وقف أرنولد توينبى طويلاً أمام هذه اللحظة التاريخية فى شيخوخته وهو يكتب الإنسان وأمه الأرض ، فرأى أن البشرية تأخذ بخناقها أزمة خانقة، وهى لا تقل فى شرها عن الحربين العالميتين، والمستقبل مزعج. وعرض احتمال حدوث نكبة من صنع الإنسان تدمر المجال الحيوى، وتقضى على البشرية جمعاء مع استكمال الحياة الأخرى، ثم قال هذا احتمال لكنه ليس الخيار الوحيد. ولاحظ أن الإنسان زاد فى قوته المادية بحيث أصبح خطراً حتى على بقاء المجال الحيوى، لكنه لم يزد إمكاناته الروحية، وقرر أن التغيير الوحيد المعقول فى

تركيب المجال الحيوى الذى يمكن أن ينقذ هذا المجال هو زيادة القدرة الروحية للإنسان. وأكد علة أن الإنسان يظل بالإضافة إلى أنه طبيعة وجسم يتمتع بروح، وهذه الروح تمتلك الوعى، ومن ثم فالإنسان يمكنه أن يختار إما الخير وإما الشر. وأعرب عن اعتقاده أن مرض المجتمع الحديث لا يمكن شفاؤه إلا بثورة روحية فى قلوب بنى البشر وعقولهم. فالعلل الاجتماعية لا تعالج بالتغيرات المؤسسية.. فالعلاج الناجى هو روحى؛ لأن كل مؤسسة اجتماعية تقوم على فلسفة أو دين، وهى بحسب القاعدة الروحية التى أقيمت عليها تكون حسنة أو سيئة، وأنا أوافق على أن الإنسانية بحاجة إلى أساس روحى جديد، وكثيرة هى الأصوات التى انطلقت من مختلف أنحاء عالمنا مؤكدة على الحاجة الملحة فى عصرنا إلى الإيمان.

إن الرؤية المؤمنة المسلمة لهذه اللحظة الحضارية التاريخية تكشف عن وجود إمكانية كبيرة لاختيار الخير وانتصاره على الشر. وهى على يقين من إمكانية النجاة على الصعيدين الفردى والجماعى بالإيمان والعمل الصالح والتواصى بالحق والتواصى بالصبر. وهى تستحضر قصص الأولين فنجد أمثلة كثيرة على ذلك، انهزم فيها الطغيان والبغى بغير حق وانتصر فيها المؤمنون بفضل الله. وهكذا انتهت الفرعونية الطاغية والقارونية الباغية، وأمثالها من المفسدين فى الأرض. وتتأمل هذه الرؤية المؤمنة المسلمة تاريخ الحضارات الإنسانية فتلاحظ السنن التى تحكم هذا الصراع بين الخير والشر.

إحدى هذه السنن هى قدرة الدين على النفاذ برسالته وقيمه وتعاليمه فى أوساط الحضارة التى تعانى أزمة روحية. ومُثِّلَ على هذه السنة بما وقف أمامه أرنولد توينبى متأملاً ما حدث فى الإمبراطورية الرومانية حين فتحت بلدان الشرق عسكرياً، فوقع هجوم معاكس من قبل الشرق هو اجتياح الأديان الشرقية بلدان الغرب على حد قوله. وقد توقع أن يرتد الغرب والعالم عن عبادة العقائد الحديثة مثل: الشيوعية والفردية والعلمانية، وعبر عن أمله آن تنتصر فكرة المحبة من خلال الإيمان بالله. وأوضح فى كتابه «العالم والغرب» أن المثل الأعلى للإخاء الإنسانى الذى خرج منتصراً من تمازج الحضارات هو آول تفسير لنجاح هذه الأديان التى تخاطب كل الكائنات البشرية دون تمييز فى العنصر أو

الطبقة أو الجنس، والتى أنقذت أعضاءها بالاتحاد مع كل كائن أعلى، وذلك لأنها تعلمت أن الطبيعة البشرية دون النعمة الإلهية لا تكفى. لقد كان الشرقيون يجريون نوعين من المتألهين خيبوا الآمال، فالعسكرية المتألهة المتمثلة فى الإسكندر كانت فضيحة رنانة. والإسكندر هو قاطع طريق أكثر منه إله. وماذا نقول عن البوليس المتأله أغسطس قيصر! ويمكننا القول أن ما سبق وحصل مرة فى الماضى ما زال أحد الأمور الممكنة فى المستقبل. والمثل الآخر الذى نستحضره على هذه السنة هو انتشار الإسلام فى أصقاع الأرض، رسالة رحمة للعالمين.

إن إنقاذ العمران الحضارى فى عالمنا يبدأ بالدعوة إلى الإيمان بالله سبحانه خالق الموت والحياة الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم؛ وباعتماد الرؤية المؤمنة المسلمة فى النظر إلى كل الأمور. وهذه الرؤية تقدم نظرة كونية تقول بمبدأ وحدة الأصل البشرى ومبدأ كرامة الإنسان ومبدأ النوع ومبدأ التعارف وصولاً إلى التعاون ومبدأ لا إكراه فى الدين. وهى تتضمن مفاهيم تتعلق بالإنسان والمكان والزمان تؤكد على استخلاف الإنسان فى الأرض وحريته فى الاختيار وقدرته على الفعل.

أصبحت الحاجة مُلحَّة فى عصرنا إلى بلورة مفهوم للحضارة يؤكد على التعمير ويقاوم التخريب الذى نرى أمثلة كثيرة عليه وهو يتم باسم الحضارة ويستهدف البيئة والإنسان على السواء. وآفاق التعمير رحبة للارتفاع بصرح العمران. وقد رأى محمد إقبال فى كتابه «تجديد التفكير الدينى فى الإسلام» أن العالم - كما صوره القرآن لـ م يخلق عبثاً، وهو مرتب على نحو يجعله قابلاً للزيادة والامتداد يزيد فى الخلق ما يشاء، فى صميم كيانه قوة مبدعة وروح متصاعدة، تسمو قدماً من حالة وجودية إلى حالة أخرى. ولقد قدر عليه أن يشارك فى أعمق رغبات العالم الذى يحيط به، وأن يكيف نفسه ومصير العالم كذلك، تارة بتهيئة نفسه لقوى الكون، وتارة أخرى ببذل ما فى وسعه لتسخير هذه القوى لأغراضه ومراميه. وفى هذا المنهج من التغير التقدمى يكون الله فى عون المرء شريطة أن يبدأ هو بتغيير نفسه **﴿إن الله لا يُغَيِّرُ ما بقوم حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم﴾**، والرؤية المؤمنة المسلمة تحث على التعمير، وهى توفر النظرة الشاملة لمفهوم العمران الحضارى التى تحيط بجميع جوانب الحياة،

وتحقق التكامل بين مختلف الأبعاد فى النفس الإنسانية وفى الاجتماع الإنسانى على السواء، وتحدد بدقة مكان الإنسان فى الطبيعة. وقد أشار ماكس شيلى فى كتابه الذى يحمل هذا الاسم إلى حالة الاضطراب التى آلت إليها الدراسات الفلسفية عن الإنسان فى الغرب، حيث لا تتوافر من خلالها فكرة موحدة عن الإنسان. ومفهوم العمران الحضارى هذا يأخذ فى الاعتبار وحدة العالم من خلال تنوعه حين يدرس جزءاً منه، وترابط أبعاد الحياة الإنسانية بحيث تكون المشكلة هى التنمية، مثلاً يكون علينا - كما يقول البرتو دى راينا - أن نوضح ما هو أساسى وجوهرى.. الإنسان، العدل، الحب، الحرية،الكرامة، الشعر، الجمال، القيم الروحية، والإيمان نظرياً وعملياً، لأن النموذج الاقتصادى الذى يغفل ذلك يهبط بالفن إلى منزلة البضاعة، ويهوى بالعلم إلى أن يصبح أداة، وينحط بشأن الأفكار لتصبح محسوبة بمصطلحات الربح والخسارة، وهناك طرق كثيرة نتصور بها العالم لا تعتمد على قانون العرض والطلب أو على القيود التى تفرضها اعتبارات الربح والكفاءة أو على قدرة شيطان الجشع الوقحة.

الحاجة أيضاً إلى أن يكون التعامل مع البيئة والمحيط الحيوى انطلاقاً من الرؤية المؤمنة المسلمة التى رأينا كيف تنظر إلى الأرض وإلى السماء وإلى جميع المخلوقات فى إطار وحدة خلق الله بالميزان الذى وضعه الله سبحانه لمخلوقاته جميعاً ومنها الإنسان. وبقدر ما تحث هذه الرؤية على التعمير والإفادة مما سخره الله للإنسان؛ بقدر ما ترفض فكرة الصراع مع الطبيعة وقهرها، وتأبى التغيير فى خلق الله. وقد حذر القرآن الكريم من اتخاذ الشيطان وليًا من دون الله حين يعد عباد الله ويُمَنِّيهم ويأمرهم بتغيير خلق الله، فأورد على لسان الشيطان فى سورة النساء **﴿وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً • ولأضلنَّهم ولأُمَنِّينهم ولآمرنهم فليُبَتِّكن** (فليقطعن أو فليفتشن) **آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً • يَعِدُهم ويُمَنِّيهم وما يعدُهم الشيطان إلا غروراً﴾** (الآيات ١١٨، ١١٩، ١٢٠). وهكذا تحدد هذه الرؤية المؤمنة الضوابط فى التعامل مع البيئة.

الرؤية المؤمنة المسلمة :

توفر الرؤية المؤمنة المسلمة إمكانية النجاح فى إزالة مسببات التوتر فى عالمنا وإخراج السلام من أزمته وإقامة نظام عالمى يحقق العدل، فهى تعترف بمبدأ الاختلاف بين الناس باعتباره سنن الله فى الكون، وبمبدأ الحق فى الاختيار، وبمبدأ كرامة الإنسان، وبمبدأ وحدة أصل البشرية، وبمبدأ التعارف؛ وصولاً إلى التعاون على البر والتقوى، فلا طغيان، ولا عنصرية، ولا استلاب هوية، ولا إكراه فى الدين.

إن هذه الرؤية المؤمنة المسلمة كفيلة بتحقيق التكامل بين العقيدة والأخلاق والقانون. فمحور الأخلاق فيها والدين الذى جاء به الوحى الإلهى، وهى من ثم ليست نسبية. وتطبيق القانون يتم وفق معيار واحد بمساندة الضمير الذى تحييه العقيدة.

واضح أن العمل المطلوب لإنقاذ العمران الحضارى يتطلب جهودا كبيرة تبذل على عدة مستويات.

هناك **أولاً** المستوى المؤسسى العالمى. فعالمنا المعاصر يشهد نمواً مستمراً فى المؤسسات العالمية بحكم ثورة الاتصال التى يعيشها. والاقتناع أصبح راسخاً فيه بأن قضايا العالم ومشكلاته مترابطة ومتداخلة، وأن معالجتها تتطلب فترة زمنية طويلة نسبياً، وأن أى تصورات أو نماذج مستقبلية شاملة مستقبل الجنس البشرى على كوكب الأرض لابد أن تأخذ فى اعتبارها العجل والإنصاف بين الناس، وهذه الأمور الثلاثة ضمنها نادى روما رسالته. والدعوة تتردد على الصعيد العالمى لعمل مشترك يتضمن مقترحات للتغيير فى المؤسسات والقوانين. وقد خصص تقرير مستقبلنا المشترك آخر فصوله لهذه الدعوة. ولابد أن تتعاون الدول على إحداث هذا التغيير والقيام بهذا العمل المشترك. وتوفر الرؤية المؤمنة المسلمة أفضل مناخ لهذا التعاون بما يؤكد عليه من وحدة البشر وأخوتهم وعالمية رسالتها **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**.

هناك **ثانياً** مستوى العمل المجتمعى الأهلى الذى يحقق التعاون بين الجماعات فى عمل تطوعى أساسه الإحسان. وقد برز فى حضارتنا العربية الإسلامية فى صور كثيرة وكان لنظام الوقف دور فيها، كما برز فى حضارات

أخرى، وهو يعرف فى حضارة الغرب اليوم باسم المجتمع المدنى. ويمكن للعمل فى هذا المستوى أن يحقق الكثير حين تحكمه الرؤية المؤمنة المسلمة التى تحث على التعاون على البر والتقوى، وعلى التكافل، وعلى الإنفاق والتراحم.

هناك **ثالثاً** مستوى عمل الفرد. والعمل فيه يستطيع أن يحقق الكثير مما لا يمكن للمستويين السابقين النهوض به، وفيه يبرز أثر الضمير وأثر الأخلاق وأثر الإيمان إلى جانب أثر القانون. والرؤية المؤمنة المسلمة ترتفع بهذا العمل إلى أعلى ذروة من خلال العلاقة التى تقوم بين العبد وربه فى صورة الإحسان الذى عرفه الحديث القدسى «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وهى تؤكد أن النجاة يوم القيامة تعتمد اعتماداً كلياً على العمل الصالح الذى يقوم به الفرد المؤمن، **﴿وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾** والرؤية المؤمنة المسلمة ترى هذا العمل فى إطار العمل الكلى، فالواحد منا يقف على ثغرة البناء الشامل فلا يؤتين من قبله، والمرء منا لا يحقرن من المعروف شيئاً. ويتضمن هذا العمل فيما تضمن الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والنصيحة والمشورة والجهر بالحق.

وبعـــد ..

فواضح أن مسئولية إنقاذ العمران الحضارى فى عالمنا تقع، على كاهل جميع المؤمنين فيه، ولابد لهم أن يتكاتفوا معاً لعمل الصالحات. وأن لهم من أجل تحقيق هذا التكافل أن يتحاوروا ويتعارفوا بهدف الوصول إلى لقاء والتعاون على البر والتقوى، وأن لهم أن يأتوا إلى كلمة سواء، وأن يستبقوا الخيرات. ويشهد العالم اليوم حركة واسعة على هذا الصعيد تشمل المؤمنين من مختلف الأديان، وهى تستحق أن تشجع.

إن للإنسان المسلم أن يستشعر مسئولية خاصة فى إطار هذه المسئولية الجماعية، انطلاقاً من اعتقاده بأن الإسلام هو خاتمة الرسالات السماوية وأن الدين عند الله الإسلام، إن الله سبحانه نزَّل الذكر وقال **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** وأنه تعالى أرسل نبيه الأمين رحمة للعالمين. ويستطيع الإنسان المسلم أن ينهض بهذه المسئولية ويقوم بدوره على أكمل وجه من خلال القيام بقراءته المعاصرة لتعاليم دينه، وقرن الفكر بالفعل، وطرح رؤيته المؤمنة

المسلمة للأمور فى العالم أجمع. وإن مما يلفت النظر أن حركة فكرية قوية يشهدها العالم الإسلامى اليوم تسعى للقيام بهذا الدور بروح الاجتهاد والتجديد.

- إن دائرة الحضارة العربية الإسلامية حافلة بالإمكانات التى يمكن أن يوظفها الإنسان المسلم فى القيام بدوره. وقد تناولت كتابات كثيرة بالدراسة لهذه الإمكانات، وبحثت فى إمكانية قيام نظام إقليمى لهذه الدائرة، وفى مكان هذا النظام الإقليمى من نظام عالمى سليم نعمل لإقامته، فى ظل الصحوة التى وضحت معالمها فى عالمنا الإسلامى.

إن عالمنا يشهد ظهور علامات مبشرة فى الأفق - كما يقول شاندرا مظفر فى بحثه القيم «نحو رؤية روحية للإنسان» - منها: قيام جماعات محلية كثيرة هنا وهناك تتعاون على معالجة مشكلاتها، وجماعات البيئة الخضر التى تتعاون لحماية المحيط الحيوى، والناشطين من أجل السلام القائم على العدل، والمدافعين عن حقوق الإنسان، والمصلحين الدينيين، والداعين إلى رفع الظلم عن المرأة والطفل. والإنسان المسلم قادر على الإسهام فى إغناء عمل هذه الجماعات وتحقيق التعاون بينها لإنقاذ العمران الحضارى فى عالمنا.

إن لنا أن نثق بقدرة الإنسان المؤمن فى عالمنا على مواجهة التحديات التى تهدد مستقبل العمران الحضارى، وهو متجه إلى رب العالمين الرحمن الرحيم مقراً وداعياً **﴿إياك نعبد وإياك نستعين • اهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾**. آمين؛ ومقبل على عمل الصالحات والتواصى بالحق والتواصى بالصبر.

مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة

الأستاذ الدكتور/ أحمد الخمليشى
مدير دار الحديث الحسنية
المغـرب

تقديم :

منذ بضعة آلاف من السنين تمكنت التجمعات الإنسانية من إنشاء حضارات متعددة، والسمة المسيطرة على علاقاتها كانت إقصاء كل واحدة منها لما عداها، ومحاولة الانفراد بالقيادة وفرض التبعية على الآخرين. تلاشت حضارات، وذبلت مثيلات لها، ونشأت أخرى لتتواصل سنة التدافع، وتتوالى حلقات حياة الإنسان على الأرض إلى أن يرثها الله ومن عليها.

ندرك اليوم جيداً موقع حضارتنا الإسلامية فى هرم باقى الحضارات، ونتساءل عن مستقبل العلاقة بينها. خصوصاً وقد أطلت نذرها مع بداية هذا القرن، الذى كان يظن بلوغ الإنسانية فيه كامل رشدها، وتجاوزها غرائز الشر والإثم والعدوان، إلى قيم التعايش والتعاون على البر والتقوى.

قيل الكثير عن المستقبل بين الحضارات، وتعددت الآراء ذات اليمين وذات الشمال.

ومن المؤكد أن الرؤية الأقرب إلى الواقعية، للعلاقة المستقبلية بين الحضارات الإسلامية والحضارات الأخرى، ينبغى أن تنطلق من المقومات الأساسية لمفهوم الحضارة، وما نتوفر عليه الآن من تلك المقومات، ثم بناء المستقبل على أخذ العبرة من الماضى والحاضر.

وهذا ما نود تناوله بإيجاز فى فقرتين اثنتين:

الفقرة الأولى : مقومات «الحضارة» وماذا يتوفر منها الآن؟

أولا: المقومات:

كل جماعة بشرية تعيش على الأرض، إلا وتتوفر على مجموعة من المعارف والمعتقدات والنظم والتقاليد، التى تحكم نمط حياتها وعلاقاتها بالآخرين وبالعالم المادى الذى تعيش فيه. لكن ذلك لا يرقى إلى وصفه بمصطلح «الحضارة»؛ حتى يكون فى مستوى أعلى ما وصلت إليه الإنسانية من تلك المعارف والنظم وقيم الحياة وقوانينها، فى الفترة الزمنية المعنية.

فوصف «الحضارة» له مقومات لا يتحقق بدونها وفى مقدمة هذه المقومات:

١ - التمكن من المعرفة التى وصلت إليها الحضارات الرائدة:

معرفة الإنسان غير متناهية كما يقول جابر بن حيان، أو كما يقول ابن الهيثم: العالم قائم على نظام رياضى، وأنه لذلك يمكن السيطرة عليه وتسخيره بحل المعادلات الرياضية التى يقوم عليها نظامه.

ويؤكد الإمام الغزالى أن «المعارف إذا اجتمعت فى القلب [١] وازدوجت فى القلب على ترتيب مخصوص أثمرت أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة، فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر، وهكذا يتمادى النتاج، وتتمادى العلوم، ويتمادى الفكر إلى غير نهاية»[٢].

فوظيفة الإنسان فى هذه الحياة هى مواصلة البناء، والسعى إلى الأفضل ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتوسيع الدائب لدائرة معارفه ومدركاته.

والمجموعة الإنسانية التى يقبل منها أن تقول إنها «متحضرة»، وتمتلك «حضارة» ،تساهم فى «تكوين الإنسان» وتوجيه مسيرته، هى التى تتوفر فعلا على «المعرفة الحاضرة»، وتستطيع بذلك إبراز عبقريتها فى اكتشاف المزيد من المعرفة وفى استعمالها لخير الإنسان ماديا ومعنويا، بدل تدمير حياته وقيمه.

أما المجموعة التى يقف بها واقعها المعرفى فى درجة أدنى [٣] : فينبغى أن تركز على ما ينقصها من المعرفة لتضع قطارها على السكة، كى ينطلق بها بالسرعة والأمان المتوفرين للحضارات الرائدة.

٢ - التعايش وتدبير الاختلاف:

الحضارة الحق هى التى ترسخ بين أبنائها ثقافة التماسك وقبول التعبير عن الرأى الآخر مع المجادلة بالحسنى ووسائل الإقناع. فلا حضارة مع التعصب للرأى، ولا تمدن مع فرض الرأى بالعنف أو بالإقصاء.

الاختلاف سنة من سنن الله **﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾** ولكن الأمة المتحضرة تستطيع تدبير اختلاف المنتمين إليها أيا كان مجاله عرقيا أو لغويا أو فكريا وحتى عقائديا.

وأهم الوسائل التى توصل بها المجتمع الحضارى الحديث إلى تدبير الاختلاف:

- حرية إبداء الرأى فى ظل عدم انتهاك حقوق الآخرين أفراداً ومجتمعاً.

- تشريع النظام القانونى الذى يتجاوز الرأى ويعلوه كى يلزم الجميع ويضبط بدقة علاقات الأفراد ويحدد حقوقهم والتزاماتهم.

- التنظيم المؤسسى للدولة واستبعاد الخلط بينها وبين الأشخاص الذين يساهمون فى تسييرها.

- القدرة على تدبير الاختلاف بمعنى الجمع بين حرية الرأى وتعدده وبين ضبط السلوك وتنظيم المجتمع بقواعد وأحكام موحدة ملزمة للجميع، وذلك عن

طريق التمييز بين التعبير عن الرأى (فرديا أو جماعة) الذى لا يلزم أحداً وبين إقرار الحكم الملزم فى السلوك والعلاقات الاجتماعية.

٣ - القيم التى تحقق التوازن بين حاجات الإنسان المادية والاجتماعية والروحية:

منذ خلق الإنسان وهو فى سعيه وفكره موزع بين الأنانية والغرائز الفردية، والانتماء الاجتماعى، والروحانية التى وجهت تفكيره إلى القوى المسيرة لهذا العالم، إلى أن هدته رسالات السماء إلى إله واحد خالق الكون.

وكما تفاوتت مراحل مسيرته، تفاوت كذلك سلوك أفراده فى الميل إلى هذا الاتجاه أو ذاك.

ويمكن القول إن الواقع الإنسانى اليوم - بما فيه واقع العالم الإسلامى - يتسم بطغيان الأنانية وطموحاتها، وتراجع خطير فى الجانب الروحى والقيم الدينية العليا. وهو ما ينبغى استقصاء أسبابه ودواعيه.

والذى يهمنا الآن هو التأكيد على أن من المقومات الأساسية لمفهوم «الحضارة» وجود توازن لدى ممثليها تنظيراً وممارسة بين النوازع: المادية، والاجتماعية، والدينية.

٤ - مساهمة مجموع الأمة فى صنع «الحضارة» ومسيرتها:

إجمالاً: الحضارات تُبْنَى أسسها العامة على مرجعية دينية، أو مرجعية علمانية بالتعبير الشائع الاستعمال. وفى كلا الحالين فإن العباقرة والرواد هم الذين يرشدون المسيرة ويكشفون عن معالم الطريق المؤدية إلى الأفضل لكن عملهم يبقى فى حدود الإرشاد وأسلوب الإقناع، وبذلك يساهم مجموع الأمة عن وعى واقتناع فى تطبيق القيم، ومبادئ السلوك للأهداف التى يدعو إليها العباقرة والرواد.

٥ - القدرة على التعايش مع الحضارات الأخرى:

لا جدال فى أن نزعة الإقصاء والرغبة فى السيطرة وإبادة الحضارات المنافسة التى كانت سائدة فى الماضى، خفت مظاهرها اليوم، ولم يعد مقبولاً لدى الأغلبية من المفكرين وغيرهم من بنى الإنسان، تداول مصطلح صدام الحضارات وتداعياته.

ولكنها بالتأكيد لم تختف نهائياً من ثقافة الحضارات المعاصرة، ولذلك ما يزال مفروضاً على كل حضارة ترغب فى الاستمرار وفى أداء رسالتها، أن تحصن نفسها بما يجعلها قادرة على الاستمرار فى التعايش.

والقدرة على التعايش توفرها مناعة مادية وأخرى معنوية.

فأهم عناصر المناعة المادية:

المستوى المعرفى - كل أنواع المعرفة الرائجة فى المجتمع المعاصر - وما يرتبط بها من القوتين الاقتصادية والعسكرية[٤] ، وفضلاً عن ذلك نجد التكتلات العملاقة التى استكملت تشكلها أو هى فى الطريق إليه، وما يفتحه أمامها هذا التكتل من آفاق لا حدود لها علميا، واقتصاديا، وسياسيا، وعسكريا. الأمر الذى تعتبر معه مجازفة محفوفة بالمخاطر، محاولة أية حضارة مواصلة السير وهى متشرذمة مفككة الأوصال ، معتمدة على كيانات لا وزن لها ولا رأى لها مع التكتلات المسيطرة على كل أدوات التأثير والتوجيه تفرض «العولمة» بالمواصفات التى تريد.

ثانيا: ماذا نتوفر عليه الآن من مقومات الحضارة؟

أشرنا إلى بعض العناصر التى تشكل المقومات الضرورية لمفهوم الحضارة، والأسس القوية لمواصلة السير وأداء الرسالة.

وإذا كان التساؤل عن مستقبل الحضارة الإسلامية مع الحضارات المعاصرة، فإن الواقع الحالى لهذه الحضارة من مقومات الصمود والمساهمة فى توجيه حياة الإنسان المادية والروحية ـ المسلمون الذين يمثلونها ما هو نصيبهم من المعرفة

والعلوم التى وصل إليها الإنسان ـ ومن القوى الاقتصادية والسياسية والعسكرية المهيمنة، وما هو نهجهم فى الممارسة إزاء التعايش وتدبير الاختلاف؟ وحتى القيم التى نتسارع إلى لوم الحضارة الغربية على إقصائها ماذا نملك منها؟ مثلاً: التسامح، المساواة، الحرية، تحكم الضمير فى السلوك، والصدق فى التعامل.. إلخ.

يقول فوكوياما صاحب نظرية نهاية التاريخ: «إن الصراع بين الديمقراطية الليبرالية الغربية و«الفاشية الإسلامية»[٥] ، ليس صراعاً بين نظامين حضاريين يتمتعان بقابلية البقاء نفسها، ويستطيع كلاهما ركوب العلم والتكنولوجيا، وخلق الثروات والتعامل مع التنوع الموجود فى عالمنا المعاصر. فى هذه المجالات كافة تسيطر المؤسسات الغربية على الأوراق كلها، ولذلك فهى ستستمر فى الانتشار فى العالم على المدى الطويل»[٦] .

والذى يهمنا من هذه العبارة هو قوله: إن المؤسسات الغربية تسيطر على الأوراق كلها ولذلك فهى ستستمر فى الانتشار فى العالم على المدى الطويل. إنها عبارة تفرض علينا الوقوف لديها كثيراً ونحن نتحدث عن مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى.

من بين ما تقوله الإحصائيات المتداولة أن:

- سكان العالم الإسلامى يقربون ربع سكان العالم وحصتهم من الثروة العالمية تقل عن ٦٪.

- ثلثى فقراء العالم تقريباً من المسلمين.

- فى العقود الثلاثة الماضية قتل ما لا يقل عن مليونين ونصف مليون شخص فى حروب جرت داخل أو بين الدول الإسلامية.

- ثمانين فى المائة من الإعدامات سنويا تنفذ فى الدول الإسلامية.

- ثلثى السجناء السياسيين فى العالم يوجدون بسجون دول إسلامية.

- ثمانين فى المائة من لاجىء العالم مسلمون.

– الجامعات العربية تنفق على البحث العلمى ١٪ من ميزانياتها العامة مقابل ٤٠٪ تنفقها الجامعات الأمريكية، ومع هذا المستوى الوضيع للبحث العلمى، يزيد فى هشاشته ما تستنزفه هجرة مليون ومائتى ألف كل عام من البلدان الإسلامية إلى أوروبا وأمريكا الشمالية واستراليا ونيوزيلاندا، من المهاجرين ذوى التعليم العالى.

والقائمة طويلة، لا نجهلها وإنما نتجاهلها.

يضاف إلى كل ذلك التشرذم الذى آلت إليه الكيانات السياسية فى العالم الإسلامى، وهو ما شتت إمكانياته وأفقده المساهمة فى التقرير، وأعجزه عن الدفاع عن حقوقه ضد المعتدين والغاصبين.

لكن هل معنى كل هذا أن العلاقة المستقبلية للحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى وبالأخص حضارة الغرب ستبقى غير متكافئة؟ لا نعتقد ذلك إذا غيرنا ما بأنفسنا. وهنا يأتى السؤال الكبير وهو: بماذا أو كيف يتحقق هذا التغيير؟ الأمر ليس سهلاً ولا بسيطاً – وفى الفقرة التالية نقدم وجهة نظر نأمل أن تلقى العناية بالتحليل، والتعديل والإضافة عسى أن نتدارك ما اقترب من الفوات، وتضافرت العوادى على النيل منه سرا وعلانية.

الفقرة الثانية: – الفوز بالمستقبل يفرض تغيير ما بالنفس وإصلاح الذات وأخذ العبرة من الماضى والحاضر:

قد يبلغ التشاؤم بالمستقبل أشده، تأثراً بمؤشرات الحاضر الذى كشفت الأحداث المتتالية منذ سنة تقريبا – وما تزال - عما كان خافيا منه على الكثير من الناس.

لكن مع كل ذلك ما يزال الأمل قائماً فى إمكانية تحقيق الإنسان لحضارة يوازى فيها بين رغباته المادية وقيمه الاجتماعية والدينية.

فآفة حضارة اليوم هى تنكرها للمرجعية الدينية والقيم الروحية، والاستسلام للأنانية النفعية والرغبة الجامحة فى المتعة.

الابتعاد عن مرجعية الدين مارسته أجيال متعاقبة فى الغرب المسيحى؛ لذا يبدو التراجع عنه هناك مستبعدًا على الأقل فى المدى القريب.

وفى العالم الإسلامى كثير من مظاهر السلوك ومجالات تنظيم العلاقات الاجتماعية لا تقرر فيها المرجعية الدينية التقليدية، فشكل الانفصال الذى ابتدأ فى أوروبا منذ أكثر من قرنين بدأ مسيرته فى المجتمعات الإسلامية تنظيرًا وممارسة. لكن مع هذا الواقع المتشابه، توجد حقيقة أخرى ذات أهمية تنفرد بها هذه المجتمعات وهى إيمان أغلبية أفرادها على الأقل بالعقيدة الدينية إيمانًا لا تعادله أية قيمة أخرى من القيم التى يمكن أن يخلص لها الإنسان، الأمر الذى يعنى أن المسلم إذا زود بقيم دينه وبمبادئه السامية، فإنه لن يتمرد عليها. وإنما سيربط بها كل عمله وإنتاجه أيا كان مجال تخصصه من المعرفة الإنسانية، وبذلك تتحقق الحضارة المرغوب فيها أى القائمة على الفكر والعقل فى ظل قيم الدين ومبادئه القطعية التى توجه العقل وترشده ولا تصادمه أبداً.

ولتحليل الموضوع، نثير السؤالين الآتيين:

١ - لماذا انفصلت الحضارة لدى المجتمع المسيحى عن المرجعية الدينية وانتصرت للعلمانية فصل الدولة عن الدين؟

٢ - ما هى أسباب سريان العدوى إلى المجتمع الإسلامى؟

ونردف الجواب عن السؤالين بخلاصة:

أولا: لماذا انفصلت الحضارة لدى المجتمع المسيحى عن المرجعية الدينية وانتصرت للعلمانية وفصل الدولة عن الدين؟

مما لا اختلاف فيه أن ذلك راجع إلى سببين أساسيين هما:

١ - الجمود الفكرى لدى رجال الدين أو الإكليروس الذين يمثلون الكنيسة الناطقة باسم الله:

إن الفقه أو القانون الذى وضعته الكنيسة لتنظيم معاملات الناس وعلاقاتهم، كان متسمًا بالصفة الأخلاقية والورع وحب الخير للجميع، ولكن فى مجال الفكر

والإبداع «الاجتهاد» كانت حربها صارمة لكل جديد بدعوى حماية المعتقدات الدينية ومقاومة البدعة والهرطقة، ووصل الأمر كما هو معروف إلى إحراق «الزنادقة» بالنار أحياء، كما حدث مع الطبيب الأسبانى ميخائيل سيرفتوس الذى أعدمته الكنيسة عام ١٥٥٣ حرقاً بالنار عن نظريته حول الدورة الدموية، وعن كتابيه: «أخطاء التثليث» و«العودة إلى النصرانية أو إصلاح المسيحية».

وما يزال هذا الجمود قائما إلى الآن، ومن ذلك فتوى الكنيسة الكاثوليكية بتحريم الإخصاب الاصطناعى بين الزوجين اللذين يتعذر عليهما الإخصاب العادى.

٢ - احتكار «رجال الدين» لفهم النصوص الدينية والإفتاء باسمها:

لم تكن الرهبنة ومؤسسة الكنيسة وما امتلكته من اختصاصات، من أصول الديانة المسيحية.

﴿وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾(٧).

كما أن الكنيسة كما هو معروف لم تنشأ إلا مع بداية القرن الرابع الميلادى.

التقاليد إذن هى التى تطورت بالممارسة الدينية إلى أن أصبح لها سدنة يختصون بفتاوى التحليل والتحريم، وتفسير نصوص الكتاب المقدس، وليس لباقى المؤمنين إلا التلقى والتطبيق دون إمكانية المناقشة فبالأحرى الاعتراض.

ماذا كانت نتيجة احتكار التفسير وجموده؟

النتيجة هى أن كل الأفكار الجديدة والعميقة اعتبرت من نتاج العقل ومناهضة للتعاليم الدينية وإن صدرت من أفراد متشبثين بعقيدتهم الدينية.

مثلا جان جاك روسو كان متمسكاً بعقيدته المسيحية وضد الإلحاد، ومع ذلك صنفت أفكاره فى كتابه العقد الاجتماعى Contrat Social ضمن الأفكار العقلانية المستقلة عن التعاليم الدينية، بل والمناهضة لها بالنظر إلى موقف الكنيسة من الاستبداد المؤسس على الحق الإلهى فى الحكم.

لم يقل جان جاك روسو ولا معاصروه إن نظريته مؤسسة على أصول الدين المسيحى أو تفسير لنصوصه لأنه «ليس من أهل الاختصاص» المخول لهم الحديث باسم الدين.

ومعلوم أن نظرية العقد الاجتماعى كانت الركيزة الصلبة لإصلاح النظام السياسى الذى تعتبر كل الإصلاحات الأخرى متفرعة عنه، ونتيجة حتمية لما يوفره للمواطن من مناخ الشعور بالمسئولية والمساهمة بكل طاقاته فى البناء والإضافة.

لو كان مسموحاً لكل مفكر مسيحى أن يخوض فى النصوص الدينية ويربط بها أفكاره، وفعل ذلك جان جاك روسو وأمثاله من رواد النهضة الأوربية المتشبثين بعقيدتهم الدينية - هل كانت هذه النهضة تتنكر للدين، وترتمى فى أحضان العلمانية المادية إلى أن وصلت إلى ما هى عليه من القطيعة المطلقة بالأخلاق الدينية والقيم الروحية؟ (٨).

إذن الخطأ كان من «رجال الدين» الذين عكفوا على الحكاية والتقليد فى تقديم أحكام الدين، وقعد بهم ذلك عن ملاحقة واقع الحياة المتطور مكتفين بإصدار فتاوى التحليل والتحريم مع اعتبار كل من عداهم ممنوعا من الرجوع إلى النصوص المقدسة، وبالأحرى ربط أفكاره بمبادئها وغاياتها(٩).

ثانيا: - ماهى أسباب سريان العدوى إلى المجتمع الإسلامى؟

يسهل القول بأن عدوى الابتعاد عن المرجعية الدينية لم تأت إلا من استعمار الغرب للعالم الإسلامى الذى مكنه من فرض ما كان لديه من تشريعات ونظم، ثم أتبع ذلك بتكوين بعض أبنائه الذين تسلموا الحكم بعد الاستقلال، فواصلوا

«التغريب» الذى أشربوا حبه فى مدرسة المستعمر، وافتتنوا بالقانون «الوضعى» وتنكروا «للفقه الإسلامى» الذى أكثر من تفصيل الأحكام الجزئية إلى حد افتراض وقائع غير قابلة للحدوث. وفضلا عن ذلك «الاجتهاد» مفتوح لكل «من توفر على أدواته» لمواجهة الأوضاع المتجددة فى حياة المجتمع.

وإن ما حدث فى الغرب لا مبرر له فى المجتمع الإسلامى الذى لا وجود فيه لمؤسسة كالكنيسة أو الإكليروس، تتوسط فى قراءة وتفسير نصوص الوحى وتحرم ذلك على بقية المؤمنين بالرسالة.

وسرعان ما كثر «المجتهدون» (عند أهل السنة) حتى تجاوز عددهم فى نهاية القرن الثالث خمسمائة مجتهد فيما قيل. ولأسباب سياسية وتفاديًا للفوضى فى ضبط العلاقات الاجتماعية، تم تقليص عدد المجتهدين إلى خمسة أو أقل، وأطلق على هؤلاء مصطلح «الإمام» الذى يعنى وجوب اقتداء الكافة بهم وعدم الخروج عن «مذاهبهم».

وقد نتج عن هذه المبالغة فى التقليد انغلاق التعليم والمعرفة بشأن تنظيم المجتمع وعلاقة الإنسان بالكون المحيط به - فى نقل حكاية «المروى فى المذهب» رغم أن الكثير منه لم يعد صالحًا للتطبيق[١٠] سواء بالنسبة للواقع الفعلى الذى يعيشه المجتمع الإسلامى[١١]، أومقارنة بالغرب الذى اتسع أفق معرفته فأنشأ تخصصات متعددة فى التعليم، وشرع فى اكتشاف وتسخير «ما فى السموات وما فى الأرض» وتوصل بذلك إلى نظم مبتكرة وجديدة كل الجدة فى مجال تنظيم المجتمع ومؤسساته.

لذلك عندما احتك العالم الإسلامى بالغرب وجد نفسه أمام فراغ فى التخصصات العلمية وما يتبعها من المعرفة أفقيا وعموديا، وفى خصاص كبير إزاء التنظيم الشامل للمجتمع ولمؤسساته. هذا هو السبب الحقيقى لنقله ما لدى الآخرين المؤسس على فلسفة العلمانية المستقلة عن المرجعية الدينية. وإذا أردنا بناء حضارة مستظلة بالمرجعية الدينية، تعين تثبيت الأساس الذى تقوم عليه أركانه وأعمدته.

وفيما يلى تلخيص لوجهة نظر نأمل تقويمها وتقويتها، لأن الموضوع يرتبط به المصير، فلا يكفى لاستقصائه رأى أو بضعة آراء.

خــلاصــة :

استطلاع مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى، يفرض معرفة واقعها الحاضر، والبحث عن وسائل تدارك المستقبل.

أولاً : الحــاضر :

من نذر الحاضر:

١ - معاناة الأمة من خصائص كبيرة فى المؤهلات الحضارية: العلمية منه، والسياسية والاقتصادية، والعسكرية.

٢ - التكوين بمؤسسات التعليم وفى مختلف التخصصات[١٢] يتم بمعزل عن المرجعية الدينية، وإذا قدمت للتلميذ بعض المواد الدينية فإن الأمر يقتصر على جزئيات فقهية، يتلقاها جامدة، يبقى معها بعيداً عن فهم رسالة الإسلام اعتقادا وسلوكًا، وإن أنفق الكثير من الوقت فى حفظ واستحضار ما تلقاه.

٣ - التكوين فى مؤسسات «التعليم الدينى» بمختلف المصطلحات التى تطلق عليه، يتميز بوصفين:

- الانعزال عن أهم فروع المعرفة التى لا غنى عنها للمجتمعات المعاصرة.

- الانغلاق الطائفى والمذهبى، والاقتصار على النقل والحفظ بدل الفهم والتحليل والرغبة فى الإبداع.

٤ - انتشار ثقافة تقسيم المسلمين إلى فئتين: الأولى وهى الأغلبية المطلقة، لا يشعرون بالمسئولية الشخصية عن إهمال فهم قيم الإسلام والمبادئ الأساسية التى تقوم عليها رسالته، وإنما يؤمنون بكفاية «التلقى» من الفئة الثانية التى يعتبر المنتسبون إليها أنهم «مؤتمنون» على نقل ما «استحفظوا» من فقه الأئمة وآرائهم[١٣]، دون أن يشعروا هم كذلك بالمسئولية عن إهمال «الاجتهاد» والنظر فى مآلات الأفعال المقررة فى أصول الفقه.

ثانياً : وسائل تدارك المستقبل :

رغم مثبطات الحاضر، يمكن تأمين المستقبل إذا أعدت له عدته، وصدق العزم.

من وسائل تأمين المستقبل :

١ – العقيدة الدينية الواعية، فقد سبقت الإشارة إلى تميز المجتمع الإسلامى بقوة العقيدة كقيمة عليا لا تضاهيها قيمة أخرى. ولكن للاستفادة منها كأهم عنصر فى حضارة المستقبل، يتعين أن تؤسس لدى الفرد على الوعى والفهم العميق لأسسها التى نزل بها الوحى مع الإدراك المجمل للحقائق التى تربطه وبما يحيط به فى هذا العالم.

أما العقيدة القائمة على التلقى والإدراك السطحى، فقد تنقلب إلى آلة تدمير بدل وسيلة تعمير. وواقعنا منذ حوالى عقدين إلى الآن يغنى عن سرد الأمثلة.

٢ – لتحقيق الاستفادة من العقيدة الدينية، لا غنى عن الانطلاق من إصلاح «تعليم الدين» وذلك بتفريعه إلى:

(أ) تكوين مركز على الوعى بمفهوم الدين وبقيم الفكر والسلوك التى يؤدى بها الإنسان الأمانة التى تحملها بعد أن أبت حملها السموات والأرض.

وهذا يتم فى مرحلة الثانوى لجميع الأفراد ضمن ما يسمى بالتكوين العام. وبذلك يتمكن المسلم أيا كان تخصصه فيما بعد من البقاء مرتبطا بقيم دينه فى الفكر والإنتاج والسلوك. ويساهم بالتالى فى نشر الحضارة الإسلامية ونموها بدل الانفصال عن الهوية والارتماء فى أحضان فكر الآخرين كما يحدث الآن، نتيجة طبيعة التكوين الملقن قبل وأثناء التخصص.

(ب) تكوين تفصيلى أو متخصص فى نصوص الشريعة وأحكامها. ومهام هذا التكوين:

– المساعدة والإرشاد إلى الفهم السليم لأحكام الدين بالبيان والإقناع، وليس بالإملاء وفتاوى التحليل والتحريم.

- قراءة نصوص الوحى وتطبيقها على واقع الحياة المعيشية، وإنهاء أسلوب النقل والحكاية.

- المساهمة فى صياغة «فقه إسلامى» حقيقى أى يعالج العلاقات التى يحتاج المجتمع فعلا إلى تنظيمها، بدل الاكتفاء بنقل ما قاله السابقون الذى كان فى حينه «فقها إسلاميا» يقدم الحلول لكل أسئلة الواقع، أما الآن فالآلاف والآلاف من الأسئلة لا تلقى جوابا(١٤).

٣ - السعى الحثيث إلى التمكن من المعرفة التى وصل إليها الإنسان فى كل فروعها وتخصصاتها لأنها السبيل الوحيد:

- لاكتساب باقى مؤهلات الحضارة من نمو إنسانى، ورخاء اقتصادى وقوة رادعة للمعتدى(١٥).

- لفرض الحضور فى «نادى الحضارات» والمساهمة فى التقرير، وتوجيه مسيرة الإنسان فكراً وسلوكاً.

٤ - التخلى عن الفتاوى الفردية بالتحليل والتحريم والمساس بعقيدة الآخرين باسم الدين، وبأسلوب الإخبار عن الله وشريعته. وتعويض ذلك بالتفصيل:

- بين إبداء الرأى بمعنى الاقتناع الشخصى بأن واقعة ما حكمها الشرعى هو كذا اعتمادا على المؤيدات التى يبينها صاحب الرأى. وهو لا يلزم أحدا أيا كان من صدر منه، نعم تبقى أهمية الرأى المعبر عنه مرتبطة بالمؤيدات التى أسس عليها.

- وبين إضفاء الصفة الإلزامية على حكم ما باعتباره حكما شرعيا يجب على الجميع تطبيقه والخضوع له. وهذا يتعين أن يوكل إلى «مؤسسة» يسند إليها المجتمع إقرار الأحكام الإلزامية بصرف النظر عن كون الحكم المعنى متفقًا عليه أو مختلفا فيه بين عدة آراء. وبذلك يكتسب «الحكم الشرعى» حرمته ومصداقيته، بدل الفوضى الحالية الناجمة عن فتاوى التحليل والتحريم الفردية.

ومن الضرورى أن تكون المؤسسة منتخبة على غرار البرلمانات القائمة اليوم أو بأية طريقة أخرى أكثر تحقيقًا لتمثيل الأمة.

نعلم جميعًا حقيقة الانتخابات فى العالم الإسلامى عمومًا، ولكن إذا كنا عاجزين عن إصلاح سلوكنا وعلاج انحرافاتنا، فإن الحديث عن بناء حضارة إسلامية مكافئة لحضارة الغرب أو تفوقها يبقى حديث نفاق وخداع والسكوت خير منه قطعاً.

﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾[١٦].

فالمسلمون المبشرون فى الآية هم القادرون على تمييز القول الأحسن من غيره عند تعدد الآراء التى يستمعون إليها. أما الذين يكتفون بالتلقى، وليس لهم قلوب يفقهون بها ما تلقوه فبعيدون عن الهداية. وحولنا عشرات المجتمعات منها الواعية ومنها غير الواعية، فأى واقع يعيشه كل نوع منهما؟.

والله من وراء القصد، وهو الهادى إلى سواء السبيل.

الـربـاط ٢٠٠٢/٤/١٥

الهوامش

(١) يقول الإمام الغزالى: إنه لا يعنى بالقلب اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر وإنما الذى يعنيه هو لطيفة ربانية... وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب، والمعاقب، والمعاتب، والمطالب - إحياء علوم الدين - الغزالى - ٤/٣.

(٢) نفس المرجع - ٥٢٩/٤.

(٣) ولعل واقع التعليم ونسبة الأمية فى العالم الإسلامى، يغنى عن كل تعليق.

(٤) والاحداث الأخيرة خير شاهد على ذلك.

(٥) هذه العبارة المعبرة عن الخلفية الأيديولوجية لفوكوياما، يحاول شرحها بقوله فى ذات المقال: «يمكن توضيح الأمور بالقول إن الصراع الحالى ليس ببساطة معركة ضد الإرهاب، ولا ضد الإسلام كدين او حضارة ولكنه صراع ضد الفاشية الإسلامية، أى العقيدة الأصولية غير المتسامحة، التى تقف ضد الحداثة والتى انبعثت حديثا فى أجزاء عديدة من العالم الإسلامى».

(٦) من مقال له فى نيوزويك الأمريكية بتاريخ ٢٠٠١/١٢/٢٥.

(٧) آية ٢٧ سورة الحديد.

(٨) ومن المفارقات التى تستحق التوقف والتأمل، أن عدداً غير قليل اليوم من مفكرى الغرب يرون أن حضارتهم نسخة علمانية للمسيحية وأن «الديمقراطية الحديثة نسخة علمانية للمبدأ المسيحى فى المساواة الإنسانية عالميا»

- فوكوياما فى مقاله السالف الذكر - لكن هيهات الآن للناس أن يصغوا لهذه المقالة بعد أن ترسخ فى ثقافة الأجيال المتعاقبة أن النهضة كانت تنويراً عقلانياً على حساب اللاهوت والميتافيزيقا، المنتسبين إلى اللامعقول.

(٩) ألا نسير نحن على نفس النهج؟

- فصل ما يطلق عليه «التعليم الدينى» عن مجمل وقائع الحياة وتطوراتها.

- رفع شعار : «لا يجوز أن يخوض فى الأحكام الشرعية إلا أهل الاختصاص».

- كل ما ينتجه المفكرون والباحثون وأساتذة الجامعات المسلمون غير المتخرجين من «التعليم الدينى» فى العلوم الإنسانية والعلوم الدقيقة بمختلف فروعها

- يصنف فى خانة الإنتاج «الوضعى» أى العلمانى بالاصطلاح الغربى.

فإذا كان «التعليم الدينى» غائبا - أو يكاد - فى إنتاج ومواصلة إنتاج ما تحتاجه الأمة فى كل تخصصات ما يصطلح عليه بالعلوم الإنسانية والدقيقة، وإنتاج «التعليم الآخر» «وضعى» فكيف نتصور بناء «حضارة إسلامية مكافئة على الأقل للحضارات الأخرى؟..

(١٠) لا نقول هذا جزافاً، وإنما هو الواقع المؤكد:

- فى ما لم يتناوله السابقون بالمناقشة لعدم حاجتهم إليه، مثل: موضوعات قوانين الحريات العامة، والانتخابات، والسير، والنقل الجوى، ومجالات أخرى لاحصر لها يفرضها التوسع المستمر لمعرفة الإنسان وما يتبع ذلك من تطور فى علاقاته بمن وبما حوله.

- فى مناقشه السابقون بالبساطة التى كانت كافية للواقع الاجتماعى القائم كمؤسسات الدولة، وأعوانها، وموظفيها، ومداخيل الخزينة العامة (بيت المال) ونظام إنفاقها، والعلاقات والاتفاقات بين الدول... إلخ.

- بل حتى فى ما فصل فيه المتقدمون الحديث وأطالوا فى تفريع جزئياته، مثل كثير من العقود، والشركات والحقوق العينية كالملكية والرهن، ونظام القضاء، وإجراءات المحاكمة بفروعها المختلفة، ووسائل الإثبات....إلخ.

(١١) مثلاً الفقه بقى يناقش موارد بيت المال «كما وردت عند أبى يوسف فى نهاية القرن الثانى، والحال أن هذه الموارد كلها انتهى وجودها فى زمن مبكر من قيام الدولة الإسلامية. ومثل ذلك تقسيم العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب أو الكفر، والمتساكنين فى «أرض الإسلام» إلى «مسلمين وأهل ذمة».

(١٢) هذه الظروف يمكن إرجاعها إلى:

- الموروث الثقافى المستمد من المجتمعين اليهودى والمسيحى المنتشرين فى أماكن غير بعيدة عن مهد الدعوة الإسلامية فضلا عن دخول عدد غير قليل من اليهود والمسيحيين فى الدين الجديد دون أن يستطيعوا التخلص من المعتقدات القائمة على حق الأحبار والرهبان وحدهم فى تفسير نصوص الدين وبيان أحكامها.

- كثرة من دخل الإسلام من غير العرب، حيث اضطرهم عدم معرفة لغة القرآن إلى الاكتفاء بما يقدمه إليهم المتقنون لهذه اللغة، وما يضيفونه من شروح واستنتاجات...

(١٣) ليس معنى ذلك أن الرجوع إلى نصوص الكتاب والسنة الثابتة، يختفى معه تعدد الآراء، وإنما الذى يتحقق هو «الاجتهاد» فى تفسير نصوص الوحى على ضوء واقع الإنسان المتطور معرفة وسلوكا، بدل الاكتفاء بنقل ما قاله السابقون وفقا لظروف الواقع والمعرفة التى عاشوا فيها.

أما تعدد الآراء فيتم تدبيره أو الفصل بين «الرأى» الذى هو «اقتناع شخصى» بحقيقة ما من الإنتقال به إلى وصف «الحكم» أو «القاعدة الملزمة» الذى يفرض تحديد « المؤسسة» المؤهلة لتقديم هذا، وهو اغفل قديما فتشتتت الأمة الواحدة إلى طوائف ومذاهب قددا.

وكثيراً ما نشاهد فى الفضائيات التليفزيونية واعظين ومرشدين يرددون: إن هذا ليس قولى ولا رأيى، وإنما هو قول الله أو قول رسوله ثم يتلو آية أو حديثاً نبويًا. والحال أن الأمر يتعلق برأى اجتهادى يخالفه رأى أو آراء اجتهادية أخرى فى تفسير الآية أو فى تفسير الحديث أو صحته.

(١٤) بما فى ذلك التخصص المستوعب لموضوع «فقه المعاملات» وهو القانون بمختلف فروعه حيث ما يزال مرتبطاً بمرجعيته المستحدثة فى أصوله وقواعده، مفصولاً عن أصول الفقه وقواعده.

(١٥) فالفقه ما يزال يقدم بالمعنى الذى انتقده الغزالى عندما قال إنهم «خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة فى الفتاوى، والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها. فمن كان أشد تعمقاً فيها وأكثر اشتغالاً بها يقال هو الأفقه. إحياء علوم الدين ٤٨/١.

(١٦) آية ١٧، ١٨ سورة الزمر.

مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات المعاصرة

الأستاذ الدكتور / بو عبد الله غلام الله

وزير الشئون الدينية والأوقاف

الجزائــــر

إنها لمناسبة سعيدة تتاح لى لأشترك مع معاليكم فى أعمال المؤتمر العام الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، برئاسة الأستاذ الدكتور/ محمود حمدى زقزوق معالى وزير الأوقاف، الذى أشكره جزيل الشكر على الدعوة الكريمة، التى سمحت لى بالوقوف اليوم أمامكم، لأسهم بهذه المداخلة فى إثراء موضوع «مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات المعاصرة».

ويطيب لى أن أنوّه فى البداية بحسن اختيار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية للمحور الذى تدور حوله موضوعات هذا الملتقى المبارك، ألا وهو «حقيقة الإسلام فى عالم متغير».

أيها السادة الكرام:

ما من شك فى أن أى تصور لمستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية المعاصرة لابد من أن ينطلق أصلاً من الوضع الحضارى الراهن بين هذين القطبين، وذلك لرصد مختلف التناقضات التى تسهم فى

تشكيل كل من هذين الوضعين الحضاريين المتميزين ـ من جهة ـ ولرصد الخلفية العقيدية والفكرية والثقافية التى شكلت نظرة كل منهما للآخر، ومن ثم موقفه منه وتصوره لمستقبل علاقته معه، من جهة ثانية.

فهناك إذن ـ من الناحية المنهجية ـ مسائل مترابطة لا يمكن رسم ملامح العلاقة المستقبلية هذه من دون التطرق إليها؛ منها واقع الحضارة الغربية وتناقضاتها، وموقف هذه الحضارة من الإسلام، والوضع الحضارى للمسلمين، ومصالحتهم للذات واستكمال شروط النهوض الحضارى، ثم تصور طبيعة علاقتهم مع غيرهم.

أيها السادة الكرام:

لقد بات معروفاً أن الحضارة الغربية تتميز بروح الهيمنة؛ وهذا ما جعلها تفرز تناقضات صارخة بين ما تعلنه من مبادئ وترفعه من شعار وبين نفوذها فى الواقع وتأثيرها السلبى المنافى لتلك المبادئ المعلنة.

وهذه الروح لها ما يفسّرها؛ فالغربيون كانوا يقولون إنهم ورثة الحضارة اليونانية الإغريقية، والآن أصبحوا يقولون إنهم ورثة الحضارة اليهودية المسيحية، والمعنى الضمنى لهذا التغير هو إضفاء طابع الرسالة على هذه الحضارة؛ أى أن لها بعداً دينيا سماويا وهذا البعد هو الذى يشكل الخلفية العقيدية للفكر الغربى الذى يتبنى اليوم فكرة إخضاع الحضارات الأخرى لنموذج واحد هو النموذج الغربى؛ وبخاصة منها الحضارة الإسلامية.

الحضارة الغربية تلغى التعددية الكونية التى هى سنة الله فى الخلق؛ فلا تعترف بالآخر ثقافيا وإعلاميا واقتصاديا؛ لأن هدفها الوحيد هو تصدير النمط الغربى الليبرالى بقيادة أمريكا.

يكفى أن نرجع إلى مختلف الإعلانات المعاصرة من مثل حقوق الإنسان، حقوق الطفل، حقوق المرأة.. وما إلى ذلك كلها إعلانات تريد أن تكون عالمية وما هى فى الواقع إلا تعبير عن النظرة الغربية، ولم تأخذ أبداً فى عين الاعتبار نظرة الحضارة الإسلامية فى الموضوع.

الحضارة الغربية المادية ـ كما يقول المفكر الفرنسى المسلم رجاء جارودى «أستاذ فى تعليم الإنسان كيف يعيش، لكنها عاجزة عن تعليمه لمن يعيش ولماذا يعيش؟!».

لقد جعلت هذه الحضارة من الإنسان الغربى عملاقاً ضخماً بفضل تقدمها المذهل فى مجال الكشوف العلمية والعلوم التكنولوجية؛ ولكن معنى وجوده أصبح محورا فى صراعين: صراع مع غيره فى المجال المادى الاقتصادى، وصراع مع نفسه فى المجال الفكرى العقيدى.

لقد مكنته التكنولوجية المتطورة من القدرة على تسخير الكون والطبيعة، لكنها فى موازاة ذلك أورثته فلسفة اليأس والإحساس بالضياع وعبثية الحياة؛ كما نفخت هذه القوة فى غروره فوسع دائرة تفوقه العلمى التكنولوجى إلى دائرة العقائد والأفكار والقيم فنصّب نفسه مشرّعاً وحكماً وحامياً، فى نزعة استعلائية إقصائية عنيدة؛ يتبنى هو ثقافة الحرب والغزو والهيمنة العسكرية والحضارية ويؤكد فى الوقت نفسه أن قدر الآخر هو التشبع بفلسفة السلام والإذعان والتبعية؛ أما ثقافة الكرامة الإنسانية التى تدعو إلى إقامة العدل بين الناس أفراداً وجماعات، شعوباً وأمماً؛ وإلى احترام الخصوصيات العقيدية والثقافية وإلى التعارف والتعاون فإنه لا يقيم لها وزناً.

إن حضارة تقوم على تفضيل جنس بعينه على سائر الأجناس وتستبيح اغتصاب ما عنده، باسم الريادة الحضارية والتبنى الحضارى، وتفتقد ذلك المبدأ العام المقدس الذى هو تحريم الاعتداء على الكليات الخمس، هى حضارة غير إنسانية.

إنه لا يحق بحال لأى اجتهاد وضعى أن يشرّع للبشرية كلها، مهما تكن عبقريته، وليس أدل على ذلك من أن القيم التى تبثها العولمة هى نتاج حضارة أفلست روحيا وأخلاقيا، تَدَّعِى خدمة الإنسان وهى تدمّر فيه مقومات الإنسان؛ إذ الحرية عندها هى حرية الجنس والمعتقد والإيمان بأن البقاء للأقوى لا للأصلح؛ يغذى كل ذلك روح الهيمنة والإقصاء وأحادية الطرح؛ ويُرَسِّخه فى الفكر الغربى وفى وجدانه خطاب يحظى بالرواج والقبول يمثله مفكرون تشربوا هذه الفكرة من أمثال فرانسيس فوكوياما الذى يقول فى كتابه «نهاية التاريخ: «ويبدو لى الجنس البشرى كما لو كان قطاراً طويلاً من العربات الخشبية التى

تجرها الجياد، متجهاً إلى مدينة بعينها عبر طريق طويل فى قلب الصحراء؛ وفعلا يصل أغلب هذه العربات إلى المدينة فى النهاية؛ وهذه العربات عندما تصل لا يختلف بعضها عن بعض إلا فى شىء واحد هو توقيت وصولها إلى المدينة، سرعة أو بطء وصولها إلى الديمقراطية الليبرالية ومن ثم إلى نهاية رحلتها الطويلة، نهاية التاريخ».

يتبين لنا، من مثل هذا الفكر، أن التاريخ والحضارة والمدنية والإنسانية، هى فقط ما دار فى فلك النمط الأمريكى الغربى؛ أما ما خالف ذلك فهو خارج التاريخ والحضارة لا يستحق الاهتمام!.

وهكذا أصبح هذا الفكر ـ باسم الرقى الحضارى وحقوق الإنسان ـ يفرض مفاهيم غربية: اجتماعية اقتصادية سياسية؛ معتبراً كل مخالف لها سواء باسم الدين أو الخصوصية الثقافية، انحرافاً وشذوذاً حضاريا أو إرهاباً مدمّراً للحضارة الغربية.

ويرى هذا الفكر فى الإسلام، بصفة خاصة، العائق الأكبر لامتداد قيم الغرب ومبادئه.

فمن المعلوم أن الغرب ـ بعد انتهاء الحرب الباردة وزوال الثنائية القطبية ـ بدأ التفكير فى مستقبل العلاقة بين حضارته والحضارات الأخرى، ولقد ظهر تيار فكرى يؤمن بالحوار بين الحضارات، وإن كان هذا التيار بعيداً عن الأضواء لا يُروَّج له كثيراً؛ فهو يؤمن بتداول الحضارات والتاريخ يشهد لهم بذلك؛ فالحضارة اليونانية لم تنطلق من العدم، والحضارة العربية الإسلامية استفادت من حضارات الفرس والهند واليونان، تماماً مثلما استلهمت النهضة الأوروبية عطاء الحضارة العربية الإسلامية؛ ممثلو هذا التيار يؤمنون بأن تقديم الإسلام اليوم على أنه خطر على الغرب هو توهم مصنوع، وهو ما يعرف أو يسمى «العدو الضرورى» أى أن هناك عوامل وأسباباً أخرى تفسّر التصعيد الذى يشهده هذا الزعم «الإسلام خطر على الغرب» وهذه الأسباب الحقيقية تتمثل فى كون الغرب اليوم، بزعامة أمريكا ـ فى غياب الاتحاد السوفياتى أى الشيوعية، العدو التقليدى ـ قد وجد نفسه فى حاجة مصيرية إلى عدو يحل محله؛ عدو كفء يعطى معنى لميزانيات التسلح وسياسة الهيمنة العسكرية والحضارية والاقتصادية التى ينتهجها.

ويحلو لأصحاب هذاالتوجه أن يروجوا لكل ما من شأنه أن يعزز هذا الزعم، ويؤكد أن الإسلام هو الخطر الأكبر الذى يهدد أمن الغرب وكيانه.

ولعل أحسن مثال لذلك، ما لقيه من رواج واسع كتاب صامويل هنتغتن «صدام الحضارات» الذى يقول فيه: «المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام نفسه؛ فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته، وهاجسه ضآلة قوته(١)».

والخلفية الفلسفية لهذا الفكر تتمثل فى مبدأ يقول: من خالفنا كان خطراً علينا؛ وبما أن الإسلام هو الذى يشكل الكيان الحضارى الأكثر تميّزاً وخصوصية، فإنه لذلك، الأكثر مخالفة للغرب، أى العدو الأكبر بالضرورة.

ولا يقتصر الأمر على مجال الفكر، بل إن هناك إرادة واضحة لتشويه صورة الإسلام يصنعها إلى جانب الكُتَّاب والمفكرين، المزاج السياسى الغربى الأمريكى بشكل خاص؛ مجسداً فى هوليوود، الذى ينفق مبالغ خيالية لإنتاج أفلام تعادى الإسلام وقيمه ومبادئه، وترسخ فى الأذهان اقترانه بالعنف والإرهاب والتخلف ومعاداة العلم والعقل والإنسان والحضارة؛ وفى مقابل ذلك إظهار تعاطف كبير مع كل من يعادى الإسلام، باسم حرية المعتقد وما إلى ذلك.

فعندما تُعرض مثلاً العلاقة التاريخية بين الإسلام والغرب المسيحى عموماً؛ فإن هذه العلاقة تجرد كلية من أى تفاعل حضارى إيجابى أو حوار بناء أو تفاعل مثمر،؛ بل يركز فقط على الجانب الدموى الصدامى الحربى بينهما، ليوهموا أن الصراع والتصادم أمر حتمى بينهما اليوم بحكم طبيعة كل منهما؛ أى الحداثة والديمقراطية والعلمانية وحقوق الإنسان، باعتبارها الخصائص المكونة للحضارة الغربية، ومعاداة الإسلام لذلك كله فى زعمهم.

الإسلام فى نظرهم يقوم أصلاً على الإكراه والعنف، وهو يدعو إلى إخضاع غير المسلمين للإسلام بقوة السيف؛ وأن هذه الروح المعادية للغرب هى سبب الصراع؛ بينما الصراع فى الحقيقة تولد عندما شرع الغرب فى فرض نموذجه الحضارى اليهودى المسيحى، بعد تبرئة اليهود، واعتذار المسيحية لهم.

إن تصحيح نظرة الغرب إلى الإسلام، مسؤولية يقع ثقلها على المسلمين أنفسهم، فهناك مفاهيم إسلامية أسيء فهمها وتأويلها جهلاً حيناً وعن قصد أحيانا كثيرة، ساهمت فى تشويه حقيقة الإسلام، ولعل أهمها جميعاً مفهوم الجهاد.

فلا يكفى مثلاً أن نردد للغربيين أن الإسلام دين السلام والأمن والحوار والتفاعل الإيجابى واحترام الآخر؛ وأنه رسالة حضارية إنسانية، وأنه أمن وسلام على البشرية، إذا نحن لم نصحح فى أذهانهم هذا المفهوم الذى يفيد عندهم إعلان الحرب الدائمة على غير المسلمين حتى يُسْلِموا، وإضمار الكره لهم واستباحة حياتهم وأعراضهم وأموالهم واعتبار ذلك كله تقربا إلى الله.

فالمسلمون - بهذا المفهوم الخاطيء - يمثلون فى نظر الغرب كياناً عدوانيا يشكل خطرا دائما على البشرية، وكأن الإسلام يحمل رسالة انقلابية، تؤمن بحتمية الصراع الدموى الأبدى بين الحق الذى يمثله والباطل الذى يمثله غير المسلمين من الديانات والحضارات الأخرى.

إن تصحيح هذا المفهوم - مفهوم الجهاد - فى أذهان الغربيين ينبغى أن يكون وفق بيان النسق العام الذى يقوم عليه الإسلام أصلاً وبصفة شاملة.

فالإنسان فى المنظور الإسلامى خُلق لعمارة الأرض **﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾**. (البقرة/ الآية ٣٠)؛ والخالق سبحانه ينادى الناس جميعاً لأنهم جميعاً من آدم؛ **﴿يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم﴾**. (الأعراف/ الآية ٢٦)؛ فالتكريم الإلهى فى مخاطبة الناس جميعا هو للإنسانية **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة﴾**. (النساء/ الآية ١). من أجل ذلك جعل الإسلام التعبير عن تقدير هذا التكريم الإلهى هو الخلق الحسن، أى المعاملة الحسنة التى تقصد لذاتها، من غير اعتبار لدين أو جنس أو لغة أو ثقافة **﴿ادفع بالتى هى أحسن﴾**. (فصلت/ الآية ٣٤) وكذا قوله سبحانه: **﴿خذ العفو وأمر بالعرف﴾**. (الأعراف/ الآية ١٩٩).

فليس غريباً أن يكون السلام فى الإسلام، بناء على ذلك كله، أساس كل علاقة، سواء بين الأفراد أو الجماعات أو الأمم؛ وأن يكون تحية كل مؤمن لنبيه **﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾**. (الأحزاب / الآية ٥٦) وتحية المؤمنين بعضهم على بعض **﴿فسلموا على أنفسكم﴾**. (النور/ الآية ٦١).

عندما تُقَدَّم هذه الحقائق الأساسية ناصعة للإنسان الغربى، فإنه يتيقن بنفسه من أن الدين الذى يحل السلام هذا المقام لا يمكن بحال أن يرضى عن أى لون من ألوان أو الإكراه أو التطرف أو الغلو أو التعصب؛ ولا يكون هذا الدين حينئذٍ إلا نابذاً لكل ما يثير الضغائن والأحقاد المؤدّية إلى الصدام والعنف، فلا بد من توضيح قاعدة أساسية هى أن الإسلام دين يحرّم الاعتداء والحرب أصلاً، ولا يبيحها إلا فى حالة الدفاع عن حرمة الإنسان ومقدسات الدين والوطن؛ والجهاد الذى يساء فهمه وتأويله لم يشرع إلا فى هذا السياق، فأول آية شرّعت الجهاد كانت مقرونة برد البغى والعدوان، لا المبادرة به ابتداء؛ **﴿أُذِنَ للذين يُقَاتَلُون بأنهم ظُلِمُوا﴾**. (الحج/ الآية ٣٩).

فالجهاد طاعة لله ورسوله، فلا يكون إلا وفق ما أمر الله به ورسوله؛ أى حفاظاً على الكليات الخمس، وإقراراً لمبادئ الحرية والعدل وتحقيقاً للأمن والسلام فى العالم؛ فلا إكراه ولا بغى ولا عدوان ولا ظلم، مهما يكن الدافع لذلك؛ ولهذا كانت دائماً العلاقة القائمة بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم علاقة مسالمة وتعايش وحوار.

فالسلم فى الإسلام هو الأساس، والحرب استثناء طارئ تفرضه دواعٍ خارجة عن إرادة الأمة الإسلامية؛ تقوم بها فى هذه الحالة الدفاعية امتثالاً لأمر الله سبحانه، لا رغبة فى الاعتداء والبغى **﴿وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها﴾**. (الأنفال/ الآية ٦١).

وهذا المبدأ السامى الذى وضعه الإسلام هو الذى يفسر ذلك التراث المشرق من آداب القتال والحرب والأخلاقيات العالية التى يتحلى بها المجاهد دائما؛ إن المفهوم الخاطئ للجهاد يجد ـ كما أسلفت ـ من يروج له فى الغرب لتشويه حقيقة الإسلام وإبرازه كخطر عليه؛ والحق أن هؤلاء يجدون عند بعض المسلمين الجاهلين بحقيقة دينهم ما يُقوِّى عندهم هذا الزعم الباطل.

فهولاء المسلمون يسيؤون إلى دينهم بسبب جهلهم وسوء تمثيلهم له؛ وبخاصة فهمهم الخاطئ للجهاد؛ إن الجهاد فى هذا العصر، بالنسبة للأمة الإسلامية، فيما عدا رد عدوان أو استرجاع حق غصب بالقوة، يتمثل فى استفراغ الجهد والطاقة من أجل القضاء على الجهل والفقر والتخلف، بالإيمان والعلم والعمل،

فى إطار وحدة جامعة تمكن من إقامة المشروع النهضوى الإسلامى المتميز، الذى يغرى غيره من الأمم بصلاحه وحسنه وخيريته وريادته الحضارية، فيفرض نفسه ـ لا بالقوة ـ لكن بالحضور والإقناع، فيقبل عليه غيره، تابعا مقلدا مستأنسا، باعتبار هذا الكيان الحضارى الإسلامى قدوة جاذبة مؤثرة.

إن هذه الحقيقة الكبيرة، أو هذه الخاصية التى يتميز بها الإسلام هى التى ينبغى «الجهاد» من أجل تجسيد مضمونها فى الواقع الحضارى الراهن كبديل للعولمة، بصفتها نزعة احتوائية تلغى الخصوصيات وتفرض نمطاً أحادياً من القيم وأساليب العيش.

الإسلام يدعو إلى العالمية لا إلى العولمة؛ ومعناها أن يعرض كل دين وكل إيديولوجية وكل جنس بضاعته الحضارية، أمام الفكر الحر والإرادة السيدة لباقى الشعوب والأمم والحضارات، دونما ضغط أو إكراه، ليكون بعد ذلك الاختيار عن قناعة وشعور بالجدوى؛ وفى هذه الحال فقط يكون البقاء للأصلح حقا لا للمفروض قسراً وإكراهاً؛ لأن الإسلام يقوم على الوحدة الإنسانية، لا العرقية أو الدينية أو اللغوية وما إلى ذلك؛ ولأن الإسلام حق؛ والباطل هو الذى يخشى الحجة والبرهان ويلغى الآخر ويصادره؛ أما الحق فإنه وحده الذى لا يضيق بحوار بناء، يذعن فيه طرفاه لما هو أصح وأحسن وأقوم، لأنه يتعامل بمنطق **﴿قل هاتوا برهانكم﴾** (البقرة الآية ١١١) مهما يكن نوع الاختلاف ومجاله؛ فشتان مابين العالمية والعولمة؛ فالعالمية بمعنى انفتاح الأمم بعضها على بعض هى سنة من سنن الله فى خلقه **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾**. (الحجرات/ الآية ١٣)؛ ومعناها السمو بالخصوصية الحضارية إلى العالمية؛ أما العولمة فإنها إقصاء وإلغاء لهذه الخصوصية ونزوع خطير إلى احتواء العالم.

لكن الإسلام اليوم لا يزال يعيش بنفسه لا بأهله، والمسلمون مدعوون إلى تصحيح فهمهم لدينهم ولذاتهم وتاريخهم ليضمنوا إصلاح واقعهم الحافل بالمتناقضات، والتخطيط لمستقبلهم ومستقبل علاقتهم بغيرهم من الأمم والحضارات.

إن المتأمل فى التناقضات التى يعيشها المسلمون اليوم، بين سمو العقيدة والهوان على الناس، بين غنى التراث الفكرى والروحى والأدبى، وبين أعراض سوء التغذية الروحية والفكرية والأدبية؛ بين التوثب والطموح وبين التعثر، والاصطدام بالواقع الكابح بثقله وصرامته؛ إن هذا المتأمل يدرك أن هذه التناقضات جميعاً أعراض مختلفة لمرض واحد، أو نتائج عديدة لسبب جوهرى واحد هو اهتزاز مرجعيتهم الحضارية القائمة على الإسلام عقيدة ومنهاج حياة؛ هو استيرادهم لحلول وضعت أصلاً لمشكلات الغير السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ مشكلات خاصة، هى وليدة واقع تاريخى معين ومناخ حضارى متميز؛ هو الواقع التاريخى الغربى والمناخ الحضارى الغربى؛ فالمسلمون؛ فى هذا الاغتراب الإرادى عن الذات، كمن فقد مفتاح بابه فقام يستعير مفتاح باب جاره ويحاول بعد ذلك عبثاً الولوج إلى بيته.

فهناك مبادىء هى من صميم توجيهات الإسلام يغفل عنها المسلمون؛ من ذلك التخطيط للمستقبل واستشراقه؛ فأول خطبة للرسول ﷺ فى المدينة المنوّرة نصح فيها المسلمين بقوله: «**أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم**» **وفى خطبة أخرى قال**: «**أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم**».

إن أمة بدون رسالة هى كمٌ بشرى وامتداد جغرافى لا غير؛ وأمة الإسلام لها رسالة حضارية إنسانية عالمية؛ وهذه الأمة تعلم علم اليقين أن قانون النصر والهزيمة الحضارى خاضع لسنن الله فى خلقه؛ بمعنى أن أهلية المجتمع للريادة الحضارية إنما يقوم على استيفاء شروطها الموضوعية أى اتخاذ الأسباب؛ ومعنى ذلك كله أن الانتماء إلى عقيدة سماوية صحيحة لا يشفع وحده للسقوط الحضارى والتخلف إذا لم تتوفر أسباب المناعة والقوة؛ من صدق العزيمة وصالح العمل وحسن التوكل ﴿**إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم**﴾. (الرعد/ الآية ١١)، ومن هذه الأسباب، أسباب نفسية، أهمها تجاوز النظرة التشاؤمية التى ترى أن المسلمين اليوم لا يملكون شيئا يقدمونه للإنسانية، لعجزهم وقصورهم وتفوق غيرهم عليهم فى كل مجال، ولهم فى أسلافهم الأوائل خير مثال؛ فقد انطلق الدعاة إلى الله سبحانه من بوادى الحجاز ولا يملكون من خطام الدنيا شيئاً؛ لكنهم كانوا رسل هداية أخرجوا الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم.

هناك إذن تحديات تواجه المسلمين اليوم جعلتهم مضطرين إلى العمل فى جبهات عديدة؛ لأن من هذه التحديات ما هو مفروض من الخارج، ومنها ما هو عائد إلى الذات نفسها؛ فمن جهة واقع حضارى عالمى متشابك معقد، اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً، تكتلات عملاقة تسيطر على أسواق التجارة العالمية، تؤثر مباشرة فى اقتصاديات العالم، وتطور مذهل فى مجال تكنولوجيا الإعلام فلم يبق مع الإنترنت معنى للأسرار والخصوصيات والحواجز التقليدية المصطنعة للتحصين من الغزو الإعلامى والثقافى والحضارى؛ فالعالم كما أصبح يقال اليوم: قرية إلكترونية.

يقابل هذا ـ عند المسلمين ـ التخلف، والفقر، والأمية، واهتزاز مناهج التعليم، وشيوع روح اليأس من الحاضر، والهجرة إلى الماضى، والعيش على أمجاد السلف، دون القدرة على إحياء القيم ذاتها التى صنعت تلك الأمجاد.

إن تقدم تكنولوجيا الإعلام الغربى يشكل اليوم تحدياً ما فى ذلك شك، لكن هذا التقدم نفسه يمكن استغلاله وتوظيفه لتصحيح نظرة الغربيين إلى الإسلام؛ وذلك بنشر أفكار بعض الغربيين أنفسهم، من النزهاء الذين عرفوا حقيقة الإسلام وأنصفوه؛ وأشاعوا بين الناس أن هذا الدين لا يمكن أن يرقى إليه فكر، فى الدعوة إلى التسامح واللين واحترام الآخر؛ ومن هؤلاء مثلاً المستشرق الإنجليزى توماس آرنولد الذى قال: «إن الملاحدة ظلوا ينعمون فى ظل الحكم الإسلامى بدرجة من التسامح ليس لها مثيل فى أوروبا، وإن العقيدة الإسلامية تلتزم بهذا النهج مع جميع أتباع الديانات الأخرى»!.

إن مثل هذا الأسلوب يفيد كثيراً فى تنوير الرأى العام الغربى، الذى نعلم كلنا أن هناك إرادة مغرضة غير أمينة تمعن فى تشكيله والتأثير فى نظرته إلى الإسلام وتوجيهها، وإيهامها بأن ما يقوم به بعض المنتسبين إليه ـ وهم منهم براء ـ من جرائم وحشية هو من صميم تعليماته ومبادئه؛ لأنه كما يتوهمون دين ينافى العقل والتطور ويكبح الحرية والإبداع ويعادى غيره، ويبارك الجمود والتطُرف.

إن تصحيح هذه النظرة الخاطئة يقع على عاتق المسلمين أنفسهم، كما أسلفت؛ وذلك فى مستويات ثلاثة، فى المستوى العلمى النظرى، وفى المستوى التاريخى، وفى مستوى الواقع الحضارى المعيش؛ أى أن يبرز المسلمون حقيقة

الإسلام الثابتة وجوهره الخالد ثم يبينوا أن ما لا يتوافق مع حقيقة هذا الدين فى تاريخ المسلمين إنما هو حجة عليهم لا على الإسلام؛ وأخيراً أن يجسدوا فى واقعهم الحضارى هذه الحقيقة وهذا الجوهر.

إن تجاوز هذه الإشكاليات والتحديات الحضارية هو الذى يفضى إلى تحقيق الذات، باعتبار ذلك من الشروط الأساسية التى ينبغى توفرها لدى المتحاورين حضارياً، ما دمنا نؤمن بأن مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية وغيرها سيقوم على الحوار، والحوار كما نعلم جميعاً يجب أن يكون طرفاه متكافئين، حرّين، سيّدين، بالتعبير الحديث.

إننا نحن المسلمين، موقنون من أن الإسلام قادر على التعايش مع جميع الثقافات والحضارات، وقادر على الأخذ منها والاستفادة بما يأخذ، وأن هذا التعايش الحضارى الإنسانى أساسه الحوار؛ لكن وفق مبادئ وأدبيات لا يكون للحوار من دونها أى معنى أو أثر؛ وأول هذه المبادئ ألا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله؛ أى أن يكون الحوار قائما أصلا وابتداءً على التقدير والاحترام المتبادل، وعلى حسن النية ونبل الغاية وسلامة القصد.

فشعار المسلم، فى مجال الإبداع الفكرى عموما والاجتهاد البشرى فى مختلف مناحى المعرفة الإنسانية، هو قول رسول الله ﷺ: «**الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنّى وجدها**» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

كما أن شعار المسلم فى الحوار الجاد البناء هو قول الشافعى رضى الله عنه: «رأيى خطأ يحتمل الصواب ورأى غيرى صواب يحتمل الخطأ»، وليس غريباً أن يحرّم الإسلام الجدال إلا إذا كان القصد منه تجليته للحقيقة؛ وهذه الحقيقة لا يهم على أى لسان جاءت لأنها هى الهدف والغاية من الحوار أو الجدال.

ومن هذه الأدبيات كذلك التواضع؛ فهذا رسول الله ﷺ يقول فى تواضع جم كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿**وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين**﴾. (سبأ/ الآية ٢٤)؛ ﴿**لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون**﴾. (سبأ/ الآية ٢٥). لقد ساوى بين طرفى الحوار ونسب لنفسه، احتمال الخطأ بل الضلال المبين؛ تسامياً منه بأدب الحوار؛ وهو حبيب الله المصطفى المعصوم صلوات الله وسلامه وملائكته عليه.

هذه المبادىء والآداب من حقنا - بل من واجبنا - أن نبرزها ونُمَكِّن لها في الواقع؛ إذ من الخطأ الجسيم أن نتخلى عن المفاهيم الأصيلة لحضارتنا، وأن نترك المجال للمفاهيم الاستشراقية أن تسود.

هذا؛ وفى مقابل ذلك كله، لابد للطرف الثانى - أى الغرب - إذا كان مؤمناً بالحوار الحضارى أذ يراجع نفسه، وأن يُخْلِص النية للإذعان للحق كلما حَصْحَصَ؛ ويتحرر من عقدة التفوق والنزعة الإقصائية التى تجعله يعتقد أن ما عنده هو وحده الصواب الصالح النافع، وما عند الغير بالضرورة والطبع خطأ ضار فاسد.

إن فكراً يقوم أصلاً على الخطأ فى التصور، وعلى سوء تقدير الآخر، بل على احتقاره وإلغائه، لا يساعد على الحوار بل ينمى دواعى الصراع والصدام.

فمن العبث الحديث عن مستقبل علاقة حوار حضارى إنسانى، إذا كان الأساس قائماً أصلاً على أفكار مسبقة خاطئة، سواء فى التصور والتحليل أو فى معرفة الآخر وتقييمه.

الحوار الحضارى من أسسه أن يحدد المتحاور موقفه بموضوعية وصدق؛ مع إضمار حسن التقدير للآخر؛ لا أن يحدد لهذا الآخر موقفه أو أن يمليه عليه.

فعندما يَدَّعى هذا المتحاور امتلاك الحقيقة وحده من دون الآخرين، فستكون لهذا الادعاء امتدادات فى واقع الحياة؛ فهو ينصب نفسه مرجعاً وحيدا لمعرفة من يحق له مثلاً أن يمتلك القوة التكنولوجية أو القوة العسكرية أو التشريعية وما إلى ذلك، باسم الحقيقة والخيرية والريادة، وفى هذه الحال يصبح الغير مجبراً على التبعية والإذعان، من دون نقاش، لأنه الطرف الضعيف فى المعادلة، أو القاصر حضارياً.

خصائص الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارات الأخرى وآفاق المستقبل

الأستاذ الدكتور / عبد العزيز بن عثمان التويجرى

المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

«إيسيسكو »

مدخل

تُعد الدراسة المقارنة للحضارات فرعاً جديداً من فروع العلوم الإنسانية، يلتقى فيه علم الاجتماع مع علم التاريخ، ومع علم الفلسفة، ومع الآداب فى حقولها المختلفة.

وشأنها فى ذلك شأن علم مقارنة الأديان الذى لم تعرفه المدرسة الغربية إلاَّ حديثاً، بينما عرفته الثقافة العربية الإسلامية من قبل، وظهرت فى هذا العلم كتب كثيرة هى من الأمهات التى لا تُضَاهَى، والتى تعرف بكتب المِلَل والنِحَل والفِرق.

ولئن كان ابن خلدون فى مقدمته قد وضع أسس علم العمران البشرى، الذى تطور فيما بعد إلى أن عرف بعلم الاجتماع وبفلسفة التاريخ، فإننا يمكن أن نَعُدَّ صنيع ابن خلدون فى هذا الحقل العلمى فى القرن الثامن الهجرى، تأصيلاً مبدئياً للدراسات الحضارية المقارنة، بمفهومها العام وفى مرحلتها الأولى، قبل

أن يُوضع لها المنهج الذى يُقَعِّدُ القواعد، ويؤصِّل المفاهيم، ويرسم الحدود بين هذا الصنف من الدراسات وبين غيرها من الدراسات الإنسانية الحديثة.

ولعلّ مما يؤكد ما نذهب إليه فى هذا السياق، أن الجامعة المصرية التى تأسست فى عام ١٩٠٨ ـ جامعة فؤاد الأول فيما بعد، ثم جامعة القاهرة اليوم ـ التى يُشهد لها بالريادة فى الدراسات الجامعية الأكاديمية المعاصرة، لم تعرف مقرراً دراسياً تحت هذا المسمى؛ ولذلك يمكن اعتبار إنشاء قسم للغات الشرقية فى جامعة القاهرة، فى مطلع أربعينيات القرن العشرين، على يد الدكتور عبد الوهاب عزام، البداية الأولى لظهور هذا الفرع من التخصص الأكاديمى، لما لدراسة اللغات الشرقية من صلة وثيقة بالدراسة المقارنة للحضارات التى تُمثلها تلك اللغات، والتى هى روافد تصبُ فى نهر الحضارة الإسلامية العظيم.

ولعلّ الدراسة المقارنة للحضارات من حيث هى فرعٌ من فروع العلوم الإنسانية الحديثة، هى الأقربُ إلى مجال دراسة التحوّلات الاجتماعية والثقافية والفكرية فى مجتمعات إنسانية متقاربة المنزع، متجانسة الميول، مترابطة حلقات التفاعل البشرى فى مرحلة زمنية محددة، أو فى عصور من التاريخ متطاولة، على اعتبار أن الحضارة هى عصارة هذه التفاعلات والتحوّلات فى ميادين الإبداع الإنسانى، على اختلاف مناحى هذا الإبداع.

وتشترك الحضارات ـ على أى حال ـ فى نقطة واحدة، مدارها أنها نوع آخر، غير نوع المجتمعات البدائية، وهذه المجتمعات أكثر عدداً بكثير من الحضارات، لكنها ـ أفراداً ـ أقل عدداً من أفراد الحضارات بكثير(١).

ومن هنا يأتى خطأ فكرة وحدة الحضارة التى وصفها أرنولد توينبى بالضلال، والقائلة بأن ثمة حضارة واحدة هى الحضارة الغربية(٢) وتلك عنصرية حضارية، إن صحَّ التعبير.

الحضارة اصطلاحاً:

لئن كانت تعريفات مصطلح (الحضارة) قد تعدّدت تبعاً للمدارس الفكرية التى تصدر عنها، فإن التعريف الأوفى تعبيراً عن المعنى العام للفظ (الحضارة) هو

أنها تعبيرٌ عن منظومة العقائد والقيم والمبادئ، وجماع النشاط البشرى فى شتى حقول الفكر والعلوم والآداب والفنون جميعاً، لا فرق بين فن وآخر، وما يتولد عن ذلك من ميول ومشارب وأذواق تصوغ نمطاً للسلوك، وأسلوباً للحياة، ومنهجاً للتفكير، ومثالاً يُحتذى ويقتدى به ويُسعى إليه.

ولقد تطور مصطلح الحضارة من عصر إلى آخر؛ فابن خلدون يعرّف الحضارة بقوله «إنما الحضارة هى تفنّنٌ فى الترف، وإحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه (أى الترف) من المطابخ والملابس والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلكل واحد منها صنائع فى استجابته والتأنّق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضاً، وتتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف؛ وما تتلوّن به من العوائد، فصار طور الحضارة فى الملك يتبع طور البداوة ضرورة؛ لضرورة تبعية الرَّفه للملك»(٣).

ويذهب ابن خلدون إلى أن الحضارة هى أحوال عادية زائدة على الضرورى من أحوال العمران، زيادة تتفاوت بتفاوت الرَّفه وتفاوت الأمم فى القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر(٤).

ثم ينتقل ابن خلدون فى التعريف بالحضارة إلى مستوى أرقى، فيقول: إن المُلْك والدولة غايةٌ للعصبية، وإن الحضارة غايةٌ للبداوة، وإن العمران كلَّه من بداوة وحضارة ومُلك وسوقة (جمهور) له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكوِّنات عمراً محسوساً(٥). وهذا ما يؤكد نظرية تَعَاقُبِ الحضارات التى كان ابن خلدون أسبق من فلاسفة أوروبا ومفكريها إلى تأصيلها، ثم جاء المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى، فَبَلْوَرَهَا وصاغها صياغةً حديثةً صارت اليوم من المسلّمات فى علم فلسفة التاريخ.

ويقول ابن خلدون أيضاً: إن الحضارة هى سنّ الوقوف لعمر العالم فى العمران والدولة(٦).

أما ابن الأزرق، فيسوق تعريفاً للحضارة يقول فيه: «إن الحضارة هى النهايةُ فى أكمل العمران الخارج به إلى الفساد، والغاية فى الشر البعيد عن الخير، ومن سلم من ذلك فلا خفاء فى قربه من الخير»(٧).

وبالانتقال إلى العصر الحديث: نجد أن مصطلح الحضارة عرف تطوراً نوعياً، إذ يقول المؤرخ الأمريكى ديورانت فى موسوعته الضخمة (قصة الحضارة) المترجمة إلى العديد من لغات العالم: «إن الحضارة نظام اجتماعى يُعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى، وإنما تتألّف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاجتماعية ـ النظم السياسية ـ التقاليد الخلقية ـ متابعة العلوم والفنون، وهى (الحضارة) تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق»(٨).

وبهذا المعنى، فإن الحضارة أعمق دلالة وأرحب أفقاً وأبعد مدّى فى التعبير عن الروح التى تسرى فى مجتمع من المجتمعات، وهى بذلك أعمّ من (الثقافة) التى هى إلى الجوهر والهوية والخصوصية أقرب منها إلى المظهر والمخبر والطابع العام للحياة الإنسانية فى بيئة اجتماعية ذات خصوصيات ومميزات تصطبغ بها، أو كما قال توينبى «الحضارة تشمل.. ولا تشملها غيرها»(٩).

واستناداً إلى هذا المفهوم، فإن الحضارة تنشأ من تفاعل ثقافات متعددة المشارب، ويشارك فى صياغة ملامحها وتشكيل خصائصها شعوبٌ من أعراق شتَّى، تنتمى إلى ثقافات متنوعة، تصب جميعها فى مجرى عام تتشكّل منه الحضارة.

والحضارة لا طابع عرقى لها، وهى لا ترتبط بجنس من الأجناس، ولا تنتمى إلى شعب من الشعوب، على الرغم من أن الحضارة قد تنسب إلى أمة من الأمم أو إلى منطقة جغرافية من مناطق العالم على سبيل التعريف ليس إلاَّ، بخلاف الثقافة التى هى رمزٌ للهوية، وعنوانٌ على الذاتية، وتعبيرٌ عن الخصوصيات التى تتميز بها أمة من الأمم، أو يتفرّد بها شعب من الشعوب.

فالحضارة هى وعاءٌ لثقافات متنوعة تعدَّدت أصولها ومشاربها ومصادرها، فامتزجت وتلاقحت، فشكّلت خصائص الحضارة التى تعبر عن الروح الإنسانية فى إشراقاتها وتجلياتها، وتعكس المبادئ العامة التى هى القاسم المشترك بين الروافد والمصادر والمشارب جميعاً.

ولكلّ حضارة مبادئ عامةٌ تقوم عليها، تنبع من عقيدة دينية، أو من فلسفة وضعية، حتى وإن تعدّدت العقائد والفلسفات، فإن الخصائص المميزة للحضارة،

تُستمدّ من أقوى العقائد رسوخاً، وأشدّها تمكّناً فى القلوب والعقول، ومن أكثرها تأثيراً فى الحياة العامة، بحيث تصطبغ الحضارة بصبغة هذه العقيدة، وتنسب إليها، فتكون النسبة صحيحة، لصحة المبادئ التى تستند إليها، ومثال ذلك الحضارة الإسلامية.

والحضارات الكبرى الى عرفها تاريخ البشرية تَتَفَاوَتُ فيما بينها فى موقفها من المادية والروحية، فمنها ما يغلب عليه الجانب المادى، ومنها ما يغلب عليه الجانب الروحى، ومنها ما يسوده التوازن بينهما(١٠).

فهى إذن، سلسلة متعاقبة من الحضارات التى تُخلِّى المجال كلٌّ واحدة منها لما سوف يتلوها من حضارة أخرى، مما جعل البعض يذهبون إلى القول بوجود التماثُل والتطابُق بين الكثير من هذه الحضارات(١١).

مفهوم الحضارة الإسلامية:

الحضارة الإسلامية هى نتاجٌ لتفاعل ثقافات الشعوب التى دخلت فى الإسلام، سواء إيماناً وتصديقاً واعتقاداً، أو انتماءً وولاءً وانتساباً، وهى خلاصة لتلاقح هذه الثقافات والحضارات التى كانت قائمة فى المناطق التى وصلت إليها الفتوحات الإسلامية، ولا نصهارها فى بوتقة المبادئ والقيم والمُثُل التى جاء بها الإسلام هداية للناس كافة.

والحضارة الإسلامية نوعان: النوع الأول: حضارة إسلامية أصيلة وتُسمّى حضارة الخَلْقُ والإبداع، وقد كان الإسلام مصدرها الوحيد، وعرفها العالم لأول مرة عن طريق الإسلام، والنوع الثانى: حضارة قام بها المسلمون فى الأمور التجريبية امتداداً وتحسيناً، كما عرفها الفكر البشرى من قبل، وتُسمى حضارة البعث والإحياء(١٢).

فالحضارة الإسلامية بهذا المفهوم الجامع الشامل العميق، هى إرثٌ مشترك بين جميع الشعوب والأمم التى انطوت تحت لوائها، وشاركت فى بنائها، وأسهمت فى عطائها، وهى الشعوب والأمم التى كونت وشائج الأمة الإسلامية ونسيجها المُحكَم.

فليست الحضارة الإسلامية حضارة جنس معيّن فتكون بذلك حضارة قومية تنتمى إلى قوم مخصوصين، ولكنها حضارة جامعة شاملة للأجناس والقوميات جميعاً التى كان لها نصيبُها فى قيام هذه الحضارة، ودورها فى ازدهارها وتألقها، وفى امتداد تأثيرها ونفوذها إلى العالم الذى كان معروفاً خلال القرون التى سطع فيها نجمُها، واتسع إشعاعها، وامتدّ نفوذها.

خصائص الحضارة الإسلامية:

ولكلّ حضارة جسم وروح، كالإنسان تماماً، فجسم الحضارة يتمثل فى منجزاتها المادية من العمارات والمصانع والآلات، وكل ما ينبئ عن رفاهية العيش ومتاع الحياة الدنيا وزينتها، أما روح الحضارة فهو مجموعة العقائد والمفاهيم والآداب والتقاليد التى تتجسد فى سلوك الأفراد والجماعات، وعلاقاتهم بعضهم ببعض، ونظرتهم إلى الدين والحياة، والكون والإنسان، والفرد والمجتمع(١٣). ومن تلك العناصر تتشكّل خصائص الحضارة الإسلامية.

وتتفرّدُ الحضارة الإسلامية بخمس خصائص تُكسبها الطابع المميّز لها بين الحضارات الإنسانية المتعاقبة فى الماضى وفى الحاضر على السواء، وهى:

الخاصية الأولى: أنها حضارة إيمانية، انبثقت من العقيدة الإسلامية، فاستوعبت مضامينها، وتشرّبت مبادئها، واصطبغت بصبغتها، فهى حضارةٌ توحيديةٌ انطلقت من الإيمان بالله الواحد الأحد، البارئ المصورُ، مبدع السماوات والأرض، الأول والآخر، الباطن والظاهر، خالق الإنسان والمخلوقات جميعاً، هى حضارةٌ من صنع البشر فعلاً، ولكنها ذات منطلقات إيمانية ومرجعية دينية، كان الدين الحنيف من أقوى الدوافع إلى قيامها وإبداعها وازدهارها.

الخاصية الثانية: أنها حضارة إنسانية المنزع عالمية فى آفاقها وامتداداتها، لا ترتبط بإقليم جغرافى، ولا بجنس بشرى، ولا بمرحلة تاريخية، ولكنها تحتوى جميع الشعوب والأمم، وتصل آثارها إلى مختلف البقاع والأصقاع، فهى حضارة يستظل بظلالها البشر جميعاً، ويجنى ثمارها كلٌّ من يصل إليه عطاؤها. فالحضارة الإسلامية قامت على أساس الاعتقاد بأن الإنسان أهم

مخلوقات الله، وأن جميع الأنشطة البشرية لابد وأن تؤدى إلى سعادته ورفاهيته، وأن كلَّ عمل يُقصد به تحقيق هذه الغاية، هو عملٌ فى سبيل الله، أى عمل إنسانى فى المقام الأول.

الخاصية الثالثة: أنها حضارة معطاء؛ أخذت واقتبست من الحضارات والثقافات الإنسانية التى عرفها شعوب العالم القديم، وأعطت عطاء زاخراً بالعلم والمعرفة والفن الإنسانى الراقى، وبقيم الخير والعدل والمساواة والفضيلة والجمال، وكان عطاؤها لفائدة الإنسانية جميعا، لا فرق بين عربى وعجمى، أو أبيض وأسود، بل لا فرق بين مسلم وغير مسلم، سواء أكان من أتباع الديانات السماوية والوضعية، أم ممّن لا دين لهم من أقوام شتَّى كانوا يعيشون فى ظل الحضارة الإسلامية.

الخاصية الرابعة: أنها حضارة متوازنة؛ وَازَنَت بين الجانب الروحى وبين الجانب المادى، فى اعتدال هو طابع من طوابع الفكر الإسلامى، وميزةٌ من مزايا الحضارة الإسلامية فى كل العصور، فلا تفريط ولا إفراط، ولا غلوّ بغير وجه حق، ولا اندفاع فى تهور، وإنما هو الاعتدال الذى هو من صميم العدالة التى تقام فى ظله موازين القسط.

الخاصية الخامسة: أنها حضارة باقية بقاء الحياة على وجه الأرض، تستمد بقاءها من الإسلام الذى قامت على أساس مبادئه، وقد تكفل الله تعالى بحفظ الدين الحنيف. وهى بذلك حضارة ذات خصوصيات متفردة، فالحضارة الإسلامية لا تشيخ لتنقرض، لأنها ليست حضارة قومية، ولا هى بعنصرية، ولا هى ضد الفطرة الإنسانية، والإسلام لا يتمثل فى المسلمين فى كل الأحوال، لأن المسلمين قد يضعفون ويقل نفوذهم ويتراجع تأثيرهم، ولكن الإسلام لا يضعف ولا يقل نفوذه ولا يتراجع تأثيره، وهى بذلك حضارة دائمة الإشعاع، تتعاقب أطوارها وتتجدَّدُ دوراتها.

وهذه الخصائص الخمس تكتسب طابع الديمومة والاستمرار، من مبادئ الدين الحنيف، لأنها نابعة منها، ولصيقة بها، وهى بذلك بمثابة الجوهر النفيس الذى لا يتبدل ولا يتغيّر، وإن تبدلت الأحوال، وتجاذبت المجتمعات الإسلامية نوازع القوة والضعف، والسطوع والأفول، والتماسك والانهيار.

لقد قادت الحضارة الإسلامية مسيرة العلم والمعرفة فى القرون الوسطى التى تعدّها أوروبا عصور الظلام، بينما هى عصور التنوير فى تاريخ أمتنا.

وحسبنا أن نشير فى هذا السياق إلى أن جورج سارتون قسّم فى كتابه "Introduction to the History of Science" النشاط العلمى على مدى التاريخ، إلى فترات تستمر كل منها نصف قرن، وذكر اسم شخص يرمز لكل نصف قرن على مستوى العالم، فمن سنة ٧٥٠ إلى سنة ١١٠٠م، على مدار ٣٥٠ سنة، كان كل العلماء الرامزين من العالم الإسلامى: جابر بن حيّان، والخوارزمى، والرازى، والمسعودى، وأبو الوفاء، والبيرونى، وعمر الخيام، كانوا مسلمين، عرباً وأتراكاً وأفغاناً وفرساً، نبغوا فى علوم الكيمياء والرياضة والطب والجغرافيا والطبيعة والفلك. وفى سنة ١١٠٠م، ولمدة ٢٥٠ سنة أخرى، ابتدأ اشتراك الأوربيين مع علماء العالم الإسلامى، أمثال ابن رشد، والطوسى، وابن النفيس، وفى تلك الفترة قامت النهضة الأوروبية الحديثة التى بدأت بترجمة علوم العالم الإسلامى ودراستها والإضافة إليها، حتى يومنا هذا، وتلك هى الحقيقة التاريخية التى يشير إليها ويؤكدها العالم العربى المسلم المقيم فى ألمانيا، الدكتور محمد منصور الذى اختير من بين ألفَى شخصية عالمية تركت بصماتها على الحياة الإنسانية خلال القرن الماضى بمبادرة من جامعة كمبردج(١٤).

وإذا كانت الحضارة فى مفهومها العام، هى ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية(١٥). فإن الحضارة الإسلامية هى ثمرة جهود الأمة الإسلامية جميعاً، وعبر العصور التى بذلتها فى تحسين الحياة وإسعاد الإنسان.

وإذا كانت الحضارة هى ردّ فعل الحاجات البشرية، فإن الحضارة الإسلامية استجابت لهذه الحاجات جميعاً فى جميع العصور، وكانت هى حضارة العالم دون منازع لعقود كثيرة، وبذلك تكون الحضارة الإسلامية هى صاحبة الفضل فى إرساء حجر الأساس للحضارة الأوروبية الحديثة حيث أسهمت بكنوزها فى الطب والصيدلة والكيمياء والرياضيات والفيزياء فى الإسراع بعصر النهضة، وما

صحبه من إحياء للعلوم المختلفة لم يقف عند حدّ، بل انطلق حتى أثمر كثيراً، ولا يزال يثمر إلى اليوم.

واقع الحضارة الإسلامية:

واقع الحضارة الإسلامية اليوم لا يعبّر عن المكانة التى ينبغى أن تتبوأها الأمة الإسلامية، ولكن مع ذلك لا يسيغ لنا هذا الوضع، أن نحكم على الحضارة الإسلامية بالانهيار، لأننا بذلك سنكون مندفعين مع الأحكام الارتجالية وغير منصفين، وأبعد ما نكون عن الدقة فى وصف الحال.

إن ثمة العديد من الأدلة والقرائن على بطلان النظرية التى تقول بانهيار الحضارة الإسلامية، أو سقوطها، أو اضمحلالها بتراجع الأمة الإسلامية عن مواصلة أداء دورها فى إغناء الحضارة الإنسانية الحديثة.

ولقد كان المفكر المصرى فؤاد محمد شبل الذى ترجم (مختصر دراسة للتاريخ) لأرنولد توينبى، من الأوائل الذين فطنوا إلى الدلالة العميقة لمعنى انهيار الحضارات، حيث يقول: «إن الانهيار لا يعنى تماماً أن المقصود به نهاية مرحلة الارتقاء، إذْ لا يشير التاريخ إلى أية حدود لفترة الحياة الممكنة لمجتمع، وإن نهاية فترة الارتقاء التى هى حادث طبيعى فى تاريخ الكائن الحى، هى حادث غير طبيعى فى تاريخ المجتمع. وقد استخدم توينبى اصطلاح (الانهيار) للدلالة على هذا المعنى، وسيتبين أنه عندما يستخدم الاصطلاح بهذا المعنى، فإن طائفة من أهم الأعمال المثمرة النيّرة والمشهورة فى تاريخ حضارة ما، قد جاءت فى أعقاب الانهيار، أو بالفعل ـ نتيجة له»(١٦).

وهذه رؤية عميقة بعيدة المدى إلى طبيعة الحضارات الإنسانية المتعاقبة، ننظر من خلالها إلى واقع الحضارة الإسلامية اليوم فى آثارها ونتائجها وامتداداتها.

إن التأمل العميق فى واقع العالم الإسلامى اليوم ـ مع تجاوز الأحداث العابرة والمتغيرات الآنية واختراق المظاهر السطحية ـ يُفضى بنا إلى نتائج قد تبدو غير متفقة مع طبائع الأشياء الظاهرة، ومع منطق الأحداث الجارية، ولكننا إذا سلمنا

بأن مصير الحضارات لا يرتبط بالوقائع التاريخية فى فترات زمنية محدودة، ولا يتقرر هذا المصير وفقاً للنتائج المترتبة على مضاعفات الأزمات التى تلم بالمجتمعات، نستطيع أن نصل إلى الاقتناع بأن الحضارة الإسلامية فى هذه المرحلة من التاريخ، هى فى حالة تأهب حضارى للانطلاق نحو استئناف دورة حضارية جديدة مع الألفية الثالثة، يؤكد ذلك كلّه الإرهاصات التى نشاهدها على أكثر من مستوى، والتفاعلات العميقة التى تعيشها الأمة الإسلامية، والتى لابد وأن تنتهى إلى مبادرات إيجابية ستكون حاسمة فى تقرير مصير العالم الإسلامى، بل نستطيع أن نقول عنها جازمين واثقين، إنها ستكون حاسمة فى تقرير مصير العالم كلّه.

إن الضعف العام الذى يعانى منه العالم الإسلامى فى مجالات كثيرة، وانخفاض معدّلات النمو الذى يطبع الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى معظم المجتمعات الإسلامية، هو ضعفٌ عارض، وهو مرحلة عابرة لن تطول، ستعقبها مراحل أخرى، لأن تلك هى سنةُ الكون وطبيعة الحضارات، ولأن جذور الحضارة الإسلامية لا تزال سليمةً محافظةً على عناصرها الحية، والمسلمون هم المسؤولون اليوم عن إنعاش هذه الجذور وإحيائها بضخ دم جديد فى شرايين الحضارة الإسلامية، حتى تستأنف دوراتها، وتواصل عطاءها، وتقوم بدورها فى إنقاذ الحضارة الغربية التى تعانى من أزمات شديدة لا سبيل إلى معالجتها وتجنُّب البشرية كوارثها المحتملة، إلاّ بتطعيمها بمبادئ الحضارة الإسلامية ذات الروح الإيمانية والنزعة الإنسانية والرؤية المستقبلية.

الحضارات الكبرى المعاصرة:

يتفق الباحثون فى مجال الدراسات الحضارية بشكل عام، فى تحديدهم للحضارات الرئيسة القديمة منها والحديثة، لكنهم غالباً ما يختلفون فى عدد هذه الحضارات ومن خلال النظر فى العناصر الثقافية الأساسية التى تُعرّف الحضارة، يمكن لنا الحديث عن ست حضارات رئيسة معاصرة، هى: الحضارة الإسلامية، الحضارة الغربية، الحضارة الهندية، الحضارة الصينية، الحضارة اليابانية، حضارة أمريكا اللاتينية، ولكل واحدة من هذه الحضارات سماتها

وخصوصياتها التى تجعلها متفردة فى جوانب كثيرة عن غيرها من الحضارات، وقد تشترك هذه الحضارات فى سمات وخصائص معينة، هى من طبيعة الروح البشرية المجبولة على الفطرة السليمة أساساً.

وحيث إننا تحدثنا فيما سبق عن الحضارة الإسلامية وخصائصها، فإننا نعرض فيما يلى للحديث بتركيز واختصار، عن الحضارات الخمس الأخرى المعاصرة، وهى:

١ ـ الحضارة الغربية:

تقوم الحضارة الغربية المعاصرة على ركائز فكرية ممتدة الجذور إلى عهد اليونان والرومان، ومن سمات الفكر الغربى وخصائصه خمس سمات فصلها الدكتور يوسف القرضاوى فى استيعاب وتركيز بارعين، على النحو التالى:

١ ـ **الغبش فى معرفة الألوهية**: فليست رؤية الفكر الغربى الذى قامت عليها الحضارة الغربية، رؤية صافية تقدر الله حق قدره، وإنما هى رؤية غائمة مضطربة.

٢ ـ **النزعة المادية**: وهى التى تؤمن بالمادة وحدها لتفسير الكون والمعرفة والسلوك، وتُنكر الغيبيات، وكلَّ ما وراء الحس.

٣ ـ **النزعة العلمانية**: وهى من ثمار الخصيصتين السابقتين ولوازمهما، وهى تلك النزعة التى تفصل بين الدين والحياة الاجتماعية.

٤ ـ **الصراع**: فهى حضارة تقوم على الصراع، لا تعرف السلام ولا الطمأنينة ولا الحب، إنه الصراع بين الإنسان ونفسه، وصراع الإنسان والطبيعة، وصراع بين الإنسان والإنسان، وصراع أيضاً بين الإنسان والإله!.

٥ ـ **الاستعلاء على الآخرين**: وهى نزعة تسرى وتتحكم فى عقول الغربيين كافة، فهم يعتبرون أنهم أفضل من غيرهم، وأن الحضارة الغربية هى الحضارة الإنسانية، ولا يعترفون بحضارة سواها(١٧).

وتلك هى السمات التى تطبع الحضارة الغربية، سواء فى عهدها القديم، أو فى عصورها الحديثة.

الجوانب الإيجابية للحضارة الغربية:

ويقتضى منا الإنصاف أن نقول ابتداءً: إن الحضارة الغربية لا تخلو من جوانب إيجابية تنفع الإنسانية، ففى هذه الحضارة فوائد كثيرة للإنسان فى حاضره ومستقبله، كما أن لها آثاراً إيجابية تلتقى فيها مع جوانب مشرقة عديدة من الحضارة الإسلامية.

لقد استطاعت الحضارة الغربية بوساطة تقدم العلوم الرياضية والطبيعية وتطبيقاتها التكنولوجية ـ أن تمنح الإنسان قدرات وإمكانات لم يمنحها أحدٌ قبله، وما كان يحلم بها فى نوم، أو يجول بها خياله فى يقظة، وأن توفر له بذلك وسائل وأدوات وأشياء لم تكن تتهيأ لأحد من قبل. لقد اختصرت الحضارة الغربية للإنسان المسافات، فقرَّبت له المكان، ووفّرت له الزمان، عن طريق المواصلات الحديثة، وتطوير هذه الوسائل بصورة مستمرة حتى غدا العالم قرية كبرى. لقد وفَّر عصر الصناعة الأول بواسطة الآلة (المجهود البدنى) للإنسان، ثم جاء عصر الصناعة الثانى، الذى أصبحت فيه الآلة توفّر (المجهود الذهنى) للإنسان، إنه عصر الحاسوب أو (الكومبيوتر) الذى بات يقوم بعمليات معقدة هائلة، وقد دخل الحاسوب الحياة العلمية الإسلامية، فدخل فى علوم القرآن، وفى علوم الحديث، وفى اللغة وعلومها وآدابها، وفى غير ذلك من العلوم الإسلامية(١٨).

وميزة هذه الحضارة أنها لا تقف جامدة، إنها تنتقل من طور إلى طور، وأعطت الإنسان الحوافز التى تدفعه إلى الابتكار والإنتاج، وصنعت له المناخ النفسى والعقلى الذى يشجعه على المضى، وهيأت له الإدارة الحسنة التى تساعد على إتقان عمله، فتكافئ المحسن، وتعاقب المقصّر والمنحرف، كما هيأت له مجتمعاً تُرعى فيه حرية الإنسان الفرد وحقوقه الفطرية، وتُصان فيه حرماته فى مواجهة حكم الظلام، وبهذا شعر الإنسان بكرامته وقيمته، وتحرر من الخوف والذل، فأنتج وأحسن وأفاد(١٩).

هذه هى الجوانب الحسنة فى الحضارة الغربية، وكلها تتعلق بالوسائل والأدوات والآلات التى يستخدمها الإنسان، وهى سلاح ذو حدين: يمكن أن تستعمل فى الخير، وأن تستعمل فى الشر. وتَقَارُبُ العالم الذى عبروا عنه

بالقرية، ليس خيراً محضاً، بل ربما جلب وراءه شراً كثيراً، فهذه حضارة الوسائل والآلات، لاحضارة المقاصد والغايات.

أما الجوانب السيئة فى الحضارة الغربية، فهى تلك التى لا تتفق والتعاليم الدينية والأخلاقية الفاضلة، والمبادئ الإنسانية المشبعة بهذه التعاليم وتلك الأخلاق، وهى التى تهدّد الحضارة الإنسانية بأوخم العواقب، وتتسبب فى الأزمات والنزاعات والتطاحنات، وتذكى الصراع بين الدول، وتقوى نوازع الشر فى بنى البشر، وتُفسد تقدم العلوم والمعارف وازدهار الآداب والفنون، وتقوّض دعائم الحضارة من الأساس.

٢ ـ الحضارة الهندية:

الحضارة الهندية فى أصولها البعيدة لم تنشأ على ضفاف أنهار الهند الشمالية، بل قامت على أساس عناصر من الحضارة السومرية نُقلت إلى هناك، ونمت فى البيئة الهندية، ثم تأصلت هناك وازدهرت مرة بعد مرة، وأصبحت من حضارات التاريخ الكبرى. وقامت الحضارة الهندية أساساً على عبادة هندية تدور حول آلهة أسطورية، وتدعو إلى مبادئ أخلاقية قريبة مما كانت تدعو إليه البوذية، وازدهرت فيما بين سنتى ٣٧٥ و ٤٧٥ بعد الميلاد على وجه التقريب.

وهذه الحضارة الهندية ـ أو حضارة الجوبتا ـ قضت عليها بدورها قبائل الهون التى اجتاحت الهند ووسط آسيا كما اجتاحت أوروبا، ومعنى ذلك أن الحضارة الهندية قامت على حضارات أقدم فأقدم، تتوالى واحدة فوق الأخرى، كما هو الحال فى الحضارات الكبرى.

وهذه الحضارات الهندية المتعاقبة كلها قامت على أسس مشتركة، يبدو أن اتساع شبه الجزيرة الهندية وتباين البيئات الطبيعية والجغرافية فيها قد فرضاها، فهى كلها لم تكن حضارات عمل بقدر ما كانت حضارات تأمل وسكون(٢٠). وعلى نحو أو آخر، فإن الهندوسية كانت دائما عاملاً أساساً بالنسبة لثقافة شبه القارة الهندية منذ سنة ١٥٠٠ ق. م. إلى سنة ٤٠٠م.

ونخلص من ذلك إلى أن الحضارات الهندية القديمة قامت على التفكير التأملى الذى يتجه إلى الزهد فى الدنيا ويهوّن من شأنها، ويحث على الزهد فيها وقد تعرض البيرونى لذلك كله، وانتقده نقداً شديداً فى كتابه عن الهند المسمى (تفصيل ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة)[٢١].

وتشكل الهند اليوم بحضارتها المعاصرة قوة عالمية تنمو باطراد، وتسعى إلى المشاركة بقوة فى صنع السياسة الدولية والتأثير فى مجرياتها.

٣ ـ الحضارة الصينية:

يرجع عمر الحضارة الصينية إلى نحو ألفى سنة، وتجد كما وجدنا فى حالة الهند، أن القواعد الحضارية المادية والمعنوية التى تقوم عليها كل حضارات الصين، كانت قد استقرت على نحو ما فى الفترة من ١٧٨٦ ـ ١٢٢٣ قبل الميلاد، حيث كان الصينيون فى هذا العصر ـ رغم اختلاف أصولهم ـ ينظرون إلى أنفسهم على أنهم الشعب الوحيد الجدير بالاحترام والتقدير على وجه الأرض، وكل من عداهم فهمج لا قيمة لهم.

وتتميز حضارة الصين عن غيرها من الحضارات بأنها حضارة صينية خالصة لم تتلق من المؤثرات الأجنبية إلا القليل، لأن الصين لم تخضع لسلطان أجنبى يحدث تغيراً أساسياً فى تكوينها الحضارى إلاَّ مرتين، الأولى عندما حكمها المغول، والثانية فى العصر الحديث، فأما الغزوة المغولية، فقد تركت آثاراً عميقة فى التكوين الحضارى للصين، ولكن هذه الآثار تلاشى معظمها مع الزمن، وأما فى العصر الحديث، فقد كان الغزو الغربى عنيفاً وعميقاً، فزعزع الأسس التقليدية التى قام عليها بناء المجتمع الصينى التقليدى[٢٢] وتعتبر الكونفوشية أحد المكونات الأساسية فى الحضارة الصينية، كما أن كون الصين اليوم دولة كبرى بشرياً ومادياً، يؤهلها لاحتلال مكانة متميزة فى الساحة الدولية، ويجعل منها منافساً للدول الكبرى فى التأثير على رسم السياسات الكونية.

٤ ـ الحضارة اليابانية:

على الرغم من أن بعض الباحثين فى تاريخ الحضارات يضمون الثقافتين الصينية واليابانية تحت عنوان حضارة الشرق الأقصى، ويعتبرونهما حضارة

واحدة، إلا أن كثيرين منهم يعتبرون اليابان حضارة مستقلة لها خصائصها المتميزة، وإن كانت فى أصولها البعيدة منحدرة من الحضارة الصينية، واليوم نرى اليابان تشكل مجتمعاً حضارياً متقدماً فى مجالات الحياة المختلفة، محافظة على هويتها ولغتها، ومنافسة للغرب فى المجالات العلمية والصناعية.

٥ ـ حضارة أمريكا اللاتينية:

تُعد حضارة أمريكا اللاتينية المعاصرة مزيجاً من تفاعل حضارات الأنديك والأنكا والمايا والأزتك القديمة، مع تأثيرات الحضارة الأوروبية التى أمتزجت فى مجتمعات دول أمريكا اللاتينية، وصبغتها بصبغتها المسيحية الكاثوليكية، ويبدو هذا التفاعل ظاهرا فى الفنون والآداب والموسيقى والعادات الاجتماعية وطرز البناء، ويرى كثير من الباحثين أن أمريكا اللاتينية تشكل فرعاً متميزاً من الحضارة الغربية لا يتطابق فى كثير من جوانبه، مع التيار الغربى الصرف المتمثل فى أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية.

وهكذا نرى أن الحضارات طبقات يلى بعضها بعضاً، كل حضارة من الحضارات الكبرى والصغرى تُخفى تحتها حضارة سابقة عليها، ثم أخرى، وهكذا حتى بداية قصة الحضارة فى مكان ما.

وتلك هى ظاهرة تعاقب الحضارات التى كان ابن خلدون سباقاً إلى تسجيلها فى مقدمته.

الحضارة الغربية والحضارات الأخرى:

من المغالطات التى يقع فيها طائفة من المفكرين فى الغرب، إطلاق صفة (الإنسانية) على الحضارة الغربية، وقصر لفظ (الحضارة) عليها دون غيرها من الحضارات الأخرى، وتلك نزعة استعلائية تطبع الحضارة الغربية بصورة عامة.

والحق أن الحضارة الغربية هى جزء من الحضارات الإنسانية التى يعرفها العالم فى هذا العصر، ولا يمكن أن تُمحى هذه الحضارات جميعاً، أو يقع تجاوزها إرضاءً لنزعة الاستعلاء والهيمنة التى تسود الطبقات الحاكمة، والفئات المفكرة والمثقفة فى الغرب. ذلك أن العالم اليوم يعرف حضارات كثيرة، فى آسيا،

وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، ومن بينها الحضارة الإسلامية التى تستقل بعناصر قائمة الذات، وتتفرد بخصائص تميزها عن غيرها.

إن القرار الذى اتخذته الجمعية العمومية للأمم المتحدة بجعل سنة ٢٠٠١ سنة الحوار بين الحضارات يقطع الخط على دعاة مركزية الحضارة الغربية، ويدمغ الدعوى العريضة التى يرددها بعض المفكرين الغربيين، ويدحض المزاعم العنصرية التى يروجون لها؛ ولذلك، فإن القول بمركزية الحضارة الغربية وادعاء انفرادها بقيادة العالم، يخالفان القانون الدولى، بقدر ما يصادمان الفطرة الإنسانية، ويتناقضان مع حقائق التاريخ والجغرافيا.

ومن هنا كانت الدعوة إلى الحوار بين الحضارات فى عالم اليوم، دعوة حكيمة عاقلة، ومنهجاً رشيداً فى السلوك الإنسانى، ومستوى رفيعاً من التعامل على صعيد العلاقات الدولية.

والحضارة الإسلامية هى الأجدر اليوم بحمل رسالة الحوار، لما تتميز به من خصائص إيمانية وإنسانية لا تتوفر لدى الحضارات الأخرى.

الحضارة الإسلامية فى الحوار بين الحضارات:

إن الخصائص التى تتميز بها الحضارة الإسلامية لا تعزلها عن مجرى الحضارات الإنسانية الأخرى، وإنما هى عناصر قوة تحفز إلى الحوار، وتدفع نحو التعايش، مما يجعل للحضارة الإسلامية مركز ثقل وقوة جاذبية يوجهانها نحو التفاعل مع الحضارات، الذى من شأنه أن يؤدى إلى التلاقح، الذى ينتج عنه ما نسميه بالتجديد الحضارى.

وأعتقد أن للحضارة الإسلامية رسالة ومسؤولية ودوراً فى التجديد الحضارى على الصعيد الإنسانى بصورة عامة، فهذه الحضارة هى وحدها التى تمتلك اليوم العناصر الحيوية التى يتطلبها هذا التجديد للحضارات الإنسانية القائمة؛ لأنها حضارة الأمة الإسلامية المطبوعة بطابع الإسلام رسالة رب العالمين إلى البشرية جمعاء فى كل زمان ومكان، إلى أن تقوم الساعة.

إن الهدف من كل الجهود الحضارية هو النهوض بالإنسان نفسه، فإذا بقى على جهالته ووحشيته وضلالته انتكس وتدهور، فما قيمة الرقى المادى فى ذاته[٢٣]. والحضارة الغربية لم تفلح، حتى الآن، فى تحقيق هذا الرقى الإنسانى فى ظل الإيمان واليقين فى قدرة الله خالق الكون، الذى يجلب الطمأنينة والسكينة والإحساس بالأمن العقلى والوجدانى. بينما الحضارة الإسلامية قامت ـ ولا تزال ـ على هذا العنصر الحيوى، فهى حضارة إيمانية إنسانية فى الصميم، وفى مقاصدها وغاياتها.

إن الحضارة الإسلامية هى التى تُضفى البُعد الدينى لفكرة التقدم، فلا يبقى التقدم لمجرد التقدم، وإنما تتحدد الغاية من التقدم فى الرقى الإنسانى الذى يشبع فى الإنسان غرائزه الخيِّرة وأشواقه إلى السلام، والانسجام مع الكائنات والتعاون مع أخيه من أجل الخير والفضيلة والجمال.

ولكن الحضارة الإسلامية ليست فكرة مثالية؛ أو شعاراً مذهبياً؛ أو مشروعاً لم ينفذ؛ أو تصوراً لما يمكن تحقيقه، إنها واقع معيش، يحياه المجتمع الإسلامى، واشترك فى صنعه الإنسان المسلم وغير المسلم ممن يعيش فى كنف المجتمع الإسلامى، ويشكل جزءاً لا يتجزأ منه، ولذلك فإن المسلمين هم الذين يصنعون الحضارة الإسلامية، وهم الذين يصوغون مستقبلها، وهم الذين يحمونها ويحدّدون مصيرها.

وتلك هى مسؤولية الأمة الإسلامية فى الحاضر والمستقبل، وتلك هى رسالة الحضارة الإسلامية.

رؤية مستقبلية إلى الحوار بين الحضارات:

لقد صدرت الدعوة إلى الحوار بين الحضارات من العالم الإسلامى، حيث كان الرئيس الإيرانى السيد محمد خاتمى فى فترة رئاسته لمنظمة المؤتمر الإسلامى، أول من اقترح على الأمم المتحدة، أن تتبنى الفكرة وتعلن سنة دولية للحوار بين الحضارات، وبناء على هذا الاقتراح أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا بجعل سنة ٢٠٠١ (سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات)، وكان للمنظمة

الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - دورٌ مهمٌ فى تنفيذ العديد من الأنشطة حول الحوار بين الحضارات ممثلة للعالم الإسلامى، بناء على قرار صادر عن المؤتمر الإسلامى لوزراء الخارجية(٢٤).

ولقد اهتمت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، منذ وقت مبكر، بقضايا الحوار بين الحضارات، وكان لها دورها المتميز بحكم اختصاصها ورسالتها، فى بلورة مفهوم جديد، متكامل ومتوازن، متماسك ومنسجم للحوار فى مستوياته الثلاثة:

- الحوار بين الحضارات.
- الحوار بين الثقافات.
- الحوار بين الأديان.

وقامت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بتأصيل علمى لمفهوم الحوار، من خلال منهج تاريخى استقرائى، قادها إلى نتيجة مفادها أن مفهوم الحوار فى الفكر السياسى والثقافى المعاصر، من المفاهيم الجديدة حديثة العهد بالتداول، فليس الحوار من ألفاظ القانون الدولى، إذ لا يوجد له ذكر أصلاً فى ميثاق الأمم المتحدة، ولا فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، ولا فى العهد الدولى الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية، ولا فى العهد الدولى الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، ولا فى إعلان مبادئ التعاون الثقافى الدولى.

وتأسيساً على ذلك، فإن الحوار مفهوم سياسى أيديولوجى ثقافى حضارى، وليس مفهوماً قانونياً.

ويكتسب الحوار فى تراثنا الثقافى والحضارى معنى عميقاً، يدل على قيم ومبادئ هى جزء أساسى فى الثقافة والحضارة الإسلاميتين، فالحوار قيمة من قيم الحضارة الإسلامية، وهو موقف فكرى وحالة وجدانية، وهو تعبير عن أبرز سمات الشخصية الإسلامية السوية.

وفى رؤية الإيسيسكو، يستند الحوار إلى أسس ثابتة، وضوابط محكمة، ويقوم على منطلقات ثلاثة:

- الاحترام المتبادل.

- الإنصاف والعدل.

- نبذ التعصب والكراهية.

وانطلاقاً من رؤية الإيسيسكو إلى الحوار، واستناداً إلى مفهومه الحضارى الذى أسهمت فى تأصيله، فإن الحوار الذى يحقق الأهداف الإنسانية العامة، والذى يمكن أن يكون موضع الاهتمام من العالم الإسلامى، لابد وأن يسير فى هذه الاتجاهات الثلاثة.

أولاً: ربط أهداف الحوار بالمصالح العليا للأمة الإسلامية، بحيث لا يقع أى تعارض بين الأهداف المرسومة لأى حوار بين الحضارات والثقافات، يشارك فيه الجانب الإسلامى، وبين القضايا الرئيسية التى تجتمع حولها إرادة الأمة الإسلامية، والتى تعبر عنها قرارات منظمة المؤتمر الإسلامى، سواء تلك التى تتخذ على مستوى القمة، أو على المستوى الوزارى.

ثانياً: الاتجاه بالحوار نحو الجانب الإنسانى، فلا يبقى دائراً حول القضايا الفكرية والعقائدية التى لا تنفع طرفاً من الأطراف، ويدخل ضمن ذلك تحديد الموقف الإيمانى الخالص من حقوق الإنسان، ومحاربة الظلم والعدوان، والاضطهاد، والإفساد بكل أشكاله، بحيث يقع الحرص دائماً على إصدار بيانات مشتركة فى أعقاب كل جولة للحوار تحدد مواقف أهل الإيمان مما يجرى فى العالم من انتهاكات لحقوق الإنسان فى كل مكان، ومما يقوم به الظالمون والمعتدون والمفسدون فى الأرض من بغى ومنكر، من وجهة نظر الحق والعدل والقيم الدينية المشتركة، وليس فقط من وجهة النظر السياسية والقانونية الوضعية، ومصالح الأقوياء وذوى النفوذ فى العالم.

ثالثا : التنسيق بين أطراف الجانب الإسلامى فى كل ما يتعلق بالحوار بين الحضارات والثقافات، بحيث تقوم الجهة الإسلامية الرسمية أو الشعبية التى تدخل فى حوار على هذا المستوى بإبلاغ كل الجهات، أو أهمها وأكبرها وأوسعها نشاطاً وحضوراً فى ساحة العمل الإسلامى العلمى والفكرى والثقافى،

بموضوعات الحوار، وبموعده، وبالأهداف المرسومة له، وبالجهة التى تنظمه، حتى يمكن الانضمام إليه والمشاركة فيه، لمن أراد وتوفرت له الأسباب.

فإذا تمكن القائمون بشؤون الحوار بين الحضارات فى العالم الإسلامى من التحكم فى مساره وفق هذا المنهج، أمكن الوصول إلى نتائج إيجابية تخدم فى المقام الأول، المصالح العليا للأمة الإسلامية وقضاياها، وتعزز الجهود المبذولة على مستويات كثيرة للدفاع عن هذه المصالح ولنصرة هذه القضايا، وتدعم العلاقات الدولية وتُغنيها، وتُسهم فى إقرار الأمن والسلم والاستقرار فى العالم، وترفع من شأن قيم الإيمان بالخالق سبحانه وتعالى، وبمبادئ التعايش بين بنى البشر كافة(٢٥).

خلاصة:

لقد أثبتت الحضارة الإسلامية عبر عصورها المتطاولة وخلال دوراتها المتعاقبة، أنها حضارة متجددة، تساير المتغيرات، وتتكيف مع التطورات، وتتفتح على الحضارات الإنسانية جميعا وقد عرف المسلمون بُناة الحضارة الإسلامية فكرة التقدم، التى هى محتوى التجدد المستمر والتجديد المتواصل، وأسهموا فى تأصيلها، وعملوا على تجسيدها فى حياتهم العملية. ولما دخل العالم الإسلامى فى طور التراجع الحضارى، ونكص المسلمون عن العمل بفكرة التقدم، التى هى من صميم المبادئ الإسلامية، انعكس هذا الوضع على الحضارة الإسلامية، فتقلصت ظلالها، وضعفت آثارها، ولكنها احتفظت بعناصرها، ولم تنل تقلبات الدهر من خصائصها، بحيث كان وضع الحضارة الإسلامية انعكاساً لأوضاع المسلمين فى العالم، على اعتبار أن الأمة الإسلامية هى صانعة الحضارة الإسلامية وحاضنتها، فإن تراجعت الأمة عن خط التقدم وضعف شأنها، كان التراجع والضعف مصير حضارتها. وتلك قاعدة مطردة، لأنها من سنن الله فى الكون، لا سبيل إلى تبديلها.

واليوم والعالم الإسلامى يتطلع إلى استئناف دوره فى إغناء الحضارة الإنسانية، ويسعى إلى تدارك ما فاته من تقدم فى جميع المجالات، فإن الحضارة الإسلامية

أخذت فى الانبعاث، وبشائر هذا الانبعاث تتبدى حتى فى هذه الحلكة من الضباب المتكاثف الذى يلف العالم كله، ويكاد يحجب الرؤية السليمة إلى ما يضطرب به هذا العالم من أحداث متلاحقة، ومن متغيرات يتخذ بعضها بتلابيب بعض.

إن الحضارة الإسلامية هى حضارة الغد يقيناً، نستمده من يقيننا فى قدرة اللّه تعالى وعظمته وهيمنته على الإنسان والحياة والكون، ومن وعد اللّه لعباده المؤمنين، لأن الأمة الإسلامية لن تبقى رهينة وضعها الحالى، ولن يدوم هذا الوضع طويلاً، لأن دوامه واستمراره فى خط التراجع، يتعارضان وطبائع الأشياء وسنن الحياة البشرية، ولكن على المسلمين أن يتضامنوا تضامناً قوياً متماسكاً، وأن تتضافر جهودهم؛ ليصنعوا حضارة إسلامية جديدة، تكون ملاذاً للإنسانية جمعاء تظللهم بقيمها السمحة، وتعاليمها الفاضلة.

إن عودة الحضارة الإسلامية إلى استئناف دورها فى إغناء الحضارة المعاصرة، ضرورة إنسانية، وفريضة دينية، ورسالة حضارية، ومسؤولية الأمة الإسلامية فى حاضرها ومستقبلها.

الهوامش

(١) أرنولد توينبى، مختصر دراسة للتاريخ. ج ١، ص ٢١، ترجمة فؤاد محمد شبل، مراجعة محمد شفيق غربال، الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٦٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص ٥٤٨، تحقيق وتعليق وشرح د. على عبد الواحد وافى، دار نهضة مصر، القاهرة.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه، ص ٨٩٣.
(٧) ابن الأزرق، بدائع السلك فى طبائع الملك ج١، ص ٧٣. دراسة وتحقيق د. محمد بن عبد الكريم، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب ١٩٧٦.
(٨) ديورانت، قصة الحضارة، ج١، ص ٣.
(٩) توينبى، مختصر دراسة للتاريخ. ص ١٥٥.
(١٠) د. يوسف القرضاوى، الإسلام... حضارة الغد، ص ١٥، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٥.
(١١) د. عبد الرحمن خليفة، د. فضل الله محمد إسماعيل، فى الإيديولوجيا والحضارة والعولمة. ص ٢٧٤، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، مصر، ٢٠٠١.
(١٢) د. أحمد شلبى، موسوعة الحضارة الإسلامية ج١، ص : ٥٠، مكتبة النهضة المصرية القاهرة. ١٩٨٧.
(١٣) د. يوسف القرضاوى، المصدر السابق.
(١٤) د. عبد العزيز بن عثمان التويجرى، تقديم كتاب (بناة الفكر العلمى فى الحضارة الإسلامية)، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. الرباط، ٢٠٠٢.
(١٥) د. حسين مؤنس، الحضارة: دراسة فى أصول وعوامل قيامها وتطورها، ص ١٥، العدد ١ (تكرر فى العددد ٢٣٧ من سلسلة (عالم المعرفة)، الكويت ١٩٩٨.
(١٦) فؤاد محمد شبل مترجم كتاب (مختصر دراسة للتاريخ) لتوينبى، ج ١، هامش الصفحتين ٤٥٧ و ٤٥٨.
(١٧) د. يوسف القرضاوى، المصدر السابق، ص ١٣ ـ ٢٣.
(١٨) د. يوسف القرضاوى، المصدر السابق، ص ٣٠.
(١٩) المصدر نفسه.
(٢٠) د. حسين مؤنس، المصدر السابق، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.
(٢١) المصدر السابق، ص ٢٢٧.
(٢٢) د. حسين مؤنس، المصدر السابق، ص ٢٣٢.
(٢٣) المصدر السابق، ص ٣٤٨.
(٢٤) الدورة السابعة والعشرون، باماكو، مالى، يونيو، ٢٠٠٠.
(٢٥) الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجرى، رؤية الإيسيسكو إلى الحوار بين الحضارات، ضمن (الكتاب الأبيض حول الحوار بين الحضارات)، ص ٩٧ ـ ٩٩، نشر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ومنظمة المؤتمر الإسلامى، الرباط ٢٠٠٢.

خصائص الحضارة الإسلامية
مقارنة بالحضارة الغربية

الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب

مفتى جمهورية مصر العربية ـ مصر

معنى الحضارة:

لعل كلمة " حضارة " من أعقد الكلمات وأحفلها بالمناقشة والجدال، وذلك على الرغم من الأهمية القصوى التى يمثلها مفهوم هذه الكلمة، سواء فى مجال العلوم الإنسانية أو السياسية.

وربما كان من الصعب – فى هذا البحث المختصر – تقصى دلالات كلمة «حضارة» قديمًا وحديثًا، ورصد ما تبدل عليها من معان وأفكار، أصابها بشىء غير قليل من اللبس والخلط. وحسبنا أن نحاول قدر الإمكان ـ وفى اختصار ـ تحرير مفهوم "الحضارة " من خلال ما تسمح به معانى المعاجم العربية، والاستعمالات الواردة فى تراث الإسلام.

إذا رجعنا إلى اللغة العربية وجدنا أن الحضارة تعنى ضمن ما تعنى: الإقامة فى الحضر، والحضر خلاف البادية، تقول العرب: «فلان بادٍ وفلان حاضر »[1]. لكن هذا المعنى ليس هو كل ما هنالك من دلالات لهذه الكلمة، فقبل ذلك هناك معنى «الحضور» الذى هو نقيض «الغياب»، وأيضًا «قرب الشىء» و«المجىء». ومن

الملاحظ أن « الحضور » هو أول معنى يسجله علماء اللغة لكلمة «حضارة»، ثم تأتى بعده المعانى الأخرى، ومن جملتها " سكنى الحضر "، وبرغم ذلك فإن الباحثين المعاصرين فى معنى الحضارة لا يأخذون فى حسبانهم المعنى الأساسى لهذه الكلمة، وهو «الحضور» بمعنى الشهادة، وإنما يقفزون رأسًا فى تحديد معنى الحضارة الإسلامية إلى جعلها مرادفة للكلمة الغربية: "Civilization"، فتكون مرادفة لمعنى: «مدنية» أو «ثقافة». فالحضارة عند هؤلاء: « من حضر يحضر، يحضر الشخص ليعمل مع الآخرين كى يتأنس ويؤنس محيطه»، وهى «تراث مشترك بين جميع الشعوب: قديمها وحديثها، وإنها إرث إنسانى فى نمو لا ينقطع، مثل بحر زاخر بالمياه والأمواج، وله روافد عديدة.. هى الثقافات القومية»[٢]. ويستند المعاصرون فى تبريرهم دمج مدلول الحضارة بالمعنى العربى فى المدلول الغربى إلى اقتباسات من كلام ابن خلدون تشير إلى أن الحضارة عنده ـ أيضًا ـ هى «سكنى الحضر والمدن» [٣]، وهو اقتباس انتقائى يركز على استخدام واحد لمعنى الحضارة دون باقى الاستخدامات الأخرى.

ومادة «الحضور» التى هى أول ما يظهر من معانى الحضارة فى الاستعمال الإسلامى تعنى: «الشهود»، مما يشير إلى أن معنى «الحضارة» - إذن - هو: «الشهادة» وهذا المعنى يشهد له القرآن الكريم حيث وردت كلمة حضر - بمعنى «شهد» – فى آيات كثيرة، منها قوله تعالى: **﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى﴾**[٤]. وأيضًا: **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾**[٥].

من هذا المنطق يمكن القول بأن «الشهادة» فى الاستعمال القرآنى هى أقرب المعانى فى تحديد مفهوم كلمة الحضارة بالمعنى الإسلامى، وتعنى: الشهادة، فيما تعنى:

أولاً: التوحيد، الذى هو محور عقيدة الإسلام، والذى تعبر عنه كلمة «الشهادتين»، وقد عبر عنها القرآن فى قوله تعالى: **﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو..﴾**[٦].

والحديث الصحيح: **«بُنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»**.

وتعنى الشهادة **ثانياً**: التضحية والفداء وبذل الروح دفاعًا عن العقيدة، وعن تحرير الإنسان، وتخليصه من عبادة الغير.

ثم تعنى **ثالثًا**: شهادة الأمة الإسلامية باعتبارها أمة وسطًا، على سائر الأمم(٧).

وفى هذا الإطار تبدو الحضارة الإسلامية: حضارة يمثل الوحى الإلهى فيها حجر الزاوية، وتمثل الوسطية ركنًا من أركانها، ويصير دورها بالنسبة لباقى الحضارات دور الشاهد الذى يشهد لهذه الحضارات أو ليشهد عليها، ويلزم ذلك أن يكون أنموذج هذه الحضارة مستقلاً، يستعصى على الذوبان أو التلاشى أو الانسحاق فى حضارة أخرى لا تنطلق من نفس القيم أو الثوابت التى تنطلق منها حضارة الإسلام، وإن كانت تتفاعل وتتجاوب مع أية حضارة تحترم هذه القيم والثوابت.. ومن هذا المنظور يمكن أن نحدد بعض خصائص الحضارة الإسلامية فى أنها:

١ - حضارة مؤسسة على الوحى الإلهى.

٢ - وعلى العقل المنضبط بالوحى.

٣ - وعلى الأخلاق الثابتة.

٤ - ثم هى حضارة منفتحة ومستوعبة.

٥ - وأخيرًا: هى حضارة مسالمة.

موقع الوحى فى الحضارة الإسلامية:

يقع الوحى الإلهى من منظومة الحضارة الإسلامية موقع القلب والدماغ من جسد الإنسان، فقد شكل المرجعية الأولى فى تاريخ هذه الحضارة، ومَثَّل السر الخفى الكامن وراء صمودها وثباتها، رغم الضربات العنيفة التى وُجهت إليها على مدى تاريخها الطويل.. ونعنى بالوحى الذى تستند إليه هذه الحضارة «الدين» الموحى به من الله ـ تعالى ـ إلى نبى الإسلام: عقيدة وشريعة، وسلوكًا وقيمًا وآدابًا، أو لنقل: الدين الذى هو إيمان وعمل أو عقيدة وسلوك، وهذا

الوحى الإلهى قد حدد كل هذه الأركان، وصاغها صياغة كاملة، بينها النبى ﷺ نظريًا فى أحاديثه الشريفة، وعمليًا فى سيرته الشخصية. مما يعنى أن الدين الإسلامى ولد كاملاً مستوفى الأركان، وأنه لم يتشكل فى رحم تطورات تاريخية، أو أعيد تشكيله وفق تطورات ثقافية أو فلسفات طوته تحت جناحها، ويرجع السبب فى صمود هذا الدين واستعصائه على الذوبان إلى أن النصوص الإلهية ـ التى صاغت حقيقته ـ ظلت كما هى وحيًا محفوظًا فى السطور والصدور، الأمر الذى مكن لهذا الدين أن يبقى ثابت المعالم أمام تطور الحضارات وتداخلها وتفاعلها، وبحيث يمكن القول بأن التطور لا يعنى بالنسبة لهذا الدين إلا نوعًا من التفسير أو الصقل أو الكشف عن حقيقته، وأنه فطرة الله التى فطر الناس عليها.

وغنى عن البيان القول بأن الوحى الإلهى فى هذا الإطار - والذى هو أخص خصائص الحضارة الإسلامية - هو أمر آخر مختلف كليًا عن هذه التشويهات التى جرت بها أقلام طائفة من الغربيين، واختزلت فيها الوحى فى الإسلام إلى نوبات مرضية، أو خيالات شعرية ونفسية، أو الوقوف به «عند حدود الاقتباس الثقافى من الأديان الأخرى التى كان لها فى شبه الجزيرة العربية بعض المواقع الفاعلة، كما هو الحال بالنسبة ليهود خيبر، ويثرب، ونصارى نجران، علمًا بأن ثمة فروقات بنائية بين القرآن من جهة، وبين التوراة والإنجيل من جهة أخرى، ليس هذا المقام موضع الخوض فيها» (٨). فالمقصود من الوحى هو هذه الحقائق الموضوعية التى تلقاها النبى ﷺ وحيًا من الله تعالى، ونزل بها جبريل على قلبه، وبفضل هذا الوحى المحفوظ فى القرآن الكريم والسنة النبوية تمكن دين الإسلام من الصمود أمام حوار الثقافات والحضارات واحتفظ بشخصيته بكل ملامحها وقسماتها، ولم يحدث أبدًا أن تبدلت ثوابته أو تراجعت أمام مدّ حضارى أو نهضوى.

وقد قُدِّر لهذه الحضارة أن تكون مصدر علم وتنوير وعمارة وتحضر للعالم كله على مدى قرون عدة، وذلك لما حرص المسلمون على ربط حضارتهم بأصولها الحقيقية واستنباتها من جذورها الطبيعية المحفوظة فى نصوص هذا الوحى، وضمن منهجه وثوابته.

نعم. آلت هذه الحضارة إلى تراجع وتقهقر حين تخلت عن هذا المنهج الإلهى وعن فلسفته فى استخلاف الإنسان للمهمة المزدوجة، وأعنى بها: تعمير الكون وهدايته، ولكن ينبغى أن نعلم أن هذا التراجع لا يعود - أبدًا - إلى أن قيم هذه الحضارة وأصولها الإيمانية فقدت قدرتها على مواكبة التقدم أو التطور، وإلا لما قُدِّر لهذه القيم أن تسود العالم أكثر من خمسة قرون، بل يعود السبب فى ذلك إلى أن هذه الأصول قد أُهمِلت أولاً، ثم أُقصيت لاحقًا - وعن عمد - عن مركز التوجيه فى هذه الحضارة فحدث ما حدث. ومع ذلك وبرغم هذا الضعف ظلت هذه القيم كالجمرة المتقدة التى لا يخبو أوارها، تفعل فعلها حتى فى زمن التراجع والنكوص. والدليل على ذلك: أن محاولات عدة بُذلت فى القرنين الماضيين - ولا تزال تبذل حتى هذه اللحظة - لنقل تجربة الغرب إلى بلاد المسلمين فى تحقيق بعث حضارى لا يعول على الإسلام وعقيدته وأخلاقه، وأن هذه المحاولات تحطمت واحدة تلو الأخرى أمام صمود العقيدة الإسلامية، وعاد الأمر فى كثير من هذه المحاولات إلى صحوة يلتصق فيها المسلمون بدينهم بصورة لافتة للأنظار، الأمر الذى يدلنا على أن هذه الحضارة رغم مرضها وهزالها تشكل دورًا بالغ الأهمية فى بقاء الأمة الإسلامية، وصد هجمات الغزو الحضارى والثقافى، بل الغزو العسكرى الذى نشاهده فى الآونة الأخيرة. ولو أن حضارة أمة أخرى تعرضت لما تعرضت له الأمة الإسلامية لاختفت وتلاشت من مسرح الحياة وأصبحت فى ذمة التاريخ.

العقل والحضارة الإسلامية:

وإذا كان الوحى هو قطب الرحى ومركز الدائرة فى هذه الحضارة، فإن العقل يشكل - إلى جوار الوحى - دورًا بالغ الأهمية والخطورة، إذ هو الأساس الذى يعتمد عليه القرآن فى خطاب الناس، والمحور الذى تدور عليه تكاليف الشرع أمرًا ونهيًا، وقد نوه القرآن الكريم بشأنه، وعوّل عليه فى أمر العقيدة كما عول عليه فى أمور الشريعة والأخلاق. ومنزلة العقل فى القرآن الكريم مما لا يقبل نزاعًا ولا خلافًا، لأن تلاوة القرآن تثبته ثبوت أرقام الحساب، وبصورة ينفرد بها عن سائر الكتب السماوية. وصحيح أننا نجد فى كتب الأديان السابقة ما يشير إلى شأن العقل صراحة أو ضمنًا، لكن صحيح أيضًا أن هذه الإشارات ما كانت

ترد فى سياقات مقصودة لبيان حجية العقل فى البلاغ الإلهى للناس، بل كثيرًا ما كانت ترد بصورة ضمنية أو عرضية، بل ربما يلمح الناظر فى هذه الكتب - أحيانًا- شيئًا من الزراية بالعقل أو التحذير منه، لأنه مزلة العقائد، وباب من أبواب الدعوى والإنكار» [٩]. وعلى خلاف ذلك نجد نصوصًا قرآنية - لا تكاد تحصى - سيقت بقصد التذكير بقيمة العقل وحجيته وقوانينه التى هى أعدل الأشياء قسمة بين الناس.

وقد وردت مادة: العقل والفكر والنظر والفقه بمشتقاتها فى هذا الكتاب الكريم أكثر من ١٢٠ مرة، فى نصوص صريحة تدعو الناس إلى استخدام العقل بكل وظائفه وقواه فى معرفة الله تعالى، ومعرفة الإنسان وفهم الكون وتدبره. ولم يقتصر القرآن على ذكر العقل فقط، بل لفت الأنظار فى تكرار عجيب إلى كل وظائف القوة العاقلة، وعبر عنها بألفاظ شتى مثل: يعقلون ويتدبرون ويفكرون وينظرون ويسمعون ويفقهون، هذا فضلاً عن التفرقة الرائعة بين رتبة «العلم» و «اليقين» من جانب «الشك» و«الظن» ومراتب الشك والظن من جانب آخر: **﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾**[١٠].

﴿وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا﴾[١١]. وإذا كانت حضارة الإسلام حضارة وحى، فهى أيضًا - وبالقدر ذاته - حضارة عقل ونظر.

ونقول: إن حفاوة القرآن بالعقل والحجة والبرهان وتحذيره من مناهج الظنون والشكوك هو أمر طبيعى بالنسبة لدين لا يُعَوِّل فى مخاطبة الإنسان إلا على الخطاب الإلهى المباشر، دون اعتبار لأى وسائط أخرى من كهنوت أو قداسة مخلوق، أو ممثل لحق إلهى، «فلا هيكل فى الإسلام، ولا كهانة حيث لا هيكل، كل أرض مسجد، وكل من فى المسجد عبد واقف بين يدى الله تعالى. ودين بلا هيكل ولا كهانة لن يتجه فيه الخطاب بداهة إلى غير الإنسان العاقل الحر طليقًا من كل سلطان يحول بينه وبين الفهم القويم والتفكير السليم» [١٢].

وحسبك من تغلغل مفهوم العقل والعقلانية فى قلب الثقافة الإسلامية أن الخطوة الأولى التى ينطلق منها مشوار العقيدة فى الإسلام خطوة عقلية، وأن

الدليل على صدق النبى دليل عقلى، فدلالة المعجزة ـ كما هو معلوم ـ دلالة عقلية وليست دلالة نقلية، ومن هنا جاء التقسيم المشهور ـ عند بعض العلماء ـ لأصول العقيدة إلى أصول تثبت بالعقل وحده، وأخرى بالنقل وحده، وثالثة يتضافر العقل والنقل معًا، وأن إثبات الوجود الإلهى إنما يقوم على دليل العقل لا النقل. وحسبك أيضًا أن جمهرة من علماء العقيدة الإسلامية يجمعون على قاعدة يعرفها كل من له إلمام بدراسة هذا العلم، هذه القاعدة تقرر أنه «إذا تعارض العقل مع النقل قُدِّم العقل وأُول النقل».. على أن هذا التناغم أو الانسجام بين الوحى والعقل فى دين الإسلام هو الذى جعل من حضارته طوق نجاة تلقفته غالبية الأمم المرهقة بالتناقضات والمفارقات بين شرائع القلب وبراهين العقل، وإلا فكيف تسنى لحضارة وليدة أن تؤسس أكبر وأعظم إمبراطورية فى القرون الوسطى فى أقل من مائة عام ؟! (١٣).

إن التاريخ يقص علينا أن حضارة المسلمين طالت عنان السماء فى زمن قياسى أدهش علماء التاريخ والحضارة، والغريب فى أمر هذه الحضارة أن نجاحها لم يكن رهنًا ببيئة جغرافية معينة، بل كما نجحت فى مهدها الذى ظهرت فيه نجحت وبالقدر نفسه فى بيئات قصية عنها تختلف فيما بينها: لغة وجنسًا وعرقًا وعقيدة وتاريخًا وحضارة. وما كان لحضارة كهذه أن تصنع تلك المعجزات فى الزمن القصير لو لم يكن فى لغتها خطاب إنسانى متكامل يخاطب العقل كما يخاطب القلب، ويحترم الجسد كما يحترم الروح، ويقيم العدل والمساواة بين الناس جميعًا، فالكل سواسية كأسنان المشط، والكل لآدم، وآدم من تراب.

الأخلاق:

وتأتى الأخلاق لتشكل مع الوحى والعقل أضلاع المثلث فى حضارة الإسلام، وبحيث تكوِّن هى الأخرى ركنًا ثابتًا فى بناء هذه الحضارة، وكما كان عنصر «العقل» شديد الظهور فى تراث هذه الحضارة، فكذلك عنصر «الأخلاق» لا تخطئه العين من أول نظرة فى أصول هذه الحضارة. وميزان الأخلاق فى

الإسلام ميزان ثابت، لا يتحرك أو يميل مع منطق القوة أو المنفعة أو المصلحة، وإنما ينحصر فى أن هذا العمل أو ذاك هل هو خير فيكون حسنًا، أو شر فيكون قبيحًا، وبقطع النظر عن الخلاف المعروف عند علماء الكلام المسلمين حول علل الحُسن والقبح فى الأفعال والأحكام، وهل هى: ذواتها أو الوجوه التى تقع عليها، أو الأوامر والنواهى الشرعية - فإن القدر المجمع عليه بينهم هو أن «الأخلاق» هدف أعلى وغاية عليا فى رسالة الإسلام، انطلاقًا من قوله ﷺ : «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(١٤). مما يعنى أن مهمة النبى (مهمة خُلقية فى المقام الأول، وهو نفسه كان حالة بشرية متفردة فى مكارم الأخلاق، وقد سجّل القرآن الكريم هذا المستوى الرفيع من الأخلاق والذى تحقق به هذا النبى الكريم فى قوله تعالى: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾)(١٥).

والمتأمل فى موقع " الأخلاق " فى دين الإسلام يدهش كثيرًا من تغلغل منظومة الفضائل والمكارم فى نسيج هذا الدين وكأنها الأصل الذى تدور عليه فروع الدين بأسرها، فالأخلاق لا تشكل - فقط - أساس الأحكام الشرعية والسلوكية، وإنما تذهب بعيدًا لتشكل أساس العبادات وثمرتها أيضًا، وبحيث تنهار العبادة وتفرغ من مضمونها إذا لم يكن لها سند من الأخلاق: قيل للنبى ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها بلسانها، فقال: «**لا خير فيها، هى فى النار**» قيل: فإن فلانة تصلى المكتوبة وتتصدق بالأسوار (قطع من الطعام)، وليس لها شىء غيره، ولا تؤذى أحدًا. قال: «**هى فى الجنة**» (١٦). بل إن الصلاة التى هى عماد الدين فى الإسلام لا تكون عبادة حقيقية ما لم تثمر ثمرتها الأخلاقية فى المصلى: ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾(١٧). وقد وُجدت القيم الخلقية - كأصول مرعية - فى جميع مظاهر الحضارة فى الإسلام، فهى أصل فى نظام الحكم، وفى تقدم العلم وتطوره، وفى التشريع والحرب والسلم والسياسة والاقتصاد والأسرة، وهذه القيم لم تكن معروفة لدى العرب، ولا عند الفرس ولا الروم، ولكن سرعان ما انتشرت تلك القيم فى هذه الممالك وتغلبت على ما كان سائدًا فيها من قيم مادية متوارثة من قبل، ولم يجد الفرس ولا الرومان ولا المصريون حرجًا فى التخلى عن قيم حضاراتهم والدخول - بل النفاذ السريع - إلى أعماق هذه الحضارة: دينًا ولغة وسلوكًا(١٨).

هذا ولم تعرف الحضارة الإسلامية نسبية القيم الأخلاقية كما هو الحال بالنسبة لبعض الحضارات الأخرى، ولا المبدأ الميكيافيلى الذى يبرر الوسيلة بالغاية، ولا الكيل بمكيالين فى النازلة الواحدة أو النوازل المتماثلة، ولا غير ذلك من القيم الوضعية المبتوتة الصلة بهدى السماء، والتى ارتبطت - كليًا - بالعقل المستبد، غير المنضبط بقانون الوحى، وكانت من وراء كثير من المآسى التى يعانيها إنسان العصر الحاضر. بل نبعت قيم هذه الحضارة رأسًا من قانونها المعصوم عن الخطأ، وهو: القرآن الكريم، الذى قال عنه العالم الإنجليزى «بورك»: «والقرآن، بالإضافة إلى كونه من أجمل الروائع الأدبية فى العالم كله، دستور كامل من القوانين الأخلاقية والمدنية والعسكرية والاجتماعية، وهو دستور يضبط سلوك المسلمين الذين يجب أن تكون جميع أفعالهم بمقتضى القرآن.. أما كون المسلمين يعتبرون أن قوانين القرآن ثابتة ومعصومة عن الخطأ فيتضح من الحقيقة القائلة بأنه بالرغم من انقضاء أربعة عشر قرنًا على نزول القرآن فإنه لم يتعرض لأقل تغيير أو تبديل، وبأن كل كلمة من كلماته وكل حركة من حركاته قد بقيت كما خرجت من بين شفتى رسول الله، وسيبقى هكذا دون أى تبديل أو تحريف.. القرآن خالص من التدخل الإنسانى، وهذه حقيقة لا يمكن أن تقال - لا كليًا ولا جزئيًا - على سائر الكتب المقدسة للأديان الأخرى». ثم يقول: «والإسلام يفرض على كل مسلم ألا يفعل إلا الشىء الصحيح مهما كان كريهًا وعسيرًا، كما يعتبر الصدق فى التفكير والعمل: الوسيلة اللازمة للخلاص والنجاة.. ولقد أثبت المسلم بوصفه مواطنًا فى هذا العالم أنه يملك الرفقة والصداقة إلى حد مذهل، هذه الصفة التى جعلته موضع الإعزاز فى كل مكان ساقه القدر إليه»[١٩]. ويصور عالم إنجليزى آخر (بيكتهول) الفرق بين حضارة الإسلام وحضارة الغرب فى مقارنة طريفة يورد فيها المناقشات التى دارت فى الصحف البريطانية حول السؤال التالى: لنفرض أن تمثالاً يونانيًا على جانب عظيم من الجمال لا مثيل له ولا يمكن أن يعوض، قد وضع إلى جانب طفل حى فى غرفة واحدة، ولنفرض أن النار اندلعت فى هذه الغرفة، ولم يكن بالإمكان إلا إنقاذ واحد منهما: التمثال أو الطفل، فأيهما يجب أن ينقذ ؟. يقول الأستاذ بيكتهول: «إن كثيرين من المراسلين ومن رجال الفكر والمناصب الرفيعة قالوا يومئذ: إن التمثال هو الذى يجب أن

ينقذ، وأن الطفل يجب أن يموت، وكانت حجتهم فى ذلك أن ملايين الأطفال يولدون كل يوم، بينما تلك الرائعة الفنية اليونانية القديمة لا يمكن أن تعوض، ولعمرى إن هذا الرأى لم يكن بوسع أى مسلم أن يبديه، فهو آخر شكل من أشكال عبادة الأوثان» (٢٠).

انفتاح الحضارة الإسلامية على الحضارات الأخرى:

لقد أمدت العناصر الثلاثة السابقة: «الوحى - العقل - الأخلاق» حضارة الإسلام بإمكانات تفردت بها من بين حضارات كثيرة، وساعدتها على أن تطرح نفسها خارج حدودها الجغرافية كحضارة مفتوحة ومتوازنة أمام مطالب الإنسان وأشواقه الروحية والجسدية، ومن حسن الحظ أن الباحث هنا لا يحتاج إلى تفصيل القول إذا ما أخذ فى الحسبان هذا العدد الهائل من العلماء والأدباء والفلاسفة والمفكرين من غير العرب، والذين تأثروا بحضارة الإسلام وأثروا فيها، وكتبوا ثمرات عقولهم وقرائحهم بلغتها العربية، وأصبحوا أئمة فى المعقول والمنقول فى ثقافة هذه الأمة، وقد مثل هؤلاء الأعلام دوائر علمية وثقافية أَثْرَتْ الحضارة الإسلامية وشكلت مساحة واسعة من نسيجها الداخلى، وإن إطلالة سريعة على مكتوبات أئمة المعقول والمنقول من أمثال: الإمام البخارى، والترمذى، وأبى حنيفة، وسيبويه، والفارابى، وابن سينا، والغزالى، والرازى، والشيرازى، وغيرهم لتبرهن على أن الحضارة الإسلامية جمعت فى إهابها العديد من ثقافات الشرق والغرب، بعد ما تعاملت معها وطوعتها لدين الإسلام. وأثبتت أن الإسلام دين عالمى يفتح أبوابه على مصاريعها لكل عناصر الحق والخير والجمال، مهما اختلفت مواطنها وتعددت مصادرها، وأن حضارته حضارة مفتوحة على العالم، وأنها تعاملت مع الديانات والثقافات الأخرى بقدر غير قليل من الاحترام والتفاعل والتواصل. وأنها كما تأثرت بهذه الحضارات أَثَّرَتْ فيها، وقدمت لها زادًا ثقافيًا ما كانت لتحصل عليه لولا هذه الحضارة. ولسنا هنا بصدد الحديث عن أثر الحضارة الإسلامية فى الحضارة الغربية، والذى أنكره كثير من الباحثين الغربيين الذين رجعوا بمصادر حضارتهم إلى مصدرين اثنين لا

ثالث لهما: المصدر اليونانى والمصدر اليهودى المسيحى[٢١]. وإن كان المنصفون منهم قد أثبتوا تأثير المسلمين وعلومهم وفلسفاتهم وفنونهم فى متن الثقافة الأوروبية وحضارتها وعلومها، ولكن نقصر الحديث على انفتاح حضارة الإسلام على حضارات العالم، وأن هذه الحضارة لم يحدث أن صادرت غيرها من الحضارات فى أية مرحلة من مراحلها. وقد يعجب الباحث وهو يقرأ لمؤرخين غربيين جحودهم لحضارة الإسلام ووصفها بأنها حضارة منقولة، ومترجمة من حضارات أخرى، وأنها لم تكن حضارة مبتدعة على أيدى المسلمين.. إلخ ما دعا إليه «دعاة العصبية فى تجريد الأمم - التى لا تتوشج بينها وبين الأوروبيين واشجة قرابة - من مزايا الإبداع والتفكير»[٢٢] ومع ذلك لا يجدون حرجًا حين ينفون عن هذه الحضارة خاصة التفاعل والتعارف بالحضارات الأخرى، فالذى يثبت تأثر حضارة بأخرى يلزمه بالضرورة إثبات تلاقى الحضارتين وانفتاح كل منهما على الأخرى، لكنهم لا يتحرجون فى القول بأن حضارة الإسلام ليست إلا أمشاجًا وأخلاطًا من حضارات مجاورة، وفى الوقت ذاته يصفونها - فى أحدث ما نقرأ - بأنها حضارة إرهاب ورفض للآخر وإلغاء له، ولعل ما يدفع هؤلاء إلى التذبذب بين النقائض هو أنهم يصطنعون منهجًا عدائيًا تلفيقيًا يهدف إلى إلصاق دعاوى تأباها طبيعة الموضوع الذى يتحدثون فيه، فهم من ناحية حريصون على الحط من قدرة حضارة الإسلام بإخفاء معالم الإبداع فيها، وهذا ألجأهم إلى فرية أن الفلسفة الإسلامية - مثلاً - فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية، وأن التصوف الإسلامى تصوف مسيحى أو بوذى، وأن الفقه رومانى.. إلخ. ومن ناحية أخرى حريصون على إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام والمسلمين، وهذا ألجأهم إلى افتراء القول بأن الإسلام أصولى ومنغلق وإرهابى وخطر على الحضارات والثقافات.. إلخ. هذه التناقضات التى تمليها أغراض لا تمت إلى الحقيقة العلمية فى أدنى سبب.

ولسنا ندرى: هل نصدق ما قاله شيوخ الاستشراق فى القرن الماضى عن انفعال الحضارة الإسلامية بالحضارات المجاورة حتى النخاع ولدرجة التقليد أو النقل الأعمى، أو نصدق الاستشراق - الجديد - الذى يعود بهذه الحضارة إلى

أصولية مغلقة تجب مقاومتها، أو نكذب الاثنين معًا لنعلم ـ من جديد أيضًا – أن هذه وتلك دعوات مستكتبة لأغراض خاصة ليس من بينها غرض واحد يتوخى العلم أو التاريخ أو الواقع.

ونحن نعتقد أن تراث الإسلام العلمى والفلسفى والأدبى كانت له أيادٍ بيضاء لا تنكر على النهضة الأوروبية فى العصر الحديث، إذ شكل هذا التراث العالمى ـ مع ما اختزنه من ثقافات أخرى ـ وعبر اللغة العربية ثم اللاتينية تأسيسًا لا يمكن تجاهله فى بناء هذه النهضة، وأن هذه النهضة لم تكن لتبلغ ما بلغته لولا تواصلها وتفاعلها مع ثقافة المسلمين.

أولاً: «عن طريق معايشة الحضارة الإسلامية فى القارة الأوروبية فى الأندلس حوالى ثمانية قرون ثرية بالعطاء الحضارى، الذى أفادت منه أوروبا فائدة عظيمة فى نهضتها الحضارية»[٢٣].

وثانيًا: عن طريق ترجمة الفلسفة الإسلامية من العربية إلى اللاتينية، وكمثال على هذا التأثر نذكر اهتمام الأديب الألمانى جوته (٧٤٩هـ ـ ١٨٣٢م) بالأدب الإسلامى، واطلاعه على القرآن الكريم فى بعض ترجماته وما يؤثر عنه من أنه كان يقول: «من حماقة الإنسان فى دنياه أن يتعصب كل منا لما يراه، وإذا كان الإسلام معناه التسليم لله فإننا جميعًا نحيا ونموت مسلمين»[٢٤] ونحن إذ نقرر ذلك لا يغيب عن بالنا أن عناصر كثيرة مما حملته حضارة الإسلام لم يكن مما أبدعه المسلمون، لكنهم تلقوها من حضارات أخرى، وأسلموها ـ إن صح هذا التعبير ـ، ولم يأخذوها تقليدًا ووراثة وتلفيقًا، بل أعادوا صياغتها بما ينسجم مع هويتهم وتصورهم للكون والعالم. «واللافت للنظر فى كل ذلك أن المسلمين ما أخذوا من غيرهم أداة أو طريقة أو علمًا إلا احتفظوا لأصحابها بفضلهم واعترفوا بما قبسوه وردوه إلى ما استحق من أصوله ومخترعيه أو مكتشفيه»[٢٥]. يشهد على ذلك ويؤكده بغاية الوضوح والجلاء أقوال علماء المسلمين وفلاسفتهم التى عبروا بها عن نزعتهم الإنسانية تجاه حضارات الآخرين وثقافاتهم، واعترافهم بما كان منها صحيحًا مستقيمًا، وشكر أصحابها على إصابة الحق فى هذا الصحيح المستقيم، وعذرهم فيما لم يكن كذلك.

يقول الفيلسوف المسلم ابن رشد: «يجب علينا أن ننظر فى الذى قالوه وما أثبتوه فى كتبهم؛ فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم، وسررنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه، وعذرناهم»[٢٦]. وهكذا لم تعرف الحضارة الإسلامية ـ أبدًا ـ اختلاس ثقافة الغير، والإفادة منها ثم التنكر لها فهذا مما تأباه أخلاق الإسلام التى دخلت جزءاً مكونًا فى بنية حضارته، ولعل هذا التأسيس الخلقى هو الذى أكد «قدرة الشرق الإسلامى على استيعاب التراثات الحضارية السابقة وإعادة تركيبها، ثم مراجعة تصنيفها وتمثل حقائقها ودفعها إلى الأمام أشواطًا لخدمة عقيدة حضارة التوحيد وتوحيد الحضارة»[٢٧].

وأخيراً: الحضارة الإسلامية حضارة سلام لا صراع:

وربما كان وصف السلم أو السلام أظهر الأوصاف وألصقها بالحضارة الإسلامية، لولا محاولات التشويه لهذا الوجه المشرق الوضئ فى تاريخ هذه الحضارة، فالقرآن الكريم أو الوحى الإلهى حدّد علاقة المسلمين بغير المسلمين فى كلمة واحدة هى «التعرف على الآخر..» ونقول : إن فلسفة الإسلام فى هذه المسألة تقوم على حقيقتين متلازمتين:

الحقيقة الأولى: إن الاختلاف بين الناس هو قانون قرآنى، مضمونه أن المشيئة الإلهية اقتضت ـ أزلاً ـ أن يخلق الله الناس مختلفين فى الأديان والأخلاق والأعمال، وأنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، لكن لم يشأ ذلك، وشاء بدلاً منه «الاختلاف»: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾**[٢٨]. «وهذا نص فى أن سنته تعالى فى البشر أن يتفرقوا بمقتضى الغريزة إلى شعوب وقبائل، ويكونوا مختلفين فى العقول والأفهام والمنازع وفى اللغات والأديان والشرائع، ومتنازعين فى المصالح والمنافع»[٢٩]. ومع أن أنظار المفسرين تعددت حول مرجع اسم الإشارة فى قوله تعالى: **﴿ولذلك خلقهم﴾** فإن كثيرًا منهم يرجع به إلى الاختلاف المفهوم من

قوله تعالى: ﴿**ولا يزالون مختلفين**﴾ وبحيث يكون معنى الآية «وللاختلاف خلقهم»[٣٠] وإذن فالقرآن الكريم يقرر حقيقة اختلاف الناس فى الاعتقادات والأفكار والشعور والسلوك.

وأما الحقيقة الثانية فهى: «التعارف» أو إن شئت: «الأخوة فى الإنسانية»: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾[٣١].

وأمر بديهى أن يكون التعارف بين الأمم والشعوب مقصدًا إلهيًا، مادامت مشيئة الله تعالى قد اقتضت اختلاف الناس: فكرًا وطبيعة وميولاً. من هنا تحتم أن يكون " السلم " هو القاعدة فى علاقات المسلمين الدولية بغيرهم من الشعوب. وقد سجل التاريخ أن الحضارة الإسلامية تعاملت بهذه الروح فى علاقتها بغيرها، وأن رسول الإسلام (التزم هذه القاعدة التزامًا تامًا فى كل تعاملاته مع الآخرين، ولا يعترض فى هذا المقام بالحروب التى حدثت فى صدر الإسلام، لأن المواجهات الحربية التى خاضها النبى وأصحابه كانت كلها دفعًا لعدوان فعلى أو متوقعًا من الأعداء.

وصحيح أنه ورد الأمر بقتال المعتدين فى القرآن، لكن هذا ما تفرضه كل شرائع الحق والعدل، ولأن الحرب فى الإسلام استثناء واضطرار فقد نُهى عن الاعتداء والبغى والظلم وتجاوز الحق فى الدفاع عن النفس: ﴿**وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾[٣٢]. وهو نهى محكم وغير قابل للنسخ، ثم إن أول آية نزلت لتشرع للمسلمين حق القتال هى قوله تعالى: ﴿**أُذن للذين يُقَاتلون بأنهم ظُلِمُوا وإن الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدِّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز**﴾[٣٣]. وفى هذا النص الإلهى يتضح تحديدًا أن أول أسباب مشروعية القتال فى الإسلام هو: نصرة المظلومين، وتمكينهم من حقهم فى حياة

آمنة مثل غيرهم، وهو مطلب لا يعرض للعقل السليم أن يرتاب فى مشروعيته لَحْظَة.. كما يتضح أن الحرب فى هذا النص مشروعة للدفاع عن الأديان السماوية ضد عدوان الشرك والمشركين، ومن العجيب فى هذا المقام أن القتال المشروع فى الإسلام ليس قاصرًا على وجوب الدفاع عن حرية العبادة فى هذا الدين فقط، بل هو واجب - بالمشروعية نفسها - لتأمين الدفاع عن حق حرية العبادة فى الأديان السماوية الأخرى. استمع إلى ابن عباس - رضى الله عنهما - وهو يقول فى تفسير هذه الآية: «يدفع بدين الإسلام وبأهله عن أهل الذمة»[٣٤]، وقد تساءل المفسرون عن دخول الصوامع والبيع والصلوات فى خطة الدفاع الإسلامى، وكان من إجابتهم أن هذه المواضع أجمع مواضع المؤمنين، وإن اختلفت العبادات عنها. وها هو الإمام الرازى ينفى أن يكون معنى الدفاع عن هذه المواضع خاصًا بأيام موسى وعيسى - عليهما السلام - ويميل، بل يؤكد أن الغرض من الدفاع الإسلامى عنها كيلا تهدم فى أيام الرسول ﷺ، لأن هذه المواضع - فيما يقول - «يجرى فيها ذكر الله تعالى، فليست بمنزلة عبادة الأوثان»[٣٥] فالآية الكريمة تأخذ فى حسبانها الدفاع عن أماكن العبادة الخاصة بغير المسلمين. والإسلام لا يجنح للحرب إذا أمكن تفاديها بأية صورة من الصور، بل يكون السلام هو الخيار الوحيد - شرعًا - أمام المسلمين لو جنح إليه أعداؤهم **﴿وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها﴾**[٣٦]. وإذا فرضت الحرب فهناك مبدأ الرحمة، ومبدأ الوفاء بالمعاهدات، ومبدأ تحريم الخيانة، وكلها ثوابت وبينات فى حضارة الإسلام. وإذا كان السلام هو الأصل فى علاقة المسلمين بغيرهم من الأمم والشعوب، فإن المبدأ نفسه كان يحكم علاقة المسلمين بأهل الأديان والملل فى داخل الدولة الإسلامية نفسها. وبحيث يصدق القول: بأن السماحة التى عرفها هؤلاء فى ظل الحضارة الإسلامية لم يعرفوا مثيلها فى ظل الحضارات الأخرى.

وها هو الأستاذ آدم ميتز - أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بازل فى سويسرا- يقرر أن تسامح المسلمين مع أهل الأديان سبق مبادئ التسامح التى يتنادى بها المصلحون المحدثون، وأن سماحة الحضارة الإسلامية لم تكن معروفة فى أوروبا فى القرون الوسطى، وأن هذا التسامح كان سببًا فى نشوء علم مقارنة الأديان

والإقبال على دراسته بشغف عظيم فى الثقافة الإسلامية، ويقول هذا الأستاذ المنصف: إنه لم يكن فى التشريع الإسلامى ما يغلق دون أهل الذمة أى باب من أبواب الأعمال، وكان قدمهم راسخًا فى الصنائع التى تدر الأرباح الطائلة.. وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة، وكان رؤساء اليهود وجهابذتهم عنده.. وحياة الذمى عند أبى حنيفة وابن حنبل تكافئ حياة المسلم، وديته دية المسلم.. ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل فى الشعائر الدينية لأهل الذمة، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم.. ولم يكن يوجد فى المدن الإسلامية أحياء متخصصة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدونها.. وكانت الأديرة المسيحية منتشرة فى كل أجزاء بغداد حتى كادت لا تخلو منها ناحية»[٣٧] ويقول وول ديورانت: «إن المسلمين كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين، فقد كانوا أحفظ للعهد منهم، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين، وقلما ارتكبوا فى تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس فى عام ١٠٩٩م، ولقد ظل القانون المسيحى يستخدم طريقة التحكيم الإلهى بالقتال أو النار، فى الوقت الذى كانت الشريعة الإسلامية تضع فيه طائفة من المبادئ القانونية الراقية ينفذها قضاة مستنيرون»[٣٨]. هذا ما يقرره عقلاء المؤرخين الغربيين عن تاريخ الحضارة الإسلامية مع أهل الأديان والملل، وذلك فى وقت بلغت فيه هذه الحضارة ذروة مجدها وسيادتها على العالم. وكان بإمكانها ـ لو أنها لم تنطلق من دين كالإسلام ـ أن تفرض عقيدتها على الآخرين، وأن تلجأ للإبادة والتقتيل وهدم دور العبادات المخالفة، ومصادرة العقائد الأخرى، كما فعلت وتفعل بعض الحضارات فى القديم والحديث أيضًا.

الحضارة الغربية:

ولعلنا لا نبالغ فى الأمر لو قلنا إن الوضع يكاد يختلف اختلافًا كثيرًا بالنسبة للحضارة الغربية، وواجب الإنصاف يحتم الاعتراف بالجوانب المضيئة فى حضارة الغرب، خاصة تلك التى تتمثل فى القفزات الكبرى فى تطور العلوم

والسيطرة على الطبيعة، والمكاسب الهائلة فى ميادين: الديمقراطية والتقدم فى الفنون والآداب ووسائل الاتصال التى حولت العالم إلى قرية صغيرة، إلى إنجازات لا يحصرها العد أفاد منها الإنسان والبشرية بصورة غير مسبوقة فى تاريخ هذا الكون، فهذا كله مما يستحق الإعجاب والإكبار، ولكن لا مفر من القول بأن هذه الحضارة اختارت - عن عمد - أن تعرج على ساق واحدة، وذلك حين تنكرت للوحى الإلهى وأدارت له ظهرها، وضربت بضوابط الأخلاق الدينية عرض الحائط، ثم راحت تختزل الأهداف والغايات العليا فى هدف كاد ينحصر فى البعد المادى. وأعنى به «وفرة الإنتاج» وتكريس الحرية الفردية، والسعادة بمفهومها الدنيوى الخالص، واستغلال الشعوب واستعمارها والسيطرة عليها وعلى ثرواتها ومقدراتها .. والحضارة الغربية - بهذه الفلسفة - نقيض للحضارة الإسلامية، بنفس المنطق الذى يناقض ما بين التسلط وفرض السيطرة من جانب، والانفتاح والتعرف من جانب آخر. وهذا ما جعل «سياق الانتشار الحضارى الغربى عالميًا يتسم بعكس ما اتسم به الانتشار الحضارى الإسلامى»[٣٨] ومرة ثانية تظهر القراءة السريعة للأحداث المعاصرة أن التسامح مع الآخر، الذى اتصفت به الحضارة الإسلامية، يقابله التسلط على الآخر فى الحضارة الغربية، ولم يعد الباحث فى حاجة إلى مزيد من التأمل ليكتشف مبدأ الصراع والصدام فى رؤية الحضارة الغربية للحضارات الأخرى، بعد أن خرجت علينا مؤخرًا فرضية «صدام الحضارات»[٣٩] التى طرحها صموئيل هنتنجتون مدير – معهد الدراسات الاستراتيجية التابع لجامعة هارفارد– والتى أكد فيها على أن الانقسامات الثقافية بين الحضارات المعاصرة هى التى تشكل الأسباب الحقيقية للنزاع المتوقع فى هذا العالم. ويقول: إن الحضارات الحية الموجودة الآن هى تقريبًا سبع حضارات: الحضارة الغربية والكونفوشيوسية واليابانية والإسلامية والهندوسية والسلافية الأرثوذكسية والأمريكية اللاتينية. ويهمنا هنا ما يقوله عن الصراع بين الغرب والإسلام والذى يصفه بأنه صراع قديم منذ الفتح العربى الإسلامى وحتى مرحلة التحرر من الاستعمار. إن هذا الصراع أو التناقض بدأ يظهر من جديد مع عاصفة حرب الخليج الثانية، ومن ثم يستنتج هنتنجتون أن هذا الصراع «ليس مرشحًا أن يزول فى المستقبل القريب»[٤٠] وتتمثل الخطورة فى منظور هذه النظرية فى الترابط الإسلامى الآسيوى الذى

يشكل مصدر خطر يهدد القيم والمصالح الغربية، وذلك بسبب استمرار الدول الإسلامية والآسيوية فى تعزيز طاقاتها الدفاعية فى الوقت الذى يعمل فيه الغربيون والروس على تقليص قوتهم العسكرية، ومن ثم يصبح من اللازم المحتم - فيما يزعم هنتنجتون - توثيق التعاون بين المكونات الأوروبية والأمريكية للحضارة الغربية، وبناء علاقات أوثق مع أوروبا الشرقية وأميركا اللاتينية والتعاون مع روسيا واليابان، والحد من النمو العسكرى للدول الآسيوية والمسلمة، واستغلال الخلافات بين الدول الكونفوشيوسية والإسلامية مع الحرص على الحفاظ على التفوق فى شرق وجنوب آسيا، ومساندة المجموعات التى تنزع نحو الغرب فى الحضارة الأخرى»(٤١). ولم ينس صموئيل هنتنجتون أن يقدم لنا الدليل على أن حضارة الغرب لا تقوم على أساس ثابت من القيم الأخلاقية بمقدار ما تعتمد على مبدأ التذبذب والنسبية حسب منطق المصلحة ومبدأ الغاية التى تبرر الوسيلة، فقد عرض لاحتجاج المسلمين ضد ازدواجية النظرة الغربية فى التعامل بين العراق من ناحية، والصرب وإسرائيل من ناحية أخرى، وكان تعليقه أن من الطبيعى أن يكون هناك مكيالان: مكيال للدول الصديقة ومكيال مختلف للدول الأخرى. يقول هنتنجتون: «يقابل المسلمون بين أعمال الغرب ضد العراق، وبين تقاعسه عن حماية البوسنيين فى وجه الصرب، وفرض عقوبات على إسرائيل لانتهاك قرارات الأمم المتحدة، ويدعون أن الغرب يكيل بمكيالين، بيد أن من المحتم أن يكون عالم الحضارات المتصادمة هو عالم الكيل بمكيالين، فالناس يكيلون بمكيال للبلدان التى تمت إليهم بقرابة، وبمكيال مختلف للآخرين»(٤٢).

إن هذه الإجابة لابد أن تثير فى الذهن - بحكم تمايز الأضداد - عظمة الحضارة الإسلامية التى حكمها القرآن الكريم بمبدأ العدل بمكيال واحد للقريب والبعيد، والصديق والعدو على السواء: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾**(٤٣).

وأيضًا: **﴿وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق..﴾**(٤٤).

وفى هذه الآية الأخيرة تبلغ نزاهة العدل ونظافته مستوى لم تعرفه أية جماعة إنسانية إلا فى الإسلام وحده، فالآية تأمر المسلمين المهاجرين بأن ينصروا إخوانهم المؤمنين الذين لم يهاجروا إذا طلبوا منهم النصر على المشركين، إلا إذا كان هناك عهد بين المسلمين وبين المشركين بعدم الاعتداء، فهنا يحترم القرآن هذا العهد مع العدو ولو كانَ على حساب مصلحة فريق من المسلمين أنفسهم.. فالوفاء بالعهد مع العدو مقدم على نجدة المسلم الآخر ونصرته على هذا العدو المعاهد.. ولسنا هنا بصدد مقارنة بين حضارة الإسلام وحضارة الغرب غير أننا نزعم أن حضارة الإسلام ليست حضارة صراع وصدام كما يقول هنتنجتون فى محاولته خلق روح العداء وإذكاء الفتنة بين الحضارات ومن حسن الحظ أن هذه النظرية لم تلق قبولاً عند كثير من المثقفين ومؤرخى الحضارات فى الغرب والشرق، وقد تساءل إدوارد سعيد - بحق - عن الهدف من هذه النظرية: هل هو دعوة للتعايش وفهم العالم فهمًا صحيحًا أو هو غطاء فكرى لسياسة الهيمنة الجديدة ؟ هل اتباع هذا المنهج يشكل الطريقة المثلى لفهم ما يجرى فى العالم ؟ أو أنه ينتج خريطة مبسطة للواقع تُعَقِّد الخلافات الحضارية بدل أن تحققها، وتؤدى إلى تضخيم التوجهات القومية والعنصرية ؟

إن هدف هنتنجتون : تأكيد وجود اصطدام حضارى بين الغرب والحضارات غير الغربية وبينها الإسلام والكونفوشيوسية، وعلى الغرب أن يحسن إدارة هذا الصدام(٤٥)، وليس من شك فى أن دوافع هذه النظرية لم تتجاوز مجال السياسة أو النظرة الضيقة إلى مصالح الغرب فى الدول الأخرى، وكان من الأوجب والأحق أن تسبق الاعتبارات الحضارية مصالح السياسة والسياسيين، ومثل هذا التناول لا يُمَكِّن الغرب من تقديم حلول تساهم فى إخراج العالم من مشكلاته الخانقة.. ثم إ ن هذه النظرية تفتقد الجدة والابتكار، لأنها فى أفضل حالاتها ليست إلا تبريرًا جديدًا لانقسام قديم درج الغرب على تكريسه بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى(٤٦) على أن المتأمل فيما حدث فى الأيام الأخيرة يخرج بانطباع قوى بأن هذه النظرية صيغت بالفعل بقصد تبريرى جاء وقته الآن وأسفر عن هذا الموقف القبيح الذى تقفه الحضارة الغربية من فلسطين والمقاومة

الفلسطينية. وفى منطق هذه الحضارة ـ وللأسف البالغ ـ اختلطت الأوراق بصورة يندى لها جبين الإنسان الحر السوى، وتبدلت المفاهيم بشكل سافر وانتزعت الأسماء من مسمياتها الحقيقية، فسميت المقاومة المشروعة إرهابًا، وسمى الاعتداء الوحشى البربرى حقًا مشروعًا، وسمى السفاح رجل سلام، ورجل السلام رجلاً غير جدير بالثقة والتقدير.. إلخ. هذه الفوضى الفكرية العالمية، والتى لا شك تعكس موقفًا سوفسطائيًا جديدًا يسود الخطاب العالمى ويُنذر بأوخم العواقب..

لقد اتخذت الحضارة الغربية فى تطورها الأخير طريق العولمة، وطريق صراع الحضارات للهيمنة على الأمم والشعوب وللسيطرة على مقدراتها وإزالة خصائصها وهوياتها، وكان أجدر بهذه الحضارة أن تسلك طريقًا آخر سوف يفرض نفسه كَحَلٍّ لا مفر منه عاجلاً أو آجلاً، هذا الطريق هو طريق التعارف الذى نادى به القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان.

الهوامش

(١) لسان العرب، مادة: حضر.

(٢) محمد عبد العزيز الحبابى، الحضارة الإنسانية وحضارة التصنيع، الرباط، مجلة الوحدة عدد ٤ يناير ١٩٨٥م، ص ٨٧، (نقلاً عن: نصر محمد عارف، الحضارة - الثقافة - المدنية، ص ٥٧، المعهد العالى للفكر الإسلامى ١٩٩٤م).

(٣) راجع المقدمة ص ٥٧٨-٥٧٩، تحقيق على عبد الواحد وافى، دار نهضة مصر، ١٩٨١م. هذا ويلاحظ د. نصر محمد عارف - بحق - أن رجوع الباحثين العرب لنصوص ابن خلدون رجوع تسويغى لاستعمال المعنى الغربى الأوروبى، وليس للبحث عن مفهوم الحضارة كما هو فى معطيات اللغة العربية، فابن خلدون - وهو يتحدث عن الحضارة -: " كان يقصد بها مرحلة التحضر أو ظهور المدن، وهى مرحلة من مراحل عمر الدولة التى تحدث عنها، ومن ثم لم يكن ابن خلدون يقصد مفهوم الحضارة بمعناه المعاصر المترجم عن لفظة " Civilization " ولم يقصد مفهوم الحضارة بمعناها اللغوى والقرآنى الشامل، وإنما قصد مجرد الاشتقاق من " حضر "، أى: الصفة التى تطلق على النمط المعيشى لأهل المدن والحضر، وقد اعتبر هذه المرحلة مرحلة ترف مؤذنة بانهيار العمران، لأنها تنافى مفهوم استخلاف الإنسان فى الأرض، والرسالة التى حملها الله إياه، وتنافى كذلك قيم التسخير الإلهى للكائنات والأشياء.. (الحضارة - الثقافة - المدنية، مصدر سابق، ص ٥٣-٥٦).

(٤) النساء: ٨.

(٥) البقرة: ١٨٥.

(٦) آل عمران: ١٨.

(٧) هذا المعنى الذى يعبر عن الحضارة بالمفهوم الإسلامى استخرجه د. نصر محمد عارف فى أطروحته: " نظريات التنمية السياسية المعاصرة، دراسة نقدية فى ضوء المنظور الحضارى "، ص ٧٤، ١٠٥، ط. المعهد العالمى للفكر الإسلامى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٨) سمير سليمان: الإسلام والغرب، إشكالية التعايش والصراع، ٢٤-٢٥، بيروت ١٩٩٥م. انظر أيضا: دومينيك سورديل «الإسلام فى القرون الوسطى» الترجمة العربية ص ٢٥.

(٩) العقاد، " التفكير فريضة إسلامية " ضمن موسوعة عباس العقاد الإسلامية، مجلد ٥ص ٨٢٩، دار الكتاب العربى، بيروت ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

(١٠) النساء: ١٥٧.

(١١) النجم: ٢٨.

(١٢) المرجع السابق ٨٤٢.

(١٣) من المعروف تاريخيًا أن المسلمين تواجدوا على شاطئ الفرات سنة ٦٢٣، وهزموا الروم فى أجنادين فى ٦٣٤، ودخلوا دمشق ٦٣٥، وخضعت لهم فارس ٦٤٢، ومصر ٦٣٩-٦٤٢، وآذربيجان ٦٤٢، وأفغانستان ٦٦١، ومراكش ٧٠٨، وأسبانيا ٧١١-٧١٢، وسمرقند ٧١٢.. إلخ. راجع جلال مظهر: " الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمى الحديث " ص ٥٣، مطبعة مخيمر ١٩٦٩م.

(١٤) أخرجه الإمام البخارى فى الأدب المفرد رقم ٢٧٣، والحاكم وصححه ج٢، ص٦١٣.

(١٥) القلم: ٤.

(١٦) أخرجه الحاكم من حديث أبى هريرة وصححه ج٤، ص١٦٦.

(١٧) العنكبوت: ٤٥.

(١٨) انظر: د. خلقى، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٣٠ ط. جامعة الخليل ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

(١٩) نقلاً عن " د. مصطفى الشكعة، معالم الحضارة الإسلامية ٢٤-٢٥، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧م.

(٢٠) المصدر السابق ٣٧-٣٨.

(٢١) سمير سليمان، الإسلام والغرب ٤٦، بيروت ١٩٩٥م.
(٢٢) انظر العقاد، «أثر العرب فى الحضارة الأوروبية»، ٢٨ـ٢٩، دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٨م.
(٢٣) د. محمود حمدى زقزوق، «العلاقة بين الإسلام والغرب حوار أم صراع ؟»، (من المحاضرة الافتتاحية لمؤتمر كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عن: " الإسلام والغرب ") ٢٠٠٢/٤/٢٠م " ص ٥.
(٢٤) المصدر السابق ص ٦.
(٢٥) سمير سليمان، الإسلام والغرب ص ٥٧.
(٢٦) «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال»، ص ١٢، بتصرف، دار الآفاق الجديدة. بيروت ١٩٧٨م (بعنوان: فلسفة ابن رشد). وقد ذكر الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق فى محاضرته هذه: أن الأديب الألمانى الشهير جوته (١٧٤٩ـ١٨٣٢) كان له إلمام واسع بالأدب الإسلامى فى اللغتين: العربية والفارسية، وأنه اطلع على القرآن الكريم فى بعض ترجماته، وقرأ المعلقات وديوان حافظ شيرازى كما ذكر أن شهادة الدكتوراه التى حصل عليها الفيلسوف الألمانى الكبير " إيمانويل كانت (١٧٢٤ـ١٨٠٤) مبدوءة فى أعلاها بعبارة: " بسم الله الرحمن الرحيم ".
(٢٧) سمير سليمان، " الإسلام والغرب " ص ٥٩.
(٢٨) هود: ١١٨ـ١١٩.
(٢٩) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١٢: ١٩٨ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م. أيضًا ص ١٦٠ من الجزء نفسه.
(٣٠) انظر على سبيل المثال: فخر الدين الرازى، التفسير الكبير ١٨: ٨٠، دار الفكر، بيروت ١٤٠١هـ ـ١٩٨١م.
(٣١) الحجرات: ١٣.
(٣٢) البقرة: ١٩٠.
(٣٣) الحج: ٣٩ـ٤٠.
(٣٤) الرازى المصدر السابق ص ٤١.
(٣٥) المصدر السابق ن. م.
(٣٦) الأنفال: ٦١.
(٣٧) آدم ميتز، «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى. ١: ص ٦٨ وما بعدها، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٧م.
(٣٨) قصة الحضارة، الجزء الثانى من المجلد الرابع ٣٨٣، ترجمة بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٧٤م.
(٣٨) منير شفيق، «فى الحداثة والخطاب الحداثى»، ٣٠، المركز الثقافى العربى، بيروت ١٩٩٩م.
(٣٩) راجع فى هذه النظرية، والردود التى واجهتها، كتاب: «صدام الحضارات»، ص١٧ـ٤١، مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق بيروت ١٩٩٥م.
(٤٠) ميشال نوفل فى مقدمته للمصدر السابق ص ١١.
(٤١) المرجع السابق الموضح.
(٤٢) صدام الحضارات، مصدر سابق.
(٤٣) المائدة: ٨.
(٤٤) الأنفال: ٧٢.
(٤٥) جريدة الحياة، لندن، ١٧ فبراير ١٩٩٥م نقلاً عن: زكى الميلاد، «المسألة الحضارية، كيف نبتكر مستقبلنا فى عالم قديم»، ص ٤٨، المركز الثقافى العربى، بيروت ١٩٩٩م.
(٤٦) زكى الميلاد المصدر السابق ٥٠.

خصائص ومميزات
الحضارة الإسلامية

الأستاذ الدكتور / بدر عبد الرزاق الماص

أستاذ مشارك ـ كلية التربية الأساسية

الكويت

مميزات الحضارة الإسلامية

تشتمل مميزات الحضارة الإسلامية على الأمور التالية:

(أ) الحق والباطل.
(ب) الخير والشر.
(جـ) العالمية والشمول.
(د) المثالية والواقعية.

أولاً: الحق والباطل :

لما كان مبدأ الحق من أهم الأسس التى قامت عليها الحضارة الإسلامية كان من البديهى أن يحتل هذا المبدأ مركز الصدارة والتمجيد، فى نصوص الدفع الإسلامى إلى القمم الحضارية المثلى، وأن تحمل هذه النصوص حرباً شعواء على الباطل حيث وُجِد، ومن أى مصدر ظهر[1].

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم لوجدناه يهتم اهتماما كبيراً بمبدأ الحق، وذلك بوصفه أساساً للدعوة الإسلامية، ورسالة الإسلام الحضارية للناس جميعاً، ومما يدل على هذا الاهتمام الكبير ورود مادة الحق فى القرآن الكريم قرابة مائتى مرة.

١ ـ فالإسلام دين الحق لمطابقة أصوله الاعتقادية وأخباره ومواعيده للواقع، ولأن تعاليمه وشرائعه موافقة لأكمل صورة ممكنة، تتحقق بها سعادة الناس فى حياتهم الأولى، وحياتهم الأخرى، قال تعالى: ﴿**هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾[٢].

٢ ـ وآيات الله تتلى بالحق على نبيه ﷺ لأن مضمون آيات الله لا يعدو صراط الحق، قال تعالى: ﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين**﴾[٣].

٣ ـ والقرآن الكريم أنزله الله بالحق؛ لأن كل ما فيه حق لا ريب فيه، قال تعالى: ﴿**الم ● الله لا إله إلا هو الحي القيوم ● نَزَّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ● من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان**﴾[٤].

٤ ـ والله ـ عز وجل ـ يأمر رسوله ﷺ بدعوة الناس إلى الحق الذى جاءهم به، بالنظر السديد والبحث العلمى والمناقشة، قال تعالى: ﴿**قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل**﴾[٥].

٥ ـ ومن صفات المؤمنين الملازمة لهم تواصيهم المستمر بالحق فيما بينهم، قال تعالى: ﴿**والعصر ● إن الإنسان لفى خسر ● إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾[٦].

وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم مما يدل دلالة واضحة على احتلال الحق مركز الصدارة والتمجيد فى أسس الحضارة الإسلامية.

الباطل والنفور منه:

أما الباطل ـ الذى هو نقيض الحق ـ فقد لقى النفور والحرب والتجهم من أسس الحضارة الإسلامية كلما حاول العلو فى الأرض والاستحواذ على نفوس الناس أو عقولهم أو أعمالهم، وبمقدار ما أبرزت الحضارة الإسلامية مبدأ

الحق، وأصرت على الالتزام به، بوصفه أساساً من أسسها وجهت ضد الباطل نفورها وتجهمها وحربها المركزة، وفى القرآن آيات كثيرة تحارب الباطل وأهله محاربة لا هوادة فيها، منها قول الحق تبارك وتعالى: **﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزواً﴾**[٧]، وقوله عز وجل: **﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون • ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون﴾**[٨]، وغير ذلك كثير.

إحقاق الحق وإبطال الباطل:

إن الحضارة الإسلامية بناء على ما سبق تحمل بين طياتها رسالة إحقاق الحق وإبطال الباطل، لأن الله ـ عز وجل ـ يريد ذلك من شرائعه التى ينزلها للناس، قال تعالى: **﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين • ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾**[٩] ويقول سبحانه: **﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾**[١٠]، ويقول ـ عز وجل ـ حين دخل الإسلام مكة منتصراً يوم الفتح: **﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾**[١١].

ويقول عز من قائل مصوراً الصراع بين الحق والباطل مبينا أن النصر حتماً فى النهاية للحق: **﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾**[١٢].

وهكذا يظهر لنا أن أسس الحضارة الإسلامية لا تحريف فيها ولا دحل[١٣]، ولا عوج فيها ولا التواء، إنها ذات منهج واضح مشرق. إذ أخذت بمبدأ الحق، والتزمته فى كل ما نطقت به من مجد فكرى واعتقادى، أو عمل تطبيقى، والتزامها بمبدأ الحق جعلها تنفر من الباطل وتتصدى له حيث كان، وجعلها تقاومه وتصارعه مهما وقف فى سبيلها وأعاق تقدمها وارتقاءها، وأعداء الحق،

وأنصار الباطل هم أعداء الحضارة الإسلامية الصحيحة، وهم الذين يلقون بالعثرات فى طريقها، وأنصار الحق يكسّحون باستمرار هذه العثرات وهم يقولون **﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾**(١٤).

ثانيا: الخير والشر:

يطلق الخير ويراد به ما يكسبه الإنسان بإرادته فى الحياة الدنيا، من عمل قلبى أو نفسى أو جسدى، يحقق له عند الله خيراً باقياً وسعادةً خالدةً وثواباً حسناً، ولو كان ذلك العمل شاقاً مضنياً أو مؤلماً، أو فيه تعرض للضرر والأذى فى الحياة الدنيا، ويلحق بالخير المباحات الشرعية الممتعة والنافعة التى لا ضرر فيها، ولا أذى يأتى من قبلها، فإن اقترنت بنية تستحق ثواباً عند الله كانت خيراً أصلياً لا محالة، ويرادف الخير بهذا المعنى الطاعة لله والبر ونحوهما.

وفى مقابل ذلك يطلق الشر ويراد به ما يكسبه الإنسان بإرادته، من عمل قلبى أو نفسى أو جسدى، ليستحق عليه جزاء سيئاً، ولو جلب له فى الدنيا متعة أو منفعة أو لذة، ويرادف الشر على هذا المعنى المعصية لله والإثم ونحوهما، وقد لوحظ فى المراد من الخير والشر أمران:

الأول: ما سيؤول إليه العمل يوم القيامة من جزاء بالثواب أو بالعقاب، لما يتضمن من طاعة لله أو معصية له.

الثانى: ما يؤدى إليه العمل من آثار ونتائج حسنة أو سيئة على الفرد أو على المجتمع فى الحياة الدنيا، وذلك لأن الأحكام الإسلامية تهدف إلى تحقيق أكبر نسبة من الخير، وتفادى أكبر نسبة من الشر، فى نظرة كلية جامعة ينظر بها الإسلام إلى الإنسانية على وجه العموم، ثم إلى الحياة، ثم إلى الوجود بأسره.

ولا يظن ظانٌ أن الإسلام يرفع من حسابه على هذا المفهوم للخير والشر ملاحظة المنافع والمتع واللذات، أو ملاحظة المضار والآلام والأكدار، بل الإسلام يدخل كل ذلك فى حسابه، ولكن ضمن نظرة كلية شاملة، والقرآن الكريم قد تناول بشىء من الإسهاب الحديث عن الخير والشر، من ذلك قوله تعالى **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ● ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾**(١٥)،

ويقول سبحانه: **﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾**(١٦)، ويقول سبحانه: **﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم﴾**(١٧).

والخير والشر أحد الأسس الراسخة للحضارة الإسلامية نلحظ فيها الآتى:

١ ـ أن الخير والشر اللذين يترتب على فعلهما مدح وثواب أو ذم وعقاب محدودان بحدود العمل الإنسانى، المصحوب بإرادة الفاعل وعلمه.

٢ ـ أن أبرز الخصائص لكل من فعل الخير وفعل الشر ما فى أنفس فاعليهما من إرادة وتصميم على فعل الخير حبا للخير وطاعة لله، أو فعل الشر تلبية لهوى من أهواء النفس، أو نزوة من نزواتها مع العلم بأنه شر.

٣ ـ يدخل فى مفهوم الخير ما يلى:

(أ) كل عمل يحقق رضوان الله وثوابه.

(ب) كل عمل يكون وسيلة للترقى فى مراتب أحد الكمالات التالية:

الكمال الفكرى ـ الكمال الخلقى ـ الكمال السلوكى ـ الكمال الإبداعى ـ كمال التعايش الجماعى.

(جـ) كل عمل يكون وسيلة لتحقيق ما يلى:

ـ اللذات التى لا ضرر فيها ولا عدوان على حدود الله.

ـ المنافع التى لا مضار فيها مساوية أو راجحة عليها.

ـ المصالح التى لا مفاسد فيها أو راجحة عليها.

٤ ـ يدخل فى مفهوم الشر ما يلى:

(أ) كل عمل يؤدى إلى سخط الله وعقابه.

(ب) كل عمل يكون وسيلة للهبوط فى دركات النقص للكمالات السابقة.

(جـ) كل عمل يكون وسيلة للسيئات التالية:

ـ الآلام التى لا طاعة لله فيها ولا منافع أو مصالح ترجى عن طريقها وهى راجحة عليها، ولا سبيل لتحقيقها إلا بتحمل هذه الآلام.

ـ المضار التى لا تتضمن منافع راجحة عليها ولا سبيل لتحقيق هذه المنافع الراجحة إلا بارتكابها.

٥ ـ لدى تساوى المصالح والمفاسد، والمنافع والمضار، واللذات والآلام يرجح إحالة العمل المفضى إلى ذلك إلى جانب الشر، فيمنع الإنسان من ممارسته، صيانة له من العبث، والتزاما بقاعدة «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح المساوية لها».

٦ ـ متى أمكن تحقيق المقصود من المنافع أو المصالح أو اللذات بطريق خالٍ من المضار والمفاسد والآلام امتنع سلوك طريق آخر فيه شىء من ذلك، ولو كان دون ما يتحقق من خير مقصود وذلك لأن الحاجة إلى الضرورة لم تلجأ إلى تحمل هذه المؤذيات، ولو كانت خفيفة، مادام بالإمكان تحقيق المطلوب، دون تحمل شىء منها، وذلك باختيار طريق آخر.

٧ ـ إن نظرة الإسلام إلى مفهوم الخير والشر تشمل فى وقت واحد، ضمن ميزان دقيق حساس، اللذات والآلام، والمنافع والمضار، والمصالح والمفاسد، الفردية والجماعية، العاجلة والآجلة، الدنيوية والأخروية، كما تشمل مع كل ذلك علاقة الإنسان بربه، وتزن أعمال الإنسان بهذا الميزان الحساس، المتعدد الكفَّات، وتجرى عليها حسابا عادلاً ضمن معادلات رياضية عالية، فتعطى قيمة العمل الإنسانى، من الخير والشر، بما تعطيه له من حكم شرعى.

وهكذا فإن نظرة الإسلام عامة شاملة لكل ما فى الوجود الإنسانى وغيره وعامة وشاملة لكل الاحتمالات الممكنة فى مجال العمل الإرادى للإنسان، مع تقدير قيمة كل منها بميزان محكم، الأمر الذى نتج عنه تحديد شامل ودقيق لمعنى كل من الخير والشر، تحديداً كليا، وتحديدا تفصيليا يتناول كل جزئية من جزئيات العمل الإرادى للإنسان.

ليس غريباً أن تكون نظرة الإسلام بهذا الشكل الرائع من الشمول، فالإسلام تنزل من لدن خالق عليم حكيم، قال تعالى: ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾[١٨]، من هنا فحرى بالإنسان أن يقف موقف الاستسلام لحدود الخير والشر التى حددها الله له، ولا يمنعه ذلك من أن يتابع بحثه وتأملاته فى دقائق الأمور التى قامت عليها الأحكام الإسلامية، وفى أسرار الحكم الربانية التى تضمنتها هذه الأحكام، فالتسليم ميزة القلب المؤمن، والبحث العلمى ميزة العقل المفكر[١٩].

ثالثاً: العالمية والشمول فى رسالة الحضارة الإسلامية

الحضارة الإسلامية مفتوحة الحدود، ممتدة الأرجاء، شاملة كل ما فى الحياة من مجالات تقدم وارتقاء، فى أسسها الفكرية والنفسية والمادية:

(أ) فهى حضارة لا تحدها حدود ضيقة من الفكر، فتحجبها عن أى كمال من الكمالات.

(ب) ولا تحدها حدود ضيقة من النفس، فتحصرها ضمن الدوائر الأنانية العنصرية أو القومية أو الطبقية، أو غيرها .

ولكنها منفتحة الحدود النفسية انفتاحاً مقروناً بالتحريض على الانطلاق إلى الأبعاد الإنسانية كلها، تحمل إليها المحبة والرحمة، وإرادة الخير والسعادة للناس أجمعين، ثم إلى أبعاد أخرى أوسع من المجتمع الإنسانى حتى تشمل كل ذى حياة بالرحمة والإحسان، وشواهد ذلك فى النصوص الإسلامية كثيرة منها النصوص التالية: قال ﷺ : **«دخلت النار امرأة فى هرة حبستها لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض»**(٢٠).

وعن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: **«ما من مسلم غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة»**(٢١).

وهكذا تمتد أبعاد الحضارة الإسلامية حتى تشمل الرحمة والإحسان كل ذى حياة.

(جـ) وأخيراً فإن الحضارة الإسلامية لا تحدها حدود مكانية، ولا حدود زمانية، فكل مكان من الأرض هدف لإقامة الحضارة الإسلامية عليه، وكل زمان من الدهر هدف لإقامة الحضارة الإسلامية فيه.

وبهذين العنصرين ـ العالمية والشمول ـ تحتل أسس الحضارة الإسلامية قمة رفيعة من المجد الخالد، لم ترق إلى مثلها أية أسس حضارية أخرى، وذلك لأن ضيق الحدود الفكرية والنفسية والمادية الذى تعانى منه معظم الحضارات البشرية يجعلها ـ مهما ارتقت ـ عاجزة قاصرة واقفة فى السفوح أو على الروابى والتلال، أما القمة الرفيعة فلا تصل إليها إلا طاقة مزدوجة القوة، أحد عنصريها العالمية، والعنصر الآخر الشمول.

وهذان العنصران مجتمعان فى أسس الحضارة الإسلامية، فَحَقٌّ لها أن تفخر بمجدها العظيم، وحق المسلمين أن يفخروا بها، وأن يحتلوا بسببها قيمة المجد الخالد بين بناة الحضارات البشرية إذا هم عملوا بهديها، وطبقوا إرشاداتها تطبيقاً سوياً، وفهموها الفهم الصحيح، ووعوها الوعى السديد، وبذلوا فى سبيل ذلك ما يملكون من قدرات فكرية ونفسية وجسدية، وفردية وجماعية، وأحسنوا الانتفاع من الطاقات الكونية التى سخرها الله للإنسان(٢٢).

رابعاً : المثالية والواقعية

نظرة استقرائية شاملة للشريعة الإسلامية الدافعة إلى كل مجد حضارى كريم، تكشف لنا أن من أسسها العامة الكبرى المثالية فى العقائد والأهداف والغايات، والواقعية فى الأعمال ومناهج الحياة.

أما المثالية فتتجلى فى أمور ثلاثة:

الأول: الإيمان والأصول الاعتقادية، فهى فى الإسلام الحقيقة المثلى، والإيمان بها يجب أن يكون تاما، والمثالية فى الإيمان درجات، تتفاوت بحسب تفاوت الأفراد، نظراً إلى استعداداتهم وإلى مدى تمسكهم بها.

الثانى: النيات وتكون المثالية فيها بابتغاء مرضاة الله فى فعل الأعمال الحسنة، وفى ترك الأعمال السيئة، وملاحظة طاعته لدى فعل ما أمر به، أو ترك ما نهى عنه، أو فعل وترك ما أذن بفعله وتركه على السواء.

وهذا الابتغاء عمل من أعمال القلوب، ويطلق عليه اسم (النية)، ولا غرو أن المثالية فى هذا الأمر أيضا ذات درجات، تتفاوت بحسب الأفراد، نظرا إلى استعداداتهم، وإلى مدى تمسكهم بها.

الثالث: نشدان الكمال فى الأعمال، وذلك بالتطلع المستمر إلى الأحسن والأفضل والأنفع والأكمل من صور العمل واحتمالاته، وباستهداف الوصول إلى الغاية المثالية التى يمكن تحقيقها عن طريق العمل، ولو فى أقل الأحوال الإنسانية، وأندرها، وهذا النشدان يدفع الإنسان إلى التحسين والترقية، باستمرار سعياً فى طريق الكمال.

وأما الواقعية فى الأعمال ومناهج الحياة فتتجلى فى أمور خمسة:

الأول: التكليف ضمن حدود الطاقة الإنسانية.

الثانى: رفع المسؤولية فى أحوال النسيان والخطأ والإكراه، التى لا يملك الإنسان دفعها.

الثالث: مراعاة مطالب الفكر والنفس والجسد، وعدم إهمالها، وذلك ضمن حدود طريق الخير.

الرابع: مراعاة مطالب واقع حال المجتمعات الإنسانية التى يتفاوت أفرادها فى استعداداتهم، وخصائصهم، وذلك فى البيانات الإسلامية، وفى أساليب التربية، وفى الأعمال الجماعية، وفى تحديد مناهج السلوك، وفى أصول المحاسبة والجزاء.

الخامس: مراعاة واقع النفس الإنسانية، المفطورة على حب المخالفة والنزوع إلى الشذوذ، والمغامرة بامتحان المسالك الوعرة، ولهذا الواقع الإنسانى مؤيدات صريحة فى نصوص الشريعة الإسلامية.

منها ما جاء فى الحديث الصحيح «**كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»[٢٣]، وتكون مراعاة هذا الواقع بفتح باب الغفران للإنسان، وتهيئة أفضل الوسائل ليتخلص من الإثم وليلقى عن كاهله أثقال الأوزار.

وهكذا تجمع أسس الحضارة الإسلامية بين المثالية والواقعية، جمعاً رائعاً، وتضع كلاً منهما فى محله الذى يليق به[٢٤].

الهوامش

(١) انظر أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى ص ٣٣ ط. دار الثقافة دار القلم دمشق وبيروت.

(٢) سورة التوبة آية (٣٣).

(٣) سورة البقرة (آية ٢٥٢).

(٤) سورة آل عمران آية (١ : ٤).

(٥) سورة يونس آية (١٠٨).

(٦) سورة العصر كاملة.

(٧) سورة الكهف آية (٥٦).

(٨) سورة النحل آية (٧٢، ٧٣).

(٩) سورة الأنفال آية (٧، ٨).

(١٠) سورة الأنبياء آية (١٨).

(١١) سورة الإسراء آية (٨١).

(١٢) سورة الرعد آية (١٧).

(١٣) أى: لا تجل.

(١٤) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها صفحة ٣٩ بتصرف.

(١٥) سورة الزلزلة آية (٧، ٨)

(١٦) سورة الحج آية (٧٧).

(١٧) سورة آل عمران آية (١١٠).

(١٨) سورة الملك آية (١٤).

(١٩) انظر أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها صفحة (٤٥، ٨٩) بتصرف.

(٢٠) رواه مسلم فى صحيحه فى البر ١٣٥، والإمام أحمد فى مسنده ٢١٧/٢.

(٢١) أخرجه مسلم فى المساقاة ٧ ـ ١٠، ١٢، والبخارى فى الأدب ٢٧، حرث ١، والترمذى فى الأحكام ٤٠ والدارمى فى البيوع ٦٧.

(٢٢) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها صفحة ١١٥ ـ ١١٦.

(٢٣) أخرجه الترمذى فى القيامة ٤٩، وابن ماجه فى الزهد ٣٠، والدارمى فى الرقاق ١٨، وأحمد فى مسنده (١٩٨/٣).

(٢٤) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ص ١٧٤ ـ ١٧٦.

تقرير مفصل حول أعمال الحلقة النقاشية التى عقدت على هامش المؤتمر

إعداد وترجمة:
الأستاذ الدكتور / رضا بدير
الأستاذ بجامعة الأزهر
مصر

اجتمعت لجنة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية برئاسة أ.د. جعفر عبدالسلام أمين عام رابطة الجامعات الإسلامية وأستاذ القانون الدولى بجامعة الأزهر، وعضوية كل من: أ.د. على جمعة أستاذ أصول الفقه بجامعة الأزهر، و د. رضا بدير أستاذ اللغويات والدراسات الإسلامية باللغة الإنجليزية بجامعة الأزهر، وبمشاركة لفيف من العلماء والمستشرقين يمثلون دولاً عدة منها: مصر، وألمانيا، وفلسطين، وكندا، والنمسا، وتركيا، وبريطانيا، وإيطاليا، واليابان، على مدى يومين دار النقاش خلالهما حول العلاقة مع الآخر، وحقوق الإنسان، والتسامح والتعددية فى الإسلام.

اليوم الأول

استهل الحديث الدكتور مراد هوفمان - من ألمانيا، موضحًا أن الجهل هو السبب الرئيسى وراء العداء للإسلام، والدليل على ذلك أن الأثر الإيجابى لأحداث ١١سبتمبر تمثل فى ألمانيا فى نسبة المبيعات العالية جدًا لترجمة معانى القرآن، وكان هناك خوف من صدام الحضارات، وقد ظهر ذلك جليًا من رد فعل

بعض قادة العالم مثل بوش الذى زار المسجد، وبلير وشرودر اللذين ظهرا على شاشات التليفزيون يحملان المصحف، ولذا يوصى الدكتور هوفمان المسلمين بأن يقيموا الحوارات لبيان حقوق الإنسان فى الإسلام، وتوضيح حقيقة الإسلام.

ويضيف الدكتور هوفمان قائلا بأن هناك صدعاً فى العلاقات بين الشرق والغرب يجب رأبه، فمن ناحية يعانى الشرق من أن الغرب نصرانى، كما أن الشرق دائم الشك فى أن الغرب يتآمر ضده على طول الخط، ومن الناحية الأخرى يسىء الغرب فهم الإسلام ويعتقد أنه دين العنف، وأن الإسلام قد انتشر بالسيف، ويرى هوفمان أن هناك حلا لهذا الخلاف يكمن فى عقد اللقاءات والندوات، وتبادل وجهات النظر، وعلى الشرق والغرب أن يتعايشا جنبا إلى جنب، فهناك نقاط التقاء كثيرة بينهما ، كما أن هناك مصالح مشتركة تجمعهما.

كما يوصى هوفمان بأنه لابد من ربط توصيات هذا المؤتمر بالقرآن الكريم وأهم آية فى هذا الصدد هى الآية رقم ٤٨ فى سورة المائدة، والتى تتحدث عن مشيئة الله فى اختلاف الناس وتعدد مشاربهم وأنه لو شاء الله لهدى الناس جميعا، وهذا الأمر يعكس أن التعددية هى إرادة الله عز وجل، كما يوصى هوفمان بضرورة إقامة الدول الإسلامية لمؤتمرات للحوار حول هذه الأمور وغيرها، شريطة أن يتم ذلك فى العواصم والمدن الغربية نفسها، وسيكون لذلك عظيم الأثر والنفع.

ثم تحدث بعد ذلك الدكتور / شتيفان فيلد - من ألمانيا، الذى أكد على أن الحكم على دين ما من الأديان لابد أن يكون بالرجوع إلى مصادره، وقال: " إنه ينبغى ألا نحكم عليه من خلال تصرفات بعض من ينتمون إليه، وعبر فيلد عن رغبته فى الاطلاع على توصيات المؤتمرات السابقة، والنظر فيما تم تحقيقه بالفعل منها.

كما أكد على أنه لابد وأن نعى أنه من أجل تحقيق أو تنفيذ التوصيات لابد من معرفة وتحديد من المقصود بهذه التوصيات، فهذا المؤتمر مثلا قد عقده المسلمون للحديث عن الإسلام وحقيقته، لذلك أرى أن يقوم المسلمون بتوجيه

التوصيات لغيرهم من المسلمين فقط؛ لأن غير المسلمين لا يمكن أن يساهموا فى تنفيذ تلك التوصيات، حيث لم يتضمن المؤتمر الحديث أو النقاش حول حقيقة ما يعتقده غير المسلمين، وذلك لوجود قيود سياسية، لذا أرى أن يقوم المؤتمر بتوجيه توصياته فى المقام الأول للمسلمين؛ لكى تكون قابلة للتنفيذ، ولا مانع من توجيه رسالة لغير المسلمين.

كما لابد وأن تعكس تلك التوصيات ما ورد فى المؤتمر وما تمت مناقشته، فلن تكون التوصيات ذات جدوى إذا كانت عبارة عن ملخصات للأبحاث المقدمة للمؤتمر. ويرى فيلد أن أى نقاش أو حوار فى هذا الصدد لابد وأن يأخذ فى الحسبان أمورا منها: البعد عن التعميم، وقبول نقد الذات، والتعددية، والتى أعنى بها نوعين، الأول: تعددية داخل العالم الإسلامى، والثانى: تعددية تجعل المسلمين يتعاونون مع غير المسلمين."

وأكدت أ. د / سوزانا هاينه - من النمسا على أن المشكلة تكمن فى قلة الوعى الدينى، وينبغى التعاون على زيادة الوعى الدينى، والعودة إلى أصول الدين ومصادره لتأصيل المفاهيم الصحيحة، كما شددت على أهمية دور المدرسة والجامعة، وتأصيل الفهم الصحيح من خلال المناهج الدراسية التى يتم تقديمها للدارسين فيهما، وقد أثبتت التجارب نجاح هذا الدور، وأنه يؤتى ثماره من خلال اتباع منهجية واضحة.

أما السيد / خالد هيجوتشى - من اليابان فقد قال: " إن عدد اليابانيين يبلغ حوالى ١٢٠ مليون فرد، كما يوجد أكثر من ٢٠٠ ألف ملة، أما عدد المسلمين فى اليابان فهو يبلغ حوالى ٧٠ ألف فرد، ولا يعانى المسلمون من أية مضايقات فى اليابان على الإطلاق، وقد زاد اهتمام وسائل الإعلام المختلفة بالإسلام بعد أحداث ١١ سبتمبر، وقد أقيمت ندوات كثيرة قدمنا للناس من خلالها تعريفا بالإسلام.

وقد زاد فضول الشعب اليابانى لمعرفة المزيد عن الدين الإسلامى والبلدان الإسلامية وزعمائها، وسوف يتم انعقاد مؤتمر خلال شهر أغسطس من العام الحالى نقيم فيه حوارا، وسنطلب من علماء الإسلام المشاركة فى هذا المؤتمر: من الأزهر الشريف بمصر، ومن المملكة العربية السعودية وباكستان وغيرهم من

علماء الدول الإسلامية الأخرى.

إن بعض اليابانيين يظنون أن الدين الإسلامى ليس دينا اقتصاديا، وأنا شخصيا أعمل فى مجال التجارة، ونحن نحاول تصحيح هذا المفهوم الخاطئ فهناك مجموعة من الشركات التى يقوم بإدارتها مسلمون، وهم يترجمون المفاهيم والمبادئ الإسلامية فيما يتعلق بالنواحى المالية والاقتصادية لتصحيح هذه الصورة الخاطئة فى أذهان بعض اليابانيين.

إن سوء فهم الإسلام يمثل عائقا أمام نشر دعوة الإسلام، وعلينا أن نقوم بتصحيح هذا الفهم من خلال القدوة، وأعنى بذلك ترجمة تعاليم الإسلام إلى سلوك طيب، فالدعوة العملية أكبر أثرا فى نفوس الناس، فعن طريق تطبيق مبادئ الإسلام من خلال سلوك العمل اليومى، الذى يؤكد على أن الإسلام منهج حياة متكامل تتأتى أفضل النتائج فى نشر دعوة هذا الدين، كما أن هناك أمراً مهمًا جدا يساعد على سهولة هذه المهمة، ألا وهى النقاط المشتركة الكثيرة فى الأخلاقيات بين الإسلام والمجتمع اليابانى، منها على سبيل المثال: حسن الجوار وكرم الضيافة، والتواضع، والاعتدال فى العلاقات الإنسانية."

أما الأسقف إيمانويل - من تركيا - فيقول: "إن أكبر مشكلة وعائق بين الشرق والغرب تكمن فى فهم المصطلحات، والتى ينبغى أن تصحح ،ومنها على سبيل المثال: الأصولية، والجهاد، والشريعة، وأكبر دليل على ذلك أن أكثر اتهام يوجه للإسلام هو الأصولية، دون تحديد واضح لمفهوم الأصولية، أو فهم واعٍ لمعنى الأصولية.

وأنا أقول: إن اتهام الإسلام بالأصولية ليس بصحيح، لأن من بين النصارى من هم أصوليون أيضًا، والمشكلة هى عدم وضوح المصطلحات، فالغرب مثلاً إذا سمع لفظ الجهاد فإن رد فعله يكون دائمًا سلبيًا؛ لأنه لا يعى المفهوم الحقيقى للجهاد فى الفقه الإسلامى، وأود أن أؤكد أننا نحن الكنيسة الأرثوذكسية قد عشنا أزمانا طويلة نتمتع بالعدل والتسامح فى ظل الدولة العثمانية، التى تعد أحسن حالا من كثير من الدول القائمة فى الزمن الحاضر.

أما فيما يتعلق بحقوق الإنسان، فإن هناك اختلافًا فى وجهة النظر بين الغرب والشرق، وليس كثرة الحديث عن حقوق الإنسان فى الغرب تعنى أن الشرق لا يقرها، بل على العكس، وينبغى على الشرق أن يوضح تلك الحقوق من وجهة النظر الإسلامية.

أما عن العلاقة مع الآخر فينبغى التفكير فيها على مستويات ثلاثة: محلية وإقليمية، وعالمية، ومحاولة تجميع الشعوب والتوصل إلى التعايش السلمى من خلال تبادل الحوار، وفيما يتعلق بالمستوى المحلى فإن العلاقة مع الآخر هنا تعنى العلاقة بين أبناء المجتمع الواحد، والعلاقات فى الحياة اليومية بين أفراد هذا المجتمع، أما على المستوى الإقليمى؛ ولاسيما فى الوقت الحالى وفى ظل الوضع الراهن بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، فالمقصود بالعلاقة مع الآخر هنا محاولة إقامة حوار بين الأديان وبين الدول المختلفة، أما فيما يتعلق بالمستوى العالمى فالجميع الآن يتحدث عن العولمة، فما هو رد فعل الإسلام والمسيحية ضد العولمة؟

أما عن التعددية فإنها نعمة، وينبغى صياغة القوانين التى تحدد وتحفظ حقوق الآخر وقبوله فى ظل التعددية، وإننى على يقين من أن الأصوليين هم الذين سيرفضون التعددية التى ننادى بها، خاصة فى أوروبا، ففى بلجيكا الإسلام معترف به منذ عام ١٩٧٣، ولابد أن ينظر إلى التعددية فى إطار كل دولة مع الحفاظ على حقوق الآخر فى تلك الدول، وإن السبيل إلى التعددية فى أوروبا الآن يكون بالرجوع إلى المدارس والجامعات، لتصحيح مسار التعليم الدينى بها وتصحيح المفاهيم المسبقة والمفاهيم الخاطئة، ويكون أيضا من خلال إقامة الحوار بين الأديان الإبراهيمية.

أما الدكتور أحمد صدقى الدجانى ـ من فلسطين، فيرى أن الأرض التى خرجنا منها وإليها نعود تتعرض لأخطار عدة، منها التلوث والطغيان، ومثال ذلك الهجمة الشرسة التى يتعرض لها الإسلام من قبل قوى العولمة، وربطه بالإرهاب.

هذه جلسة اغتنيت فيها كثيرا، والعروض التى قدمت علمتنا الكثير، ووضعتنا فى صورة دقيقة على صعيد التفاعل الجارى بين المؤمنين بمختلف الأديان، ومن

وحيها ومن وحى خبراتى وحديث د. جعفر عن تحويل المبادئ إلى عمل أطرح النقاط التالية، وهى فى إطار ما ينبغى عمله توطئة للاقتراح الذى سمعناه من الزملاء، وهى:

النقطة الأولى: وهى عبارة عن تساؤل: هل نتفق على أن عالمنا يشهد صحوة روحية قبل ١١ سبتمبر وبعده، وأن هذه الظاهرة استوقفت الكثيرين، وعبر عنها فى الكثير من المؤتمرات، وعبر عنها فى الاتحاد الأوروبى حين تأسست إدارة خاصة للأديان والبعد الروحى؟ إذا كان هذا أمراً نرصده، فالمناخ صالح لعمل صالح ومشترك.

النقطة الثانية: هل نتفق على أنه لم يشهد العالم منذ أن قام الإنسان مخلوقا من عند الله ظاهرة كالتى نعيشها، وهى تواصله وتفاعله وتفرقه على بعضه بعضا؟ ما حدث فى التاريخ أن (ابن بطوطة) جاب الأرض وقدم لنا كتابه وكذلك (ماركو بولو) كتب كتابه، لكننا نشاهد هذا يوميا من خلال التليفزيون، ومن خلال سياحة البشر.

لقد حكى لى زملائى عن أوروبا، وأوروبا الآن فيها قرابة ٣٠ مليون مسلم بعضهم أوربيون أصليون، وأمريكا فيها ٧ ملايين مسلم، وأنا أعيش فى مصر وأرى آلاف السياح يأتون كل عام، وقد راقبت بعضهم وهم يذهبون إلى الصعيد وهذا تفاعل حقيقى وواقعى ، وبالمناسبة شاهدت فيلما اسمه "بركة" تم إخراجه فى الغرب، وفيه حوالى ٥٠ مشهدا لمؤمنين من مختلف الأديان بلا كلام يعبرون عن التواصل، فكيف نوظف هذه الظاهرة؟

النقطة الثالثة: عرفنا معنى التنوع بأنه ليس التماثل، فالله خلق الناس مختلفين، ومن ثم كما قال أخى د. ديفيد بفكرة الاندماج أو الاستيعاب، وهذا كان سائدا فى التاريخ الأوروبى فى القرن التاسع عشر، والسائد الآن هو وحدة التنوع، وهذا التنوع تنوع أقوام وملل.

إن المخرج يتمثل فى الإيمان بكرامة الإنسان، وحريته فى الاعتقاد من منطلق **﴿لا إكراه فى الدين﴾**(سورة البقرة: ٢٥٦).

اليــوم الثانــى

استهل د. جعفر عبد السلام الجلسة بأن طلب من المشاركين التركيز على نفس موضوعات اليوم الأول، ألا وهى: العلاقة مع الآخر، وحقوق الإنسان فى الشرق الإسلامى وقيم التسامح والتعدد فى الفكر الإسلامى من وجهة نظر من يعيشون فى الغرب على وجه الخصوص؛ لأن أحد أهداف المؤتمر التعرف على رأى غير المسلمين بالذات فى مثل هذه القضايا المهمة، بغرض التباحث فيها، والخروج بنتائج إيجابية حولها.

ثم أكد د. جعفر مرة أخرى على الرغبة فى الاستماع إلى ممثلى الدول التى لاتسود فيها الأكثرية المسلمة، مثل: بريطانيا، والنمسا، وألمانيا، وغيرها من الدول الأخرى، فهذه الجلسات قد أعدت خصيصا للاستماع إليهم، والتحاور معهم والإجابة على أسئلتهم، والوقوف على التطور الذهنى عند المسلمين فى البلاد الغربية مع الحضارات التى أتى منها هؤلاء المسلمون، فعلى المشاركين أن يتحدثوا بقلب مفتوح، وأفق واسع عن كل ما يرونه فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين فى بلادهم أو فى العالم كله ،مع التركيز على الأسباب الرئيسية وراء المشكلات الكبيرة بين المسلمين والعالم الغربى فى وقتنا الراهن، بغية الوصول إلى كلمة سواء بين الطرفين.

بدأ الحديث د. ديفيد توماس ـ المحاضر فى قسم اللاهوت بمركز الدراسات الإسلامية والعلاقات بين المسلمين والنصارى بجامعة برمنجهام، وقال: إن تعداد المسلمين فى بريطانيا يبلغ حوالى ٢ مليون مسلم، ومعظمهم نزح إلى بريطانيا خلال الخمسين سنة الماضية من باكستان والهند، وقد استقر معظمهم فى بعض المدن الصناعية فى شمال بريطانيا، والوسط فى برمنجهام التى يبلغ عدد سكانها حوالى مليون نسمة، من بينهم ١٥٠ ألف مسلم، والعلاقة بين هؤلاء المسلمين والنصارى يسودها السلام.

وبمرور الوقت ظهر جيل من المسلمين الذين ولدوا ببريطانيا يتحدثون الإنجليزية كلغة أم، وهذا يعكس تغيراً حدث داخل المجتمع الإسلامى فى انجلترا، وقد كان من المتوقع أن تكفى خمسين سنة لاندمَاج المسلمين فى المجتمع

البريطانى، ولكن هذا لم يحدث، فقد احتفظ المسلمون بهويتهم، بل ودعموها بشكل أكبر وأقوى، كما أن هناك استجابة لبعض مطالب المسلمين بالحصول على حقوق معينة، فى ظل ما يسمح به النظام القانونى البريطانى، فهناك فصل بين البنين والبنات عند سن معينة فى المدارس، احتراما لمبدأ عدم الاختلاط فى الإسلام كما أنه ليس هناك اعتراض على ارتداء ملابس تلتزم بتعاليم الإسلام، بالإضافة إلى التصريح بالطعام الحلال.

أما فيما يتعلق بعدم الاستجابة لبعض مطالب المسلمين الدينية، فإن السر فى ذلك يرجع إلى عدم وجود نص فى الدستور البريطانى بالاعتراف بدين معين كدين للدولة، فعندما تقدم المسلمون بطلب إلى المحكمة يطالبون فيه بمنع نشر كتاب سلمان رشدى "آيات شيطانية"، لم تستجب المحكمة نظراً لعدم وجود نص فى القانون الإنجليزى يسمح بوقف نشر الكتاب.

وقد يتعجب المجتمع البريطانى من بعض الأحداث التى تقع فى العالم، مثل قيام (حزب الله) بأسر البعض، واعتبارهم رهائن فى لبنان منذ عدة سنوات، أو تصور أن الهجوم الذى حدث على مبنى التجارة العالمى فى نيويورك قام به مسلمون، وسواء كانت هذه هى الحقيقة أم لا، فإن المجتمع المسلم فى بريطانيا يشعر بعدم الاستقرار، ولعل هناك ما يبرر ذلك، فهناك متعصبون فى كل مجتمع وقد نادى المتعصبون فى بريطانيا بطرد المسلمين، إذ الوضع فى بريطانيا يعتمد على وجود نوع من السلام بين المسلمين والمجتمع بشكل عام، ولكن هناك بعض الدلائل والمؤشرات التى تدل على أن الوضع قد لا يستقر، وغالبا ما نحاول أن نتفهم هذا الوضع.

من أهم التطورات الإيجابية منذ الحادى عشر من سبتمبر، وجود اهتمام كبير وواسع المدى بالإسلام من قبل المجتمع البريطانى، وتطلع لمعرفة الكثير عنه، ولم نكن نتوقع ذلك، ولكن من واقع تجربتى الشخصية على سبيل المثال أننى تمت دعوتى عدة مرات للحديث إلى تجمعات صغيرة وكبيرة عن الإسلام، ولعل إحدى نتائج الحادى عشر من سبتمبر هو تزايد الرغبة فى التعرف على دين الإسلام.

وجه بعد ذلك د. جعفر عبد السلام سؤالا إلى د. توماس فيما يتعلق باحتفاظ المسلمين فى بريطانيا بسماتهم وأفكارهم الذاتية، على الرغم من مرور خمسين عاما، فهل يعد هذا عيبا أم ميزة؟ إن تمسك المرء بعقائده وثوابته لا يتعارض مع اندماجه فى المجتمع، وأنا شخصيا أميل لبذل أكبر جهد لكى يندمج المسلمون فى مجتمعاتهم، التى يعيشون فيها، لكن مع الحفاظ على الثوابت والهوية.

"أما فيما يتعلق بسلمان رشدى، وعدم معاقبته على الإساءة إلى الدين الإسلامى فى كتابه (آيات شيطانية)، أود أن أقول: إن القانون المصرى يشتمل على نص يعاقب من يزدرى الأديان، وهو قانون ليس منقولا من الشريعة الإسلامية، ونحن هنا فى مصر لا نسمح لمسلم أن يسىء إلى النصرانية، ولا نسمح لأحد أن يعتدى على الإسلام، لا أعرف أن القانون الإنجليزى يختلف عن القوانين الأخرى، فهل من حق أحد أن يقذف ويسب الأديان؛ ثم لا يكون هناك عقاب؟ لا أعتقد أن القانون الإنجليزى يسمح بهذا، أنا أعرف أنه يعاقب على القذف والسب للأشخاص، فما بالنا بقذف الأديان؟"

" أما عن التطورات الإيجابية بعد ١١ سبتمبر فهى أخبار طيبة، ونود أن نسمع عن المزيد منها، وكيف نستثمرها دائما فى تحسين العلاقات بيننا، فنحن نريد من خلال هذا المؤتمر أن نصل إلى قواسم مشتركة لتحقيق المصالح المشتركة بيننا بما يعود بالنفع علينا، ويقوى الروابط بيننا كمثقفين وعلماء."

ثم رد د. توماس قائلا: "إننى قلت كان من المتوقع أو المأمول أن يتم اندماج المسلمين فى المجتمع البريطانى، ولكن هذا لم يحدث، إن المجتمع البريطانى يتسم بالتعددية، والنصرانية هى الدين التاريخى، ولكن لم يعد للنصرانية نفس المكانة، وهناك أديان أخرى لها احترامها فى انجلترا، ولقد طلب الأمير تشارلز عندما يصبح ملكا أن يطلق عليه لقب (حامى الدين) لا حامى العقيدة، أى العقيدة النصرانية، والدين الذى يقصد الأمير تشارلز حمايته هنا أى دين؛ أو كل الأديان لأنه يعرف أن هناك أديانا أخرى فى انجلترا."

"ومن أهم هذه الأديان الإسلام، وإننى أعتقد أنه بعد خمسين عاما فى انجلترا كان من المتوقع أن يفقدوا هويتهم، ويندمجوا فى مجتمعاتهم، ولكنهم لم يذوبوا

فى مجتمعاتهم، وأعتقد أن هناك واجباً ومسئولية من المجتمع البريطانى ككل، أن يدرك التباين الموجود داخل المجتمع البريطانى، وهناك واجب أيضاً على أتباع الأديان المختلفة داخل المجتمع البريطانى، أن يدركوا ويفهموا أن تابعى كل دين يمكنهم أن يستمروا فى ولائهم لأديانهم، وفى نفس الوقت يكونوا مواطنين فى إنجلترا، أى ينبغى على النصارى أن يكونوا بريطانيين نصرانيين، وفى نفس الوقت هناك واجب على المسلمين فى انجلترا أن يكونوا مواطنين بريطانيين، وفى نفس الوقت مسلمين. إن المسلم يرى نفسه عضواً فى الأمة الإسلامية، وإن ذلك يتخطى الحدود، لكن وجود المسلمين داخل مجتمع يحتم عليهم أن يحترموا قواعد وتقاليدَ هذا المجتمع الذى يعيشون فيه."

ثم أوضح د. ديفيد توماس أن الدستور البريطانى لا يعترف بدين معين، فهو قائم على العلمانية، لذلك عندما يطالب المسلمون بحق معين ثم يقابل بالرفض فإن هذا لا يعنى عداوة أو تحيزاً ضد الإسلام، وإنما يرجع ذلك لعدم وجود نص فى الدستور يسمح بإعطاء ذلك الحق، وينادى د. ديفيد المسلمين والنصارى فى المجتمع البريطانى للتعاون من أجل توصيل رسالة للعالم، مؤداها: أن وراء خلق الإنسان غاية، وأن حياته لها معنى، كما أكد على أن بريطانيا الآن اقتنعت بتعايش لا اندماج التعددية فى الاعتقاد، من واقع الخبرة والتجربة.

وأضاف توماس قائلا: "لقد لاحظت أن معظم الأبحاث قد أجمعت على الحديث عن الدفاع عن الإسلام، وأكدت أن الإسلام هو دين الوحدانية، وإننى أعتقد أن الأمر بهذه الصورة مبالغ فيه، وأقترح بدلا من حوار الحضارات أن يكون حوار بين المجتمعات، للبحث عن التنوع والتعدد داخل الدول الإسلامية ذاتها، كما أن هناك آيات وأحاديث كثيرة يتم تأويلها تأويلا واحداً متفقاً عليه؛ دون التعرض بأسلوب علمى وأكاديمى لشرح وتفسير المعانى المختلفة، وإظهار التنوع فى الثقافة الإسلامية.

وينبغى أن يكون المسلمون أكثر ثقة فى أنفسهم، وأن يتخلوا عن نبرة الدفاع كما أن المسلمين يستخدمون كلمة حوار دون إدراك ووعى كامل بمعناها، فالحوار

ينبغى فيه احترام الآخر، واعتباره مساويا لك، كما لابد من الاستماع للآخر باهتمام واحترام، وينبغى على المسلمين أن يكونوا على استعداد بالمخاطرة بعرض كل ما لديهم حتى ولو كان مجانبا للصواب، ولابد أيضا أن يكون لديهم استعداد لقبول ما عند الآخر من حق وصواب."

بعد ذلك عَقَّبَ السيد غانم جواد ـ من بريطانيا بقوله: إن السنوات العشر الأخيرة قد شهدت تغيراً فى تركيبة المجتمع المسلم، وكان لذلك صدى لدى المسئولين، وخير مثال على ذلك زيارة الأمير تشارلز للمركز الإسلامى التركى، وزيارة تونى بلير لمؤسسة الإمام الخوئى الخيرية فى لندن، عندما عقدنا مؤتمراً تحت رئاسة الأمير الحسن تحت عنوان "الإسلام ورده على الإرهاب"، وكذلك زيارة زوج الملكة لمؤسسات إسلامية فى شهر مارس الماضى، كما عقد مكتب رئيس الوزراء للجاليات الدينية اجتماعاً فى نوفمبر الماضى، وجرى التنسيق لاختيار لجنة تنشيطية تراقب تطور الأحداث فى بريطانيا، ويمثل أعضاء اللجنة المكونة من خمس منظمات إسلامية، تجتمع كل يوم أربعاء من أول كل شهر للاطلاع على الأحداث ذات العلاقة بالدين.

الأكثر من هذا هو حدوث تغير فى تفكير المجتمع البريطانى تجاه القضايا الإسلامية، ففى الاثنين الماضى عرضت القناة الرابعة بالتليفزيون البريطانى برنامجا يغطى ما يحدث فى مخيم جنين، والجرائم التى ارتكبتها القوات الإسرائيلية هناك، وقد اتسمت تغطية البرنامج بعدم التحيز، ومن ذلك أيضا المقال الذى نشر عن "محمد الدرة"، والذى أحدث ضجة من قبل اللوبى اليهودى عندما تعرضت له محطة إذاعة بريطانية، وهى تختص بمعالجة قضايا ثقافية وسياسية، وتستضيف الكثير من الشخصيات لعرض صورة متوازنة باعتبار المجتمع البريطانى متعدد الثقافات، ولعلنا جميعا قد شاهدنا فى الشهر الماضى أكبر مظاهرة لحوالى ٥٠ ألف متظاهر فى بريطانيا لتأييد الفلسطينيين.

ومن أهم القضايا أيضا فى هذا الصدد: هو قانون مكافحة الإرهاب الذى سنته الحكومة، نجد أن الحكومة ممثلة فى وزارة الداخلية تستمع إلى النقد

المباشر لتطبيق هذا القانون، ومحاولة تحجيمه؛ لأنه يعطى الحق للشرطة فى اعتقال أى شخص دون تقديم أدلة على تورطه فى أى عمل."

ثم أضاف السيد غانم جواد قائلا: "إن هناك تصاعدًا لموجات اليمين المتطرف بعد أحداث ١١ سبتمبر، وهذه الموجات تلحظ فيها بذور الحقد والعنصرية، ولكن لم تسجل حوادث اعتداء كبيرة، فهناك فقط اعتداءات بسيطة على بعض المحجبات،- والنظر بشذر إليهن - وإلى الوجوه الإسلامية، ولكن بمرور الوقت تغيرت هذه النظرة، خصوصاً بعدما قامت مجلة "sun" (وهى مجلة شعبية توزع آلاف النسخ يوميا، وتعد أكبر مجلة بريطانية) بنشر بعض الأخبار عن الجالية المسلمة فى بريطانيا، كما أن هناك نسبة بطالة عالية فى الجالية الإسلامية رغم ما تتميز به من الكفاءة والخبرة، وذكر مثالاً على ذلك أن إحدى بناته خريجة إحدى الجامعات العريقة بلندن، وحاصلة على درجة الماجستير قد تقدمت بأكثر من ٧٢ طلبا للعمل، ويتم قبول الطلب عن طريق الإنترنت، ولكن عند المقابلة الشخصية يتم رفضها؛ لأنها ترتدى الحجاب، وابنتى الأخرى متخصصة فى الكيمياء ورفض طلبها لنفس السبب، أنا لا أدعي أن هذا هو السبب المباشر، ولكن هناك إشارات تدل على ذلك، لأن القانون البريطانى يعاقب على التمييز العرقى، ولا يوجد عقاب على التمييز الدينى، وهذه هى إحدى المطالب التى تقدمت بها الجالية الإسلامية إلى رئاسة الوزراء؛ لسن قانون يكافح التمييز الدينى وليس العنصرى فحسب، فماذا نسمى هذا فى ظل الدستور البريطانى الذى يعاقب على التمييز العنصرى، وليس على التمييز الدينى."

"الأمر الآخر هو التركيز المتزايد على الجمعيات الخيرية الإسلامية، وتركيز الأضواء على فعالياتها، والقيام بعمليات وزيارات متكررة لها، تحت أسماء مستعارة رغم أن علاقاتنا جيدة مع الحكومة، ونحن فى تحالف مع المنظمات نجد أن بعض الشخصيات تنتحل أسماء معينة تستفسر عن أنشطتنا، والشىء الصعب جداً الذى لمسناه هو الصعوبة فى نقل التكنولوجيا إلى العالم الإسلامى، ففى السابق كان من السهل أن تتعاقد مع أستاذ جامعى من الكفاءات العلمية للتدريس فى جامعات العالم الإسلامى، وهذا تمييز مخفى بين الشعوب، أما عن

مسألة الاندماج الذى تحدث عنها د. توماس فهى مسألة تواجه صعوبات بالغة، لأن الجيل الأول ما زال متمسكا بثقافته وقيمه وعاداته، ومن الصعب أن يتخلى عنها، أما الجيل الثانى والثالث فقد بدأ يبلور مصطلحا جديدا يعبر عن الإسلام الأكثر تسامحا وتعاملا مع الغير؛ لأنه يحمل جنسية هذا البلد، ويعتز بانتمائه إليه، ويؤمن بالكثير من قيم ذلك البلد الذى ينتمى إليه، ومازال هذا الصراع قائما ولم يحسم بين الجيل الأول وما أتى بعده من الأجيال، وهى مشكلة نعانى منها داخل بيوتنا، فأولادنا يحملون قيما تختلف عما نحمله نحن، ولذلك فإن عملية التوازن بين قيم الجيل الأول الآتى من الشرق؛ وبين هذا الجيل أمر صعب. وأخيرا أبشركم بأنه قد تم تشكيل المجلس الإسلامى البريطانى ليمثل المسلمين، فهذه مهمة قد تم إنجازها، وهذا جزء من تحالف خمس منظمات تمثل المسلمين"

ثم تحدث مفتى البوسنة د. مصطفى سيرتش فأكد على أن قارة أوروبا ليست قارة نصرانية، ولكن يوجد بها مسلمون ويهود، ثم قدم عرضاً موجزاً لتاريخ المعاناة التى عاشها المسلمون فى منطقة البلقان، وذكر أن المسلمين كان أمامهم خياران إما الهجرة أو الجهاد، وبالفعل هاجر ٤ مليون من البوسنة إلى تركيا، وكانوا يمثلون الطبقة الغنية، فى حين بقى الفقراء وجاهدوا، وتعرضوا للمجازر والقتل الجماعى، وتأكد فى النهاية أن الهجرة لم تفلح، كما أخفق الجهاد أيضا لأن شعب البوسنة فقير العدد والعتاد، وكان الحل فى دار العقد والعهد والصلح، ثم تطرق إلى مسألة الحوار، وتساءل هل نقصد حوارا سياسيا أم دينيا، ثم أوضح أن الصعوبة فى تعايش المسلمين واليهود والنصارى ترجع إلى وجود أزمة فى الثقة، وإلى تعطيل القانون الدولى، وإلى الكيل بمكيالين، وعدم الصدق.

فى حين يرى الدكتور جان فيلاسيل - من كندا أنه من دولة محظوظة لم تعان من استعمار، ولا دعاوى قومية، فهى دولة متعددة الجنسيات والقوميات، ويرى أننا لابد أن نعترف بأننا نعيش فى عالم يتغير، ولابد أن يكون هناك حوار مبنى على العقل، ولابد أن نبحث عن لغة مشتركة لهذا الحوار.

وأكد فيلاسيل على أن هناك أمورا يجب الالتفات إليها فى عالمنا المتغير على رأسها العولمة، وسرعة التطور، سواء فى الشرق أو الغرب، وأثناء بحثنا الحثيث

عن إقامة حوار بين الشرق والغرب لابد أولا أن نحدد تعريفا دقيقا لمعنى الحوار، وبالنسبة لى الحوار يعنى الديمقراطية، فالحوار لغة قوية، وأحيانا تكون صعبة، ولكنه فى النهاية يحجب عنا مضار وعواقب الحروب الوخيمة.

الأمر الثانى: هو الحقيقة والمساواة، لابد أن يكون هناك اعتراف بما لدى الآخر، واحترام له، ولابد أن يقوم الحوار على الاعتراف بالمساواة مع الآخر، وهذا يشجع الناس على القيام بوقفة مع النفس، ونقدها للوقوف على أوجه الاختلاف والوصول إلى التعايش، ومعرفة أدب الخلاف، فعندما نفهم الآخر يتحول الخلاف إلى اختلاف يؤدى إلى الائتلاف، إن الاختلاف من وجهة نظرى يعد نعمة عظيمة، وأنا شخصيا لا أحب لفظ التسامح؛ لأنه يوحى بالسلبية.

الأمر الثالث والأخير هو أنه لابد من البعد فى لغة الحوار عن استخدام مصطلحات مثل النصر والعنف والاستعمار... إلخ، لأنها عادة ما تثير الذكريات الأليمة، وتمثل عائقا كبيرا للحوار، وإننى أبارك وأزكى حوار الحضارات التى تعد له وتقوم به منظمة الإيسيسكو.

بعد ذلك تحدث السيد / يحيى عبد الواحد ـ من إيطاليا، وقال: "إننى لن أناقش موضوع برلسكونى الذى صرح بأن الحضارة الغربية أفضل من الحضارة الشرقية، فأنا كإيطالى مسلم لا أستطيع أن أقول: إننى أفضل من الآخرين بسبب انتمائى لإيطاليا، أو بسبب انتمائى للإسلام، ولكنى سوف ألقى الضوء على تركيبة المجتمع المسلم فى إيطاليا، وكيف يختلفون عن المملكة المتحدة. إن الدستور الإيطالى ينص على أن النصرانية هى الديانة الرسمية للدولة، وقد وقعت الحكومة الإيطالية اتفاقيات مع الكثير من الجماعات الدينية مثل الكنيسة النصرانية، والجالية اليهودية، وبعض البروتستانت، وهناك مناقشات حاليا مع الجالية البوذية، كما بدأوا المناقشات أيضا مع الجالية الأرثوذكسية، ولكنها لم توقع بعد مع الجالية المسلمة نظراً لعدم توافر المؤسسات الإسلامية الكافية."

"إن الجهة الوحيدة التى تم الاعتراف بها هى الجامع فى روما، وكان ذلك عام ١٩٧٤ وهو يعد رمزا للإسلام، ويحترمه السفراء، كما كان الأمر بالنسبة لبلجيكا

ولندن وأسبانيا، إن السفراء المسلمين ومنهم سفير المملكة العربية السعودية قد بدأوا فى روما عام ١٩٧٤، ولم يكن هناك قبل ذلك التاريخ اعتراف بأى جالية إسلامية فى إيطاليا، ولم تبدأ الهجرة إلى إيطاليا سوى بعد عام ١٩٧٤، ولذلك فإننى أقول بأن الوقت قد حان لكى نبدأ الحديث عن تعزيز الجالية الإسلامية ووجوب وجود جهة ذات جنسية إيطالية تعمل لصالح المسلمين، وتكون ذات كيان معترف به من قبل الجهات الرسمية، وإننى أحاول إنشاء هذه الجهة، وقد وافق وزير الداخلية على تشكيل هذه الهيئة بصفتنا الجهة الوحيدة التى طلبت الاعتراف بها (أقصد الجامع).

" أما فيما يتعلق بالموضوعات التى أثيرت عن أسباب لقائنا والعلاقة بالآخر والتعددية، فإننا فى إيطاليا قد سجلنا بعض النجاح خلال الخمس سنوات الأخيرة، وخاصةً فى مجال التعليم، وبالتحديد فى عام ١٩٩٧ تم تعيينى كعضو مسلم فى لجنة أنشأتها وزارة التعليم الإيطالية، وهذا التعليم بين الثقافات المختلفة يسعى إلى تعريف الأطفال فى المدارس الإيطالية بالدين الإسلامى، إنه تحول متعدد الأبعاد ومتعدد الثقافات، لكى يتعرف الطفل فى المدرسة على ثقافات متنوعة يعايشها بنفسه داخل المجتمع الإيطالى، المشكلة هى فى الانتقال من تعليم ذى صبغة واحدة إلى تعليم متعدد الثقافات، إننا لا نريد أن يكون هناك فصل فى التعليم بحيث ينغلق المسلم على نفسه، وكذلك اليهودى وهكذا، ولكننا نقول إننا يجب أن نواجه الحقيقة، ونعترف بأن هناك ثقافات مختلفة ومتعددة ولا ضير من التعرف عليها ومحاولة فهمها، فهذا هو سبيل التفاهم بين عناصر المجتمع الواحد، وهذا ما أحاول أن أناقشه مع الجالية اليهودية والجاليات التى لا تعترف بدين، وقد نجحنا فى أن جعلنا المجتمع يحترم الثقافات والديانات الأخرى، وأن نكون متفتحين لما نسميه التعليم العالمى أو عولمة التعليم، بحيث نندمج سويا ونتعاون فيما بيننا."

"أحب أن أقول أيضا: إننا نواجه مشكلة كتلك التى تحدث عنها مفتى البوسنة ألا وهى التحامل على المسلمين، والتوافق مشكلة يواجهها العلماء، وكيف يمكن أن تكون مسلما بالمفهوم الغربى؟ كيف يمكن التوفيق بين العقيدة الإسلامية والحفاظ على تعاليم الدين والمبادئ من ناحية، وبين طبيعة الحياة العملية فى

المجتمع الإيطالى العلمانى؟ إن وجود الكنيسة النصرانية فى إيطاليا له تأثير كبير وقوة لا يستهان بها، لذا فإن ربط الإيطالية بالنصرانية أمر عادى،، فأنا أعتبر شخصًا غريبًا، و يعد أمراً شديد الغرابة أن أكون إيطاليا ومسلما فى نفس الوقت!! فهذا أمر غير مفهوم وغير مقبول، وأبدو شخصا غير متوازن، ولا يمكن أن أكون مواطنًا إيطاليًا ممتازًا لأننى مسلم، ولا أستطيع أن أكون مسلما ممتازا لأننى إيطالى."

وفى الختام أقول ما قاله مفتى البوسنة: «إنه فى بداية العام الماضى عندما صدر قرار من اليونسكو فى باريس عن الأقليات المسلمة، تم إنشاء المؤتمر الإسلامى الأوروبى، وهو أول منظمة غير حكومية يتم الاعتراف بها من قبل الاتحاد الأوروبى، إننا نحاول جاهدين أن نحسّن من هذا الوضع بالتعاون مع نائب الرئيس، ونسعى لتوصيل صوتنا بأن الهوية الإسلامية تعد جزءاً من الهوية الأوروبية، وهذا موضوع خاضع للنقاش، ويجب علينا أن نركز على موضوع الأقليات المسلمة فى كل بلدان العالم،وهناك جهود راهنة لإنشاء مؤسسة إسلامية فى إيطاليا تدافع عن المسلمين وتطالب بحقوقهم."

ثم تحدث بعد ذلك أ. د. محمد شامة ـ من مصر فقال: " لقد سمعت كلامًا كثيرًا أمس واليوم، وكل متحدث عرض تقريرًا عن الحالة بين المسلمين والنصارى فى بلاده، وكيفية التعامل بينهما، وبعض المتحدثين طالب بأشياء محددة مثل إصدار قانون أو مبادئ عامة يسير عليها الحوار. واليوم د. توماس ذكر أنه يريد نقاط التقاء بين المسلمين والنصارى يسيرون عليها، ولكنى أرى أنها حوارات تقوم على التقارير والكلام، وليست هناك نقاط محددة، وفيما يلى أعرض عليكم تصورًا لتلك النقاط التى ينبغى أن نعترف بها جميعًا، ونعمل سويًا على تحقيقها فى النظام العالمى لكى يكون حوارًا بناء:

١ – يجب أن يعترف المسلمون والنصارى واليهود بالأصل الواحد للخليقة كلها، وبأنه لا ينبغى أن يتعالى جنس على الآخر، ولا شعب على شعب بسبب اللون، أو الجنس، أو العقيدة، أو بسبب قوته العسكرية، أو الاقتصادية، أو العلمية، أو

الثقافية، وهذا المبدأ ليس ضد مصلحة أولئك الذين لا يؤمنون بالأديان، فهؤلاء يمكنهم الدخول فى هذا والاعتراف بأن الكل متساو.

٢ - يمكن إقرار الدعوة إلى أن الله جعل للإنسان حرمة، أى لا ينبغى أن يهان إنسان مهما كان وطنه، ولابد أن تكف وسائل الإعلام عن الاستهزاء بثقافة شعبٍ ما من الشعوب، وأن يمتنع الساسة والمفكرون عن التلميح أو التصريح بدونية ثقافة غيرهم، أو باستعلاء ثقافتهم على غيرها من الثقافات.

٣ - احترام خصوصية كل شعب، والاتصال يجب أن يقوم على تبادل المعلومات والخبرات، ولا يقصد هيمنة ثقافة على أخرى، أو فرض تقاليد شعب على آخر.

٤ - الاعتراف بالآخر، فكما يعترف الإسلام بالعقائد الأخرى كدين؛ وإن لم تكن سماوية؛ وتختلف مع الإسلام اختلافا جذريا فى العقائد والأحكام، فينبغى على الآخرين أن يعترفوا بالإسلام كدين وإن لم يؤمنوا به، لأن الاعتراف بالآخر يشعره بأنه متكافئ فى الحوار مع من يحاوره.

٥ - حرية العقيدة، فلا يجوز لأحد أن يفرض عقيدته على الآخرين بالقوة، بل يترك الأمر للناس يعتقدون ما يرونه صحيحا دون ضغط من أى نوع.

٦ - العدل، ومن مقتضياته أن يكون حقًا لكل شعب أن يعيش فى وطنه دون اعتداء عليه من أى نوع، أو محاولة السيطرة على مقاليد أموره.

٧ - حرية التعبير، لأن التقييد فى هذا المجال يزيد الأمور غموضًا، فلا يعرف ما يكنه البعض للآخر، ولذلك تنمو الدسائس والفتن.

٨ - المساواة، فلا فضل لأحدٍ على آخر، وذلك يقتضى الإقرار بحق كل شعب فى الموارد الطبيعية، بحيث تقسم بالتساوى على شعوب الكرة الأرضية بدون استغلال أو احتكار، وإنما بالتعاون بين الناس على تنمية الموارد وتوزيعها على الشعوب بحيث ينال كل شعب ما يضمن له حياة كريمة تليق بالإنسان الذى كرّمه الله.

هذه هى التصورات التى أراها أساسًا لمعالم وقواعد ينبغى أن يقوم عليها التحـاور بين أى فـريق وآخـر، إذا أردنا أن نتحـاور، ولابد أن نسلم بهـا وعلى أساسها نسير ونبدأ الحوار، وللوصول إلى صياغات عامة يلتزم الجميع بتطبيقها بكل الوسـائل؛ ولو بالقـوة إذا اقـتـضى الأمـر، وكنت أتمنى أن يكون مـعنـا من هم مـسـئولون عن الحـوار بين الأديان، وأظن د. على السـمـان مـعنا، ولابد أن تكون المبادئ السابقة الذكر هى الركائز الأسـاسـيـة للحوار وأظن أن الحـوار، لن يقتصر على المسيحية والإسلام، بل ستدخل فيه اليهودية، ويدخل فيه من يعتقدون فى أديان أخرى."

ثم تحدث د. إبراهيم بدران قائلا: " كيف نصوغ نظاما دوليًا جديدًا يخلو من التهديد الذى نواجهه الآن؟ لعلكم رأيتم جميعا جثث القتلى فى فلسطين وفى البوسنة والهرسك، فى الواقع لم ير النظام الدولى جثثا وقتلى من هذا النوع من قبل حتى فى الحربين العالميتين الأولى والثانية، ومن غير حروب نرى هذه الدماء والقتلى، والسؤال: من أين يأتى هذا؟ من نقص الدين ونقص الحضارة، ويأتى هذا من قِبَل جماعات من الغرب الذين يقولون أنهم أساس المدنية الحديثة، وإسرائيل تريد أن تقول أنها ممثلة للمجتمع الغربى، وأنها جزء منه، كما أننا نعيش تحت خطر التهديد النووى، والكوارث التى ستحدث قريبا، وصراعات المياه فى القرن المقبل بعد صراعات النفط؟

ليتنا نقيم مائدة للحوار وللتعايش المستقر، لكننا نريد أن ندرس مشكلات مشتركة، ونخرج بحلول العلماء لها، ولدينا ثغرات واسعة بين من يملكون ومن لا يملكون، لدينا ٨٠٪ من العالم يملكون ٢٠٪ من موارده، و١٨ دولة لا يتجاوز عدد سكانهم ٢٠٪ من العالم تملك الموارد الباقية، وصدقونى لن تنقذوا العالم من الدمار والانهيار إذا تمسك كلٌ بموقفه، ولم يرغب فى نقل جزء إلى من لا يملك، ستكون هناك صراعات مستمرة، خاصةً أننا نرى اتساع الفجوة بين من يملكون ومن لا يملكون، ونرى تربصًا ممن يملكون بمن لا يملكون للحصول على المزيد من خيرات العالم، واقتسام ما يمكن أن ينتج من العالم لمصلحتهم هم.

إن اتفاقيات الجات ليست بعيدة، وكذلك اتفاقيات التجارة الدولية، توقعت أن يحصل العالم الثالث على نسبة بسيطة ٨٠ مليارا لو تم تنفيذ المعاهدات الدولية لصالحه، أما نصيب الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى فشىء لا يصدقه عقل، فهو أكثر من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ مليار، ونعلم المحاصرة الاقتصادية الصعبة التى توضع فيها بلادنا الآن، فكيف نضع حلولاً لهذه المشكلة التى تؤدى ببعضنا إلى قتل الآخر؟! وأيضا الولايات المتحدة الأمريكية تغير القانون الدولى والنظام الدولى؛ لتصبح الحقوق المشروعة إرهابًا، على الرغم من استقرار اتفاقيات جنيف وقرارات مجلس الأمن."

ثم عقَّب د. جعفر عبد السلام - رئيس الجلسة مؤكدًا على أنه يجب على العالم أن يفكر فى وضع حلول لقضاياه الراهنة، من التعصب والقتل والتدمير، واحتكار الثروات فى أيدى قلة تمثل ٢٠٪ فقط من سكان العالم، بينما يعانى ٨٠٪ من الفقر والمرض وقلة بل ندرة الموارد، وأنه لابد من إقامة صرح المجتمع الدولى على أسس من العدل غير النظرى، وإنما يتحقق ذلك بالدخول فى صلب المشاكل وحلها، ومن هنا تهدف هذه الندوة إلى التوصل إلى واقع حقيقى لحقوق الإنسان وليس الكيل بمكيالين، فليست حقوق الإنسان حكرًا لأمريكا وإسرائيل فقط، وإنما هى حقوق لكل البشر، بنص ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولى.

ثم تحدثت د. فوزية العشماوى - من سويسرا، وأوضحت أن أحداث ١١ سبتمبر قد كشفت عن جهل الشعب السويسرى التام بدين الإسلام، ويكفى أن نعلم أن جميع نسخ ترجمات معانى القرآن الكريم إلى الفرنسية والألمانية قد نفدت فى أعقاب تلك الأحداث، مما يعكس إقبال الشارع السويسرى على التعرف على الإسلام ورسالته، ثم اقترحت أن يكون للمسلمين دور إيجابى من خلال شراء مساحة فى المجلات الأجنبية مثل " لوموند " الفرنسية و"النيوزويك" البريطانية وغيرها، وتخصيص تلك المساحات للتعريف بالإسلام، وبيان مبادئه ورسالته السمحة.

وانتهت الندوة باقتراح تشكيل مجموعة عمل للقيام بصياغة مقترحات تعكس الجهود التى بذلت، والآراء التى تم تبادلها خلال فترة المؤتمر فى هذه الندوة، وما

يمكن عمله مستقبلاً، وقد تشكلت اللجنة من كلٍ من:

د. مراد هوفمان.	د. ديفيد توماس.	د. نبيل بدر.
د. جان فيلاسيل.	د. على السمان.	د. رضا بدير.

لصياغة مقترحات تتقدم بها الحلقة النقاشية للمؤتمر، وقد أقرت اللجنة المقترحات التالية:

١ - يؤكد القرآن الكريم على التعددية والتنوع، فيما تضمنته الآية ٤٨ من سورة المائدة من قوله تعالى: **﴿ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً...﴾**.

٢ - أن تعقد الدول الإسلامية مؤتمرات عن الإسلام فى البلاد الأوروبية، وفى الغرب عموما.

٣ - إقامة حوار بين العقائد والحضارات، يرتكز على المساواة واحترام الآخر والتجرد فى عرض الحقائق.

٤ - انتقاء موضوعات محددة للحوار (مثل التعددية ـ الديمقراطية ـ حقوق الإنسان ـ حرية الفكر ـ مكانة المرأة) والابتعاد عن التعميم، والاستعداد لنقد الذات وقبول الآخر.

بيــان القاهـرة

بيـــان القاهـرة

ألقاه الأستاذ الدكتور/ محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف رئيس المؤتمر

يعيش عالمنا المعاصر فى ظل ظروف ومتغيرات وتطورات متلاحقة ، وبخاصة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر من العام الماضى ، تلك الأحداث التى تركت آثارًا سلبية واضحة على صورة الإسلام فى العالم ، وقد صاحب ذلك كله محاولات إعلامية وغير إعلامية تعمدت خلط الأوراق ، واتهمت العرب والمسلمين بمعاداة الحضارة وتشجيع الإرهاب .

وعلى الرغم من أن الإسلام ـ الذى مضى عليه الآن أربعة عشر قرنًا من الزمان ـ قد أنزله الله على نبيه محمد - عليه الصلاة والسلام - «**رحمة للعالمين**» كما يؤكد القرآن الكريم فى قوله : ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾[1]، فقد نجحت بعض أبواق الدعاية الإعلامية فى التركيز على اتهام بعض المسلمين بارتكاب الأحداث المشار إليها ، وربطت بشكل أو بآخر بين الإسلام والإرهاب .

ومن هنا كان من الضرورى مواجهة هذا الظلم الصارخ للإسلام والمسلمين بوقفة موضوعية تضع النقاط فوق الحروف، وتبين حقيقة الإسلام فى هذا العالم المتغير من واقع مصادر الإسلام الأساسية الواضحة، وتعاليمه الصريحة التى يعرفها العالم منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان ، والتى كانت وراء بناء الصرح الحضارى الذى شيده المسلمون وأسهموا من خلاله قرونًا طويلة فى إثراء الحضارة الإنسانية ، وقدَّموا بصفة خاصة للحضارة الأوروبية فى القرون

(١) الأنبياء: ١٠٧.

الوسطى عن طريق الأندلس عطاءً حضاريًا يعرفه التاريخ؛ خرجت به أوروبا من القرون الوسطى إلى أعتاب العصر الحديث ، وفى هذا المقام لابد من التذكير أيضًا بما قدمته الحضارة الإسلامية من نموذج رائع للتعايش الإيجابى بين الأديان فى ظل هذه الحضارة ، الأمر الذى عرفته أوروبا فى تجربة التعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود فى الأندلس .

هذا التاريخ الحضارى المشرق يراد الآن تجاهله ونسيانه تمامًا فى غمرة الأحداث المشار إليها، وإلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام والمسلمين ، كما لو أن العالم قد استيقظ فجأة ليجد أمامه دينًا لا تاريخ له ، ولا يعرفه إلا من خلال أحداث عارضة وتصرفات غير مسئولة تُلصق ببعض المسلمين يصدر مثلها من جماعات أخرى فى كل الأديان والحضارات .

ومن أجل ذلك كله اقتضت الضرورة عقد هذا المؤتمر فى هذا الوقت بالذات لبيان الحقائق الإسلامية ، وتحديد المفاهيم التى حكمت وتحكم علاقة الإسلام والمسلمين بأتباع الأديان والحضارات الأخرى.

كما أنه أصبح من الضرورى إزالة اللبس والغموض الذى انتشر فى الآونة الأخيرة حول مفهوم الجهاد فى الإسلام ، وصلته بظاهرة الإرهاب العالمى التى لا تفرق بين دين وآخر، ولا بين حضارة وأخرى .

وأهمية هذا التوضيح والبيان تنبع من ارتباطه فى نهاية الأمر بتحديد مستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى بصفة عامة والحضارة الغربية بصفة خاصة .

وقد تناول المؤتمر هذه الموضوعات بالبحث والدراسة من خلال المحاور الأربعة التى اشتمل عليها موضوع المؤتمر .

وغنى عن البيان أن هذا المؤتمر يُعد حلقة فى سلسلة جهود ينبغى أن تتواصل من أجل الكشف عن الصورة الحقيقية السمحة للإسلام .

وقد كانت رسالة السيد الرئيس محمد حسنى مبارك - رئيس جمهورية مصر العربية - إلى المؤتمر كاشفة عن عدد من الحقائق الأساسية التى ينبغى أن يعرفها الجميع، والتى تتمثل فى الحقائق التالية :

أولاً: إن الأديان جميعها - بما فيها الإسلام - هى فى جوهرها الإلهى دعوة إلى المحبة والسلام والخير ، ومن هنا لا يتصور أن تكون هذه الأديان مصدر شر لأى من شعوب العالم ، ثم إن الفارق ينبغى أن يظل واضحًا بين الجهاد الإسلامى والإرهاب . فالجهاد هو الحق المشروع فى مقاومة العدوان على الدين والنفس والوطن، بينما الإرهاب هو عدوان سافر على كل المقدسات والأرواح والأوطان .

ثانيًا: إن الإسلام إذ يقر ويؤكد التعددية الدينية والحضارية بين شعوب العالم ؛ فإنه يجعل من ذلك منطلقًا إلى التعارف والتآلف بين البشر ، وليس سببًا موجبًا للنزاع والصدام أو محركًا لنوازع الكراهية بين الناس، وذلك واضح كل الوضوح فى قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**﴾(٢) مما يعنى أن التعددية هى الأمر الطبيعى للتفاعل بين البشر والتكامل بين الحضارات والتعاون بين الشعوب بهدف إثراء التجربة الإنسانية على مر العصور .

ثالثًا : إن تعرف الشعوب والحضارات والأديان على بعضها بعضًا من شأنه أن يزيل الجهل بالآخرين ، ويقضى على الكثير من الأحكام المسبقة والأفكار الخاطئة لدى كل طرف عن الطرف الآخر . فلكل منا تراثه الدينى والتاريخى القائم على العديد من القيم والعادات والتقاليد المتوارثة التى يحرص على الحفاظ عليها باعتبارها تشكل هويته القومية ، والتى قد لا تتعارض بالضرورة مع الهوية القومية للآخرين وإن كانت قد تختلف معها بشكل أو بآخر يُسهم فى حد ذاته فى تشكيل التعددية الداعية للحوار وليس الصدام .

رابعًا: إن الإسلام إذ يؤكد على الدعوة إلى الحوار والتفاهم بين الشعوب؛ فإنه يرفض دعوى صدام الحضارات؛ لأن الحضارات لا تتصادم ، وإنما تتفاعل وتتكامل ، ويأخذ بعضها من بعض، ويكمل بعضها بعضًا ، باعتبارها ثمرة عطاء الشعوب وحصاد أحداث التاريخ الذى تشارك الشعوب جميعها فى صناعته .

وقد نبع فهمنا لهذه العلاقة بين الحضارات من المبادئ الأساسية للدين الإسلامى الذى يعتبر الإيمان بالديانات السماوية السابقة عليه شرطًا من شروط صحة الإسلام ، وهذا ما يؤكده القرآن الكريم فى قوله: ﴿**آمن الرسولُ بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله**﴾(٣).

---

(٢) الحجرات: ١٣.   (٣) البقرة: ٢٨٥.

إن العالم فى حاجة إلى حضارة المسلمين الذين يشكلون خُمس سكان العالم ، والمسلمون بدورهم فى حاجة إلى الحضارات العالمية؛ فالانعزال لم يعد خيارًا واردًا ، بل أصبح من المستحيلات فى عالم اليوم .

وقد اتضح من خلال المناقشات التى دارت فى الجلسات العامة للمؤتمر، وفى الحلقات النقاشية المتخصصة ، واشترك فيها عدد من العلماء غير المسلمين من سبع دول أوروبية؛ أن الأمر يهم المسلمين كما يهم بنفس القدر غير المسلمين فى كل مكان فى العالم . فغير المسلمين يهمهم أن يتعرفوا على حقيقة الإسلام وعلاقة المسلمين بغيرهم من شعوب العالم ، كما يهمهم أيضًا التعرف على حقيقة الجهاد وعما إذا كانت له علاقة بظاهرة الإرهاب التى تهدد عالم اليوم ، كما يهمهم على وجه الخصوص التعرف على رؤية المسلمين لمستقبل العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى بصفة عامة والحضارة الغربية بصفة خاصة.

والواقع أن كثيرًا من سوء الفهم للإسلام وحضارته فى شتى أنحاء العالم ينبع من الجهل بالإسلام وتعاليمه، وهذا أمر من شأنه أن يحمل المسلمين مسئولية كبيرة فى التعريف بالإسلام وقضاياه بكل اللغات وفى كافة الأقطار، ولن يكون لذلك الأثر المطلوب إلا إذا توحدت جهود المسلمين فى هذا الصدد بحيث يكون بينهم تنسيق وتكامل وتعاون فى شتى المجالات من أجل خير الإسلام والمسلمين . والقرآن إذ يأمرنا بالاعتصام بحبل الله وعدم التفرق؛ فإنه يحذرنا من الوقوع فريسة للنزاعات والخصومات التى تؤدى إلى الفشل الذريع، وهذا ما أكد عليه القرآن الكريم فى قوله: ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾(٤).

والأمل معقود على علماء الأمة ومفكريها للقيام بمسئوليتهم فى توعية أبناء الأمة بحقيقة الإسلام، وفى الوقت نفسه ببذل جهود مضاعفة فى تصحيح الصورة المشوهة التى راجت ظلمًا وعدوانًا عن الإسلام فى خارج العالم الإسلامى .

وكلا الأمرين مرتبطان ببعضهما ارتباطًا وثيقًا ويشكلان أساسًا راسخًا لقيام الأمة الإسلامية بواجبها فى الدفاع عن حقوقها من ناحية ، ومن ناحية أخرى فى الإسهام فى ترسيخ قواعد السلام والاستقرار فى كل مكان فى العالم من أجل خير البشرية جمعاء.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل ..

---

(٤) الأنفال: ٤٦.

التوصـــيات

التوصيـــات

ألقاها الأستاذ الدكتور/ عبد الصبور مرزوق

مقرر عـام المؤتمـر

انطلاقًـا من دور جمـهورية مصـر العربيـة وأزهـرها الشـريف، ومسـئوليتـها التـاريخيـة تجـاه الإسـلام والمسلمين؛ دعـت وزارة الأوقـاف فى مصـر إلى عقـد المؤتمر العام الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية تحت عنوان :

(حقيقة الإسلام فى عالم متغير)

بمدينة القاهرة

فى الفترة من ٨ ـ ١١ ربيع الأول ١٤٢٣هـ

الموافق ٢٠ ـ ٢٣ مايـو ٢٠٠٢م

تحت الرعاية الكريمة للسيد الرئيس / **محمد حسنى مبارك**

رئيس جمهورية مصر العربية

والرئاسة الشرفية لفضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور / **محمد سيد طنطاوى**

شيخ الأزهر

وقد رأس المؤتمر فضيلة الأستاذ الدكتور / **محمود حمدى زقزوق**

وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وشارك فيه ممثلون عن الدول والمنظمات التالية :

أولاً : من الدول العربية :

١ - المملكة الأردنية الهاشمية .
٢ - الإمارات العربية المتحدة .
٣ - البحرين . ٤ - الجزائر .
٥ - جيبوتى . ٦ - المملكة العربية السعودية .
٧ - السودان . ٨ - سوريا .
٩ - العراق . ١٠ - سلطنة عُمان .
١١- فلسطين . ١٢ - قطر .
١٣- الكويت . ١٤ - لبنان .
١٥ - مصر . ١٦ - المملكة المغربية .
١٧ - موريتانيا . ١٨ - اليمن .

ثانيًا : الدول الإفريقية :

١ - أثيوبيا . ٢ - إريتريا .
٣ - أوغندا . ٤ - بوركينا فاسو .
٥ - تشاد . ٦ - جنوب إفريقيا .
٧ - زيمبابوى . ٨ - السنغال .
٩ - الكونغو الديمقراطية . ١٠- موزمبيق.
١١- النيجر . ١٢- نيجيريا .

ثالثًا : الدول الأسيوية :

١ - أندونيسيا . ٢ - أوزبكستان . ٣ - إيران .
٤ - بروناى «دار السلام». ٥ - بنجلاديش . ٦ - تايلاند .
٧ - سنغافورة . ٨ - كازاخستان . ٩ - ماليزيا.
١٠- الهند . ١١- اليابان .

رابعًا : الدول الأوروبية :

١ - أسبانيا . ٢ - ألمانيا . ٣ - النمسا .
٤ - إنجلترا . ٥ - إيطاليا . ٦ - بلغاريا .
٧ - البوسنة . ٨ - تركيا . ٩ - سويسرا .
١٠,- فرنسا. ١١- كوسوفو .

خامساً : الأمريكتين :

١ ـ الأرجنتين . ٢ ـ البرازيل .

٣ ـ كندا . ٤ ـ كولومبيا .

٥ ـ الولايات المتحدة الأمريكية .

سادساً : استراليا .

سابعاً : المنظمات والهيئات العالمية التالية :

١ ـ جامعة الدول العربية .

٢ ـ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) .

٣ ـ المجلس الإسلامى العالمى للدعوة والإغاثة .

٤ ـ رابطة الجامعات الإسلامية .

٥ ـ رابطة العالم الإسلامى فى مكة المكرمة .

وقد افتتح المؤتمر بكلمة السيد الرئيس / **محمد حسنى مبارك** ـ رئيس جمهورية مصر العربية ـ ألقاها نيابة عن سيادته السيد الأستاذ الدكتور / **عاطف عبيد** – رئيس مجلس الوزراء .

وتحدث فى الجلسة الافتتاحية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور / **محمد سيد طنطاوى** ـ شيخ الأزهر ، وقداسة البابا **شنودة الثالث** – بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية ، والأستاذ الدكتور / **محمود حمدى زقزوق** – وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية «رئيس المؤتمر»، والأستاذ الدكتور / **عبد الصبور مرزوق** – «مقرر عام المؤتمر». كما تحدث باسم الوفود المشاركة الأستاذ الدكتور / **عبد الله بن عبد المحسن التركى** – أمين عام رابطة العالم الإسلامى فى مكة المكرمة .

وقد قرر المؤتمر اعتبار كلمة السيد الرئيس / **محمد حسنى مبارك** – رئيس جمهورية مصر العربية – وثيقة هامة من وثائق المؤتمر يتم الاسترشاد بما جاء فيها من توجيهات.

وتابع المؤتمر جلساته صباحًا ومساءً على مدى أربعة أيام حيث أُلقيت ونوقشت البحوث المقدمة من السادة المشاركين وبلغ عددها (٦٢) بحثًا باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية دارت حول المحاور الرئيسية الآتية :

- **المحور الأول** : حقيقة الإسلام .
- **المحور الثانى** : العلاقة بالآخر .
- **المحور الثالث** : الجهاد .
- **المحور الرابع** : رؤية مستقبلية .

وقد شكل المؤتمر لجنة لصياغة توصياته برئاسة الأستاذ الدكتور / **صوفى أبو طالب** وعضوية ممثلين عن الوفود المشاركة لوضع مشروع التوصيات من واقع البحوث التى طرحت وما أسفرت عنه المناقشات والمداخلات ، وكذا الحلقات النقاشية المتخصصة والتى شارك فيها مجموعة من العلماء والمفكرين المسلمين وغير المسلمين من بعض الدول المشاركة .

وقد انتهت اللجنة إلى مشروع التوصيات التالية :

١ ـ يؤكد المؤتمر على خصوصية القيم والتقاليد الإسلامية وضرورة المحافظة عليها فى مواجهة تيارات العولمة .

٢ ـ يوصى المؤتمر المؤسسات العلمية والفكرية والثقافية والإعلامية فى داخل البلاد الإسلامية وخارجها بضرورة التعريف الصحيح بالإسلام وتعاليمه ، وإبراز حقائقه التى تبلغ دعوته وتقيم حُجته وترد عنه الشبهات وخاصة الحقائق التالية:

(أ) تأكيد الإسلام على التكامل بين الجوانب الروحية والمادية فى حياة الإنسان .

(ب) تكريم الإسلام للإنسان باعتباره خليفة لله فى إعمار الأرض بصرف النظر عن جنسه ولونه وعقيدته، وهذا التكريم ينسحب على الإنسان حيًا وميتًا.

(ج) تفرد الإسلام بجعله التعددية والتنوع والتمايز والاختلاف فى الملل والشرائع.

(د) تفرد الإسلام بالتأكيد على حرية الاعتقاد وعدم الإكراه فى الدين ، وجعل هذا الاعتراف عنصرًا أساسيًا فى صحة عقيدة المسلم .

(هـ) إقرار الإسلام منذ ظهوره لحقوق الإنسان الأساسية دينية كانت أم سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية . ويناشد المؤتمر الدول الإسلامية أن تلتزم فى التطبيق العملى لحقوق الإنسان بأحكام الإسلام .

(و) التأكيد على أن الدعوة إلى الإسلام بنص القرآن الكريم تتم بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن .

٣ ـ إقرار الإسلام لمبدأ المساواة بين المسلمين وغير المسلمين فى الحقوق والواجبات طبقًا لقاعدة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، مع تطبيق قوانين دينهم وملتهم فى مسائل الأحوال الشخصية .

٤ ـ يناشد المؤتمر الدول غير الإسلامية تمكين الأقليات الإسلامية من ممارسة مختلف الحقوق والحريات الواردة فى المواثيق الدولية، وتطبيق نظمهم الإسلامية فى الأحوال الشخصية فيما لا يتعارض مع النظام العام فى الدولة .

٥ ـ يؤكد المؤتمر على أن الشرعية الدولية تقرر حق كل الشعوب المحتلة أوطانها فى اللجوء إلى كافة الوسائل المشروعة لتحرير أرضها وتقرير مصيرها والحصول على استقلالها ، كما أن الشرعية الدولية تطالب المجتمع الدولى بتوفير المساعدة المادية والمعنوية لحركات التحرير الوطنى .

٦ ـ يؤكد المؤتمر رفضه لكل المحاولات التى تستهدف التسوية بين الإرهاب وممارسة الحقوق المشروعة للشعوب فى تقرير مصيرها والكفاح لتحرير أرضها.

٧ ـ يأمل المؤتمر أن تزول كل الأسباب التى تؤدى إلى الخلاف بين بعض الدول العربية حتى يتم تعظيم إمكانات الأمة الإسلامية الروحية والمادية فى مواجهة التحديات التى تواجهها .

٨ ـ يؤكد المؤتمر على موقف الإسلام الثابت من اعتماد الحوار أساسًا للعلاقات بين الدول والشعوب والحضارات والأديان من أجل ترسيخ دعائم الأمن والاستقرار والسلام ، ومن هنا يرفض المؤتمر كافة الدعاوى التى تجعل الصراع بين الحضارات ركيزة وانطلاقًا لحملات ضد الإسلام والمسلمين .

٩ ـ يؤكد المؤتمر ضرورة تكثيف الحلقات النقاشية مع العلماء من غير المسلمين فى سائر بلدان العالم، حيث أثبتت تجربة هذه الحلقات - أثناء انعقاد هذا المؤتمر- فائدتها وأهميتها البالغة فى تمكين كل طرف من الوقوف على رأى الطرف الآخر - وتصحيح بعض المفاهيم الخاصة - وتوضيح بعض الأمور

الغامضة، ويوصى المؤتمر بتكوين فريق عمل من العلماء الذين يجيدون اللغات الأجنبية لمواصلة النقاش فى مثل هذه الحلقات فى الداخل أو فى الخارج .

١٠ ـ حتى يكون لحوار الأديان والحضارات فائدة وثمرة مرجوة يوصى المؤتمر بمراجعة المعلومات الواردة عن الإسلام فى الكتب المدرسية فى البلاد الغربية .

١١ ـ يوصى المؤتمر الدول والشعوب والعلماء والمثقفين فى كل مكان فى العالم بالتعاون والتضامن والعمل على تفعيل المبادئ والأسس التى أقرتها الشرعية الدولية وتطبيقها على جميع الدول دون استثناء .

١٢ ـ يناشد المؤتمر كلا من الهند وباكستان تسوية الخلاف بينهما بالطرق السلمية عن طريق الحوار حفاظًا على علاقات الجوار بينهما بما يضمن الأمن والاستقرار فى المنطقة لمصلحة شعوبها .

١٣ ـ يوصى المؤتمر بإنشاء قناة فضائية إسلامية لشرح حقائق الإسلام باللغة الإنجليزية للشعوب الغربية والجاليات الإسلامية فى البلاد الأجنبية .

١٤ ـ يؤكد المؤتمر ما سبق أن أعلنه – فى المؤتمر العام الثالث عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية – خاصًا بالقضية الفلسطينية من دعم وتأييد لانتفاضة الشعب الفلسطينى وقوفًا فى وجه العدوان، مؤكداً أن هذه الانتفاضة ليست إلا استعمالاً لمبدأ الحق المشروع فى الدفاع عن النفس وحق تقرير المصير، ويدعو المؤتمر الشعوب الإسلامية إلى مد يد العون لهذه الانتفاضة بكل ما تملكه الشعوب من وسائل حتى يتوقف العدوان وينال الشعب الفلسطينى حقه المشروع فى إقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشريف .

كما يدعو المؤتمرون الحكومات والمنظمات الإسلامية والهيئات الدولية إلى التصدى إلى كل محاولات الإبادة والتشريد التى يتعرض لها الشعب الفلسطينى المجاهد وما تتعرض له المقدسات الإسلامية والمسيحية فى الأراضى الفلسطينية المحتلة من انتهاكات صارخة تتعارض مع ميثاق الأمم المتحدة والمواثيق والاتفاقيات الدولية التى تحمى حقوق الشعوب الواقعة تحت الاحتلال، كما يدعون جميع القوى الفاعلة فى العالم وهيئة الأمم المتحدة إلى الإسراع فى اتخاذ الوسائل الكفيلة لحماية الشعب الفلسطينى الأعزل من تلك الأخطار ..

والله ولى التوفيق ..

الوفود المشاركة
فى المؤتمر

الوفود المشاركة

أولاً: الدول العربية

الإمارات العربية المتحدة :

١ ـ معالى الوزير/ محمد بن نخيرة الظاهرى.
٢ ـ الأستاذ الدكتور/ جاسم على سالم الشامسى.
٣ ـ السيد الأستاذ/ السيد على آل هاشم.
٤ ـ الأستاذ الدكتور/ على محمد العجلة.
٥ ـ الأستاذ الدكتور/ محمد جمعة سالم المهيرى.
٦ ـ السيد المستشار/ حمد عبد الله سالم الجابرى.
٧ ـ سماحة الشيخ/ أحمد مبارك الكندى.
٨ ـ السيد الأستاذ/ أبو بكر سعيد الحميرى.
٩ ـ السيد الأستاذ/ محمود عبد العظيم عبد البارى.
١٠ ـ السيد الأستاذ / محمد على سالم الحمادى.

الكويت :

١ ـ معالى الوزير/ أحمد يعقوب باقر العبدالله.
٢ ـ الأستاذ الدكتور/ محمد عبدالرازق الطبطبائى.
٣ ـ الأستاذ لدكتور/ سعد برقى العنزى.
٤ ـ الأستاذ الدكتور/ خال شجاع العتيبى.
٥ ـ الأستاذ الدكتور/ خالد عبدالله الشعيب.
٦ ـ الأستاذ الدكتور/ بدر عبد الرازق الماص.
٧ ـ الأستاذ الدكتور/ محمد مهدى مسفر.
٨ ـ السيد الأستاذ/ عبد الرحمن محمد هادى.
٩ ـ السيد الأستاذ/ يوسف جاسم محمد الحجى.
١٠ ـ السيد الأستاذ/ مبارك محمد مبارك العتيبى.
١١ ـ السيد الأستاذ/ باراك عبد المحسن.
١٢ ـ السيد الأستاذ/ عبد الله مهدى باراك.
١٣ ـ السيد الأستاذ/ محمد جواد كاظم.
١٤ ـ السيد الأستاذ/ كاظم عبد الحسين محمد.

البحرين :

١ ـ معالى الوزير/ عبد الله بن خالد آل خليفة.
٢ ـ سماحة الشيخ/ عدنان عبد الله الوزان.
٣ ـ السيد الأستاذ/ جعفر إبراهيم الصيرفى.

لبنان :

١ ـ سماحة الشيخ الدكتور/ محمد رشيد قبانى.
٢ ـ سماحة الإمام الشيخ/ عبدالأمير قبلان.
٣ ـ فضيلة الدكتور/ محمد على الجوزو.
٤ ـ الأستاذ الدكتور/ رضوان نايف السيد.
٥ ـ سماحة الشيخ/ رياض عبد اللطيف عيثانى.
٦ ـ سماحة الشيخ/ أسد الله الحرشى.
٧ ـ سماحة الشيخ/ مالك سليمان.
٨ ـ سماحة الشيخ/ بشير مرتضى.
٩ ـ السيد الأستاذ/ على قبلان.
١٠ ـ السيد الأستاذ/ نزيه جمول.
١١ ـ السيد الأستاذ/ عبد الله موسى.
١٢ ـ السيد الأستاذ/ حسين أمهز.
١٣ ـ السيد الأستاذ/ وليد محمد العلايلى.
١٤ ـ السيد الأستاذ/ ناصر إبراهيم الصالح.
١٥ ـ السيد الأستاذ/ محيى الدين عزت كشلى.
١٦ ـ السيد الأستاذ/ محمد هادى الخرسان.

الجزائر :

١ ـ معالى الوزير/ بو عبد الله محمد غلام الله.
٢ ـ السيد الأستاذ/ حسن على زان.
٣ ـ السيد الأستاذ/ حمزة يدوغى الوناس.

المملكة العربية السعودية :

١ ـ الأستاذ الدكتور/ عدنان محمد عبد العزيز الوزان.
٢ ـ السيد الأستاذ/ عبد العزيز عبد الرحمن السبيهين.
٣ ـ السيد الأستاذ/ سعود مدعث فلاح السبيعى.
٤ ـ السيد الأستاذ/ منصور سعيد عبد الله.

الأردن :

١ ـ معالى الأستاذ الدكتور/ أحمد محمد هُلَيِّل.
٢ ـ الأستاذ الدكتور/ عبد السلام العبادى.
٣ ـ الأستاذ الدكتور/ سَحْبَان محمود حمدان خليفات.
٤ ـ السيد الأستاذ/ بلال سليمان محمود.

السودان :

١ ـ معالى الدكتور/ عصام البشير.
٢ ـ سماحة الأستاذ/ الصادق المهدى
٣ ـ السيد الأستاذ/ عباس الفكى على موسى.
٤ ـ السيد الأستاذ/ إبراهيم على إبراهيم.

فلسطين :

١ ـ سماحة الشيخ الدكتور/ عكرمة سعيد صبرى.
٢ ـ الأستاذ الدكتور/ عبد الرحمن عباد.
٣ ـ الأستاذ الدكتور/ أحمد صدقى الدجانى.
٤ ـ فضيلة الشيخ/ جمال صالح خضر.
٥ ـ فضيلة الشيخ/ رياض العيساوى.

قطر :

١ ـ السيد الأستاذ/ عبد الرحمن عبد الله آل محمود.
٢ ـ السيد الأستاذ/ محمد عبد اللطيف عبد الرحمن.
٣ ـ السيد الأستاذ/ فهد على سعد الكعبى.
٤ ـ السيد الأستاذ/ خالد شاهين عيسى الغانم.
٥ ـ السيد الأستاذ/ أحمد عبد الله لرم.

سلطنة عمان :

١ ـ معالى الوزيز/ عبد الله بن محمد بن عبد الله السالمى.
٢ ـ الأستاذ الدكتور/ إبراهيم بن أحمد الكندى.
٣ ـ السيد الأستاذ/ أفلح بن أحمد الخليلى.
٤ ـ السيد الأستاذ/ سليمان بن محمد البحرى.
٥ ـ السيد الأستاذ/ خالد بن هلال.
٦ ـ السيد الأستاذ/ أحمد بن حمد بن حمود.

سوريا :

١ ـ معالى الوزير/ محمد عبد الرؤوف زيادة.
٢ ـ الأستاذ الدكتور/ زياد الدين عبد الوهاب الأيوبى.
٣ ـ السيد الأستاذ/ فؤاد يحيى السيد.

اليمن :

١ ـ معالى الوزير/ قاسم أحمد الأعجم.
٢ ـ السيد الأستاذ/ على محمد على الفران.

المغرب :

١ـ السيد الدكتور/ أحمد الخمليش.
٢ ـ السيد الأستاذ/ عبد الجليل الغزاوى.

موريتانيا :

١ ـ السيد الأستاذ/ محمد المختار ولد امباله.

العراق :

١ ـ معالى الوزيرالدكتور/ عبدالمنعم أحمد صالح.
٢ ـ السيد الأستاذ/ حجازى صلاح فيصل.
٣ ـ الأستاذ الدكتور/ عبد الرزاق عبد الرحمن السعدى.
٤ ـ الأستاذ الدكتور/ عبد اللطيف هميم محمد.

جمهورية مصر العربية :

١ ـ الأستاذ الدكتور/ صوفى أبو طالب.
٢ ـ الأستاذ الدكتور/ إبراهيم بدران.
٣ ـ الأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم.
٤ ـ فضيلة الشيخ/ محمود عاشور.
٥ ـ الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب.
٦ ـ الأستاذة الدكتورة/ نعمات أحمد فؤاد.
٧ ـ السيد الأستاذ/ أحمد فراج.
٨ ـ السيدة السفيرة/ مى أبو الدهب.
٩ ـ السيد السفير/ نبيل بدر.
١٠ ـ السيد المستشار/ عبد العاطى الشافعى.

ثانياً: الدول الأفريقية

اثيوبيا :

١ ـ سماحة الشيخ/ بشير داود عبدالقادر.

الكونغو الديمقراطية :

١ ـ معالى الشيخ/ موديللو واما ليما.

زيمبابوى :

١ ـالسيد الأستاذ/ شابير احمد منك.

أوغندا :

١ ـ فضيلة الشيخ/ شعبان رمضان موباجى.

إريتريا :

١ ـ سماحة الشيخ/ الأمين عثمان الأمين.

نيجيريا :

١ ـ سماحة الشيخ / إبراهيم صالح الحسينى.

النيجر :

١ ـ معالى الشيخ/ إبراهيم شعيب على.

جيبوتى :

١ ـ السيد الأستاذ/ إبراهيم عثمان صالح.

٢ ـ السيد الأستاذ/ محمود صلاح الدين مصيلحى.

بوركينا فاسو :

١ ـ فضيلة الشيخ/ أبو بكر عبد الله محمد الأمين.

جنوب أفريقيا :

١ ـ فضيلة الشيخ/ عبد الحميد خبير.

٢ ـ فضيلة الشيخ/ إبراهيم محمد قاسم.

موزمبيق :

١ ـ معالى الوزير/ يوسف عبود.

٢ ـ السيد الأستاذ/ فيراريا عبد الله موسى حسين.

٣ ـ السيد الأستاذ/ محمد بى.

السنغال :

١ ـ السيد السفير/ محمد شمس الدين أندوى

تشاد :

١ ـ فضيلة الشيخ/ محمد المهدى يونس.

ثالثاً: الدول الآسيوية

اليابان :

١ ـ الأستاذ/ خالد هيجوتشى.

سنغافورة :

١ ـ الحاج/ معروف صالح.

٢ ـ الأستاذ/ محمد مراد محمد إدريس.

ماليزيا :

١ ـ الأستاذ الدكتور/ إسماعيل إبراهيم.

٢ ـ داتو/ دسوقى أحمد.

٣ ـ الأستاذ/ مران محمد عبد العزيز.

بروناى :

١ ـ السيد/ أحمد حاج جمعة نصر.

قازاخستان :

١ ـ سماحة الشيخ/ عبد الستار درويش على.

٢ ـ الأستاذ الدكتور/ شمس الدين كريموف.

إيران :

١ ـ سماحة/ آية الله أحمد جنتى.

٢ ـ السيد/ أبو الحسن نواب.

أوزبكستان :

١ ـ معالى الشيخ/ عبد الرشيد بهراموف.

٢ ـ السيد الأستاذ/ عبد الحميد محمد تورسنوف.

تايلاند :

١ ـ السيد الأستاذ/ سمان مالى بهان.

الهند :

١ ـ السيد الأستاذ/ سيد ضياء الحسن الندوى.

بنجلاديش :

١ ـ معالى الوزير/ مشرف حسن شاه زهان.

إندونيسيا :

١ ـ معالى الوزير/ السيد عقيل حسين المنور.

٢ ـ الأستاذ الدكتور/ أحمد قدرى عزيزى.

٣ ـ السيد الأستاذ/ أبو مسلم حولانى.

رابعاً: الدول الأوروبية

كوسوفا :

١ ـ الأستاذ الدكتور/ رجب بويا.

أسبانيا :

١ ـ الأستاذ الدكتور/ جو ستافو دى أريببجوى.

ألمانيا :

١ ـ الأستاذ الدكتور/ مراد هوفمان.

٢ ـ الأستاذ الدكتور/ عبد الهادى هوفمان.

٣ ـ الأستاذ الدكتور/ استيفان فيلد.

تركيا :

١ ـ معالى الوزير/ محمد نورى يلماظ.

٢ ـ السيد الأستاذ/ محمد رضا كنعان أوغلو.

٣ ـ السيد الأستاذ/ بيشوب إيمانويل.

بريطانيا :

١ ـ الأستاذ الدكتور/ أبو سليم محمد عبد الرحيم.

٢ ـ السيد الأستاذ/ عبد المجيد أبو القاسم على الخونى.

٣ ـ الأستاذ الدكتور/ ديفيد توماس.

٤ ـ السيد الأستاذ/ إبراهيم علوان مطشر النصيراوة.

٥ ـ السيد الأستاذ/ غانم جواد.

إيطاليا :

١ ـ السيد الأستاذ/ يحيى عبد الواحد بيلافيتش.

٢ ـ الأستاذ الدكتور/ عبد اللّة رضوان الحسينى.

البوسنة والهرسك :

١ ـ الأستاذ الدكتور/ مصطفى سيريتش.

٢ ـ السيد الأستاذ/ نرمين نشانتش.

النمسا :

١ ـ الأستاذة الدكتورة/ سوزانا هاينه.

٢ ـ الأستاذ الدكتور/ بيتر بالوسيكى.

بلغاريا :

١ ـ الأستاذ الدكتور/ يوردان بييف.

فرنسا :

١ ـ الأستاذ الدكتور/ عبد الكريم بكرى.

سويسرا :

١ ـ الأستاذة الدكتورة/ فوزية عبد المنعم العشماوى.

خامساً: دول الأمريكتين

الولايات المتحدة الأمريكية :

١ ـ الأستاذ الدكتور/ نهاد عوض.

كندا :

١ ـ السيد الأستاذ/ جان جاك زى فيلا سيلا.

الأرجنتين :

١ ـ السيد المهندس/ محمد يوسف هاجر.

البرازيل :

١ ـ الأستاذ الدكتور/ مصطفى يوسف مراد .

كولومبيا :

١ ـ السيد الدكتور/ خوليان زاباتا.

سادساً: أستراليا

١ ـ الأستاذ الدكتور/ إبراهيم محمد سالم أبو محمد .

سابعاً: المنظمات

جامعة الدول العربية :

١ ـ السيد السفير/ أحمد بن حلى.

رابطة العالم الإسلامى :

١ ـ الأستاذ الدكتور/ عبد الله بن عبدالمحسن التركى.

٢ ـ السيد الأستاذ/ عبدالرحمن بن عبدالعزيز السالم.

٣ ـ السيد الأستاذ/ محمد إبراهيم عبدالستار.

المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة:

١ ـ معالى الوزير الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز التويجرى.

٢ ـ الأستاذ الدكتور/ محمد الريفى.

رابطة الجامعات الإسلامية :

١ ـ الأستاذ الدكتور/ جعفر عبد السلام.

المجلس الإسلامى العالمى للدعوة والإغاثة :

١ ـ السيد الأستاذ/ توفيق إسماعيل الشريف.

المحتويات

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

المحور الثالث : الجهاد

المحور الرابع « رؤية مستقبلية»

الموضـــوع	الصفحة

Index

VI. AUSTRALIE

Australie

- Prof. Dr. Ibrahim Mohamed Salem

VII. ORGANISATIONS

La Ligue des pays Arabes

- Amassadeur / Ahmad Ben Hely

Ligue du Monde Islamique

- Prof. Dr. Abd- Allah El-Turky
- Mr. Abd El-Rahman Abd El-Aziz Al-Salem
- Mr. Mohamed Abd El-Sattar

IESCO

- Ministre / Abd El-Aziz El-Twegry
- Prof. Dr. Mohamed Al-Refie

Conseil Islamique de la Da'waet de l'Assistance

- Mr. Tawfek Al-Shereef

Ligue des Universités Islamiques

- Dr. Gaafar Abd Al-Salam

Bretagne

- Prof. Dr. Abou Selim Mohamed
- Sheikh / Abd El-Maged El-Khouie
- Prof. Dr. David Tomas
- Mr. Ibrahim Elwan Matshar
- Mr.Ghaneem Gawad

Cosova

- Prof. Dr. Ragab Bouya

Bosnie- Herzégovine

- Prof. Dr. Mostafa Seretch
- M. Nermin Neshanech

V. ETATS AMERICAINS

Les Etats- Unis

- Dr. Nihad Awad

Brézil

- Prof. Dr. Moustafa Youssef Morad

Argentine

- Eng. Mohamed Youssof Hagar

Canada

- Mr. Jean Jacque Zi Fela Sila

Colombie

- Dr. Kholian Zabata

IV.ETATS EUROPEENS

Espagne

- Prof. Dr. Gou Stavo de Arbiégo

Autriche

- Prof. Dr. Suzana Haina
- Prof. Dr. Biter Balouseky

Bulgarie

- PRof. Dr. Yourdan Bien

Turquie

- Ministre / Mohamed Noury Yalmaz
- Mr. e Kanaan Oglo
- Mr. Beshop Emanuel

Allemagne

- Prof. Dr. Morad Hofman
- Prof. Dr. Abd El-Hady Hofman
- Prof. Dr. Stefan Fild

Suisse

- Prof. Dr. Fawzia Al-Ashmawy

France

- Prof. Dr. Abd Al-Karem Bakry

Italie

- Mr. Yahia Abd El-Wahed Belefensh
- Prof. Dr. Abd Allah Radwan

Le Japon

- Mr. Khaled Hegochie

Singapore

- Sheikh / Maarouf Saleh
- Mr. Mohamed Mourad Idreis

Bangladesh

- Ministre / Mosharaf Hasan Shah Zhan

Thailand

- Mr. Saman Maly Bahan

Bruynaë

- Mr. Ahmad Hagag Gomaa Nasr

Indonésie

- Ministre / El-Saed Okel El-Mnawar
- Prof. Dr. Ahmad Kadry Aziz
- Mr. Abou Mousalem Hawlany

III. ETATS ASIATIQUES

Uzbekistan

- Sheikh / Abd El-RashId Kari Bahramouf
- Mr. Abd El-Hamed Mohamed Norstof

Inde

- Mr. Saed Deiaa El-Hassan El-Nadwy

Kazakhestan

- Sheikh / Abd El-Sattar Darwish Aly
- Prof. Dr. Shams El- Din Karemouf

Iran

- Sheikh / Ayat Allah Ahmad Ganaty
- Mr. Abou El-Hassan Nouab

Malaisie

- Prof. Dr. Ismaeïl Ibrahim
- Dato / Desouky Ahmad
- Mr. Maran Mohamed Abd El-Aziz

Sénégal

- Am. Mohamad Shams El-Din Andoy

Djibouti

- Mr. Ibrahim Osman Saleh
- Mr. Mahmoud Salah El-Din Moselhy

Burkina Faso

- Sheikh / Abou Bakr El-Amien

Afrique du Sud

- Sheikh / Abd El-Hamid Khobaer
- Sheikh / Ibrahim Mohamed Kasem

Tchad

- Sheikh / Mohamed El-Mahdi Younes

II. ETATS AFRICAINS

Ethiopie
- Sheikh / Bashir Daoud Abd El-Kader

Zimbabwe
- Mr. Shabeer Ahmad Menk

Uganda
- Sheikh / Shaban Ramadan Moubagie

Erythrée
- Sheikh / El- Amin Osman El- Amin

Congo Démocratique
- Sheikh / Modellou Wama Lema

Mozambique
- Ministre / Yousef Ibrahim Aboud
- Mr. Feraria Abd Allah Moussa
- Mr. Mohamad Bie

Niger
- Sheikh / Ibrahim Shoeb Aly

Nigeria
- Sheikh / Ibrahim Saleh El-Housiny

Yémen

- Ministre / Kasem Ahmad El-Aagam
- Mr. Aly Mohamed El-Farran

Maroc

- Prof. Dr. Ahmad El-Khamlishe
- Mr. Abd Al-Galel El-Ghazawy

Mauritanie

- Mr. Mohamed El-Mokhtar Weld Imbala

Irak

- Ministre / Abd El-Mouneem Ahmad Saleeh
- Mr. Hegazy Saleh Faïsal
- Prof. Dr. Abd El-Razaak El-Saadie
- Prof .Dr. Abd El-Lateif Hemim

République Arabe d'Egypte

- Prof. Dr. Soufy Abou Taleb
- Prof. Dr. Ibrahim Badran
- Sheikh / Mahmoud Ashoor
- Prof. Dr. Ahmad El-Taieb
- Mr. Ahmad Farrag
- Ambassadeur / May Abou El-Dahab
- Ambassadeur / Nabil Badr
- Prof. Dr. Nemat Ahmad Fouad
- Mr. Abd El-Aaty El-Shafie

Soudan

- Ministre. Dr. Essam Ahmad El-Bashir
- Sheik / El-Sadek El-Mahdy
- Mr. Abbas El-Fakky Aly
- Mr. Ibrahim Aly Ibrahim

Palestine

- Sheikh. Dr. Akrama Saïd Sabry
- Prof.Dr. Abd El- Rahman Abbad
- Prof. Dr. Ahmed Sedky El-Dogany
- Sheikh / Gamal Saleh Khadr
- Sheikh / Read El-Eissawy

Quatar

- Mr. Abd El-Rahman El-Mahmoud
- Mr. Mohamed Abd El-Latif
- Mr. Fahd Aly El-Kaeby
- Mr. Khaled Shahin Eissa El-Ghanem
- Mr. Ahmed Abd Allah Larm

Sultanat d'Oman

- Ministre/ Abd- Allah ben Mohamed El- Salemy
- Prof. Dr. Ibrahim Ben Ahmed El-Kanady
- Mr. Aflah Ben Ahmed El-Khalili
- Mr. Soliman Ben Mohamed El-Bahary
- Mr. Khaled Ben Helal
- Mr. Ahmed Ben Hamad Bin Hamoud

Syrie

- Ministre / Mohamad Abd El-Raoof Zeada
- Prof. Dr. Ziad El-Din El-Aiyouby
- Mr. Fouad Yehia El-Saed

Liban

- Dr. Sheikh / Mohamed Rasheed El Kabany
- Sheikh / Abd El-Amir Koublane
- Dr.Sheikh / Mohamed Aly El-Gouzo
- Prof. Dr. Radwan Naeef El-Saïd
- Sheikh / Riad Abd El-latif Eisany
- Sheikh / Azad Allah El-Harshy
- Sheikh / Malek Soliman
- Sheikh / Basheer Mortada
- Mr. Aly Kablane
- Mr. Nazeeh Gamoul
- Mr. Abd Allah Mousa
- Mr. Husein Amhaz
- Mr. Waleed El-Alaïly
- Mr. Naser Ibrahim El-Saleh
- Mr. Mohie El-Din Ezzat Kashly
- Mr. Mohamed Hady El-Kharassany

Algérie

- Ministre / Bou Abd Allah Golam Allah
- Mr. Hassan Aly Zan
- Mr. Hamza Yadoghy Elwannas

Royaume d'Arabie Saoudite

- Prof.Dr. Adnan Mohamed El Wazzan
- Mr. Abd El-Aziz El-Soubihiin
- Mr. Saoud Madhath El-Soubeï
- Mr. Mansour Saïd Abd Allah

Jordanie

- Ministre / Ahmed Mohamed Holaïel
- Prof. Dr. Abd El-Salam El-Abbady
- Prof. Dr. Sahban Mahmoud Hamdan
- Mr. Belal Soliman Mahmoud

DELEGATIONS PARTICIPANRES

1. ETATS ARABES

EMIRATS ARABES UNIS

- Ministre / Mohamed Ben Nakhera El- Zahery
- Prof. Dr. Gasem Aly Salem El-Shamesy
- Mr. Al-Saed Aly Al-Hashim
- Prof. Dr. Aly Mohamed El-Eigla
- Prof. Dr. Mohamed Goumaa SalemEl-Mahiry
- Mr. Hamad Abd Allah Salem El-Gabry
- Sheikh / Ahmed Moubarak El-Kendy
- Mr. Abou Bakr Saïd El-Hamery
- Mr. Mahmoud Abd El-Azim El-Bary
- Mr. Mohamed Aly Salem

Koweit

- Ministre / Ahmad Yakoub Baker El-Abd Allah
- Prof.Dr. Mohamed Abd El-Razek El-Tabtabaï
- Prof. Dr. Saad Barky El-Anzy
- Prof. Dr. Khaled Shougaa El-Oteïby
- Prof. Dr. Khaled Abd Allah El-Shoueeb
- Prof. Dr. Badr Abd El-Razek El-Mass
- Prof.Dr. Mohamed Mahdy Mousafar
- Mr. Abd Al-Rahman Mohamed Hady
- Mr. Yousoef Gasem Al-Hagie
- Mr. Moubarak Mohamed El-Outeïby
- Mr. Barak Abd El- Mohsen
- Mr. Abd Allah Mahdi Barak
- Mr. Mohamed Gawad Kazem
- Mr. Kazem Abd El-Hussein Mohamed

Bahrein

- Ministre / Abd Allah Ben Khaled El Khalifa
- Sheikh / Adnan Abd Allah El-Wazan
- Mr. Gaafar Ibrahim El-Serafy

DELEGATIONS PARTICIPANTES

13. La Conférence recommande la création d'une chaîne satellite isla mique destinée à expliquer les vérités de l'Islam en langue anglais aux peuples occidentaux et communautés islamiques vivant à l'étranger.

14. La Conférence réaffirme sa position déclarée à la 13ème Confér ence Générale du Conseil Suprême des Affaires Islamiques concer nant la cause palestinienne, relativement au renforcement et à l'ap pui de l'Intifada du peuple palestinien contre l'agression, tout e confirmant que cette Intifada n'est que l'usage du principle du droi légitime à l'autodéfense et à l'autodétermination. La Conférenc exhorte les peuples islamiques à fournir l'assistance à cette Intifad par tous les moyens disponibles afin de mettre fin à cette agressio et afin que le peuple palestinien acquière son droit légitime à établi son Etat indépendant ayant pour capitale Al-Qods Al-Charif (Jéru salem).

Les participants invitent également les gouvernements, les organi sations islamiques et les instances internationales à faire face à toute les tentatives de génocide et de déportement auxquelles est soumis l peuple palestinien militant ainsi que les violations encourues par le Lieux Saints islamiques et chrétiens dans les territoires palestinien occupés, en contradiction avec la Charte des Nations Unies, les charte et les conventions internationales qui protègent les droits des peuple soumis à l'occupation. Ils invitent également toutes les forces active dans le monde, ainsi que l'ONU, à se dépêcher de prendre les mesure appropriées garantissant la protection du peuple palestinien désarm contre ces dangers.

Dieu est notre soutien.

raux et matériels de la nation islamqiue face aux défis qu'elle affronte.

8. La Conférence affirme la position stable de l'Islam concernant l'adoption du dialgue comme base des relations entre les pays, les peules, les civilisations et les religions, en vue de renforcer les piliers de la sécurité, la stabilité et la paix; partant, la Conférence rejette toutes les allégations qui font du choc entre les civilisations un pilier et un point de départ pour des campagnes contre l'Islam et les musulmans.
9. La Conférence affirme la nécessité de l'intensification des ateliers auxquels participeraient des érudits non musulamns de tous les pays du monde; vu que l'organisation de ces ateliers en marge de cette conférence a prouvé leur efficacité et leur grande importance en permettant l'échange de vues entre les différentes parties, la rectification de certains concepts particuliers et la clarification d'un nombre de questions confuses. La Conférence recommande également la constitution d'un groupe de travail composé d'Ulémas connaissant bien les langues étrangères en vue de poursuivre le débat au sein de tels ateliers sur les plans intérieur et extérieur.
10. La Conférence recommande la révision des informations relatives à l'Islam et contenues dans les manuels scolaires des pays occidentaux, afin que le dialogue des religions et des civilisations soit fructueux et aboutisse aux résultats souhaités.
11. La Conférence recommande aux pays, peuples, Ulémas et intellectuels dans le monde entier de coopérer, se solidariser et œuvrer en vue de la reactivation des principes et des bases adoptés par la légitimité internationale, et leur application sur tous les pays sans exception.
12. La Conférence invite l'Inde et le Pakistan à régler leur différend par des moyens pacifiques et par le dialogue afin de maintenir les relations de voisinage garantissant la sécurité et la stabilité dans la région dans l'intérêt de leur peuples.

cette reconnaissance un élément essentiel de l'authenticité de la foi du musulman.

e) L'adoption par l'Islam, dès sa parution, des Droits essentiels de l'homme tant religieux que politiques sociaux et économiques. La Conférence exhorte les pays islamiques à respecter dans l'application pratique des droits de l'homme les dispositions de l'Islam.

f) Insister sur le fait que la da'wa à l'Islam à l'aide du texte du Saint Coran doit s'effectuer avec sagesses, prédication bienveillante et rhétorique paisible.

3. L'adoption par l'Islam des principes de l'égalité entre les musulmans et les non musulamns dans les droits et les devoirs conformément à la règle: "Ils ont ce que nous avons et ils doivent ce que nous devons", tout en appliquant les lois de leur religion et confession en matière du statut personnel.

4. La Conférence exhorte les pays non musulmans à permettre aux minorités musulmanes l'exercice des différents droits et libertés dans les chartes internationales et l'application de leur réglement en matière de statut personnel, sous réserve de ne pas contrevenir aux règlements généraux en vigueur dans le pays.

5. La Conférence affirme que la légitimité internationale reconnaît le droit de tous les peuples des pays occupés au recours à tous les moyens en vue de la libération de leurs territoires, à l'autodétermination et l'indépendance, la légitimité internationale réclame également à la communauté internationale d'assurer l'assistance matérielle et morale aux mouvements de libération nationale.

6. La Conférence confirme son rejet de toutes les tentatives visant à mettre sur le même pied le terrorisme et l'exercice des droits légitimes des peuples à l'autodétermination et à la lutte pour la libération de leurs territoires.

7. La Conférence souhaite l'élimination des motifs de désaccord entre certains pays arabes en vue de l'accroissement des potentiels mo-

Deuxième axe: **Relations avec autrui.**

Troisième axe: **Le Jihad.**

Quatrième axe: **Vision futuriste.**

La Conférence a formé un Comité chargé de formuler ses recommandations sous la présidence du Dr. Soufi Abou Taleb et avec la participation de membres représentant les délégations participantes selon les recherches présentées et le résultat des discussions et des interventions, ainsi que les ateliers de travail auxquels a participé un groupe d'ulémas et de penseurs musulmans et non musulmans appartenant à certains des pays participants. Le Comité a élaboré le projet de recommandations suivant:

1. La Conférence insiste sur la spécificité des valeurs et des traditions islamiques, et la nécessité de leur préservation face aux courants de la mondialisation.
2. La Conférence recommande aux institutions scientifiques, intellectuelles, culturelles et médiatques à l'intérieur des pays islamiques et ailleurs de la nécessité de faire connaître correctement l'Islam et ses préceptes, mettre en relief ses réalités qui transmettent sa Daw'a, consolider ses preuves et le tenir à l'écart de toute suspicion, notamment les réalités suivantes:
   a) La confirmation par l'Islam de la complémentarité entre les aspects spirituels et matériels dans la vie de l'être humain.
   b) L'hommage rendu par l'Islam à l'homme, en tant que successeur de Dieu pour peupler la terre, quelles que soient sa race, sa couleur et sa foi. Cet hommage est rendu à l'homme vivant et mort.
   c) L'Islam se distingue en considérant comme l'une des sunnas divines, irremplaçable et inchangeable, la pluralité, la diversité, la disparité et la différence entre les confessions et les lois de l'Islam, les langues, les couleurs et les races.
   d) L'Islam se singularise également en insistant sur la liberté de croyance et la noncoertition dans la religion, et en faisant de

Septièmement: Les Organisations et les Instances Islamiques Mondiales

1. La ligue des Etats Arabes.
2. L'Organisation Islamique pour l'Education, les Sciences et la Culture ISESCO.
3. Le Conseil Islamique Mondial pour la Da'wa et le secours.
4. La Ligue des Universités Islamiques.
5. La Ligue du Monde Islamique à la Mecque.

La Conférence a été inaugurée par une allocution du Président Mohammad Hosni Moubarak, Président de la République Arabe Unie, lue en son nom par Dr. Atef Ebeid, Premier Ministre.

Au cours de la séance d'inauguration, des allocutions ont été prononcées par son Eminence le Grand Imam Dr. Mohammad Sayed Tantawi, Cheikh d'Al-Azhar, Sa Sainteté le Pape Chenouda III Pape d'Alexandrie et Patriarche de Saint Marc, Dr. Mahmoud Hamdi Zaqzouk, Minister des Waqfs et Président du Conseil Superieur des Affairs Islamiques, "Président de la Conférence" et Dr. Abd Al Sabour Marzouk, rapporteur Général de la Conférence.

Son Excellence Dr. Abd Allah Ben Abd Al-Mohsen Al-Tourky, Secrétaire Général de la Ligue du Monde Islamique à la Mecque, a prononcé un discours au nom des Délégations participantes.

La Conférence a décidé de considérer le discours de son Excellence le Président Mohammad Hosni Moubarak, Président de la République Arabe d'Egypte, comme document dont les directives constitutueront une référence pour la Conférence.

Les séances de la Conférence se sont déroulées matin et après- midi pendant quatre jours, au cours desquels ont été présentées et discutées les recherches des délégués à savoir, 62 recherches présentées en langues arabe, anglaise et française, autour des principaux axes suivants:

Premier axe: Vérité de l'Islam.

Troisièmement: Les Etats Asiatiques

1. Indonésie.
2. Ouzbékistan.
3. Iran.
4. Brunei (Darousalam).
5. Bengladesh.
6. Thaïlande.
7. Singapour.
8. Kazakhstan.
9. Malaisie.
10. Inde.
11. Japon.

Quatrièmement: Les Etats Européens

1. Espagne.
2. Allemagne.
3. Autriche.
4. Angleterre.
5. Italie.
6. Bulgarie.
7. Bosnie.
8. Turquie.
9. Suisse.
10. France.
11. Kosovo.

Cinquièmement: Les Etats d'Amérique

1. Argentine.
2. Brésil.
3. Canada.
4. Colombie.
5. Etats- Unis d'Amérique

Sixièmement: L'Australie

La Conférence a été présidée par Docteur Mahmoud Hamdi Zaqzouk Ministre des Waqfs et Président du Conseil Superieur des Affaires Islamiques.

Y ont participé les représentants des Etats et Organisations Islamiques suivants:

Premièrement: Les Etats Arabes

1. Royaume Hachémite de Jordanie.
2. Emirats Arabes Unis.
3. Bahrain.
4. Algérie.
5. Djibouti.
6. Royaume d'Arabie Saoudite.
7. Soudan.
8. Syrie.
9. Irak.
10. Sultanat d'Oman.
11. Palestine.
12. Qatar.
13. Koweit.
14. Liban.
15. Egypte.
16. Royaume du Marco.
17. Mauritanie.
18. Yémen.

Deuxièmement: Les Etats Africains

1 Ethiopie.
2. Erythrée.
3. Ouganda.
4. Burkina Faso
5. Tchad.
6. Afrique du Sud.
7. Zimbabwe.
8. Sénégal.
9. Congo Démocratique.
10. Mozambique.
11. Niger.
12. Nigéria

RECOMMANDATIONS

Par

Dr. Abd El- Sabour Marzouk

Rapporteur géneral de la Conférence

Partant du rôle de la République Arabe d'Egypte et son Azhar Al-Chérif, et de sa responsabilité historique vis- à- vis de l'Islam et des musulmans, le Ministre des Waqfs a fait appel à la tenue de la 14ème Conférence Générale du Conseil Supérieur des Affaires Islamiques intitulée:

La vérité de l'Islam dans un monde en changement.
Le Caire du 8 au 11 Rabi' Awal 1423H.
20-23 Mai 2002.

Sous les auspices de son Excellence le Président de la République Arabe d'Egypte Mohammad Hosni Moubarak et de la Présidence honoraire de son Eminence Le Grand Imam Dr. Mohammad Sayed Tantawi Cheikh Al Azhar.

et de rester unis, le Coran nous avertit du danger de devenir la proie des conflits et des rivalités qui conduisent à l'échec retentissant. Cela a été confirmé par le Saint Coran: "Ne vous querellez pas, sinon vous fléchiriez et votre chance de succès s'éloignerait" (Al Anfal: 46)

Nous mettons tous nos espoirs dans l'engagement des Ulémas de la nation et de ses penseurs à assumer leurs responsabilitiés en matière de la sensibilisation des citoyens de l'Umah relativement à la vérité de l'Islam, tout en multipliant les efforts en vue de rectifier l'image défigurée que l'hostilité et l'injustice ont fait circuler en dehors du monde islamique.

Il s'agit ici de deux éléments étroitement corrélatifs qui constituent une base solide pour que l'Umah islamique accomplisse son devoir de défense de ses droits d'une part, et d'autre part contribue à la consolidation des fondements de la paix et la stabilité partout dans le monde dans l'intérêt de l'ensemble de l'humanité.

Puisse Dieu guider nos pas dans la voie de la vertu.

anges, en ses livres et en ses prophètes. Nous ne faisons pas de différence entre ses prophètes".

Le monde a besoin de la civilisation des musulmans qui représentent le cinquième de sa population; et les musulmans, de leur côté, ont besoin des civilisations mondiales, car l'isolement est devenu un choix exclu, voire impossible dans le monde d'aujourd'hui.

Il ressort des discussions qui ont eu lieu lors des séances plénières de la conférence et des séminaires spécialisés- auxquels ont participé un nombre d'érudits non musulmans appartenant à sept pays européens- que la question intéresse les musulmans dans la même mesure où elle inréresse les non musulmans partout dans le monde, vu l'importance pour ces derniers de connaître la vérité de l'Islam et la relation entre les musulmans et les autres peuples du monde. Ils s'intéressent également à connaître la vérité du Jihad s'il est en relation avec le phénomène du terrorisme qui intéresse notre monde contemporain, comme ils tiennent en particulier à identifier la vision des musulmans pour l'avenir de la relation entre la civilisation islamique et les autres civilisations en général, et particulièrement la civilisation occidentale.

En effet, l'ignorance de l'Islam et de ses enseignements est à l'origine de l'essentiel de la méconnaissance de cette religion et sa civilisation partout dans le monde. Cette situation exige des musulmans qu'ils assument donc la responsabilité de faire connaître la vérité de l'Islam et de ses enjeux, et ce dans toutes les langues et auprès de tous les pays. L'impact désiré de cette démarche ne peut se réaliser sans l'unification des efforts des musulmans en ce sens, de sorte à établir entre eux une coordination, une complémentarité et une coopération dans tous les domaines, dans l'intérêt de l'Islam et des musulmans.

En exigeant que nous nous accrochions aux commandements de Dieu,

hommes!" Nous vous avons créés d'un mâle et d'une femelle. Nous vous avons constitués en peuples et en tribus pour que vous vous connaissiez entre vous". Ce qui signifie que la pluralité est un facteur moral permettant l'interaction entre les personnes, la complémentarité entre les civilisations et la coopération entre les peuples en vue d'enrichir l'expérience humaine à travers les époques.

Troisièmement: La connaissance des autres peuples, civilisations et religions empêche de méconnaître les autres, et élimine un grand nombre de préjugés et d'idées fausses chez toutes les parties. Chacun de nous a son patrimoine religieux et historique fondé sur de multiples valeurs, coutumes et traditions héritées, qu'il tient à conserver dans la mesure, où elles constituent son identité nationale, qui n'est pas nécessairement en contradiction avec celle des autres, bien qu'elle puisse en être différente d'une façon ou d'une autre. Ce patrimoine même contribue à la composition de la pluralité qui invite au dialogue et non à la confrontation.

Quatrièmement: L'Islam, tout en confirmant l'invitation au dialogue et à la compréhension entre les peuples, rejette la prétention du choc entre les civilisations; car elles-ci ne s'entrechoquent pas, mais elles interagissent et se complètent, dans un cadre de complèmentarité mutuelle, considérant que ces civilisations sont le fruit du don des peuples et le produit des événements de l'histoire concrétisée par la participation de tous les peuples.

Notre compréhension des relations entre les civilisations prend sa source dans les principes fondamentaux de la religion islamique, laquelle considère que la foi dans les religions révélées précédentes constitue l'une des conditions du vrai Islam, ce qui est confirmé par le Saint Coran dans la sourate "Al Baqara" "Le prophète a cru à ce qui est descendu sur lui de la part de son Seigneur. Lui et les croyants, tous ont cru en Dieu, en ses

international qui n'épargne aucune religion ni aucune civilisation.

Cette clarification est importante dans la mesure où elle est liée, en fin de compte, à la détermination de la relation future entre la civilisation islamique et les autres civilisations en général, et la civilisation occidentale en particulier.

La conférence a procédé à l'examen et à l'étude de ces questions à travers les quatre axes de cette réunion.

Il est incontestable que cette conférence constitue un maillon de la chaîne des efforts à poursuivre en vue de mettre en évidence l'image réelle tolérante de l'Islam.

A cet effet, le message de M. le Président Mohammad Hosni Moubarak, président de la République Arabe D'Egypte, adressé à la conférence, a dévoilé plusieurs réalités essentielles que tout le monde devrait connaître et qui sont représentées comme suit:

Premièrement: Toutes les religions, y compris l'Islam, sont dans leur essence divine un appel à l'amitié, la paix et le bien. Par conséquent, il est inconcevable que ces religions constituent une source de mal pour un peuple du monde quel qu'il soit. Il importe que la distinction entre le Jihad islamique et le terrorisme demeure claire; le Jihad est le droit légitime à la résistance contre l'agression qui vise la religion, soi-même et la patrie, alors que le terrorisme est une agression flagrante contre tout ce qui est sacré, contre les vies humaines et les patries.

Deuxièmement: L'Islam en adoptant et confirmant la pluralité des religions et des civilisations, considère cette pluralité comme un essor pour faire connaissance avec les autres peuples et promouvoir la concorde entre eux, et non une cause nécessitant le conflit et l'affrontement ou un motif provoquant les sentiments de haine entre les personnes. Cela est très évident dans le Saint Coran, (Al Hojourat), verset 13: "ô vous les

points sur les "i", et illustrant la réalité de l'Islam dans ce monde en changement, et ce à partir des sources fondamentales manifestes de l'Islam, et ses enseignements évidents que connaît le monde depuis 14 siècles et ont été à l'origine édifiée de la civilisation par les musulmans à travers laquelle ils ont contribué, pendant plusieurs siècles, à enrichir la civilisation humaine. Ils ont particulièrement offert à la civilisation européenne du Moyen Age, à travers l'Andalousie, une contribution civilisatrice dont l'histoire est témoin; contribution qui a permis à l'Europe de passer du Moyen Age au seuil de l'époque moderne. A cet égard, il convient également de rappeler ce que la civilisation islamique a offert comme modèle admirable de coéxistence positive entre les religions dans le cadre de cette civilisation. Cette expérience a été vécue par l'Europe à travers la coéxistance entre les musulmans, les chrétiens et les juifs en Andalousie.

On se sert des événements sous- mentionnés pour ignorer et faire oublier l'histoire de cette civilisation florissante. On prétend imputer la vague du terrorisme réveillé pour découvrir une religion qu'il ne connaissait que par l'intermédiaire d'événements fortuits et de pratiques irresponsables dont ils accusent certains musulmans, bien que ces mêmes partiques soient suivies par d'autres groupes appartenant à toutes les religions et les civilisations.

Il s'est donc avéré nécessaire de tenir cette conférence en ce moment précis afin de mettre en évidence les réalités islamiques, et préciser les concepts qui régissaient et régissent toujours la relation entre l'Islam et les musulmans d'une part et les disciples des autres religions et civilisations d'autre part.

Par ailleurs, il est devenu impérieux d'élucider la confusion et l'ambiguité, dernièrement répandues autour du concept du Jihad dans l'Islam, et la relation de celui-ci avec le phénomène du terrorisme

COMMUNIQUE DU CAIRE

Par

Dr./ Mahmoud Hamdi Zaqzouq
Ministre des Waqfs.

Président De la Conférence tenue le 11 Rabi' Awal, 1423H 20-23 mai 2002

Notre monde contemporain connaît des conditions, des changements et des développements successifs, notamment à la suite des événements du 11 Septembre 2001, qui ont laissé des impacts négatifs bien évidents sur l'image de l'Islam dans le monde. Cela a été accompagné de tentatives médiatiques et autres qui ont intentionnellement brouillé les cartes et ont accusé les arabes et les musulmans d'hostilité à l'égard de la civilisation et d'encouragement du terrorisme.

En dépit du fait que l'Islam- qui existe depuis 14 siècles- ait été révélé par Dieu à son prophète Mohammad, à lui bénédiction et salut, "comme miséricorde pour les mondes", ce qui a été confirmé par le verset du Saint Coran: "Nous t'avons seulement envoyé comme une miséricorde pour les mondes", les trompettes de certains médias ont réussi à focaliser l'attention sur l'accusation de certains musulmans d'être à l'origine desdits évenements, liant d'une façon ou d'une autre l'Islam au terrorisme.

D'où la nécessité d'affronter cette injustice flagrante à l'encontre de l'Islam et des musulmans par une prise de position objective mettant les

COMMUNIQUE DU CAIRE

NOTES:

(1) Saint Coran: Sourate 3, verset 104.

(2) OUSMAN MULONDELWA: L'Islam, la Paix et le Terrorisme.

(3) KAWAYA SEFU PAPA: La vision de paix de l'Islam et le Terrorisme International.

(4) A MOUHAMMAD: Message de l'Islam n° 154.

(5) A MOUHAMMAD: Message de l'Islam n° 155.

(6) ANNE- MARIE DELCAMBRE: OP.Cit, p. 148.

(7) Saint Coran: Sourate 5, verset 32.

(8) Saint Coran: Sourate 16, verset 90.

(9) Anne- Marie Delcambre: Mahomet, la parole d'Allah; Découvertes Gallimard; 1997, p. 105.

(10) DJAHAD AL KHAZEN: Rédacteur en chef du Quotidien AlHayat, Message de l'Islam n° 154.

(11) MOHAMMAD AL HANOUTI: Imam de la Mosquée Dar al Fojara (Virginie) Message de l'Islam n° 154 et n° 155.

(12) D'après Thomas Suavet: Dictionnaire économique et social: Ed. Ouvrière Paris 1962, p. 218, l'intégrisme s'est présenté historiquement comme une réplique au modernisme qui, sous prétexte de réconcilier le monde moderne et la foi, minisait le contenu de la révélation chrétienne. Ainsi, PIEX avait en 1997, demandé aux Evèques de surveiller les hommes et les idées en instituant les "comités de vigilance" (catholiques intégraux) et sans mandat à espionner et à dénoncer ceux qui ne pensaient pas comme eux.

(13) Colloque de Ryad entre savants musulmans et occidentaux.

expulsent pas de nos “demeures”. Dieu le précise dans le Coran: “Dieu ne vous empêche pas, à la l’égard de ceux qui ne vous ont pas combattus pour la religion et ne vous ont pas chassés de vos demeures, de leur faire du bien et de leur rendre justice. Dieu aime les justes”.

Dans ce cas, c’est- à- dire dans le cas d’une agression contre les musulmans, la lutte armée devient un devoir pour la défense de la “liberté de conscience” et la défense de “la paix” à laquelle aspire l’homme.

L’Islam a aboli toute considération de classe, de race ou de nationalité comme obstacle à cette fraternité. Il a proclamé l’égalité entre tous les hommes. Le Prophète de l’Islam a dit. L’Arabe n’a aucun mérite sur le non- Arabe ni le Blanc sur le Noir, si ce n’est que par la piété." C'est là, aujourd’hui le plus haut sommet auquel aspire l’humanité, et le point auquel les Etats tiennent le plus dans leurs constitutions comme droits naturels de l’homme dans la voie de la Paix.

La "Paix" que l’Islam assure à l’homme conformément à ses aspirations. C'est une paix inhérente à la foi en Dieu. C’est une paix en face des différentes exigences de la vie. C’est une paix qui signifie bonté et bonne entente entre les Musulmans et les non Musulmans (13).

L’Islam est donc un appel permanent à la paix en tout domaine.

Le monde musulman devra entreprendre davantage des démarches positives afin de raffermir les liens islamiques et agir en faveur de la fraternité isalmique. Aussi devra-t-il arrêter des stratégies appropriées pour contrer cette campagne mensongère menée contre l’Islam.

Puisse Allah couronner de succès les travaux de la 14ème Conféemce Générale du Conseil Supérieur des Affaires Islamiques.

Assalam Alaykoum!

El’Hadj Mudilo Wa Malemba Saliboko.

sont multiples, par opposition aux actes dits terroristes posés par d'autres acteurs notamment les MOUVEMENTS D'IDEES TRANSNATIONALES.

L'Islam n'a aucun rapport avec les phénomènes négatifs propagés sur lui. Cette mauvaise interprétation du terme terrorisme n'est qu'une fabrication purement occidentale. Et lorsque les médias occidentaux rapprochent le mot terrorisme des musulmans, c'est tout simplement dans le souci de porter atteinte à l'Islam et ses adeptes.

"Lorsqu'une bombe explose en Irlande du Nord, personne ne parle de terrorisme catholique protestant ou encore chrétien, mais si un arabe commettait un attentat à la bombe, tout le monde parlerait de bombe islamique."(11)

Les médias doivent éviter de tout imputer à un certain intégrisme musulman (12) alors que l'intégrisme est un phénomène pluridimensionnel de par ses origines et ses ramifications.

L'islam offre à tous les hommes les meilleurs modèles pour une vie indépendante. Car, l'Islam attache tant d'importance au principe de la "paix", il ne l'a pas proclamé en tant que principe spirituel mystérieux, imprécis et indéfini. Bien au contraire, il a édifié tous les aspects de la vie humaine, ainsi que les rapports de celle- ci avec Dieu et avec l'homme, sur des règles nettes et précises qui conduisent celui qui les applique à coup sûr vers la paix.

L'Islam impose la "paix" en matière de "conviction" entre les adeptes des différentes religions. Il est dit: "Pas de contrainte en religion". C'est là certainement le plus haut degré auquel est parvenu l'humanité aujourd'hui dans les textes de ses constitutions démocratiques modernes, en vue de la protection de "la liberté de conscience". L'Islam est ainsi en avance de quatorze siècles.

Bien plus, l'Islam va plus loin: il prêche la charité à l'égard des pratiquants des autres religions, quelle que soit leur conviction, à moins qu'ils ne nous combattent pas dans notre "Foi", ou bien qu'ils ne nous

musulmane agit comme une tribu pour protéger ses membres, Dieu insiste sur l'observation rigoureuse d'une règle: observer une juste mesure, un juste milieu. La loi du talion est permise mais la vengeance ne doit pas ouvrir la voie à une nouvelle vengeance. Le principe de la vendetta est donc condamné dans la mesure où il conduit à un enchaînement de vengeances sans fin"(9).

III. DU TERRORISME

Le terrorisme est l'action de répandre une très grande peur d'imprimer à un environnement donné un climat de répression impitoyable pour inspirer une peur intense.

A ce sujet, il est généralement observé que le terrorisme emploie systématiquement la violence à des fins politiques (prise de pouvoir, désorganisation sociale). Il est donc le fait de contraindre quelqu'un par la force ou l'intimidation, d'obtenir un résultat par la violence.

Vu sous cet angle, le terrorisme apparaît pratiquement multiforme au regard des acteurs qui le pratiquent, des buts poursuivis et des moyens utilisés par ces acteurs.

Ilya par conséquent une multitude de définitions du terrorisme, selon le camp dans lequel on se trouve, la finalité de l'action et les méthodes utilisées pour y parvenir. Le FBI, quant à lui, définit le terrorisme comme étant: "l'usage illégal de la force ou de la violence contre les personnes ou des biens pour intimider un gouvernement, une entreprise ou une communauté quelconque afin de faire adopter une nouvelle ligne de conduite politique ou sociale".

A l'analyse, cette définition qui met en exergue l'illégalité de l'usage de la force ou de la violence suggère que l'on se pose la question de savoir si le caractère terroriste d'un acte est déterminé par la nature de l'acteur.

Il nous semble que dans la mesure ou même l'Etat n'est pas exempt de tomber dans l'illégalité s'il ne respecte pas les normes internes ou internationales, on peut parler du terrorisme d'Etat dont les exemples

les terroristes contemporains dirigent la terreur à l'aveuglette puisque leur but est d'impressionner pour attirer l'attention. Les victimes sont rarement concernées par les revendications formulées et les innocents payent souvent en lieu et place des vrais responsables qui sont généralement puissants et inaccessibles.

A ce sujet, voyons ce que dit le Saint Coran. "Celui qui a tué un homme qui lui- même n'a pas tué, ou qui n'a pas commis de violence sur la terre est considéré comme s'il avait tué tous les hommes (l'humanité entière), et celui qui sauve un seul homme est considéré comme s'il avait sauvé tous les hommes"(7).

A travers cette citation, on voit clairement que l'Islam recommande l'équité, la justice, la bienfaisance et l'assistance, et cela est confirmé dans le Saint Coran en ces termes: "certes Allah commande l'équité, la bienfaisance et l'assistance aux proches. Et il interdit la turpitude, l'acte répréhensible et la rébellion. Il vous exhorte afin que vous vous souveniez"(8).

Ceci confirme ce que nous avons dit plus haut, l'Islam est une religion qui recommande le bien, condamne ou interdit la turpitude, l'acte répréhensible et la rébellion en tant qu'actes honteux et rétrogrades qui se décalent totalement des normes socialement acceptées et qui, à tous égards, méritent une sanction négative de la société.

Le Saint Coran ne donne pas la possibilité d'interprétation pour ouvrir une brèche qui conduirait à la non exécution de toutes ces recommandations, la Sourate 5 verset 8 stipule comme suit:

"O les croyants! Soyez stricts (dans vos devoirs) envers Dieu et (soyez) des témoins équitables. Et que la haine pour un peuple ne vous incite pas à être injustes. Pratiquez l'équité: cela est plus proche de la piété. Et craignez Dieu. Dieu est certes parfaitement connaisseur de ce vous faites".

Anne- Marie DELCAMBRE signale même quelques hauts faits en rapport avec l'équité car écrit- elle, "si désormais la communauté

1. Ecarter les obstacles à l'appel à l'Unicité de Dieu. S'il n'est pas questi̇on d'agression commise contre des personnes et des personnalités musulmanes, mais qu'un gouvernement despotique en exerçant une grande terreur, empêche que le message de Dieu soit communiqué et cerne les gens de façon à ce qu'ils soient privés de la parole de Dieu.

2. Sauver les opprimés de l'oppression. Il est possible qu'une OUMA Islamique ne soit pas agressée, mais qu'on apprenne qu'un groupe fait l'objet de l'oppression et meurt sous les bottes des iniques. L'OUMA islamique se portera au secours pour contrer l'oppression, d'autant plus si le groupe opprimé est musulman et vit en minorité en point du monde. Ce genre de djihad vise surtout à contrecarrer l'injustice qui pèse sur l'homme libre.

3. Lutter contre la corruption L'Islam est venu pour rétablir la justice et la liberté au vrai sens du terme, sur toute la terre, et la paix et la sécurité dans toutes les communautés.

4. Empêcher des actes blâmables. Le Saint Coran recommande d'interdire des actes blâmables.

La conception islamique parle alors du DJIHAD, obligation d'institution divine qui n'a rien à voir avec le terrorisme du moins au regard de la motivation profonde et surtout des méthodes ou moyens utilisés. Tout dans le DJIHAD est rigoureusement réglementé (6), le point culminant étant évidemment le combat pour la foi essentiellement à la suite d'une entrave majeur à la pratique islamique, puisque le DJIHAD signifie littéralement effort pour le régne de Dieu. Un exemple est particulièrement frappant, c'est que l'ennemi qui se convertit à l'Islam alors qu'il est détenteur de biens ayant appartenu à des musulmans les conservera licitement.

C'est ici justement l'occasion pour nous de montrer que l'Islam ne peut s'accommoder d'une quelconque forme de terrorisme dans la mesure où ce dernier, dans sa forme d'il y a environ 2 siècles (qui n'a d'ailleurs pas beaucoup changé si ce n'est pas l'utilisation des moyens plus élaborés), ignore totalement la notion de responsabilité. En effet,

fondamentalement "maîtrise de soi" c'est- à- dire ce contrôle dans la vie quotidienne, mettre en pratique les recommandations de Dieu Le Tout Puissant (2). Dans cette optique, le Djihad impose à quiconque de s'abstenir à faire du mal.

Dans une autre optique, celle qui est généralement répandue car faisant référence à l'usage de la force, il s'agit de se défendre pour obtenir la liberté de la pratique de la religion même dans ce cadre, il convient de noter que l'usage de la force n'est pas systématique (3). L'exemple le plus frappant est celui du Prophète Muhammad (SAW) qui a fait montre d'une grande patience (13 ans) face aux multiples entraves exercées par les Mecquois.

Il a d'abord épuisé toutes les voies de conciliation (moyens pacifiques) avant de quitter la ville et émigrer à YATHRIB pour y préparer l'offensive sur ordre divin.

Il est important de souligner que l'Islam reconnaît cette vérité que la guerre est un acte horrible en soi par rapport à la nature humaine. Cependant, l'Islam considère comme une obligation une certaine forme de guerre (le Djihad) entreprise sous certaines conditions. Le Saint Coran qualifie les guerres illégitimes de "sang versé" et les guerres saintes de Djihad dans la voie de Dieu. Pourtant le Djihad ne signifie pas seulement guerre, mais aussi un effort ou engagement qui mettrait à contribution les forces physiques et spirituelles de l'homme face à l'ennemi. Même une contribution financière à l'effort de guerre s'appelle "Djihad financier" (4). Toutefois le plus grand combat contre les intentions diaboliques et les passions est qualifié en Islam de DJIHAD AKBAR c'est- à- dire le grand DJIHAD.

Selon les docteurs de la loi, le Djihad est de deux sortes à savoir: défensif et essentiel (5). Il convient de préciser que toutes les motivations des Djihads islamiques même s'ils peuvent avoir un caractère initial sont en quelque sorte défensives.

Le Djihad poursuit plusieurs objectifs notamment:

notre particulière attention au moment où l'on fait sciemment l'amalgame d'une part, entre l'Islam et le Terrorisme, et d'autre part on identifie le DJIHAD au Terrorisme.

Ainsi, nous parlerons au cours de notre exposé de la vision de l'Islam sur le DJIHAD et sur le Terrorisme. Il s'agira donc pour nous de montrer ce que prône l'Islam, les objectifs et formes de DJIHAD, la disparité entre l'Islam et le Terrorisme et les raisons de la confusion entretenue à dessein entre les deux.

Pour mieux comprendre la vision de l'Islam sur le Djihad et le Terrorisme, permettez- nous de vous donner un bref aperçu de l'Islam.

I. DU BREF APERCU DE L'ISLAM

L'Islam est une religion monothéiste qui prône l'unicité de Dieu et la prophétie du Prophète MUHAMMAD (SAW).

L'Islam recommande constamment de faire le bien et de réprimer le mal, d'être honnête, altruiste et bon, d'interdire la tricherie, la corruption, d'être pieux et généreux, d'être modèle et exemplaire. Le Saint Coran dit: "Que soit issue de vous une communauté qui appelle au bien, ordonne le convenable et interdit le blâmable. Car ce seront eux qui réussiront"(1).

Cependant, ce qui est encore plus important à noter est que l'Islam est en fait une culture, une organisation sociale, économique, politique et militaire guidée par la volonté divine. L'Islam est donc un tout indivisible sans limite ni frontière. C'est toute une harmonie, toute la bonté que Allah a voulu donner à l'humanité à travers le Saint Coran et les recommandations y sont contenues. Enfin, l'Islam c'est la Paix et non la guerre qui est une manifestation de désharmonie et d'inimitié.

Dès lors d'aucuns se poseraient alors la question de savoir pourquoi l'Islam, religion de paix, prône en même temps le Djihad?

II. DU DJIHAD

La réponse à cette question est que le Djihad signifie

Thème DE L'EXPOSÉ
EL DIJHAD
PAR
EL HADJ MUDILO WA MALEMBA SALIBOKO

Excellence Monsieur le Président de la République Arabe d'Egypte,

Excellence le Grand Imam Cheikh d'Al-Azhar,

Excellence Monsieur le Président du Conseil Supérieur des Affaires Islamiques,

Excellences Messieurs les Ministres,

Distingués Invités,

Assalam Alyakoum wa Rahmatullahi wa Barakatuhu!

C'est pour nous un réel plaisir et un honneur de prendre la parole du haut de cette tribune à l'occasion de la tenue de la 14ème Conférence Générale du Conseil Supérieur des Affaires Islamiques.

Nous tenons d'abord à remercier les organisateurs de cette conférence pour avoir pensé à notre modeste personne. Qu'Allah vous récompense ici- bas et dans l'au-delà pour tous les efforts que vous menez pour promouvoir l'Islam à travers le monde.

Ensuite avant d'entrer dans le vif de notre exposé, nous voudrions transmettre à tous les participants les chaleureuses salutations de leurs frères et sœurs musulmans de la République Démocratique du Congo qui constituent une minorité de 15 millions de fidèles sur une population de 60.000.000 d'habitants.

Ceci dit, le thème du 3ème Axe, à savoir: LE DJIHAD, a retenu

en même temps ceci ne signifie pas aussi qu'il ya une autre civilisation qui surpasse la civilisation musulmane. Mais cela veut dire que le pluralisme civilisationel et la variété culturelle sont le fait normal et que la réaction avec les autres civilisations est la vraie situation entre l'isolement et la dépendance.

Mes fréres et sœurs

La véritable connaissance de l'Islam indique que c'est une religion qui soutient tous les bons efforts pour le bien de ce monde qui est également le nôtre. Les leçons de l'histoire ont démontré que les guerres ne peuvent pas résoudre les problèmes du monde au contraire elles augmentent leur complexité. Le chemin de la paix basé sur le dialogue la légitimité et le respect des droits d'autrui est le vrai choix devant notre monde si l'intention de se débarrasser de toutes les mauvaises tendances et ses motifs est bonne.

Nous sommes sûr que les facteurs communs et les points de rencontre entre les civilisations et les religions dépassent de loin leurs divergences. Il est indispensable, dans cet ère et dans tous les temps de chercher sincèrement ces points communs et les mettre en relief devant les futures générations, d'amener les peuples et les sociétés à en prendre conscience afin d'approfondir la culture de la paix dans le monde.

C'est ainsi que votre conférence acquiert son importance particulière en contribuant à rectifier l'image de l'Islam dans les esprits à l'intérieur du monde islamique et à l'extérieur ce qui aide à contribuer à une meilleure connaissance, une compréhension plus profonde une coopération plus fructueuse entre les hommes sans tenir compte de leur religion, leur civilisation et du degré de leur progrés en vue de servir les causes de la paix, la justice et la fraternité dans notre monde contemporain.

Je souhaite à votre conférence tout le succès et à nos chers hôtes un agréable séjour au Caire.

coopération entre les peuples en vue d'enrichir l'expérience humaine à travers les siècles.

Troisièmement:

La connaissance entre les peuples, les civilisations et les religions aide à effacer l'ignorance d'autrui et à mettre fin aux préjugés et aux idées fausses que chaque parti a de l'autre, Chacun de nous a son patrimoine religieux et historique fondé sur plusieurs principes, coutumes et moeurs héritées auquel il tient et veille à les conserver comme étant son identité nationale qui ne s'oppose pas nécessairement avec l'identité nationale des autres mais qui pourrait en être différente d'une manière ou d'une autre ce qui mènerait à la multitude qui fait appel au dialogue et non au conflit.

Quatrièmement:

L'Islam insiste sur l'appel au dialogue, il refuse l'idée du choc des civilisations car celles- ci ne se heurtent pas mais elles réagissent entre elles et se complètent mutuellement parce qu'elles sont le fruit du don des peuples et la récolte des événements de l'histoire que tous les peuples contribuent à élaborer.

Notre compréhension de cette relation entre les civilisations est née des principes essentiels de la religion islamique qui considère que la foi dans les autres religions révélées précédentes est une condition nécessaire de la vérité de l'Islam.

Dieu (Allah) dit dans le Saint livre, Sourate. (La Vache) Verset 285 "Le Prophète a cru à ce qui est descendu sur lui de la part de son seigneur

Lui et les croyants

Tous ont cru en Dieu, en ses anges

en ses livres et en ses prophètes."

En effet, la croyance des musulmans en l'universalisme de l'Islam ne signifie pas que la civilisation musulmane domine le monde et qu'elle prend l'avantage sur les autres civilisations qui l'ont précédée ou suivie;

dans.la suite des efforts continus en vue de présenter la véritable image de l'Islam qui est une religion de paix d'amour de coexistence (religieuse) positive et de coopération fructueuse entre les hommes de toutes les éthnies, les races et les civilisations dans un cadre se basant sur les réalités qui ont géré et géreront la relation entre musulmans et non musulmans sans tenir compte de leur religion et leur doctrine.

Voici les réalités les plus importantes:

Premièrement:

Toutes les religions, y compris l'Islam, sont dans leur essence, un appel à l'amour, la paix et le bien. De là, on ne peut imaginer qu'elles sont les sources du mal ou qu'elles sont utilisées pour commettre des actes de violence ou terroristes.

Mais la différence doit demeurer claire et évidente entre celui qui se sert d'une part de son droit lègitime de la résistance en vue de débarrasser son pays de l'occupation étrangère qui est à l'encontre de toutes les bases légitimes- sans tenir compte de sa religion- et celui, d'autre part qui commet les actes de violence avec pour but de terroriser un peuple et continuer à occuper ses territoires par force et avoir main mise sur ses ressources.

Deuxièmement:

En effet, l'Islam affirme et convient de la multiplicité religieuse et civilisationnelle entre les peuples du monde; cela est pour lui une cause pour l'affection et la connaissance entre les hommes et non pas une cause de conflits et d'attaques ou un mobile des penchants de la haine entre les hommes. Ceci est clair dans les paroles d'Allah:

"Ô vous les hommes!

Nous vous avons créés d'un mâle et d'une femelle.

Nous vous avons constitutés en peuples et en tribus pour que vous vous connaissiez". Sourate "les Appartements Privés" Verset 13.

Ceci signifie qui la multitude est une chose naturelle résultant de l'affection entre les gens et la complémentarité entre les civilisations, la

Allocution
De M. Le Président Mohammad Hosny Moubarak
Président de la République
Prononcée en son nom par
S.E.Dr. Atef Ebeid
Président du Conseil des Ministres

Mes frères, J'ai le plaisir d'accueillir nos chers hôtes en Egypte à l'occasion de leur participation à la conférence annuelle du Conseil supérieur des Affaires Islamiques, tenue cette année au milieu de circonstances internationales et règionales extrêmement critiques à l'issue des événements dramatiques que les Etats Unis ont vus au mois de septembre dernier lesquels ont laissé des traces négatives bien nettes sur l'image de l'Islam dans le monde simplement parce que leurs auteurs sont des musulmans; négligeant clairement la condamnation du monde islamique de ces événements qui sont à l'encontre des enseignements de la religion islamique tolérante.

Bien que l'Islam, révélé il ya quatorze siècles, soit une "Miséricorde pour les mondes", la propagande médiatique a cependant réussi à mettre en relief les agissements de quelques musulmans dernièrement, tout en reliant, d'une manière ou d'une autre l'Islam et le terrorisme; ignorant ainsi les causes principales de ces événements qui sont le résultat de l'excés du sentiment de désespoir et de déception suite à des considérations politiques, économiques, et sociales auxquelles l'Islam n'a jamais eu affaire de près ou de loin.

Votre Conférence, aujourd'hui, est considérée comme un maillon

gens de l'Islam et mettent l'accent sur des faits formels loin de l'essence de l'Islam. Ils aident ainsi les adversaires de l'Islam inconsciemment à défigurer l'image de l'Islam.

Pour tout ce qui précède, il était nécessaire que le thème principal de la Conférence annuelle du Conseil Supérieur des Affaires Islamiques soit cette année concentrée sur la démonstration de la réalité de l'Islam dans ce monde qui subit plusieurs changements successifs et de rapides développements .

La véritable image de l'Islam a été éclairée par certains Ulémas de l'Umma Islamique soit en Egypte ou à l'étranger.

Le Conseil Supérieur des Affaires Islamiques veille à diffuser les exposés, les idées et les recherches discutés dans la Conférence par la publication typographique ou l'édition électronique.

Nous avons le plaisir de présenter aujourd'hui à nos lecteurs en Egypte et dans le monde arabe et islamique ce livre contenant les recherches et les actes de la quatorzième conférence du Conseil Supérieur des Affaires Islamiques, tenue sous l'auspice de M. le président Mohammad Hosni Moubarak, président de la République sous le titre: "la réalité de l'Islam dans un monde changeable."

Nous espérons que le lecteur y trouvera un intérêt, le chercheur des avantages et le distrait un éveil; ce livre sera également la correction d'une pensée fausse ou la réfutation d'une accusation erronée.

Dés lors, de fausses conceptions ont été propagées, mélangées à des erreurs concernant l'Islam; elles se sont ancrées dans une large mesure dans l'esprit de beaucoup de gens dans notre monde contemporain. Les immenses révolutions et le développement dans le domaine des communications et des informations, l'internet, les satellites et les chaînes de T.V. ont facilité cela dans notre monde contemporain. La religion de miséricorde fut mêlée dans l'esprit de la majorité des hommes à l'occident au terrorisme, à l'extrémisme, au fanatisme, au repli, au refus d'autrui et à l'hostilité pour la civilisation et le progrés.

C'est un fait que nous ne devons pas négliger. Celui qui ne fait pas état de la vérité est un diable muet. Il ne convient pas que les musulmans restent incapables d'agir face à cette cruelle attaque.

Si nous avons déjà indiqué que l'Islam n'a besoin de quiconque pour le défendre, nous disons d'autre part: l'Islam a besoin de celui qui le fait connaître tout en mettant en relief son aspect civilisé et humain.

Le devoir islamique exige de notre part de montrer les préceptes clairs de l'Islam dans le monde entier et dans toutes les langues afin que tous connaissent ce qu'est l'Islam et sa réalité en fonction de ses sources originales, et non à travers les comportements insensés ici et là, de la part de quelques adeptes de l'Islam, alors que les adeptes des autres religions et des autres civilisations agissent de même sans qu'on impute ces actes aux religions auxquelles ils adhèrent. Notre attitude envers l'Islam est, malheureusement, comme celle d'un marchand (prenant en considération la différence entre les deux situations) qui possède une bonne marchandise à côté d'un autre marchand ayant de mauvaises marchandises; ce dernier connaît l'art de la publicité alors que le premier l'ignore, les gens se dirrigent donc vers celui qui possède la mauvaise marchandise délaissant celui qui a la bonne marchandise qui a négligé l'importance de la publicité et de l'étalage. Nous les musulmans, nous manquons à notre devoir de démontrer les préceptes de l'Islam d'un manière attirante et aimable. Beaucoup de ceux qui, soit à l'extérieur ou à l'intérieur, s'engagent à montrer l'Islam détournent les

Au Nom De Dieu Clément Et Miséricordieux

Introduction

Par

Dr./ Mahmoud Hamdi Zaqzouq

Ministre des Waqfs.

Tout au long de son histoire, l'Islam n'a jamais été exposé à une attaque aussi cuisante que celle qu'il affronte aujourd'hui, tout parti culièrement de la part de l'immense machine médiatique controlée et orientée par des partis intéressés et des éléments douteux qui veulent intentionnellement défigurer l'image de l'Islam et des musulmans, semer la haine dans les âmes des citoyens à l'étranger vis à vis de tout ce qui est arabe et islamique.

Ceux-ci prennent les événements du 11 Septembre comme un prétexte pour propager leur venin envers l'Islam et les musulmans. Nous ne défendons pas ici l'Islam; car l'Islam a déclaré dès le début qu'il a été révélé comm une miséricorde pour le monde. Le Saint Coran affirme cela dans son discours à Mohammad- à lui bénédiction et salut- dans la Sourate "Al-Anbiâ" verset 107 "Nous t'avons seulement envoyé comme une miséricorde pour les mondes". L'Islam est révélé pour accomplir le droit et la justice, et jeter les bases de la morale. Notre Prophète a affirmé "J'ai été envoyé pour accomplir les nobles morales."

Bref, l'Islam n'a nullement besoin de quiconque pour le défendre. Toutefois les trompettes du mal sont bruyantes, les ténèbres de l'erreur dominants, la voix de la haine et de la rancune est haute; c'est ce qui a empêché de faire parvenir la lumière de la vérité aux esprits.

La Republique Arabe d'Egypte
Ministre d'El Awkaf
Le Conseil Supérieur des Affaires Islamiques

La Vérité de l'Islam dans un Monde en Changement

Les Recherches et Les Actes De La 14ème Conférence Du Conseil Supérieur Des Affaires Islamiques

Tenue au Caire
De 8-11 Rabi Al-Awal 1423H.
20-23 Mai 2002 A.D.

Le Caire
1424H.-2003A.D.

Index

VII. ORGANIZATIONS

League of Arab States

- Amassador / Ahmad Bin Helle

Muslim World League

- Prof. Dr. Abd- Allah Al-Turky
- Mr. Abd Al-Rahman Abd Al-Aziz Al-Salem
- Mr. Mohammad Abd Al-Sattar

IESCO

- Minister / Abd Al-Aziz Al-Twegry
- Prof. Dr. Mohammad Al-Refie

World Council for Call and Relief

- Mr. Tawfek Al-Shereef

Union of Islamic Universities

- Dr. Gaafar Abd Al-Salam

V. AMERICAN STATES

United States of America

- Dr. Nehad Awad

Brazil

- Prof. Dr. Moustafa Yousef Mourad

Argentina

- Engineer / Mohammad Yousof Hagar

Canada

- Mr. Jan Jac Zi Fela Sela

Colombia

- Dr. Koulian Zabata

VI. AUSTRALIA

Australia

- Prof. Dr. Ibrahim Mohammad Salem

Bulgaria

- Prof. Dr. Yourdan Bief

France

- Prof. Dr. Abd Al-Karem Bakry

Italy

- Mr. Yahia Abd Al-Wahed Blavensh
- Prof. Dr. Abd Allah Radwan

England

- Prof. Dr. Abou Sliem Mohammad
- Sheikh / Abd Al-Maged Al-Khouie
- Prof. Dr. David Tomas
- Mr. Ibrahim Elwan Matshar
- Mr.Ghaneem Gawad

Cosova

- Prof. Dr. Ragab Bouya

IV. EUROPEAN STATES

Spain

- Prof. Dr. Gou Stavo de Arbiegoue

Austria

- Prof. Dr. Suzana Haina
- Prof. Dr. Biter Balouseky

Belgium

- PRof. Dr. Yourdan Bien

Turkey

- Minister / Mohammad Noury Yalmaz
- Mr. Mohammad Kanaan Ouglou
- Mr. Beshoub Emanuel

Germany

- Prof. Dr. Murad Houfmann
- Prof. Dr. Abd Al-Hadie Houfmann
- Prof. Dr. Stefan Field

Switzerland

- Prof. Dr. Fawziya Al-Ashmawie

Japan

- Mr. Khaled Hegochie

Singapore

- Sheikh / Maarouf Saleh
- Mr. Mohammad Mourad Idreis

Bangladesh

- Minister / Mosharaf Hasan Shah Zhan

Thailand

- Mr. Samman Mali Bahan

Brunei

- Mr. Ahmad Hag Goumaa Nasr

Indonesia

- Minister / Al-Said Okiel Al-Mnawar
- Prof. Dr. Ahmad Kadry Azizy
- Mr. Abou Mousalaam Hawlany

III. ASIAN STATES

Uzbekistan

- Sheikh / Abd Al-Rashed Kari Bahramouf
- Mr. Abd Al-Hamed Mohamad Norstof

India

- Mr. Said Dieaa Al-Hasan Al-Nadwy

Kazakhstan

- Sheikh / Abd Al-Sattar Darwesh Ali
- Prof. Dr. Shams Al- Dien Karemouf

Iran

- Sheikh / Ayat Allah Ahmad Ganaty
- Mr. Abou Al-Hasan Nawab

Malaysia

- Prof. Dr. Ismaiel Ibrahim
- Dato / Desouky Ahmad
- Mr. Maran Mohammad Abd Al-Aziz

Senegal

- Am. Mohammad Shams Al-Dien Andoy

Djibouti

- Mr. Ibrahim Osman Saleh
- Mr. Mahmoud Salah Al-Dien Mouselhy

Burkina Faso

- Sheikh / Abou Bakr Al-Amien

South Africa

- Sheikh / Abd Al-Hameed Khabeer
- Sheikh / Ibrahim Mohammad Kasem

Chad

- Sheikh / Mohammad Al-Mahdi Younes

II. AFRICAN STATES

Ethiopia

- Sheikh / Basheer Dawoud Abd Al-Kader

Zimbabwe

- Mr. Shabeer Ahmad Menk

Uganda

- Sheikh / Shaban Ramadan Moubagie

Eritrea

- Sheikh / Al- Amin Osmaan Al- Amin

Congo Democratic

- Sheikh / Modellou Wama Lema

Mozambique

- Minister / Yousof Ibrahim Abboud
- Mr. Feraria Abd Allah Mousa
- Mr. Mohammad Bie

Niger

- Sheikh / Ibrahim Shouieb Ali

Nigeria

- Sheikh / Ibrahim Saleh Al-Housiny

Yemen

- Minister / Kaseem Ahmad Al-Aagam
- Mr. Ali Mohammad Al-Farran

Morocco

- Prof. Dr. Ahmad Al-Khamleesh
- Mr. Abd Al-Galel Al-Ghaazawie

Mauritania

- Mr. Mohammad Al-Moukhtar Weld Embala

Iraq

- Minister / Abd Al-Mouneem Ahmad Saleeh
- Mr. Hegazy Saleh Faisaal
- Prof. Dr. Abd Al-Razaak Al-Saadie
- Prof .Dr. Abd Al-Lateef Hemeem

Egypt

- Prof. Dr. Soufy Abou Taleb
- Prof. Dr. Ibrahim Badran
- Sheikh / Mahmoud Ashoor
- Prof. Dr. Ahmad Al-Taieb
- Mr. Ahmad Farrag
- Ambassador / Mai Abou Al-Dahab
- Ambassador / Nabil Badr
- Prof. Dr. Nemaat Ahmad Foud
- Mr. Abd Al-Aatie Al-Shafie

Sudan

- Minister. Dr. Esam Ahmad Al-Basheer
- Sheik / Al-Sadek Al-Mahdy
- Mr. Abbas Al-Fakky Ali
- Mr. Ibrahim Ali Ibrahim

Palestine

- Sheikh. Dr. Ekrema Said Sabry
- Prof.Dr. Abd Al- Rahman Abad
- Prof. Dr. Ahmed Sedky Al-Dogany
- Sheikh / Gamal Saleh Kheedr
- Sheikh / Read Al-Esawie

Qatar

- Mr. Abd Al-Rahman Al-Mahmoud
- Mr. Mohammad Abd Al-Latef
- Mr. Fahd Ali Al-Kabie
- Mr. Khaled Fahim Essa Al-Ghanem
- Mr. Ahmed Abd Allah Larm

Oman

- Minister/ Abd- Allah bin Muhammad Al- Salemy
- Prof. Dr. Ibrahim Bin Ahmed Al-Kandy
- Mr. Aflah Bin Ahmed Al-Khalili
- Mr. Soliman Bin Mohammad Al-Bahry
- Mr. Khaled Bin Helal
- Mr. Ahmed Bin Hamad Bin Hamoud

Syria

- Minister / Mohammad Abd Al-Raoof Zeeada
- Prof. Dr. Ziad Al-Dien Al-Aiyoubi
- Mr. Foud Yahia Al-Said

Lebanon

- Dr. Sheikh / Mohammad Rasheed Al Kabbany
- Sheikh / Abd Al-Ameer Kablan
- Dr.Sheikh / Mohammad Ali Al-Gouzo
- Prof. Dr. Radwan Naeef Al-Said
- Sheikh / Read Abd Al-latef Ghethany
- Sheikh / Asad Allah Al-Harshy
- Sheikh / Malek Sloiman
- Sheikh / Basheer Mortada
- Mr. Ali Kablan
- Mr. Nazeeh Gamoul
- Mr. Abd Allah Mousa
- Mr. Houseen Amhaz
- Mr. Waleed Al-Alailie
- Mr. Naser Ibrahim Al-Saleh
- Mr. Mohie Al-Dien Azzat Kashly
- Mr. Mohammad Hady Al-Kharsan

Algeria

- Minister / Bou Abd Allah Golam Allah
- Mr. Hasan Ali Zan
- Mr. Hamza Yadoghy Alwannas

Kingdom of Saudi Arabia

- Prof.Dr. Adnan Mohammad Al Wazzan
- Mr. Abd Al-Aziz Al-Soubaihen
- Mr. Souod Madaath Al-Soubeie
- Mr. Mansour Said Abd Allah

Jordan

- Minister / Ahmed Mohammad Holaiel
- Prof. Dr. Abd Al-Salam Al-Abbady
- Prof. Dr. Sahban Mahmoud Hamdan
- Mr. Belal Soliman Mahmoud

CONFERENCE DELEGATES

I. ARAB STATES

Unites Arab Emirates:

- Minister / Mohammad bin Nakhera Al- Zahery
- Prof. Dr. Gasem Ali Salem Al-Shamesy
- Mr. Al-Said Ali Al-Hashim
- Prof. Dr. Ali Mohammad Al-Eigla
- Prof. Dr. Mohammad Goumaa Salem
- Mr. Hamd Abd Allah Salem
- Sheikh / Ahmed Moubarak Al-Kendy
- Mr. Abou Bakr Said Al-Hamery
- Mr. Mohmoud Abd Al-Azem
- Mr. Mohammad Ali Salim

Kuwait:

- Minister / Ahmad Yakoub Yousof Baker Al-Abd Allah
- Prof.Dr. Mohammad Abd Al-Razek Al-Tabtabaie
- Prof. Dr. Saad Barky Al-Anzy
- Prof. Dr. Khaled Shougaa Al-Otebei
- Prof. Dr. Khaled Abd Allah Al-Shoueeb
- Prof. Dr. Badr Abd Al-Razek Al-Mass
- Prof.Dr. Mohammad Mahdy Mousafar
- Mr. Abd Al-Rahman Mohammad Hady
- Mr. Yousef Gasem Al-Hagie
- Mr. Moubarak Mohammad Al-Outebi
- Mr. Barak Abd Al- Mohseen
- Mr. Abd Allah Mahdi Barak
- Mr. Mohammad Gawad Kazem
- Mr. Kazem Abd Al-Housen Mohammad

Bahrain:

- Minister / Abd Allah Bin Khaled Al Khalefa
- Sheikh / Adnan Abd Allah Al-Wazan
- Mr. Gafar Al-Serafy

CONFERENCE DELEGATES

intellectuals worldwide to coodinate, coordiante and endeavour to reactivate the principles and bases endorsed by International legitimacy and to be applied by all countries.

12. The Conference urges India and Pakistan to settle their dispute by peaceful means through dialogue in order to maintain their neighborly relations that will guarantee security and peace in the region and serve the interests of their peoples.

13. The Conference recommends the creation of an Islamic satellite channel to explain the truths of Islâm in foreign languages to Western peoples and Islamic communities in foreign countries.

14. The Conference reiterates its statement declared in the 13th General about the Palestinian issue in terms of support of the Palestinain Intifâda in face of aggression. The participants assert that Intifâdah is but the legitimate right to self- defense and self-determination, and call upon all Muslim peoples to extend every possible support to the Intifâda until the cessation of aggression and achievement of the legitimate rights of the Palestinian people to establish their independent state with Al- Quds Al Sharîf as its capital.

The participants urge Muslim governments and Islamic and International organizations to resist all attempts of genocide and displacement perpetrated against the militant Palestinian people, as well as flagrant violations committed against Islamic and Christian sanctities in the occupied Palestinian territories in contravention of UN Charter and international conventions and instruments protecting the rights of peoples under occupation. They call upon all active agencies in the world as well as the United Nations to seek, without delay, appropriate ways and means to protect the unarmed Palestinian people from such threats.

national liberation movements.

6. The Conference rejects all attempts aimed at equating terrorism with peoples' legitimate right to self- determination and struggle liberate their lands.

7. The Conference hopes that all causes leading to disagreement among certain Arab states will be eliminated in a bid to enhancing the Muslim Ummah's spiritual and material capabilities in face of challenges confronting them.

8. The Conference reaffirms Islâm's established stance that dialogue is the basis for good relations between countries, peoples, civilizations and religions in order to establish the pillars of security, stability and peace. Hence, the Confernce rejects all attempts at the adopting the concept of conflict of civilizations as a launching pad for campaigns against Islâm and Muslims.

9. The Conference reaffirms the necessity to organize workshops with non- Muslim scholars from different countries of the world, since such workshops held during this Conference proved their effectiveness in enabling each party to get to know the opinion of the other and rectify certain concepts and clarify other ambiguous ideas. The Conference recommends the formation of a working group composed of Ulamas who are competent in foreign languages to continue discussions in such workshops internally and externally.

10. In order to ensure that dialouge among religions and civilizations is effective and fruitful, the Conference recommends that information on Islâm about in school books in Western countries be compatible with actual facts.

11. The Conference urges countries, peoples, scientists and

d) Islâm explicitly demonstrates affirmative freedom of faith and indisputably underscores non- compulsion as far as religion is concerned. This renders freedom a fundamental element validating the Muslim belief.

e) Islâm's acknowledgement, ever since its rise, of the basic human rights, be they religious, political, social or economic.

The Conference, thus appeals to Islamic nations, to remain committed, in their observation of human rights, to Islamic stipulations.

f) Assertion that the Da'waa (call) for Islâm should be propagated according to Qur'ân wording with due tolerance, benevolent preaching and peaceful arguments.

3. Islâm's adoption of the principle of equality between Muslims and non- Muslims in rights and duties in accordance with the rule of "they have what we have, and are obligated the same as we are", besides the enforcement of non- Muslims' respective laws governing their religions and denominations as regards personal status affairs.

4. The Conference appeals to non- Muslim countries to allow Muslim minorities to exercise rights and duties articulated in International charters and to give perform their Islamic duties concerning matters of personal status in a manner that is not contrast with the State's laws.

5. The Conference stresses that international legality insists on the rights of all peoples in occupied territories to have recourse to all means and ways to liberate their lands, decide their fate and regain their independence. Further, this legality exhorts the international community to ensure provisioning of material and moral support to

The Second Topic: The Relationship with the Other.

The Third Topic: A Futuristic Perspective.

The Conference set up a Drafting Committee to formulate its recommendations. The Committee was chaired by Dr. Sôfi Abou Tâleb and two members from the participating delegations. It was entrusted to draw up draft recommendations incorporated in the researches presented and conclusions deduced from debates and discussions as well as workshops in which a number of Ulamas and Muslim and non- Muslim thinkers participated.

The Committee offered the following draft recommendations:

1. The Conference affirms the specifity of the Islamic values and traditions and their basic reservations versus trends of globalization.

2. The Conference recommends that scientific, intellectual, cultural and media institutions inside and outside the Islamic countries promptly undertake to highlight the sound information about Islâm and its teachings, and to announce its reality in the sense that transmits its Da'waa, reinforces its evidence and refutes suspicions, with particular emphasis on the following facts:

   a) Islâm's insistence on the necessity of integrating the spiritual and materialistic aspects of human life.

   b) Islâm's respect of man in his capacity as being entrusted by Allâh with the process of populating the universe regardless of his race, color or creed. This trust is applicable to man alive or dead.

   c) Islâm's unique insistence on accepting plurality, diversity and disparity of denominations, laws languages, color, and race as among, inter alia, divine laws of Allâh.

Seventh: International Islamic Associations and Organization

1. The League of Arab States.

2. Islamic Educational, Scientific and Cultural Association.

3. World Islamic Council for Da'wa and Relief

4. League of Islamic Universities.

5. Mecca- Based Islamic World League.

The Conference was inaugurated by the speech of Egypt's President H.E. Muhammad Husnî Mubârak, delivered on his behalf by Prime Minister Dr. Âtif 'Ubayd.

Addressing the inaugural session were His Eminence the Grand Sheikh of Al Azhar Professor Dr. Muhammad Sayyid Tantâwî, His Eminence Pope of Alexandria and Patriarch of Saint Mark Shenouda III, Minister of Awqâf Professor Dr. Mahmûd Hamdî Zaqzûq Chairman of the Conference and Professor Dr. Abdul Sabûr Marzouq, General Reporter of the Conference.

Speaking on behalf of participating delegates was Dr. Abdullâh Ibn Abdel Mohsen Al- Turki, Secretary General of Mecca- based Islamic World League.

The Conference decided to consider the speech of H.E. Preseident Muhammad Husnî Mubârak as the official document in recognition of the guidelines therein contained.

The proceedings of the Conference lasted four days. There were morning and evening sessions in which 62 researches in Arabic, English and French were presented and discussed by the participants. Discussions focused on four topics:

The First Topic: The Reality of Islâm.

Third: Asian Countries

1. Indonesia
2. Uzbekistan
3. Iran
4. Brunei (Dar-us-Salam)
5. Bangladesh
6. Thailand
7. Singapore
8. Kazakhstan
9. Malaysia
10. India
11. Japan

Fourth: European Countries

1. Spain
2. Germany
3. Austria
4. United Kingdom
5. Italy
6. Bulgaria
7. Bosnia
8. Turkey
9. Switzerland
10. France
11. Kosovo

Fifth: American Countries

1. Argentina
2. Brazil
3. Canada
4. Colombia
5. United States of America

Sixth: Australia

The Conference proper was chaired by Dr. Mahmûd Hamdî Zaqzuq Minister of Awqâf and current Chairman of the Supreme Council for Islamic affairs.

The representatives of the following States and Islamic organizations and bodies also attended:

First: Arab Countries

1. Hashimite Kingdom of Jordan
2. United Arab Emirates
3. Bahrain
4. Algeria
5. Djibouti
6. Kingdom of Saudia Arabia
7. Sudan
8. Syria
9. Iraq
10. Sultanate of Oman
11. Palestine
12. Qatar
13. Kuwait
14. Lebanon
15. Egypt
16. Kingdom of 'Al Maghrib
17. Mauritania
18. Yemen

Second: African Countries

1 Ethiopia
2. Eritrea
3. Uganda
4. Burkina Faso
5. Chad
6. South Africa
7. Zimbabwe
8. Senegal
9. Democratic Republic of Congo
10. Mozambique
11. Niger
12. Nigeria

RECOMMENDATIONS

Prof. Dr. Abdul Sabûr Marzouq

General Reporter of the Conference

Proceeding from the role of the Arab Rebublic of Egypt and Al-Azhar al-Sharif, combined with historic responsibilities towards Islam and Muslims, the Egyptian Ministry of Awqâf called for convening in Cairo of the 14th Conference of the Supreme Council for Islamic Affairs entitled:

"The Truth about Islam in a Changing World",
Cairo
from 8-11 Rabie Al Awwal, 1423H
20-23rd May 2002

Under the auspices of President Muhammad Husnî Mubârak of the Arab Republic of Egypt

And the Honorary Presidency of His Eminence the Grand Sheikh of Al Azhar Dr. Muhammad Sayyid Tantawi.

Professor Dr. Mahmûd Hamdy Zakzouk, Minister of Awqâf and Head of the Supreme Council for Islamic Affairs chaired the Conference.

Representatives of the following Islamic States and Organizations Participating:

RECOMMENDATIONS

various areas for the general good of Islâm and Muslims.

Islam dictates clinging to Allâh's ordinance and steering clear of discord and disunity. It warns against falling prey to disagreement and rivalry which unfavorably end up in outspoken failure. This meaning is emphatically underscored in the Qur'ân, when Allâh the Almighty stressed: "And fall into no disputes, lest ye lose heart, and your power depart" [Anfâl: 46]

Hopes are pinned on 'Ulamâ' and men of letters to undertake their reponsibility in enlightening the sons of the nation with regard to the reality of Islâm and meanwhile to double unfailing efforts to put right the blurred image of Islâm and the unfair counter propaganda of relevance outside the Islamic World.

Both themes are indissociably correlated in the sense of providing the firm foundation of the Islamic nation to assume its demanding task of upholding its rights on the one hand and contributing vehemently to the entrenchment of peace and stability everywhere in the world to the welfare of humanity by and large, on the other hand.

May Allâh guide our steps along the path to righteousness.

peoples' process of giving and the harvest of historic events which all peoples substantially share in making.

Our understaning of this inter- civilization relationship springs from the fundamental principles of the Islamic religion which regards faith in preceding divine messages one of preconditions validating Islam.

As Allâh, the Almighty, confirmed this meaning in the Ever-Glorious Qur'ân:

"The Messenger believeth in what hath been revealed to him form his Lord, as do the men of faith. Each one (of them) beieveth in Allâh, His Angels, His books, and His Messengers. We make no distinction (they say) between one and another." [Baqarah 285]

The world is in need of the civilization of Muslims who constitute one fifth of its population. Muslims, in turn, are in need of world civilizations. Isolation is no longer a recommended option, actually it has become impossible to materialize in the world of today.

Deliberations in the course of the Plenary and ad-hoc workshops in which a number of non- Muslim dignitaries representing seven European countries have participated, concluded that the issue is of interest to Muslims as much as it does with non- Muslims worldwide. Non-Muslims are concerned with ransacking the truth of Islam as well as Muslims' relations with other peoples. They are also interested in ascertaining the idea of Jihad and whether or not it has to do with the phenomenon of terrorism menacing today's world. Moreover, they are all the more devoted to getting to know how Muslims envisage future relations between the Islamic civilization and other civilizations in general and the Western in particular.

In fact, misconceptions about Islâm and its civilization at the world level is largely attributed to ignorance of Islâm as a creed, and its teachings.

This renders Muslims accountable in terms of identifying Islam and its cause in all languages and in all nations, an action that will not be as effective unless Muslims unified efforts and closed ranks to this end, so as to ensure full- fledged coordination, integration and cooperation in

humans and homeland whereas terrorism is a flagrant attack against all sanctities, lives and countries.

Second:

Islâm, as it adopts and asserts religious and civilization- bound plurality among word people, sets as a principle the virtual call for reconnaissance and concord of mankind. According to Islam, plurality was never an obligatory justification for dispute or clash or an antipathy-instigating motive. This was evidently spelled out in Allah's the Almighty saying:

"Oh Mankind! We created you from the union
of a twain, male and female, and divided you
into nations and communities and dispersed you
over the earth to get to know each other." [Hujurat: 13]

This is an indication that plurality accounts for the normal interaction of mankind, for integration among civilizations and for cooperation among peoples with a view to enriching human experience over successive ages.

Third:

Familiarity of peoples, civilizations and religions and their closer acquaintance definitely provides clearer visions about one another, thus doing away with pre-judgments and false impressions each party entertains in relation other.

Each of us has his own respective religious and historic heritage built around a host of inherited values, norms and traditions that he is dedicated to keep safe, being the springboard of this national identity, which is not by necessity in conflict with that of others, though more or less, disparate. This certainly prompts the formula of dialogue- oriented plurality that does not recommend clash.

Fourth:

As it reaffirms calls for dialogue and understanding among peoples, Islam similarly refutes the inter- civilization conflict allegation, because civilizations are not clash, but rather interact and intergrate, taking from each other and complemending one another, being the offspring of

example given by Islamic civilization in terms of the peaceful coexistance that prevailed among religions under this civilization, a fact experienced in Europe between Muslims, Christians and Jews in Andalusia.

However, this brilliant civilization is now deemed to be totally ignored and forgotten in the wake of the aforementioned events, let alone accusing Islam and Muslims of terrorism, as if the world was suddenly faced with a religion devoid of history and only recognized through sporadic events and irresponsible acts committed by some Muslims, and are also perpetrated by groups from other religions and civilizations.

Therefore, it was incumbent to convene this Conference at this juncture in order to clarify Islamic facts and define concepts that have governed and continue to govern the relationship of Islam and Muslims with followers of other religions and civilizations.

It is also necessary to redress the confusion and ambiguity that have lately spread on the concept of Jihâd in Islâm and its relation to the phenomenon of international terrorism that does not distinguish a religion from another nor a civilization from another.

In the final analysis, the importance of this clarification and declaration stems from the need to define the future relationship between Islam and other civilizations in general and Western civilization, in particular.

The Conference has examined and studied these issues in its four axes. Needless to say that this Conference is a link in the chain of efforts exerted and that should be continued to reveal the true tolerant image of Islâm.

The message of President Muhammed Husnî Mubârak, President of Egypt, to the Conference indicated several basic facts that should be recognized by all. These are:

First:

All religions- including Islâm- are in essence based on the divine call for love, peace and good. Hence, it is inconceivable that these religions are the source of evil for any peoples in the world. Furthermore, the difference should continue to be clear between Islamic Jihâd and terrorism. Jihad is a legitimate right to resist aggression against religion,

CAIRO DECLARATION

Prof. Dr. Mahmûd Hamdî Zaqzûq

Minister of 'Awqâf (Endowments)

Our contemporary world is experiencing successive changes and developments, particularly post September 11th events that occurred last year, events that have left negative and clear effects on the image of Islam in the world. All this was accompanied by media and non- media attempts to deliberately confuse facts and accuse Arabs and Muslims of being hostile to civilization and encouraging terrorism.

Although Islâm- that has existed for fourteen centuries was revealed by Allâh to His Prophet Muhammed, Allâh's prayers and peace be upon him as "a Mercy for all creatures" and confirmed by the Ever- Glorious Qur'ân by "We sent thee not, but as Mercy for all creatures". Nonetheless, several media organs have succeeded in focusing their accusations on certain Muslims for perpetrating the said events and, one way or another, linked Islâm with terrorism.

Hence, it has become incumbent to confront this blatant injustice aimed against Islâm and Muslims by adopting an objective stand to determine and indicate the reality of Islam in this changing world through its fundamental and infallible texts as well as its sound teachings recognized by the world at large over fourteen centuries.

In fact, all this prompted the civilizational edifice established by Muslims in which they contributed over long centuries in enriching human civilization. Moreover, their contribution, in particular, to Western civilization in the Middle Ages through Andalusia, is evident in history and has enabled Europe to setp out of the Middle ages to the threshold of the modern age. In this context, it is necessary to remind of the splendid

CAIRO DECLARATION

to formulate the suggestions that the seminar presents to the conference which agreed on the following proposals:

1. The Glorious Qur'ân confirms the value of diversity included in the verse 48 of Surat Al-Mâ'idah where Allâh, Glory to Him, says: If Allah had willed, He would have made you one united nation ...".

2. The Islamic countries should hold conferences about Islam in the European countries and the west in general.

3. Dialogue should be held between believers of different creeds and cultures that is based on equality, respect of the other and objectivity in presenting facts.

4. Selecting definite topics for discussions and dialogue (such as diversity, democracy, human rights, free thinking, and women's status), evading generalization, acceptance of the other and self-criticism.

which he asserted that the world has got to figure out some solutions to the current issue of prejudice, murder, destruction and monopoly of wealth by only 20% of the world population whereas the rest of the world suffers from poverty, epidemics and the scarcity of resources . He suggested that the edifice of the international society must be established on practical justice which administered by plunging into the core of the problems and solving them. Therefore, this seminar aims at approaching a concrete reality of human rights instead of the double-standard of treatment. Human rights are not exclusively confined to U.S. and Israel, but they are inclusive for all human beings, by virtue of the UN charter and the provisions of the International Law.

Finally Dr. Fawziyya Al-Ashmawi, from Switzerland, said: "the attacks of September 11^{th} elucidated that the Swiss people are completely ignorant of Islam. It suffices to tell you that all editions of the translations of the meanings of the Glorious Qur'ân into German and French were sold out after September 11th, which explicitly indicates that the Swiss people heavily flocked to learn about Islâm. I suggest that Muslims must play a positive role by buying an area in the foreign newspapers like the French 'Le Mode' and the British 'Newsweek' etc. Such an area should be dedicated to explain the message of Islam, its tolerance and principles."

The seminar was concluded by a proposal to form a committee to formulate the suggestions that reflect the efforts exerted and the opinion exchanged during the conference period of this seminar and the procedures that can be taken in the future. The committee was formed of the following members:

Dr. Murad Hofmann

Dr. Jan Velaseal

Dr. Ali As-Samman

Dr. Nabil Badr

Dr. Reda Bedeir

bodies before, even during the two world wars. However, now we witness the spilled blood and the dead bodies without a war launched. The question is: where does that come from? Is it due to the inadequacy of religion or the failure of culture? This is done by some western groups who claim that they are the pillar of modern civilization. And Israel declares that it is the representative of the western society and a part of it while we live under the danger of the nuclear threat and the catastrophes that will take place soon besides the conflict over water in the next century following those over oil."

"I wish we could establish", added Dr. Badran, "rules for stable coexistence. We want to examine the common problems to come out with solutions set by the scholars. There is actually an immense gap between the rich and the poor. 80% of the peoples of the earth own 20% only of its natural resources, while only 18 countries whose population does not exceed 20% of the people of the earth own the rest of the resources. Believe me, you will never be able to save the world from devastation if each party sticks to his position and refuses to offer the poor, conflicts will erupt continually, particularly with the widening gulf between the rich and the poor, and the rich's harassment of the poor to get more wealth and seek their own interests."

Dr. Badran went on saying: "GATT agreements are close examples. International trade agreements also expect that the third world will get a tiny percentage of profit (80 billion dollars) if the agreements were executed for its own interest. Meanwhile, the share of the U.S. and the EU is incredible. It ranges from 200 to 300 billion dollars. We are aware of the tough economic besiege imposed upon our countries presently, so now can we set solutions for this problem which lead some of us to kill others? Moreover, the U. S. A. modifies the international law and the whole universal system so that legitimate rights would be branded 'terrorism' despite the long-lived settlement of Geneva treaties and the resolutions of the Security Council."

The chairman of the session Dr. Ja'far made a final commentary in

makes the other feel an equal footing of dialogue,

5. Freedom of creed: no one should force the others into embracing his creed. People should be free to liberally adopt whatever doctrine they like,

6. Justice: To administer justice, every people must be given the right to live at home without being exposed to any aggression or any attempt to be dominated by others,

7. Freedom of expression: restrictions in this field render matters more ambiguous with the result that peoples become unaware of what others think which, in turn, helps conspiracies and sedition's break, and

8. Equality: No country should be favored over other countries. This necessitates the admission of the right of every country to use its natur resources. Resources should be divided equally among the peoples of the earth so that each one of them gets enough subsistence to lead a good life adequate to the man who has been dignified by Allâh.

These are the concepts which I deem basic to the rules any conversant parties should abide by if they want to hold a dialogue. We will have to accept them and apply them when we commence to converse with a view to approaching general formulas that should by all means be adhered to by every party even by force when necessary. I was hoping that this gathering would have included those who are in charge of conducting dialogue between religions. I think we have Dr. Ali As-Saman with us and he is specialized in this field. The afore-said principles must be the basic pillars of holding the dialogue, which, I think, will not be confined to Christianity and Islam, but will also include Judaism and other creeds."

After that, Dr. Ibrahim Badrân commented as follows: "How can we formulate a new international system void of the menace we are facing now? I presume that all of you have seen the dead bodies of the Palestinians and of the people of Bosnia and Herzegovina. The international system has never actually witnessed such corpses and dead

to many discussions yesterday and today. Each speaker presented a report about the relation between Muslims and Christians in his country and how they can coexist. Some of them asked for definite measures to be taken like issuing a certain law or general principles on which the dialogue must be based. Today Dr. Thomas said that he wanted to define certain points of common interest between Muslims and Christians to be adopted. However, I think that they are all based on reports and speeches and do not contain any definite points. I will show you now a concept of those points which we should all acknowledge and work for putting them into force in the international system so that the dialogue would be constructive.

1. Muslims, Christians and Jews must acknowledge that all humanity has one origin and that no race should disdain the others, no people should contempt the others on account of color, race, creed, or cultural power. This principle is not against the interest of those who do not believe in religion as they can adopt it and admit that all people are equal,

2. That Allâh has sanctified man is a principle that must be acknowledged because man should not be humiliated regardless of his nationality. In addition, mass media must stop disdaining any specific culture and politicians and thinkers must neither openly declare nor allude to inferiority of the others' cultures and propagate for the superiority of their culture,

3. The idiosyncrasy of every people should be respected. Communication should be based on exchanging information and experience, rather than on the predomination of one culture over the other or the imposition of one people's traditions on the rest,

4. Acknowledging the Other: Islam acknowledges other creeds as religions, regardless of the fact they are not heavenly in essence and that they are radically different from it concerning their beliefs and provisions. Similarly, the others should also acknowledge Islam a religion even though they do not believe in it, because recognition

that there are different and diversified cultures and there is no problem in being exposed to cultures other than yours as this is the best way to understanding among the elements of the same society. This is what I try to discuss with the Jewish Community and the other communities that are irreligious. We have made success because we made the society respect the other cultures and creeds, and be open to what is called global education or globalization of education so as to ally and cooperate together."

Mr. Yahia concluded saying: "I'd like also to say that we are facing a problem similar to that discussed by the Bosnian Mufti, namely prejudice against Muslims. Concordance is a real problem scholars face, i.e. how you could be a Muslim from the western perspective? How you could achieve concord between your Islamic creed and your attempt to keep your religious teachings on the one hand and the nature of practical life in the secular Italian society on the other. The existence of the Anglican Church in Italy, a force that is not ignorable, leaves an inescapable impress on society. So, it is normal to link between Italy and Christianity. Thus, I'm regarded as a strange person. People find it very strange for me to be an Italian and a Muslim in the mean time. They see that as extremely funny and unacceptable and I cannot be a distinguished Italian citizen because I'm a Muslim, nor could I be a distinguished Muslim because I'm an Italian. In the end, I repeat what the Mufti of Bosnia said: by the beginning of last year when the UNISCO resolution was issued in Paris about Muslim minorities, the European Islamic conference – a non-governmental organization acknowledged by the EU- was established. We are striving hard to upgrade this situation in cooperation with deputy chairman so as to clarify our message that the Islamic identity is considered part of the European identity, a topic which is still prone to discussion. We have to concentrate on the issue of the Muslim minorities all over the world. Efforts are also exerted to establish an Islamic organization in Italy which defends Muslims and claims their rights."

After that Dr. Muhammad Shamah, from Egypt, said: "I've listened

Italy and show how different they are from those in the UK. The Italian Constitution stipulates that Christianity is the formal religion of the state. The Italian government signed many agreements with several religious communities like the Anglican Church, the Jewish Community, and some Protestants and is presently holding discussions with the Buddhist Community together with the Orthodox. But it has not signed any agreement with the Muslim Community because of the insufficiency of Islamic institutions."

Mr. Yahia added that: "The only institution that is acknowledged by the state is The Jamei (Mosque) in Rome which was founded in 1974. it is regarded as a symbol of Islam and is quite respected by all ambassadors such as those of Belgium, London and Spain. Muslim ambassadors started to assume office in 1974. Before that year, no recognition of any Islamic Community was there. Immigration to Italy started also after 1974. So, it is high time we begin discussing how to support the Islamic Community and the establishment of a certain Italian body, for the interest of the Muslims, which would be acknowledged by government bodies. We're trying to find this institution, and the Minister of Interior agreed to establish it as we (The Jamei) are the only body that requested recognition of it."

"As regards the reasons behind our seminar", added Mr. Yahia, "which concentrate on the relation with the other and diversity, I would like to say that we have made some successes in Italy during the last five years in this respect, particularly in the field of education. In 1997, I was appointed as a Muslim member in a committee established by the Italian Ministry of Education. Such education which includes different cultures aims at introducing the religion of Islam to the children at school. It is a multi-dimensional and a multi-cultural change that exposes the child at school to different cultures that he experiences within the Italian society itself. The problem lies in the change from one-dimensional education to a multi-cultural one. We are not against coeducation because we want neither the Muslim nor the Jew, for instance, to be introvert. But we must face the reality and acknowledge

Dr. Jan Vilaseal from Canada said: "I'm from a lucky country which had suffered neither colonization nor national claims as it is a multi-national country. We should acknowledge that we live nowadays in a changeable world and there must be a dialogue based on reason and we must look for a joint language for such a dialogue. There are a number of variables that should be taken into consideration in our changeable world, on top of which is globalization, and the speedy development both in the East and the West. In our incessant search for establishing dialogue between the East and the West, we should set a meticulous definition for the meaning of dialogue. As for me, dialogue means democracy as a dialogue is a strong language or means and it is sometimes difficult but in the end it saves us from the savage damage and results of wars."

"The second point", added Dr. Velaseal, "to be taken into consideration in the dialogue is the acknowledgment and respect of the other and the dialogue should be based on the principle of equality with the other. This would encourage people to pause and think so as to accept self-criticism in order to know the points of differences, attain peaceful coexistence, and learn how to accept the other despite the differences because once we get to know the other clearly, differences could turn into variance and diversity which, in turn, leads to coalition. To me, difference is a great blessing and I personally do not like the term 'tolerance' because it has a negative implication. The third and last point is that we should avoid using words like 'victory', 'violence', 'colonization'..and the like in language of the dialogue because such terms usually invokes painful memories and constitutes an obstacle in the way of dialogue. I appreciate and commend the dialogue of civilization for which the ISESCO is preparing."

After that Mr. Yahia Abdul-Wahid, from Italy, took the floor and said: "I will not discuss Berlsconi's declaration that the western civilization is better than the eastern because I, as an Italian Muslim, can not say that I'm better than the other because I'm Italian or because I'm a Muslim. But, I'll shed light on the structure of the Islamic Community in

issue that has many obstacles in the way because the first generation is still committed to his culture, values and customs and it is very difficult for them to give them up or abandon them. But the second and third generations have started the crystallization of a new form that is called the more tolerant and more flexible Islâm with others because they hold the citizenship of this country, are proud of belonging to it and believe in many of its values. This struggle still exists and is not over yet between the first generation and the generation that came after that and it is a problem out of which we suffer at home because our children believe in values other than ours. Thus, the process of reaching a balance between the first generation coming from the East and the generation of today is very tough. Last but not least, I would like to give you the glad tidings that the British Islamic Council has been established to represent the Muslims and this is part of the mission that has been accomplished and it is part of a coalition of five organizations that represent the Muslims in Britain."

Dr. Mustafa Serich the Mufti of Bosnia said that Europe is not a Christian continent but it has Muslims and Jews as well. He provided a brief presentation of the history of the Muslims' sufferings in Bosnia where the Muslims there were left with two options: either to immigrate or to stay and raise the banner of Jihad. In fact about 4 million people from Bosnia immigrated and left their country for Turkey and those were the rich people whereas the poor stayed behind and they struggled for their land and survival. They were exposed to fierce massacres and merciless genocide. In the end both immigration and Jihad proved to be failures simple because the people of Bosnia were very poor as regards the number of troops and the armament too. The only resort was in Darul-Aqh, Darul-A'hd and Darul-Sulh. Then Dr. Mustafa moved to talk about the issue of the dialogue and he inquired: which type of dialogue do we mean in this context? Is it political or religious? The difficulty in the coexistence of the Muslims, the Jews and the Christians is due to the lack of trust, the dysfunction of international law, the double standard dealings, and dishonesty.

involved in any act that requires putting him into jail."

Furthermore, Mr. Jawâd added: "There is an escalation of the waves of the extremist right parties in the aftermath of September 11th events in which the seeds of grudge and racism can be seen. There were no incidents of great transgression but only minor ones committed against some women wearing Hijâb as well as looking at them men wearing beards with rage. With the passage of time, the people in Britain changed their view especially after the publication of some news about the Muslim Community in Britain in one of the most popular and saleable newspapers in Britain). There is a high rate of unemployment in the Muslim Community despite their efficiency and experience. For instance, one of my daughters is a graduate of one the most reputable universities in London and she has an M.A. Degree. She submitted more than 72 application for work and most of them were accepted by email but when she appears for the interview, she is rejected because she wears Hijab. My other daughter has a degree in chemistry and she is always rejected for the same reason. I don't claim that this is the direct reason but there are indications that lead to that. Simply because the British law penalizes for racial segregation, whereas there is no penalty for discrimination based on religion and this is one of the requests submitted by the Muslim Community to the Cabinet in order to enact a law that combats religious discrimination too."

Mr. Jawâd concluded saying: "There is one more thing that raises suspicion which is the increasing focus on the Islamic Foundations, concentrating the observation of their activities and the frequent visits under unreal names. Despite our good relations with the government and we have a coalition with the other organizations, we notice some personalities come under unreal names to investigate about our activities. One of the most difficult things we have encountered is transferring technology to the Islamic World. In the past it was very easy to contact one of the efficient professors to teach in the universities of the Islamic World and this is covered discrimination among peoples. As regards the process of assimilation mentioned by Dr. Thomas, it is an

witnessed a change in the structure of the Muslim community in Britain and this of course has a certain response by the people in power. The best example of such a response is the visit paid by Prince Charles to the Turkish Islamic Centre, the visit of Tony Bair to the Imam Al-Khou'i Foundation in London when we held a conference under the auspices of Prince Al-Hassan under the title (Islam and its Response to Terrorism), and the visit paid by the husband of the Queen to a number of Islamic institutions in last March. The Prime Minister's Office for Religious Communities held a meeting last November and there was coordination for selecting an activating committee for observing the development of events in Britain. The members of the committee represent five Islamic institutions that meet on Wednesday at the beginning of every month to discuss the issues related to religion."

"What is more important", Jawâd added, "is the change in the way of thinking of the British society towards the Islamic issues. Last Monday, the fourth channel in the British TV presented a program that covered what happened in Jenin Camp and the massacres and crimes committed by the Israeli troops there. The coverage of the topic was not biased. Another example is the article that was published about "Muhammad Ad-Durrah" (the unarmed helpless Palestinian child who was mercilessly killed by the Israeli guns) which made a big echo and a row on the part of the Jewish Lobby when such an article was mentioned by a British radio station which is specialized in tackling cultural and political issued and it hosts a number of personalities in order to present a balanced image taking into consideration that fact that the British community is a multi-cultural one. Last month, we most of us should have watched one of the biggest demonstrations which included 50 thousand persons in Britain to support the Palestinians. One of the most significant issues in this regard is the law of terrorism combat enacted by the government. We notice that the government, represented by the Ministry of Interior listens to the direct criticism of applying such a law and the attempts made to adjust it as it gives the police the right to imprison any person without having any evidence or proof that he is

the society where they live."

Dr. Thomas added: "The British Constitution does not acknowledge a certain religion as it is based on secularism. Therefore, when the Muslim claims a certain right and it is disapproved, this does not necessarily mean enmity or bias against Islam, but it is due to the fact that there is no provision in the constitution that provides such a right. I call upon the Muslims and the Christians in the British society to cooperate in order to convey a message to the world that there is a purpose behind the creation of man and that his life is meaningful. I would like also to confirm that Britain, out of experience, is convinced now there could be coexistence of the diversity of religions rather than assimilation."

Dr. Thomas concluded saying: "I have noticed that most researches and papers have some sort of consensus to talk about defending Islam and they stressed that fact the Islam is the religion of monotheism and I think that this is a bit exaggerated. I also suggest that instead of a dialogue among cultures, we should establish a dialogue among societies in order to attain variance and diversity within the Islamic countries themselves. There are a number of verses and Ahadith (Prophetic traditions) that are interpreted from the perspective of one point of view that is agreed upon without allowing a scientific and academic style to be adopted in the interpretation and explanation of the different meanings so as to demonstrate the diversity in the Islamic culture. Muslims should have more self-confidence and they should avoid the tone of defense. Moreover, Muslims use the term 'dialogue' without having a proper and clear understanding of its meaning because when you have a dialogue with someone, you should respect him, consider him an equal, and listen to him with care and respect. Muslims should be ready to take the risk and present all what they have even if it is wrong and they should be ready to accept what is right and true that may be presented by others."

Mr. Ghanim Jawâd from Britain said: "The last ten years have

know that it penalizes a person who libels and slanders another person, let alone religions."

Dr. Ja'far carried on commenting: "Regarding the positive developments in the aftermath of September 11th events, this is good news and we would like to hear more of it and how we can invest such developments in improving the relations among us. We want, via this conference, to reach a compromise and identify the denominators in order to attain the common interests that would be good for all parties and strengthen the relations among us as scholars and cultured people."

Dr. Thomas responded saying: "I said it was likely or hoped that the Muslims would be assimilated in the British society, but it did not happen. The British society is characterized by diversity and Christianity is the historical religion but it does not have the same status any longer and there are also other religions that are much respected. Prince Charles asked that when he becomes the King to be given the title (the Custodian of Religion) not the custodian of Christianity and the religion meant to be protected by Prince Charles is any and every religion because he knows that there are other religions in England."

Dr. Thomas further added: "One of the most important religions in Britain is Islam and I think that after the passage of fifty years, it was expected that the Muslims would lose their identity and be assimilated in their new societies, but they did not. I think that it is the duty and responsibility of the British society to realize its variance and diversity and in the meantime the followers of the different religions inside the British society should realize and understand that the followers of any religion can stay loyal to their religion and at the same time be British citizens. This means that the Christians should be British Christian citizens and likewise, the Muslims in Britain should be British citizens and Muslims at the same time. The problem is that the Muslim thinks of himself as a member in the Islamic Nation and this transcends the boundaries or borders whereas the presence of Muslims within a certain society necessitates that they should respect the rules and traditions of

captivated some people in Lebanon and kept them as hostages some years ago and when they thoughts that Muslims attacked the World Trade Center in New York. Whether this is the truth or not, the Muslim Community feels greatly insecure. Perhaps this could be justified by the fact that every society contains extremists, and the British extremists called for expelling the Muslims because the situation there relies on a kind of peaceful coexistence between them and society in general. However, there are strong indications that the atmosphere will not be settled down, a fact which we often try to comprehend.

One of the most important positive developments that occurred in the aftermath of the September 11th events is the all-encompassing immense attention paid to Islam by the British society that looked forward to learn a lot about it. This was unexpected. From my own personal experience, for instance, I have been invited frequently to talk about Islam to limited and large groups of people. Maybe this is one of the outcomes of what happened on September 11th.

After that, Dr. Ja'far directed the following question to Dr. Thomas: "Do you consider it a merit or a demerit that Muslims in Britain held to their own traits and ideas despite the passage of fifty years? I think man's preserving of his creeds and beliefs does not hinder him from social assimilation. I'm personally inclined to see that Muslims exert more efforts to assimilate the societies in which they are living, maintaining, in the meantime, their identity and beliefs."

"Concerning Salman Rushdi," Dr. Ja'far added, "he was not penalized for offending Islamic religion in his Satanic Verses book, I would like to say that the Egyptian law includes a provision that stipulates that there is a penalty for anyone who shows contempt for religions and such a law is not taken from the Islamic Shari'ah. We, here in Egypt, never permit any Muslim to offend any Christian and likewise, no one else is allowed to offend Islam. I do not know that the British law is different from other laws. Is anyone free to libel and slander religions and goes without punishment? I do not think that the British law would permit this. I

concentration on the main reasons behind the big problems between the Muslims and the West in our present time in order to achieve a compromise.

Dr. David Thomas from Britain (a lecturer in Theology Department in the Centre for Islamic Studies and the Relations between Muslims and Christians in Birmingham University) started saying: "The number of Muslims in Britain is about 2 millions and most of them have mainly immigrated to Britain during the last fifty years from Pakistan and India. Most of them resided in the industrial cities in the north of Britain and the middle in Birmingham whose population is about one million out of which 150 thousands are Muslims and the relation between those Muslims and the Christians is a peaceful one."

"As the time passed by", added Dr. Thomas, "a new generation of Muslims who were born in Britain and speak English as their mother tongue has emerged, which reflected a certain change that took place in the Islamic community in England. Fifty years were conceived enough time for Muslims to assimilate in the British society. But, this never happened, because Muslims did not only preserve their identity, but they also strongly consolidated it. Moreover, some of their demands to attain certain rights under the umbrella of the British law were positively responded to. Girls and boys were separated at school at a certain age as compliance to the principle of avoiding co-education in Islam. In addition, girls are free to wear the clothes that abide by the teachings of Islam together with labeling foods as Halâl.

Concerning the rejection of some of the religious demands of Muslims, it is mainly due to the fact that it is not stipulated in the British Constitution to acknowledge a certain religion in the country. So, when Muslims presented a petition to court to ban publishing the book Satanic Verses written by Salman Rushdi, the court did not respond positively because there is no law that bans such publishing.

The British society might be plunged into amazement at some events that take place in the world. People were confused when Hizbullah

what happened along the history of humanity such as the literature of travels of Ibn Battutah and that of Marco Paolo and what we see today in TV on the spot. Our European friends talked about Europe which has about 30 million Muslims, some of whom are originally Europeans. The U. S. has about 7 million Muslims. I live in Egypt and see thousands of tourists who come every year and I have observed some of them who go to upper Egypt and this is really effective interaction. By the way, I watched a film called 'Barakah" which was produced in the West and it contained 50 speechless scenes of believers of different religions expressing communication. How can we make use of this phenomenon?

The Third Point: We have known the meaning of diversity which never means similarity as Allah, the Almighty, created people who are different and the only way out of what we suffer from now is by firm belief in the dignity of man and his freedom of belief as an application of the verse that reads: "There is no coerce in religion".

The Second Day

Dr. Ja'far Abdul-Salam opened the session by asking the participants to concentrate on the same issues discussed during the first day, namely the relation with the other, human rights in the Islamic East and the values of tolerance and diversity in Islam from the point of view of those who live in the West in particular. This is because one of the goals of the conference is to get acquainted with the opinion of Non-Muslims as regards the afore-mentioned significant issues with the aim of discussing them and concluding some positive resolutions. He also stressed the importance of listening to the representatives of countries where the majority of people are Non-Muslims such as Britain, Austria, and Germany. These sessions are held to listen to their views, have a dialogue with them, respond to their inquiries and to get to know the intellectual development of Muslims in the western countries to which such Muslims belong. Therefore, the participants in this session should talk with an open heart and a broad mind about all what they think about Islam and Muslims in their country or in the world at large with special

my own point of view and laws that identify and preserve the rights of the other should be enacted. I'm certain that those fundamentalists would be the ones to reject diversity that we call for especially in Europe. For instance, Belgium has recognized Islam since 1973 Diversity should be considered in light of the circumstance of each country while preserving the rights of others in such countries. The only way to establish diversity today can be achieved by starting at schools and universities and correcting the course of religious education and correcting the misconceptions and preconceptions. It can also be attained through establishing dialogue between the Abraham religions."

Dr. Ahmad S. Ad-Dijani from Palestine said: "The earth out of which we were created and to which is our return suffers from a lot of risks such as pollution and injustice. The best example of this injustice is the ferocious attack directed to Islam by the advocates of globalization who do their best to connect Islam with terrorism. I have really benefited too much from attending this session as I have learnt a lot throughout the speeches of my dear brothers and colleagues who conveyed to us a transparent image of the interaction among the believers of different religions. Based on such an image, my experience, the recommendation of Dr. Ja'far to transform the principles into action and the fruitful discussions of today, I would like to present the following points as a proposal for what should be done in this context:

First Point: It is an inquiry. Do we agree that our world nowadays witnesses a spiritual awakening before and after September 11th? This phenomenon has drawn the attention of lots of people and it has been the topic of many conferences and they talked about it in the European Union to the extent that a special division has been set up for religions and spiritual life. If this is the case, it is high time for us to initiate good and mutual work in this concern.

Second Point: Do we agree that the world, since the creation of man, has never witnessed a phenomenon like the one we experience today of fast communication, interaction and diversity? Compare, for instance,

obstacle in the way between the East and the West lies in the wrong understanding the terminology which should be corrected and clarified such as what is the meaning of fundamentalism, Jihad, Shari'ah and so on. The clearest evidence to support my claim is the fact that the mostly repeated accusation directed to Islam is fundamentalism without any lucid identifying of the concept of fundamentalism or even an aware understanding of it."

Bishop Emanuel added: "I think that accusing Islam of fundamentalism is not valid because there are many fundamentalists among the Christians themselves and the problem here is what a clear definition of 'fundamentalism' is? This ambiguity of terms leads to misunderstanding and misuse of them. For instance, when the people in the West hears the term 'Jihad', their reaction is always a negative one simply because they do not know the real and true meaning of Jihad in Islamic Fiqh. I would like to stress the fact that we, the followers of the Orthodox Church, have lived for a long time enjoying justice and tolerance under the Ottoman Empire which was far better than lots of the states of nowadays."

"As regards the relation with the other", added Bishop Emanuel "it can be divided into three levels, namely national, regional and global. We should do our best to unite the peoples and achieve peaceful coexistence via the exchange of dialogue. Concerning the national level, the relation with the other in such a context means the relations among the individuals of the same society and the dealings of everyday life among the members of such a society. Regarding the regional level especially at the present time in the aftermath of the September 11^{th} events, the relation with the other means establishing dialogue between the diversified religions and countries. As regards the global level, all people talk nowadays about globalization and I would like to ask a simple question, namely what is the reaction of Islam and Christianity towards globalization?"

Bishop Emanuel added: "Concerning diversity, it is a blessing from

Mr. Kahild Higouchi from Japan said: "The number of the Japanese is about 120 million and there are more than 200 thousand creeds. The number of Muslims in Japan is about 70 thousand. They do not suffer from any inconveniences at all. There is an increase in the interest of the different means of the mass media in Islâm in the aftermath of the September 11th events. Many symposia were held during which we did our best to convey the right image of Islam to the people. The curiosity of the Japanese people about the religion of Islam and Islamic countries and leaders increased. We will hold a conference in August this year in which we will open the door for dialogue between the different creeds and beliefs. We will seek the help and participation of the scholars of Islam from Egypt (Al-Azhar University), Saudi Arabia, Pakistan and other Islamic countries."

Mr. Higouchi added: "Some Japanese think that Islam has nothing to do with economics. Personally speaking, I have been working in the field of commerce for a long time. We do our best to correct this misconception as there are a number of companies that are run by Muslims and they apply the Islamic principles and instructions as regards the financial and economic aspects in order to correct such a distorted image in the minds of some Japanese people. The misconceptions about Islam constitute an obstacle on the path of Da'wah for propagating Islam. We should correct such misconceptions through setting good examples for these people, i.e. by transforming the instructions of Islam into good behavior as practical Da'wah is more effective and fruitful than verbal preaching. Via commitment to the principles and values of Islam reflected in every day conduct which confirms that Islam is a complete and perfect way of life, we can achieve the best results of preaching the word of Allah and propagate Islam. One of the best tools that should be manipulated in this regard is the common characteristics of morals between Islam and the Japanese society such as good relations with neighbors, hospitality, humbleness, moderation in human relations."

Bishop Emanuel from Turkey said: "The biggest problem and

to look at the recommendations of the conference of last year in order to see how far they have been achieved."

Dr. Wild added: "It is very important for us to understand that in order to be able to successfully make the recommendations a reality we have to know and identify who are meant by such recommendations. This conference, for instance, is held by Muslims to talk about Islam and its reality. So, I think that they should direct their recommendations to other Muslims only because Non-Muslims would not be able to achieve such recommendations as long as the conference did not touch upon the reality of what Non-Muslims believe in due to political restrictions. Thus, I think the conference recommendations should be addressed in the first place to Muslims so that they can be attainable and it is no problem to send a message via such recommendations to Non-Muslims."

"One more comment I would like to make in this concern", added Dr. Wild "The recommendations should really replicate the content and discussions of the conference and they would be of no use if they were just abstracts and synopses of the researches and papers submitted to the conference. Any discussion or dialogue in this respect should take into consideration a number of criteria, namely: aversion of generalization, acceptance of self-criticism and diversity. And diversity, to me, is of two types: diversity within the Islamic World and diversity that makes Muslims cooperate with Non-Muslims."

Dr. Suzanne Heine from Austria said: "The problem lies in the lack of religious awareness and we should cooperate and coordinate our efforts to increase it by resorting to the origins and sources of religion and deeply establish the right concepts in the hearts of people. I would like also to stress the significance of the role played by both the school and university to deepen the sound understanding of religion through the academic materials presented to the students. We have seen the fruitful outcome of such role in reality in our society via adopting a clear-cut methodology."

detail the reality of the religion of Islâm."

Dr. Murad Hoffmann added saying: "There is a gap in the relations between the East and the West and it should be a bridged. On the one hand, the East suffers from the Christian West and the East is constantly suspicious that the West is always plotting and concocting conspiracies against it. On the other hand, the West misunderstands Islam and thinks that it is the religion of violence and that it was spread by the sword. The solution for this problem can be attained via holding seminars and symposia through which different points of view can be exchanged. The East and the West must coexist side by side because what is common between them is more than the differences and they have lots of mutual interests."

Moreover, Dr. Murad Hofmann recommends the importance of relating the recommendations of this conference to the Glorious Qur'ân and the most relevant content to this effect is the meaning included in verse No. 48 in Surat Al-Mâ'idah which talks about the fact that it is Allâh's will that there are always differences among His creation and if Allâh wills to guide all people to the straight path and exterminate all types of differences, no one can deny His Divine will. This reflects that diversity in this universe is ordained by Allâh, Glory be to Him. Dr. Hoffmann also recommends that it is vital for the Islamic countries to convene conferences that would open the door for dialogue around the issues we discuss today as well as any other relevant issues provided that such conferences are to be held in the capitals and cities of the West and I'm certain that the outcome of such gatherings would be of great benefit for both parties."

Dr. Stefan Wild from Germany said: "The sound judgment one passes on any religion can only be authentic by going back and tracing its sources. We can not judge a religion through the actions of its followers. Therefore, if I want to know Islâm, I should not try to achieve this target via observing the Muslims' behavior. Rather, we should study the main sources of the religion itself. As a matter of fact, I would like

A Detailed Report on

The Closed Sessions of the Conference

The Reality of Islâm in a Changeable World

The Supreme Council of Islamic Affairs Committee held a two-day closed sessions headed by Dr. Ja'far Abdul Salam, the Secretary General of Islamic Universities Association and Professor of International Law in Al-Azhar University, and the membership of Dr. Ali Jum'ah, Professor Islamic Fiqh in Al-Azhar University and Dr. Reda Bedeir, Lecturer of Linguistics and Islamic Studies in English in Al-Azhar Univeristy. The participants in the sessions were a host of scholars and orientalists representing a number of countries such as Egypt, Germany, Palestine, Canada, Austria, Turkey, Britain, Italy, and Japan. They have met for two days during which they held talks and discussions which focused on: the relation with the other, human rights, and tolerance and diversity in Islâm.

The First Day

Dr. Murad Hofmann from Germany started the discussion saying: "Ignorance is the main reason behind enmity against Islam and the best proof of my claim is the positive impact of the September 11th Events in Germany where the sales of the translation of the meaning of the Glorious Qur'an increased remarkably. There was great fear and anticipation of a clash of civilizations and this can be clearly seen in the reaction of some world leaders such George Bush who visited the Mosque and Tony Blair and Shrewder who appeared on TV holding copies of the Qur'ân in their hands. Therefore, I recommend Muslims to hold dialogues in which they show human rights in Islam and explain in

Conclusion

As long as nothing substantial changes in the educational sphere that lies within the area of public responsibility, the image of Islam, which is burdened by prejudice, will also have an effect in other areas- from neighbourly relationships to the media. The program of reciprocal understanding with respect to that which shall remains different and strange is anything but completely realised in Austria- and there are reasons to doubt that this program still remains on the agenda. Sometimes it appears to me that, in Austria, the readiness for understanding has grown more on the part of the Muslims, regardless of their school of thought, than it has on the part of the political powers and the populace.

Even more, then, the goals should neither be abandoned with resignation nor over- exaggerated. It cannot be a question of creating the ideal society, but rather, instead, a "Europe of regions" that is commintted to "religious regions" as spiritual habitats from which a peacemaking power can emanate.

religious dimension and culturally determined customs are put on the same level, as in a German reader containing an everyday story by Heide Plis[78] about the 13 years-old Hatice who looks enviously at Austrian girls: "She tols me that the girls in Austria can actually do everything that only men can do in my country. Initially I was shocked, since Mohammad has forbidden that. But Renate explained to me that here they have another prophet- Jesus- and he said that women are just as valuable as men are... In Turkey, women are not as valuable as men; I know...that my father was very unhappy that Fatime was born first, and then, I, and, only then, the brothers". Here, a feminist- painted Jesus must be responsible for suposed cultural differeces, as if Austrian fathers would not also prefer a son ans as if there were not also feminist endeavours among Muslim women.

Finally, simple comparisons on the tangible level can also contain subliminal evaluations, as one finds in a religion book, which has already been mentioned. Here, Sura 4:172 is cited according to the translation by Ullmann/ Winter; Jesus Christ is spoken of as a messenger of God, and Muslims are commanded no to believe in "three" [gods]. With this, the Muslim religious sonviction certainly gains an authentic profile, but the related question posed to the pupils, namely, whether the "Christian teaching of a Trinitarian God and Jesus as the Son of god is correctly understood" is not only difficult to answer, but it rather insinuates a lack of understanding on the part of Muslims.[79] Crudely put, this means that Muslims do not believe in the Trinity because they have not undestood what this means. In the Catholic book on religion,[80] on the other hand, the same verse from the Qur'ân is quoted and there is a sober and appropriate commentary. The name Allah refers to "the uniqueness of God in countrast to the many gods of the arab world at that time and in contrast to the Christian teaching of a Trinitarian God.

78. 0871: Dostal, K.A., Lesestücke für berufsbildende Schulen (Readings for Professional Trade Schools). Vol, 1, Vienna, p. 26: secondary level (vocational schools); still in use.
79. 4027, p. 230f.
80. 4113 Karlinger A.; among others Wem glauben? (Believe Whom?)- AHS 5, ARGE 2, Vienna, p.53; secondary level, pubils' age: 15; still in use.

None of the textbooks record this dimension, which means that the meaning of a faith and its ethical claim may not be judged by an erroneous practice. However, the ethical claim of Christianity is frequently compared to the inappropriate practice of the Muslims. This gives the impression that Christians have always realised their claim. In the case of Muslims, however, an inappropriate practice is related back to an inappropriate claim, such as, for instance, in a Catholic book on religion[75]: The Qur'ân of the Muslims has certainly borrowed something from both of these Testaments [Old and New], but it reshaped it in the direction of an aggressive religion".

Another almost classical example can be found in the learning goals for the chapter entitled "The World of Islâm" in a teacher handbook for the already mentioned history book: "Learning goals....- Recognise the religious background of the violent fanaticism- Realise that the Christians who were obligated to love their enemies were no less violent".[76] The comparison of Islam and Christianity, as far as these two goals are concerned, gives the impression of a fair assessment when viewed superficially, since the violence of the Christians is not denied. Accurately viewed, however, Christians must accept the accusation of having an unsuccessful practice; Muslims, on the other hand, must accept the grave accusation of an unsuccessful and ethically unjustified claim.

A single book on the subject of the German language and literature[77] discusses this difference between claim and practice in conjunction with the topic of the Crusades. The pupils are not asked to compare Christians and Muslims, but rather in both cases to consider the relationship of inner motivation and actual behaviour: "Compare the behaviour of the Crusaders with the motivtaion of the Crusaders". In the accompanying teacher's handbook, the corresponding learning goal also reads: "The texts should provide the class with insights... into the contrast between a guiding idea and a practice that is completely different."

Finally, one is dealing with a "skewed" comparison when the

75. 4119: Worjing Group BMS, Religions BMS I, ARGE 6, Vienna, p. 71; secondary level (vocational schools); still in use.
76. 0796, p. 42.
77. 1198: Griesmayer, N.; Klaus. W.; Lang, H.; Wildner, C.; Wildner, Paul P., Impulse, Vol. 2, Vienna, p. 116; secondary level, pupils' age: 16; still in use handbook, p. 40.

comparison as a significant problem that leads to a distorted portrayal of Islam in almost all textbooks. Islam is usually compared to Christianity. In this process, numerous 'skewed' comparisons come about when different types of texts are compared, or, for example, when revealed scriptures and sections with different contents are compared.

This type of "level difference" can, at times, have an extremely subtle character, such as, for example, in a book for Protestant religion[74], in which Sura 35, 1-14 and the First Letter of John 4, 7-21 are presented on one page wihtout further commentary. Whereas Sura 35 speaks of extreme punishment for those who plot evil intrigues, the first letter of John is concerned with love, which knows no fear of punishment. Without further knowledge of both religions, a generalisation cannot be avoided, and the cliché that Islam is a religion of law and judgment, while Christianity is a religion of pure love, receives renewed confirmation. Since this cliché is verified by sources, it acquires an 'objective' character. This type of comparison is therefore 'skewed' because the announcement of judgement is not compared with the announcement of judgment, and declarations of love are not compared with declarations of love, although both are treated as central themes in both revealed scriptures. The Bible of Jews and Christians likewise has thoughts of judgment, just as the Qur'ân includes numerous passages dealing with God's love and mercy. Islam and Christianity are, without doubt, different religions, but the real differences are not grasped by such comparisons.

Another type of comparison refers to the difference between a theoretical claim to faith and practical living. Fundamentally, every serious belief has the goal of proving itself in ethical practice: for example, in brotherly and sisterly love, in social care and in a responsible lifestyle. However, since the question of how a belief could prove good in practice can never be answered concretely without some error, deception, or lack of good will- something that incidentally also applies to the secular claim of realised humanness- the claim is often culpably inappropriate in practice. For this reason, Islam also sees human existence embedded in a dynamic of guilt, recognition of guilt, and in forgiveness.

74. 4010: Bolz, M., Marklerungen, Vol. 1, Vienna, p. 111-113; secondary level, pupils' age: 14; still in use.

himself called to proclaim a new monothestic teaching"[71].

For some authors, a prosperous marriage and thus suficient leisure time appear to be, the plausible explanation for producing a new religion: "After his marriage to a rich merchant's widow, he found sufficient time to reflect upon religious questions. Several times he retreated to a lonely desert valley and believed he had seen visions of holy figures".[72] In addition, there are, of course, also quite proper portrayals of the Qur'ân, of revelation, and of Muhammad, though they are in the minority.

The enlightened perspective is basically unable to deal wiht religion and, in the end considers all religions to be more or less irrational, which is the reason that there is also frequently a lack of sufficient objective knowledge about religions. This can also, however, be linked to a commitment to human rights and the destruction of prejudices. Such a characteristic mixture can be found, for example, in a history book[73]: In addition to nationalism, "the Christian religion of this age" and its sense of mission are categorically made responsible for imperialism. This statement contradicts a source text on the same page, which says, among other things: "They [the Europeans] did not set out- if one excludes missionaries and explorers- to distribute spiritual goods". At the same time, however, the book offers an impressive chapter on human rights and the problems of prejudices, and thereby makes reference to the guest labourers, but not specifically to Islam or other religions. Such examples confirm the ambivalence of Enlightenment culture, which produced imperialism as well as human rights.

The problem of comparison

In portaying Islam, the textbooks make use of diverse methods and forms of speech, such as, factual information, quotes from the Qur'ân (which, however, are frequently disorted), commentaries on the sources, or comparisons. At this point, I shall single out the

71. 0840: Working Group Haliker, F.; Rettinger, L.; Weissensteiner, F., Zeitbilder (Historical Images) 2, Vienna (history), p. 110; secondary level, pupils' age: 16: in use until 1995.

72. 0612, p. 122.

73. 1142: Achs, O., Adelamaier, W.; Loebenstein, E.; Schnell, H., Zeiten, Völker, Kulturen (Times, Peoples, Cultures) 2, Vienna, p. 127, 144F., 148f.; secondary level, pupils' age: 13; in use until 1995.

its own peculiar, very modern frame of mind, which originated among U.S. Christian groups and defends itself against the influence of Enlightenment culture on the interpretation of revealed scriptures. This is also found in Islam; however, only a single book[66] recognises the connection between "religious fundamentalism" and the goal of "emancipating oneself from influences of East and West, and establishing one's own value concepts". The one- sided indentification of Islamic fundamentalism with violence also overlooks the fact that Christian fundamentalists also show a tendency for violence and participate in violent acts.

In order not be forced to struggle with such unenlightened things as visions and angels, some authors appear to prefer depicting Islam as a more or less absurd invention of Muhammad, and to thereby deny- in contradiction to Muslim self- understanding- the revelatory character and the autonomy of this religion, as is apparent in the following examples from history books: "Form ancient Arabic, ideas of faith and the teachnigs of Christian and Jewish Muslim groups... he created a religion dependent upon the prophets of Israel and proclaimed himself to be the 'last Prophet'[67]." "The teachings of Muhammad contain heathen, Jewish, and Christian elements[68]. It was therefore basically not a new religion."[69]

Skewed depictions also arise due to the fact that authors attempt to explain religious statements, in enlightened fashion, by socio-psychological motives. Islam then appears to be the result of a personality burdened by brooding inclinations and a tragic fate (orphan[70]). "The brooding orphan boy Muhammad also lived in Makkah...... Monotheism- of the Jews and the Christians- made a great impression on him. Later a noticeable change occurred in Muhammad. After brooding for a long time in the solitude of the desert, he felt

66. 1274: Fuhry, E.; Hochrainer, E.; Sitte, Ch., Geschichte, Kultur und Gesellschaft: 1848 bis zur Gegenwart, (History, Culture, and Society; 1848 to the Present) Vienna (history), p. 210; secondary level, pupils' age: 14; still in use.
67. 0610, p.98.
68.
69. 0796: Schimper, A.; Hitz, H.; Hasenmayer, H.; Göhring, S., Geschichte miterlebt (History Experienced), Vienna (history), p. 86; secondary level, pupils' age: 12: in use until 1995.
70. The fact that Muhammad lost his parents at an early age obviously makes one, from the context of a European nuclear family culture, pity the orphan child. On the other hand, however, one should consider the social structure of the extended family of that time and culture.

blind reason or irrationality and implies that all religions are chiefly power- hungry. The fact that the enlightened fundamental belief in pluralism is simultaneously betrayed by such a culturally combative attitude usually goes unrecognised.

Seldom, though occasionally, the textbooks do indeed self-critically deal with such examples of ambivalence, as in a history book for the secondary schools[64]: "Islam represents an identity- establishing power, and it became the crystallizing core of resistance against economic, political, and cultural repression, not least of all as a result of European cultural imperialism. The strangeness and significance of religion in society, which is frequently incomprehensible to our mostly secular world view, leads to misjudgments". The textbook further emphasises the significance of Muhammad for the cessation of the tribal feuds, the moment of equality in the contributions to the poor, and the tolerance of the Muslims with regard to other "book religions".

The enlightened perspective, however, can also make itself noticeable in an open or subliminal colonialist missionary attitude. In a book for Catholic religion[65], for example, legalism in the sense of moral heteronomy is, as usual attributed to Islâm, in order to conclude from this: "This explains that the Qur'ân, in contrast to the Bible, sets a limit for societal development by its rules..... there is little room for progress".

Enlightened superiority is particularly evident in the numerous foreign worker stories that are found primarily in books having to do with the German language and literature, since foreign workers appear here merely as unskilled labourers, as if Muslims were not represented in all levels of society and as if there were no intellectuals or academicians among them. The link between the economic want that drives families to come to the Western countries and the consequences of European colonoialism appears only very rarely- and when it does, then only in brief marginal notes.

A religious- critical perspective, that has not been reflected upon also determines the wrong understanding of fundamentalism, which, with very few exceptions, is equated in the books with an orthodox-conservative religious attitude. Fundamentalism, however, represents

64. 0610, teachers' handbook, p.84.
65. 4027: Grässle, E.; Jung, K.; Keller, P.; Schultes, G., Impulse zur Verantwortung (Impulses toward Resposibility)- Vol. 2, Vienna, p. 232; secondary level, pupils' age: 16; still in use.

There are also- if only occasionally- books that are prepared to offer a self- critical Christian point of view, where it is stated, for example: "The Christian church must gradually recognize that, in addition to it, the earth also has room for other forms of religions". Furthermore, in the section on the Crusades, it says: "They [the knights] had liberated the Holy Grail, but they tarnished Christian honour by committing mass murder of the Islamic populace."[63]

The perspective of enlightenment culture

The perspective of Enlightenment culture dominates in the textbooks even more than the Christian perspective, without, however, making its ambivalences a topic for discussion. For, on the one hand, this culture has given the concept of humanity- among other things, in religious freedom- its concrete form, which shapes Western democracies and thereby also public schools. The self- responsible person who forms his or her own opinions- also in religious matters- and leads his or her life to the best of his or her knowledge and conscience, respecting others- also foreign peoples, cultures, and religions- was and is sorely needed. Without this Enlightenment tradition, it would be unthinkable for Muslims to receive rights to hospitality and citizenship and- as in Austria- for Islam to be recognised by the state as a religious community.

On the other hand, also belonging to this culture is the fact that human reason enlightened by the idea of humanness has not prevented Europeans from feeling superior to all other peoples. Derived from this were the rights of instruction, of domination, and, paired with substantial political and economic interests, of exploitation. The Christian churches, shaped by the conscious belief in the superiority of Christianity compared to all other religions, endorsed this with zealous missionary activity. This resulted in a colonisation policy that was traumatic for the Muslim countries, a policy that has embedded itself into the consciousness of Muslims, the consequences of which are still in effect today. Another problematic side is demonstrated in the tension between religious freedom and conviction of faith, since the enlightened battle against the dogmatism of the churches triggered an ongoing secularising process that defames the dimension of faith as

63. 0610: Schausberger, N.; Oberländer, E.; Possing, F.; Strotzka, H.: Walzl, A., Wie? Woher? Warum? (How? Where to? Why?), Vol. I. Vienna (history); p. 87, 122; secondary level, pupils' age: 12: in use until 1995.

prayer of thanksgiving, as well as the Christian sun banishing the Muslim crescent moon, promote an identification with the Catholic Hapsburg.

There are, however, also examples showing that the "Turkish Wars" are viewed from an elevated perspective that breaks down prejudices, for example[60]: "During the 16th, 17th, and 18th centuries, the 'House of Hapsburg' and the Ottomans were enemies because both had power interests in the Balkan peninsula and in Hungary..... In both cultural areas, 'enemy images' were created that are still in effcet today. This, however, does not allow the 'enemy' of yesterday to become the 'friend' of today. Not xenophobia, but rather tolerance, understanding (mutual), and respect for human diginity are necessary, if humanity wishes to survive". Finally, the puplis are challenged to learn more about Islamic cultures and to explain "why an increasing hostillity to Islam is harmful to world peace." This description of the "Turkish Wars" and their political and religious contexts, which, when compared to all other books is the most detailed, repeatedly presents diverse and controversial viewpoints, in order to include the respective antitheses in the understanding, a process in which the function of art works is also critically examined. By "getting to know one another", enemy images should be torn down.[61]

There are, however, also examples indicating that precisely an openly declared Christian perspective need not necessarily be associated with a polemic- pejorative attitude toward Islam. Thus it reads quite simply in a book for Protestant religion[62]. "It is essential that Christians also see in other human beings those who are loved by God". This attitude of acceptance based on the love of God for creation and for all human beings is then verified by Biblical passages. A picture of praying Muslims on the same page allows them to be recognised as the addressees of Christian brotherly and sisterly love. Muslims can also look upon Christians in this manner from the premises of their faith.

60. 1488: Aigner. M.; Bachl, I.; Riccabona, F.; Schuster, H., Geschichte- Sozialkunde- Politische Bildung 7 (History- Social Studies- Political Education). Schulstufe, Linz (history), p. 33; secondary level, pupils' age; 13; still in use.
61. 1488: associated teachers's handbook. p.26.
62. 4089: Reingrabner, G., Unterwegs zum Leben- Lebenskunde (On the Path to Life- The Art of Living), Vienna, p. 85; secondary level (vocational schools); still in use.

assessing Islam positively only when it appears to be compatible with Christianity. To achieve this, Christian statements are smuggled into the Qur'ân, as the quote from Sura 4.36 in a history book[55] shows: "Be good to your parents and relatives, to orphans, to the poor, and to neighbours, whether they be relatives or strangers, and to your trusted friend. No person should treat his neighbour in a way that he would not like to be treated himself." If the second sentence sounds particularly familiar to Christian- trained ears, that is not surprising, since it is referring to the so-called "Golden Rule" that is found in the New Testament[56], but not in the Qur'ân.

The Christian perspective can also associate itself quite openly with boring clichés about Islam, as is found in a history book for the advanced level.[57] Here it is claimed that Christianity has spread because Christians have led an "exemplary life", believed in life after death, clung together, and helped one another. On the other hand, only the-so-called-divine mission is held to be responsible for the expansion of Islâm, for the fighting "with ardour and blood" for the religion of Allâh. The stereotypes of the expansion of the faith by fire and the sword and of the fanatical religious zeal of the Prophet as the basis for military success permeate, with some exceptions, all textbooks.

It is reasonable that the Christian perspective is frequently linked to the "Turkish Wars"[58]; however, some textbooks[59] make use of the biased method of working with unannotated source texts and illustrations: The text of an inscription on a column of the Virgin Mary, in which the heavenly queen is thanked for providing protection against the Turkish danger, and the reproduction of two medallions (with inscriptions) on which one sees the Catholic ruler offering a

55. 0612: Achs, O.; Adelmairer, W.; Loebenstein, E.; Schnell. H.; Zens, H., Zeiten, Völker, Kulturen (Times, Peoples, Cultures) I, Vienna, p. 123; secondary level, pupils' age: 15; still in use.
56. Matthew 7:12; "In everything do to others as you would have them do to you." A comparison with the textbook text shows that the latter also does not represent an exact quotation: furthermore, it is not insignificant whether or not the Golden Rule is formulated with negations (not do, what one does not wish himself), or positively, as in Matthew.
57. 0800: Scheipl, J.; Scheithauer, E.; Tscherne, W.; Machacek, R., Geschichte und Sozialkunde (History and Social Studies). vienna, p.79; secondary level, puplis' age: 12: in use until 1995.
58. Although the Ottoman Empire included much more than a Turkish ethnicity, one speaks in the vernacular and in the majority of the textbooks of the "Turkish Wars". Some textbooks use the description of these wars as an opportunity for working toward the breakdown of prejudices against the current Turks. This goal would be substantially faciltated if one would speak more properly of the Ottoman Wars.
59. 1501: Schimper, A.; Hitz, H.; Hasenmayer, H.; Göhring, S., Geschichte miterlebt (History Experienced). Vienna (history), p. 35,36; secondary level, pupils' age: 13: still in use.

the two dominant ones of which I shall single out, namely, the Christian perspective and the perspective of Enlightenment culture. The result is interesting, since both perspectives can serve as a depiction that is both proper and burdened by prejudice.

The Christian perspective

More problematic than clearly and tangibly false factual information is a less tangible, subliminal perspective, when it determines the depiction of Islam and lends this portrayal a tendentious character. Thus, in a history book[52] which, at the end of a chapter on the emergence of Islam, challenges the pupils to make the following comparison that is implicity pejorative with regard to Islam: it reads: "How do you assess the concept of 'Holy War' from the standpoint of the Christian perception?"

A hidden Christian perspective is also frequently connected to local historical topics, especially in textbooks for elementary schools, in which historical assessments appear as legitimised facts. Thus goes a well-known Viennese legend from the period of the Crusades, which is told by "The Spinning Woman at the Cross" accodring to a German reader.[53] "Many hundreds of years ago, a man was leaving for the Holy Land as a Crusader. His wife accompanied him to the wooden cross standing on the Wienerberg (Viennese Mountain)... There she pledged to replace the wooden cross with a stone cross if her husband returned home from the war:. A short explanation of this on the same page reads: "Crusaders wore crosses on their garments and marched out to free the Holy Land from the Mohammedans".[54] Such a commentary neglects the opportunity to introduce comments lending distance from a contemporary point of view in contrast to the historical understanding. In its existing form, the impression is given that, in the case of the Crusades, one is dealing with an indispultable and, with regard to Islam, justified Christian practice.

The subliminal Christian perspective can have the effect of

52. 3709: Hammerschmid. H; Pranger, W.: Simbruner, B. Meilemsteine der Gesschichte (Milestones of History) 2, Linz, p.113; secondary level, pupils' age: 13; in use until 1995. The textbooks frequently provide no information regarding the year of publication of the first and following edition(s). The teachers can choose from several books available for the respective classes.
53. 1381: Ferschmann, S.; Strunz, J.; Wingert, O., Lesen macht Spass (Reading Is Fun) 4: Vienna, Revised Edition, p.5; primary level, puplis' age: 10; still in use.
54. A large portion of the textbooks still speak of "Mohammedans", wihtout acknowledging that Muslims reject this name for themselves.

stereotypical prejudices with regard to Islâm were disseminated and cemented over many generations and, in conjunction with the Turkish wars, even beyond Austria's own borders. Through Christian polemics, many stereotypes have become common European property.

This triggered a growing protest by the Muslims, a protest which, at the beginning of the 80s, initially led in Germany to an initiative by Prof. Dr. Abdoldjavad Falaturi. As director of the "Islamic Scientific Academy" in Cologne, Falaturi organised a research project that aimed to examine textbooks with regard to the proper presentation of Islam and thereby to place in the hands of textbook authors criteria for correction. For this purpose, he deliberately gathered non- Muslim scientists from various disciplines, so that this project would also become an endeavour that would further understanding between the different religions. In the following years, such textbook examinations spread across other European countries, including Austria.

The motto "proper presentation" meant an orientation toward Muslim self-understanding, which presupposed co-operation with local Muslim partners and, in Austria, led to good relations that are still effective. For this reason, our study concerns an educational policy project that takes into consideration and respects the differnces that remain between the external persective and the self-understanding. This simultaneously fromulates a situational limitation, since the study cannot, and does not wish to, speak for the entire Islamic world.

The volume that I published as head of the Austrian section appeared in 1995.[51] We examined a total of approximately 800 textbooks of all relevant subjects, including the teachers' handbooks, all of which paint a very diverse picture of Islam. Even if a positive tendency can be ascertained in newer books, most of them perpetuate the prejudiced image of Islâm, as the following examples from the wealth of material will show.

The Problem of prespective

In the textbooks, one can recognise a series of diverse perspectives,

51. Susanne Heine, Islam zwischen Selbstbild und klischee. Eine Religion im Österreichischen Schulbuch (Islam Between Self- Image and Cliché: A Religion in the Austrian Textbooks), Religionswissenschaftliche Studien 26, 1995, Cologne/ Weimar/ Vienna (Böhlau), with contributions by: Alunad abdelarhimsai. Smail Balic, Walter Denscher, Walter Dostal, Thomas Fillitz.

simply discard everything that they brought with them: their culture, their way of thinking, their mentality- from one day to the next. In addition to this, Islam as a religion, like every other religion, cannot be separated from its enculturated forms. The following generations, however, are advanced and want to live in Austria and in Europe- but as Muslims. They have other and new priorities and questions in their lives, which separate them from their traditional ties and weaken the legacy of their parents.

The president of the IRCA is conscious of this situation, and he is convinced that there is an interpretation of the Qur'ân that is faithful to the spirit of the Revealer, but nevertheless relates to the new practical requirements. He sees this as an unavoidable development, which he simultaneously considers desirable and supports this through the IRCA, in order to clear the path for an Austrian and European Islam. For this reason, the IRCA is currently endeavouring to create a platform, "a type of conference of Islamic minorities in Europe that is not connected to any one nation in the Islamic world, but rather truly concentrates only on Muslims in Europe, on their problems, on their future, on their desires; something like a- in quotation marks- Muslim ecumenical movement for Europe."[50]

This is also a response to the described tensions; however, the IRCA attempts not only to defend its own independence with regard to powerful Islamic nations. Together with all European Muslims, it wishes "to fight against the attempts of other countries to interfere and to transfer their own national politics to the European countries". And it also wishes to thereby support Muslims in those countries that do not have legal foundations comparable to those of Austria.

Islam in textbooks for public schools

Perpetuating prejudices and the Austrian textbook project

As shown at the outset, throughout the course of history, Austria has had intensive, though ambivalent, ties to Islam, which are reflected just as ambivalently in the educational system, namely, in the textbooks of the different subjects. By means of these texbooks,

50. Interview with Prof. Schakfeh; the founding of this platform has already been announced, and the first* constituting meeting is imminent.

however, they may send their representatives to the advisory council. Enabling membership for organisations as such would mean a fundamental disadvantage for other Muslims who, due to their marginal numbers, have (not yet) been able to organise into larger umbrella organisations.

The IRCA denies that the Academy is controlled exclusively, by Arabs. Having been established by the religious community of Vienna, the Academy, as the IRCA says, is led by a committee that includes three Turks, one German, two Austrians, two Arabs, and a Bosnian. Approximately 75% of the students are of Turkish origin. The fact that the majority of the teachers are from Arab countries can be attributed to the co-operation agreement concluded with Al-Azhar University in order to get qualified professors for theological subjects. Apart from the fact that theology must be taught in the Arabic language, Al-Azhar is indisputably the oldest and most widely recognised theological university, teaching not only one, but all four schools of law, something that does not occur in any other educational institution in the Islamic world.[47] The constitutional reform of the IRCA has established the following guideline for the training of religious functionaries: Whoever wishes to be active in religious service must have graduated from at least one religious secondary school that trains imams and preachers.[48] There are numerous imams from Turkey or Egypt who also have got a university degree and who entered Austria with the aid of the IRCA. Furthermore, the Academy intends to establish a one- year advanced course of study for graduates that concentrates on Islamic theological subjects, in order to qualify individuals to perform religious services.

Those facing these tensions are those generations who were born in Austria and who are now, at least in part, grown up. They no longer want Islam to be viewed as a religion of foreign workers, but rather understand themselves to be Muslims in Austria who are called upon "to disentangle themselves from many hardened opinions that have nothing to do with religion".[49] The first immigrant generation is still strongly represented and has decision- making power. They cannot

47. Interview with Prof. Schakfeh, who further emphasises that he had expressly invited the Turkish Embassy to send guest professors, but has not yet received a reply.
48. Interview with Prof. Schakfeh, who points out that graduates of such special secondary schools can also work as Imams in Turkey.
49. Tarafa Baghajati, see note 36.

The response of the IRCA to such accusations is, first of all, a basic one: It must serve all Muslims, regardless of their origins, without giving preferential treatment to any one group. Therefore, it cannot allow itself to be influenced by the national politics of any foreign nation, regardless of which country it is and regardless of how good or bad the politics may be. The IRCA understands itself to be an Austrian institution- which it also is by law- that stands for the common concerns of the Muslims of this country, regardless of whether they are Austrian citizens or citizens of other countries.[42] At the same time, it also understands itself to be a religious institution that administers the religious affairs of Muslims and speaks out for disentangling religion and politics.[43]

Regarding the accusation that a minority of non- Turkish Muslims would dominate the Turkish majority and hold the decisive offices in the IRCA, the IRCA responds with multiple comments: The Turks are also represented, it says, in great number in the IRCA; however, attention is called to having as many diverse ethnicities and language groups as possible represented independent of nationality. This is also valid for members and functionaries of the ATIB, whose participation in the IRCA would be welcomed[44], in order to be able to jointly better represent the interests of the Muslims outside the Muslim community.[45]In order to prevent the dominance of a single ethnic group, the constitution stipulates that no single ethnic group may comprise more than one- third of any organ of the IRCA.[46] According to the constitution, organisations may not be members of the IRCA;

42. Interview with Prof. Schakfeh: The IRCA and the organistions that work with it "suspect and fear that the ATIB wishes to have more than simple participation, that it wishes, namely, to have complete control".
43. Interview with Prof. Schakfeh: of, the homepage of the IRCA and its interview with Prof. Achakfeh. Since April of 2000, there exists an official mission statement for the IRCA that contains appropriate details.
44. Interview with Prof. Schakfeh: the previously moderate contacts to the ATIB are related to the advisory council and the initial participation in the elections of the religious community of Bregenz on April 1,2001; a prerequisite for taking part in these elections was the membership of ATIB representatives. An agreement on a joint list, however, was not accomplished.
45. As an outsider, I am only able to perceive this, but I do not presume to make a judgment. I do, however, express the wish for an internal Muslim ecumenical movement, since this could make a basic contribution toward correcting the image of Islam that has been damaged by prejudices, especially in a Western culture in which the significance of institutions and officials- also religious ones- is rapidly diminishing in favour of personal credibility and commitment. From experiences in the Christian ecumencial movement, I am also, at the same time, conscious of how difficult such unification processes are.
46. This third is filled by Muslims of Turkish origins (interview with Prof. Schakfeh).

are in the minority[38], and whose education is one- sidedly influenced by the Al-Azhar University in Cairo. As an institute of the government, the ATIB starts from the assumption that the Turkish government alone has the responsibility for supervising Turkish Muslims also outside of Turkey. Such complaints are aimed not only at the IRCA, but also at the ministries responsible for Islam, whereby they also reach a broad public.

This criticism has a tradition. In Austrian public schools, the principle of religious freedom is reflected in the fact that parents can cancel registration for their children's religious instruction; or young people themselves, who are at least fourteen (14) years old- the age of religious 'coming of age'- can submit a cancellation up to ten (10) days after school has begun. Muslims can also make use of this. When Muslim religious education was begun in 1983, already then the Turkish ambassador in Vienna at the time demaded that Turkish children be taught by teachers having Turkish citizenship and that the qualifications of teachers be confirmed by official Turkish State authorities.[39] Since his demand was not met, he called upon Turkish Muslims to disenroll their children from Muslim religious instruction.

The demand that teachers- and also all other religious functionaries, such as the Imams- be authorised by the Turkish government is linked to the persistent accusation that the IRCA would not provide sufficient theological qualifications.On the other hand, a university training in Muslim theology is a prerequisite for the imams coming to Austria from Turkey by way of Diyanat.

Whereas the IRCA, as the official agency representing Islam, also authorises religious functionaries, so that local communities desiring a particular imam or preacher must turn to the IRCA, Diyanat sends its imams into the country by other methods. As Turkish civil servants, they are brought into the country through the embassies, they receive their residence permits directly from the Ministry of the Interior, and they are paid by the Turkish government from taxes. For this reason, they are financially independent of the local communities[40] and are not dependent upon the authorisation by the IRCA.[41]

38. The number of Muslims from Arabic countries is currently estimated to be 10%.
39. From the report of the Viennese journalist Ali Haydar Yurtsever in the daily newspaper "Torcüman" dated 4/18/1983, translated by Smail Balic, in: Susanne Heine, Islam, 34 (see note 51).
40. The religious functionaries authorised by the IRCA are paid by the locally responsible associations.
41. The IRCA considers this "no completely tidy legal solution", since the Austrian officials themselves circumvent the regulations of the law of recognition, but makes no claim to this diplomatic means. Nevertheless, it considers Islam in Austria to be a domestic issue and not, as the ATIB states, a foreign one (Inter view with Prof Schakfeh).

laws and the constitution, a sense of belonging to Austria, compatibility of "Muslim and European'..."[36]. For him, it is possible for Muslims to cope with the tension between the challenges posed by Western democratic societies and the immovable premises of their faith, since the interpretation of the Qur'ân requires, as he says, that one opens oneself to the respective particular circumstances, the time, the place, and the persons involved. In this regard, he refers to the "principle of flexibility within the framework of Islam", to the "independent formation of opinion".

These very recent developments show that wherever recognition and respect does not force Islam into opposition or into the underground, the capability for dialogue and readiness for co-operation and self- reflection, without the fear of loss of identity, is growing on both sides. Simultaneously, the efforts to achieve an internal Muslim agreement are hereby furthered in a way that does not measure such differences by the yardstick of an ultimately illusory standardisation. In Austria it is more and more Muslims themselves who represent such a position capable of pluralism, and they are thereby discovering the "roots of delight" (Baghajati) in the diversity within their own faith tradition.

Muslim theocracy as a "state within a state" is still widespread among the Austrian population. This fear receives fuel from a tension that persists between the IRCA and the large ATIB association, which was founded in 1990 and which is under the direct authority of the "Turkish Directorate for Religious Affairs" (Diyanet) of the Turkish government. The candidacy of Turkey for the EU has in the meantime affected an opening towards the Austrian public[37], but not really towards the IRCA, which is blamed for hostility while dominating a Turkish majority. Thus, for example, the constitutional reform of the IRCA came under heavy criticism for having antidemocratic structures, which would not permit an official representation of the ATIB in the IRCA. The polemics of the ATIB were also aimed at the "Islamic Academy for Religious Education". As it alleged, this (Academy) is dominated by the Arabs, who, compared to the Turks,

36. Tarafa Baghajati, "Integration und Disintegration in religiösen Diskurs" (Integration and Disintegration in Religious Discourse), address at the Viennale 2000: Die Medien im interreligiösen Dialog. Versuche zwischen Distanz und Nähe, Vienna City Hall, November 8-9 2000 (manuscript).

37. The "Council for European Union" met in Istanbul from May 2-6, 2000, under the auspices of The Presidency of Religious Affairs, Republic of Turkey (Diyanat). The author was honoured with an invitation to participate in and contribute to this meeting by presenting a paper on Austria.

election. In distinction to other candidates of Muslim heritage, who ran for office solely for party- political reasons, Omar Al-Rawi was also known to be a religiously motivated Muslim. He received the spontaneous support of many Muslims of different origins, without the IRCA having declared its support. With 2,558 preferential votes, he came in third behind Mayor Häupl and the Freedom Party's candidate, Patik- Pablé, which the IRCA also considered to be a product of their integration politics.[34] Omar Al-Rawi was promised a seat in Vienna's City Council at the end of 2002. The Social Democrats are also planning to organise a work group called "Muslims and Social Democracy", which will parallel the existing group called "Christians and Social Democarcy".

Through such activities, one can recognise the path that the IRCA is supporting under its new president: Integration instead of assimilation, in order to preserve one's won identity without withdrawing from social contacts with non- Muslims or from one's public presence and responsibility. Appropriately, on the occasion of the beginning of Ramadan 2000, it is stated in the community newsletter of the IRCA: "Recently, a rather vigorous discussion on the topic of 'integration' has emerged in Austria: due to this, Muslims or Islam as a religion were repeatedly targeted. The image of Islam in the mind of poeple must be improved upon, in order to enable a generally peaceful co-existence. We wish to participate in the integration process in the interest of all concerned and to protect Muslims from the pressure of total conformity. We desire more general participation and more public participation, in order to present Muslims in a positive light also to a non- Muslim society. This is a new and very important task..... Internal unity and strength is particularly important precisely in a situation in which the criticism of Islam is voiced. The faith- based community thus tries to be a link between the different Islamic associations and the mosques..."[35]

Engineer Tarafa Baghajati from the Initiative also found programatic words for this when addressing a public congress in the Vienna city hall: "The Islamic community is consicous of the responsibility to be active here, and it encourages its members to give positive signs of societal participation through a recognition of the

34. Interview with Prof. Schakfeh; he attributes the fact that, until recently, Muslims from religious circles had had little interest in domestic politics in Austria to the attitude that this is "somehow not yet our business", whereas this election brought a new Muslim- religious we- consciousness into being.
35. This document was distributed via e-mail.

discrimination when they are seeking employment. The Initiative documents such cases, but it also documents positive examples and publicises them via e-mail[30], whereby, in relation to the headscarf question, the Initiative itself appeals to laws having to do with freedom and anti- discrimination.

Since the constitutional reform, women can be active in all religious offices, not only as teachers in schools, but also as imams, preachers, and pastoral workers ("Seelsorgerinnen"). In this regard, however, their activity is restricted to women and women's groups. The IRCA does not wish for this to be understood as modernisation in the sense of conformity; but rather, by engaging women, it is addressing a pressing desire primarily from Turkish women, who wish to have a women for their instruction and spiritual counselling, a women with whom they can be more natural, open, and trusting than they can be with a man.[31]

During the Viennese city council elections in March 2001, one succeeded for the first time in concerntrating a large number of so-called "preferential votes" on a Muslim candidate. This was precipitated by the fact that the parties in Vienna suddenly became interested in taking the intiative for immigrants because, as Austrian citizens,[32] many of them could deliver another vote. The engineer Omar Al-Rawi, who was active in the labour union, had made a name for himself as personal assistant to the President of the IRCA and member of the official delegation that held discussion with the three "wisemen".[33] He decided to stand for election as a candidate of the Social Democrats (SPÖ), who won the absolute majority in this

30. Examples are (from a report on racism of the Initiative dated January 30,2001); refusal to hire or dismiss women wearing a headscarf; the employment office classifies the headscraf of a Muslim women as a "handscap", something that one would never wish to have understood as discrimination, but rather only as a response to the reality that employers would not accept such an appearance; a large dry cleaning firm requires that personnel not dress in the traditionally Islmaic fashion. But men are also confronted with massive discrimination, such as, e.eg. an Egyptian man whose work colleagues greeted him with the Hitler salute and mocked him because of his food regulations, until the head of personnel dismissed the Muslim for distrubing the work envionrment.
31. Interview with Prof. Schakfeh. The desire for gender- separate care and counselling was also one of several arguments that led to women being ordained in Protestant churches; and even today this argument is valid for feminist- motivated women pastors, since the experiences of women are different from those of men. The women who up to now have been authorised by the IRCA for spiritual service are mainly Turkish.
32. Approximately 50% of the Muslims are Austrian citizens.
33. These three "wisemen" were sent by the EU to assess the political situation in Austria after the Freedom Party had become a party in power and before the diplomatic sanctions on Austria were cancelled.

wake of the IRCA constitutional reform, pastoral care ("Seelsorge"[25]) was introduced as a new office; it is still being developed and should offer spiritual counselling to Muslims in hospitals, detention centres, and the armed services.[26] At the same time, the Initiative, which is already active in the area of postoral care on a voluntary basis, uses such contacts to perform instructional work on the subject of Islam, to break down prejudices, and to promote inter- religious co-operation.

In order to make itself visible to the public, the Initiative also runs a public relations office[27], and in the meantime it has become well recognised by the media. In April 2000, the Great Mosque in Vienna made itself better known to the public by having an Open House, something that will be repeated. Additionally, there are numerous smaller prayer rooms in Vienna and in the other federal provinces that likewise intend to open their doors to the public, in order to build good, neighbourly relationships between Muslims and non- Muslims.

A special emphasis of the Initiative is on women's work. In encounter and discussion evenings for Muslim and non- Muslim women[28], questions and prejudices are taken up and discussed "openly, directly, attentively, interrogatively, and also with reporting", in order to seek commonalities and engender respect for differences: "What is the experience of Muslim women? Do they suffer living in a natriarchy? Do they feel oppressed? Are religious women generally less feminist than others? What do women think about the 'headscarf'? Which image of women do we wish to have represented in Austria? What things would we not wish to give up (as 'natives' and 'immigrants')?[29] In Austria, women dressed in traditionally Islamic clothing are still the special target of public insults and of

25. The specifically Christian concept of "pastoral care" and its associated function in the areas of hospitals and dentention centers, with which, at least in this form, Islam is unfamiliar, was adopted because the diaspora situation demands such services and because, with the expression "pastoral care", one can make clear to non- Muslim public what is involved without having to go into a long discussion (Interview with Prof, Sehakfeh).
26. In this area, Muslims can follow the tradition of the military muftis during the monarchy.
27. This office regularly gives press statements, writes "letters to the editor" regrading current developments, looks for and recommends to responsible persons in the media Muslims who can participate in radio and television programs, and provides competent interview partners. The head of the office is Amina Baghajati, who as a convert to Islam can bring her linguistic competence and familitaty with the nation's culture bear.
28. Such meetings, to which women from many differnt origins come, consciously occur not on the premises of mosques, but rather in public speaces, such as, for example, at the Fund for Integration (Interview with Amina Baghajati). The Viennese Fund for Integration, which was founded in 1992 by the provincial government of Vienna, works toward developing peaceful co-existence between the people of Vienna and the immigrants. It opposes discrimination and stands for equal rights.
29. Thus reads the programmatic text of an event at the beginning of Ramadan 2000.

Among the latest development, particular attention must be drawn to the founding of the "Initiative of Austrian[19] Muslims" (May 2000), a voluntary association[20] of some active Muslims who sympathise and co-operate with the IRCA. The causes for the Initiative were the formation of a new coalition government in February 2000, which was the result of the National Assembly election on October 4, 1999, and the discriminatory, racist rhetoric against foreigners that accompanied the radical political change on the part of the Freedom Party (FPÖ)[21]. The Intiative pursues an offensive integration policy that stands for "more mutual understanding and tolerance", while following a twofold path: externally, to take a public stand against racism, xenophobia in general, and the discrimination against Islam and Muslims in particular, in order to foster social peace and the common welfare; internally, to support the self- confidence of Muslim immigrants and citizens who still encounter prjeudice, rejection and insults.[22] They are loyal to the Austrian constitution, while adhering to Islamic religious core- values and discerning behavioural patterns related to a different cultural and ethnic environment from the religious realm.

Those who engage in this Initiative mediate in neighbourhood conflicts, offer translation services, give lessons on Islam in schools,[23] organise public discussions, and comment frankly on xenophobic statements of politicians or discriminating advertising material. Muslims are encouraged to accept help when in trouble with administrative bodies, medical doctors, or hospital staffs.[24] In the

19. "Austrian Muslims" does not only signify Muslims who possess Austrian citizenship.
20. The Initiative is not structured as an organization, but is rather based upon the involvement of individuals. The first activities of the group occurred in November 1999, when politicians representing the Freedom Party in the TV program "Zur Sache" Launched diatribes against "Muslims of non- European heritage who are unwilling to assimilate".
21. Since the formation of the coalition government in February 2000, the Freedom Party in Austria shares power with the People's Party (OVP).
22. Its goal is to amke Muslims more visible in society and also as Muslims to become more involved in public issues, since Muslims for a long time already are a constitutive part of Austria and wish to be perceived as such. The persons involved should be able to participate in the dialogue and formative activities related to the integration process (Interview with Amina Baghajati, April9, 2001).
23. On November 28,2000, e.g. a fairy tale and discussion evening was arranged for Muslims and non- Muslims in one of Vienna's elementary schools.
24. Since November 2000, this activity has been carried out as a project entitled "Islamic Visitor and Social Services" under the authority of the IRCA with the following motivation: "In the immigrant context, familial and social structures change, and relatives and neighbours can no longer perform all services. Frequently, Austrian Muslim men and women also cannot depend upon the support of their families. For this reason, these important services must be increasingly performed by the Muslim community. Previously unknown terms and professional fields, such as "social work" or "pastoral care" are being introduced into Muslim discourse and so far carried out in activities on a voluntary basis.

wide. These mosques are supported by local associations that pay the expenses. For practical purposes, above all due to a common native language, in such associations homogeneous ethnic groups come together, such as, Turks, Pakistanis, Indians, Indonesians, Iranians, black Africans, Albanians, or Bosnians, whose perspectives, however, are for the most part religious, not national,[15] Furthermore, these associations can register members for the regional religious communities and for the IRCA in order to again a say with regard to voting rights; however, an additional fee must be paid for this purpose.[16]

Today, Prof. Anas Schakfeh presides over the IRCA, having succeeded Abdelrahimsai in 1999; and prior to that the was president of the Reigional Community of Vienna. A constitutional reform aimed at furthering the democratisation of structures (February 1999) went along hand in hand with this. New organs were differences of opinion or with monitoring compliance with constitutional regulations, such as, for example, the timely completion of elections, also in the regional religious communities.[17] Since only individual membership is possible in the IRCA, an advisory council representing the associations resp. The parent associations was established, in order to build an official bridge between the IRCA and the large, national associations.[18]

15. Interview with Prof, Schakfeh; for the first generation, language presents a big barrier, not only with respect to the general public, but also wihtin the Muslim community itself.
16. Within this tension between addition financial burdens and the desire for political say, a competitive struggle also arises among the associations, which then observe and compare one other, in order not to fall behind numerically.
17. If, for example, elections are not held in compliance with deadlines, then the arbitual tribunal can dismiss the acting committe of the respective religious community and, in the interim, assume its administration until the elections have been lawfully completed. Since in the past such elections were often repeatedly delayed, the new consitution aims to guarantee the timely conclusion of elections. On April I, 2001, the regional community of Bregenz (Vorarlberg) carried out its elections; the previous election had taken place tweleve (12) years earlier (Interview with Prof. Schakefh).
18. It concerns the four large Turkish associations: Islamic Federation (Milli Görüs), the Union of Islamic Cultural Centres, the Parent Organization for Turkish Cultural and Ahtletic Communities, and the ATIB (representative of the "Presidency of Religious Affairs" of the Republic of Turkey, Diyanet), which, under the control of the ATIB and thereby the Turkish Embassy, merged into a common umbrella association in 1998. A new addtion is the organization of Bosnian Muslims, the Parent Association of Bosnian- Islamic Organizations in Austria, which was founded in 1994 and whose number has been considerably increased by the refugees from the war in former Yugoslavia. The representative in the advisory council of the IRCA is the respective appointee of the association. The political involvement of the various associations can therefore take place via individual membership and the active and passive voting right associated therewith, or by the fact that the voice of the entire association is shown by the representative within the advisory council.

Muslim community is reponsible for the contents.

In 1997, the "Islmaic Academy for Religious Education" was opened, with Dr. Hassan Mousa as director of this officially recognised institution.[11] Here, the teachers of religion for the compulsory public schools, that is, for the lower and middle grades, are trained. Presently, there are more than 100 Muslims- the majority of them women- who want to take up this profession. The question of university education of teachers for secondary schools (Gymnasien) is still open; but it is on the agenda for the future, since it would presuppose, as in the case of the churches, a teacher training program in Muslim theology and therefore a Muslim theological faculty, or at least courses taught by Muslims lecturers. Currently, teachers for secondary schools are selected by the IRCA, which sets up criteria for qualification.

The respective religious divisions of the ORF (Austrian Broadcasting Corporation), the legal- public station, including both radio and television in Austria, are not "church stations", but must rather grant all officially recognised religious communities their own programs for proclamation or preaching- therefore, also the Muslims.[12] Various research projects[13] and symposia- organised, on the one hand, by the Muslim community, on the other hand, by the universities, the city of Vienna, or the ORF, in co-operation with Muslims- have increased during the last few years and render Islam more and more publicly visible.

The presence and self- understanding of Muslims

Currently, between 350,000 and 400,000 Muslims reside in Austria[14], with approximately 130 mosques resp. prayer rooms nation-

11. The status of the Academy is equivalent to the Roman Catholic and Protestant academies. The financial contribution of the state, however, is limited in all cases to the paying of the salaries of the teachers and the director.
12. The Muslim preaching program in TV is called "Stimme des Islams" (Voice of Islam).
13. Currently, Sabine Kroissenbrunner M.A. is working on a project entitled "Co-operation not Confrontation. Turkish Imams in Vienna", which I am supervising. The study, under the auspices of the Institute for Conflict Research (Vienna), will be completed in May Of 2001.
14. According to official information from the Ministry of Cultural Affairs dated April 6,2001. This is an estimate: exact numbers will be available only after the new national census which is performed in 2001. The IRCA can make estimates only on the basis of the paying members of the mosque associations, and this results in a lower number. The Ministry of Culturai Affairs estimates that there are currently 45,000 Muslim students. In the meantime, the number of Muslims in Austria has exceeded the members of Protestant denominations (ca. 350,000).

one hand, Muslims examined Western culture intensively. Thus, Bosnian Muslims understood themselves to be the only representatives of an European Islam. A prominent representative in Austria is the internationally known Dr. Smail Blaic. On the other hand, the cultural exchange led to a certain respect for Muslims, which smoothed the way to various laws of recognition.

The first law of recognition, which was restricted to the Hanafite rite, was dated May 20, 1874; and it was expanded and supported by the law of July 15, 1912. Muslims could appeal to this law when they later sought to achieve the official state recognition of Islam as a legal, public corporate body, something in which above all Smail Balic[6] participated. In the meantime, however, a large number of Muslims had immigrated to Austria from many different countries, especially from Turkey, so that Bosnian Islam could no longer form a common base. Thus, the various ethnic groups and schools first had to unite, a cause to which Dr. Ahmed Abdelrahim was strongly commited; he was then elected as the first president of the new "Islamic Religious Community in Austria"[7] (IRCA). With the final law of recognition of May 2, 1979, the constituting of the IRCA[8], which since 1988 covers all Islamic Schools of Law[9], could then begin. This recognition, therefore, did not fall from the heavens, nor is it the result of work initiated by politicians of tolerant leanings. It was rather preceded by a varied history, which has long been determined by a Muslim presence.

At the same time, the Islamic Centre and the Great Mosque on the Hubertusdamm[10] in Vienna were opened. With the law of recognition, Muslims received, in correspodence with recognised Christian confessions, the right to establish their own religious instruction in all public schools. In July of 1983, the curriculum was established and officially acknowledged; it was followed successively by several textbooks for compulsory public schools. This instruction- like all other subjects in the area of pedagogy and methodology- is subject to current general educational goals and state supervision, whereas the

6. During the 80s, Smail Balic published the periodical "Islam und der Westen" (Islam and the West), which aimed to be "enlightening, open to dialogue, and socially critical".
7. "Islamische Glaubensgemeinschaft in Osterreich".
8. Additionally, there are four regional Islamic communities, namely, in Vienna, Graz, Linz and Bregenz, which serve Muslims in the federal provinces.
9. The four Sunni schools and the Shi'ite school.
10. This is the only mosque in Austria with a minaret.

Muslims in Austria

The development of the legal status of Muslims.

With regard to the history and situation of Muslims, Austria distinguishes itself in many respects from other European countries. The Austria of the Hapsburgs, located on the border to Eastern Europe, had close ties with Muslims long before the Muslim migration of the 60s and 70s. These 'encounters' had admittedly mostly a political- military character, and they intensified during the Turkish wars that constituted the already mentioned historical trauma still vivid in the consciousness of the people.

Special relations resulted for Protestants, who, during the violent re- Catholicizing of an almost completely Protestant country, sought and found refuge in the Ottoman Empire, something which allows them to feel a greater sympathy for Muslims up to today. Emperor Joseph II's patent of tolerance of 1781 then guaranteed the "non-Catholic" religious communities, which included Protestants as well as Muslims, free religious expression. Then it was the Balkans that strengthened the contacts of Austria with the Muslim world. The Austria- Hungarian monarchy had in Hungary a country in which Muslims had settled and become integrated since the Middle Ages. Added to this later were Bosnia and Herzeogvina, which were put under the control of the Austrian administration in 1878 (congress of Berlin) and then annexed in 1908. Then Austrian officials had to familiarise themselves with a completely different legal system and to recognise a high- level Muslim educational system.

As is usually the case during muilitary confrontations, a cultural exchange and an attentiveness to Muslims also occurred simultaneously here in this country, though more dictated by necessity, not least of all also on the military level. The imperial (k.u.k.) Bosnians, who for the most part were Muslims, constituted an elite troop of the monarchy. They had their own military mufti and their own military mosque. In 1916, during the first World War and shortly before the death of Emperor Franz Josef I (1830-1916), the building of a large mosque in Vienna was planned and financed, although it could then no longer be realised.

Neither side emerges unchanged from such an encounter. On the

emphasis on public schools, since increasingly more children of Muslim immigrants sit side by side at their school desks with non-Muslim children and read together- in general subjects, such as, history, social studies, economics, geography, or philosophy- from the same textbooks that (still) contain a wealth of stereotypical prejudices with regard to Islam. In Austria, there are also special resentments; the "Turkish threat", the twice- repeated siege of Vienna in 1529 and 1683, decided in favour of Austria, the "saving of the Christian West" from Islam and the subsequent blossoming of this country. All of this constituted a historical trauma that has left its marks, up to this day, in the consciouseness of the people. Memorials, legends, folksongs, and even names of certain foods attest to this. The so-called "Turkish wars" were therefore also made a topic of discussion in most textbooks and merge the Islam of the past and the present into an undifferentiated phenomenon of threat.

In the second part of this contribution, there is a presentation of some of the results of a textbook analysis that the author performed within the context of an international research project, in collaboration with the Islamic Scientific Academy in Cologne,[4] for the purpose of uncovering prejudiced clichés in the portrayed image of Islam and submitting criteria to government officials for making corrections.

The revision of textbooks would be a Europeam- wide task, since the textbook occupies a special place in education, representing a unique medium in daily instruction whose texts clearly appear in written from and are therefore less fleeting than the spoken word. Textbooks are not considered "lofty" literature; however, for the majority of the population, textbooks represent the first and final source of information and education, which is the reason why they belong to the most important literary products of a country. "A people can be recognized by the books it reads." writes Robert Minder. "Their sociological function is two- fold: they reflect and they shape." They reflect a society's store of knowledge and simultaneously shape it.[5]

4. Director of the Islamische Wissenschaftiliche Akademie (Islamic Scientific Academy): Prof. Dr. Abdoldjavad Falaturi: heads of the international project: Prof. Dr. Abdoldjavad Falaturi, Prof. Dr. Udo Tworuschka and Dr. Herbert Schultze; head of the Austrian section was Prof. Dr. Susanne Heine. Due to the sudden death of Prof. Falaturi, the Academy had to be disbanded in 1998.
5. Robert Minder, 1969, Soziologie der deutschen und frauzösischen Lesebücher (Sociology of the German and French Readers), in: Hermann Helmers (ed.), Die Diskussion um das deutsche Lesebuch, Dannstadt. What is said here in praticular reference to reading books also applies to textbooks in other subjects.

Protestant minority in a country marked- also mentally- by Roman Catholicism, many parallels to the minority situation of Muslims can be recognised, albeit with a not inconsiderable time difference. Discrimination and defamatory stereotypes, to which Protestants were also exposed, have given way to a basic social acceptance, not least of all due to an established ecumenical movement.[2] The education of pastors in their own educational institution, which has been in existence since 1821 and which incorporated as a faculty into the university system in 1922, allowed the Proptestant Church to become independent of academically- trained theologians imported from outside the country, whereas Muslims are still dependent upon such import, since they (still) have no opportunity for university- level theological training in this country. Currently, the two minority groups have other things in common, namely, little perception of them as a constitutive part of society, public inattention to some specific aspects of linguistic rules, or simply ignorance with respect to one's own distinctiveness as regards theological theory, organisational structure, and spiritual practice.[3] The problems are entirely different in that part of Germany that is shaped by Protestantism. A realistic integration policy related to Muslims in Europe therefore presupposes sufficient knowledge of religious history in the various European countries.

A third perspective represents the focus on education, with an

2. An agreement between various Muslim groups on a kind of Muslim ecumenical movement would contribute much to a positive image, and thereby to the acceptance, of Islam, and would above all help to eliminate fears that are tied to the- supposed- basic militancy of Islam.
3. For example, there is still insufficient attention given to the fact that Protestant clergy are called "pastors" and not "priests", as reporting in the public media amply demonstrates. Similaraly, Muslim imams and preachers are often called "priests" as well, although pastors and preachers have little or nothing in common with the Roman Catholic conception of priest.
   Another significant example, taken from an interview with Prof. Anas Schakfeh, the Prosident of the IRCA, on April9, 2001 (in the following, referred to as "Interview with Prof, Schakfeh"): In the wake of the constitutional reform of the IRCA in February 1999, there was a decision to allow women to serve as imams, preachers, or pastoral counselors. Nevertheless, the responsible official in the Ministry of the Interior did not want to grant any residence permits for appropriately trained women from other countries. He had inquired, he said, in Turkey and in Egypt and had learned that, in those countries, there were no women holding religious offices. He therefore concluded that, in principle, Islam was unfamiliar with women in religious offices and that therefore there should be no allowance in Austria for them. This conclusion can be understood only from the perspective of a Roman Catholic Church, which makes its decisions for the worldwide Roman church centrally in the Vatican. It is also little known in Austria that the Protestant Churches make their decisions in regional synods, which explains why about half of the churches ordains women and the other half does not.

ISLAM IN AUSTRIA BETWEEN INTEGRATION POLITICS AND PERSISTING PREJUICES

Prof. Dr. Susanna Heine,

University of Vienna,

Austria

Introduction:

This article is based upon various specific perspectives: the basis is formed by the inter-religious dialogue with Islam, to which the author, as a Christian theologian, has been committed for more than fifteen years, both internationally and, especially, in Austria.[1] Resulting from this is an attitude that combines a detached, comparative- religious and religious- political perspective with an understanding perception of an alien self- understanding, in this case that of Islam. This context forbids any one- sided partisanships with respect to religious and political differences- also among the partners; much rather, dialogue follows the principle of audiature et altera pars. Between the outsider's perspective, even if it is rooted in empathy, and one's self-understanding, there remains a difference that demands both respect and a politics that recognises dissent topics as the basis for an integration that does not force one to assimilate.

Another perspective ensues from the fact that the author belongs to the teaching staff of the Protestant Theological Faculty, the faculty of the Protestant minority in Austria, and is thus familiar with minority politics. From the history, as well as the residual problems, of the

1. The author was and/ or is active as a member in the following organizations: "European Association for World Religions in Education", vioc-chair (1990-94): "Religions for Peace": "Beratungskomitee für Islamfragen" der Koutaktselle für Weltreligionen der österreichischen(Römisch- Katholischen) Bischofskonferenz (Advisory Committe for Questions Concerning Islâm of the Office for World Religions of the Austrian [Roman- Catholic] Bishops' Conference): dialogue group "Abrahamitischer Freundeskeris" (Friends of Abraham).

people living in the Diaspora want to maintain close contacts with their origins.

Thus Muslims in the West could make a contribution in the search of an answer to a question that has haunted Islam for the past centuries. How to reconcile tradition and modernity? The decline of science and art began already in the 14th century. Hair- splitting theologians then got the upper hand over scientists and poets and they, then as now in many places, saw the salvation from political and social misery in literal application of the Qur'ân. The principle of "taqlid" prevailed i.e. any opportunity to interpret the Qur'ân freely was banned. Instead, the theory was carried through that everything that could be known and was worth knowing was not only known already but that knowledge was more reliable the closer the source was to the time it was manifested. "Taqlîd" thus implied a type of scientific and cultural doctrine of abstinence from which the Muslim world is still suffering. Intellectuals in many Muslim countries don't have the freedom to analyse and find effective solutions to the problems of today. The tension between Islâm and modernity could perhaps at least partly be answered by Muslim thinkers in Europe and transferred back to the Muslim world.

If this were to happen, Europeans would pay back an old debt to the Muslim world.

The Arabs became the true inheritors of the Hellenic culture to which we in Europe so often refer. In the 8th and 9th centuries they saved and administered this heritage by extensive translations of the classical Greek works from Greek, Hebrew and Syriac sources into Arabic. The source texts were however not only translated but commented upon, criticised and provided with additions. Later on, scholars in Muslim Spain, so to say, become the midwives of Western humanism by familiarising Christian Europe with these classics.

We are already today witnessing the emergence and creation of a several European Muslim identities, German, French, Brithish, Swedish, Dutch etc. Interviews with Swedish Muslims show that they are more and more focusing on their presence, role and future in Sweden: What Kind of multicultural Sweden do we as Muslims want to have in the future? What Kind of multicultural state do we think is necessary to safeguard the long-term survival of the Muslims as a cultural, ethnic and religious minority group in Sweden and what can we as Muslims do to bring this about?

They thus want to draft a new brand of Islâm, one that aims to reconcile the basic tenets of the faith- such as the five pillars, social justice and submission to the will of Allâh- with the realities of contemporary European life.

For this new generation "Euroislam" is not a zero sum game. They see no contradiction in being Muslim and European at the same time. In a report from the Swedish Muslim Youth Association you can read: "The goal for young Muslims should be to accept, understand and respect differences but also to understand common values and goals and try to implement them. Young Muslims should form a bridge between the European and the Muslim countries".

European Islâm could thus provide young Muslims with a way of respecting inherited traditions while living in a different world than their parents. It could also give them the confidence to practice their religion more openly unlike their parents or grandparents who saw their stay as temporary and were content to express their faith in private. The new generation sees Europe as its home and sees no reason not to worship more publicly.

If immigrants are integrated in this way, the Muslim communities in Europe can become a bridge between Europe and the immigrants' countries of origin. "Euromuslims" will then be able to set an example, and transfer democratic approaches and liberal ideas and reforms to their native countries. This would enable a fruitful triangular relationship to develop between the Muslim communities, their native countries and their new home countries, since many

faith or is it part of their cultural tradition?" When the cultural surrounding changes, the interpretations will necessarily change. One concrete example is the increasing resistance among young European Muslim women against arranged marriages.

With the widespread availability of mosques and religious instruction strictly religious problems are getting more marginal. Instead, young people are more concerned with resolving the social and political issues facing Muslims such as employment, equality in the labour market, political representation, and the way in which Muslim history and religion are taught at schools. Muslims are going to make their voices heard more and more on these issues. They want to take part in government at the local, national and European level.

Young Muslims now mobilize for recognition, identity and survival. They often look upon themselves as a new force distancing themselves from traditional and international bonds, wanting to be a European face of Islam. They are not only born in the West by Muslim parents. Some of them have grown up in mixed marriages and they know both a Muslim and a Christian way of living. They speak the languages and are born citizens of European states and their common language is English, German, Dutch, French or Swedish.

They are using Islam as a way of establishing the universal values they have in common with those around them. Defining their own identity as Muslim: thus is a way of interacting with the rest of society.

With the sociological change, there will be an ideological change as well. In Islâm, law and ethics are identical. If you change the ethics, you thus change the law. Through the principle of "idjtihâd" (to develop, interpret and apply Muslims doctrines to contemporary situations) there will be a new interpretation of Islam. The integration of Europe's Muslims depends on the adoption of a form of Islam that embraces the principal Western poplitical values; pluralism, tolerance, the separation of church and state, democratic civil society and individual human rights.

a separate Muslim parliament in Britain.

For the first time in their history, Muslims are living as minorities in secular societies. Traditional Muslim theology divides the world into two zones; dar al-Islâm (the house of Islam) and dar al-Harb (the hous of war).

This world view assumes that Muslims will never be able to practice their religion properly in non- Muslim lands and therefore should not settle there.

A crucial question is therefore how the Muslims in Europe shall relate to the national legal systems in the countries where they live.

Thus far Muslim legal experts have not given any detailed global answers to these questions but some basic principles have emerged from debates between "ulamâ'" from the Muslim world and intellectuals living in Europe:

- A Muslim in Europe should see him- or herself as involved in a contract both moral and social with the country in which he or she lives and should respect that country's laws.

- European secular legislation should allow Muslims to practice the basics of their religion.

- The concept of dar al-Harb is not Qur'ânic and is not part of the prophetic tradition and should therefore be seen as outdated.

Fresh ideas are therefore necessary such as dar ashshahâdah (the house of testimony), a new concept referring to any palce where Muslims can live according to the precepts of their religion.

Târiq Ramadân, grandson of Hassan al Bannâ the founder of the fundamentalist Muslim Brotherhood and one of the most prominent spokesmen of this new thinking, has said: "As a Muslim I can be at home anywhere I am safe and where the rule of law protects my freedom of conscience and my freedom to worship. In this new environment my responsibility is to bear witness of my faith".

Young Muslims are now going back to the text of the Qur'ân and asking thesmselves: "Is what my parents used to do really part of my

full citizens and participate in the social, economic, organisational and political life of the countries where they live. In the European legislations, there is nothing to prevent Muslims or other citizens from making decisions in accord with their religion.

Muslims themselves must work with the aim of giving thew young generations which grow up in Europe a cultural background of their own, while, at the same time, integrating them socially into their European environment. The Muslim communities must cooperate with each other and avoid fighting out their theological and political disputes on European territory.

As a result, a "domestici" European Muslim leadership will have to emerge, thus permitting the elimination of the label attached to Islam as an alien and dangerous cult. This domestic leadership will not only consist of Muslims born in Europe, but also of native converts.

Problems of discrimination should not be seen as "attacks on Islam" but as effects of social policies that can be changed by political means when Muslim citizens demand equal rights. The Muslim communities must assume their responsiblities and engage in a dialogue with their own communities and with the European environment and reject simplistic visions of "us against them". The Mulsim communities must not shut themselves off and become isolated minorities. Such a policy would only encourage extremist groups with their message "You are more Muslim if you are against the West".

The Muslims must also place stress and value on civic education and citizen participation which are necessary steps to achieve their legitimate rights.

Most Muslims are aware of the necessity to comply with laws and regulations in their new home countries, but this willingness is undermined in many quarters by external appeals by organizations which prefer a "pure" Islam, without compromise. Therefore we must not tolerate the establishment of parallel political institutions, like the attempts to create "a caliphate state" (Halifele devleti) in Germany or

Only a depoliticized and liberal Islam can be integrated into Europe, and such an integration is only possible if it is paralleled by economic and social integration. In its turn, one prerequisite for a development of this kind is controlled immigration and a common European immigration policy designed to create a liberal and tolerant Islamic community in Europe.

If this is to be achieved, those who are willing to become integrated must feel that they are welcome and that they belong here. The feeling of "Where do I belong?" is one of the primary breeding grounds for fundamentalists who want to create and exploit a spiritual ghetto under the banner "you have no affinities either here or with your corrupt and morally decadent government in your home country- you have to fight against both of them".

If Muslim immigrants are to be able to feel that they belong, it is essential that:

- The demonic factor needs to be eliminated on a mutual basis. The knowledge about the Muslim faith must be improved in our schools. Ignorance breeds prejudice and hatred. The media must also rectify the stereotyped and oversimplified view of Islam which is still being conveyed.

- Our societies must protect everyone who wants to be integrated into European society, but who is under threat and under pressure not only from local extremists and groups which are hostile to immigrants, but also from Muslim extremist groups.

- Immigrants must be given an opportunity to formulate and articulate their views and wishes.

A future Europe with a flourishing Muslim presence and an open European identity must be based on self- criticism, permanent and open dialogue and a respect for diversity. We must realise that Muslims can make a positive contribution in the construction of a new Europe. Their presence should be seen as a source of enrichment and not as a problem.

The Muslim immigrants on their part should regard themselves as

suit their parents.We must also not be too easy- going in dealing with religious and political fanatics who utilize their exile in Europe for subversive activities directed against their home countries or for internal disputes.

Under no circumstances should tolerance be extended to totalitarian views or ideas. While we should demonstrate sympathy for Islam as a religion and ensure that the prerquisites for the exercise of religion are as favourable as possible, we must also demonstrate firmness regarding compliance with our own laws. At the same time, we must beware of regarding all religious expressions as signs of fundamentalism, or unwillingness to adapt and become integrated into our societies. A process of Islamization amongst immigrants is only dangerous if it comes into conflict with the norms of a pluralistic society and a democratic state.

For many immigrants from Muslim countries religion and a general sense of piety is one way of countertacting the feeling of rootlessness which they experience. Thus, a return to religion may be a by-product of the break with their own cultural background and not necessarily a protest against the new society in which they are living. Hence, greater religiosity is not the same thing as suspicion and intolerance of a secularized European environment but may, instead, create an inner tranquillity which promotes tolerance and hence integration.

Individuals who devote themselves to preaching a doctrine of harted directed against Europe and against Christianity, and who abuse our pluralistic societies, must be dealt with firmly. But, at the same time, we must not regard radical Muslim groups as an expression of an overall campaign to attack the Western World from within. There is no such plan and, furthermore, there is no Muslim leadership capable of drawing up such a campaign. Antagonism and enmity between different sects are often stronger than hatred of the Western World. Only a few of the 60-70,000 Muslims in Sweden who practise their religion are fundamentaliste. As far as the vast majority are concerned, the cultural and identity- supportive aspects of their religion are the most important factors.

is nothing which intrinsically prevents a Muslim from being as good a Swede as member of the Pentecostal Bretheren or an adherent of the Jewish faith, or that mosques cannot become as natural a feature of Swedish cities as churches have always been in Aleppo, Damascus, Mosul or Cairo.

Secondly: Muslims are not as easy to integrate and not as willing to be integrated as previous immigrant groups. Although Jews and Christians are accepted as "peoples of the Book", Islam has always, with some exceptions e.g. in India, been a dominant and hegemonistic religion in histroical terms. In Europe, Muslims must learn to live as a minority and to accept the fundamental pillars of modern European societies, that is to say pluralism and a secular social system characterized by tolerance of people with different political or religious viewpoints.

An Islamic identity encompasses customs and traditions which deviate from those which are regarded as acceptable in the societies in which many Muslims are now living. Demands will be made for special rights and for a special status, in addition to the entitlements enjoyed by the native population. In many cases, these demands will not only be differicult to satisfy, but impossible, and this will lead to tensions.

Undesirable and undemocratic political tendencies in their countries of origin may become chanelled into their new home countries. Both the governments of Muslim states and the various sects and organizations may attempt to exploit the immigrants for their own purposes.

In the light of these factors, what is the best way to integrate the Muslim immigrants?

The objective must be integration which is as rapid as possible, taking into account and respecting those who, while respecting our values, wish to maintain their own cultural and religious identity. Taking into account special religious features must not, however, extend to excusing pupils from aspects of their education which do not

As a result, Europe is not currently facing the threat of a fundamentalist fifth column of Muslim immigrants. Instead, Islam's internal splits are clearly reflected in the Diaspora. Muslims in Europe are not only divided by their different languages, cultures and skin colouring, but also by the various branches and sects of Islam which are often in bitter competition with each other for Muslim hearts. Perhaps the greatest problem currently faced by Muslim immigrants is that, due to their diversity, they often lack a common spokesman or a representative organization which can present their case. This is not in the least a problem for the many secular Muslims who want to integrate in our societies.

A policy designed to facilitate the integration of Muslim immigrant groups must be based on the following facts.

Firstly: There are already large Muslim communities in most West-European states. These communities will not only expand but they will also demand greater political influence as increasing numbers of Muslims become naturalized citizens and enfranchised in their new home countries.

Three- four decades ago the Muslim immigrants were coming to Europe looking for work and they planned to return home as soon as possible. They therefore remained marked by their culture of origin, Indo-Pakistani, North African or Turkish. The parents tried to protect their children from the unfamiliar European environment rather than integrating them into it. But most of these immigrants never went back. Their children were born in Europe and became better educated than their parents. This led to new ways of thinking and now we can see how some kind of silent revolution is taking place among the younger Muslim population in Europe- European Muslims and not North- African, Indo-Pakistani or Turkish Muslims and a European Islamic culture is slowly developing.

Islam is thus already today an intregral part of Europe and a European religion and as we have been talking about Eastern Christianity we will soon be talking about Western Islam. Islam must therefore be recognized and regarded as a "Domestic" religion. There

If developments take this direction, we must reckon that militant Muslim organizations will also endeavour to pursue their struggle with the Western World in Europe which they regard as the incarnation of all evil.

In this case, a "holy war" can become a reality in Western Europe sooner than we suppose, though not in the form of a military struggle between the West and the Islamic world or the clash of civilizations that Huntington is suggesting but as kind of permanent guerrilla warfare in the ghetto- suburbs of our major cities.

To prevent this from happening is probably the greatest challenge we Europeans have to meet in the years to come.

There are several questions we need to face.

To what extent should European countries be opened up to non-European immigration, including the reception of refugees?

What religious, cultural and linguistic elements in the identity of immigrants are to be furthered, tolerated or resisted? Multiculturalism has become a prestigious concept, but it has a broad spectrum of meanings, ranging from the question of whether the genital mutilation of girls should be tolerated, whether girls should be allowed to wear veils in schools, to the issue of multicultural curricula.

One essential prerequisite for successful integration is that we broaden our knowledge of the diversity of Islam and the varied nature of Muslim immigration. Now that the red communist peril has disappeared, we are often made to believe that it has been replaced by a green Muslim threat. This image is already being exploited to reinforce the feeling of European unity by depicting a scenario of uniform, fanatical Muslim masses preparing to storm the bastions of the West's welfare systems under the green banners of Islam, with scimitars in one hand and the Qur'ân in the other.

The Muslims in Europe are however not featureless third world mob, but people from all classes in the society and with varying degrees of religiosity. The majority have a relaxed relationship to religious or political community.

boom in science, philosophy, culture and art.

At the close of the Middle Ages, both Islam and Judaism were constitutive elements in the formation of Europe. As a result, Islam is at the same time an alien, an original and- due to growing migration- a new element in the Europe of today. A Europe that is increasingly populated by people who like the so called "enaciados" in the Moorish Spain live in a no-man's land between the different cultures.

There are already between 15-20 million Muslims in the European Union and their numbers will still increase due to a continuing migration. Estimates speak about 60 million in 25 years. The European Union is therefore no longer conceivable without an "Islamic green" component. Whether it will be possible to construct the "Eropean house" based on the model of Alhambra- the symbol of the multicultural Moorish Spain- is therefore a decisive question for the future of Europe. Racism, intolerance and a narrow nationalism have already gained strength throughout Europe in reaction to the present level of immigration which is insignificant compared with what we are likely to see in the future.

If integration fails and immigrants with a Muslim background feel that they are subject to religious tutelage, forced into ghettos and socially marginalized, with continuing high rates of unemployment we will have to reckon with the emergence of underground fundamentalist Qur'ânic schools in our immigrant suburbs, and with teachers who urge their pupils to fight with all their means against what they regard as oppressive European sociaties.

Instead of a modern, tolerant "Euroislam" we would then see the development of a "Ghettoislam". supported by fundamentalist forces in the Islamic world. Radical mullahs throughout Western Europe are already now attempting to exploit the psychological, cultural and material problems of Muslim immigrants for their own purposes, and politicians such as Jean-Marie Le Pen, Jörg Haider and most recently Pia Kjaersgaard are giving them wind in their sails as a result of the polarization which they have advocated in France, Austria and Denmark.

THE MUSLIM IMMIGRANTS-

A BRIDGE BETWEEN TWO CULTURES

Ingmar Karlsson

Sweden

The Muslim Immigrants- a Bridge between two Cultures?- a paper presented at the fourteenth Gerneral Conference of the Supreme Council for Islamic Affairs held in Cairo on May 20-23 under the title "The Truth of Islam in a Changeable World"

Islam and Christianity have been living side by side for almost 1400 years, always as neighbours, mostly as rivals and far too often as enemies. In fact, both believers may be regarded as co-religionists since they share the same Jewish, Hellenistic and Oriental heritage. At one and the same time they have been old acquaintances and intimate hereditary enemies, and their conflicts have been particularly bitter precisely because of their common origins. Both sides have been divided more by their similarity than by their differences.

The Islamic culture is therefore not as foreign to christians as it appears to be in the light of western prejudices and clichés. One of the most persistent and widespread myths is that Charles Martel, the ruler of the Franks, saved the West from destruction by his victory over the "Saracens" at Poitiers in 732. The Saracens were driven back over the Pyrenées and they returned to southern Spain where a Muslim state then continued to flourish for almost 800 years. This Islamic presence on the Eurpoean continent did not lead to a collapse of the Western civilization but instead to a unique and fruitful symbiosis between Islam, Christianity and Judaism, which resulted in an unparalleled

Summary

This contribution about "Muslim Minorities in Non-Islamic" countries does not focus on the discriminations and problems Muslims are facing in these countries. Instead it focuses on the question what Muslims should do and can do to make their situation better and to spread the message of Islam-wthin the framework of their religious beliefs and commandments.

Referring to two different points of view - those who say that Muslims should not interact and those who think it is absolutely necessary and legitimate to interact, the author takes the side of the latter. Based on a Fatwa issued by Dr. Taha Jaber al-Alwani, Chairman of the North American Fiqh-Council and President of the Graduate School of Social and Islamic Sciences, he comes to the conclusion that it is permitted and necessary for Muslim minorities to actively take part in the political life of the countries they life in.

The author then documents the contents ot the Islamic Charta issued by the Central Council of Muslims in Germany, which explicitly states that Germany is the home of the Muslim community and that it is the duty of Muslims in Germany to actively participate and interact in public life.

Finally the "new" Muslims are mentioned as a minority in a minority. It is their spirit and energy which can lift those Muslims out of their attitude of despair and passivity, who have experienced colonialism and dictatorship, an experience of deep frustration and disappointment that may keep them from leaving their own circles in order to bring out the message of Islam to their majority societies.

listen to their new brothers and sisters: With their questions the new Muslims may also questions traditions which have nothing or little to do with the message of Islam, with their newly found perspective of an Islam without the restraints of 1400 years of more or less sophisticated theological research and teaching they may possibly have a more unobstructed view to Allâh's s.w.t. revelations than those who have been taught through the filters of 1400 hunderd years of history.

The most important thing however is that these new Muslims bring an enormous amount of energy with them: They do not travel with the baggage of the experience of colonialism, which generations of Muslims have suffered from, they do not travel with the sad experiences of dictatorship from which emigrant Muslims have suffered from, and therefore their perspective is less inclined to mistrust, skepticisms and sometimes even hopelessness. They burst with energy to bring the message of Islam to their fellow citizens and they are predestined to do it, because they speak their languages and know their culture. They may not know too much about jihad, they may not be familiar with the most detailed concepts of da'wa, and they surely need the guidance by their older brothers and sisters, but they are the ones who can be the true messengers of Islam in our time. They truly live the life of the Muslims of the first hour, not staying at home, moaning about the hostility of their surroundings, but going out, engaging themselves for the course of Islam.

Therefore, my Brothers and Sisters in the name of Allâh s.w.t. let us - "old" Muslims and "new" Muslims go this way together, let us as minorities bring the message of Allâh s.w.t. to our majority societies, let us share with them that Muslims are the messengers of a religion of peace and tolerance, the religion of Islam.

A minority within a minority: the "new" Muslims

I have already shared one important experience with you which I had as a so called "new" Muslim. Now at the end of my talk I would like to close with some general remarks about this topic:

Newcomers to Islam find a tremendously warm welcome in their new community, they are accepted with open hearts, open arms, and indeed the hospitality and friendliness they experience is breathtaking, because in the colder Western societies nobody has prepared them form such warmhearted sense of community spirit. It is also true however that once again we find two different attitudes: Some look at their new brothers and sisters with great admiration, because Allâh s.w.t, obviously has shown them the right way, others however regaed them with certain reservations: in their opinion these new brothers and sisters do qualify as real Muslims, because they do not speak Arabic and will not be able to understand the message of the Qûr'an.

As always in Islam the truth lies in the middle: The new Muslims have a great need to learn, but they also have a great potential to open new doors to those who were raised as Muslims, because they know their societies.

There is, however, one big difference rarely mentioned: The new Muslims live very much like the Muslims during the time of revelation. Usually they start with reading parts of the Qûr'an, getting slowly acquainted with the message of Allâh s.w.t. At first they know nothing about the Sunna, and certainly nothing at all about the different *madhab* and regional traditions. They are indeed Muslims of the first hours, taking their information from the very foundations of Islam: the Qûr'an, asking questions, trying to establish a way of life which is new to them. Yes, they may make mistakes in the eyes of those who were raised as Muslims, and of course they need guidance.

But on the other hand, those who grew up as Muslims should also

8) Islam is faith, ethics, social order and a way of life at the same time.

9) Islam is not for the abolishment of richness.

10) Islamic law obliges Muslim in the diaspora.

11) Muslims accept the separation of powers and the constitutional and democratic order, guaranteed by the Federal basic law.

12) We do not aim at establishing a theocracy.

13) There is no contradiction between the Islamic teaching and the core content of the human rights.

14) European culture is coined by the Jewish-Christian-Islamic heritage and by the heritage of enlightenment.

15) It is necessary to create a Muslim identity in Europe.

16) Germany is the center of our interest and activity.

17) Reduction of prejuduces through transparency, opening up and dialogue.

18) We are obliged towards the whole society.

19) We want integration by keeping our Islamic identity.

20) We want a dignified way of life in the middle of society.

21) We are politically non-partisan.

The Islamic Charta was well received by politicians, the media and the public. Discussion about it continues till today, last not least within the Islamic community, where it has found little opposition, some skepticism, wide interest and acceptance. For me the Islamic Charta is the best example of how a minority can define its point of view and explain it to a majority, in order to come to a way of life, which enables both side to live together in peace.

Muslims in Germany: A Practical Approach

As the Deputy Director of the German-Islamic Institute for Scientific and Cultural Cooperation and as an official advisor to the Central Council of Muslims in Germany I have been actively engaged in Islamic matters in Germany for the past years and I would like to share with you some information about the most important measure of the Central Council.

The Central Council was founded in 1994. It is the rooftop organization of 19 rooftop organizations. From its beginning it was actively involved in dialogue with the majority society, the media and politics, trying to promote the legitimate interests of Muslims in Germany vis à vis the authorities on the local, state and federal level. Following September 11th, 2001 the Central Council decided it was time to publicly declare in 21 chapters its points of view concerning.

- the basics of Islam,
- the attitude of Muslims towards the Federal Republic of Germany,
- the activities of the Central Council and its demands towards the majority society.

The headlines of the 21 chapters are as following:

1) Islam is the religion of peace.
2) We believe in a Compassionate God.
3) The Qûr'an is the verbal revelation of God.
4) We believe in the Prophets of God.
5) Mankind will be held accountable for their deeds on the day of judgment.
6) For Muslim and Muslima life's work is the same.
7) There are five pillars of Islam.

states: It is wrong to understand *rukûn* to include all types of cooperation. "There is no evidence for that. *Rukûn* in fact means "to acquiesce to the unjust" or "to be satisfied with their doings" or "to return to idolatry". These three meanings were derived by Al Tabari from the salaf (the worthy ancestors). *Tafsîr al Tabarî* vol. 15:500-501. Again these meanings are a far cry from an act of participation intent on promoting public interest and protecting Muslim minority from injustice.

3) Participation of Muslims in a Western political system is not an acceptance of the secular status quo. Positive participation is what showcases Islamic values and morals to civil society. Indeed, it is what refutes any "faith-less" secular status quo by offering peop e an illustration of the blessings of faith.

4) Participation does not desensitize Muslims into accepting the current status quo and interacting with it, to the detriment of the blessings of faith.

5) Concerning the argument that participation contradicts the intent of a temporary stay in a country and an eventual return to Dar al Islam, Al-Alwani states firstly that the categories "Dar al Islam", and "Dar al Harb" "stand on a weak foundation from a legal "Dar al-Kufr", perspective and secondly are not applicable to contemporary international realities..." He adds that this argument ignores the highly significant fact that Islam established its first society in a land of immigration, namely, "Al Madinah al Munawwarah".

This Fatwa was given in an American context, however I think it applies universally to Muslims as minorities in Western democracies, and I am glad that I can give you now some information about the activities of Muslims in Germany which follow exactly this pattern:

For me as somebody engaged deeply in German politics it never occurred to me to retreat to private circles, instead I have chosen the second path to be visible and to try to do something about the problems Muslims have in Western societies and do something for Islam. I was very glad, when I came across a Fatwa by one of the most renowned religious leaders of the United States: Dr. Taha Jaber al-Alwani, who said the following:

A Fatwa concerning Muslim minorities

"First it is the duty of American Muslims to participate constructively in the political process, if only to protect their rights, and give supprt to views and causes they favor. Their participation may also improve the quality of information disseminated about Islam. We call this participation a "duty" because we do not consider it merely a "right" that can be abandoned or a "permission" which can be ignored. It falls into the category of safeguarding of necessities and ensuring the betterment of the Muslim community in this country".

I think there is no evidence that this should only apply to Muslims in the United States, to me this seems very much like a general rule for all Muslims in a minority situation.

The Fatwa also deals with certain objection, of which I can only give a short summary:

1) Cooperation in the political field is not a blameworthy alliance "which is given to support those who do not believe in Allah s.w.t against the interest of one's own believing community. This is a far cry from the actions of those who cooperate with non-Muslims (believers as well as unbelievers) within the limits of "righteousness and equity" while continuing to work for the good of the Muslim community".

2) Political cooperation is not a type of *rukûn* (acquiescence) to those who do wrong, and which is prohibited by the Qur'an. Al-Alwani

General Questions Concerning the Activities of Muslim Minorities

Instead of going into the details of history, let me therefore focus on present times, and try to answer the following question: On what grounds should Muslims in our times interact or not interact with the people who represent the majority in their respective countries. I would like to begin with a personal experience and then share the view of a Fatwa concerning this question, issued by Dr. Tâhâ Jâber al-Alwani, Chairman of the North American Fiqh-Council and President of the Graduate School of Social and Islamic Sciences[1].

A personal experience in this matter

A short time after I had said the shahada in the Embassy of the Kingdom of Saudi Arabia in Germany I met my first German born Muslim. He started our conversation which I shall never forget with the following words. "My dear brother, welcome to our community. Now that you have become one of us you should know that there are two very different groups in our community:

The first group believes that the Western world is hostile to Islam, that Muslims are living there for different reasons, as refugees, in order to study or work... but that they should not mix with members of a society of non-believers and that they should not engage in activities in this society which are shirk, such as democracy, politics in general, dialogue etc. This group remains in a quiet and sometimes hostile attitude towards their host country.

The second group believes that it is the duty of Muslims to give a good example to their fellow citizens, to be a beacon, a lighthouse sending out the message of Islam, no matter where they live. They believe that they should obey the laws of their host countries, take an active part in its society, engage in dialogue and participate in politics."

(1) The full text of the Fatwa is published on the homepage of the American Muslim Council: www.amconline org/newamc/imam/fatwa.shtml

Historical Background

Reading books about contemporary Europe one will quite often find passages refering to the migration of Muslims to the different European countries. It is written that never before so many Muslims have migrated to and lived in non-Islamic countries and it is written that this poses a great theological problem for them, because Islam does not have provided rules for Muslims in non-Muslim countries. Like so many so called facts, which we find in Western books, part of this is true and part is not.

What is true indeed is the fact that never before Muslims have moved to the West, i.e. to Europe, in such large numbers. And new it is indeed for the Western societies. However moving to other countries, in other words migration, is nothing new at all to Muslims: The Prophet (prayers and peace be upon him) did it, and generations of sailors and traders did it, moving slowly towards the East.

Concerning the migration of the Prophet s.a.s. history and the success of his mission is well documented, concerning the migration of Muslims towards the East we do not know so much, because there are not many sources we can ask. There were not many centers where documents would have been stored and even less survived, because of tropical conditions being extremely hostile to anything written on paper.

However the most important aspect of the migration of the Prophet s.a.s. to Medina as well as the migration of merchants to the East is that - in the first case during a very short time in the second case over a period of centuries - the migration has resulted in the establishment of the first Islamic community and in the spreading the message of Islam to the extent that today the nation at the Eastern end of the Islamic arch is the nation with the largest Muslim population in the whole world: Indonesia. And this success story of Islam certainly did not happen by the Muslims' sitting at home, dreaming of going back one day and claiming it was forbidden to interact with others.

MUSLIM MINORITIES IN THE NON-MUSLIM COUNTRIES

By

ABDUL HADI CHRISTIAN H.HOFFMAN

Deputy Director Of

German-Islamic Institute For Scientific And Cultural Cooperation

Celle, Germany, www.dii-edu.de

INTRODUCTION

The traditional way to talk about Muslim minorities is to list up all the discriminations and problems Muslim minorities are facing in non-Muslim countries, ending up with a depressed audience, which spends more time in lamenting than in thinking about what could be done to make things better.

This is not my approach. Instead I would like to look - in sha' Allâh - at the possibilities for action which Muslims have as minorities, their religious foundations, and then give you an example of how Muslims in Germany have tried to do something about their situation and how they are trying to pass on the message of Islam.

First of all however I would like to begin with a short survey of an interesting pattern in the history of Islam, which is very much a history of migration and interaction with non-Muslims, which then lead to a spreading of the message of Islam.

5-11 Nov. 1998.

13- Al-Ahram Newspaper, 17 February 2002.

14- Anway, Carol L., Daughters of Another Path. Experiences of American Women Choosing Islam. Yawna Publications, Lee's Summit, MO, USA, 1996, p. 76.

15- Bednarz, Dieter, Allah- Mania. Spiegel Special (Rätsel Islam), No 1, 1998, p. 112.

See also: Spuler- Stegemann, Ursula, Muslime in Deutschland, Nebeneinander oder Miteinander. Freiburg 1998, p. 202 and note 226.

For more details see: Rohe, Mathias, Der Islam- Alltagskonflikte und Lösungen. Rechtliche Perspektiven. February 2001, pp. 152-153.

16- Shalabi, Ahmed et al., Islam between Truth and False Allegations. A Response to the False Allegations Against Islam. Publications of the Islamic Educational, Scientific and Cultural Organization, ISESCO. Rabat 1420 H/ 1999, pp. 84-85.

17- Ibid. p. 56.

18- Journal of Muslim Minority Affairs, Vol. 16, No 1, Jan. 1996, p. 129.

NOTES

1- The special definition of the term "Orientalism" coined by Edward Said in 1978, cannot be discussed in the limited frame of this paper. For the Muslim woman's image in European Mediaeval, Renaissance and romantic texts see: Kahf, Mohja, Western Representation of the Muslim Woman. From Termagant to Odalisque. Univ. of Texas Press, Austin 1999.

2- Akashe- Böhme, Farideh, Die islamische Frau ist anders. Vorurteile und Realitäten. Gütersloh 1997, p.15.

3- Pinn, Irmgard/ Wehner, Marlis, EuroPhantasien. Die islamische Frau aus westlicher Sicht. Duisburger Institut fur Spreach- und Sozialforschung, Duisburg 1995, p.6.

4- Mutazawija min al- Qa'ida. Newsweek, Arabic Edition, 15 Jan. 2002.

5- Journal of Muslim Minority Affairs (JMMA), Vol. 19, No 1, April 1999, p. 35 and notes 17-18.

6- Taylor, Pamela, vive la Hijab? Islamic Horizons, March/ April 1990, p. 25.

7- E.g. Bassam Tibi (Syria/ Germany), Fatema Mernissi (Morocco), Nawal El-Saadawi (Egypt) and Taslima Nasrin (Bangladesh).

8- Pinn, Irmgard, Iranerinnen und der Iran in der "Schleierliteratur". Speaktrum Iran, Vol. 3/4, 1996, p.33 and note 1.

9- Ibid., note 3. A similar story (but of an Iranian woman who escapes with her son) is" Azadi, Sousan, Out of Iran. Tornoto 1987.

10- Boston, New York, Toronto, London 1994.

11- E.g. Shakib, Siba, Nach Afghanistan kommt Gott nur noch zum Weinen. Die Geschichte der Shirin- Gol. Munich 2001.

Ellis, Deborah, Die Sonne im Gesicht. Vienna 2001. Latifa, My Stolen Face. A young Woman's Account of Life under the Taliban Regime, 2002.

12- Atia, Tarek, Bruce Willis versus Bin Laden. Al-Ahram Weekly,

In addition, it is neceaasry to improve Western schoolbooks teaching wrong things about Islam or neglecting the importance of Islamic civilization and its influence on Europe.

CONCLUSION

Since Muslim minorities living in Europe and North America have to face increasing rejection by non- Muslim societies after 11 September 2001, the predicament of Muslim minority women is even more difficult, because Muslim women are "the minority's minority" (18), suffering from the consequences of the Muslims' negative image in general, and from the biased stereotypes of Muslim women in particular, as well as from their marginalization as foreign women.

As the responsibility of Western mass media for partly forming and spreading these stereotypes cannot be denied, it is necessary to attempt to propagate a more positive image through the same media, showing the essence of the Islamic religion.

However, the difficult question remains: how to achieve this goal. The task of individually and collectively enhancing the image of Muslim women and men in the West, and by so doing, to improve their living conditions, is of vital importance to the future relations between the Muslim and the Western civilizations which are bound to coexist in peace.

inheritance and economic independence. Whenever it is repeated by Western media that the reality of Muslim women's lives is totally different from these ideals, it should be stated that unfortunately, in some Muslim communities, ancient ethnic traditions are taken for Islamic prescriptions thus depriving women of their Divine rights. For example, "a husband is not allowed to deprive a woman of her legitimate rights in life;.... If a few Muslims who stick to old customs or wrong habits do not abide by these Islamic attitudes to women, that is certainly considered an ignorance of Islamic ordinances and a misunderstanding of Islam's clear teachings." (17)

For this reason, it is equally important that Muslims exercise a reasonable kind of self- criticism and revise some of their thoughts and habits.

In order to exert influence on Western media and to correct the bad image of Muslims, it is necessary to adopt a new media strategy, which presents positive alternative images. Therefore it would be of great advantage to establish an Arab satellite television channel which targets the West and broadcasts valuable programmes in European languages presented by native speakers.

Besides, in European and North American countries, Muslim lobbies are to be established that alert and answer back to whatever is written and said about Muslims. Lobbyists should try hard to get their points across, and Muslim women's organizations could have a leading part in this. Conferences, seminars, workshops and exhibitions on Islamic topics as well as Muslim- Christian dialogue events should be conducted everywhere in the West which could lead to a positive coverage in the media. For this reason it is also necessary to train Muslim students in journalism and information technology.

While, the number of Western experts and Orientalists holding unbiased views on Islam is increasing, these people should be encouraged to make themselves heard in the media.

What sort of image should be projected and how could this be realized?

Even if the hope of presenting a more positive image is limited, no efforts should be spared to break down the biased stereotypes of Muslims that have been spread all over the West. Especially the alleged connection between Islam and terrorism, which has been established by Western media, is to be disrupted.

In this context it should be stressed that: "Extremism and intolerance are not stipulated by religion but, on the contrary, they result from an erroneous or incomplete conceptualization of Islam. The Prophet (MAPBUH) has noted that the extremist may become irreligious as a result of the incorrect interpretations and readings of his religion..... As for the allegation of terrorism, which has become attached to Muslims, it is drawn on the basis of the actions of very few individuals or groups which hide behind the mask of religion... Suffice is here to remember what the Qûr'an says about this: "Whoever killed a human being, except as a punishment for murder or other villainy in the land, shall be looked upon as though he had killed all mankind: and that whoever saved a human life shall be regarded as though he had saved all mankind." (5:32)

Islâm is a religion of tolerance and peace. It urges its followers to practice peaceful coexistence and dialouge with other religions and cultures. Since the general Western public has remained ignorant of Islam, it is crucial to convey the message about how this religion educates Muslims to be the opposite of what their negative image alleges: the seemingly uncivilized behavior of some Muslims and the allegations that they all are violent, ignorant and unreasonable, are strongly rejected by Islam which enjoins on its followers to be peacful, to search for knowledge and to use their reason.

Moreover, it is too little known in the West that Islâm grants women all their human rights: the right to life, to freedom, security, education,

public school systems. Following their traditions, many Muslim parents do not allow their daughters to participate in mixed sports and swimming classes or in school excursions if they have to stay overnight. As for the Federal Republic of Germany for example, the Federal Administrative Court ruled in 1993 that Muslim girls may not be forced to attend coeducational sports lessons. (15)

On the other hand, however, in many European countries, Muslim private schools have been established, and the same is the case in North America. In the USA, the possibility of home schooling is another alternative for Muslim children.

There can be no doubt that in many cases, the Muslim minority women have to face a double isolation: they no longer receive the traditional support of her extended family, neighbors and other women which she and her mother were enjoying in their country of origin. At the same time, a Muslim woman is isolated in her new home as a housewife and in public as a veiled women who is rejected by mainstream society. Moreover, often a lack of knowledge of the host country's language constitutes another reason for her isolation. Living in one of the "new ghettos" where foreign immigrants are concentrating, the Muslim minority woman often does not have any occasion to meet women of mainstream society. It addition, some ethnic traditions which immigrants have brought with them, may confine women to their house, denying them their rights granted by Islâm.

4. Towards the Improvement of the Muslim Woman's Image

It is important to note that the Muslim woman's negative image in the West cannot be improved without enhancing the image of all Muslims, men and women. But in so doing, there remain a few questions:

Is it possible to create a more positive image of the Muslims and to reverse the negative shift it has undergone since 11 September?

mentioned above, in France, Muslim schoolgirls were excluded from their classes in 1989 for this reason.

In February 2002, the Spanish minister of education declared that she was willing to prohibit any kind of clothing that could lead to racial discrimination in public. According to her, the immigrants' children should adapt to the customs and traditions of Spanish society. Soon after, the opposition Socialist Party declared its support of the minister's opinion. (13)

As regards Germany, female Muslim students at public schools are allowed to wear headscarves, but female Muslim teachers are facing difficulties with the Federal ministries of education. After having finished school, most of hijâb- wearing girls cannot find jobs since they are discriminated against in the labour market. Howeover foreign women with headscarve have always been found in the lowest positions such as unskilled workers or cleaners.

From a Western perspective, headscarves and veils are seen as symbols of the alleged suppression of women in Islam, and it s extremely difficult to believe that women could cover themselves voluntarily in order to fulfil religious prescriptions.

Similar experiences of discrimination have been reported by Muslim women in North America:

"Featured throughout an entire issue of Islamic International" (Vol.2, No7) (January 1994) was the topic, "Many of the women described the discrimination that occurred in the workplace when interviewing for jobs. Some had difficulty dealing with the jeers and name- calling experienced in various public places. One stated that she feels that non-Muslim women are more offended by the head- cover than the non-Muslim men." (14)

Another serious problem for Muslim minority women is the type of schooling their children receive in Western secular and co- educative

prevented from education and employment because of their excessive veiling, and that Islâm does not grant them their human rights.

What concerns the Western film industry, after having indulged in films of exotic Orientalism in the past, Hollywood, too, shifted into Islamophobia when it produced movies like "The Siege", released in November 1998. This film depicts Arabs and Muslims as monsters and terrorists who are said that "they are out to destroy our (the West's) way of life." (12)

3. The Problems of Muslim Minority women in Europe and North America

When male Muslim immigrants to the highly developed industrial countries of Western Europe became indispensable for the economies of their host countries, they were allowed to settle and bring their familes. Thus the myth of the immigrants' return to their countries of origin had disspiated and they found themselves living in multicultural and religiously diverse societies, a reality that caused various problems for them.

Often mainstream societies did not accept Muslim immigrants and refused to let them settle. Moreover, the immigrants' religious identity seemed to be endangered, and Muslim parents started to fear that their children might be drawn away from religion. Although this was often the case with the second generation of Muslim immigrants, nowadays, young people of the third generation have recovered their identity in the Islamic religion. The reason for this phenomenon can be found in the growing racism and rejection many Muslim immigrants in Western countries have to face, and that mitigates against their sense of being or becoming French, British, or German.

Regarding Muslim minority women, they moreover are confronted with special problems, which are, in many cases, related to their outer appearance. It cannot be denied that those who wear hijab are often discriminated against in schools, the working place, and in public. As

of such books on veiled and supposedly Muslim women has led to the appearance of a new genre of literature which is called "Schleierliterature" in the German language. (8)

One of the most famous and worst expressive of this genre is Betty Mahmoody's "Not without My Daughter" (1987), the real life story of an American woman married to an Iranian who forces her and their daughter to stay on in Teheran at the end of their visit. After eighteen months of ill- treatment by her husband and negative experiences with exponents of the Islamic Revolution, the American wife is able to escape together with her daughter. Until 1992, this book had been sold in 12 million copies and translated into nineteen languages (9). A film made after it in 1990 had similar success.

Both book and film throw an extremely negative light on Muslims and Iranians and depict bicultural marriages as doomed to failure. Western, especially American culture is portrayed as superior to the Islmaic one which cruelly oppresses women. Throughout the book, the author's racist prejudices can be traced.

On a higher intellectual level but similarly biased is the book of British- born journalist Jan Goodwin: "Price of Honor. Muslim Women lift the Veil of Silence on the Islamic World." (10). The author who spent four years in the Middle East, interviewed Muslim women of various social and cultural bckgrounds in ten countries. Unfortunately, this book too, reflects the West's fear of Islâm and Islamists and corroborates its bad image of Muslim men and women.

Following the great interest of Western readers, literature of this kind has accumulated in European and American bookshops. Naturally, in the aftermath of 11 September, numerous books dealing with the plight of women in Afghanistan have been published. (11)

The restrictions to which Muslim women were submitted during the Ṯalibân regime, when they were deprived of education, work and health care, have confirmed the West's allegations that Muslim women are

leftists who, for the sake of multi- cultural harmony, tend to overlook tendencies towards brutal hostility to women, as well as anti- Semitic and anti- democratic attitudes."

The situation in France is similar: when in Autumn 1989, three Muslim girls were excluded from school because of their headscarves, a bitter debate on all levels was initiated. In the newspaper coverage, facts were distorted:

Almost always hijâb was portrayed as oppressive. Furthermore, although initial article described the girls as wearing a scarf tied under their chin, and pictures showed them dressed in French styles with the scarf added, the newspapers often referred to them wearing chadors or veils, and cartoons showed fat women swathed in black from head to toe, faces covered. This kind of misleading is subtle, and fuels fears of "the other" and incompatibility with French identity that is so prevalent in France." (6)

Biased attitudes towards Muslim men and women are also often displayed in television talk shows and reports as well as in radio programmes where so- called experts on Islam are frequently invited to explain events and phenomena to the public. Among these experts, journalists, scientists, writers and other intellectuals can be found. Some of them are of Muslim and Middle Eastern or North African origins. It is, however, remarkable that most of these "Muslim experts" are Western- orientated secular intellectuals who are unable or unwilling to represent authentic Islamic views. (7) Nevertheless, Western audiences tend to believe everything such experts allege.

Another factor influencing the Muslim woman's image in the West is the kind of literature (real life stories, novels, autobiographies, reports, etc.) which deals with the lives of women in Islamic countries, both nationals and foreigners. Frequently the covers of these books show pictures of veiled women in order to sell better because Western readers are still fond of stories from the "exotic Orient". The increasing number

the image of the Muslim terrorist's wife who believes strongly in her husband's ideas and defends him fervently but does not have any knowledge of his criminal activities. (4)

2. The Role of Western Media, Literature and the Cinema in Perpetuating the Negative Image of Muslim Women

Although the negative shift in the Muslim Woman's image has been intensified after the events of 11 September, various studies have shown that the stereotyping of Muslim women in the Western media, literature and the cinema had already started a long time before.

In his researcher entitled" "Islâm, Muslims and Arabs in America. The other of the other of the other....", Michael W. Suleiman writes as early as in 1999: "There have been many scholarly studies of the American press and its coverage of the Middle East. Alomst unanimously, these studies ahve shown that there is press bias against Arabs/ Muslims..... Muslims and Arabs are routinely portaryed in a negative light on television and in movies. Often, they are presented as unreasonable, if not stupid, primitive, sex crazed, aggressive and violent. The women are seen as uneducated, oppressed and docile." (5)

When the most famous political magazine in Germany, "Der Spiegel" presented a special issue on Islam in January 1998, the cover-page showed a part of the face of a veiled woman with an eyebrow in the shape of a scimitar, a symbol of the assumed "Islamic threat" which is familiar to Western readers. The accompanying headlines read as follows:

"Global power behind the veil: The enigma of Islam.... Politics: Advance of extremists. Immigrants: German beneath the headscarf?"

In the preface to the same edition, Jochen Bölsche wrote:

"In the Federal Republic (of Germany) the attitude towards Islam ranges from bare horror at the right, which too often, is fed on ignorance and exenophobia, to romantic, revolutionary feelings of solidarity by

Moreover, some of these prejudices have been corroborated when large numbers of Muslim immigrants arrived in Western European countries during the fifties and sixties of the last century. In Great Britain, Pakistani and Indian communities from the Commonwealth have spread, whereas in France, Muslim immigrants originate mostly from North Africa. Former West Germany however, had called Turkish workers, the "Gastarbeiter" during the sixties. Nowadays, the numbers of Muslim migrants to Europe is 15 millions approximately, with more than two millions living in Great Britain, six millions in France and three millions in Germany, the countries with the largest Muslim minorities.

Many of these Muslim immigrants originate from poverty- stricken rural regions or from the urban working classes of their North African, Middle Eastern or South Asian native countries. The problem is that their lifestyles and customs are often regarded by Europeans as authentic Islamic ways, although many of these patterns of behavior have nothing attributed to Islâm.

At the same time, the increasing trend to reject foreigners and especially Muslims, a trend found in Western European countries even before the tragic events of 11 September, can be seen in various forms of "Islamophobia", and the fear of militant Muslims. Unfortunately, in the Western media, much more attention is paid to extermist voices than to the peaceful majority of Muslims who are not conspicuous.

Since the Iranian Revolution in 1979, for example, a new and even more reprehensive image of the Muslim woman has appeared in the West, namely that of the militant, extremist, so- called "fundamentalist". Masses of demonstrating women, clad in black chadors and denouncing the West as "the great Satan" have occupied Occidental television screens, while after 11 September 2001, it is the picture of Afghan women in their thick burqas which seem to prove the allegation that Muslim women are totally subdued. Nowadays there exists moreover

negative development took place. In answering this question, first of all, it should not be overlooked that for many centuries, the Occidental image of Muslim men has been rather negative, too. They have been depicted as cruel, insidious, sensual, ignorant and uncivilized. It is indeed a thoroughly hostil imaging due to long historical periods of conflict between the Christian Occident and the Islamic Orient as manifested for example in the Crusades and the Ottoman conquests in Europe. This image reduced Muslims to enemies of Western values and civilization, and therefore it cannot be surprising that in the Western imagination, Muslim women, have similar reprehensive features: they are frequently depicted as helpless creatures, confined to the family, uneducated and backward. (3)

Thus the romantic 18th century image of the fascinating Oriental woman living behind the high walls of a "hareem" was substituted by an ugly one: namely that of a dull, suppressed woman, completely dependent on her husband and male relatives whose only aim in life is to have children and to do the house- work. In this context, it is worth mentioning that in Western European countries, the roles of mothers and housewives have rapidly lost their high reputation after the 1968 social revolution. Instead, a new female role model was offered: the emancipated, independent, highly educated, empowered career woman who competes with men for all positions.

As in all spheres of contemporary life, the West evaluates the progress of nations and societies according to the standards it has set itself: "West is best". Consequently, Muslim women are seen as backward, unemancipated and unintelligent. One of the reasons for this alleged state is found in certain cultural practices of Muslim peoples, that are wrongly conceived by many Westerners as authentic Islamic. Thus religion is falsely blamed for the backwardness and ignorance of some of its adherents. Unfortunately in the West, still a widespread ignorance of Islam is prevailing in combination with old prejudices relating to Muslims.

compiled in Iraq and Egypt during the Middle Ages and reached Europe in the early 18th century where it was first translated into French. The famous tales had great influence on European writers, painters and composers who invented images of fascinating Oriental women in the seclusion of their hareems, when this kind of Orientalism (1) became fashion in the 19th century. At the same time, Western travelers wrote about their experiences in Muslim countries while mixing reality with fiction.

Accordingly, Muslim women of the Middle East and North Africa were seen as mere objects of men's sexual desire. Western imagination was incited because the veil made Eastern women more interesting (2).

In the Western racist perspective of "the exotic other", the Muslim woman was a mysterious, sensual and child- like creature without intellect.

During the 20th century, however, the Muslim woman's image was transformed due to political and social change. After the fall of the Ottoman Empire, which had been known in the West as the stronghold of "hareems" filed with exotic women, the Europeans' romantic dreams of the Orient were dispersed. Muslim populations were colonized by Western powers, and after they had won their struggle for independence, the newly emerged Islamic nations had to strive for their economic and social development. In many countries, Muslim women were participating in these efforts, contributing to education, science, work and public life. There can be no doubt that Arab, Turkish, Iranian, Pakistani and other women have been playing important roles in their nations' developement. They were able to reach the highest positions possible, as Prime ministers, ministers, ambassadors, directors and professors, whereas until now, no woman has reached the position of the president of France, Russia or the United States of America.

But despite all these achievements, the Muslim woman's image in the West went from bad to worse. Thus it has to be asked why this

derived from the primary sources, the Glorious Qûr'an and the Sunna of Prophet Muhammad (PBUH), has been guaranteed and integrated in Shari'a Law, as for example, the right to life, justice, freedom of religion and conscience, and all other basic human rights.

In this context, too, the West has maintained the erroneous notion that Islam is a religion which degrades and oppresses women.

The stereotyping of the negative image of Muslim women has been repeated and spread by most of the Western media in countless television programmes and newspaper articles. Even in Western literature like fiction and supposed reports of first- hand accounts, the alleged plight of women living under Islamic law is depicted vividly.

In this paper it is attempted to throw some light on the Muslim woman's image in the West, its history and development, as well as the role of Western media, literature and the cinema in perpetuating its repugnant features. It cannot be denied that this image exerts a negative influence on the relations between Islamic minorities in Europe, as well as North America and the non- Muslim societies surrounding them. There can be no doubt that it constitutes one of the causes for the problems for many Muslim women living in the West.

Summing up, the question is raised how a more positive image of the Muslim could be established in Western countries.

1. The Muslim Woman's Image in the West: From Orientalism to Islamophobia

In the course of the history of Islamic- Western relations, the Occidental image of Muslim women has undergone remarkable changes influenced by political and cultural developments.

Among the few sources of questionable pieces of information Europeans found about Muslim women in the East, was the famous collection of Oriental tales "The One Thousand and One Nights", also called "The Arabian Nights" which after Indo- Persian origins, was

MUSLIM MINORITIES IN THE WEST and the problem of the Muslim woman's image

By

IRIS SAFWAT M.A.

Member of the International Islamic Committee for Woman And Child (IICWC) of the International Islamic council for Da'wa and Relief (IICDR), Cairo, ARE.

INTRODUCTION

The current discussion in the Western media as well in political, cultural and academic circles which has been intensified by the tragic events of 11 September 2001, concentrates on the question of the future of the relations between the Islamic and the Western civilizations.

However, even before these events, took place that are said "to have changed history", the participants in Islamic- Christain or Islamic-Western dialogue had been confronted by the problem of different value systems immanent in diverse cultures.

Representatives of the West have accused Islam falsely of being intolerant of the adherents of other religions, without taking into consideration that the Glorious Qûr'an preaches tolerance: "Let there be no compulsion in Religion" (2/256), and the Islamic law grants non-Muslims all their vital rights in addition to their special protection.

Another Western assumption is that human rights are not recognized by Islam. In reality, however, the Islamic concept of human rights,

That is why the Glorious Qur'ân says: " Allâh creates and recreates" and recreating is the law of all Divine Revolutions. That is why we, as Muslims from the West see in the Dialogue among Civilizations, not a new Ecumenical Religion. It is not a new ideology but a new way of living ONENESS and DIVERSITY.

Finally, I want to say to all my Muslim brothers who are present in this XIV International Conference of Cairo, that as a Latin- American Muslim I think that in this research about Dialogue among Civilizations there must exist some postulates that can be called universal, and without which this idea will never be developed. These postulates are:

1. Sources of Faith.
2. Mutual Respect.
3. Equity and Justice.
4. Rejection of Fanaticism and Tolerance.
5. Recognition of each other.
6. Universality of Religion.
7. Reform of Education.
8. Searching of Universal Ethics.
9. Rejection of all forms of hegemony.
10. Moral and material help to people and communities victims of Genocide.

Assalâmualaikum Wa rahmatuAllâh Wa barakâtuh.

---

*Founder and President of Islamic Center of Colombia.

Diagonal 22B # 43A 13 Quinta Paredes, BOGOTA D.C., COLOMBIA

Tel. 57-1-2447523 Telefax 57-1-2449824

E-mail centroculturalislamico@hotmail.com

E-mail ccultislamico@007 mundo.com

its objective is not to conquer but to understand us. The biggest enemy gives the dialouge they are the established papers, the masks and his projections; apart from the disagreement there must exist a shared desire of arriving to an understanding and solutions.

The topic of the dialogue among civilizations is a debate, which has been in the West for nearly 25 years, and in our country, Colombia, has about ten years; it started in 1993 through the ISLAMIC CULTURAL CENTER. This debate has been essentially academic. And very soon the media and the universities knew that our objective was to inform the public in our country about all the different topics related to our civilization and not to catechize or to convert the Colombian people into Isalm.

What characterizes a civilization is essentially that it has a spiritual right, which goes back to eternity. The Dialogue among Civilizations is not a new religion neither a new ideology; it is a new method to help in the restitution of the right of civilization to defend its eternal postulates and to harmonize them with the fundamentals of other cultures and civilizations that have common goals. The main reason that prevents a war among civilizations is because there cannot be a war between eternal and universal principles. War among civilizations was invented by some materialist systems which have for centuries been trying to take out from mankind its transcendental and metaphysica essence.

Today Islâm has a more spiritual authority than any other religion to speak about Dialogue among Civilizations. Because it was just the Islamic civilization that had more contact with the other religions of the world. Islâm found Zoroastrism and Maniqueism in the Sasanid Empire.

Islâm absorbed slowly small communities in which subsisted traces of ancient Hellenistic cults, specially the Sabean Community of Harrân, that considered itself heir of the most esoteric aspect of the Greek tradition. Islâm found Buddhism in the Northeast of Persia, in Afghanistan and Central Asia; also Islâm found Hinduism in the Sind and in many other parts of the Hindu Continent. Even, there was contact with the Mongol and Siberian Shamanism in the popular environment. Specially, trough the Turkish, that practiced Shamanism before their conversion to Islam. In addition, Muslims in Sin kiang were in direct contact with the Chinese tradition.

some photographic postcards of the great ancient civilizations and much less greetings and cordial visits of diplomats, spiritual leaders and politicians of our time. The dialouge among civilizations is above all an educational and pedagogic process that has an essential mission to recognize the universality of spirituality, the sources of faith and the recognition of the other one as vital elements to reach peace and fraternity of all the cultures and nations.

For these reasons and the outlines that the conflicts of our times are taking, it is very urgent to work for the establishment in the universal environment of a PROFESSORSHIP OF DIALOGUE AMONG CIVILIZATIONS obligatory in the academic programs, in high schools and universities of all the globe.

The objective of this establishment is to inculcate in the students the love and the respect for the big manifestations of the universal spirituality that are determining our destinations. Equally, it will contribute to develop and to specify concepts that day per day are quite ethereal, as freedom, peace, human rights, divine right, democracy, ecology, university, etc. It is necessary that our worlds understand the difference among sacred civilizations and what is now called modern civilization which doesn't have as source the religion now and it is above all secular and humanist.

The modern man is the one who imagines the religion is one thing and the civilization is another; for that reason he considers that, religion is not progress but stagnation. It is necessary to overcome the dichotomy that manages our educational systems in the West that separate the religious history abruptly from the universal history. The so called modern man sees the great Prophets as legends and myths, more than historical realities, and it has been the greatest triumph of the materialist systems against civilization. That is why it is not strange that recently we hear and read about the "end of history", the definite triumph of liberal capitalism, the death of ideologies, the unavoidable war among civilizations and so many other fatalisms.

The dialogue among civilizations is not a new ecumencial religion, it is neither a new ideology but a new method to harmonize the eternal truths and the reformation of the academy is vital to reach this goal. The dialogue among Civilizations is an investigation, not a competition and

DIALOGUE AMONG CIVILIZATIONS AND REFORMATION: THE ACADEMY

Doctor Julián Arturo Zapata F. (Alî Ridâ Colombia)

Assalâmu alaikum warahmatu Allâh wabarakâtuh.

"And say to those who do not believe: Act according to your state; surely we too are acting....." (The Qur'ân, 11:121)

As Colombian and American it levies me a deep emotion when being once again in Latin this sacred land, the Land of Hermes Trismegisto, Moses, Aaron, Asiah and Joseph. That they shone higher than the Sirio star, that star of piercing brightness (The Glorious Qur'ân 86:3) (*annajmuth thâqib*). On these lands covered by the Nile, the *perennis* philosophy of Hermes and the revealed prophecy of Moses (Peace be upon him) wrote one of the most beautiful pages of Human History. From the mount of Sinai to the sanctuaries of Imâm Husayn and Zaynab Al-Kubrâ (Peace be upon them), here in Cairo, the absolute monotheism built a guide for those travelers and navigators who had the highest spirituality, spirituality higher than the Lighthouse of Alexandria, and more solid than the Pyramids and the Sphinx of Giza Valley.

It is not a chance that we are here analyzing the destinies of our civilization, just some meters far from the magical waters of Nile River, the great generals of the western world also felt the same mystic, Great Alejandro (Eskandar), Julio Caesar and Napoleon. It is for this reason that the noble Egypt together with Persia, Turkey and the Magrib will continue being for centuries, vital geo-strategic scenarios for the Dialogue among Civilizations.

The Dialogue among civilizations is not a simple motto, neither

Al-mughnî fî abwâb al-tawhîd wa-al-'adl, vol. V, ed. M. al-Khudayri, Cairo, 1960, p. 80.

[11]See R. McCarthy, The Theology of al-Ash'ari, Beirut: Imprimerie catholique, 1953, pp. 211f., translating Ibn 'Asakir, Tabyin kadhib al-muftari.

[12]Further, alAsh'arî's relatively brief exposition of orthodox beliefs, the Risala ila ahl thaghr bî-bab al-abwâb, ed Qiwameddin, Ilahiyat fakultes; meomuasi 8, 1928, pp. 80-108, al-contains expositions of Islamic teachings as proofs against other faiths in an integrated structure that may represent the general outline of his understanding of the relationship between the two.

[13]Ed. K. Kholeif, Beirut: Dar al-Machreq, Editeurs, 1970.

[14]See U. Rudolph, *Al-Maturidi & die sunnitische Theologie in Samarkand*, I eiden: Brill, 1997, pp. 223-35; the discussion below disagrees with the structure presented by Rudolph in several particulars.

[15]See D. Thomas, "Abû Mansûr al-Maturidi on the Divinity of Jesus Christ", *Islamochristiana* 23, 1997, pp. 43-64.

[16]Various editors, Cairo: Dar al-Misriyya li-al-ta'lif wa-al-nashr, 1960-65.

[17]Since the extant work is incomplete, the contents of the first volumes have to be inferred from references elsewhere in the *Mughnî* and from other shorter works by 'Abd al-Jabbâr which bear the same structure. See J.R.T.M. Peters, God's Created Speech, Leiden, Brill 1976, pp. 25-35.

[18]Mughni vol., V., pp. 80-151.

[19]See Thomas, *Anti-Christian Polemic*, pp. 46-50.

Notes:

[1]D. Gutas, Greek Thought, Arabic Culture, London and New York: Routledge, 1998, chs 3 and 4.

[2]See D.J. Sahas, *John of Damascus on Islam, the Heresy of the Ishmaelites,* Leiden: Brill, 1972, pp. 132-41, for a reprint of the original text from Migne, *Patrologia Graeca* vol. 94, cols 761-73; and see also R.G. Hoyland, Seeting Islam as Others Saw It, a Survey and *Evaluation of Christian. Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islâm,* Princeton: the Darwin Press, 1997, pp. 480-9, for a careful evaluation of the facts concerning his biography, and a short discussion of John's account of Islam.

[3]Abu *'Uthman al-Jâhiz, Al-radd'ala al-Nasârâ,* in J.Finkel, ed., Thalath rasa 'il li-Abu 'Uthmân... al-Jâhiz, Cairo, 1926, pp. 19f.; trans. J. Finakel, "A Risâla of Al-Jâhiz", Journal of the American Oriental Society 57, 1927, pp. 331f.

[4]See the tenth-century bio-bibliographical compendium, the *Fihrist of Ibn al-Nadîm, trans.* B. Dodge, The Fihrist of al-Nadim.

[5]See G.Monnot, *Islâm et Religions*, Paris: Maisonneuve et Larose, 1986, ch.2, particularly pp.50-9, for a list of titles of the known works from the ninth and tenth centuries.

[6]See D. Thomas, "Abû 'Îsâ al-Warrâq and the History of Religions", Journal of Semitic Studies 41, 1996, pp. 275-90.

[7]Ed. and trans I, di Matteo, "Confutazione contro i Cristiani dello zaydita al-Qasim b. Ibrahim", Rivista degli Studi Orientali 9, 1921-2, pp. 301-64.

[8]The first two are edited and translated in D. Thomas, Anti- Christian Polemic in Early Islam, Cambridge: Cambridge University Press, 1992; the third is edited in the same author's, Early Muslim Anti-Christian Polemic, Abû 'Îsâ al-Warrâq's "Against the Incarnation", Cambridge: Cambridge University Press, 2002.

[9]See Thomas, Anti-Christian Polemic, pp. 61-5.

[10]From Abû 'Alî's lost refutation, quoted in 'Abd al-Jabbâr,

The whole attitude embodied in this theological tradition of incorporating non- Islamic doctrines into the structure of Islamic teaching is, of course, based upon the Qur'anic principle that Islam is sent as the fulfillment of previous revelations, the full form of which they were originally a partial experssion and the corrective to the errors that have crept into other faiths in the process of time. It might be seen as a dialectical expression of this principle, in that it examines past experimental forms of theology and brings them into relationship with the true and full expression. In doing so, it identifies the precise points at which they have gone wrong, and at the same time employs them to highlight the true version which it sets out alongside them. As we have discovered, the relationship between the presentation of positive doctrine and refutation of non- Islamic teachings in the systematic works discussed above affect each other by their simple juxtaposition.

We see then, that at least in the early centuries the relationship between Islâm and other faiths served in part to assist the development of Islamic theological thought. Muslim theologians appear to have been as keen to learn from the mistakes of others as to identify and denounce them. And in this respect their attitude towards other faiths cannot be termed purely negative. It was through other faiths that they seem to have reached a deeper understanding of their own, and of the need to maintain the purity of logical exposition. Without the requirement constantly to maintain its distinctiveness from Judaism, Christianity, dualism and other forms of religious expression, Islamic theology might never have attained the precision and comprehensiveness that make it the impressive and sometimes awesome achievement it so clearly is.

that the teachings of Islâm conform to the dictates of objective reason to such an extent that they actually ambody them. This is already discernible at the beginning of the history of inter- religious polemic in the short work of al-Qasim Ibn Ibrâhîm, where in his introductory argument the Imam first demonstrates on logical grounds that God must be one and unrelated to other beings, and then quotes a number of verses from the Qur'ân which attest to this very truth. And it is also evident in al-Maturidi and 'Abd al-Jabbâr's systematic works, where they first establish the sources of knowledge (the former admitting revelation, and the latter preferring reason alone), and then proceed to establish the structure of Islamic teachings upon them. They each build up their theologies as natural and almost inevitable elaborations, and make them appear to be the only acceptable expression of understanding that reason will allow.

And here is to be found the explanation for the manner in which non- Islamic faiths are treated in this theological tradition. For since the Islamic structures of theology are based upon and embody reason they must demonstrably be correct, from which it follows that alternatives can be shown to be incorrect and flawed in terms of their own claimed internal coherence. Thus, for al-Maturidi the Christian claim that Jesus is somehow divine can be proved wrong both in terms of what Christians agree about the nature of God and according to a right reading of Christian scripture itself. And for 'Abd al-Jabbar the doctrines of the Trinity and Incarnation can be repeatedly shown from many angles to contradict the dictates of reason, and can be adduced as object lessons which simultaneously prove that Islamic theology is right and that aberrant forms of its constituent doctrines are wrong. If the teachnigs of other faiths are attempts to present the truth of God and creation, in the same way that Islâm does, and they arrive at different conclusions, they can have no major value than to exemplify what is wrong and highlight what is right. In themselves they are distroted and misguided, and their purpose can only be to show the logical pitfalls in the path of those who err from the truth.

ɔm encounters with Christians themselves: the doctrine of the Trinity n either be treated as a rhetorical metaphor for true monotheistic ·lief, or can be refuted in terms of the logic of that belief.

So we see in 'Abd al-Jabbâr even more emphatically than in -Maturidi that debates with other faiths, and especially with hristianity, are more important for the manner in which they relate to ιe positive Islamic doctrine that is being presented than for their ·levance to actual encounters themselves. Both of these theologians 'om the tenth century, together with others who could also be cited, ppear to be continuing the tradition which can be detected in reliminary form in the earlier Muslim scholars discussed above. They ·fer to non- Islamic faiths as instances of teachings which depart from ıeir own in that very movement of departure exhibiting the features f error and illogicality. Thus the practice of refuting them contributes ı a subsidiary way to the presentation and defence of Islamic thought s cogent, coherent and the only logical construction of truth.

The distinctive feature of this traditions is that it reduces non-slamic faiths to bare representative principles. These are presented in he form of schematic propositions which may be clearly addressed ınd conveniently refuted. So, its primary purpose cannot be to find ıny direct confrontation between Muslims and others, but as we have ›ointed out above to assist in establishing the truths of Islamic thought tself. In order for this function to be fulfilled, an alien faith will ypically not be represented in the form in which its adherents 'ecognise it, but through selected doctrines that reflect the particular slamic dogma they are supposed to subvert. And the activity of 'efuting them according to principles of logic established at the outset ɔf the treatise, or following internal contradictions they bear in :hemselves, both vindicates the relevant Islamic belief, and, more seriously, demonstrates that within the system no alternative to the belief itself carries rational conviction.

The assumption upon which this approach is based is, of course,

Christianity shows eloquently that he was at least as interested in its teachings for their contrast to his own Mu'tazilite views about God as for their own sake. And the actual structure of his arguments demonstrates that he had little interest in Christianity as a faith, and more in the particular doctrines in which it contrasted with Islam. For one thing, he hardly bothers to describe any other doctrines apart from the Trinity and Incarnation, and for another his presentations of the two doctrines in the course of his refutation are schematised and abstract, with little resemblance to anything held by contemporary Christian denominations. He certainly knows about the Nestorians, Melkites and Jacobites, but the sources of information which he acknowledge and from which he borrows anonymously[19] do not seem to include any Christians. In a word, his treatment of the doctrines he attacks is remote from real encounters with Christians, and possesses the qualities of an academic exercise. It is easier to imagine his attacks resulting from solitary reflection upon Christian doctrinal formulas than from the uncertainties of live debate.

This is evident in 'Abd al-JAbbâr's very first argument against the Trinity, which runs as follows: If the Christians do not say that the divine Persons (aqanim) are equivalent to essences which possess attributes than they differ from the (Mu'tazilite) Muslims only in the form of words they use; but if they do say that God is three essences, then they are like the followers of Ibn Kullâb (an earlier opponent of the Mu'tazilites, who held that God's attributes derived from actualities in his essence) and their position can be refuted by proofs already established earlier in the Mughnî (p.86). This is extremely concise and is directed mainly at the central point of the Christian doctrine rather than at any version which Christians might themselves present in debate. Furthermore, it is articulated in the terminology and form of Muslim reflections on the divine attributes, as the easy comparison with the *mutakallim Ibn Kullâb* shows, and pays little regard to the concept of divine "Person" as Christians might attempt to explain it. There is no sign of this reductionist theorem having arisen

related topics. The whole is an elaborate explanation and defence of God's being and ways, and an attempt to explain how all events and activities are part of his just dispensation.

The striking feature of this great compendium of theology is that, like *al-Maturidi's Kitâb al-tawhîd,* it combines refutation of oppoenets with its exposition of Islâm according to Mu'tazilite principles. Thus, to give just one brief example, in connection with its argument in favour of God giving his guidance through the Prophet Muhammad, it attacks the Jewish rejection of him and his authority. Here, this one aspect of Jewish beliefs is chosen out as the most vivid representative of those who deny Muhammad, and 'Abd al-Jabbar's arguments against them serve almost as a reverse of his arguments in favour of the prophethood of Muhammad.

The same is true of 'Abd al-Jabbâr's refutation of Christianity. This comes at the end of the first major section of the *Mughni, in Part Five* which concludes the exposition of God and his characteritics. Of course, as a Muslim and Mu'tazilite 'Abd al-Jabbâr has argued so far that God is one in being, with no hint of division in his essence. Then, as a conclusion he turns on the various dualist religions about which he has knowledge, on Christianity,[18] and finally the Sabians and pre-Islmaic Arab idol worshippers.

The reason for this procedure is immediately obvious. The dualists all assert that there is not one divine principle but two, and so they pose a threat to absolute monotheism as well as presenting examples of chaotic and unsustainable argumentation. And the Christians compound these departures from the truth and rational method by asserting that God is divided within his own being, and further that he compromises his divinity by uniting with a human being. Thus they present rival claims, and also provide an excellent opportunity for shoowing by logical means thay any alternative to strict monotheism is confused and self- contradictory.

The very position itself in the Mughnî of 'Abd al-Jabbâr's attack on

claim that Jesus was divine, insisting that he was no more than a human being. This, of course, conforms to the teaching of the Our'ân about Jesus, but given the wider purpose of the section it would appear that his immediate intention in selecting this aspect of Christian doctrine is to emphasise that messengers from God can perform miracles and be especially guided by God, and still be human and created. Thus what may appear to be primarily an attack on Christianity is in essence a form of negative demonstration that prophethood entails election and support by God while not exceeding the boundaries of humanity. It is not an attack on Christianity as such, but a supporting coda to the main argument of the section about the nature of prophethood. Here, the attempt to address the range of Christian teachings has been abandoned, even though al-Maturidi refers at some length to belief in the Trinity in the introduction to his attack. Refutation has been reduced to an aspect of the discipline of theology.

A second example from the same period corroborates this conclusion by showing a similar use for anti- Christian polemic. This comes from the tenth- century Mu'tazilite scholar 'Abd al- Jabbar al-Hamadhânî (d. 1025), whose writings culminated in the encyclopaedic theological work, *Al-mughnî fî abwâb al-tawhîd wa-al-'adl*, "The *Summa* comprising Chapters on Divine Oneness and Justice".[16] This is a great twenty- part exposition of Islamic beliefs, structured according to the main principles of the Mu'tazilite theologians, divine unity and justice, or in other words inquity into the nature of God's being and His just actions towards the created order. The first five parts are concerned with the being of God in Himself, beginning from proofs for the existence of a Creator and moving on to discussions of his attributes, and what can and cannot be predicated of him.[17] Then parts six to twenty contain extended discussions about God's actions, which are always just, human resposibility, the duties which God imposes upon humans, including those discernible by reason and those only known by revelation, God's punishment of wrong doing, and other

purposive God as the Creator and Guide of the world. Al-Maturidi's arguments against them bring to an end his major presentation of the Islamic doctrine of God, which contrasts starkly with these contrary speculations.

A second example occurs in the third section of the *Kitâb al-tawhîd* where al-Maturidi takes issue with two heterodox Muslims, Ibn al-Râwandi and Abû 'Îsâ al-Warrâq (whom we have already encountered), who appear to deny the concept of prophethood and reject the evidence in support of Muhammad's Prophetic claims (pp. 186-202). It is not surprising that al-Maturidi's arguments against these unusual opinions form part of his presentation and defence of the function and importance of Prophets as the channels of communication from God to humanity.

It becomes apparent from these two and other examples that could be adduced that al-Maturidi links his attacks of opponents with the particular theological point of which their teachings provide a contrary or negative illustration. In this way his refutations serve the double purpose of demonstrating the error of alternative beliefs and of reinforcing the correstness of the one form of belief that he presnts. He thus makes refutation an integral constituent of theological discourse, where it highlights the properly expounded teachings by instancing the outcome of inappropriate methods applied to unfounded sources of knowledge.

This application of the teachings of opposing individuals and groups as an auxiliary to theological presentation appears to be more important to al-Maturidi than accurate refutation itself His attack on Christianity makes this plain.

This attack forms the conclusion of section three of the *Kitâb al-tawhîd*, on prophethood. It is relatively brief, and incorporates a number of topical arguments whose appearance in earlier Muslim authors suggests they may have been part of a polemical tradition.[15] But al-Maruridi shapes them all into a single rejection of the Christian

from the contingent nature of the world to the existence of God and his attributes, especially knowledge and creativity. The third section builds upon this by arguing that God communicates with his creation through prophets who are the key to the relationship between God and humankind as the channels of his guidance and commands. Supreme among them is, of course, the Prophet Muhammad. The fourth section examines how divine activity in the world establishes moral norms and how humankind may respond to these or not. And the last section demonstrates the elements of faith, and what belief comprises. So, in a loose, not always obvious progression, the *Kitâb al- tawhîd* presents a comprehensive explanation of the nature of transcendent and mundane reality, and defends the universe as a purposeful domain in which humankind are given guidance from God which enables them to live a moral life and fulfil their obligation to respond to their Creator.

An important aspect of this interrelated progression of arguments is its series of rejoinders individuals and groups whose main teachnigs conflict with those presented by al-Maturidi. In fact, the work is almost as much a refutation of mistaken and heterodox beliefs and views as it is a presentation of orthodox positions. These individuals and groups came from both inside Islâm and elsewhere. And what is significant about al-Maturidi's treatment is that rather than attack them in one particular section in the work, he turns to deal with them at intervals in the development of his thought. And his choice of opponents is clearly not arbitrary.

A few examples will illustrate his methods of proceeding. The first can be taken from the second section of the *Kitâb al-tawhîd,* at the end of which he identifies and attacks such groups as the Dahriyya, the Sceptics and various sects of dualists (pp. 121-74). Although these are all very different, they have in common distinct views about the nature of the deity: the Dahriyya held that the world was eternal and guided by the impersonal force of time; the sceptics doubted that the world had a moral origin; and the dualists believed that there were two divine powers. It will be seen that each of them denies the single

it, it is best not to speculate further about its contents or structure, nor about its author's intention. But there is some reason to think that it may well have treated Islam and other faiths in some relationship with one another, because the same procedure is followed in similar works which do survive from this and slightly later times.[12] Two, in particular, show graphically how non- Islamic faiths had by this time been brought into service to illustrate the truthfulness of Islam, and the dangers of departing from its teachings to favour any other claims.

Al-Ash'ari is revered as the founder of one of the two main Sunnî traditions of theological thought. The other is his contemporary Abu Mansûr Muhammad al-Maturidi (d. 944), who like him fashioned a synthesis between use of the rationalist methods of the Mu'taziliate theologians and respect for the truths of revelation. His *Kitâb al-tawhîd,* "The Book of Divine Oneness", is the first surviving example of the kind of literature which appeared around the beginning of the tenth century: the theological compendium treating a range of topics in what appears to be systematic progression.[13]

At- Maturidi's work itself contains few indications of its structure, though the arrangement of the contents makes it possible to see what this may have been.[14] It begins with a discussion about the sources of knowledge (pp. 3-11), and then in the second of its main divisions moves onto the existence and characteristics of God (pp. 11-176); the third main division is concerned with prophethood and the role of the Prophet Muhammad (pp. 176-215); the fourth focuses on human action in response to God, including sin and punishment (pp. 215-373); and the fifth discusses the nature of faith (pp. 373-401). Each progresses logically from the other, as a fuller discussion will show.

The starting point of al- Maturidi's systematic account is the identification of reliable knowledge and the two main sources from which it can be derived, reason and revelation from this necessary epistemological origin, it moves in the second section onto arguments

contradiction to) devaluation of rival religions.

Just after the time when Abû 'Alî al-Jubba'i was writing his refutation of Christianity, his student and later opponent Abu al-Hasan 'Alî b. Ismâ'îl al-Ash'arî (d. 935) composed a work which may have marked a new departure in Islamic religious thinking. It was called *Al-fusûl*, "The Chapters", and consisted of a twelve- volume work which traeted all the main subjects of religious inquiry of the time. The work itself is no longer extant, but a later description shows that together with its discussions of topics relevant to current Muslim debate it also included examinations of a number of non- Islamic faiths:

> A refutation of the Mulhidûn and of those who depart from the religion of Islâm, such as the Philosophers, the Naturalists, the Materialists, the Assimilators, and those who maintain the eternity of *al-dahr*, according to their different opinions and various doctrines; then he refuted therein the Brahmans, Jews, Christians, and Magians. It is a large book containing twelve books, of which the first is a vindication of reasoning and rational argument and a refutation of those who denied that; then he mentioned and replied to the arguments used by the Mulhidun and the Materialists to prove the eternity of the world, and he dealt thoroughly with the assertions made by al-Raqandi in his *Kitâb al-Tâj* "The Crown", i.e. the work in which the latter defended the doctrine of the eternity of the world.[11]

This suggests that unless the work was a miscellany of unconnected pieces, it somehow integrated questions of Islamic and non- Islamic faith into a sort of related body of thoughts. If this was so, then this early tenth- century compendium typifies the natural progression in Muslim attitudes towards other faiths, away from treating them as separate phenomena and looking on them as variant forms of the same teachings found in Islâm.

Since al-Ash'arî's *Fusûl* has not survived and little is known about

in Jesus Christ, and of their credal principles. The second is an equally detailed investigation of the doctrine of the Trinity which brings out the inconsistencies in the various expreations offered, and demonstrates the actue problems encountered in attempting to present it on the basis of reason and logic. The third part complements this by exposing the doctrine of the Incarnation (expressed in terms of the divine and human uniting) as equally impenetrable by rational explanation, and prone to undermine the beliefs it is meant to define by dissolving the unity of the divine and human at crucial moments of the Messiah's life.

The ultimate puropse of this long refutation is not quite so obvious as that of al-Qâsim's contemporary *Radd*, since Abû 'Îsâ does not express his own beliefs about God in a similar way nor give any direct hint that his interest goes beyond exposing the deficiencies in these two doctrinal explanations. But his own position when he wrote the work seems clear from the incidental remarks and comments he includes at transition points between arguments.[9] He was obviously writing as a strong defender of monotheism. Like that of al-Qâsim, his *Radd* seems to be at least as much a work of defending Islamic monotheism by refuting rival versions as of attacking other faiths.

The point that emerges from this examination of some of the known Muslim works about other faiths written in the early ninth century is that amid the deep interest in the teachings they embraced there was also a concern to test the particular doctrines which came closest to similar teachings in Islâm. Muslims such as al-Qâsim b. Ibrâhîm and Abû 'Îsâ al-Warrâq appear to have been employing such teachings order to demonstrate, as it were, that any other forms of explanation about the nature of God and his relationship with the world than those which they themselves held were not merely unacceptable but were riddled with deficiencies. Thus they appear to have been employing doctrines from other faiths in order to support and emphasise the soundness of Islâm. This is polemical argument in the service of theological exposition rather than (though not necessarily in

the divinity of Christ. These have been carefully singled out from the whole spectrum of doctrines, which al-Qâsim describes in full including the atonement (of which his account is may be the most insightful of any surviving Muslim work from this time). And they have been chosen for the very good reason that each of them presents an alternative account of the Godhead to the one which al-Qâsim promotes, the Trinity by suggesting that God is only relatively one and that he enters into relationships, and the Incarnation by offering the possibility that another being apart from God may share in his divinity. This characteristic of the work prohibits its being called anti-Christian polemic in any simple way. It does not attack or respond to Christian beliefs in their original context, but extracts the two main doctrines that happen to challenge the fundamental Muslim doctrine of *tawhîd.* It shows that in al-Qâsim's mind there is a close connection between sustaining his own belief and refuting similar beliefs that challenge it.

The second work was written by the scholar whose book *Maqâlâtal-nâs* we glanced at above, Abu 'Îsâ al-Warrâq (*fl.* early ninth century). Entitled simply *Al-radd'ala al-thalâth firaq min al-Nasârâ* "Refutation of the Three Christian Sects", by which he means the Nestorians, Jacobites and Melkites, it is the largest refutation of Christianity written by a Muslim that survives from the 'Abbâsid period, and can claim to be the best informed and most penetrating analysis of Christian doctrines made by any Muslim author. The fact that it was singled out for a long and painstaking reply by the Christian scholar Yahya Ibn 'Adi about a century after it was written attests to the cogency of its arguments and the irritation it may have caused among Christians.

Abu 'Îsâ's *Radd* comprises three parts.[8] The first is a detailed exposition of the main Christian doctrines as held by the major denominations of the Nestorians, Melkite- Chalcedonians and Jacobite- Monophysites, including intricate elements of their beliefs concerning the Trinity and Uniting of the divine and human characters

analyse the beliefs of those faiths which acknowledged a supreme deity, but diverged over the nature and activity of that deity. If so, the *Maqâlât* may have been an attempt to explore the form of belief that conflicted with the strict monotheism that was being asserted and vehemently defended at the time it was written by the Mu'tazilite theologians, who called themselves the *Ahl al- tawhîd*, the People of Divine Oneness.

These fragmentary remains from the early 'Abbasid era provide persuasive evidence that the explanation of non- Islamic beliefs was an integral part of normal religious discourse among proponents of *kalâm*, the speculative theological activity of early Islam. But further investigation into some of the main polemical works that survive from this period suggests that the real purpose of Muslims' interest in other faiths was rather more complicated than this.

A brief discussion of two works written against Christianity will explain the purpose of at least one aspect of this interest in non-Islamic faiths. They have both been given the rather general title of *Al-radd'ala al- Nasârâ*, "The Refutation of the Christians", and although their argumentative approaches are rather different, they nevertheless bear importantly similar features.

The first of these works was written by a Zaydite Shî'ite theologian, the Imâm al-Qâsim b. Ibrâhîm al- Râssi (d. 860).[7] It consists of a long explanation as to why God must be alone and cannot have a partner in his divinity nor any being begotten from his essence, followed by an exposition of Christian doctrines held by the three main Eastern denominations of the time, and then refutations of the doctrines of the Trinity and the divinity of Christ. It is an elegant piece of polemic, which employs arguments from reason and Christian scripture to make any attempt at response in its own terms an uncomfortable exercise. But what is interesting about it is that it links the Muslim assertion of the oneness and radical distinctiveness of God with the negation of the Christian doctrines of the triune Godhead and

sepculative thinkers of the early 'Abbâsid decades, around the turn of the eighth and ninth centuries, we repeatedly find writings against Jews, Zoroastrians, Christians and others, either responses to attacks or presumably arguments intended to provoke in their turn.[4] This fact alone demonstrates the close involvement of Muslims with the religious ideas of others, and suggests that they sought to defend the integrity of their own faith by exposing the inadequacy of others.

If we look further at the traces left from this period we also see that some authors compiled works that fit into the genre of histories of religion. There is very little evidence of this, sad to say,[5] but, firstly, the fact that a number of Muslims took pains to assemble and organise information about the belief of other faiths indicates what may have been curiosity about alternative traditions of belief, and what was possibly an apologetic interest to find out about competing ways of perceiving truth.

At least one of these histories of religion exerted a considerable influence on later Muslim authors, and for this reason its general outline can be reconstructed with a degree of probability.[6] This is the *Kitâb maqâlât al- nâs wa- ikhtilâfihim*, "The Book of People's Views and Differences", of the early ninth- century free- thinking Shî'ite Abû 'Îsâ Muhammad b. Hârûn al- Warrâq. References to this book are made in a great many later works, and brief descriptions of some of its contents together with a few quotations from it indicate that it was used by many writers. When brought together, these different items suggest that the *Maqâlât* comprised a series of descriptive accounts of some of the main religious forms known at the time it was written. These were: pre- Islamic Arab beliefs about 'time' as impersonal destiny, Judaism, Christianity, dualist beliefs such as Zoroastrianism and Mazdaism, and Shî'ite Islam. There is no mention of any of the Indian religions or of philosophical claims.

It is possible to conjecture on the basis of these inclusions and possible exclusions that the work was concerned to describe and

knowldege they possessed, as physicians, financiers, bureaucrats and teachers preserving talents and learning from previous times which their Muslim masters found it necessary to acquire or desirable to possess. The single well- known example of the translation into Arabic of Greek medical, philosophical and scientific works, which Hunayn Ibn Ishaq and other bilingual Christians provided at the request of Caliph, serves to illustrate this point. The Muslim rulers, it has been argued, sought the knowledge in these texts for purposes of their own, and were prepared to pay the Christian experts the equivalent weight in gold for the fruits of their rare skills.[1]

In this plural society it is unlikely that, at least in cultural and religious terms, members of the non- Muslim faiths regarded themselves as at all inferior. In intellectual terms, they quite probably felt the opposite. To take two examples from Christians under Muslim rule: the Melkite theologian John of Damascus (d. ca. 750), who had served as a senior secretary to the Umayyad Caliph in Damascus, included Islam in his book on Christian heresies,[2] and far from taking it seriously dismissed it as a pastiche of Old and New Testament teachings: in the early ninth century the Muslim intellectual and stylist Abu 'Uthmân al- Jâhiz complained that, in their debates with Muslims, Christians did not act fairly, picking on inarticulate, poorly prepared representatives and proceeding to force them to conclusions that made their faith appear incoherent.[3] This was hardly the activity of a beleaguered, intelectually subdued underclass.

From the earliest times, Mulsims challenged and were challenged by members of other faiths over details and principles upon which they disagreed. And it may not be overstating the case to say that more speculative aspects of Islamic religious thinking (and maybe the legal and even tradition- focussed aspects as well) came into being and were in part shaped and defined through interaction with the claims presented by other faiths. The evidence of the early period is sketchy at best, and interpreting it is by no means sure. But if we look, for example, at the lists of works attributed to the great Muslim

DIALOGUE WITH OTHER FAITHS AS AN ASPECT OF ISLAMIC THEOLOGY

Dr. David Thomas
University of Birmingham,
United Kingdom

The early centuries of Islam were a period of unparalleled development in all aspects of Muslim religious thought. This was the time of the great legal thinkers, Abû Hanîfa (d. 767), Mâlik Ibn Anas (d. 796), Muhammad b. Idrîs al-Shâfi'î (d. 820) and Ahmad Ibn Hanbal (d. 855), after whom the four major schools of Jurisprudence are named; it was the time of the Hadîth collectors al- Bukhârî (d. 870), Muslim b. al- Hajjâj (d. 874) and their colleagues, who compiled the six canonical collections of Prophetic sayings and actions and it was the time when the first scholars who can be given the name theologians were discerning the principles and main issues in *kalâm*, the Muslim theological discipline. But briefly, this was the period in which the specifically Muslim religious identity was being defined and articulated.

In these early centuries, and particularly the period from about 750 to 1000CE, Muslims ruled an empire in which people from any faiths mixed together. The urban societies of the early centuries contained populations of considerable heterogeneity, and it seems from the available evidence that, despite the disadvantages of their dependent status, many non- Muslims were not only able to survive and make their way in society, but actually achieved positions of considerable seniority and prestige. This was due in no small part to the skills and

Conclusion

More than ever before serious measures need to be evolved to arrest the rising tides of global conflicts. No progress whatesoever can take place in the absence of peace, fair play and justice for the teeming millions of mankind. No nation, however strong, can remain immune from the consequences of the absence of peace and justice in the world. We are all stakeholders in the search for lasting peace in the world. Religious, community and institutional leaders have an important role to play in promoting positive ideals that are urgently needed in the world. Governments have greater burden of responsibility to promote global peace, fair play and healthy co-existence among mankind. Governments must act sincerely to bring to an end the various conflicts afflicting the world. The Abrahamic faiths have the most invaluable assets to achieve this end. However, this can only be achieved if people adhere sincerely to the tenets of their religious values. In the particular case of Islam, as it has been pointed out, it has ample provisions for peaceful co-existence and the establishment of justice among all sons of Adam. It is unfortunate that the world has not yet fully imbibed and internalized such teachings. I would like to end my speech by borrowing a phrase from the late Premier of Northern Region, AshShahid Ahmadu Bello, Sardaunan Sokoto who, while addressing Christian missions, about forty years ago, emphasized that differnces in religions need not bar people from working together for the good of all. In the same vein, I say to the pluralistic societies of the world, let not differences in our faiths bar us from working together for the good, progress, peace and harmony of mankind. And I wish to close my speech by praying to Allâh (SWT) to guide us to those thoughts, words and deeds that are to the point and in accord with His will.. Walhamdu Lillâhi Rabbi Âlameen.

governments should take necessary measures to protect minorities, where they face threats of marginalization or other forms of injustice.

Second, justice and fair play should prevail in society. Islâm is a religion of justice and, as earlier pointed out, treats all with respect. Authorities in Muslim countries should ensure the realization of these praise-worthy virtues of Islam in society. Ibn Khaldun, the 15th century scholar argues that any government that does not uphold justice has equally failed to justify its existence. He emphasized that any government that violates the rights of its people should await its downfall. Similarly, in the 18th and 19th centuries, the West African scholar and Mujaddid, Shaykh Uthman bin Fodiyo succinctly asserts that, a nation can endure in unbelief but not in injustice. All these are reminders to rulers that for peace and harmony to reign in society, justice must take its natural course.

Third, governments should do all within their powers to tackle the problem of unemployment as well as improve the economic well-being of their citizens. Economic deprivation and unemployment are permanent threats to the security as well as peace and stability of any nation. Therefore, there has to be the political will on the part of government to bridge the gap between the well-to-do members of society and those sections of those seriously undermined by poverty.

Then there is the question of the role of the media. The fact that no government can do without a strong media, shows how important the media is in contributing to peace and harmony in society. This is proved by the immense power of the media to influence people not just within national borders, but internationally. The world now is a global village. If governments seriously support the media within their domains, I believe much could be realized in terms of the role of the media in promoting world peace and religious harmony.

control such crises usually come after the conflicts had taken their tolls on the people and their properties. And when one conflict is over, everybody takes a back seat- governments, groups and individuals- until another crisis erupts. I think there should be permanent measures on ground to effectively control religious crises and promote harmony.

No doubt, one of the greatest threats to peaceful communal co-existence is communication gap and lack of cultural sensitization in pluralistic societies. While it is true that dialogue among peoples of different faithes or cultures take place, it is important to realise that the frequency and intensity with which these dialogues take place need to be reviewed. Similarly, such dialogues should not be restricted among people of different faiths or religions alone. Very often, people of the same faiths, because of the differences in the perception of issues, need to have dialogue among themselves. In other words, religious dialogues should be inter- as well as intra- faiths with as much frequency and intensity as possible.

The logic behind the intensification and frequency of religious dialogues among people of different faiths is that it reduces communication gap among the different communities and cultures in pluralistic societies and eliminates prejudice.

Socio- religious measures for promoting harmony

Mankind, despite all differences (which we earlier pointed out are naturally and socially ordained), is the same species with the same basic nature and needs. Besdies coming from the same origin, mankind has been enjoined to promote love and understanding as well as harmony and piety (49:12:4:1). Hence at the individual, institutional and governmental levels the following needs to be done to actively promote peace, harmony and tolerance in pluralistic societies.

First, understanding among people should be promoted so that they realize the importance of living together. In addition, people should be sensitized to respect minorities (religious or otherwise). Similarly,

is Allâh". Did not Allâh check one set of
people by means of another, there would
surely have been pulled down monasteries,
churches, synagogues and mosques in which
the name of Allâh is commemorated in abundant
measure. (22:40)

Another basis for religious harmony is to accord each person his rights. Not only has Islam prohibited the Muslim to trample upon the rights and privacy of a fellow Muslim, but these have also been extended to cover the non- Muslims. So a Muslim is the protector of the rights of all, by virtue of the Islamic teachings which guarantee that harm, in whatever form, should not be caused to anybody.

When we examine Islamic teachings with the seriousness that they deserve, we will be compelled to admit that Islam has a lot to offer to the current search for solutions to world peace and harmony. It is, however, important to stress that even though Islam contains these elements that the world desperately needs to promote religious harmony and tolerance amongst its pluralistic societies, there has to be the political will on all to be able to bring this to fruition. Besides, there is the need to strengthen the mechanisms which support the practical application of these religious teachings in society.

Need for consistent and coherent practical approach

The efforts by governments worldwide to resolve religious conflicts when and where they occur have generally been encouraging. But it is important to re- examine some of the mechanisms adopted by authorities to oversome these problems. My experiences both at local and international levels have shown that in many countries and communities where religious conflicts occur, attempts at finding lasting solutions to conflicts have óften failed largely because of the ad- hoc nature of mechanisms adopted by authorities. For instance, efforts to

that Allâh, may He be Exalted, equates the killing of an innocent person to that of annihilating the entire human kind.

.... We ordained for the children of
Isra'il that if anyone slew a person
unless it be for murder or for spreading
mischief in the land- it would be as if
he slew the whole people. And if anyone
saved a life, it would be as if he saved the
life of the whole people (5:32)

Thus, any society where human life is respected and protected is bound to enjoy lasting peace and harmony among its people regardless of its pluralistic nature. Besides respect for human life and its protection, the freedom for an individual to choose his faith and be allowed to practice it should be guaranteed. This is in line with the Qur'ânic injunction which says:

Let there be no compulsion in religion;
truth stands out clear from error, whoever
rejects false deities and believes in Allâh
has indeed grasped the most trustworthy
hand- fold, that never breaks and Allâh
hears and knows all thing. (2:256)

Islam also prohibits the demolishing of places of worship, be them mosques, churches or synagogues, as enunciated in the following verse:

They are those who have been expelled
From their homes in defiance of their right
(for no cause) except that they say "our Lord

According to Yusuf Ali, the famous Qûr'anic translator/ commentator, "the variations in languages and colours may be viewed from the geographical aspects and periods of time. All mankind were created from a single pair of parents; yet they have spread to different countries and climates and developed different languages and different shades of complexions. And yet their basic unity remains unaltered. They feel the same way and are all equally under Allâh's care..."

In short, Islam teaches mankind to convert its natural and social diversity in life to the service of Allâh (SWT) and for all mankind to join hands together so as to promote peace and harmony in the world. Therefore man's life can only find harmony and lasting peace in society, when he truly and fully submits to the will of Allâh (SWT). When man truly submits to Allâh's will, the negative consequences of pluralism such as racial hatred, ethnic or tribal conflicts, and other negative human tendencies are neutralized in society. This is what Islam has always taught mankind- that reverence for the Creator and obedience to Him are over and above all other loyalties and desires. Unfortunately mankind has often pursued primordial and/ or parochial tendencies to achieve its goals in life.

Thus, even before the events of Septemeber, the 11th, the entire world has become engulfed in one form of crisis or another at virtually all levels- social, political, economic, religious, etc. In Nigeria, we have had our own share of religious and communal crises. The Israeli-Palestinian conflict is now seriously raging. And in Northern Ireland, India and Pakistan tensions are still rising among communities. The examples I have cited above are only a fraction of a wider circle of political and social tensions with religious underpinnings that currently threaten world peace and harmony, indeed, the relations among communites and societies.

The basis for religious harmony

Islâm is categorical about religious harmony and how it can be achieved. First, Islâm values and protects human life and sanctity such

conflict. In this sense the present conference is not only crucial but also timely. It is my hope and prayer that this conference will go a long way in finding solutions to these and similar problems that touch the heart of relations among nations and societies around the globe.

Pluralistic nature of human societies

Pluralism has been at the base of mankind right from creation which is a reflection of the Creator's sign (inspiration) in man. Hence whether people are prepared to live in harmony or not, the Creator has destined that human society be plural in nature. This is clearly stated in the Qûr'an:

O Mankind, We created you from a single pair
of male and female and made you into nations and
tribes, so that you may know each other. The
best of you in the sight of Allâh is he who is
most conscious of Allâh. (49:13)

Thus, the pluralistic nature of human society cuts across several levels- racial, ethnic, religious and, indeed, even at the levels of the types of food people eat and their modes of dressing. As the Qûr'anic verse above clearly states, the end or goal is for human societies, as individuals, groups and communities, to strive, in spite of diversities, to always be conscious of their duties to Allâh, the Most High.

The geographic and demographic constitutions of the world as well as the diversity of the human race are Allâh's signs as explained in the followign Qûr'anic verse:

And among His signs is the creation of the
heavens and the earth, and variations in your
languages and colours; verily in that are signs
for those who know. (30:22)

PROMOTING RELIGIOUS HARMONY IN PLURAL SOCIETIES: THE PRESPECTIVE OF ISLAM

By

HIS EMINENCE,

THE SULTAN OF SOKOTO

ALHAJI (DR) MUHAMMADU MACCIDO, CFR.

THE PRESIDENT- GENERAL OF THE NIGERIAN SUPREME COUNCIL FOR ISLAMIC AFFAIRS.

SULTAN'S PLACE,

SOKOTO,

NIGERIA.

INTRODUCTION

In the name of Allâh the most Beneficent the most Merciful may the peace and blessings of Allâh be upon His Prophet and Messenger, his family, his companions and all those who follow their path till the Day of Judgment. I am indeed grateful for having been invited, once again, by His Excellency the Minister of Al-Awqaf and Head of the Supreme Council of Islamic Affairs (SCIA) in Egypt to participate in this year's conference whose theme is "The Reality of Islam in a Changing World". Your Excellency let me start by pointing out that this conference is taking place against the background of two powerful events both of which have series of consequences on world peace and harmony. These are the tragic events of September the 11th, 2001 in the U.S. and the current intensification of the Israeli- Palestinian

About Qur'ânic thought and "otherness"

A few general thoughts, to finish, as my knowledge of the Qur'ân and Islamis limited.

In fact, in reference to science, technology and arts, Muslim civilization was equivivalent to what happened in Europe at the baroque and pre-classical period, through thughts that were nurtured during the XIth - XIIth - XIIIth centuries. Islâm was indeed very close to pre-Keplerian, pre-Cartesian, pre-Copernician Europe. Wasn't it the Islam of Andalousia which had transmitted to the Latins not only Greek philosophy, basis on rational thoughts but also the Scientific Arabic corpus on which from 1150 European medieval universities would thrive in all fields - psychology, ontogy, natural science, physics, optics, metaphysics, philosophy of the mind...? And didn't, in general, Qur'ânic heritage have a decive role in the propagation and the success of rational thought in medival occident? Wasn't it Al-Tûsî who traced part of the road for Copernicus? Hadn't the man of Coroba (1126-1198), Averroes, Abi-Al-Walîd Muhammad ibn Ahmâd ibn Muhammad ibn Rushd, perceived the emergency of the nation of liberty of the individual, the rights of the person, the dismantling of the consubstantiality of the political and of the religious, basis of the upcoming "Age of reason". If we combine with those premises the fact that Islam holds a profound knowledge of humility (not of humiliation); a knowledge of the infinite remoteness of "the one", of the deserted land (humus, land of human) by him, which makes for an ungrateful sojourn but where human beings can have the courage and the pride, the self respect to go their way, then Ismâ'îl in the desert with Hâgar is not anymore reduced to a myth of compassion, but becomes one of our possible names, as a name of otherness, which will help the occident to open its "Self".

Isn't there a Hadîth with reads: "Islâm was born a stranger; it will finish as it started, a stranger; blessed be the stranger"?

About "otherness"

It does not suffice to say that the "me" needs the "us". The dependency, the creative tie is far stronger. The "us" is constitutive of the "me". The "us" constructs me in my real being. I am made out of other. From him/her I receive language, conscience, identity. The other one defines me. The emancipated individual of occidental culture is more and more drawn in a learning process, the learning over again of the other, which positivistic individualism had cut short.

The principle of otherness destroys the fortress of the "subject", the castle of "essence", the skyscraper of "identity", (as perceived in the XIX^th^ and XX^th^ centuries, imposed by the ideology of the Nation-States), the hearth of the of "ego". Emmanuel Levinas, who has explored the thinking about "otherness" says "human beings are no trees, humanity is not a forest". Lets pick up our language, leave our comfortable home, leave for what it was Greek philosophy's obsession with "self", "same", "the one". Then, identification of the self through the other is an individualized guaratee of my difference. It also guarantees a certain type of sociability, the creation of a social tissue build out of differential cohesion, as we become subject through intentionalit if the other. This inversed intentionality builds also a relationship of a different order than the one we can have as objective knowlede - the knwledge of an object. It is the order of listening to verbal sound, to a discourse, to a discourse as a paradigm of intelligibility (and not as a straightfoward translation into our "self"). It is an immediate trigger for critical speech, carrier of the function of transcendence of the "other". Here, through discourse with the legal-conceptual - rational perspective of J. Habermas and the philosophical - spiritual approach of E. Levinas prepare communication and dialogue at the individual level for what in very general terms has been called "the dialogue of civilizations".

"I am between the proper and the foreigner and I am not one without the other", said the Japaneses painter of the XVI century, Fujiwara. Whth wgich the very contemporary French writer and essayist J.-C. Guillebaud concurs: "The WE is constitutive of the ME". Yes, difference is the road to otherness and otherness (Levinas) is the way to keep us alive. "To suppress distance, remoteness, kills" said the French poet René Char. And an Indian proverb, in a way, gives us the dynamic response to all this. "Life is a bridge. One has to cross it. And not build a house on it". Displacement is self-transportation. Metamorphosis is life. It is also the essence to our elusive identity. Reflecting on culture into another Canada is creating this moving no-man's land, in which its meta-culture is a civilizational attitude. It is the un-ghettoized country. Where else could one, in the worst of the Bosnian war, find emigrants of Bosnian, Serb, Croat background, one week after their arrival, play soccer together in a square in Montreal?

Canada's social, its political will goes beyond tolerance, beyond definitions. It is about second-order identity, it is about evolving structures, about continuous dialogue, and up to a point it is about a capacity of irresolutions, leaving doors open; it is the replacement of vertical power by soft power, it is the principle of reasonable disagreement, it is about education in plurality, in complexity (and not in stereotypes). It is a world, not of revolutionary change, but about sweet change, it is about putting human beings into a cultural context which gives them the freedom to be plural, to be not what you have to be, but to help create multiple niches in one's behavioral patterns. This is why people in Canada feel free. They are part of the ongoing process. And the process is about learning. And the learning is about process creation, where no norm has legitimization anymore when it has not gone through the practice of dialgoue, in a world of profoundly changed communication. A civilization where justice is the goal and democracy the means, a civilization in which the second level reading of cultures has opened to a meta-culture, by definition flexible and neutralized, open to any new difference, the one of "the human principle".

Inter-cultural behavior is creating for oneself a polyphonic site in which one can reflect one culture into the other one, through their necessary differences.

Our distinctiveness is to be a differential site, where all meaning bypasses the literal one. It is a continuous transit place, the one for cross-breeds, for migrants, for mutants.

Our distinctiveness is thus the differential site, where from one culture to another, from one language to another we learn to become virtuosi of perception, of understanding, and by understanding, driving back fear, comprehending the other. The other one, because of his difference, becomes my school for learning. My identity has then become the secure and continuous learning process through otherness.

Recently a statesman - of which very few exemplary specimens remainsaid of Canada "While other countries are building fences, Canada is building bridges". Far from searching its identity into a reconstructed "glorious" past, Canada builds a civilization of cross-cultural communication, empowering its citizens to transit between multiple cultures, offering forums of discussion and dialogue. Recognizing difference is a dynamic integrative strength that opens up to inter-cultural being. And being inter-cultural enhances one's identity. In its social perspective the evolution is towards the "inter-nation-al" state and has as ground rule the recognition of diversity, as identity the passage, the bridge towards the other, towards otherness.

Better even: beyond tolerance for the other, beyond the right to identity, the road is open for the ritht of being plural, of plurality - which is the integration of the other in one's dialogue with the world. Babel was not a punishment. Babel was a gift. The essence of human adventure is pulling up the roots. Turning the tree into a bark traveling into otherness will do it. And contrary to the words of Huntington who says that the grandeur of a civilization produces diversity, we believe in Canada that it is diversity, in its interplay with equality, that produces a grand civilization.

of moving away towards other places, discovering of what is beyond. This displacement creates the notion of distance, of distance apart, of divergence, the basis for the fundamental learning process of perceiving and integrating difference. This voyage permits one to go from one shore to the other; it is a voyage towards otherness. This is the horizontal move, the cultural one. It is complementary and opposed to the vertical position, the rooted me, the immobile site, powerfully rooted, symbol of hierarchy, place of power: covering the whole spectrum, from the absolute vertical power of a dictatorship, the hard-core power to the "soft" power, the one that has not been negotiated between individuals that are partners in a common project.

The art of seeing is invented when traveling. The art of hearing can be learned from the differential perception when going from one language to another. The art of listening invents itself when moving from one difference to another.

Margaret Mead's metaphoric story tells us in fact about the dialectical relationship between nature and culture, about roots and otherness, especially about the fact the displacement - that is the realization of difference, is the foundation of the cultural act, and that, consequently, culture is the road towards the other.

This is a notion of culture which is a construct, related to both the cognitive and the anthropological. Let us push it one step further. Culture, as Edgar Morin told us so often, is of the order of the organization of the living. Now, if an individual has learned to read differences, he is reading the world. His world. Culture as the organization of the living. Inter-culture - the individual who possesses the ability of comparing differences, who, in fact, has learned to read the difference of difference - is about the reading of the reading of the world, if you want, a meta-reading, freeing him from the first-level reading, freeing him from the cultural barriers, from culture as a barrage, the one tied to verticality, to roots, to one's static identity, very often reduced to its stereotypes in the communication of daily life, the bunker of our social subconscious.

2- go beyond the economic commercial dialogue and open up the space for socio-cultural, the artistic narrative. We know that literary fiction is a low-risk space for public imagination to enter a renewed dialogue with society.

3- Go beyond the majority concerns and create space in which minority concerns have to be treated by community as legitimate.

Therefore the role of education is essential to create citizens able to dialgue and negotiate in a renewed public space. An education teaching diversity enhancement techniques, conceived for building inclusiveness, and following the policies of pluri-langauage training, in cross-cultural communication, in across language-group communication, permitting citizens to negotiate common goals, values, visions.

This leads to a new national narrative in which the ultimate dialogue in the public space is as much, if not more, about learning from each other than about trying to persuade each other. In this exercise, nobody "has to win". It is a dialogue as the ultimate exercise - from it develops a "soft protocol" which is a voluntary citizen's code of conduct. This "soft protocol" is a totally different dimension from e.g. the notion of "political correctness" which is part of the blockages of the diviersity phenomenon.

Inter-culture, difference, second-level reading and the human factor

Anthropologist Margaret Mead has often spoken of the symbolic meaning that the tree holds for the inhabitants of certain islands in South East Asia. Upright, deeply anchored by its roots, its crown reaching towards the sky, the tree signifies home, a nesting place, solid and deeply rooted, unmoving, growing in only one direction.

In contrast, felled/cut, the tree serves to build boats - birch-bark canoes of the North American Indian, an African dugout canoe, a Nordic skiff, or a Chinese sampan, regardless of where they come from, the function remains unchanged: it is the one of moving away,

collectively know that there is no definitive procedure for exchange of public reasons, that political association is not a fixed structure, that these are of a negotiated order, including negotiation over prevailing procedures of negotiations: Again, as James Tully points out, the freedom to "have a say" underlies all the other rights of the Roman principle of "Audi alteram partem" (always listen to the other side).

Canadians know that belonging is not definitive, that identity is a moving complexity, citizenship a moving target; that belonging is not without contradictions, but that it reflects in us the complexities and paradoxes of our societies, "that it is the consequence of its being multiole by definition". (H. Nowotny).

We know that movements of people, of exchange are normal; we accept that newcomers are legitimate, because we know that humankind is a global reality - these are some of the "inescapable realities" which formed the underlying context of the Banff meeting. It leads also to important inferences and conditions of success such as the fact that:

(a) a minimum of social cohesion is necessary for good governance (in its evident balancing act with the requirement that a minimum of good governance is necessary for social cohesion....).
(b) "cost free otherness" goes down to the individual and does not stop at the door of a "community", whatever that community stands for.
(c) Creation of pluri-identity citizens goes necessarily together with an employment of those citizens to be engaged in a newly deverticalized public governance space.

In the layout of the pluri-identity citizen's kit (preparing for a global citizen's kit) one should:

1- infer from universally endorsed codes of conduct, from laws ruling international obligations to realize the more natural and local ones.

voice via translation. In a bilingual state the danger of recuperation by the dominant culture is almost invitable. But this second level of discourse, combined with the quite different one which society recently discovered entering into the dialogue with the Aboriginal peoples, and with (III) the third one, the one of non-Euro centered immigration, and its major constituent of "visible minorities" has fundamentally changed the deal, subverting the binary frame, shattering the opposing forces, deconstructing the status quo, challenging the limits to diversity inherent in hegemonic notions of political discourse. As Tamara Palmer-Seiler writes:

"ethnic minority writers have created fiction that evokes a fraught and bifurcated borderland space when the Anglo-Canadian center intersects with the ethnic immigrant culture".

With three levels of discourse freely conversing in a society which has learned to read the differences as part of its cultural framework: Canada's matrix had acquired its triple dimension. Parallel to this, the government and its institution have become the facilitators for its community of citizens to negotiate, to challenge even the prevailing norms and institutions of recognition and accommodation of diversity, to experiment even with new arrangements.

Citizen-Identity

The participation itself generates cohesion and "tends to create a form of *cititzen-identity that is appropriate to coöperation among culturally diverse citizens" (James Tully).

In this sense, Canada is moving into a postmoderm global, political and legal order of negotiated multi-level networks of action coördination, "the democratic freedom of the individuals and the groups involved to negotiate the way they are recognized and accommodated as they coöperate is going to be an increasing important factor in the legitimacy, stability and cohesion of the new world". (James Tully).

In our renewed forum for dialogue, fundamentally changed through our ways of communication, forum for any democracy, we

methodology was developed by synthesizing Aboriginal and Euro-Canadian thought and was based on the sense that:

(a) many facets of human life and the natural world are interconnected.

(b) problems arise from interrelated causes.

(c) solutions must therefore be holistic and multifaceted as well.

Ideas were attributed to events in the past; subjective and objective perceptions were united, intercultural projects were forged. The report's four fundamental premises that will be guiding the ensuing legal and policy decisions are:

1- Mutual recognition based on equality, co-existence and selfgovernment.

2- Mutual respect for the unique rights of Aboriginal peoples in Canada's civil ethos.

3- Mutual responsibility for ecology and a new ethic of stewardship of the land.

4- Sharing of Canadian prosperity to generate mutually beneficial economic interdependence and ecologically benign forms of redource management.

This report is a marker in post-colonial methodology and research. A model for attempting to capture Aboriginal difference and cultural diversity in a post-colonial nation.

(II) The second level of societal discourse is the one that deals with the Canada-Quebec relationship. We have already pointed some of the most important steps towards bilingualism and biculturalism from 1962 on. In fact, our luck, Canada's luck was at the time the presence of its province of Quebec which "thwarted the attempted formation in the last century of a unitary-American style pan-Canadian narrative" (Tamara Palmer-Seiler). It was the necessary counterpoint to keep Canada from falling into the easy trap of assimilation, although until the early seventies it was virtually part of the Canadian

position into a cultural borderland, in which the right of being culturally plural is opening the road to the inter-cultural being.

A few figures: in the largest city of Canada, Toronto, 54% of the population are immigrants (many are refugees). One out of ten Americans is an immigrant; the figure in Canada is duble: one in five. Refugees can work: 77% of them are doing that while waiting for the processing of their claims. All are entitled to social assistance after more of less three months. The size of the Canadian population born in Asia, Latin America, Africa increased by 340% between 1971 and 1986. And it must be said also that 90% of Canada's immigration went to the country's eight largest metropolitan areas. This led also to a sharper urban-rural split for Canada in comparision to the USA.

Now, what is that "Common culture inderlying all Canadian life"? Both cultural matrix and a complex of values and traditions which are the open substractions to everything else, allowing immigrants to maintain, to discard, to acquire, to help read by themselves this usually very illusive notion of "difference".

Pluriculturalism had emerged as an increasingly insistent overlay on the fundamental duality, had unhinged it from its opposing position. Canada, as a diversity laboratory, as a continuous work in progress was ready to beady to become an inter-nation, inter-culture, meta-culture state. This happened in an almost natural development triggered through three interconnecting levels of political and social discourse: (1) the one which restarted the dialogue with the First Nations of Canada and ultimately led to the Report of the Royal Commission on Aboriginal Peoples to Canada in 1996. As James (Sákéj) Youngblood Henderson writes: "Three features distinguish the Report from other political writings: its interrelated methodology, its rejection of colonization and its view of Aboriginal humanity; and its collaborative vision of the Canadian Constitutional order". The Report Contains 5 volumes and over 400 recommendations to explain the requirements of restoring justice to the relationship between Aboriginal peoples and Canadians. Its innovative holistic

journalist called keith Spicer and he took his task brilliantly from the right angle: "to uphold and preach the idea of equal dignity of English - and the French speaking Canadians". He took a resolutely non - juridical view of the Act seizing its essence of equal dignity, setting out as principles, common sense, generosity and imagination. He wanted to get people to think about languages not as problems, but as opportunities. And he sopke to people's hearts as well as their minds.

Multiculturalism

The Offcial Languages Act had stood the test of time and proven to be a sufficiently felxible instrument of reform. In 1988 it was partially rewritten for policies tailored to a changing society. Canada's perception of the world had indeed changed very quicly. Under Prime Minister Trudeau the "Charter of Rights and Freedoms" was repatriated (1981). Equal opportunity, the rights of minorities, human rights, the multicultural state were all interwoven in "this" turning - point charter. It enunciates basic equality and guarantees equitable treatment, not only in reference to aboriginal rights and freedoms, in the equal status of men and women, in the enjoyment of liberty of citizens of Canada, but also in its provisions relating to official languages and minority language education rights. Moreover it recognizes multiculturalism and at the same time places it in the context of a set of shared values, confirmed by law, "which give structure and strength to the common culture underlying all Canadian life".

Towards pluralism

Meanwhile world immigration had transformed its city landscapes. As we remarked before, the discourse of difference has never been ethnic but focused on language and culture. Now, the English - French duality was being absorbed by the ideology of pluralism. The cultural economy in Canada had naturally become inclusive. The "Anglo/other" opposition and its dominant discourse which had constructed "the other" was being diluted into marginalized discourses within a legal system open to its diversity. From a difficult, bifurcated

French and English, which as a matter of fact were no really homogeneous socities. Nevertheless 80% of immigration, before 1967 (one hundred years into Canada's history) was of European heritage. Canada until then had remained an outpost of the British empire, with an Anglo - Saxon genteel voice, but a strong grip on society.

During the 1960's and into the 1970's even, Canada lived a period of assertive English speaking Canadian nationalism, both towards the Quebec province, inside, as towards the American neighbour, south of the border. The relationship with the other "founding group" was indeed a non-conversation between "two solitudes" (see Hugh Mac Lennon "Two Solitudes", 1945). During the period 1962-1967 immigration laws had been overhauled. Before, they were based on race and ethnicity. After 1967, they became "Colour blind". Canada's voice had been for many years a counterpoint. Now it would become polyphonic.

Bilingualism

At about the same time, in 1962, the editorialist of the Devoir, André laurendeau titled an article which would become famous: "For an inquiry into bilingualism". It called for a comprehensive approach to the linguistic problem of equality of the two languages. It led to a fact- finding study led by André Laurendeau and Davidson Dunton, called the "Bilingialism and biculturalism" Royal commission and which led in turn to the Official Languages Act in 1969 and the subsquent applications of lauguage policies through both the executive and legal powers.

As G. Pelletier wrote: "In certain areas, it is impossible to legislate equally as the Americans say. But we started from the idea that it was perfectly possible, by legal means, to bring uniform use in the country's two official languages in the relations between Parliament, the Government and the whole of the population". The implementaion of the Official Languages Act was to be followed by a newly appointed Commissioner of Official Languages, a kind of ombudsman, protecting the language rights. The first one was a

into which parts of world have already moved: it is the one of communication, of translation, of distribution, of transmission, of messages, of information, of networks, as well as of interference, interception, parasites. This is, after the period of "cold works", then of "warm industries", the fluid fluctuating, volatile one, made out of neguenthropic fine and information space (M. Serres). Information - technology running trough space of different nature, piercing vertically, running in open ended loos, connecting varieties through mobile exchanges whose nodes, whose joints connect that which prior to this, had no relation one with another. Theories of communication are now crossed by networked systems, based on theory of multiplicity. It is also the one which is defined by German sociologist Ulrich Beck as the "risiko gesellschaft" - "The Risk Society" - a society in which the logic of dangers incuers replace the one of the distribution of richness. It is a state of generalized precariousness within which even scientific thought is transformed, inscribing corrective graphs relating latent risks, integrating social demands at the initial stage of hypothesis!

At this point, we could define contemporary society as related to most of those situated in the northern hemisphere as a network of unstable relations fragile and transversal to all political, cultural and religious borders. The thus defined community is nurished by political regard for a world on the basis of a plurality of a cosmopolitical representation of human ties and of citizenship in particular.

Canada

It is in this rapidly evolving context that Canada has been launched forward, thanks to a certain number of circumstances and of policies.

First a few words about the historical process which was undertaken in the early sixies, now forty years ago. Canada is a country in which the aboriginal inhabitants spoke 52 languages at the time it became a nation state (1867). By that time and until recently, its fundamental institutions, political, administrative, societal were instituted by the two "founding" nations, the settler cultures, the

into the dark side of human behavior, its instincts, its hatred to find its forces of power and of destruction.

Reasoning is not given; it's a process at work. It exists only in every attempt, in every endeavour of argumentation. It is a reason founded on a linguistic, on a language, on a communication basis: but this does not suffice. Again, in the words of Jurgen Habermas: "next to that, one has to found a legitimity of rights in a framework of a concept of reason as communication". It would replace the classical model of the contract by an agreement established through discussion. The democratic debate and the legitimization of the state of law have an internally, a strong conceptual relationship. Through this relation we can, in a globalized inter-nationalized world reconstruct the enlightenment, the age of reason for our time. Not one of hard instrumental rationalism, but one in which we apply what I call "humble reasoning" based on a continuous distance-taking of ones own reflection, and the integration of learning to doubt, basic ingredients to a world in which the hoeizons become those of uncertain belonging, of aleatory genetic identities, of multilayered and fractally strong personalities. This humble reasoning leads to a paradoxical humanism: "humble reasoning", able to criticize oneself is inseparable of spiritual freedom, of tolerance. "Humble reasoning does not combat beliefs, it combats fences of all kinds" (François Chatelet). It constitutes the key to "paradoxical humanism", which is a humanism opening up to the other, to the plurality constituted by others and through them and the integration of their difference, their differences, to fortify oneself, one's "self". The lead towards paradoxical humanism will be furthered when we tie it to the concept of "otherness", because "paradoxical humanism" is "humanism of the other". It breaks ties with "totalities" and it escapes the philosophy of identity and thus not only opens up to a morality of otherness but aso denuciates totalitarism as political translation of the philosophies of identity. Unesco just after World War II defined "obscrantism" as "the blind refusal of what is not ours". The context for this important conceptual shift is the one following the industrial-Promethean period,

action of dialogue. It necessarily presupposes the equality of all human beings as reasonable beings. That is what is implied in the word dialogue. When I enter into a dialogue with you, I recognize by that virtue your capability of truth ("capax veritas") says Marcel Conche, and, as such, not alienated by the causes which would obliterate your judgment, free and using freely your reason. Humans who dialogue say to each other, implicitly, one to another, "you are my equal". This is about human rights and uniquely about human rights. This is also because I consider the human person sacred, an absolute which should not, cannot, be subordinated to anything, to anyone.

Towards a new age of reason (about reason, humble reason and paradoxical humanity)

In the history of Europe - which became the think-tank for Western (occidental) civilization, the XVIIIth century was a moment of take-off, technological, scientific but also legal, philosophical, social, in comparison with other civilizations. It cristallized its secular forces, clearly separating itself from holistic societies, opening up to the conscience of the "self", leading to a major lesson of the "Age of Enlightenment": critical reasoning.

The notion of the individual became both a conquest and a horizon. Especially combined with the ideal of sovereign reasoning, which in turn took care of political constitutions, collective decisions as well as being the guide to individual lives, presiding over the morality of choices as well as the justice of sentencing.

This evolution went together and broke definitely all ties with homoagrarian, rythmed by natural cycles, by seasons and moons, an initial humanity of "cold works", of invariance. It ran parallel to the homo-economicus, living in a promethean, industrialized world, transformed through heat. This XIXth and very much XXth century era of industries, colonialism and empires reduced "reason" as only one of the numerous factors of determining human situations, and not "its original source, it ultimate measure" (J. Habermas). Later, the XXth century, as you know well, did not only put "reason" into doubt, it dug

Towards the refoundation of dialogue (about democracy and dialogue):

This presentation is also about human beings, about human transformation, about new perspectives of our social time. This is also about the elusive substance, which helps human beings transform themselves: the concept of difference, which understood in its coagulated, positivistic, essentialist, ultimately stereotyped way can become its own worst enemy and be the measure of exclusion.

The perspective is one of metamorphosed democracy, such as foreseen by Hannah Arendt: as a community of dialogue between ephemeral singulars for whom the consensus is always temporary or provisional and the anxiety, permanent. J. Habermas views it as a society in which community policies are organized in such a way that those for whom the rights and laws are promulgated consider themselves as their authors. A society in which autodetrmination responds to the new complexity, the new paradoxes of the internation world, of networked communication in our contemporay world, preserving, enhancing the effective role of citizens in that society.

Democracy is a space for dialogue. Dia-logos: from its Greek origins the word refers to both reason and language. Obviously the space has changed from the Agora to our contemporary context, where we can have communication between an infinite number of people who do not know each other and who are physically remote and distant from each other. Our Agora has electronic dimensions. Our perception of time and space has dramatically changed.

Distances have been virtualized. This absence of limits, but more so, the speed of change frightens. Our new house-world bewilders, confuses. Within this multiplicity of being, this continuous and indefinite branching off of time, dialogue, dia-logos keeps a fundamental value as the space of creative encounter.

Dia-logos keeps by definition a fundamental, universal value of morality which has as its point of departure not what separates human beings but what unites them. And what unites them is reason in the

dynamics of "diversity" create not only a space for a permanent rejigging of our perception of the world, but permit a networked individual identity. This identity is at the opposite end of the spectrum of the homogenic one ('homogeneity is boring"), of cultural clichés and generalization, of insecurity and its correlate defensive institutionalized units.

The dynamics, fertile concepts of "difference" and "diversity" permit a positive integration of the too - often excluded notions of "complexity" and "paradox" necessary to contemporary thought. "Difference", as an essential notion in cognitive development is also an operative concept in the understanding of "otherness" (and its social correlate "diversity"). They represent cornerstones of a "knowledge society".

This presentation will cover a short perspective of the recent Canadian societal evolution, from its 1968 bilingualism option, its subsequent multicultural perspective on, towards a "learning society" based on cultural networking, inter-analyzing, internalizing difference. From a "two-nation" state, Canada turned into a transnational, inter-nation(al), inter-cultural society.

A few opening quotes:

"Just like individuals, civilizations die in a way as certain and as unexpected" (Edgar Morin).

And from the same French sociologist E. Morin "The future is of the order of the improbable".

To J.C. Guillebaud now: J.C. Guillebaud, author of a remarkable book on the "Refoundation of the world" (Seuil). He writes "the us is constitutive of the me" An indian proverb tells us that "Life is a bridge. One has to cross it. And not build a house on it". Tchouang-Tseu reminds us that "the accomplished man does not accompany back what is going away, does not proceed what is coming, welcomes everything, does not keep anything, and, that way, embraces human beings without suffering any damages".

ABOUT AN "AGE OF MODEST REASON", OF "DIALOGUE", OF "PARADOXICAL HUMANITY" AND OF "OTHERNESS": CANADA AS A META-CULTURE

By

J.J. VAN VLASSELAER

Professor, Carleton University

INTRODUCTION

Canada, during the last hundred years has evolved - and recently, very quickly - from second - level colony to an inter-nation, an inter - culture welcoming state. To explore this renewed framework of societal change, of a new perception of civil society, of a new proposal of civilization, I shall present a few concepts, which form the framework of this evolution, as well as some of the milestones which have led to this new temporary equilibrium, which underlie such a fundamental shift in the thought process of a nation.

Canada's lack of "strong national identity" (in the XIX^{th} snd XX^{th} century sense of the term) as well as its experience with diversity are proving to be major assets to a state projecting itself into the XXI^{st} century. Its prospective societal tissue is one of "inclusiveness" (société d'accueil) where horizontal "soft" power exchange and a meta - culture built from the positive perception of "difference" and the

At this juncture one might recall that critics of Islam are quick to dismiss "positive" Qur'ânic verses- like those on tolerance (2: 256) and religious pluralism (5:48)- as purely theoretical, without impact on life. These same critics are equally quick to dismiss Islamic legal practice- as in the case of adultery and theft-by focusing on "negative" Islamic legal theory. A no-win situation.

13. Summing up one can say that the sharî'ah largely but not fully accords with Occidental human rights documents. Muslim countries can therefore ratify these texts only under reservation.

The identified conflicts are, however, less intense than commonly assumed, last not least thanks to the results of contemporary *ijtihad* and the liberalism of Islamic procedural law. Yet efforts at harmonizing Western and Islamic law in the public interest *(maslahah)* are narrowly limited since the shari'ah as divine law is not amendable at will.

In as mush as the conflict cannot be defused- and this is mostly the case with respect to the roles of men and women- the Muslims will simply have to wait patienly. One day the pendulum of public opinion in these matters may swing back towards normalcy, and human nature will prevail.

And patience is an Islamic virtue.

But even if this event had happened after this revelation, could one even conceive of the Qur'ân to be abrogated by the Sunnah?20

It leads to contradiction if, in this context, one differentiates between free and unfree couples. According to An-Nûr: 25 unfree women are lible to half the penalty to which free married women are liable. If that penalty is death, what, please, is half the penalty of death?

It is worth-while adding that Islamic criminal procedure on the basis of An-Nûr:4 is so strict that adulterers can be convicted only if they virtually desire it by making a credible confession. (President Clinton would have fared better under Islamic law...)

c) The Qur'ânic penalty for theft (Al-Mâ'idah: 38) is meant as a strong deterrent in an important socio- economic context. One must take into account that the social security of Muslim women, divorced or not, in old age largely depends on the availability of her dower, often given in form of jewelry and gold. In such a society, anterior to the credit card and bereft of bank safes, theft is an attack on the social system altogether.

Here again, one should not overlook the *practical* consequences of this *hudûd* ordinance. Obviously, one can live for decades within the Muslim world without ever running into somebody who misses a hand or foot.

This is not due to the absence of thieves but to the restrictive definition of theft in Islamic jurisprudence. According to the *fuqaha* and the Sunnah of 'Umar b. Khattâb the crime of theft has only been committed if a valuable, secured, privately owned, licit object has illegally been taken, without any acute need to do so, for instance in times of famine and poverty. In addition, the Islamic statute of limitations prevents that theft be persecuted after the passage of some weeks only.

20. This is vehemently denied by Tâhâ Jâbir al-'Alwânî in al-Imâm, op. cit., p. xiv.

Nevertheless, it is out of the question to act as if the Qur'ân had not permitted polygamy under specific conditions, and that for good reasons. We are now and again witnessing situations- especially after the large scale decimation of men in modern warfare- in which the permission to share a husband is a blessing and a mercy- no matter what human rights activists may say.

12. Qur'ânic penal law (al-hudûd) for a very small number of offeneses foresees corporal punishment which, in and by itself, is considered cruel and degrading and thus proscribed by all human rights texts of Occidental provenance. In question are (i) capital punishment as such, (ii) stoning or lashing of adulterers, and (iii) amputation of thieves.

a) Without panicking apologetically, Muslims should not hesitate to point out that the leading Occidental power, the United States- not to speak of China and other important countries- continue to execute criminals, be it by hanging, decapitation, electrocution, gassing or posioning. Yet, surely, destroying human life altogether is certainly the most cruel and degrading of possible penalties. It is therefore highly hypocritical to criticize Islâm for capital and other corporal punishment as long as the described situation continues. Just as it is unfair to disregard the procedural modalities of Islamic law which considerably reduce the actual application of *hudûd* penalties.

b) As far as stoning is concerned, I support the view of those who deny an Islamic justification for it. A command to stone adulterers exists in the Bible[16] but not in the Qur'ân, and it is unwarrented to claim that a so-called âyat al-rajm had ever been in the air.[17] On the contrary, An-Nûr: punishes adultery with flogging only. In fact, stoning of Muslims could at best be based on a single case of toleration by the Prophet[18], but that may well have taken palce before the revelation of 24:2.[19]

16. 5 Moses, 22: 20-22.
17. Ahmad 'Alî al-Imâm, Variant Readings of the Qur'ân: A critical study of their historical and linguistic origins, Herndon, VA, 1998, pp. 50-53.
18. Abû Dâwûd no. 4405; al-Bukhârî no. 8.805 and 8.810.
19. Al- Bukhâri no. 8.817.

certain macho-attitudes typical of oriental mentality are to be adapted to the genuine, original message of the Qur'ân.

d) One can conclude from the rationale of al-Mâ'idah: 5 that the Muslim women, in contrast to Muslim men, are not entitled to enter into marriage with a non- Muslim Jewish ot Christian partner. This rule connects, of course, with the tradional Muslim understanding of the role of husbands as guiding head of the family also in religious matters. A Muslim wife as a matter of course would honor all Jewish prophets, including Jesus. But could she count on tolerance from her non- Muslim hunsband for her veneration of Muhammad? The Western human rights fiction of male- female equality is no solution in this dilemma.

e) According to Roman wisdom and Justinian law pater semper incertus (fatherhood is always uncertain), and that may have been the earliest incentive for monogamy, a modern practice also in the Muslim world. In fact, one can certainly find today more Western men with installed maîtresses than polygamous Muslims.

This development is not a departure from the sharî'ah but it is a well understood implementation. The Qur'ânic conditions for polygamy in Al-Nisâ': 3 are so strict and the warnings of the Qur'ân against polygamy are so serious that one may well conclude that monogamy is the primary, normal Islamic form of marriage. After all, 4:3 begins with a clear condition: (And if you have reason to fear that you might not be able to do justice to the orphans...) which rules out polygamy in any other case. In addition, the same verse warns: (But if you have reason to fear that you might not be able to treat them (i.e. your wives) with equal fairness, then marry only one).

This is topped in verse 129 of the same Sûrah with the grave judgment: (And it will not be within your power to treat your wives with equal fairness, however much you may desire it).

It is therefore beyond the comprehension of many contemporary Muslims how previous generations against this clearcut textual background could believe that unconditional polygamy was the prototypical Muslim family.

be replaced by the testimony of two women. From a Western point of view, this is a case of unwarrented discrimination unless proven that women witnesses are biologically handicapt. On the other hand, the procedural rule in question might be acceptable if not sex but competence was the decisive criterion. According to several modern Muslim authors[13], that is exactly the case. They concede that the testimony of a Muslim business woman in a commercial lawsuit be given the same weight male testimony.

c) Traditionally, the respective roles of husband and wife in Islâm were defined patriarchically in accordance with the orthodox interpretation of Al-Baqarah: 228 and Al-Nisâ' 4: 34- verses that seemed to say that men "have the last word" and that men are "superior" to, or in charge of women[14]: a reading which caused outbursts of indignation in Western feminist circles, and beyond.

However, more and more contemporary Qur'ân translators arrive at a significantly different reading of these verses. Al-Baqarah: 228 is identified as a specific rule within the law of divorce without any bearing on questions of intra- family status. And ar-rijâl qawwâmûna 'ala-n-nisâ' (4:34) is today understood only to say: "Men shall take full care of women" a far cry from earlier interpretations.[15] Men are no longer seen standing above women protectively in front of them, in consideration of men's normally greater physical and financial potential.

This ijtihâd, while quite relevant for the human rights discussion,, is not a revisionist effort to adapt the Qur'ân to modern ideology. Rather,

13. Muhammad Asad, The Message of the Qur'ân, Gibraltar 1980, commentary to 2:282; Fathi Osman, ibid. p.50; Jeffrey Land, Struggling to Surrender, Beltsville, MD 1995, pp. 165-167.
14. Qur'ân translations into English, French, and German typical for these interpretations are, e.g., those by Marmaduke Pickthall, Muhammad Hamidûllâh, Hamza Boubakeur, Denise Masson, O. Pesle/ Tîjânî, Max Henning, Lazarus Goldschmidt, Rudi Paret, and Muhammad Rassôul.
15. For this and similar readings see the Qur'ân translations by Yûsuf 'Alî, Muhammad Asad, T.B. Irving, al- Hilâlî and Muhsin Khân, Jacques Berque, Adel Khoury, and Ahmad von Denffer.

the Qur'ânic status of dhimmî constitutes the minimum of protection to be accorded, not the maximum that may be granted.

b) It is a different question whether it is admissible under international law for an Muslim country to reserve for Muslims the office of head of state. Seen from up close, this is again a non- issue. If the majority of the population is Muslim, a non- Muslim would hardly be elected president. If, however he would, could one consider such a country Islamic?

11. As far as women's rights in Islâm are concerned, it is important not to loose from sight that international law can only demand that equal matters are treated equally. Unequal situations may of course be handled equally, as a matter of policy, not of international law.

Now, whether this is fashionable or not, Muslim men and Muslim women alike proceed from the biological fact that men and women are not identical, neither physically nor psychologically, and that in accordance with 'Âl-'Imrân: 36 where Allâh in precise way says: **A male is not like a female.**

Western human rights doctrine, on the other hand, for ideological reasons legally ignores all gender differences, and that fiction of identity definitely clashes with Islamic naturalism and realism. This conflict should not be belittled; its practical consequences may, however, be less important than most would believe.

a) Al-Nisâ': 11 seems to privilege sons over daughters in the division of an estate. But this provision of the Qur'ânic law of inheritance is not a true discrimination in view of the fact that daughters, in contrast to their brothers, are not burdened with obligations for the up-keep of the remaining family.[12] Also, it is possible for any father to increase his daughter's portion in his last will.

b). According to Al-Baqarah: 282 f. a man's testimony in court can

12. Islamic law does not make provisions for the case that a daughter would like to share her brother's responsibilities.

8 a) As far as apostasy is concerned, any conflict disappears once Muslims realize that neither Qur'ân nor Sunnah foresee any punishment in this world (fi-d-dunya) for merely deserting Islâm. The Qur'ân refers to several such cases without pronouncing a specific penalty. La ikrâha fi-d-din should not only be respected between Muslim brothers and sisters. In conection with apostasy former Muslims were persecuted only if they also committed high treason (ar-riddahh) in the sense of al-Mâ'-idah: 33, actively working against Islam or even fighting on the other side. Capital punishment for high treason, especially during war, is known worldwide.

b) It is a different question whether the legal inability of apostates to inherit from Muslims constitutes such a violation. This is not the case, however, if one treats membership in the Muslim Ummah like citizenship in a national State. It is internationally accepted that the law of inheritance may privilege citizens and discriminate aliens.

9. Slavery should pose no problem either. Of course, whether relevant or not, Qur'ânic verses dealing with slavery cannot be erased, even though it is clear that the Qur'ân motivated the gradual disappearance of slavery. Against that background, Muslim States without any qualms can subscribe to a proscription of slavery as an institution.

This is not to say that de facto slaveholders in our day and age, be it in Mauretania or in remote areas of Pakistan, are no loger bound to observe the protective provisions for slaves, in the Qur'ân.

10. The protection of religious minorities (al-dhimmi) is one of the strong points of Islamic international law.

a) However, nowadays, such *dhimmî* consider themselves discriminated as long as they are not granted full citizenship. Well, to do so should not pose a problem for those Muslim state which in every other respect organized themselves on a non- Islamic, national lines provided that the dhimmî accept the responsibilities coming with citizenship, including military draft.[11] Crucial is the realization that

11. Fathi Osmân, The Children of Âdam- An Islamic Perspective on Pluralism, Washington 1996.

a non- binding, merely political document. Legally even less relevant was a preceding Human Rights Declaration issued on 19 September 1981 by an obscure Islamic Council of Europe, never heard of again.

a) Also a number of well- known independent Muslim personalities have entered the human rights arena, among them the late Muhammad Hamîdullâh, Abu 'Alâ Mawdûdî and Prince Hassan of Jordan. During a Roundtable Conference in 'Ammân for "Enhancing the universality of Human Rights" from 10-13 December, 1994, the latter said: "What we desperately need now is a global consensus on human rights. He added: "The Universal Declaration of Human Rights lays out the core minimum standard for human life", and "I believe that my faith, Islam, was engaged in this same endeavour. For each of the 30 articles of the Declaration, there are analogues in the Qur'ân, the Hadîth, and the Sunnah of the Prophet Muhammad." The first conclusion of the conference stated that "all people are bearers of human rights."[4]

b) Thanks to these precedents it is relatively simple to describe the few differences which seem to exist between Western and Islamic human rights codices. Under scrutiny are (i) apostasy, (ii) slavery, (iii) dhimmi, (iv) women's rights, and (v) corporal punishment.

Given contemporary ijtihâd, the positions of the two sides are perhaps less apart than might be expected. For this contemporary interpretative effort I refer primarily to the œuvres of Muhammad Asad,[5] Fazlur Rahmân, Mohamed Talbi, Hasan al-Tûrabî,[6] Alija Izetbegovic,[7] Fathi Osman,[8] Hassan and Maher Hathout, Rashid Ghannoûshi,[9] Yûsuf al-Qaradâwî, and Jeffrey Lang[10].

4. Ma'ab, 'Ammân, vol6. issue 18 of June 1995, p.6.
5. Relevant is his superb Qur'ânic commentary, The Meaning of the Qur'ân, Gibraltar 1980, State and Government in Islâm, Gibraltar 1980, and This Law of Ours, Gibraltar 1987.
6. e.g. Women, Islâm, and Muslim Society, London 1991.
7. Islâm between East and West, Indianapolis 1984.
8. Shâri'ah in Contemporary Society, Los Angeles 1994; The Children of Adam, An Islamic Perspective on Pluralism, Washington, D.C. 1996.
9. He believes that Islamic civilization made a major contribution towards developing the concept of human rights. See: Ghannouchi, Encounters, Markfield, LE, UK, vol2, no2, September 1996, p. 193.
10. Struggling to Surrender, 1994, and Even Angels Ask, 1997, both Beltsville, MD, USA.

killed all of mankind, then it is possible- not directly, but indirectly- to deduct a general right to live, not as individual claim but as reflex from a divine norm. Similarly, if Allâh (t.) in al-Shûra: 38 gives order for Muslims to arrange their affairs through consultation, then- at least indirectly- one can deduct from it a general right of political participation. Again, when the first three khulafâ' were elected, after consultation, without being blood relatives of the Prophet (s.), then one may deduce that a Muslim State can be a republic and need not be a monarchy.

Thanks to this method, it is possible to demonstrate an equivalent Islamic legal basis for the protection of human rights Western style, provided one does not stumble over terminlogical hurdles. In fact, Islam can be shown to be a complete "human rights" system.

b) It is obvious that rights based on divine revelation (whose observation is answerable to Allâh Himself) are better grounded than amendable rights merely resulting from international negotiations. Clearly, all the beautifully bound Human Rights Codices, Pacts, and Covenants of the United Nations even after having been incorporated into national law, often had little or no effect on actual behavior, neither in the former Soviet Union nor always in the United States. Just ask Afro- Americans or American Indians.

At any rate, it should be out of dispute by now that mankind has never been able to discover, through mere observation and reasoning, a universally accepted and binding system of Natural Law. Worse, in recent times it has been discovered that people, while being very fond of the idea of rights, less and less accept the corresponding idea of responsibilities. This is why some world- renowned personalities like the former German chancellor Helmut Schmidt and the Swiss reform theologian Hans Küng recently drafted a United Nations Declaration on Human Responsibilities. Paper, paper, paper. If not based on revelation, all in vain.

7. All too late, but nevertheless, some Muslims got into the human rights act. On 5 August, 1990, the Organization of the Islamic Conference (O.I.C.) published its Cairo Declaration on Human Rights,

bearers of unalienable rights. Divine rights for individuals, yes; rights of individuals, no. In fact, the very concept of human rights grew out of 17^{th}/ 18^{th} century Enlightenment philosophy which enthroned man as the autonomous measure of all things- an idea unacceptable for people with transcendental links.

b) For Muslim professors of law in particular it would have amounted to blasphemy if they had dared to subdivide the shari'ah, i.e. divine norms, into legal rules of higher and of lower rank. Western jurisprudence is indeed based on such a normative hierarchy, distinguishing- in this order, from top down- international law, constitutional law, legislation, ordinances, administrative guidelines, and administrative acts.

In marked contrast, Muslim fuqaha list all norms of sharî'ah and fiqh as enjoying equal rank- from provision about *ghusl* to the interdiction of ribâ[3].

6. Yet, neither the divine nature of Qur'ânic norms, nor the consequential absence of human rights concepts, need have impeded the development of an Islamic human rights doctrine. That this did not happen, alas, opened Islam up to the suspicion that it was incompatible with the very idea of protecting individuals from abuse.

I submit that it would have been possible early on to prove that (i) Islâm for 1400 years already has helped to protect what is to be protected by the core of human rights; and that (ii) these eternally guaranteed rights are better anchored in Islam than in Western codices subject to modification.

a) The methodology that could have been followed is simple:

When, for instance, Allâh (t.) in al-Nisâ': 92 forbids murder and in al-Mâ'idah: 32 compares a one- time murderer with someone who has

3. Archetypical for this a re an- Nawawi's Minhâj- et- Tâlibîn, trans. E.C. Howard, Lahore 1977, and Bidâyat al-Mujtahid (The Distinguished Jurist's Primer), 2vol., Reading 1994, 1996. Some modern treatises, like Sharî'ah- The Islamic Law, by 'Abdur Rahmân I. Doi, London 1984, deal with human rights but not as a superior category. In 'Imrân Ahsan Khan Nyazee's excellent Theories of Islamic Law, Islamabâd 1994, the concept of human rights does not even figure in the index.

As a result of this argumentation, Third World countries succeeded in pedding a whole set of human rights of their own, including the right to education, freedom from unemployment, and subsistence.

b) The same countries also believed they could ward off Western human rights weaponry by putting into question the universality of the declared Human Rights, calling them euro-centric, ethno- centric[2] and alien to non- European cultures in Asia and Black Africa.

This view may be defensible up to a point as far as fashionable, newly discovered "rights" are concerned, like the "freedom to be afraid" (i.e. the right to feel panicky because of atomic weapons and nuclear energy), the "liberty of intoxication" (i.e. the right to destroy oneself with drugs), and the right to enter same- sex marriages- all products of a "green" ideology typical of Western leftist and environmentalist protest movements.

But nobody can rationally deny that the classical, core Human Rights are indeed universal and not culturally conditioned. All human beings, no matter where, should be protected from murder, torture, or imprisonment without fair trial; all of them should enjoy freedom of conscience and thought, freedom of religion, and be free to leave their countries. Muslims hurt their case if they let themselves get caught denying the universality of these and similar basic rights.

5. It is a much better strategy to address the human rights issue within an Islamic framework, i.e. under guidance from Qur'ân and Sunnah.

a) Following that path one will realize that the concept of human rights did not grow out of the Mosaic faith, Christianity or Islam- or any other religion. This is not only due the absence of modern legal vocabulary in ancient religious texts; to search them for human rights terminology would be an anachronism. Rather, God- believing people were unable, and still are, to conceive of God- created individuals as

2. 'Ali Mazrui sees "an arrogant Pan- Europeanism" at work, "greater in ambition than anything since the Holy Roman Empire", with "the White world closing ranks at global level": Human Rights between Rwanda and Reparation- Global Power and the Racial Experience, Encounters, Markfield, LE, UK, vol2, no1, March 1996, pp.3-22.

Nor can we spare our Western partners the following painful question: Have human rights ever before been as massively violated as during the two World Wars in Europe and Asia, with the employment of chemical and nuclear weapons? Or during the Stalinist terror and the industrial mass destruction of Jews, gypsies, homosexuals and infirm people by Nazi Germany? Or during the massacres, mass rapes, and "ethnic cleansing" recently carried out by Serbian forces in Bosnia and the Kosovo? Or between Hutus and Tutsis and Cambodia under Pol Pot? Did any of these atrocities happen in the Muslim world?

3. Western people cannot but deny the last of these questions, and yet they are apt to claim the moral high ground. At any rate, under the threat of discontinuing their development aid, Western governments continue to demand the wholesale adoption of the Western, individualistic human rights culture. In this context, these rights may be wielded like a club, as a political weapon, Parvez Manzoor was therefore right when stating that human rights talk is power talk.[1] Indeed: Human rights discourses are (also) about political, economic and cultural influence.

4. No use complaining. The Muslims cannot escape taking position.

a) Third World countries, euphemistically called developing countries, including even Muslim Petro- Dollar States, tried to form a forward line of defense by insisting on the interdependence of civil human rights and socio- economic ones. They were able to point out that free elections make little sense as long as most of the voters are illiterate and thus likely simply to confirm existing tribal structures. Even Western observers now usually admit that a functioning democracy presupposes the existence of what is called a civil society which, in turn, is preconditioned by a certain level of economic prosperity.

1. The Muslim World Review, Markfield, LE, UK, Autumn 1994, vol 15, no 1, p.9. Also Anouar Hatem, L'Islam et les Droits de l'Homme, Suisse 1974, p. 15, sees human rights used as "un arme politique".

something, demanding State intervention. These latter rights are playing a bigger role only today.

The development of Human Rights, with capital letters, went in stages, from the British Magna Charta libertatum (1215), Habeas Corpus Act (1679), and Bill of Rights (1689) via the American Declaration of Independence (1779)- still mentioning God- to the French Human Rights Declaration of 1789- which no longer mentioned Him.

All further human rights codices developed from these purely Western documents. They include the United Nations' Universal Declaration of Human Rights (1948) and their two International Covernants of 19 December 1966 on civil, political, social, economic, and cultural rights. The human rights instruments of the Council of Europe were drawn from the same sources.

Surely, this legal development did not take place thanks to Christianity but inspite of it; nor does it imply that "human rights" had been without protection in former times, inspite of Qur'ânic norms and Islmaic jurisprudence.

b) More intolerable is the supposition that Muslim countries, as proven by history, were essentially incapable of assuring human rights protection. The bitter truth is rather that simple people have always been exposed to mistreatment and despotic licence, everywhere, all through world history. In fact, they still are, not only in Muslim countries but also in China and North Korea, South America, Black Africa, Serbia- you name it!

Western people must realize that human rights violations happening here and there in the Muslim world- e.g. police brutality and torture, politically motivated rape, fraudulent elections, administrative corruption, etc.- are neither Islamically motivated nor legitimized by Islâm. On the contrary and they are, it is mostly active Muslims one finds emprisoned in some countries and they are, Muslims by name only.

HUMAN RIGHTS AND ISLÂM

Murad Wilfried Hofmann

1. Western civilization and the Muslim world- if there is such a thing- continue to confront each other, and many are their points of dispute: not only differences of a theological/ philosophical nature but also less elevated issues of public and private morality. Indeed, when Muslims meet with Western people formed by modernity or post- modernity, usually the hottest issues under discussion are not the existence or non- existence of God but rather socio- political questions. In that case, more often than not, Muslims find themselves on the defensive in three crucial respects: democracy, human rights on general, and the rights of women in particular. It is no exaggeration to state that the future of Islâm in the Occident to a large extent depends on the answers given in these three fields.

2. When addressing the human rights complex, Muslims may find out to their dismay that their Occidental parteners believe that human rights are a Western invention and only guaranteed under modern conditions as if human rights as a matter of course were protected in the Occident and as a matter of course violated in the Orient.

a) These suppositions are an understandabe reflection of the fact that specific human rights codices were first elaborated in the West-mainly in England- in order to improve the protection of citizens against abuse by the State. Thus the earliest formal human rights were conceived defensively as freedoms from something, limiting State intervention. At that time, in the 17^{th}/ 18^{th} centuries, noboody as yet thought of human rights in offensive terms, as freedoms to obtain

between isolation and subordination.

Dear Brothers and Sisters:

Thus it is evident that true knowledge of Islâm demonstrates that it supports all beneficent efforts endeavoring for the betterment of this world, the world for us all. From the lessons of history, we have learnt that wars can never solve the problems of this world, in fact wars increase our problems. So, the only feasible means for peace is based upon dialogue, justice, and due respect for the rights of others, in case of rightful intentions for complete riddance of all bad causes for evil plottings.

And here, we are sure that common features that provide a meeting-place for all cultures and religions count formore than the differences between them. So what is needed in this age, as well as for all ages, is a diligent search for these common features, and presenting them with all clarity for our, as well as, coming generations. In this way all nations and races all over the world would begin to consolidate work for true find peacetful cultures.

Thus, your Conference, dear brothers and sisters, assumes the special obligation of attempting to rectify the distroted image of Islâm inside and outside of the Muslim world. This would help towards achieving a close acquaintance, a better understanding, and a more fruitful co-operation among all mankind, irrespective of their religions cultures and stages of development. The only objective here would be the endeavor for peace, justice, and fraternity in the modern world.

Finaly, I do hope all success for your convention, and for felicitious stay for all our honorable guests in Cairo.

And peace, mercy, and blessings for you all!

among people, interaction and co-operation among different cultures, with the purpose of enriching human living all through the ages.

Third: Getting acquainted with each other does, peoples of different cultures and religions contributes to the fighting of ignorance of others, and the elimination of preconceived ideas about alien cultures. This is because every nation has its religious and historical heritage builton different system of inherited values and traditions, incorporating its national identity, while such a system does not necssarily go counter other identities. Such a plurality of identities should contribute to dialogues, not confrontations.

Fourth: As Islâm affirms the need for dialogue, it negates the call for confrontation between cultures, since cultures should not go into confronations, as cultures should co-exist in fruitful co-operation, and should seek for complement, for they are all the product and contribuation of the historical events resulting from the collective endeavors of all nations. This concept of cultural relations stems from our religious beliefs, for beliefs of other relgions are a prerequisite for the true understanding of Islâm. Here 'Allâh (Exalted be He) tells us in His Glorious Book (the Qur'ân):

"The Messenger has believed in what has been sent down to him from his Lord, and the believers; every one of them has believed in 'Allâh, and His Angels, and His Books, and His Messengers: we make no distinction as regards any of His Messengers. And they have said: We have heard, and we have abeyed. Grant us Your bounteous forgiveness, our Lord; and to You is the Destiny." "'Al-Baqarah, The Cow, 285."

Thus, the Muslims' belief in the universality of Islâm does not mean that Muslim culture has a unique and dominant supremacy over all other cultures either before or after it; but, at the same time, this does not mean that any other culture has any superiority over Islâm. This simply means that cultural multiplicity and variety is the natural institution in the world, and that interaction between cultures is the valid status

deep feelings of despair and frustration emanating from political, economic and social considerations that have no bearing whatsoever on Islâm.

Thus your Conference today is a link in the sustained efforts endeavoring to present clearly and honestly the truly tolerant picture of Islâm. For Islâm is a religion calling for peace, love, positive co-existence, and fruitful co-operation among all people irrespective of differences in race, stock or culture. Such co-operation and love can exist within the framework of the realities that have dominated the relations of Muslims and other nations, irrespective of differences of creeds and religions. Some of these realities are:

First: All religions- including Islâm, are basically a call for love, peace, and goodness. So it can never that any of these religions can be a source of evil, or that religious belief should be used as a justification for violence or terrorism. Understandingly, lines of demarcation should always be drawn between the right defend legal rights for resisting the usurpation of one's land. Such a forceful usurpation runs against all lawful creeds, with due respect for all religions.

Second: As Islâm confirms religious and cultural plurality among all the people of the world, such plurality is taken as a driving force for acquaintance and intimacy among humans; so Islâm is never a means for confrontation or conflict, or hatred. This is clearly put forth in the following verse of the Qur'ân.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات ١٣)

"O you mankind, surely We created you of a male and a female, and We have made you races and tribes that you may get mutually acquainted. Surely the most honorable among you in the providence of 'Allâh are the most pious; surely 'Allâh is Ever- knowing, Ever-Cognizant." "Al-Hujurât, the Apartments, 13."

This clearly indicates that plurality is the natural way for harmony

The Speech of

President Muhammad Husnî Mubârak

President of the Arab Republic of Egypt

Honorable Brothers,

May Peace, Mercy, and the Blessings of 'Allâh be upon you all.

I would like, first of all, to welcome our honorable guests to Egypt, which appreciates your coming to participate in the Annual Conference of the Supreme Council for Islamic Affairs. This Conference is held this year under critical circunstances, both regional and international resulting from the catastrophic events of September 11, 2001, against the United States. Such events have left an evident negative impression about Islâm in the world, due to the fact that their perpetrators are Muslims. Such accusations against Islâm clearly ignore the condemnation in the Muslim world of such atrocions acts, since they run clearly contrary to the tolerant teachings of Islâm.

For, in spite of the fact that Islâm has been unceasingly delivering its Message for mercy to all mankind for the last 14 centuries, some mass media have concentrated upon those acts committed lately by some individual Muslims. These media have tried to link, in one way or the other, terrorism to Islâm.

Such accusations ignore the real causes of such acts, resulting from

---

This speech was delivered, on behalf of the President, by Dr. 'Âtif Muhammad 'Ubayd, Prime Minister of Egypt.

characteristic image of our religion; for, many of us, who have taken upon themselves the honorable duty of presenting true Islâm to others, are unaware that they distant it by dealing with minor issues, which are far from the basic concepts and traditions.

Such dangerous distortions has made it necessary, on our part, to focus on basic reality of Islâm in this Annual Conference of the Supreme Council of Islamic Affairs. To present the supreme values of our religion in a vastly changing world some of our eminent Muslim scholars, from Egypt and our Muslim countries, are generously participating in this Conference. The Supreme Council is decidedly keen on publishing the articles and discussions of this Conference through all possible media.

Finally, it gives us great pleasure to offer to our readers in Egypt and throughout the Arab and Muslim countries the volume that comprises the articles and discussions of this Conference held under the gracious auspicious of our dear President Muhammad Husnî Mubarak, President of the Arab Republic of Egypt, bearing the title.

"The Reality of Islâm in a changeable World."

"And favor from 'Allâh is over and above our deeds."

24 th Muharram 1424 AH
27 th March 2003 AD

actually Islâm is in no need for us to defend it.

But the trumpets of evil are raging, the darkness of falsehood is brute and the voice of hatred and malice is so loud that the light of truth has been impeded from reaching people of reason and understanding. That is why so many misconceptions and falsehoods about Islâm have been propagated abroad, and have taken firm hold of many Westerners, in an unprecedented manner. It is probable that such ideas have been intensified by what the modern has developed in the way of immense developments and revolutions in the means of communication, satellites, internet and other mass media.

So, our religion of mercy has been associated, in the minds of vast areas of Western common people, with terrorism, extremism, fanaticism, and other forms of prejudice towards aliens and hostility to development and culture.

Such an attitude can never be ignored, for "those ignoring the truth are silent devils"; and in no way should we as Muslims stand helpless, and do nothing in face of such atrocious attacks. Indeed, although we have said that Islâm is no need for defence, it is in great need for us to acquaint the West with the outstanding image of its culture and humanitarian aspects. So we have to present to the whole world, in all languages, the lucid teachings of Islâm; and thustry to provide all races the truth of our religion from its authentic sources. This would help towards rebutting all queer interpretations about Islâm offered by some ignorant Muslim groups. Such ignorant groups all found in all different cultures and religions, but are keept away from being attributed to such religions, as they are insistenthy falsely alleged to Islâm.

Our attitude towards Islâm is unfortunately similar to that of a merchant who owns good commodities and another with inferior ones. Such a comparison, which is far-fetched, speaks of the owner of the lower commodities as more proficient in advertising than the other one to the extent that his commodities achieve much greater success.

Thus, we as Muslims have fallen shorst of presenting a truly

In the Name of 'Allâh, the All-Merciful, The Ever-Merciful

Introductory Speech

by

Prof. Dr. Mahmûd Hamdî Zaqzûq

Minister of 'Awqâf (Endowments)

Islâm has never been exposed all through its history to such a voracious campaign as the one of today, specially through the huge media controlled by prejudiced minds, and suspicious quasters that are intentionally disparaging the image of Muslims and Islâm. They seem determined to implant hatred for all that is Arab and Muslim.

Those disparagers take the occasion of September 11, 2001, a pretext to spread their venomous attacks against Muslims and Islâm. However, we have not come here to defend Islâm, for, from the very outset, Islâm has been declared as a mercy to all mankind.That is how the Glorious Qur'ân expresses through Divine Revelation to Muhammad that 'Allâh (Exalted be He) "And in no way have We sent you (Muhammad) except as a mercy to the worlds." "Al- 'Anbiyâ' = The Prophets, 107."

Again, Islâm has come to establish the eminent values of truth and justice, and to implant the pillars of morality; and this has been emphasized by Muhammad, the Prophet of mercy, when he said, "Surely I have been sent forth only to perfect righteous morals."(1) So,

(1) This Hadith is reported by 'Al- Bukhâri in "Unique Morals".

The Arab Republic of Egypt
Ministry of Al-Awqâf
The Supreme Council for Islamic Affairs

The Truth about Islam in a Changing World

Researches and Proceedings

The Fourteenth General Conference of The Supreme Council for Islamic Affairs

Held in Cairo
8-11, Rabî' Al-Awwal. 1423 H.
20-23 May- 3 June 2002

Under The Auspices of His Excellency

President

MUHAMMAD HUSNÎ MUBÂRAK

President of The Arab Republic of Egypt

Supervised and Introduced
by
Prof. Dr. **Mahmûd Hamdî Zaqzûq**
Minister of Al-Awqâf

Cairo
2003A.C.- 1424H.

The Arab Republic of Egypt
Ministry of Al-Awqâf
The Supreme Council for Islamic Affairs

The Truth about Islam in a Changing World

Researches and Proceedings

The Fourteenth General Conference of The Supreme Council for Islamic Affairs

Held in Cairo
8-11, Rabî' Al-Awwal. 1423 H.
20-23 May- 3 June 2002

Under The Auspices of His Excellency

President

MUHAMMAD HUSNÎ MUBÂRAK

President of The Arab Republic of Egypt

Supervised and Introduced
by
Prof. Dr. **Mahmûd Hamdî Zaqzûq**
Minister of Al-Awqâf

Cairo
2003A.C.- 1424H.